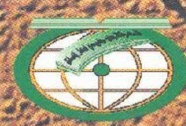
جاك تيري

تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى

ترجمة : جاد اللّه عزوز الطلحي



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL-JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING

تاريخ الصحراء الليبية
في العصور الوسطى

جـاك تيـري

تاريـخ الصحراء الليـبيـة في العصـور الـوسـطى

ترجمة، جاد الله عزوز الطلحي

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

جاك تيري

تاريخ
الصحراء الليبية
في العصور الوسطى

ترجمة
جاد الله عزوز الطلحي

□ تمت طباعة النسخة العربية بموافقة خطية من الناشر:

PEETERS
BUBLISHERS AND BOOKSELLERS. BELGIUM

ـ الطبعة الأولى: أي النار 1372 و.ر (2004)

ـ كمية الطبع: 1000 نسخة

ـ رقم الإيداع المحلي : 5721 / 2003 دار الكتب الوطنية بنغازي

ـ رقم الإيداع الدولي: ردمك 5 - 0172 - 0 - ISBN 9959

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021
ص.ب. 1459 ـ بريــد مصور 619410 ـ 051
E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى روحي والديَّ رحمهما الله

- عزوز بالقاسم الطلحي. . . الذي دخل معتقل المقرون بعد خروجه من سجون إيطاليا حيث شهد إعدام أخويه وعمه.
- نفيله موسى معزب. . . التي دخلت معتقل المقرون ابنة شهيد وأرملة شهيد.

أهدي هذا الجهد المتواضع

جاد الله.

إهـداء المـؤلف

إلى روح حبيبتي الغالية زوجتي:

زهـرة الغـريـاني

تونس 1942 ـ بروكسل (بلجيكا) 2003 م

التي كانت لي خير عون وسند طوال ثلاثين سنة

جاك تيري.

مقدمة المترجم

لست مترجماً ولست مؤرخاً. لكن الظروف التي عاشها جيلي في طفولته وصباه، جعلتني أهتم ـ اهتماماً مباشراً ـ بتاريخ بلادي. لعل أبرز مظاهر هذا الاهتمام، الإقبال بشغف على القراءة لكل عمل يتناول هذا التاريخ خاصة ما تعلق بالقرون الوسطى وما بعدها، أي منذ الفتح الإسلامي.

لازمني هذا الاهتمام منذ طفولتي، منذ عرفت القراءة. ذهب جيلي، جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلى المدارس ـ وكانت قليلة ـ أثناء احتدام المعركة السياسية من أجل الاستقلال والوحدة، وكان الوسط الثقافي بالنسبة لنا ـ أطفال المدارس في القرى ـ تكاد تحتله بالكامل عوامل التكوين الآتية:

- أحداث المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي، بمختلف أوجهها، البطولات بما فيها من صور الشجاعة النادرة، والخيانات وأعمال العمالة الدنيئة، والهجرات بما صاحبها من معاناة، ومعسكرات الاعتقال وما شهدته من محاولات إبادة متعمدة، وقد كونت أحداث الحرب العالمية الثانية التي عاشتها ليبيا، أو وصلت إلى محدثينا جزءاً من هذه الملحمة.

- الحروب القبلية بما أضاف إليها خيال كل قبيلة وشعراؤها الشعبيون من «بطولات» وهمية «ومآثر» خيالية.

ـ السيرة الهلالية، وما في حكمها من السير، . . .بوزيد البطولة والتجرد، والسلطان حسن الحكمة، وذياب . . . الشجاعة والجرأة، والزناتي خليفة النبل. . . ويونس الجمال. . . .

ـ المعركة السياسية، التي كانت محتدمة في ذلك الوقت ـ كما أسلفت ـ وتطلبت ظهور الكثير من الصحف التي لم تشهد ليبيا مثلها عدداً وتنوعاً. صحيح أن ما كان يصلنا من تلك الصحف في البادية والقرى قليل. . . ولكنه كان يقرأ بنهم بغض النظر عن تاريخ صدوره وعن التيار السياسي الذي كان يمثله.

كان جيلنا ـ عندما كان في طفولته وصباه ـ يعي البعد الزمني لملحمة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي، لأن محدثينا كانوا من أبطالها وشهودها. كان نجعنا ـ على سبيل المثال ـ بقية من بقايا معسكر اعتقال المقرون، شهد أغلب من فيه إعدام عمر المختار وكان فيه عائدون من المهجر، وأرامل شهداء، ومجاهدون، ومن كانوا يعانون من جراح معارك الجهاد، ومسرحون من الفيلق الليبي الذي شارك إلى جانب الحلفاء في معارك الصحراء الليبية والساحل الليبي. ولكن جيلنا لم يكن يعرف، في تلك الفترة، من تاريخ ليبيا الأبعد زمنياً من المقاومة إلا الحروب القبلية والأحداث الهلالية التي كانت تحتل في أذهاننا الصغيرة ماضي ليبيا كله. تاريخ ليبيا كله.

كان ما وصلنا ـ في تلك الفترة ـ يؤكد الصورة التي عبر عنها بعد ذلك الدكتور علي عبد اللطيف حميده في كتابه الرائع «المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا»: «صورة المجتمع قبل المرحلة الاستعمارية بالنسبة إليهم هي لمجتمع تقليدي يتكون من قبائل متمردة ودول محكومة بدول متسلطة يرأسها ملوك يعاملون الناس كرعايا، وكانت القبائل والمدن في حالة صراع مستمر قبيل مجيء الإدارات الاستعمارية».

تكرست هذه الصورة عندما ذهبنا إلى المدارس. وجدنا أمامنا كتب

التاريخ المقررة تتحدث عن تاريخ الفراعنة، والتاريخ الإسلامي دون ذكر لليبيا، وتاريخ أوروبا في القرون الوسطى وعصر النهضة.

هكذا نشأنا تحت تأثير الذاكرة الشعبية فيما يتعلق بتاريخ وطننا. والذاكرة الشعبية غير عميقة زمنياً فيما يتعلق بالحقائق المؤكدة، والتفاصيل، والأطر العامة للأحداث. لا تكاد تتجاوز بعض أجيال إلى الوراء.

لقد عبر جيلي ـ على الأقل في الجزء الشرقي لليبيا ـ مراحل التعليم الأساسي والمتوسط دون ذكر ـ ولو عارض ـ لتاريخ ليبيا.

تزامن ذلك مع المعركة السياسية من أجل الوحدة والاستقلال، وتأجج الروح الوطنية التي صاحبت إرهاصات الاستقلال وبداياته. وقد ولَّد هذا التضافر عندنا عطشاً لم يرو ـ ولن يروى ـ لمعرفة تاريخ ليبيا، تاريخ الوطن. يبدو أننا كنا ندرك في أعماقنا أن التسليم بأننا شعب بدون تاريخ يعني أن كل أحلامنا؛ الوحدة الوطنية، والاستقلال وبناء الدولة الحديثة، والدور الذي نتصوره لهذه الدولة هي أحلام غير مشروعة.

فليعذرني المتخصصون؛ مترجمون ومؤرخون. فجسارتي على مجالاتهم تأتي استجابة لحالة نفسية، إذا لم يقبلوا أنها مسؤولية وطنية، كما أعتقد.

أعود إلى الموضوع

قرأت هذا الكتاب وأعدت قراءته. أكبرت في مؤلفه الجهد المبذول، وقدرت له محاولة كتابة تاريخ الصحراء الليبية لهذه الفترة التي تكاد تكون مجهولة. فالصحراء الليبية ـ كما يقول المؤلف ـ «كونت خلال عصور طويلة أرض التقاء وعبور فريدة لا نظير لها في الأقاليم الواقعة بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر. بالرغم من هذه الحقيقة كان تاريخ ليبيا مهملاً تقليدياً».

يعزو المؤلف «عدم إعطاء اهتمام كاف لدراسة الصحراء الليبية خلال العصور الوسطى» إلى ثلاثة أسباب بشكل أساسي:

1 ـ ندرة «المصادر الجغرافية والتاريخية التي تناولت الصحراء الليبية خلال هذه الفترة». فقد تناولها المؤلفون باختصار شديد.

2 ـ كانت فترة الاستعمار الأوروبي المباشر لليبيا قصيرة نسبياً «وهو ما لم يحفز العلماء على تناول القضايا التاريخية، واستغرق اهتمامهم وصف الأقاليم الواسعة التي تديرها بلدانهم».

3 ـ «أن الصحراء الليبية لا تمثل وحدة متماسكة، وتبدو دراستها غير منتظمة بسبب التناول الجزئي الذي فرضته طبيعتها».

إن ما ورد عن ليبيا من قبل المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب من القرون الوسطى على قلته تعوزه الدقة وفي بعض الأحيان الموضوعية، خاصة ما كتبه بعض الرحالة والجغرافيين. فبعضهم خضع لأهوائه وميوله السياسية أو لتعصبه المذهبي أو العرقي، وكتب آخرون لخدمة أغراض معينة مثل الإدريسي الذي كان همه إرضاء روجر الثاني ملك صقلية، وآخرون مثل العبدري الذي ما مر بأقوام أو بلاد إلا نال منهم ومنها بتعميمه الغريب والشاذ المستهجن فيهم وجعله السلوك الغالب والقاعدة المستقرة عندهم، وكال لهم الذم والقدح. ولعل ما ورد للمترجم في الملاحظة المكتوبة الآتية من الأخ سعيد حامد الذي تفضل مشكوراً بمراجعة جزء من هذه الترجمة ما يوضح أكثر هذا الجانب:

(يعاني الباحثون في كتابة تاريخ المغرب العربي من صعوبات عند تناولهم للفترة التاريخية المبكرة للفتح العربي. ويذكر د. السيد عبد العزيز سالم في كتابه **«المغرب العربي»** أن «معظم ما ورد في المصادر العربية من أخبار على قلتها تعوزها الدقة وينقصها الترابط، ويكتنفها الغموض بسبب ما يحيط بها من روايات خرافية ذات طابع أسطوري، منقولة من مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيراً عن حوادث الفتح».

ويورد د. السيد عدة عوامل يرى أنها كانت السبب في الارتباك والغموض في أخبار الفتح العربي ومنها:

ـ أن الأخبار كانت تنقل شفاهة قبل أن يتم تدوينها مما يجعلها عرضة للتحوير والتبديل أثناء تناقلها بين الرواة.

ـ أن معظم هذه الأخبار تشوبه شوائب التحيز الظاهر.

ـ ما يخضع للميول السياسية والأهواء الحزبية.

ـ إطلاق العرب العنان لملكاتهم الحسية والخيالية الخصبة في تصويرهم للحوادث التاريخية.

يمكن القول: إن تاريخ سكان المغرب القديم بأسره (البربر) كتبه المؤرخون العرب الذين أرخوا للفتح العربي بعد فترة ليست بالقصيرة، أو بعض الرحالة العرب بعد فترة أطول وقد اعتمد كل هؤلاء على السماع أكثر من المشاهدة والمجالسة. فالرحالة عادة ما يكونون على جناح طائر ويقومون بتدوين الأخبار التي تبدو غريبة وتجنح للخيال، إضافة إلى أن معظم كتاباتهم امتازت بالتحيز لأسباب طائفية وعصبية، واتسمت كتاباتهم بالتعميم حتى لو كان ما شاهدوه حوادث فردية شاذة).

إن ما سبق يمكن أن يعمم، فيما يتعلق بليبيا، على الفترة موضوع هذا الكتاب. ولعل أهم ما يمتاز به هذا الكتاب، أن صاحبه بذل جهداً كبيراً ـ يستحق الإشادة والتقدير ـ عن طريق التحليل والمقارنة والتدقيق، رافضاً الأحكام المسبقة، حتى الراسخ منها ليرجح ما تظهر البيانات والاتساق والمنطق رجاحته. هكذا يرفض القول الشائع بأن بنى هلال وسليم هم المسؤولون عما لحق بشمال إفريقيا من دمار، ويقدم حججاً مقنعة.

قلت: إنني قدرت للمؤلف جهده، واحترمت منهجيته. هذا لا يعني أنني أحببت كل ما أورده أو قبلت به، ولكن هذا لم ينل من حرصي على أن أنقل بأمانة ودقة إلى القارىء ما جاء في الكتاب، تاركاً للمختصين ما جاء به، ولعل تركيز المؤلف على إبراز الغنائم دافعاً أساسياً لفتح شمال إفريقيا يستحق التوقف والمناقشة والرد.

إن الكتاب ـ كما هو واضح من عنوانه ـ يتحدث عن تاريخ ليبيا في القرون

الوسطى، أي عن فترة العشرة قرون الممتدة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية (القرن الخامس). والجزء الأخير من القرن الخامس عشر (سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية). وهي فترة قديمة نسبياً، واعتمد المؤلف أساساً على المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب. وقد أوضحت ما شاب كتابات الكثيرين منهم. أعرف أن الروح البدوية الكامنة في كل واحد منا معشر الليبيين يستفزها التعريض بالمناطق التي ننتمي إليها أو الأقوام الذين ننتسب إليهم حتى لو كان ذلك يتعلق بأزمان بالغة القدم، وبأحكام قد لا تمثل الحقيقة الموضوعية بقدر ما تمثل دوافع شخصية لدى كاتبها ومعايير ظروفها وأزمانها.

أكرر أن فترة الأحداث التي تناولها الكتاب تبعد عنا بدايتها الزمنية بأكثرمن خمسة عشرة قرناً ويفصلنا عن نهايتها أكثر من ستمائة سنة. ومن ثم فلا صلة مباشرة لها بحقائق اليوم.

لقد اجتهدت على أن أكون دقيقاً وأميناً في تعريب ما أراد المؤلف قوله مع الحرص على الوضوح. هذا لا يعني أنني وفقت دوماً، يكفيني أنني لم أبخل ببذل جهد صادق وإعطاء الوقت المستحق، ولم أتردد في العودة إلى المختصين عندما تطلب الأمر ذلك.

تبقى بعض التوضيحات المهمة بخصوص مدلول بعض الكلمات لعل أبرزها:

- أفريقية (بالتاء المربوطة) تعني أينما وردت في هذا الكتاب المنطقة الممتدة من قسطنطينة في شرق الجزائر الحالية حتى طرابلس (وتمتد حتى لبدة عند البعض).
- أفريقيا (بالألف الممدودة) تعني قارة أفريقيا.

طرابلس الغرب، هي المنطقة الواقعة بين الخليجين، خليج سرت وخليج قابس. وعندما استولى الأتراك على الشمال الأفريقي في القرن السادس عشر أصبحت طرابلس الغرب تعني كل الأراضي بين حدود مصر الغربية وحدود تونس والجزائر الشرقية.

- برقة، مدينة حلت محلها مدينة المرج ابتداء من القرن الرابع عشر.
- إقليم برقة يعني برقة بالمفهوم الذي استقر منذ القرن الرابع عشر.
- أفارقة نسبة إلى أفريقيا.
- أفريقيون نسبة إلى أفريقية بالمعنى المتقدم.

جدير بالملاحظة، كذلك، أنني لم أراع زمن الفعل الذي استعمله المؤلف، فهو في كثير من الأحيان يعبر بالمضارع أو المستقبل واضعاً نفسه في زمن حدوث ما يتناوله. لم آخذ بهذا الأسلوب وإنما استعملت الماضي في الغالب الأعم. وفيما يتعلق باقتباسات المؤلف المباشرة من المصادر العربية التي وضعها بين قوسين حاولت ـ ما استطعت ـ أن أورد النصوص كما وردت عند المؤلفين العرب، أما في حالات الاستشهاد من مصادر عربية مترجمة، فقد ترجمت.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة المختصرة أرى أن من الأمانة والواجب الاعتراف بأن هذا العمل ما كان ليصل إلى نهايته لولا دعم ومساعدة كثيرين. إليهم يعود الفضل في تمكيني من تأديته، وأنا لهم مدين بالشكر والعرفان: الأستاذ محمد الشويهدي (الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان)، والدكتور علي الشيباني (المكتب الوطني الاستشاري)، والدكتور محمد الزيادي (جمعية الدعوة الإسلامية)، والأستاذ مراجع عبد القادر بالقاسم (جامعة قاريونس)، والأخ حامد الحضيري (أمين المكتب الشعبي) في بروكسل، والأخ كامل جرناز (المؤسسة الوطنية للنفط) والأخ سعيد حامد (أستاذ تاريخ).

كما أنني مدين بشكر خاص للأختين آمنة محمد الفزاني، وأمال إبراهيم البنا على ما بذلتاه من جهد، ولصبرهما على ما تطلبته أعمال الطباعة، وإعادة الطباعة والتصحيح والتنسيق التي استمرت ما يقرب من السنة. غير من ذكرت، كثيرون يستحقون تقديري وشكري.

والله من وراء القصد.

جاد الله عزوز الطلحي

طرابلس ـ صيف 2003ف

مقدمة

يكفي إلقاء نظرة على خريطة أفريقيا الشمالية، عند التفكير في الاتصالات العابرة للصحراء، لإدراك الأهمية المتميزة التي احتلتها الواحات الليبية في تاريخ التجارة عبر الصحراء. فبسبب التوغل العميق لخليج سرت من الناحية الشمالية، ووجود حوض بحيرة تشاد في الجنوب يقل طول الطريق الواصل بين البحر المتوسط وبلاد السود المار بفزان عن طول أي من الطرق الأخرى بألف كيلو متر، وهو ما يزيد عن رحلة شهر بالقوافل. وقد جعل وجود التجمعات المحيطة بزويلة ـ قلب الصحراء الليبية في العصور الوسطى ـ بالإضافة إلى الجفرة، ونقاط المياه والقرى في كوار هذا الطريق أسهل من الطرق العابرة لمناطق الكثبان الرملية الواسعة في الهضاب الموريتانية، والجزائرية، والمصرية. لقد كونت الصحراء الليبية خلال عصور طويلة أرض التقاء وعبور فريدة لا نظير لها في الأقاليم الواقعة بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر. بالرغم من هذه الحقيقة كان تاريخ ليبيا مهملاً تقليدياً. هناك لحسن الحظ استثناءات منها: «Les Annales Tripolitaines» لشارل فيرو «Charles Feraud» و«Storia di Tripoli e della Tripolitania» لاتوري روسي «Ettore Rossi» الذي ركز في دراسته على شمال غرب ليبيا، ومقالات عديدة لتادوز

لويكي «Tadeusz Lewicki» حول التجمعات الأباضية خاصة. إن العلماء الأوروبيين لم يهملوا الاهتمام بالأقاليم الصحراوية، ويبرهن على ذلك بوضوح أعمال الفرنسيين حول الصحراء الغربية والوسطى التي أصبحت تقليداً منذ مدة طويلة.

هناك ثلاثة أسباب أساسية وراء عدم إعطاء اهتمام كاف لدراسة الصحراء الليبية خلال العصور الوسطى. فالمصادر الجغرافية والتاريخية التي تناولت الصحراء الليبية خلال هذه الفترة نادرة وحتى عندما تناولها المؤلفون العرب فقد تناولوها باختصار، وهو ما يضطر الباحث إلى التخمين أحياناً ولهذا مخاطره. يضاف إلى ما تقدم أن الاحتلال الإيطالي لفزان والحضور الفرنسي فيه كانا لمدة قصيرة وهو ما لم يحفز العلماء على تناول القضايا التاريخية، واستغرق اهتمامهم وصف الأقاليم الواسعة التي تديرها بلدانهم، وكان من نتاج ذلك ـ لحسن الحظ ـ دراسات الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية حول الجغرافيا البشرية التي قام بها أميليو سكارن «Emilio Scarin»، وجان ديبوا «Jean Despois»، وجان لثلو «Jean Lethielleu». كما أن الصحراء الليبية لا تمثل وحدة متماسكة، حيث تبدو دراستها غير منتظمة بسبب التناول الجزئي الذي فرضته طبيعتها، إذ إن هذه الصحراء تتكون من هضاب عديدة ومساحات تغطيها مرتفعات رملية، وواحات مرتبطة بمسالك لا يمكن تفاديها للانتقال من واحة إلى أخرى. فغدامس تقع بين العرق الشرقي العظيم والحمادة الحمراء التي تمثل هضبة صخرية قاحلة، صحراء بدون رمال. وأبعد إلى الجنوب في أطراف تاسيلي تقع غات معزولة عن فزان بهضاب مساك ملت ومساك ستافت ودهان أوباري ودهان مرزق. وفي الوسط على بعد مائتي كيلو متر من ساحل البحر المتوسط يفصل جبل السودا منخفض الجفرة بواحاته الثلاث؛ ودان وهون وسوكنة عن فزان، كما يفصل جبل ودان هذا المنخفض عن أوجلة. وتفصل هضبة جبل الهروج الأسود، وكثبان رمال ربيانة وسط فزان بمدنه المتعاقبة؛ جرمة، وزويلة، وتراغن، ومرزق عن جنوب برقة، وتكون رمال ربيانة وسرير تبيستي عازلاً لوادي فزان

الجنوبي، وادي الحكمة، عن الكفرة التي تعيش في وسط من العدم في نهاية ممر يمثل الطريق الأكثر خطورة في الصحراء، وهو يبدأ من أوجلة محصوراً على طول امتداده بين السرير في الغرب، وبحر الرمال العظيم في الشرق.

لقد حرك الموقع المتميز للصحراء الليبية باعتبارها ملتقى لطرق التجارة والحج العابرة للصحراء، ومحل التقاء مجموعات بشرية مختلفة ـ عرب، وبربر بشكل عام، وطوارق، وتبو ـ الكثير من الأطماع، فمنذ بدايات الفتح الإسلامي عرفت المنطقة تاريخاً مضطرباً أدى إلى ثرائها وازدهارها ثم إلى تدهورها وانحطاطها الذي استمر حتى النصف الثاني من القرن العشرين حيث جرت محاولات لوقف استمراره. إن الظروف الطبيعية في المنطقة ملائمة إجمالاً ـ ففي الكفرة ووسط فزان توجد المياه على أعماق تتراوح بين متر واحد وخمسة أمتار من سطح الأرض ـ ومن ثم فمن المناسب دراسة العنصر البشري الذي كان وراء ثرائها ثم تدهورها وانحطاطها. سنترك لعلماء الآثار والمتخصصين دراسة التاريخ القديم للصحراء الليبية، وسنحاول ترتيب وقائع الفترة الإسلامية من منظور أوسع؛ منظور تاريخ شمال أفريقيا. وبسبب عدم وجود مصادر مكتوبة، والتناقض الغالب الذي تتسم به الروايات العربية الفزانية البورنية فإننا لن نستطيع إلا أن نجمل الأحداث اللاحقة للقرن الرابع عشر.

نعرف اللامبالاة التي عالج بها المؤلفون العرب، ومنهم ابن الحكم والبلاذري ـ وهما أول من يعنينا هنا ـ تسلسل الأحداث، وسنحاول إدخال بعض التنظيم والترتيب في وقائع الفتح الإسلامي منبهين إلى أن هذه المحاولة لا تمثل إلا مقترحات حذرة. ونؤكد ـ في هذا المقام ـ المهنية المتميزة للمؤرخ المغربي عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم واضع كتاب مختصر عن الفتح الإسلامي تناول فيه الحملات التي وقعت منذ خلافة عثمان بن عفان حتى بداية فتح الأندلس، وقد كتبه بأسلوب واضح ومنظم واقتصر فيه على تناول الوقائع الكبيرة. وكان والد هذا المؤلف هو الراوية لابن عذاري الذي لا يخلو كتابه «البيان» من بعض الأساطير.

يقود فحص العوامل التي أدت إلى إطالة الفتح وصعوبته، مأخوذاً في الاعتبار مدى الثقة التي يمكن وضعها في الرواة، إلى دراسة الاتفاقية المبرمة في برقة مع قبائل لواتة التي كانت أول مجموعة من البربر التقاها العرب، ودراسة شخصيات القادة المسلمين، والوضع في الصحراء الليبية تحت مختلف الحكام الذين تعاقبوا، وذلك في حدود ما نستطيع استخلاصه من تطور الأحداث على الساحل.

كانت فزان أول الأقاليم الصحراوية التي وصلها الفاتحون المسلمون. فبعد حملات بسر بن أبي أرطأه على ودان، وعقبة بن نافع على زويلة، استطاع هذا الأخير الوصول إلى مشارف حدود السودان. وبالرغم من إدراكنا للرفض الذي عبر عنه روبرت برنشفيق «Robert Brunschvig» لفكرة تحول فزان المبكر إلى الإسلام، فإننا سنتناول بالتحليل نص ابن الحكم وهو الوحيد الذي أورد تفصيلات حول هذه الغزوة، وسنفحص الظروف المادية التي أمكن فيها القيام بها، والطرق المسلوكة، والسكان الذين صودفوا، وماذا كانت نتائج ما تقدم على الإسلام في الشمال الأفريقي والصحراوي.

لقد تأثرت فزان وغدامس في وقت مبكر جداً بحركة الخوارج، وسنحاول تحديد الأسباب وراء النجاح الذي أحرزته هذه البدعة[1] في شمال أفريقيا، والدور الذي لعبه البربر الأباضيون في توسيع رقعة الإسلام في الصحراء والسودان عندما أصبحوا سادة التجارة الصحراوية. في هذا المجال، تؤكد المعلومات التي قدمها المؤلفون الأباضيون، والتي تمت دراستها من قبل تادوز لويكي «Tadeusz Lewicki»، الأخبار المتسقة التي أوردها المؤرخون والجغرافيون العرب من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر. سنرى أن كل المصادر تتفق حول استمرار النشاط الأباضي في فزان بكثافة بالرغم من الصراع والتنافس بين المجموعات الأباضية المختلفة وبالرغم من القمع السني طوال

(1) هذا هو التعبير الذي استعمله المؤلف (المترجم).

القرن الثامن. ولن يخلو من فائدة، في هذا المقام، الانتباه إلى أن المؤلفين السنيين لاحظوا استمرار طقوس وبدع سابقة للإسلام عند السكان البربر بشكل عام والأباضيين بشكل خاص، وسنقف على تنوع تقويم هؤلاء المؤلفين وأحكامهم التي تغطي موضوعية اليعقوبي وهي تستحق الإبراز، وتسامح البكري وأخطاءه، والمناقب والمثالب التي أوردها المؤلف المجهول لكتاب «الاستبصار»، وتحامل ـ إن لم نقل عدائية ـ ابن حوقل.

لا يمكننا أن نعبر بما يكفي عن الأهمية التي تكتسبها بالنسبة للتاريخ كتب الجغرافيا من نوع المسالك والممالك التي يحتل الصدارة فيها عن جدارة «كتاب البلدان» لليعقوبي. لقد كتب هذا الكتاب سنة 889ف للموظفين العباسيين الذين كانوا يرغبون في الحصول على بيانات عن الأوضاع في ولايات الامبراطورية، وعن السكان والزراعة والتجارة والطرق ونقاط المياه فيها. وقد أورد اليعقوبي بياناً للسكان في الصحراء الليبية في آخر القرن التاسع. إن دراسة مقارنة لأعمال الجغرافيين اللاحقين لليعقوبي ـ من بينها أعمال البكري التي تنتمي لنفس النوع، وأعمال الإدريسي وهي من الجغرافيا العامة ومعاصره الزهري وتابعيهم ابن سعيد وأبي الفدا ـ والمصنف التاريخي الشامل الضخم لابن خلدون ستمكن من تحديد طرق انتقال هذه الشعوب نحو الغرب والجنوب: إننا نفكر بشكل خاص في لواتة، وهوارة، ولمطة وهم من البربر الملثمين. كما أن اليعقوبي أول من ذكر الشعوب السودانية التي كانت على صلة بالفزانيين الأباضيين، والتجار المشارقة الذين لجأوا إلى أعماق الصحراء. كما توضح المقارنة مع الجغرافيين والرحالة اللاحقين مدى توسع التجار الليبيين نحو الغرب، ونشاطهم فيه.

سنرى أن الجغرافيين والرحالة ساعدوا في فهم الأثر على الصحراء الليبية الذي يمكن أن يكون قد نجم عن وصول قبائل بني هلال وبني سليم إلى المنطقة. يجب التسليم بأن الأسباب الصحيحة وراء هجرة القبائل المذكورة نحو الشمال الأفريقي ما زالت مجهولة بالرغم من الدراسات الكثيرة التي

تناولت الموضوع، فالتاريخ هنا يختلط بحكايات تلك الفترة، والمصالح الشخصية والأساطير. كما أننا نجهل ـ بنفس القدر ـ ما الذي دفع اليازوري الوزير القوي للخليفة الفاطمي المنتصر لوضع حد لاحقاً للهجرة الجماعية لهؤلاء البدو. إننا لا نعرف شيئاً عن مغادرتهم وادي النيل، ولا عن عبورهم برقة، وكذلك الحال بالنسبة لمسيرتهم على طول ساحل سرت نحو أفريقيا. إن ابن خلدون هو المؤلف الوحيد الذي ذكر أن بني هلال وبني سليم ـ وكان من بينهم من قد تصالحوا منذ مدة قصيرة ـ اتفقوا على تقسيم مسبق لأراضي أفريقية الخصبة بمجرد وصولهم إلى برقة. لقد رسم هذا التأكيد من ابن خلدون حول الإرادة السياسية لهذه القبائل المعروفة بعدم انضباطها حسب أقوال الرئيس الرياحي نفسه ـ التي نقلها عنه ابن عذاري وهو متقدم عن ابن خلدون بقرن من الزمان ـ وملاحظة قصيرة لنفس المؤلف ـ ابن خلدون ـ عن التخريب والدمار الذي قام به العرب؛ الطريق لأعمال عدد من المؤرخين الأوروبيين مدفوعين بسياسة ابن خلدون وبالمنزلة الهائلة التي يحتلها أول مؤرخ لأفريقيا الشمالية عرفته أوروبا. من الملفت للنظر أن أعمال هذا المؤرخ احتوت على مقاطع كثيرة ذات طبيعة مدوية حول أحداث أخرى مأساوية من تاريخ شمال أفريقيا وشعوب أخرى، إلا أنها لم تجد نفس الاهتمام والنجاح في الغرب الذي وجدته ملاحظاته السابقة عن بني هلال وبني سليم، دون الرغبة في إثارة الجدل حول الأضرار الحقيقية أو المدعاة لهؤلاء الرحل العرب في أفريقيا، رأينا أن من المفيد فحص أسباب تدهور هذا الإقليم قبل وصول هذه القبائل من جانب، والأنشطة الزراعية والتجارية للمدن الساحلية والواحات الليبية كما وصفها المؤرخون والجغرافيون الذين كتبوا أعمالهم قبل وصول بني هلال وبني سليم أو بعده من جانب آخر، آخذين في الاعتبار مدى الثقة التي يمكن وضعها في هؤلاء المؤلفين ـ نُذكر بتناقضات الإدريسي ـ لنستطيع أن ننسب لهؤلاء العرب الرحل التدمير الشنيع الذي لحق بليبيا بشكل عام والمناطق الصحراوية بشكل

خاص، كما يتهمهم بذلك تقليدياً بعض المؤرخين الأوروبيين. وسنطبق طريقة المقارنة هذه لتقييم الوضع في ليبيا قبل الحوادث المؤلمة التي مثلتها حملات بني غانية وقراقوش وبعدها مستعينين بما كتبه الرحالة مثل ملاحظات العبدري وابن بطوطة ونصوص التيجاني الأكثر تفصيلاً، وسيتضح لنا أن البربر المرابطين هم المسؤولون عن تدمير صحراء سرت أثناء صراعهم مع الموحدين، وليسوا العرب الرحل بالرغم من أن بعضهم شارك في بعض المغامرات. لقد اضطر الصراع بين المرابطين والموحدين أهل كانم للتدخل في الصحراء الليبية واحتلالها بسبب ما كان يتهدد تجارتهم. وعزل هذا الاحتلال الصحراء الليبية عن منطقة البحر المتوسط لقرون عديدة. وسنستعين لتقدير مدة هذا الاحتلال وما حدث فيه من تطورات وما غلب عليه من اضطرابات بما يلي:

1 ـ الجغرافيون ـ أبو الفدا، والعمري الذي نعرف مدى اعتماده على ابن سعيد ولكن يذكر له مجهوده التحديثي، والمؤرخون العرب؛ ابن خلدون والمقريزي.

2 ـ الحوليات السودانية ـ ديوان سلاطين بورنو الذي نشره ديرك لانق «Deirk Lange» وهو يصف صعود «كانم ـ بورنو»، والمحرم وهي شهادات وبراءات صادرة عن ملوكها، وقوائم السلالات الملكية التي جمعها بالمر «H.R. Palmer».

3 ـ أعمال ليون الأفريقي التي اشتملت على ملاحظات مهمة جداً عن فزان غير مرتبطة نسبياً بعصر ليون الأفريقي، وعن إقليم الكفرة وهو منطقة للتبو احتلتها كانم أيضاً.

4 ـ الروايات الشفوية الفزانية التي جمعها المستكشفون الأوروبيون في القرن التاسع عشر. في هذا المقام يستحق تقديرنا غوستاف ناشتيقال «Gustav Nachtigal». بدون هذه الروايات التي تم جمعها كان من المستحيل استيضاح الظواهر الرئيسية التي أدت إلى تدهور هذه الأقاليم طوال قرون وهو تدهور استمر إلى وقت قريب.

لم نجد بدأً من تناول دراسة الواحات المختلفة بالتتابع واسترجاع بعض الوقائع عندما تتداخل الأحداث التي شهدها إقليمان بطريقة لا يمكن معها الفصل خلال فترة معينة، وذلك لأن الصحراء الليبية لم تكن أبداً طوال القرون الوسطى إقليماً موحداً فيما شهدته من تقلبات وظروف. وقد قدرنا أن من الأهمية بمكان أن تشمل هذه الدراسة النقاط التي تؤدي إليها الطرق الصحراوية بما فيها النقاط الساحلية باستثناء طرابلس التي تناولها بالتفصيل أتوري روسي «Ettori Rossi»، والنقاط في جبل نفوسه. لقد كانت هذه النقاط موانىء حقيقية للصحراء وكانت وظائفها مرتبطة بشكل عام بالأنشطة في الواحات إن لم تكن هي باعثها.

ليس في حوزتنا، حتى اليوم، جدول مفصل بطرق الشمال الأفريقية والصحراوية والسودانية يرقى إلى مستوى الدراسة الوافية التي أعدها مارتن فورستنر «Martin Forstner»، في كتابه «Maghreb in Islamischer Zeit Das Wegenetz des Zentralen» الذي عالج الطرق في شمال الجزائر، وتادوز لويكي «Tadeusz Lewicki» في «Etudes Magrebines et Soudanaises» الذي وصف الطرق انطلاقاً من ورقلة. لقد حاولنا حل لغز المسالك الصحراوية الواصلة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي وتلك الواصلة بين البحر المتوسط والسودان من أجل إبراز تميز الطرق الليبية وأهميتها بالنسبة لكامل شبكة الطرق الأفريقية. لقد كانت ليبيا معبراً لا يمكن تخطيه بالنسبة لطريق السودان نحو مصر والحجاز. إن هذا العمل الذي يتجاوز حدود دراسة مركزة عن الصحراء الليبية لا يدعي الإحاطة الشاملة وإنما يستهدف توقيع الجزء في الكل.

لقد اكتفت دراستنا ببعض التقريب فيما يتعلق بالمسافات وذلك بالرغم من الأهمية البالغة للمسافات في التجارة خلال العصور الوسطى. فالقافلة تستطيع أن تقطع ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين كيلو متراً يومياً، ولكن هذه السرعة يمكن أن تكون أقل في السودان حيث يتعين تفادي المسطحات المائية، وفي الساحل حيث كثرة التجمعات السكانية، كما يمكن أن تكون

السرعة أكبر للمسافات القصيرة أو عندما تكون نقاط المياه متباعدة. إن قافلة صغيرة تتحرك بسرعة أكبر في الشتاء عنها في الصيف. ويمكن ـ في هذا الخصوص ـ تفسير التناقضات بين الجغرافيين، وحالات عدم الاتساق التي نجدها عند نفس المؤلف فيما يتعلق ببعض المقاطع من الطرق مقارنة بأخرى حسب الاستعانة المباشرة أو غير المباشرة برواة مختلفين. إن سرعة قافلة تعتمد، إلى حد كبير، على طبيعة الأرض التي نعرفها غالباً من الكتب، وبالتالي فهي معرفة ناقصة حيث إننا لم نجب إلا جزءاً من الطرق الليبية ومن ثم أمسكنا عن أي تعليق عندما يكون متوسط المسافة اليومية المقطوعة بين عشرين وخمسة وأربعين كيلو متراً، إذ إن المهم في تقديرنا هو إعادة رسم المسالك، وتقييم أهميتها، والأسباب وراء هجرها مؤقتاً، والدور الذي لعبته بعض المراكز الكبيرة كنقاط التقاء.

أدت بنا دراسة الطرق شمال ـ جنوب إلى الاهتمام بالمناطق السودانية التي أوردها الجغرافيون. لقد اعتمدنا بمساعدة الوقائع السودانية على أعمال متخصصين في هذا المجال؛ فرنسيين في الغالب مثل موريس دلفوس «Maurice Delfosse» فيما يتعلق بالتاريخ في كتابه «تاريخ السنغال الأعلى والنيجر» وريموند موني «Rymond Mauny» بالنسبة للاقتصاد في عمله «جدول جغرافي للغرب الأفريقي في القرون الوسطى»، وهما نتاج حياة من البحث تبعث على الإعجاب. من المسلم به أنه لا يمكن تصور القيام بأي دراسة حول الطوارق والتبو دون الرجوع إلى أعمال هنري لهوت «Henri Lhote» وجوهان نيكولسين «Johannes Nicolaisen» فيما يتعلق بالطوارق، وأعمال جان شابل «Jean Chapelle» بالنسبة للتبو. ومن المؤسف أن الجغرافيين والرحالة العرب لم يوردوا إلا معلومات قاصرة حول الحياة الاجتماعية وحركة السكان في السودان، ومن ثم اكتفينا فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة ببعض الافتراضات القليلة.

تناولنا بوصف مختصر حركة التجارة الصحراوية التي كانت مصدر ثراء

الصحراء الليبية وما جناه الأباضيون منها من أرباح، وتنظيم القوافل والمخاطر الحقيقية والمتوهمة للأسفار. ومع أن المؤلفين يذكرون البضائع المتبادلة إلا أنهم لا يتعرضون إلا نادراً للأسعار ـ ويمثل ابن بطوطة وليون الأفريقي بعض الاستثناءات ـ كما أن المؤلفين لا يوضحون حجوم البضائع المنقولة ـ هناك استثناء واحد عند ابن بطوطة يتعلق بستمائة من الرقيق كانوا مع قافلة عند مغادرتها لتكدا ـ ولا عدد الجمال الناقلة مع استثناء لابن خلدون يتعلق بقافلة مغادرة من مصر إلى مالي عبر فزان مكونة من اثني عشر ألف جمل. وعلينا في هذا المجال ـ كما في مجالات أخرى مثل أسر الرقيق ـ أن نعود لقراءة المستكشفين الأوروبيين من النصف الأول للقرن التاسع عشر لأن ما كتبوه يمكن بكل تأكيد أن يطبق، وإلى مدى بعيد، على العصور السابقة.

مع أننا لم نستطع معالجة موضوعنا أبعد من القرن الرابع عشر بسبب عدم كفاية المصادر، إلا أننا تناولنا باختصار أسباب ما حل بهذه المناطق لاحقاً من انحطاط بعد الازدهار الذي عاشته قبل القرن الرابع عشر. لقد استطعنا رسم صورة إجمالية لعملية تدهور هذه الأقاليم منذ ليون الأفريقي بفضل «الحوليات الطرابلسية» «لشارل فيرو» «Charles Feraud» وبفضل أعمال المستكشفين الأوروبيين، والمدونات الممتازة التي وضعها في آخر القرن التاسع عشر الرحالة التونسي «الحشائشي» الذي زار الكفرة وفزان وغات وكان شاهد عيان على نهاية الرق، وعاش المحاولات الأخيرة لانتعاش التجارة، وهي محاولات على علاقة بالرق.

إن النقد الجغرافي لإسلام العصور الوسطى ليس بالشأن السهل، وسنقف على هذه الحقيقة عندما نحاول تحديد مواضع كجبل طنطنة وواحة صبرو. والمختصون بالدراسات الإسلامية واعون بأن النقد التاريخي أشد حرجاً من النقد الجغرافي. إن سلسلة الرواة لا تكفي عندما تُورد لتقييم درجة الثقة التي يمكن وضعها في مؤلف، كما أن ندرة المعلومات في حالة الصحراء الليبية لا تمكن من إجراء مقارنات للتحقق من وصف أو ذكر حادثة معينة وقعت. بالرغم

من ذلك فقد تحقق لدينا أن مؤرخينا، وجغرافيينا، ورحالتنا جديرون بالثقة في الغالب الأعم، ويشهد على ذلك سواء أن الواقعة المذكورة من أحدهم تؤكدها نصوص آخرين، أو يمكن توقيعها في التسلسل المنطقي الذي يؤدي إلى تطور يؤكده النقد، أو أن وصف هذا المكان يتفق مع الوصف الذي وضعه له المستكشفون الأوروبيون بعد ذلك بقرون عديدة، أو أنه يتعلق بوضع يمكننا التحقق منه الآن. وهكذا، فإن الرحالة التيجاني وهو المثقف النبيه كان الوحيد الذي ذكر مقتل ابن قراقوش في ودان تنفيذاً لتعليمات حاكم كانم وهي واقعة يفسرها إلحاق الصحراء الليبية بهذه المملكة السودانية وهو ما أورده كل المؤلفين، وكان البكري، وهو جغرافي مكتبي ولكنه رائع وجاد، الوحيد الذي ذكر قرى تاقرفت، وهون وسبها، وهي واحات ما زالت نابضة بالحياة حتى اليوم، وأشار المهلبي إلى أن قواعد معروفة من الجميع هي التي كانت تحكم توزيع المياه في غدامس، وحتى اليوم هناك قواعد صارمة مراعاة بالنسبة لمياه عين الفرس، ويذكر البكري مدينة تحت الأرض في غدامس، كما يقول ابن خلدون بوجود حارتين منفصلتين تماماً فيها، ومجموعتين من السكان لا اتصال ولا تزاور بينهما، وأورد الحميري ظهور البربر الملثمين فيها وهي كلها وقائع يمكن التحقق منها اليوم. بسبب قلة البيانات كان الاهتمام بالدقة من قبل مؤلفي العصور الوسطى هو الذي مكننا من وضع تاريخ إجمالي للصحراء الليبية؛ لسكانها كما لتجارتها، ومكننا من رسم خريطة لطرق الاتصالات فيها وهي طرق ما زلنا نسلكها حتى اليوم. إن هذه الصورة للمنطقة تتوقف عند القرن الرابع عشر، وعلى القارىء أن يتذكر أن الحصول على صورة أوضح تطلب الانتظار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

الجزء الأول

الأحــداث



وصول العرب إلى أفريقيا

يعزو ج. هـ. بوسكيه «G.H. Bousquet» الأسباب وراء النجاح السريع للغزو العربي لالتقاء الصدف الآتية: دعوة نبي، وهو رجل استثنائي، استطاعت نخبة من المثقفين أن تفهم دعوته وتنشرها، ووجود قادة عسكريين ذوي جسارة ومهارة غير عاديتين، وحالة الضعف التي كانت عليها الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية بالرغم من أن العرب لم يكونوا واعين لهذا الضعف[1]. كان هدف الإسلام بالنسبة لبوسكيه ـ الذي يرى أن الإسلام «دين عنصري وحربي» ـ هو الاستعباد وليس نشر الدين. وإذا كان الدافع للغزو عند بعض المحاربين هو الدين فإن آخرين لم تكن تحركهم هذه المثالية وإنما كانوا مدفوعين بالرغبة في المغانم والتمتع بالمنافع المادية قبل أي شيء آخر. أو لا يجب أن يدرس يوماً ما مثله الجانب المادي للجنة الموعودة في تحريك حماس المحاربين العرب واندفاعهم؟ يبدو لي أن أبا هريرة وهو من صحابة الرسول ﷺ(*) لم يكن مدفوعاً فقط بالحماسة الروحية عندما حض المسلمين في معركة اليرموك التي واجهت فيها سوريا العرب قائلاً: «استعدوا للقاء الحور

(1) G. H. Bousquet, observations.

(*) إضافة من المترجم.

العين إلى جوار ربكم في جنات النعيم»[1]. أن يُنسب هذا القول حقيقة لأبي هريرة أو أن مؤلفاً استحسن أن ينسبه إليه لا يؤثر شيئاً على ازدواجية الدوافع التي كانت تحرك المجاهدين.

إن هؤلاء المحاربين هم الذين توجهوا إلى أفريقيا بعد الحرب على فارس، وإخضاع فلسطين وسوريا. فقد أصبح الوجود البيزنطي في مصر، بعد إخضاع سوريا، يمثل تهديداً لكل من سوريا والحجاز ومن ثم كان من المهم للعرب أن يُحيدوا الأسطول البيزنطي في الاسكندرية.

في سنة 640ف، أي بعد وفاة محمد ﷺ[*] بثماني سنوات وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب، زحف عمرو بن العاص بأربعة آلاف رجل على مصر منطلقاً من سوريا سالكاً طريقاً ساحلية. كان عمرو يعرف البلاد بمدنها وطرقها فقد جاءها مرات عديدة مع القوافل[2]. وتمكن من احتلال بابليون سنة 641ف وذلك بفضل دعم تلقاه من الخليفة قوامه خمسة آلاف رجل وهو ما رفع عدد قواته إلى حوالى عشرة آلاف رجل في مواجهة جيش بيزنطي من عشرين ألفاً معززين بخمسة آلاف جندي من الحامية[3] «واستولى المسلمون على ما كان موجوداً فيها»[4]. كان احتلال بابليون انتصاراً حاسماً لأنها تتحكم في مدخل الدلتا، وأقام المسلمون فيها معسكراً حصيناً أصبح فيما بعد مدينة الفسطاط. وقد منح عمرو للسكان وضع أهل الذمة وفرض عليهم الجزية بعد أن استشار عمر بن الخطاب ووافق هذا الأخير.

من الفسطاط بعث عمرو بن العاص مساعديه للاستيلاء على الفيوم

---

(1) الزمخشري كما أورده ج.هـ. بوسكيه. حول أبي هريرة انظر J. Robonson، موسوعة الإسلام.

(*) إضافة من المترجم.

(2) Ph.K. Hilti, History.

(3) C. Brockelmann, History. Ph.k.Hitti.

(4) البلاذري وهو يسمى بابليون اليونا. ابن سعيد، (المغرب).

وبلدات الصعيد الكبيرة خاصة الواحات الرئيسية على طول النيل. إننا نجهل الأهمية التي كان يعطيها عمرو لهذه الواحات؛ هل كان يراها مصدراً مهماً للضرائب بسبب كثرة السكان فيها، أو قدر أهميتها من الناحية العسكرية لتأمين سيطرته على عقد المواصلات نحو البحر الأحمر والسودان والصحراء الغربية؟ تبدو أهمية هذه الواحات اللوجستية ـ إن لم تكن الاستراتيجية ـ واضحة إذا أخذنا في الاعتبار حملات عمرو المتكررة على النوبة[1]. وقد قاد إحدى هذه الحملات سنة 642ف عقبة بن نافع الفهري ـ ابن خالة عمرو[*] ـ وفاتح الصحراء الليبية فيما بعد، وقد لاقى المسلمون في هذه الحملة مقاومة عنيدة[2].

حصل عمرو على إذن من عمر لاحتلال الاسكندرية. وفي نوفمبر 641ف عقد اتفاقية مع البطرك سيروس[3] بناء على نصيحة غير موفقة في الغالب. قضت الاتفاقية بهدنة مدتها أحد عشر شهراً، وبحصول العرب على ثلاثة عشر ألف دينار ويمتنعون عن مهاجمة الاسكندرية، وتقوم القوات البيزنطية بإخلاء المدينة عن طريق البحر كما يسمح بمغادرتها للسكان الذين يرغبون في ذلك، والأهم من كل ما تقدم تمتع السكان الذين يرغبون البقاء بوضع أهل الذمة[4] كما هو الحال بالنسبة لأهل بابليون.

يقول الرواة: إن عمرو أرسل أحد مساعديه، معاوية ابن خديج الكندي، لإبلاغ عمر بالنجاح الذي حققه الجيش العربي. قال معاوية لعمرو اكتب معي.

---

(1) حول المحاولات العربية الأولى في اتجاه النوبة، انظر: ي.ف.حسن.

(*) أورد المؤلف أنه ابن أخته. المترجم.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي.

(3) تعطي النصوص العربية لحاكم مصر لقب المقوقس، ويقال بالقبطي كوخيوس وهي كلمة غير واضحة الأصول. انظر: S.Lane-Poole، وA.J. Butler.

(4) البلاذري. اليعقوبي (تاريخ)، يعطي رقم أربعين ألف دينار «خراجاً على الرؤوس». ويضيف البلاذري بقية ولايات مصر. ويذكر ابن سلام مقابل الجزية «ألا يخرجوا من ديارهم، وألا تنزع نساؤهم ولا أبناؤهم، ولا كنوزهم، ولا أرضهم، ولا يزاد عليهم».

فأجاب عمرو: «ماذا تفعل برسالة؟ أو لست عربياً يستطيع أن يبلغ رسالة ويعرف بما رآه وما حضره؟». عندما وصل المبعوث إلى المدينة وجد عمر في بيته يتناول طعامه، فتوجها معاً إلى المسجد لإعلان البشرى للمؤمنين، بعدها قدم عمر لمعاوية وجبة من الخبز والزيت والتمر[1]. توضح هذه الحادثة ـ مزيفة أو حقيقة ـ كم كانت ودية خالية من الشكليات علاقات الخليفة بقادته، وحتى برجاله، في بدايات تكوين أكبر امبراطورية عرفها التاريخ.

من الممكن أن نتساءل لماذا لم يفضل العرب الهجوم على عدو أضعفته مؤامرات القصر. كان البيزنطيون أكبر عدداً إذ يقال أن عدد الجنود في حامية الاسكندرية بلغ خمسين ألفاً[2]. ويعتقد جون باقوت جلوب «John Bagot Glubb» القائد البريطاني للفيلق العربي الأردني من سنة 1938ف إلى سنة 1956ف والذي درس مسارح عمليات الغزو العربي وتكتيك المسلمين واستراتيجيتهم ـ أو انعدام الاستراتيجية ـ أن عدم الهجوم مبعثه الإنهاك الذي نال من العرب بعد معاركِ الجبال في سوريا وفلسطين، وتهيبهم من القتال في المناخ غير الصحي للدلتا، وهي إقليم رطب وموحل تمتد فيه أعداد لا تحصى من القنوات المائية[3].

يجب ألا ننسى أن الفاتحين الأوائل كانوا أساساً من بدو الجزيرة العربية أو جبليين من اليمن. وكما سنرى كثيراً، يبحث العرب في حال الخطر دوماً عن البقاء قريباً من الصحراء من أجل تأمين منطقة مزروعة يعتمدون عليها في التموين أو في الدعم اللوجيستي ويخوضون معاركهم وظهورهم للصحراء، كما يجب ألا ننسى، كذلك، أن الصحراء بالنسبة للبدو أرض مضيافة ذات مخاطر محسوبة، ويضاف إلى ما تقدم أن حصار الاسكندرية كان سيضطر العرب إلى عدم الحركة وهو ما ينفرون منه أكثر من أي شيء آخر. هكذا فضل العرب

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي.

(2) Ph.. K. Hitti.

(3) J.B. Glubb: وكتابه لا يحتوي، لسوء الحظ، على قائمة مراجع.

القيام بغارات جنوباً نحو النوبة، وغرباً نحو برقة بدل الشروع في عملية خطرة ومنفرة، بهذا كانوا يعصون الخليفة الذي كتب إلى عمرو بن العاص عندما أخطره باحتلال المسلمين للجيزة الواقعة على الضفة اليسرى للنيل في طريق عودتهم من النوبة:

«لا تجعل بيني وبينك ماء، وانزلوا موضعاً متى أردت أن أركب راحلتي وأصير إليكم فعلت»[1].

لقد كان الإحجام عن محاصرة مدن الدلتا حساباً خاطئاً، فالكثير من هذه المدن لم تفتح أبوابها للمسلمين وهو ما تطلب مهاجمتها. أما فيما يتعلق بالاسكندرية فتبدو المراجع القديمة عربية كانت أو بيزنطية متناقضة: هل تم فتحها صلحاً أو عنوة؟[2] ويرجع هذا التردد إلى الذِكر المتكرر للمعارك وإلى أن بعض المؤرخين لم يعوا أنه تم الاستيلاء على المدينة مرتين[3]. فبعد توقيع اتفاقية نوفمبر 641ف التي تضمنت إخلاء البيزنطيين للاسكندرية، قام العرب بتهدئة مصر العليا وقضوا على مقاومة مدن الدلتا. وفي سبتمبر 642ف فتحت الاسكندرية أبوابها للمسلمين. هذا يفسر ما ذكرته بعض المصادر من أن المدينة فتحت صلحاً، ومنح سكانها وضع أهل الذمة وفرضت عليهم تبعاً لذلك الجزية. كما تفسر الاتفاقية ما ذكرته المصادر أيضاً من قول عمر: «من أسلم من أهل هذه المواضع خلي سبيله وسبيل أمواله»[4]. ولسوء الحظ استنجد سكان الاسكندرية بالبيزنطيين، بعد الحملات التي قادها عمرو بن العاص على ليبيا وعزله من قبل عثمان بن عفان لصالح عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقام الأسطول البيزنطي بالاستيلاء على المدينة آخر سنة 645ف ، فتمت إعادة عمرو

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي. «منع عمر المسلمين من ركوب البحر»، (ابن خلدون ـ المقدمة).

(2) البلاذري: يعترف المؤلف «شأن مصر ليس واضحاً، البعض يقول بأنها فتحت عنوة وآخرون يقولون بأنها فتحت صلحاً.

(3) انظر تقارير المؤرخين في Ph. K. Hitti.

(4) البلاذري.

إلى مصر وشن حرباً في الدلتا، ولاحق العرب المنتصرون البيزنطيين حتى الاسكندرية واقتحموها وأخذوها عنوة. هذا الفتح الثاني ـ بالقوة هذه المرة ـ يبرر قول عمرو من على المنبر: «ما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد[1]، إن شئت قتلت، وإن شئت خمست وإن شئت بعت»[2]، وتفسّر الروايات القائلة «فتحت مصر دون وعد أو عقد»[3] و«فتحنا مصر دون وعد»[4]. و«فرضت الجزية والخراج على الاسكندرية كما اتفق،فلم يكن لهم صلح، ولا اتفاق، ولا عهد ولا ذمة، لقد أخذت عنوة»[5] و«كتب عمرو إلى عمر أنهم قد فتحوا الاسكندرية قصداً دون عهد أو اتفاق»[6]. و«لقد فتح عمرو مصر بالسيف وغنم ما فيها». وتواصل هذه الرواية: واستبقى أهلها لم يقتل، ولم يسب وجعلهم كأهل ذمة كاهل اليونة»[7].

يختفي هذا الارتباك والغموض إذا ما أخذنا في الاعتبار هذه الجملة للبلاذري: «لقد فتحت الاسكندرية مرتين، مرة عنوة وعصت مرتين»[8]، وخاصة هذا النص البالغ الوضوح لابن سلام: «لقد افتتحت مرتين؛ كانت المرة الأولى صلحاً. ثم انتكثت الروم عليهم ففتحت الثانية عنوة»[9]. وعليه نستطيع

---

(1) بالنسبة لـJ. Schacht العقد والعهد كلمتان مترادفتان وتعني اتفاق، أو حلف أو اتفاقية. وتعني كلمة عهد في القرآن ميثاق الله مع الناس، والتعاقدات ذات الطبيعة الدينية بين الناس، والمواثيق السياسية فيما بين المؤمنين، وغير المؤمنين فيما بينهم.
عهد إلى: عقد حلفاً أو تعهد بشيء ما لشخص،، وللمشتقات معان متقاربة. عقد كلمة ذات مدلول محسوس؛ عقد = ربط، وحد. سيلاحظ أن تعبير عقد عهداً = أبرم حلفاً.

(2) البلاذري، وابن سلام. أضاف عمرو، وهو ما سنتناوله لاحقاً «إلا أهل انطابلس فإن لهم عهداً يوفى لهم به».

(3) البلاذري.

(4) البلاذري.

(5) ابن عبد الحكم. طبعة Torrey.

(6) الأموال.

(7) البلاذري.

(8) البلاذري: فتوح البلدان.

(9) الأموال.

إعادة ترتيب أحداث سنة 20 ـ 21 هجرية/ 641 ـ 642ف، وسنة 25 هجرية/ 645 ـ 646ف. بالنسبة 20 ـ 21/ 641 ـ 642ف: المعاهدة بين عمرو وسيروس، انتظار العرب طويلاً، إخلاء القوات البيزنطية[1] للمدينة، وبالنسبة للفترة 645 ـ 646ف: استنجاد الروم بالبيزنطيين، إرسال البيزنطيين لثلاثمائة باخرة، المذابح التي تعرض لها المسلمون الذين كانوا في المدينة، عودة عمرو بخمسة عشر ألف رجل من الجزيرة العربية[2]، حصار المدينة بالمجانيق، احتلالها بالسيف، أسر الأطفال أو النساء إذا إن كلمة الذرية وجمعها ذراري والمستعملة من البلاذري واليعقوبي تعني النساء كما تعني الأطفال[3].

كان هذا الاستهلال بما جرى في مصر ضرورياً، إذا إن سلاسل الإسناد حتى وإن كانت كاملة في بعض الأحيان وتصعد إلى شهود عيان إلا أنها كثيراً ما تجهل الشؤون العسكرية أو على أقل تقدير غير مبالية بهذه الشؤون. ماذا كانت خطط المعركة؟ كيف تم الاستيلاء على المدن المحاصرة؟ ما هي دوافع الخائن الذي فتح أبواب المدينة للمسلمين؟ ما هي الحيل والمكائد التي مكنت العرب من احتلال المدينة؟ كم كانت الأعداد الحقيقية للقوات المتواجهة؟ كيف احتلت المدن؟ أسئلة كثيرة من هذا النوع تبقى دون إجابة.

يلاحظ ـ عادة ـ أن المؤلفين لا يعرفون شيئاً عن طوبوغرافيا المناطق الموصوفة، وهو ما يؤدي بهم إلى التسليم بعلاقات وروابط دون حس نقدي.

يشكل التتابع الزمني للأحداث مصدراً آخر للمشاكل، إذ يحدث أن لا

---

(1) البلاذري. يوميات جان أسقف نيكيو (مصدر قبطي من آخر القرن السابع)، ومدونات ميشيل السوري (مصدر سوري من القرن الثاني عشر)، وذكر هذه المراجع Hill.

(2) يصل عدد القوات العربية في مصر حين ذاك إلى عشرين ألف رجل Ph.. K. Hitti.

(3) البلاذري، وابن عبد الحكم (طبعة توري)، وابن سلام، واليعقوبي في تاريخ... الذي أضاف أن الأطفال أخذوا إلى المدينة ولكن الخليفة عثمان أعادهم حماية لهم، وابن سعيد الذي استعمل كلمة سبي وهي تفيد النساء الأسيرات ويضيف أن عمر هو الذي أعاد الأسيرات اللاتي أخذهن المسلمون إلى قراهن في مصر.

تكون الوقائع مؤرخة ومن ثم تختلف التواريخ من مؤلف إلى آخر أو عند نفس المؤلف باختلاف الروايات لديه، وقد تحشر في حادثة واقعة أخرى سابقة لها أو لاحقة عليها. ولدينا ـ لحسن الحظ ـ وصف لفتح أفريقيا الشمالية كتبه في نهاية القرن الثالث عشر عبيد الله بن صالح تناول فيه التتابع الزمني لأحداث هذا الفتح بطريقة متميزة، وحذر شديد.

يضاف إلى ما تقدم، أن الإسناد عندما يتناول مسائل قانونية، أو ضريبية، أو تجارية، أو دينية قد يتأثر بتوجهات تمليها المذاهب، أو العلاقات بين القبائل، أو تفضيل هذه الأسرة الحاكمة أو تلك، أو هذا الخليفة أو الحاكم أو ذاك. ونحن مدينون للمتخصصين الذين انكبوا على دراسة بعض هذه المشاكل الخاصة مثل روبرت برنشفيق «Robert Brunschvig» الذي درس الرواية عند ابن عبد الحكم. إن من الصعوبة البالغة ربط سلسلة إسناد بمذهب ما أو إثبات وقوعها تحت تأثير معين لدرجة دفعت د. ر. هيل «D.R.Hill» ـ منتقداً برنشفيق ـ إلى التساؤل عما إذا كانت الأخطاء عائدة إلى حد بعيد إلى الجهل واختلاف الأمور أكثر منها إلى التزييف المتعمد.

إذا كانت الصعاب بهذا القدر عندما نتناول حدثاً بارزاً وخطيراً في تاريخ الإسلام وهو دخول العرب إلى مصر حيث تكونت بسرعة نخبة من المثقفين مهتمة بكتابة تاريخها، يمكننا تصور المشاكل التي تطرحها إعادة بناء الوقائع والأحداث المتعلقة بدخول المسلمين إلى الصحراء الليبية.

بــرقــة

بعد أن استقرت الأمور للعرب في مصر انطلقوا نحو الغرب مُحفزين بالانتصارات السريعة والمدهشة التي حققها رماتهم وفرسانهم ومهاريوهم الخفاف على القوات البيزنطية الثقلية، ومدفوعين بالاطمئنان لموقف أهل مصر الذين كانوا يعتبرونهم مُحَررين وضعوا حداً لظلم البيزنطيين وليسوا غزاة. كما أن تموينهم كان مؤمناً بسبب سيطرتهم على منطقة الفيوم.

كان من المهم ضبط العدوانية البدوية لأن أعداد القوات كانت تتزايد. كما كان من المهم ـ أيضاً ـ المحافظة على الروح المعنوية للقوات، واستمرار حماسها الديني لأنه وراء روح الجماعة. لنفكر في صلاة الجماعة! كما لم يكن غريباً عن هذه الروح الاحترام الذي يكنه الرجال لقادتهم الذين استطاع محمد ﷺ(*) أن يزرع فيهم مثلاً أعلى. كان من المهم كذلك المحافظة على الرغبة في المغانم واستمرار تذوق طعم الانتصار والنجاح. لا يتصور أنه كان من الصعب دفعهم للهجوم، فلم يكن لديهم ما يخسرون وكانت المقاومة التي يلاقونها ضعيفة لأنهم لم يكونوا يحاربون حرباً تدميرية.

لماذا الاندفاع نحو الغرب؟

(*) اضافة من المترجم اينما وردت. المترجم.

لم يكن للخليفة عمر كما يبدو، أي خطة عسكرية طويلة الأمد أو أي استراتيجية واضحة، ويظهر أن القرارات كانت في الغالب من اختصاص قادة الحرب.

يجب الحذر مما تثيره في الذهن بعض التعابير كالقول بأن «العرب دخلوا إلى ليبيا» على الأقل بالنسبة لما نعنيه بالحدود السياسية الحالية. فليبيا من الناحية السياسية جزء من إقليم البحر المتوسط كمصر، والصحراء التي تفصل برقة[1] عن الاسكندرية، وتقسم برقة ذاتها ليست مختلفة من الناحية الجغرافية عن الأقاليم التي كان العرب يجوبونها منذ سنين عديدة.

يبدو من المؤكد أن برقة «المرج حالياً» تم غزوها وفتحها مرتين خلال الفترة من سنة 642، وهي السنة التي فتحت فيها الاسكندرية أبوابها للعرب، إلى سنة 645ف التي حاصر خلالها العرب الاسكندرية مرة أخرى بعد أن أعاد البيزنطيون الاستيلاء عليها.

يذهب الطبري وياقوت وابن خلدون والحميري إلى أن فتح برقة تم سنة 21هـ (10 ديسمبر 641ف ـ 29 نوفمبر سنة 642ف)[2]، بينما يقول ابن الأثير: إنه تم سنة 22هـ (30 نوفمبر 642ف ـ 18 نوفمبر 643ف)[3]، وتم سنة 23هـ (19 نوفمبر 643ف ـ 6 نوفمبر 644ف)[4] بالنسبة لليعقوبي.

لا يسعفنا ـ لسوء الحظ ـ فتح طرابلس الذي كان لاحقاً لفتح برقة في ترجيح أي من التواريخ السابقة، لأن المؤلفين اختلفوا كذلك حول تاريخ فتح طرابلس: يقول ابن خلدون[5] بأنه تم سنة 21هـ، وتم سنة 22هـ بالنسبة لكل من البلاذري، وابن الأثير، وابن عذاري، والتيجاني، وابن غلبون[6]، ووقع سنة

---

(1) «صحراء برنيق» بالنسبة لابن خلدون في المقدمة.

(2) الطبري، ياقوت (برقة)، ابن خلدون (العبر)، الحميري (برقة).

(3) الكامل.

(4) اليعقوبي، البلدان.

(5) ابن خلدون: العبر.

(6) البلاذري ابن الأثير، ابن عذاري، ابن غلبون (نسبه لابن عبد الحكم).

22هـ أو سنة 23هـ وفق روايتين ذكرهما ابن الحكم[1]، بينما يذهب اليعقوبي، والبكري، وياقوت، وابن سعيد، والحميري[2] إلى القول بأن طرابلس فتحت سنة 23هـ. لم يعطنا أي من المؤلفين المذكورين استدلالاً يمكننا من أن نكون أكثر دقة، ما يمكننا تأكيده بهذا الخصوص هو أن كلاً من برقة وزويلة، اللتين سنتحدث عنهما لاحقاً تم فتحهما بعد سبتمبر سنة 642ف وهو تاريخ إخلاء البيزنطيين لمدينة الاسكندرية، إذ لا يتصور أن يترك قائد قواته أمام حصن منيع كمدينة الاسكندرية ويذهب لاحتلال مدينة ذات أهمية ثانوية يتطلب الوصول إليها من الاسكندرية[3] عشرين يوماً على الأقل من السفر، ويستمر في انطلاقه لمحاصرة طرابلس التي يتطلب الوصول إليها من برقة نفس المدة. إن الوصول إلى طرابلس وحصارها (لمدة شهر) والعودة منها كان سيتطلب الابتعاد عن مصر مدة أربعة أشهر دون راحة. كان هذا يعني جنوناً لو أنه وقع دون تأمين للخلفيات.

سبق احتلالُ برقة احتلال طرابلس بثلاثة أشهر على الأقل، هذا ما كان يتطلبه السفر والاستعداد، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن التجهيزات تتطلب شهراً في برقة، ويستغرق السفر مدة شهر واستمر الحصار شهراً كما قال بذلك المؤلفون.

كتب عمرو إلى عمر بعد عبوره صحراء سرت، واحتلاله طرابلس وصبرة

(1) ابن عبد الحكم: يقول بأن الفتح سنة 22هـ ولكنه يضيف أن الليث بن سعد، الذي سنتحدث عنه، يقول بأنه سنة 23هـ. ويعطي دي سلين de salane في ترجمته للجزء الخاص بالفتح من كتاب ابن عبد الحكم التاريخين دون أن يذكر الليث، وجاء هذا الجزء ملحقاً لترجمته تاريخ البربر لابن خلدون.

(2) اليعقوبي: البلدان، البكري يستشهد بالليث، ياقوت: يذكر كذلك الليث (انظر طرابلس)، ابن سعيد (المغرب) وهو ينقل عن ابن عبد الحكم، الحميري (انظر طرابلس).

(3) حتى لو كانت طبيعة الأرض غير مجهولة إذا ما سلمنا بما قاله ابن الأثير، الذي أورد أن عمرو بن العاص كان قد بعث أولاً عقبة لاحتلال المنطقة الواقعة بين زويلة وبرقة نرجح أن ابن الاثير سَبَّق زمنياً واقعة ذكرها البلاذري أثناء احتلال برقة أو بعده مباشرة، وهو ما يبدو منطقياً من الناحية العسكرية.

وربما وصوله حتى جبل نفوسة[1] بما يلي: «إن الله عز وجل قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل»، فأجابه عمر: «كلا ما هي بأفريقية لكنها مفرقة غادرة، مغدور بها. ولن يهاجمها أحد ما بقيت على قيد الحياة»، وورد في رواية أخرى: «ما بللت الدموع عيني». (عند ياقوت فقط)، «إن ماءها قاس، وتقسو قلوب العلماء الذين يشربون منه» [2].

إننا نتساءل عما إذا كان ما سبق ادعاء لاحق هدفه إضفاء هيبة أكبر على الخليفة عمر ـ وما هو في حاجة ـ وذلك بإظهاره قادراً على رؤية أن فتح بلاد البربر سيكون أكثر أعمال الفتح صعوبة وإيلاماً. ويزيد من شكنا هذا الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ: «أفريقيا مفرقه غير جامعة، وماؤها صلب، يكفي أن يشرب منه المسلمون لتتفرق قلوبهم»[3].

إذا كانت هذه المراسلة بين الخليفة وقائده العسكري غير موضوعة وضعاً فإن رسول عمرو بن العاص وجب أن يصل إلى عمر قبل وفاته التي كانت بين 31 أكتوبر و7 نوفمبر سنة 644ف ـ 23 ذو الحجة 23 هجرية ـ 1 محرم 24 هجرية[4]. نستطيع أن نضيف إلى تاريخ الاستيلاء على الاسكندرية شهرين (شهر للاستعداد، وشهر للسفر من الاسكندرية إلى برقة) وهو ما يعطينا نوفمبر ـ ديسمبر 642ف . نستطيع أن نرجع إلى الوراء سبعة أشهر على الأقل من تاريخ وفاة عمر (شهر واحد للاستعداد والإدارة في برقة قبل التوجه نحو الغرب، وشهر واحد للسفر من برقة إلى طرابلس، وشهر واحد لحصار طرابلس، وشهر

(1) الاستبصار، ياقوت (انظر جبل نفوسه).

(2) ابن عبد الحكم (ترجمة جاتو). ويعطي المؤلفون الآخرون باستثناء ياقوت صيغاً أقصر: اليعقوبي (تاريخ)، البلاذري، البكري، الاستبصار، ياقوت (انظر نفوسة) قال بأن عمرو كان في جبل نفوسه عند استلام الرسالة، ابن سعيد (المغرب)، وابن عذاري الذي يضيف وجود ملوك كثيرين في أفريقيا، الحميري (انظر صبرة).

(3) ابن سعيد: المغرب.

(4) الطبري، ابن الأثير، أبو الفدا (تاريخ)، وابن خلدون (العبر).

للاستيلاء على صبرة والتوجه إلى جبل نفوسة، وثلاثة أشهر من طرابلس أو جبل نافوسة إلى المدينة لوصول المبعوث). وهكذا يبدو من الممكن أن نوقع تاريخ فتح برقة بين نوفمبر/ ديسمبر 642ف ومارس 644ف، تقريباً.

يظهر، مع ذلك، أن الشهور الخمسة عشر (نوفمبر/ديسمبر 642ف - مارس 644ف) شهدت قيام عمرو بإجراءين في برقة. يخبرنا ابن خلدون بالآتي: «سنة 21، ترك عمرو مصر إلى برقة وصالح أهلها مقابل دفع جزية، بعدها توجه إلى طرابلس وحاصرها شهراً. ثم توجه إلى صبرة وأكمل احتلال (المنطقة). عندها عاد عمرو إلى برقة وصالحه أهلها مقابل دفع ثلاثة عشر ألف دينار جزية. وقد كان أغلب الناس في برقة من اللواتيين[1].

هل تصور اللواتيون أنهم قد تخلصوا من العرب بعد رحيلهم؟ أو لم يترك العرب إلا حامية غير كافية في المكان؟ ليس من غير المألوف أن يتسبب هذا الهوس بالتقدم إلى الأمام دائماً في مفاجآت للمسلمين، وسنرى لاحقاً مثلاً لهذا في ودان. أم أن الأمر يتعلق ببساطة بتسوية للوضع الإداري والمالي على مرحلتين؟ إن هذا الازدواج يُبرز في كل الأحوال ارتباك المؤلفين وحيرتهم أمام تحديد تاريخ احتلال المدينة.

إن معرفة ما استتبعه الاستيلاء على المدينة يفوق في أهميته، تاريخ هذا الاستيلاء. ما هو الوضع الذي منحه الفاتحون لأول من قابلوا من البربر الرحل منهم والمستقرين؟ كيف كان هؤلاء ينظرون إلى «الغزاة»؟

إن غالبية المؤلفين يتحدثون عن صلح وعن جزية. هل من المؤكد تمتع اللواتيين بهذه المعاملة الجيدة؟

نعرف أن الشريعة الإسلامية تميز بين نوعين من الأقاليم: دار الإسلام وهي المناطق المحكومة بحكام مسلمين وفق الشريعة الإسلامية، ودار الحرب

---

(1) ابن خلدون: العبر. لن تكون هذه الثورة الوحيدة لبرقة كما سنرى.

وهي بلدان الكفار ويجب على المسلمين محاربتها حتى يقبل أهلها بالإسلام. وقد أراد بعض المؤلفين استظهار نوع ثالث من الأقاليم لكن هذا الاستظهار لم يلق قبولاً حسناً عند الفقهاء: دار الصلح أو دار العهد وهي مناطق غير إسلامية ولكنها خاضعة للإسلام[1]. وتدخل برقة والصحراء الليبية في هذا النوع.

إن الجهاد فرض ديني هدفه نشر الإسلام، فرض على المسلمين بنص القرآن كما جاء في سورة البقرة الآيات (149، 186، 193)، وضد أهل مكة (الآيات 212 ـ 218) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ. . . . وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ؟! أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ. . .﴾ وفي سورة آل عمران الآيات (151 ـ 152) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. كذلك في سورة النساء، والأنفال، والتوبة، والحج وجاء في سورة محمد (الآية 4): ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. وفي سورة الحديد، وسورة الصف (الآية 4): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

يحض القرآن على التضحية بالنفس في الحياة الدنيا، وجزاء من يقتل في سبيل الله غفران ذنوبه وقربه من الله سبحانه وتعالى[2]، ومع ذلك هناك مبدآن آخران يخففان من الجهاد: الأول يقضي بالسماح بوجود المسيحيين واليهود والمجوس في الأقاليم الإسلامية بشرط أن يخضعوا لسلطة الإسلام ويدفعوا الجزية، والثاني يقضي بأن لا يقوم الجهاد إلا ضد الذين يرفضون الدعوة إلى الإسلام[3]. سنلاحظ هنا وجود موروثات جاهلية سابقة على الإسلام بكل

---

(1) F.M. Pareja في Islamologie، و Holil lolacik في موسوعة الإسلام (انظر دار العهد)، و Armand Abel-D.B Macdonald في موسوعة الإسلام (انظر دار الصلح).

(2) E. Tayan: يتساءل في «موسوعة الإسلام» عما إذا كان محمد ﷺ قد وضع الجهاد لسكان الجزيرة العربية وأن تعميمه تم مباشرة بعده، وهو ما يعني طرح السؤال عن عالمية الإسلام من عدمها.

(3) السورة السابعة عشر من القرآن الكريم (الإسراء)

تأكيد، فإذا كانت البغضاء تبدو مستقرة عند عرب الصحراء، وكل مجموعة غريبة أو بعيدة هي خصم في نظرهم، فإن البدوي ينفر من سفك الدماء ولا يلجأ للحرب إلا إذا استحال[1] الوصول إلى حل وسط.

يشكل هؤلاء اليهود والمسيحيون والمجوس أهل الذمة[2]، والذمة تعنى «نوع من التعاقد يتجدد إلى ما لا نهاية، وبموجبه يمنح المسلمون الضيافة والحماية إلى أتباع الديانات السماوية الأخرى بشرط أن يحترم هؤلاء سيطرة الإسلام»[3] ومن ثم فهو عقد ثنائي: من جانب، يحصل غير المسلمين على حماية أشخاصهم وأموالهم ويسمح لهم بممارسة دينهم، ومن جانب آخر عليهم دفع الجزية وعدم إهانة الإسلام ونبيه ﷺ، وعدم التجسس لصالح أعداء الإسلام، وعدم التبشير بين المسلمين بهدف تحويلهم عن دينهم، والامتناع عن ارتكاب الفاحشة مع مسلمة، وعدم إقامة مبان دينية جديدة، والإمساك عن أي سلوك يؤذي المسلمين.

تظهر كلمة الجزية مرة واحدة في القرآن في الآية 29 من السورة التاسعة (التوبة): ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[4] ونلاحظ مع ريجيس بلاشير «Regis Blachere» أن بداية النص لا تفرق بين المشركين والموحدين[5]. وهو ما يبدو أنه سمح، من السنوات الأولى للإسلام عندما كان غير المسلمين يتفوقون عددياً على المسلمين، بتوسيع النص لضم المجوس لأهل الذمة التي منحت قبلهم لليهود

(1) حول أنشطة الوسطاء في حالة صراع. انظر J. Chelhod في Le droit.

(2) جذر ذ م م = يستقبل أحداً تحت رعايته.

(3) تعريف Claude Cahen في موسوعة الإسلام (انظر ذمة).

(4) نلاحظ أن هذه السورة تحمل في طياتها تبرير التمييز الذي عانى منه أهل الذمة لاحقاً وهو السياسة التي بلغت أوجها في عهد المتوكل.

(5) القرآن. يبدو أن عبارة «من الذين أوتوا الكتاب» أضيفت لاحقاً وفق بلاشير.

والمسيحيين، ثم القول بعد ذلك بأن المجوس هم كل مجموعة يراد تحاشي الحرب ضدها وعقد اتفاق معها[1]، وهو ما استفاد منه بربر لواتة.

يجب ملاحظة أن كلمة الجزية لم تكن تعني «ضريبة الرؤوس» وهي المعنى الذي اكتسبته أيام العباسيين الذين كانوا يقابلونها بالخراج، وهو ضريبة بالمعنى العام تجبى على الأشخاص والأراضي على حد سواء. وهذا يفسر استعمال الكلمتين ـ الخراج والجزية ـ مترادفتين عند ابن عبد الحكم، والبلاذري، واليعقوبي خاصة عند تناولهم برقة[2].

إن الجزية إثبات خضوع[3] مفروض على فئة في وضع اجتماعي أقل، وكانت في بداية الفتح عبارة عن ضريبة إجمالية يتوجب دفعها على الذين لا يقبلون التحول إلى الإسلام ولم يكن العرب مهتمين بالتفريق بين مصادر الضريبة المختلفة[4]، وكانت تجبى سنوياً على كل ذكر حر بالغ سليم من أهل الذمة، ويعفى من الدفع كبار السن والنساء والأطفال والمرضى والمعاقون والمجانين والعبيد[5].

المرجح أن لواتة مدينة برقة وصحراء برقة غير المسلمين من الدرجة الثانية استطاعوا الحصول على وضع أهل الذمة بفضل حسن نواياهم وتفوقهم عددياً. بالرغم من ذلك يبقى الغموض يحيط بمعاملة لواتة، تبدو جيدة «ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج، وإنما كانوا يبعثون بها إذا جاء وقتها»[6].

---

(1) أبو يوسف يعقوب.

(2) D.R. Hill, A.S Tritton.

(3) جذر الكلمة ج.ز.و = أخضع، قهر، وفي لهجة الجزيرة العربية تعني كلمة جزية رسم العبور.

(4) Claude Cahen.

(5) أبو يوسف يعقوب، ابن سلام، ابن أبي زيد القيرواني، وخليل بن إسحاق.

(6) ابن عبد الحكم، وابن سعيد (المغرب)، وابن غلبون يأخذون نفس النص دون ذكر مصادرهم. ياقوت (انظر برقة) عن ابن الفقيه يتحدث عن صاحب خراج ويذكر كذلك نصاً مطابقاً ولكن يشرحه بمعنى أقل ملاءمة.

و«كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث. فكانوا أخصب قوم بالمغرب، ولم يدخلها فتنة»[1].

هكذا، خلافاً للقواعد المفروضة، لم يكن اللواتيون ملزمين بدفع الضريبة فرادى. إننا ميالون، مع هيل[2] إلى أن نرى في هذا العهد تسوية بسيطة لم تراع ما جاء في آخر الآية القرانية التي ذكرناها والتي تقضي بإذلال الكافر عند دفعه الجزية وهو ما استمر المؤلفون اللاحقون في الإصرار على مراعاته: «مع الإهانة لهم عند أخذها منهم بالغلظة والشدة لا على وجه التملق والرفق»[3]، وعلى الذمي أن يبقى واقفاً عند الدفع، بينما يكون الجابي جالساً ويجب إشعار الذمي بدونيته ولا يعامل باحترام[4]. وذهب بعض المؤلفين إلى القول بوجوب أن يأتي الذمي مطأطئاً الرأس ويمسك من رقبته ولحيته ويصفع على خديه[5].

إن برقة، حسب ما نعرف، وبعد العودة إلى المؤلفين العرب ودراسة هيل، تمثل الاستثناء الوحيد لدفع الجزية بشكل إجمالي إذا استبعدنا أرمينيا حيث كان السادة الأرمن يقومون بتحصيل الضرائب[6] بأنفسهم ودفعها. نستطيع للوهلة الأولى أن نفترض أن اللواتيين تمتعوا بمعاملة جيدة نظراً لإعفائهم من الدفع الفردي للجزية الذي كان مصحوباً بالإذلال الذي أوضحناه، ولكن نصوص الاتفاقية التي تم التوصل إليها تتطلب تغيير هذا الاستنتاج، فالعرب لم يظهروا دماثة وتساهلاً تجاه أوائل البربر الذين قابلوهم. لنحتكم إلى النصوص.

اتفاقية برقة:

إن ما أورده المؤلفون بخصوص الاتفاقية العربية ـ البربرية التي تم

---

(1) البلاذري.

(2) The Temination P. 175.

(3) خليل بن إسحاق.

(4) السولي: أدب الكتابة، كما ورد عند Tritton.

(5) الفتال. نلاحظ بالنسبة للشافعي يتمثل إذلال الذميين في خضوعهم للشريعة الإسلامية ودفع الجزية فقط.

(6) البلاذري. يمكن تصور التجاوزات الممكنة.

التوصل إليها في برقة يتراوح بين القول بأنها مجرد عهد بسيط قُبل من الطرفين، إلى فرض الجزية مصحوباً أو غير مصحوب بالتزامات مختلفة، وإلى حد إجبار اللواتيين على بيع نسائهم وأطفالهم لأداء الجزية. وتزودنا ستة من النصوص ببيانات تكميلية مهمة قد تساعدنا على معرفة ظروف الغزو والوضع الناجم عنه.

مجرد ذكر للاتفاقية/ عهد صلح:

1 ـ البلاذري[1]، ابن سلام[2]، ابن عبد الحكم[3]، عن ابن لهيعة:

«لأهل انطابلس عهد يُوفى لهم».

2 ـ ابن عبد الحكم[4] عن ابن لهيعة:

«فتحت انطابلس بعهد من عمرو بن العاص».

3 ـ ابن عبد الحكم[5] عن ابن لهيعة:

«لأهل انطابلس عهد مكتوب».

4 ـ ابن عبد الحكم[6] عن ابن لهيعة:

«إن ابن دياس، حين ولي انطابلس أتاه (عمرو) بكتاب عهدهم»[7].

---

(1) فتوح.
(2) أموال.
(3) فتوح مصر. طبعة توري.
(4) فتوح مصر. طبعة توري.
(5) فتوح مصر. طبعة توري.
(6) فتوح مصر. طبعة توري.
(7) وفق النصوص فإن واضع الاتفاقية ـ عندما يُذكر ـ فهو دائماً عمرو. إن هذا النص لابن عبد الحكم من فتوح أفريقيا حير أ. جاتو A. Gateau فقد ذكر عمرو قبل سطرين من النص المذكور ومن ثم يكون ضمير الغائب في «أتاه» عائداً إليه منطقياً. وعليه يجب أن يفهم أن ابن دياس أحضر لعمرو الاتفاقية مكتوبة، ومقبولة من سكان برقة. يتساءل أ. جاتو عما إذا لم يكن من المناسب تصحيح ضمير الغائب المذكر إلى ضمير الغائب المؤنث ومن ثم يعود .... على انطابلس. وسيكون المعنى أن ابن دياس عند استلامه موقعه حاكماً لأنطابلس أحضر لها.

5 ـ اليعقوبي[1]، لم يحدد المصدر.

«تسمى برقة أيضاً انطابلس، وهذا اسمها القديم. وقد افتتحها عمرو بن العاص صلحاً سنة 23هـ».

صلح مع مجرد ذكر للجزية:

6 ـ ابن الفقيه[2]، لم يحدد المصدر.

«برقة مدينة حسناء في صحراء، وهي صلحية، صالح عليها عمرو بن العاص وجبر أهلها على الجزية»[3].

فتح من عقبة، وصلح من عمرو مع ذكر مبلغ الجزية:

7 ـ ابن عذاري[4]: لم يحدد المصدر.

«من مصر وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية[5] وأفريقية، فافتتحهما. بعدها توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية: دينار واحد لكل حالم»[6].

اتفاقية مع جزية والسماح ببيع الأطفال لسدادها:

---

(1) البلدان.

(2) البلدان. طبعه حاج صدوق.

(3) في القرن الرابع عشر ذكر أبو الفدا في كتابه تاريخ. . . ودون ذكر المصدر هذه الاتفاقية «ذهب عمرو بن العاص إلى برقة وصالح أهلها على جزية».

(4) البيان.

(5) لوبية هي إحدى الولايتين القريبتين لمصر، والثانية هي مرمريكا. «إذا غادر المسافر الاسكندرية وتوجه نحو أفريقية فإن أول بلد يقابله هو مرمريكا ثم لوبية» (ياقوت). ويذكر ج. كامبس G. Camps أن استعمال كلمة لوبية توقف مع نهاية القرون الوسطى ولم تظهر ثانية إلا في نهاية القرن التاسع عشر وفق مصادر أوروبية. انظر كذلك ابن خرداذبه طبعة حاج صدوق.

(6) ابن خلدون: العبر. دون ذكر المصدر، يذكر كذلك مقدار الجزية ولكن في إطار اتفاقية في تاريخين سنة 21هـ توجه عمرو من مصر إلى برقة وصالح أهلها على جزية، ثم ذهب إلى طرابلس وحاصرها شهراً. . . . . . وعاد إلى برقة وصالح أهلها على جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، وكان أغلب سكان برقة من لواتة».

8 ـ ابن الأثير[1]، لم يحدد المصدر.

«وزحف عمرو بن العاص على برقة كما ذكرنا فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية، وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم»[2].

اتفاقية وجزية وبيع أطفال «إذن أو إجبار؟»:

9 ـ البلاذري[3] عن الواقدي، وابن عبد الحكم[4] لم يحدد المصدر:

«لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية سار في جيشه يريد المغرب حتى قدم برقة، وهي مدينة انطابلس فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه».

صلح أو شرط مع جزية مقرونة بشرط بيع أطفال

10 ـ ابن سلام[5] عن الليث بن سعد:

«صالح عمرو بن العاص سكان انطابلس وهي بلاد برقة بين أفريقية ومصر على الجزية، على أن يبيعوا من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم».

11 ـ ابن عبد الحكم[6]، لم يحدد المصدر:

«فسار عمرو بن العاص في الجبل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا[7] من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم»[8].

---

(1) الكامل.

(2) نعرف ندرة استعمال الأفعال المساعدة في اللغة العربية مثل يستطيع ويجب. إن النسبة هي 1 إلى 5 إذا ما قورنت باللغات الرومانية والجرمانية. بشكل عام، وكما هو الحال هنا يكفي السياق العام لتوضيح أن المقصود هو الإذن والإمكانية أو الإجبار أو ضرورة.

(3) فتوح البلدان.

(4) فتوح مصر. طبعة توري.

(5) الأموال، ابن الأثير (الكامل) يعطي نفس النص تقريباً.

(6) فتوح مصر. طبعة توري.

(7) «أورد المؤلف جزءاً من النص بالعربية» ـ المترجم.

(8) البكري: المسالك. يستند عادة لابن عبد الحكم ولكنه لا يذكره هنا. كذلك ابن =

12 ـ الطبري[1] عن الواقدي، واليعقوبي[2] لم يحدد المصدر:

«في هذه السنة (21 هجرية) سار عمرو بن العاص إلى انطابلس وهي برقة فافتتحها وصالح أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم».

13 ـ ياقوت[3] عن أحمد بن محمد الهمداني:

«برقة مما افتتح صلحاً، صالحهم عليها عمرو بن العاص، وألزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا أولادهم في عطاء جزيتهم، وأسلم أكثر من بها فصولحوا عن العشر ونصف العشر في سنة إحدى وعشرين للهجرة، وكان في شرطهم أن لا يدخلها صاحب خراج بل يوجهوا خراجهم في وقته إلى مصر، إلى أن استولى المسلمون على البلاد التي تجاورها فانتقض ذلك الرسم».

14 ـ ابن سلام[4] وابن عبد الحكم[5] عن الليث بن سعد:

«كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر في شرطه عليهم: «إن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية. قال الليث: فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم».

15 ـ البكري[6] عن الليث بن سعد.

= سعيد (المغرب) يذكر ابن عبد الحكم ويورد نفس النص. ورد عند ابن غلبون وهو لا يذكر أي مصدر ولكن ابن عبد الحكم والبكري من بين مصادره.

انظر أ. جاتو، فتوح أفريقية، و و. هونرباك «طريق العبدري في شمال أفريقيا». يذكر الورثلاني (رحله . . .) البكري ولكنه يذكر أن قيمة الجزية ثلاثة ملايين دينار.

(1) تاريخ الرسول.

(2) تاريخ. . . .

(3) معجم (انظر برقة).

(4) أموال.

(5) فتوح مصر. طبعة توري.

(6) المسالك.

«كتب عمرو بن العاص على لواتة في شرطه عليهم: أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية. وسُمع عمرو يقول على المنبر: لأهل انطابلس عهد يُوفى لهم به».

شرط مع الجزية مصحوبة باشتراط بيع أطفال ونساء:

16 ـ البلاذري[1] عن الليث بن سعد.

«إن عمرو بن العاص كتب في شرطه على أهل لواتة من البربر من أهل برقة: أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية. قال الليث: فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم».

صلح مع بيع أطفال بعد حصار ومعارك:

17 ـ البلاذري[2]، عن عبد الله بن صالح.

«صالح عمرو بن العاص أهل انطابلس ومدينتها برقة، وهي بين مصر وأفريقية، بعد أن حاصرهم وقاتلهم على الجزية، على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم. وكتب لهم بذلك كتاباً».

سنسقط النصوص التي اكتفت بمجرد ذكر عهد دون أن توضح شروطه وطبيعته (1، 2 البلاذري، وابن سلام، وابن عبد الحكم)، أو قالت فقط إنه عهد مكتوب (5، اليعقوبي)[3] لأن هؤلاء المؤلفين أنفسهم تحدثوا في مواقع

---

(1) فتوح البلدان.

(2) فتوح البلدان.

(3) تفيد كلمة عهد: تعهد، اتفاق، حلف، معاهدة، وقد ترجم د. ب. ماكدونالد، وأرمان أبيل كلمة صلح بكلمة «accommodement» الفرنسية. ويحافظ د. ر. هيل على الكلمة العربية في كتابه «نهاية المعارك» ويترجمه بالكلمة الإنجليزية «Arrangement». ونفضل هذه الترجمة على ترجمة كازيمرسكي: «السلام». إن الأمر يتعلق بتوقف المعارك لكن بعد استسلام، أو اتفاق أو اعتراف بسيطرة المسلمين، أو قبول المهزومين بوضع أدنى مع منحهم حريات وضمانات محدودة في إطار إقليم أصبح مسلماً. إن أهل الصلح يبقون مع ذلك أعداء (انظر كتاب الأموال لابن سلام).

أخرى عن جزية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار مع شرط بيع أطفال وإلا نساء. ونرى ـ مع هذا أن كلاً من البلاذري وابن سلام وابن عبد الحكم (1 ـ 4) ينقلون عن عبد الله بن لهيعة[1]، وهو راوية مصري (9/ 688ف ـ 790ف) وكان قاضي مصر الأكبر لمدة تسع سنوات، وقد كتب في الحديث والعلاقات التاريخية كتباً نقلها تحت إشراف شقيقه عيسى الذي توفى ما بين ديسمبر 762ف ويناير 763ف . من المرجح أن ابن لهيعة اتصل بشهود عيان للفتح ولكن وثائقه فقدت لسوء الحظ في حريق أتى على منزله سنة 786ف. إن هذا المؤلف الذي ينقل عنه ابن عبد الحكم في كثير من الأحيان كان يعاني ضعفاً في الذاكرة لدرجة أن طلبته الأوائل كانت لديهم رؤية أكثر دقة من طلبته الذين أتوا بعدهم[2]. وقد تعرض ابن لهيعة لانتقادات شديدة من المؤلفين الحديثين: ف. روزنتال «F. Rosenthal» يشكك في جدية ما نقل عنه، ويكتب جاتو «A. Gateau» أنه لا يستطيع الوثوق في ابن لهيعة، ويقول د.ر. هيل «D.R.Hill» إن سمعته لا تبعث على الثقة، ويصفه م. خليل هراس بالكاذب[3].

لم يعط البلاذري (النصوص (1، 9، 16، 17)، وابن سلام (النص 1) أي تقييم للمصادر التي استعملوها، كما أن ابن عبد الحكم لا يناقش حجية مصادره (الرواة الذين نقل عنهم)[*] في النصوص (من 1 إلى 4) والنص (14)، ومن ثم يمكننا القول بأن النصين (9، 11) اللذين لم يلجأ فيهما إلى الإسناد يعكسان رأيه. إن سبعة من النصوص الثمانية التي اكتفت بذكر عهد أو صلح دون إضافة تعيبها سمعة ابن لهيعة، بالإضافة إلى أن المؤلفين الثلاثة لهذه النصوص ذكروا أن بيع الأطفال شرط من شروط الاتفاقية في مواقع أخرى. كما يجب ـ إنصافاً

(1) اليعقوبي، لا يورد أي إسناد.
(2) ابن خلكان، د. برنشفيق، ابن عبد الحكم.
(3) ف. روزنتال، ابن لهيعة، ابن عبد الحكم ـ فتوح أفريقيا، د. ر. هيل «نهاية المعارك»، ابن سلام ـ الأموال.
(*) (. . . . .)، إضافة للتوضيح من المترجم. المترجم.

لابن لهيعة ـ ملاحظة أنه لم يرتكب خطأ عندما تحدث عن عهد أو صلح وإنما كان فقط غير كامل. هل كان يخشى من الإساءة للمسلمين؟.

يضاف إلى ما تقدم، أن أحد النصوص التي لم تَذكر إلا الصلح مع ثلاثة عشر ألف دينار جزية دون شرط آخر يبدو منقوصاً (النص 6، ابن الفقيه)[1]، وثلاثة أخرى متأخرة زمنياً ولا تذكر مصادرها. ونظراً لأن جدية هؤلاء الذين أوردوا شرط بيع الأطفال تبدو ثابتة، فإننا نرجح الرأي الذي عبرت عنه النصوص القائلة بأن هذا الشرط كان حقيقياً.

إن ستة نصوص من النصوص السبعة عشر التي ذكرت بيع الأطفال لاحقة للقرن العاشر، وثلاثة من بين هذه الستة نصوص لا تذكر مصادرها، منها من جانب، البكري الذي يستوحي ـ عادة ـ من ابن عبد الحكم وينقل عن الليث، ومن جانب آخر ابن غلبون الذي نعرف أن مصدره فيما يتعلق بفتح شمال أفريقيا هو ابن عبد الحكم، وعليه فإن المقاطع المأخوذة عن هذين المؤلفين تلتقي مع مجموعة النصوص التي استندت مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من خلال ابن عبد الحكم، على رواية الليث ابن سعد(713ف ـ 791ف)، وهو إمام وفقيه مشهور ولد ومات في القاهرة، معترف به من الجميع كحجة، لا يرقى الشك[2] إلى قدرته ودقته وأمانته. تلقى الليث تعليمه في مكة والمدينة وكان من أعظم مؤسسي الرواية المصرية، وهو مع ابن لهيعة أكثر المصادر التي نُقل عنها فيما يتعلق بتاريخ فتح بلاد البربر.

لا يذكر ابن عبد الحكم أي مصدر في اثنين من النصوص: النص (9) منقول حرفياً عن البلاذري الذي يستند إلى الواقدي حسب قوله، ولكن النص (11) الذي يبدو معبراً عن الرأي الشخصي لابن عبد الحكم منقول إجمالاً عن

---

(1) نص لياقوت نقلاً عن ابن الفقيه.

(2) عن هذا الراوية، انظر ابن خلكان A. Merad (موسوعة الإسلام)، ور. برنشفيق، أن ابن عبد الحكم يعبر عن بعض التحفظ حول صحة روايات معينة أوردها الليث. يجب أن نذكر أن ثراءه الكبير، وجوده ورعايته للآداب ليست غريبة عن ما غمره من ثناء.

ابن سلام (10) وهو أيضاً يرجع لليث. وهكذا فإن تسعة من النصوص السبعة عشر التي ذكرت بيع أطفال تتبع هذا الراوية.

من المحتمل كذلك، أن تكون الرواية المصرية ممثلة بعبد الله بن صالح، ونعرف أنه كان أحد أساتذة البلاذري[1].

يقول البلاذري والطبري أنهما يعودان إلى الواقدي في النصين (9، و12) ويمكننا أن نضم إليهما نص ابن عبد الحكم الذي ينقل كلمة بكلمة نص البلاذري، كما أن اليعقوبي ينقل إجمالاً عن الليث والواقدي. وقد ولد محمد بن عمر الواقدي في المدينة سنة 747ف وتولى القضاء في بغداد وفيها توفى سنة 823ف ، وكان أحد تلاميذ مالك بن أنس، وهو علاَّمة لقي رعاية من الخليفة المأمون واشتهر بأعماله حول فتوحات المسلمين[2]. وهنا تلتقي الرواية الشرقية مع الرواية المصرية لابن الليث.

يستند ياقوت (النص 13) إلى أحمد بن محمد الهمداني الذي لا يمكن أن يكون إلا من أوردناه تحت اسم ابن الفقيه (النص 9) الذي يسمى أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمداني[3]. إننا لا نعرف شيئاً عن حياة هذا المؤلف الذي ينتسب إلى أسرة من الرواة وكتب كتاباً من خمسة أجزاء لم يتبق منه إلا ملخص هو كتاب البلدان. ويلاحظ هـ. ماسى «H. Masse» أن المعلومات التي يقدمها الهمداني تتناقص أهميتها كلما ابتعدت الأقاليم المدروسة من الشرق، ويذهب م. ج. دي قوج «M.J.De Goeje» إلى أن مؤلف الملخص كثيراً ما حذف من النص المقاطع المفيدة، ويظهر هذا واضحاً عند قراءة ياقوت الذي استشهد في أحيان كثيرة بنصوص من الهمداني

---

(1) فتوح البلدان.

(2) ابن خلكان وهو يشك في صحة هذه الروايات. انظر كذلك ج. هوروفيتز موسوعة الإسلام (الواقدي).

(3) يكتب ياقوت الهمداني (انظر برقة)، ولكنه يسمي المدينة همذان (انظر همذان).

لم ترد في كتاب البلدان[1]، ومن ثم فإننا لن نندهش إذا ما اكتشفنا في هذا المقطع من معجم ياقوت معلومات قيمة ولكنها لا تظهر في أعمال ابن الفقيه.

بالرغم من أنه لا يمكننا التشكيك في شرط بيع الأطفال فإننا نصطدم بمشكلتين: انعدام وضوح بعض المقاطع وهو ما يضاف إلى التناقضات فيما بين بعض النصوص، والهدف الذي قصد إليه العرب من وراء هذا النوع من الشروط.

يقول نص واحد فقط (8، ابن الأثير، القرن الثامن الميلادي) بأن بيع الأطفال كان إذناً ولم يكن شرطاً، وأن السكان، في الواقع، هم الذين وضعوه شرطاً. وهناك خمسة نصوص (من 13 إلى 16) تظهر بعبارات مختلفة وجوب هذا البيع: كتب عمرو: أن عليكم. . . . (14 ابن سلام وابن عبد الحكم، و16 البلاذري)، و«كتب عمرو أن تبيعوا. . . .» (15، البكري)، و«ألزم عمرو أهلها. . . أن يبيعوا أطفالهم. . .» (13، ابن الفقيه).

هناك أحد عشر نصاً (من 9 حتى 12، و17، ورقم55 من الهوامش السفلى) غير واضحة وضوحاً كافياً. هل يتعلق الأمر بإذن أو بإلزام؟ ونصان من هذه النصوص (14 البلاذري وابن عبد الحكم) تقول: «. . . بشرط ثلاثة عشر ألف دينار جزية. . . وأن يبيعوا. . . .»، وتستعمل تسعة نصوص عبارة «وبشرط أن يبيعوا». وهذه فرصة أخرى للتعبير عن الأسف لتقتير العرب في استعمال الأفعال المساعدة مثل «يجب» و«يمكن».

إن أسباباً عديدة تجعلنا نعتقد بأن هذا البيع كان إلزاماً، إذ إن نصاً واحداً أوضح أنه إذن وهو نص من القرن الثالث عشر ولا يذكر مصادره، بينما تعود النصوص الخمسة التي ذكرت الإلزام إلى القرن التاسع الميلادي وأربعة منها تستند إلى الليث وقد كان في إمكانه الاتصال بشهود عيان للفتح. إن «على»

---

(1) م. ج. دي قوج، وحاج صدوق وصف، ور. ن. فري (موسوعة الإسلام ـ انظر همذان). وهـ. ماسى (موسوعة الإسلام ـ انظر ابن الفقيه).

تدل على الوجوب بشكل عام، و«على أن» تفيد الإلزام[1] بوضوح.

علينا، على ضو ما سبق، أن لا نرى في معاملة لواتة وسكان برقة معاملة لائقة، وأن نبحث عن تفسير آخر ـ غير تسامح العرب ـ لغياب جباة الضرائب في برقة، وعليه لا بد من البحث عن الأسباب وراء النص على هذا الشرط وهو في أقوى الاحتمالات فريد في تاريخ الاتفاقات الناجمة عن الفتح[2]. لدينا نص لابن سلام يذكر بيع الأطفال في النوبة: «إنما الصلح بيننا وبين النوبة على أن لا نقاتلهم ولا يقاتلونا، وأنهم يعطوننا رقيقاً ونعطيهم طعاماً. قال: وإن باعوا أبناءهم لم أر بأساً على الناس أن يشتروا منهم». ويستطرد ابن سلام عن الليث: «إذا أراد أحد أهل الصلح من أعدائنا بيع ابنه فلا مانع من شرائه»[3]. وقد قبل هذه النقطة العوزي (المتوفى سنة 774ف عن عمر يناهز السبعين سنة) وهو ممثل المدرسة السورية القديمة ونقل الآراء التي وضعها الجيل السابق من الفقهاء المسلمين[4]؛ قال: «لا مانع في هذا فقوانيننا لا تطبق عليهم»[5]. ومع هذا فإن ابن سلام يفيدنا بأن الثوري وهو من علماء الكوفة متوفٍ سنة 778ف[6]، من المدرسة العراقية القديمة لا يقبل بهذا. وقد أخذ ابن سلام شخصياً بما ذهب إليه سفيان الثوري مفضلاً له على رأي العوزي: «إنني أفضل هذا الرأي من بين الرأيين لأن الصلح في نظري أمان، فكيف نأخذهم عبيداً؟»[7].

---

(1) بقبولنا لفكرة الإلزام فإننا نتراجع عن ترجمتنا الحرفية «بشرط أن يبيعوا» لنتبنى «بشرط عليهم أن يبيعوا».

(2) الأموال.

(3) الأموال.

(4) ج شاخ، موسوعة الإسلام (انظر العوزي).

(5) الأموال.

(6) كان من أوائل العلماء الذين كتبوا ما حفظوه من روايات، وم. بلسنر ـ موسوعة الإسلام (انظر سفيان الثوري).

(7) الأموال. الأمان هو حماية الأجنبي في حياته وأمواله خلال فترة محددة. وكان النوبيون من أوائل من تمتعوا بالأمان. كثيراً ما نقف على كلمة أمان مرادفاً للعهد أو الذمة.

سنلاحظ، فيما يتعلق بالنوبة، أن بيع الأطفال لا علاقة له بدفع الجزية. واستناداً للمؤلفين، تعهد النوبيون بدفع ضريبة من العبيد والدواب، وعدم التعرض للتجارة، وقد تم هذا الصلح أو الهدنة[1] بعدما عانى العرب من خسائر جسيمة من النوبيين الذين كانوا نبالين خطرين. وقد أكد البلاذري غياب الجزية: «سألوا (أي النوبيين) عبد الله بن سعد أبي سرح الصلح والمواعدة[2]، فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدية ثلاثمائة رأس كل سنة وعلى أن يهدي المسلمون إليهم طعاماً بقدر ذلك»[3]. ومن ثم لم يكن بيع الأطفال في حالة النوبة، من الجزية، ولكنه إجبار بتقديم ثلاثمائة عبد في السنة في إطار «ترتيب»، وسنقف على اقتضاء هذا النوع من التسليم لاحقاً في ودان، وجرمة، وكوار. وعليه فإننا نعتبر بيع الأطفال ـ إلزاماً كان أو ترخيصاً ـ أُدخل بنداً في حالة برقة فقط «لم يقتصر على لواته إذ لا يجب أن ننسى أن لواته لا تمثل كامل أهل برقة الذين تم الاتفاق معهم، بالرغم من ذهاب بعض المؤلفين إلى قصر حديثهم في هذا الإطار على لواتة، فمن المؤكد وجود روم وأفارقة»[4].

بما أن هذا الشرط طبق على سكان برقة استثنائياً فعلينا أن نبحث عن السبب وراء ذلك لوجود ظروف غير عادية مثل المقاومة أو العصيان.

بعث عمرو بعقبة بن نافع ـ حسبما أورد ابن الأثير في النص 7 ـ إلى لوبية وأفريقية ففتحهما، بعدها جاء عمرو بنفسه إلى برقة من أجل إبرام اتفاق مع أهلها. وهكذا فإن عقبة ـ رجل الحملات على الصحراء ـ كان هو الفاتح الحقيقي لبرقة، بينما اقتصر دور عمرو على الإدارة. وقد سبق لأرمان أبيل «Armand Abel» أن نبه إلى مخالفات ارتكبها الفاتحون للقواعد التي وضعوها

---

(1) ج.ر. هيل.

(2) مواعدة تعني إعطاء وعد لشخص ما.

(3) فتوح البلدان، (عن الواقدي). انظر ف. رينو (استرقاق السود).

(4) عن الأفارقة، ج. مارسي (بلاد البربر المسلمة).

هم أنفسهم، بضغط ـ فيما يبدو ـ من المحاربين. وأرجع أبيل الغموض والتناقضات في الشهادات إلى ازدواجية الفتح: فقائد تستسلم له مدينة دون معركة، وآخر يأخذها عنوة ويخربها ويتركها للنهب ويطالب بشروط مبالغ فيها[1]. هل كان هذا ما حدث هنا؟إن نص ابن عذاري الذي لا يتعرض لبيع الأطفال، لا يوضح أن هناك فتحين وإنما استيلاء على الإقليم تبعته إجراءات ضريبية، بالإضافة إلى أنه النص الوحيد من بين التسعة والعشرين التي استعرضناها الذي يقول بعقبة فاتحاً لبرقة. من المحتمل جداً حضور عقبة للفتح لأنه شارك في حملة عمرو على مصر ومن هناك أرسله عمرو إلى زويلة. ولكن أو لا يكون ابن عذاري وهو كاتب مغربي من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي قد أراد أن يضيف شيئاً إلى الأمجاد الأسطورية لهذا البطل الذي يوقره أهل شمال أفريقيا؟ أو لم يكن عمرو قد تقدمته قوات يقودها ـ مثلاً ـ عقبة مهمتها الاستطلاع وقامت بهجمات مفاجئة؟[2] كما لا يجب التقليل، من دور الجواسيس[3] والعيون الذين يتسربون إلى المواقع المعادية أو يجندون عملاء في داخل هذه المواقع[4]. قد يكون من المحتمل أن عقبة ـ متقدماً على عمرو ـ استطاع القيام بأنشطة من هذا النوع. وأخيراً وكما سنرى لاحقاً، فإن عقبة هو الذي احتل المنطقة الواقعة بين زويلة وبرقة. أولا يكون هذا قد قاد إلى ارتباك عند ابن عذارى جعله ينسب فتح مدينة برقة إلى عقبة؟ أولاً يؤدي قيام مؤلفنا بالجمع بين لوبية وأفريقية في هذا الوقت إلى افتراض أنه إنما يلخص في عبارة موجزة ملحمة عقبة الأطلسية التي وقعت بعد ذلك؟ إن الاختلاق الأسطوري

---

(1) أ. أبيل ـ الجزية.

(2) هل إلى هذا النوع من العمليات يشير كتاب «حوليات جان، أسقف نيكيو» (نهاية القرن السابع). «زحف عمرو بعد فتح مصر على بنطابول وبعد أن هزمهم استولى على مغانم كثيرة وأعداد كبيرة من الأسرى وعاد إلى مصر. «طبعة زوتنبرج، D.R.Hill.

(3) عيون تعني ـ كذلك ـ مستطلعين.

(4) موسوعة الإسلام. انظر جاسوس.

المرتبط بمآثر عقبة، وغياب أي ذكر لعصيان أو احتلال بالقوة ـ وهو ما لا ينسجم بسهولة مع الجزية ـ يدفعنا إلى البحث عن سبب هذا الشرط القاسي في غير ما تقدم.

يوضح لنا نص ابن خلدون (النص رقم 47 من الهوامش السفلى) قيام عمرو بمسعى مزدوج: وصوله إلى برقة وإبرامه صلحاً مع اشتراط جزية، وحصاره طرابلس وعودته إلى برقة مع إبرام صلح بشرط ثلاثة عشر ألف دينار. هل يستنتج من هذا المقطع، وهو ـ على الأقل ـ مثير للدهشة، أن يكون هناك فتحان. نرجح أكثر، الوصول إلى اتفاق مبادىء أولاً ثم أُتبع بعد بضعة أشهر بوضع بنود مدققة.

يذكر ر. برنشفيق «R. Brunschvig» استناداً إلى ابن سلام حوادث قامت بها لواتة[1]، وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد بعقاب أوقعه العرب باللواتيين. ولكن قراءة ابن سلام توضح أن المقطع المعني يتعلق بحوادث متأخرة زمنياً عن حملة عمرو: «إن لواتة. . . . . هم الذين قال ابن شهاب بشأنهم: إن عثمان أخذ الجزية من البربر. وبعد ذلك أثاروا حوادث فتم أسرهم وعن هذا كتب عمر بن عبد العزيز»[2]. وهكذا فإن هذه الحوادث متأخرة زمنياً عن احتلال برقة ولا يمكن بأي حال أن تبرر البند الذي يحيرنا. كما يجب التأكيد على واقع أن العرب لم يدانوا قط بمثل هذا النوع من الأفعال والتجاوزات حتى بعد حالات تمرد دموية طويلة. ويكفي للبرهنة على هذا قراءة مؤرخي الفتح عند تناولهم لحالات التمرد في سوريا، والأردن والعراق وفارس[3].

يجب الاحتراس عند البحث عن تفسير لهذه الحوادث التي وقعت بعد

(1) ر. برنشفيق، ابن عبد الحكم.

(2) الأموال.

(3) في رسالته التي سندرسها لاحقاً يصر عمر بن عبد العزيز أن من أخذ نساء من لواتة فإما أن يتزوجهن، أو يعيدهن إلى أسرهن. أو لا يبرهن هذا على أن الظرف كان غير عادي؟.

عشر سنوات على الأكثر من وفاة محمد ﷺ(*)، من الأخذ بتعليقات الفقهاء. أن يقبل الليث والأوزاعي بعد ذلك بهذا البيع، وينقده سفيان الثوري، وأبو حنيفة وبعدهما ابن سلام، ويقبل به مالك بن أنس ولكن في إطار اتفاقية ولمدة سنة أو سنتين[1] فقط، إن ما يبرز حيرة الفقهاء أمام تصرفات عمرو، أن السنة تحض على الحلم والتسامح. لنتذكر عمر بن الخطاب وكرمه تجاه هذا العجوز اليهودي غير القادر على دفع الجزية[2]، وما قاله بخصوص العراق قبل وفاته بثلاثة أو أربعة أيام: «احذروا أن تُحملوا الأرض ما لا تطيق»[3]. وتسامحه وحلمه تجاه سكان تستر (فارس): «إن تستر كانت صلحاً فكفرت[4] فسار إليها المهاجرون فقتلوا المقاتلة وسبوا الذراري فلم يزالوا في أيدي سادتهم حتى كتب عمر خلوا ما في أيديكم»[5]. ووفق سلوك عمر سار عياض بن غنم عندما قبل من سكان الرها وحران في العراق أن يدفعوا فقط ما يستطيعون دفعه[6]. يبدو جلياً أن من الأنسب البحث عن الأسباب وراء تلك التصرفات في وقائع الحملة على برقة. إن الأدوار التي لعبها عمرو في الحملات على فلسطين وسوريا ومصر، وفي وقت متأخر في التحكيم بين علي ومعاوية تنسينا أحياناً انتسابه لقبيلة قريش وهو من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وهو سياسي بارع بعث به محمد ﷺ إلى عمان من أجل مفاوضة أمرائها الذين اعتنقوا الإسلام[7].

وكان يعرف مقاصد الرسول ﷺ التي جاء بها الوحي في سورة النساء،

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

(1) ابن سلام، و ر. برنشفيق.

(2) أبو يوسف يعقوب.

(3) أبو يوسف يعقوب.

(4) كفر: أنكر الإيمان.

(5) البلاذري.

(6) أبو يوسف يعقوب، عياض بن غنم الفهري كان تحت إمرة أبي عبيدة الذي كان عمر يريده خليفة له، وتوفي في سوريا من الطاعون الذي أدى بحياة عشرين ألف مقاتل من المسلمين.

(7) البلاذري. أ.ج. ونسينك ـ موسوعة الإسلام (انظر عمرو بن العاص).

الآيـة 94: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1] وسورة محمد، الآيتان [4 و5]﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾. في البداية كان النبي يرمي إلى نصر حاسم بمغانم، ولكنه لم يجد مناصاً اتقاء لأعمال العنف، من إبرام اتفاق (صلح، عهد مع منح ذمة الله وجوار)[2] مع أهل الكتاب في نجران. إن عملية التهدئة الأولى هذه تحمل في شروطها آثار استسلام رحيم[3]. لقد قام عمرو بن العاص في برقة بممارسة التقاليد البدوية في الحرب ـ وهو ما كان يسعى إليه محمد بداية ـ التي من الشائع فيها الغارات من أجل الغنيمة بغض النظر عن أي اتفاقات مبرمة.

يستشهد ج. شلهود «J. Chelhod» بقول الشاعر الأموي:

«أغرن من الضباب على حلول   وضبة أنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا»[4]

هذا ما يفسر تصرف عمرو بن العاص، فلو فحصنا النصوص 14 (ابن سلام وابن عبد الحكم)، و16 (البلاذري) عن الليث، ولو كان اللواتة عبيداً ما أجيز شرعاً بيعهم لأطفالهم. أو ليس هذا اعترافاً بأن وضع لواتة كان وضع رجال أحرار وفي نفس الوقت أجيز شراء أطفالهم من قبل المسلمين؟.

هل كان لدى عمرو بن العاص أسباب موضوعية جعلته ينهي حملته على

(1) شرح لكلمة مغانم.
(2) جوار: حماية تقدم لمن يطلب المساعدة.
(3) لقد أبرم الرسول لاحقاً اتفاقاً (صلحاً مع جزية وإيواء للمسلمين مع إيليا في الأرض البيزنطية. البلاذري (نجران)، وابن سلام(نجران وإيليا)، وكذلك أرمان بيل في مقال حول التحول من الجزية كفدية إلى الجزية كضريبة. وتوجد ترجمة لاتفاقية نجران في كتاب La Cité Musulmane لمؤلفه: L. Gardet.
(4) ج شلهود. لا نعرف من هو الشاعر قائل هذه الأبيات. (الشاعر هو عمير بن شييم القطامي. المترجم).

«الطريقة البدوية»؟ يقول ياقوت (النص 13) نقلاً عن ابن الفقيه: إن جابي الضرائب لم يأت إلى برقة قبل سيطرة المسلمين على البلدان المجاورة. نعرف المقاومة الشرسة للبربر، ونعرف أن الاستيلاء على مناطقهم استغرق من المسلمين مدة أطول مما تطلبها فتحهم لأي بلد آخر. هل اعتقد عمرو أن من المفيد القيام باستعراض للقوة في منطقة غير مستقرة تماماً[1]؟. يجب مراعاة أن القانون في هذه الحالة يجيز له حتى القتل ـ على الأقل لاحقاً ـ «ودعوا الكفار قبل القتال للإسلام ثم إن امتنعوا عن الإسلام دعوا إلى أداء جزية بمحل يؤمن على المسلمين وإن لم يجيبوا للجزية أو أجابوا لها في محل لا تنالهم فيه أحكامنا قوتلوا»[2].

يقول لنا هذا النص ذاته إن أغلب السكان في هذه المناطق تحولوا إلى الإسلام ودفعوا الزكاة (العشر ونصف العشر)[3]. هل رأى البربر ميزة مالية في عادة العرب عدم تحميل معتنقي الإسلام الجدد أي أعباء مالية إلا الزكاة، أم أن المسلمين رأوا حماسهم الديني ينقلب ضدهم؟ يتوعد القرآن الذين يرفضون اعتناق الإسلام، يقول في سورة الأنعام الآيات 6 و7: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ وفي سورة سبأ، الآية 30: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، والآية 33: ﴿. . . . وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. . . .﴾. قد نميل إلى الاعتقاد بأن التطير المعروف عن البربر أججته آيات من هذا النوع ولعب دوراً في اعتناقهم الإسلام إلا أننا لا يمكن أن نمنع أنفسنا من التساؤل عما إذا كان هذا

---

(1) وفق البلاذري كانت برقة مكاناً آمناً.

(2) خليل بن إسحاق.

(3) يدفع العشر في البلدان المروية بالمياه الجارية، ونصف العشر في البلدان المروية صناعياً. (انظر يحيى بن آدم)، وتعني الكلمة غالباً معنى الصدقة أو الزكاة (انظر أ. قروهام، موسوعة الإسلام ـ العشر).

التحول الفجائي والعام، الذي تحدث عنه ابن الفقيه، صادقاً، وعما إذا لم تكن قد فرضته ضخامة الضريبة المفروضة[1]. إن تحول أعداد كبيرة إلى الإسلام، سواء كان صادقاً أو لغرض، قد يكون أيضاً وراء زيادة عمرو للطبيعة التعسفية للجزية على الذين لم يعتنقوا الإسلام من أجل أن يحصل لبيت المال على مبالغ كافية.

قد يكون هناك سبب موضوعي آخر يتعلق بذهنية البربر أنفسهم. يذكر التجاني، وهو رحالة تونسي من القرن الرابع عشر، أن البربر الطرابلسيين كانوا يبيعون نساءهم وأطفالهم للعرب بأسعار يتفق عليها بين الطرفين[2] وذلك من أجل دفع الضرائب[3]. وإذا كان هذا تصرفاً شائعاً بين البربر في القرون الوسطى فإن من المرجح أن يكون موجوداً عند اللواتيين قبل اقتحام العرب لبرقة.

أوَلا يجب البحث عن دوافع ذاتية حركت عمرو بن العاص نفسه؟ لقد قيم التاريخ الحديث هذا الحاكم لمصر بطرق مختلفة تماماً، فهو ـ كما سبق لنا قوله[4] ـ سياسي بارع، ومحارب مندفع ولكنه نافذ البصيرة حاد الذهن[5]، وهو رجل مخلص حكيم عادل معتدل ومتقشف عازف عن ممارسة الضغوط على الشعوب المغلوبة، وإليه يرجع الفضل في كثير من أعمال المنفعة العامة[6]. وكان قائداً عظيماً حريصاً على راحة قواته والتثبت من حسن نوايا السكان[7]. إنه أحد هؤلاء الفاتحين الطامحين للثراء المُتَجاوزين من قواتهم والمتبوعين عادة

---

(1) كما ستكون الحالة في سنة 831/ف عند أقباط الساحل بين روزت ودامييت الذين تحولوا جميعهم تحت ضغط الجزية. يقول المقريزي «إن المسلمين تفوقوا عدداً في أغلب القرى، ولا نعرف أمة تحولت كلها إلى الإسلام في ساعة واحدة كما حدث مع الأقباط».

(2) تناول المؤلف شرح كلمة جباية (المترجم).

(3) التجاني.

(4) أ. ج ونسنيك.، موسوعة الإسلام (انظر عمرو بن العاص).

(5) فيليب ك. هيتي Philip k. Hitti.

(6) ر. كورنفان ـ تاريخ أفريقيا.

(7) د.ر هيل D.R. Hill.

بأعداد من الناس الباحثين عن ربح سهل[1] باستغلالهم الحوادث والمصائب. وكان ـ كما يبدو ـ رجلاً فخوراً معتداً بنفسه: بعد تولي عثمان الخلافة مباشرة أراد مكافأة أخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بتعيينه حاكماً لمصر مسؤولاً عن الإدارة والخراج مع الإبقاء على عمرو بن العاص قائداً عسكرياً لما يتميز به في هذا المجال. ولكن عمرو رفض: «أنا كماسك قرني البقرة والأمير يحلبها»[2].

إن المؤرخين العرب قساة بشكل عام تجاه عمرو بن العاص. يعطي ابن سعيد حول عزل عثمان له رواية مختلفة: في عهد عمر بن الخطاب كان عبد الله بن سعد حاكماً للصعيد بينما كان عمرو مسؤولاً عن مصر السفلى، وعندما تولى عثمان الخلافة طلب إليه عمرو أن يوليه أمر مصر بكاملها ويعزل عبد الله، ويقال أن عثمان رفض قائلاً: إنه لا يستطيع أن يتصرف هكذا مع ابن امرأة أرضعته[3].

يورد البلاذري الحكاية الآتية: عندما علم عمر بن الخطاب أن عمرو يتمتع بخيرات منها عبيد وحيوانات لم يكن يملكها قبل توليه حكم مصر، كتب إليه بأنه (أي عمر) أُخبر بتصرفاته غير المقبولة وأمره باقتسام ما عنده مع مبعوثه، محمد بن مسلمة، يقال أن عمرو صرخ قائلاً: «إن زماناً يعاملنا فيه ابن حنتمة[4] هذه المعاملة لزمان سوء». وأجابه المبعوث: «إنه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غرزها ويسؤك تكؤها»[5].

---

(1) أ. أبيل A. Abel.

(2) البلاذري.

(3) ابن سعيد، المغرب: من الممكن أن تعيين عبد الله بن سعد على الصعيد جاء نتيجة لغضب عمر على عمرو وهو ما تناوله البلاذري في المقطع اللاحق. هل من الممكن تصور أن عمرو يقدم مثل هذا الطلب وهو يعرف السمعة السابقة لعبد الله بن سعد والذي كان يفتخر بأنه غير الوحي عندما كان كاتباً للنبي؟ لو حدث هذا لكان مناورة سيئة من قبل عمرو لأن عثمان هو الذي حصل على العفو لعبد الله من محمد بعد أن كان قد أهدر دمه.

(4) حنتمة هو اسم أم الخليفة عمر بن الخطاب.

(5) تبنينا طبعة دي قوجي De Goeje.

لم يكن ابن خلدون، كذلك، ليناً تجاه عمرو بن العاص، ويورد أن أول من استعمل المنبر كان عمرو عندما بنى مسجده في مصر، فكتب إليه عمر بن الخطاب «لقد بلغني أنك تستعمل منبراً وهكذا تعلو فوق المسلمين. أَوَلاَ يكفيك أنك واقف بينما المسلمون عند قدميك؟ أرجو أن تهدمه حالاً»[1].

يصف المقريزي رياء عمرو وطمعه وقسوته الذي لم يتردد في إعدام قبطي أخفى ذهبه، وذلك ليرهب الأقباط الآخرين ليسلموه طوعاً كنوزهم[2]. سنلاحظ أن ما نسميه رياء يمثل للبدوي في الحرب خدعة وهي ميزة أساسية في القائد/ العاقد[3] أكثر بكثير من ميزة الشجاعة والإقدام. إن ما يهم هو نتيجة المعركة، والقائد المهزوم، مهما كانت شجاعته في القتال يُهجر بسرعة بل قد يخان. هل كان عمرو يتمتع بهذه الميزة الأساسية التي تجعله محترماً في قواته؟.

هل يتحمل أول فاتح للبربر لوحده مسؤولية هذه الاتفاقية؟ يبدو أن الآراء التي عبر عنها المؤلفون العرب تعزز حكم أرمان أبيل «Armand Abel» عن القادة العسكريين وجنودهم. في حالة أفريقيا الشمالية، يمكننا التساؤل عما إذا لم يكن البحث عن الغنائم هو الهدف الأهم للفاتحين خلال مدة طويلة، وعما إذا لم تكن التجاوزات هي التي أثارت المقاومة الشرسة للبربر، وهو ما جعل أعمال الفتح مؤلمة واستغرقت وقتاً طويلاً، ومهد لنجاح حركة الخوارج ووضع لها أساساً دائماً ما زال مستمراً حتى اليوم. إن الرجال في الميدان ليسوا

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، والعبر. أُدخل المنبر في عهد النبي وكان محترماً في ذلك الوقت. ويقال أن الهدف كان تمكين الناس من سماع الرسول عندما يخطب. من المرجح أكثر أنه كان بمثابة كرسي الحاكم القوي ومحمد استعمله عندما أراد أن يخطر الناس بقراراته المهمة. ويقال أن عمر أعطى الأمر لعمرو بهدم المنبر لأن هذا من اختصاص الخليفة. الأمر ليس واضحاً فقد وجدت منابر في الولايات في سنة 16هـ/ 637ف. يقال أن عمرو استعمل منبراً بعد وفاة عمر.

(2) المقريزي ـ كتاب، أ.س. تريقون ناقلاً عن جان دي نيكيو: «كان عمرو قاسياً، وعامل المصريين دون شفقة ولم يكن يحترم الاتفاقات».

(3) شرح لكلمة العاقد (المترجم).

مسؤولين وحدهم لقد كان الخلفاء والولاة حريصين على مغانم الفتوحات: عندما ترك حسان بن النعمان أفريقية سنة 78هـ/ 8 ـ 697ف مر بمصر فاستولى واليها عبد العزيز بن مروان على ما كان معه من الأسرى ومن بينهم فتيات بربريات ذات جمال لا نظير له، وقد سر الخليفة عبد الملك بن مروان أيما سرور لرؤية المغانم التي أحضرها له قاهر قرطاج[1] عند قدومه عليه.

يعتبر البلاذري (النص 16) أن بيع لواتة لأطفالهم ونسائهم كان التزاماً ليتمكنوا من دفع الجزية[2]. هل نستطيع أن نستنتج من هذا النص شيئاً آخر غير عدم قدرة لواتة على دفع جزية باهظة؟ لا يمكن تفسير هذه التصرفات بما جاء في القرآن من إلزام بإذلال أهل الذمة وتحقيرهم (سورة التوبة ـ الآية 29)، ولا بتأكيد تفوق الرجل على المرأة (سورة البقرة ـ الآية 228، وسورة النساء الآية 38). يعتبر د. هـ. هيل «D.H.Hill»، بعد ما تحقق من أن أياً من النصوص التي تناولت فتح أفريقيا الشمالية لم يورد مصاحبة النساء للحملة. إن من «الطبيعي» أن يبحث العرب عن هذا الشكل من أشكال التعويض بعد ثلاث سنوات من الحرب[3]. إنه يفترض أن اتفاقاً ما أبرم، بممارسة بعض الضغط دون شك، بمجرد وصول العرب إلى برقة، ثم تمت المصادقة على هذا الاتفاق عند رجوعهم من طرابلس. وعند المصادقة تم تحديد مقدار الجزية بطريقة يمكن معها في المستقبل الدفع نقداً، أو عيناً في شكل عبيد، أو نقداً وعيناً. وبالرغم من أننا لا نستطيع أن ننكر بالطبع، حاجة المحاربين في هذا المجال إلا أن مقاربة هيل تثير الكثير من الاعتراضات. صحيح أنه ذكر فقط ثلاثة نصوص تتعلق بوجود النساء مع المحاربين، إلا أننا نعرف أن المجاهدين، مثل محاربي

---

(1) ابن عبد الحكم ـ طبعة جاتو.

(2) البلاذري: يأخذ رواية ابن سلام الذي أخذها عن أستاذه عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد بن حبيب، وهذا الأخير أستاذ ابن لهيعة والليث، وهو من أقدم الرواة وكان في استطاعته لقاء شهود عيان للفتح.

(3) د. ر. هيل.

الحروب البدوية قبلهم وبعدهم، كانوا متبوعين عادة بأسرهم[1]، وهو ما يفسر جزئياً، أنهم لم يروا فائدة من الاستقرار في التجمعات السكنية وأنشأوا معسكرات تحولت لاحقاً إلى مدن جديدة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان. بدون هذه المعسكرات حيث استقروا بأسرهم كان من الممكن امتصاصهم سريعاً في سكان المناطق المفتوحة خاصة إذا عرفنا أن عدد المحاربين العرب في كل هذه المناطق لم يتجاوز المائة ألف في عهد عمر، والمائتي ألف في العهد الأموي حين وصل التوسع إلى أوجه، ويضاف إليهم من يأتي إلى هذه المعسكرات من الخارج ليستقروا تجاراً، أو حرفيين أو بغايا[2]. أو لا يبرهن عثور هيل «Hill» على ثلاث نصوص فقط تفيد حضور النساء إلى جانب المحاربين خلال أعمال التوسع في الشمال الأفريقي على تأكيد حضورهن في هذه المنطقة؟ إن غياب النساء العربيات أمر لا يمكن التحقق منه، وحتى لو أظهره اكتشاف نصوص مفقودة فإن الطابع الاستثنائي لبنود اتفاقية برقة يبقى قائماً. يجب التسليم بأن بيع الأطفال والنساء كمعادل لدفع الجزية حدث فريد من نوعه خلال ظاهرة الفتح والتوسع العربي، ولا يمكن تفسيره إلا بطمع الفاتحين وشراهتهم، ولم يكن ليحدث إلا «دون علم الخليفة الصالح عمر»[3]. كان عمر صالحاً دون شك، ولكنه كثير الإلحاح على ولاته إذا لم يتحقق دخل كاف للخزينة من الضرائب.

---

(1) كاهن، موسوعة الإسلام (انظر جيش)، قود فرو ـ ديمومبين في «محمد» يذكر أمثلة عديدة من الحملات في الجزيرة: كانت النساء تجمع السهام التي يمكن استعمالها، وتشجع المحاربين بالتذكير بمآثرهم في المعارك السابقة، وتداوي الجرحى، وكان من بينهن المسلحات على ظهور الجمال، ولم تتردد إحداهن في خوض غمار المعركة، وقد أجاز محمد هذا لأنه اختار إحدى زوجاته لمرافقته في غزوة خيبر وكان يأذن لأصحابه بالاقتداء به. وكان محمد يقدم الهدايا لأكثرهن إقداماً. بالنسبة للعصر الحديث لنقرأ «أعمدة الحكمة السبعة».

(2) ن. أليسيف (الشرق المسلم) وفيه يصف هذه المعسكرات، ويتناول، عرضاً، نقص النظافة فيها وما تسببت فيه من أوبئة خطيرة حتى إن الطاعون قتل من العرب أكثر مما قتل في المعارك.

(3) أ. آبيل.

يجب الاعتراف بأن الضمانات التي أعطيت للبربر كانت حدوداً دنيا، حتى لو سلمنا بأن الحرب لم تكن لغرض السلب والنهب، وقد حيرت هذه التصرفات العرب أنفسهم كما سبق لنا الوقوف عليه، ولم تتفق المذاهب على جواز شراء نساء أهل الذمة وأطفالهم أو قبولهم في مقابل الضريبة. لقد أثار بيع النساء لاحقاً رد فعل من السلطة، هذا ما قال به الرواة على الأقل. نقرأ عند ابن سلام[1]: حدثنا يحيى بن بكير[2]، عن عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن حبيب: كتب عمر بن عبد العزيز بخصوص اللواتيات: من أعتق إحداهن فلا يأخذن من ثمنها شيئاً[3]، أي الثمن الذي يجعل معاشرته لها مشروعة ـ أو كلمة تشبه «الثمن» ـ ويستطرد: ومن أراد الاحتفاظ بها فعليه خطبتها من والدها وإلا رجّعها إلى أسرتها. قال أبو عبيد (ابن سلام): اللواتيون مجموعة من بربر لواتة، وأعتقد أن لديهم عهداً»[4]. وإلى عمر بن عبد العزيز (3/ 682ف ـ 720ف) تنسب الرواية أول إجراءات تمييزية تجاه أهل الذمة[5]، وذلك بالرغم أن هذا الرجل الورع «كان يضع الدين فوق أي اعتبارات دنيوية»[6]، وقد حاول طوال حكمه أن يجعل أتباع المعتقدات الأخرى يتحولون إلى الإسلام طوعاً. وذهب إلى حد دفع مخصصات من بيت المال[7] لأهل الذمة المعوزين، وقد نجحت سياسة هذه في بلاد البربر. في سنة 718ف عيَّن عمر بن عبد العزيز

(1) الأموال.

(2) يحيى بن عبد الله بن بكير راوية مصري تتلمذ على مالك بن أنس، والليث وابن لهيعة، انظر ابن عبد الحكم ـ مقدمة. جاتو، دي سلين في ابن خلكان.

(3) وهو ثمن فرجها الذي استحلها به.

(4) نص البلاذري اقصر، ويذكر فقط الإلزام بزواج اللواتيات أو إرجاعهن لأسرهن، وتمتع لواتة بعهد. ويعود الإسناد هنا إلى يزيد بن حبيب وعن ابن لهيعة وعبد الله بن صالح أستاذ البلاذري.

(5) كاهن، موسوعة الإسلام، انظر ذمة. أ. فتال، الوضع القانوني.

(6) المسعودي (تنبيه).

(7) ابن سلام.

إسماعيل بن عبيد الله والياً لأفريقية واتبع إسماعيل سياسة الخليفة: «كان الوالي الجديد مسؤولاً عن الحرب والخراج والزكاة، وقد سار سيرة حسنة، وتحت إمرته لم يبق بربري واحد لم يتحول إلى الإسلام»[1]. وكان عمر متسامحاً رفيقاً بالذميين، حريصاً على ألا يثقلهم بضرائب[2] مرهقة وذلك مراعاة لعدم إساءتهم لمبادىء الإسلام. ليس لدينا برهان يؤكد صحة صدور هذا الكتاب عن عمر بن عبد العزيز، ولكنه يتسق مع مسلك هذه الشخصية العادلة الكريمة الورعة. لقد شعر المسلمون بالخطأ الذي ارتكبوه في برقة بعد ثمانين سنة من فتحها. أو ليس هذا ما جعل ابن عبد الحكم يقول عن الصراع العربي ـ البربري سنة 125هـ/ 3 ـ 742ف: إن الخوارج الصفرية يقولون بجواز أسر النساء[3]؟ لماذا استحق هذا الذكر، وقد كان من المعروف إباحته؟ أو لم يرد ابن عبد الحكم القول بأن الصفرية يجيزون التمتع بأسيراتهم؟[4]. وفي هذه الحالة أَوَلاَ يتعلق إنكار المؤلف على الخوارج بنقطة شائكة جداً؟ أو ليس هذا النقد محاولة لتبرير تصرفات مشابهة قام بها العرب تجاه البربر الأوائل الذين قابلوهم؟ أو لم يرد ابن عبد الحكم أن يظهر البربر مدانين في هذا المجال عندما أوضح بعد ذلك أن السنة أطلقوا سراح الذميين من نفوازة الذين كانوا أسرى[5] عند الخوارج الصفرية؟ ونلاحظ، أخيراً، أن ابن عبد الحكم أغفل الإشارة إلى كتاب عمر بن عبد العزيز الذي أوجب الزواج من اللواتيات أو إعادتهن إلى أسرهن، وذلك بالرغم من أن ابن لهيعة هو أحد مصادره كما كان مصدراً لابن سلام والبلاذري اللذين أوردا الرواية كاملة. حاول ابن عبد الحكم تجنب تأكيد أخطاء الفاتحين

---

(1) ابن عبد الحكم.
(2) K.V.Zettersteen.
(3) ابن عبد الحكم.
(4) R. Brunschvig، يربط بين من يستحلون سبي النساء، ويستحلون النساء (بمعنى الحق بالتمتع بالنساء الأسيرات)، ويقول بأن السبي يعني الأسر، والأسير.
(5) ابن عبد الحكم.

الأوائل، وهي أخطاء دفعت جسامتها خليفة تقياً إلى استشعار أن من واجبه تصحيحها؟ إن شعور العرب بالذنب هو الذي دفع بعضهم لتصحيحها ودفع آخرين للسكوت عن هذا المسعى!

لا شك أن وجهة نظر عمر بن عبد العزيز أحدثت الكثير من الجدل في ذلك العصر، ومن المؤسف أنه لم يصلنا أي صدى لتلك المناقشات حول معاملة اللواتيات، وردود الفعل لكتاب عمر. ولكن!

ربما لم تمثل عودة النساء البربريات إلى أسرهن أي مشكلة شرعية لو لم يكن لديهن أطفال[1]، فعمر الثاني (يعني عمر بن عبد العزيز)(*) كان يسير في الواقع وفق السيرة الكريمة لعمر الأول (عمر بن الخطاب)(*)، والذي يتحدث كثير من الرواة عن تسامحه ومعاملته الحسنة لأهل الذمة[2]. ويروى أن النبي نفسه وصى بعدم إساءة معاملتهم: «إلا من ظلم معاهداً أو نقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[3].

وبالعكس، لا بد أن زواج اللواتيات بالمسلمين أثار الكثير من الجدل. نعرف أن المزايا الممنوحة لأهل الكتاب وُسعت لتشمل المجوس بالرغم من أن حقيقة وضعهم حيرت الإسلام[4]. بالرغم من هذا عومل المجوس كذميين من درجة دنيا فيما يتعلق بوجهين بشكل دقيق، وهو ما وصلنا بوضوح: «فيما يتعلق

---

(1) لم يتناول كتاب عمر حالة الأطفال الذين قد تكون اللواتيات أنجبن من سادتهن العرب. من المحرم فصل الطفل عن أمه حتى سن السابعة تقريباً. إذ اعتبرت المعاشرة الناجمة عن التساكن جائزة، كان للطفل الحق في الميراث، انظر R. Bunschving، وموسوعة الإسلام (عبد). فيما يتعلق باستحالة إنكار السيد للبنوة، انظر خليل بن إسحاق.

(*) إضافة من المترجم للتوضيح.

(2) أمثلة عند الفتال، انظر الفصول؛ «الحقوق المدنية والسياسية»، «الذميون والضريبة»، و«المسألة الذمية».

(3) أبو يوسف يعقوب، وابن سلام.

(4) نقل عن النبي قوله: «عاملوهم كما تعاملون أهل الكتاب». وأن عمر بن الخطاب قال: «لا أعرف كيف أتعامل مع المجوس فهم ليسوا من أهل الكتاب»، (ابن سلام).

بالعجم[1] من أصحاب الكتاب والمشركين وعبدة الأصنام والنار، لقد أخذ النبي الجزية من مجوس هجر[2]، والمجوس مشركون وليسوا من أهل الكتاب، ونعتبرهم من غير العرب، ولا نتزوج نساءهم ولا نأكل ذبائحهم»[3]. كما أنه ليس من المباح للمسلمين معاشرة المجوسيات، وهو ما يمثل نقطة شرعية هامة، ورد: «إذا أُسرت مجوسيات أو وثنيات، فيعرض عليهن الإسلام ويجبرن عليه، وتجوز مساكنتهن واتخاذهن خدماً ولكن لا تجوز معاشرتهن»[4].

بأي حجة شرعية أمكن أن يمثل هذا الزواج خياراً مقبولاً فرضه عمر بن عبد العزيز؟ إننا ملزمون أمام هذه الواقعة أن ننسى المعاملة السابقة للبربر كمجوس، فهم بإباحة هذا الزواج عوملوا كأهل كتاب ضمنياً. إننا لنأسف لعدم وصول أي أثر إلينا حول النزاعات التي من المحتمل أن أثارها هذا التصرف.

ندرك بوضوح أكثر الأغراض التي حركت العرب. لا شك أن سنة النبي التي تلزم باحترام الذمي، وتستنكر الإساءة إليه قد لعبت دوراً في عهد الورع عمر بن عبد العزيز. ولكن عندما نأخذ في الاعتبار أن عمر كان المبادر باتخاذ قرارات جائرة ضد أهل الذمة[5]، فإننا لا يمكن إلا أن نستغرب هذا التناقض.

---

(1) نعطي لكلمة العجم هنا معناها الاشتقاقي الأصلي من الكلمة اليونانية بشكل عام. انظر F. Gabreili، موسوعة الإسلام.

(2) واحة في شرق الجزيرة تحول أهلها مبكراً للإسلام.

(3) أبو يوسف يعقوب. كرر ذكر التحريم. إن المذهب الحنفي ـ وأبو يوسف أحد مؤسيسه ـ هو المذهب الوحيد الذي يساوي بين المشركين وأهل الذمة، ولكنه في حالة تحريم الزواج المختلط يساوي بين المجوس والمشركين مراعياً ما ورد في سورة البقرة ـ الآية 220: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾. ويذكر ابن سلام الذي لا ينتمي لأي مذهب ـ هذا المنع المزدوج أيضاً. : «كتب الرسول إلى أهل هجر يدعوهم للإسلام. من تحول منهم للإسلام قُبل منه، ويلزم الآخرون بالجزية ولا تؤكل ذبائحهم، ولا يتزوج من نسائهم. «الأموال». انظر الفتال فيما يتعلق بالزواج المختلط وفق المذاهب المختلفة.

(4) أبو يوسف يعقوب يضيف أنه يجوز معاشرة الأسيرات المسيحيات واليهوديات في حالة رفضهن الإسلام.

(5) يقال أنه هو الذي فرض عليهم لبس الأحزمة، ومنعهم من التزيي بزي المسلمين خاصة لبس العمامة، وكذلك استعمال نفس سروج المسلمين.....

إن تصرفه تجاه لواتة يستجيب لاعتبارين؛ أحدهما اقتصادي والآخر سياسي بارع. من الجانب الاقتصادي، كانت بنود الاتفاقية المبرمة مع لواتة ما زالت سارية المفعول، وكان التحول إلى الإسلام هو الوسيلة الوحيدة لتفادي هذه البنود. وقد سهل من اعتناق الإسلام المثل الذي أعطاه الوالي إسماعيل بن عبيد الله الذي حدثنا عنه ابن عبد الحكم[1]. لقد نتج عن تحول أعداد كبيرة للإسلام نقص مؤكد في دخل الخزينة. كان من المهم إبطاء هذه الحركة لأن أي تحول جديد إلى الإسلام كان يعني زيادة الضريبة على الذين احتفظوا بمعتقداتهم وعلى المسلمين كذلك[2]. كان من الواضح أن زيادة الضريبة على سكان البلاد المفتوحة هي الوسيلة الأكثر فاعلية للحد من التحول إلى الإسلام. في الجانب السياسي كان من الأهمية البالغة اتخاذ إجراء تهدئة تجاه البربر، فقد استغرق فتح إفريقية زمناً طويلاً وكان الاستقرار هشاً، فلم يُستول بشكل نهائي على قرطاجنة إلا سنة 698ف، ولم يتمكن حسان بن النعمان من هزيمة الكاهنة إلا سنة 702ف، وذلك بعد أن نجحت في طرد العرب إلى طرابلس مما اضطر الوالي حسان بن النعمان للجوء إلى برقة.

كان كتاب عمر ينطبق على لواتة دون غيرها من سكان برقة، ومن سوء التقدير أن نقلل من أهمية هذا الإجراء المثير للانتباه. لقد كانت لواتة إحدى أكبر القبائل البربرية[3] وهي معروفة بروح التمرد والعصيان عندما تساء معاملتها[4] وتظلم. وكانت هذه القبيلة ـ التي يوقعها المؤرخون الأوائل في

---

(1) انظر ما سبق بالخصوص.

(2) في العراق، في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن فرض الحجاج إجراءات أخرى: ألزم المعتنقين الجدد للإسلام بالعودة إلى الحقول التي تركوها والاستمرار في دفع الخراج. انظر موسوعة الإسلام، A Dietrich انظر (الحجاج). Cl. Cahen (انظر جزية).

(3) ابن خلدون: البربر.

(4) في القرن السادس، في عهد جوستنيان، هزت ثورتهم الحكم البيزنطي في أفريقية. وقد انضمت إليهم العديد من القبائل واستطاعوا هزيمة الجيش البيزنطي الذي رفض جنوده من البربر المشاركة في المعارك. وتطلب وضع حد لهذا العصيان مهارة واحد من أحسن القادة في الامبراطورية جان تروقليتا، وقد هزموه في البداية وأخرجوه من طرابلس حتى قرطاجنة قبل أن يهزمهم =

صحراء مرمريكا (دفنة ـ البطنان) من برقة تهدد بالهجرة غرباً، وسنراها في سنة 8/ 757ف تنضم مع قبائل نفوسة ونفوازة إلى التكتل الأباضي القوي لأبي الخطاب المعافري، وكان أساس هذا التكتل هواري بحت، وقد كونت لواء من ألوية جيش أبي الخطاب. إن هذا التكتل هو الذي هزم قبيلة ورفجومة الصفرية واحتل القيروان وذبّح العرب الذين كانوا في المدينة، واتخذ من المسجد الكبير اسطبلاً لخيوله واغتصب الحريم[1]، وذلك بعد استيلائهم على طرابلس. ونعرف النجاح الذي حققه الخوارج لدى البربر بسبب عقيدتهم الداعية للمساواة. لقد استشعر عمر بن عبد العزيز الخطر، وهل من تصرف أبرع، في ذلك الحين، من تصحيح المظلمة التي لحقت بإحدى أقوى القبائل البربرية؟ من المؤسف أن الضرر قد وقع، بل وسيتفاقم سنة 720ف ـ وهي سنة وفاة عمر ـ بتعيين يزيد بن مسلم والياً على أفريقية وقد حاول أن يأخذ البربر بنفس الإجراءات القاسية التي طبقها الحجاج في العراق.

إن الشروط التي فرضها عمرو بن العاص على لواتة بمجرد دخوله برقة حددت المسلك للفتح. فبعد مضي قرن على بدء الفتح بقيت أفريقية، بالنسبة للعرب، أرض غنائم. كان عدد العرب قليلاً وكانوا موزعين على أقاليم شاسعة ولم تكن تأتيهم، عملياً، من الشرق أي إمدادات، فلم يكن الخلفاء يبعثون دعماً للقوات إلا على أثر هزائم تلحق بالعرب، وأحياناً نادرة عند الرغبة في غنيمة أكبر وأثمن. كان الولاة يتعاقبون، وتنتهي الولاية عزلاً أو قتلاً من العصاة. وسيحكم أفريقية، في النهاية، أمراء شرقيون أو مغامرون، وستنفصل، آجلاً أو عاجلاً عن سلطة الخليفة. إن التجاوزات التي بدأها عمرو أدت إلى عدم استقرار فتوحات عقبة المجيدة.

= سنة 548ف بعد معارك استمرت سنتين. وسنراهم لاحقاً يشاركون في ثورة الخارجي أبي يزيد والمعروف بصاحب الحمار ضد الفاطميين في أفريقية. انظر ابن خلدون (البربر)، ج، ص232.

(1) النويري، ابن خلدون، انظر ت. لويكي.

الصحراء بين برقة، وزويلة ـ ودان

الصحراء وزويلة:

لم يكتف عمرو بن العاص بالتوسع غرب برقة، فقد بعث بعقبة بن نافع نحو الجنوب سنة 643ف ـ 644ف بعد فتح برقة وربما ـ كذلك ـ بعد فتح أجدابيا[1] وطرابلس. تناولت الكثير من النصوص حملة عقبة نحو الجنوب وأشملها ما كتبه البلاذري[2] «كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلها حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، (وأضاف عمرو أيضاً) أنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها[3]

---

(1) ياقوت (انظر أجدابيا)، يفيدنا أن هذه المدينة ـ الواقعة على مسافة 220كم جنوب غرب برقة ـ فتحها عمرو بن العاص صلحاً وبجزية قدرها خمسة آلاف دينار، وأن مجموعة كبيرة من سكانها البربر اعتنقوا الإسلام.

(2) فتوح البلدان.

(3) تعبير «بينه (أي عمرو) وبينها (أي زويله) استعمله البلاذري في الصيغ المختلفة التي تناول بها اتفاقية برقة. وتعبير «فتحمل إليه بمصر» تفيد بأن عمرو كان في مصر، مقر حكمه بعد تهدئة الصحراء.

سبق لنا التحقق من غياب عمرو عن برقة أثناء بعض العمليات، انظر من عبد الحكم (النص 4 ص48، والهامش 7 ص48). هل كان عمرو في برقة أو في مصر عندما أعطى الأمر =

ما رأى أنهم يطيقونه. وأمر عماله[1] جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر. وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم»[2].

ما الذي يمكن التفكير فيه؟ من المسلم به أن عمرو كلف عقبة بغزوة طويلة على الصحراء، وكان هذا مُتعوداً على الصحراء عارفاً بها. كان من الطبيعي أن يتخذ هذا القرار فواحة زويلة ـ بهذا الاسم أو غيره ـ كانت معروفة قبل وصول العرب[3] وهي تتمتع بموقع استثنائي في أهميته تنتهي إليها الطريق

= لعقبة بالتوجه إلى زويلة؟ وفق المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار، والحميري جاء قرار عمرو بعد احتلال جبل نفوسة (الملاحظة أدناه). في هذه الحالة، من المحتمل أن عقبة شارك في الحملة على طرابلس.

(1) هكذا ترجمت كلمة عمال. قد تعني كلمة عامل والياً أو مسؤولاً إدارياً لولاية.
ومعنى جابي تأكد عند أبي يوسف يعقوب، والطبري. عند الطبري والبلاذري يمكن أن يفيد مساعد الحاكم وهذا قد يكون المقصود هنا. العمال قد يكونون معينين من الوالي أو من الخليفة مباشرة. حول اختصاصات العمال يمكن العودة إلى A.A. Durt أو موسوعة الإسلام ـ كلمة عامل.

(2) ما أورده المؤلفون حول هذه الحادثة هو أقل تفصيلاً، فهي تذكر فقط أن عمرو بعث بعقبة إلى زويلة وأن المنطقة الواقعة بين زويلة وبرقة تحت سيطرة المسلمين. انظر ابن عبد الحكم (صيغ مطابقة: البكري، وياقوت ناقلاً عن البكري)، والطبري وكتاب الاستبصار الذي يؤرخ للحادثة «عندما احتل عمرو بن العاص برقة وجبل نفوسة»، وكذلك الحميري (انظر زويلة)، وابن سعيد (المغرب)، رأينا أن ابن الأثير يقول بفتح هذه المنطقة صلحاً سنة 21هـ قبل احتلال برقة وطرابلس وهو ما نستغربه منه. هل هذا التأكيد من جانب هذا المؤرخ نتيجة اختلاط الأمور عليه وغموضها؟ هل كانت هناك غزوة قبل الحملة التي تم فيها الفتح؟ (انظر الهامش رقم 3 ص41).
إننا نفترض أن Tadeusz Lewicki ينكر هذه الواقعة لأنه يفيد بأن زويلة ظهرت في المصادر لأول مرة خلال الحرب بين العرب السنة، والبربر الأباضيين سنة 3/ 762ف. (دراسات مغربية).

(3) الإدريسي: ينسب إنشاء زويلة إلى عبد الله بني الخطاب الهواري، مؤسس أسرة بني الخطاب التي حكمت فزان ما بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر (وهي معلومة أخذ بها Jean Despois، وموسوعة الإسلام ـ فزان). وهو بهذا يخالف مؤرخينا الأوائل وينسى الحروب الأباضية في القرن الثامن التي كانت زويلة مسرحاً لها (انظر ابن عذاري، والملاحظة أعلاه).
صحيح أن ابن عبد الحكم قال بأن عقبة «نزل بموضع زويلة اليوم» سنة 46هـ/ 7 ـ 666ف ويجب تصحيح السنة الهجرية إلى 41/ 43 خلال حملته على كوار ومع ذلك فإن ابن عبد الحكم نفسه سبق له أن تناول الحملة الأولى لعقبة على زويلة. كما يجب ملاحظة أن البكري (ومصدره هنا ابن عبد الحكم) قد قال بوضوح عند وصفه رجوع عقبة من كوار: «رجع إلى زويلة ـ وطأ =

المتجهة من برقة[*] إلى فزان عبر أجدابيا وزلة[1] والفقها وتمسة، ومن المحتمل أنها كانت في الأزمنة القديمة ملتقى طرق الشمال؛ طريق خليج سرت، وطريق طرابلس الغرب حيث إنها مع جارتها أم الأرانب التي تقع غربها بأربعين كم تمثل عملياً الواحة الوحيدة التي تسمح بمدخل إلى السودان، إذ إن أي قافلة تغادر أي واحة من واحات فزان الجنوبي عليها عبور دهان مرزق[2] الخطير. وتنطلق الطرق من زويلة نحو الجنوب ـ الشرقي (دارفور عبر تبستي)، ونحو الجنوب (واحات كوار وتشاد) ونحو الجنوب الغربي (الآيير والنيجر عبر التينري).

بالرغم من محدودية معارفنا حتى اليوم في هذا المجال، يمكن لنا أن نفترض وجود نشاط تجاري بين فزان الشرقي وانطابلس كما هو الحال بين غرب فزان (جرمة، جرمة القديمة) وطرابلس الغرب. كان الجرمنت يستعملون الطريق جنوب غرب/ شمال شرق الرابط بين فزان وأوجلة وسيوة، كما كان هذا الطريق معروفاً للرومان ومن المرجح أنهم سلكوه[3]. ومن المحتمل أن عمل الدليل كان في ذلك الوقت مجزياً كما هو الحال حتى وقت قريب مضى، ومن

= زويلة». إن نص ابن عبد الحكم قد يفيد كذلك: «المكان الذي توجد فيه واحة تسمى زويلة الآن. «هناك تعبير مشابه لنفس المؤلف يقول «قوينة وهي موضع مدينة قيروان». سنلاحظ أن زويلة مثل بلدات صحراوية أخرى كثيرة تغير موقعها عدة مرات وهو ما نستطيع التحقق منه اليوم انظر Despois في كتابه فزان ـ جغرافية بشرية). كما سنلاحظ كذلك أن عقبة أقام في برقة وزويلة منذ احتلال برقة وحتى تعيينه حاكماً لأفريقية سنة 50هـ/ I ـ 670ف. كان مقام الولاية برقة وزويلة. ولهذا السبب قرر إنشاء القيروان لتكون مدينته وحيث تكون قواته في مأمن. انظر ياقوت ـ القيروان، وابن الأثير، وأبو الفدا ـ تاريخ، والنويري، وابن خلدون ـ العبر.

(*) برقة هنا بالمعنى الحديث للكلمة وليس بالمعنى القديم «المرج حالياً». المترجم.

(1) هكذا تكتب حالياً. وقد اختلفت كتابتها عند المؤلفين العرب من القرون الوسطى زاله، زالّة، زلاه، زلها.

(2) صحيح أن هناك طريقاً آخر من تراغن وهي واحة على مسافة 80كم غرب زويلة وهي أيضاً في اتجاه القطرون، ولكنها صعبة، غالباً لا يمكن استعمالها وخطيرة على الجمال.

(3) انظر تحليل نص بطليموس الخاص بحملة سبتموس فلاكوس على الجرمنت في كتاب R. Rebuffat، Routes d 'Egypte، ص I ـ 11.

الممكن أيضاً انضمام عدد من المساعدين البربر إلى عقبة منذ الفتح وأنه تمكن من قطع ألف كم بين برقة وزويلة خلال شهر تقريباً (عشرين إلى ثلاثين يوماً حسب تقديرنا لسرعته اليومية بخمسة وأربعين أو ثلاثين كم)[1]، وأنه رجع إلى برقة[*] سالكاً الطريق نفسه[2]. ليست هناك استحالة للقيام بهذه الغارة ولكن المؤلفين بالغوا في مثالية الظروف التي وصفوها. تحدث الجزء الأول من النص عن المنطقة زويلة ـ برقة، وتناول الجزء الثاني زويلة ـ مصر. لم يكن في استطاعة عمرو أن يخلي مصر من قوات الاحتلال، ومن ثم كانت القوات العربية في منطقة برقة ـ زويلة محدودة العدد. كيف كان في مقدور هذه القوة الصغيرة أن تخضع منطقة شاسعة مسكونة، خاصة بقبيلة مزاته المشاغبة؟ إن الأمر هنا يتعلق باحتلال شرق فزان وكامل شمال برقة؟ كيف استطاعت هذه القوة أن تقوم بأسلمة سريعة، وأن تنظم البلد، وتعين جباة وتوزع الصدقات؟ من الباعث على الدهشة أن تختفي زويلة كلياً بعد ذلك من المصادر، ولا تظهر ثانية إلا في حملة ابن الأشعث ضد الأباضيين سنة 3/ 762ف[3]، وبهذا تكون زويلة المتحولة إلى الإسلام قد اختفت من المسرح الإسلامي طوال مائة وعشرين سنة. إننا لا ننكر وجود هذه الغزوة. أي ثقة يمكن أن نضعها في كتابات اللاحقين من المؤرخين إذا وضعنا ما قال به مؤرخونا الأوائل موضع الشك؟ بالرغم مما سبق، فإن من الواضح أن هذه الحملة، التي ضخمت إنجازاتها الدينية والإدارية لتزيد من أمجاد عقبة، لم تكن لها نتائج ويجب تصنيفها ضمن هذه التحركات المدهشة والبطولية غير المثمرة.

---

(1) انظر الفصل العاشر المخصص للطرق.

(*) برقة ـ استعملت هنا بالمعنى الحديث للكلمة ـ المترجم.

(2) إذا كان عمرو في طرابلس عند عودة عقبة، هل استطاع هذا الأخير الوصول إليه عبر ودان التي كانت قد فتحت في السابق؟ إن ما في حوزتنا من نصوص لا يمكننا من الإجابة عن هذا السؤال.

(3) إذا استثنينا ما ذكره البكري من عودة عقبة عبر زويلة من حملته على كوار حوالى سنة 43 ـ 41هـ/ 664 ـ 661ف، ولكن هذه النقطة محل نقاش ـ انظر ما سيلحق.

ودان:

كان عمرو مصحوباً بمحارب مرموق آخر، بسر بن أبي أرطأة[1] وهو بدوي مقدام دون شفقة وسبق له البروز في سوريا، ومن المقدر أن عمره كان حوالى الثلاثين أثناء حصار طرابلس. يقول ابن عبد الحكم[2]: «وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها (ودان) بسراً قبل ذلك وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها». ويضيف في نفس النص عند حديثه عن سنة 46هـ/ 7/ 666ف[3]: «بلغ عقبة أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن أبي أرطأة فرض عليهم»، ثم يشرح بعد ذلك بقليل أن بسراً أوجب أن يسلموه ثلاثمائة وستين عبداً. ويؤكد ياقوت الفتح ويوسعه[4]: «ووجه (عمرو) بسر بن أبي أرطأة فصالح أهل ودان وأهل فزان»[5]. وينقل البكري جزئياً عن ابن عبد الحكم ولكنه يضيف معلومة تكميلية: فتحت ودان سنة 23هـ م4/ 643ف[6] أو بعد ذلك بقليل.

من المؤسف أن النصوص ليست واضحة فيما يتعلق بالتتابع الزمني للأحداث. رأينا كيف كان من الصعب تحديد مكان وجود عمرو عندما بعث بعقبة إلى زويلة، إذ ربما كان في برقة أو مصر قبل أو بعد فتح طرابلس، وصبرة وجبل نفوسة[7]. إن الأمر بالغ الغموض! . إننا لا نعرف عما إذا كانت حملة

---

(1) اسمه بسر بن أبي أرطاة بن عويمر العامري، انظر البلاذري. وبنو عامر قبيلة من قريش. وسيكون بسر بعد ذلك خصماً عنيداً لعلي ونصيراً مخلصاً للأمويين. وسيكون على التوالي والياً للبصرة وقائداً، وقائداً بحرياً. بخصوص تفاصيل عن حياته وأعماله انظر H. Lammens، وموسوعة الإسلام (انظر بسر بن أبي أرطأة).

(2) فتوح أفريقية.

(3) سنرى أن التاريخ ليس أكيداً.

(4) تاريخ.

(5) إننا لا نستطيع أن نأخذ في الاعتبار احتلال فزان في الفترة المذكورة من اليعقوبي. سندرس نص ابن عبد الحكم الذي فصّل في احتلال عقبة لهذا الإقليم. وقد حدث بعد ذلك بعشرين سنة.

(6) المسالك، ياقوت (انظر ودان) وهو يستوحي البكري ويذكر أيضاً هذا التاريخ.

(7) معلومات أوردها كتاب الاستبصار ولا يذكر المصدر. انظر أعلاه.

عقبة الصحراوية سبقت أو لحقت احتلال بسر لودان، ومن جانب آخر، صمت المؤلفون عن ذكر ما إذا كان عمرو قد ترك قوات في طرابلس والساحل أو انسحب بكامل قواته إلى برقة ومصر بعد منع الخليفة عمر له من التوسع غرباً، وعما إذا كان الشاطىء ـ تبعاً لذلك ـ آمناً أو غير آمن. كما أننا لا نعرف أي طريق استطاع عقبة سلوكها عند عودته من زويلة: سواء نحو برقة في الشمال الشرقي أو نحو الساحل عبر وسط فزان وجبل السودا والجفرة حيث ودان مفتوحة من بسر.

كان يهمنا أكثر من تحديد مسارات عقبة ـ جيئة وذهاباً ـ أن نعرف ما إذا كانت الصحراء وطرقها مراقبة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف، وأن نعرف الواحات التي احتلت والمجموعات البشرية الصحراوية التي التقى بها العرب أو احتلوها مؤقتاً منذ سنة 4/ 643ف. ليست لدينا أسباب تدفعنا للتشكيك في أقوال المؤرخين الذين أكدوا بقاء عقبة في برقة وزويلة منذ فتح برقة وحتى تعيينه والياً لأفريقية سنة 50هـ/ 1 ـ 670ف، وأنهما كانتا مقر الولاية[1]. من المؤسف غياب أي بيانات حول احتلال الواحات الليبية، ولا يذكر أي نص من النصوص التاريخية إقامة العرب معسكرات تحولت لاحقاً إلى مدن جديدة في هذه المنطقة، وذلك بخلاف ما تم في غيرها من المناطق. هناك، بالفعل، في الصحراء الليبية واحات غيرت مواقعها، ولكن الأسباب وراء هجر المواقع القديمة عديدة: هجوم العقارب، تهدم المنازل المبنية من التراب الجاف بسبب الأمطار، توسعات في زراعة النخيل، والحرص على وضع أفضل لمقاومة الأعداء. ولا يمكن الاستنتاج تأسيساً على بقايا هذه البلدة أو تلك أن هجرها كان نتيجة لبناء بلدة جديدة للمحتلين العرب. كما لا يفيدنا أي نص بأن سكان البلد كانوا ملزمين بتأمين معاش الغزاة واحتياجاتهم وهو أمر طبيعي، إذ إن الحملات العسكرية، خلال الفترة التي تعنينا، لم تكن إلا غارات من أجل المغانم ليست لغرض الاحتلال، وذلك باستثناء برقة وزويلة ولم تصلنا

(1) انظر عاليه.

بخصوصهما أي معلومات. بالرغم من ذلك فإننا نستطيع تأسيساً على المعلومات المتواضعة التي أوردتها النصوص أن العرب ربطوا في تلك الفترة اتصالات مع أربعة من أكبر القبائل البربرية: لواتة ويمتد موطنها من صحراء مرمريكا إلى مرحلة غرب أجدابيا[1]، ومزاتة التي تحدها لواتة من الشرق وهوارة من الغرب وتقيم في المنطقة من زلة وودان إلى تاورغاء والساحل في الغرب، ويذكر الحميري أنها كانت محكومة بأسرة ملكية وراثية استمرت حتى ظهور الإسلام[2]، وهوارة التي كانت تقيم في الإقليم الواقع بين الخط ودان ـ تاورغاء ـ مصراتة ـ الساحل حتى طرابلس[3] وصبرا (غير مشمولة) والجزء الشرقي من جبل نفوسة وكانت لبدة (لبتس ماجنا قديماً)[4] هي المركز الرئيسي لها، وقبيلة نفوسة وكانت مسيحية حينها حسبما قال البكري وياقوت والتجاني، ويهودية وفق ما قاله ابن خلدون، وكانت تقيم في صبرا (صبراته قديماً)، والساحل الغربي والجزء الغربي من جبل نفوسة[5]. وإذا كان العرب قد عاملوا قبائل مزاتة وهوارة ونفوسة كما عاملوا قبيلة لواتة فلا يدهشنا أن تنضم هذه القبائل بسرعة إلى مذهب الخوارج الداعي للمساواة.

نعرف أن الرومان أدركوا أهمية الطرق الصحراوية عبر ليبيا وأقاموا فيها حصوناً[6]، ولكن النقطة المهمة في فتوح عقبة وبسر الصحراوية تكمن بوضوح في معرفة العرب بأهمية هذه الطرق بمجرد وصولهم إلى أفريقيا، ورغبتهم في تأمين السيطرة عليها. وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة وسَّع عقبة المد العربي بعيداً في الصحراء حتى وصل حدود السودان.

---

(1) اليعقوبي، البلدان.

(2) اليعقوبي، والبكري، والحميري (انظر ودان).

(3) بعض المؤلفين يكتبون سبر، وحالياً صبراته أو صبراتة (انظر الزاوي ـ المعجم).

(4) اليعقوبي، تاريخ، والبلدان، وابن عبد الحكم، وابن حوقل، والبكري، والإدريسي، وابن سعيد (المغرب)، ياقوت (انظر ودان)، وابن خلدون، البربر. تكتب لَبدة الآن لِبدة. انظر الزاوي.

(5) ابن عبد الحكم، والبكري، وابن سعيد (المغرب)، وياقوت (انظر نفوسة)، والتجاني، وابن خلدون (البربر).

(6) R. Rebuffat.

الـولاة

عمرو بن العاص:

عبر عمرو بن العاص صحراء سرت، بعد احتلاله برقة، واستولى على طرابلس. وليس هناك اتفاق بين المؤلفين حول تاريخ هذا الفتح: 21 أو 22 أو 23هـ/ 10 ديسمبر 641ف ـ 6 نوفمبر 644ف[1]. إذا أخذنا بطريقة التحليل التي اتبعناها لمحاولة تحديد تاريخ فتح[2] برقة، فسننتهي إلى أن فتح طرابلس كان بين فبراير ـ مارس 643ف/ 22هـ[3]، ومايو ـ يونية 644ف/ 23هـ[4].

لم يكن احتلال المدينة سهلاً، فهي لم تسقط إلا بعد حصار استمر شهراً أو أكثر[5]، وعلى غير العادة تتوافر بيانات ومعلومات حول الطريقة التي تم بها

---

(1) بعاليه، ص39 ـ 42.

(2) بعاليه، ص41.

(3) نضيف ثلاثة أشهر للتاريخ الأول الممكن لفتح برقة، وهي المدة اللازمة للتجهيز في برقة وعبور صحراء سرت.

(4) توفي عمر بن الخطاب، الذي أبلغه عمرو بالاستيلاء على طرابلس، في 3 نوفمبر 644ف. نرجع خمسة أشهر إلى الوراء من تاريخ وفاة عمر: فالمبعوث يستغرق ثلاثة أشهر لقطع المسافة من طرابلس (أو صبرا، أو جبل نفوسة) إلى المدينة المنورة، نأخذ في الاعتبار شهر الحصار لطرابلس وربما شهراً آخر للاستيلاء على صبرا وجبل نفوسة إذا كان عمرو قد كتب إلى عمر بعد هذا الفتح.

(5) بعض المؤلفين لا يصفون وقائع هذا الفتح: البلاذري، اليعقوبي (البلدان)، واليعقوبي =

الاستيلاء على المدينة[1]، إذ بينما كان حصار المدينة مستمراً من الناحية الشرقية منذ شهر دون نتيجة، خرج رجل من بني مدلج[2] مع سبعة من رفاقه للصيد، وكانوا في غرب المدينة عندما قرروا العودة إلى المعسكر، ولما كانوا مرهقين بالحرارة ساروا على طول الشاطىء فتبين لهم عدم وجود أسوار من جانب البحر وأن سفن الروم تدخل إلى المدينة وتلقي مراسيها في مواجهة البيوت. تقدم المدلجي وأصحابه في داخل المدينة حتى قرب الكنيسة ونادوا عالياً «الله أكبر»، وانتبه عمرو إلى أن هناك قتالاً في المدينة فدخلها بقواته. لم يستطع الروم الهرب في سفنهم إلا بالحد الأدنى من أمتعتهم[3]، واعتبر عمرو كل ما في المدينة غنيمة. يضيف البلاذري أن عمرو أصاب بطرابلس أحمال بزيون (حرير) كثيرة مع تجارها فباعه وقسم ثمنه بين المسلمين. ويذكر التجاني أن سكان طرابلس طلبوا مساعدة قبيلة نفوسة البربرية، وكانت حينها مسيحية، وأن عمرو هدم الأسوار قبل مغادرته.

= (تاريخ)، وابن عذاري، وأبو الفدا (تاريخ). بعض المؤلفين يقولون بأن الحصار استمر شهراً: ابن عبد الحكم، البكري، ابن الأثير، ابن سعيد (المغرب) والتجاني، ابن خلدون (العبر)، ابن غلبون. ياقوت، انظر (مادة طرابلس) تحدث عن شهرين، والحميري تحدث عن عدة أشهر. والمؤلفان الأخيران ذكرا أن حصار صبرا استمر شهراً.

(1) أورد هذه التفاصيل ابن عبد الحكم، وياقوت، وابن الأثير، والتجاني، وابن خلدون، والحميري، وابن غلبون. اكتفى ابن سعيد بالقول: إن عمرو وجد فرصة من جانب البحر.

(2) بنو مدلج فرع من كنانة يقيمون حول مكة وشاركوا في فتح مكة سنة 8هـ/ 626ف تحت إمرة خالد بن الوليد الذي تحول إلى الإسلام قبل قليل من فتح مكة. انظر P. Crone، وموسوعة الإسلام ـ خالد بن الوليد. وW.M.Watt، نفس المرجع ـ كنانة بن خزيمة. وع. ر. كحالة ـ معجم ـ مدلج بن مرة.

(3) «فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم» هذا ما كتبه البكري، وياقوت (انظر مادة طرابلس وصبرا)، وابن الأثير، وابن خلدون والحميري (انظر مادة طرابلس). وهي صيغة ابن عبد الحكم، طبعة Ch. Torrey الذي صحح تعبير «من مراكبهم» في المخطوطات. وقد حافظ A. Gateau على تعبير «من مراكبهم»، هو كذلك نص الحميري (انظر مادة صبرا)، وابن غلبون. في هذه الحالة يجب أن يترجم النص وفق ما ذهب إليه «A. Gateau» «لم يستطع الروم الهرب إلا بما خف من مراكبهم». إن التعبير بـ«في» يبدو أكثر معقولية.
من جانب آخر استعمال «من» يجعل استعمال «لهم» زائداً.

عندما علم سكان صبرا بغزو العرب لمنطقتهم تحصنوا في مدينتهم[1]، ولما طال حصار طرابلس عادت إليهم الثقة وفتحوا الأبواب صباح أحد الأيام لإخراج حيواناتهم للرعي، ولكن طرابلس كانت قد سقطت في أيدي المسلمين، وأثناء الليل حرك عمرو سرية من الفرسان في اتجاه صبرا. وجد العرب المدينة مفتوحة فاستولوا على كل ما استطاعوا العثور عليه فيها ورجعوا إلى عمرو، ويفيدنا ياقوت أن أياً من سكان صبرا لم يستطع الهرب[2]. ويبدو أن عمرو قام حينها بفتح جبل نفوسة أو على الأقل أغار عليه غارة ناجحة، وذلك لأن ثلاثة من المؤلفين أفادوا بأن عمرو كان في جبل نفوسة عندما استلم رسالة الخليفة عمر القاضية بعدم توسعه أكثر نحو أفريقية[3].

ما يثير الانتباه في هذه الحملات الأولى على بلاد البربر (بربريا) التي قادها أو أمر بها عمرو هو السرعة والسهولة التي تم بها الفتح، وهذا يتناقض بطريقة مدهشة مع المقاومة التي واجه البربر بها الغزاة بعد ذلك. إن عوامل كثيرة ساعدت على سرعة الفتح. فقد كانت الإدارة البيزنطية في حالة تحلل،

---

(1) لقد أعيد بناء أسوار طرابلس من الجانب الداخلي سنة 132هـ/ 749 ـ 750ف في نهاية عهد الأسرة الأموية، وقام بإعادة البناء عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري. هذا الحفيد غير المباشر لعقبة بن نافع كان في ذلك الوقت هو المتغلب على أفريقية، واشتهر بصراعه ضد الأباضيين. وقد رفعت هذه الأسوار في سنة 345هـ/ 956ف بواسطة أبي الفتح زيان الصقلي (يكتبها التجاني الصقلبي) الوالي العبيدي لطرابلس. انظر التجاني، ياقوت (طرابلس)، وابن عبد الحكم، وانظر كذلك النائب الأنصاري ـ المنهل، وE. Rossi. حول الحياة الوظيفية لعبد الرحمن بن حبيب انظر E. Levi-Provencal، موسوعة الإسلام. رفع السور من جانب البحر سنة 179هـ أو 180هـ/ 795 ـ 797ف بأمر من هرثمة بن أعين والي أفريقية في عهد هارون الرشيد، وهو الذي أمر ببناء القصر الكبير في المنستير، وكان هذا القائد والياً على فلسطين وسيكون لاحقاً والياً على خرسان، وقد أعدم سنة 816ف نتيجة مؤامرة. «وقد عامل سكان أفريقية بمنتهى الرفق» (النويري) انظر البكري، وياقوت، والحميري (طرابلس)، والتجاني والنويري، وابن خلدون. انظر كذلك Ch. Pellat، موسوعة الإسلام (هرثمة بن أعين).

(2) ابن عبد الحكم، وياقوت (انظر صبرا)، وابن الأثير، والحميري (انظر صبرا)، وابن خلدون، ج2، ص1002.

(3) البكري ص9 ـ 10/ 26. والاستبصار، ص144. وياقوت (انظر جبل نفوسة).

والمحاباة منتشرة، وحركات التمرد والعصيان تتوالى، والرشوة هي المحرك للبيروقراطية، والفوضى عامة، كما أن الضرائب الباهظة حولت الفلاحين إلى عبيد. وعملت السلطة العسكرية الممثلة في الوالي أو كبير الأشراف، والتي كانت تخضع لها السلطة المدنية، على التغطية على تجاوزات الملاك الأغنياء، ولحق الظلم والاضطهاد بالوثنيين والأريوسيين مثلما طال الدوناتيين الذين كانوا ملاحقين منذ القرن الخامس، وفي بعض الأحيان اليهود. كان المضطهدون يجدون ملجأ عند قبائل البربر، وكانت العديد من هذه القبائل متجمعة وثائرة ضد المحتل. كما أن المذابح من هذا الطرف أو ذاك كثيرة الوقوع. ولم يكن من النادر أن يثور الجنود البيزنطيون ـ الذين لا تختلف معاملتهم إلا قليلاً عن معاملة الرقيق ـ ضد رؤسائهم عندما لا تدفع لهم أجورهم لأن الثورات كانت تمنع جباية الضرائب، بينما يستأثر رؤساؤهم بالمغانم[1]. كان هذا الجيش يتمتع بميزة كبيرة بالرغم من أنه غير منظم، تتمثل في فيلق من النبالين قادر على النيل من الأعداء عن بعد[2]. كان بمقدور هذا التكتيك إبعاد البربر، ولكنه مساو لما كان عند المسلمين[3] في هذا المجال. يبدو أن خفة الفرسان والمهاريين العرب وسرعتهم طغت على البيزنطيين، خاصة الفرسان، إذ أُدخل الركاب إلى الشرق الأوسط[4] من الصين قبل ظهور الإسلام بقليل أو خلال فتوحات المسلمين الأولى، وهو ما زاد من قدرة الفرسان البدو الذين كانوا خبراء في العدو، والحرب على ظهور الخيول، ومتمرسين في تكتيك الكر والفر[5].

---

(1) CH.A Julien، ج1، ص263 ـ 276.

(2) وهو تكتيك متقد من فنيي بيزنطة. انظر CH.A.Julien، ج1 ص264.

(3) حتى لو أن القوس كان مستعملاً في حدود ضيقة من على ظهور الخيل في تلك الفترة. ولم تظهر فيالق النبالة الراكبة إلا في عهد العباسيين تحت تأثير إيران، وبلغت أوجها في الخيالة الخفيفة للسلاجقة، وهم خبراء في فن الرمي من فوق الكتف عند التظاهر بالتراجع السريع، انظر Lamotte-A.Boudot، موسوعة الإسلام، انظر مادة (Kaws).

(4) P. von Sivers, Back To nature، ص70.

(5) تعني العبارة كذلك «المد والجزر». حول الفروسية العربية في بداية الإسلام، انظر G.Douillet، موسوعة الإسلام، انظر مادة (فروسية).

لم يكن للعرب من هدف إلا الغنائم خلال هذا الفتح الأول، إذا جاز استعمال كلمة فتح. أولا يتعلق الأمر بغارة أكثر منه بفتح؟ ويجب أن نتذكر أن الغزو لم يكن يعتبر عملاً إجرامياً عند البدو، وإنما أسلوب عيش يُفتخر به، كما أن قواعد اقتسام الغنيمة[1] وجدت في العرف قبل الإسلام، وكان الربع أو الخمس حينها من حق القائد، وقد اتبع محمد ﷺ[*] هذه القواعد ولم يُدخل فيها إلا تعديلات بسيطة جداً. لقد أظهر عمرو بن العاص ومحاربوه في المناطق التي تعنينا جشعاً بدون حدود، ولن يكونوا الأخيرين في هذا الخصوص، ولعل لديهم بعض العذر فقد كانوا ملتزمين بتزويد بيت المال وبتموين الجزيرة العربية[2].

---

(1) تعني كلمة الغنيمة ما يؤخذ حرباً من العدو أو من الكفار، ويقسم إلى خمسة أجزاء: خمس لله ورسوله ويودع بيت المال، انظر الآية 41 من سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وأربعة الأخماس الأخرى تقسم بين المحاربين. وهذا ما تم تطبيقه بالنسبة للغنائم التي أخذت من طرابلس. ولا يجب الخلط بين الغنيمة والفيء وهو في الجاهلية مثل الغنيمة يعني ما يؤخذ من العدو ويقسم على أربعة أو خمسة أجزاء، أما في عهد الإسلام فالفيء يعني ما يقع في أيدي المسلمين دون حرب مثل الجزية، والفيء في أي إقليم يصبح دار إسلام. الفيء لا يقسم ويعتبر حقاً أعيد لصالح كل المسلمين انظر سورة الحشر، الآية 6: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾. ومن ثم فجزية برقة فيء وهكذا فالخليفة مسؤول مسؤولية غير مباشرة عن معاملة لواتة. انظر ابن سلام، ص235 ـ 237. و Islamologie- F.M. Pareja و Gaudefroy-Demorbyne في Mohamet ص587 ـ 591. و F. Lokkegaard، موسوعة الإسلام، انظر مادة (غنائم وفيء).

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

(2) عندما اشتدت المجاعة في الجزيرة العربية طلب عمر النجدة من عمرو الذي كان موجوداً في مصر، فأرسل هذا الأخير أغذية وجمالاً بعدد كبير لدرجة ـ يقال معها ـ أنه عندما وصل أول القافلة إلى المدينة المنورة كان آخرها ما زال في مصر. وقسم عمر القافلة بين المسلمين فأصابت كل أسرة جملاً وغذاء. لقد شكلت مصر، في هذا الخصوص، مستودعاً بالغ الأهمية للمسلمين، لدرجة دفعت عمر لإعطاء الأمر بحفر قناة بين الفسطاط وبحر قلزم من أجل تسريع إيصال المؤن إلى الجزيرة العربية، وقد حفر عمرو هذه القناة رغم مخاوف أهل مصر التي عبروا عنها ونقلها عمرو للخليفة، وقد استعملت هذه القناة حتى عهد عمر بن عبد العزيز، حين هجرت وردمتها الرمال. يذكر الطبري أن عمرو نفسه هو الذي اقترح حفر القناة، ولكن بسبب اعتراضات أهل مصر كتب إلى عمر بعد ذلك لإخطاره بأن حفر القناة يعني خراب مصر، ويقال=

نلاحظ، لكأن البربر باستثناء قبيلة نفوسة في صبرا، وأولئك الذين ربما شاركوا في مقاومة طرابلس لم يعانوا أي تجاوزات من غير التجاوزات الضريبية. إن الضعف البيزنطي، والحماس الديني، والطمع في المغانم، وخفة فيالق الخيالة العربية، وإلحاح الخليفة، ولا مبالاة البربر، إن لم يكن تعاونهم مع العرب، كانت العوامل الرئيسية وراء النجاح المبهر والسريع لغارة عمرو. وحينما كان زحف عمرو غرباً في أوجه والروم في طرابلس في حالة فرار، جاءت أوامر الخليفة بوقف اندفاع عمرو وعودته إلى مقره في مصر. هل كان الخليفة يخشى مغامرة أفريقية؟ هل كان يخاف من أن يكتسب القادة أهمية كبيرة في وقت كانت السلطة الإسلامية في بدايتها؟ هل أدرك أن الانتصارات، مهما كانت صاعقة وسريعة، فإنها مرهقة منهكة للرجال، وغير مجديه إذا لم يستتبعها احتلال ولو محدود وهو ما يرى استحالته بالأعداد المحدودة المتوافرة لديه في ذلك الوقت؟ يقارن جورج مارسي «George Marcais» موقف الخليفة بسياسة روما التي كان اهتمامها منصباً على التخلص من قرطاجنة دون التفكير، بداية، في تكوين مستعمرة أفريقية، كما لاحظ بعض التشابه مع موقف الفرنسيين بعد استيلائهم على مدينة الجزائر حيث لم يستغلوا نجاحهم، واكتفوا «دون حماس» باحتلال محدود[1].

هكذا غادر عمرو مسرح العمليات في أفريقية وبرقة، ولكنه لم يختف تماماً من المسرح الأفريقي. لقد توفى عمر مطعوناً من أبي لؤلؤة، وهو عبد مسيحي لحاكم البصرة بين 1 و7 نوفمبر 644ف[2]. بمجرد تولي عثمان للخلافة، أو بعد ذلك بقليل، قام بعزل عمرو[3] بن العاص وعين بدلاً عنه، والياً لمصر أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح. كان هذا الأخير

= أن الخليفة قال: «اعمل فيه وعجل، أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها». (انظر الطبري، ج4، ص100).

(1) La Berberie Musulmane, G. Marcais، ص20.

(2) تختلف النصوص حول تاريخ وفاة عمر: بين 24 ذي الحجة 23هـ، و1 محرم 24هـ.

(3) حول عزل عمرو: انظر البلاذري، ص224 ـ 225، وابن عبد الحكم، ص42 ـ 43، =

أكفأ في الشؤون المالية من عمرو: فقد ارتفع ناتج الخراج والجزية من مصر ارتفاعاً مدهشاً تحت ولايته[1]. كان عثمان يقر بتميز عمرو كقائد عسكري، وهكذا عندما نقضت الاسكندرية الصلح الذي يربطها مع المسلمين كان عمرو هو القائد الذي أرسله لإخماد التمرد[2]. يقال أن الخليفة كان ينوي الإبقاء على عمرو قائداً عسكرياً لمصر مع الاحتفاظ بعبد الله بن سعد إدارياً وجابي ضرائب، ولكن عمرو رفض[3] فعزله عثمان، واعتزل عمرو في السبع (بئر شبع). وخرج من عزلته لينضم إلى جانب معاوية في صراعه ضد علي، وليشترك في التحكيم بين المطالبين بالخلافة.

تولى عمرو حكم مصر في عهد معاوية، وهو الذي ولّى عقبة بن نافع عاملاً على أفريقية سنة 41هـ/ 2 ـ 661ف، ومكن بطريقة غير مباشرة للأعمال البطولية المجيدة في الصحراء وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً. توفي عمرو سنة 42هـ/ 4 ـ 662ف.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح

ابن الأثير هو المؤلف الوحيد الذي أكد أن عبد الله بن سعد كان في جيش مصر سنة 25هـ (28 أكتوبر 645ف ـ 17 أكتوبر 646ف) وأن عمرو بعثه بأمر من عثمان، ليحتل مشارف أفريقية. وقد أحضر عبد الله منها مغانم وطلب أن يأذن له الخليفة بالشروع في حملة نحو الغرب[4]. وخلافاً لابن الأثير يذكر المؤلفون

= والطبري، ج4، ص253. وابن سعيد (المغرب)، ص17، وابن عذاري، ج1، ص8. وأبو الفدا، تاريخ، ج1، ص175. وابن خلدون العبر، ج2، ص100).

(1) وقد لام عثمان عمرو بهذا الخصوص، ويقال أنه قال لعمرو: «يا عمرو، هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك!» فأجابه عمرو «إن فصالها هلكت». الاختلافات بين النصوص قليلة جداً بخصوص هذا الحوار: البلاذري ص17. واليعقوبي، تاريخ، ج2 ص164. والطبري، ج4، ص257.

(2) البلاذري، ص224. اليعقوبي (تاريخ)، ابن سعيد (المغرب).

(3) انظر أعلاه، ص42 ـ 43.

(4) ابن الأثير، ج3، ص44. ووفقه لم يعزل عمرو بمجرد وصول عثمان للخلافة، وهذا ما يراه الطبري، ج4، ص253.

الآخرون أن عبد الله، بصفته والياً لمصر، بعث بسرايا من الفرسان للإغارة على حدود أفريقية، وذلك كما كان يفعل عمرو، وكانت الغنيمة كبيرة لدرجة جعلته يستأذن عثمان في فتح هذه المنطقة[1]، ويبدو واضحاً أن الرغبة في المغانم هي التي كانت وراء إعطاء عثمان لإذن سبق لعمر رفضه[2]. لقد تردد الخليفة، قبل إعطاء الإذن لأن الأمر يكتسي أهمية وطلب المشورة من مستشاريه، وقد عارضه أحدهم وهو أبو الأعور سعيد بن زيد، الذي يُروى أنه قال للخليفة «لقد سمعت عمر يقول: لن أبعث إليها مسلماً في حملة ما بللت الدموع عيني، وأرى ألا تخالف عمر، بالله لا تخشاهم ويقنعون بالبقاء حيث هم». ولما كان ابن الأعور هو الوحيد الذي عارض، قرر عثمان إرسال عبد الله بن سعد إلى أفريقية[3]. وقدم عثمان من ماله الخاص ألف بعير وخيولاً ليركبها فقراء المسلمين، ووزع

---

(1) البلاذري، ص227. وابن عبد الحكم، المالكي، ابن سعيد (المغرب)، عبيد الله، ابن عذاري، النويري، ابن خلدون (العبر)، ج2. ص1003 وهو يعطي صيغة مختلفة قليلاً: أمر عثمان سنة 25هـ/ 6 ـ 645ف عبد الله بفتح أفريقية واعداً إياه بـ25/ 1 من الغنيمة إن هو فتحها، وأرسل عبد الله جيشين على رأس أحدهما عقبة بن نافع. وقد منع العدد الكبير للسكان الجيشين من النفاذ إلى أفريقية. وعندما عين عبد الله والياً على مصر طلب من عثمان دعماً بالقوات والإذن للقيام بحملة أخرى. ويتوافق ابن خلدون هنا مع الطبري وابن الأثير: لم يقم عثمان بعزل عمرو مباشرة من وظيفته كحاكم لمصر السفلى، وعليه فإنه ربما أعطى أمره الأول لعبد الله حاكم الصعيد بفتح أفريقية.

(2) هذه ليست المرة الوحيدة التي اتخذ فيها عثمان قرارات مخالفة لقرارات سابقة لعمر. نعرف نفور عمر من الماء. عندما طلب إليه معاوية بن أبي سفيان الإذن ببناء أسطول من أجل محاربة الروم، طلب عمر من عمرو أن يصف له البحر، فقال: «إن الرجال فوقه مثل الديدان على غصن شجرة إذا تحركوا غرقوا، وإذا سلموا دهشوا» فرد عمر على معاوية بأن مسلماً واحداً أغلى عنده من كل ما تحتويه بلاد الروم، ومن المناسب ألا يطلب منه مستقبلاً مثل هذا الطلب. في عهد عثمان أعاد معاوية طلبه وقبل الخليفة بناء أسطول (الطبري، ج4، ص258 ـ 260). وقد برز عبد الله بن سعد ـ الذي من الخطأ النظر إليه قائداً عسكرياً متواضعاً ـ قائداً للأسطول، وقد شُيد الأسطول في الاسكندرية بأمر من معاوية، وعبد الله بن سعد هو الذي هزم البيزنطيين في المعركة البحرية ذات الصواري سنة 35هـ/ 6 ـ 655ف، موسوعة الإسلام، انظر (بحر الروم)، وC.H. Becker، انظر (مادة عبد الله بن سعد)، وC.E. Bosworth، (مادة ذات الصواري)، وN. Elisseeff والمرجع السابق، ص65. حول بناء الأسطول العربي وظهوره في البحر المتوسط، انظر Seekrieg، وE.Eickhof، ص14.

(3) المالكي، ص124 ـ 125. والنويري، ص314. في ترجمته للمالكي يذكر هـ.ر. إدريس =

السلاح على الجنود وأمر بدفع مرتباتهم[1]. وقد عرف هذا الجيش «بجيش العبادلة» نظراً لأن الكثير من قادته يحملون اسم عبد الله[2]. كان في الجيش عدد كبير من الشخصيات المهمة منهم عبد الله بن عباس[3]، وعبد الرحمن ولد أبي بكر[4]، وعبد الله ولد عمر بن الخطاب[5]، وعبد الله بن الزبير حفيد أبي بكر[6]، وعبد الله ولد عمرو بن العاص[7] وبسر بن أبي أرطأة الذي كانت هذه الحملة هي حملته الأفريقية الثانية، وأبو ذويب خويلد بن خالد الهذلي[8]، وأبو ذر الغفاري[9] ومعاوية بن خديج الذي سيكون فاتح أفريقية وخليفة عبد الله بن

= النويري مترجماً من de Slane ولكن بعكس de Slane ودون شرح يسمى هذه الشخصية أبو الأعور بن يزيد. ليست لدينا أي معلومات حول هذا المستشار لعثمان.

(1) النويري ص315 ـ 316. ابن عذاري، ج1، ص9.

(2) النويري، ص314.

(3) هو رائد تفسير القرآن، وسبق له المشاركة في الحملة على مصر. انظر L. Veccia Vagliere، موسوعة الإسلام.

(4) من زوجته الثانية أم رومان بنت عامر من قبيلة كنانة، انظر W. Montgomery Watt، موسوعة الإسلام ـ انظر (مادة أبو بكر).

(5) لقد شارك في الحملة على مصر، وهو رجل تقي واشتهر بدقته في رواية الحديث، وعرضت عليه الخلافة ثلاث مرات ورفضها خشية من أن يتسبب في إراقة الدماء، ولم يلعب أي دور في الإدارة الإسلامية، انظر L. Veccia Vagliere، موسوعة الإسلام.

(6) أمه أسماء أخت عائشة، ولد سنة 624ف، وكان في جيش عمرو في مصر سنة 646ف، ويقال أنه هو الذي قتل البطريق جريجوار في حصار قرطاجنة، وهو الذي ذهب لإبلاغ الخليفة بسقوط أفريقية. انظر عبد الحكم، ص42 ـ 43. والمالكي، وعبيد الله. ص128 و130 ـ 131. وقد عارض الأمويين الذين احتكروا الخلافة، ووصل إلى حد الاستيلاء على مصر سنة 684ف ولكن مروان الأول هزمه، انظر H. Elisseeff، المرجع المذكور، ص93. وG.A.R Gibb، موسوعة الإسلام.

(7) وهو القائل بعد ذلك «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أجمل منها». انظر البلاذري، ص226. وياقوت، انظر مادة (برقة).

(8) شاعر معاصر للرسول، توفى في أفريقية، انظر النويري، ص315.

(9) كان يعبد إلهاً واحداً قبل اعتناقه الإسلام، وكان خامس من آمن بالنبي إن لم يكن الرابع (الثلاثة الأوائل هم خديجة، وعلي، وأبو بكر)، كان متقشفاً، قال بعد حملة أفريقية بأن على المسلم أن يكتفي من كل متاع الدنيا بطعام يوم وليلة، وكان ينتقد الذين يكنزون المال لصالحهم وليس لصالح كل المسلمين، وقد أثار إخلاصه معاوية بن أبي سفيان الذي اشتكاه إلى عثمان. =

سعد[1]، وزهير بن قيس البلوي[2]، ومروان بن الحكم، صهر عثمان[3]، الذي سيكون الخليفة مروان الأول[4]. وقد انضمت قبائل كثيرة لهؤلاء الرؤساء[5]. أسند الخليفة قيادة، القوات حتى وصولها إلى عبد الله بن سعد في مصر، للحارث بن الحكم شقيق مروان بن الحكم، وحض المحاربين على «أن يظهروا بالجهاد طهارة نواياهم. . . وأن يدعوا الناس لدين الله». وأوصاهم بألا يرعبهم أعداؤهم بكثرة العدد، وشرح لهم أنه وضع على رأسهم الحارث لأنه يعرف «ورعه وغيرته على الدين وشجاعته. . . وأنه لا يمكن أن يحركه هدف دنيوي يتسبب في فقد أي منكم»[6].

كان عدد القوات التي وصل بها الحارث إلى عبد الله عشرين ألف رجل[7]، حسبما أورده المؤلفون. بمجرد تحرك الجيش من مصر بعث عبد الله

= كان الخليفة قلقاً إذ إن الثورة كانت تزمجر، فاستدعى أبا ذر إلى لمدينة ثم نفاه إلى الربذة وهي على مسافة ثلاثة أيام من المدينة على طريق مكة. توفى سنة 31 أو 32هـ/ 53 ـ 651ف، ياقوت (انظر مادة الربذة)، وابن الأثير، ج3، ص56 ـ 57. وأبو الفدا (تاريخ)، ج1، ص175. وابن خلدون (العبر)، ج3، ص1028. واليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص171، يضيف أن أبا ذر كان ينتقد عثمان في المسجد ويتهمه بتغيير سنة الرسول. انظر كذلك J. Robson، موسوعة الإسلام. .

(1) انظر أدناه، ص109 ـ 110.

(2) هو الذي خلص أفريقية من المتمرد كسيلة في عهد الخليفة عبد العزيز بن مروان سنة 67هـ/ 7 ـ 686ف انظر ما يلحق، ص113.

(3) اليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص166.

(4) للقائمة الكاملة للقادة انظر البلاذري، ص228. والمالكي، ص125. وعبيد الله، ص35. والنويري، ص314 ـ 315. وفي ترجمة للمالكي يورد هـ. ر. إدريس ـ كإضافة ـ قائمة بأسماء هؤلاء القادة كما جاءت في طبقات أفريقية لأبي العرب وهو عالم قيرواني توفى سنة 945ف.

(5) نجد أسماء القبائل التي اشتركت في هذه الحملة عند ابن عبد الحكم، وابن عذاري، والنويري، وأيضاً كملاحظة إضافية في ترجمة المالكي. يذكر البلاذري فقط أن عدداً كبيراً من هذه القبائل من ضواحي المدينة، وهذا صحيح، ولكن بين القبائل التي ذكرها المؤلفون المشار إليهم نجد قبائل من نجد أيضاً (خاصة غطفان، وفزارة، والعدنانية)، ومن عسير (خاصة بني أسلم، وبني سليم)، وربما من اليمن (هذيل جزء منها في اليمن وجزء في الحجاز). انظر كحاله (معجم المؤلفين).

(6) عبيد الله، ص35 ـ 36.

(7) ابن عبد الحكم، ص44 ـ 45. عبيد الله، ص36. والنويري، ص316. ويذكر النويري، =

بكشافين ومجموعات استطلاع[1] نحو الغرب. وفي برقة تقابل العرب مع عقبة بن نافع وأصحابه[2]. وعندما وصل عبد الله إلى طرابلس وجد أن البيزنطيين قد أعادوا احتلال المدينة وتحصنوا فيها، فحاصرها لبعض الوقت، ولكن لعدم رغبته في التحول عن هدفه رفع الحصار[3]، وكان من حسن حظ المسلمين أن عثروا على سفن راسية، قاوم من فيها بعض الوقت ثم استسلموا، فقيدوا ثم قطعت رؤوسهم بأمر من عبد الله عندما التحق بالمحاربين. وتم الاستيلاء على ما احتوته السفن وشكل أول غنيمة[4] لهذه الحملة. وواصل العرب مسيرتهم إلى أن وصلوا أمام قابس التي كانت قد تحصنت، وأشار الصحابة الذين كانوا في الحملة على عبد الله بالعدول ـ مرة أخرى[5] ـ عن محاصرة المدينة، فواصل مسيرته ومر بقفصة وبعث بسرايا في كل مكان جاءته بأبقار وخراف وأعلاف[6]. وأخيراً وصل العرب إلى شمال تونس الحالية، حيث يقول المؤرخون: إن البطريق جريجوار جمع مائة وعشرين ألف رجل[7]. والتقى الجمعان في سهل سبيطلة سنة 647ف، وقد تم سحق القوات

= والمالكي، وأبو العرب (كملاحظة في المالكي) عدد المحاربين الذين بعثت بهم قبائل معينه. وحسب الطبري، ج4، ص256، لم يكن هناك إلا عشرة آلاف رجل وهو الرقم الأكثر احتمالاً.

(1) أبو العرب، والمالكي، وعبيد الله، والنويري (المرجع أعلاه).

(2) وهي معلومة لم يوردها إلا ابن خلدون، العبر، ج2، ص1003. نذكر أن عبد الله بُعث على رأس حملة إلى أفريقية وأن الأعداد الكبيرة للأعداء منعته من التقدم.

(3) النويري، ص316.

(4) المالكي، ص127، الذي تحدث عن مائة كانوا في السفن. وعبيد الله، ص36. ويذكر النويري. ص316، أن عددهم كان أربعمائة، ويصحح هـ.ر. إدريس هذا الرقم إلى «مائة رجل» دون تعليق في ترجمته للمالكي، ص127، وفي شكل ملاحظة نقلاً عن النويري.

(5) عبيد الله، والنويري، (المرجع أعلاه).

(6) عبيد الله، والنويري، والمالكي (مقطع سبق إيراده)، وابن الأثير، ج3، ص46.

(7) من الواضح أنه رقم مبالغ فيه من أجل تأكيد شجاعة المسلمين. إن هذا يعني أن المسلمين حاربوا واحداً إلى ستة أو واحداً إلى اثني عشر. سنلاحظ أنه في منتصف القرن السادس لم تكن القوة البيزنطية التي تعمل في إيطاليا تجمع إلا ثلاثين ألف رجل، وأنه لتجميع هذا الرقم اضطرت بيزنطة لإخلاء الجهات الفارسية والبلقانية. وفي تلك الفترة لا يزيد كامل عدد الجيش البيزنطي عن مائة وعشرين ألف رجل. انظر T.S Brown, Gentlemen and officers. ص84.

البيزنطية في هذه المواجهة. وفي تناولها لهذه المعركة تزدحم النصوص بحكايات معبرة مثل حكاية يمينة بنت البطريق التي فضلت أن تلقي بنفسها من فوق جملها وتنكسر رقبتها[1] على أن تقع في يدي قاتل أبيها المسلم.

ترك عبد الله حاكماً على سبيطلة[2]، وغادر تونس إلى طرابلس ومنها واصل رحلته إلى مصر[3] التي غاب عنها أكثر من عام.

ماذا كانت آثار هذه الحملة الثانية للمسلمين؟ يبدو أنها لم تحدث أي أثر لصالح العرب باستثناء إثرائهم. فمذبحة البحارة في طرابلس، وعملية القرصنة ضد سفنهم، والانتصار الساحق في سبيطلة، والنهب «في كل الاتجاهات» للأموال من ذهب وفضة «بكميات لا يمكن تصورها»[4] لا تسهم ـ بكل تأكيد ـ في نشر الإسلام. أو لم يقبل عبد الله اقتراح عظماء أفريقية الذين قدموا له مبلغاً نقدياً كبيراً بشرط أن يعود[5] عنهم، وذلك لوضع حد لعمليات النهب والسلب؟

---

(1) لن نتوقف لا عند التكتيك المتبني من المتصارعين، ولا عند الأحداث الخيالية حول المعارك التي دارت في أراضي تونس الحالية. نجد بيانات عند ابن عبد الحكم، ص42 ـ 51. والبلاذري، ص228 ـ 229. واليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص165. والمالكي، وابن الأثير، وابن عذاري، وعبيد الله، والنويري، ص317 ـ 323. وابن خلدون (العبر)، والطبري. وابن سعيد (المغرب) وأبو الفدا لم يتناولا هذه الوقائع. إن المخطوطات التي استخدمها المنجى الكعبي لطبعته الرفيق القيرواني «لا تبدأ ـ لسوء الحظ ـ إلا بذكر ولاية عقبة بن نافع سنة 46هـ ف 7 ـ 666ف.

(2) حسب ابن عذاري، ج1، ص17، الحاكم شخص يسمى حباحيبه. ويكتب De Slane في ترجمته للنويري أن اسمه جناحه. يذكر البلاذري، ص229، أن عبد الله عاد إلى مصر دون أن يسمي حاكماً على أفريقية، وهو رأي ابن عبد الحكم، ص44 ـ 45، الذي يضيف أنه لم يترك أي حامية.

(3) حسب المالكي، ص133.

(4) ابن عذاري، ج1، ص12.

(5) يذكر أغلب المؤلفين أن المبلغ كان مليونين وخمسمائة ألف دينار. بالإضافة إلى هذه الرواية يذكر البلاذري، ص228 ـ 229، رقم ثلاثمائة قنطار من الذهب (1 قنطار = 42,5كجم)، وهو الرقم الذي ذكره عبيد الله، ص37، ولكن النص يتعلق بحملة لاحقة يقال أن عبد الله بن سعد قام بها سنة 35هـ/ 4 ـ 655ف. وكذلك يذكر ابن عذاري، ج1، ص14، حملة أفريقية ثانية لعبد الله حدثت سنة 33هـ/ 4 ـ 653ف.

أو يمكن أن نستغرب في هذا الخصوص فرح عثمان عندما علم بفتح أفريقية[1]، وهو المعروف بحبه للثراء؟. إذا أراد عبد الله بن سعد أن يضاهي أو يتجاوز، في نظر الخليفة، منافسه السابق عمرو بن العاص في النهب فلا شك أنه نجح أيما نجاح!.

مثلت هذه الغارة مفخرة دون أن تحدث أثراً ولكنها تركت انطباعاً عميقاً عند عرب الصحراء، وفي مجال مختلف تماماً. فعندما كان أهل أفريقية يضعون أمام عبد الله بن سعد كومة من النقود سألهم: من أين لكم هذا؟ «فبدأ أحدهم يفتش إلى أن وجد أخيراً زيتونة (نواة زيتونة) وأراها لعبد الله قائلاً: «من هذا أصبنا الأموال». ولما أظهر عبد الله اندهاشه شرح له الرجل أن الروم وسكان الجزر الذين لا زيتون لديهم تعودوا الحضور إلى أفريقية لشراء الزيت، وهذا مصدر ثروة المنطقة[2]. هل ولَّد اكتشاف الوفرة الزراعية فكرة الاستيطان عند العرب؟ في جميع الأحوال سنجد مثل هذه الملاحظات في مقاطع تناولت وصف المعارك ضد الكاهنة ملكة البربر.

ترك العرب أفريقيه بغنيمة كبيرة، وبإدراك للثراء الدائم الذي يمكن أن تجلبه إليهم هذه المنطقة. من جانبهم لم يكن في استطاعة البربر ـ في هذه الفترة ـ أن يروا في العرب إلا غزاة قساة جشعين. نسي العرب الصحراء الليبية التي لم تكن مصدراً مؤاتياً للغنائم السهلة، بعد غارات بسر على ودان وعقبة على زويلة. وحتى جزءها السرتي لم يرد في النصوص بالرغم من أن عبد الله عبره بحملته، ومنها نستنتج أن الوضع في الصحراء الليبية كان هادئاً منذ حملة عمرو، ولا أثر لأي رغبة في التمرد والعصيان عند قبائل لواتة.

---

(1) ابن عبد الحكم، ص48 ـ 49. وفق أغلب النصوص كان عبد الله بن الزبير هو المبعوث الذي بعثه عبد الله بن سعد إلى عثمان. ويذكر ابن عبد الحكم، ص48 ـ 49 روايات أخرى تدعي أن المبعوث كان عقبة بن نافع أو مروان بن الحكم (ص48 ـ 51). إن فرح عثمان عندما سمع وصف الغنائم المأخوذة من أفريقية أنساه نصائحه إلى المحاربين قبل سفرهم.

(2) ابن عبد الحكم، ص46 ـ 49، وابن الأثير، ج1، ص12.

أزمة الخلافة:

كان عثمان يعمل باستمرار على زيادة ثروته على حساب بيت المال، وكان في هذا يعطي المثل لمستشاريه الذين ساروا على نهجه. واحتكر بعض أقاربه الذي عينهم موظفين، الأراضي والماشية، وطور نظام الإقطاعات التي كان يخصصها لمحاسبيه[1]، كما جرى أيضاً على مخالفة قاعدة اقتسام الغنيمة بين كل المحاربين، ومارس المحاباة والمحسوبية دون حدود. ويقال أنه ذهب إلى حد أن أعطى خمس فيء أفريقية لابن أخته وزوج ابنته مروان بن الحكم[2]. ومن الناحية الدينية أثار عثمان عداوة الكثيرين بإتلافه نسخ القرآن التي كانت في الولايات. إن ما قام به في هذا الخصوص عمل ديني دون شك، ولكنه سياسي كذلك، فهو بهذا العمل قضى على النفوذ الذي كان يمارسه قراء القرآن على الجماهير. وتسبب لنفسه بتصديه لأبي ذر الغفاري في عداوة النُّساك الذين كانوا يعارضون الخلافة[3] في حبها للدنيا. كما بدرت منه، في مجالات أخرى، أعمال منفرة: فقد سمح برجم امرأة أنجبت بعد ستة أشهر من زواجها، وخفض مخصصات عائشة، وأمر بقطع أيدي وأرجل ثوار مصر الذين جاؤوا إليه بشكواهم بالرغم من أنه كان قد وعدهم بإلغاء الإجراءات[4] التي لم تكن مستطاعة من قبلهم. وكانت هناك قوى تعمل في السر: العسكريون الساخطون خاصة لتناقص قيم أجورهم بسبب الأزمة الاقتصادية التي كانت تعيشها الدولة بعد الثراء المفاجىء الذي شهدته من مغانم أفريقية، والمصريون بسبب الضغوط التي كانوا يتعرضون لها من الولاة

---

(1) G. Levi della Vida، موسوعة الإسلام (انظر مادة عثمان بن عفان)، دون أن ينكر هذه الإجراءات يعتبر أنه يجب الاعتراف بأن قصد عثمان كان تحقيق وحدة الحكومة التي كانت مهددة بمغالاة الولاة في الاستقلال.

(2) ابن الأثير، ج3، ص46، ابن عذاري، ج1، ص31، وأبو الفدا، ج1، ص175 ـ 176. ويقول ابن خلدون، العبر، ج2، ص1005، أن الخبر الذي أورده البعض عار عن الصحة.

(3) انظر أعلاه، ص66، رقم37.

(4) اليعقوبي (تاريخ)، ومن المعروف عن اليعقوبي ميوله الشيعية، تاريخ، ج2، ص174 ـ 175.

المخلّين بمقتضيات مناصبهم. وقد أدت أعمال هؤلاء إلى مقتل عثمان في 17 يونيه[1] 656ف.

نسي التاريخ ليبيا لبعض الوقت بعد مقتل عثمان، هذا ما يبدو. ومع ذلك، فإن الأزمة التي كانت تعصف بالعالم الإسلامي بعيداً هناك، كان لا بد أن تؤثر في أفريقية وتهزها. وبالفعل فإن الأحداث التي كانت تدور في الجزير العربية والعراق وسوريا هي المسؤولة بطريقة غير مباشرة عن إعادة القو والعنفوان للبربر، ورسم المسرح السياسي الشمال أفريقي، وتسريع تحول الصحراء إلى الإسلام، وتسهيل التجارة عبر الصحراء، وإثراء سجلماسة وورقلة والزاب والجريد وجبل نفوسة وفزان، وامتد تأثير هذه الأحداث إلى العمار الأفريقية الساحلية، وإلى إعطاء سكان الجبال الليبية، وجزيرة جربة التونسي والزاب الجزائرية الطابع الديني والأخلاقي الذي ما زالوا يحافظون عليه بحرص حتى اليوم. يتعلق الأمر، بكل تأكيد، بظهور الشيعة وبروز حركة الخوارج.

توفى عثمان، وغادر بنو أمية المدينة مضطربين، واختير علي ابن ع محمد ﷺ[*] وزوج ابنته خليفة من قبل الأنصار منذ يونيه 656ف، وهكذا حقق هذا الذي لم يكلفه محمد أبداً إلا بمهام ثانوية، حلم حياته؛ توليه السلط العليا. كان علي شديد الورع وتحركه أفكار مغرقة في المثالية. وقام بمجر اختياره بعزل الولاة الذين حاباهم عثمان بشكل مخز. كانت النتيجة المباشر والسريعة بدء التآمر الذي ضم معاوية والأمويين والمخلصين لعائشة وأنصا عثمان القدامى. ونقل علي مقر الخلافة إلى الكوفة، لأنه بعد معركة الجمل ف ديسمبر 656ف لم يعد يستطيع الاعتماد إلا على عرب السواد. بسبب الفوض

---

(1) حول السخط الذي أثاره عثمان، وظروف وفاته، انظر الطبري، ج4، ص367 ـ 396، وكذ G. Levi della vida، موسوعة الإسلام، وHistory, C.Broclemman، ص63 ـ 5 وIslamolgoie F.M. Pareja ص81 ـ 82. و L'Orient Musulman, N.Elisse'eff، ص73 ـ 75.

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

التي ضربت أطنابها في مصر، وبسبب التمرد في سوريا الذي كان على رأسه واليها معاوية، بدأ الزحف على سوريا، وكان علي وشك إحراز النصر في معركة صفين ـ التي كانت تدور على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات في يوليه 657ف ـ عندما قام عمرو بن العاص وهو نصير مخلص لمعاوية ـ برفع أوراق من القرآن على الرماح داعياً ـ هكذا ـ إلى الاحتكام لكتاب الله بدل الاحتكام للسلاح. تمت تسمية حكمين: عمرو ممثلاً لمعاوية وأبو موسى الأشعري بن قيس مدافعاً عن مصالح علي. ولم يقع التحكيم إلا في شهر يناير 658ف[1]. كان موضوع التحكيم: هل كان قتل عثمان مبرراً؟ وهل كان معاوية، وهو قريب عثمان، مصيباً أو مخطئاً في المطالبة بالثأر؟ وقد رفض جزء من أنصار علي التحكيم مؤسسين موقفهم على القرآن (الآية 9 من سورة الحجرات): ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. بالنسبة لهم يجب مقاتلة معاوية، الباغي دون نقاش. وهكذا كانوا يعارضون معاوية وعلياً نفسه لأنه قبل التحكيم. منذ أغسطس 657ف تجمع هؤلاء تحت قيادة عبد الله بن وهب الراسبي في حروراء، وهي موقع غير بعيد من الكوفة[2]. حاول علي إعادتهم إليه بوعود، ولكنه أنكر لاحقاً نيته في عدم احترام ما اتفق عليه في صفين، وهو ما أدى إلى ترك الكوفة من قبل أعداد أخرى من مناصريه ـ كانوا أكبر عدداً هذه المرة ـ والانضمام إلى «الحروريين». ومن المحتمل أن خروجهم من الكوفة كان وراء تسميتهم الخوارج. بحرمانه من جزء من قواته أصبح علي غير قادر على مواجهة معاوية الذي استولى على مصر، فزحف على الخوارج ليوقف الانقسام في أنصاره ـ

---

(1) الأشعري: صحابي، فاتح خوزستان، ووالي البصرة ثم الكوفة في عهد عمر، واحتفظ بولاية هذه الأخيرة في عهد عثمان ونجح أيما نجاح في كسب تعاطف أهل الكوفة لدرجة جعلت علياً يتركه في ولاية الكوفة بالرغم من أنه أظهر حياده، وكان هذا السبب وراء اختياره للتحكيم.

(2) كان المعارضون للتحكيم في ذلك الوقت يسمون «الحروريون»، وفق اسم هذا المكان. لم يتم الحديث بعد عن الخوارج.

على الأقل - إذا لم يتمكن من إعادتهم إليه، وواجههم في يوليه 658ف في نهروان غير بعيد من بغداد، التي لم تكن في ذلك الوقت إلا قرية صغيرة وأوقع بهم مذبحة كان رئيسهم ابن وهب من بين ضحاياها.

التقى الحكمان مرة أخرى في يناير 659ف، واعتبرا أن عثمان قُتل ظلماً، وناقشا اختيار خليفة جديد حتى دون أن يفكرا في إمكانية بقاء علي في موقعه، وتمسك عمرو بمعاوية بينما كان أبو موسى، محكم علي، مع عملية انتخاب. تفرق المشاركون في الاجتماع دن اتخاذ قرار. واستمر أنصار علي في اعتباره الخليفة الوحيد، وبقي أنصار معاوية على اعتبارهم معاوية الخليفة الوحيد. لجأ علي إلى الكوفة، وفقد مكة والمدينة اللتين احتلهما بسر ابن أبي أرطأة، أحد قادة معاوية. وقد توفى علي في يناير 661ف بطعنة من سيف مسموم على يد أحد الخوارج، وبويع معاوية بن أبي سفيان خليفة من قواته، وقبل الحسن والحسين أبناء علي الأمر الواقع[1].

كانت القوى الثلاث حاضرة في ذلك الوقت. السنة ممثلة بمعاوية، والشيعة أو حزب علي، وهم يعتبرون الخلفاء الثلاثة الأوائل غير شرعيين ويقولون بأن خلفاء معاوية من الأمويين والعباسيين مغتصبون، وإلى «حزب الساخطين»[2] سينضم المعتنقون الجدد للإسلام الذين بقوا في أسفل السلم الاجتماعي والاقتصادي. وقاوم الخوارج، وهم تقاة متزمتون، الظلم والإقطاع

(1) حول هذه الأحداث، انظر Alfred Bel في كتاب La Regilion Musulmane، ص140 - 155. وC. Brockelmann، المرجع المذكور، ص66 - 71. وN. Elisseeff، المرجع المذكور، ص75 - 84. وGaudefroy Demombynes في كتاب les Institutions Musulmanes، ص37 - 43. وPh. k. Hitti، وH.Laoust في كتاب Les Schismes، وموسوعة الإسلام H.A.R Gibb انظر عبد الله بن وهب وعلي بن أبي طالب، وG. Levi della Vida انظر الخوارج. وL. Veccia Vaglieri (انظر الأشعري، الجمل، حروراء، الحسن بن علي، الحسين بن علي، ابن ملجم؛ A. j. Wensinck انظر عمرو بن العاص. حول نفس الأحداث واستراتيجية وتكتيك المتصارعين أثناء معارك الجمل وصفين ونهروان، وكذلك حول الدراسة العسكرية للأرض انظر I. B Glubb في كتاب The Great Arab Conquests.

(2) التعبير لـM. Gaudlefroy-Demombynes في كتاب Les Institutions Musulmanes، ص39.

من أجل المساواة والسيادة لكل المؤمنين، ونادوا بمساواة الأجناس أمام الله. لقد لعبت هذه القوى الثلاث دوراً أساسياً في أفريقيا الشمالية وأثرت بشكل مباشر أو غير مباشر تأثيراً بالغاً على الصحراء.

لم يختف عبد الله بن سعد من المسرح السياسي تماماً، وظهر سنداً رئيسياً لنظام الخلافة[1] حسبما يقول س. هـ. بيكر «C.H.Becker». على الصعيد العسكري قاد على الأقل حملة واحدة أخرى على أفريقية، وهو الذي صالح أهل النوبة سنة 31هـ/ 2 ـ 651ف، بعد معارك كثيرة، على هدنة مكنت للمتاجرة مع شرق أفريقيا طوال قرون[2]. لقد وقعت هذه الحملة التي قادها عبد الله على أفريقية قبل حملة عقبة على فزان وكوار بمدة تتراوح بين 12 إلى 16[3] سنة.

ليس من السهل معرفة من كان والياً على مصر في أواخر عهد عثمان وأثناء أزمة الخلافة، وكانت أفريقية ما زالت تابعة لولاية مصر في ذلك الحين. توحي النصوص المتناقضة بأن التتابع الزمني للوقائع قد حير المؤرخين العرب أنفسهم في القرون الوسطى، وكانوا عاجزين عن التمييز بين من كان والياً بصفته، ومن كان يمارس السلطةالحقيقية في مصر عندما تمردت، وبدأت سلطة عثمان في التفكك والانحلال.

---

(1) موسوعة الإسلام، انظر مادة (عبد الله بن سعد).

(2) البلاذري، ص238 ـ 239، عبيد الله، ص37. ابن سعيد (المغرب)، ص65. المقريزي (كتاب)، ج1، ص200، وهو يعطي نص الاتفاقية. انظر كذلك T. Lewicki في Arabic Extenal Sources، ص9. وF. Renault في La Traite des Noirs، ص11 ـ 42. أن هذه الحملة تظهر شجاعة عبد الله لأن النوبيين كانوا مقاتلين خطرين يحدثون خسائر جسيمة بوسائل محدودة. في سنة 642ف واجهوا عقبة بمقاومة كبيرة، انظر عاليه ص33. أثناء حملة عبد الله سنة 2 ـ 651ف، أصيب معاوية بن خديج وكثير من أصحابه في عيونهم ـ انظر البلاذري، وياقوت، والحميري (دنقله). سمى المسلمون النوبيين رماة الهلاك (بعد حملة عقبة حسب البلاذري، وبعد حملة عبد الله حسب الحميري). لقد كانت لديهم قدرة عجيبة في التصويب بالقوس لدرجة أن المسلمين لم يتمكنوا من الهجوم عليهم بالسيف، وبعد المعركة كان من المستحيل وجود أي سهم على الأرض. أمام هذه العدوانية لم يكن أمام المسلمين إلا عقد صلح وهو ما رفضه عمر دائماً (البلاذري).

(3) انظر فيما يلحق، ص104.

يبدو أن الوالي عبد الله بن سعد قد كلف أحد مساعديه بشؤون الولاية عندما توجه إلى المدينة المنورة ليبلغ الخليفة بالنصر الذي تحقق في ذات الصواري[1]. وقد أبعد هذا من قبل محمد بن أبي حذيفة الذي استولى على السلطة في مصر، وعندما رجع عبد الله من المدينة منعه المغتصب «محمد بن حذيفة» من دخول الفسطاط[2]، فاعتزل في عسقلان أو في رام الله بفلسطين حيث توفى سنة 36 أو 37هـ/ 8 ـ 656ف. يبدو أن محمد بن حذيفة لم يبعث بأحد إلى أفريقية. وأثناء الصراع على الخلافة عين كل واحد من المتصارعين واليه لهذه الولاية المضطربة[3]. ويقال أن علياً عين كثيرين كان آخرهم محمد بن أبي بكر الصديق، وقد عُين ثم عزل ثم أعيد تعيينه[4]، وقد قتله معاوية بن خديج حرقاً في بطن حمار[5]. إن معاوية بن خديج الذي قام فيما بعد بحملة مظفرة على أفريقية، وتولى حكم مصر لا يمكن أن يكون في هذا الوقت إلا أحد مساعدي معاوية بن أبي سفيان لأن قتله لمحمد بن أبي بكر[6] كان بأمر من الذي أصبح خليفة فيما بعد.

في هذه الأثناء كان عمرو بن العاص[7] هو حاكم مصر من طرف

(1) حول هذه المعركة، انظر E. Eickhoff, Seekrieg، ص18 ـ 19.

(2) البلاذري، ص299، الذي اختصر. والطبري، ج4، ص421. وابن سعيد (المغرب)، ص64 ـ 65.

(3) البلاذري نفس المرجع.

(4) وفق المسعودي، كان محمد بن أبي بكر فقيهاً في المدينة، انظر التنبيه، ص287/ 376. وكان الولد الثالث لأبي بكر، من زوجته الثالثة أسماء بنت عميس، انظر W. Montgomery Watt، موسوعة الإسلام (انظر أبو بكر).

(5) البلاذري، ص229.

(6) ابن عذاري، ج1، ص15، كان معاوية بن خديج مناصراً لعثمان. عندما عينه ابن أبي سفيان والياً على مصر قابل في أحد الأيام عبد الرحمن الابن الثاني لأبي بكر. قال له عبد الرحمن: «يا معاوية! قد أخذت أجرك من معاوية بن أبي سفيان، حين قتلت محمد بن أبي بكر ليوليك مصر! فقد ولاكها». فقال: «ما قتلت محمد بن أبي بكر لولاية! وإنما قتلته لما فعل بعثمان ـ رضه ـ!» (ابن عذاري، ج1، ص18).

(7) البلاذري، ص229 ـ 230، وابن سعيد (المغرب)، ص54، يشرح أن هذا التعيين سببه مناصرة عمرو لمعاوية في صراع الخلافة.

معاوية. لا نعرف إذا كان تعيين عمرو تم بمجرد وفاة عثمان في ذي الحجة 35هـ/ يونيه 656ف، وأن معاوية فضل تعيين حليف مخلص مبعداً هكذا عبد الله بن سعد الذي كان يرفض الانحياز لأي طرف من الأطراف، أو أن معاوية ترك عبد الله حاكماً اسمياً حتى وفاته سنة 36 أو 37هـ/ 8 ـ 656ف. عندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة ثبت عمرو في منصبه واستمر عمرو والياً على مصر حتى وفاته سنة 42 أو 43هـ/ 64[1] ـ 662ف. وقبل وفاته بقليل في سنة 41 أو 42هـ/ 3 ـ 661 عين عقبة عاملاً على أفريقية. وقد قام عقبة بقمع قبائل لواتة ومزاتة التي نقضت الصلح مع المسلمين، وفتح كواراً من أكوار السودان وخاض هناك معارك مظفرة[2] عديدة. وهكذا كمساعد عسكري أو إداري معين ـ مرة أخرى ـ من عمرو، قام عقبة بغزوته هذه في الجفرة، وأعماق فزان وتوسع حتى كوار.

خلف عبد الله بن عمرو بن العاص أباه في ولاية مصر، وعزله ابن أبي سفيان في سنة 47هـ/ 8 ـ 667ف، وأسند ولاية مصر لمعاوية بن خديج[3]. وقد سبق تعيينه والياً أو عاملاً لأفريقية في سنة 45هـ/ 6[4] ـ 665ف أو سنة 46هـ/ 7[5] ـ 666ف. ويكتسي استشهاد من ابن الرقيق بالنويري أهمية خاصة. يتعلق هذا

---

(1) لا يمكننا القبول بما قال به المالكي، ص133، من أن معاوية بن أبي سفيان قام بمجرد توليه الخلافة سنة 40هـ/ 661ف بعزل عبد الله من ولاية مصر وأفريقية وعين مكانه معاوية بن خديج. إن هذا يتناقض مع التتابع الزمني للأحداث لأن عبد الله توفي قبل مبايعة معاوية خليفة، وهو يعني كذلك إنكار الدور الرئيسي غير المباشر لعمرو في الصحراء.

(2) ابن الأثير، ج3، ص209، وابن خلدون (العبر)، ج3، ص21، 288. وابن عذاري، ج1، ص15، الذي يذكر غزوة واحدة فقط لعقبة على أفريقية وفتح غدامس، واليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص229، يكتب أنه عندما عاد عقبة إلى مصر من أفريقية، بعثه عمرو إليها مرة أخرى. إن التتابع الزمني للأحداث عند اليعقوبي غير دقيق جداً.

(3) ابن عذاري، ج1، ص18. والبلاذري، ص229 ـ 230، يقول بأن معاوية بن خديج عزل بنفسه عبد الله بن عمرو.

(4) النويري، ص324.

(5) ابن عذاري، ج1، ص18 يقول إنه ينقل عن البلاذري، ولكن هذا المقطع غير موجود في كتاب فتوح البلدان الذي بين أيدينا.

الاستشهاد بعودة معاوية بن خديج من إحدى غزواته الأفريقية وهي التي استولى فيها على جلولا: «رجع معاوية حينها إلى مصر ربما سنة 50هـ/ 1 ـ 670ف، واستلم من ابن أبي سفيان حكومة هذا البلد في مقابل حكومة أفريقية. وهكذا أصبح البلد الأخير حكومة منفصلة لا تتبع لمصر ولكن تتبع الخليفة مباشرة»[1]. وفي هذا الوقت نفسه بعث معاوية ابن أبي سفيان عقبة إلى أفريقية بلقب حاكم[2].

عين عقبة عاملاً على أفريقية سنة 41 أو 42هـ/ 3 ـ 661ف وعين معاوية بن خديج بدوره سنة 45 أو 46هـ/ 7 ـ 666ف. ماذا كان عقبة من 45 ـ 46هـ حتى سنة 50هـ/ 1 ـ 670ف وهو التاريخ الذي عين فيه الخليفة معاوية بن خديج والياً على مصر، وعقبة والياً على أفريقية؟ من جانب، لم يذكر أي من النصوص أن عقبة قد عُزل من منصبه كعامل لأفريقية، ومن جانب آخر، من المستغرب أن يوجد خلال أقل من أربع سنوات مسؤولان عسكريان لنفس الإقليم. في رأينا أن الأمر أقل غموضاً مما يبدو، وأن الغموض مصدره بشكل خاص المعاني الكثيرة لكلمة عامل ومرادفتها الممكنة لكلمة والٍ[3]. لقد عين عقبة عاملاً بمهمة خاصة وهي قمع ثورة قبائل لواتة ومزاتة وهما قبيلتان يقول النص بأن موطنهما شرق طرابلس. واستسلم عقبة لحماسه ـ كما سنرى ـ واستولى على فزان وكوار، ورجع نحو الساحل، وتدَّعم في الصحراء للاستيلاء على غدامس ـ أو بعث إليها بسرية ـ وتوجه شمالاً ليضع خريطة القيروان. ومن المحتمل جداً أنه عاد نحو الشرق[4] ليستقر في مقره؛ برقة وزويلة، حيث كان يوجد عندما تم تعيينه

(1) ص326 يجب أن نتذكر أن أعمال ابن الرقيق التي نشرها منجي الكعبي لا تبدأ إلا مع ولاية عقبة، كما أن نسبة هذا النص لابن الرقيق أمر مجادل فيه جداً. انظر م. طالبي، موسوعة الإسلام (مادة ابن الرقيق). يورد ابن عذاري. ج1، ص19 أن الخليفة سحب من معاوية حكومة أفريقية وأسند إليه حكومة مصر. حول فتح جلولا، انظر لاحقاً، ص145.

(2) انظر لاحقاً، ص146.

(3) كلمة عامل تعني من يؤدي عملاً أياً كان، ومن يُحصل الصدقة، ومن يدير ولاية أو منطقة إدارية (عمالة) من طرف السلطان، انظر لسان العرب، ج13، ص502.

(4) كان وجوده في تونس شكلياً إذ كان عبد الله قد ترك حاكماً في سبيطلة، انظر أعلاه، ص94، رقم 2.

حاكماً[1]، ومن ثم لم يكن هناك مسؤولان لنفس البلاد، وإنما كان هناك عامل أو والٍ معين من قبل الخليفة وهو معاوية بن خديج، وآخر مكلف بالشؤون العسكرية والإدارية في شرق ليبيا تابع لعمرو ثم لعبد الله بن عمرو وهو عقبة. ستتاح لنا الفرصة غالباً لنرى أن برقة كانت عادة تابعة لمصر، ولم تكن ولاية أفريقية تتجاوز سرت شرقاً إلا نادراً.

عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو واليا مصر.

حملة عقبة على فزان وكوار[2]

كانت المهمة التي أوكلها عمرو لعقبة سنة 41 أو 42هـ/ 3 ـ 661ف هي القضاء على ثورة قبائل لواتة ومزاتة، وقد كان من عادة البربر الخضوع للإسلام في حضور العرب وعندما يذهب هؤلاء يعودون من جديد عن خضوعهم[3]. وكان هذا ـ بكل تأكيد ـ نتيجة المعاملة التي فرضت على لواتة والحملات السابقة التي لم يكن لها من غرض آخر إلا البحث عن الغنائم ولم تكن تستهدف احتلالاً دائماً إذا استثنينا إقليم برقة ـ زويلة.

---

(1) انظر أعلاه، ص76، رقم 3.

(2) يوجد وصف لهذه الوقائع عند ابن عبد الحكم، ص60 ـ 65، وأخذها عنه البكري، ص12 ـ 14/ 32 ـ 35. يغفل الاستبصار والحميري (انظر زويلة) إخضاع ودان والاستيلاء على حصون فزان. ياقوت يعطي بيانات متناثرة، انظر (ودان، جرمه، خولر، كوار، ماء الفرس، وصف الإقليم الواقع جنوب فزان ـ انظر كاوار). القزويني، ص59، حول كوار وواقعة ماء الفرس فقط. اليعقوبي (تاريخ)، ج2 ص229 يشير فقط إلى أن عمرو بعث بعقبة مرة ثانية إلى أفريقية عندما رجع إلى مصر بعد سجنه من قبل أبي المهاجر، ويقول بوقوع هذه الحادثة سنة 50هـ(1 ـ 670ف، وهذا مستحيل بكل تأكيد لأن عمرو توفى قبل هذا بسبع أو ثمان سنوات، زد على ذلك أن سجن عقبة من قبل أبي المهاجر لاحق بقليل لسنة 50هـ. يذكر عبيد الله، ص38، باختصار الحملة ضد لواتة، واحتلال بعض مناطق السودان والاستيلاء على غدامس. ابن عذاري، ج1، ص15، لا يذكر إلا فتح غدامس. ابن خلدون (العبر)، ج3، ص21، 288، يذكر حملة ضد ودان، وبعض مناطق السودان وغدامس حيث قَتل عقبة وأخذ أسرى.

(3) ابن الأثير، ج3، ص209. وابن عذاري، ج1، ص19. والنويري، ص327. وابن خلدون، العبر، ج3، ص21، 288.

سار عقبة على طول ساحل خليج سرت حتى بلغ مغمداس ـ أو مغمداش ـ قادماً من سرت[1]، وكان بصحبته بسر بن أبي أرطأة الذي كان ـ هو أيضاً ـ يعرف هذه المنطقة جيداً. حدث هذا، حسب ابن عبد الحكم ومعه البكري في سنة 46هـ/ 7 ـ 666ف ، وهو ما يبدو متأخراً جداً إذا كان الأمر قد صدر من عمرو سنة 41 أو 42هـ. إننا نعرف الإهمال الذي يتناول به ابن عبد الحكم التتابع الزمني للوقائع ومن ثم نتبنى التواريخ التي اقترحها عبيد الله وابن خلدون: قاد عقبة حملة تأديبية ضد لواتة سنة 44هـ/ 2 ـ 661ف، وأعاد الاستيلاء على ودان، واستولى على بعض المناطق في السودان، واحتل غدامس سنة 42 ـ 43هـ/ 4 ـ 662ف[2].

لننظر في الوقائع كما رُويت[3] لنا.

كان الفصل شتاء. وعلم عقبة في مغمداس، وكان قد نال منه الضعف[4]، أن سكان ودان نقضوا اتفاقهم مع المسلمين ولم يعودوا يحترمون بنود الاتفاقية التي فرضها عليهم بسر بن أبي أرطأة سنة 23هـ/ 4 ـ 643ف أو بعدها بقليل[5]. ترك عقبة جيشه في مغمداس وأسند إمرته لاثنين من مساعديه

---

(1) سرت القديمة ـ ما زالت بقاياها ترى ـ حدد موقعها بموقع مدينة السلطان الحالي، وهو موقع على الساحل شرق سرت الحالية ويبعد عنها بحوالى 50كم، انظر de Slane في ترجمته للبكري، وT. Lewicki في Etudes Maghrebines، وR. Rebuffat في Routes d'Egypte، وأ. همداني في Some Aspects، كانت مغمداس تقع على الساحل بين زعفران (سرت الحالية)، ويئر بورتمه في الغرب على مسافة أربعة أو خمسة كم من كل منهما. وبقايا مغمداس تسمى حالياً الصنيمات. تشاهد فيها حالياً خمسة أصنام ما زالت منتصبة، انظر ط. أ، الزاوي ـ معجم (مغمداس).

(2) سنلاحظ أن عبيد الله، وابن خلدون بخلاف ابن عبد الحكم يقولون بأن فتح غدامس كان سابقاً لفتح كوار، وحتى قبل ودان عند ابن خلدون، وهذا غير منطقي لأننا إذا استطعنا القبول بأنه بعد فتح غدامس رجع عقبة نحو مغمداس وعبر فزان وكوار ووصل الساحل، سنجد أنه من غير المحتمل أن يكون قد سافر مرة أخرى نحو الغرب ليستولي على قفصة وتوزر ويضع مخطط القيروان. يقول ابن عذاري إن فتح غدامس كان سنة 46هـ/ 7 ـ 666ف.

(3) انظر الخريطة رقم (3).

(4) معلومة وردت فقط عند ابن عبد الحكم.

(5) انظر عاليه، ص78.

أحدهما زهير بن قيس البلوي[1] وتوجه نحو فزان بقوات خفيفة قوامها أربعمائة فارس، مصحوبة بأربعمائة جمل محملة بثمانمائة قربة ماء. استولى عقبة على ودان وقطع[2] ـ أو أمر بقطع ـ أذن[3] ملكها الذي سأل عقبة لماذا فعل ما فعل وقد عقدوا اتفاقية، فأجابه عقبة «فعلت بك هذا أدباً لك إذا مسست أذنك ذكرته فلم تحارب العرب»، وأخذ من أهل ودان ما كان بسر قد فرض عند إبرام الاتفاق، أي ثلاثمائة وستين عبداً. وسأل عقبة أهل ودان عما إذا كان وراءهم من أحد فأجابوه: «جرمة، وهي مدينة فزان العظمى». قطع عقبة المسافة الفاصلة بين ودان وجرمة في ثمان ليال ونزل قريباً من جرمة وبعث بعض قواته لدعوة أهلها للإسلام فوافقوا، وخرج ملك جرمة من المدينة لمقابلة عقبة الذي عسكر على مسافة ستة أميال من هناك[4]. وأرسل عقبة بفرسان أجبروا الملك على أن يقطع المسافة سيراً على الأقدام. وصل الملك، الذي كان ناعم التكوين، عند عقبة مرهقاً يبصق الدم. وسأل الملك عقبة لماذا عامله هكذا و«قد أتيتك طائعاً»، ورد عليه عقبة بما أجاب به ملك ودان وأصر على طلب ثلاثمائة وستين عبداً[5]. في اليوم نفسه، بعث عقبة بجزء من قواته نحو الشرق (نحو زويلة؟)[6]، وأسرع في التوجه نحو قلاع فزان واستولى عليها الواحدة بعد الأخرى حتى أقصاها. وسأل أهل القلاع عما إذا كان وراءهم أحد، فأجابوه «نعم أهل خاوار»[7]. وشرحوا له أن خاوار قصر عظيم على حدود الصحراء،

---

(1) زهير بن قيس، سيكون بعد قاهر البربري كسيلة. انظر ما سيلحق، ص150.

(2) جدع: شوه بقطع الأنف، أو الشفاه، أو الأذنين.

(3) هكذا عند ابن عبد الحكم، والبكري. عند ياقوت (انظر ودان) جدع أنفه.

(4) الميل العربي يساوي كيلو مترين تقريباً، انظر Ch. Pellat، في المقدسي ص76، رقم 12. وR. Mauny في Tableau Geographique، ص411.

(5) ياقوت (انظر مادة جرمه) يذكر أن عقبة افتتح الواحة وأخذ سكانها أسرى وأغفل ذكر المعاملة التي طبقت على الملك.

(6) عند ابن عبد الحكم فقط.

(7) خاوار هكذا كتبها ابن عبد الحكم، وينطقها ياقوت خاور. ويسميها البكري جاوان، ويقترح كتاب الاستبصار والحميري واجان.

فوق جبل في مكان يسهل فيه نصب الكمائن، وهو قصبة كوار[1]. قضى عقبة خمس عشرة ليلة ليصل إلى خاوار[2] التي كان سكانها قد تحصنوا، وحاصرهم شهراً كاملاً دون جدوى. واصل العرب زحفهم أبعد نحو الجنوب واستولوا على قصور كوار، واستدعى عقبة ملك أقصاها وقطع إصبعه فقال: «لم فعلت بي هذا؟» فأجابه عقبة: «أدباً لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب» وفرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً. وسأل عقبة سكان أقصى قصور كوار عما إذا كان وراءهم قوم، ولما أجاب الدليل بأنه لا يعرف وليست لديه بيانات بالخصوص عاد عقبة أدراجه على طريق قلعة خاوار، ومر بالقرب منها دون أن يتوقف ودون محاولة القيام بأي عمل ضدها. سار العرب طوال ثلاثة أيام، فاطمأن سكان القلعة اعتقاداً منهم أنهم في مأمن وفتحوا أبواب مدينتهم. عسكر العرب في مكان لا ماء فيه، وأصابهم العطش حتى شارفوا على الموت، فصلى عقبة ركعتين[3] ودعا الله وكان مستجاب الدعاء[4]. جعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة كان ينساب منها الماء. شرب الحصان من هذا الماء، وأبصر عقبة ما جرى فأمر رجاله بالحفر فحفروا سبعين حسياً (بئراً)، ولهذا سمي المكان ماء الفرس[5]. هكذا شرب الناس واستقوا. رجع عقبة نحو القصبة سالكاً درباً آخر غير الذي سلكه في الذهاب. لم يلاحظ

---

(1) كيفية الإملاء تختلف. فعند ابن عبد الحكم والحميري كَوَار، وعند البكري كوَّار، وفي كتاب الاستبصار كُوار، وياقوت (انظر كاوار) ويصف فتح المنطقة بواسطة عقبة (انظر كوار) وفي الحالتين يتعلق الأمر بالمنطقة جنوب فزان. وقد تبنينا كوار. يقول كتاب الاستبصار والحميري أن قصر كوار مثل مدينة.

(2) يتحدث البكري عن خمسة عشر ليلة للوصول إلى جاوان. يقول كتاب الاستبصار والحميري أن واجان تقع على خمسة عشر يوماً من زويلة، ولا يذكر ياقوت أي مسافة.

(3) نعرف أن صلاة ركعتين وسيلة إلى الله من أجل مطلب.

(4) كتاب الاستبصار، والحميري.

(5) يورد ابن الأثير والنويري نفس الرواية ولكنها عندهم تتعلق بعودة عقبة من الأطلسي قبل وفاته بقليل. ويقع ماء الفرس في الجزائر بالنسبة لهذين المؤلفين، غرب بسكره (ابن الأثير، ج3، ص308. النويري، ص333 ـ 334).

السكان شيئاً واعتقدوا أنهم في مأمن حتى طرقهم عقبة ليلاً بينما هم نُوَّم في أسرابهم[1] فاستولى على الأطفال[2] والأموال وقتل المقاتلين. وانصرف المسلمون نحو الشمال حتى بلغوا زويلة[3]، ثم ارتحلوا حتى قدموا على القوات الأساسية (على الساحل في مغمداس). وقد استغرقت هذه الحملة الصحراوية خمسة أشهر.

بعد أن استراحت[4] القوات والحيوانات، توجه عقبة نحو الغرب و«جانب الطريق الأعظم»[*]، ومر بأرض مزاتة وافتتح كل قلاعها ثم توجه نحو... [5] وافتتح القلاع والقصور، ثم بعث خيلاً إلى غدامس فافتتحت[6]. فلما عادت خيله زحف على قفصة واستولى عليها ثم توجه جنوباً واستولى على قسطيلية (توزر). عاد عقبة بعد ذلك نحو الشمال حتى بلغ الموقع الحالي لمدينة القيروان، ودعا الله أن يبعد عنها الوحوش والهوام، ولما كان غير راض عن المعسكر الذي أقامه معاوية بن خديج وضع مخطط مدينة القيروان[7].

---

(1) لم تُذكر المساكن تحت الأرض إلا عند ابن عبد الحكم.

(2) الذرية قد تعني كذلك النساء.

(3) ابن عبد الحكم «... حتى نزل بموضع زويلة اليوم» (انظر ما سبق ص76، رقم 3). البكري: «ثم انصرف راجعاً حتى زويلة».

(4) عند ابن عبد الحكم فقط.

(*) تعبير استعمله أحد المؤرخين (المترجم).

(5) عند ابن عبد الحكم فقط. إحدى المخطوطات الأربعة التي استعملها A. Gateau (رقم 1687 في جدول المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية ـ باريس) غير صحيحة وهي الوحيدة التي أعطت اسماً لم أستطع تمييزه، وهو مكون من ص أو ض متبوع ب ف أو ق دون نقاط.

(6) يغفل البكري هذه الواقعة المذكورة عند ابن عبد الحكم.

(7) وهي حملة قادها معاوية سنة 34هـ/ 5 ـ 654ف (انظر لاحقاً، ص145). في تونس لم تكن قد توافرت للعرب الحماية بأسطول بحري، ومن ثم كانوا يتحاشون الطريق الساحلي. ولا يقتربون من الجبال في الغرب مخافة الكمائن. كان عليهم للتوجه نحو الشمال، نحو قرطاجنة، أن يسلكوا الممر الواقع بين قمونية (الموقع الحالي للقيروان)، وجبل القرن. هناك عسكر جيش معاوية، انظر ابن الحكم، ص58 ـ 59. إن اختيار الموقع أملاه الخوف من البربر ومن =

إن الجوانب الأسطورية في هذه الملحمة واضحة للعيان، ولكن هل لنا أن ننكر وقوعها لمجرد وجود هذه التفاصيل العجيبة التي حشرت فيها؟ لقد عبر روبرت برنشفيق «Robert Brunschving» عن شكوك صريحة[1] فيما يتعلق بفتح فزان من 3 ـ 662ف، ويؤسس هذه الشكوك على نص في المدونة (ج3، ص46) للقاضي المالكي سحنون، وهو عالم قيرواني كان تلميذاً لابن القاسم الذي كان بدوره تلميذاً لمالك بن أنس[2]. ينقل روبرت برنشفيق نصاً من فصل عن الجزية نصه: «ولقد سئل مالك عن الفزازنة وهم جنس من الحبشة سئل عنهم مالك فقال لا أرى أن يقاتلوا حتى يدعوا إلى الإسلام. ففي قول مالك هذا إذ قال لا أرى أن يقاتلوا حتى يدعوا فأراهم في قوله هذا أنهم يدعون إلى الإسلام فإذا لم يجيبوا دعوا إلى إعطاء الجزية وأن يقروا على دينهم فإن أجابوا قبل ذلك منهم فهذا يدلك على قول مالك في الأعجم كلها إذ قال في الفزازنة إنهم يدعون وكذلك الصقالبة والإبر والترك وغيرهم من الأعجام ممن ليسوا من أهل الكتاب». يرى روبرت برنشفيق في هذا النص معلومتين مهمتين، تتعلق إحداهما بأثنية أهل فزان أثناء الفتح ـ وسنعود إلى

= البيزنطيين وفي نفس الوقت رغبتهم في أن تكون لهم مدينة إسلامية حقيقية، انظر ياقوت (القيروان)، وابن الأثير، ص230. وابن عذاري، ج1، ص19 ـ 20. وأبو الفدا، (تاريخ)، ج1، ص197. والنويري، ص327. وابن خلدون العبر، ج3، ص289. والحميري (انظر القيروان). انظر كذلك م. طالبي، موسوعة الإسلام، انظر (مادة القيروان)، ص 858b و 859a، يؤكد أن تأسيس المدينة، الذي ينسب تقليدياً لعقبة، تم في الواقع على مراحل واشترك فيه قادة كثيرون. فيما يتعلق بالواقعة الأسطورية للوحوش والثعابين التي طردها عقبة ـ انظر ابن عبد الحكم، والمالكي، وياقوت (ما سيلحق)، والعبدري، والنويري، وابن عذاري، والحميري (ما سيلحق).

(1) نص عربي، ص21 ـ 25 Ch. Pellat. موسوعة الإسلام لا تشكك في نص ابن عبد الحكم، وكذلك T. Lewicki في Etudes Maghrebines، ج2، ص61. وTableau Geographique، ص18.

(2) توفى مالك سنة 795ف، وتوفى ابن القاسم سنة 806ف، وتوفى سحنون سنة 845ف. تأسست المدونة على إجابات ابن القاسم عن أسئلة تتعلق بالأحكام. انظر ابن خلكان، ج2، ص86 ـ 88 وكذلك J. Schaht، موسوعة الإسلام انظر (مادة ابن القاسم).

هذا ـ، وتتعلق الأخرى بتاريخ الفتح. في أقل من صفحتين استنتج برنشفيق من هذا النص أن فتح فزان لم يقع إلا بعد حوالى مائة سنة بعد التاريخ الذي اقترحه المؤرخون العرب، ويعترف «بأن الاستعمال الكثير للأفعال التي لا تفيد زمناً محدداً في اللغة العربية قد يترك بعض الشك ولكن من الطبيعي أن نفهم تعبير (أن يقاتلوهم) وما تبعه بما يفيد الحاضر والمستقبل، وذلك في غياب ما يفيد العكس». هكذا يعتبر أن «السؤال الذي طرح على مالك وجوابه كانا يتعلقان بما يدور في حينه»، وأن الطابع الأسطوري لما أورده ابن عبد الحكم هدفه تضخيم إنجازات عقبة. ويؤيد هذا الفهم واقع أن تونس لم تكن قد فتحت بعد. هكذا، وفق روبرت برنشفيق، كان لا بد من انتظار فتح تونس وطرابلس ليتغلغل الدين الإسلامي ببطء في الصحراء الليبية حتى فزان في النصف الأول من القرن الثامن، ومن المرجح أن يكون في إطار مذهب الخوارج. بالفعل وصل نجاح الخوارج في هذه الفترة إلى مدى جعل الخليفة العباسي المنصور يبعث والي مصر محمد بن الأشعث الخزاعي ليعيد النظام والاستقرار إلى بلاد البربر. نجح ابن الأشعث في هزيمة التحالف البربري ـ الأباضي في تاورغاء في صفر 144هـ/ مايو ـ يونيه 761ف ثم زحف على ودان وزويلة في سنة 145هـ/ 3 ـ 762ف وقتل الأباضيين الذين كانوا هناك وخاصة عبد الله بن حيان الأباضي رئيس زويلة[1].

إننا لا نستطيع إنكار دور الخوارج في أسلمة الصحراء، ولكن هذا لا يمثل سبباً كافياً لإنكار انتشار الإسلام قبل ذلك حتى لو كان انتشاراً محدوداً وغير راسخ، ويجب ألا ننسى أن عقبة جعل مقر قيادته للمنطقة في برقة وزويلة. لا شك أن السياسة العربية القاضية بالاختيار بين التحول إلى الإسلام أو دفع الجزية أدت في الصحراء، كما حدث على الساحل، لتحول أعداد كبيرة إلى الإسلام، دفع إليها ـ بل جعلها ضرورية ـ الارتفاع الشديد لمقدار الجزية.

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص73. انظر ما سيلحق، ص197.

وحتى لو استبعدنا فكرة الأسلمة، ولو كانت شكلية وعابرة، فإن هذا لا يقدم سبباً لرفض الاعتراف بالحملة التي تحدث عنها بتفصيل واحد من أوائل مؤرخي الفتح، وقبلت من المؤلفين اللاحقين بتفاصيلها أو فقط في عموم أحداثها. سنلاحظ، في الواقع، أن ابن عبد الحكم لم يذكر تحول الأقوام الذين انتصر عليهم عقبة باستثناء جرمة، فحملة عقبة على فزان بالنسبة لهم لم تكن إلا غزوة عسكرية من أجل المغانم.

قد يوحي رأي مالك الذي نقله سحنون بأن أسلمة فزان لم تكن قد انتهت في عصره ـ وهو ما لا يستغرب إذا أخذنا في الاعتبار سعة المنطقة، وتشتت السكان، وقلة أعداد القوات العربية ـ ولكن، في كل الأحوال، لا يمكننا إنكار أن عقبة قاد حملة مظفرة حتى حدود السودان، كما فعل روبرت برنشفيق.

فيما يتعلق بالناحية الشكلية للنص، يبدو أن الجانب اللازمني للفعل في اللغة العربية يترك المجال هنا لأكثر من بعض الشك. إن جواب مالك الذي أورده سحنون يمكن أن يعني: «لست مع الرأي بأنه كان عليهم قتالهم قبل دعوتهم للإسلام. . . . وإذا ما كانوا قد رفضوا كان عليهم أن يدعوهم لدفع الجزية. . . فإذا كانوا قد استجابوا، فكان يجب قبول هذا منهم»[1]. إذا قدرنا أن هذا التفسير صحيح، نستطيع أن نعتبر احتواء رأي مالك على نقد ضمني لتصرفات عقبة. بالفعل، إذا كان تصرف عقبة في ودان مبرراً لأن هذه الواحة نقضت الاتفاق الذي أبرم مع بسر بن أبي أرطأة، فإننا نلاحظ، بالمقابل، أنه لم يقم خلال هذه الحملة بدعوة السكان إلى الإسلام باستثناء سكان جرمة، وبالرغم من استجابتهم لدعوته فإنه عامل ملكهم بقسوة. وفي غيرها من الأماكن؛ في قلاع فزان وكوار اكتفى بفرض ضرائب مرهقة مصحوبة بعمليات إذلال للرؤساء، وهو ما لا يمكن إلا أن يصدم مالكاً. إن هذا النقد من الإمام

---

(1) انظر ملاحظتنا، ص50، رقم 1، حول ندرة استعمال تعبير من نوع «يجب» بعد الأفعال من قبيل قال، أعلن، اعتبر، تطلب أو عندما يكفي السياق للإفادة بالوجوب.

مالك قد يكون موجهاً لكل القادة الذين تصرفوا تصرفات مشابهة تجاه الأقوام المذكورين في نص سحنون. ويبدو أن تحول الأفر إلى الإسلام كان ببطء تحول أهل فزان، فقد فتحت أذربيجان سنة 643 ـ 639ف ولكن وقعت فيها ثورات عديدة. كما تعود الحملات العربية الأولى على أران، أيضاً، إلى نهاية عهد الخليفة عمر ولكن المسلمين عرفوا فيها هزائم حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن في عهود الخلفاء الأمويين الأخيرين، كما أن النجاحات العسكرية العربية في داغستان لا تعود إلا لسنوات 743[1] ـ 724ف. أو لم يرد مالك بملاحظته أن ينبه إلى السلوك الذي كان على القادة العرب الأوائل اتباعه في حملاتهم الأولى على هذه الأقاليم، عندما رأى أن حروب الفتح، ومن ثم أسلمة هذه الأقاليم تطول وتستغرق زمناً بلا نهاية؟. ولا يصح استناداً إلى نص بهذه الدرجة من عدم الوضوح، أن ننكر حملة عقبة على فزان وكوار وأن لا نرى فيها إلا تمجيداً مختلقاً لهذا البطل، كما يقول روبرت برنشفيق «Robert Brunschving»، ونعتقد أن مالكاً سكت عن ذكر اسم عقبة حتى لا يسيء إلى صورة واحد من أعظم الفاتحين الإسلاميين بالرغم من أنه استهجن تصرفات هذا القائد الآثمة تجاه سكان المناطق الصحراوية.

إن القلق الذي يثيره تكرار الرقم ثلاثمائة وستين عبداً الذي فرض على السكان المُخضعين قد يمثل سنداً لطرح برنشفيق، ولكن هذا في تقديرنا ليس اعتراضاً مقبولاً، فقد تعود المؤرخون العرب على مثل هذا التكرار. إن رقم ثلاثمائة وستين عبداً هو واحد من رقمين ـ الآخر ثلاثمائة ـ ذكر في الغارات على النوبة، وهي غارات لم ينكرها أحد قط، مع أن إحداها كانت بقيادة عقبة وأضافت إلى هيبته وشهرته.

---

(1) الطبري، ج4، ص154، 7 ـ 246. وياقوت (انظر أذربيجان). وابن الأثير، ج3، ص13 و43. وابن خلدون العبر، ج2، ص971 و999. وانظر كذلك موسوعة الإسلام، أذربيجان (انظر Minorsky)، وأران (R.N. Frye)، والأفر (H. Carrere d'Encausse-A. Bennigsen)، وداغستان (W. Barthold-A. Bennigsen).

من المؤكد أن حملة عقبة على فزان لم تؤد إلى أسلمة كاملة للإقليم، هذا لا جدال فيه. ومن المفيد الآن أن نعيد النظر في النصوص ونفحص ما إذا كانت هذه الغزوة ممكنة، وسيمكننا هذا، إذا ما كانت الإجابة بالإيجاب، من تحسين فهمنا حول ما كان يعرفه العرب عن المنطقة منذ بدايات الإسلام، وكيف اكتسب البلد هذه الدرجة من الأهمية، ولماذا استقر فيه الأباضيون. سنلاحظ أولاً أن قوات قادرة على احتلال مدينة قفصة والوصول إلى شمال تونس حيث قوات الأعداء أقوى بدرجة لا تقارن، كان في إمكانها أن تخضع واحات صحراوية دفاعاتها أقل بكثير.

إذا ما فحصنا من خلال ترجمة A. Gateau بداية نص ابن عبد الحكم، وهو الوحيد الذي أورد بتفصيل وصول عقبة إلى مغمداس ومغادرة الحملة العربية، سنرى أن النبرة قد أعطيت مباشرة لترجمة مغرضة: «هناك، [في مغمداس]، فاجأ الشتاء عقبة الذي كان تكوينه ضعيفاً»[1]. يقول النص العربي «فأدركه الشتاء وكان مضعفاً». إن ترجمة A. Gateau تقدم سبباً لمن يريد إنكار حملة عقبة: فكيف لرجل ضعيف بتكوينه أن يقطع في خمسة أشهر هذه المسافة؟ يبدو لنا هذا الاعتراض غير مقبول فعقبة ولد في السنوات الأخيرة من حياة محمد ﷺ[*] وعليه كان عمره حوالى خمس وثلاثين سنة في الفترة التي تعنينا 42 ـ 43 ـ هـ/ 4 ـ 662ف. أن يكون قد أدركه ضعف في تلك الفترة ـ بسبب الحملة العقابية على لواتة؟ ـ لا يمنع في شيء غزوه في الصحراء. أو لا نجرؤ على القول: بالعكس تماماً؟ أو ليس جفاف المناطق الصحراوية أكثر ملاءمة للعرب من رطوبة الشتاء على ساحل خليج سرت؟ ولو كان هناك تناقض لكان بيناً لدرجة لا يخطئها ابن عبد الحكم. أن تتهم مؤرخاً بالإهمال شيء وأن تحكم عليه بالبلاهة والسخف شيء آخر. أو لا يعبر مؤلفنا عن إعجابه أكثر

---

(1) فتوح أفريقيا، ص60/ 61.

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

بالبطل الفاتح: فرغم تعبه،أطاع عقبة عمرو وزحف على ودان من أجل معاقبة مزاتة العصاة، ثم دفعه حماسه للتوجه نحو الجنوب؟.

فيما يتعلق بمسألة «المسافة ـ الزمن» لا يبدو أن هناك ما يثير الاستغراب. إن المسافة الكلية التي قطعها عقبة في أربعة أشهر ـ لقد استغرقت الغزوة خمسة أشهر ولكن شهراً منها قضاه في حصار كوار ـ بلغت 3500كم، أي بمتوسط يصل إلى ثلاثين كيلو متراً في اليوم. إننا بعيدون عن الخمسين إلى الستين كيلو متراً التي يمكن أن تقطعها مجموعة عسكرية في اليوم خاصة إذا كانت وحدة خفيفة كما كان الحال في المسافات بين جرمة ـ كوار، وكوار ـ زويلة، وذلك حتى لو أخذنا في الاعتبار الزمن اللازم للاستيلاء على الواحات واستراحة الناس والدواب، ونذكر بأن عقبة أرسل، عندما كان في جرمة، جزءاً من قواته نحو الشرق. نعرف كذلك أن المراحل تكون أطول وأسرع[1] في الصحراء، وأن الراحة، وهي أكثر ضرورة للحيوانات منها للناس، غير ممكنة إلا في الواحات. من البين أن قوات عقبة كانت أبطأ على طول المسافات التي قطعتها بكامل عددها، وذلك لكثرة الجمال الحاملة للمؤن والمياه والأعلاف، ولكن هذا أيضاً لا يسمح بالشك في صدق الرواية.

يقطع الجمل بحمولة عادية أربعة كيلو مترات في الساعة على الأقل، ويسير ست إلى سبع ساعات في اليوم، أي أنه يقطع خمسة وعشرين إلى ثلاثين كيلو متراً يومياً، ويمكن مضاعفة المراحل بشرط أن يعطي ثلث الزمن لراحة

---

(1) لدينا في العصر الحديث أمثلة مشابهة إلى حد كبير لرحلة عقبة. في سنة 1912ف قطع النقيب شارلي «Charlet» على رأس كتيبة صحراوية مسافة 800كم من تيديكلت في عشرة أيام عبر كثبان عرق شيش، وقضى على مجموعة معادية، وقام باستطلاع حتى النيجر، ورجع إلى عين صالح وبُعث إلى جانت لمحاربة السنوسيين: أي مسافة إجمالية قدرها 5000كم منها 1200كم مشياً، قطعت في خمسة أشهر أي بمتوسط يومي 33كم. يمكن كذلك أن نذكر النقيب Lecocq من الجماعة البدوية من شنقيط الذي لاحق عصابة مغربية في سنة 1932: قطع 1000كم خلال عشرة أيام وقاتل في معركتين. انظر B.Verlet في كتاب Le Sahara، ص64 ـ 65.

الدواب مقابل ثلثين للسير وهو ما يعني أن متوسط المسافة التي يقطعها الجمل يمكن أن تصل إلى أربعين كيلو متراً في اليوم[1].

يقطع الحصان حاملاً فارسه ثمانية كيلو مترات في الساعة بتعاقب الخب والراحة ويمكن أن يسير طوال ست ساعات، ومع هذا يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الحصان يشرب مرات عديدة وببطء[2] في حالات العمل أو الحرارة المرتفعة أو العواصف الرملية. وكانت قوات عقبة تعد أربعمائة حصان تتطلب السقي. ومن ثم فإن المسافة اليومية للحصان لا تتجاوز المسافة اليومية للجمال. هكذا نرى، في جميع الأحوال، أن المتوسط الممكن يتجاوز الثلاثين كيلو متراً اللازمة للمسافة التي قطعها عقبة في أربعة أشهر.

إن قدرة الجمال على الحمل لا تطرح أي مشكلة على الأقل حتى جرمة، حتى لو افترضنا ترفاً احتياطياً في منطقة تكثر فيها الآبار نسبياً، والواحات متقاربة، فلن تصل إلى وزن يتجاوز ما يمكن أن تحمله قافلة من هذا النوع.

كان من المستحيل ـ بكل وضوح ـ سقي كل الحيوانات مرة واحدة، وهذا لا يمكن أن يمثل حجة للاعتراض لأن الوحدات اللوجيستية في كل جيوش العالم تتبع بفارق أربع وعشرين إلى ثمان وأربعين ساعة.

يستهلك الحصان ما بين 15 و25 لتراً من الماء في اليوم، ويمكن أن يرتفع هذا المعدل إلى ما يترواح بين 40 و60 لتراً في اليوم في مناخ شديد الجفاف ودرجة حرارة مرتفعة جداً، وهذه الحالة لم تكن في فزان شتاء: فمن ديسمبر

---

(1) Tableau Geographique, R. Mauny ص394 ـ 395. خلال شتاء 1920ف 1921ف، كانت قافلة روزيتا فوبرس تسير لمدة إحدى عشرة إلى ثلاثة عشرة ساعة يومياً على طريق أجدابيا الكفرة وكانت حمولة الجمال ثقيلة، ووصل المتوسط اليومي لهذه القافلة ستة وأربعين كم، R.Forbes, (n.3, p.168, Across the Libyan Desert to Kufra. G.l, Lvlll. no2, pp.83, .93)

(2) Les Touareq du nord, H.Duveyrier ، ص221، يؤكد أن من الممكن تعويد الحصان في الصحراء على ألا يشرب إلا كل يومين.

إلى فبراير يبلغ متوسط درجة الحرارة ليلاً 4 درجات مئوية، ومتوسط درجة الحرارة نهاراً 21 درجة مئوية، ومع أن خيول عقبة ـ وتلك التي أخذها بكل تأكيد من البربر ـ كانت مدربة جيداً، وبالرغم من تعدد الآبار، نحسب للحصان 25 لتراً في اليوم ولمدة يومين وهكذا تكون الحمولة من المياه اللازمة لسقي الخيول 20 طناً. قد لا تكون الأعلاف اللازمة للخيول متوافرة في الواحات الصغيرة، ومن ثم نحسب سبعة كيلو جرام من الأعلاف لكل حصان في اليوم ولمدة عشرة أيام (المسافة من ودان إلى جرمة) وهو ما يعطينا حمولة قدرها ثمانية وعشرون طناً. يتحدث ابن عبد الحكم عن أربعمائة فارس، يضاف إليهم خمسون رجلاً من الجمالين. نخصص لكل واحد من الأربعمائة والخمسين رجلاً خمسة لترات من المياه يومياً لمدة يومين، وهو تحوط مُبالغ به، ويعطي حمولة قدرها 4500 كيلو جرام. هكذا تصل الحمولة الإجمالية إلى حوالى 52 طناً يضاف إليها كذلك التموين للرجال، ولكن وزن التموين صغير ـ نحسب أقل من خمسة كيلو جرامات لكل رجل لمدة عشرة أيام ـ وهو ما يمكن حمله بسهولة على الخيول. ونعتبر أنه كان من غير المفيد نقل الأعلاف للجمال على طوال المسافة مغمداس ـ ودان ـ جرمة، فقد كان الفصل شتاء وخلاله تستطيع الجمال أن تأكل من الأرض، فالنباتات فيها متنوعة والواحات متقاربة لدرجة أنه لا يمكن تصور أي مشاكل في هذا الخصوص بالنسبة للعرب المنتصرين.

تتراوح الحمولة العادية للجمل الشمال أفريقي بين 125 و180كجم[1] حسب قوة هذه الحيوانات وإمكانية التوزيع الجيد للحمل، إذ من الواضح أن من الأسهل للجمل أن يحمل حمولة معينة من الملح من أن يحمل ما يعادلها من القمح أو القضب. إذا سلمنا بمتوسط حمولة 150 كجم فإن قدرة قافلة بالعدد الذي ذكرناه من الجمال تصل إلى 60 طناً. وهكذا فإن أجزاء هذه الرحلة مغمداس ـ ودان ـ زويلة، وزويلة ـ مغمداس ممكنة من الناحية الفنية في الزمن

(1) R. Mauny في Tableau Geographique، ص357، 5 ـ 394، يعطي مثلاً حمولة من الملح في مخلين كل منهما يزن 90كجم.

المخصص، وبالعدد المذكور من الجمال الحاملة. وسنرى لاحقاً ما يخص المسافة فزان ـ كوار. لنفحص أولاً الغزوة مرحلة، مرحلة. لا شك أن عقبة استعمل أدلاء محليين انطلاقاً من مغمداس ـ وسيذكر هذا بوضوح فيما يتعلق بكوار ـ وتوجه نحو الجنوب قاطعاً مسافة 260كم ويمكن أن تكون مشيته سريعة ـ خمسة إلى ثمانية أيام ـ لأن الآبار منتشرة على طول هذا الطريق[1]: ومن المتوقع أن لا تكون هناك مغالاة في تحميل الجمال. إن وصف عقاب الملك وسؤاله، وجواب عقبة، وأموراً تكررت في مواقع أخرى تكتسي طابعاً ملحمياً لا يخطئ، هدفه المرجح زرع الخوف من المسلمين عند سكان البلدان المفتوحة، والخوف من نقض العهد. أما عن ضريبة الثلاثمائة وستين عبداً (نصاً، ثلاثمائة وستين رأساً) التي فرضها بسر وحصّلها عقبة فإنها لا تمثل أي استثناء، ففي مرو الشاهجان في شمال فارس كان مقابل الصلح عبيداً من الجنسين، وحيوانات وسلعاً مختلفة[2]، واقتضى الصلح في النوبة أن يقدم النوبيون عبيداً كل سنة ـ ثلاثمائة أو ثلاثمائة وستين ـ مقابل الأطعمة والملابس التي يقدمها لهم المسلمون[3]. كما لا يجب أن يحيرنا عدم معرفة عقبة بما بعد ودان بينما يعرف زويلة، إذ من المرجح أن عمرو أرسل عقبة من برقه إلى زويلة حوالى سنة 4 ـ 643ف وسلك الطريق المباشر المار بزلة والفقها دون أن يعرف شيئاً عن الغرب. يسترعي انتباهنا في هذا الجزء من الرحلة أن مزاتة التي سبق

---

(1) وفق ما تحققنا منه توضح الخريطة الدولية لأفريقيا مقياس رسم 1 : 1000000، ورقة طرابلس سوكنه، وجود ستة آبار بين سرت وودان، ولأن هذا الطريق كان مستعملاً قبل وصول العرب، ليس لدينا سبب لافتراض أن عدد الآبار كان أقل في هذه الفترة.

(2) البلاذري، ص396.

(3) ابن عبد الحكم (طبعة Torrey)، ص189، يذكر الرقم 360 عبداً. البلاذري، ص238، يتحدث عن 300 عبد فرضها عقبة في عهد عمر، وفي ص239 يتحدث عن 360 عبداً ـ وهو ما أخذه عنه المقريزي، كتاب، ج1، ص200 ـ فرضها المسلمون في عهد الخليفة المهدي (النصف الثاني من القرن الثامن). اليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص166، ذكر أيضاً رقم 300 عبد. ابن سلام، ص146، والطبري، ج4، ص109، 111، يذكر تقديم عبيد سنوياً دون ذكر الرقم. لا نعرف إذا كان العبيد من النوبيين أو من أقوام محتلين ـ انظر R. Renualt. La Traite des Noirs، ص11 ـ 42.

أن أخضعها بسر بن أبي أرطأة بينما كان عمرو محاصراً لطرابلس، حاولت التخلص من عبء الضريبة التي فرضها العرب، فتم قمع عصيانها بقسوة ورأت ملكها يذل ويهان.

من ودان أرسل عقبة الثلاثمائة والستين عبداً مصحوبين إلى الساحل، وهكذا فقد جزءاً من قواته، ويمكننا أن نفترض تركه حامية في الجفرة.

في ودان بدَّل عقبة دليله لأن سكانها هم الذين أخطروه بما بعد ودان، ومن الطبيعي أن يختار الدليل من القبيلة صاحبة الأراضي المعبورة.

من المؤسف أن النصوص لا تقول شيئاً عن الطريق الذي سلكه عقبة ليصل إلى جرمة من ودان. هناك إمكانية طريق مباشر يربط آخر واحات الجفرة؛ سوكنة بوادي الشاطىء ولكنه يتطلب التوغل في جبل السودا وقطع مسافة 230كم ليس فيها إلا القليل من نقاط المياه، ثم عبور دهان أوباري. من المرجح أن عقبة سلك طريقاً أطول قليلاً ـ لا أكثر من 30كم ـ بسبب مشاكل التموين المرتبطة بالطريق المباشر. يعبر الطريق الأطول سفوح جبل السودا ليصل إلى واحات البوانيس ويواصل السير على امتداد وادي الآجال. ويبلغ طول هذا الطريق حوالى 450كم منها 180كم فقط ليس فيها إلا القليل من نقاط المياه والباقي تتوافر فيه إمكانات تموين، وآبار في كل مرحلة يومية. يفيدنا ابن عبد الحكم وبعده البكري أن عقبة قطع المسافة بين ودان وجرمة خلال ثماني ليال. إن 56 كم متوسطاً يومياً ممكنة إذا ما مُكنت الخيل والجمال بعد ذلك من عدة أيام راحة في جرمة. إن الأقرب للترجيح والقبول هو قطع عقبة لهذه المسافة في عشرة أيام.

من المستغرب أن ابن عبد الحكم لم يتعرض ولو بكلمة لسكان جرمة ووادي الآجال(*) في هذا الوقت. إن هذا ليس موقفاً استثنائياً، فمؤرخو العصور الوسطى وجغرافيوها لا يذكرون الجرمنت قط بالرغم من أنهم يذكرون

(*) يسمى الآن وادي الحياة. المترجم.

كثيراً قبائل غير ذات شأن، وذلك باستثناء المقدسي (القرن العاشر) الذي ذكر، عند وصفه أرض السودان، أن السكان فيها ينتمون لأعراق مختلفة، ولا يستعملون في معاملاتهم الذهب، ولا الفضة، وأن «الـ ق. ر. ماطيون»: يستعملون الملح، والنوبيون والأحباش يستعملون الأقمشة[1]. إذا كان القرماطيون الذين ذكرهم المقدسي هم الجرمنت فإن موطنهم في القرن العاشر ليس في فزان نظراً لأن منجم الملح الوحيد في هذه المنطقة قليل الإنتاج وإنتاجه من نوعية سيئة[2]، وذلك بالرغم من أن فزان تعتبر في غالب الأحيان من بلاد السودان ويقال أن بلاد السود[3] تبدأ في زويلة. لقد كان الجرمنت في فزان ـ وفي جرمة، عاصمتهم ـ في زمن غزوة عقبة، وكانوا لا يزالون فيها، دون أن يُذكروا، في القرن التاسع. فاليعقوبي يميز بوضوح ثلاثة أقاليم مختلفة: ودان، وزويلة، وفزان، ويقول بأن السكان المسميين «فزان» يتكونون من عناصر مختلفة ولهم رئيس مقبول من الجميع، والمنطقة واسعة توجد فيها مدينة كبيرة، والسكان في حالة حرب مستمرة مع مزاتة[4]. لا شك أن المدينة هي جرمة والقوم هم الجرمنت، ويبدو من المحتمل أن البربر، مزاتة خاصة، هم الذين طردوا الجرمنت الذين ذكرهم المقدسي، على الأقل جزئياً، في السودان

---

(1) تقاسيم، ص241 ـ 242، (نشر وترجمة Ch. Pellat، ص54 ـ 57). قد يكون هناك ذكر للجرمنت عند المسعودي (مروج الذهب، ج2، ص20): فهو يذكر أن من بين الأقوام الحبش الذين توجهوا نحو الغرب، من بين آخرين، الـ ق. و. ماتى، د. ويك، الـ ق. ر. مت، ولكل منهم ملك ومقر ملكي. ويقترح شارل بيلا المطابقة الآتية: الـ ق. وماتى = الجرمنت، د. ولة = زويلة والـ ق. ر. مت = جرمه، انظر Recueil, J.M. Cuoq، ص60، رقم 3. إن إحدى المخطوطات التي استعملها م. عبد الحميد في نشره مروج الذهب كتبت الـ ق. ر. مات. ن بدلاً عن الـ ق. و. ماتى، وز. ويله بدلاً عن د. ويله، والـ ع. ر. م. د(؟) بدلاً من الـ ق. ر. مت.

(2) البكري، ص10، 27.

(3) وفق Duveyrier في Les Touareq du Nord، ص28، يقع هذا المنجم للملح غرب أرباري بين مساك مستافت والرملة.

(4) البلدان، ص6 ـ 345/ 206. .

خلال القرن العاشر. إذا كان من المؤكد أن عقبة قد تعامل مع الجرمنت ومع ملكهم في جرمة، لماذا هذا الصمت، ليس فقط من ابن عبد الحكم وإنما من كل المؤلفين العرب عن اسم هذا الشعب، بالرغم من أنه كان معروفاً من بربر الساحل ومن الرومان؟ واعتبرت مدينتهم جرمة مركزاً يكتسي بعض الأهمية في القرن الثاني عشر، تناول الإدريسي[1] بالوصف زراعتها وآبارها، كما ذكرت كبلدة في القرن[2] الثالث عشر. إننا لا نرى سبباً لهذا الصمت إلا في أن العرب لم يتعاملوا قط مع الجرمنت إذا ما استثنينا غزوة عقبة. لقد طردوا من قبل القبيلة البربرية الأباضية القوية، مزاته، وربما ذابوا جزئياً في قبيلة هوارة. وقد انضمت قبيلة هوارة إلى أبي يزيد الخارجي وثارت معه ضد الفاطميين في أفريقية وهزمهم الخليفة الفاطمي المعز وطردهم في النصف الثاني من القرن العاشر. لجأ جزء من هوارة إلى الزاب، وانقسم الجزء الآخر إلى مجموعات تشتت في مختلف أصقاع المنطقة حتى السودان[3]، ونعرف أن إحدى الطرق نحو السودان التي استعملها أباضيو أفريقية تمر عبر فزان.

من الواضح، أن الجرمنت لم يشكلوا قط للعرب عدواً ولا شريكاً تجارياً، بخلاف البربر الذين طردوهم أو استوعبوهم والذين لعبوا دور الحلفاء والشركاء التجاريين أحياناً ودور الأعداء لأمراء الساحل[4] أحياناً أخرى.

يدهشنا ابن عبد الحكم في روايته المتعلقة بالاستيلاء على جرمة، ففي الوقت الذي يكرر فيه، عن طيب خاطر، الضرائب التي فرضت على السكان

---

(1) نزهة المشتاق، ص35/ 41 ـ 42 الإدريسي يُوقع جرمة على أقل من يوم من تساوه في وادي عتبة، وهذا غير صحيح لأن المسافة المباشرة بين النقطتين تساوي 80كم. والطريق التي تربطهما ما زالت مستعملة.

(2) ياقوت، انظر جرمة.

(3) ابن حماد، ص40/ 62.

(4) تجب الإشارة إلى أن «الجرماتيون» (أصل؟) لعبوا دوراً في ثورة الزنج. انظر La Revolt des esclaves, A. Popovic، ص86 ورقم 2. و F. Renault في La Traite des noirs ، ص62 ـ 63.

المحليين، وما لحق برؤسائهم من إذلال وتحقير لزرع الهلع في قلوبهم من سادتهم الجدد، يذكر لنا أن عقبة عسكر على مسافة ستة أميال (اثنى عشر كيلو متراً) من المدينة! . إننا لا نرى الهدف الذي دفع عقبة لهذه المناورة، فالمسافة طويلة جداً لدرجة لا تمكن العرب من استعراض القوة.

سنلاحظ أن المرة الوحيدة التي دعا عقبة فيها السكان للإسلام خلال حملته هذه كانت في جرمة وقد أجابوه لما طلب. إن هذا القبول للإسلام جنَّب الملك التشويه بالرغم مما لحقه من تحقير. أو يكمن السبب في أن الشعوب الأخرى كانوا وثنيين بينما كان الجرمنت قد تحولوا إلى المسيحية منذ 569ف؟[1] . إن الشريعة الإسلامية لا تتضمن أي اختلاف بين الوثنيين وأهل الكتاب فيما يتعلق بالدعوة إلى الإسلام.

لقد ترجمنا، عند تناولنا العمليات العسكرية في جرمة ـ أو لنقل فسرنا ـ «ووجه عقبة جزءاً من قواته من يومه ذلك إلى المشرق»[2]، ويمثل هذا مشكلة يزيد من حدتها غياب أي معلومات من جانب المؤلفين. إن نص ابن عبد الحكم، وهو الوحيد الذي يذكر هذه الواقعة يقول: «وجه عقبة الرحل ـ الرجل. . . نحو المشرق». لقد اختار أ. جاتو «A. Gateau» في ترجمته كلمة الرحل من مخطوطتين مبرزاً ملاحظة بأن مخطوطتين أخريين استعملهما تكتبان كلمة الرجل. ترجم جاتو نص ابن عبد الحكم كالآتي «ووجه عقبة الرحل من يومه ذلك إلى المشرق». إن كلمة رحل (الجمع رحل ـ رحال) تعني، بالإضافة إلى السرج، كل ما يحمل لغرض الذهاب في سفر. نجد كذلك الجمع رجل (وهي إحدى صيغ الجمع لـ رَاجِل، رَجِل، رَجُل، رَجلٌ، رجلان) وتعني الجنود الذين يسيرون على أقدامهم، وفي الجيش تعني المشاة[3] . ويتضح أنه أياً كان الجذر الذي نتبناه فإن المعنى الذي يمكن فهمه

---

(1) Etudes Maghre'bines، ج2، ص60.

(2) ابن عبد الحكم ص62 ـ 63.

(3) لسان العرب. الجذر ر.ح. ل، والجذر ر.ج.ل، مع استبعاد صيغ الجمع رحل، ورحال.

متطابق، ويفيد أن عقبة أرسل نحو الشرق أمتعته وجمال النقل، أي هذا الجزء من القوات الذي يمكن أن يعرقل الحركة، أو السائرين على أقدامهم أي المشاة ـ والذين لم يتحدث عنهم ابن عبد الحكم ـ أو ربما أغلب الجمالين الذين يقودون جمال النقل/ الرجل.

إن المنطقة الواقعة جنوب وادي الآجال شديدة الجفاف، ولا يكفي وجود بئر، وإنما يجب أن يكون هذا البئر قادراً على سقي أربعمائة حصان وأربعمائة جمل وأربعمائة وخمسين رجلاً. كان على قافلة بهذا الحجم أن تتمدد، إذا لم تنقسم إلى مجموعات، ويكون سيرها بطيئاً، ويمكن أن تكون مثل هذه القوات فريسة سهلة لأعدائها. كان عقبة يقود قوة عسكرية ويبحث عن مباغتة أعدائه، وهو ما يتطلب أن يتخلص من كل العناصر البطيئة، ومن الطبيعي أن يتوجه الثلاثمائة والستين عبداً الذين فرضهم على ملك جرمة مع الوحدة اللوجيستية.

يمكن تفسير بعث عقبة للرحل/ الرجل نحو الشرق (زويلة) بدل تركها في جرمة بطريقتين. هل كان عقبة يشعر بعدم إحكامه السيطرة على المنطقة، ويخشى من الجرمنت سادة الوادي حتى تاسيلي؟ هل هذا هو السبب الذي جعله يفضل إرسال جزء من قواته إلى الواحة التي كانت تسمى، أو ستسمى لاحقاً، زويلة؟ يثبت هذا أن هذه الواحة كانت منذ بعض الوقت قاعدة عربية كما وضحته العديد من النصوص. هل نصح الدليل المحلي، وكان على بينة بنية عقبة في التوجه نحو جنوب فزان، القائد العربي بأن يبعث الرحل (الوحدة الإدارية)/ إلى زويلة حيث كان سيجدها على طريق العودة، إذ إن هذه الواحة كانت محطة لا بد منها على طريق القطرون ـ البحر المتوسط ؟ وهو ما يوضح أن الطريق العابرة للصحراء كوار ـ القطرون ـ زويلة ـ زلة ـ برقة (أو زويلة ـ ودان ـ سرت) كانت معروفة جيداً.

«ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان». إن ابن عبد الحكم، ونقل عنه البكري، هو الوحيد الذي أورد هذه الواقعة من الحملة، ولن تُذكر قصور فزان بعد ذلك. لم يوضح ابن عبد الحكم والبكري الطريق الذي سلكه العرب أو أي بيانات عن قوات عقبة[1] التي بعث بها إلى زويلة، كما أن النصوص لم تبين القصور المقصودة، فلكل واد من وديان فزان قصوره، ففي وادي الآجال فقط حصر ليثلو J. Lethielleux أكثر من مائة وخمسين[2] قصراً. وتحمل بعض هذه القصور أسماء عربية، وأخرى أسماء بربرية أو كانمية. إن أقدم هذه القصور مشيدة عادة في أشكال مستطيلة 20 × 30م مع أبراج في الزوايا، وأبراج مربعة[3] في الوسط غالباً. يتراوح سمك الحواط بين متر ومترين، وهي من التربة الجافة. كما أن الجدران الخارجية في بعض القصور التي ما زالت في حالة جيدة، مبنية من الأحجار غير المقطوعة مثل قصر ح.و/ح.وا[4] وهو قصر مربع، طول الضلع فيه 28م يقع في وادي الحكمة[5] جنوب القطرون. وتعود هذه القصور إلى العهد الروماني حسب جان ديبوا Jean Despois، وهي بالفعل أبنية متينة. كما أن هناك قصوراً أحدث[6] ذات أشكال غير منتظمة. إن أغلب القصور في شكل أنقاض بل إن

---

(1) لا نخاطر بذكر أي تقديرات إدارية لأننا لا نعرف العدد الذي انخفضت إليه قوات عقبة.

(2) Le Fezzan, J. Lethielleux، ص13، رقم 28.

(3) بعضها أكبر ويصل طول الضلع فيه 40م. قصر الجبار في الحفرة على بعد 20كم تقريباً جنوب شرق تراغن بناء من 60 × 60م وعدد أبراجه اثنى عشر، قصر لروكو على بعد 35كم من جرمة غرباً هو أكبر قصور فزان يبلغ طول الضلع فيه 130م وفي وسطه تحصين مربع أيضاً طول ضلعه 20م.

(4) ضبط إملاء الكلمة ليس مؤكداً. كان في كانم ملك هـ و (و) .ا أو س.و(و).ا وقد حكم ما بين 1076ف و1071ف، وتوفي والده في فزان، انظر ديوان سلاطين بورنو، ص29، 67 ـ 68.

(5) انظر الرسم التقريبي الـmajor Denham في Denham, Clapperton and oudney في Navrative of Travels، والصورة عند Geographie Humaine, J. Despois، اللوحة XI.

(6) مثل هذه في وادي الآجال والتي تمثل كوات رمي لقذافين على ركبهم أو واقفين في المستوى الأول والثاني. انظر الرسم التقريبي لـ J. Lethielleux، المرجع المذكور، ص49.

الكثير منها، خاصة في منطقة تجرهي، سُوِّي مع الأرض حتى لم يعد بالإمكان تمييزه، أما الآبار التي توجد داخل القصور فهي مردومة عندما يمكن التعرف عليها. ويدعي السكان ـ رداً على أسئلتنا ـ أن هذه القصور تعود إلى أيام الجاهلية قبل الإسلام. يمكن في بعض الأحيان رؤية جدران داخلية داخل القصور وحتى معالم غير واضحة لقباب ولكن لم نعثر في أي منها على غرف كما يرى في القصور الجميلة المحفوظة بطريقة مدهشة في جنوب تونس. يبدو أن القصور الفزانية مساكن محصنة أكثر منها مخازن للحبوب. لقد استوقف كلَّ الرحالة الأوروبيين غياب مستودعات للحبوب في فزان حيث تستهلك الحبوب مباشرة وتتكون الاحتياطيات الغذائية الوحيدة من التمور، ويفسر هذا بغياب الأمن في غالب الأحيان في فزان وهو ما شكل طباع أهله وسلوكهم: ما الفائدة في زراعة أكثر إذا كان الفائض سيستولي عليه اللصوص أو قوات الحرب في خدمة أمراء الساحل؟ إن صبغة القلاع هي التي جعلت جان ديبوا Jean Despois يرى فيها مساكن محصنة[1]/ تغرمت مغربية. إن جمال التغرمت المغربي لا يجب أن يحجب عنا تشابه المخطط والاستعمال مع قصور فزان[2].

ليس أمامنا إلا التخمين فيما يتعلق بالقصور التي فتحها عقبة. من المحتمل جداً أن لا يكون قد توجه نحو قصور وادي الآجال، ولهذا أسباب ثلاثة. فلو أن عقبة وصل جرمة عن طريق البوانيس ـ وادي الآجال، وهو الطريق الأكثر أمناً، لكان عليه أن يؤمن خلفياته باحتلال كل القصور في طريقه إلى جرمة. وهل كان عقبة سيرسل جزءاً من قواته نحو الشرق، كما يقول ابن عبد الحكم، ليسلك بعد ذلك نفس الطريق؟ ونعرف أخيراً، أن سكان قصور

---

(1) تصغير غرم = قلعة.

(2) لوصف القصور الفزانية انظر J. Lethielleux، المرجع المذكور، ص13، رقم 28. وJ. Despois، المرجع المذكور، ص57 ـ 61. قارن القصور الفزانية في رسوم J. Lethielleux ولوحات J. Despois. بالقصور التونسية في Andre'Louis-Tunisie du Sud، ص96 ـ 131. بالتغرمت المغربية في R. Montagne, Villages et Kasbas Berberes، شكل 45 ـ 49.

فزان بعد احتلالها أخبروا عقبة أن كوار هو الإقليم الذي يليهم جنوباً وهو مايفيد بأن عقبة كان في تلك الآونة في فزان الجنوبي، أي في وادي الحكمة بمنطقة القطرون ـ تجرهي حيث يوجد كثير من القصور القديمة.

مما يؤسف له، أن المؤلفين الذين تناولوا، كلياً أو جزئياً، هذه الغارة العربية على حدود السودان لم يذكروا شيئاً عن كيفية تنظيم القوات. كان من الطبيعي أن ينفصل عقبة عن جزء من العناصر التي تبطىء[1] من حركته قبل أن يتوجه إلى هذا الجزء الصعب من حملته جرمة ـ كوار. حتى لو كانت النباتات سليمة في ذلك الوقت، لم يفسدها الماعز[2] بعد، يبدو من غير المحتمل أن لا يحتفظ العرب إلا بخيولهم، مهما كانت قدرة تحملها، للوصول إلى بلما وهي مسافة تزيد عن ألف ومائة كيلو متر.

ليس من المستحيل في شيء أن تسافر خيول في الصحراء أو حتى أن تعبرها، فالحصان يستطيع أن يتكيف مع الصحراء، ورأينا أن في الإمكان تعويده على الشرب مرة كل يومين، مع مراعاة أن تكون المياه كافية. وتنقل إلينا النصوص الكثير من الأمثلة على هذا التكيف. فحسب سير المشائخ، كان لدى أحد مشائخ الأباضية من قبيلة مزاتة في القرن العاشر حصان حج به إلى مكة وسافر به إلى تادمكة/ السوق[3]. وفي القرن الرابع عشر، قطع ابن بطوطة الطريق من سجلماسة[4] إلى مالي على ظهر

---

(1) هذه المعلومة من ابن عبد الحكم تضيف لصدق النص. كيف استطاع هذا المؤلف أن يعرف أنه كان من المفضل تخفيض عدد القوات على مسار فزان ـ كوار، في الوقت الذي لم يوصف فيه هذا المسار بالتفصيل قبله. ولم يوصف بعد ذلك، على الأقل بالنسبة لما نعرف.

(2) وصف النباتات في وادي الآجال من H. Duveyrier في Les Touareg du Nord، ص68. ما سمي «بغابة Duveyrier» بين الهضبة والرملة لم يعد الآن يمثل إلا بعض الأشجار الصغيرة، ورأينا في أعلاها ماعز طوارق أوراغن تأكل آخر الأوارق. سنلاحظ وجود نباتات مهمة متناثرة في رملة الزلاف بين وادي الآجال ووادي الشاطىء.

(3) في T. Lewicki، بعض مقاطع غير منشورة، ص19، 13 ـ 24.

(4) سجلماسة نقطة تقاطع طرق كبيرة في جنوب المغرب، كانت واقعة على طول وادي زيز غير بعيدة من رساني الحالية: تسمى أنقاضها حالياً المدينة الحمراء.

حصان مع أن المخاطر كانت كبيرة خاصة في الجزء السابق على ولاته[1].

كانت هناك تجارة خيول بين المغرب والسودان في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت الخيول تصل إلى السودان في قوافل، ويساوي الحصان في السودان، في تلك الأزمنة، خمسة عشر إلى عشرين عبداً[2]. ويشرح ليون الأفريقي أن أنواعاً صغيرة فقط من الخيول هي التي كانت تتوالد في السودان، ولهذا تأتي الخيول الجيدة، التي يساوي الواحد منها خمسة عشر إلى عشرين عبداً، من بلاد البربر (بربريا) ومصر[3]. وقد حرص الجغرافيون العرب من القرون الوسطى على ذكر وجود الحصان في السودان. فقد ذُكر وجود الخيول عند الزغاوة في كانم[4] في القرن العاشر. وذكر البكري في القرن الحادي عشر وجود الخيل في القصر الملكي بغانا[5]، وفي القرن الثاني عشر وضّح الإدريسي أن حصان ملك غانا كان مربوطاً إلى قطعة ذهب تزن ثلاثين رطلاً وأن رعايا الملك كانوا يركبون الخيل والجمال[6]. وذكر ابن سعيد وجود خيول في التكرور ذات قوائم قصيرة وبطيئة السرعة[7]. ووصف العمري في

---

(1) يشرح لنا «رحالة الإسلام» أن القافلة عندما تصل إلى آخر بئر قبل ولاتة تبعث نحو هذه المدينة مبعوثاً، يسميه ابن بطوطه تكشيف، من قبيلة مسوفة: وكان يذهب ليرجو أصدقاء ومعارف المسافرين أن يهبوا لملاقاة القافلة على مسافة أربعة أيام قبل المدينة، لتزويدها بالماء. إن موت التكشيف كان يعني نهاية القافلة. نشير، مع ذلك، أن القافلة التي انضم إليها ابن بطوطة كانت تضم عدداً كبيراً من الجمال. انظر رحلة ابن بطوطة، ج4، ص381 ـ 385. كانت ولاتة تقع على بعد 160كم شمال شرق كومبي صالح الحاضرة القديمة لمملكة غانا، عن ولاتة انظر R. Mauny في Tableau Geographique، ص70 ـ 71 و485. وJ. Corral في Ciudades.

(2) R. Mauny في Tableau Geographique، ص285، حسب الرحالة البندقي Ca da Mosto، والبحارة البرتغالي Diogo Gomes، والجغرافي البرتغالي Valentim Fernandes.

(3) وصف أفريقيا، ج2، ص468 ـ 480 ـ 482.

(4) المهلبي، في ياقوت انظر (زغاوة).

(5) المسالك، ص176 ـ 177/ 329، 332.

(6) نزهة المشتاق، ص7، 11/ 8، 13.

(7) بسط الأرض، ص25. ابن سعيد، ص26، يشير كذلك إلى أن حصان ملك غانا كان مربوطاً في حجر من الذهب.

القرن الرابع عشر جيش ملك مالي بقوله إن هذا الجيش كان فيه عشرة آلاف فارس يركبون خيولاً عربية[1]، وعليه فهي مستوردة من مصر أو بلاد البربر. وفي القرن الخامس عشر ذكر المقريزي فرسان جيش ملك كانم[2]، وأن الخيول كانت صغيرة الحجم. ويشير الحميري إلى أن الخيول في غانا كانت صغيرة الحجم، ويشرح أن ملوك دنقلة كانوا يركبون خيولاً أصلية بينما لا يملك مواطنوهم إلا خيولاً ثقيلة غير أصلية/ براثين[3]. وكما رأينا، تفيد النصوص بعبور الصحراء على خيول من قبل أفراد ينضمون إلى قوافل كبيرة، وتذكر النصوص كذلك حملات عسكرية عبر الصحراء. ففي نهاية القرن السادس عشر بعث السلطان المغربي، المنصور، جودر باشا، وهو مرتد أسباني، لاحتلال مملكة السنغاي، وقاد جودر قوات من بينها خيالة خفيفة مكونة من ألف وخمسمائة فارس[4]. وقاد سادة مرزق في القرن التاسع عشر حملات عديدة على كانم وكانت الخيول موجودة دائماً في هذه الحملات، وقد تكونت إحدى هذه الحملات من ألفي جمل، وثمانمائة من المشاة، وثلاثمائة فارس[5]. وأبعد إلى الغرب، أثناء أعمال الاستكشاف التي قام بها هنري ديفيريي «Henri Duveyrier» كان بدو شواطىء الأطلسي يأتون على الخيول لنهب القوافل على طريق عين صالح تينبكتو[6].

---

(1) أفريقيا بدون مصر، ص66 ـ 67. في نفس العصر، يفيدنا ابن خلدون أنه لا يوجد إلا عدد قليل جداً من الخيول عند بربر الصحراء، انظر البربر، ج2، ص105.

(2) ابن العمري، ص86.

(3) الروض المعطار، انظر (غانا) ـ حيث نجد مرة أخرى ذكر حصان ملك غانا المربوط لحجر من ذهب ـ وانظر دنقلة (هكذا).

(4) السعدي، ص138، 217. حول هذه الحملة ولكن بتفاصيل أقل، انظر كذلك تذكرة النسيان، ص2 ـ 3/ 3 ـ 4. محمود الكعتي، ص155، فقرة 277. وهناك تجميع جيد حول هذا الموضوع عند E.W.Bovill في The Golden Trade، ص145 ـ 164.

(5) G. F. Lyon في Narrative، ص106. وH. Duveyrier في Les Touareg du Nord، ص221. حول هذه الحملة انظر E. Rossi في Storia di Tripoli، ص267 ـ 268 وخاصة النائب الأنصاري في المنهل، ص335 ـ 336.

(6) H. Duveyrier، نفس المرجع.

يجب ألا تنسينا حالات عبور الصحراء على الخيول سواء لأغراض تجارية أو عسكرية، أن الخيول كانت دائماً مصحوبة بالجمال بأعداد أكبر من أعداد الخيول، وذلك لحمل أمتعة الرجال وأعلاف الخيول[1]. وكانت الخيول ـ نظراً لسرعتها ـ تسير في المقدمة ثم تتوقف لانتظار الجمال التي كانت مضطرة للراحة[2] بسبب حمولتها. وهنا أيضاً، تبقى نصوص ابن عبد الحكم بخيلة بالمعلومات، وهو أمر معتاد في هذه المجالات، فالجغرافيون والمؤرخون العرب يعتبرون مثل هذه التفاصيل تحصيل حاصل. إننا نجهل عدد الجمال التي كانت مع عقبة ومن أين حصل عليها لأن من شبه المؤكد عدم استطاعته قطع طريق جرمة ـ كوار بجمال صاحبته من الساحل. نعرف أن الجمال لا تتغذى بنباتات لم تتعود عليها، ويمكن أن تذهب إلى حد رفض أي أكل أو حتى إلى المرض[3]. هذا ما يضطر القوافل لحمل أحمال ثقيلة من الأعلاف والتمور نظراً لتعود الجمال عليها، أو لتبديل الجمال عدة مرات أثناء عبور الصحراء.

احتفظ عقبة بكل خيوله، وكذلك بعدد من جمال النقل، ومن المرجح أنه ترك في جرمة جماله من برقة، وأخذ جمالاً متعودة على الجنوب[4]. كان، وهو المنتصر، يكفيه أن يصر على الطلب. وفي جرمة كذلك، اضطر عقبة ـ دون شك ـ لاستبدال الدليل، لأن أقاليم جنوب فزان، مثلها في

(1) باستثناء ربما في المثال الأخير المذكور الذي لم يورد H. Duveyrier حوله أي تفصيلات.

(2) G.F. Lyon، المرجع المذكور، ص84. Denham, Clapperton and Oudney، المرجع المذكور، ص212.

(3) هكذا ترفض جمال الجريد التونسي رمث برقة، وهو نوع من الشجيرات من أسرة التمريس، وشيح فزان، وهما نبتتان تعودت عليهما الإبل في المنطقتين. انظر H. Duveyrier في Jounal de route، ص75، رقم 1. وقد مرت Rosita Fobres بتجربة مريرة: فقد حملت تموراً كأعلاف ولم تكن جمالها متعودة عليها، وكاد أحد الجمال أن يموت واضطروا للتخلص من حمل جملين بسبب معاناتهما. انظر Across the Libyan Desert، 2، ص94.

(4) يكون وادي الآجال الحد الشمالي لمناطق تنقل جمال التبو، وهي جمال مشهورة بقدرة كبيرة على التحمل، وقوية.

ذلك مثل المناطق الواقعة غرب وادي الآجال حتى غات، كانت تابعة للجرمنت، الذين كانوا يعرفون هذه المنطقة جنوب فزان، فقد كانوا يذهبون إليها بمدرعاتهم لمحاربة الأثيوبيين سكان الكهوف[1]. وهناك من قال بأن من الممكن أن تراغن كانت مركزاً آخر من المراكز الجرمنتية وأن الحدود الجنوبية للجرمنت كانت الأيير والأندي[2]، ولكن لا يمكننا التأسيس على مثل هذه التخمينات.

بما أن جزءاً من قوات عقبة توجه نحو الشرق وأن هدف المغامرة يقع جنوباً فإن من المحتمل الغالب توجه عقبة نحو تساوة في الجنوب الشرقي، فهذا هو الطريق الوحيد في هذا الاتجاه الذي يُمكِّن من الوصول إلى وادي الحكمة وقصوره. كان على العرب، للوصول إلى تجرهي وقصور فزان الأخيرة انطلاقاً من جرمة، أن يقطعوا مسافة 390كم تقريباً إذا ما سلكوا من تساوة وادي الجفرة حتى تراغن قبل أن يتجهوا جنوباً نحو القطرون، وأن يقطعوا مسافة 350كم إذا ما كانوا قد اتجهوا مباشرة نحو القطرون عند وصولهم الموقع المسمى حالياً مرزق وعبروا المناطق الرملية الأخيرة من دهان مرزق بمسار في شكل قوس دائرة مفتوح نحو الشرق لتفادي الكثبان العالية كما هو متبع حتى اليوم. ويوجد درب ثالث مباشر نحو القطرون يبدأ من آبار طربانية الواقعة على بعد حوالى عشرين كم جنوب شرق مرزق، ولكن سالك هذا الدرب يضطر لعبور منطقة الكثبان الرملية المرتفعة، وهي عملية مؤلمة وخطيرة على الحيوانات والرجال وغير مفيدة لأن اختصار المسافة بمسار صعب يمثل ـ غالباً ـ ضياعاً في الوقت. كان يمكن قطع المسافة المباشرة جرمة ـ تجرهي في عشرة أيام. إن أكثر قصور وادي الحكمة واقعة في نواحي البخي وهي واحة صغيرة على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً غرب القطرون مشيدة من الطين الجاف وكلها مهدمة. يوجد هناك قصر أولاد

---

(1) Herodote، ج4، ص183.

(2) Andre' Berthelot في L' Afrique Saharienne، ص158 ـ 159، 248.

عمي[1]، وقصر كمبا[2]، وقصر سرندب[3] وهو أكبر. ويقوم قصر تجي فروما[4] أبعد نحو الجنوب على مسافة عشرين كيلو متراً من تجرهي التي توجد جنوبها على مسافة عشرة كيلو مترات بقايا قصر أقم كرو[5]. هناك أيضاً بقايا بناء هائل دفنت عميقاً تحت الرمال لدرجة يصعب معها تقدير قطرها[6].

لم يقم عقبة، في منطقة القصور، بدعوة السكان إلى الإسلام، كما لم يشوه أو يهن الملك. هل نستطيع استنتاج أن ذلك كان قد تم بالفعل، أي باعتبار منطقة قصور القطرون ـ تجرهي جرمنتية (وهي الوديان الأبعد نحو الجنوب) يكفي بالنسبة لها الدعوة التي أطلقت في جرمة لاعتناق دين العرب، والإهانة التي ألحقت بملك الحاضرة؟ هل كان سكان وادي الحكمة من نفس عرق سكان وادي الآجال؟ هل كانوا تابعين لهم؟ إن فزان الذي تحدث عنه ابن عبد الحكم كان كياناً يجمع الغرب ـ منطقة جرمة ـ والجنوب ـ قصور وادي الحكمة ـ من فزان الحالي. مع الحذر من التسرع في الاستنتاج، نلاحظ أن عقبة لم يستفسر في جرمة ـ بخلاف ما فعل في ودان، وما فعله لاحقاً في قصور فزان وقلعة كوار ـ عما إذا كان من ورائهم أحد. هل كان على علم بأن جرمة والقطرون ـ تجرهى تتبع سلطة واحدة؟.

قطعت المسافة بين القصور الفزانية وكوار في خمس عشرة ليلة[7] حسبما

---

(1) كتابة الكلمة بهذا الإملاء قد لا تكون دقيقة.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

(4) المرجع السابق.

(5) المرجع السابق.

(6) صمت الجغرافيون العرب من القرون الوسطى عن وادي الحكمة، ويجب انتظار المستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر للحصول على وصف دقيق له: 1819ف ـ 1820ف G.F. Lyon، ص221 ـ 257. وسنة 1922ف Denham, Clapperton and Oudney، ص194 ـ 200. وسنة 1855ف Heinrich Barth، ص623 ـ 625، (وصفه قادماً من الجنوب). وسنة 1869ف Gustav Nachtigal، ص192 ـ 214.

(7) المسافة بين تجرهي وجادو حوالى 515كم (المتوسط في 15 ليلة = 34كم). 575كم المسافة من تجرهي إلى سجدين وهي أول واحات كوار (المتوسط في 15 ليلة = 38كم).

كتبه ابن عبد الحكم، ونقله عنه البكري. إن هذا التوضيح يكفي لنتحقق بأن منطقة القصور الفزانية المعنية هي القطرون ـ تجرهي. ففي تجرهي أخبرنا جمالون تبو أن الرحلة من بلما كانت تستغرق أكثر من أسبوعين. وفي نفس المكان أخبر G.F.Lyon عن الزمن الفاصل بين محطة وسيطة وأخرى: وكان الوقت المطلوب لكامل الرحلة ثمانية عشر يوماً بثمان إلى تسع ساعات من السير[1] يومياً. عليه، يصعب تصور أن ابن عبد الحكم كان يقصد أي قصور أخرى، حيث إن أقرب قصور أخرى واقعة في وادي الحفرة على مسيرة عشرة أيام نحو الشمال.

مما يسترعي الانتباه عدم ورود تقدير بهذه الدقة للمسافة التي تفصل فزان عن كوار عند أي من المؤلفين المعاصرين (ذلك الوقت)، أو تابعيهم. ففي القرن التاسع يعتبر ياقوت أن الرحلة من زويلة إلى كوار تتطلب خمسة عشر يوماً[2]، بينما يستغرق قطعها أكثر من شهر للجمالين التبو. وفي القرن الرابع عشر يقول أبو الفدا نقلاً عن الإدريسي إن كوار تقع على مسافة ثمانية أيام من فزان[3]، بينما ما كان يمكن قطع المسافة بين آخر واحة فزانية نحو الجنوب، وأول واحة كوارية إلا في اثني عشر يوماً. نلاحظ بالإضافة إلى الأخطاء عدم ذكر الطرق من كوار والمؤدية إليها إلا نادراً. يكتفي الإدريسي في القرن الثاني عشر، والحميري في القرن الخامس عشر بإضافة أنه يتم المرور على سنترية/ سيوة من أجل الذهاب سواء إلى كوار أو أرجاء السودان[4] الأخرى. كما يقول الإدريسي أيضاً بإمكانية الوصول من أوجلة إلى أغلب المناطق في بلاد السود في اتجاه كوار وكوكو[5]. يبدو لنا أن هذه الدقة فيما يتعلق بالمسافة التي أفادنا

(1) G.F. Lyon، ص244، بلما آخر واحات كوار تقع على مسافة 165كم من سجدين، أي 750كم من تجرهي، (المتوسط اليومي في 18 يوم = 42كم).
(2) البلدان، ص345/ 205.
(3) تقويم البلدان، ص129: هذه المعلومة ليست في نص الإدريسي.
(4) الإدريسي، ص45/ 52. الحميري وهو ينقل كلمة بكلمة نص الإدريسي (انظر سنترية).
(5) الإدريسي، ص132/ 157. يوضح مسافات عديدة في داخل كوار (ص38 ـ 40/ 45 ـ 47).

بها ابن عبد الحكم دون غيره، تؤيد ما ذهبنا إليه من صحة الوقائع التي أوردها.

لا شك أن المسافة بين تجرهي وأول واحات كوار مثلت ـ بكل تأكيد ـ أصعب الأجزاء في الغزوة العربية، فليس في المسار جنوب تجرهي شيء من نزهة وزير، «دندل غلديما» كما يقول التبو[1]. فالآبار ـ إذا ما وجدت ـ مردومة في غالب الأحيان بالرمال أو من سادة هذا الطريق عندما يريدون منع تقدم الأعداء[2]، وليس من المتيسر دائماً تنظيفها من الرمال. إننا، لسوء الحظ، لا نعرف ما إذا كانت الآبار كثيرة في هذه المنطقة في القرن السابع، إذ إن عدد الآبار على طريق معين يتغير من عصر إلى آخر حسب كثافة استعمال الطريق. يذكر المستكشفون في القرن التاسع عشر أن أول بئر بعد مغادرة تجرهي كان على مسافة يومين من السير، وهي بئر مشور[3]، والبئر الذي يليه كان على مسافة ثلاثة أيام منه. وحسب البيانات التي جمعناها يقع حالياً أول بئر ـ من شبه المؤكد أنه غير مردوم ـ على مسافة خمسة أيام من السير من تجرهي. إن المنطقة بالغة الصعوبة، وقد عبر المستكشفون الأوروبيون الذين وصلوا إلى بئر مشور عن فظاعة المنظر الذي شاهدوه هناك، والمتمثل في أعداد كبيرة من الهياكل العظمية البشرية حول البئر. وقد أحصى عضو في بعثة دنهام Denham مائة وسبعة هياكل على طول ستة عشر ميلاً من بئر مشور جنوباً، ويمكن القول إن أغلب هذه الهياكل هي لعبيد[4] استناداً إلى أطوالها وبقايا الملابس الملتصقة بها. إن هياكل الجمال، ابتداء من القطرون جنوباً، لا يمكن حصرها، وتموت هذه الحيوانات من الإرهاق، أو نتيجة المرض، أو يقتلها الجمالون عندما

(1) H. Barth، ج3، ص624.

(2) اضطرت بعثة Denham, Clapperton and Oudney للعمل ساعات لتخرج من أحد الآبار حمولة من الرمل، ولم تستطع الحيوانات الشرب إلا في آخر المساء انظر Narrative of Travels، ص205.

(3) كتابة الكلمة هكذا قد لا تكون دقيقة.

(4) Denham, Clapperton and Oudney، ص201 ـ 202. وH. Barth، ج3، ص624 ـ 623. وG. Nachtigal، ج1، ص216 ـ 217، 334.

تجرح في قوائمها، وغالباً ما يقص المستكشفون مثل هذه الوقائع.

لاحظ ريموند موني «Raymond Mauny» أن الحفريات الأثرية الإيطالية في ليبيا لم تأتِ بنتائج تذكر بالرغم من كثرتها وهو ما يبرهن على أن التجارة بين السودان والعالم الروماني كانت محدودة[1] جداً. هذا لا يعني أن كوار كانت مجهولة من الليبيين. فحسب روايات التبو التي استقاها أنجوس بوكنان Angus Buchanan في بلما، كان أول من استوطن كوار من السو وهم «عمالقة» جاؤوا من فزان حيث يمكن رؤية مساكنهم الكبيرة بالقرب من تجرهى[2]. وفي القرن السابع كان السو يحتلون المنطقة الممتدة من الساحل الشرقي لبحيرة تشاد حتى كوار[3]. وقد كان هؤلاء الرجال ضخاماً وأقوياء لدرجة أن الواحد منهم يستطيع حمل فيل على الرأس[4]، ومنع تدفق نهر بيده وقتل فارس ومركوبه بضربة يد، وحفر واد صغير بالرقص، وقطع مئات الكيلومترات في يوم واحد والقيام بأعمال أخرى مدهشة وغريبة[5]. ويتذكر الكوتوكو، وهم أحفاد السو في تشاد، العظام البشرية العملاقة المكتشفة في بعض التلال[6]. كنا سنسقط خرافة العمالقة لو أنه من جانب، لا يوجد في كانم حالياً أشخاص طوال طولاً غير عادي ـ حتى 2 متر و10سم ـ ولو لم يكتشف فيها هيكل طوله 2 متر و27سم[7]، ومن جانب آخر لو لم توجد في فزان رواية متوارثة عن العمالقة:

---

(1) Tableau Geographique، ص398.

(2) H.R. Palmer في Sudanese Memoirs، ج1، ص2. حسب H. Baumann وD. Westermann في Les Peuples et Les Civilisations de L' Afrique، ص309، إن السو العمالقة الأسطوريين في بورنو يمكن ربطهم بالأقوام النيليين.

(3) من المحتمل أنهم طردوا نحو الجنوب من قبل البدو البيض الذين دفعوا بدورهم من قبل العرب. في تشاد اختلطوا بعرق حبشي أكثر أهمية، وهذا الاختلاط أنتج الكنمبو الذين تكونت أول أسرة ملكية منهم في الغالب سنة 800ف. انظر R. Cornevin في Histoire de L' Afrique، ج1، ص299.

(4) H.R. Palmer، المرجع المذكور، ج2، ص64.

(5) J.P. Lebeuf و A. Masson Detourbet في La Civilisation du Tchad، ص27 ـ 28.

(6) نفس المرجع المذكور أعلاه.

(7) J. Boulnois في La Migration de Sao au Tchad، ص88 ـ 89.

فالطوارق في غات وغدامس يُورون بئراً حفره الجهلاء[1] وهم عمالقة جبارون وتعود إليهم كذلك قبور ما قبل التاريخ في غات[2]. وأكد لنا التبو في منطقة تجرهي أن أكبر القصور في الإقليم كانت مساكن في الماضي لعمالقة سود تركوا الإقليم قبل وصول الإسلام. ندرك بكل تأكيد أن الأساطير حول العمالقة ليست نادرة جداً، ولكن مما يسترعي الانتباه انتشار هذه الأسطورة من تانيزوفت عند الطوارق، ووادي الآجال إلى وادي الحكمة حيث التبو حتى جنوب كوار في منطقة الكوتوكو، وفي كل هذه المناطق يتحدثون عن فزان كوطن أصلي للعمالقة. لا يمكننا إلا أن نقارن بين هذه واكتشافات سيرجيو سرجى «Sergio Sergi» أثناء تنقيبه في القبور الجرمنتية في الخرايق، وتكرتيبة في وادي الآجال، وجبل ككومن بالقرب من غات. لقد ميز سيرجيو سرجى أربعة هياكل مختلفة، إحداها تمثل بوضوح صفات الطوارق الحاليين ومقاييسهم. وربما يتعلق الأمر بقوم من السود أو المختلطين عرقياً من المرجح قدومهم من السودان (الحالي) أو من أثيوبيا، ومن المحتمل أنهم محاربون كونوا الطبقة الحاكمة[3]. نعرف الانطباع بطول القامة الذي يعطيه الطوارق أحياناً لمن يراهم للمرة الأولى. هل هذا يقدم تفسيراً لأسطورة تجرهي ويلما؟ أو ليس من المحتمل أن المنطقة الشاسعة من جرمة إلى كوار التي عبرها عقبة كانت تخص نفس القوم؟ وهذا قد يفسر أن سكان تجرهى كانوا يعرفون أي إقليم يقع وراءهم بينما تبعد عنهم كوار بسبعمائة وخمسين كيلو متراً.

يمكن افتراض أن القصر الأقصى من قصور كوار، الذي تحدث عنه ابن عبد الحكم، كان يقع في إحدى الواحات الجنوبية من الإقليم. بخلاف ما

---

(1) تعبير انتقل من اللغة العربية المغربية إلى لغة الطوارق ومفرده يعني ضخم.

(2) H. Duveyrier في Jounal de route، ص147. وفي Les Touareg du Nord، ص143، 414. جبار جمعها جبارون، وجبابير، وجبابرة تعني القوي، العنيف، الضخم، العملاق.

(3) S. Sergi في Reliquie dei Garamanti، ص 4ـ 8، 11. وتعليق من M. Leblanc في Mission Scienfique du Fezzan, Anthropologie et Ethnologie ص37 ـ 40. حسب R. Mauny وصل استيطان السود وما في حكمهم إلى خط عرض 27° شمالاً في الصحراء وهو خط عرض سبها في العصر النيولتيكي، انظر Tableau Geographique، ص197 ـ 198.

سبق، لا يمكن الادعاء بتحديد موقع القلعة ـ العاصمة ـ القصبة، ومع ذلك سنجازف ببعض الملاحظات.

سبق أن قلنا زحف العرب على قصبة كوار، كما أفاد بذلك ابن عبد الحكم الذي يسميها كاوار (يسميها البكري جاوان)، وحاصروها دون نتيجة[1]، فواصلوا طريقهم واستولوا على قصور كوار، وقبل أن يفرضوا على سكانها تقديم ثلاثمائة وستين عبداً قاموا بتشويه ملك آخر القصور كما فعلوا في ودان[2]. عاد العرب أدراجهم متحاشين المرور بالقصبة، وساروا ثلاثة أيام بعدها، وهناك عند ماء الفرس كانوا سيموتون عطشاً لولا صلاة عقبة وتدخل حصانه، ثم عادوا في اتجاه القصبة واستطاعوا مفاجأة ساكنيها.

لا يتحدث الجغرافيون العرب حول أسماء الأماكن في كوار إلا قليلاً جداً. ذكر الإدريسي فيها خمس مدن إحداها تسمى القصبة[3]، ويشير ياقوت نقلاً عن المهلبي إلى ثلاثة مواضع منها أبو البلما/ بلما، والقصبة/ قلعة بلاد كوار[4]، ويقول الحراني بوجود ثلاث مدن هامة ولكنه لا يورد ذكراً لقصبة، أو القصبة[5]. ويحدد R. Mauny وT. Lewicki القصبة التي ذكرها الإدريسي ببلدة Gisebi الحالية وهي بلدة واقعة على حوالى مائة كيلو متر جنوب سجدين

---

(1) هل كانت القلعة في موقع حصين، ومدافع عنها بقوة أو أن القوات العربية التي أضعفت بإرسال قسم منها إلى زويلة عانت من خسائر في قصور فزان؟ إن هذا الحصار الذي استمر لشهر يتناقض مع الفتح السريع للواحات الأخرى.

(2) يلاحظ أنه يمكن تبرير المعاملة التي عومل بها ملك ودان بأنه نقض الصلح، الوضع ليس مشابهاً في هذا القصر من كوار إلا إذا كان هذا القصر تابعاً لجرمة وكان التسليم في جرمة ينطبق على كوار. يجب ملاحظة أنه ابتداء من هذه النقطة أثر في تحرك العرب وجود ثلاثمائة وستين عبداً معهم، وهو ما أثر في تقديراتهم الإدارية وأدى إلى نقص المياه عندهم (وقائع ماء الفرس)، بالرغم من أن عقبة كان في إمكانه التزود بالتموين والدواب في واحات كوار. كما أن العرب واجهوا ـ دون شك ـ صعوبات حقيقية في القيادة بسبب نقص أعدادهم خاصة عندما فاجأوا القلعة خاوار.

(3) نزهة المشتاق، ص38 ـ 40/ 45 ـ 47.

(4) معجم البلدان، انظر مادة (زغواه، وكوار).

(5) يوسف كمال في Monomenta، ج4، ص1127.

وعلى أقل من عشرة كيلو مترات جنوب ـ شرق أناي[1]. ويبدو أنه لا يمكن مطابقة مدينة القصبة التي تحدث عنها الإدريسي بالقصبة/ القلعة التي حاصرها عقبة كما جاء عند ابن عبد الحكم والبكري: فالقصبة عند الإدريسي اسم لمدينة، بينما هي اسم مشترك ـ قلعة أو عاصمة ـ عند المؤلفين الذين تناولوا الحصار، وهذه القصبة تسمى خاوار عند ابن عبد الحكم، وجاوان عند البكري. ولا يتحدث المؤرخون الآخرون الذين تناولوا الحصار عن «قصبة»: فياقوت يذكر «مدينة» تسمى خاوار، ويشير كل من كتاب الاستبصار والحميري إلى «قصر» يسمى واجان ويضيف الحميري أنه قصر يشبه مدينة. يقول كل المؤلفين، باستثناء ياقوت، بوجود هذا الموقع على قمة جبل. إن هذا لا يتسق مع جسبي الحالية الواقعة في واد كما يؤكد الإدريسي بخصوص القصبة. من المحتمل أن لا يُحل أبداً سر تحديد موقع هذه المدينة/ القلعة إذا لم نكتشف بعض المخطوطات المكتوبة بوضوح والتي تتناول بشكل مباشر هذا الموضوع، وذلك لأن الأماكن المهجورة، خاصة القصور فوق رؤوس المرتفعات المعزولة في جادو وفي مرتفعات كوار لا تحصى عدداً كما تبينه الأبحاث الأثرية التي أجريت[2]. بالرغم من ذلك يحلو لنا أن نقدم اقتراحاً حذراً لأن في إمكاننا أن نُقَوِل الأشكال الخطية العربية كل ما نرغب فيه تقريباً.

نعرف أن القلعة خاوار / خاور/ جاوان/ واجان هي أول موضع مهم وصله عقبة بعد تركه فزان. إذا ما أسقطنا حرف الألف الثاني في كلمة جاوان كما كتبها البكري، وكما فعل ياقوت عندما كتب خاوار، فإننا سنلاحظ تشابهاً مدهشاً في الشكل الخطي لـ جاون وجادو. وجادو هي أول مدينة محصنة

(1) R. Mauny في Tableau Geographique، ص141. و T. Lewicki في Etudes Maghrebines، 2، ص67 ـ 68. لا وجود لجسبى في خريطة بلما (1 : 1000000) والتي تظهرعليها أناي. تظهر جسبي على الخريطة التي أعدها A. Petermann حسب مسار H. Barth. وكانت جسبي محطة مهمة على طريق تجرهي ـ بلما على مسار ثلاثة أيام ونصف شمال بلما انظر G.F. Lyon، المرجع المذكور، ص244.

(2) R. Mauny، المرجع المذكور، ص137 ـ 139، 200 ـ 201، 318، 479، 489.

يُوصل إليها من جنوب فزان في اتجاه كوار إذا ما عرجنا بالمسار قليلاً نحو الجنوب الغربي. إن خمسمائة وخمسين كيلو متراً تفصل تجرهي عن جادو إذا ما سلكنا طريق التومو/ مداما وعبرنا في خط مستقيم هضبة جادو. إن هذه المسافة يمكن قطعها في الخمسة عشر يوماً التي ذكرها المؤلفون بمتوسط يومي قدره 37كم. إن أحداث العودة لا تتعارض مع افتراض جاوان، جادو. فعند عودته من آخر قلاع كوار مر عقبة بالقلعة وسار لمدة ثلاثة أيام حتى الموضع الذي سمي بماء الفرس للسبب المعروف، ثم رجع نحو الحصن عن طريق آخر غير الذي سلكه أولاً. إن قصة حفر حصان عقبة بحوافره الأرض في موضع يلامس فيه الماء سطح الأرض، وحفر العرب سبعين بئراً ـ والسبعين رقم سحري ـ لاستخراج الماء تدفع للاعتقاد بأنها مختلقة لو لم يكن من المعروف أن الخيول والإبل تشم المياه عندما تكون قريبة من السطح (يؤكد الطوارق أن للهواء رائحة متميزة عندما يكون الماء على عمق مترين أو ثلاثة من سطح الأرض)[1]، ولو لم يكن يوجد في هذه المنطقة موقع به آبار عديدة[2] يسمى ماء الفرس والذي لم يحدثنا عنه في هذه المواقع[3] أي جغرافي أو مؤرخ آخر، ولو لم يكن هذا الموضع يقع على بعد 150 كيلو متراً شمال سجدين، في منتصف الطريق بين تجرهي وبلما[4] وعلى مسيرة ثلاثة أيام بالضبط من جادو. أطلق G.F. Lyon [5] على هذا الموضع اسم مفروس وسمي مفرس من قبل

(1) تحقق لدينا أن التارقي يستشعر ليلاً بحاسة الشم الرمال المتحركة على أكثر من عشرة أمتار (منطقة البركت غير بعيد من غات).

(2) H. Barth، ج3، ص621 ـ 622.

(3) ابن الأثير، ج3، ص308. والنويري، ص334، يقصان هذه الأحداث ذاتها (العطش، صلاة عقبة، تدخل الحصان وحفر سبعين بئراً) عند حديثهما عن عودة عقبة من المحيط الأطلسي قبل قليل من وفاته 62هـ/ 2 ـ 681ف. سنلاحظ وجود رأس الماء على مسافة 60كم جنوب غرب تلمسان. انظر ما سبق، ص79، رقم 106.

(4) حسب الذين نقل عنهم G.F. Lyon، المرجع المذكور، ص144 تقع هذه الآبار على تسعة أيام من تجرهي وتسعة أيام من بلما.

(5) المرجع السابق.

Oudney [1]، وDenham Clapperton، واسمه مافرس على خريطة مسار Heinrich Barth [2]، ومفرس على خريطة Gustav Nachtigal [3]، ومبرس/ مبروس على الخرائط الحالية[4]. وكان على عقبة، وهو قادم من سجدين ماراً بالقرب من جادو، أن يسير لمدة ثلاثة أيام ـ كما يكتب ابن عبد الحكم ـ ليصل ماء الفرس على مسافة 150 كيلومتراً تقريباً. وما كان الرجوع إلى جادو بطريق آخر من أجل مباغتة السكان يمثل أي صعوبة لأن أخاديد[5] عميقة تخترق هضبة جادو. ولا يتناقض هذا مع ما افترضناه من أن السكان كانوا يعيشون في منازل تحت الأرض/أسراب، فقد وجدت في أغلب المرتفعات الصحراوية[6] كهوف كُيفت، أو حفرت لهذا الغرض. وتتسق معاملة العرب لسكان القلعة ـ قتل المحاربين، واسترقاق الأطفال وربما النساء[7]، واستباحة الأموال ـ مع ما يطبق على أهل دار الحرب عندما يرفضون الاستسلام.

لا يمثل أيَّ مشكلة التحقق من طريق العودة[8] إلى الساحل عبر زويلة

---

(1) Narrative، ص205، كانت آبار مفرس جافة عندما وصلتها البعثة.

(2) Travels and Discoveries، ج3، ص346 ـ خريطة بمقياس رسم 1:6000000.

(3) Sahara and Sudan ـ ملحق للجزء الأول خريطة تبو ـ جبيت 1:2000000.

(4) خرائط المعهد الجغرافي الوطني ـ جادو مقياس رقم 1:1000000، وMichelin Afrique شمال وغرب 1:4000000، وV.W.Afrika شمال وغرب 1:4000000.

(5) لا يمكن تصور أي واحة أخرى من واحات كوار يمكن الاستيلاء عليها مباغتة بسلوك طريق أخرى لأن الأرض مكشوفة.

(6) إن المساكن التحت أرضية الجميلة في الجنوب التونسي لا زالت مستعملة حتى اليوم. كذلك في جبل نفوسة والتي لم يتم هجرها إلا منذ أربع أو خمس سنوات. ومما يبعث على الدهشة أن المساكن المتقنة الصنع في غريان/جبل نفوسة كان يحفرها فزانيون حتى سنة 1935ف، بينما الكهوف غير معروفة في فزان في زمن دراسة J. Despois في Le Djebel Nefousa، ص191 ـ 203.

(7) انظر عاليه، ص79، ورقم 108.

(8) يضاف ـ الآن ـ إلى الثلاثمائة وستين عبداً الذين أخذوا من الواحة الأخيرة في كوار النساء والأطفال والغنائم التي أخذت من القلعة. نفترض أن الغنيمة تتضمن حيوانات نقل. كان في الإمكان تنظيم العودة لأن الطريق كان معروفاً، كما أن احتمالات الهجوم كانت ضعيفة لأن السكان كانوا مهزومين.

حيث كانت أغلب القوات تنتظر هناك ونالت قسطاً وافراً من الراحة. إن الطريق الأكثر أمناً إلى مغمداس من زويلة هو الطريق المار بالبوانيس وودان، وبالمقابل فإن الطريق غير المستعمل الذي اختاره العرب للتوجه غرباً يمكن أن يكون الطريق الساحلي، أو الطريق الداخلي الذي يبتعد عن الساحل غرباً عند بويرات الحسون ثم يتجه شمالاً عند بو قرين نحو تاورغاء ليلتقي بالساحل في مصراتة (وهو الطريق الذي كثيراً ما ذكره الجغرافيون)، أو أخيراً أي من الطرق التي تبدأ من تاورغاء نحو الغرب وتمر جنوب طرابلس. ولا يساعدنا على تحديد الطريق قول المؤلفين إن العرب استولوا على كل قلاع مزاتة، فقد كانت أرض مزاتة تغطي، بالإضافة إلى ودان وزلة، كل المنطقة سرت ـ تاورغاء، وأنقاض المباني وبقاياها منتشرة بأعداد كبيرة في هذه المنطقة. إن غياب ذكر جبل نفوسة في وصف تقدُم العرب نحو الغرب يميل بنا إلى الاعتقاد بأن عقبة سلك طريقاً يمر جنوب طرابلس وشمال الجبل، ومن مشارف سهل الجفارة بعث بوحدة من الفرسان لفتح غدامس. وأمام استحالة معرفة المدينة ص/ض ـ ف/ق[1] التي احتل العرب قلاعها لا يمكننا الجزم بالطريق الذي اتبع. إن الأهمية ـ وهذا واضح ـ تكمن أكثر في واقعة أن العرب ربما احتلوا غدامس والجريد التونسي[2]، وهما منطقتان صحراويتان حيويتان لمن يريد أن يحكم سيطرته على طرق الاتصالات العابرة للصحراء.

إن نتائج هذه الحملة ليست محدودة وصغيرة. فقد أخضعت لواتة في برقة. وسيطر العرب على كل أفرع مزاتة: في الجنوب، وقضى عقبة على تمردهم في ودان ووجد في الشمال قواتة وقد استراحت، وهو ما يعنى أنها لم تقم بأي عمليات حربية مهمة، كما كانت صحراء سرت هادئة وتم احتلال قلاع مزاتة. كان على عقبة المرور بسهل الجفارة للوصول إلى قفصة، ولا يمكن أن

(1) ابن عبد الحكم، ص64.

(2) انظر ما سبق، ص104، 104.

يكون قد بعث بوحداته إلى غدامس إلا من مشارف هذا السهل وهو ما يعني أنه أعاد السيطرة على قبائل هوارة، ونفوسة وربط الاتصال مع قبائل ضريسة، وقبائل زناتة[1] القوية.

إذا كان من الصواب أن نرى في حملة عقبة في الصحراء عملية استطلاع أكثر منها فتحاً، إلا أننا نلاحظ مع ذلك، أن نتائجها كانت ذات أثر فيما يتعلق بمعرفة العرب لهذه المنطقة منذ نهاية النصف الأول للقرن الهجري الأول. كان العرب قبل هذه الحملة سادة منطقة زويلة التي اتخذها عقبة مقراً له، وسيطروا على الطرق المؤدية إليها عبر ودان، وزلة، والفقها، وتمسة، وعرفوا بهذه الحملة مسلكاً إلى وادي الآجال ـ لا نعرف ما إذا كانت الطريق المباشرة أو المارة بوادي الشاطىء أو بالبوانيس ـ كما أنهم خبروا أقصر الطرق الواصلة بين المتوسط وبلاد السود والمارة لا محالة بالقطرون وتجرهي. وباحتلالهم غدامس وقسطيلية عرف العرب المداخل الأفريقية لطريقين مهمين آخرين نحو السودان.

إذا كانت الرواية قد نقلت إلينا بصدق الإجابات عن أسئلة عقبة في المواقع المختلفة التي فتحت، ولم تكن هناك إضافات من عند ابن عبد الحكم بفضل المعارف التي كانت لديه في عصره، فإن صورة الصحراء الليبية الغربية التي عرفها العرب منذ النصف الثاني للقرن السابع مطابقة للوصف الذي تركه لنا الجغرافي اليعقوبي في القرن التاسع[2]، وتتضمن: منطقة مزاتة ودان وكان يديرها أحدهم، ومقاطعة زويلة ولا يذكر ابن عبد الحكم قبائلها، وفزان أي وادي الآجال بعاصمته جرمة[3] غرباً، وجنوباً وادي الحكمة، وفي الشمال

---

(1) T. Lewicki في Repartition Geographique، ص315 ـ 320، 328 ـ 330.

(2) البلدان، ص345 ـ 346/ 204 ـ 206. عرف اليعقوبي، أيضاً، قبيلة لمطة بين كوار، وزويلة، وأوجلة، وأجدابيا.

(3) في القرن الثالث عشر وليس قبلها، اعتبرت زويلة جزءاً من فزان، انظر ابن سعيد ـ بسط الأرض، ص61، ونقل عنه أبو الفدا في تقويم، ص146 ـ 147.

الغربي غدامس التي من المحتمل أن سكانها يتكونون من قبيلة تناوته/ تنايوت[1].

كانت الاتصالات الأولى التي رُبطت مع السكان بنفس الدرجة من الأهمية، فمن جانب، عرف هؤلاء قوة المسلمين وتصميمهم، ومن جانب آخر عرف العرب، بعد الانتصارات السهلة التي أحرزوها، أنهم أمام أقوام لا يستطيعون مقاومتهم. وبالفعل كانت القلاقل التي شهدتها المنطقة لاحقاً من عمل أجانب ولم تكن بفعل السكان الأصليين. من المؤسف أن ابن عبد الحكم لم يزودنا بأي تفاصيل حول سكان الجنوب الذين نجهل حتى أسماءهم، وأنه لم يخبرنا بشيء عن الجرمنت. يدفعنا هذا إلى استنتاج أن الضعف قد بلغ من هؤلاء السكان مبلغاً كبيراً في منتصف القرن السابع لأن إخضاعهم لم يتطلب إلا قوات خفيفة. إن معلوماتنا حول هؤلاء القوم مستمرة في اعتمادها على نصوص الأولين.

كان سكان فزان الجنوبي يعرفون كوار، وربما كان سكان المنطقتين على قرابة دم، وهذه نقطة أساسية لأن كوار مثل فزان ستكون ــ هل كانت منذ عهد عقبة؟ ــ نقطة التقاء طرق مهمة. كانت تعبر هذه المنطقة الطرق الآتية من الشرق وهي طرق للتجارة والحج تبدأ من موانىء البحر الأحمر خاصة من عيذاب وتتجه نحو أسوان[2] وتؤدي إلى الواحات لتسلك طريق الكفرة نحو كوار وكوكو/ جاو وتنتهي إلى غانا بلاد الذهب ومنبع الرقيق[3]. وتنطلق طرق من

---

(1) T. Lewicki في Repartition Geographique، ص337، حسب كتاب ذكر أسماء بعض شيوخ الوهبية، ص596. والشماخي، ك. السير، ص203.

(2) أبو الفدا. تقيم البلدان، ص105.

(3) ابن حوقل، ص143/ 151. والإدريسي، ص45/ 52. وكتاب الاستبصار، ص148. هُجر الطريق الواصل بين مصر وغانا عبر الواحات والكفرة، وكذلك طريق الواحات فزان في القرن التاسع بأمر من أحمد بن طولون بسبب الزوابع الرملية التي تسببت في فقد الكثير من القوافل، والمخاطر الكبيرة التي يمثلها التيه فيها. انظر ابن حوقل، المرجع السابق. والبكري، ص15 ـ 17/ 38 ـ 40. والإدريسي، ص22 ـ 27.

الشمال: هذه التي تبدأ من القاهرة أو من الموانىء المصرية على البحر المتوسط لتصل إلى سيوة/ سنترية، وتعبر كثبان الصحراء الليبية لتصل إلى أوجلة، ومن هناك عبر زلة ـ زويلة ـ كوار ـ كوكو تنتهي في غانا[1]، وطرق تبدأ من طرابلس أو من جبل نفوسة الأباضي وتعبر فزان وكوار حيث تتفرع إما إلى الغرب حيث بلاد التكرور[2]، وإما شرقاً حيث وادي دارفور[3]، وأخيراً الطرق التي تبدأ من ورقلة/ ورجلان في الشمال الغربي وكانت تمر بغدامس وفزان وكوار لتتجه نحو بلاد الزغاوة[4] أي مشارف تبستي، وبوركو، وأندي. وفي الجنوب يصل طريق واحد شرق ـ غرب على الأقل بين غانا وكوكو ويستمر إلى الأيير ثم كوار ماراً شمال بحر الغزال، وعابراً دارفور ويتجه نحو النوبة وعاصمتها دنقلة[5].

هناك نقطة مهمة ربما غابت عن عقبة، فالأهمية التي ستكتسبها هذه الطرق لاحقاً لتجارة الذهب لا تفسر كل شيء. إن الاكتشافات الأثرية في كوار وفي جنوب هذه المنطقة كثيرة لدرجة تدفع للتساؤل عما إذا كان ممكناً التسليم بأن السكان في آخر قصور كوار يجهلون البلدان التي كانت وراءهم. بتعبير آخر، ما هو تقييم إجابة الدليل لعقبة؟ هل كان الدليل يجهل حقاً ما يلي كوار؟ وإذا كان هذا هو الحال، أو لا يكون السبب ببساطة في أن هذا الدليل لا يعرف إلا جزءاً من المسار، كما يحدث في الصحراء، وهو ما يتطلب الالتجاء لخدمات «أدلاء جزئيين»؟ وبالعكس، إذا كان الدليل يعرف عن اتصالات كوار مع الخارج خاصة مع الجنوب، لماذا ادعى الجهل بها؟ يمكن أن يكون رفضه راجعاً للتعب ـ وغالباً ما يعاني المسافرون التجربة المؤلمة لهذا الادعاء بالجهل

---

(1) ابن حوقل، ص90/ 92. والبكري ص11، 14/ 29، 35. والإدريسي، ص12، 45، 132/ 14 ـ 15، 158. وأبو الفدا (تقويم البلدان)، ص128 ـ 129.

(2) البكري، ص9 ـ 11/ 25 ـ 29. وأبو الفدا، المرجع المذكور، ص129.

(3) البكري، انظر أعلاه. والإدريسي، ص39 ـ 42/ 45 ـ 49.

(4) الإدريسي، ص35 ـ 36، 39/ 41، 46.

(5) الإدريسي، ص12 ـ 13/ 15: لا يمكن التعرف على المحطات المتوسطة، ومن ثم فمن المستحيل تحديد مسار هذا الطريق بدقة.

من قبل الأدلاء ـ أو بنفس القدر لضيقه ذرعاً بالمعارك ونفوره من عبور عرق بلما العظيم، أو لرغبته المبررة في أن يخفي على العرب هذا المصدر الهائل للعبيد الذي يمثله السودان[1]. بالفعل، كان يمكن اعتبار الأطفال ـ والنساء؟ ـ الذين أسرهم المسلمون في قلعة كوار ـ وهم أطفال السكان حسب ما تفيد به النصوص ـ غنيمة مشروعة بعد المقاومة العنيدة التي قابل بها السكانُ العربَ أثناء الحصار. ولكن ماذا عن ضريبة الثلاثمائة والستين شخصاً التي فرضت في ودان، وجرمة، والحصن الأخير من حصون كوار؟ هل كان عدد السكان في هذه الواحات كبيراً لدرجة تُمكن من الحصول على هذا العدد من العبيد[2] فيها. لا يمكن الشك في هذا، خاصة وأن العرب كانوا يريدون هذه الضريبة سنوياً، كما جرت عليه العادة، وهذا يشرح رفض ملك ودان احترام بنود الاتفاقية التي فرضها عليه بسر بن أبي أرطأه. بالمقابل فإن تكوين المجتمع الجرمنتي من فئة محاربة حاكمة، وطبقة من العبيد ـ إذا لم يكن من النبلاء،

---

(1) لم يكن ما أراد الكواريون إخفاءه هو الذهب أو الطرق الموصلة بكل تأكيد، هذا المعدن الثمين كان يعتبر في عيون مشتريه المسلمين مادة عادية جداً، وأحياناً محتقراً من الباعة الأفارقة الذين يدعون أنهم كانوا يبادلون بوزنه ملحاً، وأحياناً وزن من الملح بوزنين من الذهب. انظر حدود العالم، ص165. والبكري، ص174/ 327. وأبو حامد، ص41 ـ 42/ 243 ـ 245. وملاحظة Andre Miquet في Geogoaphie، ج2، ص175، حول الاحتقار الذي كان السود يحملونه لهذا المعدن. سنلاحظ أنه عندما حج منساموسى إلى مكة سنة 1325ف نشر كميات من الذهب أدت لانخفاض أسعاره طوال اثني عشر سنة، انظر العمري، ص78 ـ 79. وما سيلحق، ص533.

(2) كمؤشر، نذكر أن عدد سكان الجفرة (تاقرفت، زله، ودان، هون وسوكنة) وصل سنة 1963ف إلى 11000 حضر ورحل. وبلغ عدد سكان منطقة وادي الحكمة وهي منطقة القصور التي احتلها عقبة (القطرون، البخي، مدروسة، تجرهي، واو الكبير) في سنة 1931ف 1127 حضر فزانيون ورحل تبو. وعدد سكان وادي الآجال الغربي (من الفجيج إلى جرمة وأوباري) وصل سنة 1931ف إلى 3148 حضر فزانيون ورحل طوارق (أوراغن) وفي سنة 1963ف وصل 11200 منهم 9000 حضر، و2200 أوراغن رحل. يلاحظ إذا ما أخذنا بالتعدادات أن سكان فزان زادوا بنسبة 30٪ من 1931ف إلى 1936، وبنسبة 65٪ من 1936ف إلى 1954ف، وبنسبة 35٪ من 1954ف إلى 1963ف!! (لم نستطع الحصول على نتائج آخر تعداد)، انظر C. Gini في Condizioni demogrfiche In il Sahara Itatiano، ص406 ـ 407. والدناصري في جغرافية فزان، ص197.

والفلاحين التبع، والعبيد، كما هو عند الطوارق لاحقاً ـ قد يفسر قبولهم ضريبة بهذا الثقل. يمكننا أن نتساءل عن مصدر هؤلاء العبيد. . . ونجيب بافتراض، أنه من عهد هيرودوت لم يتوقف الجرمنتيون عن القيام بغارات على «الأثيوبيين». يضاف إلى هذا، أن الطريقة التي عرف بها ابن عبد الحكم الجزية قد تعطينا مؤشراً. ففي ودان أصر عقبة على ثلاثمائة وستين رأساً، بينما في جرمة وحصن كوار الأخير أصر على ثلاثمائة وستين عبداً[1]. هل يمكن اعتبار الكلمتين ـ رأس، وعبد ـ مترادفتين[2] تماماً؟ أم هل كان ابن عبد الحكم يفرق بينهما وهو ما غاب عن البكري[3]؟ هل نستطيع أن نفهم أن عقبة أخذ في ودان مواطنين وجعل منهم رقيقاً، وأصر في جرمة وكوار على عبيد فقط ـ سود بكل تأكيد ـ من الذين كان الجرمنتيون يملكونهم؟، وإذا كان الجرمنتيون ما زالوا يواصلون غاراتهم على السود من جانب، ومن جانب آخر إذا كان سكان كوار جرمنتيون أو أقارب لفزاني الجنوب كما هو الحال حتى الآن، ويمثلون مجتمعاً طبقياً بارز التمايز، فلا شك أن هؤلاء وأولئك يملكون من العبيد ضحايا الغارات أكثر بكثير مما لدى سكان الواحات البعيدة في الشمال مثل ودان. وبما أن كوار حليف جرمة، كانت واقعة عند مصادر التزود بالعبيد فإن هذا يتطلب مراعاة مفهوم «أسود» لكلمة «عبد»، ويبرر التفريق الذي جاء عند ابن عبد الحكم ومن الصعب التسليم بمجيئه مصادفة. عندما عاد العرب إلى ساحل المتوسط، وهو بلاد للبيض، مصحوبين بهذه الأعداد الكبيرة من العبيد السود زرعوا وهم الثراء السوداني العريض، وهو وهم تحول إلى حقيقة فيما بعد. وليس من الصدفة في شيء أن يختار الأباضيون البربر، بعد قرن من هذه الوقائع، اللجوء إلى زويلة بوابة السودان والواقعة على أقصى الطرق المؤدية إلى

(1) ابن عبد الحكم، ص60 ـ 62.

(2) A. Gateeau، ص61 ـ 63، يترجمها ثلاث مرات «عبيد».

(3) البكري، ص13، تحدث عن «رأس» في ودان وكوار، و«عبد» في جرمة. de Slane، ص33 ـ 34، يترجم ثلاث مرات عبيد.

هذا المستودع للرجال. وليس من الصدفة في شيء أيضاً أن استقر أمويون هاربون من اضطهاد العباسيين في كانم على بعد أربعين يوماً من زويلة[1].
بالرغم من أن عقبة كان يجهل حقائق ومعطيات ما بعد كوار إلا أنه قام بأول عملية من آلاف عمليات النزف الدموي التي زرعت الحزن والألم في أفريقيا حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

معاوية بن خديج:

مثّل ابن خديج الخليفة معاوية بن أبي سفيان في أفريقية في منصب عامل أو والٍ[2]. ولا نعرف ما إذا كان تحت سيطرة حاكم مصر أو يتبع الخليفة مباشرة أو مر بالوضعين كليهما. وقد قاد ابن خديج على الأقل ثلاث حملات في أفريقية. كانت الأولى في زمن الخليفة عثمان سنة 34هـ/ 5 ـ 643ف.ولكن «القليل من الناس يعرفونها»، وحدثت الثانية سنة 40هـ/ 1 ـ 660ف[3]. وأثار الثالثة الحاكم العربي الذي تركه عبد الله بن سعد في سبيطلة، فبسبب مناوشات البيزنطيين ذهب هذا الحاكم إلى الخليفة في دمشق ليشرح له الوضع في أفريقية وحصل على الكثير من القوات وسافر مع معاوية بن خديج ولكنه توفى أثناء الرحلة في الإسكندرية. وهكذا أصبح ابن خديج القائد الوحيد للجيش العربي[4]. وقد وقعت هذه الحملة سنة 45هـ/ 6 ـ 665ف[5]، واستولى فيها ألف من العرب على حصن جلولا في معركة برز فيها عبد الملك بن مروان الذي أصبح خليفة فيما بعد. وتقع جلولا على مسافة حوالى خمسين كيلو متراً من القيروان، وقد قتل العرب البيزنطيين الذين كانوا فيها ونهبوا المدينة،

---

(1) البكري، ص11/ 29.
(2) انظر ما سبق بالخصوص، ص103.
(3) ابن عبد الحكم، ص58 ـ 61. وأبو العرب نقل عنه المالكي، ص134.
(4) النويري، ص324.
(5) المالكي، ص134. وابن عذاري، ج1، ص16 ـ 17. والنويري ـ المرجع أعلاه. تاريخ سنة 50هـ/ 1 ـ 670ف المقدر من ابن عبد الحكم وأبو العرب من الصعب القبول به لأن عقبة في تلك الفترة عين والياً لأفريقية مكان ابن خديج.

وأسروا الكثير من الأطفال والنساء، وحصلوا على غنائم[1] كبيرة. وعندما وصلت هذه الغنائم إلى معاوية بن أبي سفيان قرر تشجيع معاوية بن خديج فبعث إليه بمدد من القوات أُخذت من جيوش سوريا ومصر، وقد مكنت هذه الإمدادات العرب من حفر آبار في شمال تونس، وغزو بنزرت[2]. لم يبرز معاوية بن خديج إلا في الصراع ضد البيزنطيين، حسب النصوص التي في حوزتنا. لقد تركت هذه الحملات في دمشق انطباعاً قوياً بأن أفريقية أرض للسلب لأن المغانم التي أرسلت إلى سوريا ومعها الكثير من الأسرى كانت السبب الوحيد وراء إرسال المدد والدعم.

لم يرِد ذكر أي معارك ضد البربر الليبيين أثناء حملات معاوية بن خديج، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن حملات عقبة ضد لواتة ومزاتة أتت أكلها، وهكذا كان العرب في تلك الفترة يحكمون سيطرتهم على ليبيا السرتية.

في سنة 50هـ/ 1 ـ 670ف، بعد الغزوة العربية على فزان وكوار، وبينما كان عقبة يقيم غالباً في برقة أو زويلة، قام معاوية بن أبي سفيان بعزل حاكم مصر عبد الله بن عمرو بن العاص وأسند حكم مصر لمعاوية بن خديج. وأصبح عقبة والياً على أفريقية.

ولاية عقبة بن نافع الفهري الأولى:

كان معاوية بن أبي سفيان يحسن اختيار ولاته[3]، وقد يكون بسبب الخدمات التي أداها القائد عقبة بن نافع،الذي كان قد انتهى في سنة 49هـ/ 70 ـ 669ف من قيادة حملة بحرية على الروم انطلاقاً من مصر[4]، فتم تعيينه والياً

---

(1) الملاحظات السابقة، وياقوت انظر جلولا.

(2) المالكي، ص135.

(3) N. Elisseeff في L' Orient Musulman، ص87 ـ 88، مع استثناء مسلمة بن مخلد الذي خلف ابن خديج كحاكم لمصر.

(4) ابن عذاري، ج1، ص19.

على أفريقية. وإلى ذلك الحين يعود تاريخ الفصل في المسؤوليات بين مصر وأفريقية[1] حسبما يقول به ابن الرقيق. ويبدو أن الفصل بين هاتين الولايتين الذي بدأ مع عقبة وابن خديج لم يُراع دائماً، فقد حدث لاحقاً، خاصة مع مسلمة بن مخلد أن استولى حاكم مصر على صلاحيات حاكم أفريقية ومن بينها صلاحيات عقبة.

حدث مرة أن تمرد البربر، كما يحدث عندما يدير العرب ظهورهم، فأرسل الخليفة إلى عقبة مدداً من عشرة آلاف فارس، ولكن قد لا يكمن الحدث الأكثر أهمية في الفترة الأولى من ولاية عقبة في هذا الجيش العربي القوي الزاحف نحو الغرب وإنما في تجنيد عدد كبير من البربر المسلمين[2] فيه. حارب عقبة بهذه القوات الروم الباقين في أفريقية، والبربر الذين ارتدوا عن الإسلام وتوسع في الفتوحات.

تبرز النصوص نقطتين أساسيتين بالنسبة لهذه المنطقة. يبدو من جانب، استقرار الاحتلال للواحات في صحراء سرت، أو على الأقل قبول سكانها بالوجود العربي فيها. ومن جانب آخر، أصبح البربر المسلمون (في برقة وطرابلس لأن البربر في الغرب كانوا مستمرين في المقاومة) يشكلون قوة لا يستهان بها ويجب أخذها في الاعتبار. إن مسؤولية تجنيد البربر المسلمين تعود إلى عقبة، وهو بتجنيدهم اعترف بأنه كان في حاجة إليهم. لقد كانت هذه العملية تكتيكاً غير موفق، إذا ما نظرنا إليها بعد مضي الوقت، تمت في وقت كان الخليفة فيه مضطراً لقمع حركات تمرد الخوارج المتعاقبة في الكوفة والبصرة بشكل خاص. وبالرغم من حزم معاوية بن أبي سفيان إلا أنه لم يحقق نجاحاً يذكر في قمع هذا التمرد. لقد كان لعملية تجنيد البربر المسلمين أخطر الآثار بعد الموقف الذي تبناه العرب تجاه قبائل لواتة ومزاتة.

---

(1) انظر ما سبق بالخصوص، ص103 ورقم 1.

(2) ابن الأثير، ج3، ص230. وابن عذاري، ج1، ص17 ـ 19. وابن خلدون العبر، ج3، ص21، 88 والبربر، ج1، ص327.

أبو المهاجر[1]:

استمرت سياسة التوسع العربي نحو الغرب ولكن القادة تغيروا. لم يبق عقبة طويلاً في أفريقية. فقد عزل معاوية بن أبي سفيان ابن خديج من ولاية مصر وعين مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري، وقام مسلمة بعزل عقبة وسمى عتيقة أبا المهاجر دينار ممثلاً له في أفريقية. وكان مسلمة يرد على منتقديه لعزله عقبة من منصبه بأن أبا المهاجر ناصره دائماً دون انتظار مقابل وقد حان الوقت لمكافأته[2]. أيجب أن نرى في تعيين مسلمة على مصر والسلطة التي منحت له في تعيين ممثله في أفريقية اهتمام الخليفة بعدم فصل مصر عن الأقاليم الغربية؟ في الحقيقة، كان هذا الوضع هو الواقع حقيقة، فمن مصر كانت تنطلق الحملات، ومن خزينتها كانت تمول عادة. أو لم يكن الخليفة راضياً عن طريقة عقبة المستقلة في التصرف، ومبادرته للقيام بحملات بعيدة، وقراره بإنشاء مدينة مسلمة بعيدة جداً عن قواعد العرب؟ إن هذا ما يظهر من الرفض المؤدب ـ وكذلك الحازم ـ الذي واجه به معاوية هذا الفاتح بالرغم من شهرته[3]، وقد يكون بسببها. أوصى مسلمة أبا المهاجر بمعاملة عقبة بأكبر قدر من الاحترام، ولكن أبا المهاجر لم يأخذ بهذه النصيحة، فبمجرد وصوله إلى أفريقية حوالى سنة 54هـ/ 674ف قام بحبس عقبة وقيده بالحديد. لقد صمت المؤلفون عن أسباب هذه المعاملة. ويقال أن الخليفة نفسه هو الذي أمر بإطلاق سراح عقبة الذي ذهب إلى الخليفة شاكياً فأجابه بأنه كان عليه ـ أي الخليفة ـ أن يكافىء مسلمة على إخلاصه لعثمان[4] أيما إخلاص. هل حدث هذا بالفعل، أم أنه

---

(1) ابن عبد الحكم، ص66 ـ 71. والبلاذري، ص230. واليعقوبي (تاريخ)، ج2، ص229. وابن الرقيق، ص39 ـ 40. والمالكي، ص135 ـ 136. وابن الأثير، ج3، ص231. وابن عذاري، ج1، ص21 ـ 22. وعبيد الله، ص38. وابن خلدون العبر، ج3، ص22، 89/ البربر، ج1، ص211. والنويري، ص330.

(2) ابن عبد الحكم، وابن عذاري، انظر ما تناولناه سابقاً.

(3) حول مفهوم ولاية أفريقية حينها انظر H. Djait في La wilaya d' Afriqiya، ص 79 ـ 107.

(4) ابن عبد الحكم. المرجع السابق.

لمجرد أن يوضح لنا أن القرن الهجري الثاني عرف بالمظلمة التي ارتكبت في حق هذا القائد العسكري العظيم؟

يورد ابن عبد الحكم أن القادة العرب قبل أبي المهاجر كانوا ينسحبون إلى مصر فور انتهائهم من غاراتهم على أفريقية، وكان أبو المهاجر أول من استوطن في أفريقية بعد حملته، ويقول لنا المالكي أنه ـ أبا المهاجر ـ تصالح مع البربر خاصة مع كسيلة وأوربة الأوراس، وقد قبل كسيلة اعتناق الإسلام[1] بعد معركة تلمسان. وهكذا فإن استيطان العرب في أفريقية الشمالية بدأ حوالى سنة 54هـ/ 674ف. من جهة أخرى يقال أن أبا المهاجر أقام مبان غير بعيدة من مدينة تونس. يبقى واضحاً أن الاهتمام الغالب لهذا القائد العربي كانت المغانم وذلك إذا ما استثنينا معاركه ضد البيزنطيين.

إن المراجع لا تذكر المدن على طول الساحل الليبي ولا في الصحراء الليبية، وهو ما يظهر أن عمليات استعراض القوة السابقة أتت أكلها.

ولاية عقبة الثانية[2]:

اضطر عقبة، بالرغم من هالة الأمجاد التي تتوجه، وكان وقتها في سوريا، للانتظار حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان ـ وربما وفاة مسلمة بن مخلد كذلك ـ ليعاد إلى منصبه في عهد يزيد بن معاوية سنة 62هـ/ 2 ـ 681ف[3].

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص29 ـ 28. وابن خلدون البربر، ج1، ص211.

(2) ابن عبد الحكم، ص70 ـ 75. والبلاذري، ص230. وابن الرقيق، ص40 ـ 47. والبكري، ص73 ـ 74/ 150 ـ 151. والمالكي، ص136 ـ 137. وابن الأثير، ج3، ص308. وابن عذاري، ج1، ص23 ـ 30. وعبيد الله، ص38 ـ 39. والنويري، ص331 ـ 336. ابن خلدون، العبر، ج3، ص22، 290 ـ 291/ البربر، ج1، ص211 ـ 212.

(3) توفي مسلمة في هذه السنة ذاتها، انظر ابن خلدون (العبر)، ج3، ص291. إننا لا نعرف تاريخ وفاته بالتحديد، كما لا نعرف بالتحديد تاريخ إعادة تعيين عقبة من قبل يزيد بن معاوية. يدعي النويري، ص331، لقاء عقبة مسلمة عند مرور عقبة بالفسطاط في طريقة إلى المغرب، وحاول مسلمة أن يبرىء نفسه مدعياً أنه لم يكن في شيء مما لحق بعقبة من معاملة سيئة وأن أبا المهاجر خالف أوامره.

وبمجرد وصوله إلى أفريقية قيد أبا المهاجر بالحديد وعامل كسيلة بقسوة. وكما فعل عدة مرات في السابق، أهمل عقبة تأمين استيطان العرب واستقرارهم في الأماكن التي مر بها، فقد ترك القيروان تحت إشراف زهير بن قيس البلوي وانطلق إلى المغرب. أكثر عقبة من تجميع مغانم الحرب، وتحدى كل الأعداء الذين قابلهم واستولى على الزاب ثم توجه إلى طنجة ومنها نحو وادي دراع والسوس حيث اصطدم العرب لأول مرة بصنهاجة وهم بربر ملثمون. وأوقع عقبة مذبحة بتحالف بربري كبير واستولى على بعض نساء بربريات ذات جمال لا يضاهي، ولكنه فقد في هذه المعارك عدداً كبيراً من رفاقه. وقد واصل عقبة زحفه حتى المحيط الأطلسي وأشهد الله على أنه لا يستطيع السير[1] أبعد. في هذه الأثناء تمكن القائد الأوربي[*] كسيلة من الهرب. وعندما رجع عقبة نحو الشرق وجد كل الآبار مردومة. ولما بلغ مسافة ثمانية أيام تقريباً من القيروان قسم قواته ولم يحتفظ معه إلا بوحدة صغيرة من ثلاثمائة فارس. في الطريق هاجمه كسيلة الذي كان قد جمع قوات كبيرة من البربر والروم واستطاع القضاء على عقبة ورجاله، وكان أبو المهاجر من بين من قتلوا[2]. وقعت هذه الهزيمة السياسية والمعنوية للعرب في سنة 63هـ/ 3 ـ 682ف.

أول رد فعل بربري، وولاية زهير بن قيس[3]:

كما فعل في فزان، قام عقبة في طريق عودته شرقاً بتقسيم جيشه وهو ما

---

(1) نلاحظ بخصوص هذه الواقعة أن ابن عبد الحكم يقدم الوصف الأكثر اعتدالاً ورزانة. وعليه لا يمكن اعتبار المآثر الصحراوية والكوارية مبالغة تعود عليها هذا المؤلف.

(*) نسبة إلى قبيلة أوربة ـ المترجم.

(2) يورد ابن عبد الحكم أن عقبة أمر بفك قيود أبي المهاجر عندما بلغت المعركة أوجها، ويقال أن هذا الأخير رفض. حسب عبيد الله، والنويري، أراد أبو المهاجر أن يشارك أخوته في السلاح مصيرهم، ومات مقاتلاً. وحسب المالكي وابن عذاري أراد كسيلة أن يدافع عن أبي المهاجر الذي كان قد صار صديقاً له. يقال أن أبا المهاجر مات أثناء زحمة القتال. يوجد قبر عقبة في قرية سيدي عقبة في نواحي بسكرة.

(3) ابن عبد الحكم، ص74 ـ 77. وابن الرقيق، ص46 ـ 54. والبكري، ص7/ 22. والمالكي، =

أدى ليس فقط لاستشهاده وإنما كذلك لتراجع الجيش العربي. كان زهير بن قيس مصمماً على القتال ولكن قواته رفضت أوامره وسلكت طريق العودة إلى برقة ومصر، واندفعت حتى مرمريكا بالرغم من إلحاح قائد عربي كان يخشى أن يُمكِّن زهير بهذا العمل التمرد البربري من الانتشار حتى مصر. رحل مساعد عقبة السابق بجنوده ولم يترك في القيروان إلا «الشيوخ العجزة والنساء والأطفال والرجال العائلين لأسر». كان مع زهير ستة آلاف جندي: ألفان من البربر وأربعة آلاف من العرب[1].

هكذا أصبح الميدان خالياً لكسيلة، فاستولى على القيروان التي كان أهلها قد طلبوا الأمان، واحتفظ بها حتى خلافة عبد الملك بن مروان. وفي هذه المدينة المسلمة، استقر كسيلة أميراً لأفريقية والمغرب ولكل المسلمين فيهما. وتجب ملاحظة شيء مهم، وهو أنه ـ أي كسيلة ـ نصح الرؤوساء البربر باحترام عهودهم مع المسلمين. وتشير إحدى الروايات إلى أن كسيلة كان يخشى انتصار العرب إذا ما هاجمهم البربر[2]، وكانت حرب الخلافة، التي هزت الامبراطورية، لم تحسم بعد، في الوقت الذي كان زهير في طريق عودته إلى برقة (أو مصر)سنة 65هـ/ 5 ـ 684ف. ففي المدينة المنورة لم يجسر المطالب بالخلافة عبد الله بن الزبير (ابن أخت عائشة، وابن الزبير الذي كان بدوره ابن أخ خديجة، ومن أوائل من أسلموا وكان معارضاً لمبايعة علي) على التمرد ضد معاوية بن أبي سفيان الذي كانت سلطته مسلماً بها. تغيرت الأمور بوصول يزيد بن معاوية إلى الخلافة (680 ـ 683ف) فقد كان عابثاً ماجناً محباً للحياة.

= ص140 ـ 142. وابن الأثير، ج3، ص308 ـ 310. وابن عذاري، ج1، ص31 ـ 34. وعبيد الله، ص39 ـ 40. والنويري، ص336 ـ 338. وابن خلدون، البربر، ج1، ص212 ـ 213، وتاريخ أفريقية، ص23.

(1) المالكي، ص140.

(2) ابن عذاري، ص31 ـ 32.

أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في مكة، وأرسل يزيد اثني عشر ألف جندي لمحاصرة المدينة المقدسة، ولكن موت يزيد وضع حداً لهذه العمليات. ومات معاوية بن يزيد بعد ثلاثة أشهر من توليه الخلافة، وخلفه مروان بن الحكم في مارس 684ف وهو من الفرع الآخر لبني أمية. في هذه الأثناء، تمكن ابن الزبير من ضم كامل الحجاز إليه، وجنوب الجزيرة العربية، ومصر، وجزء من سوريا. طرد مروان أنصار ابن الزبير من سوريا ثم أعاد احتلال مصر وولى القيادة فيها لابنه عبد الملك سنة 65هـ/ 5 ـ 684ف. وتوفى مروان في أبريل سنة 685ف بينما كان مشغولاً بإعادة سيطرته على العراق. لم يعلن عبد الملك بن مروان خليفة إلا في بداية سنة 686ف. وهكذا أمكن إعادة العمليات العسكرية ضد معارضي الخليفة. تولى الحجاج بن يوسف ـ وهو أحد ضباط ابن عبد الملك وسيبرز لاحقاً كحاكم للعراق ـ قيادة الجيش ضد عبد الله بن الزبير الذي كان متحصناً في مكة، واستمر حصار هذه المدينة ستة أشهر ونصف ـ وقد قُتل عبد الله بن الزبير في أكتوبر سنة 692ف (73هـ). هكذا أعيدت أخيراً وحدة الامبراطورية وبدأت الحروب ضد البيزنطيين من جديد[1].

نفهم أن عبد الملك اهتم أكثر في بداية عهده بالخطر الذي كان يمثله خصمه ابن الزبير على الامبراطورية من اهتمامه بتوسيع الإسلام في أفريقيا الشمالية، بقواته المعسكرة في برقة. بالرغم من ذلك، كان كبار المسلمين يطالبونه بتخليص أفريقية من كسيلة وينصحونه بأن القائد الوحيد الجدير بخلافة عقبة هو زهير بن قيس البلوي[2]. أخذ عبد الملك قوات من سوريا ووضع تحت تصرفها الأموال من مصر[3]. انضم الجيش العربي إلى قيس، الذي كان وقتها معسكراً في برقة، سنة 69هـ/ 9 ـ 688ف، ومعاً عبروا صحراء سرت

(1) المسعودي (التنبيه)، ص303 ـ 317/ 393 ـ 410. و C. Brockelmann، ص76 ـ 80. و Ph. N. Hitti، ص191 ـ 193. و A. Dietrich، موسوعة الإسلام (انظر الحجاج بن يوسف).

(2) ابن عذاري، ج1، ص31.

(3) ذكر وضع الأموال المصرية تحت التصرف لم يرد إلا عند المالكي، ص141.

ووصلوا إلى مشارف القيروان حيث جرت معركة طاحنة دامية للجيشين. قتل كسيلة في هذه المعركة وهزمت قواته من البربر والبيزنطيين هزيمة منكرة ولاحقهم العرب حتى المغرب. «كلفت هذه المعركة البربر نخبة قواتهم من المشاة والفرسان، وحطمت قوتهم، ومرغت كبرياءهم في التراب وقضت إلى الأبد على نفوذ الفرنجة»[1]. واستولى زهير كذلك على مواقع حصينة أخرى خاصة سقبانارية/ الكاف، ثم ترك حامية في القيروان ورجع مشرقاً. أصر رفاق زهير على البقاء في أفريقية ولكنه رفض قائلاً: «إنما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك»[2].

علم البيزنطيون أن زهيراً لم يترك إلا قوات صغيرة في برقة، فنزلوا في إقليم برقة سنة 69هـ/ 9 ـ 688ف، ووافق هذا عودة زهير. أُخطر زهير بأن الروم أخذوا أسرى كثيرين من بين المسلمين، فدخل في معركة ضدهم وتكاثر البيزنطيون على العرب وقتل زهير وأصحابه وعاد البيزنطيون بأسراهم.

يمثل حكم كسيلة، وبعثة زهير منعطفاً في تاريخ فتح شمال أفريقيا، وتقدم لنا المصادر معلومات قيمة فيما أوردته من وقائع.

كانت حملات كسيلة أول محاولة لتوحيد البربر، وأول مقاومة منظمة ضد الغزاة العرب. كانت مقاومة حضر مستقرين، فالأوربة كانوا من البرانيس[3]. أعطت سياسة أبي المهاجر المهادنة ثمارها، فقد حرص كسيلة الذي كون امبراطورية بربرية عظيمة ممتدة من أفريقية إلى المغرب على أن لا تلوث مملكاته ـ تحت سلطته ـ أي مشاعر عداء للأجانب أو أي اضطهاد عرقي

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص213.

(2) ابن عذاري، ج1، ص32. أقوال مشابهة تقريباً ينسبها المالكي لزهير ص142. وابن الرقيق. ص52. وابن الأثير، ج3، ص309. والنويري، ص337.

(3) يكون البرانيس والبتر المجموعتين الأكبر من البربر. كان البرانيس جبليون مستقرون وكانت مواطنهم في ذلك الوقت بلاد القبائل والأوراس. وكان البتر يسكنون الفيافي، والصحراء، والجبال من مراقيا غرب النيل إلى الجريد في الجنوب التونسي. كان البتر أصلاً أقوام رحل ويشملون ـ من بين آخرين ـ لواتة، ونفوسة. انظر G. S. Colin، موسوعة الإسلام (برانيس وبتر).

أو ديني، وأن تحافظ قواته على العهد الذي يربطها بالمسلمين. لقد كانت سياسة ذكية وكريمة، إذ ربما ما كان تقتيل العرب ليثير أي انتقام: فزهير كان بعيداً، ولم يبق في القيروان من العرب إلا كبار السن والنساء والأطفال. يمكننا التساؤل عما كانت ستؤول إليه أفريقية الشمالية لو لم يترك عقبة العنان لنفسه مدفوعاً بتعطشه للفتوح، ولو لم يعمه الحقد الذي كان يكنه لأبي المهاجر وإنجازاته. ليس من الخيال في شيء أن تأخذ هذه المنطقة شكل مملكة عربية ـ بربرية مسلمة قوية ومسالمة، لنتذكر أن أسراً عربية رافقت حينها قوات الحملة على أفريقية. وبالفعل، لا يشير أي من النصوص بعد الصلح الذي عقد بين أبي المهاجر والبربر واعتناق قائدهم الإسلام إلى ارتداد كسيلة حتى بعد ما عاناه على يدي عقبة[1] من معاملة سيئة وإهانات. يلاحظ محمد طالبي ـ وهو مصيب ـ أن تحول كسيلة إلى الإسلام وحرصه على أن لا يرتد عن معتقده الجديد يعني برنامجاً سياسياً يهدف لأن ينزع من العرب «أي مبرر ديني» لإعادة مهاجمة أفريقيا الشمالية. فلو كان العرب يهدفون حقيقة لنشر الدين لاعتبروا أن كسيلة، وبفضل سياسة أبي المهاجر، قد حقق لهم هدفهم. من المؤسف حدوث خلط بين الإسلام والخلافة في ذلك الوقت، وهو ما تطلب من العرب الإطاحة بهذه المملكة المستقلة[2]. ونلاحظ، مع هذا، أن إسلام كسيلة لم يعن تحول كل بربر شمال أفريقيا إلى الإسلام، كما أن قرطاجنة لم تكن قد ماتت بعد، وكانت الجيوش البيزنطية تحارب إلى جانب القائد البربري.

---

(1) أمر عقبة كسيلة بسلخ خراف ذبحت للجيش، ورفض كسيلة شارحاً أن لديه خدماً لهذا الغرض، ولكن عقبة أجبره على الطاعة. نفذ القائد البربري ولكنه مرر يده الملوثة بالدم على لحيته كعلامة بالتهديد. انتقد أبو المهاجر عقبة لمعاملته لمسلم بهذه الطريقة وحذره من أن عليه أن يخشى غدر البربري. بعد هذه الحادثة تمكن كسيلة من الهرب، وتقهقر دون توقف أمام القائد العربي من أجل أن يتعاظم عدد من حوله كل يوم بانضمام البربر إليه، وحتى يتصور عقبة أنه يهرب. انظر المالكي، ص139. وابن عذاري، ج1، ص29. والنويري، ص335.

(2) M. Talbi في La conversion des Berberes، ص14 ونفس المؤلف موسوعة الإسلام (انظر كسيله).

لاحظنا أن عقبة دفع هذه المرة ثمن ولعه بكل من الاندفاع إلى الأمام والحرب الخاطفة، فإذا كانت إرادته المستمرة بالمضي أبعد وأبعد، سواء في فزان أو كوار أو الجزائر أو المغرب، قد أحاطته بهالة من المجد فإن الإهمال الذي أظهره في تأمين خلفياته بسبب الثقة المفرطة، كان وراء وفاته. إنه يتحمل جزءاً من المسؤولية، وكذلك السلطة المركزية، في الأحداث الدامية التي عاشتها أفريقية والمغرب.

لم يكن يكفي في نظر السلطة المركزية، وفق ما يمكن استنتاجه من النصوص، أن يكون حاكم أفريقيا الشمالية مسلماً، بل لا بد من أن يكون هذا المسلم معيناً من قبل الخليفة حسب الأصول، وأن يكون عربياً أيضاً، وهو ما كان متبعاً في ذلك الوقت. لقد ارتكبت الخلافة خطأ فادحاً بعدم الرد بسرعة على استيلاء كسيلة على القيروان. فخلال خمس سنوات تقريباً، من سنة 65هـ إلى سنة 69هـ، كانت هناك مملكة شمال أفريقية عظيمة مستقلة عن الخلافة في الوقت الذي كان زهير في برقة ينتظر المدد. وكانت هذه أول مرة منذ وصول الغزاة العرب يعي فيها البربر قدرتهم على المقاومة ويتحدون ويحافظون على الوحدة. إن واقع وجود بعضهم في الجيش العربي لا يمكن إلا أن يقوي قناعتهم بأهميتهم وضعف العرب. سيتذكر البربر فيما بعد هذه المملكة التي كانت لهم. تُمكن هذه الواقعة وأحداث الكاهنة التي جاءت بعدها من فهم الأسباب التي دفعت البربر للانضمام للخوارج.

تتفق كل النصوص على الإشادة بورع زهير بن قيس، وقراره ترك أفريقية حتى لا تغريه ملذات الدنيا. ومن الصحيح أن زهير كان أول قائد عربي رغب عن المغانم، وتتفق كل النصوص على هذه النقطة كذلك. بعد التجاوزات التي ارتكبها سابقو زهير، أو لم ير البربر في مسلك هذا الأخير علامة ضعف؟ سؤال يمكن أن يطرح. بالإضافة إلى السؤال الآخر التالي: هل كان قرار زهير بترك أفريقية من وحي ورعه أم أملاه ضعف جيشه؟ كما أن من الممكن أن يكون الجنود العرب قرروا الانسحاب من هذه المناطق بعد أن تعبوا من المعارك

المستمرة وملُّوها واضطر زهير لمسايرتهم، وهو أمر ليس بالاستثنائي. كما يجب أن يكون حاضراً في أذهاننا أن ثلث قواته من البربر ومن المتوقع وجود خشية من تغيير ولائهم. يمكن تصور كم كان من الصعب على البربر التسليم بأن دافع زهير لترك أفريقية كان سموه الروحي.

فيما يتعلق مباشرة بالبربر الليبيين، لقد استولى عليهم الهلع بمدى تراجع زهير. ولا شك أن المساندة اللوجستية كانت ضعيفة والساحل الليبي غير آمن لدرجة قدر معها العرب أن من الأفضل الانسحاب لمسافة ألف وخمسمائة كيلومتر، بالرغم من أن الساحل لا تنقصه المدن ـ صبرا، طرابلس، سرت ـ التي يمكن لهم الاستقرار فيها وفي إمكانهم السيطرة على المنطقة من هذه المدن. لماذا هذا الانسحاب؟ من المقدر أن عوامل كثيرة لعب كل منها دوره: تعب القوات العربية، وغياب المدد الذي يُمكِّن من تعويض الخسائر، وتدني الوضع الأمني على الساحل. يوضح هذا بجلاء أن الفتوحات العربية لم تكن تهدف من إخضاع تونس إلا لتجعل منها أرض مغانم، ولم تكن تنظر إلى ليبيا إلا أرض عبور لا يمكن تفاديها. لم يكن لحملات عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد وعقبة بن نافع الخاطفة أي نتائج دائمة ومستقرة. فبعد عشرين سنة من تأسيس القيروان وأربعين سنة من احتلال طرابلس، ينسحب العرب إلى الحدود المصرية ويدرك البربر قوتهم ويحققون وحدتهم.

رد فعل البربر الثاني، وولاية حسان بن النعمان[1]:

اضطر زهير للانتظار خمس سنوات طوال بعد وفاة عقبة، ليتكرم الخليفة بتزويده بإمدادات ودعم. من غير المعروف ما إذا كان تمرد عبد الله بن الزبير

---

(1) ابن عبد الحكم، ص76 ـ 81. والبلاذري، ص231. وابن الرقيق، ص53 ـ 76. والبكري ص7، 22، 37/ 22، 52، 81. والمالكي، ص143 ـ 147. وابن الأثير، ج4، ص31 ـ 33. وابن عذاري، ج1، ص34 ـ 39. وعبيد الله، ص40 ـ 41. والنويري ص338 ـ 343. وابن خلدون، البربر، ج1، ص213 ـ 215، وتاريخ أفريقية، ص24 ـ 28.

منع من جديد الخليفة من التصرف مباشرة تجاه الخطر الشمال أفريقي، لأن تاريخ الحملة التالية التي قام بها حسان بن النعمان غير مؤكد[1] كما هو الحال لكل حروب أفريقية تقريباً. ومن المرجح أنها لم تحدث مباشرة بعد موت زهير بن قيس لأن البربر كان لديهم الوقت، بعد موت كسيلة، لإعادة تنظيم صفوفهم تحت سلطة قائد جديد.

قرر الخليفة عبد الملك بن مروان، بإلحاح من مستشاريه، أن يبعث جيشاً إلى أفريقيا الشمالية «لحماية أهل أفريقية ضد أعدائهم»[2] وأسند قيادته لحسان بن النعمان الغساني. يورد ابن عبد الحكم أن تاريخ تعيين حسان كان سنة 73هـ/ 3 ـ 692ف. إننا لا نعرف كم كان عدد قوات[3] حسان بدقة. وقد استولى حسان على قرطاجنة التي هرب من سكانها من استطاع الهرب إلى صقلية وحوّل الآخرين إلى عبيد، وأعطى حسان أوامره بتدمير المدينة ونهبها نهباً كاملاً. لاحق حسان الروم حتى عنابة وعندما عاد إلى تونس حوالى سنة 75هـ/ 5 ـ 694ف، شق فيها قناة بحرية وبنى فيها داراً للصناعة، وأحضر من

---

(1) البكري، يذكر زمنياً وصول حسان إلى أفريقية في محرم سنة 68هـ/ يوليه ـ أغسطس 687ف وهو مستحيل إذا قبلنا بأن انسحاب زهير حدث سنة 69هـ/ 9 ـ 688ف. وقد وصل إليها حسب المالكي، وعبيد الله، وابن خلدون سنة 69هـ وبقي فيها حتى سنة 84هـ/ 4 ـ 703ف وفق المالكي، وحتى 86هـ/ 705ف حسب عبيد الله. وقد أقام حسان في أفريقية من 73هـ/ 3 ـ 692ف حتى سنة 76هـ/ 9 ـ 695ف أو 78هـ/ 8 ـ 697ف حسب ابن عبد الحكم. ويفيد ابن الرقيق أن حسان لم يصل إلى أفريقيا الشمالية إلا في رمضان 74هـ/ يناير ـ فبراير 694ف، ووصل سنة 78هـ/ 8 ـ 691ف حسب ابن عذاري. ويورد النويري أنه وصل سنة 69هـ/ 9 ـ 688ف وفق ابن الرقيق (!) أو في 74هـ/ 4 ـ 693ف وفق ابن الأثير وهو فعلاً التاريخ الذي أورده هذا الأخير. فيما يتعلق بالمشاكل التي تطرحها هذه الصيغ والاختيارات العشوائية للمؤرخين الغربيين انظر A. Gateau طبعة ابن عبد الحكم، رقم 97، ص160. وM. Talbi الذي درس بشكل خاص هذه الفترة، واعتبر ـ موسوعة الإسلام (حسان بن النعمان) ـ أن التتابع الزمني المقترح من ابن عبد الحكم لهذه الحملة «يتسق مع التتابع المنطقي للوقائع ويؤدي لتحاشي التناقضات». وهذا ما نتبناه هنا. واستثنينا تاريخ وفاة زهير بن قيس. وابن عبد الحكم هو الوحيد الذي يقول بحدوثه بعد تعيين حسان وهو ما يتناقض مع تتابع الأحداث.

(2) المالكي، ص143.

(3) ستة آلاف رجل حسب المالكي، وأربعة آلاف رجل حسب عبيد الله، وابن عذاري، والنويري.

مصر ألفاً من الأقباط عملوا على بناء الأسطول العربي[1]. عاد حسان بعد ذلك إلى القيروان لعلاج الجرحى، ثم واجه قوات البربر بقيادة الكاهنة التي كانت تمثل المقاومة ضد العرب بعد هزيمة البيزنطيين. إننا لا نعرف شيئاً يذكر عن شخصية الكاهنة. كانت تقود قبيلة الجراوة وهي إحدى فروع زناتة أي من مجموعة البتر وهم من البربر الرحل. وكان الجراوة قد اعتنقوا اليهودية ثم تحولوا إلى المسيحية. من الممكن أن تكون الكاهنة من دم مختلط وأن يكون أباها بيزنطياً، وقد كان أحد أولادها من أب بربري، وكان والد الآخر بيزنطياً[2]. ويفسر هذا النفوذ الذي كانت تتمتع به على البيزنطيين والبربر على حد سواء.

زحف حسان على الأوراس ولحقت به أول هزيمة، ولاحقته الكاهنة، وهزمته مرة أخرى قرب قابس فانسحب نحو الشرق بعد أن أخطر الخليفة الذي أمره بإيقاف الانسحاب حيثما تصله الرسالة، وهكذا توقف حسان في مكان على بعد أربع مراحل شرق طرابلس، ستين كيلو متراً غرب سرت، وبنى فيه قصوراً بينما كان ينتظر المدد، وقد سمي المكان بقصور حسان[3]، وهو جزء من ولاية برقة وفق النويري. بقي حسان ثلاث سنوات تقريباً شرق طرابلس. وأخيراً أرسل له عبد الملك قوات ونقوداً، وعاود العرب زحفهم نحو الغرب سنة 78هـ/ 8 ـ 697ف. عندما علمت الكاهنة بزحف العرب نحو الغرب شرحت لشعبها أن العرب يريدون الاستيلاء على المدن والذهب والفضة والشجر، ويقال أنها أمرت بتخريب البلاد لإثباط همتهم[4]. غادر السكان البلاد ساخطين، وجاء ثلاثمائة من المسيحيين حسب المالكي، ومن البربر حسب ابن

---

(1) G.S. Colin و Cl Lahen، موسوعة الإسلام (دار الصناعة).

(2) حول الكاهنة، انظر Ch. A. Julien، ج2، ص20 ـ 23. وE.F. Gautier في Le passé، ص255 ـ 265. وH.T. Norris في Berbers، ص49 ـ 53. وM. Talbi موسوعة الإسلام (الكاهنة).

(3) لم يتبق منها حالياً إلا أنقاضاً. حول هذا المكان انظر الزاوي، معجم (انظر قصور حسان).

(4) ابن عبد الحكم لم يقل شيئاً عن أعمال التدمير هذه التي ذكرها المؤرخون اللاحقون.

خلدون يتوسلون مساعدة حسان ضد هذه الكارثة. وعندما رأت الكاهنة وصول القوات العربية ـ البربرية أوصت أسيراً عربياً كانت قد تبنته[1] بابنيها خيراً وهو خالد بن يزيد القيسي، وطلبت إليه أن يأخذهما عند العرب ويحصل لهما على الأمان[2]، وهو ما تم. كرم حسان ابني الكاهنة وأسند إلى أكبرهما قيادة وحدة البتر الذين انضموا إلى الجيش العربي. بدأ حسان بإخضاع قفصة، والجريد، ونفزاوة. لا يعرف على وجه التحديد[3] تاريخ المعركة التي واجه فيها حسان الكاهنة. لقد كانت معركة شرسة والخسائر فيها جسيمة عند الجانبين، وفي النهاية هُزم البربر وقُطع رأس الكاهنة. منح حسان الأمان للقبائل البربرية التي طلبته بشرط أن تزود المسلمين باثني عشر ألفاً من القوات المساعدة تجاهد إلى جانب العرب. وقد تحولت هذه القبائل إلى الإسلام وكذلك ولدا الكاهنة اللذين كان تحت إمرتهما ستة آلاف من فرسان البربر. وقد صاحبت هذه القوات العرب في مهمة فتح كل أفريقية، وقتال الروم وكفار البربر. هكذا، من هذا التاريخ أُشركت القوات البربرية في المغانم والأراضي المفتوحة وقد كانت قبلها مستبعدة عن الانتصارات وكثيراً ما عبرت عن عدم رضاها لهذا الاستبعاد.

عندما عاد حسان إلى القيروان شرع في بناء الجامع الكبير، وقام بتنظيم مكاتب إدارية. أدرك البيزنطيون أن البلاد بكاملها أصبحت خاضعة لحسان، ولم يعد في إمكانهم مواجهته فقرروا الاستسلام والخضوع، وهو ما قبله منهم مقابل خراج، ومع هذا فقد غادروا قرطاجنة، دون علم حسان، وركبوا البحر؛ بعضهم إلى صقيلة وآخرون إلى إسبانيا، ودخل العرب المدينة وأحرقوها[4].

---

(1) قابل خالد أريحية الكاهنة بالإساءة، فقد تراسل سراً مع حسان بن النعمان ليطلعه على تحرك القوات البربرية. انظر ابن عبد الحكم، ص76 ـ 79. والمالكي، ص144 ـ 145، الذي سمي هذا الشخص يزيد بن خالد.

(2) ابن عبد الحكم، ص78، 79. والمالكي، ص145. والنويري، ص341. «واقعة مأسوية لا تقبل التصديق، ومن المحتمل أنها حقيقة حسب M. Talbi موسوعة الإسلام (انظر الكاهنة).

(3) النصوص متناقضة. M. Talbi موسوعة الإسلام (انظر حسان بن النعمان) يقترح سنة 78هـ/ 8 ـ 697ف.

(4) المالكي، ص147.

وعندها ظهر أن الأمن استقر في البلاد وأصبحت أرضاً إسلامية.

قام عبد العزيز بن مروان، شقيق الخليفة عبد الملك، وحاكم مصر بعزل حسان بن النعمان الغساني من ولاية أفريقية وعين مكانه موسى بن نصير في صفر سنة 79هـ/ أبريل ـ مايو سنة 689[1]. وترك حسان أفريقيا الشمالية إلى الشرق وكانت معه غنائم ضخمة: أحجار كريمة، ولآلىء وذهب وعدد كبير من الأسرى[2]. ويفيدنا ابن عبد الحكم[3] أن عبد العزيز بن مروان أخذ من حسان خيوله ومائتي فتاة بربرية ذات جمال نادر عند مروره بمصر. وفي دمشق سر الخليفة أيما سرور برؤية المغانم بالقدر نفسه الذي سرته فيه الفتوح.

شكلت السنوات القليلة ـ من 3 ـ 692ف/ أبريل مايو 698ف ـ لحكم حسان بن النعمان مرحلة حاسمة في فتح أفريقيا الشمالية، وكانت نتائج الأحداث التي طبعت هذه السنوات مصيرية لوحدة البربر، وأوضحت لهؤلاء، بعد ذلك بقليل، الطريق الوحيد الممكن لاستعادة وحدتهم واستقلالهم تجاه الغزاة.

يجمع المؤلفون على أن البربر والروم كانوا ملتحمين أشد التحام، ولم يكن من سوء التقدير من جانب حسان أن يعمل على إبعاد الخطر الرومي أولاً. وبالرغم من مهاجمته وتدميره لقرطاجنة لم يقض حسان على المقاومة البربرية، فقد هُزم الجيش العربي مرتين من قبل القوات المحلية بالرغم من أعداده الكبيرة، بل وصل الأمر لحد طرده خارج أفريقية. لقد كان العدو هذه المرة أشد خطراً بكثير. لا نتوقف عند شخصية الكاهنة لأن النصوص لا تفيدنا بشيء

(1) M. Talbi موسوعة الإسلام (انظر حسان بن النعمان). وابن عبد الحكم، ص80 ـ 81، يقترح 76هـ/ 6 ـ 695ف أو 78هـ/ 8 ـ 697ف كتواريخ ممكنة لعزل حسان. 78هـ تاريخ مقترح من ابن الأثير، ج4، ص113.

(2) خمس وثلاثون ألفاً من البربر حولوا لأرقاء حسب المالكي، ص147، والنويري، ص342.

(3) حسب ابن عبد الحكم، ص80 ـ 81، استولى عبد العزيز على كل الأسرى الذين كانوا مع حسان.

ذي بال في هذا الخصوص. كانت ملكة كما يبدو، ونبية قادرة على قراءة المستقبل من خلال الصلوات. أو لم تكن ببساطة مجرد رئيسة قبيلة يعود نفوذها وسلطتها إلى مهارتها في العرافة والتنجيم؟ لقد عرفت الصحراء دوماً أشخاصاً خيفوا واحترموا بسبب هذا النوع من المهارات. كهؤلاء الأشخاص الذين يقومون بخط كتابات غامضة على الرمل من أجل أن لا يجد لص راحته فيعترف بفعلته السيئة[1]، وكهذه المشعوذة القادرة على سحر عقرب فتجعلها تلدغ شخصاً معيناً[2]. وعند الطوارق تنام النساء القادرات على الاتصال بالأرواح على القبور من أجل الحصول على أخبار الرجال الذاهبين في غارات[3]. إن هذه التصرفات هي نوع من الخرافات البربرية ـ الصحراوية التي استمرت حتى بعد الإسلام.

لا شك أن هزيمتي العرب كانتا تعودان لنوعية القوات البربرية أكثر من عودتها لشخصية القائد البربري. فمع كسيلة وقبيلة الأوربة واجه العرب حضراً مستقرين، ومع الجراوة بقيادة الكاهنة كان على العرب مواجهة البتر. حتى وإن لم نستطع بالضرورة أن نرى في الجراوة ـ كما ذهب إليه E.F. Gautier ـ بدواً حقيقيين من رعاة الإبل[4] لأن المراجع لا تمكننا من تأكيده. من الواضح أن العرب في مواجهة هؤلاء الرحل الرعاة اصطدموا بقدرة على الحركة فاجأتهم واضطرتهم للتراجع، وبشجاعة كبيرة أيضاً أشاد بها المؤلفون العرب وكالوا لها المديح.

خلال السنوات القليلة التي قضاها حسان شرق طرابلس في انتظار المدد، كان لدى الكاهنة الوقت لتجنيد قوات جديدة وإدارة البلاد. ولم تقم بأي

---

(1) البكري، ص10/27.

(2) المقريزي ـ كتاب، ج1، ص189.

(3) H. Duveyrier في Journal de Route، ص203، وفي Les Touareg du Nord، ص415، كان هذا التطير مؤكداً عند النسامون، انظر هيرودوت، ج4، 172 (ص183).

(4) E.F. Gautier في Le Passé، ص256.

أعمال اضطهاد ديني ضد المسلمين الذين بقوا في القيروان أو ضد من اعتنق الإسلام من السكان المحليين، ولكنها لسوء الحظ بالنسبة لوحدة البربر، كثيراً ما أظهرت نفسها كطاغية وذهبت إلى حد التصرف بطريقة شنيعة تجاه سكان أفريقية[1]. كما ارتكبت خطأً آخر كان بالنسبة لها قاضياً. ففي الوقت الذي بيَّن فيه تراجع العرب إلى طرابلس للبربر أن عدوهم قابل للهزيمة، وأنهم يمثلون قوة حقيقية، شرعت الكاهنة في ردع الغزاة عن مهاجمتها أيضاً. فمن أجل حرمان العرب من كل ما يمكن أن يحرك مطامعهم، أو يثير رغبتهم في السلب والنهب ـ كما فعل من سبقوهم ـ قامت بتدمير بلادها. يبدو من المبالغة اعتبار ما قامت به سياسة الأرض المحروقة وأن البلاد دمرت بالكامل، فمن الصعب تصور السكان يخربون أراضيهم خاصة في منطقة هشة. وينطبق هذا على البدو الرحل كما ينطبق على الحضر المستقرين: يجب ألا ننسى أن الاقتصادين متكاملان وأن البدوي في حاجة للحضري لتأمين بقائه، ومن ثم فقيام البدوي بتدمير موارد المستقر في منطقة حله وترحاله تساوي انتحاراً متعمداً. إن تخريب القرى، وقطع الأشجار لا يأتيه إلا لصوص رحل تقع الأراضي التي تؤمن معيشتهم بعيداً عن المنطقة المعنية. إن المصادر لا تتفق تماماً حول ما قالته الكاهنة ـ أو ما نسب إليها قوله ـ بهذا الخصوص. فحسب عبيد الله، أمرت الكاهنة أنصارها بقطع الأشجار وهدم المدن من أجل إثباط همة العرب. وشرحت قائلة: «إن العرب يريدون المدن، ولكننا لا نبحث إلا عن المراعي»[2]. بينما يقول ابن عذاري، والنويري أنها قالت: «. . . ولكننا نحن،

---

(1) ابن الأثير، ج4، ص33، هناك تناقض واضح. من المعتقد أن ما أثار غضب الكاهنة لم يكن اعتناق الإسلام، ولكنه التعاون النشط مع الغزاة العرب من قبل بعض المجموعات البربرية. حسبما أورده ابن عبد الحكم، ص76 ـ 77، والمالكي، ص144، والنويري، ص340، عومل الأسرى المسلمون معاملة حسنة. وباستثناء هذا الذي تبنته، أعيد الآخرون إلى أهلهم. هؤلاء الأسرى لم يكونوا كثيرين. ثمانية أو ثمانون حسب المالكي، وعديدون حسب النويري.

(2) رواية جديدة، ص40.

لا نرغب إلا في تملك الحقول للزراعة والرعي»[1]. وإذا كانت الصيغة الأخيرة هي الصحيحة ـ إذ من الصعب تصور استغناء البدو عن الزراعة ـ فإننا أمام واحد من أمرين: إما أن الجراوة البدو كانوا يدركون حاجتهم للمنتجات الزراعية، وفي هذه الحالة لا يمكننا تصور قيامهم بتدمير أحد مصادر بقائهم، أو أن الجراوة من بينهم حضر (نعرف أنه لا يجب فهم المعادلة بتر = رحل، برانيس = مستقرين بشكل مطلق)[2] وليس من المقبول التفكير في أنهم يخربون ما لهم بأنفسهم. إن الطريقة التي تحدث بها ابن خلدون، «هذه المنطقة الواسعة كانت من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة لم تعد إلا خرائب»[3] تشبه إلى حد كبير المقارنة التي عقدها بعد ذلك بين بنى هلال وأرتال جراد تدمر كل ما في طريقها. من المعروف أن الآراء التي عبر عنها ابن خلدون في المقدمة بخصوص البدو ليست كلها متسقة لأن الكثير من الملاحظات كانت مغالية في الإشادة بهم[4]. بالرغم من ذلك فإن E.F. Gautier لم يحتفظ من ملاحظات ابن خلدون إلا بالانتقادات التي كتبها لغير صالحهم[5]. إن من غير المؤكد أن تكون أعمال التخريب التي قامت بها الكاهنة وصلت إلى المدى

---

(1) ابن الأثير، ج1، ص36. والنويري، ص341.

(2) G.S. Colin ـ موسوعة الإسلام (بتر وبرانيس).

(3) البربر، ج1، ص214. والنويري، ص341.

(4) سنعالج هذه الملاحظات عندما نتناول وصول بني هلال إلى شمال أفريقيا. يمكننا أن نورد مسبقاً بعض الآراء: البدو أكثر صحة، وهم أحسن لأنهم أقرب لحياة الفطرة وهم شجعان، وهم ضروريون لأنهم يحترفون الرعي (F. Rosenthal، ج1، ص177 ـ 178، 249، 252 ـ 255، 257 ـ 258).

(5) E.F. Gautier يفرق بوضوح بين نمط الحياة ومواطن البرانيس (جبليون ومستقرون) ونمط الحياة ومواطن البتر (رحل في السهول) في (Le Passè de l'Aftrique de Nord). بالرغم من ذلك، ولأعطاء مثلين فقط، نفوسة ولواتة وهما مصنفان في البتر، كانت إحداهما تعيش في جبل نفوسة حيث شيدوا مساكن تحت الأرض، وتعيش الأخرى في قرى برقة وواحات مصر. ويبدو هذا التمييز المطلق بين مجموعتين كبيرتين من البربر عشوائياً إذا أخذنا في الاعتبار أن ظاهرة الاستقرار والعودة إلى حياة البدو وجدت في كل الأزمان. يبدو أن التميز بين هاتين المجموعتين من البربر من صنع العرب ومن ولعهم بعلم الأنساب لأن المؤلفين الكلاسيكيين القدامى يجهلون هذا التمييز وتسميات بتر وبرانيس بالرغم من أنهم ذكروا عدداً من قبائل البربر.

الذي تحدث عنه بعض المؤلفين، وأن عدم ذكر مؤرخي الفتح الأوائل لهذه الأعمال يقوي هذا الاعتقاد[1]. بالرغم من ذلك، فلا شك في وقوع عمليات هدفها عرقلة الغزاة كما يحدث دائماً في هذه المناطق: ردم الآبار، وقطع الأشجار لسد الطرق الجبلية. ويمكن أن يضاف إليها أعمال انتقام ضد القرى التي كانت متحالفة مع العرب باعتناقها الإسلام. مهما كانت هذه التصرفات فقد كانت كافية لإغضاب مجموعات من البربر ودفعها للانضمام إلى حسان؛ بعضها طلباً للحماية وأخرى للقتال معه. هكذا اهتزت وحدة البربر كثيراً، وكانت قد تأثرت بعض الشيء في السابق بسبب انخراط بعض منهم في جيش الغزاة منذ عهد عقبة. هذا ما مكن حسان من هزيمة الكاهنة. . وبعد ذلك باثني عشر قرناً مكّن E.F.Gautier من أن يرى في هذه الأحداث «الصراع الدائم بين البدو والحضر. . وهي الأساس الخالد لازدواجية الروح في المغرب»[2].

بعد الإشادة بشجاعة البربر الذين كانوا يأبون الهرب، تقدم لنا المراجع هذه الصورة للكاهنة باعثة بولديها عند العرب قبل المعركة، وهي صورة أقل ما يقال فيها أنها تثير الاستغراب. وسيتولى كل واحد منهما قيادة سرية يتابعون بها الصراع ضد البربر الرافضين. تصدمنا هذه الطريقة في التصرف، دون شك. من وجهة نظر الكاهنة، لا بد من بقاء ولديها على قيد الحياة ليحميان القبيلة فيما بعد، وليحافظا ولو قليلاً، على سلطتها. وإذا كان تصرف الكاهنة لم يدهش العرب، وهو الاحتمال الغالب، فلأن مفهومهم للقبيلة قريب وهو ما مكنهم من استيعاب هذا التصرف، وهو ليس محصوراً في الروح البدوية، فقد أورد E.F. Gautier حالة مماثلة، في القرن العشرين، عند سكان الجبال المغاربة في حربهم ضد الفرنسيين[3].

(1) A. Gateau في ابن عبد الحكم يرفض بشكل قاطع فكرة أن يقوم أهل بلاد بتدميرها.

(2) المرجع المذكور، ص261.

(3) E.F. Gautier يحسم بشكل قاطع «ما قامت به الكاهنة هو بكل وضوح رد فعل طبيعي لعقل سياسي لم يتجاوز مرحلة القبيلة».

ليس من المستغرب أن إعطاء الأمان لولدي الكاهنة، وهو تصرف سياسي ذكي، كان وراء الاستسلام الجماعي للبربر الذي حدث بعد وفاة «ملكة» الجراوة. كما أدى الأمان الذي منح بعد ذلك للمهزومين إلى تحولهم للإسلام «والذي أكد صدقه سلوكهم لاحقاً»[1]، فقد بدأ البربر أنفسهم في بناء المساجد[2].

لم يكن خضوع البربر واعتناقهم الإسلام النجاح الوحيد لحسان بن النعمان، فقد كان لإشراك القوات المساعدة المحلية المتحولة للإسلام في اقتسام الغنائم والأراضي أثر بالغ. من المؤسف أن مثله لم يتبع. وبالفعل اشتكى ميسرة قائد التمرد البربري في المغرب سنة 740ف من أن القادة يبعثون دائماً بالبربر في خطوط القتال الأولى، ويستبعدونهم من اقتسام الغنائم[3]. لقد وضّح حسان، بعد أبي المهاجر، الطريق الذي كان يمكن أن يحافظ على الوحدة الدينية لأفريقيا الشمالية.

لقد ضمن حفر قناة بحرية، وبناء دار صناعة وأسطول بحري في تونس للعرب تفوقاً بحرياً على طول السواحل الأفريقية[4]. كما تم تزويد أفريقية للمرة الأولى بنظام إداري حقيقي مع مكاتب خاصة لتحصيل الخراج[5]. وأُخضع الأجانب الذين بقوا في أفريقية، والبربر المسيحيون لنظام الجزية[6]. تمثل حملة حسان بن النعمان أوج الغزو العربي لشمال أفريقية، وهكذا استطاع خليفته موسى بن نصير أن يعبر المغرب بكامله نحو إسبانيا دون خوف ودون أن يقابل عقبات حقيقية.

كان لهذه الأحداث صداها في ليبيا، مباشرة أو بعد ذلك ببضع سنوات.

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص214.

(2) عبيد الله، ص41.

(3) M. Talbi في La Conversion، ص48 ـ 49، حسب الطبري.

(4) فيما يتعلق بالعمليات البحرية في المتوسط في هذا العصر، انظر E. Eickhoff، و Seekreig، ص24 ـ 28.

(5) ابن عبد الحكم، ص80 ـ 81.

(6) عبيد الله، ص41. وابن خلدون، البربر، ج1، ص215.

فقد رأينا أن حسان تراجع بعد هزيمته الثانية إلى الغرب على بعد أربعة أيام فقط من طرابلس، وبنى قصوره/ قصور حسان، التي أقام فيها طوال ثلاث سنوات على الأقل. هكذا لم يعد ضرورياً اتخاذ برقة مكاناً للتراجع أو قاعدة للهجوم كما كان الحال في السابق. لقد أصبحت صحراء سرت خالصة للمسلمين، وكان يجوبها المبعوثون وقوات المساندة اللوجستية. كما لم يعد الساحل يمثل أي مخاطر فقد كان تحت سيطرة أسطول تونس وأسطول الاسكندرية(1).

لم يرد، في هذا الوقت، أي ذكر لداخل الصحراء. لم تعد قبائل الداخل تثير مصاعب للمسلمين، ومن المقدر أن تحولها للإسلام كان يتقدم باضطراد. هل يتعلق الأمر بتحول إرادي للإسلام، أو انضمام للإسلام مبعثه مبالغ الجزية المفروضة؟ كما نلاحظ أن المراجع لا تفيدنا عما إذا كانت بنود الاتفاقية التي فرضها عمرو لا زالت نافذة ومطبقة.

كانت هذه المرة الأولى التي يتحدد فيها الوضع في ليبيا الإسلامية بالوقائع التي تدور في غربها. لقد جرى في نفس الوقت تقريباً، بناء الأسطول في قرطاجنة والتراجع الاضطراري لحسان بعد هزيمة قابس التي حققت السلام في شمال ليبيا، وأدت إلى إقامة العرب لمدة طويلة فيه. بدون هذا كان العرب يزحفون دون توقف نحو الغرب طمعاً في الغنائم العجيبة من الأرض الموعودة محفزين بالجهاد. وستعرف ليبيا آثاراً أخرى للوضع في الغرب الذي قد يكون

---

(1) الوحدة المتوسطية لم تعد قائمة. من الآن فصاعداً لم تعد بيزنطة قادرة على حماية الحركة البحرية في كل المتوسط، ولم تعد تسيطر إلا على جزئه الشرقي. بقي بحر أيجه بيزنطياً، ولكن البحر التيريني مسلم. يلاحظ H. Pirenne في Mahomet et Charlemagne اختفاء عديد من المنتجات الشرقية من الغرب في هذا العصر مثل البهارات وورق البردى ولم تعد التجارة من جديد مع الشرق إلا بفضل عبقرية اليهود والبندقيين (ص153، وص158). لم يكن العرب يتنقلون إلا نحو المشرق وبحر البلطيق ولكنهم سمحوا للمسيحيين بمزاولة التجارة في الموانىء الإسلامية، (ص162). ويعتقد S.D.Goitein أن التجارة بين الساحل الجنوبي للمتوسط وأوروبا لم تعد في أيدي اليهود منذ القرن الحادي عشر، ولكن في أيدي المسيحيين فقط، انظر Letters of Medieval Jewish Traders، ص8.

من صنع الشرق ويعبر من فوقها دون أن يؤثر فيها قبل أن يعود إليها في شكل صدمة راجعة. هذا ما حدث لحركات الخوارج ثم لغزو بني هلال، وكذلك لأعمال التخريب التي قام بها بنو غانية المايورقيون، وقراقوش.

رأينا كيف تصرف والي مصر عبد العزيز بن مروان تجاه حسان عندما مر بمصر، والطريقة التي استولى بها على الغنيمة الأفريقية مؤكداً حقوقه على هذا البلد (أفريقية)، بل إن عبد العزيز، ودون استشارة الخليفة، قام بعزل حسان وتعيين موسى بن نصير مكانه[1]. لم يكن البربر يجهلون الأهمية المتدنية التي توليها لهم السلطة المشرقية التي تعتبر منطقتهم الشاسعة جزءاً من ولاية. لم يكن يهمهم كثيراً أن ساعد على قيام هذا الوضع، أو أنشأته رغبة عبد الملك نفسه في مجاملة شقيقه عبد العزيز لأن هذا الأخير كان يتطلع للاستيلاء على السلطة منه، ومن ثم كان الحذر يملي على عبد الملك أن لا يصطدم بشقيقه، وكانت الضغينة تدفع عبد العزيز إلى التصرف كملك لمصر وأفريقية[2]. بالرغم من محاولات موسى إظهار استقلاله الكلي عن حاكم مصر ـ كان حينها عبد الله بن عبد الملك ـ والتعامل مباشرة مع الخليفة الوليد (705ف ـ 715ف) إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان، فقد كرس وضع تبعية المغرب العربي

---

(1) البلاذري، ص232، وابن عبد الحكم، ص84 ـ 85 وابن عذاري، ج1، ص39، الذي يؤكد أن حاكم مصر أخذ هذا القرار دون أمر من الخليفة ودون استطلاع رأيه. ابن الرقيق، ص68، والنويري، ص343، يقولان: إن الوليد بن عبد الملك وخليفته كتب إلى عمه عبد العزيز طالباً إليه تعيين موسى على أفريقية: وهذا مستحيل بكل وضوح لأن الوليد أصبح خليفة سنة 866هـ/ 705ف، وهي سنة وفاة والده، بينما توفى عبد العزيز في السنة السابقة. يشير ابن الأثير، ج4، ص112 ـ 113، إلى روايتين: عُين موسى سنة 78هـ/ 697ف من قبل عبد العزيز أو سنة 89هـ/ 8 ـ 707ف من قبل الوليد، والثانية هي التي أخذ بها عبيد الله. من الصعب القبول بهذا التاريخ سنة 89هـ لأن حسان توفى سنة 80هـ/ 100 ـ 699ف: هذا يعني بقاء أفريقية دون حاكم لمدة عشر سنوات تقريباً. M. Talbi موسوعة الإسلام (انظر حسان بن النعمان) أقترح ـ كما رأينا ـ صفر 79هـ/ أبريل ـ مايو 698ف تاريخاً لعزل حسان وتعيين موسى. يعتبر ابن عبد الحكم حدوث وفاة حسان وزحف موسى نحو المغرب في نفس الوقت تقريباً، ص86 ـ 87.

(2) بخصوص التنافس عبد الملك ـ عبد العزيز انظر H. Djait في La Wilaya d' Afriqiya، ص82 ـ 85.

المرارة لدى البربر الليبيين وغيرهم من البربر. كان الساخطون أمام اختيار بسيط: الانضمام إلى العرب أو مواجهتم. كانوا مدركين للتفوق العسكري العربي وواعين في الوقت نفسه لقوتهم النسبية بعد انتصار كسيلة على عقبة والانتصارات الأولى للكاهنة، والنجاح السياسي المتمثل في انضمام ابنيها للجيش العربي مصحوبين بقوات بربرية، فاختاروا المواجهة. لم تأخذ هذه المواجهة شكل مقاومة عسكرية. لقد تأثروا بالإسلام، فاستعملوا أمضى أسلحة الغزاة، اختاروا الرفض في الدين. ففي ممالك الخوارج التي ظهرت في كل مكان في شمال أفريقيا من فزان وطرابلس الغرب حتى سجلماسة حافظ البربر على استقلالهم. ويجب الانتظار حتى القرن الثاني عشر لنرى الخوارج ينحصرون في المناطق التي ما زالوا فيها حتى اليوم.

ولاية موسى بن نصير. نهاية الفتح(1)

لا تعني هذه الفترة ليبيا مباشرة، لقد شهدت خضوع البلاد بكاملها كما شهدت تقدماً كبيراً في انتشار الإسلام.

عندما ترك موسى مصر مصحوباً بأبنائه وأبناء عقبة بن نافع الأربعة لم يقابل أي صعوبة في برقة وطرابلس. ولم يرد في المراجع ذكر لأي واقعة. وعندما وصل موسى إلى أفريقية علم بأن البربر في حالة اضطراب شديد على الحدود. هل يتعلق الأمر بالحدود الجنوبية، ومنطقة توزر التي أعاد حسان الاستيلاء عليها من البربر أم بالحدود الغربية؟ لا تقدم لنا المراجع أي بيانات بالخصوص، وابن عذاري هو الوحيد الذي يذكر موضعاً: أرسل موسى خمسمائة فارس ضد بربر زغوان (على بعد خمسين كيلومتراً جنوب مدينة

(1) ابن عبد الحكم، ص86 ـ 111. والبلاذري، ص232 ـ 236. وعبيد الله، ص42. وابن الرقيق، ص68 ـ 91. والبكري، ص47، 50، 117 ـ 118، 145/90، 108، 230 ـ 231، 278. وابن الأثير، ج4، ص112 ـ 113. وابن عذاري، ج1 ص39 ـ 46 والنويري، وابن خلدون، البربر، ج1، ص215، تاريخ أفريقية ص28 ـ 30.

تونس)، وقد أخذوا عشرة آلاف أسير[1]. وأرسل موسى ابنه الأكبر عبد الله ـ أصبح لاحقاً والياً لأفريقيا ـ ضد المجموعات البربرية الأخرى، وقد تحداهم وأحضر مائة ألف أسير. كما أرسل ابنه مروان إلى جهة أخرى؟ وفعل ما فعل أخوه[2]. بالرغم من المبالغة الكبيرة في هذه الأرقام، إلا أنها تشد انتباهنا إلى بقاء شمال أفريقيا مستودعاً للرقيق. وهو ما كان يقوي مشاعر الحقد عند البربر، حتى ولو أن أعداداً من الرجال ممن هم في عمر يسمح لهم بحمل السلاح كانوا مجندين في الجيش العربي. كما أرسل موسى أبناء عقبة للانتقام لمقتل والدهم: فقتلوا ستمائة رجل، وأُسرت بنات كسيلة. هاجم بعد ذلك قبائل كتامة، وزناتة، وهوارة، ومن المحتمل أن هذه القبائل كانت متحالفة لأن لها رئيساً يسمى تامون أرسله موسى إلى عبد الملك الذي قام بإعدامه[3]. كما أخضع العرب قبائل صنهاجة في منطقة القبائل ثم زحفوا نحو الغرب والسوس الأقصى حيث هاجموا بنجاح قبائل مصمودة وهم جبليون من الأطلسي الكبير في المغرب.

كان العرب يستولون في كل مكان على مغانم كبيرة خاصة من الأحجار الثمينة. كان البربر يهربون عند اقتراب قوات المسلمين، ولم تجرؤ أي قبيلة على مقاومتهم وانتهى الأمر بخضوع البربر جميعاً. أسند موسى قيادة منطقة طنجة إلى عتيقه طارق بن زياد[4]، الذي يقال أنه استقر فيها مع اثني عشر ألفاً

---

(1) بيان، ج1، ص40.

(2) النويري يضيف أن موسى نفسه أخذ مائة ألف أسير. إسناد عند (ابن الأثير، ابن عذاري، والنويري) ويعود به النويري حتى الليث بن سعد يؤكد أن «في هذا اليوم بلغ الخمس الشرعي ستين ألف أسير وهو أمر غير مسبوق منذ ظهور الإسلام». ابن عذاري، ج1، ص40، يشرح أن الخليفة عبد الملك أرسل مبعوثاً لتحصيل الخمس، وأعطاه موسى ستين ألف رأس ثم أضاف ألفاً. شيء غريب بالفعل. من غير المفيد الحديث عن الاستحالة التي يواجهها العرب في إدارة ثلاثمائة ألف أسير وإرسال ستين ألفاً منهم إلى الشرق.

(3) ابن عذاري، ج1، ص41.

(4) طارق بن زياد كان بربرياً نفزاوياً، أصيل جنوب تونس، انظر ابن عذاري، ج1، ص43.

من البربر وعدد قليل من العرب[1] مسؤولين عن تعليم القرآن للمهتدين الجدد. بعد غارة أولى بقيادة بربري يسمى طريف، عبر طارق إلى إسبانيا على رأس سبعة آلاف رجل في رجب أو شعبان 92هـ/ أبريل ـ مايو 711ف، ثم لحق به موسى في شهر رمضان 93هـ/ 712ف على رأس ثمانية عشر ألف رجل[2].

إن الوقائع المضحكة ـ المبكية لبدايات فتح الأندلس تستحق أن تقص لأنها تلقى ضوءاً على تكوين قوات المسلمين. كانت قوات طارق مكونة من بربر مصمودة[3]، حسبما يقول عبيد الله (من القرن الثالث عشر). ويسمح أحد المقاطع التي أوردها ابن عبد الحكم (القرن التاسع) مع ما جاء عند إسحاق بن الحسين (القرن العاشر) بخصوص الموضوع ببعض التوضيح. يقول ابن عبد الحكم إن المسلمين أسروا عند هبوطهم بعض زراع الكروم وذبحوا أحدهم وقطعوه وطهوه، وفي نفس الوقت قاموا بطهي لحم في قدور أخرى. عندما استوى اللحم قاموا برمي اللحم البشري دون أن يحس زراع الكروم وأكلوا اللحم الذي أعدوه. اقتنع مزارعو الكروم أن المسلمين أكلوا لحم رفيقهم وذهبوا يقصون على سكان الأندلس أن الغزاة من آكلي لحوم البشر. ويقدم إسحاق بن الحسين خبراً تكميلياً: «تقدم السود للقتال، وأصيب القوط بالهلع عندما رأوا أشكالهم المرعبة. أخذ السود أسرى من القوط وذبحوهم وتظاهروا بأكلهم وهو ما زاد من الخوف والهلع»[4].

---

(1) سبعة عشر حسب عبيد الله، ص42. وسبعة وعشرون حسب ابن خلدون، البربر، ج1، ص215.

(2) ترك موسى بن نصير إسبانيا وأفريقية سنة 95 ـ 96هـ/ 713 ـ 715ف. أسند ثلاثة ولايات لأبنائه: حصل عبد العزيز على ولاية الأندلس، وعبد الملك منطقة طنجة/ سبته، وعبد الله أفريقية. عندما وصل موسى إلى دمشق غضب عليه الخليفة (الوليد 705ف ـ 715ف أو خليفته سليمان بن عبد الملك (715ف ـ 717ف) حسب المصادر، انظر ابن عبد الحكم، ص106. وابن الأثير، ج4، ص128. والنويري، ص352 ـ 353، ويقال أنه اضطر للتوجه إلى عرب الصحراء لتأمين بقائه على قيد الحياة (النويري، نفس المرجع). ربما أعيدت إليه ممتلكاته (ابن عبد الحكم، ص110 ـ 111). توفي موسى في الطريق إلى مكة سنة 97هـ/ 6 ـ 715ف (ابن الأثير، ج4، ص146).

(3) وصف لفتح شمال أفريقية، ص42.

(4) ابن عبد الحكم، ص92 ـ 93. وإسحاق بن الحسين في Recueil. J.M. Cuoq ص64. وكذلك في Levtzion and Hopkins ,Corpus، وانظر كذلك H.T. Norris، ص14.

إنها المرة الوحيدة ـ حسب علمنا ـ التي ذكر فيها اشتراك السود في هذه الفتوح الأولى. إذا سلمنا بصحة ما قاله إسحاق بن الحسين فإن كلمة السودان لا يمكن أن تعني هنا ـ بكل وضوح ـ إلا نوبيين من الثلاثمائة، أو الثلاثمائة وستين عبداً الذين يكوّنون الضريبة السنوية التي فرضها حاكم مصر على أهل النوبة، ومن الممكن كذلك أن يكونوا من السود الذين كان يبعث بهم أهل فزان ضريبة سنوية إذا كان الاتفاق الذي أبرم مع عقبة ما زال ـ في هذا الوقت ـ نافذاً ومطبقاً، وذلك لأن السود من بلاد السودان الغربي لم يظهروا على مسرح العمليات في إسبانيا إلا بعد قرن من بداية غزو المسلمين لإسبانيا. يكتسي ما ذكره إسحاق بن الحسين أهمية فائقة فيما يتعلق باستعمال العرب للعبيد السود في هذا الزمان.

يؤكد ابن خلدون أن السكان البربر في المنطقة من طرابلس إلى طنجة ارتدوا اثني عشرمرة ولم يحسن إسلامهم إلا بعد فتح المغرب وعبور طارق وموسى بن نصير إلى إسبانيا[1]. تجذر الإسلام في شمال أفريقيا ولكنه لم يعم، فقد تحول البربر جميعهم إلى الإسلام[2] ـ كما يقول ابن خلدون وقبله ابن الأثير ـ عندما كان إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والياً لأفريقية في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان، أي أن الإسلام انتشر في شمال أفريقية[3] سنة 100هـ/ 9 ـ 718ف تقريباً. لقد استغرق استيلاء العرب على أفريقية الشمالية ثماني وستين سنة (643ف فتح برقة ـ 771ف النزول في إسبانيا)، ثم بضع سنوات أخرى مع سياسة عادلة لخليفة ورع، نرى الأغلبية من السكان (؟) وقد تحولوا أخيراً إلى الإسلام.

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص215.

(2) ابن خلدون (البربر)، وابن الأثير، ج4، ص144 والنويري، ص356.

(3) حكم عمر بن عبد العزيز من 99هـ إلى 101هـ وكان إسماعيل والياً من 100 إلى 102هـ.

رد فعل الخوارج

في المشرق، في نهاية القرن السابع:

لم يتوقف الخوارج عن التحريض بالرغم من كارثة معركة نهروان (17 يوليه 658ف). وقد تم إخماد حركات التمرد التي انفجرت في البصرة والكوفة بقسوة ودموية، ولكن القمع يؤدي ـ لا محالة ـ إلى تحويل الضحايا لشهداء، وتوجيه الأنصار نحو حرب العصابات نظراً للتفوق العددي الهائل للقوات المعادية. وحد وجود الخوارج في بعض المناطق من فاعلية تمرد عبد الله بن الزبير بسبب اضطرار حفيد أبي بكر للعمل على إخضاعهم، وكان قد استولى على الحجاز ومكة وانضم إليه كثيرون في العراق وسوريا ومصر. كما لم يُسهل وجود الخوارج مهام بني أمية الذين كان عليهم أن يحاربوا على جبهتين. نجح الخليفة مروان بن الحكم في درء الخطر في سوريا، ثم في مصر حيث عين ابنه عبد العزيز والياً، واستولى خليفته وابنه، عبد الملك بن مروان (685ف ـ 705ف) على الكوفة سنة 691ف، ودخل قائده الحجاج مكة منتصراً سنة 693ف بعد حصار استمر ستة أشهر. مع ذلك برهن الخوارج على أنهم أشد خطراً من عبد الله بن الزبير. فبالرغم من الانقسامات التي ظهرت بين صفوفهم فإن معتقداتهم الداعية إلى المساواة ـ خاصة فيما يتعلق بقسمة الدخل بين كل المؤمنين أياً كانوا ـ أكسبتهم مناصرة عامة الناس وانضمامهم إليهم. تحول

الخوارج إلى العراق وفارس حيث نشروا الرعب وقد تطلب القضاء عليهم سنة 9 ـ 698ف تدخل الحجاج الذي عُين حاكماً على العراق سنة 694ف. وقد حاربهم الحجاج وانتصر عليهم ـ كذلك ـ في حضرموت واليمن. بالرغم من عمليات القمع المتتالية استطاع الخوارج الأباضيون البقاء في عمان وحضرموت واليمن، وفي أوائل القرن العاشر الميلادي كانت كل من عمان وحضرموت إمامة[1]. ولما هزم الخوارج في الجزء الشرقي من الامبراطورية، وكانوا مطاردين في جنوب جزيرة العرب بدأوا نشر عقيدتهم في أفريقيا الشمالية التي كانت تمثل أرضاً أكثر ملاءمة للتبشير بدعوتهم. وقد لعب العرب من جنوب الجزيرة ومن اتبعهم من البربر دوراً حاسماً في هذا المجال. هكذا كان عبد الله بن مسعود التجيبي أول رئيس أباضي لطرابلس، وهو من قبيلة تجيب التي هي فخذ من فخوذ كندة كان موطنها وسط حضرموت، وقد ضرب عنقه سنة 745ف بأمر من عبد الرحمن بن حبيب حاكم أفريقية في ذلك الوقت. كما أن خليفته؛ عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي، اللذين استطاعا الاستيلاء على كامل طرابلس الغرب، كان أحدهما من قبيلة مراد وموطنها جنوب غرب مأرب في اليمن والآخر من حضرموت. وكان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليماني المتوفى سنة 761ف، الذي أقام مملكة لم تعمر طويلاً في منطقة سرت، ينتمي لواحدة من أقوى قبائل اليمن، المعافر وكانت تقطن في جنوب غرب البلاد[2]. وفي شمال أفريقيا كما في المشرق نال الضعف من الخوارج بسبب انقساماتهم وتعصبهم لطوائفهم.

---

(1) Les Ibadites dans L'Arabie du Sud, T. Lewicki، ص11.

(2) و.ر. كحالة ـ المعجم. وT. Lewicki، المرجع المذكور، ص15 ـ 16، ونفس المؤلف، Repartition Geographique، ص318، 322 ـ 323. حول هذه الفترة من تاريخ الخوارج انظر T. Lewicki، ونفسه في موسوعة الإسلام (انظر أباضية) وG. Levi della vila ـ موسوعة الإسلام (انظر الخوارج). وN. Elisseeff في L'Orien Musulman، ص112 ـ 113. و H. Laoust في Les Schismes، ص19، 36 ـ 42. وPH. K. Hitti في History، ص 207 ـ 208. وA. Pel في La Religion Musulmane، ص140 ـ 150.

طوائف الخوارج:

لم يكن للخوارج في أي وقت من الأوقات عقيدة موحدة. وقد بلغ عدد طوائفهم المستقلة عشرين طائفة على الأقل حسبما ذهب إليه G. Levi della Vida [1]. وبالرغم من ذلك فإن برامجهم تلتقي في بعض النقاط المشتركة. وتتعلق أكثر نقاط الالتقاء أهمية بإدارة الأمة: كل مؤمن لا مأخذ عليه من المؤمنين يمكن أن يُختار بطريقة ديمقراطية للرئاسة العليا، أي الإمامة، بغض النظر عن عرقه وأياً كان ظرفه الاجتماعي حتى ولو كان عبداً أسود. ويبرر أي انحراف في السلوك استبعاد المرشح من الاختيار، كما يبرر عزله إذا حدث الانحراف بعد البيعة، ويُكفر الخوارج باستثناء الأباضية أي مسلم لا ينضم إلى عقائدهم ويحرمون الزواج منه. وقد ذهبوا بالتشدد الديني لحد تكفير كل مؤمن أو مسلم ارتكب ذنوباً كبيرة. وكان الأزارقة، وهم أكثر الخوارج تعصباً، يطبقون الحدود دون اعتبار للسن أو الجنس، وذهب بعضهم لحد إنكار توبة مرتكب الذنوب الكبيرة والإصرار على إعدامه، وكذلك إعدام زوجته أو زوجاته وأطفاله حتى ولو كانوا غير بالغين: هذا الاستعراض[2] (قتل ديني) كان متسقاً مع الامتحان وهو اختبار كان يتطلب من المنضم حديثاً أن يذبح أحد الخصوم الأسرى.

لا وجود للإيمان إلا بالأفعال، أي بدون القتال من أجل الدين. هذا ما يؤمن به الخوارج. من هنا جاء أصل كلمة الخوارج. نذكر بأن رافضي التحكيم بين علي ومعاوية، الذين كانوا مصرين على قتال معاوية دون نقاش لأنه مذنب، كانوا يسمون ـ بداية ـ الحرورية، وهو اسم الموضع (حروراء) الذي تجمعوا

---

(1) موسوعة الإسلام (انظر الخوارج) وانظر كذلك F.M. Pareja في Islamologie، ص815 ـ 818.

(2) استعرض: طلب إلى شخص ما أن يشرح أراءه. واستعراض: استجواب الخصم. وفق Ch. Pellat ربما حدث التقاء مع اعترض = هاجم، ضرب دون تمييز. إن كلمة استعراض مصطلح فني عند الخوارج يبدو أنه يفيد تحقيقاً متبوعاً بإعدام، موسوعة الإسلام ـ Ch. Pellat (انظر استعراض)، وR. Rubinacci (انظر أزارقه).

فيه في أغسطس 657ف. لقد أراد البعض أن يرى في الخوارج/الخارجين، المهاجمين كلمة تعني المؤمنين الذين خرجوا رافضين التحكيم، ولكن هذا تسرع غير صحيح لأن الكلمة، في الوضع الحالي لمعارفنا، كانت في ذلك الوقت هي الحرورية ـ فقد سئم كثير من أنصار علي وعوده الفارغة ومماطلته، وربما ضاقوا ذرعاً بكذبه عندما أكد لهم أنه لم يكن في نيته الالتزام بما اتفق عليه بعد معركة صفين فخرجوا من الكوفة إلى معسكر حروراء[1]. إن اشتقاقاً آخر[2] قد يتسق أكثر مع جوهر عقيدة الخوارج، إنه نص من القرآن موجه ضد المهتدين الذين يمتنعون عن الذهاب إلى الحرب، جاء في سورة التوبة في الآيات (82 ـ 84): ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلٗا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾. هنا لا تعني كلمة خرج المعنى المألوف وإنما تعني «خرج لأجل القتال». عليه يكون الخيار الذي وضحه الوحي كما يلي: القعود أو الخروج لمحاربة الكفار (الخروج). هذه هي عقيدة الخروج التي انتمى إليها الخوارج بدرجات متفاوتة من التعصب وبدرجات متفاوتة من الإدراك والتمييز. لقد كان السؤال، في الواقع، هو معرفة ضد من يكون الخروج، ومن هم الأعداء والأصدقاء. لقد شرح محمد طالبي المفاهيم الدقيقة للولاء والبراء[3]. لقد والى الخوارج هؤلاء الذين رفضوا القبول بأي شبهات، ولهذا عارضوا علياً في التحكيم، وانضموا إلى الذين يشاركونهم نفس المثل والمعتقد. لقد رفضوا (البراء من) كل فكرة تساهل، أو محاباة، أو إثم. لم تتفق كل طوائف الخوارج حول الأشخاص أو الجماعات التي كانت

(1) انظر ما سبق بالخصوص، ص71 ـ 72.
(2) Islamologie, F.M. Pareja، ص815، حسب M. Guidi.
(3) في La Conversion des Berberes، ص18 ـ 22.

يجب البراء منها. وكانت التقية تخفف واجب الخروج من أجل الكتمان، وهو مفهوم تبعته الشيعة كذلك، ليتأتى إعداد أفضل للقتال. وحول فكرة الكتمان حدث الاختلاف بين طوائف الخوارج، وفي هذا المقام لا يخلو من فائدة أن نفحص لماذا لم تعرف شمال أفريقيا، وليبيا بشكل خاص وقد كانت أرض استقبال للخوارج، إلا طائفتين من هذه الطوائف.

الأزارقة والنجدات[1]

تجمع الأزارقة حول نافع بن الأزرق، وثاروا في البصرة سنة 684ف وتمكنوا من توطيد وجودهم في خوزستان، والفار. وقد أضعفتهم الانقسامات في صفوفهم بعد موت رؤسائهم المتتابعين في المعارك. وانتهز الحجاج حاكم العراق هذه الانقسامات وطاردهم بقسوة وشراسة بعدما تبين مدى خطر هذا العصيان على سلطة الخلافة، ومدى وحشيته كذلك. لقد تمت إبادتهم عن آخرهم في سنة 9 ـ 698ف. عُرف الأزارقة بتعصبهم. لقد كانوا ـ كما سبق أن رأينا ـ من أنصار الاستعراض والامتحان، ويكفرون القاعدين، ويرفضون توبة الذين أخطأوا دينياً أو أخلاقياً أو اجتماعياً. هكذا أصبح البراء وسيلة خطيرة لعزل الطائفة. كانوا يعتبرون عدوهم، حتى ولو كان مسلماً، كافراً أو مشركاً يجب إبادته مع أسرته. كان من الطبيعي أن تثير عقيدة بهذه الدرجة من الدموية رد فعل وحشي من الخلافة، وأن يباد أتباعها. لقد اختفى الأزارقة تماماً قبل أن تمتد حركة الخوارج إلى أفريقيا الشمالية.

كان الرئيس الأول للنجدات نجدة بن عامر، وقد ثارت النجدات بداية في اليمامة وتمكنوا من ممارسة بعض النفوذ في عمان وجزء من اليمن. وتكونت هذه الطائفة أصلاً من انشقاق في فرقة الأزارقة بسبب معارضتها لتعصب هذه الأخيرة. وقد اندثروا بسبب الانشقاقات في صفوفهم: ويقال أن نجدة بن

---

(1) حولهم انظر H. Laoust في كتابه Les Schismes، ص38 ـ 40، 44 ـ 46. و R. Rubinacci ـ موسوعة الإسلام (انظر أزارقه، نجدات).

عامر لم يكن معارضاً لعقد اتفاق مع الخلافة. وانتهت هذه الفرقة تحت ضربات الأمويين سنة 693ف، ولن نجدهم ـ هم كذلك ـ في شمال أفريقيا.

الصفرية[1]:

تمثل الصفرية إحدى فرقتين لعبتا دوراً في شمال أفريقيا. مؤسس هذا المذهب هو عبد الله بن الصفار الذي كان معارضاً للأزارقة حول الاستعراض وكان يرفض قبوله، كما كان، في الطرف الآخر، معارضاً للأباضيين لأنه يقبل اعتبار المسلمين من غير الخوارج مشركين. كان استقرار رئيسهم أبي بلال بن مرداس مع اتباعه في خوزستان، ولم يكن هدفه التمرد بقدر ما كان ينوي تأسيس إمامة مستقلة عن الخلافة التي اعتبرها غير جديرة بحمل مسؤولية الخلافة لأنها ليست من الخوارج. أثارت أعمال الصفرية المتمثلة في اعتراض القوافل من البصرة وتحصيل الضرائب في منطقة استقرارهم رد فعل الخليفة الذي دحرهم قبل700ف في معركة درابجرد حيث قتل قائدهم. وهزمتهم الأباضية في عمان. وقد انتشرت فرقة الصفرية في كل أنحاء العالم الإسلامي تقريباً، واحتووا كثيراً من طوائف الخوارج الأخرى التي نجهل عنها كل شيء، ولكن يبدو أن الدور الذي لعبوه كان فقط في أفريقيا الشمالية (من ليبيا إلى المغرب) خلال القرن الثاني للهجرة. لقد كانوا أول من وصل من الخوارج إلى أفريقيا الشمالية، وتجسد عملهم في ثورة البربري ميسرة سنة 740ف. وقد أسس الصفرية، بعد هزيمتهم في شرق شمال أفريقيا، أسرة بني مدرار واستقروا في سجلماسة وسيطروا على التجارة العابرة للصحراء في الطريق الغربي منذ سنة 758ف حتى منتصف القرن العاشر[2].

لقد احتلت العقيدة الصفرية موقعاً وسطاً بين الأزارقة والأباضية. كانوا

(1) إن الاشتقاق المقترح غير مُسلَّم به، انظر G. Levi della Vida، موسوعة الإسلام (مادة صفريه). Les Schismes, H. Laoust ص37، 46 ـ 48.

(2) البكري، ص148 ـ 155/ 282 ـ 289.

يرفضون الاستعراض، ويقبلون القعود، ويسمحون بالتقية قولاً لا عملاً، ولا يعتبر بعضهم مرتكب الذنب كافراً. كان قعودهم المذهبي مَد رُوعي بشكل عام من قِبَل رؤسائهم، ولكن هؤلاء كثيراً ما كان يتم تجاوزهم من قبل أتباعهم ويُدفعون إلى صراعات عمياء ومذابح دموية: وهو المشهد الذي برز عندما استولت ورفجومة على القيروان سنة 755ف.

الأباضية:

تعود تسمية هذا المذهب لعبد الله بن أباض الذي عارض تطرف الخوارج، خاصة الاستعراض، وانفصل عن الأزارقة سنة 65هـ/ 5 ـ 684ف. ويذهب «Tadeusz Lewicki» [1] إلى أن تبني عبد الله بن أباض القعود كان بهدف الاتفاق مع عبد الملك بن مروان الذي كان قد تولى الخلافة في نفس السنة، وبالفعل تم تبادل رسائل بين الخليفة والرئيس الأباضي. وقام خليفة عبد الله بن أباض، جابر بن زيد الأزدي، وهو عالم عماني، بتنظيم المذهب وارتبط بعلاقات ممتازة مع الوالي الحجاج لأن كليهما كان معارضاً للتطرف الخوارجي. وقد تدهورت العلاقات بين الطرفين عند لجوء أباضية البصرة للخروج وكان هذا سبباً للقطيعة بينهما. وقد اضطهدهم الحجاج ونفاهم إلى عمان. وبموت الحجاج (سنة 714ف)، أطلق سراح أحد أشهر رؤساء الأباضية، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وأصبح رئيساً لجماعتهم في البصرة. لقد كان عالماً عظيماً يقصده الأباضية من العالم الإسلامي كله للدراسة على يديه. وقد تولد الأمل لدى الأباضية عند تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة في ربط علاقات جيدة مع الأمويين إذا لم يتم تحويلهم إلى مذهب الخوارج، ولكن هذا الأمل خاب، فلم تكن سنوات حكم عمر بن عبد العزيز بالنسبة للأباضية الشرقيين، كما لبربر شمال أفريقيا، إلا فترة سعادة عابرة. وفي عهد يزيد بن عبد الملك (720ف ـ 724ف)، تزايد عدد أنصار القطيعة الكلية مع

---

(1) موسوعة الإسلام، انظر (الأباضية)، ص 670a،

الخلافة شيئاً فشيئاً. وبسبب رغبته في تحاشي صدام مباشر اختار أبو عبيدة حلاً وسطاً، قرر الدعوة إلى خروج اقتصادي وتبشيري، وتصور خطة لإمامة أباضية عالمية، وأعد من أجل هذا الغرض دعاة في البصرة وبعث بهم إلى خراسان وإلى جنوب الجزيرة والمغرب. سهل من مهمة هؤلاء الدعاة، المتمثلة في تحريك الولايات ومذهبتها أن الأسرة الأموية كانت في طريق الاضمحلال ولم تنتبه إلى هذه الدعوة، التي لم تدع إلى أي تطرف، إلا عندما تجذرت وأصبحت غير قابلة للاقتلاع.

تضاءل النفوذ الأباضي في البصرة والكوفة تحت الحكم العباسي بعد وفاة أبي عبيدة، وفي نهاية القرن الثامن هاجر الأباضيون إلى عمان، وهناك ألحق العباسيون بهم عدة هزائم ولكن العباسيين لم يستطيعوا السيطرة النهائية على البلاد. وفي القرن التاسع الميلادي اعترف الرؤساء الأباضيون في عمان بإمام تاهرت إماماً لكل الأباضية، وفي نفس الفترة بدأ التجار الأباضيون نشر عقيدتهم في سواحل شرق أفريقيا، ولعبوا هناك نفس الدور الذي لعبه التجار الأباضيون في شمال أفريقيا والصحراء والسودان.

يعود الفضل في وجود الأباضيين الحاليين في مناطق عمان وزنجيبار، كما في جبل نفوسة وجربة ومزاب إلى أبي عبيدة. لقد اتضح أن خروج الدعاة الذين بعثوا لولايات الامبراطورية من قاعدة تكوينهم في البصرة كان أكثر فاعلية - وبما لا يقارن - من تعصب الأزارقة.

يصر الأباضيون، كغيرهم من الخوارج، على الصرامة والدقة في الالتزام بالدين ولكنهم أكثر تسامحاً من الطوائف الأخرى. رأينا أنهم يعتبرون الاستعراض غير شرعي. ويسمحون كملجأ أخير بمحاربة غير الأباضيين ولكن بشروط معينة: فلا بد من دعوة العدو للإسلام قبل بدء الأعمال العدائية ضده كما تتطلب ذلك السنة في إدارة الجهاد، كما يحرمون الاستيلاء على أموال المسلمين غير الأباضيين باستثناء الأسلحة والخيول. وتقبل الجماعة الأباضية

بينها غير الأباضي إذا أظهر صرامة في الالتزام الأخلاقي، وباستثناء إمامته للصلاة فإن هذا «الكافر» يتمتع بنفس حقوق الأباضيين، كما يؤكد على أن لشهادته نفس القيمة والقوة المعطاة لشهادة الأباضي، كما يعتبر الأباضيون التزاوج داخل الإسلام بين الأباضيين وغير الأباضيين شرعياً حتى ولو كان الزوج من خارج الجماعة. بالرغم من ذلك لاحظنا أن الأباضيين الليبيين والتونسيين والجزائريين يفضلون بشكل ملحوظ الضعالة(*). قد يدفعنا هذا إلى الاعتقاد بوجود عامل جهوي محدد، كما هو الحال في كل الوطن العربي، لو لم نلاحظ أن أباضيي جبل نفوسة يذهبون أحياناً إلى مزاب في الجزائر للبحث عن زوج أو زوجة. نبرز ـ هنا ـ أن العقيدة الأباضية الوسطية لم تفقد شيئاً من صرامتها الدينية وأن الأباضيين تمتعوا ـ ويتمتعون اليوم ـ بالاحترام والإعجاب من أهل السنة[1] الذين لا يختلفون معهم ـ في الحقيقة ـ إلا حول نقاط قليلة أهمها[2] القول بخلق القرآن.

من وجهة النظر السياسية، ليس من الضروري أن يكون للجماعة إمام[3] عندما تكون في خطر إعمالاً لمبدأ الكتمان. وستكون أحياناً هذه هي الحالة في ليبيا. ويجب ـ في هذا المقام ـ التأكيد على وجود ازدواجية في المسلك عند الأباضية، وتتمثل هذه الازدواجية في تصلب لا يقبل أي تساهل في الجانب الديني، ومرونة في المسلك السياسي. وجدت إمامة أباضية واحدة في القرن الثامن في تاهرت كان يديرها عبد الرحمن بن رستم ولكن طول المسافات بين جنوب الجزيرة العربية، وأفريقيا الشمالية تطلب في أكثر الأحيان وجود أكثر من

(*) هو الالتزام من قبل أعضاء جماعة اجتماعية بالتزاوج فيما بينهم فقط. (المترجم).

(1) أمثلة عند H. Laoust في كتابه Les Schismes، ص47 ـ 48.

(2) حول الفقه والشريعة الأباضية، انظر Introduction, D.Cuperly، ص177. و Die Ibaditen, W. Schwartz، ص40.

(3) يسمى الإمام الأباضي أحياناً أميراً، أو خليفة، وملكاً في أفريقيا الشمالية، انظر T. Lewicki ـ موسوعة الإسلام (الأباضية) ص679. وكان رؤساء المناطق في جبل نفوسة يسمون حكيماً، أو سيداً أو مقدماً. انظر، Les Hakims, 2, Ibaditical, T. Lewicki، ص108.

إمامة في نفس الوقت. كان الإمام منتخباً، ويتم انتخابه من قبل الشيوخ بغض النظر عن مرتبته الاجتماعية وانتمائه العرقي، وكانت حكومته تستند إلى القرآن والسنة وما تركه الأئمة الأوائل من تراث. وكان الإمام هو المفتي والقاضي الأعلى وإليه يعود قرار الحرب وقيادتها. وكان من صلاحية الشيوخ عزل الإمام إذا ما ارتكب خطأ كما هو الحال عند فرق الخوارج الأخرى. ويحدث أن لا يتفق أتباع المذهب على إمام وتكون النتيجة عدم وجود إمام للصلاة. وهذه المسألة حساسة لأنها تتوافق مع مسعى سياسي نتج عنه اختفاء الخطبة والمنبر[1].

منذ النصف الثاني للقرن الثامن، ظهرت الانقسامات في الفرقة الأباضية وأثارت هذه الانشقاقات السؤال عن مدى شرعية تقسيم مسؤولية حكومة الجماعة بين اثنين أو عدد من الرؤساء، والحد من سلطة الإمام بفرض شروط عليه، في الوقت الذي يجب أن تكون له سلطة مطلقة، من الناحية النظرية، سواء فيما يتعلق بتعريف المذهب أو بتطبيق العدالة أو قيادة الحرب.

من الفرق الأباضية التي عرفتها أفريقيا الشمالية، يمكننا تمييز الوهبية وهي الفرع الأباضي الأكثر اعتدالاً، ومن المرجح أن هذا ما مكنه من البقاء حتى أيامنا هذه، والنكارة وهم منشقون عن تاهرت في القرن التاسع، وممثلهم الأبرز، والأكثر وحشية كذلك لأنه أعاد الاستعراض لم يكن إلا أبو يزيد مخلد بن كيداد، «صاحب الحمار»، الذي تمكن في القرن العاشر من هز الأسرة العبيدية. وشكلت النفاثية في القرن التاسع في منطقة الجريد في تونس مذهباً مخالفاً للإمام في تاهرت وكانوا يتهمونه بالعيش في ترف، وسنجد النفاثية في جبل نفوسة في القرن الحادي عشر، وفي جزيرة جربة في القرن الرابع عشر[2]. وتجمع الخلفيون في بداية القرن التاسع في طرابلس حول خلف بن

(1) انظر ما سيلحق، ص319 ـ 320، 331.

(2) T. Lewicki في Repartition Geographique، ص312.

السمح وهو منحدر من أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري أول الأئمة الطرابلسيين الذي قضت عليه الجيوش العباسية سنة 761ف. نذكر ـ كذلك ـ الحسينية، وقد ولدت هذه الفرقة حوالى منتصف القرن التاسع، وتفيد المصادر الأباضية بوجود أتباع لهذه الفرقة في طرابلس في القرن الثاني عشر، كما تذكر هذه المصادر السكاكية وهم قليلو العدد واقتصر وجودهم على الجريد واختفوا تماماً في القرن الحادي عشر، وكذلك الفرثية الذين نجدهم في ورقلة في منتصف القرن العاشر ويعود اسمهم إلى منعهم استهلاك المصران الغليظ للخروف[1] (الفرث). إن الاختلافات بين فرق الأباضية في شمال أفريقيا بسيط جداً، كما في حالة الفرثية، إذا استثنينا التسامح الكبير عند الوهبية، وعودة النكارة إلى الاستعراض والذين تعود شهرتهم إلى وحشية أبي يزيد. إن هذه الاختلافات لم تكن معروفة جيداً عند المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب الذين كثيراً ما كانوا يكتفون بذكر القبائل التي تساند الحركات الأباضية، ووقائع الحرب والتجارة وأسماء رؤساء هذه الفرق، ونادراً ما يتعرضون للفقهاء وبندرة أكثر لمواقفهم، ومن ثم فليس من الممكن عند دراسة الأثر الأباضي على الصحراء ـ خاصة على الصحراء الليبية ـ التمييز بين الأعمال التي يمكن أن تكون قد قامت بها الفرق الفرعية[2] المختلفة.

(1) T. Lewicki في Repartition Geographique، ص313 ـ 314.

(2) حول الأباضية الشمال أفريقية في القرون الوسطى، انظر P. Cuperly في Introduction a l'etude de l'ibadisme. و W.Schwartz فـي Die Ibaditen in Nordafrika و B. Zerouki في L'Imamat de Tahart. وU.Rebstock في Die Ibaditen im Magrib. وأعمال كثيرة لـ T. Lewicki خاصة حول الفقهاء: 1 Ibaditica ـ تسمية شيوخ نفوسة. حول رؤساء جبل نفوسة: 2 Ibaditica ـ Les Hakims du gabal Nafusa. حول الأباضيين التونسيين: Les Ibadites en tunisie au Moyen Age, document ibadite indedit حول المؤرخين، والرواة، والفقهاء. وحول الفرق الفرعية: La repartition Geographique.

بدايات الخوارج في أفريقيا الشمالية

كانت أفريقيا الشمالية، وخاصة ليبيا، تمثل بالنسبة للمشرق ولاية مجهولة، ولهذه العبارة معنيان: كانت أرض مغانم ميسورة وزراعة سهلة. وكانت الدعاية التي تدعم واجب الجهاد بواسطة جذب المكاسب سهلة. لتتذكر الثروات التي بعث بها الوالي موسى بن نصير إلى الخليفة، والأعداد الكبيرة من البربر الأسرى الذين ألحقوا بالجيش العربي أو بعث بهم الولاة المتتابعون إلى الشرق. إن ضخامة الجزية المفروضة ـ التي من الصعب تصور أنها فرضت على لواتة برقة دون غيرهم بالطريقة التي عرفنا ـ وإمكانية تأديتها رقيقاً، كانت تقدم أفريقيا الشمالية كجنة عدن حقيقية في نظر المشارقة، ورسخ هذه الصورة المثالية أكثر الجمال الفريد لنساء البربر. يضاف إلى ذلك، أن الامتهان والدونية اللتين وضع فيهما البربر، حفزت العرب المتلهفين للثروة والزراعات السهلة والمذابح. إننا عندما نتناول هذه الفترة لا يمكننا عند تذكر التسمية «المغرب الأقصى» إلا جعلها مرادفة لما يثيره في الذهن التعبير الإنجليزي «Far West». أو لم يكتب حسان بن النعمان إلى الخليفة عبد الملك ما معناه: «إن البربر بجهلهم وأعدادهم هم كحيوانات المراعي»[1]؟! أولا يغفر القتال في أفريقية

(1) ابن عذاري، ج1، ص36.

الذنوب[1]؟. لقد ارتفع عدد القوات العربية حسب دراسة محمد طالبي إلى خمسين ألف رجل خلال الفترة 670ف، 697ف، وإلى مائة وثمانين ألف رجل خلال الفترة 670ف، 771ف[2]. كان هناك ـ بكل تأكيد ـ تبديل للجنود ولم يستقر كل هؤلاء في أفريقيا الشمالية ولكن كثيرين من بينهم كانوا ـ وفي وقت مبكر ـ مصحوبين بأسرهم واستقروا وتناسلوا وأصبح لهم أحفاد. وقد عاد زهير بن قيس بجنوده نحو الشرق بعد المعركة التي قتل فيها كسيلة وترك في القيروان كهولاً ونساء وأطفالاً. لقد أسر بريق الثروة في أفريقية المشرق حتى أعماه بعد انتصارات موسى بن نصير، وقد أخذ من المغانم مقادير كبيرة أدت إلى نضوب المصدر. وعندها كان لا بد من اللجوء إلى الضرائب، وفيها كذلك ارتكبت تجاوزات خطيرة. وقد تم في عهد سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ/ 715 ـ 717ف)، وعمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 720ف) العودة إلى إجراءات أكثر رفقاً. فقد عزل سليمان عبد الله بن موسى بن نصير ـ وهو ابن خليق بوالده[3] ـ، وأصر عمر الثاني ـ كما نعرف ـ على العودة إلى إجراءات شرعية في معاملة لواتة. وعين عمر بن عبد العزيز رجل ثقة حاكماً لأفريقية، هو إسماعيل بن عبيد الله، وكان مسؤولاً عن الحرب والخراج والصدقة، وسار سيرة مثالية وتحول البربر تحت إدارته في غالبيتهم[4] إلى الإسلام. من المؤسف أن هذه الإجراءات لم تكن فعالة لأنها لم تعمر إلا مدة قصيرة جداً، فقد عزل الخليفة يزيد بن عبد الملك، بمجرد توليه الخلافة سنة 720ف، إسماعيل بن عبيد الله وولى مكانه يزيد بن أبي مسلم. وكان من بين ما أتاه الوالي الجديد قيامه بوشم اسمه على أيدي الرقيق البربر الذين كان موسى قد حررهم وألحقهم

(1) البكري، ص8/ 23.

(2) L'Emirat aghlabide، ص21. وابن عذاري، ج1، ص19، 34، 54، 72، 76.

(3) كان موسى بن نصير مسؤولاً على جباية الخراج في البصرة، وكانت اختلاساته وراء متابعة الحجاج والي العراق له، ولكن وساطة شقيق الخليفة والي مصر عبد العزيز بن مروان نجته من الحجاج. وقد عين والياً لأفريقية. انظر محمد طالبي في L' Emirat aghlabide، ص24.

(4) ابن عبد الحكم، ص110 ـ 111. وابن الأثير، ج4، ص144.

بخدمته، وقد مات يزيد مقتولاً سنة (102هـ/ 720 ـ 721ف)، غالباً من قبل البربر الذين رفضوا الخضوع لهذا الإذلال[1]. وتدهور الوضع تحت الحكم الطويل للخليفة هشام بن عبد الملك (724ف ـ 743ف). كان هذا الخليفة قاسي الطباع ليس من السهل الوصول إليه ومحباً لجمع النقود واكتنازها[2]. غادر أحد ولاته، عبيدة بن عبد الرحمن القيسي أفريقية سنة 115هـ/ 4 ـ 733ف بعد أن بقي فيها أربع سنوات ونصف «وأخذ معه، من بين أشياء أخرى، عبيداً من الجنسين، وسبعمائة أسير شاب مختارين، ومخصيين، وخيولاً، ودواب، وذهباً وفضة، وأواني»[3]. في مايو ـ يونيه 734ف أسند هشام قيادة أفريقية إلى واليه على مصر عبيد الله بن الحبحاب، وأمر هذا الأخير بحملة على بلاد السوس وبلاد السودان: قاد هذه الحملة حبيب بن عبيدة الفهري الذي حقق نجاحاً كبيراً واستولى على كمية هائلة من الذهب كما أخذ أسرى[4] كثيرين. وكان عبيد الله بن الحبحاب، وبطريقة غير مباشرة، وراء بداية ما شهدته أفريقيا الشمالية من اضطرابات، بتسميته عمر بن عبد الله المرادي عاملاً على طنجة.

ثورة ميسرة الصفرية:

كان والي أفريقية وعامله على طنجة السبب المباشر لأول تمرد للخوارج في شمال أفريقيا. وتمتد أسباب هذا التمرد إلى بدايات الفتح، وكانت بارزة

---

(1) ابن عبد الحكم، ص112 ـ 115. حسب النويري، ص356 ـ 357، قتل البربر يزيد لأنه يُلزم المتحولين الجدد إلى الإسلام بدفع الجزية كما كانوا يفعلونه قبل اعتناقهم الإسلام. وقد كتب البربر إلى الخليفة بأنهم لا زالوا على ولائهم وأن ما فعلوه كان بسبب ما عانوه من إهانات.

(2) المسعودي ـ التنبيه، ص322/ 417.

(3) ابن عبد الحكم، ص120 ـ 123.

(4) كان من بينهم أسيرة أو أسيرتان شابتين من عرق يطلق عليه البربر الجان، أو الجاز (حسب ابن عبد الحكم، ص122 ـ 123). أو ت. راجان (حسب البلاذري، ص233 الذي يدعو هذا القائد عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري). لم يكن لهاته النساء إلا ثدي واحد. حول هذه الحملة راجع ابن الرقيق، ص108 وابن الأثير، ج4، ص222 الذي لا يسمي القبيلة، لا يتحدث ابن عذاري، ج1، ص51، وابن خلدون (تاريخ أفريقيا، ص33) عن هؤلاء الأسرى الغريبين.

بشكل خاص في عهد هشام. فقد تعود الخلفاء على طُرف أفريقية وكانوا يطلبونها من ولاتهم الذين كانوا يبعثون إليهم بالذهب والفضة والخيول والرقيق البربري الجميل. لم يمثل ابن الحبحاب استثناء لهذه القاعدة والتزم[1] بها. فقام بغزو بلاد السوس حيث كان البربر في حالة تمرد وعاقبهم واستولى على مغانم كبيرة وعدد لا يحصى من الأسرى، ثم توجه ضد قبيلة مسوفة وقتل منها كثيرين وأسر[2] كذلك. كما أن عامله على طنجة ضرب بمبادىء العدالة عرض الحائط وارتكب كثيراً من التجاوزات في تحصيل الضرائب وتوزيع المغانم[3]. فتوجه ميسرة الفقير البربري المطغري الصفري، وهو بائع سابق للمياه في القيراون، إلى المشرق على رأس وفد من البربر. وأخبر الوفد هشام بن عبدالملك أن العساكر من البربر كانوا يوضعون دائماً في الخطوط الأمامية باسم القتال في سبيل الله، ولكنهم بالرغم من ذلك لا يحسبون عند توزيع الغنائم، وأن العرب يأخذون كل البنات الجميلات، ويذبحون قطعانهم وقد ذهبوا لحد بقر بطون ألف نعجة من أجل الحصول على فرو أبيض من أجنتها كاف ليصنعوا منه عباءة واحدة للخليفة. وُعد[*] الوفد بأن تعرض شكاوي البربر على الخليفة ولكنه رجع إلى المغرب دون الحصول على وعد أو إجابة[4].

كان الخوارج في مصر قبل ذلك. وانتشرت الأباضية بشكل أساسي في طرابلس الغرب، والصفرية في غرب القيروان. إننا لا نعرف الأسباب وراء عدم بداية الثورة في طرابلس الغرب أولاً، ويمكننا افتراض أن الخوارج فيها لم يكونوا قد نُظموا بعد، ولم يكن قد توافر لديهم سبب مباشر يسمح بالتحرك من

(1) ابن عذاري، ج1، ص52.

(2) ابن خلدون ـ البربر، ج1 ص216.

(3) النويري، ص359.

(*) لم يتمكن من مقابلة الخليفة هشام رغم مكوثه سنة كاملة في دمشق، ولما يئس الوفد من لقاء الخليفة، أتى وزيره الأبرس الكلبي وقدم له عريضة وشرح فيها شكواه. المترجم.

(4) محمد طالبي في La Conversion des Berberes، ص48 ـ 50، حسب الطبري.

القعود إلى الخروج. يضاف إلى ذلك أن الصفرية في الغرب كانوا قد بدأوا خروجاً دبلوماسياً، ووصلت النقمة عندهم ذروتها عندما قرر عامل طنجة عمر بن عبد الله أن يأخذ الخمس من البربر ليجعل منهم رقيقاً. كان الغرض من هذا القرار بسيطاً: كان البربر فيئاً من فيء المسلمين[1]. يقول ابن عذاري أنه لم يسبق لأي حاكم من قبل أن تصرف بهذه الطريقة البغيضة، وحتى وقتها كان الخاضعون لهذا النوع من الإجراءات هم الرافضون لدعوة الإسلام دون غيرهم. إن مسؤولية هذا الخطأ تقع على الخليفة أكثر منها على عمر بن عبد الله أو الوالي ابن الحبحاب، لأن الخليفة كان يطلب المزيد من العبيد، ولم تكن النوبة تزود إلا بثلاثمائة أو ثلاثمائة وستين عبداً في السنة، ووسط السودان ـ كمخزن للرقيق ـ لم يكن قد مُس إلا مساً خفيفاً من عقبة سنة 663ف، وكان الوجود بغرب السودان في بداياته عن طريق حبيب بن عبيدة. لقد أخذ العرب أربعمائة وخمسة عشر ألفاً من العبيد في المدة ما بين عقبة وموسى بن نصير وفق حسابات محمد طالبي استناداً إلى النصوص. لقد ضيقت التحولات العديدة إلى الإسلام ـ خاصة في زمن عمر بن عبد العزيز ـ دار الحرب، ومن ثم مصادر الرقيق. وبما أن التجارة العابرة للصحراء لم تكن قد بدأت تزويد العالم الإسلامي بالرقيق بعد لم يبق أمام العرب في الطرف الغربي من الامبراطورية إلا أخذهم من البربر، وكان البربر قد تحولوا إلى الإسلام في ذلك الوقت. وقد تم ذلك.

كان تمرد قد بدأ قبل ذلك سنة 102هـ/ 1 ـ 720ف. فقد قام مغامرون منضمون إلى الخوارج بتجنيد بربر من الطبقات الدنيا وهاجموا الرؤساء العرب، وقد دُحر[2] هؤلاء المغامرون. حدث الانفجار سنة 122هـ/ 740ف ، فقد قتل ميسرة والبربر الصفرية العامل ابن عبد الله الذي كان مسؤولاً عن الإهانات

(1) ابن الأثير، ج4، ص222. وابن عذاري، ج1، ص51 ـ 52. والنويري، ص359. وابن خلدون ـ البربر، ج1، ص216.

(2) ابن خلدون (البربر، ج1، ص216) هو المؤلف الوحيد الذي ينسب هذه الثورة للخوارج.

والتجاوزات. أعلن ميسرة نفسه خليفة ودعا كل البربر لاعتناق مذهب الصفرية. وكرد فعل أرسل ابن الحبحاب قوات ضد طنجة ولكن العرب هُزموا. مع ذلك قام البربر الذين كانوا يرفضون مسلك ميسرة بقتله. وفي معركة ثانية وقعت سنة 123هـ/ 744ف هزم خليفة ميسرة العرب مرة أخرى. وفي نفس السنة تم استدعاء ابن الحبحاب إلى المشرق وحل محله كلثوم بن عياض. وبأمر من الخليفة كان على الحاميات في مصر والبصرة وطرابلس تزويد الوالي الجديد بوحدات عسكرية. كانت الثورة في هذه الأثناء قد امتدت نحو القيروان، وقابس وحتى صبرا. وقد قُتل كلثوم أيضاً. في سنة 124هـ/ 742ف عين هشام حنظلة بن صفوان والياً على أفريقية وقد تمكن حنظلة من هزيمة الصفرية في نواحي القيروان[1]. لقد واجه الخوارج أول هزائمهم في شمال أفريقيا ولكن العرب اضطروا أن يستعملوا ضدهم كل مدد ممكن، وتوسعت المعارك من شواطيء الأطلسي حتى طرابلس الغرب. لم تكد السيطرة العربية تستمر إلا أربعين سنة.

(1) ابن عبد الحكم، ص122 ـ 141. وابن عذارى، ج1، ص52 ـ 56. والنويري، ص359 ـ 364. وابن خلدون ـ البربر ج1، ص216 ـ 218 ـ تاريخ أفريقيا، ص36 ـ 41.

الخوارج في ليبيا

الثورة الأولى في طرابلس الغرب:

أعطى المؤرخون اهتماماً أكبر قليلاً من السابق لليبيا ابتداء من منتصف القرن الثامن، ولكن اهتمامهم بالصحراء ـ كما جرت العادة دائماً ـ كان بشكل غير مباشر إلا في حالات قليلة. يمكننا رسم صورة إجمالية للموقف في داخل البلاد عند النظر فيما كانت تأتيه قبائل الشمال. ولم يأت الجغرافيون لمساعدتنا ويعطوننا وصفاً أكثر دقة للواحات الليبية إلا مع بداية القرن التاسع.

ظهرت الأباضية للمرة الأولى في طرابلس الغرب، وشمال أفريقيا سنة 126هـ/ 4 ـ 743ف. إن أقدم رئيس للأباضية وصلنا اسمه هو عبد الله بن مسعود التجيبي: كان يدير الجماعة الأباضية في منطقة طرابلس بالاعتماد على قبيلة هوارة، التي كان هذا الإقليم موطنها. من هنا نستطيع أن نستنتج أن الأباضية دخلت منذ منتصف القرن الثامن، بالإضافة إلى وسط طرابلس الغرب، منطقة ودان التي كانت تمثل الحدود بين موطني هوارة ومزاتة. وقد قبض حاكم طرابلس على التجيبي وضرب عنقه. هكذا قدم هذا الحاكم للأباضية شهيداً. تجمع الأباضيون في طرابلس تحت سلطة اثنين من القادة اللذين تعود أصولهما إلى قبائل عربية من جنوب الجزيرة أو من تابعي هذه القبائل: عبد الجبار بن

قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي. قام عبد الجبار بإخضاع منطقة زناتة وهي سهل الجفارة الذي يكون الجزء الغربي من طرابلس الغرب وفيه مدينة صبرا التي كانت منضمة إلى الصفرية. بهذا فقد العرب السيطرة على الممر الواصل بين سرت والقيروان، وهو ممر ضروري لأي إمداد أو دعم. بعث عبد الرحمن بن حبيب حاكم أفريقية (127 ـ 137هـ/ 5 ـ 744 ـ 5 ـ 754ف) الذي كان قد استلم منصبه في القيروان منذ وقت قصير، مبعوثاً إلى هوارة لمحاولة فصلها عن القادة الأباضيين. كانت المحاولة بدون طائل، فقد هاجمهم المبعوث بفرسانه ولكنه هُزم. قاد الحاكم بنفسه حملة على الأباضيين ولكنه فشل كذلك. واستولى الأباضيون على كامل طرابلس الغرب. ووقعت معركة ثانية بين الطرفين في صحراء سرت لم تكن كذلك لصالح القوات الحكومية. كانت قوة كل من القائدين الأباضيين كبيرة، قد تكون كبيرة لدرجة تغري بعدم القبول باقتسام السلطة. وانتهى الأمر بعبد الجبار والحارث إلى الالتحام في معركة قتل فيها الاثنان. انتخب الأباضيون إسماعيل بن زياد النفوسي رئيساً لهم، وهو رجل ذو هيبة غير منازعة. وقد ضم إليه قبيلته، نفوسة وتوجه إلى الغرب حيث استولى على قابس. حرك حاكم القيروان كل قواته ضد إسماعيل الذي قُتل في المعركة، كما تم أسر كثيرين من البربر، أو قطعت رؤوسهم أو صلبوا[1]. وقعت هذه المعركة سنة 131هـ/ 9 ـ 748ف، كما يقول ابن الأثير وابن خلدون، وفي سنة 132هـ/ 50 ـ 749ف حسب ابن الرقيق. لقد هُزم البربر، ولكن «شعورهم القومي» تأكد في أواخر العصر الأموي. إن الأمر يتعلق في حقيقته بـ«القومية» لأن الصفرية لم تبق مكتوفة الأيدي وإنما عملت على ضم قبائل بربرية إليها.

أبقى السفاح، أول الخلفاء العباسيين (749ف ـ 754)، عبد الرحمن بن

---

(1) ابن عبد الحكم، ص140 ـ 143.، وابن الرقيق، ص128 ـ 130. وابن الأثير، ج4، ص279. والنويري، ص355 ـ 356 وابن خلدون، البربر، ج1، ص219 وتاريخ أفريقيا، ص44 ـ 47.

حبيب في منصبه حاكماً لأفريقية، كما ثبته الخليفة الثاني المنصور (754ف ـ 775) وبعث إليه، رمزاً لتثبيته في منصبه، خلعة سوداء، واللون الأسود هو لون العباسيين[1]. قام الحاكم، الذي كان قد وعى ـ وبتكاليف باهظة ـ أي نكبات يمكن أن يؤدي إليها الضغط على البربر المسلمين، بإخطار المنصور أن أفريقية أصبحت الآن مسلمة بكاملها ولم يعد هناك أسرى ولا أموال، ومن غير المجدي الاستمرار في مطالبته بتوفير أموال أو عبيد. ولم يستلم الخليفة بعد ذلك أي هدايا أفريقية باستثناء الصقور والكلاب حتى لو غضب أو توعد. في الوقت الذي انفصلت فيه إسبانيا الأموية عن الامبراطورية، جرت أول محاولة استقلال لشمال أفريقية يقوم بها حاكم عربي. فقد قام عبد الرحمن بن حبيب بسب الخليفة أثناء الصلاة («إنني أخلعه كما أخلع حذائي» يورد ابن عذاري). وقام ـ كإجراء رمزي ـ بمنع اللون الأسود في مقره، «لون ملابس أهل النار»[2]. وقام شقيقا عبد الرحمن، الياس وعبد الوارث اللذان بقيا مواليين للخليفة بقتل ابن حبيب سنة 137هـ/ 5 ـ 743ف. وقام ولد ابن حبيب بقتل الياس وطارد عبد الوارث الذي لجأ عند ورفجومة، وهم بربر صفرية من الجنوب التونسي. مثل هروب عبد الوارث عند ورفجومة منطلقاً للأحداث الأكثر دموية التي عرفتها أفريقيا الشمالية. فقد استقبلت ورفجومة وحلفاؤها نفزاوة النصير العباسي واستغلت الفرصة ولجأت إلى الخروج وطردت ابن الحاكم واستولت على القيروان سنة 138هـ/ 6 ـ 755ف. كانت الصفرية أقل تسامحاً من الأباضية، وبالرغم من أنهم ـ مثل الأباضية ـ يرفضون الاستعراض، إلا أنهم مارسوا أسوأ التجاوزات. لقد أمعن الورفجومة في تذبيح وتعذيب سكان القيروان الذين لم يتمكنوا من الهرب، واغتصبوا النساء، واتخذوا من الجامع الكبير مقراً لدوابهم. وصل خبر استخفاف الصفرية بالدين،

---

(1) قُنن منح الثوب، أو ملابس الشرف في العهد العباسي، وظهرت كلمة خلعة في هذا العهد. انظر N.A.Stillmann ـ موسوعة الإسلام.

(2) أورد هذه الوقائع ابن عذاري، ج1، ص67. وابن الأثير، ج4، ص280.

وفجورهم، والمذابح التي ارتكبوها إلى أباضية طرابلس الغرب[1].

مملكة أبي الخطاب المعافري (758 ـ 761ف)

كانت أباضية طرابلس الغرب؛ نفوسة وهوارة وزناتة دون رئيس منذ موت إسماعيل بن زياد النفوسي، فقاموا سنة 140هـ/ 8 ـ 757ف بانتخاب أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني كأول إمام في شمال أفريقيا. كان أبو الخطاب أحد خمسة مبعوثين أرسلهم أبو عبيدة من البصرة لنشر المذهب الأباضي في المغرب[2]. وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً جعل قبيلة مزاتة تنضم إليه[3] مما وسع الثورة حتى واحات الجفرة جنوباً، وإقليم برقة شرقاً. وانضمت لواتة إلى الأباضيين، وهكذا تم الاستيلاء على مدينة برقة أو أصبحت في خطر[4] على الأقل. استاء أبو الخطاب من مسلك ورفجومة، كما كان راغباً في عدم ترك ولاية القيروان تحت سيطرة الصفرية لوحدها، لهذا جند قوات. استولى أبو الخطاب على طرابلس وطرد منها الحاكم العربي عمر بن عثمان ثم زحف على قابس وأخيراً على القيروان سنة 141هـ/ 59 ـ 758ف حيث أوقع مذبحة في ورفجومة وحلفائهم نفزاوة، والعرب أتباع عبد الوارث[5].

لم يبق ـ في الواقع ـ من الصفرية في أفريقيا الشمالية إلا مملكة

---

(1) ابن الرقيق، ص141، وابن عذاري، ج1، ص70. وابن الأثير، ج4، ص281. وابن خلدون البربر، ج، ص219 ـ 220.

(2) A. De Motylinski، موسوعة الإسلام. حول حملات أبي الخطاب انظر W. Schwartz في Die Anfange ص145 ـ 188.

(3) معلومات من الشماخي وهو مؤرخ أباضي من القرن السادس عشر. انظر T. Lewicki في Repartition، ص318.

(4) T. Lewicki المرجع المذكور، ص415، حسب الشماخي.

(5) ابن الرقيق، ص141 ـ 142، الذي لا تتناول نصوصه الوقائع اللاحقة للاستيلاء على طرابلس. وابن عذاري، ج1، ص70 ـ 71. وابن الأثير، ج4، ص281. والنويري، ص370 ـ 374. وابن خلدون في (البربر)، (تاريخ أفريقيا). في نفس الوقت تقريباً تمرد البربر الخوارج في برقة وهم حلفاء العرب المناصرين لبني أمية. انظر ما يلحق، ص207.

سجلماسة في تفلالت التي أسستها قبيلة مكناسة سنة 8 ـ 757ف وكانت محكومة من أسرة بني مدرار الصفرية حتى القرن العاشر، وأصبحت أحد أهم المراكز الشمال أفريقية للتجارة مع السودان. وقد صارت سجلماسة بعد ذلك سنية واستمرت في لعب دور حاضرة تجارية كبيرة طوال القرون الوسطى. بالرغم من المعارك الدامية والهزيمة التي لحقت بالصفرية في القيروان، إلا أن العلاقات الأباضية الصفرية ربما عادت ودية بعد ذلك بقليل، فبعد بضع سنين زوج إمام تاهرت الأباضي ابنته من ابن أمير سجلماسة[1].

عين أبو الخطاب المعافري بعد انتصاره في القيروان أحد سكانها من أصل فارسي وهو عبد الرحمن بن رستم حاكماً أباضياً لها، وعاد إلى طرابلس. هكذا أصبحت هذه المدينة مقر الحكومة البربرية لأفريقية. ذهب العرب الذين نجحوا في الفرار من القيروان للبحث عن نجدة عند الخليفة المنصور الذي عين محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على مصر ومكلفاً بمهمة تصحيح الوضع في أفريقية وإعادته إلى نصابه. بعث الأشعث أولاً أحد قادته، أبا الأحوص ضد الأباضيين، وقد هزمه الأباضيون فانسحب إلى مصر. وقعت هذه المعركة بين الطرفين سنة 142هـ/ 60 ـ 759ف في مغمداس بمنطقة سرت[2].

نستطيع أن نستنتج من الانسحاب العربي إلى مصر أن منطقة برقة كانت تحت سيطرة لواتة، وهو ما يوضح بجلاء أن البربر الأباضيين كانوا يسيطرون على منطقة واسعة: جنوب تونس، والجفارة حيث قبيلة ضريسة[3]، وسوق صبرا العظيم حيث الزواغة[4]، وطرابلس ومنطقتها حيث هوارة، والجبل بقبيلة نفوسة، ومنطقة سرت حيث مزاتة، ومنطقة أجدابيا ـ برقة حيث لواتة. وفي جنوب غدامس لم يستطع بنو تناوته أن ينأوا بأنفسهم عن بعض التأثير الأباضي

(1) البكري، ص148 ـ 155/ 282 ـ 289. وابن خلدون (البربر)، ج1، ص260 ـ 265.

(2) البكري، ص7/ 22 ابن خلدون (البربر)، ج1، ص204.

(3) T. Lewicki في Repartition، ص329، الذي ينقل عن الشماخي.

(4) البكري، ص17/ 41.

لأن أحد المبعثوين الخمسة من البصرة إلى أفريقية، أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي كان أصيل[1] هذه المنطقة. كما انضمت ودان إلى هذه «البدعة» لأنها تحت سيطرة مزاتة ولأن جزءاً من سكانها من أصول يمنية، وهو ما لم يكن غريباً عن تبني ودان للعقيدة الجديدة[2]. وكانت زلة وتاقرفت كذلك تحت سيطرة مزاتة وهو ما يعني السيطرة الكاملة على طرق الجنوب، كما أن زويلة بالرغم من بعدها عن الساحل كانت ملجأ إن لم تكن حصناً أباضياً كما سنعرف من حملة ابن الأشعث. هكذا كانت تجارة السودان مع العالم الإسلامي المتوسطي في أيدي الأباضيين لوحدهم. من المستحيل بالنسبة لنا أن نجري تقديراً للخسارة التي أصابت السلطة المركزية بسبب سيطرة الأباضيين على هذه التجارة وذلك لأن المصادر لم تقدم لنا أي مؤشر حول حركة التبادل في القرن الثامن. بالرغم من ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار عدد الرقيق الذين أخذهم عقبة من فزان وكوار قبل ذلك بقرن، وكذلك ما أخبرنا به اليعقوبي بعد ذلك بقرن عن تجارة العبيد السودانيين التي يقوم بها سكان زويلة الأباضيون ـ حيث كان هناك أفراد أصلهم من البصرة والكوفة[3]! ـ فإن من المستغرب أن لا يكون هذا الكنز قد استغل في منتصف القرن الثامن.

«إن تمرد البربر، هذا الجرح الدامي لأفريقية»[4] أصبح أكثر خطراً مما كان عليه في أي وقت مضى. أمر الخليفة ابن الأشعث أن يتولى بنفسه قيادة العمليات. غادر ابن الأشعث مصر سنة 143هـ/ 760ف على رأس جيش من عدة عشرات الآلاف من الرجال[5]، من بين قادته الأغلب بن سالم بن عقال

(1) Repartition, T. Lewicki، ص337، حسب الشماخي.

(2) اليعقوبي (البلدان)، ص345/ 205.

(3) اليعقوبي (البلدان)، ص345/ 205.

(4) ابن خلدون، ج1، ص218.

(5) أربعون ألف رجل يقودهم ثمانية وعشرون قائداً حسب ابن عذاري، ج1، ص72. خمسون ألفاً حسب ابن الأثير، ج4، ص281.

التميمي والد مؤسس أسرة الأغالبة، وقد كان الأغلب الذي عينه هارون الرشيد بعد ذلك حاكماً للزاب يتمتع من قبل بثقة المنصور، لأن هذا الأخير أمر في حالة مقتل ابن الأشعث في القتال بأن يتولى الأغلب مكانه على رأس الحملة[1]. ويقال أن أبا الخطاب جمع، من جانبه، مائتي ألف مقاتل[2].

أمام عدو يتفوق عليه عدداً بشكل كبير راعى ابن الأشعث جانب الحذر وعسكر في سرت، وخدمته، مرة أخرى، النزاعات التي هزت صفوف البربر: فقد اتهمت زناتة أبا الخطاب بمحاباة هوارة على حسابهم، وانضمت مجموعة من زناتة إلى المعسكر المعادي، أي ابن الأشعث. عندها، تظاهر ابن الأشعث بالانسحاب وأخطر أبا الخطاب بهذا الانسحاب عن طريق جواسيسه. لم يكن البربر جنوداً محترفين، ومن ثم انصرم النظام، بل غادر بعضهم المعسكر لحاجة حقولهم وماشيتهم لرعايتهم. عندها بدأ ابن الأشعث القتال وكان له النصر. سقط في أرض[3] المعركة أربعون ألفاً من البربر من بينهم أبو الخطاب المعافري، وقد أرسل ابن الأشعث رأس القائد الأباضي إلى بغداد. لقد مثلت هذه المعركة التي وقعت سنة 761ف[4] بداية النهاية لهيمنة الخوارج على أفريقية.

لم يختف الأباضيون عن المسرح السياسي لأفريقيا الشمالية بالرغم من ذلك، فقد غادر عبد الرحمن بن رستم حاكم القيروان من قبل أبي الخطاب المدينة عندما علم بالنكبة، وأسس المملكة الأباضية الرستمية في تاهرت: وتبع عبد الرحمن[5] مهاجرون من نفزاوة الجنوب التونسي، ولماية من طرابلس

---

(1) النويري، ص374.

(2) ابن عذاري، ج1، ص71.

(3) النويري، ص375.

(4) في صفر 144هـ/ مايو ـ يونيه 761ف حسب البكري، ص68 ـ 140. ربيع الأول/ يونيه ـ يوليه حسب النويري، ص375. ابن عذاري وابن الأثير ـ انظر أعلاه ـ يوضحان فقط 144هـ/ 62 ـ 761ف.

(5) ابن خلدون، البربر، ج1، ص220.

الغرب، ولواتة من برقة. لقد امتدت الهيبة الدينية لتاهرت تحت حكم ابن رستم وخلفائه الثمانية حتى الشرق. واكتسبت هذه المملكة التي كانت مجاورة لمملكة الأدارسة في فاس، ومملكة الأغالبة في القيروان ثراء عريضاً من تجارتها مع السودان، ولم تنته إلا تحت ضربات بربر كتامة الذين حرضهم المبعوث أبو عبد الله الشيعي. وقد بقي إمام تاهرت الرئيس الوحيد المعترف به من أباضيي جبل نفوسة[1].

كان على ابن الأشعث أن يقمع مرة أخرى تمرداً قامت به زناتة الذين انضموا إليه في البداية نكاية. عين ابن الأشعث حاكماً لأفريقية سنة 144هـ/ 62 ـ 761ف وقام بتسمية الأغلب بن سالم عاملاً على الزاب[2]. بالرغم من هزيمتهم الساحقة في سرت تجمع الأباضيون من جديد. هذه المرة في الصحراء. وفي سنة 145هـ/ 63 ـ 762ف بعث ابن الأشعث ضد ودان بجيش قتل كل الأباضيين الذين كانوا فيها[3]. وقد وصل رتل من هذا الجيش إلى زويلة[4] كان على رأسه إسماعيل بن عكرمة الخزاعي[5]. قتل إسماعيل رئيس الأباضية في زويلة، وقد حفظت لنا الرواية اسم هذا الرئيس: عبد الله بن حيان الأباضي[6]، كما طرد إسماعيل المقاتلين[7] حسب أحد المصادر، وأبادهم[8] حسب مصدرين آخرين.

يجب الحذر من مبالغة المؤرخين عندما يتعلق الأمر بأعداد قوات الأعداء وخسائرهم، إن هذه الأرقام ـ وليس من داع للتأكيد ـ لتمجيد النظام وبطولة العرب. زد على ذلك، أنه إذا ما كان تدمير واحة عملاً سهلاً فإن إبادة سكانها

(1) اليعقوبي، البلدان، ص346/ 207 ـ 208.
(2) ابن خلدون، تاريخ أفريقيا، ص58 ـ 59.
(3) ابن عذاري، ج1، ص73. وابن الأثير، ج4، ص281.
(4) ابن عذاري وابن الأثير انظر ما سبق، والنويري، ص376.
(5) النويري ـ انظر ما سبق.
(6) ابن عذاري وابن الأثير ـ انظر ما سبق. يكتب ابن الأثير ابن سنان.
(7) ابن الأثير ـ انظر ما سبق.
(8) ابن عذاري والنويري، انظر ما سبق، نذكر بأن برنشفيق يريد أن يرجع إلى هذه الواقعة سنة 3 ـ 762ف أول فتح لفزان.

ليست عملاً بهذا اليسر. فالصحراء، مثل الجبال، تشكل ملجأ آمناً، وقد جرب الأتراك والإيطاليون هذا في ليبيا. فإذا ما أخذنا بما ادعاه ابن عذاري والنويري من أن أباضية ودان وزويلة قد أبيدو لا يمكننا فهم كيف أن ودان كانت حتى القرن التاسع تحت سيطرة مزاتة الذين نعرف أنهم أباضيون، وأنها كانت تدار من رئيس مستقل لم يكن يقوم بتحصيل الخراج(1). كما لا يمكننا فهم كيف أن أعداداً من الشخصيات الأباضية المرموقة كانت من أصل فزاني في النصف الثاني من القرن الثامن عندما كان الأمر لابن رستم في تاهرت(2). في الحقيقة، فقد الأباضيون مملكتهم في أفريقية نتيجة لما قام به ابن الأشعث ولكنهم حافظوا على تفوقهم السياسي والتجاري في الجفرة وشرق فزان، كما هو الحال في جبل نفوسة. لقد أصبح نشاطهم أكثر خطراً داخل الإسلام مما كانوا عليه عندما كانوا يقاومون الغازي.

آخر الثورات الأباضية في القرن الثامن:

يجب الانتظار قرناً آخر للحصول على معلومات حول الجزء الصحراوي من ليبيا. إن ما شد انتباه المؤرخين خلال هذه الفترة هو تطور الوضع في المغرب الأوسط الخوارجي، والسياسة القيروانية، ويبدو أن حركات التمرد البربرية التي انفجرت في طرابلس الغرب لم تؤثر على الواحات.

في سنة 148هـ/ 66 ـ 765ف ثار الجند(3) الساخطون ضد حاكمهم ابن الأشعث الخزاعي، وبدون قتال أحلوا مكانه أحدهم(4). يرى محمد طالبي في هذه الواقعة حلقة من حلقات الصراع بين عرب الجنوب وعرب الشمال(5). كان

---

(1) اليعقوبي (البلدان)، ص345/ 204 ـ 205.

(2) T. Lewicki في Repartition، ص341، حسب المؤرخين الأباضيين؛ الدرجيني (القرن الثالث عشر) والشماخي (القرن السادس عشر).

(3) كانت كلمة «الجند» تعني حينها الوحدات العربية، وتحت حكم الأغالبة كانت تعني الحراسة الشخصية للأمير، انظر D.Sourdel موسوعة الإسلام (الجند).

(4) ابن عذاري، ج1، ص73.

(5) L'Emirat aghlabide، ص74 رقم 2.

ابن الأشعث من عرب الجنوب[1]، وأطاح به جنود من بني مضر الذين هم من عرب الشمال[2]. لهذا السبب عين الخليفة المنصور حاكماً جديداً رجلاً حاز كل ثقته وتميز أثناء حملة ابن الأشعث: الأغلب بن سالم التميمي، وهو من عرب الشمال[3]، وأوصاه بالعدل. هكذا وافق المنصور بين القوات ورئيسهم. بالرغم من هذا، سقط الأغلب قتيلاً بسهم بعد أقل من سنتين من توليه الحكم أثناء تمرد في القيروان سنة 150هـ/ 68 ـ 767ف[4].

واجه خليفة الأغلب، أبو جعفر بن عمر بن حفص حركات تمرد من البربر في الغرب في الزاب، وفي الشرق في طرابلس الغرب. انتخب أباضيو طرابلس الغرب إماماً ليخلف أبا الخطاب، أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الأباضي الذي استولى على طرابلس بعد مذبحة كبيرة، غالباً في سنة 153هـ/ 770ف، وأصبحت مقراً لحكومته. وقد هزم القوات التي أرسلها عمر بن حفص لنجدة عامل طرابلس، ثم أرسل قواته لمحاصرة قابس والقيروان. وقد ساهم أبو حاتم شخصياً في حصار طبنة مع كل من عبد الرحمن بن رستم من تاهرت، وأبي قرة وهو رئيس مملكة صفرية صغيرة في تلمسان، وتمكن البربر في هذه المناسبة من تجميع اثني عشر فيلقاً بينما لم يتمكن عمر بن حفص من تجميع إلاّ اثني عشر ألفاً وخمسمائة رجل[5]. استمر حصار القيروان أكثر من ثمانية أشهر حتى اضطرت أعداد من السكان لأكل الخيول، والكلاب والقطط

(1) كحالة ـ معجم (انظر خزاعة).

(2) كحاليه انظر (مضر).

(3) كحاليه (انظر تميم). سنلاحظ وجود بني تميم في حضرموت كذلك.

(4) ابن عذاري، ج1، ص75. في شعبان 150هـ/ سبتمبر 767ف حسب النويري، ص378.

(5) ابن عذاري، ج1، ص75 وابن الأثير، ج5، ص31. وابن خلدون البربر، ج1، ص221، يعطي ثلاثة عشر فيلقاً. نجهل لسوء الحظ ما يعنيه هذا الرقم لأن المؤلفين لم يوضحوا لنا أهمية هذه الفيالق التي قدمتها كل قبيلة، فقط بعض فيالق قدرها ابن عذاري، وابن الأثير والنويري، ص380 وابن خلدون (تاريخ أفريقيا)، ص36، وتتراوح أرقامهم (18000 ـ 66000) بالإضافة إلى آخرين كثيرين.

ولجأ آخرون إلى البربر. يقول لنا النويري[1] الذي يصف هذه الواقعة بالتفصيل إن ثلاثمائة وخمسين ألف أباضي (!) شاركوا في هذا الحصار. بالرغم من أن الخليفة أخطر الحاكم بعدم المبادرة بأي عمل خطر لأن الإمدادات كانت في الطريق إليه، إلا أنه حاول الخروج وكانت تلك نهايته[2]. وأخيراً في سنة 155هـ/ 72 ـ 771ف فتحت المدينة أبوابها، ووافق البربر على عدم الانتقام للدماء التي أريقت. كانت إمدادات قد أرسلت بالفعل، ولكنها لم تبلغ القيروان أبداً، لأن أبا حاتم خرج من طرابلس واعترضها وهزمها في مغمداس[3] حسب المصادر الأباضية. ووصل آتياً من مصر جيش عباسي آخر قوي[4] جداً كان بقيادة الوالي الجديد يزيد بن حاتم الأزدي المهلبي. بدأت القبائل البربرية في طرابلس الغرب ـ التي قالوا لنا عنها إنها فقدت أربعين ألف رجل قبل عشر سنوات أثناء هزيمة أبي الخطاب ـ المعركة في مارس 772ف. وتمت إبادة هذه القبائل دون أن تتمكن من الدفاع عن طرابلس. وقد قتل في هذه المعركة[5] أبو حاتم وأغلب أفراد أسرته وثلاثون ألفاً من البربر. ولّى يزيد حكومة طرابلس

---

(1) انظر صفحة 382.

(2) ابن عذاري، ج1، ص76. وابن الأثير، ج5، ص32، والنويري، ص383.

(3) T. Lewicki-A.De MotyLinski، موسوعة الإسلام (انظر أبو حاتم الملزوزي). و E. Rossi في Storia de Tripoli، ص42 ورقم 16.

(4) ستين ألف رجل حسب ابن الأثير، ج5، ص33، وابن خلدون (تاريخ أفريقيا)، ص67. وتسعين ألفاً حسب النويري، ص384.

(5) وقعت المواجهة في سرت حسب ابن الرقيق، ص143، ووقعت في جبل نفوسة حسب النويري، ص384، (هو المؤلف الذي يذكر عدد الخسائر البربرية ويضيف أن العرب لم يفقدوا إلا ثلاثة رجال حسب بعض المؤلفين الآخرين)، وفي الأراضي التونسية الحالية حسب مصادر أباضية، A. de T. Lewicki-Motylinski في موسوعة الإسلام (انظر أبو حاتم الملزوزي) وE. Rossi في Storia di Tripoli، ص42 ورقم 18. حسب ابن خلدون (تاريخ أفريقيا) كانت هناك معركتان، وقعت الأولى في جبل نفوسة حيث كان أبو حاتم مطارداً من يزيد، وقد هُزم هذا الأخير، وفي المعركة الثانية التي لم يحدد ابن خلدون موقعها استطاع يزيد هزيمة أبي حاتم. يذكر ابن خلدون مقتل ثلاثين ألفاً في صفوف البربر. حول صراعات أبي حاتم انظر W. Schwartz في Die Ahfange ص203 ـ 235.

لسعيد بن شداد وزحف على القيروان التي استولى عليها في مايو 772ف، بينما كان فرسانه يطاردون الأباضيين ويقتلونهم حيثما وجدوا. وفي عهد يزيد، حدث تمرد بربري أباضي آخر سنة 156هـ/ 73 ـ 772ف في طرابلس الغرب بقيادة أبي يحيى بن فانوس الهواري. وقعت المعركة على الشاطىء بالقرب من طرابلس. وقد قُتل[1] قائد التمرد وكل رفاقه. نال هذا العقاب الرادع من عزيمة الأباضيين، وعاد إلى البلاد هدوؤها في عهد خلفاء يزيد بن حاتم (من 170هـ/ 87 ـ 786ف) إلى (184هـ/ 801 ـ 800ف) وكانت الطرق آمنة «وبسبب الخوف، التزم البربر بما عليهم من واجبات»[2].

سيُلاحظ في سنة 174هـ/ 91 ـ 790ف عند وفاة روح بن حاتم المهلبي شقيق يزيد، وثاني خلفائه أن مدينة برقة لم تعد جزءاً من عمالة أفريقية[3]. يجب إبراز هذا المؤشر لأن الجغرافيين والمؤرخين العرب بخلاء عادة بالمعلومات المتعلقة بتبعية مدينة برقة، وسرت والواحات الصحراوية. إنهم يتحدثون عن منزل، وقرية، ومدينة، وناحية، وبلاد وإقليم، وأرض وعمالة دون التدقيق لأي ولاية تتبع هذه الكيانات، وعما إذا كانت مستقلة داخلياً نسبياً. إذا كان من الممكن الثقة في المعلومات التي أوردها ابن الرقيق فإن برقة التي كانت أثناء الفتح جزءاً من مصر انتقلت تحت سلطة حكام القيروان في تاريخ غير محدد قبل أن تلتحم من جديد مع مصر في نهاية القرن الثامن.

اختفى الخطر البربري، إذ إن روح بن حاتم عقد حلفاً مع عبد الوهاب بن رستم في تاهرت[4]. وكانت القلاقل الوحيدة التي شهدها حكام القيروان قبل وصول الأغالبة إلى السلطة بسبب اضطرابات الجند. لقد تطلب

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص79، الذي يسمي قائد العصاة أبي يحيى بن قرياس الهواري. بالنسبة لابن الأثير، ج5، ص40. وابن خلدون (البربر) يسمي قائد العصاة ابن فوناس.

(2) النويري، ص387.

(3) ابن الرقيق، ص173.

(4) ابن خلدون، تاريخ أفريقيا، ص71.

الوضع تصميم هرثمة بن أعين، والي القيروان من قبل هارون الرشيد، الذي وصل إليها في يونيو 795ف ليضع حداً لهذه الاضطرابات، مؤقتاً[1]. وضع هارون الرشيد، باستبدال الفضل بن روح المهلبي الخليفة الرابع ليزيد بن حاتم المهلبي بهرثمة وهو قائد قديم يثق في ولائه الثابت، حداً لتوجه بتكوين أسرة من آل المهلبي. ويرجع الفضل لهؤلاء في نظر الخليفة بأنهم بسياسة الحزم التي اتبعوها تجاه المتمردين وسياسة الصداقة تجاه تاهرت تمكنوا ـ على الأقل ـ من تسوية المسألة البربرية.

بعد ذلك بسنتين، ضاق هرثمة ذرعاً بروح الحزبية المستمرة في الولاية بالرغم من كل جهوده، وطلب إلى الخليفة أن يعفيه من منصبه. اختار هارون الرشيد محمد بن مقاتل العكي، أخاه في الرضاعة، حاكماً لأفريقية. تسلم الوالي الجديد مسؤولياته في نوفمبر 797ف. وكان إدارياً في غاية السوء استبد بالناس وجار عليهم. وقد قام باستقطاعات من رواتب الجند حسبما أورد النويري[2]، واستأثر برواتبهم حسب ابن عذاري[3]، وهو ما حرك ضغائن الجند وطموحاتهم. كان جند تونس بقيادة تمام بن تميم التميمي هم الذين قادوا التمرد. وتمت العودة من جديد إلى التنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال[4]. هرب الوالي إلى سرت ثم رجع إلى طرابلس[5]. كان إبراهيم بن الأغلب الحاكم القوي للزاب في انتظار الفرصة المناسبة في الوقت الذي كانت الاضطرابات فيه تهز أفريقية وتثير قلق الخليفة. وقد كان هذا الابن للقائد الأغلب، الذي رافق الحاكم ابن الأشعث في حربه على الأباضيين، يحظى بثقة

(1) ابن عذاري، ج1، ص89، ابن خلدون تاريخ أفريقيا، ص77 ـ 82. نذكر بأن هرثمة هو الذي أمر بتعلية سور طرابلس من جانب البحر. انظر ما سبق، ص60.
(2) ص395.
(3) البيان، ج1، ص89.
(4) العك القبيلة التي ينتمي إليها الحاكم الجديد يمانية، وتميم من عرب الشمال (انظر كحالة ـ معجم المؤلفين).
(5) من سوء الحظ أن المؤرخين العرب لا يخبروننا حول وضع هذه المناطق في تلك الفترة.

من هارون الرشيد تعادل الثقة التي كانت للمنصور في والده. ورغبة منه في تأكيد إخلاصه أكثر للعباسين، زحف إبراهيم بن الأغلب على القيروان التي أخلاها المتمرد وأعاد ابن مقاتل إلى منصبه. طلب تمام، بعد معارك عديدة، الصفح من إبراهيم الذي أرسله إلى بغداد سجيناً.

حقد الناس على ابن مقاتل، فقام الخليفة باستدعائه وعين بدله إبراهيم بن الأغلب في منتصف يوليه سنة800ف. هناك روايتان حول هدف هارون الرشيد من هذا الاختيار. «كان يبعث كل سنة من مصر إلى صاحب أفريقية مبلغ ستمائة دينار، وكتب إبراهيم بن الأغلب إلى هارون الرشيد ليعلمه عن استعداده للحكم بدون هذا المبلغ[1]». يدعي مصدران آخران أن ما كان مخصصاً لأفريقية من مصر بأمر من الخليفة كان يصل إلى مائة ألف دينار، وهي إعانة تنازل عنها إبراهيم، وذهب إلى حد القول باستعداده في حالة تعيينه والياً لدفع مبلغ قدره أربعون ألف دينار[2] للخليفة. وتبرز رواية ثانية صاحب ديوان البريد. فقد كتب هذا الأخير إلى الخليفة ليخيطه علماً بحوادث أفريقية. طلب هارون مشورة هرثمة الذي كان يعرف جيداً الرجل والبلاد. شدد هرثمة على توصية الخليفة بإبراهيم باعتباره رجلاً مخلصاً ومحبوباً وكان سلوكه دائماً مسانداً لسلطة الخلافة[3]. هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها الإعانة المصرية لأفريقية، وهو أمر مثير للدهشة لأن مصر وأفريقية كانتا ولايتين منفصلتين منذ قرن. يمكننا افتراض أن ثورات البربر بما كانت تتطلبه من إمدادات أكثر وأكثر

---

(1) اليعقوبي تاريخ، ج2، ص412.

(2) ابن الأثير، ج5، ص104، وابن خلدون تاريخ أفريقيا، ص84 ـ 86 وهو يؤكد أن سكان أفريقية هم الذين دفعوا إبراهيم للتطلع لهذا المنصب.

(3) ابن الرقيق، ص220، والنويري، ص398، وابن خلدون، المرجع السابق، الذي يضيف أن هارون الرشيد عندما استلم اقتراح هذا الذي لم يكن عندها إلا حاكماً للزاب، استفسر من هرثمة الذي أعطاه الإجابة التي أوردها المؤلفان الآخران المذكوران هنا. في حوزتنا واحد من هذه الدنانير التي تعهد بها إبراهيم للخليفة. إنه سك خاص يحمل عبارة «للخليفة». م. طالبي في L'Emirat Aghlabide، ص109، رقم 1.

تكلف غالياً في شكل مرتبات تدفع للجند. لقد كانت البلاد عاجزة عن دفع مستحقاتهم. لنتذكر موقف عبد الرحمن بن حبيب الذي رفض إرسال الذهب والعبيد إلى المنصور، وكان لهذا سببه! كانت أفريقية قد استنزفت.

ابتداءً من 184هـ/800ف، لدينا دراسات تفصيلية ونهائية حول أفريقية ما لم تكتشف مخطوطات غير معروفة حتى الآن. عليه، ليس من المفيد الاستمرار في متابعة سياسة هذه المنطقة بكاملها. يضاف إلى هذا، أن الصحراء الليبية لم تعد مُتجاهلة من المؤلفين العرب في القرون الوسطى، وعليه يمكننا أن نزود بمعلومات في هذا المجال، قليلة في البداية حقاً ولكنها دقيقة إلى حد ما دون اضطرارنا لإجراء استنتاجات انطلاقاً من الوضع في الشمال، وهي استنتاجات تُعرف مخاطرها. فيما يتعلق بالأحداث والوضع في أفريقية وشمال ليبيا نعيد القارىء إلى هذه الدراسات الوافية[1].

---

(1) بالنسبة للقرن التاسع: محمد طالبي في L'Emirat Aghlabide، و M. Vonderheyden في La Berberie Orientale Sous La dynastie des Banou l. Arlab. بالنسبة للقرن العاشر: F. Dachraoui في Le Califat Fatimide au Maghreb. من القرن العاشر إلى الثاني عشر: H.R.Idris في La Berberie Orientale sous Les Zirides. حول غزو بني هلال ومن القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر: R. Brunschvig في La berberie Orientale sous Les Hafsides. حول شمال ليبيا: E. Rossi في Storia di Tripoli، وباللغة العربية، الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب والبرغوثي في تاريخ ليبيا الإسلامية، والزاوي في تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ولنفس المؤلف، ولاة طرابلس، وباستثناء كتاب البرغوثي الذي يحتوي على بعض الملاحظات، الكتب الأخرى لا تورد أي مراجع.

أفريقيا الشمالية

من سنة 800ف إلى وصول بني هلال

القرن التاسع:

مصر:

عرفت مصر خلال القرن الثامن الكثير من حركات التمرد: ثورات الشيعة والخوارج والقبائل العربية وبربر لواتة في برقة. وشكلت إحدى حركات التمرد التي انفجرت في برقة، سنة 759ف خطراً حقيقياً على السلطة العباسية. فقد جمعت هذه الحركة البربر، الذين أصبحوا خوارج، وأنصار الأمويين. وتطلب قمع هذا العصيان من حاكم مصر جيشاً قوامه عشرون ألف رجل، وزُود بدعم فيما بعد. كما كان على ولاة مصر المتعاقبين، من نهاية القرن الثامن وطوال النصف الأول من القرن التاسع، إخضاع الأقباط، وبعض المطالبين بالخلافة، وبدو رحل من العرب الذين كانوا يسلبون القوافل ويرفضون دفع الضرائب. وفي سنة 854ف، ألغى النوبيون المعاهدة التي كانت تربطهم بالمسلمين وتنص على إرسال جزية سنوية من العبيد مصحوبين بجمال وحيوانات غريبة، وعاثوا حرقاً وقتلاً في الصعيد. ألقى الخليفة بكل ثقله العسكري في الحملة لإخماد هذه الحركة، وأخذت القوات العربية النوبيين في حركة كماشة انطلاقاً من النيل والبحر الأحمر وهُددت دنقلة، فهرب النوبيون، الذين كانوا سيئي التسليح والركوبة، أو أبيدوا.

ابتداء من سنة 856ف أصبحت مصر تدار بحكام أتراك. وقد جاء أحدهم، أحمد بن طولون، الذي كان ابناً لعبد برز بتميزه في وظائف عالية في قصر المأمون، واستلم منصبه سنة 868ف. وبالرغم من أنه جاء بداية ممثلاً للحاكم المسمى من الخليفة، إلا أنه لم يتأخر في تحويل وضعه إلى حاكم بصفته، ثم اعتبر نفسه، بعد ذلك بقليل، حاكماً مستقلاً. كان أحمد بن طولون رجلاً ذكياً، مثقفاً نشطاً[1] تمكن من بسط سيطرته على سوريا، ومصر إلى برقة[*] غرباً وأسوان جنوباً حتى وإن كان الصعيد يخرج عن طاعته أحياناً. وقد استمرت الأسرة الطولونية في السلطة حتى سنة 905ف.

هناك واقعتان تشدان الانتباه في عهد ابن طولون. تتمثل الأولى في إعطاء الحاكم ـ أي ابن طولون ـ في تاريخ غير محدد الأمر بمنع استعمال الطرق المباشرة المؤدية من الواحات الداخلة والواحات الخارجة إلى برقة وفزان[2]. كان السبب وراء هذا المنع مهاجمة العواصف الرملية منذ سنوات عديدة للمسافرين وتسببها في ضياع الكثير من القوافل. كما لم يكن الخوف من عصابات النهب ببعيد عن هذا المنع، كذلك. كان الطريق المباشر الخارجة ـ الداخلة ـ زويلة، يمر لا محالة، بالكفرة ـ واو الناموس ـ واو الكبير. إن هجر هذا الطريق يفسر تقلص معلوماتنا عن واحات جنوب إقليم برقة إلى أقل من القليل، حتى لم يعد أمامنا ـ كما سنرى ـ إلا طرح افتراضات حذرة. كما يبرر هجر الطريق الداخلة ـ برقة[*] مروراً بسنترية ـ سيوة صمت الجغرافيين العرب، باستثناء البكري، عن الطريق جنوب شرق ـ شمال غرب.

تتعلق الواقعة الثانية بالعباس بن أحمد بن طولون. فقد انتهز فرصة غياب والده الذي كان في حملة على سوريا، وتمرد سنة 265هـ/ 79 ـ 878ف واستولى على أموال الخزينة الطولونية، وتوجه إلى برقة بثمانمائة فارس، وعشرة آلاف

---

(1) ابن خلكان، ج1، ص153 ـ 155.

(*) برقة تعني مدينة المرج الحالية، المترجم.

(2) ابن حوقل، ص61 وص153/ ج1، ص58 وص151.

جندي أسود، وخمسة آلاف جمل. طلب العباس مساعدة قبائل البربر في إقليم برقة وخليج سرت، وقد رفض كثيرون منهم طلبه وانضم إليه آخرون أقل عدداً. وقام العباس بنهب لبدة وهدد طرابلس التي حاصرها بواسطة المجانيق طوال ثلاثة وأربعين يوماً لم يستطع خلالها الحاكم، محمد بن قرهب، القيام بأي محاولة خروج. كان العباس يحلم بأن يؤسس مملكة أفريقية وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب مدعياً أن الخليفة أعطاه ولاية أفريقية. استنجد سكان المدن ضحايا نهب العباس بإلياس بن منصور حاكم جبل نفوسة من طرف إمام تاهرت، ، وقد استجاب إلياس لطلبهم بعد أن علم بعمليات الاغتصاب التي كانت ضحاياها نساء لبدة والقرى. في نفس الوقت أرسل الأمير الأغلبي ألفاً وستمائة فارس في البداية، ثم إمدادات كبيرة لاحقاً. تمكنت هذه القوات، بالتحالف مع الاثنى عشر ألف محارب نفوسي الذين سارع بإرسالهم إلياس وقوات الحاميات التي تحررت أخيراً، من هزيمة جيش العباس. وقع الصدام غير بعيد من طرابلس في حوالى منتصف سنة 267هـ/ يناير ـ فبراير 881ف. رجع العباس إلى برقة تاركاً أمواله، حيث كانت قوات والده في انتظاره. وتم أسره في يناير 882ف ومات في السجن[1].

إذا كانت رواية هذا التمرد تفيدنا بأن برقة كانت واقعة على أعتاب المنطقة الطولونية، إلا أنها ـ للأسف ـ لا تعلمنا بأي بيانات دقيقة عن الحد الفاصل بين الممتلكات الأفريقية والمصرية. حسب اليعقوبي، كان حد ولاية برقة، في القرن التاسع، يقع عند تاورغاء، وهي موضع على مسافة أربعين كيلومتراً جنوب مصراتة، وعلى بعد مائتين وخمسين كيلو متراً شرق طرابلس. عليه كانت سرت جزءاً من مقاطعة برقة وكذلك ودان التي كانت تتبع سرت[2].

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص117 ـ 119. وابن الأثير، ج6، ص21. وابن سعيد (المغرب)، ص119. وابن الخطيب، ص17. وابن خلدون (العبر، ج3، ص669/ وتاريخ أفريقيا، ص128). انظر كذلك محمد طالبي في L'Emirat Aghibide، ص346 ـ 353. وزكي م. حسن، ص62 ـ 76.

(2) اليعقوبي، البلدان، ص344 ـ 345/ 203 ـ 205.

في القرن التاسع تقاسمت شمال أفريقيا[1]، ثلاث ممالك عظيمة، وكان رؤساء هذه الممالك وعدد من سكانها المؤثرين من أصول شرقية.

الأدارسة في فاس

في الغرب، كانت مملكة الأدارسة العلوية تمتد من الأطلسي إلى ملوية، وحتى إلى تلمسان وكانت مدينة فاس قد تأسست منذ مدة قصيرة. كان إدريس ابن عبد الله، الذي هرب من قمع المنصور، قد وصل المغرب سنة 788ف ومكّنه البربر الأوربة من السلطة ـ أعلن نفسه إماماً سنة 789ف ـ وذلك لنفس السبب الذي جعل البربر الآخرين ينضمون لحركة الخوارج، أي رد الفعل ضد طغيان السلطة المركزية. وقد أسند ابنه وظائف مهمة في الدولة لعرب من إسبانيا وأفريقية. وبالرغم من بعض الاضطهاد للأوربة تمكنت مملكة الأدارسة، التي قُسمت إلى عشر إمارات مدارة بأبناء إدريس الثاني العشرة من المحافظة على سلطتها على قبائل بربرية كثيرة طوال قرن من الزمان.

إمامة تاهرت:

تأسست إمامة تاهرت الأباضية في وسط أفريقيا الشمالية آخر القرن الثامن بواسطة عبد الرحمن بن رستم الذي هرب من القيروان بعد الهزيمة التي ألحقتها القوات العباسية بقيادة ابن الأشعث بالبربر أتباع أبي الخطاب المعافري. امتدت هذه الإمامة من تاهرت الواقعة على مسافة مائة وخمسة كيلو مترات ـ مقاسة في خط مستقيم ـ من غربي وهران إلى جبل نفوسة مروراً بالجنوب التونسي الحالي، حتى قفصة في الشمال، والجريد والمناطق الصحراوية. جذبت تاهرت، التي وصل إشعاعها الثقافي والفقهي والتجاري حتى المشرق، من العلماء بقدر ما جذبت من التجار وذلك حتى سنة 911ف، تاريخ الاستيلاء عليها

(1) نذكر بوجود مملكة صغيرة صفرية في سجلماسة في هذا العصر، كانت لها علاقات ممتازة مع إمامه تاهرت الأباضية التي كان ثراؤها بسبب التجارة مع السودان.

من القوات الشيعية. وقد أجج بعضهم بريقها الثقافي، واهتم آخرون بالانتفاع من موقعها المتميز ملتقى عدد من الطرق العابرة للصحراء وهو ما أثراها[1].

يذكر ابن الصغير الذي كتب حوليات للإمامة الرستمية حوالى سنة 3 ـ 902ف أن تاهرت تاجرت مع السودان منذ بداية عهد عبد الرحمن بن رستم، أي مع بداية الربع الأخير للقرن الثامن[2]. لا يذكر المؤلف ـ لسوء الحظ ـ مع أي منطقة في السودان كانت هذه المتاجرة. ويذكر الفزاري الذي كتب في النصف الثاني من القرن الثامن ثلاثة مناطق[3]؛ غانا بلاد الذهب وكانت تغطي جنوب موريتانيا الحالية والنيجر الأوسط وتمتد حتى الآيير، وورام وكانت تحتل مصب نهر السنغال، والنخلة (نجالا؟) وكانت تقع في شمال بورنو[4]. من المحتمل أن تجارة تاهرت كانت تتوجه نحو السودان الغربي والأوسط سالكة الطريق الذي يؤدي إلى جنوب موريتانيا عبر سجلماسة الصفرية، أو الطريق المباشر الذي كان يقود إلى تادمكة (السوق حالياً في أدرار أفوغاز) عبر ورقلة الأباضية لينتهي في جاو (كوكو). نستطيع أن نفترض، بالرغم من أننا لا نملك أي معلومات حول الموضوع، أن تاهرت كانت تحقق مكاسب، كذلك، من الطرق المؤدية من نخلة إلى زويلة لأن هذه الواحة بقيت أباضية بالرغم من النصر الذي حققه ابن الأشعث، وقد أكد الجغرافيون[5] أن دروباً عديدة كانت تربطها مع المناطق الأباضية في الشمال. هكذا بشكل مباشر أو غير مباشر كانت

---

(1) نجد وصفاً لمدينة تاهرت عند اليعقوبي (البلدان)، ص258 ـ 359/ 224 ـ 225. وابن حوقل، ص86/ ج1، ص83. والمقدسي، ص22 ـ 23. والبكري، ص66 ـ 67/ 138 ـ 139. والإدريسي، ص87/ 100 ـ 101. وياقوت، والحميري (انظر تاهرت). يؤكد المؤلفون على المناخ المناسب للمدينة، وكثرة مياهها، ويصفون سوقها وقلعتها وخانات القوافل، ويعبرون عن دهشتهم من عدد حماماتها وغناها من الرعي والزراعة ونشاط تجارتها.

(2) النص من T. Lewicki في L'Etat nord-africain de Tahart، ص515.

(3) النص عند J.M.Cuoq في Recueil، ص42 ـ 43.

(4) T. Lewicki، المرجع المذكور، ص517. وG, Nachtigal، ج2، ص250.

(5) انظر ما سيلحق في الفصل حول الطرق.

الطرق العابرة للصحراء تنقل نحو الإمامة الثروتين السودانيتين الهائلتين: الذهب والعبيد. وكان في الحاضرة الأباضية تجار من البصرة والكوفة يمتلكون متاجرهم ومساجدهم الخاصة.

بالرغم من أن سياسة الإمامة لم تكن عدوانية (باستثناء تدخل لمساندة قبائل هوارة الطرابلسية سنة 811ف) كان الممر الجنوبي الذي يصل تاهرت بجبل نفوسة يمثل خطراً عسكرياً للأغالبة. والأهم، أن هذا الممر كان يمنع وصول أرباح جزء من التجارة الصحراوية إلى شمال تونس. كان من الضروري لمملكة الشمال أن تحتل الجريد. في سنة 224هـ/ 9 ـ 838ف اخترق القائد الأغلبي عيسى بن ريعان الأزدي الحصار الأباضي ودخل قفصة وتوزر/ قسطيلية وأوقع مذبحة في تحالف من لواتة، وزواغة ومكناسة[1]. بالرغم من أن الأغالبة لم يضموا نفزاوة في الجنوب الشرقي إلا سنة 897ف، إلا أن الاستيلاء على الجريد كان كافياً لتقسيم المنطقة الأباضية إلى قسمين ومنع الطريق كوار ـ زويلة ـ نفوسة من التوجه نحو الغرب، نحو تاهرت عبر توزر، وتحويله نحو طرابلس الخاضعة للأغالبة. كما قد يكون الطريق الجنوبي عبر غدامس قد تم انتزاعه من الأباضيين. ويعتبر ابن خرداذبه، المتوفى سنة 885ف، هذه الواحة في عداد أقاليم الأغالبة[2].

نال القضاء على قبائل نفوسة من الموارد الاقتصادية لتاهرت، بشكل أبعد

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص107، وابن خلدون، تاريخ أفريقيا، ص111. وانظر كذلك T. Lewicki في Les Ibadites en Tunisie، ص 10 ـ 14 ولنفس المؤلف quelques Extiaits، ص13، ولنفس المؤلف Repatition، ص300 ـ 311.

(2) المسالك ـ طبعه حاج صدوق. لا يمكن اعتبار هذه المعلومة مؤكدة لأن ابن خرداذبه يلاحظ أيضاً أن ودان من بين أملاك الأغالبة ولكن جبل نفوسة لم يضمه الأغالبة إلا بعد وفاة المؤلف، فكيف تكون هذه الواحة تتبع الأغالبة والتي يقول اليعقوبي بتبعيتها لسرت التي كانت طولونية، وكانت معزولة بجبل نفوسة. يجب افتراض وجود ممر تابع للأغالبة ودان ـ طرابلس مقوس نحو الشمال الغربي، وهو ممر لم يذكره أي مؤلف. إن عدم ثقتنا التي أثارها التأكيد بخصوص ودان تمتد إلى ما قيل حول غدامس.

أثراً. حاول إبراهيم الثاني، الملك الأغلبي، (875ف ـ 902ف) في بداية عهده أن يتبع سياسة ذكية وعادلة. واضطر ـ لسوء الحظ ـ أن يواجه تعقيدات متنوعة. لقد أثارت صعوبات اقتصادية حركات تمرد وعصيان. كما أن حرصه على حماية الضعفاء، الذي ذهب به إلى حد العشوائية، كلفه غضب الأغنياء والميسورين ومعارضة الفقهاء، فلجأ عندها إلى إعدامات كثيرة. كما اضطر لقمع إضراب الجند ومواجهة ثورات البربر من الزاب حتى شمال تونس[1]. كانت الفظائع التي ارتكبها الأمير وأعمال جنونه القاتلة كثيرة لا يمكن حصرها[2]. في محرم 283هـ/ فبراير 896م زحف ابراهيم الثاني على مصر. هل كان يريد حقاً مهاجمة الطولونيين أم لم يكن إعلان نواياه إلا حيلة تهدف إلى مباغتة ابن عمه محمد بن زيادة الله الثاني الذي كان حينها الحاكم الأغلبي لطرابلس؟ كان الخليفة (العباسي)(*) المعتضد (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902ف) يرغب في إعادة تثبيت سلطته الفعلية على مصر الطولونية وأفريقية الأغلبية اللتين كانتا خاضعتين للاستبداد الدموي لكل من أبي العساكر جيش بن خمارويه[3] وإبراهيم الثاني. في مصر، ساند المعتضد الضباط الثائرين ضد أبي العساكر جيش. وفي أفريقية تآمر مع محمد بن زيادة الله الثاني وحرضه عملياً على الثورة ضد الأمير. من المحتمل أن أسباباً ثلاثة كانت وراء قرار إبراهيم الثاني: الغيرة التي كان يحس بها تجاه ابن عمه الذي يعرف أنه إداري أحسن منه، والتصميم على إحباط مرامي الخليفة، والرغبة في الانتقام من الأسرة الطولونية بعد محاولة العباس الفاشلة في الاستيلاء على طرابلس[4]. زحف جيش الأغالبة القوي بعد استعدادات طويلة نحو الشرق. وتوجهت قبائل نفوسة والقبائل التي

(1) ابن عذاري، ج1، ص116 ـ 129.

(2) حول هذه الجرائم، انظر النويري ص436 ـ 438.

(*) إضافة من المترجم للتوضيح.

(3) عن هذه الشخصية ، انظر S. Lane-Poole في A. History of Egypte، ص75.

(4) عن هذه الوقائع، انظر م. طالبي في L'Emirat Aghlabide، ص299 ـ 300.

انضمت إليها ـ بلغ عددهم عشرين ألف رجل ـ لملاقاة جيش الأغالبة. ووقعت المعركة بين الفريقين في مانو (مارث على الخرائط الحالية) جنوب قابس وأدى الصدام لخسائر ضخمة في الجانبين. قاومت قبائل نفوسة حتى النهاية بالرغم من فرار قائدهم أفلح بن العباس، وفقدوا ـ كما أورد الشماخي ـ اثنى عشر ألف مقاتل وأربعمائة عالم، وأُخذ ثمانون عالماً آخرين أسرى[1]. كان انتقام إبراهيم الثاني فظيعاً فقد توغلت قوات الأغالبة في مواطن نفزاوة ثم جبل نفوسة وخربتهما. وقام إبراهيم الثاني في طرابلس بإعدام ابن عمه الحاكم محمد زيادة الله الثاني وقضى على كل أطفاله، وبقر بطون نسائه ليستأصل منها الأجنة. واصل إبراهيم الثاني زحفه نحو الشرق ولكنه اضطر للعودة على عقبيه عند وصوله إلى تاورغاء حسب ابن عذاري وكتاب العيون والنويري، وإلى سرت حسب ابن خلدون، بسبب كثرة الانقسامات في صفوفه وتخلي أعداد كبيرة عنه. قام إبراهيم الثاني في الحقيقة بأعمال مرعبة ومؤلمة انقلبت ضده، فقد قام بطهي رأس خمسة عشر شخصاً كان قد قام بإعدامهم، مدعياً أن هذا الطعام المتميز أعد ليتلذذ به هو شخصياً ورفاقه. لم يكن لهذه النكتة الثقيلة، أو الاستراتيجية[2]، الأثر المتوخى لأن القوات كانت تتصور أن قائدها أصبح مجنوناً، وهو التصور الذي كانت قد أثارته من قبل أعمال القتل البربرية التي

---

(1) منقولاً من م. طالبي، المرجع المذكور ص302.

(2) «تظاهر بأنه يريد أكلهم» يخبرنا ابن عذاري، ج1 ص129. من الممكن أن الأمر يتعلق بدعابة من التي يتلذذ بها هذا المجنون. وقد تكون كذلك مناورة لترويع العدو. لقد رأينا مثلاً منها مع قوات موسى بن نصير في إسبانيا. ومع ذلك وجدت حالات أكل لحم أدامي حقيقية. في مايو 988ف رمى الأمير الزيري المنصور للأكل لصنهاجة وعبيده القائد الكتامي أبا الفهم وقد شويت كبله والتهمها أحد رجال الأمير واقتسم الآخرون اللحم. انظر ابن عذاري ج1 ص243. قد تكون مورست الإدامة الحقيقية من قبل الجنود السود الذين يحيط أمراء الشمال الأفريقيون والمصريون بهم أنفسهم ولكن يجب ملاحظة أن نظام الغذاء السوداني قد يختلف حسب الزمان والمكان: في القرن الحادي عشر يشير البكري إلى أن الدمدامة في غرب جاو على نهر النيجر كانوا يلتهمون الأجانب ـ نقدر أن منهم البيض ـ بينما في القرن الرابع عشر يؤكد ابن بطوطة أن آكلي لحوم البشر في مملكة مالي لا يأكلون لحم البيض لأنه مضر ولأنه لا ينضج.

أتاها بفرح وقح في القيروان. كان عدد الجنود الذين تخلوا عنه كثيراً. لم يستطع إبراهيم الثاني[1] مهاجمة الصحراء السرتية ولم يتمكن من الوصول إلى الأباضية الصحراويين ومن ثم سلك طريق القيروان[2] عائداً. هكذا انتهت قوة قبائل نفوسة واستقلالها. باحتلال الجريد ونفزاوة التونسية عزلت القيروان تاهرت عن ممتلكاتها الشرقية وبإخضاعها جبل نفوسة استولت على هذه الممتلكات. وكان يمكن أن تعود فوائد التجارة عبر الصحراء إلى الأغالبة.

لم يكن تحول فوائد التجارة نحو إقليم الأغالبة هو الذي نال من تاهرت، لأن الطريق المباشر نحو الجنوب ـ عبر ورقلة وتادمكة نحو كوكو ـ والطريق نحو الجنوب الغربي ـ سجلماسة ـ، ثم نحو الجنوب ـ في اتجاه غانا ـ كانت تكفي لتغذية موارد ثرائها، فقد كانت طرق الذهب والعبيد لا تزال مفتوحة أمامها. كانت الإمامة تهتم فقط بالتجارة، والمسائل الفقهية والقضائية وفحص الشيوخ النقدي لمسلك الإمام وقراراته (وقد عزل إمامان ثم أعيدا إلى موقعيهما). لم تكن تاهرت عدوانية بطبيعتها. وتعودت السلطة فيها على الوساطة مع معارضيها الداخليين مهما كان المجال المختلف حوله ولم تستطع أو لم ترغب في التسلح حتى عندما زعزعت القلاقل الداخلية السلام خلال الربع الأخير من القرن التاسع. وهذا ما يفسر انتهاء الإمامة. كانت قد أُضعفت ـ من قبل ـ بسبب الصراعات التي استمرت سبع سنوات من أجل السلطة بين المنحدرين من ابن رستم وهم اللواتيون، والهواريين من فخذ بني مسالة ومن ثم لم تعد تاهرت قادرة، في سنة 909ف، على المقاومة العسكرية للفاطميين الذين خربوها[3].

---

(1) خوليطه: يكون مشوشاً.

(2) حول غزوة إبراهيم الثاني هذه، انظر ابن عذاري، ج1، ص129 ـ 130، وكتاب العيون ص67 ـ 68، والنويري ص429 ـ 431، وابن خلدون، تاريخ أفريقيا ص130 ـ 132، وكذلك محمد طالبي المرجع المذكور ص297 ـ 304، وE. Rossi في Storia di Tripoli ص47.

(3) حول إمامه تاهرت، انظر B. Zerouki في L'Imamat de Tahart ج1، وU. Rebstock في Die Ibaditen im Magrib ومقالات T. Lewicki: L' Etat nord-africain de Tahart. هناك مملكة أباضية معروفة قليلاً: L'Etat de Banu Masala القرن التاسع، Les Ibadites en Tunisie، وTraits d'histoire.

إمارة الأغالبة:

عين هارون الرشيد، في سنة 800ف، إبراهيم بن الأغلب حاكماً لأفريقية وأعطاه الحق في نقل اختصاصاته وراثياً. كان الأمر يتعلق ـ في الحقيقة ـ بإمارة مستقلة تعترف بالسيادة العباسية. كانت ممتلكات إمارة الأغالبة تقتصر في البداية على شمال تونس الحالية والساحل الطرابلسي حتى مسافة قصيرة بعد مدينة طرابلس شرقاً. لم تكن الإمارة تمارس سلطتها إلا على الحضر السنيين في الشمال وكان الأباضيون الشرقيون أو الأفريقيون وكذلك البربر ـ سكان الواحات والرحل أو الجبليون ـ خارج سلطتها. احتفظ الأغالبة لمدة طويلة بعلاقات جوار ممتازة مع مصر وإمامة تاهرت. ولم ينتج عن غزو العباس لليبيا ـ التي كان ابن طولون نفسه ضدها ـ إلا حملة انتقام انهيت بسرعة، إذا لم يكن الأمر يتعلق بمجرد تظاهرة. يبدو أن الغزوات ضد الإمامة، المشغولة بمناقشاتها الفقهية والقضائية ثم بصراعاتها الداخلية، لم تقلقها، وبالرغم من الاستيلاء على الجريد سنة 39 ـ 838ف، وهزيمة نفوسة سنة 896ف، وضم الأغالبة لنفزاوة سنة 897ف لم تفكر الإمامة قط في إجراءات مضادة. كما لم تثر العلاقات بين الخلافة والأغالبة أي صعوبات إذا ما استثنينا مؤامرة المعتضد مع حاكم طرابلس الأغلبي، ابن عم الأمير من أجل الإطاحة بهذا الأخير الذي عرَّض بسلوكه المجنون الإمارة للخطر.

كانت القيروان وهي مدينة كبيرة ثقافية ودينية ـ توفى فيها الإمام المالكي سحنون مؤلف المدونة سنة 854ف ـ واقتصادية تمارس سياسة مائية ممتازة. فقد أصلحت الكثير من المنشآت الهيدروليكية الرومانية[1]، كما أقامت منشآت كثيرة أخرى خاصة حوض القيروان الشهير. ويعود الفضل للأغالبة في ترميم جامع القيروان الكبير وتوسيعه، وبناء جامع الزيتونة الكبير في تونس. واستجابة لرغبة النساك في الاعتزال عن العالم، ورغبة الأمراء في السيطرة على غرب المتوسط بَنى الأغالبة أسوار صفاقس وأربطة سوسة والمنستير، وقد مكنهم بناء

(1) خاصة خزان السفرة في سوسه، انظر A. Lezine، Deux Villes، ص77 ـ 82.

هذه الحصون والأسطول من مهاجمة صقلية سنة 827ف تحت قيادة زيادة الله الثاني (817 ـ 838ف) والاستيلاء عليها بشكل نهائي سنة 902ف في عهد إبراهيم الثاني (875ف ـ 902).

كانت السياسة الضرائبية للأغالبة، ـ بخلاف ما سبق ـ، مأساوية. فقد اضطرهم ميلهم الجامح للترف إلى فرض ضرائب ثقلية وغير قانونية في كثير من الأحيان. هذا ما أسهم في ابتعاد الناس عن الأمراء. لم يكن هذا السبب الوحيد للافتراق. فقد كان الأمراء حنفيين والمذهب الحنفي مرن «وعملي»[1] بينما كان الناس من أتباع المالكية الصارمة. واستغل كبار المسؤولين مرونة المذهب الحنفي للإفراط في شرب الخمر والمغالاة في الفسق والفجور لدرجة جعلتهم هم أنفسهم وراء طلاقهم من الشعب. وكان هذا أحد أسباب سقوطهم.

إذا لم يمثل البربر مشكلة خطيرة للأغالبة، فلا يمكننا القول بمثل هذا عن الجند العرب. كان الجند في حالة اضطراب دائم بسبب التنافس بين القبائل وطموحات قادتهم ومن ثم كانت هذه الميليشيا تمثل خطراً دائماً. اتخذ إبراهيم بن الأغلب، لمواجهة هذا الخطر، حرساً أسود من خمسة آلاف من العبيد المحررين. بقي الجند يمثلون خطراً حتى بعد إضعافهم إثر تمكن الحرس الأسود من قمعهم. وقد مثل فتح صقلية متنفساً لغليان الجند. لم يتم هذا الفتح بسهولة فالميليشيا التي نال الحرس الأسود منها بشكل مؤثر وجدت نفسها مستضعفة. ومع تفاقم السخط الشعبي، مكن هذا الوضع قبائل كتامة من منطقة القبائل، التي كانت قد تحولت إلى المذهب الشيعي على يدي المبعوث أبي عبد الله، من الاستيلاء خلال بضع سنين على الإمارة بكاملها. هكذا سقط الحصن السني الشمال أفريقي سنة 909ف.

طرابلس وليبيا الداخلية:

تخص الوقائع التي أوردها مؤلفو العصور الوسطى حول طرابلس

---

(1) L'Invasion hilalienne, H.R. Idris، ص358.

ودواخلها القريبة اضطراب الجند بشكل أساسي وثورات سكان طرابلس ضد حكامهم الأغالبة ونشاط قبائل هوارة ونفوسة. ويبدو أن الصحراء الليبية خلال القرن التاسع قد أوقفت نفسها بالكامل على التجارة وعاشت على هامش السياسة الشمال أفريقية. كانت ودان وزويلة أباضيتين ولكن فزان الغربي، لم يكن قد تحول بعد إلى الإسلام كما سنرى.

كان حكام طرابلس يتتابعون والسكان في حالة شكوى مستمرة يصرون على نقلهم، وفي كل مرة كان إبراهيم الأول يستجيب لمطلب السكان. في سنة 189هـ/ 805ف حوصر الحاكم[1] سفيان بن المضاء في بيته ولم يكن قد استلم منصبه إلا منذ سبعة وعشرين يوماً ثم استمر حصاره في المسجد حيث وجد ملجأ، وقُتل أغلب الذين بقوا مخلصين له في المعركة. وقد نجا سفيان من الموت ولكنه أُبعد وأعيد إلى القيروان. أسند الجند السلطة لابنه إبراهيم بن سفيان التميمي. واستمرت القلاقل والاضطرابات بتحريض من الجند العرب أنفسهم، ونشرت مجموعاتهم المختلفة الفوضى في المدينة. أرسل إبراهيم بن الأغلب بقوات إلى طرابلس واستدعى مثيري الاضطرابات. رضي إبراهيم عن خضوع هؤلاء وعفا عنهم وأعادهم إلى ذويهم[2]. نلاحظ إلى أي مدى كان الأمير يشعر بالضعف في مواجهة الجند لدرجة اضطر معها للتحالف معهم، مع أنه كان ذا فاعلية ويعود الفضل في توليه المنصب إلى قمعه ثورات أكثر خطورة. بالرغم من كل التبريرات التي يمكن أن نسوقها لمسلك ابن الأغلب، تقودنا هذه الواقعة إلى التساؤل عما إذا كان يعطي أهمية كبيرة في ذلك الوقت للجزء الشرقي من الإمارة. وهذا يفسر صمت المصادر فيما يتعلق بليبيا الداخلية، ويؤيد صحة أقوال اليعقوبي التي تفيد بأن واحات الصحراء كانت مستقلة عملياً.

في سنة 196هـ/ 12 ـ 811ف عين إبراهيم الأول ابنه عبد الله بن إبراهيم

---

(1) ابن الأثير، انظر ص121، ينسب لنفس حاكم طرابلس لقب عامل ووالي دون تمييز.

(2) ابن الأثير، نفس المرجع، ابن خلدون (تاريخ إفريقيا) ص90 ـ 92.

حاكماً لطرابلس. وما كاد عبد الله يصل إلى عاصمته حتى وجد نفسه محاصراً من قبل الجند. لا يقول المؤلفون شيئاً عن دوافع الميليشيا العربية. ولا يمكن أن يتعلق الأمر بالسخط نتيجة عدم دفع المرتبات لأننا نعرف ـ بفضل ابن خلدون ـ أن الخليفة بعث إلى إبراهيم بن الأغلب بمبالغ نقدية هائلة قام بتوزيعها على الشعب والجيش. إننا لا يمكن أن نبحث عن أسباب هذا التمرد إلا في طموح القادة العرب أو في التنافس القبلي.

أُجبر عبد الله على ترك المدينة. ولم يكن بعيداً عنها عندما وعد بمرتبات للمقاتلين الذين ينضمون إليه، فانضم إليه عدد كبير من البربر سعداء ـ في اعتقادنا ـ باغتنام الفرصة لقتال الميليشيا العربية رسمياً ودون عقاب، وقد هزمت هذه الأخيرة، ودخل عبد الله المدينة وهدأ من روع السكان[1].

كان من الطبيعي أن يقمع عبد الله تمرد الجند، ولكن قراره باستعمال البربر لهذا الغرض لم يمر دون إقلاق والده الذي كان يتخوف ـ إذا ما اعترف بقوة البربر ـ أن يعتبر هؤلاء البلاد بلادهم وتسقط طريق المشرق بين أيديهم. لهذا استدعى الأمير ابنه وعين مكانه سفيان بن المضاء. وقد عُين سفيان أربع مرات حاكماً لطرابلس! نعرف أن سفيان سبق له قمع حركة تمرد في طرابلس، وعندما استدعاه الأمير، أسند الجند لابنه إدارة المدينة. من المرجح أن إبراهيم بن الأغلب كان يرغب في مواصلة سياسته المشرقية باستدعائه ابنه وتعيين سفيان محله: فهو عربي ولا يمكنه أن يدعم البربر ضد قواته العربية.

استقبل الجند سفيان بالرضا. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للبربر الذين اعتبروا ـ وبحق ـ أنهم ضحايا الجور العربي مرة أخرى. تمردت قبائل هوارة الأباضية بقيادة إياد بن وهب، وأصبح الوضع خطراً لأن منطقة هوارة كانت واسعة جداً. فقد كان الهواريون سادة الصحراء الغربية حتى ودان والمنطقة الواقعة مباشرة غرب سرت أي السهل والشاطىء الطرابلسي حتى لبدة (لبتس

(1) ابن الأثير، ج5، ص156، ابن خلدون (تاريخ أفريقيا) ص93.

ماجنا قديماً) الواقعة على بعد مائة وعشرين كيلو متراً تقريباً شرق طرابلس. كان يمكن لهذه القبيلة القوية أن تقطع طريق الشرق على الأغالبة.

هاجمت هوارة الجند الذين انسحبوا إلى طرابلس مهزومين. حوصرت الميليشيا العربية فلجأت عند الأمير. واستولت هوارة على المدينة وشرعت في تهديم أسوارها. عندما علم إبراهيم الأول بسقوط طرابلس أرسل ابنه بجيش من ثلاثة عشر ألف فارس، تمكن من هزيمة البربر. واستولى الأغالبة مرة أخرى على طرابلس وأعادوا بناءها وحصنوا أسوارها.

في هذه الأثناء أُخطر إمام تاهرت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم[1]، ابن مؤسس الأسرة الرستمية، بما جرى في طرابلس الغرب وبالخطر الذي يتعرض له البربر الأباضيون فيها. ويقال أنه كان في تلك الفترة في جبل نفوسة في الطريق إلى مكة. قام عبد الوهاب بتجميع قبائل نفوسة وبربر آخرين (؟) بأعداد[2] كبيرة وأعاد حصار طرابلس. قاوم عبد الله بن إبراهيم وبقي الوضع على ما هو عليه حتى وفاة الأمير في يوليه 812ف. عندما علم عبد الله أن أباه اختاره خليفة له على العرش قام بعقد سلام مع البربر. وتضمنت الاتفاقية أن يزاول الأغالبة سيادتهم على البحر والشاطىء وطرابلس، ويتبع باقي الإقليم لعبد الوهاب[3]. هكذا تمت العودة إلى الوضع السابق ولكن تقسيم الأقاليم كما اتفق عليه، هذه المرة، كان يخضع لمصادقة. في الواقع، كان الطرفان راضيين: فقد احتفظ الأغالبة بالممر الذي يوصل نحو المشرق، وميناء طرابلس الذي يسهم في تأمين سيطرتهم على المتوسط، وتخلص البربر الأباضيون من نفوذ الأغالبة وبقوا في الداخل وجبل نفوسة كما احتفظوا بالمنافذ الشمالية للطريق العابر للصحراء مروراً بفزان.

---

(1) حول الإمام عبد الوهاب الذي كان راوية بارزاً والذي برهن طوال حكمه (168هـ/ 5 ـ 784ف) ـ (208هـ/ 4 ـ 823ف) على براعته السياسية، انظر T. Lewicki في Les Historians ص 13 ـ 16.

(2) من سوء الحظ أن المراجع لا تخبرنا عن أعداد قوات هوارة ونفوسة.

(3) ابن الأثير ج5 ص156 ـ 157، ابن خلدون، تاريخ أفريقيا، ص93 ـ 94.

لم يرد قط في رواية المعارك، وبيان بنود الاتفاقية ذكر لواحات الجفرة ولا لأي تدخل لقوات من برقة في الصراع. إن هذا الصمت يدفعنا لافتراض أن الوضع في سنة 812ف كان مثل الوضع الذي وصفه اليعقوبي في نهاية القرن، أي كما سبق لنا ذكره من أن ودان تابعة لسرت التي كانت بدورها تابعة لبرقة[1]. من هذا نستطيع استنتاج أن «الطريق الأباضي» الذي يوصل من السودان إلى زويلة ينتهي بعد ذلك في جبل نفوسة بعد أن يعبر الحمادة الحمراء ماراً بغرب ودان. إن هذا الدرب المعروف سابقاً من الرومان وصفه البكري[2] في القرن الحادي عشر. كما يمكن كذلك ـ ولكن المؤلفين لا يقدمون لنا أي بيانات حول هذه الفترة ـ أن تكون ودان الأباضية قد أعيد ربطها من قبل بالأراضي المصرية السنية كما أصبحت في نهاية القرن. يذكر اليعقوبي أن طريق «سرت ـ ودان» يستغرق خمسة أيام[3]، ولا يفيد بتقدير المدة التي يتطلبها قطع طريق «برقة ـ ودان» الذي يبدو أنه كان يمر عبر أوجلة وجالو[4] وهي لفة لا نستطيع تفسيرها. كان لا بد للطريق من برقة نحو أوجلة أن يتفرع من الطريق الداخلي «برقة ـ أجدابيا» الذي يصفه لنا ابن خرداذبة[5] وقدامة بن جعفر[6].

يظهر مما أورده المؤلفون ومما صمتوا عنه وجود مجموعتين من البربر الأباضية في ليبيا في القرن التاسع. تتكون المجموعة الأولى من قبائل نفوسة في السهل والجبل وقبائل هوارة في السهول، وهم متمذهبون بصرامة ومن بينهم كثير من العلماء، وتتبع هذه المجموعة تاهرت معتقدياً وتتمتع بحمايتها. وتتكون المجموعة الثانية من مزاتة صحراء سرت والجفرة، ويقول عنهم اليعقوبي إنهم أباضيون ولكنهم لا يفقهون شيئاً في الأمور الدينية، ولا يراعون

(1) البلدان ص344 ـ 345/ 203 ـ 205.
(2) المسالك ص10/ 26 ـ 27.
(3) البلدان ص345/ 204 ـ 205.
(4) المرجع 30 عاليه.
(5) المسالك ص85 ـ 86/ 61 ـ 62 ـ طبعة حاج صدوق ص4 ـ 5.
(6) الخراج ص222 ـ 223/ 169.

أوامر الدين[1] ونواهيه. وينطبق هذا الوصف، بكل تأكيد، على قبائل لواتة وهوارة السرتية وقبائل لمطة في أوجلة الذين كانوا مستقلين سياسياً عن مصر بنفس القدر الذي كانوا فيه مستقلين دينياً عن تاهرت. بالعكس كان البربر الأباضيون في زويلة ـ التي برزت حاضرة صحراوية ـ ملتزمين عملياً والدليل أنهم كانوا يحجون. ويعود هذا ـ بكل تأكيد ـ لوجود أفراد أصلهم من البصرة والكوفة[2] بين سكانها الذين كانت غالبيتهم تنتمي إلى القبيلة البربرية روانه (؟)، ولا شك أن هؤلاء الأفراد لم يقصروا في إعطاء المثل في مراعاة الدين بصرامة. كما أن الاتصالات التجارية لزويلة مع هذا الحصن الثيولوجي الذي كان يمثله جبل نفوسة أحدثت أثراً مؤكداً في هذا المجال.

فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الدينية بين فزان من جانب، وجبل نفوسة وتاهرت من جانب آخر يجب ذكر تمرد الأباضي ـ الوهبي، خلف بن السمح، في بداية القرن التاسع ضد دولة بني رستم. وقد تمكن من الاستيلاء على كل طرابلس الغرب ولكنه لم يتمكن من جبل نفوسة الذي بقي على إخلاصه للإمامة. واستطاع هذا الدَّعي في البداية تحقيق بعض النجاح في فزان ولكن الفزانيين الموالين لتاهرت ثاروا، وتم سحق[3] حركة خلف بن السمح.

لم يكن للثورات التي تعاقبت في ليبيا بعد ذلك، سواء كانت في الشرق ضد العباسيين أو في الغرب ضد الأغالبة، أي أثر على الحياة في الصحراء، على الأقل لم ينبس المؤلفون بأي كلمة حوله.

في سنة 215هـ/ 31 ـ 830ف، انفجرت ثورة في برقة في عهد المأمون، وتم إخمادها[4] بقسوة. ولم يجد التمرد الذي شهدته المنطقة نفسها سنة

---

(1) البلدان ص344، «ومزاته كلها أباضية على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين». ترجمة Weit، ص204.

(2) نفس المرجع ص345/ 205.

(3) T. Lewicki في Repartition ص341 ـ 342 وEtudes Maghribines، ج2، ص62 ـ 63 حسب الشماخي.

(4) اليعقوبي (تاريخ) ج2 ص465.

228هـ/ 43 ـ 842ف في عهد الواثق والذي انضم خلاله العرب إلى جانب البربر مصيراً أسعد[1].

كانت الثورة التي قامت في برقة سنة 261هـ/ 75 ـ 874ف بينما كان أحمد بن طولون يحكم مصر أكثر خطورة[2]. فقد طرد سكان برقة ـ ولا يقول لنا ابن الأثير ما إذا كانت قبائل الداخل قد شاركت في هذا التمرد ـ أميرهم محمد بن الفرج الفرغاني. وبعث ابن طولون إلى برقة بقوات يقودها عتيقة (غلامه)[3] لؤلؤة. كانت لدى القائد الطولوني تعليمات تقضي بأن يظهر الكرم والتسامح إذا ما قبلت برقة الخضوع، وإلا استعمل القوة. أساء سكان برقة الظن بتصرفات لؤلؤة وحاولوا الخروج. عندها استعمل لؤلؤة المنجنيق[4] ضد المدينة، فطلبت الأمان وفتحت أبوابها. وقبض على بعض القادة، وتم جلدهم وأخذهم رهائن إلى مصر، كما تم قطع أيدي آخرين. وقام لؤلؤة بتعيين حاكم على برقة واستقر النظام فيها.

في الغرب، ذكرنا عند تناولنا لدراسة تاهرت استيلاء قوات الأغالبة على الجريد التونسي سنة 224هـ/ 39 ـ 838ف . وبقطع الممر الأباضي أصبح جبل نفوسة معزولاً بشكل كامل عن الإمامة إلا بسلوك طريق بعيد نحو الجنوب، من غدامس نحو ورقلة على سبيل المثال، وبافتراض أن غدامس لم تكن قد سقطت بعد في أيدي الأغالبة[5]. وقد استمر سخط البربر واستياؤهم، والدليل قيام

---

(1) نفس المصدر، ص480.

(2) ابن الأثير، ج6، ص5.

(3) نعرف أن أحمد بن طولون نفسه ابن لأحد هؤلاء الغلمان الأتراك المشترين في عهد المأمون (813ف ـ 833ف). وعلى الغلمان، وهم ميليشيا من الرقيق، غرباء عن النزاعات بين القبائل وغرباء عن الإقليم الذي كانت تجري فيه العمليات، كانت تقع مهمة حملات القمع. انظر D. Sourdel في موسوعة الإسلام ـ انظر (غلام).

(4) منجنيق كلمة من اللغة الإغريقية. من النادر أن يذكر المؤلفون استعماله في الحروب الليبية. تذكر أن العباس كذلك استعمل مجانيق في حصار طرابلس.

(5) انظر عاليه ص212، ورقم 2.

سكان طرابلس، في نفس السنة كذلك، بثورة قتل خلالها الحاكم. إننا نجهل أسباب هذا التمرد والدور الذي يمكن أن تكون قد لعبته قبائل الصحراء فيه.

كان عهد أبي إبراهيم أحمد بن محمد (856 ـ 863ف)، الأمير الأغلبي السادس، هادئاً بشكل خاص في الغرب. لم يكن الوضع على هذا النحو في طرابلس الغرب حيث واجهت قبائل لهانة سنة 245/ 60 ـ 859ف عامل طرابلس، ورفضت دفع الزكاة (العشر) والضرائب القانونية الأخرى (الصدقات)[1]. كان هذا الإصرار على الضرائب يعكس بوضوح إرادة الأغالبة في السيطرة من جديد على البربر في شرق طرابلس الغرب وفي الداخل بعد الاتفاقية المبرمة سنة 812ف مع إمامة تاهرت التي لم تترك لسيادة الأغالبة إلا طرابلس والبحر، أي عملياً، الشاطىء الطرابلسي باستثناء خليج سرت.

كان التمرد واسعاً. فلهانة كانت تمثل مع ورفلة أبي نجيم – بونجيم على خرائطنا الحالية، وهي واحة على بعد مائتين وخمسين كيلو متراً جنوب مصراتة ـ ومع قبائل مصراتة ومرمزيان[2] الفرع الشرقي لقبائل هوارة الطرابلسية. إننا نعتقد أن المبادرة لم تكن من بربر الصحراء لورود ذكر لرفض دفع الزكاة بينما البلاد المروية صناعياً غير ملزمة إلا بدفع نصف قيمة الزكاة[3]، كما لم يرد ذكر لتحصيل غير مشروع من جانب الحاكم. ومع ذلك فمن المحتمل، نظراً للتوسع في المعارك، أن هوارة آخرين شاركوا في الثورة.

أعلنت لهانة الحرب على حاكم طرابلس، عبد الله بن محمد بن الأغلب. واضطر هذا لخوض معارك عديدة كانت كلها لغير صالحه. وحاول

---

(1) ابن الأثير، ج5، ص300، والنويري ص420، لا يعطي أي تفاصيل. نعرف أن الصدقة أصلاً مشاركة اختيارية، وهي غالباً مستعملة بمعنى الزكاة التي هي ضريبة شرعية إجبارية. وبهذا المعنى الثاني نجد كلمة الصدقة عند الطبري وابن الأثير، انظر T.H.Weir موسوعة الإسلام ـ انظر صدقه.

(2) T. Lewicki، موسوعة الإسلام انظر هوارة. حسب اليعقوبي، البلدان ص346/ 207، قبائل لهانة كانت تشمل أيضاً درمنا (؟).

(3) انظر A. Grohmann في موسوعة الإسلام انظر (عشر).

احتواء البربر في الشرق بتحصين لبدة ثم تراجع إلى طرابلس. بسبب إدراكه لضعفه لم يجد عبد الله بن محمد مناصاً من طلب النجدة من الأمير الذي بعث إليه قوات بقيادة ابنه زيادة الله. كانت المعركة بين الطرفين شؤماً على العصاة: فقد قُتل الكثير منهم في المعركة وهزم الآخرون، وأطلق زيادة الله فرسانه في أثر الفارين، منهم من قبض عليه وسجن، وقُطعت أعداد منهم إرباً، كما ضربت رؤوس آخرين وعاد البربر إلى الطاعة.

لم يستمر السلام إلا مدة قصيرة، فبعد ذلك بعقدين من الزمن، في سنة 265هـ/ 79 ـ 878ف شاركت بعض القبائل الليبية ـ نجهل من هي لسوء الحظ ـ في حملة العباس ضد الساحل الطرابلسي. عرفنا أن قوات العباس هُزمت بفضل القوات التي بعث بها الأمير الأغلبي والاثني عشر ألف مقاتل نفوسي الذين سارع بإرسالهم إلياس بن منصور الذي كان يحكم الجبل باسم إمام تاهرت. ويفيدنا هذا بأن البربر المستقرين في الساحل كانوا تحت سيطرة الأغالبة، ولكنهم بقوا أباضية بالرغم من ذلك. ولو لم يكن الوضع كذلك لقدروا أن لا طائل من طلب مساعدة حاكم جبل نفوسة، ولمَا قدر هذا أن من المناسب الاستجابة لطلبهم لأن من مصلحة تاهرت إضعاف الإمارة الأغلبية، وهو ما كان من المحتمل أن يمكِّن الإمامة من استعادة واحات الجريد التونسي. لقد لعب التضامن الأباضي دوره وأصبح الأعداء القدامى حلفاء.

يمكننا أن نتساءل لماذا خاطر الخليفة المعتمد (870ف ـ 892ف) بعدم إرساله إمدادات عسكرية إلى الأغالبة خلال السنوات الثلاثة لحملة العباس، لكي يرى تكوين دولة طولونية كبيرة تمتد من سوريا إلى منطقة القبائل ولم تكن تبعيتها له إلا اسمية. في هذا الوقت كانت حرب (870ف ـ 883ف) مشتعلة، وكانت الجيوش العباسية تهرب الواحد تلو الآخر في مستنقعات العراق الأسفل. ولم يكن أمام الخليفة من بديل إلا الثقة في أحمد بن طولون. إننا لنتساءل عما إذا كانت هذه الثقة في موضعها الصحيح لأن الجيش الطولوني لم يتجاوز قط برقة. من سخريات التاريخ، أن الزنج ـ وهم من الخوارج ـ منعوا

الخليفة من التدخل، وأن خوارج آخرين، قبائل نفوسة، هم الذين هبوا لنجدة الإمارة السنية.

حدث العكس بعد ذلك بخمس عشرة سنة، سنة 283هـ/ 896ف. لقد رأينا أن هؤلاء النفوسيين أنفسهم، مع قبائل أخرى حليفة، يتعرضون للأمير الأغلبي إبراهيم الثاني عند زحفه على طرابلس لمعاقبة ابن عمه حاكم المدينة، الذي كان يشك في تآمره مع الخليفة المعتضد من أجل عزله - أي إبراهيم الثاني - عن العرش. وكان الهدف الآخر لإبراهيم الثاني هو احتلال مصر الطولونية. وفي معركة واحدة فقدت قبائل نفوسة قوتها واستقلالها، ولكن الخسائر الجسيمة التي ألحقتها بالأغالبة أسهمت في منع إبراهيم من تنفيذ مشروعه الثاني، احتلال مصر.

في نهاية القرن التاسع، قامت ثورتان بربريتان لا نعرف عنهما إلا القليل جداً. ثورة قبائل هوارة وكان هدفها قطع طرق اتصالات الأغالبة. وقد رفضت هذه القبائل الاستسلام بالرغم من الوعود بالعفو، وواصلت عمليات اكتساح البلاد وتخريبها، وكان عقابها قاسياً: فقد هزمت ونهبت ديارها وأحرقت. كان الدور بعد ذلك على لواتة لممارستها أعمال النهب والسلب. لقد انتصر اللواتيون في معركة أولى قتل فيها محمد بن قرهب الذي كان والياً لطرابلس ولكنهم هُزموا في النهاية في يونيه - يوليه 882ف من قبل الجند الأغالبة الذين قتلوا منهم كثيراً من المحاربين[1].

إننا لا نعرف أكثر حول المملكة التي كونها في نهاية القرن ابن الصغير المصمودي في مناطق هوارة شرق طرابلس، لقد كانت تمتد من الجوار المباشر لطرابلس في وادي الرمل إلى مسافة مائة كيلو متر[2] تقريباً إلى الشرق. لا يمكن

(1) النويري ص426 - 427.

(2) ابن خرداذبه، ص88/ 83 - طبعه حاج صدوق ص8 - 9. إن اسم الأمير عند هذا المؤلف لا يحتوي على علامات التشكيل: ابن صغير أو ابن صُغير. ابن الفقيه، ص79 - 80 طبعه الحاج صدوق ص32 - 33، يسمى هذا الأمير ابن صفير (بصاد مضمومة، وفاء مفتوحة) أو ابن صفير (بصاد مفتوحة وفاء بكسرة).

أن يتعلق الأمر في هذه المنطقة القريبة جداً من جبل نفوسة، إلا بمملكة مستقلة عن الإمامة الأباضية ـ الوهبية في تاهرت. يشير المؤلفان في حصرهما للممالك الشمال أفريقية، إلى أن مملكة الأدارسة علوية وأن سجلماسة صفرية، وتاهرت أباضية. ولم يقولا لنا شيئاً عن المذهب الذي ينتمي إليه هذا الأمير البربري، وسكتا كذلك عن أعماله وعلاقاته مع الأغالبة والممالك البربرية الأخرى.

تقتصر المعلومات المتعلقة بعمق الصحراء، في القرن التاسع، على إشارة من اليعقوبي[1]، كما قلنا. يميز الجغرافي في هذه الإشارة ثلاثة أقاليم: ودان حيث مزاتة الأباضيين، وزويلة الأباضية أيضاً، والإقليم المسكون من سكان يسمون فزان وهم مكونون من عناصر متنوعة يديرهم رئيس مطاع فيهم، ويحكم، منطقة واسعة من مدينة كبيرة. ويقول اليعقوبي إن مزاتة كانت في حرب دائمة مع الفزان.

لا يدهشنا أن زويلة ليست جزءاً من فزان هنا. فالمؤلفون اللاحقون كذلك يميزون بين زويلة وفزان بمدينتها الرئيسية جرمة، أي وادي الآجال، ويجب أن ننتظر حتى القرن الثالث عشر، مع ياقوت[2]، لتكون الشرقية بزويلة، ووادي الآجال بجرمة معتبرة كإقليم واحد. ما يدهشنا أكثر هو أن «فزان» عند اليعقوبي تعني سكاناً، وسيميز البكري فيما بعد البلاد فزان والسكان فزانة[3]. قد يكون من بين فزانة القرن التاسع الجرمنت، فالـ ق.ر.مات.يون الذين أفاد المقدسي بوجودهم في السودان في القرن العاشر، قال عنهم إنهم يستخدمون الملح كنقود[4]. لا يوضح لنا اليعقوبي سبب الصراعات بين مزاتة وسكان فزان. إن السبب لا يمكن أن يكون دعوة إلى الدين من قبل مزاتة لأن اليعقوبي نفسه يؤكد أنهم لم يكونوا ممارسين للدين، وقد تكون المعارك بسبب الاختلاف على

---

(1) عاليه، ص120. والبلدان، ص334 ـ 346/ 204 ـ 206.

(2) المعجم، انظر مادة (فزان)..

(3) المسالك، ص10 و13/ 17 و33.

(4) تقاسيم، ص242 ـ طبعه Pellat، ص54 ـ 55.

أراضي الرعي. من المحتمل أن مزاتة الصحراء السرتية أزعجهم المجيء والذهاب المستمر للقوات العربية التي هزمتهم عدة مرات فالتحقوا بإخوتهم في الجفرة واستحال عليهم منذ ذلك الوقت التنقل لأجل الرعي في اتجاه الشمال فاصطدموا في الجنوب مع «الفزان»/ الجرمنت. وقد لا يتعلق الأمر هناك بحادثة غير عادية لأن أراضي الجفرة متنازعة[1] في غالب الأحيان. على أي حال، بدأ طرد الجرمنت نحو الجنوب الغربي في زمن اليعقوبي، في النصف الثاني من القرن التاسع. بعد ذلك بقرن وجد الجرمنت، الذين بقوا في فزان، أنفسهم في حالة عزل وإهمال.

إن الأخبار حول واحة غدامس في القرن التاسع نادرة جداً. كان بنو تنايوت (أو بنو تناوته) الذين يسكنونها أباضيين منذ القرن الثامن. ولهذه القبيلة يتتسب عالم شهير، أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي، الذي درس في العراق. كانت غدامس ـ مثل جبل نفوسة ـ تحكم بالشيوخ[2]. وقد اعتبرها ابن خرداذبه في النصف الثاني من القرن التاسع في عداد ممتلكات الأغالبة[3]. كان من المنطقي أن يقوم الأغالبة، الذين ضموا توزر سنة 224هـ/ 39 ـ 838ف قاطعين بذلك المعبر الأباضي نفوسة ـ تاهرت، باحتلال غدامس أيضاً من أجل السيطرة على الطريق نفوسة ـ ورقلة في الجنوب واحتكار سوق صحراوية مهمة. إننا نعرف، مع ذلك، أن الأغالبة واجهوا صعوبات كبيرة في احتلال المنطقة لأنهم لم يحتلوا نفزاوة إلا في سنة 897ف، ومن المرجح أن ابن خرداذبه أخطأ في اعتبار ودان من المملتكات الأغلبية، ومن ثم يجب تناول الخبر المتعلق بغدامس بشك وحذر[4].

---

(1) في سنة 1908ف، كان الأوراغن من كل أجر الموجودون في تاسيلي وبين غات وأوباري يترحلون حتى سوكنه لأن مراعيهم لم تكن كافيه لهم في تلك السنة، وكانت الأمطار كذلك غزيرة في الجفرة، انظر J. Dubief في Les Quraghen، ص85 ـ 135.

(2) الشماخي مستشهداً به من T. Lewicki، في Repartition، ص337 ـ 338. في القرنين العاشر والحادي عشر سنجد قسماً من بني تناوتة في ورقلة.

(3) المسالك، ص87/ 62 ـ طبعه حاج صدق، ص6 ـ 7.

(4) انظر عاليه، ص212، ورقم 2.

العبيديون[1]:

بعد جنون إبراهيم الثاني حاول ابنه أبو العباس عبد الله الثاني، وهو رجل موهوب في الشؤون العسكرية والسياسية، أن يعيد إلى أفريقية القيم الأخلاقية التي فقدتها في العهد السابق، وأجهد نفسه في إبعاد الخطر الذي كانت تمثله الدعاية الشيعية. كان عهد عبد الله الثاني ـ لسوء الحظ ـ قصيراً (أكتوبر 902ف ـ يوليه 903ف)، فقد اغتيل بتحريض من ابنه[2]. وورث هذا، أبو مضر زيادة الله الثالث جنون جده الدموي مضيفاً إليه عجزاً كاملاً ونذالة نادرة، ومن ثم لم يكن في استطاعته أن يقاوم المد الشيعي.

في سنة 279هـ/ 892ف، رافق أبو عبد الله الشيعي ـ الداعية الشيعي المشرقي ـ حجاجاً من بربر كتامة كان قد قابلهم في مكة، إلى منطقة القبائل. أصبح عبد الله بسرعة رئيساً لهذه القبيلة القوية بعد بعض المعارك، واستولى على كل النقاط الحساسة في أفريقية الأغلبية. وفي سنة 902ف، جاء من المغرب المهدي عبيد الله[3]، الذي أعطى اسمه للأسرة الفاطمية في أفريقية، لدعم أبي عبد الله بنفوذه ولكن المهدي اضطر للهرب إلى سجلماسة حيث سجنه الخوارج الصفرية. كانت دعوة أبي عبد الله تنتشر بطريقة جيدة لدرجة تزايد معها أنصاره يوماً بعد يوم، وتمكن من دحر جيوش الأغالبة التي أرسلت تباعاً لمواجهته. وسقطت عاصمة الأغالبة في مارس 909ف، وهرب زيادة الله

---

(1) من أجل تحاشي أي غموض، نستعمل هذا التعبير الذي يجعل بني عبيد عرباً بدل تعبير الفاطميين الذي نقصر استعماله على فاطميي مصر دون غيرهم.

(2) ابن عذاري، ج1 ص134. والنويري ص439. وابن خلدون (تاريخ أفريقيا) ص148.

(3) إن نجاح دعوة أبي عبد الله هي التي جعلت ـ دون شك ـ عبيد الله يقرر التوجه نحو منطقة القبائل. كان عبيد الله ضحية الأزمة المذهبية التي انفجرت سنة 899ف عند الإسماعيليين، والتي منها رفض بعضهم خاصة حمدان قرمط الاعتراف بشرعية ادعاء عبيد الله بالإمامة. تكون القرامطة أصلاً في العراق واستولوا على سوريا حيث اضطر عبيد الله للفرار منها. حول هذا ونسب عبيد الله، انظر موسوعة الإسلام: ف. د شراوي ـ انظر (المهدي عبيد الله) وS.M.Stern (أبو عبد الله الشيعي). وW. Madelung، انظر (قرمطي، وحمدان قرمط).

الثالث إلى المشرق[1]. أسند أبو عبد الله حكومة أفريقية مؤقتاً إلى أخيه أبي العباس، وذهب إلى سجلماسة لإطلاق صراح عبيد الله الذي استلم السلطة في أفريقية في يناير 910ف. هكذا ثأر البربر، ممثلين في كتامة، لأنفسهم من السلطة العربية. كما سقطت تاهرت سنة 911ف وهي السنة نفسها التي قتل فيها عبيد الله كلاً من أبي عبد الله وشقيقه. اضطر المهدي لمواجهة عدة حركات تمرد خاصة سنة 912ف من قبائل كتامة، وتاهرت، وطرابلس.

حاول المهدي توسيع ممتلكاته معتبراً أفريقية مجرد قاعدة انطلاق. وقام بمحاولتين ضد مصر في سنة 914ف، وسنة 919ف. في سنة 914ف، هزم القواسون الأتراك التابعون للوالي العباسي تكين في الاسكندرية قوات عبيد الله التي كانت بقيادة ابنه القاسم الذي أصبح فيما بعد الخليفة العبيدي الثاني تحت اسم القائم بأمر الله. من حسن حظ مصر، أن الخليفة المقتدر (908ف ـ 932ف) تمكن من إرسال قوات دعم بالرغم من الفساد والمؤامرات التي كان يواجهها لأن الفوضى عمت مصر بعد سقوط الأسرة الطولونية. اضطر أبو القاسم للانسحاب، ولكن برقة وأجدابيا وسرت أصبحت إلى جانبه بشكل نهائي وترك فيها حاميات.

لم تكن الحملة الثانية التي قادها أبو القاسم سنة 919ف بأسعد حظ من الحملة الأولى. لقد ارتكب القائد العبيدي خطأ بتأخره في الاسكندرية، وهو ما مكن الإمدادات العباسية من نجدة الفسطاط، واضطر الغزاة للقتال متراجعين، وقُضي[2] على أسطولهم قضاء مبرماً بالرغم من تفوقه العددي. بالرغم من هذا

(1) ابن عذاري، ج1، ص134 ـ 149. والنويري ص444 ـ 447. وابن خلدون (تاريخ أفريقيا) ص149 ـ 156.

(2) ابن عذاري، ج1 ص171 ـ 173. وابن الأثير، ج6، ص147. وابن خلدون البربر، ج2 ص254. وابن حماد، أخبار ص13/ 24 ـ 25 يشير إلى أن الجوع والطاعون كالسلاح نالت من القوات العبيدية، فمن جيش قوامه خمسمائة ألف رجل لم يتبق إلا خمسة عشر ألف. انظر كذلك S.Lane-Poole في History of Egypt، ص79 ـ 81 وF. Dachraoui في Le Califat، ص142 ـ 150.

الفشل المزدوج، كان للعمليات المصرية آثار إيجابية بالنسبة للعبيديين: فقد اضطر الخليفة العباسي لأن يحسب حساب هذا الطامح القوي، كما زادت هيبة عبيد الله في كل العالم الإسلامي، وأصبحت ليبيا حتى برقة جزءاً لا يتجزأ من أفريقية.

رغبة من عبيد الله في الاستيلاء على إسبانيا الأموية، وجه من عاصمته الجديدة المهدية، قواته نحو الغرب. واستولت هذه القوات على فاس وسجلماسة سنة921ف، ولكن التنازع بين القبائل البربرية وفاعلية عبد الرحمن الثالث الحاكم الأموي لإسبانيا الذي كان قد أعلن نفسه خليفة منذ وقت قصير، منعت عبيد الله من الاستقرار فيما بعد تاهرت[1]. لقد حاول عبيد الله حتى وفاته في مارس 934ف أن يوسع دولته، فدعم وجوده في صقلية واستولى على كلابري. في الداخل مكنت سياسته الحازمة من القضاء على أي محاولة تمرد. وولدت سياسته الضريبية المغالي فيها، مثلما كان الأمر عند الأغالبة، عداء غذاه بعناية وحذر علماء المالكية. في الواقع، حافظ القضاء تحت الإدارة الشيعية على الأهمية التي تمتع بها في عهد الأغالبة، ولكن شرخاً نشأ بين القضاء الأعلى والسلطة القضائية الثانوية. لم يعد القاضي الأكبر مستقلاً عن السلطة تحت حكم العبيديين، كما كان سحنون[2] مثلاً، بل أصبح شخصية رسمية لا يعتبر أن مهمته انتقاد السلطة، بل أن يجعلها مهابة مخشية. وأراد الشيعة مجاملة الناس بالإبقاء على قضاة سنيين في القضاء الثانوي أو حتى بتعيينهم. مثَّل هؤلاء خطراً على السلطة بقربهم الشديد من الناس وبما كانوا يمارسونه من نفوذ على سكان القيروان. لهذا أُعدم علماء كثيرون. وسنرى، فيما بعد، نفس المقاومة السنية في مصر للشيعة الأقلية، وظهور هوة فاصلة بين الطبقات العاملة من

(1) ابن عذاري، ج1، ص188. وابن حماد، نفس المرجع. وابن خلدون، البربر. ج2 ص526 ـ 527، وانظر كذلك F. Dachraoui، المرجع المذكور، ص150 ـ 154.

(2) كان يمكن لهذا الاستقلال أن يكون خطيراً جداً. هكذا أعلن سحنون لابنته يوم تنصيبه: «اليوم، قطعوا رأسي بدون سكين». انظر F. Dachraouie المرجع السابق ذكره، ص415.

سكان المدن والأرياف وهم جياع في غالب الأحيان، والدولة التي تحصل ضرائب عشوائية من أجل إطفاء ظمئها للبذخ الفاضح[1].

كان عهد القائم بأمر الله (934 ـ 946ف) ابن عبيد الله مليئاً بالاضطرابات. لقد بقي اسمه أكثر ارتباطاً باسم أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري «صاحب الحمار» قائد ثورة الخوارج، وما أتاه كلاهما من أعمال دموية، من ارتباطه بحملة ثالثة على مصر، فاشلة هي كذلك.

ولد أبو يزيد حوالى 883ف في السودان ـ غالباً في جاو/ كوكو ـ لتاجر أباضي من الجريد التونسي وخادم اشتراها من تادمكه[2]. ودعا إلى الثورة ضد عبيد الله في الجريد، ولما لم يقابل إلا بالعداء أو الخوف ذهب إلى الأوراس حيث تمكن، وعمره ستون سنة وبطاقة لم تحد منها إعاقته ـ كان أعرج ـ من تحميس قبائل هوارة التي قادها للسلب في الأرياف. في سنة 944ف، استولى القلق على القائم بأمر الله ولكنه أخطأ في وضع قواته في مواقع استراتيجية عديدة بدل مهاجمة العصاة. توجه أبو يزيد نحو الشرق، واستولى على الجريد، وقطع طرق الاتصال التي كانت تؤدي إليه من السودان. وسقطت القيروان وسوسة وتونس بين أيدي الخوارج، ولكن استمرار حصار المهدية العاصمة الجديدة للعبيديين، لمدة طويلة نال من عزم أنصار أبي يزيد وهمتهم. وأسخطت المذابح الفظيعة التي ارتكبتها مجموعات أنصاره كل أفريقية التي نظرت بداية، تحت تأثير علماء المالكية، بعين الرضا إلى هذه المحاولة للإطاحة بالشيعة. عند وفاة القائم سنة 946ف، واصل ابنه، أبو العباس

---

(1) F. Dachraouie، المرجع المذكور سابقاً، ص133، 399، 403، 408، 415 ـ S. Lane-416 . Poole، المرجع السابق ذكره، ص111 ـ 112، 122، 140، 146 ـ A. Miquel149 . في L'Islam et sa civilisation، ص174.

(2) نرى أن تجارة الأباضيين في جنوب تونس مع السودان كانت حقيقة في نهاية القرن التاسع. يتعلق الأمر هنا بأول ظهور لهذه التجارة، لقد ذكرها أولاً ابن حماد، ص18/ 33 ـ 34. انظر كذلك ابن خلدون، البربر، ج2 ص530، وج3، ص201.

إسماعيل المنصور (946ف ـ 953ف) الصراع ضد أبي يزيد الذي لم يعرف، منذ ذلك الحين، إلا هزائم ونكسات. ومات أبو يزيد، بعد جرحه في إحدى المعارك، في أغسطس 947ف. وتم سلخه، وحشي جلده بالقطن، وقدم لعبة لاثنين من القرود[1].

كان أبو يزيد ينتمى لطائفة النكارة وهم الأكثر تشدداً بين الأباضيين. ويلاحظ T.Lewicki أن العلاقات بين الوهبية والنكارة كانت غالباً عداءً صريحاً، حسب المصادر الأباضية، ويعتقد أن الموقف اللامبالي للوهبيين تجاه ادعاءات أبي يزيد كان من الأسباب الرئيسية لفشل هذه الثورة ومنعها من تكوين إمامة أباضية كان يمكن أن تمتد من تاهرت إلى طرابلس الغرب[2].

كان آخر عهد المنصور هادئاً إلى حد كبير إذا ما استثنينا ثورة كبيرة في صقلية تمكن الوالي من قمعها، وإبادة آخر جيوب الخوارج. بلغت الأسرة العبيدية أو الفاطمية أوجها في أفريقية في عهد المعز لدين الله الفاطمي (953ف ـ 975ف)، ابن المنصور. وأسند المعز قيادة جيشه إلى جوهر، وهو عتيق من أصل يوناني وكان مصحوباً بأمير صنهاجة زيري بن مناد، وقد تحدث التاريخ مرة أخرى عن هذين الرجلين[3]. استولى الجيش العبيدي على تاهرت التي كانت قد أظهرت ميولاً للاستقلال، وعلى سجلماسة حيث كان المدراريون قد عادوا إلى السلفية، ثم قام باحتلال فاس. هكذا سيطر العبيديون على كل الطرق التجارية التي تصل بين السودان والبحر المتوسط: من السودان الغربي نحو

---

(1) ابن حماد، ص18 ـ 36/ 33 ـ 56. وابن عذاري، ج1، ص216 ـ 220. وابن الأثير ج6 ص302 ـ 311. وابن خلدون، العبر، ج4، ص84 ـ 93. انظر كذلك ابن خلدون، البربر، ج2 ص530 ـ 539.

(2) Subdivisions, T. Lewicki، ص82. لنفس المؤلف في Les Hakims 2, Ibaditica. كما تجب الإشارة، كما فعل T. Lewicki إلى أن قبائل نفوسة الأباضية زودت أبا يزيد بفيلق سنة (45 ـ 944ف). انظر ابن خلدون، البربر، ج3 ص208.

(3) احتل جوهر مصر. وأسس المنحدرون من زيري بن مناد الأسرة الزيرية، التي انفصلت عن مصر الفاطمية.

تافلالت، ومن السودان الأوسط نحو ورقلة وتاهرت، ومن حوض تشاد نحو زويلة ثم جبل نفوسة أو برقة.

كان الوقت قد حان للتفكير في غزو مصر. وشجعت هيبة المعز، التي كانت تفوق ـ ومن بعيد ـ شهرة الخليفة العباسي[1]، العبيديين على هذا التفكير.

استعاد خليفة بغداد إدارة مصر بواسطة قادة عسكريين، بعد سقوط آخر الطولونيين سنة 905ف. كان الخليفة الراضي (934ف ـ 940ف) قد عين محمد بن تغج الأخشيد والياً على مصر في مواجهة الحملات الفاطمية، واستلم محمد بن تغج الأخشيد منصبه سنة 935ف. هكذا ولدت أسرة حاكمة جديدة، تركية هذه المرة. ورد الأخشيد الحملة العبيدية الثالثة التي استهدفت مصر. وترك عند وفاته سنة 946ف ولدين، ولكن كافور، وهو خصي حبشي كان قائد جيوش الأخشيد، هو الذي مارس السلطة، وأعلن نفسه حاكماً لمصر في سنة 961ف. كان على كافور أن يصارع ضد الدعوة العبيدية القادمة من أفريقيا الشمالية، لأن المعز كان، هذه المرة، يعد غزوة لمصر من داخلها ذاتها. في أفريقية، أعد جوهر القائد العبيدي قوات كبيرة وجبى الضرائب. وتم بناء سفن في المهدية.

فيما يتعلق بالمنطقة التي تهمنا، أمر المعز الفاطمي واليه على برقة، أفلح بن ناسب ببناء صهاريج لمياه الأمطار على الطريق الموصل إلى الفيوم، وهو ما كان يسمح بتقدم قوات كثيرة. وقد بنيت هذه الصهاريج ابتداء من أجدابيا حسب بن سعيد[2]، وابتداء من سرت وفق أبي الفدا[3]. إن ما قال به

(1) لم يكن الخليفة العباسي المطيع (946 ـ 974ف) المعاصر للمعز إلا لعبة في أيدي أحمد بن بويه الذي أصبح أمير الأمراء وجعل منه قائداً للجيوش بلقب معز الدولة. طوال أكثر من قرن (945ف ـ 1055ف) كان البويهيون هم السادة الحقيقيون للامبراطورية العباسية.

(2) بسط الأرض، ص62.

(3) تقويم، ص148 ـ 149 وهو يقول إنه ينقل عن ابن سعيد.

ابن سعيد أكثر احتمالاً إذ إن الغرض من هذه الخزانات ـ كما يذكر المؤلف ـ هو كسب الوقت بسلوك طريق في البراري بدل اتباع الشاطىء، وهو ما لا يبرر أن يبدأ بناء هذه الصهاريج من سرت لأن الطريق الوحيد نحو الشرق من سرت يحاذي الشاطىء، كما أننا لا نرى ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ كيف يمكن أن تغذى الصهاريج بمياه الأمطار ابتداء من سرت. كما لا يبدو من المقبول إعطاء كلمة صهاريج معنى «الآبار» انطلاقاً من سرت، ومعنى «الخزانات» ابتداء من أجدابيا: من جانب لأن كلمة صهريج (بضم الصاد)/ صهريج (بكسر الصاد) لا يمكن أن تعني إلا كلمة خزان ونعرف كم هي دقيقة اللغة العربية في كل ما يمس المياه، ومن جانب آخر، لا بد أن الطريق سرت ـ أجدابيا مزود على طوله بآبار منذ وقت طويل قبل هذا: فمن الشرق إلى الغرب، كان هذا هو الطريق الوحيد المتبع للإمدادات العسكرية، ومن الغرب إلى الشرق كان هذا أحد طرق الحج إلى مكة.

تحرك جيش جوهر ـ حوالى مائة ألف رجل ـ في فبراير 969ف. ولا تعطينا النصوص شيئاً عن الطريق الذي اتبع ومواقف السكان الذين مر بهم الجيش. نجح جوهر ـ بمساعدة الدعاية التي سبقته ـ في طمأنة السكان المصريين، مقدماً نفسه حامياً للبلاد من الخطر القرمطي والتهديد البيزنطي. توجه بعد ذلك إلى سوريا واحتل دمشق في أكتوبر 970ف. مع ذلك، فقد فوجئت القوات الكتامية بالهجوم المضاد للقرامطة الذين أبادوا البربر واستعادوا المدينة، قاطعين هكذا الطريق إلى بغداد، بل أصبحوا يهددون الفسطاط والقاهرة التي كانت قد شيدت من وقت قصير. وكان الاخطر من ذلك هو تحول القرامطة الذين ارتدوا عن الإسماعيلية، وأقسموا يمين الولاء للعباسيين. يعتقد فرحات دشراوي أن قرار المعز الالتحاق بجوهر يرجع أكثر إلى هجوم القرامطة المضاد واقترابهم من الخلافة منه إلى حلمه القديم بأن يحكم يوماً ما مصر[1]. غادر المعز أفريقية حاملاً معه أموال خزينة الدولة وحتى أثاث القصر.

---

(1) Le Califat Fatimide ص266.

وعندما عبر طرابلس الغرب لجأ قسم من السكان إلى جبل نفوسة ليكونوا في مأمن. وقد وصل المعز إلى مصر في يونيه 973ف.

نذكر أن زيري بن مناد كان قد برز في القتال ضد أبي يزيد. ومن أجل أن يكافئه، أذن له الخليفة العبيدي القائم ببناء عاصمة: فبنى أشير الواقعة في جبال تطرى على بعد مائة كيلو متر جنوب غرب مدينة الجزائر في قلب موطن صنهاجة[1]. وكلف زيري ابنه بلجين[2] بتأسيس مدن الجزائر، ومليانة، ومدية وحكمها، ثم كلفه بإخضاع زناتة في الغرب الذين كانوا يتآمرون مع الأمويين في إسبانيا. عند وفاة زيري سنة 971ف كان بلجين[*] قد أضاف إلى هيبته الشخصية المجد الذي كلل بهالة أباه. ولأن كتامة، عماد الأسرة العبيدية منذ ساعتها الأولى كانت في مصر مع جوهر، كان من الطبيعي أن يسند المعز حكومة المغرب وأفريقية إلى صنهاجة في شخص رئيسها بلجين بن زيري بن مناد. ومع ذلك كانت كل من صقلية، وطرابلس، وسرت، وأجدابيا خارج سلطة الرئيس الصنهاجي، وأسندت حكومة طرابلس إلى قائد كتامي بقي في أفريقية هو عبد الله بن يخلف الكتامي[3].

ليبيا من (909 إلى 1050)ف

حركات التمرد البربرية:

كانت القلائل التي هزت ليبيا في عهد الأغالبة من عمل الجند بشكل

---

(1) حول هذه المدينة والأبحاث التي أجريت فيها، انظر G. Marcais، موسوعة الإسلام. و.CH A. Julien، ج2، ص66.

(2) يكتب بالعربي بلقين، أو بلكين.

(*) هكذا يكتبها المؤلف. ويكتبها ابن خلدون بلكين، ويضيف أن المعز سماه يوسف بدلاً من بلكين. وهو يوسف عند ابن عبد الحكم، ويوسف بلكين عند ابن الأثير. المترجم.

(3) ابن حماد، ص40 ـ 48 / 63 ـ 72. وابن الأثير، ج7، ص30 ـ 31 ـ 45 ـ 46. وابن عذاري، ج1، ص221 وص228. وابن خلدون، العبر ج4، ص99 ـ 100 و102 ـ 103/ والبربر ج2، ص545 ـ 551. انظر كذلك، ف دشراوي في Le Califat Fatimide ص250 ـ 275. وحول السلطة التي كان يتمتع بها زيري وبلجين أيام المعز انظر H.R.Idris في Zirides ص9 ـ 38.

أساسي، ومن بعد أعمال قبائل نفوسة وهوارة. وقد حرصت كل من إمامة تاهرت وإمارة الأغالبة على أن لا يتركا العلاقات بينهما تسوء. حتى عندما قطع الأغالبة الطريق المؤدي من جبل نفوسة إلى تاهرت في الجريد سنة 224هـ/ 39 ـ 838ف، لم تقم تاهرت بأي رد فعل، وكذلك الأباضيون الطرابلسيون الذين كانوا يواجهون احتياجاتهم بفضل التجارة العابرة للصحراء، وكانوا يعرفون أن في إمكانهم أن يعولوا على مساندة الإمامة إذا ما تعرضوا للخطر. وهذا ما حدث سنة 12 ـ 881ف، كما رأينا، عندما جاء الإمام عبد الوهاب لنجدة هوارة الذين تمردوا ضد جور الأمير الأغلبي. إذا ما استثنينا بعض الثورات في طرابلس الغرب، وإقليم برقة، فإن علاقات البربر مع الأغالبة والطولونيين لم تكن عداء صريحاً. بل رأينا في سنة 79 ـ 878ف قبائل نفوسة تهب لمساندة الأغالبة ضد قوات العباس الذي تمرد ضد والده. ومن المعروف أن الأغالبة، تسامحوا في وجود مملكة ابن صغير(*) البربرية الصغيرة على أراضيهم، شرق طرابلس.

تغير الوضع مع العبيديين، بينما كان من المتوقع أن يقيم البربر الطرابلسيون علاقة حسنة مع بربر كتامة من منطقة القبائل التي كانت تستند إليها سلطة عبيد الله. كان هذا يعني التعويل على عدم تعصب قبائل كتامة. ففي سنة 298هـ/ 11 ـ 910ف، وهي السنة ذاتها التي استولى فيها عبيد الله على السلطة، قامت هوارة طرابلس بحركة عصيان وتمرد[1] وانضمت إليها قبائل زناتة، ولواتة أو لماية[2] وقبائل أخرى (؟). تم حصار طرابلس، وأرسل المهدي جيشاً بقيادة أبي زاكين تمام. وقد تمكن القائد العبيدي من التغلب على التمرد، وقتل أعداء كثيرين وبعث برؤوسهم وآذانهم إلى المهدي.

(*) هكذا كتبها المؤلف هنا، وقد مر بنا أنه كتبها ابن الصغير. المترجم.

(1) ابن عذاري، ج1، ص163.

(2) تعطي مخطوطات نص ابن الأثير قراءتين مختلفتين. لنذكر أن لواتة كانوا في برقة، واللماية مباشرة غرب طرابلس، وأن مجموعات من لواتة ولماية هاجرت نحو تاهرت مع ابن رستم سنة 761ف، انظر عاليه، ص198. كانت قبائل زناتة حتى وصول بني هلال في الداخل في الجفرة.

بعد ذلك بسنة واحدة، أي في سنة 299هـ/ 12 ـ 911ف، كان الحاكم العبيدي، مقنون بن دبارة هو الذي أشعل نار الفتنة بالسماح لوحداته العسكرية من كتامة بالتصرف كما يحلو لها. ونعتقد أن قراره أملاه تعاطف سكان طرابلس مع تمرد هوارة. أسيئت معاملة السكان، واغتصبت النساء وانفجرت ـ على أثر هذه الأعمال ـ ثورة في المدينة، وهرب الحاكم. اختار الناس في طرابلس محمد بن إسحاق رئيساً، لا تفيدنا النصوص عن القبيلة التي كان ينتمي إليها، وأقفلوا أبواب المدينة وقتلوا الكتاميين. بعث عبيد الله بجيش تحت قيادة ابنه القاسم. حاصر هذا الأخير المدينة في سنة 300هـ/ 13 ـ 912ف. قاوم الطرابلسيون حتى نفاذ المؤن، وذهبوا إلى حد أكل الموتى. وفي النهاية، احتلت المدينة. صادر القاسم أموال الذين حركوا التمرد، وأجبر السكان على دفع نفقات جيشه، وأخذ وجهاء الناس ومقدميهم رهائن، ورجع عند عبيد الله[1] بعد أن عين عاملاً على المدينة.

في سنة 309هـ/ 22 ـ 921ف، قامت في الجبل حركة تمرد. فقد تجمعت قبائل نفوسة حول رئيسها، أبو بطة[2]، الذي جذب نحوه عدداً كبيراً من المحاربين إلى الحد الذي أقلق عبيد الله. أسرع عبيد الله بإرسال علي بن سلمان الداعي بجيش قوي. فهُوجم العبيدي ليلاً وقتل من جيشه كثيرون، وهرب آخرون. كان رد فعل عبيد الله مضاعفاً: أمر واليه على قابس بقتل المتخلين الذين يمرون بولايته وبإرسال إمدادات إلى علي بن سلمان. في ديسمبر 923ف توغل علي في الجبل وحطم حصن قبائل نفوسة. وخلال هذه المعركة قُتل أبو يحيى زكريا الرجاني الرئيس المنتخب حكيم جبل نفوسة من قبل مقاتل أباضي أراد الانتقام لمظلمة[3] لحقت به. لا يفيد ابن عذاري ـ لسوء الحظ ـ عن الحصن

(1) ابن الأثير، ج4، ص140. وابن عذاري، ج1، ص168. وابن غلبون، ص16 ـ 17.

(2) ابن عذاري، ج1، ص187 ـ 188.

(3) الشماخي في Les Hakims, 2, Ibaditica, T. Lewicki، ص100 ـ 101.

الذي أشير إليه. فبقايا الحصون والقرى منتشرة في كل مكان في جبل نفوسة. يذكر البكري قلعة، وهي قلعة بني زمور الواقعة في برقت أو ترقت أو ترفت[1](؟)، والقراءة الأخيرة هي قراءة ياقوت[2]. كانت لالوت[3]، المسماة حالياً نالوت، تحسب في عداد المدن المهمة في جبل نفوسة وهي تقع قرب الحدود التونسية على إحدى الطرق المؤدية من طرابلس إلى غدامس. وقد وُصفت جادو الواقعة في قلب الجبل من قبل مؤلفين[4] كثيرين. وقد تكون المدينة المعروفة أكثر في جبل نفوسة خلال العصور الوسطى هي شاروس التي نرى أطلالها قريباً من فسطو[*] على بعد مائتين وخمسة وعشرين كيلو متراً جنوب غرب طرابلس[5]، ولدينا عدد من التوصيفات البديعة حول شاروس[6].

مات عبيد الله المهدي سنة 934ف. بعد موته بوقت قصير، في نفس السنة، حدث تمرد في طرابلس الغرب. ثار أحد الأشخاص، واسمه ابن طالوت البربر، وكان يدَّعي أنه ابن المهدي، وقام البربر بحصار طرابلس، وعندما ظهر لهم كذب ادعائه، قتلوه وحملوا رأسه إلى القاسم، ابن المهدي[7] وخليفته.

---

(1) المسالك، ص9/ 25. توجد اثنتان باسم تيرقت، واحدة في غرب الجبل والأخرى في الشرق. انظر T. Lewicki المرجع المذكور، ص101 ورقم 25 حسب T. Lewicki من المحتمل أن أبا بطة اسم القائد الأباضي الذي قاد المعركة الأولى هو لقب لأبي زكريا.

(2) المعجم انظر مادة (نفوسة).

(3) الشماخي في Repartition, T. Lewicki، ص332.

(4) ابن حوقل، ص95/ 93. والبكري، نفس المرجع، والاستبصار، ص144.

(*) هكذا كتبها المؤلف. والشائع حالياً فساطو. ووردت عند الزاوي في معجم البلدان الليبية (فساطو). المترجم.

(5) الزاوي، معجم، انظر مادة (شاروس، وفسطو).

(6) ابن حوقل، نفس المرجع، والبكري، نفس المرجع. والإدريسي، ص105/ 123 ـ 124. والاستبصار ص144 ـ 145. وياقوت والحميري انظر (مادة شاروس ونفوسة). إن جادو وشاروس موضحتان بطريقة صحيحة على خريطة ابن حوقل، ملحق ص66 ـ 67/ 60 ـ 61. ولا تذكر خريطة الإدريسي إلا شاروس، ومذكورة بعيداً إلى الغرب على خط طول قابس، انظر Weltkarte des Idrisi, Charta Rogeriana، ج1، قسم 2.

(7) ابن الأثير، ج6، ص238. وابن عذاري، ج1، ص209، وابن خلدون، البربر، ج2، ص528.

سبق ورأينا أن أول هجوم عُبيدي نحو الشرق، ضد مصر، حدث في سنة 914ف، مكن العبيديين من سرت وأجدابيا وبرقة ومنافذ طرق كانم التجارية في نفس الوقت. كان موقع برقة، كمحطة متقدمة مواجهة لمصر، مهماً للغاية في نظر عبيد الله. وهكذا عندما ثارت برقة في 303هـ/ 6 ـ 915ف، أرسل مباشرة قائده أبا مدين بن فروخ لإعادة الاستيلاء عليها. استمر حصار برقة ثمانية عشر شهراً مات خلالها أغلب السكان، كما يفيدنا ابن عذاري[1]. وقام ابن فروخ بعد انتصاره بمصادرة أموال الذين بقوا على قيد الحياة، وأرسل مجموعة من المتمردين إلى عبيد الله الذي قام بإعدامهم. ويبدو من قراءة ابن عذاري أن هذه الثورة اقتصرت على مدينة برقة.

من بين حركات التمرد الخمس هذه ـ أربعة في طرابلس الغرب وواحدة في إقليم برقة ـ تتعلق الأولى مباشرة بمجالنا: إنها حركة التمرد التي أثارتها هوارة سنة 11 ـ 910ف ربما شاركت فيها لواتة. ويجب هنا إبراز توضيحين. لا تخبرنا النصوص بأي من قبائل هوارة يتعلق الأمر. إننا نجهل ما إذا كان المبادرون بالثورة، هم هوارة المتوطنون في شرق طرابلس وجنوبها ـ الشرقي حتى فزان، أو مجموعاتها التي كانت قد هاجرت نحو الغرب[2] قبل هذا التاريخ. بالإضافة إلى أن من الواضح أنه حتى لو تعلق الأمر بهوارة جنوب طرابلس الغرب فإن هذه الثورات المؤججة من قبل المحاربين لم تحدث أي أثر في البلاد. ولم يشر أي من الجغرافيين الذين وصفوا الصحراء الليبية والمولعين جميعهم بالحكايات التاريخية الصغيرة لأي أثر لهذه الأحداث على الأقاليم الجنوبية. يبدو أن الحياة في الصحراء كانت تسير بمنأى عن المؤامرات والقلاقل التي كانت تعصف بالساحل منذ منتصف القرن الثامن، أي منذ الهزيمة التي ألحقها ابن الأشعث بأباضيي زويلة، حتى لو كانت العلاقات

(1) البيان، 1، ص173، 175.

(2) T. Lewicki، موسوعة الإسلام، انظر مادة (هوارة).

مع الساحل قائمة، بطبيعة الحال. كما لم تؤثر على الأنشطة في الصحراء خلال الفترة التي تلت سنة 973ف، تاريخ سفر المعز إلى مصر. وقد انعكست قليلاً الصراعات بين أمراء الساحل، والصراعات بينهم وبين الفاطميين في مصر ـ لوحدها ـ على الجنوب، وعليه فمن المناسب أن نفحص بسرعة الأحداث السياسية في أفريقية وطرابلس الغرب، ونميز بين المنطقتين لأن الثانية ـ طرابلس ـ ستميل إلى الاستقلال عن الأولى.

عند مغادرته أفريقية، أسند المعز حكومة هذه الولاية، التي كانت تضم المغرب كذلك، إلى بلجين بن زيري بن مناد رئيس صنهاجة، وعهد بحكومة طرابلس إلى عبد الله بن يخلف الكتامي. وقد احتفظ الخليفة الفاطمي نزار أبو المنصور العزيز، ابن المعز وخليفته سنة 978ف، لبلجين بإدارة شؤون أفريقية وأسند إليه أيضاً شؤون طرابلس وسرت وأجدابيا[1]. هوجمت سلطة بلجين على المغرب الغربي بعنف من قبائل زناتة مدعومين من قبل الأمويين في إسبانيا. وعليه وجه بلجين جهوده العسكرية نحو الغرب: في سنة 369هـ/ 80 ـ 979ف استولى على فاس وسجلماسة التي كان قد أخذها بنو مدرار من الشيعة، وقام بإعدام رئيس مغراوة وهي قبيلة زناتية. وفقد بعد ذلك سبتة ولكنه تمكن من إزاحة الأمويين من المغرب لبعض الوقت، وطرد زناتة إلى الصحراء[2].

كان المنصور (984ف ـ 996ف) ابن بلجين وخليفته هو أول من أظهر رغبة في الاستقلال عند الأسرة الزيرية[3]. وكرد فعل، أثار فاطميو مصر ضد صنهاجة المنصور، وبواسطة مبعوث داعية، تمرداً من قبل كتامة المخلصين لهم والذين كان قد أغاظهم من قبل وصول جباة الضرائب الزيريين إليهم، ولكن

(1) ابن الأثير، ج7، ص76. وابن عذاري، ج1، ص228. وابن خلدون، العبر، ج4، ص107/ البربر، ج2، ص10.

(2) ابن عذاري، ج1، ص230 ـ 231 و237 ـ 239.

(3) نجهل كل شيء عن المنصور قبل وفاة والده.

هذا التمرد قمع[1] بقسوة وعنف. ومنذ ذلك الوقت توقفت كتامة عن لعب أي دور مهم في أفريقيا الشمالية.

كان على المنصور بن بلجين منذ بدايات حكمه أن يواجه من جديد قبائل زناتة في المغرب الأقصى التي أعادت الاستيلاء على فاس وسجلماسة منذ وقت قصير. في هذه المرة هُزم المنصور، وسلم بالأمر الواقع تاركاً الرؤساء الزناتيين يقيمون سلطتهم في البلاد. كان من بين هؤلاء، المدعو خزرون رئيس مغراوة، ولعبت، بعد ذلك، أسرة بني خزرون دوراً عظيماً في طرابلس الغرب[2].

أغضبت المساعدة التي قدمها الأمويون في إسبانيا لبعض قبائل زناتة على حساب أخرى أحد رؤساء زناتة، سعيد بن خزرون بن فلفل بن خزر فغير ولاءه سنة 379هـ/ 90 ـ 989ف وأعلن خضوعه للمنصور الذي أسند إليه حكم الزاب. كانت هذه محاولة من المنصور للتوفيق بين السلطة الصنهاجية والقبائل الزناتية. وبعد ذلك بثلاث سنوات، عند موت أمير زناتة احتفظ ابنه فلفل بن سعيد بن خزرون بلقب حاكم الزاب، وهو اللقب الذي ثبته فيه باديس (أبو مناد باديس ناصر الدولة، 996ف ـ 1016ف) خليفة المنصور[3].

بإسناده أعمالاً مهمة لعمه، حماد بن بلجين، خاصة الحملات الجديدة ضد زناتة، أضعف باديس سلطته ووضع مصير أفريقية في خطر دون أن يدري. بالفعل، لم يتأخر حماد في إعلان الاستقلال، وأسس عاصمته، قلعة بني حماد واعترف بالسيادة العباسية وعاد إلى المذهب السني واضطهد الشيعة.

لم يستلم باديس أي مساعدة من جانب الخليفة الفاطمي الحاكم (996ف

---

(1) ابن الأثير، ج7، ص133 وص140 ـ 141. وابن عذاري، ج1، ص243 الذي وصف منظراً حقيقياً لأكل لحم البشر أثير عاليه، ص214، رقم 2، انظر كذلك Zirides, H.R. Idris، ج1، ص75 ـ 79.

(2) ابن الأثير، ج7، ص128. وابن عذاري، ج1، ص241. وابن خلدون، البربر، ج2، ص13.

(3) ابن الأثير، ج7، ص141. وابن عذاري، ص244 وص246. ابن خلدون، البربر، ج2، ص15. وج3، ص260.

ـ 1021ف)، بالرغم من أنه أظهر خضوعاً للفاطميين أكثر مما فعل والده. وبينما كان المغرب الأقصى يشهد عدداً كبيراً من الإمارات الزناتية، تقاسمت بقية أفريقيا الشمالية مملكتان صنهاجيتان: الزيريون وهم خاضعون لسلطة الفاطميين وكانوا يحتفظون بأفريقية، وبنو حماد وهم سنة خاضعون لبغداد وكانوا يحكمون المغرب الأوسط[1].

كانت مصر الفاطمية معزولة، ففي الغرب كانت جمهرة من صغار الملوك تتقاسم إسبانيا السنية المهددة بجهود المسيحيين لإعادة الاستيلاء عليها. وكان المغرب الأقصى يشهد قبائل زناتية متنازعة فيما بينها. وفي المغرب الأوسط اعترف بنو حماد في القلعة بالسيادة المطلقة للعباسيين. وفي أفريقية، سبق للمنصور (984ف ـ 996ف) ثاني الأمراء الزيريين، أن أظهر رغبة في الاستقلال تصاعدت مع خلفائه من بعده. وكانت صقلية لا تزال معترفة بالسلطة الزيرية في سنة 1036ف. وأما طرابلس فقد قسمها الصراع على السلطة بين الزيريين والفاطميين. في الشرق، لم يكن الوضع لصالح الفاطميين، فقد كانت الاضطرابات مستمرة في سوريا وفلسطين. حاول العزيز والحاكم دون جدوى أن يُعترف بهما من قبل الوزراء البويهيين في بغداد، وبينما كان المنتصر على وشك الحصول على الاعتراف استقر السلاجقة في آسيا الغربية. مصر ذاتها، التي عاشت عشرين سنة في أوج ازدهارها في عهد الخليفة العزيز (975ف ـ 996ف) بدأت الانحدار مع خليفته الحاكم بأمر الله. كان قد أُضيف إلى الجيش الفاطمي، المكون أساساً من قوات شمال أفريقية، فيالق يونانية وسلافية وإيطالية، ثم ميليشيا تركية سرعان ما تحولت إلى جماعات متنافسة. ودعمت الوحدات النوبية، التي جندت بعد ذلك، الأتراك في البداية، ثم انقلبت ضدهم. وهكذا بدأت تظهر

---

(1) ابن الأثير، ج7، ص182، وابن عذاري، ج1، ص248 ـ 249. وابن خلدون، البربر، ج2، ص18 ـ 19. حول الصراعات بين الزيريين وبني حماد، انظر Zirides, H.R. Idris، ص 106 ـ 119.

التصدعات الأولى في امبراطورية كان اقتصادها قد أُضعف[1] كثيراً من قبل.

بنو خزرون في طرابلس:

بالرغم من ارتباط رؤساء بني خزرون بالزيريين بعلاقات مصاهرة[2]، بقي بنو خزرون ـ مغراوة ـ زناتيين حقيقيين في المغرب الأقصى، كثيراً ما يعارضون الزيريين ويواجهونهم. كانوا على وشك الظهور في الطرف الشرقي لأفريقية.

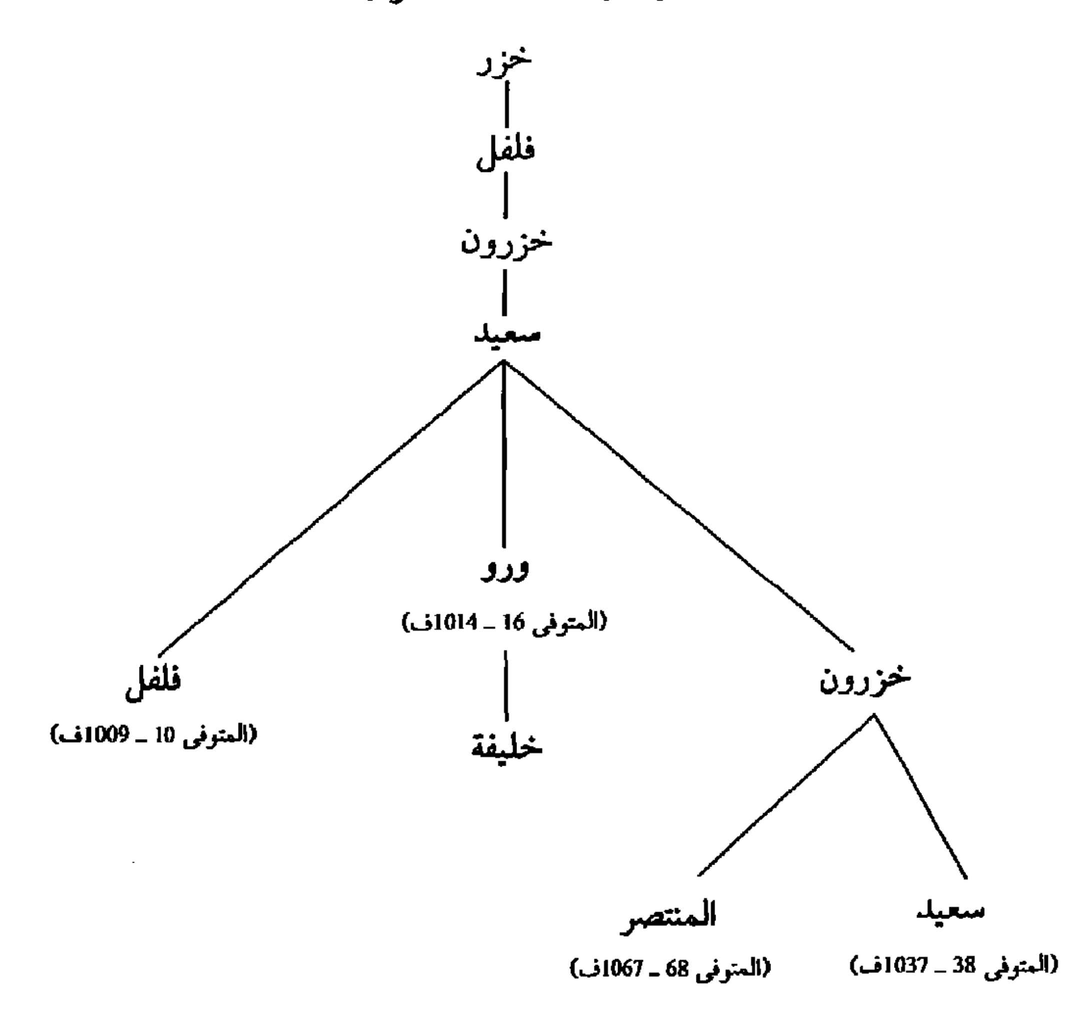
الفاطميون والزيريون حتى وصول بني هلال

الزيريون	العبيديون والفاطميون
زيري بن مناد	المهدي عبيد الله
توفي سنة 971ف	909ف ــ 934ف
	القائم
	934ف ــ 946ف
	المنصور
	946ف ــ 953ف
بلجين	المعز
972ف ــ 984ف	953ف ــ 975ف
المنصور	العزيز
984ف ــ 996ف	975ف ــ 996ف
باديس	الحاكم
996ف ــ 1016ف	996ف ــ 1021ف
المعز بن باديس	الزاهر
1016ف ــ 1062ف	1021ف ــ 1036ف
	المستنصر
	1036ف ــ 1094ف

(1) انظر A History of Egypt, S. Lane-Poole، ص118 ــ 142. وPh.k.Hitti، ص619 ــ 622. وL'Orient, Musulman N. Elisseef، ص200 ــ 202. وM. Canard، موسوعة الإسلام (انظر مادة الفاطميين)، ص784 ــ 786.

(2) ابن الأثير، ج7، ص141. وابن عذاري، ج1، ص224.

بنو خزرون، زناتة مغراوة



عندما ضم الخليفة الفاطمي، نزار أبو المنصور العزيز، أقاليم طرابلس وسرت وبرقة إلى أفريقية التي كان يديرها بلجين، في سنة 978ف، قام الأمير الزيري بإسناد حكومة طرابلس إلى المسمى تمصولة بن بكار. وقد قام هذا الأخير بتجاوزات جعلت الأمير باديس، حفيد بلجين يصر على عزله عند استلامه السلطة. نكاية في باديس أو خوفاً منه قدم تمصولة مدينة طرابلس إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي قبلها وعين واليه على برقة أبو الحسن يانس حاكماً لطرابلس. وصل يانس إلى طرابلس بخمسة عشر ألف فارس وذهب تمصولة إلى مصر في 390هـ/ 999 ـ 1000ف. لم يكن باديس يرغب

الدخول في صراع مع سيده الفاطمي، كما كان يرفض أن يقبل دون رد فعل هذا الإجراء الذي يعتبره جائراً، وعليه أصر أن يرى مستندات تنصيب يانس الذي رفض. أرسل باديس ضد الحاكم الجديد لطرابلس جيشاً صنهاجياً بقيادة جعفر بن حبيب. وقد سُحقت قوات يانس وتم أسره وإعدامه. علم جعفر بُعيد استيلائه على طرابلس بقليل، برسالة من حاكم قابس، أن فلفل بن سعيد بن خزرون المعارض علناً للأمير الزيري كان يزحف على طرابلس. أخلى جعفر المدينة، وأراد اللجوء إلى جبل نفوسة ولكن المعاناة والمصاعب التي واجهت قواته أثناء هذا الانسحاب اضطرته للتوجه نحو القيروان. استقبلت طرابلس فلفل بن سعيد الذي سيطر على المدينة والولاية وأعلن ولاءه للخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله. أرسل هذا الأخير إلى فلفل مدداً من القوات حاصر به قابس دون نجاح. أدرك فلفل، بعد ذلك، أن ليس في إمكانه الاعتماد لمدة أطول على مساعدة الفاطميين فأعلن ولاءه لملك قرطبة وهو ما يتسق تماماً مع تقاليد زناتة. لم يعط إعلان الولاء هذا أي نتائج لأن فلفل توفى سنة 400هـ/ 10 ـ 1009ف قبل أن يستلم أي رد[1]. ولم يفد الصراع الفاطمي ـ الزيري بني خزرون بقدر ما أدى إلى عدم استقرار البلاد.

عند وفاة فلفل، تجمعت زناتة حول شقيقه، ورو[*] بن سعيد. مع هذا، ما كان الأمير الزيري، باديس ليقبل دون رد فعل ضياع ولايته الشرقية، فقام سنة 1010ف بالزحف على طرابلس التي استقبله أهلها بنفس القدر من الترحاب الذي كانوا قد استقبلوا به فلفل. طلب ورو الأمان فمنح له وفي نفس الوقت أسندت له حكومة نفزاوة، وهي إقليم لا يكتسي أهمية تذكر للحفاظ على الإمارة الزيرية. وعهد باديس بحكومة طرابلس لمحمد بن الحسن وهو ضابط كان مبعوثه إلى ورو.

(1) ابن الأثير، ج7، ص199 ـ 200. وابن عذاري، ج1، ص251 ـ 252. وابن خلدون، البربر، ج3، ص262 ـ 263.

(*) يكتبها ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ روا. المترجم.

لم يسلم ورو بهزيمته. في نفس السنة شكل تحالفاً بين نفوسة وزناتة ضد باديس. وقام ورو وشقيقه خزرون بن سعيد بن خزرون الزناتي، بمحاصرة طرابلس، وخربوا ولاية طرابلس الغرب بكل طمأنينة، فقد كانت حملة باديس ضد عمه حماد في الغرب تمنع أي تدخل من جانبه.

عند موت ورو[1]، انقسمت زناتة إلى مجموعتين؛ كانت إحداهما تريد ابن ورو، خليفة رئيساً ويريد الآخرون شقيق ورو، خزرون رئيساً. سعد حاكم طرابلس الزيري محمد بن الحسن بهذا الانشقاق وعمل بمثابرة على استمراره، بل وتأجيجه بفاعلية لدرجة قيام خليفة بالهجوم على معسكر عمه واستولى عليه باسطاً سلطته على قبائل زناتة في طرابلس الغرب. وقبل باديس الذي كان في حملته ضد بني حماد خضوعه. ذهب خزرون بن سعيد إلى مصر عند الحاكم بأمر الله، وقضى ولداه، المنتصر وسعيد، شبابهما في قصر الخليفة الفاطمي[2].

عند وفاة باديس في ذي القعدة 406هـ/ مايو 1016ف، كان على ابنه المعز (1016 ـ 1051[*]ف)، بمجرد وصوله للسلطة، مواجهة قبائل زناتة التابعة لخليفة التي كانت ترفض إعلان ولائها للأمير الزيري. ربما كان بمقدور المعز أن يحتفظ بطرابلس وولايتها لو لم يكن ضحية لمحمد بن الحسن. استدعى المعز محمد بن الحسن إلى قصره ـ من أجل مكافأته، غالباً ـ وأغدق عليه من أفضاله. وأسند المعز لشقيق محمد، عبد الله بن الحسن حكومة طرابلس. كان محمد بن الحسن طموحاً، وأدين، أثناء إقامته في القصر، بأعمال ابتزاز وتآمر مع الخليفة الفاطمي في القاهرة. واتهم بالخيانة والوشاية لذلك تم إعدامه في يوليه 1022ف. سخط شقيقه، عبد الله، نتيجة لما حدث وقام بتسليم طرابلس

(1) توفي ورو في شوال 406هـ/ مارس 1016ف، حسب ابن عذاري، ج1، ص266. وفي 405هـ/ 15 ـ 1014ف حسب ابن خلدون، البربر، ج3، ص265.

(2) ابن الأثير، ج7، ص218. وابن عذاري، ج1، ص258 ـ 259. وابن خلدون، البربر، ج3، ص266.

(*) هكذا أوردها المؤلف، والصحيح 1062ف كما سبق للمؤلف أن أوردها. المترجم.

لزناتة بني خزرون التابعين لخليفة بن ورو، وتم تقتيل كل الصنهاجيين الذين كانوا في المدينة. في سنة 417هـ/ 1026 ـ 1027ف ثبت الخليفة الفاطمي، الزاهر بن الحاكم، خليفة في حكومة المدينة التي استولى عليها وكلفه بالسهر على سلامة الطرق وتزويد القوافل بوحدات حراسة. وهكذا، مرة أخرى، استغل بنو خزرون التنافس الزيري ـ الفاطمي وأصبحت ليبيا تحت السيادة المصرية[1].

ما تبع من تاريخ طرابلس شديد الغموض، ولكن كل المؤشرات تدفع إلى الاعتقاد بأنها لعبت دوراً في اقتحام بني هلال لأفريقيا الشمالية. عند موت خليفة، خلفه سعيد بن خزرون الذي عاش في القصر الفاطمي في القاهرة. وقد قتله بنو زغبة سنة 429هـ/ 8 ـ 1037ف. وتبع هذا صراعات بين مجموعات بني خزرون انتهت باستيلاء المنتصر، شقيق سعيد[2]، على السلطة. وكان قد عاش هو كذلك في القصر الفاطمي. وفي عهده دخل بنو هلال إلى أفريقية.

لا يبدو من شك في أن سياسة بني خزرون كانت من أسباب قرار الخليفة الفاطمي المستنصر الدفع بالعرب الرحل إلى أفريقيا الشمالية. من سوء الحظ، أن الاستنتاجات التي يمكن أن نستخلصها من الوقائع يمكن أن تكون متناقضة تماماً، ونجهل النتائج الصحيحة للأعمال السياسية لهذه الأسرة المغراوية. فمن جانب دفعت الصراعات المستمرة بين الزيريين الذين أصبحوا مستقلين أكثر فأكثر عن القاهرة، وبني خزرون الموالين للفاطميين، مصر للتدخل لصالح مناصريها. ومن جانب آخر، يشير[3] هـ.ر. إدريس لاكتشاف دينار مصكوك في

---

(1) ابن عذاري، ج1، ص270. وابن خلدون، البربر، ج3، ص265 ـ 268.

(2) التجاني، ص267. ونقل عنه ابن خلدون، ج3، ص267. بنو زغبه هلاليون. كانت توجد مقدمة هلالية في طرابلس الغرب سنة 1037ف. كذلك الحال في برقة حيث كان يوجد في عهد الحاكم (996 ـ 1021ف) بنو قرة وهم هلاليون كذلك. انظر ابن خلدون، العبر، ج4، ص120 ـ 122. يحكي البكري الذي وصف أفريقيا الشمالية في النصف الأول من القرن الحادي عشر، قصة رجل من بني قرة سافر من الواحات الخارجة وتاه في الصحراء ووصل صدفة إلى ص. برو/ الكفرة. ص15 ـ 16/ 38 ـ 39. إذن كان هناك هلاليون غرب النيل قبل 1050.

(3) هـ.ر. إدريس، Zirides، ج1، ص163.

طرابلس سنة 425هـ/ 4 ــ 1033ف، وربع دينار من نفس النوع تحمل كتابات مناهضة للفاطميين بشكل واضح. عليه يمكن استنتاج أن الأمير الزناتي خليفة بن ورو، بالرغم من الاعتراف به من قبل الزاهر، ربما توقف عن الاعتراف بسيادة الفاطميين في الوقت الذي كان فيه متمرداً على الأمير الزيري، وقد يكون هذا ما دفع الفاطميين للتدخل بإرسال بني هلال. ويتساءل إدريس عما إذا لم يكن لقطيعة بن خزرون مع القاهرة دور في رفض المعز للسيادة الفاطمية رفضاً قاطعاً.

إننا لا نعرف شيئاً يذكر عن نهاية بني خزرون. لقد احتفظوا بمدينة طرابلس بينما تملكت زغبة، القبيلة الهلالية، أقاليم طرابلس وقابس[1]. لقد قتل المنتصر لتحالفه مع العرب، سنة 460هـ/ 68 ــ 1067ف بأمر من ملك قلعة بني حماد. وحاول الزيريون في المهدية إعادة سيطرتهم على المدينة سنة 470هـ/ 78 ــ 1077ف[2]. وفي سنة 488هـ/ 1095ف حصل مغامر تركي حليف للفاطميين على حكومة[3] مدينة طرابلس.

لنحاول أن نلخص في بضع سطور الوضع الشديد الغموض الذي كان سائداً في طرابلس الغرب في ذلك الوقت.

بالرغم من علاقات المصاهرة التي كانت تربط بين صنهاجة الزيريين وبني خزرون، احتفظ الأخيرون بعصبيتهم الزناتية. فعارضوا ــ أحياناً ــ الزيريين وتلقوا مساعدة الفاطميين، وخُذلوا ــ أحياناً ــ من مصر فأعلنوا الولاء للخليفة في قرطبة. وقامت زناتة متحالفة مع نفوسة بتخريب طرابلس الغرب، ثم تركوا المجال فسيحاً للزيريين بعد أن أصبحوا ضحايا صراعات داخلية. هكذا عادت طرابلس مرة أخرى لبعض الوقت إلى المجال الأفريقي ــ الزيري، ولكن انتقاماً

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج3، ص267 ــ 268.

(2) ابن الأثير، ج8، ص125. وابن عذاري، ج1، ص300.

(3) ابن الأثير، ج8، ص174. وابن عذاري، ج1، ص302. حول بني خزرون، انظر أيضاً Storia di Tripoli, E. Rossi، ص53 ــ 60. هـ. ر. إدريس، Zirides، 99 ــ 106 و159 ــ 165.

ناتجاً عن مؤمرات في القصر الأفريقي أعادها لبني خزرون. وفي منتصف القرن الحادي عشر كان أحد أمرائهم يحكم طرابلس، وتم تأكيده في منصبه من قبل الخليفة الفاطمي. وعليه، فعندما وصل بنو هلال كانت المدينة جزءاً من العالم المصري، وهذا يفسر أنها لم تواجه العرب.

المناطق الصحراوية:

منذ سنة 762ف، تاريخ تدخل ابن الأشعث ضد الأباضيين في زويلة[1]، ونحن نجهل تقريباً كل الوقائع السياسية التي شهدتها الصحراء الليبية. مع ذلك لم تكن هذه المناطق تعيش منعزلة. فقد كانت هناك علاقات تجارية بين غدامس وودان وزويلة من جانب، وأفريقية أو مصر من جانب آخر. ويشهد على هذا ذكر الجغرافيين العرب للكثير من طرق الاتصالات. كما كانت أقاليم غدامس وفزان الصحراوية ترتبط بعلاقات دينية وثقافية مع العالم الأباضي. إن مدوني الوقائع الأباضيين يذكرون علماء كثيرين من طائفتهم كانوا يعيشون في فزان في القرنين الثامن والتاسع، أو كانوا أصلاً من فزان. إن النسبة «الفزاني» ليست استثنائية. وكان يعرف شيخ أباضي من جبل نفوسة كتب كتاباً علمياً بناء على طلب أباضيين بـ «فزاني»[2].

إن اهتمام المؤرخين بهذه الأقاليم قليل لدرجة أننا نجهل حتى متى انتهت فيها الأباضية. كما أن ما يمكن أن نستخلصه من الجغرافيين العرب يشوبه الكثير من الغموض: يذكر اليعقوبي، الذي كان يكتب في نهاية القرن التاسع، أن مزاتة ودان و(روانه) (هكذا) زويلة أباضيون[3]، ويجهل الأصطخري الذي كتب كتابه ما بين 915ف و921ف وكذلك كتاب الجغرافيا الفارسية، حدود

---

(1) انظر بعاليه، ص198 ـ 199.

(2) Ibaditica, T. Lewicki، ج1، تسمية، ص94 ـ 99. هذا المستخرج من فصل عنوانه ذكر أسماء بعض شيوخ الوهبية، من كتاب السير للشماخي الذي يذكره T. Lewicki، يشير كذلك إلى أسماء عديدة لعلماء أباضيين أصلهم من غدامس أو من الجريد التونسي.

(3) البلدان، ص345/ 204 ـ 205.

العالم الذي يعود إلى 982ف ـ 983ف ودان، ويصفان زويلة[1] باختصار شديد. ويصف ابن حوقل الذي ألف كتابه سنة 988ف ودان[2]، ويذكر اسم رئيس القبيلة التي كانت تسيطر على زويلة وكذلك الطرق التي تؤدي إلى هذه الواحة[3]. ولا يقول الاصطخري وابن حوقل شيئاً عن الوضع الديني في هذه الأقاليم في عصرهما. لا يجب أن نخلص، بسبب هذا، إلى أن ودان وزويلة لم تعودا أباضيتين خلال القرن العاشر لأن الحوليات الأباضية تذكر علماء أباضيين ـ وهبيين من فزان في هذا العصر، خاصة عالم من زويلة قابله شيخ من جبل نفوسة، وآخر يسمى أبو بكر الفزاني، أصيل تامزاوة[4]. إننا لا نعرف ـ لسوء الحظ ـ ما إذا كان الأمر يتعلق بحالات استثنائية أو أن هذه الشخصيات كانت تنتمي إلى المذهب الذي كان لا يزال سائداً في فزان في القرن العاشر.

إن المعلومات المتعلقة بالتجارة والسكان في القرنين التاسع والعاشر، التي وصلتنا قليلة جداً، ولكنها تكتسي أهمية بالغة.

تصدر ودان ـ التي كان يديرها رجل من أهلها كما رأينا من قبل ـ تموراً من كل الأنواع[5] ذات جودة ممتازة، والمحاصيل فيها وفيرة[6] بشكل خاص. وزويلة منطقة زراعية، تمارس تجارة الرقيق مع السودان ـ كان الأمراء السودانيون هم الذين يبيعون مواطنيهم ـ وتصدر جلداً مشهوراً. وكانت مواطن

---

(1) الاصطخري، ص36 ـ 37. حدود العالم، ص153.

(2) صورة الأرض، ص67/ 64.

(3) نفس المصدر، ص106/ 104.

(4) Repantition, T. Lewicki، ص343، حسب الشماخي. لا يمكن أن تكون إلا واحة تامساوة. ت التأنيث التي في آخر الكلمة تنطق باللغة البربرية، انظر .Geogruphie humaine, J Despois، ص102، 113، 194، 242. الذي يصف تمزاوة وخرائط سبها ومرزق التي توضح تمزاوة. هذه الواحة واقعة في وادي الشاطىء، على بعد كيلو مترات شمال غرب براك، بالقرب من نهاية الطريق المباشر جبل نفوسة ـ فزان عبر الحمادة. وصف عند J. Despois انظر عاليه والدناصري، جغرافية فزان، ص337.

(5) اليعقوبي، البلدان، ص345/ 205.

(6) ابن حوقل، ص67/ 64.

قبيلة لمطة التي تصنع الدروع اللمطية[1] الشهيرة تقع في النواحي بين زويلة وكوار ـ التي كانت تبيع العبيد كذلك ـ وبين زويلة وأوجلة.

نشير إلى أن تميز تمور ودان ووفرتها، التي تحدث عنها الجغرافيون اللاحقون، كانت معروفة من قبل في القرن التاسع[2]، وكانت شهيرة كذلك معالجة الجلد التي جعلت منها ليبيا ـ زويلة، وبرقة، وغدامس ـ تخصصاً. إن تجارة الرقيق السوداني التي كانت تمارسها زويلة توضح لنا أسباب الأهمية التي يعلقها أمراء الساحل على أمن الطرق، وإصرارهم على تزويد القوافل بحراسات.

إن الملاحظات المتعلقة بسكان الصحراء الليبية نادرة لدرجة يكتسي معها ذكر اليعقوبي لقبيلة لمطة طابعاً استثنائياً. كان اللمطيون بربراً ملثمين ينتسبون للبرانيس مع صنهاجة، وهوارة، ولواتة[3]. إن تحديد موطن هذه القبيلة في القرن التاسع في منطقة أوجلة ـ زويلة ـ كوار هو الأبعد نحو الشرق فيما نعلمه. ثم هاجرت القبيلة بعد ذلك. وحدد موطنها كل من ابن الفقيه والهمداني[4] ـ نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر ـ، وابن حوقل[5] ـ القرن العاشر ـ، والبكري[6] ـ القرن الحادي عشر ـ في جنوب السوس، من سجلماسة في صحراء قبائل أنبيه[7]، على الطريق المؤدي إلى أودغست، وغانا ـ بلاد الذهب ـ، ونيل الصحراء، أي نهر النيجر.

---

(1) اليعقوبي، نفس المرجع.

(2) في هون، بالقرب من ودان، يعمل منذ 1962ف مصنع كبير لحفظ التمور.

(3) ابن خلدون، البربر، ج1، ص169 ـ 178.

(4) بلدان، ص81 ـ طبعة حاج صدوق، ص32 ـ 34.

(5) صورة الأرض، ص84ه 93/ 80، 91.

(6) مسالك، ص157، 161/ 298، 306.

(7) بلاد أنبيه تمتد على مسافة ليلة من السفر بدءاً من السوس في اتجاه الجنوب، انظر ابن الفقيه، المرجع أعلاه. وفق اليعقوبي، بلدان، ص360/ 226، قبائل أنبيه بربر ملثمون وربما هم فرع من صنهاجه. هم بدو رحل يغطون أجسامهم بقطع من القماش، ليس لديهم حبوب ويتغذون =

حدد الإدريسي أماكن وجود قبائل لمطة في القرن الثاني عشر، في نفس المنطقة ـ السوس والصحراء الغربية[1] ـ وذكر لهم وجوداً في السهول نواحي فاس[2]. وفي القرن الرابع عشر وقَّعهم ابن خلدون بشكل أساسي، مثل التارقة والمسوفة، في الصحراء الواقعة بين بلاد البربر وبلاد السود[3] ثم، بدقة، في السوس[4]، وأيضاً ـ وللمرة الأولى ـ في الصحراء الوسطى في مواجهة القبيلة الهلالية، الرياح، التي كانت تستوطن الزاب[5]. وهذا الموقع الأخير يتفق تقريباً مع الأراضي التي يتنقل فيها طوارق الأجر الحاليين، مع هذا الاختلاف في أن الطوارق في أيامنا هذه مقابلون للشعامبة، وهي قبيلة من بني سليم[6].

في القرن السادس عشر، وقَّع الحسن بن محمد الوزان الزياتي/ ليون الأفريقي مواطن لمطة في الصحراء بين ورقلة وغدامس في الشمال ومدينة كانو في الجنوب[7]، وهو ما يمثل تقريباً مناطق التنقل الإضافية للطوارق كل أجر، وكل هقار الحاليين. وأورد ليون الأفريقي أنهم كانوا أعداء سيد ورقلة،

= فقط بلحم الجمال. ولا نعرف أكثر حول هذه القبيلة الغامضة. وقد يتعلق الأمر بتحالف قبائل، لأن لمطة يسكنون نفس المنطقة. هذا رأي T. Lewicki في L'Etat nord-africain، ص528، وموسوعة الإسلام (انظر مادة لمتونة)، ورأي J. Marquart ـ نقله عنه Recueil, J.M. Couq، ص42 رقم 4 ـ والذي يعتبر أن قبائل لمتونة ومسوفة وجبلة كانت جزءاً من هذا التحالف. المرجع الأقدم بالنسبة لأنبيه هو الفزاري، من القرن الثامن، الذي يوقع هذه الدولة بين سجلماسه ودولة غانا، النص عند د. كمال في Monumenta، ج3، ص510 وJ.M.Cuoq، المرجع المذكور، ص24.

(1) نزهه، ص56، 59 ـ 60/ 65، 68 ـ 69.

(2) نفس المرجع، ص81/ 93.

(3) البربر/ ج2، ص64.

(4) نفس المزجع، ص116. ص280.

(5) نفس المصلر، ص105.

(6) Le Sahara Francais, R. Capot-Rey، ص264 ـ 265. يوجد حالياً رياح خاصة في الرقبة/ الرقيبة والغرفة/ الغريفة في وادي الأجال، انظر Geographie humaine، ص114 ـ 115.

(7) Description de L'Afrque، ج2، ص452 ـ 453.

ويقومون بسلب التجار إذا ما لاقوهم في الصحراء، وكان الناس في ورقلة يقومون بقتلهم دون أدنى شفقة[1].

إذا قبلنا بما ذهب إليه ابن الفقيه وابن حوقل والبكري، فإن قبائل لمطة التي كانت رحلاً في ليبيا خلال القرن التاسع، هاجرت نحو الغرب ـ السوس والصحراء الموريتانية ـ في القرن العاشر. ومن ثم فإن انتقالهم إلى هذه المناطق لا يعود لبني هلال. كما أن الإدريسي، الذي كتب بعد الهجرة الهلالية، ينسبهم لنفس الموقع. لا يعرف ـ لسوء الحظ ـ متى توطنت قبائل لمطة في الصحراء الغربية، وإذا ما كانوا قد وجدوا فيها قبل زمن الجغرافيين السابقين الذين ربما أغفلوا ذكر هذا الواقع، أو أن احتلالهم لهذا الإقليم يرجع للزمن الذي درسهم فيه ابن خلدون.

لقد أثار الدرع اللمطي (درقة لمطية) إعجاب الجغرافيين العرب إعجاباً شديداً لدرجة لا يمكن معها الصمت عنه. كان هذا الدرع يصنع من جلد اللمط[2]، وهو ظبي صحراوي أبيض في طريقه للانقراض منذ ظهور السيارة[3]. ولا نعرف إذا كانت الصفة «لمطية» تعود إلى القبيلة أو إلى الحيوان. إن الاسم نسبة إلى الحيوان[4] حسب أبي حامد الأندلسي. يفيدنا اليعقوبي،

---

(1) نعرف العداوة التي غالباً ما وجدت بين كل أجر وكل هقار من جانب والشعامبة من جانب آخر في زمن الإدارة الفرنسية.

(2) كانت/ كلمة لمط تعني/ الظبي الصحراوي، وقد اختفت الآن من العربية الفصحى. وفي المغرب، تعني حتى الآن حيواناً برجل واحدة ويجري بسرعة كبيرة، انظر تعبير «يجري كاللمط» ـ يجري سريعاً جداً. وتعني كلمة مهاة الآن في نفس الوقت البقر الوحشي، والظبي الصحراوي. انظر M. Beaussier (انظر لمطه). وF. Vire (انظر لمطه ومهاه). وم. صدوق، Description، ص103، رقم 159.

إن التشابه بين لمط الحيوان ولمطة القبيلة قد يكون صدفة، اليعقوبي (تاريخ، ج1، ص190) يشير إلى أن قبائل لمطة تسمى كذلك العبالات، وهي كلمة كتبها H.R. Palmer (Sudanses Memoirs، ج2، ص18) اليالاب وهي كلمة لم نجدها عند أي مؤلف من مؤلفي العصور الوسطى.

(3) كما يُصطاد الغزل، يقومون بمطاردة الحيوان حتى ضربه بالواقي الأمامي للسيارة.

(4) تحفة، ص44/ 249.

فقط، بأن الدرع أبيض[1]. ويعود أول وصف لهذا الدرع لابن الفقيه، الذي يقول إن هذا الدرع الفريد يجب أن ينقع في الحليب لعام كامل، ويرتد عنه السيف إذا ضربه، وإذا توغل فيه تعذر إخراجه[2] منه. ويجب أن يكون الحليب حليب ناقة حسب ابن سعيد[3]. ويشير البكري أن قرون الحيوان طويلة ومنسلة، وأن أحسن الدروع تصنع من جلود الإناث الكبيرة سناً، ويُتعرف عليها بسهولة لأن قرونها تصبح، مع تقدمها في السن كبيرة، لدرجة تمنع الذكور من إتيانها[4]، ويمكن أن يصل طول القرن أربع أشبار[5]. والحيوان أبيض، ولكن اللون الأبيض للدرع يعود ـ حسب ياقوت ـ إلى صبغة مكونة من خليط الحليب وقشرة بيض النعام، وكانت مدينة كاكدم متخصصة في صناعة هذه الدروع. ويبلغ قطر الدرع عشرة أشبار. ولا يوجد أحسن منه لوقاية المحارب[6]، بالإضافة إلى أنه أنيق جداً، وخفيف جداً للحمل، حسبما يضيف الإدريسي[7]، وكذلك أبو حامد الذي يقول بأنه مسطح كالخبز وقادر على حماية الفارس وجواده[8]. ويخبرنا الحميري[9] أن الدروع اللمطية كانت موضوع تصدير من هذه الأقاليم. وأكد كل المؤلفين على استحالة أن ينفذ الحديد من هذا الدرع،

(1) البلدان، ص346/ 206.

(2) البلدان، نقل عنها اليعقوبي، انظر لمطة. والقزويني، انظر كاكدم، ص5.

(3) بسط الأرض/ ص46.

(4) مسلك، ص171/ 321، أخذ عنه الاستبصار، ص214.

(5) الاستبصار، ص214.

(6) المعجم، انظر كاكدم. كاكدم، أيضاً كوكدم، أو قوكدم تقع على مسيرة ثمانية أيام من أزوقي، حسب ابن سعيد، بسط الأرض، ص46 ـ 47. وبالنسبة للإدريسي، ص59 ـ 60/ 69. أزوقي وقوقدم نفس المدينة، أزوقى الاسم البربري لها وقوقدم الاسم السوداني/ بالجناوية. أزوقي/ أزوقوي غير بعيده من آقار في أدرار موريتانيا، ولا يرى فيها حالياً إلا أطلال القلعة، انظر Tableau Geographique, R. Mauny، ص69. إن قطراً طوله عشر أشبار، أي أكثر من مترين، يبدو مبالغاً فيه. أبو حامد، المرجع أعلاه، يقدر قطر الدرع بثلاث أذرع = 1.5 متر.

(7) نزهه، ص59 ـ 60/ 69.

(8) تحفة، المرجع أعلاه.

(9) الروض المعطار، انظر أودغشت، ص64ب.

حتى القزويني بالرغم من أنه قليلاً ما يتناول المغرب[1]. ويشير ليون الأفريقي، وهو في حدود علمنا آخر من ذكر من المؤلفين الدرع اللمطي، إلى أن لا شيء يمكن أن يخترق هذه الدروع إذا ما استثنينا قذائف الأسلحة النارية، ولهذا السبب هي باهظة[2] الثمن. وقد عرفت الدروع اللمطية في أوروبا: وأرسل يوسف بن تاشفين كمية منها هدية لملك الأندلس[3] لمعرفته بعدم إمكانية الحصول عليها في الأندلس، وقد كانت قواته مجهزة[4] بهذه الدروع عندما حاربت في إسبانيا بعد ذلك.

أوضح اليعقوبي في القرن التاسع، أن قبائل مزاتة كانت في صراع مع سكان وادي الآجال، الجرمنت[5]. وميز ابن حوقل بوضوح، في القرن العاشر، بين منطقة زويلة وفزان وعد خمسة عشر يوماً من السفر بين هذه وتلك[6]. إن خمسة عشر يوماً للوصول إلى جرمة من زويلة مدة مبالغ فيها جداً، فالنقطتان لا تبعدان الواحدة عن الأخرى إلا بمائتين وخمسين كيلو متراً. إن هذا التقدير يمكن أن ينطبق على المسار الذي يؤدي من زويلة إلى الطرف الأقصى لفزان الغربي، إلى واحة غات على حدود تاسيلي، أي حدود الأراضي الجرمنتية. إن أكثر قليلاً من خمسمائة كيلو متر تفصل غات عن زويلة بواسطة الطريق الترابية التي تمتد على طول حمادة مرزق، على حافة دهان مرزق، وهو ما يتطلب متوسطاً عادياً قدره ثلاثة وثلاثون كيلو متراً في اليوم. مؤشر آخر من ابن حوقل يسمح لنا برفض فكرة مطابقة فزان مع إقليم جرمة: يقول ابن حوقل

---

(1) آثار البلاد، انظر كاكدم، ص58 الذي يسمي الحيوان لبط والدرع لبطي.

(2) Description de L'Afrique، ص559، حيث يقول إن الحيوان يمسك في الصيف لأنه في هذا الفصل يفقد حوافره وهو ما يجعله يعاني ويبطىء في الجري.

(3) ابن خلدون، ج4، ص452 وهو يدعي أن لمطة مدينة في السوس الأقصى، على مسافة عشرين يوماً من سجلماسه.

(4) نفس المرجع، ص455.

(5) انظر عاليه ص120، 226.

(6) صورة الأرض، ص92/ 90.

إن أقاليم فزان تتضمن نقاط مياه، تعيش بالقرب منها قبائل بربرية في حالة خمول وفقر مدقع، لا تعرف كيفية إعداد الطعام، ولم تر قط قمحاً أو شعيراً أو أي نوع من أنواع الحبوب، إن أغلب هؤلاء الرجال يعيشون حياة بؤس، ولا يغطون أجسامهم إلا بقطعة من قماش[1]. إن هذا الوصف لا ينطبق على وادي الآجال حيث تتابع الواحات بطريقة متصلة حتى أوباري في الغرب. إنها أرض نخيل وزراعة، ويشهد وجود أعداد كبيرة من القنوات[2] تحت الأرضية على عمليات الاستصلاح القديمة جداً للمنطقة. وتعود هذه القنوات إلى آماد بعيدة في الماضي، إذ يعود تاريخ القنوات تحت الأرض المحتمل في الواحة المصرية الخارجة إلى زمن الاحتلال الفارسي[3]. ويذكرها الإدريسي أيضاً في منطقة جرمة ـ تساوة في القرن الثاني عشر[4]: يقول، يتم زيها بواسطة آلة تسمى انجفت (في مخطوطات أخرى الحفة، النحتة، نحقه)[5] والتي تسمى في المغرب خطارة، والخطارة وجمعها خطاطير تعني في المغرب، في وادي دراع على وجه التحديد، القنوات تحت الأرضية[6]. ويؤكد الإدريسي أن النخيل والذرة البيضاء والشعير تنمو في إقليم جرمة. قد يكون من المستغرب حقاً

---

(1) المرجع السابق، ص84/ 80.

(2) الفقارير قنوات طويلة تحت الأرض، ميلها خفيف وهي تجمع الماء من تحت الأرض من أعلى حمادة مرزق، وتوصله إلى الواحات. وتتم تهوية هذه الأنفاق بواسطة آبار تستعمل كذلك للصيانة، وهي عملية خطيرة جداً. إن تدفق المياه ضعيف، بعض لترات في الثانية فقط، والميل هو الذي يحقق المطلوب، والزراعة لا تتطلب حفر آبار وسحب المياه منها. توجد هذه القنوات في توات، وجرارة، وتدكلت وتغلالت، ومراكش، ووادي دراع. إن قنوات فزان مصانة وبعض منها التي لم تسدها الرمال تستغل كمصادر مياه. حول هذا الموضوع انظر Le Sahara Francais, R. Capot-Rey ص324 ـ 327. و Goeographie Humaine, J. Despois، ص55 ـ 57. حول القنوات التحت أرضية في أرض الإسلام، انظر A.K.S. Lambton، موسوعة الإسلام (انظر قناة).

(3) A.K.S.Lambton، المرجع أعلاه.

(4) نزهة، ص35/ 42.

(5) إن هذه الكلمات غير معروفة في المعاجم.

(6) M. Beaussier، هناك في فزان خاصة، تعني كلمة الخطارة البئر المجهز برقاص.

ضياع تقنيات الجرمنت الزراعية في القرن العاشر وظهورها من جديد في القرن الثاني عشر. إن المسافة التي قدرها ابن حوقل، وواقعة أن سكان المنطقة لم يكونوا يعرفون الزراعة، تضطرنا للبحث عن هذه البلاد التي يسميها فزان أبعد إلى الغرب، في نواحي تاسيلي حيث نقاط الماء نادرة والحياة، واقعاً، أكثر بؤساً منها في وادي الآجال حيث الماء على سطح التربة[1]. قد تكون هناك حجة أخيرة في مقطع آخر[2]، إذ يذكر ابن حوقل قبيلة بربرية من زناتة تسمى أجر فزان: هل لنا أن نقارب بين أجر والطوارق أجر في تاسيلي[3]؟ إن من الممكن استنتاج أن الصراع بين مزاتة وفزان[*] حسب اليعقوبي في القرن التاسع، استمر في القرن العاشر لصالح مزاتة وطرد الفزان حينها نحو الغرب دون أن يبادوا ـ إن التحديد الزمني لبعض الحفريات يسمح بالاعتقاد أن الحضارة الجرمنتية قد لا تكون اختفت إلا في القرن[4] العاشر.

لم تمارس مزاتة نفوذها على فزان الغربي فقط، بل أسست في زويلة أسرة حاكمة احتفظت بالسلطة حتى نهاية القرن الثاني عشر[5]. كانت زويلة في القرن العاشر متصاعدة الأهمية، فقد كانت محطة لا مناص منها على طرق جلب الذهب[6] والرقيق[7] نحو البحر المتوسط. فهي بالفعل تقع على، رأس المثلث سجلماسة ـ منجم ذهب ـ زويلة[8]. وقد مُنع استعمال الطريق من مصر

(1) خريطة ابن حوقل توضح فزان جنوب طرابلس (على خط عرض ودان!). المسافة بين سبها وغات ستمائة كيلو متر. تنقل ابن حوقل في أفريقية الشمالية ولكنه لم يقطع في الصحراء إلا الطريق الغربي المار بسجلماسة، وقد يكون جهل أن فزان إقليم بهذا الاتساع. كما أن المخبرين شحيحون خاصة بالنسبة للمعلومات المتعلقة بهذه المنطقة.

(2) صورة الأرض، ص106/ 104.

(3) تجب الإشارة إلى وجود قرية تسمى آقار في وادي الشاطىء.

(*) بالمعنى الذي سبق وروده، أي أن كلمة «فزان» تعني السكان وليس البلاد.

(4) T. Lewicki، Etudes Maghrebines، ج2، 60.

(5) ابن حوقل، ص106/ 104. وT. Lewicki، المرجع المذكور، ص63 ـ 64.

(6) الاصطخري، ص44.

(7) حدود العالم، ص153.

(8) الاصطخري، ص39.

إلى غانا عبر فزان في القرن التاسع قبل سنة (2 ـ 881ف) من قبل أحمد بن طولون بسبب الخسائر التي كانت تتكبدها القوافل[1]. وكان هناك في القرن العاشر طريق آخر مباشر بنقطة مياه واحدة كما يبدو، يأتي منه إلى مصر الذهب والرقيق[2]. ولا شيء يمكننا من تأكيد أن هذا الطريق كان يمر عبر فزان، إذ من المحتمل أن يتوجه إما نحو دارفور قبل أن ينحرف نحو الغرب، وإما نحو العوينات ليتصل بالأندي، وإما كذلك نحو الكفرة ثم تبستي. إن المعلومات التي يزودنا بها الجغرافيون اللاحقون لا تسمح بأي تأكيد.

يشير الاصطخري[3] والمقدسي[4]، دون إعطاء تفصيلات حول المسار، إلى طريق القيروان ـ زويلة. وذكرت زويلة هناك مع أكبر مدن أفريقيا الشمالية.

كانت فزان في القرن الحادي عشر معبورة في كل الاتجاهات. ويذكر البكري، الذي أكد ثراء زويلة ودورها كمورد للعبيد، لا أقل من أربعة طرق شمال ـ جنوب تؤدي إلى فزان: طريق من الفسطاط عبر سنترية ـ سيوة وأوجلة وتاقرفت وزلة وتمسة، وطريق من برقة عبر أجدابيا وتقارفت، وطريق من سرت عبر ودان وهون وسبها، وآخر من طرابلس عبر جادو وجبل نفوسة عابراً الحمادة الحمراء نحو وادي الشاطىء لينتهي إلى سبها وزويلة[5].

تتضح الطرق المؤدية من زويلة إلى بلاد السود أكثر فأكثر. فقد ذكر اليعقوبي من قبل طريقاً يقود إلى كوار[6]. ويشير ابن حوقل إلى طريقين: أحدهما يؤدي إلى الزغاوة، والآخر نحو غانا بلاد الذهب[7]. ويشير البكري، في القرن الحادي عشر لوجود طريق يؤدي إلى كانم[8].

---

(1) ابن حوقل، ص61، 58 ـ 153، 151، انظر أعلاه ص141 رقم 3 وص207 ـ 208.

(2) حدود العالم، ص165.

(3) المسالك، ص46.

(4) تقسيم ص246 ـ طبعة Pellat، ص64 ـ 65.

(5) المسالك، ص6، 10 ـ 12، 14 ـ 19، 26 ـ 31، 35.

(6) البلدان. ص 345 ـ 205.

(7) صورة الأرض، ص 92 ـ 90.

(8) المسالك، ص 11 ـ 29.

من قراءة الجغرافيين العرب، يبدو أن ودان بدورها، لم تتأثر بالأحداث التي كانت تدور على الساحل. ففي القرن التاسع، راود اليعقوبي شك في الوجود العربي اليمني في ودان وأفاد بأن غالبية سكانها كانوا من مزاتة[1]. وفي القرن العاشر، ذكر ابن حوقل، الذي امتدح النوعية الممتازة لتمور المدينة والمنطقة، أن طريقاً واحداً فقط يؤدي إلى المدينة وهو طريق أوجلة عبر الرمال، ولا يتطرق لسكانها من قريب أو بعيد[2]. وأفادنا البكري، في القرن الحادي عشر قبل وصول العرب[*] أن مخبر اليعقوبي لم يكن مخطئاً: فقد كان هناك عرب في ودان يسكنون حيّين منفصلين وينتمون إلى قبيلتين مختلفتين[3]. وفي عهد البكري تعددت الطرق نحو ودان من مصر وبرقة وسرت[4]، وقد سهّل سلوك هذه الطرق، جزئياً على الأقل، خزانات المياه التي بناها، أفلح بن ناسب الحاكم الزيري لبرقة، سنة 968ف تقريباً، بأمر من الأمير المعز الذي كان راغباً في تسهيل تقدم قواته نحو مصر[5].

لا يبدو أن ودان ـ وكذلك زويلة ـ عانت من تمرد أبي ركوة وليد بن هشام[6]. كان هذا الرجل الذي كان يدعي قرابته بالأمويين في إسبانيا، قد طرد، أو ربما هرب، من الأندلس. وقام بالتدريس في القيروان ثم سافر إلى مكة، وزار اليمن، واستقر في مصر ثم ظهر أخيراً سنة 395هـ/ 5 ـ 1004ف في برقة. قام باستمالة بني قرة[7] الذين كانوا ساخطين للمعاملة السيئة التي عاملهم بها

(1) البلدان، ص 345 ـ 205.

(2) صورة الأرض ص 67 ـ 64.

(*) المقصود هنا وصول بني هلال وسليم. المترجم.

(3) المسالك ص 11 ـ 29 ـ 30. وما سيلحق، ص451 ـ 452.

(4) انظر ما سيلحق: فصل المسارات والطرق.

(5) انظر بعاليه، ص234.

(6) كان وليد يدعى أبو ركوة (بفتح الراء أو كسرها) رجل القربة لأنه يحمل دائماً قربة عندما كان يسافر. انظر ابن الأثير، ج7، ص234.

(7) بنو قرة هلاليون كانت أراضي تنقلهم بالإضافة إلى برقة تقع حول أخميم على الشاطىء الشرقي للنيل على مائة كيلو متر من أسيوط. وهم مضطربون بشكل خاص، وتمردوا كذلك في =

الخليفة الفاطمي، الحاكم، بسبب فسقهم وسوء سيرتهم. ويبدو أن الحاكم قد بالغ بالفعل في القتل والسجن والحرق لبني قرة، ومصادرة أموالهم لدرجة أن كل فروع هذه القبيلة أصبحت في بؤس وفاقة. كان بنو قرة، في ذلك الوقت، في حرب ضد لواتة ومزاتة وزناتة. وبتحريض من أبي ركوة توقف العرب والبربر عن القتال واتفقوا على محاربة الخليفة الفاطمي. رفض الحاكم بأمر الله التدخل بالرغم من تأنيبه عامل برقة الذي ـ يقال ـ أنه كان يرغب في التعامل مع المتمردين وإقناعهم بالعودة عن تمردهم. استولى أبو ركوة، الذي قيل إنه جمع ستة عشر ألف رجل، على برقة بعد معارك طاحنة. ونهب المتمردون كل الأموال والأسلحة. بعد ذلك، أظهر أبو ركوة التزامه بالعدالة وأمر بوقف أعمال نهب الناس. واتخذ الحاكم، من جانبه، أمام اتساع التمرد، قراراً مزدوجاً. فقد أوقف عمليات التعذيب والاضطهاد ضد بني قرة والبربر، وحرك جيشاً من خمسة آلاف رجل. هزم أبو ركوة الجيش الفاطمي في ذات الحمام (بفتح الحاء) ذات الحمام (بضم الحاء)[1] على بعد ستين كيلو متراً غرب الاسكندرية: واحتل المتمردون كل الآبار، وذهبوا إلى حد مهاجمة الصعيد. وحرك الحاكم ضدهم جيشاً كبيراً تمكن في النهاية من التغلب عليهم. وقد لعب وجود جاسوس فاطمي في معسكر أبي ركوة ـ كما يبدو ـ دوراً كبيراً في هذه الهزيمة. وهرب أبو ركوة نحو النوبة ولكن النوبيين رفضوا استقباله. وقد أعدم أبو ركوة بطريقة شنيعة[2]، بعد أن تم القبض عليه بواسطة القوات الفاطمية في 397هـ ـ (7 ـ 1006)ف.

= سنة 443هـ ـ (1051 ـ 1052)ف في عهد المنصور الذي عاقبهم. انظر ر. كحالة، معجم (انظر مادة قرة). وهذا مثل آخر لوجود بني هلال في ليبيا قبل 1050ف. انظر بعاليه، ص248 ورقم 2.

(1) حمام أو حمام، بئر الحمام أو بئر الحمام في الخرائط الحالية. ذات الحمام = حيث هناك حمام، وهي تسمية غريبة لمكان يقع في الصحراء. نتبنى ذات الحمام = هناك حيث تنتشر الحمى. بالفعل، البكري (ص3/ 10 ـ 11) يصف لنا هذه البلدة، يقول بأن هذا مكان يعقد فيه سوق ضخم. يوجد فيه بئر ماؤه غزير ولكنه يسبب الحمى لمن يشربه. ويذكر الجغرافي أغنية للجمالين الذين يدعون الله ليحفظهم من حمى ذات الحمام.

(2) ابن عذاري، ج1، ص257 ـ 258. وابن خلدون، العبر، ج4، ص120 ـ 123. وابن الأثير، ج7، ص234 ـ 237، يدعي أن أباركوه مات قبل إعدامه.

إن ابن حماد هو المؤلف الوحيد الذي ذكر استيلاء أبي ركوة على جزء كبير من فزان[1]. وبالرغم من أن هذا المؤلف يتناول التتابع الزمني بإهمال شديد، إلا أننا لا نعتقد أن بإمكاننا أن نستبعد هذا الخبر تلقائياً. وإذا كان باستطاعتنا أن نخمن الهدف الذي سعى إليه أبو ركوة، والذي لا يمكن إلا أن يكون ضمان السيطرة على طرق الاتصال والتحكم في تجارة العبيد، فإن من المستحيل ـ لسوء الحظ ـ أن نعرف أي منطقة من فزان تم غزوها، وقد رأينا أن فزان عند مؤلفي العصور الوسطى يمكن أن يغطي حقائق متنوعة. ونتساءل عما إذا كان ابن حماد قد خلط بين عمليات أبي ركوة العسكرية ـ التي شاركت فيها مزاتة ـ، والمعارك بين مزاتة وفزان المذكورة من اليعقوبي والتي انتهت لصالح مزاتة. يصف كتاب المسالك للبكري المؤلف حوالى 68 ـ 1067ف ودان وزويلة، ويشير إلى جرمة عند الحديث عن مآثر عقبة، ولكنه لا يذكر اسم أبي ركوة، ولا حرب القبائل في الشمال ضد السكان الصحراويين.

لم يكن المؤلفون أكثر سخاء بالأخبار عن منطقة غدامس في القرن العاشر. وردتنا بعض المعلومات بالإحالة إلى كتاب المهلبي المفقود، تفيد بأن غدامس مدينة مهمة تقوم فيها آثار رومانية عجيبة. وتوجد فيها عين قديمة يتم تقسيم مائها بين السكان لاحتياجات الزراعة وفق تنظيم معروف من الجميع، وسكانها من البربر المسلمين الذين لهم رئيس ولكنهم يعودون إلى مشائخهم[2]. بالنظر لموقع غدامس، لا يمكن أن يكون ثراؤها إلا من تجارة الرقيق والذهب.

كانت دَرج ـ دِرج[3]، وهي بلدة واقعة على مائة وثلاثة كيلو مترات غرب[*]

---

(1) أخبار، ص58/ 87 ـ 88، والذي يوقع الحادثة زمنياً في 415هـ/ 1024 ـ 1025ف، في عهد الزاهر (411 ـ 427/ 1 ـ 1020 ـ 6 ـ 1035ف). يجب الحذر من التتابع الزمني عند ابن حماد لهذه الفترة.

(2) المهلبي، في أبي الفدا، تقويم، ص146 ـ 147، وفي القلقشندي، ج5، ص108.

(3) أدراج في الحوليات الأباضية القديمة، انظر Etudes Maghrè bines. T.Lewicki، ج2، ص59.

(*) هكذا وردت عند المؤلف، وهو يقصد دون شك شرق وليس غرب. المترجم.

غدامس، أباضية، هي كذلك. وقد هاجر إليها في النصف الثاني من القرن العاشر شيخ أباضي من ورقلة، يدعى أبو صالح اليجراني، بقي بها سبع سنوات هرباً من حروب داخلية كانت تعصف بوطنه[1].

كان البكري أول من أشار إلى أنفاق[2] غدامس الشهيرة في القرن العاشر عند وصفه لغدامس، وذكر وفرة مياهها وتمورها.

نعرف بوجود تجارة، في القرن العاشر، بين غدامس والسودان، خاصة مع تادمكة، ولكن طرق الاتصال مجهولة لنا. لقد أشار المهلبي إلى طريق غدامس ـ قابس فقط وهو مسار طوله أربع عشرة مرحلة[3]. ويفيدنا البكري بتوضيحات بالخصوص: كانت هناك طريقان تربطان غدامس بغانا/ كمبي صالح، بلاد الذهب. كانت الطريقان تسلكان أولاً مسار تادمكة ويمكن قطع المسافة في أربعين يوماً. وعند تادمكة كانت إحدى الطريقين تتجه مباشرة نحو الغرب، في اتجاه غانا مسافة خمسين يوماً، وكانت الأخرى تأخذ طريق كوكو ـ جاو ـ لمدة تسعة أيام ـ لتتبع بعد ذلك النيجر، وأخيراً تأخذ اتجاه الشمال الغربي نحو غانا. أما نحو الشمال فكانت المسافة بين غدامس وجبل نفوسة تقطع في سبعة أيام، والمسافة من جبل نفوسة إلى طرابلس في ثلاثة أيام. هكذا، كان يمكن قطع الطريق المؤدي من بلاد الذهب، غانا إلى طرابلس عبر تادمكة وغدامس خلال مائة يوم تقريباً. ويجب ملاحظة أن مدينة القيروان لم تكن موصولة بطريق غدامس ولكن عن طريق تادمكة ـ ورقلة ـ توزر ـ قسطيلية[4]. إننا لا نرى أي مبرر لتفضيل طريق ورقلة على طريق غدامس،إذا ما استثنينا احتمال بعض من

(1) أبو زكريا، نقل عنه Quelques Extiaits inedits, T. Lewicki، ص4 ـ 7. يفيدنا المقطع نفسه أن أبا صالح أنهى مرتين على الأقل الرحلة إلى تادمكه ليتاجر فيها، وفي هذه المدينة السودانية تتم المعاملات التجارية بالذهب الخالص موزوناً بقراريط (القيراط يساوي وزن أربع حبات من القمح). وبعد أقل من قرن سيستعمل سكان تادمكة الدنانير من الذهب الخالص، المسماة صلع لأنها لا تحمل أي علامة. انظر البكري، ص181/ 339.

(2) المسالك، ص182/ 340.

(3) أبو الفدا، تقويم، ص142 ـ 143.

(4) المسالك، ص180 ـ 183/ 337 ـ 342.

عدم الاستقرار في الواحة الليبية في ذلك الوقت بسبب الصراعات بين الزيريين وبني خزرون، وفي جميع الأحوال صعوبة المسافة غدامس ـ توزر. ومن النادر التأكيد على وجود طرق من غدامس نحو الجنوب التونسي.

من الطبيعي، أن لا تكون التجارة الصحراوية من توزر ومن ورقلة حكراً على التجار والناقلين في ليبيا ـ برقة، وسرت، وزويلة، وغدامس، وجبل نفوسة. بعد سقوط الإمامة الرستمية، «تغيرت تاهرت عما كانت عليه في الماضي، وأهلها والبربر في المناطق المجاورة في وقتنا فقراء بتواتر الفتن عليهم، ودوام القحط، وكثرة القتل والموت»[1]. بالرغم من هذا، فتاهرت مركز مهم[2] لتربية الحيوانات، والتجارة فيها مزدهرة ويوجد فيها عدد من التجار، والأسواق فيها مطروقة[3]. وقد ذكر اليعقوبي[4] في القرن التاسع، طريق تاهرت سجلماسة. وبالرغم من احتلال الشيعة لتاهرت، فإن الطريق نحو سجلماسة قد ذكر من قبل الأصطخري[5] والمقدسي[6]. ومن المحتمل أن هذا الطريق ـ أو غيره من الطرق ـ تاهرت سجلماسة كان يمر بالقلعة[7].

كانت سجلماسة مدينة محرومة بالطبيعة، ولكنها غنية[8] جداً وتشكل محطة ضرورية نحو الغرب على طريق الذهب. كانت قد أثرت من قبل بسبب تجارة الملح[9]، واستعادت لصالحها الطريق من مصر نحو غانا الذي هُجر في القرن التاسع بسبب العواصف الرملية[10]. كان يتقابل فيها تجار من البصرة

---

(1) ابن حوقل، ص96/ 94.
(2) نفس المرجع، ص86/ 83.
(3) محمد بن يوسف الوراق (292 ـ 363هـ/ 5 ـ 904 ـ 973.4ف)، في البكري، ص68/ 141.
(4) البلدان، ص359/ 224 ـ 225.
(5) المسالك، ص46.
(6) تقاسيم، ص247 ـ طبعه Ch Pellat، ص66 ـ 67.
(7) Etudes Maghrè bines. T.Lewicki، ج1 ص17 ـ 18.
(8) حدود العالم، ص154. المقدسي، ص231 طبعة Ch Pellat، ص29.
(9) البكري، ص171/ 322.
(10) ابن حوقل، ص61/ 58.

والكوفة وبغداد يأتون إليها مع أطفالهم في قوافل لا تنقطع[1]. ويبدو أن سجلماسة بفضل قربها من مناجم الذهب[2] ـ شهران فقط يفصلان بينهما[3] ـ قد لعبت إلى الغرب على طريق المعدن الثمين نفس دور زويلة في الصحراء الوسطى على طريق العبيد.

---

(1) نفس المرجع.
(2) الأصطخري، 39،
(3) البكري، ص149/ 284.

بنو هلال وسليم

إبعادهم من مصر:

أظهر الأمير الزيري، المعز بن باديس (1016 ـ 1062ف)، موقفاً يتسم بالخضوع والاحترام تجاه الخليفة الفاطمي في البداية. بالرغم من هذا، كان من المعروف في أفريقية أن الأمير، الذي كان انتماؤه السني مصاناً بعناية من قبل مربيه وأستاذه، يحمل حقداً دفيناً للشيعة. كان الأمير على توافق كامل مع شعبه الذي يرغب، قبل كل شيء، في إبعاد العنصر المشرقي[1] عن المنطقة، وعن السلطة حتى لو كانت اسمية. وقد وقعت مذابح كثيرة للشيعة. وفي كل مرة كان المعز يقدم اعتذاره إلى القاهرة ملقياً باللوم على الناس[2]. لا نعرف ـ على وجه التحديد ـ تاريخ قطع المعز لعلاقات التبعية التي كانت تربطه مع الفاطميين، وهي تبعية لم تكن ـ في الحقيقة ـ أكثر من نظرية. من المحتمل أنه أعلن ولاءه لخليفة بغداد القائم (1031ف ـ 1075ف)[3]، في سنة 433هـ/ 2 ـ 1041ف، وسارع هذا الأخير بالقبول وأرسل إليه بخلعة التنصيب[4]. في سنة

(1) انظر تحليل Les Arabes en Berberie, G. Marcais، ص44 ـ 48.

(2) ابن خلدون، البربر، ج1، ص30 ـ 31.

(3) ابن عذاري، ج1، ص275 ـ 276.

(4) التجاني، ص17.

435هـ ـ (4[1] ـ 1043)ف، أو سنة 437هـ ـ (6[2] ـ 1045)ف، أو 440هـ ـ (9[3] ـ 1048)ف منع المعز ذكر اسم الخليفة الفاطمي من على كل المنابر وأمر أن تكون الخطبة باسم عاهل بغداد، وأن تحرق كل الرايات الفاطمية. وفي شعبان سنة 441هـ ـ (ديمسبر 1049 ـ يناير 1050)ف غير سك النقود وأصر على أن تحمل علامة المذهب السني ثم منع تداول النقود الفاطمية[4]. كما رد المعز بقسوة[5] وجفاء على انتقادات المستنصر. أكثر من هذا، أصر المعز على أن يقوم الخطيب بسب الأمير الفاطمي من على المنبر[6]. إننا لا نعرف ما الذي دفع المستنصر لرد الفعل، أو ما الذي اختاره ذريعة لعقاب المذنب. ربما تكون إحدى مظاهر معارضة المعز. ولا بد أن الصراعات المستمرة التي كانت قائمة بين بني خزرون المناصرين للفاطميين في طرابلس، والزيريين[7] قد لعبت دوراً ما، وكذلك الخطر المباشر الذي تهدد الأسواق الغربية من الامبراطورية، المتمثل في قرار الجبار بن مختار العربي، أمير برقة، الاعتراف بتبعيته للمعز: وقام خطباء برقة بسب الخليفة الفاطمي من على المنابر، والدعاء باسم القائم[*]، وأحرق السكان الرايات الفاطمية والمنابر التي ألقيت من فوقها الخطب باسم المستنصر[8]. كما لا يمكن كذلك إغفال التقصير المراسمي الذي أتاه المعز في حق الوزير القوي للمستنصر، اليازوري والمنحدر من أسرة من الفلاحين[9]. وأقلق المعز اليازوري أكثر عندما حاول المعز الوقيعة بينه وبين

(1) ابن الأثير، ج8، ص39.
(2) ابن خلدون البربر، ج1، ص31 ـ 32.
(3) ابن عذاري، ج1، ص277،
(4) نفس المرجع، ص278.
(5) ابن الأثير، ج8، ص55.
(6) ابن عذاري، ج1، ص279.
(7) انظر عاليه، ص243 ـ 250.
(*) الخليفة العباسي في بغداد. المترجم.
(8) ابن عذاري، ج1، ص288.
(9) ابن الأثير، ج8، ص55. وابن خلدون، البربر، ج1، ص31.

الفاطميين، عن طريق الخداع. اغتاظ اليازوري من أن يجسر بربري شاب على خداعه، وهو العربي، وأقسم أن يرسل قوات هائلة ضد أفريقية. لهذا سمح للقبائل العربية بعبور النيل[1]. قد يكون القرار النهائي للتخلص من هؤلاء المشاغبين، بني هلال، بإرسالهم لمعاقبة هذا التابع العاق، اتخذ من قبل المستنصر بإملاء من وزيره المهان، إذا ما سلمنا بما قال به ابن الأثير والتجاني.

كان الوضع في مصر مأساوياً منذ وقت طويل، ولم يكن وجود بني هلال وسليم ليساعد في تحسين الأوضاع. كما أثارت نزوات القسوة، والأحكام الشاذة الغريبة، وجنون العظمة التي اتسم بها الحاكم (996 ـ 1021ف) سخطاً عارماً بين الناس. وقد أظهر التطاحن بين كتامة والحرس الأسود ضعف النظام الذي كان تمرد أبي ركوة مع بني قرة وحلفائه من البربر أكثر مظاهره دموية. وقد زاد من محنة الناس ومعاناتهم توالي ثلاث سنوات كانت فيضانات النيل فيها متدنية بشكل استثنائي. وورث الزاهر (1021 ـ 1036ف)، الذي كان عمره 16 سنة عند توليه الأمر، وحشية والده المجنونة. وكان محاطاً بمستشارين لا هم لهم إلا الإثراء، ولم يستطع ـ أو لم يرغب ـ في تصحيح الوضع. دفعت مجاعة سنة 1026ف باللصوص إلى الطرق، وأصبح التوجه إلى الحج مغامرة خطيرة. وعندما توفي الزاهر من الطاعون سنة 1036ف، كان عمر ابنه معد، الذي حكم باسم المستنصر (1036 ـ 1094ف) لا يتجاوز سبع السنوات، وقد مارست أمه ـ وهي جارية سودانية ـ السلطة طوال سنوات طفولته. في سنة 1050 ظهر الوزير الشهير اليازوري. ولم تكن إصلاحاته الاقتصادية كلها ناجحة، بل ساهم بعضها في هلاك المزارعين[2].

---

(1) التجاني، ص19. يقول المؤلف إن الجرجرائي وزير الحاكم ثم الزاهر، وأخيراً وزيراً للشاب المستنصر هو الذي حاول المعز أولاً استمالته إليه وهو الذي سمح للعرب بعبور النيل. هذا مستحيل، لأن الجرجرائي توفى سنة 436هـ ـ (5 ـ 1044)ف، أي سنوات عديدة قبل اتخاذ هذا القرار. انظر ابن خلدون، البربر، ج1، ص31 يذكر زمن محاولة المعز استمالة الجرجرائي قبل 436هـ، والتقصير البرتوكولي في حق اليزوري قبل هذا التاريخ.

(2) A history of Egypt, S. Lane-Poole، ص125 ـ 143. وPh. K. Hitti، ص620 ـ 621. وC. Brockelmann، ص160 ـ 162.

في منتصف القرن الحادي عشر، كان الوضع في مصر على الصعيد الاقتصادي بعد المجاعات المتتالية، حرجاً بنفس الدرجة التي كان عليها الوضع السياسي بسبب وهن السلطة المركزية. وبالرغم من أن المراجع القروسطية لا تربط علاقة سببية مباشرة بين هذا الوضع وإرسال بني هلال، فإن رادي دغفوس Radi Daghfous يعتبر قرار اليازوري والخليفة المستنصر نابعاً من الاهتمام بتهدئة وضع مضطرب، وبتخفيف مخاطر الفوضى في الصعيد. وللتدليل على ما يراه. ينبه دغفوس إلى أن بني هلال الذين استلموا في البداية نقوداً لأجل مغادرة البلاد، انتهوا بشراء الترخيص من أجل المغادرة إلى أفريقية[1].

لم تكن هذه المرة الأولى التي يبرز فيها بنو هلال وسليم بشغبهم[2]، ولم يكن لهاتين القبيلتين مستقر ثابت، وهم أصلاً من نجد في شمال شبه الجزيرة العربية. كان الهلاليون، أيام الجاهلية يتنقلون بين البصرة ومكة ويثرب (المدينة المنورة)، بينما كانت منتجعات بني سليم بالقرب من خيبر، وكان ترحالهم يقودهم حتى سوريا والعراق. كانت القبيلتان في حروب لا تنقطع، وعمليات أخذ بالثأر مستمرة، وأظهرتا تلقائياً عداءهما للإسلام عند ظهوره، وكان عصيانهما مصدر إزعاج لا يتوقف للنبي ﷺ[3]. وسنرى أن بني سليم، بالرغم من اعتناقها للإسلام، امتنعت عن دفع الضرائب بعد وفاة محمد ﷺ[*]. من المعروف أن البدو يبحثون دائماً عن هز سيطرة السلطة عندما تضعف الحكومة المركزية، ولكن الأمر كان يتعلق، هذه المرة، بردة حقيقية. مع ذلك تمكن أبو بكر من إخضاعهم. ويبدو أن بني هلال وسليم كانت لهم ميول علوية[4] أثناء حروب الخلافة.

---

(1) Aspects de la Situation econmique. R. Daghfous، ص33.

(2) لسلسلة نسب بني هلال وسليم، انظر Les Arabes en Berberie, G. Marcais، ص60 ـ 61. وDe l'Origine, R. Daghfous، ص42، 44.

(3) Les Arabes en Berberie, G. Marcais، ص63 ـ 66.

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

(4) De L'Origine, R. Daghfous، ص53 ـ 55.

في بداية القرن الثامن كانت توجد جاليات هلالية وسليمية في سوريا والعراق. وفي سنة 109هـ/ 727ف، في عهد الخليفة الأموي، هشام (724ف ـ 743ف)، كان حاكم مصر، عبيد الله بن الحبحاب حريصاً على زيادة العنصر الإسلامي في ولايته، فأذن ـ بعد موافقة الخليفة ـ لبني سليم بالقدوم والاستقرار في الحوض الشرقي من منطقة بلبيس على مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريباً من الفسطاط. وقد اشتغل بنو سليم بنقل البضائع من الفسطاط إلى البحر الأحمر، وفي تلك الظروف المعيشية الملائمة ازدهروا وأثروا بعوائد نشاطهم في النقل وتكاثر قطعان حيواناتهم. ومن المرجح أنهم كانوا ثلاثة آلاف رب أسرة سنة 132هـ ـ 750ف وخمسة آلاف سنة 153هـ ـ 772ف[1].

مع هذ، لم يتوقف الهلاليون والسليميون الذين بقوا في الجزيرة العربية عن إثارة الاضطرابات، وفرض الأتاوات على قوافل الحجيج، ونشر مخاطر انعدام الأمن في منطقة المدن المقدسة. أمام هذه الفتن وأعمال قطع الطرق التي كانت مصدر إزعاج للسلطة العباسية، أمر الخليفة الواثق (842 ـ 847ف) قائده بوغا بالتدخل لوضع حد لها. وتمكن هذا من هزيمة المتمردين سنة 230هـ ـ 844ف.

سنجد الهلاليين والسليميين، في القرن العاشر، والذين لا يجب أن ننسى أنهم قد أظهروا في وقت ما ميولاً علوية، إلى جانب العصاة؛ قرامطة، وشيعة، وإسماعيلية. لقد امتدت الحركة القرمطية، التي كان مركزها عمان والبحرين، إلى خراسان واليمن. يمكن التساؤل عما إذا كان تجنيد بني هلال وسليم في القوات القرمطية كان نتيجة قناعة دينية أو عملية انتهازية[2]. مهما كان الأمر، مثّل القرن العاشر فترة شؤم للعباسيين ـ كان عليهم مواجهة ردود الفعل ضد الإسلام السني ـ، ومثل ـ في الوقت نفسه ـ فترة مؤاتية لبني هلال وسليم الذين

---

(1) G. Marcais، المرجع المذكور أعلاه، ص68 ـ 69. وR. Daghfous، المرجع المذكور، ص57 ـ 58.

(2) R. Daghfous، المرجع المذكور، ص62 ـ 64.

أثرى بعضهم من التجارة وتربية الماشية في مصر، وأثرى آخرون من أعمال قطع الطرق في الجزيرة العربية.

كان الفاطميون في القاهرة، والقرامطة حلفاء في البداية ثم اصطدموا بعد ذلك بقليل حول نقاط تخص العقيدة[1]. وانفجرت الحرب بينهما سنة 358هـ ـ 969ف. وبعد سلسلة من الهزائم والانتصارات خرج الفاطميون من الصراع منتصرين. لقد كان لهذا الانتصار نتيجة مزدوجة. فمن جانب أصبح القرامطة، الذين كانوا ملاحقين من البويهيين كذلك، محصورين في البحرين، ومن جانب آخر نُفي بنو هلال وجزء من بني سليم إلى صعيد مصر سنة 368هـ ـ 978ف. كما استمر بعض بني سليم في أعمال النهب في الجزيرة العربية، ولكنهم ـ وكانوا معارضين للقرامطة ـ تركوا البلاد بإرادتهم وانضموا إلى أخوتهم في مصر العليا[2]. لم يكن بنو هلال وسليم أول المجموعات البدوية العربية التي استقرت في مصر سواء بالنفي أو أتوها بملء إرادتهم[3]. يبدو أن مصر شكلت مستعمرة استيطانية، وأن البدو الرحل كانوا بأعداد كبيرة في مصر العليا. وظهر هؤلاء حلفاء للفاطميين، وجُندت منهم عدة آلاف في الخيالة الفاطمية[4]. كانت هذه السياسة تخدم الطرفين: فالبدو وجدوا هناك أرض استقبال لدرجة أنهم جذبوا إليها أخوتهم للحاق بهم، وكانوا يخدمون سادتهم الجدد الذين بدورهم سيطروا على هؤلاء البدو. مع هذا، لم يتأخر الهلاليون في إيقاظ صراعاتهم الداخلية التي لا تعرف نهاية خاصة بين الرياح، وزغبة[5]. وقد يكون من أجل اتقاء هجماتهم ضد السكان ومنع أعمال السلب والنهب التي من الممكن أنهم قاموا بها في الواحات الداخلة والخارجة، وهو ما

---

(1) W. Mandelung، موسوعة الإسلام، انظر (Karmatihgdur,fd ص 689 b، 690 a.

(2) G. Marcais، المرجع المذكور، ص74 ـ 77 R. Daghfous، المرجع المذكور، ص65 ـ 66.

(3) مثل بني جذام، وبنى لخم، قبائل يمنية من كهلان في مصر السفلى، وبنى جهينة يمنيون آخرون في وسط مصر، إلى جانب بني قريش وقضاعة. انظر G. Marcais، ص77.

(4) G. Marcais، المرجع المذكور سابقاً، ص78 ـ 79.

(5) لا يجب الخلط مع الزغب وهم من سليم.

قد يكون عرض للخطر تجارة مزدهرة عبر الصحراء، تم تحديد إقامتهم في الصعيد شرق النيل. وخلال النصف الأول من القرن الحادي عشر، لم يعد شغب البدو العرب، خاصة بني هلال وسليم، يمثل في نظر الفاطميين خدمة بل تهديداً للسلام في المناطق الزراعية الحيوية التي تعبرها طرق تجارية واستراتيجية ذات أهمية بالغة. وعليه كان من المرغوب فيه التخلص من هذه العناصر المقلقة. لهذا الغرض قام الوزير اليزوري باستعمال نفوذه لدى سيده.

لأسباب شخصية وسياسية بنفس القدر، نصح اليزوري[*] المستنصر بأن يستغل الحماس الحربي للبدو ضد صنهاجة العصاة، وأن يقدم لرؤساء البدو قيادة ولايات أفريقية التي قد يحتلونها. كان الحساب صحيحاً: كان من الأفضل بالنسبة للفاطميين أن يتعاملوا مع رؤساء عرب معترفين بهم، من أن يتعاملوا مع الزيريين، وهم أسرة قوية حليفة لبغداد. وأبرز اليزوري للمستنصر أنه بهذه الطريقة سيكون العرب أصدقاء مخلصين للفاطميين وسيشكلون جيشاً ممتازاً من أجل حماية الامبراطورية. «فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة؛ وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها. وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك»[1]. في سنة 441هـ ـ (5 يونيه 1049 ـ 25 مايو 1050)ف بعث المستنصر وزيره إلى الرؤساء العرب[2]، وبعد أن فرغ الوزير من مصالحة الرياح وزغبة قدم لكل واحد منهم فرواً[3] ـ أو بعيراً[4] ـ وديناراً واحداً. ورخص للعرب

(*) هكذا يكتبها المؤلف، ولكن ابن خلدون يكتبها اليازوري. وقد أوردناها ـ هنا ـ كما أوردها المؤلف. وكتبناها أحياناً كما كتبها ابن خلدون. .

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص32 ـ 33.

(2) I, Zirides, H.R. Idris ص207، يلاحظ هنا وجود مشكلة تاريخ أو وظيفة لأن اليزوري لم يعين وزيراً إلا في محرم 442هـ/ 26 مايو ـ 24 يونيه 1050ف. قد يكون اليزوري قام بمهمته عند الرؤساء العرب بينما كان لا يزال القاضي الأكبر، ومحل ثقة الخليفة.

(3) التجاني، ص20.

(4) ابن خلدون، العبر، ج4، ص31. في البربر، ج1، ص33، يترجم de Slane «فرو».

بعبور النيل وتحدث إليهم قائلاً: «لقد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون» ثم كتب الوزير إلى حكومة المغرب: «أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً»[1].

تحرك العرب في اتجاه أفريقية. ونعرف ما سببوه للمعز من هموم. حتى ذلك الحين، كانت توقعات اليزوري صحيحة، ولكن تنفيذ برنامجه توقف عند هذا الحد. لقد اتضح أن برنامجه المتضمن إنشاء امبراطورية عربية على أنقاض الأراضي الزيرية كان حلماً لا يمكن تحقيقه. وإننا لنتساءل: هل إلى هذا الحد شوه المؤلفون القروسطيون التاريخ أم أن الكبرياء المجروح لليزوري دفعه لمواصلة تنفيذ مآربه الخاصة؟ إننا لا نستطيع تصور سياسي من القرن الحادي عشر يمكن أن يراوده التفكير - ولو للحظة - في رؤية امبراطورية يديرها الهلاليون الذين أظهروا مقاومة لدعوة محمد ﷺ[*]، وامتنعوا عن تأدية الزكاة في عهد أبي بكر، وعاشوا حياة النهب وقطع الطرق، وكانوا على استعداد لاتباع من يدفع أكثر لهم، ولم يكونوا قادرين حتى على المحافظة على الالتحام داخل صفوفهم، إذ لم يكن الرياح وبنو زغبة قد تصالحوا إلا منذ وقت قصير. وهكذا سنجد الهلاليين فيما بعد في المعسكر المعارض. لم يكن اليزوري ساذجاً إلى حد الاعتقاد ببقاء هذه القبائل على إخلاصها للفاطميين. لقد كان يهدف - حقيقة - للانتقام لشرفه كفلسطيني مهان بإثارة عدم الاستقرار في الامبراطورية الزيرية. لم يكن المشروع يمثل أي مشاكل للخليفة، وكان هذا هو السبب في انقياده لتأثير الوزير، وهكذا حقق اليزوري النتيجة المستهدفة.

---

(1) ابن خلدون، نفس المصادر السابقة. والتجاني ص20، أرسل اليزوري رسالة تهديد للمعز: «وإن لم ترجع عن رأيك أتتك جيوش موصلة سنابك خيلها، ناسخة بنقعها ووميضها حكم نهارها وليلها». انظر التجاني، ص20. نعرف مدى قلة احترام المعز لليزوري، ولم يكن لهذه الرسالة أي أثر ملموس.

(*) إضافة من المترجم، المترجم.

لم يكن على كل الهلاليين عبور النيل، فقد كان من بينهم من كان من قبل غرب النهر. وكان بنو قرة في برقة قبل «الغزو»[1]. ورأينا أنهم في سنة 395هـ ـ (5 ـ 1004)ف انضموا إلى تمرد أبي ركوة[2]. وقد وصل رجل من بني قرة ـ هل كان مسافراً من برقة أو من الداخلة ـ الخارجة؟ ـ صدفة إلى واحة ص.ب. رو ـ الكفرة[3]. ونعرف عن وجود بني زغبة في طرابلس سنة 429هـ ـ 1037ف ولكننا نجهل أهمية مجموعتهم[4].

وصول البدو العرب إلى أفريقية الشمالية:

عدد ابن خلدون القبائل العربية المستقرة في الصعيد الشرقي التي رحلت إلى أفريقية[5]. كان هناك بنو الأثبج ـ الذين نجد منهم حالياً في نواحي الأوراس[6]. وكان من بين بطون بني الأثبج دريد، والكرفة، وشداد. ومثلت دريد بفروعها أولاد عطية وأولاد سرور، وأولاد جابر الله أهم بطون بني الأثبج، وكان رئيس بني الأثبج، عند دخول العرب إلى أفريقية دريدياً يسمى حسن بن سرحان بن ويرة. وغالباً، ما سيجد بنو دريد أنفسهم في حالة صراع مع بني كرفة. ونجد في أيامنا هذه بعضاً من دريد في منطقة قسطنطينة[7]. وسيُستعمل بني كرفة من قبل الموحدين ويدخلون في صراع ضد الرياح[8]. ويوجد بنو شداد الآن في عنابة[9]. بجانب بني الأثبج كان هناك بنو جشم وبطونها؛ الخلط وسفيان. وقد استقر بنو جشم في المغرب الأوسط ونفاهم،

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص7.
(2) انظر عاليه، ص260 ـ 261.
(3) البكري، ص15 ـ 16/ 38 ـ 39. والاستبصار، ص148. والحميري، انظر (الواحات).
(4) انظر عاليه، ص248، رقم 2.
(5) البربر، ج1، ص32، 36.
(6) كحاله، المعجم انظر (أثبج).
(7) ابن خلدون، البربر، ص ج1، ص37. وكحاله، المصدر المذكور، انظر (دريد).
(8) كحاله، المصدر المذكور، انظر (كرفه).
(9) المصدر السابق، انظر (شداد).

بعد ذلك، الخليفة الموحدي المنصور (1184 ـ 1199ف) إلى ضفاف الأطلسي[1]. وكان هناك بنو زغبة وبطونهم؛ بني يزيد وبني حصين وبني مالك وبني عامر وبني عروة، وقد استولى بنو زغبة على منطقة طرابلس ـ قابس[2]. وكان هناك الرياح ببطونهم بني مرداس ـ الذين كان منهم رئيس القبيلة ـ، وبني سعيد، وبني خضر بن عامر[3]. وسيشتهر الرياح ـ بألم وحزن ـ على الساحل الليبي. سنجدهم في النصف الأول من القرن الثاني عشر يجوبون المنطقة بين طرابلس[4] وقابس، وفي نهاية القرن سيشاركون متحالفين مع القبائل السليمية زغب ودباب في حصار طرابلس من قبل قراقوش[5]. ولا زال يوجد في أيامنا هذه بعض من قبيلة الرياح في الصحراء الليبية[6]. وأخيراً يذكر ابن خلدون بني ربيعة ـ التي لا يعرف عنها شيئاً ولكنه يعتقد أنها هي بنو معقل[7] ـ، وعدي[8]. ومن الطبيعي أن يكون مع بني هلال مجموعات غير متجانسة التحمت مع القبائل الهلالية التي تبعتها وكانت تتنقل معها مثل فزارة، وأشجع وهما فرعان من غطفان، وسلول وعمرة، وبنو ثور، وعدوان، والطرود الذين هم بطن من فحم، ويضيف ابن خلدون بني معقل الذين هم

(1) غالباً ما يوجد خلط وسفيان في معسكرات متعارضة، عندما يشتركون في المؤامرات التي يحركها شيوخ الموحدين. في بداية القرن الرابع عشر استعمل السلطان المريني أبو ثابت الروح الحربية عند خلط للقضاء على قوة الرياح. ستكون هاتان القبيلتان الهلاليتان من جديد في حرب. يوجد الخلط اليوم بين فاس ومراكش، انظر A. Cour ، موسوعة الإسلام، انظر (خلط). وكحاله، المرجع المذكور سابقاً، انظر (جوشم (هكذا)، خلط، سفيان).

(2) كحاله، المرجع المذكور، انظر (زغبه).

(3) كحاله، المرجع السابق، انظر (رياح).

(4) الإدريسي، ص121/ 142.

(5) التجاني، ص113. انظر ما سيلحق، ص258.

(6) أساساً في فزان الشمالي (الجفرة)، والأوسط (وادي الآجال). من منهم في ودان وهون وسوكنه يتاجرون في التمور مع سبها والبوانيس. انظر J. Despois ,Geographie Humaine، ص41، 114 ـ 115، 200.

(7) البربر، ج1، ص3. استقر بنو معقل في المغرب الأقصى. انظر كحاله، المرجع السابق ذكره.

(8) ابن خلدون، نفس المرجع، يجهل كل شيء عن هذه القبيلة.

بطن من البطون اليمنية[1]. لم يكن على بني قرة أن يعبروا النيل لأنهم كانوا يوجدون سابقاً في الغرب في عهد الحاكم[2] بأمر الله. ويزودنا ابن خلدون بقائمة أسماء أكثر الرؤساء أهمية، وكان أبرزهم ـ بكل تأكيد ـ مؤنس بن يحيى الصنبري المدراسي، أمير الرياح[3].

وجد العرب في إقليم برقة بلداً غنياً بالمراعي، ولكنه خالٍ من سكانه لأن أغلب هؤلاء كانوا من زناتة الذين أبادهم[4] المعز. استقر العرب في المنطقة واتخذوها وطناً ونشروا الاضطراب على حدود البلاد، كما يفيدنا ابن الأثير[5]. ويورد ابن خلدون[6] أنهم استولوا على المدن وخربوها، ويضيف أنهم أرسلوا عندها إلى إخوتهم الذين تركوهم على الشاطىء الأيمن للنيل وصفاً جذاباً للبلاد التي غزوها. ولعلنا نستطيع ـ من الآن ـ أن نقول إن هذا يمثل أول برهان على أن الأمر لا يتعلق بتدفق فجائي. وفي هذه المرة، كان على المتأخرين أن يشتروا إذن عبور النهر، كان عليهم أن يدفعوا ديناراً لكل رأس حسب ابن خلدون[7]، وديناراً وعباءة حسب التجاني[8]. ويتفق المؤلفان على واقع أن اليزوري استلم عندها أكثر مما دفع للمهاجرين السابقين. هل أراد اليزوري مجرد استعادة المبالغ التي سبق له دفعها، أم كان يحرص على عدم تخريب الاستيطان الإسلامي للصعيد، أو عدم تعريض سياسة الرعي للخطر والتي كان البدو العرب هم الوحيدون القادرين على مزاولتها. لسوء الحظ، لا ينقل المؤلفون إلينا أي بيانات حول أسباب كبح الوزير الفاطمي لحركة الهجرة.

---

(1) العبر، ج6، ص36 ـ 37/ البربر، ج1، ص38 ـ 39.
(2) ابن خلدون، البربر، 1، ص39.
(3) نفس المصدر، ص34، 37 ـ 38.
(4) ابن الأثير، ج8، ص55.
(5) نفس المرجع.
(6) البربر، ج1، ص33.
(7) العبر، 6، ص31.
(8) رحلة، ص20.

من قبائل بني سليم المختلفة التي رافقت بني هلال، استقرت عزة في إقليم برقة[1]، وبقيت هيب بيطونها بني أحمد وبني شماخ في منطقة مدينة برقة. وسيذكرهم الإدريسي في النصف الأول من القرن الثاني عشر في شرق طلميثة بجوار رواحة ـ وهي قبيلة من غطفان[2] ـ إلى الغرب. واستولت قبيلة دباب على الإقليم الواقع بين قابس وطرابلس وبرقة[3]. وقد سقط الكثيرون من قبيلة دباب ضحايا قراقوش[4] بعد تغير في التحالفات، ولكنهم سيكونون في القرن الثالث عشر أقوياء لدرجة أنهم يأخذون هوارة الساحل من لبدة إلى مصراتة[5] تحت حمايتهم، وسيجدهم التجاني في بداية القرن الرابع عشر بأعداد كبيرة بين طرابلس وبرقة[6]. تعد دباب تفرعات كثيرة جداً. نذكر منهم أولاد وساح بن عامر الذين يتكونون من فرعين كبيرين: المحاميد وكانوا في زمن ابن خلدون بين قابس وجبل نفوسة[7]، والجواري الذين كانوا يحتلون طرابلس وما حولها[8]، واستقرت فروع أخرى منهم في ليبيا: آل سليم بن هيب في مصراتة ومنطقتها، وآل سليمان في جنوب غريان وناصرة في ودان وفزان[9]. وقد جاء بنو عوف وبنو مرداس وبنو علاق من الفيوم كما كانوا يأتون

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج2، ص638 وج6، ص172/ البربر، 1، ص164.

(2) ابن خلدون، البربر، 1، ص34. والإدريسي ص136/ 163. انظر كحاله، المرجع المذكور سابقاً، انظر (هيب).

(3) ابن خلدون، البربر، 1، ص159.

(4) الحميري، انظر (فزان).

(5) ابن سعيد، بسط الأرض، ص79 ـ 80.

(6) رحلة، ص220.

(7) استقر المحاميد في وادي الآجال. انظر Geographie Humaine, J. Despois، ص100، ورقم1.

(8) ابن خلدون، العبر، 6، ص168/ البربر، ص160.

(9) ابن خلدون، العبر، 6، ص171/ البربر، ص163 ـ 164. آل سليمان ظهروا مشاغبين بشكل خاص في فزان في القرن التاسع عشر. انظر J. H. Jager-Gerlings في De Sedentarisatie, D.G. Jongman، ص 9 ـ 10. و Geographie Humaine, J. Despois خاصة ص 41، 62 ـ 63، 97، 188. Les Touareg du Nord, H. Duveyrier، ص 278. حول أعمال النهب لأولاد سليمان في الآير سنة 1872ف انظر Le Dernier Rapport, E. von Bary ص127.

من الصعيد[1]. وفي القرن الثاني عشر كانوا يحتلون المنطقة الواقعة بين طرابلس وسرت[2]. ويبدو أن بني زغب، الذين كانت منطقة تنقلهم الأصلية بين مكة والمدينة، قد عادوا نحو الشرق: كانوا بداية جيران دباب ثم اقتربوا من هيب[3]، وسيتحالفون بعد ذلك مع قراقوش من أجل حصار طرابلس[4].

كان إقليم برقة هو المكان الذي اجتمع فيه رؤساء القبائل من أجل التقسيم النهائي للبلاد، وعلينا أن نرى في هذه الملاحظة لابن خلدون[5]، كما في نصائح اليزوري للمستنصر[6] بتوزيع الولايات، الاعتراف بوضع يستند إلى ترتيب مسبق من المحتمل أنه لم يجد قط طريقه للتنفيذ. من الصعب تصور أن يجري العرب البدو تقسيم بلد كانوا يجهلون عنه كل شيء إلا أنه أرضهم الموعودة. كان اليزوري من جانبه مدركاً للتنافس بين القبائل لدرجة لا يتصور معها أن هذه القبائل ستحترم برنامجاً مفروضاً حتى لو كان بموافقتها[7]. من جهة أخرى، سنرى القبائل العربية في المستقبل في معسكرات متناحرة.

بقي في إقليم برقة من بني سليم؛ عزة وناصرة ـ وهم من دباب ـ وبنو هيب والمنضمون إليهم؛ عميرة ورواحة وهم من غطفان ـ ورحلت قبائل بني سليم الأخرى وكذلك قبائل بني هلال نحو الغرب، وقاموا بتخريب أجدابيا وسرت ثم زحفوا على أفريقية كسحابة من جراد، ولم يمروا بشيء إلا

---

(1) كحاله، معجم، انظر (عوف).

(2) الإدريسي، ص122/ 143 ـ 144.

(3) كحاله، المرجع المذكور انظر (زغب).

(4) التجاني، ص113.

(5) البربر، 1، ص33.

(6) انظر عاليه، ص272 ـ 273.

(7) يجب ملاحظة أن ما قاله ابن عذاري حول هذا الموضوع (1، ص288) يختلف كلياً عن ما قاله ابن خلدون «وعبر النيل عدد كبير من بينهم دون أن يأمرهم أي كان، من المحتمل أنهم كانوا يعرفون أنهم ليسوا في حاجة لتوصيات». يلاحظ أنها شبيهة بما جاء عند التجاني، ص18.

اكتسحوه[1]. بالرغم من ذلك، لا يمكن أن يتعلق الأمر باحتلال عنيف ومتواصل، فما كانت موارد البلاد لتسمح بتموين قوات كثيرة وسيئة التنظيم. يجب أن نستبعد من أذهاننا هذه الصورة لركب جامح من العرب، هائمين على وجوههم تاركين الصعيد عدواً عابرين الصحراء الليبية وبرقة، والصحراء السرتية، منقضين على طرابلس والقيروان. ولا يمكننا، بأي حال من الأحوال، أن نماثل هذا الغزو لقوات تعاني من عراقيل ذاتية، وتجر خلفها نساء وأطفالاً، بغارة عقبة الخاطفة على فزان وكوار. ويلاحظ ابن خلدون نفسه أن العرب البدو تركوا الصعيد في 441هـ/ 50 ـ 1049ف ولم يدخلوا أفريقية إلا سنة 443هـ/ 52[2] ـ 1051ف. أضف إلى ذلك أن الأمير الزيري، المعز، لم يعر انتباهاً كبيراً لتهديدات اليزوري، ولم يقلق كذلك لوصول العرب، ولا يمكننا أن نجد سبباً لهذا إلا في الطبيعة غير المقلقة لما كانت تصله من تقارير. بل إن المعز ابتهج لوصول أول رئيس عربي، المؤنس بن يحيى الرياحي، أمير الرياح[3]. كان يأمل أن يتخذ منه حليفاً له ويستفيد من مساندة الرياحيين ليتمكن من القضاء على بني حماد القلعة، الأسرة الصنهاجية الأخرى التي كانت قائمة مهدِّدة في الغرب. بالفعل، لاحظ المعز أن أتباعه من صنهاجة أظهروا الكثير من الفتور في حربهم ضد زناتة، وأصبحت ثقته في قواته محدودة لدرجة أنه ـ كإجراء احترازي ـ اشترى الكثير من الرقيق السود وجندهم في خدمته وأظهر كثيراً من الكرم تجاههم. وهكذا، كان يملك ـ حسب قول ابن الأثير ـ حرساً خاصاً من ثلاثين ألف عبد أسود، وهي القوة المخلصة الوحيدة التي كان يستطيع الاعتماد[4] عليها. ومن أجل كسب مساندة الأمير الرياحي، زوَّجه المعز ابنته

(1) ابن خلدون، العبر، ج4، ص31: «سارت (القبائل) إلى أفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه». البربر، 2، ص34.

(2) البربر، 1، ص34.

(3) ابن عذاري، 1، ص288. ابن خلدون، نفس المرجع.

(4) الكامل، ج8، ص55. من المحتمل أن هذا الرقم مبالغ فيه، سنرى أن المعز لم يستطع توفير إلا ثلاثين ألف رجل منهم زناتة بني خزرون وصنهاجة.

وتوسل إليه بأن يأتي بالعرب الذين كانوا قد توقفوا في محطات بعيدة[1]. كان المؤنس رجلاً شجاعاً ولكنه حكيم، ونصح المعز بألا يأتي بالعرب، وحجته أن هذه القبائل قليلة الانضباط والتنظيم، وأنهم لم يتفقوا أبداً على شيء مهما كان[2]. واتهمه المعز بأنه يريد أن يستفيد منفرداً من جوده وهباته، وتمكن المعز، أخيراً، من التغلب على تردد الرئيس العربي. رجع هذا الأخير إلى قبيلته وامتدح لرجاله كرم الرئيس الزيري. بدأت القبيلة تحركها ولكن ما إن وصلت إلى قرية حتى تصارخ العرب «ها هي القيروان!» وقاموا بنهبها وأعلنوا فيها السلطة الفاطمية[3]. قام المعز بسجن زوجة المؤنس وأطفاله ووضع تحت الحراسة المنزل الذي كان يملكه القائد العربي في القيروان. اشتعلت النار بين الطرفين. وهُزم الجيش الصنهاجي الذي سارع المعز بإرساله ضد العرب. استنجد الأمير الزيري، عندها، بالأمير الصنهاجي لقلعة بني حماد، القائد (!)، وبيدو زناتة المنتصر بن خزرون الذي كان لا يزال مسيطراً على طرابلس كما يبدو: ويعث إليه كلاهما ألف فارس. جمع المعز حلفاءه، وأنصار أسرته وبعض المنحدرين من الفاتحين العرب الباقين في بلاده. كما جند فيالق من البربر. كان الرياح وزغبة وعدي ينتظرون القوات الزيرية في حيدران بنواحي قابس. في هذه السنة، 1052ف، واجه ثلاثة آلاف عربي ثلاثين ألفاً من رجال المعز[4]. وبمجرد أن التقى الجيشان، انفصل المنحدرون من الفاتحين عن المعز وانضموا إلى الهلاليين بسبب روح العصبية القديمة[5]. وعندما رأت زناتة

(1) التجاني، ص18، ابن خلدون، البربر، ج1، ص34.

(2) ابن عذاري، 1، ص288.

(3) ابن عذاري، 1، ص289، ابن خلدون، نفس المرجع السابق.

(4) التجاني، ص20. وابن الأثير، ج8، ص56. وابن خلدون، البربر، 1، ص35. من جانب، ثلاثة آلاف فارس ومثلهم مشاة، ومن جانب آخر ثمانين ألف فارس ومثلهم مشاة، حسب ابن عذاري ج1، ص290. انظر The Military Interset of The Battle of Hydran, M. Brell.

(5) ابن خلدون، العبر، ج6، ص32. Berberes, De Slane، ج1، ص35 ترجمها «ancient esprit national» وهو ما يبدو تحديثاً متسرعاً.

وصنهاجة ما حدث ولوا الأدبار. لجأ المعز إلى القيروان. وقام العرب بتخريب الريف. وقد أراد الأمير الزيري حرمان العرب ودفعهم للفاقة والعوز فأمر بتخريب المحاصيل[1]. حوصرت القيروان من قبل زغبة والرياح. وفي سنة 445هـ ـ (34 ـ 1035)ف سقطت قسطيلية ـ توزر في أيدي العرب. في سنة 446هـ ـ (56 ـ 1055)ف قام الغزاة بتقسيم ثالث لأفريقية: رجعت طرابلس وولايتها إلى زغبة. وأخذ العابد بن أبي غيث المرداسي الرياحي تونس واسترق سكانها، واستسلمت عنابة. اضطر المعز أمام تهاوي امبراطوريته، للتحالف مع أعدائه، فزوج بناته الثلاث من أمراء عرب[2]. أصبح الأمير الزيري عندها تحت حماية العرب، وفقد ما كان له من عز ومهابة. وغادر إلى تونس. في سنة 449هـ ـ (8 ـ 1057)ف بدأ سكان القيروان بإخلائها، ولكن العرب دخلوها ونهبوا المتاجر وهدموا المباني العامة، وخربوا المساكن واغتصبوا النساء[3]. كما أُتلفت المزروعات وانتشرت عصابات اللصوص على الطرق، وأصبح من المستحيل السفر[4] والتنقل. سيطر الهلاليون على كل البلاد المفتوحة بعد استيلائهم على الزاب، ومثل الخط مزاب ـ جبل عامر الحد بينهم وبين زناتة. ولجأ الزيريون إلى المهدية.

توقف بنو هلال عن الحرب بعد انتصارهم، واستطاعت صنهاجة أن تصل معهم إلى سلام، ولكن الشروط كانت قاسية للغاية: لم يعد لصنهاجة إلا المدن، إذ اضطرت للتنازل عن الأرياف للعرب. وبينما استقر السلام واستطاعت البلاد، أخيراً، أن تتنفس الصعداء، بدأ الصنهاجيون في زرع الانقسامات بين القبائل العربية، وذلك من أجل تحقيق أطماعهم. وبمساعدة العرب شرع الصنهاجيون في الصراع ضد قبائل هوارة[5] البربرية، ثم ساندوا الأثبج ضد الرياح وزغبة.

---

(1) ابن عذاري، 1، ص291.
(2) التجاني، ص18، ابن خلدون، البربر، 1، ص36.
(3) نفس المصدر أعلاه.
(4) ابن الأثير، ج8، ص56. ابن خلدون، البربر، ج1، ص37.
(5) ابن الأثير، ج8، ص56 ـ 57.

وكان بنو الأثبج مدعومين أيضاً من قبل أمير قلعة بني حماد، والعاهل المغراوي في فاس الذي اشترك في الصراع مع زناتة. ولكن بعد ذلك بقليل، وبتحريض ـ كما يبدو ـ من الأمير الزيري الذي كان يريد قلب التحالفات على حساب صنهاجة القلعة، تركت مغراوة حلفاءها وتركت الميدان حراً لزناتة والعرب[1]. عندها انتقل بنو حماد إلى بجاية حيث، وعلى غير المتوقع، عرفوا انبعاثاً جديداً. كانت المدينة محمية من الجبل الذي تستند إليه فتمكنت من تنمية زراعاتها لأن العرب لم يطرقوا الأرياف المجاورة، ولما كانت تقع على الساحل فقد بنت أسطولاً ضخماً مكنها من تنمية تجارتها المتوسطية، ولم تسقط في أيدي الموحدين إلا في سنة 1151ف.

سقوط الزيريين، وظهور الموحدين:

لن نتوقف عند الأحداث التي جرت على أقليم تونس والجزائر الحاليتين[2]. سنكتفي بذكر أبرزها.

انقسمت الامبراطورية الزيرية إلى سلسلة من الإمارات. وحاول تميم بن المعز (454 ـ 501هـ) ـ (1062 ـ 1108ف) ـ بالرغم من ذلك ـ إعادة سلطته إلى أفريقية بالتحالف مع الرياح أعداء الأثبج الذين كان يستند إليهم بنو حماد. كانت زغبة وعدي وكذلك زناتة كثيراً ما تغير مواقفها من الزيريين إلى بني حماد وبالعكس، بائعين أنفسهم لمن يدفع أكثر، يحركهم هذا الأمير أو ذاك.

توصل الزيريون وبنو حماد، في الأخير، إلى سلام نسبي، وانطلق الزيريون في حملات بحرية لغرض القرصنة، وضد صقلية. ولم يحققوا من هذه الحملات إلا تأخير الغزو النورماندي.

رأينا بعض القبائل السليمية في طرابلس الغرب، وأن عزة وهيب

---

(1) ابن خلدون، البربر، 1، ص45 ـ 46.

(2) نحيل القاري إلى هـ. ر. إدريس، Zirides، 1، ص249 ـ 406. و Ch.A.Julien، 2، ص103 ـ 110.

والمتحالفين معهم استقروا في إقليم برقة. وتوغل بنو ناصرة نحو الجنوب: ودان وفزان. وتوجهت قبائل سليمية أخرى نحو الغرب. بوجه عام، لم تتجاوز قبائل بني سليم طرابلس الغرب. وتُكون القبيلة القوية جداً، دباب، حتى أيامنا هذه العنصر العربي الأكثر أهمية في طرابلس الغرب وفزان مثل المقارحة الذين هم من بني زغب. وشغلت قبيلة زغبة الهلالية المنطقة بين طرابلس وقابس.

في سنة 460هـ ـ (8 ـ 1067)ف، قُتل الأمير، المنتصر بن خزرون الذي كان يحكم طرابلس لأنه كان متحالفاً مع الغزاة العرب، وكان قتله بأمر من الأمير الحمادي. حاول الزيريون، الذين كانوا لاجئين في المهدية، التدخل، ولكن دون جدوى. في سنة 488هـ ـ 1095ف استغل المغامر التركي شاه مالك الغزي سخط السكان وحصل من الخليفة الفاطمي على ولاية المدينة[1]. من جهة أخرى جند الأمير الزيري، تميم الأتراك التابعين لشاه مالك في صراعه ضد مُليك صفاقس حمو بن مليل البرغواطي[2]. كان الشيخ الرئيس لطرابلس في ذلك الوقت، هو أبو يحيى من أسرة بني مطروح الذي استولى شيئاً فشيئاً على النفوذ من بني خزرون. وكان بنو مطروح هم الذين سلموا المدينة للنورمانديين. وبقي جزء من بني خزرون في ولاية طرابلس حتى الغزو الموحدي وهرب آخرون منهم إلى جبال الأوراس[3].

كان النورمانديون، الذين بدأوا غزو صقلية سنة 1061ف وطردوا المسلمين منها سنة 1086، وتمكنوا كذلك من احتلال مالطا، يمتلكون حينها

(1) انظر عاليه، ص248. وابن عذاري، 1، ص302. حسب ابن الأثير، ج8، ص174، استقبل شاه مالك استقبالاً حسناً في القصر الفاطمي، ولكن لأسباب غامضة تم طرده. توجه نحو الغرب بقواته. وقدم له سكان طرابلس المدينة بسبب سخطهم على الوالي. حسب المؤرخ الحديث النائب الأنصاري، المنهل، ص116 ـ 119، خلف المنتصر أخوه خليفة، وخلف هذا الأخير في سنة 488هـ/ 1095ف محمد بن خزرون بن خليفة. من المؤسف أن كتاب النائب الأنصاري خال من أي مراجع.

(2) هـ. ر. إدريس، zirdes، 1، ص250، 293 ـ 298.

(3) ابن خلدون، البربر، ج3، ص268 ـ 269.

أسطولاً قوياً مكنهم من مهاجمة سواحل المتوسط الجنوبية. وقد سقطت جربة بين أيديهم سنة 1135ف، وقاموا سنة 3 ـ 1142ف بهجمات ضد سواحل بلاد البربر (بربريا) من جيجل إلى طرابلس. وفي سنة 537هـ ـ 1143ف هاجم روجر الثاني طرابلس، آملاً ـ على ما يبدو ـ في الاستفادة من صراعات النفوذ بين حاكم المدينة وبني مطروح. تسلق النورمانديون الأسوار وفتحوا فيها ثغرات. كان وضع الطرابلسيين حرجاً عندما وصلت إمدادات من عرب البادية لنجدتهم. ومعاً، هاجموا الأسطول والنورمانديين الذين هبطوا إلى البر. واضطر النورمانديون للهرب تاركين وراءهم أسلحة ومواد[1]. في سنة 540هـ ـ (6 ـ 1145)ف، انتشرت مجاعة فظيعة في طرابلس. بدأت هذه المجاعة سنة 537هـ ـ (3 ـ 1142)ف ووصلت أوجها سنة (542هـ ـ (8 ـ 1147)ف. وقد وصل الناس إلى حد أكل لحوم البشر. وشجعت القلاقل التي صاحبت المجاعة روجر الثاني للمخاطرة بهجوم ثان. حوصرت طرابلس من البر والبحر. وقد استمرت المعركة ثلاثة أيام حتى لحظة إخلاء الأسوار من محاربيها. كان السبب قيام السكان بطرد شيخ بني مطروح قبل بضعة أيام من وصول النورمانديين، واختيارهم بربرياً ملثماً[2] كان في طريقه إلى الحج، شيخاً. أثناء الحصار عاود بنو مطروح ظهورهم في المدينة مدعومين بمجموعة من الطرابلسيين، ووقعت معارك بين مجموعات الطرابلسيين المتنافسة داخل المدينة. استغل النورمانديون الموقف ووصلوا إلى أعلى الأسوار واحتلوا المدينة. تم قتل المحاربين وسجنت النساء، وصودرت الأموال. وقد لجأ من استطاع من السكان، إما إلى القبائل العربية، وإما إلى القبائل البربرية. وأخيراً، مُنح السكان الأمان. لم يبق النورمانديون إلا ستة أشهر في طرابلس أعادوا خلالها إصلاح الأسوار وحفروا خندقاً حول المدينة. عندما غادر النورمانديون المدينة أخذوا معهم رهائن من بني مطروح وخصمهم

---

(1) ابن الأثير، ج9، ص6.

(2) هكذا كان يختار عادة الصنهاجيون المرابطون.

البربري الملثم. بعد ذلك، أعاد روجر الثاني الرهائن وعين يحيى بن مطروح التميمي والياً للمدينة، واستطاعت المدينة، عندها، النهوض والازدهار[1].

ظهر النورمانديون في طرابلس بمظهر المتسامحين، لأنهم ـ في الغالب ـ كانوا ينوون الاستيلاء على مدن الساحل الأخرى، كما يقول لنا التجاني[2]. في سنة 1148ف كونوا محمية على طول ساحل طرابلس وساحل تونس حتى رأس عنابة، واستمرت هذه المحمية اثنتي عشرة سنة. ولولا الصراعات التي تواجه فيها روجر الثاني مع امبراطور القسطنطينية من (1147 حتى 1149)ف، لكان من المحتمل أن يدفع الطموح الملك النورماندي إلى محاولة احتلال أفريقية بكاملها.

بينما أنشأت عقيدة دينية، بعيداً إلى الغرب، حركة المرابطين[3]، كانت أخرى وراء انحدار هذه الحركة وأدت إلى ميلاد امبراطورية الموحدين. لقد قتلت مالكية الفقهاء المرابطين المتصلبة كل بحث ثقافي شخصي وحرمت الاجتهاد. كان على كل مسعى من الفقهاء أن يتخذ من الأعمال المالكية وحدها قاعدة، لدرجة وصلوا معها لترك القرآن والحديث. زد على ذلك، أن الطرق الفظة لهؤلاء الفقهاء ذوي الأفق الضيق ونفاقهم أزعج البرجوازية وعامة الناس. أعطى بربري مصمودي، محمد بن تومرت دفعة للعصيان. فبعد سبع سنوات قضاها في الدراسة في المشرق، رجع إلى المغرب حوالى سنة 11 ـ 510هـ ـ (17 ـ 1116)ف حيث حير المدن التي عبرها بقسوة أحكامه. كان هدفه مزدوجاً: إعادة الوحدة السياسية للجماعة الإسلامية حول شخصه، والعودة إلى المراجع الأصلية للدين وهي القرآن والحديث، ورفض أي فكرة تجسيم إلهي

(1) ابن الأثير، ج9، ص12. وكملحق لابن خلدون، البربر، ج2، ص579 ـ 580. والتجاني، ص241.

(2) رحلة. نفس المرجع.

(3) بالرغم من أن هذا يصدم التتابع الزمني، نفضل تناول تفسير هذه الحركة عندما سندرس أنشطتها في إسبانيا ذات العلاقة مع بني غانيه مرابطي جزر البليار، والحرب التي قاموا بها في أفريقية ضد الموحدين.

كما عند المرابطين معلناً التجريد الكلي لله سبحانه وتعالى ـ أي التوحيد الذي أعطى الاسم لأتباعه، الموحدين. وتحت تأثير أفكار الإسماعليين الذين خالطهم أثناء عبوره مصر، أقنع ابن تومرت أتباعه بأن المهدي سيظهر قريباً في المغرب، وبينما كان في أحد الأيام يصف العلامات التي سيعرف بها المهدي، أعلن رجال كثيرون من بينهم عبد المؤمن رفيقه وخليفته أن هذه العلامات لا تنطبق إلا عليه ـ أي ابن تومرت ـ وأقسموا له على الإخلاص واعترفوا به المهدي المنتظر. وبفضل كاريزما المنظر ابن تومرت، استطاع السياسي عبد المؤمن أن يعيد وحدة بلاد البربر (بربريا) من الأطلسي إلى طرابلس.

اعتبر ابن تومرت القضاء على المرابطين واجباً أكثر إلحاحاً من القتال ضد المسيحيين في إسبانيا فانضم إليه سكان الأطلس، ولكنه لم يتمكن من متابعة الهدف الذي كان يحلم به لأنه توفى في سبتمبر 1130م[1]، وخلفه عبد المؤمن الذي تلقب بأمير المؤمنين. وقد استولى الموحدون على المغرب نهائياً سنة 1148ف، وسقطت تلمسان ووهران بين أيديهم ثم جاء دور الجزائر. في سنة 1151ف أخضعت[2] مملكة باجة الحمادية، وعندها أصبح عبد المؤمن يمثل تهديداً لأفريقية الزيرية، وصقلية. وقد قمع بسرعة تمرداً لكتامة ولواتة، ثم واجه في سنة 1153 تحالفاً هلالياً كانت السيطرة فيه للرياح.

كان البدو قد تعودوا جيداً على السياسة الأفريقية، وألفوا الصراعات بين ملوك صغار كثيرين، وخبروا التغييرات في التحالفات. ولا يمكن للسلطة الموحدية القوية والمتحدة إلا أن تضربهم. لسوء حظ الهلاليين، كانوا هذه المرة في مواجهة عدو أقوى بكثير من هؤلاء الذين كانوا يتحدون سلطتهم عادة. زد على ذلك، أن عبد المؤمن كان ـ في الغالب ـ أحسن استراتيجي عرفه المغرب. باطمئنانهم إلى قوتهم أخطأ العرب خطأً جسيماً برفض عرض

---

(1) روض القرطاس، ص242 ـ 260.

(2) انظر عاليه، ص217.

المساعدة الذي قدمه لهم روجر الثاني ملك صقلية. كان العرب سيئي التجهيز والتنظيم، وقد هزموا وأجبروا على الاستسلام. وقد عومل العرب المهزومون بكل احترام.

أرسل عبد المؤمن أسطول سبتة ليتعرف على سواحل أفريقية. في سنة 1156ف، جال الأسطول غير بعيد من مدينة تونس من أجل معرفة قدرات المقاومة فيها. في هذه الأثناء قامت أفريقية ضد الحماية النورماندية. بدأت الحركة في صفاقس حيث بدأ المسيحيون في اضطهاد المسلمين حسب ابن خلدون[1]. ووقعت مذبحة للنورمانديين في المدينة. وتوسع التمرد إلى مدن أخرى، غالباً بسبب الاضطهاد الدموي الذي كان يمارسه جيوم خليفة روجر الثاني، كما لم تكن الدعاية الموحدية ـ بكل تأكيد ـ غريبة عن هذه الحركة.

في سنة 552هـ ـ 1157ف، قاومت مدينة تونس بنجاح أول هجوم للموحدين. لم يرد عبد المؤمن أن يبقى على مثل هذا الفشل. فترك مراكش وسار حثيثاً نحو الشرق. استسلم سكان مدينة تونس للموحدين[2] في منتصف سنة 1159ف بعد أن حوصروا براً وبحراً. واستسلمت المهدية في بداية سنة 1160ف. ومنح عبد المؤمن الأمان لمن كان فيها من النورمانديين. وكان سقوط المهدية بداية النهاية للحماية النورماندية في أفريقية. فقد سقطت بالتتابع كل من سوسة، وصفاقس والجريد في أيدي الموحدين[3].

عند عودة ابن تومرت من المشرق حيث كان قد درس، مر بطرابلس

---

(1) البربر، ج2، ص39.

(2) قد يجب علينا الآن أن نتحدث عن المؤمنيين لأن عبد المؤمن كان قد عين ابنه عبد الله محمد خليفة له متراجعاً عن تسمية أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي (أبو حفص اينتي بالبربرية)، صاحب ابن تومرت. وسيعين ابن أبي حفص عمر، أبو محمد عبد الواحد حاكماً على أفريقية المومنية سنة 1207ف، وبقي فيها حتى سنة 1221ف، وحفيده أبو زكريا يحيى حاكماً كذلك وسيصبح مستقلاً سنة 634هـ/ 37 ـ 1236ف مكوناً الأسرة الحفصية. انظر Levi Provencal، موسوعة الإسلام، انظر (أبو حفص عمر الهنتاتي). و.هـ. إدريس/ موسوعة الإسلام، انظر (الحفصيين).

(3) روض القرطاس/ ص260 ـ 290.

حوالى سنة 12 ـ 1111ف، وأعطى فيها رأيه حول بعض المسائل الشرعية، ولكنه اهتم كذلك بإصلاح العادات بحماس جلب له أحياناً معاملات[1] سيئة. يمكننا أن نقدر أن دروسه تركت بعض الأثر. في سنة 553هـ ـ (59 ـ 1158)ف، ومخافة أن تقلد طرابلس ـ التي كانت تابعة لصقلية منذ 540هـ ـ (6 ـ 1145)ف ـ المدن الساحلية الأخرى، أراد النورمانديون بذر الفتنة بين المسلمين، فارتكبوا خطأً جسيماً، كان بالنسبة لهم قاضياً: أمروا الخطباء أن يشتموا الموحدين من على المنابر. أثار هذا حساسية الطرابلسيين. وأبلغ قاضيهم، أبو الحجاج المسيحيين أن هذا لا يتأتى، وأن العقد الذي يربط الطرابلسيين إلى النورمانديين كان يتضمن ألا يُلزم المسيحيون المسلمين بشيء يناقض دينهم، وأن انتقاد أخوتهم أمر لا يجوز. ألغى النورمانديون أمرهم، ولكن الضرر كان قد حدث. وقرر الطرابلسيون الناقمون الثورة، وقاموا خلال الليل بوضع جذوع أشجار على الطرق. لم يستطع المسيحيون التنقل بخيولهم واستولى المسلمون على البلاد في سنة 553هـ ـ (59 ـ 1158)ف. واختار الطرابلسيون شيخاً للمدينة أبا يحيى من أسرة بني مطروح الذين كانوا قد سلموا المدينة للنورمانديين. وتمكن هذا، بواسطة الهدايا، أن يجذب إليه طواعية القبائل العربية المجاورة.

عندما انضمت المهدية إلى الموحدين سنة 555هـ ـ 1160ف سارعت وفود من كل مكان لتقديم خضوعها إلى عبد المؤمن. كان أبو يحيى بن مطروح من بين هؤلاء[2]، وتم تثبيته في وظائفه، وعاد إلى طرابلس، واحتفظ بسلطته حتى عمر متقدم. وفي عهد أبي يعقوب يوسف (1163 ـ 1184ف)، ولد عبد المؤمن حصل أبو يحيى، بعد أن شعر بضعفه، من الحاكم الموحدي لتونس[3] على

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج2، ص165.

(2) كان الرؤساء الأباضيون من جبل نفوسة حاضرين. ولمرة لم يكن الأباضيون معارضين للسادة الجدد. يجب القول بأن عقيدة الموحدين الداعية بالعودة لأصول الدين تتسق مع رؤياهم أكثر من النزاعات الفقهية العقيمة. انظر Storia di Tripoli, E. Rossi، ص64.

(3) هذا الحاكم كان أبو يزيد ولد أبي حفص عمر. انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص38.

الأذن بالتنازل عن السلطة والقيام بالحج إلى مكة. وأبحر سنة 586هـ ـ 1190ف إلى الاسكندرية وهناك توفي[1].

في نفس السنة، 555هـ ـ 1160ف، رغب عبد المؤمن في تجنب الفوضى التي يمكن أن تثيرها القبائل العربية بقيادة الرياح، فشن عليهم هجوماً في جبل القرن، جنوب القيروان. كان قد اتخذ احتياطات فعالة لمنعهم من التراجع نحو الصحراء. وهنا كذلك، سادت الفرقة بين العرب، وهزموا أو قتلوا.

انتهت ـ في الواقع ـ القوة الصنهاجية القديمة التي لم تكن حية منذ مدة إلا على أمجاد الماضي. ولم يعد هناك أمير يمكنه السعي لمساندة القبائل الهلالية وضرب بعضها ببعض. وتم القذف بالنورمانديين إلى البحر. ولم يعد بنو هلال بعد هزيمة جبل القرن يمثلون أي خطر: كان بنو الأثبج قد أُضعفوا سابقاً بالصراعات الداخلية، وخضع بنو زغبة. ونقلت قبائل عربية إلى الغرب، وانضمت أخرى لصفوف الموحدين، واشتركت جماعات من الرياح في الجهاد بإسبانيا.

تميز عبد المؤمن كاستراتيجي بارع وكان كذلك سياسياً عظيماً، بفضله تمكن الموحدون من احتلال امبراطورية شاسعة من المغرب الأقصى إلى أفريقية الشرقية. وتم إبعاد الخطرين العربي والصقلي. وساد الهدوء شمال أفريقية. كان في استطاعة عبد المؤمن ـ حينها ـ أن يستجيب لطلبات الأمراء الإسبان الذين قاموا بالتمرد ضد المرابطين، وكان يحلم باحتلال شبه الجزيرة. وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة ستأتي قوة من المرابطين أعيد تكوينها في جزر البليار متحالفة أحياناً مع المغامر التركي قراقوش وأحياناً ضده، وتوقع أفريقية في الفوضى والاضطراب.

---

(1) التجاني، ص242 ـ 243. وابن خلدون، البربر، ج2، ص37 ـ 38.

نتائج الحضور الهلالي
في أفريقية:

أثار النفوذ الذي استطاع بنو هلال ممارسته في أفريقيا الشمالية، وهو لم يُدرك بما يكفي حتى الآن، من المناقشات مدى يبدو معه من غير المفيد بعث الجدل حوله من جديد والذي لن يكون في الوضع الحالي لمعارفنا إلا عقيماً. نتناول، مع ذلك، أفريقية في مجملها لأن إلقاء نظرة شاملة ضروري لفهم تطور الأقاليم التي تعنينا مباشرة، وسنرى أن حضور البدو العرب في الصحراء لم يكن له نفس الآثار التي كانت لحضورهم في الساحل، وسنتحقق أن بني هلال وسليم ظهروا أكثر خطراً لهؤلاء الذين درسوهم في القرن العشرين منهم للسكان الذين حاذوهم في القرن الحادي عشر. نجازف فقط بتقديم بعض الملاحظات حول بعض الأفكار المتداولة التي تنتمي أكثر لفن المسرح منها للتاريخ.

«انقضت القبائل العربية، كالجراد المنتشر، على أفريقية متلفة ومخربة كل ما كان يوجد على مسارها»(*). لقد حددت هذه الجملة لابن خلدون في ترجمة de Slane عمل المؤرخين الفرنسيين ثم الأوروبيين في اتجاه مناهض للعرب وللبدو. ولم تحظ جملة للمالكي رددها كثير من المؤلفين، ومن بينهم ابن خلدون نفسه[1]، بنفس الشهرة، وهي تخص الكاهنة: «أرسلت ـ أي الكاهنة ـ أنصارها في كل مكان من أجل هدم المدن، وتحطيم القلاع، وقطع الأشجار والاستيلاء على أموال السكان. . . . كل البلاد، من طرابلس حتى طنجة لم تكن إلا غابة متصلة وتتابع متصل من القرى، وقد هُدم كل شيء من قبل هذه المرأة. عندما اقترب حسان من أفريقية، سر من رؤية الروم يأتون للقائه

(*) لا تتفق هذه العبارة حرفياً مع ما قاله ابن خلدون، ولكنها تتسق تماماً في المعنى، وذلك لأن المؤلف نقلها ـ كما وضح ـ من ترجمة. عبارة ابن خلدون: «وسارت قبائل دباب وعرف وزغب وجميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه». المترجم.

(1) المالكي، ص145. وابن عذاري، 1، ص36. والنويري، ص341. وابن خلدون، 1، ص214.

والتماس مساعدته ضد الكاهنة». بالرغم من ذلك، لم يفسر هذا المقطع في اتجاه مضاد للبربر!.

في الفصل المعنون «النتائج الاقتصادية للغزو» وتحت عنوان فرعي «الآفة العربية»، يعزو جورج مارسيه George Marcais أعمال التخريب في شمال أفريقيا إلى بني هلال كبدو عرب[1]، ويصف «القطعان مطلوقة وسط المحاصيل، والبساتين المخربة... والقرى المنهوبة»، ويعتبر أن هذه كانت «الوقائع الأكثر طبيعية لهذه المرحلة الأولى من الغزو الهلالي»[2]. بالنسبة لـ E.F.Gautier فإن بني هلال وسليم «أحسن من مثل البداوة.... أعداء بالطبيعة لكل حضارة. إنهم عناصر مجردة للنهب والتخريب»[3]. «لم تأت الهجرة البدوية إلا بأسباب الموت، وبالغ الأذى والضرر»[4]. ويكتب شارل أندري جليان «Ch. A. Juien» مع بني هلال «أصبحت البداوة غزواً لمنع زراعة أراض كانت مخصصة لزراعة الحبوب والبساتين»[5] ويعتبر أن البدو العرب كانوا مسؤولين بطريقة غير مباشرة عن الغزو المسيحي[6]. ويعلن روبرت برنشفيق Robert Brunschvig «أن الوجه التخريبي هو ما يجب تسليط الضوء عليه لأنه الطابع الأبرز والأصدق في طباعهم وأنشطتهم»[7]. ويتهم ريموند موني Rymond Mauny البدو العرب بأنهم قطعوا الطرق التجارية العابرة للصحراء[8]. مع ذلك فإن الإدريسي وابن بطوطة ـ من بين آخرين ـ يعطون معلومات عن هذه الطرق. وينكر هـ.ر. إدريس، مفنداً جان بونسيه Jean

---

(1) La Berberie Musulmane، ص208 ـ 214.
(2) نفس المرجع، ص210.
(3) Le Passè de L'Afrique du Nord، ص396.
(4) نفس المرجع، ص394.
(5) Historiere de L'Afrique du Nord, II, p74.
(6) نفس المصدر، ص108.
(7) Hafsides، ج2، ص159.
(8) Tableau geographique، ص461.

Poncet، أن الامبراطورية[1] الزيرية كانت على حافة الهاوية عند وصول بني هلال ويكتب: «كبدو أقحاح كانوا يطمحون أقل إلى الفتح منه لأعمال النهب السهلة والمجزية»[2].

إننا لن نحاول دحض الوقائع البينة ـ خاصة تقديمهم بواسطة روجر إدريس في كتابه حول الإمارة الزيرية ـ ولكننا نعتقد أن هذه الأحداث قد أعطيت تفسيراً في اتجاه معاد للعرب ومعاد للبدو في عصر كان فيه الاستيطان ـ التهدئة يتطلب مثل هذه الاستنتاجات. أصبح مثل هذا التفسير ـ لسوء الحظ ـ تقليداً، وامتنعت الدول المغربية الحديثة عن نقده لأنها معادية للبدو، هؤلا الهامشيين، وتم تجاهل ملاحظات ابن خلدون الأخرى لصالح البدو التي كان من الممكن فصلها عن إطارها واستعمالها حسب الرغبة. لنختر عشوائياً من هذه الملاحظات: يعيش البدو على القليل جداً، ومع ذلك فإن أجسامهم أكثر صحة، وطباعهم أقل حدة، وأذهانهم أكثر توقداً مما عليه الحال عند الحضر. إن المقارنة بين البدو العرب والبدو البربر الملثمين تعطي الأفضلية للأولين[3]. إن البدو لا يطلبون أكثر من الضروري[4]. إن البدو أحسن من الحضر لأنهم يحيون بطريقة طبيعية كما في بداية الخلق، وبالعكس فإن الحضر طبعوا بعادات غير مقبولة ولا يعرفون أي تحفظ[5]. بينما يستسلم الحضر للكسل، ويسلمون مهمة الدفاع عن حياتهم وأموالهم لحاكم يعتمدون عليه كما تعتمد النساء والأطفال على رب البيت، فإن البدو أكثر شجاعة ويؤمنون دفاعهم عن أنفسهم بأنفسهم، وفي بعض الحالات عن الحضر كذلك[6]. إن لدى البدو قوة أخلاقية أكثر مما عند الحضر[7]. بقيت

---

(1) Le Mythe de La Catastrophe hilalienne, Jean Poncet، ص1049 ـ 1120.

(2) De La Realite de La Catastrophe hilalienne، ص394.

(3) ابن خلدون، العبر، 1، المقدمة، ص152 ـ 153/ 1، ص177 ـ 178.

(4) نفس المرجع، ص212/ 250.

(5) نفس المرجع السابق/ ص213 ـ 214/ 254 ـ 255.

(6) نفس المرجع، ص218 ـ 219/ 257 ـ 258.

(7) نفس المرجع، ص221/ 259 ـ 260.

العصبية كاملة عند البدو، وهم لا يطيعون رؤساءهم إلا بسبب الاحترام والتقدير، وبخلاف الحضر، لا يسندون أمر الدفاع عنهم إلى ميليشيا[1].

فيما يتعلق بادعاء انقضاض بني هلال على أفريقية، يجب تكرار أن جزءاً منهم ترك الصعيد سنة 1049 ـ 1050ف وأنهم من برقة دعوا أخوتهم للالتحاق بهم، ولم يصلوا إلى أفريقية إلا بعد ذلك بسنتين[2]. بالإضافة إلى أنه خلافاً لما نشرته الأسطورة ـ «الأسطورة التاريخية» كما يسميها جاك بيرك Jaques Berque [3] ـ كانت منتجعات بني هلال موجودة غرب النيل قبل سنة 1050ف بكثير: وهناك توقعهم مكانياً خريطة ابن حوقل في القرن العاشر[4]، وسبق لنا القول بأن بنى قرة كانوا في برقة سنة 1004 ـ 1005ف[5]، وقد برهن ميكل برت Michael Brett على وجود بني زغبة في طرابلس سنة 1037 ـ 1038ف[6]. وعليه فإن الأمر ما كان هجرة جماعية لقبائل كاملة في شكل انتقال صاعق من مصر، عابرة صحراء ليبيا مطلقة العنان ـ بأعباء ونساء وأطفال! ـ مندفعة مرة واحدة إلى إقليم لم يكن يتوقع أن يغمر بهذه الأمواج البشرية كما تريد لذلك بعض التصورات التي كنا نفضل أن تبقى في الإطار الشعبي.

هل كان عدد الهلاليين كافياً ليحق أن تنسب إليهم كل الكوارث التي وصفها المؤرخون، ويعزى لهم انحطاط أفريقيا الشمالية؟ إن التقديرات العددية ـ هنا أو هناك ـ عشوائية. يقدر ليون الأفريقي ـ نقلاً عن ابن رشو (؟) ـ عدد الرجال القادرين على القتال بخمسين ألفاً[7]. من غير المحتمل أن يكون ابن

---

(1) نفس المرجع، ص223 ـ 224/ 262 ـ 263.

(2) ابن خلدون، البربر، 1، ص33 ـ 34. R. Le Tourneau يتحدث عن تسلل بطيء لبني هلال وسليم، انظر North Africa، ص235.

(3) Du nouveau sur Les Bani Hilal?، ص99.

(4) صورة الأرض، ملحق، ص134 ـ 135/ 132 ـ 133.

(5) انظر عاليه، ص260.

(6) The Zughab at Tripoli, M. Brett، ص41 ـ 47. لنفس المؤلف، Ibn khaldun، ص13.

(7) Description de L'Afrique، 1، ص22.

رشو هذا هو ابن الرقيق لأن هذا الأخير كلف في سنة 998ف من قبل الأمير الزيري باديس بمهمة دبلوماسية لطرف الحاكم بأمر الله، أمير مصر الفاطمي، وأن المقطع الأخير المذكور من كتابه ـ وهو اليوم مفقود ـ يتعلق بسنة 1027[1]. قد يكون هو ابن الرشيق القيرواني، المولود سنة 1000ف، وهو شاعر في القصر الزيري من خواص المعز وتبعه إلى المهدية بعد سقوط القيروان سنة 1057ف، ولكننا نشك في أن ابن الرشيق كان مؤرخاً[2]. وفي الحالتين، يتعلق الأمر بموظفين زيريين ومن الطبيعي أن يميل هؤلاء إلى تضخيم أعداد أعدائهم. زد على ذلك أن المبالغة في الفقرة التي استشهد بها ليون الأفريقي ـ «هكذا عبر نصف سكان الصحراء العربية... وبعض مجموعات من قبائل العربية السعيدة[*]... كانت النساء والأطفال والحيوانات بأعداد لا تنتهي» لا يمكن إلا أن تثير الشك. ويجب ألا ننسى أن العرب في معركة حيدران سنة 1052ف ـ برغم أنهم حققوا النصر ـ لم يصفوا إلا ثلاثة آلاف رجل حسب التجاني وابن الأثير وابن خلدون نفسه، وثلاثة آلاف فارس ومثلهم من الرجال ـ حسب ابن عذاري[3]. وأخيراً، يجب ملاحظة أن بني هلال لم يتركوا جميعهم مصر إلى أفريقية لأن الإدريسي أشار في القرن الثاني عشر إلى وجود منتجعات هلالية في المنطقة بين الواحات الخارجة وسنترية/ سيوه[4].

---

(1) M. Talbi، موسوعة الإسلام ـ انظر ابن الرقيق. وLeon L. Africain، 1، رقم 161.

(2) Ch. Bouyahia، موسوعة الإسلام، انظر ابن رشيق، يذكر وجود مؤرخ أندلسي يحمل اسماً مشابهاً وتوفي بعد 1275ف.

(*) اليمن. المترجم.

(3) انظر عاليه، ص281 ورقم 4.

(4) نزهه، ص42/ 49. لن نتناول الجانب الآخرمن الفرضية الاستعمارية، وهي فرضية الجنرال Bre'mond، Berberes et Arabes، ص189 ـ 200، الذي يدعى أنها لا تتعلق بحالات هجرة معزولة، وأن المجموعات أضعفت من السفر الطويل ولم يكن هناك إلا القليل من النساء والأطفال لأنه حوالى سنة 1000ف لم يكن الضعفاء يعتبرون، والبرهان أنه في هذا العصر أكل أطفال في باريس! إن هذه الفرضية تهدف لإثبات أن أفريقيا الشمالية بلد بربري فقط. إن كتاب الجنرال Bre'mond وهو عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية عنوانه الفرعي La berberiė est un pays European.

إننا لا ننكر وجود انتقادات للعرب قبل ابن خلدون. وفيما ذهل البكري أمام خصب السهول المحيطة بطرابلس[1] في القرن الحادي عشر، يدعي الإدريسي في القرن الثاني عشر أن ضواحي المدينة (طرابلس)، التي كانت من قبل مزروعة ومغطاة بالنباتات من كل نوع، قد هجرت من قبل ساكنيها لأن العرب خربوا هذا الازدهار، لقد خربت الزراعات واختفت مجاري المياه (غارت مياهها)[2]. تحيرنا المبالغة في هذه الفقرة فبعدها مباشرة يقدم الإدريسي صورة مناقضة لهذه الأقاليم المخربة، صورة إقليم مدينة طرابلس، ذي خصب لا يقارن في الحبوب، «وهو أمر معروف جيداً». والحال هذه، وكما يعلنه بكل فخر هذا الجغرافي، استولى راعيه روجر ملك صقلية على طرابلس في 540هـ ـ 1145 ـ 1146ف. وعليه يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت هذه الفقرة تمثل الحقيقة الجغرافية أو جاءت من قبيل التملق والإطراء خاصة وأن العبدري نسب في القرن الثالث عشر خراب الساحل الطرابلسي بنفس القدر إلى الحملات المسيحية وإلى العرب[3]، هذا من جانب، ومن جانب آخر وصف لنا الإدريسي القبائل العربية في جبل دمر شاكية من سرقة الجمال التي يقوم بها بربر رهانة[4]، ويفيدنا بأن أراضي رعي هيب ورواحة، وهي قبائل سليمية من الجبل الأخضر، كانت غنية وهادئة كأقليم لخم، وكانوا يركزون على تربية النحل واستخراج القطران الذي ينقلونه إلى مصر[5]. ويبدو، مع ذلك، أن العرب القريبين من الأراضي التي استولى عليها روجر، ملك صقلية، هم ـ دون

(1) المسالك، ص9/ 25.

(2) نزهة، ص121 ـ 122/ 142 ـ 143.

(3) Das Nordafrikanische Itinerar، ص132 ـ 133. سنلاحظ أن العبدري كتب بعد أعمال التخريب التي قام بها بنو غانية وقراقوش، وعليه لا يمكننا أن ننسب بطريقة عمياء الانحدار الذي رآه لبني هلال في القرن الحادي عشر.

(4) نزهة، ص123/ 144. جبل دمر ملاصق للساحل الطرابلسي.

(5) نفس المرجع، ص138/ 165. بنو لخم شاركوا في فتح الاسكندرية، انظر اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص446 ثم استقروا في منطقة برقة. انظر اليعقوبي، بلدان، ص343/ 202.

غيرهم ـ محل انتقاد هذا الجغرافي. يضاف، أنه إذا ما كان الإقليم الطرابلسي في انحدار فإن هذا قد يرجع إلى أعمال التخريب التي قام بها، سنة 1010ف تقريباً، تحالف زناتة ـ نفوسة الذي كان يقوده ورو بن سعيد بن خزرون ضد باديس، الأمير الزيري الذي استولى على حكومة طرابلس[1].

يذكر الزهري ـ معاصر الإدريسي ـ عند حديثه عن الجريد أن نفطة وتوزر ـ توزر الخضراء كانتا جزيرتين من النخيل، ويوجد فيهما أكثر من عشرة أنواع من التمور كانت الأساس لغذاء السكان لأن الزراعة فيهما فقيرة بسبب العرب[2]. إن هذا الاتهام يدهش لأن اليعقوبي يذكر من قبل في القرن التاسع وجود مجموعات من النخيل والزيتون فقط في واحات الجريد الأربعة محاطة بأراض مالحة[3]. وفي القرن العاشر شاهد ابن حوقل وفرة النخيل فيها، ويقول إن أفريقية كانت تُزود بالتمور من هناك، ولكن الماء فيها من نوعية رديئة، والأطعمة فيها غالية الثمن دائماً لأنها تأتي من الخارج ولا يزرع فيها القمح ولا الشعير إلا بكميات ضئيلة، وتعيش المدينة بفضل تجارتها[4]. ولا يعبر الإدريسي عن أي نقد تجاه العرب في هذه المقاطعة. وهو يعبر عن إعجابه بوفرة التمور والخضروات ويؤكد ببساطة غلاء الحبوب التي يجب استيرادها[5]. ويأسف المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار في نهاية القرن الثاني عشر لملوحة التربة في الجريد ويذكر زراعة التمور والزيتون والفواكه ولكنه يجهل الحبوب[6]. هل كان الزهري سابقاً ضحية رواية معادية لبني هلال؟.

لم تثر الزراعات الصحراوية قط، وخاصة زراعات الجريد، إعجاب

---

(1) انظر عاليه، ص246.

(2) جغرافية، ص200.

(3) بلدان، ص350/ 212. هذه الواحات الأربعة هي، توزر، الحامة، تقيوس، ونفطة.

(4) صورة الأرض/ ص94/ 92.

(5) نزهه، ص104/ 121 ـ 122.

(6) ص150/ 155 ـ 157.

الجغرافيين ولأسباب. لماذا، إذن، ننسب لبني هلال عملاً من أعمال الطبيعة؟

كما يلاحظه ب. فون سيفرس P.von Sivers [1]، بالرغم من أن لا شيء يدل على اندماج القبائل العربية بشكل سيء، قد نميل لرؤية أن الانتقادات ضد بني هلال هي نتيجة عداء بين بادية وحضر. مع ذلك لم ينتظر المؤلفون وقائع القرن التاسع[*] للتعبير عن استهجانهم لسلوك البدو. فمن قبل، في القرن التاسع، يأسف اليعقوبي لأن مقاطعات الصعيد شرق النيل وغربه قد انهارت وزراعاتها ندرت بسبب وصول البدو العرب وقطاع الطرق إليها وهو ما يدفع السكان للانتقال نحو مناطق أكثر ملاءمة[2]. كان هذا يحدث قبل نفي بني هلال إلى مصر[3] العليا بزمن.

أصاب الصورة الشعبية للبدوي المحارب المناوش للحضري المسالم بعض التصدع في الفترة اللاحقة لوصول بني هلال إلى شمال أفريقيا. كانت العلاقات بين الحضر والبادية في شمال أفريقيا يسودها الانسجام: يؤكد الإدريسي على جمال مدينة تونس، ويقول إنها كانت مأهولة ومطروقة من قبل السكان المجاورين ومن قبل الأجانب من بلدان بعيدة، ومحاطة بسهول مزروعة بالقمح والشعير وهي السلعة الأولى لتجارة السكان مع العرب الذين يحضرون الحبوب، والعسل، والزبدة[4]. وهناك بعيداً، في بلاد الزغاوة، كان الحضر يقومون بإزعاج الرحل: يحكي الإدريسي أن الحضر في المدن المجاورة لبلاد

(1) ابن خلدون: Back to nature، ص75.

(*) هكذا وردت عند المؤلف. نعتقد أنه قصد القرن الحادي عشر. المترجم.

(2) بلدان، ص332 ـ 333/ 187 ـ 188.

(3) كانت صورة البدوي النهاب راسخة من قبل في أفريقيا الشمالية قبل الفتح العربي. M. Rachet. خصص جزءاً من كتابه، Rome et Les Berberes لصراع روما ضد شبه البداوة البربرية، ص82 ـ 143، وضد البداوة الصحراوية، ص144 ـ 159. وفي بداية القرن الأول أزعجت عدالة مطالب البدو المتعلقة بحرية تنقلهم في أراضي تحركهم (ص82) الدوائر العليا الرومانية التي لم تستطع تحمل أن يقوم مواطنون رومانيون، تجار خاصة، بتقديم المساعدة للمتمردين بتزويدهم بالقمح (ص105 ـ 108).

(4) نزهة، ص111/ 130.

الزغاوة وهم بدو رعاة من جنوب شرق الصحراء، يقومون ليلاً بالإغارة على هؤلاء البدو ويخطفون أطفالهم ويخفونهم حتى يتمكنوا من بيعهم بأسعار بخسة لتجار ينقلونهم إلى المغرب الأقصى[1]. وفي أماكن أخرى، بقي الحضر بعيدين عن الصراعات التي كانت تقوم فيما بين البدو[2]: يلاحظ ابن سعيد وجود مصادر مائية ومراع في شمال جبل طنطنة حيث العشب وفير، ويسعى كل من العرب والبربر للاستحواذ عليها، وهي سبب للصراع[3] بينهم.

إذا كانت أعداد الهلاليين غير كافية لإلحاق الضرر بأفريقية وأن بداوتهم ليست المذنب، فيجب البحث في مكان آخر عن أسباب انحطاط بعض الأقاليم، ومن المؤسف أن ابن خلدون لم يحاول ــ لا في المقدمة ولا في تاريخ البربر ــ أن يفكك آلية هذا التدهور والانحطاط، فالهجرة الهلالية لم تكن بالنسبة له، إلا عاملاً تاريخياً من بين أخرى كثيرة. نذكر أن جاك بيرك، استنتج من قراءته لابن خلدون والمقريزي: «أن بني هلال مثلوا ملحمة في مصر، وتاريخاً في المغرب»[4].

إن وجهين للوضع الأفريقي أُهملا عن علم أو بدونه، أو سُكت عنهما بالرغم من أنهما أساسيان لفهم الأحداث. أبرز الأول فيهما محمد طالبي[5]. في منتصف القرن العاشر ضايقت الحملات البيزنطية في البحر المتوسط بشكل فعال الأساطيل العربية وعرقلت أعمال القرصنة الإسلامية. ولم يعد الملاك الشمال أفريقيون، الذين أثر فيهم نقص الأسرى في المغرب نفسه، يستطيعون الحصول بأسعار منخفضة على الرقيق الذين كانوا يؤسرون أثناء الحملات على الشواطىء المسيحية. هكذا، انتهى ثراء القرن الثامن وبداية القرن التاسع، وهو

(1) نفس المرجع، ص33/ 39.

(2) حول التعرف على هذا الجبل، انظر أدناه ص382 ــ 388.

(3) بسط الأرض، ص61.

(4) Du nouvau Sur Les Bani Hilal?، ص106.

(5) Droit et Economie en Afriqya au III/IX Siecle، ص185 ــ 229.

العصر الذي كان يقوم خلاله هذا المالك الكبير للأراضي بتقديم جوار بالغات الجمال لأصدقائه، ويتفاخر آخر بفض بكارة عذراء[1] كل يوم. هكذا اهتز الهيكل الزراعي بشدة بسبب نقص الأيدي العاملة من الرقيق. وتم التركيز على التجارة، وكانت الوفرة النسبية للذهب خادعة[2]. ولا يبدو أن الرقيق الأسود استطاع أن يلعب الدور الذي كان حتى ذلك الحين من اختصاص الرقيق البربر والمسيحيين: من جانب لم يكن المناخ في الساحل يناسبهم[3]، ومن جانب آخر كانوا يعملون في قطاع آخر، فقد كان الأمراء يجندونهم بعشرات الآلاف في جيوشهم[4]. ويتساءل محمد طالبي عما إذا لم تكن الملكيات الكبيرة والمتوسطة من الأراضي قد بارت كلياً أو جزئياً قبل ظهور بني هلال[5]. وأصبحت الزراعة، التي كانت سابقاً الأكثر ثراء، مورد الفقراء. وربما حول بنو هلال أراض غير مستغلة قبل وصولهم إلى أراض لتنقلهم.

يجب التأكيد، ثانياً، على واقع أن أعمال التخريب التي تمت في الساحل لا يمكن أن تنسب إلى بني هلال بصفتهم بدواً أو كقبيلة شيطانية لا تحلم إلا بالسلب وقطع الطرق. يبدو من المرجح أكثر أن الأمراء الزيريين قد ساهموا في تخريب بلادهم بتجنيدهم هؤلاء الرجال المدربين على الحرب في قواتهم.

(1) M. Talbi، المرجع السابق، ص202.

(2) إن الانهيار الاقتصادي الناتج عن المجاعة التي انتشرت في أفريقية سنة 5 ـ 1004ف دفعت التجار إلى الهجرة إلى مصر. انظر محمد طالبي، المرجع المذكور، ص204 ـ 205. انظر ابن عذاري، 1، ص256 ـ 257 والرسائل الكثيرة لتجار يهود مغاربة استقروا في مصر، في S.D.Goitein . Lettres

(3) لدرجة أن المنحدرين منهم لم يكونوا كثيرين ولا نشطين، انظر A.G.B. Fisher و Slavery, H.J.Fishe، ص90.

(4) Droit et Economie, M. Talbi، ص212. نفس المؤلف، L'Emirat Aghlibide، ص136 ـ 138. إن عدد هذا الحرس وصل حتى 100000 أسود في نهاية القرن التاسع. انظر النويري، ص428. و La Berberie Orientale, M. Vonderhyden، ص104 ـ 105. واستمر الحال هكذا في عهد الزيريين، انظر هـ. ر. إدريس، Zirides ج2، ص530.

(5) Droit et Economie, M. Talbi، ص208 ـ 210.

وكانت قد انفجرت حركات تمرد ضد الزيريين في كل مكان أفريقية. وعندما ظهر بنو هلال، لم تهدأ هذه الحركات ولم يحدث التحام من أجل طرد الدخيل، وإنما تقوت هذه الحركات ونشطت بتوافر غير متوقع للمرتزقة. هكذا نُظر إلى بني هلال في البداية. نتذكر أن المعز ابتهج لوصول الفيالق الجديدة التي كان يمكن أن تساعده أخيراً، على قمع بني حماد في القلعة، ومن أجل هذه الغاية عمل على كسب دعم مؤنس بن يحيى، الرئيس الرياحي بتزويجه ابنته ـ أي المعز ـ، وأن مؤنس تردد وأبلغ الأمير عدم وثوقه في انضباط رجاله. عدم الانضباط هذا هو الذي أشعل النار[1]. فأثناء المعارك التي لحقت ذهب الأمير الزيري إلى حد تخريب أقاليم من إمارته كان يشك في تواطؤ سكانها مع العرب، وهو ما يسلم[2] به ابن خلدون. وقد زوج المعز ثلاثة من بناته لرؤساء عرب بعدما أدرك أن أتباعه من صنهاجة لم يظهروا الحماس الذي كان يتوقعه في قتالهم ضد زناتة، وتحقق من أن حرسه الأسود لم يعد كافياً لتأمين سلامته، وذلك ليضع نفسه تحت حماية هؤلاء الرؤساء ويتمكن من استعمال قواتهم[3]. وقد أثار الزيريون والحماديون الانقسامات بين العرب مما أدى ببعض القبائل، على غرار البربر، لأن تكون أحياناً في هذا المعسكر وأحياناً في الآخر. وتم التحقق من هذا الواقع من قبل هـ.ر. إدريس[4] الذي يتمسك، بالرغم من ذلك، بفرضيته القاضية بأن المأساة تعود فقط لفوضى القبائل العربية وشغبها. وقد تم التأكيد أحياناً[5] على أن تنقل القبائل العربية كان من تحريك الأمراء في المغرب الذين كانوا يرغبون في الحضور العربي أكثر مما يخشونه، ولكن أسطورة البدوي المدمر بقيت حية. ننسى أن البربر أُستعملوا بنفس الطريقة وفي حدود أقل من بني هلال في الحقيقة، وذلك لأن تنقلهم أقل وكانت جذورهم

---

(1) ابن خلدون، البربر، 1، ص34، ابن عذاري، 1، ص288. انظر أعلاه، ص280 ـ 281.

(2) البربر، 1، ص35.

(3) التجاني، ص18. وابن خلدون، البربر، 1، ص36.

(4) L' Invasion hilalienne et ses Consequences، ص364.

(5) Ibn khaldun, Y. Lacoste، ص94 ـ 96. وJ. Poncet، Le Mythe، ص1099/1120.

راسخة في أقاليمهم. وفي الوقت الذي يتم فيه تجاهل ملاحظات جاك بيرك، في المقال الذي ذكرناه فيما يتعلق بسحق بني هلال ونفيهم بأعداد كبيرة من قبل الموحدين[1]، تُرفض إعادة قراءة ابن خلدون حول الموضوع الذي يذكر هزيمة الهلاليين واستسلامهم للموحدين، والفيالق التي قدموها لجهاد الموحدين في إسبانيا[2]. وفي الوقت الذي من الواضح فيه، حسب النصوص، أن الأسباب الأساسية للنكبة تكمن في انعدام التنظيم في أفريقية، وفي الصراع بين صنهاجة وزناتة، والنزاعات بين المجموعات الصنهاجية المتنافسة ـ أولا يصف S.D Goitein هذه الفترة من تاريخ الشمال الأفريقي[3] «بالحرب الأهلية؟» ـ لا يُتوقف عن مواجهة البدوي العربي بالحضري البربري، وبشكل عام، مواجهة البدوي بالحضري. وفي هذا الخصوص، يجب ملاحظة أن عرب اليوم ليسوا أقل في المسؤولية (الذنب) من الأوروبيين، لأنهم، هم أيضاً، في قراءتهم لمؤرخيهم وجغرافييهم القروسطيين، ظهروا كأتباع لأسلوب «القطع المختارة» عندما يتعلق الأمر ـ في دولة تدعي القوة ـ بضبط البدوي المتحرك الذي لا يمكن تحديد مكانه بسبب الطبيعة ومهارته الفائقة في خداع جباة الضرائب. إننا بتجاهلنا الفوضى الأفريقية التي كانت سائدة قبل وجود بني هلال، والتجاوز عن التأكيدات حول تدهور الزراعة، وعدم الإشارة إلى الضرائب الزيرية الباهظة التي اضطرت التجار المغاربة للهجرة نحو المشرق، نُحمل بكل الذنوب طريقة حياة مختلفة وغير معروفة. لقد ذهب البعض إلى حد الرغبة في اتهام البدو العرب بالمساهمة في تحويل البربر[4] إلى حياة البادية. هكذا وُجد عالمان متواجهان وجهاً لوجه، طرفان لا يمكن لهما أن يلتقيا أبداً، في هذه الصورة. ولكن، أغلب القبائل البدوية في الشمال الأفريقي كانت ـ ولا تزال ـ شبه بدوية،

(1) Du nouveau sur Les Bani Hilal?، ص101.

(2) البربر، 1، ص47.

(3) Letters of Medival Jewish Traders، ص138.

(4) Les fondements Geographiques, Xavier de Planhol، ص140 ـ 141.

وشبه البداوة يتطلب ـ منطقياً ـ نشاطاً حضرياً. إن هذين العالمين ـ اللذين يراد معارضتهما ـ قريبان لبعضهما اقتصادياً وجغرافياً. تحدثنا أعلاه عن مشاركة البدو العرب في الحياة في مدينة تونس. إن هذه المشاركة أكثر بروزاً في مدينة قسطنطينة: «إن مدينة قسطنطينة مأهولة تزاول التجارة، سكانها أغنياء وتربطهم اتفاقيات مجزية مع العرب ويشاركونهم في زراعة الأراضي وحفظ المحاصيل»[1]. حتى عندما يتعلق الأمر ببدو حقيقيين، لا يمكن إنكار مساهمتهم في عالم الحضر. لقد كانوا الوحيدين، في أقاليم كثيرة، الذين يستطيعون مزاولة تربية الحيوانات البالغة الضرورة للحضر، كما ساهموا بفاعلية، من خلال أدوارهم كأدلاء وحراس للقوافل وناقلين، في ثراء مدن الساحل والحاضرات الصحراوية.

بنو هلال في الصحراء الليبية:

يبدو واضحاً أن النتيجة الأولى لوجود بني هلال في الصحراء الليبية كانت العودة التدريجية إلى السنية. وبينما الثابت أن سكان زويلة كانوا من الأباضيين منذ القرن[2] الثامن، وهو ما لوحظ في القرن[3] التاسع أيضاً، وأن زويلة كانت مقراً لأسرة عبد الله بن الخطاب الهواري ابتداء من 306هـ ـ (918[4] ـ 919)ف، لم يعد هناك ذكر لأي نشاط للخوارج بعد وصول بني هلال. لم تكن هذه العودة للسنية ـ بكل تأكيد ـ نتيجة انتزاع عنيف للأباضية، وإلا ما كان المؤلفون ليترددون في ذكره. يبدو من المحتمل أكثر أنه تحول بطيء جداً وتدريجي عن هذه العقيدة المخالفة لصالح تقارب مع المجموعة المالكية العربية

---

(1) الإدريسي، ص95/ 110 ـ 111.

(2) ابن عذاري، 1، ص73. انظر حملة الوالي ابن الأشعث، انظر عاليه، ص196 ـ 199.

(3) اليعقوبي، بلدان، ص345 ـ 205.

(4) ابن حوقل، ص106/ 104. والإدريسي، ص37 ـ 38/ 44. وابن خلدون، البربر، ج1، ص281، وج2، ص92. كما سنرى، هذه الأسرة كانت حاضرة في زويلة سنة 1176 ـ 1177ف عند ظهور قراقوش في ليبيا.

البربرية التي كانت بفضل هياكلها المسيسة تستطيع توفير حماية لم يكن في مقدور المجموعات الأباضية توفيرها بعد سقوط تاهرت. حتى لو كان إسلام القبائل الهلالية أكثر بداثية من إسلام قاطني مدن أفريقيا الشمالية، كما يبرزه هـ. تراس H. Terrasse [1]، فإن انتشار هذه القبائل وانتسابها لهذه المجموعة المالكية القوية أو تلك لم يكن ليؤثر إلا في اتجاه الانضمام إلى سنية السكان الذين كانت تجاورهم أو تحميهم وتتاجر معهم.

يمكن التساؤل عما إذا لم يكن هذا الاختفاء التدريجي للأباضية مسبوقاً بمدة قصيرة أو مصحوباً بهجر البربرية كلغة محلية. وعليه لا يمكن لنا أن نتحدث عن تحول القبائل البربرية إلى البداوة، كما فعل كسيفي دي بلانهول Xavier de Planhol، والتي كان قد بقي عدد كبير منها بدوياً، وإنما عن تعريب لهذه القبائل ليس فقط في اللسان، كما يؤكد عليه جاك بيرك[2]، ولكن في التصرف والسلوك، وحتى إلى حد الانتساب إلى سلاسل نسب مختلقة. إن هذا التأثير الهلالي لم يذهب إلى حد محسوس في اللغة المكتوبة، حسب مايكل[3] برت، فقد كانت المراكز الأباضية ـ بكل تأكيد ـ أكثر ثقافة من القبائل الهلالية، ولم يبلغ الدرجة التي وصلها في لغة المخاطبة، كما نلاحظه حتى اليوم في لغات الأرياف، ولم يكن ابن خلدون مصيباً عندما عزا فساد اللغة النبيلة[4] إلى الاحتكاك باللغات الأجنبية.

ليس من السهل تقدير مدى الأثر الذي أحدثه الحضور الهلالي في الصحراء الليبية. في جميع الأحوال، علينا أن نمتنع عن التقييم بالتأسيس على

(1) Citadins et grands nomades dans L'histoire de L'Islam، ص13.

(2) Du nouveau sur Les Bani Hilal?، ص107.

(3) Ibn Khaldun and the Arabisation of North Africa، ص13.

(4) المقدمة، 1، ص1073 ـ 1080/ج3، ص344 ـ 352. إن العرب الذين أفسدوا اللغة العربية وغيروا في الإعراب النحوي وذهبوا إلى القبول باللحن سماهم ابن خلدون العرب المستعجمون. انظر البربر، ج1، ص7.

المؤلفين اللاحقين لأعمال التخريب التي قام بها بنو غانية والأرمني قراقوش في هذه المناطق. فهكذا، عندما وصف العبدري في نهاية القرن الثالث عشر، فقر سرت[1] وأجدابياً[2] والصحراء المملوءة بقطاع الطرق بين البلدين[3]، تصور أن البكري ارتكب خطأ بوصفه لثراء هذه المناطق[4]. وفي بداية القرن الرابع عشر أكد أبو الفدا أنه لا يوجد بين طرابلس والاسكندرية أي مدينة بها حمام[5]، ويشرح ابن خلدون أن عرب بلاد برقة يركزون على الزراعة، ولكنهم فقراء جداً، وفي بعض الأحيان يضطرهم الجفاف لنقل قطعانهم إلى أوجلة أو سنتيرية ـ سيوة وإلى ما بعد الرمال حتى بلاد كانم، القوم السود الأقرب إليهم[6].

من الممكن إكثار الاستشهاد بالنصوص اللاحقة للأحداث المأسوية في نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر واتهام البدو العرب من القرن الحادي عشر بكل الشرور. هكذا، يعزو هـ.ر. إدريس الأهمية المتزايدة لسجلماسة كمحطة على طريق الذهب الأفريقي إلى قطع بني هلال طريق الجريد التونسي[7]. وبالرغم من أن التجارة بين الجريد ـ واحة تقيوس[8] خاصة ـ وكوكو ـ جاو عبر تادمكة مؤكدة منذ القرن[9] التاسع، إلا أننا نعرف ـ بفضل

---

(1) Das Nordafrikanische Itinerar، ص143 ـ 144.

(2) نفس المرجع، ص160.

(3) نفس المرجع، ص145.

(4) المسالك، ص5 ـ 6/ 16 ـ 19.

(5) تقويم، ص146 ـ 147. تبنى هذا الوصف القلقشندي، ج5، ص104.

(6) البربر، ج1، ص164 ـ 165.

(7) L'Invasion hilalienne et ses Consequences، ص366.

(8) El Oudiane de nos Cartes، انظر J. Despois، موسوعة الإسلام انظر (Djaridhgdur,fd).

(9) ولد رئيس الخوارج النكاره، أبو يزيد مخلد كيداد، الملقب بصاحب الحمار حوالى سنة 270هـ/ 883ف غالباً في السودان من عبدة تسمى سبيكة اشتراها والده وهو تاجر من منطقة قسطيلية أي من توزر أو منطقتها من تادمكه أثناء واحد من أسفاره العديدة إلى السودان. ورجع كيداد واستقر في الجريد، وذهب بابنه إلى كوكو، انظر ابن حماد، ص18/ 33 ـ 34. وعاليه ص230 ـ 231.

ابن حوقل ـ أن الطريق المباشر المؤدي من الواحات إلى غانا هجر بأمر من أحمد بن طولون قبل مارس 884ف لصالح الطريق مصر ـ غانا عبر سجلماسة[1]. وقبل أن يترك بنو هلال مصر إلى أفريقية بوقت طويل، اختارت القوافل المصرية المتجهة إلى بلاد السودان الغربي سجلماسة قاعدة للانطلاق قبل الدخول إلى الصحراء مفضلة لها على المراكز الصحراوية الأخرى المهمة زويلة وغدامس والجريد وورقلة. ووراء هذا أسباب عديدة منها: الرغبة في اتباع الساحل وهو ما يعني البقاء في بلاد مسلمة وتحاشي مشكلة التزود بالماء أطول وقت ممكن، والرغبة في تفادي ـ في حدود ما يستطاع ـ المكائد والعقبات في الإقليم السوداني حيث هناك أقوام وثنيون غير معروفين، وتحاشي فيضانات الأنهار التي تبطىء بشدة تقدم القوافل، وفي حالة الجريد بشكل خاص، الاهتمام بتجنب مخاطر السبخة[2]، وفي نهاية القرن الثاني عشر كان الابتعاد بأي ثمن عن هذه المنطقة حيث كانت المعارك بين الموحدين وبني غانية في أوجها[3] من أسباب التحول إلى سجلماسة.

لما سبق، لا يمكن الاعتماد على مؤلفين مثل العبدري، والتجاني، وابن خلدون، وليون الأفريقي الذين جاؤوا بعد أعمال التخريب التي قام بها بنو غانية وقراقوش، لتقييم الأثر الهلالي على الصحراء الليبية. إن المقارنة بين أوصاف البكري وأوصاف الإدريسي يمكن لها دون غيرها أن تفيدنا في هذا الخصوص،

---

(1) صورة الأرض، ص61، 153/ 58، 151. انظر عاليه، ص141، رقم 3 وص208.

(2) البكري، ص48/ 102. والاستبصار، ص155 ـ 156 و158 ـ 159. والعمري، ص132 ـ 133. والتجاني، ص155، 196 ـ 197. هذه السبخة وهي سهل من الأرجيل مالح تمتد 110 × 70كم. انظر J. Despois، موسوعة الإسلام انظر (Djarid). كان الطريق تادمكة ـ توزر يمر عبر ورقلة، انظر البكري ص182/ 340. الطريق توزر ـ غدامس ـ تادمكة التي تؤدي كذلك إلى غانا كانت صعبة بشكل خاص: أربعون يوماً من الصحراء حيث لم يكن يمكن العثور على الماء إلا كل يومين أو ثلاثة عن طريق حفر الرمال، انظر البكري، ص181 ـ 183/ 340 ـ 342.

(3) الاستبصار، ص155. والتجاني ص105، 186 ـ 187، 193 ـ 194، 203 ـ 204، 243 ـ 245. وابن خلدون، البربر، ج1، ص48 ـ 49، وج2، ص91 ـ 102.

فالأولى تغطي الفترة السابقة مباشرة لوصول بني هلال، وجاءت الثانية بعد وصولهم بحوالي قرن تقريباً وكلاهما سابق للخراب الذي ألحقه بنو غانية.

إذا ما فحصنا أولاً مدينتين ساحليتين تمثلان نهايتي طرق قوافل مهمة، سيتضح لنا أن الزراعة والتجارة فيهما قد عانت قليلاً أو كثيراً حسبما إذا كانت المعارك بين الزيريين والهلاليين قد جرت فوق أراضيهما أو دارت بعيداً عنهما.

كانت سرت قبل المعارك التي وقعت على الساحل الطرابلسي، مدينة كبيرة محاطة بسور، وبها جامع كبير وحمام وخزانات وأسواق، ولها مزارع نخيل، وبساتين وفواكه، ويستهلك سكانها لحم ماعز لذيذاً. وكانت تستورد زيتها[1]. في القرن الثاني عشر، كان سور المدينة لا يزال موجوداً. كما كان فيها ـ حينها ـ الكثير من شجر التوت وبقايا من زراعات نخيل وتين، ولولا أعمال التخريب التي قام بها العرب لكانت مزارع النخيل بأعداد أكبر يمكن أن تكفي حاجات السكان. وكان الشرب فيها من مياه الأمطار التي تستخرج من عدد قليل من الآبار ومن خزانات ـ مواجل، وهي محاطة بقبائل بربرية. وكانت قبيلة رهانة من جبل دمر تربي جمالاً رشيقة خفيفة الحركة يقوم بواسطتها رجال القبيلة في مجموعات صغيرة بمفاجأة القبائل العربية والاستيلاء على إبلهم. وكان اللحاق بهذه المجموعات في حكم المستحيل بسبب سرعة جمالها، ومعرفة رجالها المعمقة ببلادهم التي كان الدخول إليها في غاية الصعوبة. وليست هناك قبيلة عربية واحدة في المنطقة لم تشتك منهم[2].

---

(1) البكري، ص6/ 17 ـ 18، ونقل عنه ياقوت، انظر (سرت). فيما يتعلق بالآبار جاء في النص آبار عذبة، عذب = طعم مستساغ، حلو. آبار تعطي ماء حلواً، مستساغ الطعم. عذب = ماء مغطى بالرغوة.

يضيف البكري أن الناس في سرت مكروهين وأن معاملاتهم التجارية هي تقريباً سرقة.

(2) الإدريسي، ص122 ـ 123/ 143 ـ 145: موجل = تجويف فيه ماء راكد. De Goeje محق في ترجمته «خزانات» وهنا بوضوح المعنى الذي أعطاه الإدريسي لهذه الكلمة. انظر Les Localite's de Cyre'naique.

إذا كانت منطقة سرت قد عانت من الصراعات التي دارت فوقها ولم تتمكن من النهوض بعد مضي قرن على هذه الصراعات، فإن العرب في المنطقة، بالمقابل، لم يكونوا خطرين ـ على ما يبدو ـ لأنهم كانوا عاجزين عن مواجهة غارات البدو البربر. لن يكون الوضع هكذا بعد بضع عشرات من السنين، ولا يمكن إرجاعه إلى الوجود الهلالي، لأنه في الفترة التي كتب فيها مؤلف كتاب الاستبصار، أي أثناء حملات قراقوش الأولى خلال الربع الرابع من القرن الثاني عشر، كانت سرت لا تزال مدينة[1] كبيرة.

كان الرخاء سائداً في برقة في النصف الأول من القرن الحادي عشر، والمواد الغذائية فيها رخيصة الثمن والماشية كثيرة. وكان يصدر منها إلى مصر الحيوانات والعسل والقطران. وكانت من حولها قبائل لواتة، وأفريقية أي البربر المتمرمنون[*][2]. إن أخبار الإدريسي المتعلقة بهذه المقاطعة متناقضة. فهو يقول بأن المنطقة برقة ـ أوجلة ـ زلة ـ زويلة تتكون من صحارى قليلة السكان، وقد نشر العرب فيها الفوضى وكانوا يهاجمون جيرانهم[3]. إن هذا التأكيد يثير الدهشة إذ لم تذكر أي أعمال نهب من قبل العرب تتعلق بالبلدات المذكورة. وفيما يتعلق ببرقة، يعبر الإدريسي عن أسفه لقلة سكانها وأن أسواقها لم تعد مرتادة كما كانت عليه في الماضي. ويوضح، بالرغم من ذلك، أن الكثير من

---

(1) الاستبصار، ص109. قد يعترض بأن كتاب البكري شكل الأساس الذي استوحى منه كتاب الاستبصار. هذا صحيح ولكن المؤلف شاهد معاصر. انظر أدناه ص210، كما أن من الواضح أنه يحسِّن أحياناً البكري، انظر المقطع حول ورقلة، ص224. بينما البكري، ص77، 182/ 156، 340 صمت تقريباً حول هذا الموضوع، انظر كذلك للأقاليم التي تعنينا ذكر حملة قراقوش ضد طرابلس، ص110 ـ 111.

(*) أي البربر الذين تحولوا إلى رومانيين، وهي محاولة لتعريب كلمة «romanises». المترجم.

(2) البكري، ص5/ 14 ـ 15. سنلاحظ أن البكري لا يذكر وجود قبائل عربية في برقة. بالرغم من ذلك، كان يوجد جنود قدماء من أصول يمنية وحضرموتية كونوا فيها أسر وعشائر. انظر اليعقوبي، بلدان، ص343/ 202. وكانت قوات كثيرة معسكرة فيها في نهاية القرن العاشر، انظر حدود العالم، ص153.

(3) نزهة، ص130/ 155.

المسافرين يزورونها، ولا يمكن مقارنة مواردها بموارد أي مدينة مجاورة لها. وتجمع برقة بين التجارة البرية والتجارة البحرية فهي تصدر إلى الاسكندرية الصوف والعسل والزيت والتربة الطبية، وفيها العديد من المدابغ وتنتج المنطقة قطناً من نوعية عالية[1]. هذه بكل تأكيد ليست صورة منطقة مدمرة، إنها أبعد ما تكون عن الخراب الثابت برؤية العين في القرن[2] الثالث عشر. من جهة أخرى، لو كان الإقليم مخرباً ما كان صلاح الدين ليفكر في إرسال حملة، حوالى سنة 1173هـ، ضد برقة لمواجهة صعوباته المالية وهو ما أدى إلى المأساة التي سنتحدث عنها قريباً.

إن حالة أجدابيا الواقعة على مسافة ثلاثين كيلو متراً من الساحل كانت مشابهة ولكن هناك مشكلة بخصوص أسوارها. أجدابياً مدينة كبيرة بالنسبة للبكري، والمياه فيها وفيرة من آبار وعين وتعد القليل من البساتين والنخيل: والتمور فيها تأتي من أوجلة، والسكان أثرياء، وأسواقها مرتادة[3]. في زمن الإدريسي[4] لم تعد للمدينة، التي لا تشرب إلا من مياه الخزانات/ مواجل، أسوار ولم يبق فيها إلا حصنان في الصحراء. ولا ينمو على أرضها أي نوع من النباتات. وكانت المناطق التابعة لأجدابيا مسكونة من البربر[5]، أما سكان المدينة فقد كانوا متفرغين للتجارة.

كما نرى، لا يمكن الوصول إلى أي استنتاج مؤكد من هذين النصين القصيرين للغاية لسوء الحظ، اللذين كُتبا بفارق قرن من الزمان. وبعد وصول بني هلال بمائة عام، كان السكان مستمرين في الاعتماد على التجارة كمورد وحيد، وكان عليهم، تبعاً لذلك، استيراد المنتجات الزراعية. إن موضوع

---

(1) نفس المرجع، ص131/ 156.

(2) العبدري، ص147 ـ 149.

(3) مسالك، ص5/ 16 ـ 17، مأخوذاً عنه من ياقوت انظر (أجدابيا).

(4) نزهة، ص132/ 157.

(5) مخطوطة أخرى «من عرب وبربر»، انظر ص132.

الأسوار محير: لقد اختفت، يقول الإدريسي «كانت لها أسوار فيما سبق»، ومع ذلك لم يشر البكري للأسوار، وكذلك اليعقوبي ـ في القرن التاسع ـ والذي أشار إلى حصن/ «وفيها مدينة عليها حصن»[1]. ومهما يكن من أمر أسوار أجدابيا، فإننا نرى مرة أخرى ـ رأينا المثل في برقة ـ التناقض جلياً بين أوصاف القرن الثالث عشر بعد حملات قراقوش وعلي ابن غانية: لم تعد هناك إلا خرائب، ولم تعد فيها شجرة[2] واحدة قائمة.

لا نلاحظ، فيما يتعلق بالواحات الواقعة أبعد في الداخل، أي اختلاف بارز قد يقدم الدليل على أن بني هلال قاموا بأعمال تخريبية.

كانت أوجلة في القرن الحادي عشر، مدينة مأهولة بها بساتين نخيل وأشجار فواكه بأعداد كبيرة وكانت تصدر التمور إلى أجدابيا[3]. وبعد[4] ذلك بقرن تحقق أن العشب[5] في أوجله أكثر منه في سرت. وكان الماء نادراً في المنطقة أوجلة ـ برقة ولا تُشرب فيها إلا مياه الخزانات ـ مواجل. ويقول الإدريسي عن أوجلة: إن المدينة صغيرة ولكنها مأهولة، تقع في منطقة تنمو فيها أشجار النخيل والغلات[6] المملوكة لسكان أوجلة[7]. ويتعاطى هؤلاء تجارة نشطة لمواجهة احتياجاتهم واحتياجات العرب! ومن خلال أوجلة كان يتم الذهاب إلى السودان خاصة نحو كوار وكوكو ـ جاو، وكان الطريق المتوسط ـ السودان مستعملاً بشكل كثيف في الاتجاهين.

---

(1) بلدان، ص344/ 203.

(2) العبدري، ص160.

(3) البكري، ص12، 5/ 32، 17.

(4) الإدريسي، ص122، 132/ 144، 157.

(5) أحد المخطوطات تقول «عنب»، انظر ص122.

(6) غلات = حبوب أو خضر.

(7) من المعروف جيداً في الصحراء أن النخيل المحيط بالواحة قد يكون للبدو أو شبه البدو الذين يدفعون مقابل الصيانة التي يقوم بها المستقرون: وهذا هو الوضع في هون وودان ووادي الشاطىء ووادي الآجال. هل أراد الإدريسي أن يؤكد أن هذه المزروعات هي ملك سكان الواحة؟ وقد ترجم De Goeje «نخلهن وغلاتهن لأهلن» بمعنى «التمور لاستهلاك السكان».

كما نرى، لم تذكر فقط أي أعمال تخريب من جانب بني هلال، وإنما يبدو أن حضر أوجلة والعرب البدو يتعايشون في وفاق ويمكننا تخمين أن المنتجات الزراعية المقدمة من قبل الحضر للبدو كانت مدفوعة الثمن من قبل هؤلاء في شكل خدمات نقل، وحراسة قوافل ومنتجات رعي. من جهة أخرى، يبدو واضحاً أن استعمال الطريق شمال ـ جنوب سواء انطلاقاً من سنترية/سيوة[1] أو من برقة[2] لم يعان من الوجود العربي، وهكذا أمكن استمرار تدفق العبيد السودانيين إلى الصحراء الليبية وتزويد أسواق زويلة والمدن الساحلية بهم.

إن حالة ودان أكثر شداً للانتباه، كذلك. يرسم لها البكري صورة مدينة تشتمل على قلعة حصينة، ويتغذى سكانها، الذين من بينهم شعراء وعلماء شريعة، بالتمور بشكل أساسي ولا ينتجون إلا القليل من الحبوب ـ زرع[3]. وتتكون منطقة ودان، حسب الإدريسي، من واحات مزروعة بالنخيل[4]، وتتابع فيها مزارع النخيل والحقول دون انقطاع، وبها آبار كثيرة، وتنمو فيها الذرة البيضاء، وفي غرب المدينة توجد أشجار التوت والتين والنخيل بوفرة. والمدينة موصولة مع سرت في الشمال وزلة في الشرق، كما تؤدي طريق من ودان إلى بلاد السود[5].

كانت زلة في القرن الحادي عشر مدينة كبيرة، والنخل فيها بأعداد كثيرة ولكن مصدر الماء غير غزير[6] ويقدمها لنا الإدريسي في القرن الثاني عشر

---

(1) الإدريسي، ص45/ 52.

(2) نفس المصدر، ص132/ 157.

(3) المسالك، ص11/ 29 ـ 30.

(4) نزهة، ص37/ 43.

(5) نفس المصدر، ص41، 132 ـ 133/ 49، 158. من الممكن أن القبائل العربية المجاورة لبلاد ودان من القبائل التي يقوم بربر رهانة في جبل دمر بمفاجأتهم من بُعد وسرقة جمالهم، كما سبق وقلناه، انظر الإدريسي، ص123/ 144 ـ 145.

(6) البكري، ص12/ 30 ـ 31.

كمدينة صغيرة لها سوق مرتادة. وكانت زلة مربوطة بأوجلة، وسرت، وودان، وزويلة. وعن طريق زلة، كذلك، يتم الدخول إلى بلاد السود[1].

تعطي زويلة، الواحة الرئيسية في الصحراء الليبية، صورة مدينة ثرية في القرن الحادي عشر كما في القرن الثاني عشر، ولكن نص الإدريسي يحمل بعض التناقض[2]. يصف البكري زويلة كمدينة كبيرة تشتمل على أسواق عديدة وتشكل نقطة التقاء مهمة لطرق القوافل. وفي القرن الثاني عشر كانت مدينة صغيرة مزدهرة[3] وتشتمل على أسواق يحضر إليها التجار سلعهم الضرورية للسكان[4]. ويتم الوصول إليها من مصر عن طريق أوجلة ـ زلة[5]، ومن خليج سرت عبر ودان[6]، وعبر زويلة يتم الدخول إلى أغلب بلدان السودان[7]. ويذكر الحبر اليهودي بنجمان دي توديل Benjamin de Tudele، الذي قام برحلة في المتوسط والشرق الأوسط خلال الفترة 1165ف و1173ف ـ توفي سنة 1173ف ـ النحاس والحديد من بين المنتجات التي تعبر زويلة في اتجاه السودان حيث تتم مبادلتها بالذهب والأحجار الثمينة[8]. ويعبر العرب المنطقة في كل الاتجاهات ويزعجون السكان بقدر ما يستطيعون، والبلد في أيديهم[9]. ولكن هذا البلد الذي وصفه الإدريسي في هذه السطور، هو نفس البلاد «أوجلة ـ زلة ـ ودان ـ زويلة» المزدهر، المزروع بالنخيل والزراعات المروية، وهو منطقة ذات أسواق رائجة تتوافر فيها السلع الضرورية، ومعبورة بطرق تؤدي من مصر

(1) نزهة، ص41، 132/ 49، نقل عنه أبو الفدا، تقويم، ص128.
(2) مسالك، ص10/ 27 ـ 28.
(3) نزهة، ص38/ 44.
(4) نزهة، ص133/ 158.
(5) نفس المرجع، ص45، 132/ 52، 158.
(6) نفس المرجع، ص42، 132/ 49، 158.
(7) نفس المرجع، ص133/ 158.
(8) In Levtzion and Hopkins, corpus, p.135-136.
(9) نزهة، ص133/ 159.

الداخلية والبحر المتوسط إلى بلدان السود. كيف يمكن لبلد إذا أخذت واحاته منفصلة فهي ثرية في الحدود التي تسمح بها مصادرها الطبيعية والتجارة، ويكون البلد في مجمله خاضعاً لإزعاج البدو العرب؟ ولا ننسى أن الحضر في أوجلة كانوا ـ كما يبدو ـ يعيشون في وفاق كامل مع جيرانهم العرب. أو لا يمكن أن يكون الإدريسي، بصياغته هذا الانتقاد ضد العرب ـ وهو تكرار لملاحظة سبق لنا ذكرها[1] ـ يوسع إلى الصحراء المزارة الوضع الذي كان قد عرضه، ربما من باب الحرص على إعجاب أميره، عند تناوله المنطقة طرابلس ـ سرت؟ هل يمكن أن يتسق الحفاظ على مستوى معيشة مرتفع، واستمرار الزراعة والتجارة، والاستعمال المتواصل للطرق التجارية مع الغزوات وأعمال التخريب المستمرة؟ إذا قبلنا فكرة أن العرب كانوا يزعجون جيرانهم، فيجب عندها، لإزالة التناقض عند الإدريسي، أن نعمم كذلك إلى الصحراء الداخلية ملاحظة المؤلف التالية حول شمال إقليم برقة: إن هذا الإقليم مسكون بقبائل مزاتة وزيانة وفزارة وهي قبائل بربرية مستعربة، كانوا يركبون الخيل ويتسلحون برماح طويلة، ويمنعون العرب من وطء أراضيهم، إنهم محاربون أقوياء وفخورون شجعان[2].

من الواضح أن المقاومة البربرية العنيدة وحدها، بعد قرن من الوجود الهلالي، هي التي تستطيع شرح المحافظة على طرق الاتصالات واستمرار الزراعات في هذه الأقاليم.

لم يكن وادي الآجال ـ الذي يسميه البكري والإدريسي فزان والذي يجب أن يتضمن منطقة القطرون ـ قد وصله العرب بعد. إن المرة الوحيدة التي يذكر البكري فيها جرمة تتعلق بحملة عقبة التي سبق لنا تناولها[3]، ولم يقدم أي

---

(1) انظر عاليه، ص307. يحمل النص: يتكون هذا الصقع بشكل أساسي من بلدات معزولة، والأماكن المسكونة فيه قليلة، والسكان عرب ويتسببون في أضرار في المنطقة ويغيرون على جيرانهم (ص130/ 155).

(2) نزهة، ص 133/ 159.

(3) نزهة، ص13/ 33 ـ 34.

وصف للمنطقة. نلاحظ فقط أنه يسمى المدينة «جرمة، المدينة الكبيرة في فزان»[1] كما فعله ابن عبد الحكم[2] والذي منه يستوحي. في القرن الثاني عشر، يفيد الإدريسي أن قسماً كبيراً من فزان يتكون من صحار متصلة بدون سكان ونبات، والماء فيها نادر جداً. والبدو وحدهم يستطيعون العيش فيها[3]. ومدينتا فزان هما جرمة وتساوة التي يسميها السود «جرمة الصغيرة»[4]. ويمتلك سكانهما النخيل ويزرعون الذرة البيضاء والشعير. وجيرانهم إلى الغرب على مسافة اثني عشر يوماً هم الأزقار[5]، وهم قبيلة بربرية مكونة من رجال شجعان يعيشون في سلام مع من يسالمونهم، ويعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم. ومن إقليم الأزقار يمكن التوجه نحو غدامس في الشمال، ونحو شامة في الأيير جنوباً[6] ونحو منطقة بغامة[7] في إدرار الأفغاز في الجنوب الغربي[8].

لا يذكر الإدريسي الوجود العربي عند تناوله وادي الآجال ومناطق غات ـ غدامس، وغات ـ الهقار. هل كان هذا الوجود حذراً لدرجة يمكن معها تجاهله، أو أن البربر كانوا أقوياء بما يكفي لإبعاد العرب والمحافظة على السلام؟ إننا نميل أكثر للاختيار الثاني لأن كامل البلاد التي يتحدث عنها المؤلف ـ الطرف الغربي لفزان، الهقار ـ تاسيلي، وتاسيلي ـ غدامس ما زالت

(1) نفس المصدر، ص13/ 33. انظر أعلاه ص108.
(2) فتوح أفريقية، ص62 ـ 63.
(3) نزهة، ص32 ـ 33/ 39.
(4) حول تساوة، انظر أدناه ص482 ـ 483.
(5) يكتب الإدريسي خطأ «إلى الشرق». لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بطوارق غات ـ مدينة ذكرت للمرة الأولى من قبل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ـ واللذين يسمون أزقار أو أزكار = أجر. انظر Travels and Discoveries, H. Barth، ج1، ص198. وRecueil, J.M.Cuoq، ص153، رقم 3.
(6) J.M.Cuoq، المرجع المذكور، ص151 رقم1. شامة كانت واقعة على مسافة ستة عشر يوماً من كوكو. انظر الإدريسي، ص33 ـ 34/ 40.
(7) J.M.Cuoq المرجع المذكور، ص136 رقم 3 وص153 رقم 3. وسنتحدث عن هذه المناطق عند الحديث عن المسارات.
(8) الإدريسي، ص35 ـ 36/ 41 ـ 42.

حتى اليوم منطقة تنقل للطوارق وحدهم. سنلاحظ أيضاً أن منطقة غات تمثل ملتقى طرق مهمة لأنها يمكن أن تصل غدامس ـ انطلاقاً من طرابلس ومن جبل نفوسة[1]، ومن قابس[2] ومن الساحل الجزائري عبر ورقلة[3] ـ بالسودان خاصة كانم بورنو عبر تكدة في الآيير[4]، وهو الطريق الذي اتبعه جزئياً ابن بطوطة في القرن الرابع عشر، وبكوكو ـ جاو عبر تادمكة ـ السوق[5] وهو الطريق الذي يمكّن من الوصول إلى غانا بلاد الذهب[6]. وهذه منطقة أخرى احتفظت بطرقها سليمة نحو بلاد الذهب والعبيد بعد قرن من وصول بني هلال.

لا تناقض البيانات التي نقلها إلينا الجغرافيون حول غدامس ما قدمناه. فقد وصفها البكري كمدينة صغيرة حيث المياه والنخيل وفيرة[7]. ويكتفي الإدريسي ـ كما قلنا ـ بالقول إنها تقع على مسافة ثمانية عشر يوماً من أزقار. ولم يشر أبو حامد من قريب أو بعيد إلى العرب[8] عندما تحدث عن غدامس في كتابه الذي ألفه سنة 1162ف. ويكتب مؤلف كتاب الاستبصار ـ الذي كان البكري مصدره الرئيسي ولكنه في حالة هذه الواحة أضاف معلومات شخصية ـ أن غدامس مدينة كبيرة وعبرها يمكن الذهاب إلى تادمكة ومدن السودان الأخرى[9]. في القرن الثالث عشر لم تكن المدينة الواقعة على الطريق الكبيرة

(1) البكري، ص182/ 340. الإدريسي، ص122/ 144. الاستبصار، ص110، 146.

(2) المهلبي، في أبي الفدا، ص142 ـ 143.

(3) الاستبصار، ص224.

(4) ابن بطوطة، ج4، ص436 ـ 437.

(5) البكري، ص182 ـ 193/ 340، 342. والاستبصار، ص146، 225. والحميري، انظر (غدامس) الذي ينقل عن البكري والاستبصار. والمقريزي، في العمري، ص87.

(6) البكري، ص179، 181 ـ 182/ 335، 338، 340. الإدريسي، ص12/ 14 نقل عنه أبو الفدا، ص156 ـ 157. والزهري، ص170، 181 ـ 182. والاستبصار، ص223. والحميري. انظر (تادمكه) الذي يأخذ عن البكري والاستبصار. والمقريزي في العمري، ص87.

(7) مسالك، ص182/ 340.

(8) تحفة، ص42/ 246.

(9) الاستبصار، ص145 ـ 146.

الموصلة إلى كانم قد تأثرت[1] بعد. صحيح أن منطقة درج ـ غدامس لم تعان من أعمال السلب والنهب من قبل بني غانية لأن الموحدين كانوا يدافعون[2] عنها.

توضح هذه الملاحظات القليلة حول الصحراء الليبية في القرن الحادي عشر والثاني عشر بجلاء أن الوضع لم يتغير[3] إلا قليلاً بعد مضي قرن من وجود بني هلال. لقد تدهورت منطقة سرت، ولكن حال العرب الذين كانوا يتنقلون فيها لا يحسدون عليه لأنهم كانوا منهكين من قبل رهانة وهم بربر من جبل دمر. وقد عانى عرب شمال إقليم برقة نفس الضغط وطُردوا من قبل مزاتة وزناتة وفزارة. وشهدت برقة تردداً أقل على أسواقها مما كان عليه الوضع قبل قرن ولكنها كانت مدينة ذات موارد مهمة وكانت تستطيع تصدير العديد من المنتجات. وكانت أجدابيا وأوجلة وودان مدناً ثرية ركزت على التجارة. وكما يوضحه مثال أوجلة، كانت هذه المدن تعيش في تآلف مع العرب، وكانت أغلب هذه المقاطعات مغطاة بالنخيل. وكانت زويلة ثرية في القرن الثاني عشر بنفس القدر من الثراء الذي كانت عليه في القرن الحادي عشر. وكان وادي الآجال ـ وهو بلد زراعي ـ هادئاً. وعاشت مناطق غات وغدامس في سلام[4]. وبقيت طرق الاتصالات انطلاقاً من مصر وشمال أفريقيا في اتجاه السودان

---

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص61.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2 ص102. انظر كذلك A.BEL في Les Benou Ghanya، ص165.

(3) من المؤسف أن الصحراء الجزائرية والتونسية لم تدرس بعد من هذه الزاوية. فقط المناطق الشمالية حيث دارت المعارك كانت موضوع ملاحظات من جانب المؤرخين، وهي ملاحظات ليست ـ بالتأكيد ـ لصالح الواصلين الجدد.

(4) تدين هذه الواحات الليبية بأمنها إلى شجاعة المحاربين البربر، بكل تأكيد، ولكن من المحتمل أن تكون كذلك مدافعاً عنها من قبل العبيد الذين كانوا يعيشون فيها. مؤلفو القرون الوسطى لا يتحدثون عن هذه المشاركة للعبيد في المعارك ولكننا نقدر أن السبب في أنهم يعتبرون هذا أمراً طبيعياً وتحصيل حاصل. فعلاً ليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد أن العبيد في القرون الوسطى لم يكونوا يدافعون عن أمنهم كما كانوا يفعلون في القرن التاسع عشر كما يشهد بذلك ما قاله المستكشفون. انظر A.G.B Fisher and H.J. Fisher في Slavery، ص131 ـ 133.

مروراً بالواحات الليبية سليمة: وهكذا كان يمكن للحديد والنحاس والملح والمنتجات المصنوعة في الشمال، والذهب والأحجار الكريمة والعبيد من الجنوب استمرار عبور الصحراء الليبية الغربية أو الوسطى.

كانت الطرق التجارية والبريدية مصر ـ المغرب عبر الصحراء السرتية لا تزال مستعملة في القرن الثاني عشر كما أثبته الإدريسي ومؤلفو رسائل الجنيزا[1]. ربما كانت ظروف التجار الأفريقيين شاقة أثناء «الحرب الأهلية». فقد أرغم أحدهم، وهو يهودي، على ترك المهدية وذهب للاستقرار في صقلية[2]، ونهبت متاجر وفندق في سوسة[3]. ولكن هذا لم يكن ليمنع التجارة.

يبدو أن الأسفار كانت تتم بالبحر في كل مرة كان فيها ذلك ممكناً، وتتم في مجموعات تحرسها سفن حربية من أجل الدفاع ضد القراصنة. كانت الباخرة تستطيع أن تنقل حتى خمسمائة مسافر. حسب رسائل الجنيزا يقدر S.D. Goitein نسبة الأسفار بالبحر إلى الأسفار بالبر في النصف الأول من القرن الحادي عشر بـ20/ 1، و50/ 1 في النصف الثاني[4]. ويذكر مثلاً مُبالغاً فيه يعود إلى القرن الثاني عشر: في سنة 1140ف نُصح يهودي إيطالي كان موجوداً في طرابلس لأعمال تجارية، وكان يرغب في الذهاب إلى قابس ـ مسيرة قافلة لمدة اثني عشر يوماً ـ من قبل أصدقائه بركوب الباخرة التي تحمله في ثمانية أيام إلى

---

(1) نـزهـة، ص105 ـ 106، 108، 122، 132، 134 ـ 137/ 123 ـ 124، 126، 143، 160 ـ 164. وS.D. Goitein، Unity، ص37، نفس المؤلف، Lettres، ص151.

(2) Letters, S.D. Goitein، ص139.

(3) نفس المرجع، ص155. من المحتمل أن هذا هو السبب الذي جعل بعض التجار اليهود الأفريقيين يهاجرون إلى مصر، ص161، رقم 15.

(4) عندما قام ابن جبير بالحج إلى مكة، غادر غرناطة في فبراير 1183ف، وركب البحر في سبتة على سفينة من جنوا كانت تربط الاسكندرية بسردينيا، وصقلية، وكريت. وفي العودة، أكتوبر 1184ف غادر عكا أيضاً على سفينة تابعة لجنوا أوصلته، عبر صقلية إلى إسبانيا، انظر رحلة، ص28 ـ 31 و239 ـ 267.

إشبيلية ومن هناك يمكنه أن يأخذ سفينة إلى المهدية، وسافر الرجل أخيراً بواسطة قافلة. كان التنقل في البحر ـ وبكل وضوح ـ يستغرق زمناً أقل بكثير وأقل إرهاقاً من الأسفار في البر. وهذا يفسر تفضيلها بشكل عام. ابتداء من القرن الحادي عشر ـ خاصة ـ دفعت الفوضى الزيرية، ثم الوجود الهلالي إلى العمل على تحاشي المناطق التي كانت تنتشر فيها القلاقل والاضطرابات خاصة على طريق طرابلس ـ قابس. بالرغم من ذلك لم تكن هذه الطريق مقطوعة كما توضحه رسالة اليهودي الإيطالي المذكورة أعلاه. وفيما يتعلق بالأسفار التي كان يقوم بها اليهود، يلاحظ S.D. Goitien أن هؤلاء كانوا يتوقفون أيام السبت وأيام الأعياد الدينية، فمع القوافل على المسافات الطويلة كان عليهم أن يتجاوزوا القافلة ويسبقوها أو أن يتأخروا عنها للاحتفال بالسبت وهو ما كان يتطلب حراسة خاصة ويستلزم مصاريف إضافية. وكان بعض اليهود الموسرين يتوصلون لوضع ترتيبات لتستريح القافلة بكاملها يوم السبت[1]. وعليه لم يكن لتفضيل الأسفار البحرية إلا علاقة محدودة باحتمال انعدام الأمن على طرق الصحراء السرتية، وهو ما لم يتحدث[2] عنه أي مؤلف. ومن جهة أخرى كان تنظيم التجارة يتم بحيث كانت القوافل ـ في فترات معينة ـ تستلم من القوافل البحرية. كان هذا هو الحال في الشتاء عندما تجعل حالة البحر الإبحار خطراً. خلال هذا الفصل، كانت تقوم قوافل كبيرة ـ قد يصل عددها إلى ثلاثة ـ محملة بمنتجات السودان بالرحلة من سجلماسة ـ القيروان ـ طرابلس ـ سرت ـ برقة ـ مصر. كانت قوافل الصيف تغادر مصر في شهر مايو. وكانت القوافل تمتاز على النقل البحري بأنها تمكن من المتاجرة مع المدن الشاطئية التي يتم المرور بها،

---

(1) Unity, S.D. Giotein، ص35 ـ 36، 39.

(2) إن انعدام الأمن على الطرق ذكر قبل الحضور الهلالي، في النصف الأول من القرن الحادي عشر ومباشرة بعد الفترة التي كانت فيها طرابلس الغرب موضوع تنافس بين الفاطميين والزيريين، ثبت الخليفة الفاطمي خليفة من بني خزرون في منصبه، وكلفه بشكل عاجل بالحرص على أمن الطرق، وتزويد القوافل بحراسات. انظر أعلاه ص246.

وهذا ما يفسر استغراقها لثلاثة أشهر من مصر إلى القيروان حيث يكون وصول التجار مناسبة لمعرض يستمر لمدة عشرين[1] يوماً.

إذا كان من المفضل نقل المسافرين والسلع بالبواخر، فقد كان نقل البريد، بالمقابل ـ يتم عادة بطريق البر ـ وكانت للبريد خدمة رسمية، وخدمة أهلية.

كان البريد، وريث النظام الساساني، يمثل المصلحة الرسمية «البريد والأخبار» ويشكل وكالة للاستعلامات وهو السبب الذي من أجله تسند إدارته لموظف سام محل ثقة. لأجل هذه المصلحة كتب ابن خرداذبه ـ كتاب المسالك والممالك ـ وقدامة بن جعفر ـ كتاب الخراج ـ لإعطاء بيانات للمصلحة المركزية وسعاة البريد عن المحطات والمسافات التي تفصلها. كان على موظفي البريد أن يخبروا وزاراتهم عن حالة الطرق والآبار، وكذلك عن أسلوب أداء العاملين في المحطات لأعمالهم، كما كان يجب عليهم إعداد تقارير حول الوضع السياسي والاقتصادي لولايات الامبراطورية، وحتى عن مواقف الولاة وأنشطتهم كجباة للضريبة[2]. وعليه كان البريد مصلحة حكومية وليس مجرد إدارة بسيطة. وبينما قد يكون البويهيون قاموا بقطع البريد لحرمان الخليفة من أي معلومات وأن السلاجقة قد ألغوه سنة 1063ف[3]، فقد استمر، بالمقابل ديوان البريد ومصلحة المعلومات الفاطمية ـ الزيرية في العمل وارتبطت ارتباطاً وثيقاً الواحدة بالأخرى لدرجة أن مهمة موظف البريد اختلطت تقريباً مع صاحب الأخبار[4].

---

(1) Unity, S.D. Goitein، ص37. نفس المؤلف، Lettres .، ص151. كانت مثل هذه القافلة الكبيرة تسمى موسم، والجمع مواسم. نفس الكلمة تعني موسم الحج إلى مكة، أو فصل معرض، أو الجمهور الذي يتدفق على هذا المعرض، وفصل الرياح الملائمة للإبحار خاصة نحو الهند (من هنا الكلمة الفرنسيةMousson).

(2) قدامة، ص184 ـ 185/ 144 ـ 145. انظر كذلك G. Sourdel موسوعة الإسلام، انظر (بريد).

(3) لن يعاد تنظيم البريد إلا في عهد المملوك بيبرس في بداية القرن الرابع عشر. انظر G. Sourdel، المرجع السابق، ص 1077 b.

(4) هـ. ر. إدريس، Zirides، ج1، ص253 وج2، ص526 ـ 529. بالنسبة للمراسلة السرية القصيرة كان الزيريون يستعملون الحمام الزاجل غالباً. تراجعت الخدمات البريدية الأفريقية في القرن الرابع عشر. ولم يعد النظام يحتوي على محطات ثابتة وركوبات تتبع الدولة. كان ساعي=

كان ساعي البريد ـ المسمى فيج، وجمعه فيوج في شمال أفريقيا[1] ـ وهو نفس الشخص دائماً، يجد من القيروان ـ وحتى إسبانيا ـ إلى القاهرة (مراكز البريد) حيث يستطيع تغيير مركوبه[2]. وكانت هناك ثلاث[3] وعشرون أو سبع[4] وعشرون محطة بين الفسطاط وبرقة عن طريق الساحل، واثنتي عشرة عن طريق الصحراء[5] أو ثماني عشرة عندما يسلك الساحل بعد عبور جزئي لصحراء مرمريكا[6]. وكانت هناك اثنتان وعشرون[7] أو واحدة وعشرون[8] أو ست عشرة[9] محطة من برقة إلى طرابلس، وتسعة[10] من طرابلس إلى القيروان. وكانت أربعون إلى ستين مرحلة تفصل القاهرة عن القيروان: 2750 كيلو متراً عن طريق الساحل عبر الاسكندرية، و2650 كيلو متراً باتباع الطريق المباشر القاهرة ـ طبرق، وهو ما كان يتطلب متوسطاً يومياً من 45 إلى 66 كيلو متراً وهو أكثر مما تستطيع أن تقطعه قافلة تجارية[11]، عادة.

= البريد يوفر ركوبته. وستكون الرحلات من الآن فصاعداً على ظهور البغال بدل الجمال. انظر Hafsides, R. Brunschvig، ص65. و H. Djait، La Wilaya (2)، ص87 ورقم 3.

(1) في الشرق يسمى ساعي البريد كتبي = حامل مكاتيب أو فرانق = دليل. الكلمة الحديثة «ساع» وجمعها «سعاة» لم تظهر إلا أيام البويهيين. انظر Unity, S.D. Giotein، ص38 و D. Sourdel، المرجع المذكور.

(2) حول عدد وقائمة المحطات على الطرق الفسطاط ـ برقه (مباشرة عبر الصحراء، وعن طريق الساحل عبر الاسكندرية)، وبرقة ـ طرابلس، وطرابلس ـ القيروان، انظر خرداذبه، ص84 ـ 87/ 61 ـ 62 ـ نشر الحاج صدوق، ص2 ـ 7. وقدامة ص221 ـ 225/ 167 ـ 170. واليعقوبي، بلدان، ص342 ـ 347/ 200 ـ 208.

(3) قدامة.

(4) ابن خرداذبه.

(5) قدامة.

(6) اليعقوبي.

(7) قدامة.

(8) ابن خرداذبه.

(9) اليعقوبي.

(10) المؤلفون الثلاثة متفقون حول هذه النقطة.

(11) البريد = المسافة بين مركزي بريد تقدر عادة بأربع فراسخ (الفرسخ = ساعة سير حصان وهو ما يعني ثلاثة أميال، الميل = ± 2كم) أي 24 كيلو متراً، انظر Tableau Geographique, R. Mauny، =

من تحصيل الحاصل، أن مصلحة رسمية بهذه الأهمية البالغة لإدارة شؤون البلاد، وبهذه الدرجة من السرية لا يمكن تحميلها بالبريد الخاص كذلك. كان البريد الأهلي ـ وهو بالغ الأهمية للتجارة والاتصالات العائلية والودية ـ يمثل أحد العوامل للمحافظة على الوحدة المتوسطية الإسبانية ـ الأفريقية ـ الشرق أوسطية. ونعرف بواسطة رسائل الجنيزا أن البريد الأهلي كان منظماً وفق أسلوب البريد الرسمي. كان سعاة البريد الأهليون يتمتعون بركوبات بديلة ومحطات. وكان ساعي البريد نفسه يحمل رسائل الباعث إلى الموجهة إليه، ولدينا أمثلة لمراسلات مرسلة من العامرية بالاسكندرية. نجهل ـ لسوء الحظ ـ ما إذا كانت محطات البريد الرسمي والبريد الأهلي تقع في نفس الأماكن، وبإمكاننا أن نقدر أن الحال كان هكذا في الصحراء السرتية مأخوذاً في الاعتبار العدد القليل للقرى. كان هذا البريد قليل التكاليف. يمكن أن يصل حتى العراق أو حتى الهند بواسطة النيل ومدينة قوص وموانىء عيذاب وعدن[1].

كانت الواحات الليبية تعيش من زراعاتها ومن التجارة مع السودان. وكانت التجارة الأفريقية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميسرة بنظام الائتمان المصرفي[2]. كانت القوافل تجوب شمال أفريقيا والصحراء السرتية انطلاقاً من

= ص411. في إيران البريد لا يساوي إلا فرسخين = 12 كيلو متراً. انظر D. Sourdel، موسوعة الإسلام، انظر (بريد). من الطبيعي أن البريد كان يتغير مع صعوبة الأرض. المسافة القاهرة ـ القيروان تمثل سطحاً نادراً ما تكون فيه صعوبات طوبرغرافية، بالإضافة إلى أن إقليم برقة والصحراء السرتيه فقيرين في نقاط المياه، وهذا يفسر المتوسط المرتفع الذي تذكره كتابات الجغرافيين العرب.

(1) Unity, S.D. Goitein، ص38. نفس المؤلف Letters، ص23، ص201 ـ 206. (تاجر يهودي أفريقي في طريق عودته من الهند نزل في عدن، يكتب إلى أسرته في المهدية) ص232 ـ 239 (تاجر يهودي أفريقي مستقر بالاسكندرية يكتب إلى الميريا بخصوص حمولة نسيج أرجواني) ص 244 ـ 248 (تاجر يهودي إيراني يكتب من الاسكندرية إلى إسبانيا بخصوص حمولة من الحرير الهندي).

(2) م. طالبي Operations bancaires en Ifriqya، ص420 ـ 435.

سجلماسة نحو المشرق، ومن القاهرة نحو الغرب. وكان البريد الرسمي والأهلي مستمرين في العمل، وعليه لا بد أن تكون مراكز البريد مصانة والأمن فيها مستتباً. وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحميل «غزو» بني هلال مسؤولية تدهور القرى والبلدات، والبؤس في الصحراء السرتية، وانحطاط برقة الذي تحقق منه العبدري في نهاية القرن الثالث عشر، والتجاني في بداية القرن الرابع عشر. لقد كانت معاناة الشاطىء الليبي من وجود بني هلال أقل بكثير مما عاناه من الصراعات بين زعمائه الصغار والأمراء الزيريين.

مع ذلك، بينما كان الشاطىء هادئاً آمناً، وواحات الصحراء مزدهرة مطمئنة تتعاطى التجارة بهدوء على مسافات بعيدة تعود بالربح على العالم البربري العربي دون غيره، كان يُمهد لتخريب البلاد في نفس الوقت من وراء حدودها الشرقية ومن بعيد عنها في البحر المتوسط. ستتوقف فزان ومنطقة ودان عما قريب عن الدوران في مجال البحر المتوسط، ويقذف بهما في العالم السوداني، بسبب توافق مصائب تمثلت في قراقوش ورغبة أيوبية في التوسع، ومحاولة بني غانية إعادة المرابطين إلى الحكم.

ثلاثة أرباع قرن مع بني غانية، وقراقوش

في منتصف القرن الحادي عشر ـ في نفس زمن وصول بني هلال من الشرق ـ ظهرت في شمال أفريقيا حركة بدوية أخرى. بربرية هذه المرة. وبعكس بني هلال الذين لم يكونوا إلا أدوات، أسس المرابطون قوتهم في المنطقة على الدين، وكانت في البداية محصورة في المغرب الأقصى وإسبانيا. تمكن المرابطون، بتحريض رؤسائهم، من تكوين وحدة بربرية، ولكن بعضهم، الذين رفضوا فيما بعد الخضوع للغزو الموحدي، أتوا إلى أفريقية ونشروا الخراب أينما حلوا. لنستعرض بسرعة المراحل الأساسية لعملهم.

نشأت حركة المرابطين عند جدالة[1] وجيرانهم لمتونة[2] وهي قبائل من

(1) حسب كتاب الاستبصار. ص217 كانت جدولة تسكن البلاد الإسلامية الأقرب إلى السودان. كانت جدولة، ولمتونة ومسوفة، وكلهم. ملثمون يشكلون سكان منطقة كاكدم القريبة من بلاد السود «انظر اليعقوبي، انظر (كاكدم). وأيضاً، G.S. Colin موسوعة الإسلام Djudala.

(2) كونت لمتونة من قبل مملكة مهمة في عهد عبد الرحمن الأول مؤسس الإمارة الأموية في قرطبة (756ف ـ 788ف). تحولوا إلى الإسلام في القرن التاسع وجاهدوا ضد جيرانهم السود. بعد ذلك، انفجرت فتن خطيرة في التجمع لدرجة أن كل قبيلة كانت تعترف بسلطة رئيس مختلف. كانت قطعانهم تمثل الثروة الوحيدة لهؤلاء النساك، انظر البكري ص164/ 310. وابن خلدون، البربر، ج2، ص65 ـ 67. وفق H.Duveyrier، قد يكون الالمتن وهي قبيلة واقعة غرب تينبكتو أصلها من لمتونة. انظر Les Touareq de Nord، ص321. يسمى سكان توات طوارق =

البربر الملثمين من ادرار موريتانيا. سنة 440هـ/ 9 ـ 1048ف، مر رئيس تجمع الملثمين، يحيى بن إبراهيم الجدالي، في طريق عودته من الحج بمدينة القيروان. وهناك أخذ بدروس الفقه التي كان العلماء يعطونها. ولما عبر عن أسفه لأن مثل هذه الدروس ليست متاحة في الصحراء، نصحه الفقهاء أن يصحب أحدهم، عبد الله بن يسين، وهو رجل صالح نشيط. وقد اختارت القبائل رئيساً سياسياً للملثمين، أبا بكر بن عمر رئيس لمتونة. لم تكن مالكية عبد الله بن يسين الصارمة، والنظام الذي كان يسعى لتطبيقه عن طريق العقوبات الجسدية، وحياة الزهد والتقشف في الرباط ـ من هنا جاء تسمية المحاربين، المرابطون ـ لتروق للجميع[1]. لم يمنع هذا الرؤساء من جمع ثلاثين ألف رجل، والاستيلاء على أودغست سنة 1054ف، وعلى سجلماسة من أيدي مغراوة سنة 1055ف[2]. وهكذا، من ناقلين، أصبح الملثمون سادة التجارة العابرة للصحراء. وجه الملثمون ضرباتهم، سنة 1059ف ضد برغواتة الملحدين[3]، الذين لم يقهر مذهبهم إلا بعد صراع مرير؛ وكان مقتل عبد الله ابن يسين في إحدى هذه المعارك. من المحتمل أن التعطش للغزو، والطمع في

= المتين. انظر A. Berthelot، L'Afrique Saharienne، ص99. في الصحراء الليبية الغربية وحسب معلوماتنا من عين المكان لا يزال يوجد لمتونة في البركت وهي واحة واقعة جنوب غات. وهم لا يرتبطون بطوارق أجر وبالهقار. انظر كذلك T. Lewicki، موسوعة الإسلام، انظر Lamtunahgdur,fd). حول رؤساء لمتونة وجدالة، انظر ابن أبي زرع، في Recueil, J. M. Cuoq ص230 ـ 231، وص333 ـ 334. ابن خلدون، البربر، ج2، ص65 ـ 66. والقلقشندي، ص189.

(1) إننا لا نستطيع أن نتحدث حقيقة عن عقيدة مرابطية. يتعلق الأمر بسلفيه مطلقة. إن عقوبات جسدية كانت مقررة حتى بالنسبة لعدم أداء الصلاة. انظر البكري، ص169 ـ 170/ 319 ـ 320.

(2) البكري، ص164 ـ 170/ 311 ـ 321. والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، في Corpus, Levtzion Hopkins، ص313 ـ 314. وابن خلدون، البربر، ج2، ص64 ـ 72.

(3) حسب ابن خلدون، برغواتة كانت تسكن الضفف الغربية للمغرب، انظر البربر، ج2، ص125، حول تحريف الإسلام من قبل «النبي» صالح، انظر البكري، ص134 ـ 141/ 259 ـ 271، ملخصاً عند A. Bel، La Religion، ص170 ـ 175. انظر كذلك R. Le Tourneau، موسوعة الإسلام، برغواتة.

الغنائم لعبا دوراً مساوياً في أهميته للرغبة في إعادة الدين إلى السلفية الصارمة. وقد انفجرت فتن وانشقاقات في الصحراء، فعاد إليها أبو بكر بن عمر سنة 1061ف وقاد الحرب ضد الكفرة في بلاد السودان، تاركاً إدارة الأقاليم الشمالية لأحد أبناء عمومته، يوسف بن تاشفين اللمتوني[1]. وقد قتل أبو بكر في السودان في نوفمبر سنة 1087ف.

أعلن يوسف بن تاشفين تبعيته لبغداد، وصار الرئيس الحقيقي للحركة المرابطية. وكصحراوي حقيقي، استمر حتى وفاته يأكل ويلبس كرجال الصحراء. وقد عف عن ملذات الدنيا، فاجتذب إليه أعداداً متزايدة من المحاربين. ومن مراكش ـ التي تأسست سنة 1062ف ـ شرع في غزو شمال المغرب ـ أُخذت فاس سنة 1069ف ـ ثم استولى على تلمسان ووهران في الشرق. وبالرغم من نجاحاته الهائلة ـ سقطت مدينة الجزائر بين يديه سنة 1082ف ـ لم يقم بمهاجمة البربر الشرقيين ورجع إلى مراكش حيث كان يدير امبراطوريته بعد تخليصها من البدع التي كانت قد كثرت في أفريقيا الشمالية الغربية. بالرغم من ذلك، اضطرته حوادث خارج أراضيه للتدخل.

لم يتمكن الخليفة الأموي في إسبانيا من وضع حد للفوضى. كان ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف يقتسمون البلاد. واغتنم المسيحيون هذه الانقسامات وشرعوا في استعادة البلاد. وتمكن الملك الفونس السادس، الذي كان مسيطراً على إسبانيا الوسطى والغربية من فرض أتاوات على الطوائف في الشرق والجنوب. عندها استنجد ملوك الطوائف برئيس الحركة الدينية الذي كان أول من أخضع المغرب بكامله. وعبر يوسف بن تاشفين وبربره الملثمون إلى إسبانيا مسبوقين بشهرة كونهم محاربين خطرين. في نوفمبر سنة 1086ف هُزمت قوات الفونس السادس وأصبحت إسبانيا المسلمة تابعة لبلاد البربر (بربريا) الغربية. وعندما مات يوسف بن تاشفين عن عمر يناهز المائة سنة

---

(1) حول الرجل ومؤلفاته، انظر ابن خلكان، ج4، ص448 ـ 470.

1106ف، ترك لابنه علي، بالإضافة إلى ممتلكاته الشمال أفريقية، أكثر من نصف شبه الجزيرة الأيبيرية. كان الجزء الجنوبي حتى خط شرق ـ غرب ممتد من سنتارم حتى طلطيلة غير مشمولة، ثم ينحني نحو الشمال حتى سراقوسة، في أيدي المرابطين وكذلك جزر مايورقا، ومينوركا وابيزا.

بالرغم مما تقدم، برزت هشاشة قوة المرابطين. كان علي زاهداً مهوساً، وأصبح لعبة بين أيدي فقهاء متحجرين ومنافقين، واهتم بالتردد على النساك أكثر من قيامه على مصلحة شعبه وقوة جيشه مكتفياً باستلام عوائد الضرائب. وعند وفاته سنة 1143ف كان المسلمون يتقهقرون أمام المسيحيين في كل مكان. وعرفت إسبانيا نفس الوضع المأساوي الذي كانت قد عرفته قبل سبعين سنة. ومثلما فعله من قبلهم ملوك الطوائف مع المرابطين، استنجد رؤساء متمردون بالقوة التي كانت قد أسقطت مراكش (1147ف)، وهزت حينها المغرب: قوة الموحدين[1].

دُعي الموحدون، حتى قبل سيطرتهم على المغرب، إلى إسبانيا من قبل الأمراء الذين كانوا في حالة تمرد مفتوح ضد المرابطين. لم يشأ عبد المؤمن أن يوزع جهوده، ولا أن يكرس اهتمامه إلا بالجبهة الأفريقية واكتفى بإرسال بعض القوات الرمزية إلى إسبانيا واستعاد غرناطة سنة 1162ف، ثم رجع إلى المغرب لتنظيم الإمدادات، حيث توفى سنة 1163ف. استبعد عبد المؤمن، في هذه

---

(1) ابن حزم، ص320 ـ 321، 334 ـ 339. ابن أبي زرع في Recueil, J.M. Cuoq، ص229 ـ 239، وفي القلقشندي ـ انظر ص188 ـ 190. وابن خلكان ج3، ص189 ـ 191، ج4، ص448 ـ 470. وابن الخطيب، ص142 ـ 156. والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية في Levtzion and Corpus, Hopkins، ص314 ـ 316. وروض القرطاس، ص190 ـ 238. وابن خلدون، البربر، ج2، ص73 ـ 86. انظر كذلك H.T.Norris The berbers in Arabic Literature، ص105 ـ 156. وCh. A. Julien, Histoire de L'Afrique du Nord، ج2، ص76 ـ 92. وHistoire de L'Afrique, Cornevin، ج1، ص321 ـ 322. وH. Laoust, Le Schismes dans L'Islam، ص213 ـ 217. وA. Bel، La Religion Musulmane en Berberie، ص223 ـ 225. وF.M. Pareja, Islamologie، ص158 ـ 161. وA.Abel، Spain: Internal Division، ص218 ـ 222. وE. Levi Provencal، موسوعة الإسلام، انظر (الأندلس)، ص510.

الأثناء، ابنه أبا عبد الله محمد من الوراثة، وأخذ مقاليد الامبراطورية أحد أبنائه الآخرين، أبو يعقوب يوسف (1163ف ـ 1184ف)، الذي استطاع بفيالق بربرية وعربية، رياح في أغلبهم، كسب الحرب في إسبانيا. وقد سهلت من مهمته خيانات بين الأمراء الذين كانوا يعارضونه، وفي سنة 1172ف أصبحت إسبانيا المسلمة موحدية[1]. ومع ذلك بقي جيب للمرابطين في جزر الباليار تحركه أسرة بني غانية.

كان يوسف بن تاشفين قد زوج إحدى بنات عمه، وهي أميرة مرابطية تسمى غانية، لأحد مساعديه، علي بن يوسف المسوفي[2]. وقد أنجب علي وغانية ولدين يحيى ومحمد. في سنة 520هـ/ 1126ف عين علي بن يوسف بن تاشفين يحيى حاكماً لقرطبة وإسبانيا الغربية، ومحمد حاكماً لجزر الباليار. وقد هُزم يحيى بن غانية من قبل المسيحيين فتعامل مع الموحدين وخضع لهم. كان استقلال محمد في الباليار ينمو كلما كانت تتقلص سلطة المرابطين على القارة. وعندما انهارت الامبراطورية المرابطية مع سقوط مراكش سنة 1147ف، توجه المرابطون الرافضون للاستسلام للموحدين نحو الباليار التي كانت قد أصبحت مستقلة استقلالاً كاملاً، وأحضروا إليها ثرواتهم.

كان لمحمد ولدان، عبد الله الذي سماه لخلافته مؤسساً ـ هكذا ـ أسرة

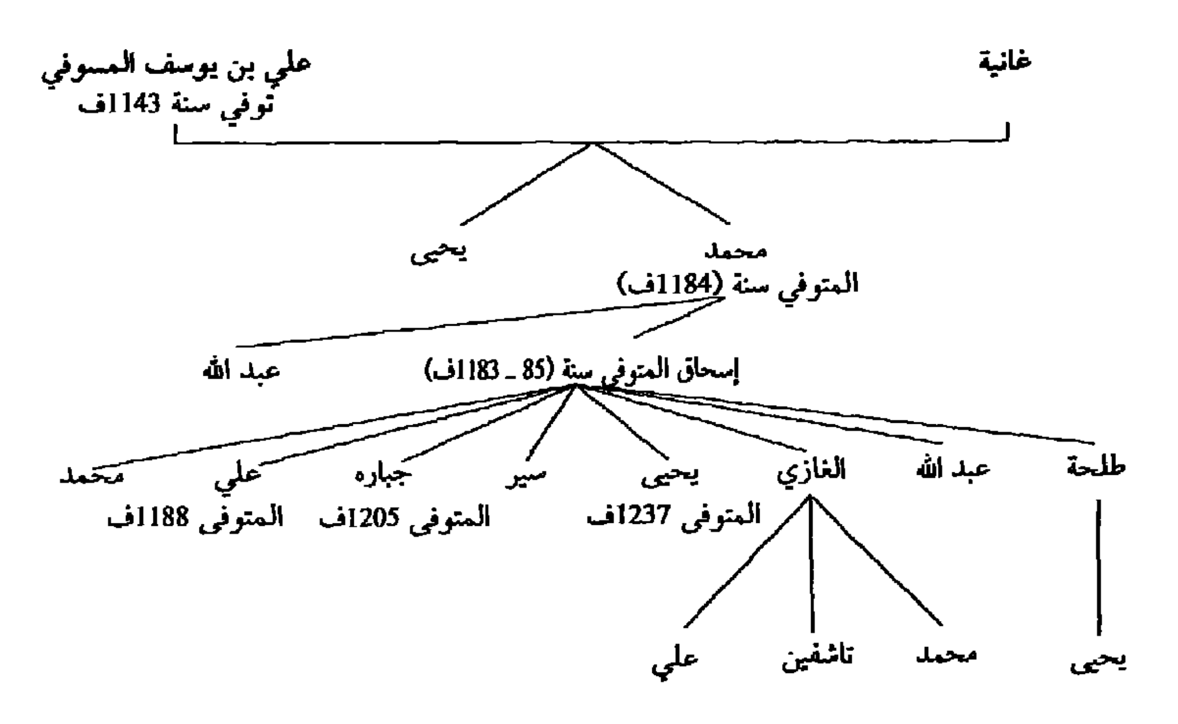
---

(1) الزهري، ص109 ـ 112. ابن الأثير، ج9، ص119 ـ 120، وملحق 5 لابن خلدون، البربر، ج2، ص573 ـ 593. وابن خلكان، ج2، ص182 ـ 186، وج3، ص205 ـ 217، وج4، ص97، 101 ـ 102، 470 ـ 479. وابن الخطيب، ص159 ـ 161. وابن خلدون، البربر، ج2، ص161 ـ 203. والزركشي، ص3 ـ 14/ 1 ـ 16. انظر كذلك The Berbers, H.T. Norris، ص157 ـ 183. وCh.A.Julien، ج2، ص92 ـ 112. وHistoire de L'Afrique, R. Cornevin، ج1، ص326 ـ 330. وLes Schismes, H. Lhoust، ص217 ـ 222. وLa Religion, A.Bel، ص233 ـ 265. وISlamologie, F.M.Pareja، ص162 ـ 164. وF.k. Hopkins موسوعة الإسلام، انظر (تومرت). وE. Levi Provencal، موسوعة الإسلام، انظر (عبد المؤمن بن علي).

(2) لا يجب الخلط بين علي بن يوسف المسوفي مع سميه ولد يوسف بن تاشفين علي بن يوسف ابن تاشفين اللمتوني.

بني غانية، وإسحاق. في سنة 1148ف، خلف عبد الله أباه، وورث إسحاق السلطة[1] عند وفاة عبد الله سنة 53 ـ 1152ف أو سنة 6 ـ 1155ف. وقد مات إسحاق في المعركة ضد المسيحيين سنة 579هـ أو 580هـ/ 85 ـ 1183ف تاركاً عدداً من الأولاد[2] منهم محمد، وعبد الله، وعلي ويحيى. خلف محمد أباه، ولكن أشقاءه[3] سلبوه السلطة لأنه كان يعترف بسلطة الموحدين.

بنو غانية



(1) وفق مصادر أخرى، كان إسحاق غيوراً من تفضيل والده لأخيه، فقتل بالتتابع محمد وعبد الله. انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص87 ـ 88. انظر كذلك Les Benou Ghanya, A.BEL، ص19 ورقم 4.

(2) ثمانية حسب ابن خلدون، البربر، ج2، ص88. ثلاثة عشر حسب مصادر إسبانية، انظر A.BEL، المرجع المذكور، ص25 ورقم 3.

(3) كان محمد سجيناً، وخلصه الموحدون عندما استولوا على ميورقا. أعاد عبد الله بن إسحاق الميورقي احتلال الجزيرة بفضل مساعدة الأسطول الصقلي، وكان المسيحيون سعداء للانتقام من الموحدين. وكانت الجزيرة لا زالت في حوزته عندما طلب إليه أخوه يحيى النجدة لإخضاع طرابلس سنة 1195ف، انظر التجاني، ص244. ابن خلدون، البربر، ج2، ص96 الذي كتب خطأ أن علي (مات سنة 1188ف) بدلاً من يحيى.

بنو غانية وقراقوش في شمال أفريقيا:

أدرك علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الميورقي من جانب أن منطقة جزر البليار ضيقة جداً لدرجة لا تسمح بإدارة معارك مهمة، ومن جانب آخر فإن أي انتصار ـ حتى لو كان من قبل الموحدين ـ لا يمكن أن يكون دائماً في بلاد البربر، لهذا قرر أن ينقل الحرب إلى أفريقيا الشمالية. كانت قد بدأت تظهر تشققات في البناء الموحدي، مبعثها ـ بكل وضوح ـ الضرائب الثقيلة التي فرضوها: كانت قفصة قد تمردت، واستقر قراقوش في طرابلس الغرب منذ 1172ف. كان علي يأمل تجنيد مرتزقة وبربر ساخطين في أفريقية. لهذا ترك ميورقا مع إخوته في صفر 581/مايو 1185ف، ورسا في باجة باثنين وثلاثين سفينة[1]. استولى علي الميورقي على المدينة دون قتال وهزم جيش الموحدين وبقي يحيى في باجة حاكماً. ثم سقطت[2] بين أيديه الجزائر[3] ومليانة وقلعة بني حماد. ومن أجل زيادة عدد قواته جند علي من قبائل الرياح، وبني أثبج وبني جشم، واختارت زغبة، وهي قبيلة هلالية أخرى، جانب الموحدين. قام بنو غانية والقبائل العربية تحت قيادة علي بمحاصرة قسطنطينة. وكلف أبو يوسف يعقوب المنصور، حفيد عبد المؤمن، أبا زيد ولد أبي حفص[4] بنجدة المدينة المحاصرة. اندفع المُحاصِرون، وقد انضم إليهم يحيى بعد أن طرده سكان باجة، إلى الصحراء مصحوبين بالعرب الذين كان علي يوزع عليهم جزءاً من الغنائم. وصل بنو غانية إلى الجريد[5] بعد أن عبروا الأوراس، وشرعوا ـ

(1) ابن خلدون، البربر، ج2، ص89. والزركشي، ص15/ 18. ابن الأثير/ج9، ص166 لا يذكر إلا عشرين سفينة. انظر كذلك ابن خلكان، ج4، ص336.

(2) ترك علي حاكماً للجزائر ابن شقيقه طلحة، وكان اسمه يحيى كعمه. عندما أسرع أبو يوسف يعقوب المنصور، الملك المؤمني الثالث (1184ف ـ 1199ف) بإرسال إمدادات إلى الجزائر، صفح الموحدون عن يحيى لأن أباه طلحة كان قد انضم إليهم منذ وقت قصير. انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص90.

(3) المرجع عاليه، وابن خلكان، ج4، ص341.

(4) انظر عاليه، ص288، رقم 2.

(5) حول تفاصيل عمليات بني غانية في أفريقية الغربية، انظر Les Benou Ghanya، ص37 ـ 55.

بفضل دعم عرب المنطقة المعادين للموحدين ـ في محاصرة توزر أكبر مركز لإنتاج التمور في أفريقية ونقطة وصول لطرق عابرة للصحراء[1]. بعد مقاومة طويلة، سلمت المدينة إلى بني غانية من قبل بعض سكانها سنة 583هـ/ [2] 7 ـ 1186ف. وزحف علي على قفصة التي استولى عليها دون صعوبة[3] تذكر. ثم توجه بنو غانية نحو طرابلس، وكانت حينها تحت سيطرة قراقوش الذي كان ـ كما سنرى ـ قد أصبح مشهوراً في الصحراء الليبية بما جلبه من غم وحزن. وأصبح علي بن غانية وقراقوش حليفين.

أمام هذا الخطر، كان أمير تركي تابع للأسرة السلجوقية، نور الدين محمود بن زنكي قد أعاد الوحدة إلى سوريا في نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر[4]. وقد ساعده كثيراً في هذا الأمر اثنان من معاونيه وهما أخوان كرديان، أسد الدين شيركوه وأيوب، الذي أعطى اسمه فيما بعد للأسرة الأيوبية. مع ذلك، كان الاستيلاء على مصر والقضاء على القوة الفاطمية يمثلان أولويات نور الدين. وفي أبريل 1164ف بعث نور الدين بجيش سوري ضد مصر، وكان في صفوف هذا الجيش الشاب يوسف بن أيوب ـ صلاح الدين مستقبلاً ـ مُشجعاً من قبل عمه شيركوه[5]. تمكن صلاح الدين سنة

---

(1) يوجد وصف للجريد عند اليعقوبي، بلدان، ص350/ 212 ـ 213. وابن حوقل، ص93 ـ 96/ 91 ـ 94. والبكري، ص48 ـ 49/ 102 ـ 105. والزهري، ص200. والإدريسي ص104/ 121 ـ 122. وابن سعيد، بسط الأرض، ص61. وأبو الفدا، تقويم، ص144 ـ 145. والاستبصار، ص150 ـ 160 والتجاني، ص199 ـ 202. والعمري، ص132 ـ 135. وابن خلدون، البربر، ج1، ص192. وياقوت. انظر (توزر، قسطيلية)، إن هذا الاسم اللاتيني قسطيلية ينطبق، حسب المؤلفين العرب على واحة توزر فقط أو على منطقة الجريد بكاملها متضمناً أحياناً نفزاوة وقفصة. وليون الأفريقي، ج1، ص8 (ومذكراته هنا غامضة لأنه يعد نفطة، وهي بلدة من الجريد واقعة على مسافة عشرين كيلو متراً من توزر في عداد واحات الزاب) يشمل قابس، التي يسميها شالبيز، في واحات الجريد. انظر J. Despois، موسوعة الإسلام، انظر (الجريد). وA. BEL ()، Les Benou Ghanya، ص55 ـ 56، رقم 5.

(2) الاستبصار، ص155. والتجاني ص162.

(3) الاستبصار، ص151.

(4) حول أعمال زنكي وأبنائه، انظر N. Elisseeff, L' Orient Musulman، ص238 ـ 246.

(5) حول حملات مصر، انظر N. Elisseeff، المرجع المذكور، ص257 ـ 267.

564هـ/ 1169ف من أن يُعين وزيراً للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين. منذ ذلك الوقت أصبحت الخطبة في مصر باسم العباسيين، وانتهت الشيعة، التي لم يكن لها تأثير عميق على الناس. مات العاضد في سبتمبر سنة 1171ف بعد ثلاثة أيام من اختفاء اسمه من الخطبة مخلفاً صلاح الدين سيد مصر[1] الوحيد. توترت العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين بالرغم من استمرار صلاح الدين في إعلان تبعيته لأميره. وعندما توفي نور الدين سنة 1174ف، استولى صلاح الدين على سوريا وعينه الخليفة العباسي، سلطاناً لفلسطين واليمن والنوبة وبلاد برقة بالإضافة إلى مصر وسوريا.

كانت مصر تعيش مشاكل مالية خطيرة قبل وفاة نور الدين. وقرر صلاح الدين في أبريل 1172ف إرسال حملة ضد المغرب. كانت الأسباب متنوعة وراء هذه الحملة، قد يكون من بينها تأمين مكان للانسحاب في حالة هجوم من نور الدين[2]، والاقتراب من مصادر التزود بالأخشاب لبناء الأسطول، وتجنيد بحارة متمرسين من الساحل الأفريقي[3]، ومحاولة ان يستعيد لمصر، التي كانت طرقها نحو النوبة قد قطعت، الطرق العابرة للصحراء نحو الذهب التي كانت وقتها في أيدي الموحدين.

كانت القوات النوبية تهدد أسوان، وكان على صلاح أن يبعد هذا الخطر أولاً ومن ثم تأجلت الحملة الأفريقية لبعض الأشهر. وقد طلب ابن أخ لصلاح الدين، تقي الدين عمر المظفر[4] الأذن بقيادة الحملة ولكنه عدل عن مشروعه مخافة مخاطر مثل هذه المغامرة. وقرر مملوكه شرف الدين قراقوش التقوي المظفري، الملقب أيضاً بالغزي والناصري والأرمني[5]، أن يذهب بنفسه إلى

---

(1) A History of Egypt, Poole-S. Lane، ص190 ـ 193.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص91. انظر كذلك A. BEL، Les Benou Ghanya، ص58.

(3) N. Elisseeff، المرجع المذكور، ص268، وص278. وCl Cahen، موسوعة الإسلام، الأيوبيون، صb 821.

(4) حول هذه الشخصية، انظر ابن خلكان، ج2، ص502 ـ 503، 510 و533.

(5) لا يجب الخلط بين قراقوش هذا، الذي ضرب أفريقية، مع بهاء الدين قراقوش بن =

أفريقية مصحوباً بغزيبه[1] سنة 568هـ/ [2] 3 ـ 1172ف. وبما أن إشاعة قد انتشرت في الجيش مفادها أن تقي الدين قد تراجع بسبب خوفه من العرب الذين يفصلونه عن أفريقية، وكان هذا الأمر منتقداً بشدة من قواته[3]، فنستطيع أن نفترض أن تقي الدين قبل لهذا السبب أن يقوم قراقوش، وهو أحد رجاله، بقيادة الحملة. ويبدو من المرجح أكثر وقوع انفصال من جانب قراقوش ـ وهو انفصال قد يكون قُبل ضمنياً من صلاح الدين للأسباب المعروفة ـ سواء لأن تقي الدين تراجع عن الرحيل وهرب قراقوش بجزء من الجيش[4]، أو أن تقي الدين سافر فعلاً نحو المغرب وتراجع في الطريق وعندها تركه قراقوش وتابع الحملة مع قواته[5]. وهذا قد يفسر سجن قراقوش لبعض الوقت في القاهرة بأمر من الخليفة الفاطمي[6]، بعد قيامه بعدة غارات في ليبيا.

لم يتأخر مملوك تقي الدين في الانطلاق ثانية في حملاته. فقد رحل ثانية سنة 572هـ/ 77 ـ 1176فـد وزحف أولاً على سنترية/ سيوة التي احتلها وجعل الخطبة فيها باسمي صلاح الدين وسيده تقي الدين وكتب إليهما يخبرهما بذلك. وقد نالت هذه الحملات موافقة صلاح الدين، حسب النصوص، واعتبرت انتصارات قراقوش في عداد الأعمال الأيوبية العسكرية البارزة.

= عبد الله الأسدي المالكي الناصري وهو موظف مهم عند صلاح الدين، وهو نفسه الذي نصحه بحملة على المغرب لعلاج صعوباته المالية. حول بهاء الدين، انظر ابن خلكان، ج2، ص520 ـ 521، وج4، ص498، 534، 537. انظر كذلك مقالتي كراكوش، موسوعة الإسلام، بهاء الدين (Sobernheim)، وشرف الدين (Ch. Pellat).

(1) في الغرب المسلم، الكلمة غز والجمع غزيون تعني المرتزقة الأتراك الآتين من مصر إلى أفريقية، انظر G. Deverdun موسوعة الإسلام، انظر (غز)، ص1136. وجاء الغز الذين رافقوا قراقوش من سوريا مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين. انظر ابن حماد، ص63/ 97.

(2) ابن واصل، ص236.

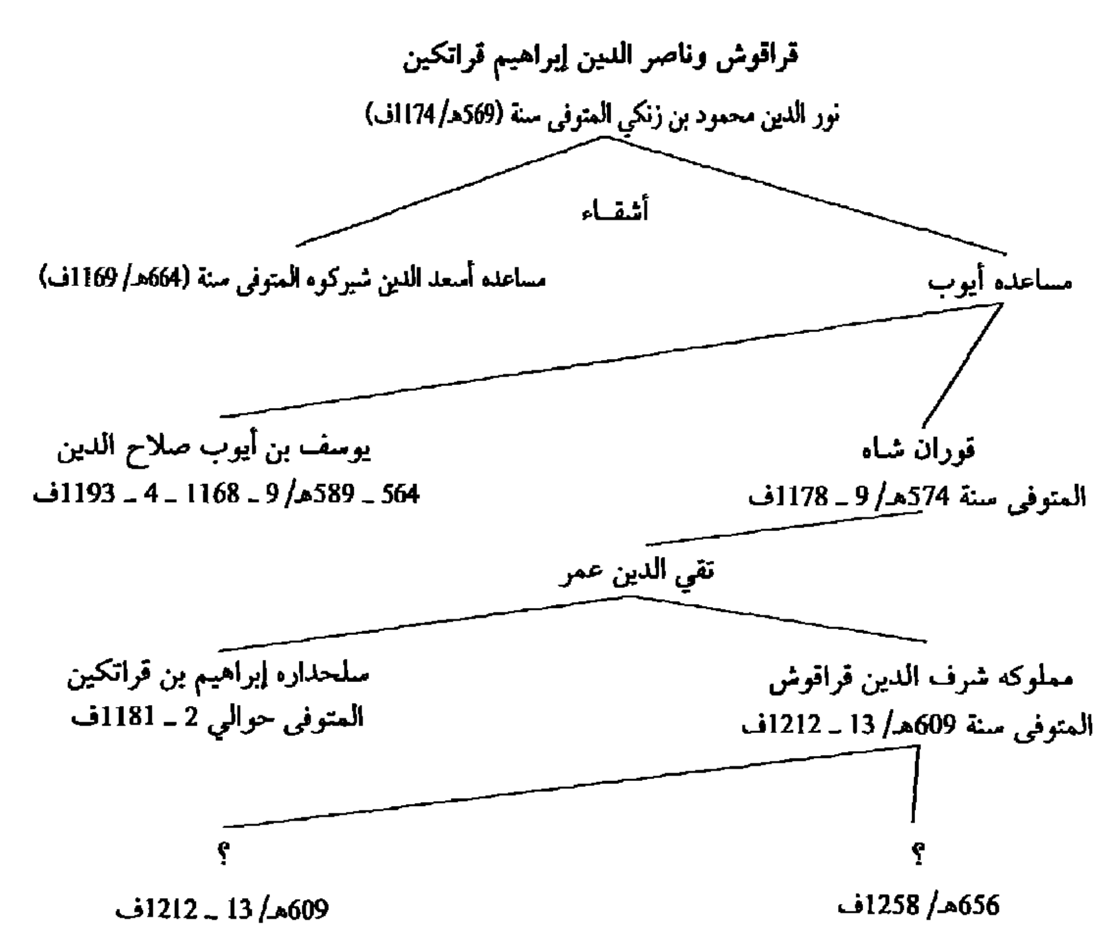
(3) التجاني، ص112.

(4) نفس المرجع أعلاه.

(5) ابن خلدون، البربر، ج2، ص91.

(6) المقريزي، سلوك، تجمجة Broadhurst، ص56.

دخل قراقوش إلى ليبيا، قادماً من الجنوب مهملاً الساحل[7] واستولى على أوجلة وزلة. ثم زحف على فزان الهوارية. واحتل زويلة التي كانت ما زالت معروفة بزويلة بني خطاب. وأخذ ملكها، محمد بن خطاب بن أظليتان ابن عبد الله بن زنفل بن خطاب، أسيراً وعذبه ليعترف أين كان يخفي كنوزه وقد مات الملك من التعذيب. هكذا اختفى ما كان باقياً من السلطة الأباضية، وأصبحت الخطبة في زويلة باسم صلاح الدين[8].



(1) يلاحظ مؤلف كتاب الاستبصار، ص147 أنه لو لم تكن هناك مشاكل تموين بالماء لكان الطريق سيوة ـ أوجلة ـ زلة الأحسن لأنه الأقصر لربط مصر بالمغرب. انظر كذلك الملاحظات المثيرة لـ Routes d'Egypte, R. Rebuffat، ص14 ـ 16.

(2) التجاني، ص112 ـ 113. وابن خلدون، البربر، ج1، ص281، وج2، ص91 ـ 92. وابن غلبون، ص58.

حسب المقريزي[1]، كانت سنة 573هـ/ 78 ـ 1177ف هي السنة التي لحق فيها بالمملوك[*] جيش أيوبي آخر تحت قيادة ناصر الدين إبراهيم بن قراتكين سلحدار[2] تقي الدين. استولى إبراهيم بن قراتكين على غدامس[3]. عندها، دخل العرب إلى المسرح: انضمت القبيلة السليمية بنو دباب إلى قراقوش. وبفضل هذه المساعدة أخذت الحملة الأيوبية طريق الشمال. واستطاع قراقوش والعرب، معاً، احتلال جبل نفوسة حيث استولوا على مغانم ضخمة وزعها قراقوش ـ الذي كان يستحق اسمه، الطائر الأسود ـ بين العرب[4].

زحف إبراهيم بن قراتكين نحو الغرب، وأخضع قبائل لواتة وهوارة سنة 577هـ/ 1182 ـ 1181ف. وكان في نيته أن ينضم إلى الموحدين ولكن قواته العربية منعته، فتوجه إلى قفصة التي استولى عليها دون صعوبة لأن أسرة ابن رند الحاكمة فيها كانت معارضة للموحدين وكانت الخطبة فيها بأسماء الخليفة العباسي وصلاح الدين. وهناك ـ في قفصة ـ سيقتل إبراهيم بن قراتكين بواسطة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي عندما أعاد الاستيلاء على المدينة[5].

توجه قراقوش من جانبه نحو الساحل. وتدعمت قواته بانضمام قوة من قبيلة الرياح بقيادة مسعود بن رمان[6] الذي أُبعد من قبل الموحدين إلى المغرب الأقصى، وكان قد تمكن من مغافلة حراسه والعودة نحو أفريقية، وقد ربط هؤلاء الرياح مصيرهم بمصير قراقوش[7]. بمساعدة حلفائه العرب، ونباليه الغز

---

(1) سلوك، ترجمة Broadhurst، ص57 ـ 58.

(*) يعني قراقوش. المترجم.

(2) السلحدار، حامل أسلحة الأمير ودرعه، وهو مسؤول دار الصناعة.

(3) المقريزي، سلوك، نفس المرجع.

(4) التجاني، ص113.

(5) التجاني، ص114، وص138. وابن خلدون، البربر، ج2، ص92 ـ 93. والمقريزي، سلوك، ترجمة Broadhurst، ص65 ـ 66.

(6) أو زمان أو زمام.

(7) التجاني، ص113. ابن خلدون، البربر، ج2، ص92.

حاصر قراقوش طرابلس. لم تكن المدينة، التي عاشت في سلام أيام الموحدين لحوالى نصف قرن لم تتوقف أثناءه عن التجمل تحت ولاتها المتعاقبين[1]، تشك في إمكانية قيام تمرد ولم يكن لديها جيش ـ ولا أسلحة ـ ولا تموين[2] احتياطي. احتلت طرابلس بسهولة. وتدفق العرب من كل مكان نحو قراقوش. وارتعدت تونس واستقر الخوف[3] في أفريقية.

وجد علي بن غانية، سيد الجريد، نفسه في طرابلس إلى جانب قراقوش، قاهر سنترية والصحراء الليبية. وهكذا كان الاثنان يسيطران على كل الطرق العابرة للصحراء من أفريقيا الشمالية الشرقية. عقد الاثنان حلفاً ضد الموحدين وهرع للالتحاق بهما بعد قليل من الشرق، بنو سليم من إقليم برقة، ومن الغرب قبائل مسوفة ولمتونة البربرية وهي القبائل التي ولدت فيها حركة المرابطين. وأرسل علي بعثة إلى الشرق للتأكيد للخليفة على طاعته وولائه. وأوعز الخليفة إلى صلاح الدين بتقديم نجدة إلى المرابطين. ونتيجة لهذا، أمر صلاح الدين قراقوش بالقيام بعملياته الأفريقية بالتنسيق مع بني غانية[4].

حاصر علي وقراقوش قابس واستوليا عليها. وفيها أودع قراقوش غنائمه من الحرب. كان هدف الحليفين ـ بكل وضوح ـ الاستيلاء على تونس والمهدية، المدينتين اللتين كانتا تحوزان ترسانة، فقد كان علي مدركاً أنه بدون أسطول لن يكون إلا مجرد رئيس عصابة. لقد فقدت مدن تونسية عديدة مظهرها الجميل إلى الأبد. كان المتمردون يغتصبون النساء ويسرقون كل ما يقع بين أيديهم، بما في ذلك الملابس التي كان الناس يرتدونها. وقد دمرت منزل باشو تدميراً كاملاً، وكانت المدينة الأكثر أهمية في رأس عنابة وهلك اثنا عشر ألفاً من سكانها[5]. تحرك المنصور. تولى بنفسه قيادة العمليات، واستعان، هو

(1) التجاني، ص237.
(2) التجاني، ص113. وابن غلبون، ص59.
(3) التجاني، ص113، 243. وابن خلدون، البربر، ج2، ص92. والحميري انظر (طرابلس).
(4) ابن خلدون، البربر، ج2، ص93. وابن غليون، ص53.
(5) التجاني، ص14 ـ 15. وابن غلبون، ص61.

كذلك، بالعرب، وغادر المغرب. واجه نكسة في البداية في سهل قفصة، ولكنه حقق انتصاراً في الحامة، قريباً من قابس، في 10 شعبان 583/ 15 أكتوبر 1187ف[1]. أعاد المنصور الاستيلاء على قابس التي كانت حصن قراقوش المنيع، وزحف على الجريد، الذي كان سكانه ضحايا قساوة علي، وقد اعترفوا مباشرة بسلطة المنصور. رجع المنصور بعد ذلك نحو قفصة التي أزال أسوارها وفيها قتل إبراهيم بن قراتكين سنة 583هـ/ 1188ف[2]. هكذا فقد بنو غانية ملجأهم المفضل، الجريد، المحمي بسبخة شاسعة وهي سهل من الأرجيل الملحي تبلغ أبعاده 110 × 70 كيلومتر[3]. وقد وصفه جغرافيونا من القرون الوسطى. وهو أرض مستنقعات لا يمكن عبورها إلا بأدلاء، ويشبه نهراً من الرمال تنساب كالماء، وقد ثُبتت فيه نصب وجذوع نخل تمنع الخروج من الجانبين عن الطريق المرسومة. وإذا ابتعد المسافر عن هذا الطريق فإنه يغرق في أرض متحركة مائعة كأنها صابون سائل. لقد هلكت فيه قوافل كاملة وجيوش دون أن تترك أثراً[4].

عاقب المنصور العرب حلفاء المرابطين، خرب منتجعاتهم ونفى بنو جشم والرياح وكذلك الكثير من غز قراقوش إلى المغرب الأقصى. وعند عودته إلى تونس سنة 584هـ/ 1188ف، عين أبا زيد بن أبي حفص[5] حاكماً لها. كان المنصور يأمل أن يكون الهدوء قد عاد إلى أفريقية: فقد شتت العرب، ودحر علياً وقراقوشاً، وأصبح لبلاد البربر (بربريا) الشرقية حاكم، رجل مخلص سبق له إثبات إمكاناته. بالرغم من ذلك، فما إن غادر المنصور أفريقية مدعواً إلى

(1) التجاني، ص103، 136 ـ 137. ابن خلدون، البربر، ج2، ص94، 210 ـ 211. الزركشي، ص16/ 18. ولا يجب الخلط بين الحامة بالقرب من قابس والبلدة التي تحمل نفس الاسم في الجريد.

(2) الاستبصار، ص151، 159. التجاني، ص138.

(3) J. Despois، موسوعة الإسلام، انظر (الجريد).

(4) البكري، ص48 ـ 49/ 102 ـ 105، والاستبصار، ص155، 158 ـ 159. والتجاني، ص154 ـ 156. والعمري، ص132 ـ 135.

(5) الزركشي، ص16/ 19.

المغرب بسبب نزاعات عائلية حتى شرع علي وقراقوش في عملياتهم في الجريد واستباحوه للنهب. وقد قُتل علي في إحدى المناوشات بالقرب من توزر مصاباً بسهم طائش. لم ينته الصراع بالرغم من ذلك، فقد خلف يحيى أخاه رئيساً للمرابطين. كان يحيى يضاهي علياً شجاعة، وربما كان أمهر منه في التكتيك وقد استمر طوال خمسين سنة في مناوشة الامبراطورية الموحدية ناشراً الدم والدمار[1].

حافظ يحيى الميروقي في البداية على التحالف الذي كان شقيقه قد عقده مع قراقوش. وتوجه في حملة على بسكرة حيث قام بتقطيع النخيل[2]، وضد قسطنطينة وباجة ولكنه طرد من قبل جيوش الموحدين، فعاد إلى الجريد الذي لم يكن قراقوش قد غادره[3].

لم يتأخر تدهور العلاقات بين يحيى وقراقوش، ففي سنة 586هـ/ 91 ـ 1190ف، انضم قراقوش إلى الموحدين. هل كان انضمامه رغبة حقيقية، أو مناورة خادعة أو تكتيكاً أملته السياسة الخارجية الأيوبية؟. وبالفعل، قد يكون من المحتمل أن صلاح الدين أعطى موافقته بداية لحرب قراقوش وسعد بعد ذلك بانتصاراته[4]، ولكنه الآن في حاجة ماسة لأسطول الموحدين للحرب ضد الفرنجة، فكتب باسمه إلى المنصور سنة 585هـ/ 1189ف، شارحاً له الوضع الحرج الذي يعيشه طالباً مساعدته[5]، وفي سنة 586هـ/ 1190ف، كتب رسالة أخرى إلى الخليفة الموحدي ندد فيها بتصرفات قراقوش وإبراهيم بن قراتكين[6]. وربما جاء تغيير قراقوش لموقفه بناء على أمر ملكه. وهكذا توجه

---

(1) الاستبصار، ص160. ابن خلدون، البربر، ج2، ص95، 311. وابن خلكان، ج4، ص349.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص212.

(3) ابن خلدون، البربر، ص221 ـ 212.

(4) المقريزي، سلوك، ترجمة، Broadhurst، ص57 ـ 59 و87.

(5) القلقشندي، ج6، ص526 ـ 530. بالنسبة للتجاني، ص244 لم يكن الانضمام للموحدين إلا خدعة.

(6) Ch. Pellat، موسوعة الإسلام، انظر (قراقوش).

قراقوش إلى تونس عند أبي زيد أبي حفص الذي خصه باستقبال[1] حار.

لم يبق قراقوش عند أبي زيد إلا مدة قصيرة من الوقت. غادر بعدها تونس أو هرب. واستولى على قابس وقتل جزءاً من السكان وعاقب القبائل السليمية؛ دباب والكعوب التي تخلت عنه. وقد لجأت هذه القبائل إلى إقليم برقة، بمساعدة قبائل بني سليم الموجودة هناك، وبقيت معارضة لقراقوش حتى وفاته[2]. وزحف المملوك ضد طرابلس التي خضعت له بداية ثم تمردت عليه وسقطت أخيراً تحت سلطته. ويدعي مؤلف كتاب الاستبصار (ص111) أن قراقوش ـ وكان عندها منضماً للموحدين ـ استولى على طرابلس من شخص يدعى أبوزلا الفارسي. ويبدو أن هذا الرجل قد تمرد في الزاب ثم خضع للموحدين، وتراجع بعدها وتنكر لكلامه وسيطر على طرابلس بينما كان السلام الموحدي مستتباً في المنطقة، والصحراء حتى كوكو وغانا. ويقال أن قراقوش بعث أبازلا إلى مراكش مقيداً بالحديد، عندما استولى بدوره على طرابلس. هكذا ربما وُجد قراقوش في طرابلس في هذه السنة 587هـ/ 1 ـ 1190ف في خدمة الموحدين، أو تظاهر بذلك. إن الأمر محير، فصاحب كتاب الاستبصار يعرف لا شك عما يتحدث لأنه في نفس المقطع يشير إلى أنه يكتب في رجب 578هـ/ يوليه ـ أغسطس 1191ف، أي أقل من سنه بعد تلك الأحداث. ويعتبر Gaudefroy-Demombynes أن إبراهيم قراتكين، وأبازلا ما هما إلا شخص[3] واحد.

استولى قراقوش، بعد ذلك، على جزء من الجريد وهو ما عمق خلافه مع يحيى. مضى يحيى الميورقي نحو طرابلس. وغادر قراقوش المدينة تاركاً فيها

(1) التجاني، ص104. وابن خلدون، البربر، ج2، ص95.

(2) ابن خلدون، البربر، ج1، ص138، 161.

(3) Ch. Pellat، موسوعة الإسلام/انظر (قراقوش)، وابن غلبون، مؤرخ من القرن الثامن عشر يشرح أن تقي الدين كان قد أرسل نحو قراقوش وبني غانية أحد مماليكه المدعو بوزباه (التذكار، ص60 ـ 61).

نائباً عنه المدعو ياقوت الافتخار. تواجه الجيشان عند مَحِسن غير بعيد من طرابلس. هُزم قراقوش هزيمة منكرة، وهرب إلى جبل نفوسة. فطارده يحيى في الجبل لبضعة أيام ثم رجع نحو الساحل وحاصر طرابلس[1]. شعر قراقوش أنه في جبل نفوسة قريب جداً من خصمه، فلجأ إلى الصحراء الليبية ـ في ودان ـ، وحافظ ياقوت ـ الذي كان يستحق اسمه ـ على النظام في المدينة، ودافع عنها بشجاعة كبيرة. أمام استحالة استيلائه على المكان بقواته لوحدها لجأ الميورقي إلى شقيقه عبد الله سيد جزر الباليار المرابطية راجياً مساعدته. أسرع عبد الله بإرسال باخرتين نحو أفريقية، فواجهت طرابلس حصاراً قاسياً من البر والبحر. وسقطت المدينة، أخيراً، سنة 1195ف، وأظهر يحيى شفقة، وغفر للسكان مقاومتهم الشرسة له، وفرض عليهم أتاوة مرتفعة ثم أعفاهم منها. وعندما غادر القباطنة المرابطون إلى ميورقا كلفهم بأن يأخذوا معهم ياقوت أسيراً[2].

عين يحيى ابن شقيقه، تاشفين بن الغازي[3] نائباً له في طرابلس، وزحف على قابس حيث كان قراقوش قد ترك مساعداً له، ولكن الموحدين كانوا قد استولوا على المدينة منه، وكان حاكمهم فيها يسمى ابن تافراجين. رفض القابسيون الاستسلام ودمر يحيى بساتين النخيل ولم يترك فيها إلا نخلة واحدة لإعطاء المثل. وسقطت المدينة في مارس ـ أبريل 1195ف، وفرض يحيى على السكان ضريبة مرهقة ولكنه ترك ابن تافراجين حراً في الذهاب إلى الموحدين[4].

---

(1) التجاني، ص244.

(2) التجاني، ص104 ـ 109 و244 ـ 245. وابن خلدون، البربر، ج2، ص95 ـ 96 و220. وابن خلكان، ج4، ص349. وابن غلبون، ص64. ويعلمنا التجاني أن ياقوت بقي سجيناً في ميورقا حتى استيلاء الموحدين على الجزيرة سنة 599هـ/ 3 ـ 1202ف. وقتل الموحدون عبد الله، وحرروا ياقوت الذي توجه إلى مراكش، وبقي فيها حتى وفاته.

(3) لم يستمر تاشفين حاكماً إلا مدة قصيرة من الزمن. تمرد السكان بعدها بقليل وطردوه، وعادت المدينة إلى الموحدين. انظر التجاني، ص345.

(4) التجاني، ص109.

في يوليه 1195ف، توجه الخليفة الموحدي المنصور إلى إسبانيا للجهاد ضد المسيحيين. ولما لم يعد المرابطون الأفريقيون يخشون هذا الاستراتيجي المتميز، فقد عادوا للهجوم من جديد. وأخذ يحيى المهدية من حاكم استقل عن الموحدين[1]، واستولى على بسكرة التي كانت قد غدرت به بالعودة إلى الموحدين، وقطع أيدي السكان. وسقطت بالتتابع بعد ذلك تبسة، والقيروان وعنابة. في سنة 599هـ/ 3 ـ 1202ف تم الاستيلاء على مدينة تونس بعد حصار طويل[2]، وأودع الحاكم أبو زيد السجن، وعومل السكان بوحشية. ولجأ ابن عصفور السكرتير المسؤول عن استعادة نفقات الحرب إلى التعذيب لينتزع من السكان نقودهم، وقد مات بعض أعضاء الأسر المقدمة في المدينة بين أيدي الجلادين[3]. وأصبحت مدن بيزرت والكاف/ سقبانارية (سيكافنيريا) ومدن أفريقية أخرى مرابطية، وتابعة للعباسيين نظرياً[4].

جاء الرد الموحدي عنيفاً. كان أبو عبد الله محمد الناصر (1198ف ـ 1213ف) قد خلف والده المنصور منذ وقت قصير وقام بالاستيلاء على جزر الباليار، وقاد بنفسه الحملة ضد مرابطي أفريقية. ترك يحيى مدينة تونس للأسطول الموحدي وذهب لمعاقبة سكان نفزاوة وطرابلس الذين خرجوا على سلطته، ولجأ إلى الجريد من جديد. ولما استعاد قواته، رجع نحو الشمال ولكنه سحق بالقرب من قابس من قبل الشيخ الموحدي أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي[5]، في أكتوبر 1205ف، وفي هذه المعركة قتل جبارة، شقيق يحيى[6].

---

(1) ترك يحيى حاكماً في المهدية علي ابن شقيقه الغازي.

(2) وقاد هذا الحصار الغازي بن إسحاق.

(3) ابن خلدون، البربر، ج2، ص220. سنرى أن ابن عصفور سيستعمل نفس الطرق للضغط على البربر في جبل نفوسة.

(4) حول تفصيل هذه العمليات، انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص97 ـ 99. انظر كذلك Les Benou Ghanya, A. Bel، ص101 ـ 115.

(5) انظر أعلاه ص288، رقم (2).

(6) ابن خلدون، البربر، ج2، ص99 ـ 100، 221. الزركشي، ص16/ 21 ـ 22.

كان الميورقي لا يزال قوياً جداً. كان يملك أفريقية الشرقية حتى خليج سرت وجنوب تونس. وبالرغم من أنه كان مقداماً ماكراً فقد ظهر أنه متهور وإداري سيىء. فقد أرهق السكان المهزومين بضرائب قاسية، وكان يقمع حركات التمرد بعنف ودموية، كما تعود على اقتسام المغانم مع العرب ولم يهتم بكبح تعطشهم للمزيد من المغانم، ليس من الحرب فقط، وإنما من أعمال النهب كذلك. كانت قوة بني غانية وقراقوش تعود للمرتزقة، وكان عدم القدرة على السيطرة عليهم يعني النهاية. وقد انضم إلى هؤلاء المرتزقة كل من في أفريقية من قطاع الطرق والأشرار. لم يكن هؤلاء يكتفون بإخضاع البلاد بل يخربون المواقع المحصنة والقرى ويغتصبون النساء ويقطعون الأشجار[1]. لم يكن هناك قط قبول حقيقي للمرابطين في بربريا الشرقية، كان الخضوع دائماً قصرياً وغير مستقر خاصة في حالة الواحات الليبية، وجبل نفوسة: فقد كان الأباضيون الغيورون على استقلالهم والذين لم يكن قبولهم من قبل للسنية الصارمة سهلاً يأملون اختفاء يحيى، الطاغية المسؤول عن عدد من المذابح والعامل على تحطيمهم والذي يسميه كتاب الاستبصار بالشقي. أثملت يحيى انتصاراته العسكرية ـ أو لم يتمكن من تكوين مملكة مجسداً حلم شقيقه ـ وكان محاطاً بعصابات غير منضبطة من البربر والعرب، كان يحيى في وسط سكان معادين وفي مواجهة رجلين قويين: الخليفة الموحدي الناصر، وأبي محمد الحاكم المعين لأفريقية سنة 603هـ/ 07 ـ 1206ف[2].

شرع يحيى في جوب أفريقية في كل الاتجاهات مدعوماً من قبائل لمتونة، وجدالة، ومن بين العرب؛ من قبل المخلصين الدواودة وهم قبيلة هلالية، فرع من الرياح، تحت قيادة محمد بن مسعود، ساعياً للمحافظة على ممتلكاته، وقامعاً حركات التمرد بقسوة بالغة. ذهب أولاً إلى نفزاوة حيث قدم

---

(1) ابن غلبون، ص61.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص100.

سكان طرة خضوعهم للموحدين، وسُلمت المدينة للجند الذين قاموا بأعمال النهب والاغتصاب والحرق. ولم تعد المنطقة إلا خرائب عندما غادرها يحيى، وتفرق الناجون من سكانها في منطقة نفزاوة[1]. وخُربت طرابلس التي ثارت ضد تاشفين، ابن شقيق يحيى، وعومل سكانها بوحشية[2]. ولما كان الجيش الموحدي بقيادة أبي محمد يقترب سارع المرابطون باللجوء إلى الجبال جنوب طرابلس. وتم اللقاء بين الجيشين في تاجوراء، وهُزم المرابطون، وفقد يحيى ذهبه ونقوده. وطافت أرتال عسكرية أخرى من الموحدين جنوب تونس، والساحل الليبي حتى سرت وبرقة، معاقبة القبائل التي قدمت المساعدة للمرابطين ومرتكبة تجاوزات لا يمكن تصورها.

لما أظهر الحاكم الموحدي خطورته ـ خاصة وأن عدد قواته كان قد ازداد بالقبائل السليمية بني مرداس وبني عوف الذين انضموا إلى بني زغبة المعارضين لبني غانية من البداية ـ ذهب يحيى نحو الغرب مخرباً ومدمراً حيثما حل. فقد استولى على سجلماسة وخربها، وتحدى جيش تلمسان ونهبها[3]. وعانت وهران من نفس المصير. ثم ركز على تاهرت حيث استولى على القوافل ودمر المحاصيل، وحول المدينة إلى حالة من البؤس بلغت إلى حد «أن الخرائب اختفت» و«منذ ذلك الوقت بقيت المدينة بدون سكان»[4].

توجه يحيى بعد ذلك نحو أفريقية، مدمراً في طريقة كل شيء. كان يحيى مثقلاً بالغنائم ومصحوباً بالعديد من السجناء، ومن المحتمل أنه أبطأ بسبب أعمال النهب والسلب التي قام بها، فتم اعتراضه من قبل جيش أبي محمد. هُزم يحيى، وأخذت غنائمه. وتركه شقيقه سير بن إسحاق، بعد ابن أخيه علي

---

(1) التجاني، ص147، 356.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص221.

(3) ابن خلدون، البربر، ج2، ص289 ـ 290. وج3، ص330 ـ 339.

(4) ابن خلدون، المرجع نفسه. حول تفصيل هذه العمليات في المغرب الأوسط والغربي، انظر Les Benou Ghanya, A. Bel، ص154.

بن الغازي، وانضم إلى الموحدين الذين استقبلوه باحترام بالغ[1]. وقد انفصلت عن يحيى بعض القبائل وانضمت إليه أخرى.

توجه بنو غانية وحلفاؤهم إلى طرابلس الغرب، حيث كانت تنتظرهم كارثة أكبر بكثير. في سنة 606هـ/ 10 ـ 1209ف، هُزم جيش المرابطين وتشتت في جبل نفوسة، وهلك ابن شقيق يحيى، محمد بن الغازي والرؤساء الهلاليون خاصة أمير الدواودة، وسقطت بين أيدي الموحدين غنيمة هائلة، وخيول المهزومين وأسلحتهم، كما استولى الموحدون على ثمانية عشر ألف من دواب الركوب. كان العار شنيعاً لهؤلاء المحاربين: فقد أرسلوا ـ كما يقول لنا ابن خلدون[2] ـ في المقدمة قافلة بنسائهم ليجعلوا منها نقطة الالتقاء «وليكون تحت أعينهم أغلى ما يتعلق بشرفهم»، وقد استولى الموحدون على هذه القافلة. وتمرد سكان جبل نفوسة ضد جابي الضرائب من قبل المرابطين وقتلوا اثنين من أبنائه[3]. وطارد الوالي الموحدي، أبو محمد، المرابطين وحلفاءهم في كل مكان بأفريقية واعتقل منهم الكثيرين. وتمكن، حتى وفاته سنة 618هـ/ 1221ف، من اجتثاث روح اللصوصية وقطع الطرق. كان هذا الانتصار لأبي محمد بداية النهاية لدولة المرابطين. أصبح بنو غانية في حالة انحصار، ودُفع بهم إلى الصحراء، وقد أبيد الجزء الأكبر من جيشهم، وتآكلت دولتهم. وكان يحيى قد فقد الجزء الأكبر من قواته؛ قتلى أو هاربين أو أسرى أو منضمين للعدو الذي كان يعاملهم باحترام بالغ. هكذا، كان في استطاعة أبي محمد أن يعيد قواته إلى مدينة تونس. بالرغم من كل ما حدث، بقي يحيى متشبثاً بالهدف

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج2، ص101، 221 ـ 223.

(2) البربر، ج2، ص291.

(3) ابن خلدون، البربر، ج2، ص101، 291 و A. Bel، المرجع المذكور، يفهم أن الأمر يتعلق بولدي يحيى. إن ترجمة de Slane لكتاب البربر، ج2، ص101 يمكن أن تؤدي إلى الخلط. إن النص العربي، العبر، ج6، ص405 واضح: إن الأمر يتعلق ـ بالتأكيد ـ بالسكرتير ـ جابي الضرائب، ابن عصفور الذي كان مكروهاً بسبب أساليبه لتحصيل نفقات الحرب. عن الكاتب، مدير الضرائب، انظر D. Sourdel-R.Selheim موسوعة الإسلام، انظر (كاتب).

الذي حدده شقيقه، واستمر في مناوشة شمال أفريقيا، وأعمال السلب والنهب. كانت الصحراء الليبية هي القاعدة التي اختارها.

كان قراقوش مستقراً في ودان[1] بعد عشرين سنة من الهزيمة المنكرة التي ألحقها به يحيى غير بعيد من طرابلس. وقد استفاد من ثراء البلاد ومن السيطرة على الطريق المهم العابر للصحراء الذي كان يمر بالجفرة: كان جزء كبير من تجارة الرقيق السودانية بين يديه. وهكذا كان الربح من هذه التجارة يهرب من أفريقية لصالح مصر الأيوبية. كان يحيى، الذي فضل أن يترك خصمه المهزوم يهرب ليركز على احتلال أفريقية، رجل صحراء. بعد طرده من الجريد، قاعدته المفضلة، وخسارته لثروته فكر يحيى في تهيئة مكان ممتاز للانسحاب بعيداً عن دولة الموحدين وفي نفس الوقت يعيد تكوين ثروته من عائدات التجارة عليه، فزحف على ودان سنة 609هـ/ 13 ـ 1212ف[2]. كان في إمكانه الاعتماد على قبائل الكعوب ودباب الذين عاملهم قراقوش بوحشية لدرجة أنهم لم يكونوا يحلمون بشيء إلا بالانتقام[3]، ويؤكد التجاني، فيما يتعلق بحصار ودان، على العداوة القائمة بين قراقوش وبني دباب الذين يصفهم «بالموتورين من قبل قراقوش»[4]. هذا ما حدث، واقترح المملوك أن يستسلم مشترطاً على العرب أن يُقتل قبل ابنه الذي كان يحبه حباً جماً، حسبما يقول لنا التجاني الذي يفيد بأنه استقى معلوماته من أحفاد المقاتلين الدبابيين. وقد قُبل هذا الشرط وخرج قراقوش من الحصن مع ابنه الذي سأله: «يا أبت إلى أين يروحوا(*) بنا؟» فقال: «إلى حيث رحنا بأبائهم». كانت هذه إجابة قراقوش، وهي إشارة إلى الطريقة

---

(1) انظر أعلاه، ص338 ـ 339.

(2) إنه في هذه السنة، 16 يوليه 1212ف، أبيد الجيش الموحدي، الذي جرد من جزء من أعداده أرسلت من إسبانيا إلى أفريقية ضد يحيى، من قبل المسيحيين في معركة لاس نافاس دي تولوسا/ حصن العقاب. هكذا لم يلحق بنو غانية الضرر بأفريقية فقط، لقد كانوا مسؤولين بطريقة غير مباشرة وجزئياً عن الكارثة الإسبانية.

(3) ابن خلدون، البربر، ج1، ص138، 161. انظر عاليه، ص261.

(4) رحلة، ص110.

(*) هكذا وردت عند التجاني. المترجم.

القاسية التي عامل قراقوش بها بني دباب. احترم العرب كلمتهم: فقاموا بإعدام قراقوش أولاً، ثم ابنه. وصلب جسم المملوك خارج المدينة[1].

لم يُسمع شيء عن يحيى في قاعدته ودان لبضع سنين، فقد كان واعياً بالقوة الكبيرة جداً لأبي محمد، حاكم أفريقية. وعاود المرابطون حروبهم، عندما توفى أبو محمد في فبراير سنة 1221ف، فأسرع الحاكم الجديد، أبو العلاء إدريس[2] بإرسال رتلين نحو الصحراء الليبية حيث كانت تعمل قوات ابن غانية. كان أحدهما بقيادة ابنه، أبي زيد وقد زحف على درج وغدامس بأوامر تقضي بإعادة الواحتين إلى الطاعة وأن تجبى منهما الضريبة، وكان على الرتل الآخر أن يحصر يحيى في ودان في انتظار أبي زيد وجنده، عندما يعودون من غدامس لمساندتهم. تآمر ابن غانية مع العرب ودفع لهم نقوداً، ولم يتمكن جند الموحدين من الوصول قط إلى ودان وأضطروا للتراجع إلى قابس بسبب مهاجمة العرب لهم. رد يحيى بهجوم مضاد وانتقل إلى الزاب حيث اعترف سكان بسكرة بسلطة المرابطين. وبعد أن لحق به الجيش ذهب ـ مرة أخرى ـ إلى عمق الصحراء، وقام أبو زيد بتدمير بسكرة[3] تدميراً كاملاً.

---

(1) إن الذكرى الوحيدة التي تركها قراقوش في ليبيا خربة، وهي عبارة عن قلعة من الحجر المقدود تحتوي على أنفاق وتقع على بعض كيلومترات غرب طرابلس، ويقال أن قراقوش أمر ببنائها عندما كان مسيطراً على المدينة. تسمى القرية قرقارش. انظر ابن غلبون، ص99 ورقم1. والزاوي، معجم/ انظر (قراقارش) Annales tripolitaines , Ch. Feraud، ص7. و Storia de Tripoli, E. Rossi، ص67.

(2) كان أبو العلا إدريس حفيد عبد المؤمن. عند وفاة أبي محمد عين مجلس تونس ابنه عبد الرحمن ليخلفه ولكن الاختيار لم يعتمد من الخليفة الشاب المستنصر (الذي لصالحه تنازل أبوه سنة 609هـ/ 13 ـ 1212ف بعد الكارثة الإسبانية) فضل أبا العلاء الذي كان من أول أعماله الأمر بقتل ابن نخيل، سكرتير أبي محمد، الذي سيكون أحد مراجع ابن خلدون. انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص102، 292 ـ 293. الزركشي، ص19 ـ 20/ 25. وبهذا كان المستنصر ينتقم من أسرة أبي محمد التي تأخرت في الاعتراف به، وكان يعبر عن مخاوف الموحدين أمام الأهمية المتعاظمة التي كان يكتسبها المنحدرون من أبي حفص.

(3) ابن خلدون، البربر، ج2، ص294. في مقطع آخر (ج2، ص102) يشرح ابن خلدون أن أبا =

مرة أخرى أعاد يحيى ـ هذا الجموح ـ تكوين جيشه من البربر والعرب وزحف على مدينة تونس. وتمكن جيش أبي زيد المكون ـ هو أيضاً ـ من عرب وبربر ـ غالبيتهم من هوارة ـ من دحر جند المرابطين دحراً نهائياً في مجدول، غير بعيد من مدينة تونس، في يناير 1224ف. هرب يحيى الذي خسر عدداً كبيراً من محاربيه، كما فقد من جديد ثروته، وقد امتنع أبو زيد عن ملاحقته[1].

استأنف المرابطون جولاتهم في الصحراء، وحتى جنوب أفريقية. كان الوضع في الصحراء يسمح بذلك. فقد توفى الحاكم، أبو العلا في سبتمبر 1223ف، والخليفة المستنصر في يناير 1224ف. وأسند خليفة المستنصر، عبد الواحد ـ وهو شيخ وشقيق المنصور ـ إدارة شؤون أفريقية إلى أبي زيد ابن الحاكم المتوفى، اعترافاً بنجاحاته في الصراع ضد بني غانية. وظهر أبو زيد على حقيقته كريهاً، وحكم كطاغية. لهذا لم يجد يحيى صعوبة في تجنيد أنصار؛ بربر وعرب بين الناس الذين كانوا يكرهون الحاكم، وقام بمناوشة السلطة الموحدية في كل مكان. تغير الوضع بعد ذلك بقليل. ففي سبتمبر 1224ف تنازل عبد الواحد لصالح العادل، ابن المنصور. وكان أحد واجبات الخليفة الأولى استدعاء أبي زيد، وعين محله أبا محمد عبد الله (أبو محمد الثاني) ابن أبي محمد عبد الواحد الذي ترك بين السكان ذكريات ممتازة. هكذا عادت الأسرة الحفصية إلى السلطة في أفريقية. استلم أبو محمد الثاني أعمال منصبه في تونس بداية سنة 1227ف وأسند إدارة إقليمين خطيرين إلى شقيقيه: توزر لإبراهيم، وقابس لأبي زكريا.

تابع يحيى إغاراته، واستولى على السويقة من رئيس يدعى ابن مثكود[2]، وهيمن على المنفذ الغربي للطريق العابر لفزان.

= زيد طرد ابن علي بن غانية من ودان حتى الزاب وأجبره على اللجوء إلى بسكرة. إن هذا لا يتفق مع سلوك أبي زيد: ما هو السبب الذي يجعله يلحق بالواحة مثل هذا العقاب.

(1) المرجع السابق، ص102، 295، والزركشي، ص20/ 25 ـ 26.

(2) كان في سويقة ابن مثكود فواكه ممتازة، وبساتين نخل كثيرة، وعدد من الأسواق حيث =

الموحدون:

ابن تومرت (توفى 1130ف)

عبد المؤمن (1152 ـ 1163ف)

أبو يعقوب يوسف (1163 ـ 1184ف)

أبو يوسف يعقوب المنصور (1184 ـ 1198ف

أبو عبد الله محمد الناصر (1198 ـ 1213ف)

أبو يعقوب يوسف المستنصر (1213 ـ 1224ف)

أبو محمد عبد الواحد (1224ف)

العادل (1224 ـ 1227ف)

المأمون (1227 ـ 1232ف)

الرشيد (1232 ـ 1242ف)

السعيد (1242 ـ 1248ف

عمر المرتضى (1248 ـ 1266ف)

أبو دبوس (1266 ـ 1269ف)

= كان يمكن الحصول على السلع الضرورية، وقلاع عديدة: كان العرب يخزنون تموينهم في المدينة، وكانت محطة مهمة على الطريق من سرت إلى طرابلس، وكان هناك تفرع نحو السودان عبر زويلة. انظر الإدريسي، ص130 ـ 133/ 154 ـ 155، 158. حسب ياقوت، انظر (سويقة) كانت تقع «في بداية إقليم أفريقية، بين أفريقية وبرقة» في بلاد هوارة. ابن خلدون (البربر، ج2، ص103 يقول بوقوعها في إقليم برقة. في الحقيقة كانت هذه البلدة تقع على مسافة 200 كم شرق طرابلس. في القرن الرابع عشر، لن تكون إلا ضاحية المدينة التي ستسمى مصراتة، من اسم القبيلة البربرية (هذا التغيير في التسمية وفق اسم قبيلة كان شائعاً في طرابلس الغرب، انظر زواغة، وزوارة، سابقاً ك وتين). إن بقايا قصر وما يمكن افتراض أنه دكاكين ما زال يمكن رؤيتها حالياً. انظر العبدري، ص142، 161 والزاوي، معجم، انظر سويقة بن مثكود/ مثكود ومصراتة.

الولاة وأوائل الملوك الحفصيين:

أبو حفص عمر الهنتاتي (توفى 6 ـ 1175ف)

أبو محمد الثاني عبد الواحد أبي حفص (1207 ـ 1221ف)

أبو العلا إدريس (1221 ـ 1223ف)

أبو زيد (1223 ـ 1226ف)

أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد (1227 ـ 1228ف)

أبو زكريا يحيى (1228 ـ 1249ف) (أمير مستقل في سنة 1236ف)

أبو عبد الله المستنصر بالله (1249 ـ 1277ف) (خليفة في سنة 1253ف)

غادر يحيى الأرض الليبية، وتوجه نحوالغرب مخرباً ـ من جديد ـ كل شيء على مساره. شرع أبو محمد الثاني مباشرة في الحرب وعاقب في طريقه قبيلة هوارة التي كانت تمارس أعمال اللصوصية وقطع الطرق، واحتل باجة وأعاد إليها النظام وتخلى عن ملاحقة يحيى الذي كان يتجه إلى سجلماسة، ثم عاد إلى مدينة تونس في أغسطس ـ سبتمبر[1] 1227ف.

توفى الخليفة الموحدي العادل في أكتوبر سنة 1227ف. ونودي بشقيقه المأمون الذي كان حينها في إسبانيا، ملكاً. قبل قليل من وفاة العادل كان المأمون قد ثار ضد شقيقه وأصدر أمراً لأبي محمد الثاني بإلزام موحدي أفريقية بأداء يمين الإخلاص له. وكان أبو محمد قد رد المبعوثين، وعندها خاطب المأمون أبا زكريا حاكم قابس وشقيق أبي محمد مولياً له حاكماً على تونس. وتنازل أبو محمد، الذي تركته قواته، عن السلطة، ودخل أبو زكريا ـ الذي

(1) ابن خلدون، البربر، ج2، ص103 ـ 297.

سيكون أول عاهل حفصي ـ مدينة تونس في يونيو ـ يوليه سنة 1228ف[1].
وعليه كان يقع واجب منع يحيى بن غانية من القيام بأي أعمال ضارة. حقق أبو زكريا العديد من الانتصارات الكبيرة، ولاحق يحيى من طرابلس حتى الزاب وانتهى إلى ورقلة. ومن أجل أن يحمي المدن الأفريقية من التخريب والنهب وضع على الحدود قوات لم تتوقف عن مناوشة المرابطين. بالرغم من ذلك واصل يحيى غاراته. ليس من المعروف من أين كانت تأتيه الأموال ولكن من المعروف أنه كان قد تعود على تجنيد قوات تاركاً لها حرية التخلي عنه وفق رغبتها عندما تتعقد الأمور بشدة. استمر هكذا بعض السنين مطارداً من كل مكان ومات ـ لا يعرف في أي ظروف ـ سنة 631 هـ/ 4 ـ 1233ف أو 633 هـ/ 6 ـ 1235ف. لقد استمر يحيى في الحرب طوال خمسين سنة وتوفى بالقرب من مليانة وفقاً للبعض، وفي صحراء الزاب حسب آخرين[2].

لقد انتقمت قبائل لمتونة وجدولة ومسوفة ـ وهم ملثمون مرابطون، كانوا قد طردوا قبل ذلك بنصف قرن من إسبانيا بواسطة الموحدين ـ انتقاماً شافياً، فبفضل بني غانية تمكن المرابطون في النهاية، وبطريقة غير مباشرة، من القضاء على الموحدين: في سبتمبر 1236ف أعلن أبو زكريا استقلاله عن الموحدين، وولدت الأسرة الحفصية.

لم تضع وفاة يحيى حداً نهائياً للمشهد المؤلم بوقائعه الكثيرة المتكررة التي عرفها شمال أفريقيا مع قراقوش وبني غانية. كان قد بقي امتحان أخير للمكابدة. لقد ترك قراقوش ولداً آخر، لم يحفظ التاريخ اسمه. وكان ـ حسب التجاني[3] ـ رجلاً قوياً شجاعاً كريماً ويتمتع بسمعة طيبة. وقد انضم إلى الخليفة الحفصي المستنصر (1249ف ـ 1277ف) فاستقبله باحترام وكلفه بقيادة

---

(1) حول الظروف التي أوصلت المأمون وأبا زكريا إلى السلطة، انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص297 ـ 298 وخاصة الزركشي، ص21 ـ 24/ 28 ـ 31.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص103، 301.

(3) رحلة، ص111.

أحد الجيوش. ولكنه خان ملكه بعد قليل، وتوجه مع مجموعة من رفاقه، راغباً في تقليد والده، إلى بلاد ودان وأحرقها. في هذه الأثناء، كانت كانم على بعد ألف وثمانمائة كيلو متر من هناك، في أوج التوسع، وقد تأسست[1] عاصمتها نجيمي منذ قليل، وكانت التجارة مع مناطق المتوسط لا تزال في غاية الأهمية، بل ووجدت تسهيلاً بتوسع الإسلام في حوض تشاد[2]. لما رأى ملك كانم المسلم، دونما ديبلام (1221ف ـ 1259ف) أن العلاقات التجارية مع المتوسط قد ترتبك عند نقطة أساسية في الطريق العابر للصحراء، عجل، في سنة 656 هـ/ 1258ف، بإرسال عميل إلى ودان مكلف بقتل ابن قراقوش. وقد أحضر المبعوث رأس آخر المغامرين إلى عاصمة كانم حيث تسارع الناس لرؤيته. وقام دونما ديبلام بضم فزان وبلاد ودان[3].

بهذا التطور الأخير غير المتوقع انتهى مشروع بني غانية وقراقوش. ووجدت الصحراء الهدوء من جديد، ولكن بمرورها تحت سيطرة ملك سوداني، خرجت الصحراء من تاريخ المتوسط.

نتائج حركة بني غانية وقراقوش في أفريقية والمغرب:

كانت هذه المغامرة الطويلة واحدة من أشد الأزمات التي عاشها شمال أفريقيا مشقة. سعى المرابطون الميورقيون لإسقاط امبراطورية الموحدين وتأسيس مملكة شمال أفريقيا على أنقاضها. لم يتأت قط تحقيق الهدف الثاني

(1) لم يتم التمكن من تحديد موقع نجيمي بطريقة مؤكدة، انظر Tableau Geographique, R.Mauny، ص148. وJ.S Trimingham، A history of Islam in West Africa، ص113 يحدد موقع هذه العاصمة على مسافة 200 كيلو متر تقريباً من الضفة الشمالية ـ الشرقية لبحيرة تشاد.

(2) J.S. Trimingham، المرجع المذكور، ص115. وSudanses Memoirs, H.R. Plamer، ص4 ـ 6 وص53. وA. Schultz، The Sultanate of Borno، ص14 ـ 15.

(3) التجاني، المرجع أعلاه.

ولكنهم كانوا، وبدرجة كبيرة، وراء تحقيق الهدف الأول. في المغرب، كانت السلطة الموحدية تتآكل من الداخل بسبب ثورات القصر، وكانت قد أُضعفت كثيراً من قبل بالإخفاقات الذريعة التي كابدتها في شبه الجزيرة الأيبيرية. وفي تلمسان سنة 1235ف أسس يغمراسن بن زيان أسرة بني عبد الواد المستقلة. وبنو عبد الواد بدو رحل زناتيون، ولكنهم كانوا حلفاء للموحدين منذ البداية. وقد استمرت مملكة بني عبد الواد حتى سنة 1554ف، وهو تاريخ استيلاء الأتراك عليها. وفي بلاد مراكش، مكنت المنافسة التي واجه فيها الخليفة عمر المرتضى ابن عمه أبي دبوس لبني مرين، وهي قبيلة زناتيه أصلها من الزاب وكانت معارضة دائماً للموحدين، من الاستيلاء على مدينة مراكش سنة 1269ف. وهكذا خلفت الأسرة المرينية الموحدين في قلب امبراطوريتهم. وفي سنة 1465ف سقطت المدينة في أيدي الإمام الجزولي، وهو شريف من السوس، منحدر من الأدارسة.

في أفريقية، كان الأثر الإيجابي الوحيد الذي يمكننا من إعادة الفضل فيه لحركة بني غانية وقراقوش، يكمن في الدور الذي لعبته هذه الحركة في تكوين الأسرة الحفصية التي تمكنت من المحافظة على دولتها حتى نهاية القرن الخامس عشر. كان الوالي أبو محمد بن أبي حفص (1207ف ـ 1221ف) قد أصبح من قبل شبه مستقل بعد أن أدرك أن الخليفة الموحدي لا يمكنه الاستغناء عنه في حربه ضد بني غانية. وقد استحق بالنجاح الذي أحرزه ضد المرابطين وبإدارته الذكية اعتراف الشعب الأفريقي، والمجد والمهابة عند أقرانه. وورث ابنه، أبو زكريا الذي حُبي بصفات شخصية عظيمة، الإشعاع الذي كان يحيط بوالده. وعندما تخلى المأمون عن مذهب ابن تومرت اتخذ الوالي الحفصي لقب أمير، وأمر بأن تكون الخطبة باسم المهدي والخلفاء الراشدين. وبعد ذلك بوقت قصير، في سنة 1236ف كانت الخطبة باسمه؛ هكذا أصبح أبو زكريا مستقلاً، وهكذا ولدت الأسرة الحفصية. في سنة 1253ف، وهي السنة ذاتها التي غادر فيها هولاكو ـ حفيد جنكيزخان ـ منغوليا وتوجه نحو الغرب لينهي

سلطة الخلافة في بغداد، التي كانت من قبل في حالة احتضار، أعلن المستنصر، ولد أبي زكريا وخليفته، نفسه خليفة. حقق المستنصر أولاً الأمن الداخلي، وقمع حركات التمرد التي انفجرت هنا وهناك، وأعاد تكوين المملكة الزيرية القديمة. وببروز قوته اعترف به من قبل بني عبد الواد، والأسرة الميرينية[1]. في سنة 1257ف ـ أي قبل سنة واحدة من مقتل ابن قراقوش بأمر من ملك كانم ـ بورنو، بعث دونما ديلام إلى الخليفة الحفصي بعثة وهدايا من بينها زرافة «وهي حيوان صفاته الخارجية غير مألوفة، وجرى سكان تونس أفواجاً لرؤيته، لدرجة أن السهل اكتظ بالناس»[2]. وفي سنة 1259ف، قبل أشراف مكة المستنصر كملك[3]. وفي سنة 1262ف، استقبل المستنصر وفداً من ملك النرويج جاء ليقدم له هدايا ثمينة، وقد غادر الوفد حاملاً معه اتفاقاً للتجارة والملاحة[4]، كما يعتقد R. Brunschvig. وفي سنة 1270ف، حفظ المستنصر البلاد وعاصمتها من الحملة الصليبية التي كان يقودها سانت لويس Saint Louis ولم تكن مواد الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين مشرفة للحفصيين فقد اضطر المستنصر لدفع مبالغ كبيرة للمسيحيين ـ وهو ما لامه عليه الأفريقيون الأكثر تشدداً ـ ، ولكنه حافظ على السلام وامتن[5] له الناس. وبينما كان المملوك بيبرس في مصر يوسع فتوحاته حقق المستنصر لبلاده مستوى من الثراء لم يسبق قط الوصول إليه. وقد جعلت منه قوته العسكرية رجلاً قوياً يتوسل المضطهدون حمايته، وهكذا تمتع الأفريقيون ـ عندما تحقق لهم أخيراً السلام ـ برخاء غير معروف من قبل.

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج2، ص346.

(2) المرجع السابق، ص347.

(3) المرجع السابق، ص343 ـ 345.

(4) Hafsides، ج1، ص50.

(5) وعد السلطان المملوكي بيبرس (1260ف ـ 1277ف) المستنصر بإمدادات لم تصل أبداً. يلاحظ ابن خلدون، البربر، ج2، ص369 أن الناس أسرعت لتدفع لعاهلها ما سبق وأن دفعه، انظر كذلك R. Brunschvig، المرجع المذكور، ص49 ـ 63.

يعود تحقيق الحفصيين للاستقلال بدرجة كبيرة، ولكن بطريقة غير مباشرة، إلى حركة بني غانية وقراقوش وهي النقطة الإيجابية الوحيدة التي تحسب لهؤلاء، لأن هؤلاء المغامرين عاثوا في البلاد تقريباً لسنوات طويلة: قراقوش من 3 ـ 1172ف إلى 5 ـ 1212ف، وبنو غانية من 1185ف إلى 4 ـ 1233، وابن قراقوش خلال الفترة (1255ف ـ 1258ف) تقريباً.

كتب A.Bel أن يحيى بن غانية كان ذا طبيعة غير عادية، وذا شجاعة خارقة[1]. لقد أظهر خلال نصف قرن أنه خصم يخشى، ولم يكل أو يمل. وبقي، حتى وفاته، مخلصاً للهدف الذي اتخذه: تدمير الموحدين ولم يفكر أبداً في التصالح مع أعدائه في زمن تعقد فيه الأحلاف وتنقض حسب الظروف. على امتداد خمسين سنة، وبعد كل هزيمة كان هذا الرجل يذهب بعيداً في الصحراء ليعيد بناء قواته، وينبعث دائماً ليعاود القتال ويحقق انتصارات جديدة. حتى عندما يتخلى عنه أقاربه، وكان يتابع تجواله من خليج سرت إلى سجلماسة رغم هزيمته، باحثاً عن حلفاء جدد عندما يتخلى عنه مساعدوه بعد فشل أو هزيمة. لايمكننا إلا أن نحس ببعض الإعجاب لهذا المحارب الذي كان يبقى واقفاً وسلاحه في يده عندما يفقد كل شيء، رافضاً توسل الأمان من الوالي الحفصي الذي كان ـ بكل تأكيد ـ سيمنحه له: لقد كان الملوك المغاربة يعاملون دائماً المهزومين، الذين يعترفون بالهزيمة ويطلبون الصفح، باحترام، وقد سعى كثيرون من حلفاء يحيى هذا المسعى، وأسندت إليهم وظائف مهمة عند الحاكم الحفصي. وهذا ماكان من ابن قراقوش الذي حصل على قيادة جيش حفصي. وكان يحيى يعرف السمو الروحي للحفصيين، واستعمله ولكن ليس لشخصه. لقد كان يثق في فروسية أبي زكريا لدرجة أنه عندما شعر بدنو أجله عهد ببناته لكرم الأمير. وقد أوصلهن[2] صابر ـ أو جابر ـ، العبد

---

(1) Les Banou Ghanya، ص153.

(2) كان ليحيى أكثر من بنتين لأن ابن خلدون استعمل صيغة الجمع. انظر العبر. ج6، ص407، البربر، ج2، ص103.

الأوروبي ليحيى، إلى تونس. وقد استقبلهن الوالي الحفصي كما كان يحيى يأمل: وأمر ببناء قصر لهن في عاصمته وخصص لهن معاشاً[1] مرتفعاً.

لا يمكن مقارنة قراقوش بيحيى. كان قراقوش ـ على مايبدو ـ يتصرف لصالح شخصه حتى عندما كان يحظى بموافقة صلاح الدين. حتى عندما كان الأيوبيون يرغبون بداية في احتلال أفريقية، لم يكن لقراقوش أي باعث نبيل كما هو الحال بالنسبة ليحيى. لا شك، أنه أظهر أمثلة رائعة لمواقف بطولة ـ نذكر موته ـ ولكن حدث له أن قبل حلولاً وسطاً. ولم تكن لديه نفس الطاقة والتصميم اللذين كانا ليحيى، فقد تحصن أخيراً في ودان دون أن يسعى لمعاودة الصراع.

لقد ارتكب قراقوش ويحيى نفس الأخطاء. هذا لا يمكن إنكاره. وقد فقدا في المعارك الدموية التي خاضاها الكثير من رفاقهما مبكراً، ووُجدا في مواجهة عدو يفوقهم عدداً. كان الميل لديهما كبيراً للتزود من مورد المرتزقة الذي كانت تمثله القبائل العربية. واستسلما لهذه النزعة. كانا محاربين مقدامين، قادرين على المناورة، وعرفا كيف يقودان قواتهما إلى الحرب ولكنهما ظهرا عاجزين عن ضبط هذه القوات وإخضاعها للنظام. وبينما كان مجرد ذكر اسميهما يثير الذعر في أفريقية بكاملها، قبلا منذ هزائمهما الأولى تجنيد كل ما كانت تعده أفريقية من لصوص وقطاع طرق وقتلة. لقد كان بنو غانية وقراقوش مضطرين كل مرة لاحتلال مدن وقرى عنوة من أجل دفع مرتبات قواتهما، والأخطر مما سبق أن المغانم كانت تقسم بين المحاربين،

---

(1) في زمن ابن خلدون، كان هذا القصر لا يزال يحمل اسم قصر البنات. لم تتزوج هذه البنات قط، تمشياً مع الرغبة الأبوية. لا شك أن يحيى ورثهن كبرياءه، لأنه عندما أراد أحد أبناء عمومهتن الزواج من إحداهن، وعندما ألح أبو زكريا، أجابت المعنية: «إذا كان حقاً ابن عمنا، ما كنا لنعيش على نفقة آخر». وقد توفيت بنات يحيى وقد تقدمت بهن السن كثيراً. وكان والد ابن خلدون يتذكر أنه التقى بإحداهن سنة 710هـ/ 11 ـ 1310ف، وكان عمرها تسعين سنة في ذلك الوقت، وكانت أنبل امرأة عرفها. انظر عاليه.

ومن ثم لم يعد يحيط بهما إلا محاربون مدفوعون بالعطش للنهب والسلب[1].
وزاد من خطورة هذا الوضع أسلوب تجنيد يحيى، فقد كان متعوداً ـ كما يؤكده ابن خلدون[2] ـ من أجل أن يؤمن اندفاع وحماس مناصرية أن يأخذ قوات على حسابه ويتركها تغادره دون عقبة إذا ما تعبت من الخدمة. كان الأسلوب ذكياً، ولكنه كان مأساوياً بالنسبة لأفريقية لأن فروع القبائل المجندة مضافاً إليها حثالة أفريقية كانت ترغب قبل كل شيء في الإثراء السريع قبل العودة إلى نشاط أقل خطراً. استمر هذا خمسين سنة، ولكن آثار مثل هذه السياسة لا تنتهي مع موت الرؤساء، إنها عملية وانطلقت، وقد حاول الحفصيون كبحها بكل تأكيد، ولكنهم لم يستطيعوا قط أن يمحو نتائجها بشكل نهائي. لقد حول بنو غانية وقراقوش البدو العرب إلى لصوص وقطاع طرق، ومنهم من بقي هكذا[3].

طوال نصف قرن من الزمان، هدِّمت القرى أو أُحرقت وأغير على الزراعات ونهبت، وقطعت الأشجار، وسلب السكان. وبتحصن المرابطين والغز في أماكن منيعة مثل طرابلس وقابس والمهدية أو في الصحراء؛ في توزر أو ودان تعذر الإمساك بهم أو الوصول إليهم. لقد احتلت زلة، وعذب عاهل زويلة الأباضي وأخذت كنوزه واختفت الأسرة الحاكمة، وخرب ساحل طرابلس الغرب، وحوصرت مدينة طرابلس مرات كثيرة ودمرت، وتم الأستيلاء على غنائم هائلة من جبل نفوسة الأباضي، وسقطت غدامس ـ التي كانت حتى حينها هادئة ـ في أيدي ابن قراتكين ثم كابدت، مثل درج، الهجمات الحفصية. وتم احتلال الجريد، ثم فقد وأعيد احتلاله وعوقب سكانه، وسلمت واحات نفزاوة للجند. كان التقتيل والاغتصاب والحرائق في كل مكان.

---

(1) يجب أن نستثني قبيلة دباب. فبعد أن عوملوا بوحشية من قبل قراقوش زحفوا ضده مع يحيى بهدف وحيد وهو الانتقام.

(2) البربر، ج2، ص103.

(3) مثل مشهور: عندما تركت قافلة ابن بطوطة طرابلس أرادت عصابات من العرب مهاجمتها غير بعيد من سرت ولكن العناية الإلهية أبعدتهم.

وسقطت المدن التونسية الواحدة تلو الأخرى. تداولت الأيدي على قابس مرات عديدة، ونهبت القيروان، وقضي على منزل باشو وقتل سكانه أو سلبوا، وهُجر رأس عنابة، وحوصرت مدينة تونس وسلم سكانها للجلاد وفرض على من بقي منهم حياً ضريبة مرهقة لدرجة أن بعضهم فضل الانتحار. وقد احتلت تبسة، وعنابة وباجة من قبل المرابطي الذي أمر بقطع أيدي سكان بسكرة: لقد تجرأوا على مقاومته. وأستولت قواته على منتجات الحصاد وما أحضرته القوافل. وقد سويت قلاع مع الأرض، واقتلعت زراعات وحولت إلى أراضي رعي ولم تنم فيها الأشجار بعد ذلك أبداً، واختفت مراكز حضرية. وقد أصبحت كل الطرق العابرة للصحراء خطيرة: مثل الطرق من زويلة إلى برقة، ومن غدامس نحو طرابلس، ومن توزر نحو تونس كذلك، ومن ورقلة نحو مدينة الجزائر ومن سجلماسة نحو مراكش. ولم يحدث أن حاول الرئيس المرابطي أن يحد من تعطش قواته للنهب التي عانى منها السكان في كل مكان: البدو الرحل؛ حراس قوافل ورعاة، مثل المستقرين؛ سكان الأرياف وسكان المدن والموظفون والحرفيون أو التجار. حتى الديانة عجزت عن لجم روح التخريب عند هؤلاء المغامرين[1].

هل علينا أن نقول أكثر لنثبت أن هجرة بني هلال لم تكن إلا نزهة وديعة مقارنة بأعمال القتل والخراب التي أتاها بنو غانية، وفي حدود أقل قراقوش وابنه لأنهما بقيا مدة أقل؟ إن الأحداث والوقائع مثبتة. فلم يرد في أي من النصوص العربية القروسطية ذكر لمثل هذه الأعمال من الدمار في معرض الحديث عن دخول العرب إلى أفريقية، حتى عندما جُندوا مرتزقة من قبل الأمراء المتنافسين. ومع ذلك ما زالت تنسب إليهم كل الشرور التي عرفتها أفريقيا الشمالية. ومازال الاستشهاد وإعادة الاستشهاد بأقوال ابن خلدون المقارنة لبني هلال بأسراب جراد تدمر كل شيء في طريقها، مستمراً. تبدو هذه

(1) ابن غلبون، ص64.

الجملة كما لو أنها تكّون صلب أعمال هذا المؤرخ، وأن هذه العبارة هي المفتاح لشرح كل تاريخ أفريقية. ويُنسى أن وصول العرب لا يمثل عند ابن خلدون إلا واحدة من بين وقائع وأحداث أخرى كثيرة، ويغض الطرف عن مقاطع حول بني غانية أكثر إدانة للبربر من إدانة المقاطع المتعلقة ببني هلال للعرب الرحل. ويسكت عن أقوال كررها ابن خلدون مرات عديدة حول تخريب تاهرت ومأساتها: «حتى بقاياها أختفت» و«منذ ذلك الحين بقيت المدينة بدون سكان»[1]. وسجل ابن خلدون حول موضوع أرشكول ـ وهي مدينة ساحلية ـ وتاهرت: «حدث تخريب هاتين المدينتين أثناء حروب ابن غانية في الزمن الذي خربت فيه كل مدن المغرب الأوسط من قبل القبائل الزناتية التي كانت قد كرست كل الوقت دون توقف، لاضطهاد السكان، ونهب الأموال، وخطف المسافرين والقضاء على كل أعمال الحضارة، وعلى احتلال القلاع عنوة. . .». ويكتب حول التجمعات العمرانية التي سقطت تحت ضربات بني غانية: «منذ ذلك الحين، بقيت هذه المدن غير مأهولة . . . ولا توجد فيها نار واحدة ولا خطبة واحدة، ولم يعد يسمع فيها صياح الديك. . . وسيستمر هذا حتى نهاية الدنيا.»[2]. هل كان العهد الاستعماري مقتنعاً إلى هذا الحد بمساوىء البداوة خاصة البداوة العربية ـ لدرجة أنه أهمل هذه المقاطع من كتاب كان قد جعل منه مرجعه الرئيسي؟ صحيح، أن بني غانية لم يكونو عرباً وإنما كانوا من البربر، وعندها كان يجب الاعتراف بأن أفريقيا الشمالية دمرت من قبل مرتزقة كان من بينهم عرب رحل ـ بشكل خاص ـ ولكن منهم كذلك بربراً ساخطين. عليه، هل يجب أن نعزو انحطاط أفريقية إلى رجال من هذا الأصل أو ذاك أو إلى رجال يحيون هذا النوع من العيش أو بالأحرى يجب أن يعزى إلى الإنسان، إلى طموحه وجشعه.

---

(1) انظر عاليه، ص341.

(2) العبر، ج7، ص161، البربر، ج3، ص339.

ليبيا بعد قراقوش وبني غانية:

عانت طرابلس كثيراً من المعارك التي خاضها بنو غانية وقراقوش. وبينما وصف الإدريسي طرابلس كمدينة تقطعها شوارع جميلة وأسواقها مبنية بناء متيناً وبها معامل ومستودعات[1] لم يعد ـ حسب شاهد عيان من نهاية القرن الثالث عشر ـ «في هذه المدينة، حيث الفضيلة منعدمة، شيء يبهج النظر: لا أشجار ولا حدائق ولا زهور»[2].

عمل الحفصيون بمثابرة على إعادة بناء المدينة[3]، التي بقيت تحت سلطتهم الحقيقية أو الأسمية. وقد اضطروا لقمع حركات تمرد، خاصة هذه التي قادها سنة 1306ف عثمان بن دبوس ابن آخر الموحدين، الذي جند قبيلة الجواري[4]. وفي حوالى سنة 1324ف، وعلى أثر مظالم ارتكبت في طرابلس من قبل الوالي الحفصي وأثارت غضب السكان، اضطر الخليفة لقبول شبه استقلال للمدينة التي أديرت طوال ثماني عشرة سنة من قبل الأسرة الهوارية، بني ثابت. وبعد فاصل جنوى أستمر عدة أشهر، سقطت طرابلس في أيدي أحمد بن مكي أمير قابس الذي كان يعترف بالسلطة المرينية، ولكن بني ثابت أعادوا الاستيلاء على المدينة سنة 1369ف. وكان بنو ثابت يعترفون تارة بسلطة الحفصيين[5] وتارة يرفضونها، وقد تمكن الحفصيون من الإطاحة بهم نهائياً سنة 1398ف. وقد بقيت المدينة تحت الحفصيين حتى نهاية الأسرة[6] الحفصية، وذلك إذا ما استثنينا بعض الثورات بسبب رفض السكان دفع الضريبة.

انتقد الإدريسي الخراب الذي قام به العرب في سرت، وقد كانت لا تزال

---

(1) نزهة، ص121/ 142.

(2) العبدري، ص132 ـ 134.

(3) التجاني، ص245.

(4) ابن خلدون، البربر، ج2، ص403 ـ 404. الجواري فرع من دباب، وهي قبيلة من بني سليم. انظر كحاله، معجم.

(5) ابن خلدون، البربر، ج2، ص451 ـ 453، 471. وج3، ص171 ـ 176.

(6) Storia di Tripoli, E. Rossi، ص87 ـ 97.

مدينة مهمة[1] في زمن الحملات الأولى لقراقوش، وذلك بخلاف ماكانت عليه بعد ذلك بقرن من الزمان عندما زارها العبدري الذي لم ير فيها حدائق ولا بساتين نخل[2]. قال ابن سعيد إن المدينة قد دمرت من قبل العرب ولم يعد باقيا فيها إلا قصور مسكونة من أتباعهم. ولم يرد بعد ذلك ذكر لأسوار المدينة التي كانت قائمة في زمن الإدريسي[3]. إن هناك ما يدعو إلى ملاحظة أنه باستثناء مؤلف كتاب الاستبصار لم يذكر الجغرافيون اللاحقون لأعمال الدمار التي ارتكبها بنو غانية وقراقوش قط هؤلاء بالاسم. ويبدو لنا ـ وهذا لا ينطبق بكل تأكيد على الإدريسي الذي كتب قبل الكارثة ـ أن الاتهامات الموجهة للعرب كان المقصود بها مرتزقة قراقوش وعلي ويحيى من العرب.

في بداية القرن الرابع عشر، كان الساحل بين طرابلس ومصر خرباً، واختفت منه الزراعات، ولم يعد فيه ـ حسب أبو الفدا ـ أي تجمع عمراني فيه حمام أو مياه جارية[4]. وكانت الطريق طرابلس ـ برقة خطيرة للغاية، ولم يكن الحال هكذا من قبل، على ما يبدو. وقد علم التجاني أي أخطار كان عليه مواجهتها، بعيد مغادرته طرابلس نحو مصر: فقد توجهت قافلة من سبعمائة مسافر من برقة في اتجاه طرابلس الغرب، ونفد طعامهم ولم يجدوا في طريقهم أي تموين واضطروا لأكل لحوم الأفاعي فتسمموا، فهلك منهم رجال ونساء وأطفال ووصلوا إلى حد بيع لحم أضعف الناجين وأكله، ولم يبق منهم إلا مائة على قيد الحياة. وقد نقل التجاني هذه الواقعة عن أحدهم[5].

(1) الاستبصار، ص109، انظر عاليه، ص307.

(2) Das Nordafrikanische Itinerar, p143-144.

(3) بسط الأرض، ص61. إننا نجهل ما إذا كان ابن سعيد يستلهم هنا الإدريسي، أو أنه يؤسس على معلومات معاصرة له. حسب الإدريسي، كانت سرت هي التي عانت في الواقع من الحضور العربي، انظر عاليه ص307. عبرنا عن عدم ثقتنا أمام هذا الكلام لأن الإدريسي نفسه يشرح أن العرب كانوا يشكون من إغارات البربر الرحل ولأنه يواجه بين ثراء طرابلس التي كانت عندها في أيدي روجر الثاني ملك صقلية، راعيه، والمناطق المجاورة التي كانت خارج سلطته انظر عاليه، ص295 ـ 296.

(4) تقويم، ص146 ـ 147 منقولاً من القلقشندي، انظر، 104.

(5) رحلة، 191 ـ 192.

خربت برقة، وأصبحت المرج تلعب دور المدينة الرئيسية في المنطقة. وكان ميناؤها طلميثة، على بعد عشرة أميال، مكاناً تجارياً[1]. ليس من شك في أن اختفاء برقة كان لاحقاً حملة قراقوش، فقد رأينا أن ثراء برقة كان بالتحديد هو ما دفع صلاح الدين لإرسال جيش إليها. ولم تقع ـ بكل تأكيد ـ إلا معارك قليلة في المنطقة لأن الأراضي فيها كانت خصبة ومحرجة[2]. لم يكن ابن خلدون واضحاً فيما يتعلق بهذه المنطقة. يقول إنها ربما خربت بغزو العرب وما قاموا به من أعمال قطع الطرق، ويقول بعد ذلك بسطور إن العرب الذين يعيشون فيها يتعاطون الزراعة والبداوة التي تضطرهم أحياناً للذهاب حتى كانم، ويجب امتداح سلوكهم المسالم ومشاعرهم الطيبة تجاه قوافل الحجاج[3].

إننا نجهل تقريباً كل شيء عن الوضع السياسي في دواخل ليبيا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. فمن أجل تأمين استقرار أفريقية نقل الموحدون القبائل الهلالية إلى المغرب الأقصى. لقد تحقق الهدف الذي سعى إليه الحكام ولكن نتيجة هذه الخطوة كانت توفير المرتزقة للمطالبين بالعروش المغربية. وقد انتقلت فروع من بني سليم ـ كانت قد بقيت في إقليم برقة ـ إلى طرابلس الغرب وتونس الحالية، وحتى فزان في وادي الشاطىء، حيث يوجدون حتى اليوم إلى جانب الرياح[4]. ويبدو أن بربر جبل نفوسة كانوا محتفظين باستقلالهم[5]. حدث نفس الشيء بالنسبة لغدامس التي استطاعت بنجاح مقاومة القوات الحفصية، وعرفت كيف تحافظ على علاقات ممتازة ـ وهو ما تتطلبه التجارة ـ مع كل من تونس وطرابلس[6].

---

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص80. والعبدري، ص148 ـ 149. وأبو الفدا، تقويم، ص148 ـ 149.

(2) ابن سعيد، المرجع السابق.

(3) البربر، ج1، ص164 ـ 165.

(4) Geographie Humaine, J. Despois، ص 191 ـ 199.

(5) Stroria de Tripoli, E. Rossi، ص86.

(6) J. Despois, E.I, S.V. Ghadamis.

كانت بلاد ودان قد أُحرقت من قبل ابن قراقوش، اختفت الأسرة الأباضية من زويلة، وكان عمق الصحراء ـ في ذلك الوقت ـ جزءاً من كانم.

الصحراء الكانمية:

كانت الأسرة الحاكمة في كانم قوية من قبل عندما قامت كانم بضم الصحراء الليبية حتى مشارف البحر المتوسط. في القرنين السابع والثامن استقر على الضفة الشرقية لبحيرة تشاد وفي كوار أقوام بيض رحل قادمون من الحبشة وطرابلس الغرب، وباختلاطهم بالسو أنتجوا الكانمبو. وفي القرن التاسع تملكوا مملكة الزغاوة في الجنوب الشرقي لكوار[1]. ويقال أن شخصاً يسمى دوكو هو الذي أسس ـ حوالى سنة 800ف ـ الأسرة السيفوية، وأن جده الأول ـ الذي سميت به الأسرة ـ، حسبما تقول الرواية ـ هو سيف بن ذي يزن الملك الحميرى لليمن، الذي طرد في القرن السادس الأحباش من بلاده. كان السلطان حوا ـ الذي أعطى اسمه لإحدى قلاع فزان[2] ـ هو أول من تحول إلى الإسلام (± 1067 ـ 1071ف)[3]. وكان الإسلام قد بدأ الانتشار في هذه المناطق في بداية القرن الحادي عشر، إذ يشير البكري إلى أن أهل كانم كانوا وثنيين وكانت عندهم مجموعة من الأمويين اللاجئين هناك من اضطهاد العباسيين[4]. لم يكن الأمويون المستقرون في كانم وكذلك التجار الأباضيون

---

(1) حسب المؤلفين العرب، الزغاوة وهم رحل سود صحراويون هم الذين أسسوا كانم. أول التفاصيل حول الزغاوة، زودنا بها اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص193، والبلدان، ص345/ 205. انظر كذلك، J.S. Trimingham, A history of Islam in West Africa، ص110 ـ 116. و D. lange، Commentaires au Diwan Salatin Barnu (وهو كتاب بدأ تأليفه في بداية القرن الثالث عشر وكان يحدَّث حتى سنة 1846ف)، ص120 ـ 129، 156 ـ 157. حالياً لا يوجد زغاوة إلا في دار الزغاوة في شمال وداي في شرق ـ شمال ـ شرق دارفور. عنهم انظر A. le Rouvreur، Sahariens et Sahiliens du Tchad، ص205 ـ 217.

(2) انظ عاليه، ص122.

(3) ديوان سلاطين بورنو، ص22 ـ 30/ 65 ـ 68، Commentaires، ص97 ـ 99.

(4) مسالك، ص11/ 29.

من زويلة وجبل نفوسة ، ليتأخروا في القيام بأعمال الدعوة والتبشير. وقد قام خليفة حوا، السلطان حمى، بنشر الدين الجديد.

ابتداءً من القرن الحادي عشر، بدأ السيفيون التحالف مع التبو الذين من المرجح أنهم من بين أكثر رجال الصحراء قدرة على المقاومة والتحمل، وهم قادرون على قطع مسافات[1] طويلة جداً لوحدهم، وعارفون ـ بشكل عجيب ـ للسماء والأرض، وذوو ذاكرة خارقة[2]. لم يضف هذا التحالف لهيبة الأمراء و«يضع بذرة من حب البداوة في قلوب الملوك» فحسب ولكنه مكنهم من القيام بحملات وحروب في الصحراء[3]. وقد عرفت المملكة توسعاً كبيراً في عهد السلطان دونما ديبلام، الذي يسميه ابن خلدون «عاهل كانم، وسيد بورنو»[4]. وفي هذه الفترة أيضاً حرص السلطان على ترسيخ سمعته في الخارج: فقام سنة 640هـ/ 3 ـ 1242ف)، بتأسيس مدرسة مالكية في القاهرة كانت تستخدم محطة لأتباع هذا المذهب[5]. وكان جيش السلطان ـ الذي كانت والدته من التبو ـ يتكون ـ حسب الرواية ـ من مائة ألف فارس، ومائة وعشرين ألفاً من المشاة السودانيين دون الأخذ في الاعتبار العساكر من البربر[6]. وبفضل استعمال

---

(1) مثل: رأينا شخصاً من التبو يصل وحيداً إلى مرزق من نجامينا على مسافة 2000 كيلو متر.

(2) إنني لا أستطيع مقاومة الاستشهاد بهذه العبارة الجميلة لجان شابل Jea Chapelle، nomades noir du Sahars، ص175 ـ 176: «جمل يرثى له، سرق عشر مرات، وتغطيه علامات كل القبائل في الجوار، وباسور مهشم، وبقايا غطاء لا يمكنه تغطية رجل، وقربة فارغة، وبعض تمرات في كيس، وكائن هزيل في أسمال، ووجه تبرز عظامه بعيون حارقة، رجل يبدو خشناً يقذف بلسان لا يفهمه أحد: هذا رجل من التبو في رحلة».

(3) J. Chapelle op. cit. p.55.

(4) العبر، ج6، ص652، البربر، ج2، ص346 ـ 347 (يتعلق بالمقطع المذكور أعلاه وفيه قيل إنه في سنة 1257ف استقبل المستنصر الحفصي هدايا كانم خاصة زرافة).

(5) العمري، ص46. المقريزي، خطط، ج1، ص194.

(6) في مراجع أخرى، الجيوش والعساكر تسمى السود والحمر. انظر De Lange، المرجع المذكور، ص69 رقم 2. نعرف أن البربر يسمون أمازيغ. إن الاشتقاق من هذه الكلمة يخلط مفهوم أحمر ومفهوم محارب مع الرجل الحر، انظر L' origine du mot Amazig, K.G. Prasse، ص197 ـ 200.

الفرسان ومساندة التبو امتدت المملكة إلى الجنوب حتى دكوا وإلى الغرب حتى النيجر ومملكة كوكو. وإلى الشرق حتى وداي. وفي الشمال، احتل كوار وجنوب فزان وأقام فيهما محمية، وهي مناطق كان له معها علاقات ودية[1]. من قبل، ثم تابع السلطان زحفه حتى بلاد ودان للأسباب التي نعرفها. كما كانت الكفرة في صحراء برقة ـ كانت بلداً للزغاوة ـ تحت سيطرته.

إذا كان السبب وراء التوسع الصحراوي واضحاً، وهو الرغبة في السيطرة على الطرق العابرة للصحراء عملياً حتى نهاياتها على الساحل المتوسطي، وإذا كان التجاني قد أخبرنا ـ لحسن الحظ ـ عن هدف دونما ديبلام من الاستيلاء على ودان، فإننا ـ بالعكس ـ لا نعرف شيئاً عن الأسلوب الكانمي في إدارة الصحراء الليبية. لقد سكت المؤلفون العرب عن هذا الموضوع، والروايات التي جمعها المستكشفون من القرن التاسع عشر هي الوحيدة التي يمكن أن تساعدنا في هذا الخصوص.

لقد احتفظت زويلة بأهميتها التجارية ولكن تراغن[2] صارت مقراً للحكومة. ونعرف أن الحاكم أو نائب ملك كانم قد استقل نسبياً، لأن الرواية احتفظت بذكرى الأسرة الحاكمة السوداء، بني نسور التي نشأت في فزان. وربما يكون ممثل كانم في ليبيا قد اتخذ لقب ماي (ملك)، إذ يوجد حتى الآن قبر الماي علي[3] في تراغن لكن هذا الأمر ليس بالمؤكد لأن الروايات التي

---

(1) عهدت أميرة من كانم بابنها الذي كان في خطر لفزانيين رحل، انظر الرواية التي أوردها H.R. Palmer في Sudanses Memoirs، ج2، ص42. أركو (1023 ـ 1067ف) هو السابق لحوا أو لملك مهم، كان لديه عدد كبير من العبيد لدرجة أنه وضع منهم ثلاثمائة في دركو إحدى أقدم التجمعات السكانية في كوار، وثلاثمائة في سجدين آخر واحات كوار الشمالية، وثلاثمائة في زيلا. لا زال التبو حتى الآن يسمون فزان الجنوبي زيلا، خاصة منطقة القطرون ـ تجرهي. انظر H.R. Palmer، المرجع المذكور، ج2، ص87. ديوان سلاطين برنو، ص28 ـ/ 67 وأرقام 3 ـ 5. وخريطة عند Nomades noirs du Sahara, J. Chapelle.

(2) وكذلك تراغن.

(3) H. Duveyrie, Les Touareg du Nord, p.277; G. Nachtigal, Sahara and Sudan, I, p.150-140.

جمعت في بورنو من قبل H.R Palmer تذكر أن وفاة الماي إدريس بن علي واسمه البورني كيم ميل أليمي في زيلة أي في منطقة تجرهي ـ القطرون ـ تراغن في سنة 1701ف، ويعطي بالمر تراغن مكاناً لقبر[1] المذكور. ونتساءل عما إذا لم تخلط الرواية بين شخصين؛ الماي علي من بني نسور ـ الذي ذكرته الرواية التي أوردها Duveyrier وNachtigal ـ سيد تراغن، والذي مات في مقر حكومته، والماي إدريس بن علي، عاهل بورنو الذي يقال أن الموت فاجأه بينما كان في سفر، وكان المسار عبر فزان لا يزال طريق الحج المفضل في القرن الثامن عشر. لقد ترك الحكم الأسود في المنطقة آثاراً كثيرة في أسماء القصور والحدائق وفي الآبار[2] خاصة. يقول بعض سكان تراغن السود، أولاد كسوم[3]، حتى اليوم إنهم منحدرون من الحكام الكانميين للمنطقة[4]، وترجع وثائق بني ثامر هذه الأسرة[5] إلى بورنو، وتتضمن احتفالات الزواج عندهم ـ حسبما أمكننا التحقق منه ـ طقوساً غير إسلامية. كذلك الأمر بالنسبة للفولكلور، والرقصات بشكل خاص، التي لا علاقة لها بتاتاً بالعالم المتوسطي.

من المستغرب أن ليس في إمكاننا معرفة زمن السيطرة السودانية التي امتدت حتى مسافة مائتين وخمسين كيلو متراً من البحر المتوسط وتركت آثاراً يمكن ملاحظتها حتى اليوم. هل كان الطريق العابر للصحراء الذي كان من بداية حتى نهايته تحت سلطة نفس الملك قد عرف سلاماً مستمراً، ومن ثم لم يثر من جانب المؤرخين أي تعليقات؟ هل يجب أن نسلم بأن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها؟ وسيستمر جهلنا حتى نكتشف مخطوطات جديدة. لسوء الحظ، يؤكد الفزانيون أن لا مخطوطات في حوزتهم.

---

(1) Sudanese Memoirs, III, pp.38, 41 et 45; Diwam Salatin Barnu, p.81, n.1.

(2) Liste dans H. Duveyrier, op. cit.p.279 et G. Nachtigal, op. cit. I, p.150.

(3) الكتابة هكذا قد لا تكون مؤكدة.

(4) J. Despois, Geographie humaine, p.250.

(5) H. Duveyrier, op. cit. p.280.

أزيح بني نسور من السلطة ـ حسب الرواية التي أوردها هنري ديفريي، وغوستاف ناشتيقال ـ من قبل العرب أو البربر الخرمان/ القرمان، وقد طُرد هؤلاء من قبل أولاد محمد، وهم أشراف جاؤوا من المغرب، وأسسوا مرزق سنة 1310ف[1]. لقد أريد تحديد هذا التاريخ تاريخاً لاختفاء سيطرة كانم على الصحراء الليبية[2]، ولكن هذا يتناقض مع تأكيدات الجغرافيين العرب.

ينقل أبو الفدا الذي انتهى من تأليف كتابه سنة 1321ف، عن ابن سعيد الذي كتب مؤلفه قبل سنة 1286ف. ونعرف أن أبا الفدا يناقش مراجعه[3] أحياناً، وهو على اتساق مع سابقيه حول الصحراء الليبية، كتب: «وفي شرق غدامس ودان وهي جزائر نخل ومياه. . . وفي الشرق(!) بلاد فزان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ولها مدن وعمائر أكثر من ودان[4] والجميع الآن في طاعة ملك كانم. وقاعدة فزان مدينة زويلة»[5]. نلاحظ ـ أنه بالإضافة إلى الذكر الضمني لواحات عديدة في الجفرة[6] ـ أن المنطقة ربما كانت تتمتع خلال هذه الفترة ببعض الهدوء، وأن دونما ديبلام قد حقق هدفه.

في القرن الرابع عشر، لم يشمل العمري فزان والكفرة فقط في كانم وإنما كذلك بلاد ودان : «تبدأ امبراطورية (ملك كانم) من جانب مصر، عند مدينة تسمى زلة وتنتهي طويلاً عند مدينة تسمى كاكا، وتبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ثلاثة أشهر. . . يقع هذا البلد بين خط طول أفريقية وخط طول برقة ويمتد

---

(1) Les Touareg du Nord, pp.277-281; Sahara and Sudan, I p.151.

(2) J.S. Trimingham A history of Islam in West Africa, p.116, n.5.B. Vernier, Histoire d'un pays saharien: Le Fezzan, p.62.

(3) T. Lewicki, Arabic external Sources, p.81.

(4) من المعروف أن الجفرة تتكون من ثلاث واحات، من الشمال إلى الجنوب: ودان، هون، سوكنة.

(5) ابن سعيد، بسط الأرض، ص61، والذي يقول ـ كذلك ـ إن ودان تمثل ملجأ بعد طريق طويلة ومتعبة. وأبو الفدا، تقويم، ص126 ـ 127.

(6) في القرن الحادي عشر، أورد البكري هون مكتوبة (هول)، انظر المسالك، ص11/ 29.

حتى خط طول المغرب الأوسط في الجنوب»[1]. هكذا كانت كانم لا تزال تمتلك الصحراء الليبية عندما كانت قلاقل خطيرة تهددها. فبين سنتي 1315ف و1335ف نشبت الحرب مع البقرمي، ثم كان على كانم مواجهة السو على الضفاف الغربية لبحيرة تشاد، وقد قتل أربعة ملوك متتابعين في المعارك[2]. ويشار ـ كذلك ـ إلى الأهمية التي يبدو أن العمري (المتوفى سنة 1349ف) قد أعطاها من قبل لمدينة كاكا (كوكو حالياً)، قبل أن يهجر ملوك كانم نجيمي بسبب مناوشات البوللا أصيلي بحيرة فترى، وينتقلون إلى غرب بحيرة تشاد ويؤسسون هذه العاصمة[3] الجديدة قبل 1390ف[4].

يلاحظ العمري في مقطع آخر حول كانم، وهو مقطع ثمين ويزيد من قيمته أن المعلومات الواردة حول الموضوع نادرة، أن الطريق الذي يؤدي من مصر إلى مالي وغانا ينطلق من الصعيد ويعبر الواحات في منطقة صحراوية تجوبه قبائل عربية ثم قبائل بربرية للوصول إلى المناطق المسكونة[5]. وهكذا يكون الدرب

---

(1) L'Afrique moins L'Egypte, pp.43, 45.

(2) يتعلق الأمر بالسلاطين سلمامة بن عبد الله (± 1335ف ـ 1339ف)، وكوري الصغير (± 1339ف ـ 1340ف)، وكورى الكبير (± 1340ف ـ 1341ف)، ومحمد بن عبد الله (1341ف ـ 1342ف). انظر ديوان سلاطين بورنو، ص41 ـ 24/ 75. ليون الأفريقي هو أول جغرافي عربي ذكر السو ويسميهم سيو (1، ص53، 5/ 11، ص480). حسب J.R. Lebeuf و A. Masson Detourbet، La Civilisation du Tchad، ص38، تنظمت قبائل السو في مجموعة متسقة، والكوتوكو الحاليون متحدرون منهم.

(3) كوكوا موضحة على الخرائط الحالية على الطرف الغربي لبحيرة تشاد. واسم هذه المدينة مكتوب من قبل مؤلفي القرون الوسطى: كاكا، كوكا، كوكو، كوغا، كوغ، جاجا، جوا ولا يجب الخلط مع كوكو/جاو على نهر النيجر، ولا كوكيا وهي بلدة واقعة على مائة كيلومتر غرب جاو ولامع كوك وهي قبيلة من بحيرة فترى . انظر Haut Senegal-Niger, M. Delafosse، 2، ص67. وانظر H.R. Palmer، Sudanese Memoirs، 1، ص7. انظر كذلك Sahara and Sudan, G.Naehtigal، 11، ص147. و Travels and Discoveries, H. Barth، 1، ص591 ـ 596، 11، ص 227 ـ 228، وIII، ص592 ـ 593 والخرائط. وGaudefroy Demombynes، في العمري، رقم 6، ص56 ـ 57.

(4) القلقشندي، انظر، ص281. انظر كذلك N. Levtzion and J.F.P Hopkins، Corpus، ص344 ـ 345. وديوان سلاطين بورنو، ص76 رقم 3.

(5) L'Afrique moins L'Egypte, p.80.

الخارجة ـ الداخلة ـ الكفرة ـ السودان قد أعيد استعماله. ولما لم يعد يذكر بعدما منع ابن طولون سلوكه[1]، فمن المقدر أنه تم انتظار السلام الكانمي لنرى هذا الدرب مطروقاً من جديد. وبالفعل يقع جزء كبير من هذا الطريق، وهو الأخطر من الناحية الطبيعية، في موطن الزغاوة حلفاء كانم.

يذكر ابن خلدون نقلاً عن ابن سعيد ـ ونعرف العناية التي كان يعطيها هذا المؤرخ لاستيفاء البيانات التي يخبر بها، وقد مر غير بعيد من المناطق التي يتحدث عنها هنا ـ أن كانم بسطت سلطتها على الصحارى حتى فزان[2]. ويشرح في مقطع آخر ـ له شخصياً ـ أن فزان منطقة تشتمل على عدد كبير من المقاطعات «مملؤة بالسكان ومغطاة بالقرى والنخيل والمياه الجارية»[3] والجزء الأول من هذا المقطع ـ حتى وإن كان محققاً من قبل المؤلف ـ مؤسس على معلومات سابقة لعهد السلطان الكانمي عمر بن إدريس (± 1382 ـ 1387ف) حيث ورد فيه أن عاصمة كانم هي نجيمي. ومن المعروف أن السلطان عمر اضطر لترك نجيمي بسبب ضغط البولالا وحول عاصمته إلى كوكا/ كوغا[4]. ويجب ملاحظة أن السلام الذي ساد فزان

(1) انظر عاليه، ص141، رقم 3، وص207 ـ 208. أن نص بنجامان دي توديل (الذي لا نعرف ـ لسوء الحظ ـ مراجعه) يدعو لافتراض أن هذا المسار كان مستعملاً بالرغم من مخاطره في الربع الثالث من القرن الثاني عشر. انظر Levtzion and Hopkins، Corpus، ص135 ـ 136.

(2) البربر، ج2، ص109.

(3) نفس المرجع السابق، ج1، ص191.

(4) اضطر سبعة سلاطين متتابعين لمحاربة البولالا. كان الأول داود بن إبراهيم (± 1366ف ـ 1376ف) وذلك بمجرد انتهاء الحرب ضد البقرمي والسو. كان الخامس هو عمر وهو الذي جعل من كوغا عاصمته. يبدو أن المعارك ضد البولالا كانت عنيفة في عهد كدي أفنو إبراهيم (1388ف ـ 1389ف). وبعد زمن طويل استولى السلطان إدريس بن عيسى (± 1497ف ـ 1519ف) من جديد على نجيمي من البولالا، انظر ديوان سلاطين بورنو، ص42 ـ 45، 75 ـ 77. حول حروب البولالا انظر: H.R. Palmer، Sudanses Memoirs، ص33 ـ 53. حسب أغاني البولالا فإن أعداءهم لم يكونوا فقط سكان كانم ولكن كذلك الوسر/بوهابي وهم فزانيون والكلكن/ الكندن وهم طوارق، انظر H.R. Palmer المرجع المذكور. I، ص7 ـ 11. حول اضطرابات القرنين الثالث عشر والرابع عشر في كانم، انظر كذلك R. Cornevin، Histoire des peuple de L'Afrique Noire، ص328 ـ 329.

ـ حسب الجزء الثاني من المقطع ـ يتسق بصعوبة مع سيطرة الخرمان/القرمان الذين خلفوا كانم.

لم يكن المقريزي ـ الجزء الأول من القرن الخامس عشر ـ واضحاً بشكل قاطع، ربما يمكن أن نستنتج من نصه أن فزان ـ إن لم تكن ودان ـ كانت لا تزال كانمية: «وفي شمال كانم توجد بلاد فزان التي سكنها بربر والتي تمتد حتى زويلة في جنوب برقة. . . ويقال أنهم (سكان كانم) كلهم زغاوة، ويحدهم من الجنوب الأحباش، ومن الشرق النوبة ومن الشمال بلاد برقة وفي الغرب التكرور»[1]. وتقود عبارة «في شمال كانم[2]، توجد فزان» إلى بعض الخلط ولكن البقية ـ كما يبدو ـ لا تترك مجالاً لأي شك: ويحد سكان كانم من الشمال بلاد برقة.

كان الوضع في الربع الأول من القرن السادس عشر أكثر تعقيداً وتشويشاً: فليون الأفريقي ميز مملكتين في منطقة بحيرة تشاد. كانت هناك، أولاً، مملكة بورنو «التي تتاخم في الجنوب صحراء ست[3] وفي الشمال تجاور صحاري برقة. . . وهذه الولاية يقودها سيد قوي جداً من برادوا، وهم قوم من ليبيا»[4]. ثم يعالج ليون الأفريقي بعد ذلك مملكة جوجا/كوكا، «وهي ولاية تجاور بورنو إلى الغرب ومملكة النوبة إلى الشرق. . . في الشمال تمتد هذه الولاية حتى صحراء سرت وإلى مشارف مصر»[5].

من الواضح، أن السود كانوا لا يزالون يبسطون سلطتهم حتى مشارف البحر المتوسط، في بداية القرن السادس عشر ولكن الغموض الذي يلف هذه

(1) فـي J.M. Cuoq، Recueil، ص386 ـ 395 N. Levtzion and J.F.P Hopkins ،. Corpus، ص354 H.R. Palmer ،. المرجع المذكور، II، ص7.

(2) بالرغم من أن عاصمة الملك الكانمي كانت قد نقلت إلى كوكا في بورنو منذ 1382ف ـ 1387ف استمر في تسمية البلاد كانم.

(3) خلط واضح مع السـو الذين يكتبهم ليون الأفريقي بطريقة صحيحة، II، ص480، رقم 107.

(4) PP.479-480 و II، Descrpitions de L'Afrique.

(5) نفس المرجع، ص481.

المقاطع يدعونا للتفكير في رأي ديرك لانق Dierk Lange : إن الأخطاء الكثيرة التي تضمنها وصف بلدان السودان ـ بورنو خاصة ـ يجعلنا نتساءل عما إذا لم تكن رحلة ليون الأفريقي الكبيرة من تومبكتو إلى دنقلة وإقامته لمدة شهر في بورنو محض تصورات[1]. إن الأمر أكثر غموضاً مما يبدو لأن ليون إلى جانب قبيلة براداوا التي ذكرناها هنا، يذكر مرتين موقعاً يسمى بيردو[2]/ بردو[3].

إن الخطأ يكمن بكل وضوح في الموقع المحدد لجوا: إن جوا ـ كوكا لا يمكن أن تتاخم بورنو إلى الغرب لأنها هي بورنو، إلا إذا كان الأمر يتعلق بمدينة أو بلد مجهول[4] منا، ويمكننا تقدير أن ليون سمى كانم، أي شرق بحيرة تشاد باسم عاصمتها القديمة كوكا ـ جوا الواقعة غرب البحيرة. والخطأ جسيم لدرجة أنه في وصفه بورنو، لم يرد قط ذكر عاصمتها الجديدة منذ 1470ف، نجازار قمو[5]. إذا سلمنا بأن مملكة جوا واقعة في شرق تشاد، في بلاد البوللا[6]، فستبقى مسألة تبعية الصحراء الليبية لملكين سودانيين عصية

---

(1) ديوان سلاطين بورنو، ص103.

(2) Descrpitions de L'Afrique, I, p.8 .

(3) نفس المرجع، II، ص457.

(4) إن الخلط بين حروف ج،ق،غ،ك، يمثل مشكلة. لا يمكن أن تكون كوكو/ جاو الواقعة بعيداً إلى الغرب عند انعطاف مجرى نهر النيجر التي يتناولها ليون أعلاه ويسميها جاو وأحياناً أقل كوكيا/ جوجيا على مسافة حوالى مائة كيلو متر إلى الشرق، الجنوب الشرقي من جاو من إقليم السونغاي، انظر ابن سعيد، تاريخ السودان ص6 رقم 3، والفهرس M. Delafoss، Haut Senegal، II، ص67.

(5) تقع هذه المدينة على مسافة 120 كيلومتراً غرب كوكوا، وعلى 140 كيلومتراً غرب البحيرة. وقد أسسها الماي دونمامي الملقب بغجدني (المنتصر) (± 1465ف ـ 1497ف) حسب D. Lange و(1472ف ـ 1504ف) حسب H. Barth، و H.R. Palmer، وهو ملك مهاب وضع حداً للحروب الأهلية وتمكن من تحقيق وحدة المملكة، ولكنه لم يتمكن من إخضاع البوللا، انظر، H. Barth، Travels and Discoveries، II، ص588 ـ 590. وديوان سلاطين بورنو، ص51 ـ 52/ 79 وملاحظات. H.R. Palmer، Sudanses Memoirs، I، ص1، III، ص44، والخرائط: I، ص81، وII، ص119.

(6) هذا أيضاً رأي T. Lewicki، Arabic External sources، ص96. وقد دُحر البوللا من قبل خليفة علي، إدريس بن عيسى/ إدريس الأمة (± 1479ف ـ 1519ف) حسب D. Lange، =

على الفهم: في الغرب، بورنو تتبعها صحراء برقة الواقعة في الشرق، المملكة إلى الشرق المسماة جوا، تمتد حتى صحراء سرت الواقعة في الغرب، يمكننا أن نرى مع T.Lewicki فيمن سماهم ليون برداوا، سادة بورنو، تبو برداي في تبستي. إن هذا قد يفسر هيمنتهم على الصحراء الليبية الشرقية والتشابه في الأسماء بين قبيلة برداو وواحات بيردوا ـ الكفرة التي ما زالت حتى الآن في منطقة تنقل التبو: وهكذا يكون تبو بورنو قد بسطوا هيمنتهم على تبستي وصحراء برقة. كما يمكن، كذلك، أن تكون أسرة بني نسور من تراغن الذين أمتدت سلطتهم من كوار حتى مشارف خليج سرت[1]، وكانوا مستقلين أو شبه مستقلين قد استمروا في الاعتراف بالسيادة الاسمية لسادة شرق بحيرة تشاد. إن المقطع الذي يخصصه ليون الأفريقي لفزان لا يتعارض مع هذا الافتراض. يقول عن فزان إنها منطقة كبيرة مسكونة. توجد فيها قرى كبيرة سكانها أغنياء سواء بالنخيل أو بالنقود. وتقع هذه البلاد ـ فزان ـ «في تخوم أغاديس، وصحراء ليبيا التي تجاور مصر» على مسافة ستين يوماً من القاهرة، وأوجلة الواقعة في صحراء ليبيا هي المكان الوحيد المأهول بين فزان ومصر. و«فزان يحكمه سيد وهو بشكل ما القاضي الأعلى للناس. ويتصرف في كامل دخل البلاد لصالح الجماعة ويدفع ضريبة معينة لجيرانه العرب»[2].

وحسب ليون، يبدو فزان الواقع بين الأيير وصحراء ليبيا المتصلة بمصر

= و(1504ف ـ 1526ف) حسب H. Barth و H.R. Palmer) الذي استولى منهم على نجيمي. حول الحروب التي خاضها السيفوا ضد البوللا في شرق البحيرة، انظر الرواية التي أوردها H. Barth حسب حوليات أحمد بن فورتو ـ أوفورتوا ـ المؤلفة في نهاية القرن السادس عشر، المرجع المذكور، II، ص589 ـ 590 وH.R. Palmer . المرجع المذكور، I، ص17 حسب نفس المصدر، II، ص44 ـ 46، ترجمة مخطوطة من سوكوتو، III، ص45، وجدول زمني. وديوان سلاطين بورنو، ص52/ 79.

(1) Arabic External Sources p.96 .

(2) Descriptions de L'Afrique, II, PP. 446-447 .

هو هذه المنطقة الخاضعة لسلطة ملك جوا[1]، وهي مجرد سلطة اسمية لأن حاكم فزان البلد الثري يتصرف كما يحلو له في عائدات المنطقة لصالح سكان فزان بالرغم من أنه يدفع ضريبة للعرب. ولم تكن الأسرة الفزانية بنو نسور تمارس أي سلطة على بيردوا ـ الكفرة، وكانت بلاد التبو (تبستي وصحراء برقة) تابعة لبورنو وملكها نفسه من قبيلة بردوا ـ تبو.

إن ما سبق عبارة عن اقتراحات، ولكن يبدو لنا، التقاطع غرب ـ شرق، وشرق ـ غرب للهيمنة السودانية على الصحراء الليبية لا يمكن تفسيره بطريقة أخرى. في جميع الأحوال، من الراجح أن الصحراء الليبية كانت لا تزال سودانية في بداية القرن السادس عشر، وذلك باستثناء غدامس التي كانت في ذلك الوقت مستقلة بعد أن كانت تحت سيطرة مساعدين حفصيين من طرابلس[2].

لم تكن الصحراء الليبية المنطقة الصحراوية الوحيدة التي بسطت عليها مملكة سودانية سيطرتها أو فرضت عليها حماية. فبالإضافة إلى الرغبة في حيازة الملاحات الصحراوية، كان اهتمام الملوك السودانيين منصباً على حماية الطرق العابرة للصحراء التي توفر لهم السلع الشرقية والشمال أفريقية، ثم الأوروبية فيما بعد، التي كانوا يحتاجونها، ولا بد أن تجار الشمال الذين كان يهمهم استمرار تدفق الذهب مثل تجار الجنوب كانوا مؤيدين لهذه الحماية، إذا لم يكونوا قد عملوا من أجلها، فقد أصبحت التجارة خطرة وصعبة بسبب انعدام الأمن على الطرق التي أصبحت فريسة لعصابات النهب وليدة القلاقل في شمال أفريقيا. وكان شراء «الحماية» ضد هؤلاء اللصوص والذي كان يجب أن يتم من قبائل المناطق المعبورة خسارة في الأرباح لا يمكن تحملها. ولما وصلت امبراطورية الماندنجو[*] المالية أوجها ـ خاصة في عهد مانساموسى (± 1312

(1) Ibid, P.481.

(2) نفس المرجع السابق، ص446.

(*) هكذا كتبها د. الهادي المبروك الدالي في كتابه «مملكة مالي الإسلامية»، ص22.

ـ 1337ف) ـ كان التجار الأجانب، المصريون خاصة، يأتونها في قوافل يتزايد عددها أكثر فأكثر مجذوبين بالروعة التي ظهر بها موسى عند مروره بالقاهرة في طريقه إلى الحج وبلا مبالاته بذهبه[1]. كان لا بد من حماية طرق الاتصالات، ولهذا امتدت الامبراطورية نحو الصحراء، وكان من ممتلكاتها: ولاتة[2]، وأروان اللتان تتحكمان في الطريقين العابرين للعرق[3] العظيم، وتادمكة ـ السوق في درار أفوغاز، ونهاية طرق توات، وتاكدة[4] حيث تصل طرق غدامس ـ غات ـ تاسيلي وتدكلت عبر الهقار[5]. ولكن الهيمنة الحقيقية لمالي كانت تمتد بعيداً وراء هذه الحدود. وقبل أن تبلغ مملكة الماندنجو الحد الأقصى في توسعها، كان في السودان الصحراوي ثلاثة ملوك بربر مستقلين ـ كما قال لنا العمري ـ وهم من الغرب إلى الشرق؛ سلطان أودغست، وسلطان تادمكة، وسلطان الآير، وليس لملوك شمال أفريقيا وسلطان مالي أي سلطة[6]

---

(1) Les Empires du Mali, Charles Monteil، ص84 (هنا ص123 ـ 124)، وانظر فيما سيلحق، ص532 ـ 533.

(2) يقول ابن خلدون بعض كلمات حول مخاطر الطريق نحو ولاتة. انظر البربر، ج3، ص298.

(3) في أروان تنتهي كذلك القوافل القادمة من ملاحات تغازة المستغلة من قبل مسوفة الملثمين. وكانت مساكن تغازة ومسجدها مبنية بأحجار من الملح، وكانت الأسقف من جلود الجمال، انظر البكري، ص171/ 322 الذي يسمي المكان تات. نتال. ابن سعيد، بسط الأرض/ ص47 يسميها حصن الملح. القزويني، ص25 ـ 26 يكتب تغارة. وابن بطوطة، ج4، ص377 ـ 378. وليون الأفريقي، ج2، ص455 ـ 456. وJ.M.Cuoq، Recueil، Ind. و Levtzion index and Hopkins، Corpus. هجرت مناجم تغازة في القرن السادس عشر لصالح مناجم تاودني التي لا زالت مستعملة حتى الآن. كان الطوارق هم الناقلون. انظر E.W. Bovil، The Golden Trade، ص139 ـ 143. وR. Capot-Rey، Le Sahara Francais، ص215، 413 ـ 414. وF.M. Pareja، Islamologie، ص330. وR. Mauny، Tableau Geographique، ص116 ـ 117، 304، 328، 330، 466، 485 ـ 486. وJ. Clauzel، Transports automobiles، ص161 ـ 168. وJ. Despois، موسوعة الإسلام انظر Azalay.

(4) يبدو هذا توسعاً مفرطاً لمالي. انظر أدناه ص539، ورقم 3.

(5) M. Delafosse, Haut Senegal, pp. 173-191; R. Mauny, op. cit. 506; H. Lhote, Contribution, pp. 391-393, R. Cornevin, Histoire des peuples d'Afrique Noire, pp. 248-249.

(6) L'Afrique moins L'Egypte, p.94.

عليهم. بعد ذلك بقليل، أفاد ابن خلدون، عندما كان يتحدث عن البربر الملثمين في الصحراء أي قبائل لمطة ولمتونة ومسوفة وتارقة، أن الانقسامات أضعفتهم وأنهم أخضعوا لسلطة الملوك السود ـ ملك مالي في تلك الفترة ـ وكانوا يزودون جيشه[1] بفيالق من عندهم. ويضيف ابن خلدون أن سلطة ملك مالي، منساموسى، كانت تمتد إلى الصحراء المجاورة لورقلة ـ ورجلان[2]. هكذا، كان ملك مالي يتحكم في كل طرق الصحراء الوسطى.

يبدو أن حركة سودانية تنامت في شكل قوس دائرة نحو الشمال الشرقي، بعد احتلال المرابطين للسودان الجنوبي الغربي، وأن ودان كانت أقصى النقاط التي وصلت إليها هذه الحركة. وهكذا لم تكن الكفرة وفزان والجفرة، كالمناطق الصحراوية الأخرى، إلا نقاطاً على مسرح السياسة السودانية للدفاع الذاتي والتوسع.

إن الروايات التي جمعها المستكشفون من القرن الماضي[*] هي الوحيدة التي تفيدنا قليلاً حول الوضع السياسي الداخلي في فزان حتى الحملة التركية الأولى سنة 1577ف. في بداية القرن السادس عشر، بعد وقت قصير من الوصف الذي كتبه ليون الأفريقي، برزت في المنطقة قبيلة، من المحتمل أن تكون بربرية، وهي قبيلة الخرمان ـ القرمان[3]. ولا تعطينا الرواية ـ لسوء الحظ ـ إلا القليل من التوضيحات حول الخرمان. ونعرف أنهم اصطدموا مع بني نسور سودانيي تراغن[4]، وأنهم كانو مستقرين في زويلة وكانوا يضطهدون

(1) البربر، ج2، ص104.

(2) المرجع السابق، ص112، حول أهمية ورقلة وروابطها المغربية والصحراوية، والسودانية انظر T. Lewicki، Etudes Maghrebines، ج1، ص9 ـ 78.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(3) نتبنى هنا كلمة الخرمان وهي التي تبناها ابن غلبون، ص111، وهي النطق الفزاني الحالي. لم يذكر في أي مكان في سلاسل الأنساب العربية اسم هذه القبيلة.

(4) إذا كان بنو نسور مستقلين ـ وهو الحال المرجح لأن حوليات كانم لا تذكرهم ـ فإن سلطتهم لا يمكن أن تكون قد امتدت جنوباً حتى كوار لأن من الصعب تصور أن يترك سلاطين بورنو عوائد ملاحات بلما.

الفزانيين الذين يعتبرونهم عبيداً، وقد أظهروا طمعاً بدون حدود. كما اقتحمت ميدان الصراع قبيلة بربرية أخرى، وهي قبيلة الجهمة. في ذلك الوقت، وصل شريف مراكشي، يسمى المنتظر أو المنتصر بن محمد الفاسي. توسل الفزانيون، الذين كانوا يعيشون طغيان الخرمان ضحايا لصراع هؤلاء ضد بني نسور والجهمة، إلى الشريف أن يخلصهم. عندما عاد المنتظر/ المنتصر من الحج حصل من والده على الإذن بتكوين جيش والتوجه إلى ليبيا. وقد تمكنت المفرزة المراكشية من الاستيلاء على فزان وانتخب رئيسها من قبل الفزانيين المقرين بالجميل رئيساً. وقام العاهل الجديد بتأسيس مرزق، في مكان لم تكن فيه إلا بعض الزرائب[1]، ونقل السلطة بعد قليل، إلى ابنه. هكذا، نشأت أسرة أولاد محمد التي استمرت في فزان حتى 1811ف[2]. لم تختف قبيلة الخرمان مباشرة والتي لم يعد يذكر منها اليوم[3] إلا اسمها من قبل الكهول الفزانيين: نعرف أنه بين سنتي 1022هـ/ 14 ـ 1613ف و1032هـ/ 23 ـ 1622ف قام السلطان الطاهر من أولاد محمود بزيادة غير منصفة للخراج على الخرمان ـ سكان وادي الآجال[4] ـ وهذا ما يفيد بأن الخرمان عندما طردوا من زويلة توجهوا نحو

---

(1) زريبة، زراريب = مكان مسور للحيوانات أو كوخ يحتمي فيه الصيادون، بالعربية الفصحى، وسكن مصنوع من السعف، في الصحراء. الأبعاد من 3 × 2م إلى 7 × 14م للهيكل، وعدد الحجرات من اثنين إلى ستة دون حساب الفناء والمكان المخصص للحيوانات، ويختلف حسب المناطق. في وادي الشاطيء عبارة عن مساكن صيفية مؤقتة وهي الفترة التي يهجر فيها السكان منازلهم التي تغزوها العقارب، وفي وادي الآجال هي مساكن دائمة. إن أكبر الزرايب توجد في القطرون ـ تجرهي. ولا يجب الخلط بين زرايب العرب والطوارق والتبو المستقرين مع البوشي، وهو سكن مؤقت للتبو الرحل مشيد من تقويسات أعراق سعف النخيل ومغطاة بحصران القصب، ويمكن نقل البوشي جزئياً. انظر J. Despois، Geographie humaine، ص80 ـ 86 مع 7 لوحات.

(2) H. Duveyrier, Les Touareg du Nord, pp.277-281; G. Nachtigal, Sahara and Sudan, II, p151; B.G. Martin. Kanem, Bornu and the Fezzan, J. Despois, Geographie Humaine, pp.108-109.

(3) لقد علمنا في أغسطس 1990ف أن أسرة من وادي الآجال كانت تحمل حتى وقت قريب نسبة الخرماني.

(4) ابن غلبون، ص11.

الغرب. دخل أولاد محمد التاريخ التركي بحكاية وقعت سنة 1577ف. كان للشريف، المنصور بن الناصر الفاسي، الذي كان يحكم فزان في ذلك الوقت، زوجتان. كانت الأولى بنت عمه، خود تسكن سبها ولم تهبه إلا بنتاً واحدة، وكانت الثانية، التي نجهل اسمها، تسكن مرزق، وكان له منها أولاد عديدون. كانت خود غيورة من الإقامات الطويلة المتكررة لزوجها عند غريمتها، فقامت بتجميع عدد من الأنصار ودخلت في صراع مع زوجها. ولما أدركت عدم قدرتها على إحراز النصر لوحدها، لجأت إلى الأتراك المستقرين في طرابلس منذ 1551ف وأرسلت إلى جعفر باشا ممثل السلطان العثماني وفداً تطلب فيه إليه أن يهب لاحتلال فزان. سعد جعفر باشا أيما سعادة بأن يدعى للاستيلاء بسهولة على منطقة واقعة على أبواب بورنو، فقبل الدعوة. توفي المنصور قبيل وصول القوات التركية، واعتقدت خود أن في إمكانها أن تحكم بدون منازع وأن تقاوم الأتراك. وقد تم الاستيلاء على قصرها في سبها، ونكل بها ثم أحرقت حية، وتم احتلال مرزق وأصبحت فزان مقاطعة عثمانية[1]. في سنة 1582ف، ثار الفزانيون وطردوا الأتراك. بعد ذلك، استقر الصراع بين الأتراك وأولاد محمد في فزان، التي كانت مستقلة نسبياً مقابل دفع أتاوة سنوية من الذهب والعبيد، من أجل حيازة الطريق العابر للصحراء. وفي سنة 1811ف، قتل آخر سلاطين أولاد محمد من قبل المكني، قائمقام[2] القرامانلي[3] باشا طرابلس. وقد قام هذا الأخير بحملات عديدة في بوركو، وبحر الغزال وبغرمي من أجل أسر عبيد. وقد أعاد تحريم الرق إلى الطرق عبر غات، وغدامس وفزان والكفرة الدور الذي سلبه منها خليج غينيا، فقد عمل تجار العبيد على

(1) ابن غلبون، غ ص93، 99. ـ 100Ch. Feraud .، Annales Trlpolitaines، ص78 ـ 79.

(2) القائمقام هو مفوض الباشا في الإدارة، انظر E. Kuran، موسوعة الإسلام، قائمقام. في فزان، في القرن التاسع عشر كان القائمقام ضابطاً كبيراً.

(3) القرامانلي أسرة تركية حكمت طرابلس الغرب ما بين 1711ف و1835ف، وكونت أسرة مستقلة، انظر E. Rossi، Storia di Tripoli، ص221 وR. Mantran، موسوعة الإسلام، انظر قرامانلي.

تصريف بضاعتهم من خلال الصحراء لتعويض الخسائر التي تكبدوها في المناطق الأخرى. من سنة 1831ف إلى سنة 1841ف خربت البلاد الحربُ التي كان يقودها ضد الأتراك عبد الجليل سيف النصر رئيس أولاد سليمان القبيلة العربية المشهورة. حتى اليوم، ما زالت الرواية تحتفظ بذكرى أعمال التخريب والدمار تلك. ولم تعرف البلاد السلام بعد ذلك، بالرغم من أن أولاد سليمان تم دفعهم إلى كانم سنة 1842ف: كانت القبائل العربية في مواجهة الطوارق والطوارق في مواجهة التبو، وطوارق تاسيلي في مواجهة طوارق الهقار. واصطدم الأتراك بكل الصحراويين من أجل إعادة سيطرتهم على الطرق الثلاث المؤدية من بلاد العبيد إلى البحر المتوسط عبر ليبيا: طرق الكفرة ـ أوجلة، وطريق مرزق، وطريق غات ـ غدامس. وقد سيطر انعدام الأمن على كل الطرق الليبية. وأدت هذه المخاطر بالإضافة إلى عمليات الابتزاز التي كان يقوم بها الموظفون الأتراك إلى التسريع بانهيار التجارة وتأخر البلاد. وقام الإيطاليون، الذين كانوا قد استولوا على طرابلس في أكتوبر 1911ف باحتلال فزان لمدة ستة أشهر فقط سنة 1914ف، وطردتهم القبائل التي حرضتها الحركة السنوسية على التعصب. وبقيت فزان خلال خمس عشرة سنة، وحتى احتلالها ثانية من قبل إيطاليا سنة 1929ف، مسرحاً للفوضى والصراعات القبلية. وقد وجدت السلام[1] ـ أخيراً ـ تحت الإدارة الفرنسية ابتداءً من سنة 1943ف حتى استقلال ليبيا في 24 ديسمبر سنة 1951ف.

---

(1) Ch. Feraud, Annales Tripolitaines, pp. 98 - 100, 149 - 150, 177 - 179, 239 - 240, 348 - 349, 375, 379 - 382, 384,387, 401 - 402, 413 - 444, 417 - 419, 425 - 428, 434 - 435, 444 - 447; F. Hornemann, pp. 49 - 95, 99 - 103; H. Duveyrier, Les Touareg du Nord, pp. 263 - 266, 270 - 271, 275 - 284; H. Barth, 1, pp.151 - 156; G Nachtigal, pp. 150 - 166; Al-Hasaisi, pp.105 - 107, 138 - 144, 155 - 159, 162 - 165, 168 - 169, 195; J Chapelle, pp. 48 - 49; M. Emerit, pp. 44 - 47; E. Rossi, Storia de Tripoli, pp.176, 178, Ad-Danasuri, Gughrafiya seq 182 - 185; B. Vernier, pp.62 - 69; J. Despois, El. svv. Fazzan, Ghadamis, Ghat; Fazzan, p174.

الجزء الثاني

- الواحـــات
- المسارات الصحراوية
- التجـارة والتجـار

الواحـــات

سنصف هنا أوضاع الواحات التي تمثل نقاط مرور، أو محطات وصول للطرق العابرة للصحراء. سنتناولها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب[1].

لك[2](*):

يقع هذا الميناء على مسافة تسعين كيلومتراً شرق طبرق، ولم يعد اليوم إلا قرية صغيرة. ولم يمثل هذا الموقع نقطة النهاية لأي من الطرق العابرة للصحراء عبر ليبيا، كما لم يظهر حتى كمحطة في عداد المحطات التي ذكرها الجغرافيون بين الاسكندرية وبرقة. وقد عرف ميناء لك زمنه من المجد في القرن الثاني عشر. يخبرنا الإدريسي أن هذا الميناء كان النقطة التي ينتهي عندها الطريق القادم من سنترية ـ سيوة حالياً، وما زال هذا الدرب مستعملاً حتى

(1) لن نتناول طرابلس التي درست بطريقة معمقة في أماكن أخرى، انظر Storia de Tripoli, E. Rossi. ونظراً لانعزال الكفرة الكلي فستعالج في الأخير.

(2) ستبقى الأسماء كما جاءت عند ياقوت، وهي التي حوفظ عليها حتى اليوم. انظر الزاوي ـ معجم. والإدريسي، ص44/ 52 يكتب ل. كات. ولك لا تظهر على خرائط 1: 000 1000، ولكنها موضحة باسم مرسي لك على خريطة إقليم برقة 1: 000 400.

(*) مرسي لك هو التسمية الحالية. المترجم.

اليوم. ومن المحتمل أن مرسى لك فقد أهيمته مبكراً مع تناقص استعمال طريق سيوة ـ لم يذكر هذا الطريق من أي مؤلف بعد الإدريسي ـ لصالح طريق في داخل مصر ذاتها نحو الشمال الشرقي. وقد أشار اليعقوبي ـ في بداية القرن الثالث عشر ـ إلى أن لك بلدة بالقرب من برقة بين الاسكندرية وطرابلس دون أن يذكر أي تفاصيل.

طبرق ودرنة:

يذكر البكري هذين الميناءين في القرن الحادي عشر[1]. ووردت بعض المعلومات عنهما في القرن الثالث عشر. فقد كانت طبرق مدينة مهمة في عهد الروم، وكانت بقايا أسوارها المخربة ما تزال ترى في زمن ابن سعيد. كانت ميناء لا مثيل له ومحمياً جيداً من الرياح لدرجة كان يعتقد معها أنه حفر في الحجر[2].

كانت درنة قبل وصول العرب المدينة الأكثر أهمية في مرماريكا[3]، ويعبرها نهر ينبع من عين بو منصور في الجبل الأخضر. وفي هذه المدينة قتل زهير بن قيس ورفاقه[4]، وترى قبورهم فيها حتى اليوم. وكان يهود إقليم برقة يجدون ملاذاً في القصور العربية بدرنة لأنها كانت محمية بالجزية[5].

برقة[6]:

إن التفسير الشعبي لتسمية هذه المدينة التي كانت بهذا الاسم قبل وصول العرب[7]، وكانت التسميات برقة (بضم الباء)، وبرقه (بفتح الباء)، وأبرق،

---

(1) المسالك، ص85/ 173.

(2) بسط الأرض، ص81.

(3) الزاوي، معجم.

(4) انظر بعاليه، ص152.

(5) ياقوت، وابن سعيد، المرجع المذكور أعلاه.

(6) موضحة تقريبياً على خريطة الأصطخري، السيدة Moiler، ملحق ص18 ـ 19 ووضحت بطريقة صحيحة على خريطة ابن حوقل، ص62، وخريطة الإدريسي.

(7) Ch. A. Julien,I,P.55.

وبرقاء تعني نفس الشيء: أرض ـ أكام، خاصة ـ مكونة من خليط من الرمال أو الطفل، والأحجار[1].

تتكون منطقة برقة من هضاب ذات مناخ معتدل، وأمطار شتوية غزيرة إلى حد ما، وقد أشاد الأولون بالثراء الزراعي لهذه البلاد.

يبدو أن المكان كان مثالياً بعد الفتح بقليل ـ بعد سبتمبر 642ف[2] ـ فقد نسب إلى عبد الله بن عمرو، ابن الفاتح[*]، وكان هو نفسه حاكماً من سنة 4 ـ 662ف إلى السنة 8 ـ 667ف أنه قال: «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فلا أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها»[3]. نعرف الشروط الصارمة للجزية التي فرضها عمرو بن العاص على لواتة برقة، ونعرف ـ كذلك ـ أن عمر بن عبد العزيز (717 ـ 720ف) أعاد العدل بأمره العرب أن يتزوجوا من اللواتيات اللاتي كن لديهم أو يعيدوهن إلى أسرهن[4]. ونعتقد أن البلاد كانت تنعم بالسلام خلال فترة معينة، إذ إن الإدارة الإسلامية قدرت أن من غير المفيد إهانة كل ساكن من سكان المدينة بإلزامه بدفع الجزية شخصياً إلى الجابي، فلم يكن جابي الضرائب يأتي إلى برقة، وإنما كانت المدينة ترسل نتاج الخراج مباشرة إلى حاكم مصر[5].

كانت محطات البربر الأولى التي يصلها القادم من مصر مأهولة من مزاتة[6]، وهي قبيلة كانت ـ كذلك ـ في ودان[7]. وكانت تسكن منطقة برقة

---

(1) البكري، معجم ص243. وابن سعيد، المرجع المذكور أعلاه. وDictionary ،N, Groom.

(2) انظر بعاليه، ص46.

(*) المقصود عمرو بن العاص ـ المترجم.

(3) البلاذري، ص226. وياقوت، انظر (برقة).

(4) انظر بعاليه، ص69.

(5) انظر بعاليه، ص47، 51.

(6) اليعقوبي، بلدان. ص342/ 201، نفس المؤلف، تاريخ، 1، ص190.

(7) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 205.

ذاتها قبيلة لواتة بأفرعها مفرطة وزكودة[1] ووزنارة، ويمتد موطن لواتة غرباً حتى أجدابيا[2]. وكان يعيش، إلى جانب البربر في القرن التاسع، حسبما أورد اليعقوبي، المنحدرون من الجنود العرب القدامى الذين تناسلوا في المنطقة؛ على التل الشرقي عناصر من قبائل يمنية: من أزد ولخم وجذام وصدف، وعلى التل الغربي أعضاء من قبيلة تجيب وأصلها من حضرموت[3] بالإضافة إلى أعضاء من أزد وجذام وغسان وكلها قبائل يمنية. ويبدو أن العرب والبربر لم يندمجوا بعد كلياً في ذلك العهد.

سبق لنا القول بأن الجزية التي فرضت على لواتة عند الفتح ولدت آلية للتمرد والعصيان. فقد حدثت، في النصف الأول من القرن التاسع، ثورتان في برقة. جاءت الأولى سنة 831ف في عهد المأمون (813 ـ 833ف) وقد قمعت بقسوة بأمر من أبي إسحاق، شقيق الخليفة. واقتيد رئيس المتمردين، مسلم بن نصر بن الأعور، سجيناً إلى مصر. وحدثت الثانية سنة 3 ـ 842ف في عهد الواثق (842 ـ 847ف). وقد شارك فيها عرب من قبيلة قريش إلى جانب البربر[4].

بينما أرسل الخليفة المعتمد (870 ـ 892ف[5]) في سنة 871ف أحد أقاربه، محمد بن هرثمة بن أعين، حاكماً لبرقة، أصبحت الولاية منذ 1 ـ 880ف تابعة للطولونيين[6]، وقد حفظ لنا التاريخ اسم موظف مكلف بجباية الخراج الطولوني على برقة: أحمد بن أبي يعقوب[7]. وأثناء تمرد العباس ضد

---

(1) حول مقارنة لواتة بالليبو في الوثائق المصرية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والليبس عند الأغريق، وحول أفرع لواتة، انظر T. Lewicki، موسوعة الإسلام، انظر (لواتة).

(2) اليعقوبي، بلدان، ص343 ـ 344/ 202 ـ 203.

(3) ع.ر. كحاله، معجم.

(4) اليعقوبي، تاريخ، II، ص465، 480.

(5) نفس المرجع، ص508.

(6) انظر بعاليه، ص207.

(7) ابن سعيد، المغرب، ص122.

والده أحمد بن طولون[1]، قام العباس بسجن أحمد بن محمد الواسطي، الوزير الذي كان يتمتع بثقة ابن طولون، في برقة. ولم يشهد الناس في برقة قط حاكماً أظلم من العباس. وأورد ابن سعيد حكاية تصور العباس جيداً. حط أحد التجار القادمين من أفريقية، في أحد الأيام ببرقة، وأخذ منه العباس كل السلع التي يرغب فيها دون أن يدفع، وقال ساخراً منه: «ما يقنع بأني لم آخذ جميع أمواله! وقد بدرت منه الكلمة التي استحل أخذه بها، فيستتر بستر الله وينصرف بما سلم له»[2]. ولن يدهشنا أن مجموعة من وجهاء المدينة عملوا بحيث أطلق سراح الواسطي بكفالة. وقد أعاده العباس إلى السجن ولكن الواسطي تمكن من الهرب، غالباً بمساعدة سكان المدينة، والتحق بابن طولون، وهو الذي قاد عملية إخماد تمرد العباس وجاء به من برقة إلى الفسطاط عند والده[3].

لم تكن إدارة ابن طولون محل رضى سكان برقة، وكذلك تمرد العباس ومن ثم تمردوا ضد الوالي الطولوني سنة 5 ـ 874ف وقد عانت برقة معاناة شديدة بسبب تمردها لأن الجيش المصري استعمل المجانيق، وقام قائده، العتيق لؤلؤة بقطع أيدي عدد من المسؤولين[4] عن التمرد.

في الفترة (914 ـ 919ف)، قام المهدي عبيد الله بمحاولتين ضد مصر. وقد فشلت المحاولتان ولكن الأولى مكنته من الاستيلاء على سرت، وأجدابيا، وبرقة، ومن التحكم ـ هكذا ـ في الطرق الليبية[5] العابرة للصحراء. لم يكن سكان برقة يتحملون حكم الأجانب لذلك ثاروا من قبل سنة 6 ـ 915ف وتطلب الوضع كل فاعلية القائد العبيدي ابن فروخ ـ وثمانية عشر شهراً من الحصار ـ لإجبارهم على الاستسلام[6].

---

(1) انظر بعاليه، ص208.

(2) ابن سعيد، المغرب، ص137.

(3) نفس المرجع، ص118 ـ 123.

(4) انظر بعاليه، ص223 ـ 224.

(5) انظر بعاليه، ص229 ـ 230، 233.

(6) انظر بعاليه، ص240.

بعد ذلك بقرن تقريباً، في سنة 5 ـ 1004ف، ثارت المنطقة ضد الفاطميين. وبتحريض من وليد بن هشام ـ الملقب بأبي ركوة ـ تحالفت قبائل لواتة ومزاتة وزناتة، وهي قبائل بربرية كانت في حرب ضد بني قرة الهلاليين (نصف قرن قبل الغزو «العربي»). كان الأمر هذه المرة أشد خطراً، فقد احتل المتمردون مرسى لك وكل الآبار على الطريق المؤدية إلى الاسكندرية. وقد تطلب وضع حد[1] لهذا العصيان سنة كاملة من قبل القوات التي جندها الخليفة الحاكم بأمر الله.

إن الوصفين اللذين أعطاهما الجغرافيون لبرقة في القرن التاسع والقرن الحادي عشر مفصلة بعض الشيء، ولكنها لا تختلف كثيراً فيما يتعلق بالجوهر. كانت برقة مدينة جميلة، ثرية «تزخر بكل أنواع المتاع» حسبما يقول ابن الفقيه[2]. ويورد اليعقوبي بعض المعلومات الإضافية[3]. فهو يكتب أن المدينة في مرج واسع ذي تربة حمراء، ومحاطة بخندق وسور أمر ببنائه المتوكل، وأبواب السور المحيط بها من الحديد، ويشرب أهلها من ماء المطر يسيل من الجبل في أودية نحو المدينة حيث يتم حفظه في برك بناها الخلفاء والأمراء.

يؤكد وصف القرن العاشر على ثراء المنطقة. بالنسبة للأصطخري، ليست برقة بالمدينة الكبيرة، إنها مدينة متوسطة، وتعتمد عليها منطقة واسعة خصبة مزدهرة محاطة بصحراء تسكنها بعض المجموعات البربرية[4]. ويتحدث عنها تلميذه، ابن حوقل الذي زارها، بطريقة مفرطة في التقريظ[5]. فهو يؤكد ـ كذلك ـ على التربة الحمراء في السهل الذي تقع فيه المدينة، ويضيف أن ملابس أهلها

(1) انظر عاليه، ص260 ـ 261.

(2) بلدان، ص78 ـ 79 طبعة حاج صدق، ص30 ـ 31.

(3) بلدان، ص343/ 202.

(4) مسالك، ص37 ـ 38، إن خصب الحقول، ووفرة الموارد، والمراعي الممتازة أكدها كذلك المهلبي، في أبي الفدا، تقويم، ص127 ـ 128.

(5) صورة الأرض، ص66 ـ 67/ 62 ـ 63.

وسحنتهم محمرة لدرجة أن سكان برقة يُتعرف عليهم في مصر من بين كل المغاربة[1]. ويواصل ابن حوقل قائلاً إنها أول مدينة كبيرة تصادف عند الذهاب من مصر إلى القيروان، وأن التجارة فيها ضخمة، يأتي إليها التجار، خاصة الأجانب القادمون من الشرق كما من الغرب. وللمرة الأولى، تذكر المنتجات المصدرة: إن قطران المنطقة لا مثيل له[2]، وتبيع مدينة برقة تمور أوجلة، والجلود التي ترسل إلى المدابغ المصرية، والصوف، والفلفل، والعسل، والشمع والزيت وكل أنواع السلع الموردة من الشرق والغرب. «وفائضة بالرخص في أكثر الأوقات»[3][*]. وعائدات برقة أعلى من عائدات طرابلس[4].

لا يضيف المقدسي شيئاً يستحق الذكر لا نعرفه من قبل. فهو يؤكد تنوع منتجات أرضها، ويشير إلى أنها مكان حدودي ـ ثغر[5]، وأن سكانها أهل خير وصلاح يعاملون الأجانب بلطف ومودة، وهم أقل ميلاً للانقياد للاضطرابات وإثارة القلاقل[6]. وتمتلك برقة ـ بشكل مؤكد ـ صناعة ملابس[7]. إن حضور التجار في برقة، وكذلك موقعها الاستراتيجي يؤكده وجود قوات عديدة فيها في آخر القرن العاشر[8]. وكانت برقة مدينة حامية منذ مدة طويلة، فبعد موت عبيد

---

(1) عليه، كان سكان برقة يلبسون كالمغاربة وليس كالمصريين. وليس لدينا ـ لسوء الحظ ـ أي معلومات أخرى حول هذا الموضوع.

(2) نعرف أن القطران يستخرج من الصنوبر، أرز لبنان والسرو. وهو يستعمل للعلاج، ويقتل القمل والقراد، ويفيد ضد لدغات الأفاعي السامة وفي حالات الحكة، وداء الفيل. انظر A. Dietrich، موسوعة الإسلام، انظر (قطران).

(3) ويضيف المهلبي إلى قائمة هذه السلع الخمر، في أبي الفداء، تقويم، ص127.

(*) نص تعبير ابن حوقل. المترجم.

(4) ابن حوقل، ص69/ 65.

(5) ثغر، جمعها ثغور يفيد بفكرة الخطر. انظر ثغر = حصن معبر أو طريق بن جبلين ضد الأعداء.

(6) هذه الملاحظة من المقدسي، أهل خير وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم، تذكر بجملة للبلاذري سبق لنا ذكرها حول اتفاقية برقة: «من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم تدخلها فتنة». انظر عاليه، ص47.

(7) تقاسيم، ص224، 239 ـ طبعة Ch. Pellat، ص10 ـ 13، 48 ـ 49.

(8) حدود العالم، ص153.

الله سنة 934ف، أرسل ابنه أبو القاسم قوات إلى برقة ليوقف الشرق عند حده[1].

يعطي البكري، في القرن الحادي عشر، وبعد أن أورد شروط الاتفاقية التي فرضها عمرو بن العاص على برقة[2]، وصفاً جميلاً للمدينة يؤكد أوصاف سابقيه[3]، ويضيف بعض البيانات التكميلية القيمة[4]. هكذا نعرف أن الجمال تتكاثر في مراعي المنطقة، ومن هناك كان سكان مصر يشترون الحيوانات لغرض استهلاكهم. وللمرة الأولى تذكر الفواكه التي توجد على التلال: جوز[5]، وليمون وفرجل[6] وتمور العرعر[7]. وتوجد في الوديان، تربة خاصة لتخمير العسل ويعدد الإدريسي استعمالاتها الأخرى.

يعلمنا البكري ـ كذلك ـ أن لواتيين وأفارقة كانوا يعيشون بالقرب من برقة. إن مشكلة الأفارقة شائكة إلى حد ما. ويجب تمييزهم عن الروم الذين يذكر اليعقوبي وجودهم في القيروان خاصة[8]، والذين هم إما مواطنون بيزنطيون

---

(1) ابن حماد، ص15/ 29. وكانت هناك قوات في تاهرت لمواجهة أي خطر يأتي من الغرب. وقد تابع أبو القاسم سياسة والده الذي ربط أربطة برقة بأربطة المغرب. انظر ابن زولاق (المتوفى سنة 996ف). فضائل مصر في J.M. Couq، Recueil، ص79. وقد اتخذ هذا القرار حسب ابن زولاق سنة 912ف، أي سنتان قبل الهجوم العبيدي الأول ضد مصر.

(2) من الواضح استلهامه لابن عبد الحكم، انظر عاليه، ص50 أرقام 7، 8.

(3) تربة حمراء وملابس حمراء. تصدير للصوف والعسل والقطران، ثراء البلاد، وانخفاض أسعار المواد.

(4) المسالك، ص5/ 14 ـ 15.

(5) وكانت شجرة الجوز مستغلة لقشرتها للسواك الذي يستعمل لتبييض الأسنان ولتحمير اللثة والشفاه، وهو يستعمل حتى الآن لهذا الغرض.

(6) غالباً السفرجل لأن الفرجل غير معروف في القواميس.

(7) العرعر من الصنوبر، ومنه يمكن استخراج القطران، وهي شجرة خطرة بالنسبة للنخلة ويجب أن تبعد عنها. وخشب العرعر مستعمل في الزينة. ويعد قطران الخشب كذلك في الأطلسي، ويحفظ في القرب، انظر ليون الأفريقي، II، ص575 الذي يعطي وصفاً للفرن الذي يقطر فيه. والزيت الكادي دواء يستخرج من العرعر. كان الصنوبر مستعملاً في المنشآت البحرية، نذكر بأن وجودها في إقليم برقة ليس غريباً عن الأطماع الطولونية في المنطقة.

(8) البلدان، ص348/ 210.

أو منحدرون من الجنود والموظفين البيزنطيين الذين لم يتركوا أفريقيا الشمالية بعد الفتح العربي. وقد حافظ هؤلاء على عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بسبب إبعادهم أو ابتعادهم عن السكان الآخرين. إن الأفارقة الذين حرص المؤلفون على تمييزهم عن العرب الذين وصلوا متأخرين إلى أفريقيا الشمالية، وعن العرب المنحدرين من الفاتحين، وعن البربر الأصليين لا يمكن أن يكونوا إلا روماً متبربرين(*) أو منحدرين من بربر تلتنوا(**)، والذين ربما حافظوا على لغتهم وديانتهم المسيحية، حسبما يقول جورج مارسي George Marcais [1].
وهكذا فهم متميزون عن المجموعات الأخرى. لم يلاحظ اليعقوبي وجود الأفارقة في برقة ولكنه ذكرهم في المحطات بين طرابلس وقابس وفي الجريد ـ قسطيلية[2]. هل لغتهم، وهي لاتينية محرفة، هي لغة أهل سرت التي قال عنها البكري إنها ليست عربية ولا فارسية ولا بربرية(***) ولا قبطية[3]؟ وقد أفادنا المقدسي أن سكان المغرب كانوا يتكلمون عربية منغلقة مختلفة عن العربية في الولايات الأخرى من العالم الإسلامي، وأنهم بالإضافة إلى هذه اللغة يتكلمون لغة أخرى قريبة من الرومية[4]. ويبدو أن الأفارقة لم يكونوا قد اختفوا بعد هذا بقرن: إذ يسمي الإدريسي سكان مدينة قفصة وما جاورها الروم الأفارقة، يقول: «وأهلها متبررون» ويتكلمون «اللسان اللاتيني الأفريقي»[5]. ومن سوء الحظ، أنه لم يقل كلمة عن الديانة. وفي جميع الأحوال نرى، حتى القرن الثاني عشر على الأقل[6]، إلى جانب البربر الأصليين والعرب، مجموعة سكانية مهمة وملاحظة

(*) المقصود روماً تحولوا إلى بربر. المترجم.
(**) المقصود بربراً تحولوا إلى لاتين. المترجم.
(1) La Berberie Muslmane, P.70-72.
(2) المرجع المذكور، ص347، 350/ 208، 212.
(***) نص البكري: «ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا أعجمي ولا بربري ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم». المترجم.
(3) المسالك، ص6/ 19.
(4) تقاسيم، ص243 ـ طبعة C.h. Pellat، ص58 ـ 50.
(5) نزهه، ص104، 110/ ص122، 128.
(6) في القرن الرابع عشر، التجاني، رحلة، ص159 الذي زار هذه المنطقة يقول ببقاء الروم في =

في المنطقة من إقليم برقة حتى تونس مروراً بالصحراء السرتية، حافظت على استعمال اللسان اللاتيني.

لم يتغير الوضع إلا قليلاً في مدينة برقة وشمال إقليم برقة، في القرن الثاني عشر، وكانت برقة، حسب الزهري، تمثل في النصف الأول من هذا القرن حدود ولاية ـ عمالة القيروان[1].

كما أبرزناه فيما يتعلق بنتائج الحضور الهلالي والسليمي، يبدو الإدريسي متناقضاً كثيراً فيما يتعلق ببرقة[2]. فهو يلاحظ أن برقة مدينة متوسطة الحجم، وهي أول منبر ينزله القادم من بلاد مصر إلى القيروان ولها كور[*] عامرة بالعرب[3]. ويؤكد ـ هو كذلك ـ على اللون الأحمر لتربة السهل، واحمرار ملابس سكانها، وبذلك كان يُعرف أهلها في سائر البلاد المحيطة بها. ويضيف، من جانب، أن عدد سكان المدينة قليل، وأسواقها كاسدة، وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة، ومن جانب آخر، أن كثيرين يأتونها ويخرجون منها في كل الفصول لأنها بعيدة عن البلاد المجاورة لها التي يمكن مقارنتها بها في جميع حالاتها ولأنها تجمع بين التجارة بالبر والتجارة بالبحر. في هذا تناقض بيِّن. هل استعان الإدريسي بواحد أو عدة مخبرين أثروا عليه تأثيرات مختلفة؟ هل ترك لنفسه العنان متأثراً بعدم ثقته في العرب وبالرغبة في إعجاب حامية روجر الثاني ملك صقلية الذي لم يتمكن من بسط هيمنته خارج مدينة طرابلس[4] بسبب توافق القوى العربية والبربرية؟. يجب أن نتذكر هنا ما كان

= توزر والجريد بشكل عام. وكانوا فيه قبل الفتح العربي ـ حسب قوله ـ وتحولوا إلى الإسلام للمحافظة على أموالهم، ولا يقول شيئاً عن لغتهم.

(1) جغرافية، ص197.

(2) انظر بحاليه، ص309.

(*) هذا هو التعبير الذي استعمله الإدريسي. المترجم.

(3) رأينا أن عزة، وهيب وغطفان استقروا في إقليم برقة، وأن دباب احتلوا الأقاليم بين برقة وطرابلس وقابس، انظر عاليه، ص277.

(4) انظر عاليه، ص296.

يقوله الإدريسي عن البدو البربر في إقليم برقة: راكبين خيولاً ومسلحين برماح كانوا يمنعون العرب من وطء أرضهم[1]. أو لا يمكن أن تكون هذه المقاومة الضارية كافية لحماية طرق الاتصالات التي يسلكها التجار القادمون إلى برقة؟[2].

يمكننا أن نستنتج من هذه المقاطع التي تناولت برقة، أن انحدار المدينة كان قد بدأ، ولكن هذا لا يتسق إلا قليلاً مع الأخبار الأخرى التي أوردها الإدريسي، الذي يضيف أن المنطقة تنتج قطناً لا نظير له يسمى قطن برقة. وكانت هناك مدابغ تعد فيها جلود البقر وجلود النمور التي تأتي من أوجلة. وتأتي السفن والقوافل من الاسكندرية ومصر[3] لتأخذ من برقة الصوف والعسل والزيت ونوعاً من التربة الطبية ـ من المحتمل أن تكون نفس التربة التي قال البكري عنها إنها كانت تستخدم لتخمير العسل ـ التي إذا ما خلطت بالزيت فإنها تشفي الجرب والحكة وداء الحية[4]. إن لهذه التربة طعماً غير مستساغ وإذا ألقي بها على النار تنبعث منها رائحة مقززة[5].

---

(1) انظر عاليه، ص311 ـ 312.

(2) جلود النمور، المفرد نمر، وهي تعني النمر المسمى كذلك السبع الهندي والمسمى بالفارسية الببر، وكذلك الدرع والفهد. كان النمر يعيش في غابات بربريا وهو لا يهاجم القطعان إلا نادراً. وفي منطقة قسطنطينة كان الجبليون يصطادونه على الخيول، انظر ليون الأفريقي II، ص562.

(3) لا يجب التفريق بوضوح بين البواخر القادمة من الاسكندرية والقوافل القادمة من داخل البلاد، فغالباً يسلم هؤلاء بضائعهم لأولئك. بعض البواخر تزاول الإبحار النهري والبحري، فالسفن الساحلية تستطيع أن تبحر في النيل. لا يمكن أن يتعلق الأمر هنا إلا بالخنزيرة ـ التي تعني الخنزير، ونوعاً من السمك في سوريا ـ المؤكدة في ليبيا ومصر وفي النيل، وبالشختورة وهو زورق ساحلي ويتوغل مخاطراً في البحر أحياناً، أو قطاعي وهو قادس خفيف يعمل في البحر مصحوباً بباخرة حربية في حالة هجوم قراصنة وهو قادر على التوغل في النيل حتى قوص. انظر S.D. Goitein، Unity، ص40 ـ 42. ونفس المؤلف، Letters، ص312، رقم 5.

(4) مرض الحية نوع من أمراض تساقط الشعر، انظر نزهة، note de Goeje، ص156. حسب ابن البيطار، وهو عالم نباتي وصيدلي أندلسي من القرن الثالث عشر إذا شربت هذه التربة دون خلط فإنها تسبب القيء، ويقال أنها تزيد الإفراز المنوي وتثير الشهوة. حسب ابن سيناء، هي منقية للدم، وتشفى من الحصف (مرض جلدي). انظر البكري، note de Slane، ترجمة، ص15 ـ 16.

(5) نزهة، ص131 ـ 132/ 155 ـ 156.

كما قلنا أعلاه، لا يقدم الإدريسي ـ هنا ـ صورة مدينة عانت كثيراً. وفي نهاية القرن لم يؤكد المؤلف غير المعروف لكتاب الاستبصار هذا الوصف. إن هذا الجغرافي يستوحي من البكري كثيراً، ولكنه على بينة بالوقائع التي حدثت في زمنه، فهو ـ على سبيل المثال ـ يتحدث عن ظهور قراقوش في ليبيا والاستيلاء على طرابلس سنة 586هـ ـ (1 ـ 1190)ف الذي حدث قبل أقل من سنة من تحرير هذا المقطع في يوليه 1191ف[1]. وعليه فمن المحتمل أن يكون على علم بما جرى في برقة قبل ذلك بعشرين سنة. إنه يعطي لبرقة نفس الوصف الذي أعطاه البكري، ولكنه يقدم معلومات أحسن حول الأطلال القديمة، ويحدد بدقة أن حيوانات اللحم المصدرة إلى مصر هي الضان وهي مشهورة لأنها كبيرة الحجم وسمينة[2]. ومن المحتمل أن وصول قراقوش إلى ليبيا لم يؤثر في المدينة، وقد يكون الانحطاط الذي لوحظ فيها فيما بعد بسبب أعمال علي بن غانية.

قدمت حملة قراقوش برقة وغاباتها للأيوبيين. وكان من مصلحة ملك مصر أن يحرص على سلامة المدينة والمنطقة. كان العبدري أول رحالة زار شمال إقليم برقة في سنة 1289ف وترك لنا انطباعاته بعد الغارات المدمرة التي قام بها علي الميورقي[*] والفوضى الجشعة التي زرعها عند البدو. يقول العبدري[3] عن بدو المنطقة إنهم أجلاف، أفظاظ غير مهذبين، ميالون للتنازع والخصام. وليس لديهم تجارة مؤسسة على التعامل بالنقد لأنهم لا يملكونه، وأسعار المواد الغذائية والحيوانات غير معروفة لديهم، وكل شيء يجب أن يبادل، وهو ما يمثل خسارة للحاج لأن أمتعته محدودة، عندما لا يتأتى التعامل

(1) انظر بعاليه، ص337.

(2) الاستبصار، ص143. نجد تجميعاً لتوصيفات البكري والإدريسي وكتاب الاستبصار عند الحميري، انظر (برقة)، ص91.

(*) المقصود علي بن غانيه ـ المترجم.

(3) Das Norclafrikanische Itinerar, p.145-152.

مباشرة بطريقة متوازنة. وتلبس البدوية البرقع[1] وتذهب مكشوفة الرأس والأطراف حافية القدمين لا تهتم بستر ما سوى وجهها كأن ليس لها عورة سواه(*)، ولا تنزع البدويات البرقع قط ولا تغسل حتى تصير أوسخ من عرض اللئيم(*).

إن مدينة برقة قد اختفت، يضيف الرحالة: «ولم تعد برقة الآن إلا اسم المنطقة التي تمتد على أربعين يوماً من غرب أجدابيا نحو الاسكندرية»(**). إننا لا نستطيع ـ بكل تأكيد ـ أن نشكك في أن برقة كانت مهدمة لأننا نعرف أن المرج قد شيد في مكانها[2]. بالرغم من هذا، فالعبدري يقدم استنتاجاً نهائياً مفرطاً. فبرقه المخربة، كان قد أعيد بناؤها قبل مروره وحملت اسماً آخر.

من النادر جداً أن يورد المؤرخون والجغرافيون ملاحظات تتعلق باللغة العربية وهو ما لا يمكننا من السكوت عن الملاحظات التي جاءت عند العبدري. يقول إن لغة أهل برقة من أنقى اللغات التي يمكن أن تقابل، وهذا بسبب اتصالاتهم المحدودة مع الأجانب، بعكس عرب الحجاز. ويقف الرحالة مشدوهاً أمام دقتهم في الإعراب غير المعروف في المغرب[3]، وأمام استعمال

---

(1) البرقع تلبسه نساء البدو السوريين، ومصر والجزيرة العربية وفارس، وهو عند نساء العامة خرقة من الكريب (قماش حرير) الأسود غير الدقيقة الصنع وهي مربوطة بشريط إلى الشعر فوق الأنف ويمكن أن تمتد حتى الركبتين. عند النساء الغنيات، يكون البرقع من الموسلين الأبيض مزين أحياناً بالذهب أو الفضة. انظر A. Dozy، Vetements، ص64 ـ 68.

(*) هذه تعبيرات العبدري. المترجم.

(**) النص الحرفي للعبدري: «وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة، والمغاربة يسمون بها ما ردت عين إقيان من غربي أجدابيا إلى الاسكندرية، وذلك نحو من أربعين مرحلة». المترجم.

(2) خبر أورده ابن سعيد، بسط الأرض، ص80 قبل الزمن الذي كتب فيه العبدري. إن وصف ابن سعيد لبرقة هو نفس وصف الإدريسي. إنه يؤكد على خصب أراضي المنطقة. ولكن يجب ملاحظة أن قائمة سلع التصدير عند ابن سعيد مختلفة، وتتعلق هنا بالعسل والقمح والشعير والكبريت. من المؤسف أن ياقوت لم يضف إلينا جديداً عن القرن الثالث عشر لا نعرفه من البكري، بالرغم من ذلك نجد في معجم ياقوت ـ انظر برقة ـ قائمة بأسماء الأشخاص المشهورين الذين عاشوا فيها.

(3) بعد ذلك بقرن، لم يشتك ابن خلدون من أن اللغة محرفة، بل بالعكس يلوم =

النون في آخر الكلمات الدالة على المخاطب والغائب في جمع المذكر السالم، ونطق التنوين، واختيار الألفاظ المناسبة، واستعمال الكلمات التي لا ترد إلا في القرآن والحديث، ويقدم المؤلف أمثلة[1] عديدة برهاناً على ما قاله.

من المؤسف حدوث اضطرابات في برقة سنة 8 ـ 1307ف منعت التجاني من زيارتها، وهو ما حرمنا من معلومات قيمة لأننا نعرف مدى جدية هذا المؤلف. ليس في الأدبيات الجغرافية وصف دقيق ومفصل لبرقة، مثل الوصف الذي قدمه لنا هذا الرحالة لطرابلس. كما يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن مؤلفي القرن الرابع عشر غالباً مُجمِّعون ومصنفون وعليه فلا بد من الحذر عند العودة إليهم.

حسب شهادة التجاني، كان الطريق المؤدي إلى برقة عبر خليج سرت بالغ الخطورة لقلة الماء والغذاء وهو ما قد يؤدي إلى مآس فظيعة[2]. إن حدود الولاية غير واضحة عند العمري؛ «تمتد أفريقية حتى حدود برقة، وطرابلس أول مدنها مما يلي برقة»[3] وكان القلقشندي أكثر تحديداً: «تنتهي أفريقية عند العقبة نحو برقة»[4]، وبرقة قسمان[*]: واحد مصري حتى العقبة الكبيرة، وواحد أفريقي حتى العقبة الغربية[5]. وعليه يمكننا القول بأن الصحراء السرتية،

= الناقدين والمتحذلقين. ويأسف ـ بالرغم من ذلك ـ لضياع الإعراب الذي هو أحد القوانين في اللغة العربية «بغياب حركات التشكيل يختفي التمييز بين الموضوع والشيء، ومحلهم يستعمل الوضع في الجملة... لتوضيح المعاني الخاصة التي يراد التعبير عنها»، انظر العبر، المقدمة ص1073 ـ III /1074، ص344 ـ 346.

(1) Das Nordafrikanische Itinerar, pp.150-152.

(2) الرحلة، ص191 ـ 192. انظر أعلاه، ص359.

(3) L' Afrique moins L'Egypte, pp.9-99.

(4) صبح، ص99.

(*) نص القلقشندي في صبح الأعشى: «والتحقيق أن برقة قسمان: قسم محسوب من الديار المصرية وهو ما دون العقبة الكبرى إلى الشرق، وقسم محسوب من أفريقية وهو ما فوق العقبة المذكورة إلى الغرب». المترجم.

(5) المرجع السابق، III ص395 ـ 396.

أي سرت ومصراته لا تكون جزءاً منها: «إن السودان محدد... في الشمال بالأقاليم التي تمتد بين مصر ومنطقة برقة وبلاد البربر..»[1].

يقدم جغرافيو القرن الرابع عشر معلومات أقل عن المدينة ومنطقتها من سابقيهم. فالقلقشندي[2] ينقل عن كل من العمري والروض المعطار[3] ولكنه يتحدث باسمه الشخصي أيضاً ويورد بعض البيانات الجديدة. إن الزراعة في حالة تدهور، ومن الممكن أن تنتج الأرض لو بذل الجهد لزراعتها ولكن البدو لا يهتمون ببناء ولا زراعة. وبرقة تابعة لملك مصر الذي يقطعها أحياناً لأمراء وأحياناً للعرب الذين يأخذونها على سبيل المنحة[4]. ويضيف أن جزئي المنطقة؛ الغربي الأفريقي والشرقي المصري، في أيدي العرب أصحاب البقر. كما تُربى فيها كذلك الجمال والخيول. والخيول فيها تعود في نفس الوقت إلى الخيول العربية الأصلية (العراب) والبراذين. ولا بد أن هذه الخيول كانت مشهورة فالعمري، عند تناوله لأفريقية، يلاحظ أن من بين حيوانات الركوب فيها، يجب اعتبار الحصان العربي الذي يشبه حصان برقة[5]. ويؤكد ابن خلدون كذلك على تدهور الزراعة، ويلوم عرب دباب وعزة لقيامهم، عن طريق التدمير وأعمال اللصوصية، بتضييق حدود البلاد المزروعة وتخريب الحضارة وتحويل المنطقة إلى صحراء. ولكنه يضيف أن أغلب العرب يركزون على الزراعة وحراثة الأرض بواسطة الجمال والحمير، وعندما يكونون فقراء للغاية، فإن نساءهم يقمن بجر المحراث. ويقومون في حالات الجفاف بترحيل

(1) المرجع السابق V، ص273.

(2) المرجع السابق III، ص395 ـ 396.

(3) إن كتاب الحميري، الروض المعطار، انتهى من تأليفه بشكل نهائي سنة 1461ف، ولكن الصيغة الأولى، من هذا العمل من قبل أحد أعضاء أسرته ـ كما يوضحه استشهاد القلقشندي تحمل نفس العنوان تعود إلى نهاية القرن الثالث عشر. انظر T. Lewicki، Arabic Extemal Sources. نفس المؤلف، موسوعة الإسلام، انظر الحميري.

(4) القلقشندي ينقل هنا عن العمري. هذا المقطع لا يرد في «L'Afrique moins L'Egypte».

(5) L'Afrique moins L'Egypte, p.104.

قطعانهم إلى أوجلة، وسنترية/سيوة، وحتى إلى كانم. إن العرب في شمال إقليم برقة مسالمون ولا يهاجمون الحجاج قط، ويقومون عن طيب خاطر بإحضار مواد تموينية إلى سوق القافلة[1](*).

يبدو لنا أنه لا يمكن الخلط بين العرب أصحاب الجمال، خاصة هؤلاء الذين يربون الخيول والبقر أو يتعاطون الزراعة وبين مرتزقة قراقوش ويحيى الذين سرَّعوا تدهور البلاد. إن روح النهب والسلب التي كان هذان القائدان يحافظان عليها بين قواتهما لم تختف بانتهاء المعارك. لقد استقر العرب الأقوياء وحدهم في المناطق الخصبة التي بقيت سالمة. وتوجه الأضعفون في القرن السادس عشر إلى الصحراء، وقد كانوا فقراء لدرجة أنهم عندما كانوا يرغبون شيئاً ضرورياً لم يكن أمامهم إلا تقديم أولادهم رهائن أو القيام بأعمال السلب[2].

لم تكن نواحي مدينة برقة وبشكل خاص موانئها، مجهولة من جغرافيي القرون الوسطى. ففي القرن العاشر، وقف المهلبي مذهولاً أمام وفرة الموارد، وثراء الضيع الكبيرة والمزارع[3]، في هذه المنطقة.

كان لإقليم برقة ثلاثة موانىء: أجيا، وبرنيق/ بنغازي، وطلميثة / بتوليمي.

أجيا هي ميناء برقة وتقع على بعد ستة أميال من المدينة. ولا بد أنها تجمع سكاني كبير لأن بها منبراً وسوقاً. وكانت وظيفتها تتطلب أن تكون

---

(1) البربر، ج1، ص164 ـ 165. انظر عاليه، ص359 ـ 360.

(*) نص ابن خلدون: وركاب الحج من المغرب يحمدون مسالمتهم في ممرهم وحسن نيتهم في التجافي عن حاج بيت الله وإرفادهم الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم. المترجم.

(2) ليون الأفريقي، II، ص414 ـ 415 الذي يشرح أن اللصوص عندما يشكون في أن المسافرين والحجاج قد قاموا ببلع نقودهم يجبرونهم على شرب حليب ساخن ويهزونهم ويقذفون بهم في الهواء لجعلهم يتقيأون على أمل العثور على بعض الدكات.

(3) في أبي الفدا، تقويم، ص127، يلاحظ اليعقوبي كذلك وفرة المياه. انظر البلدان، ص343/ 202.

محمية جيداً، وكانت مزودة بالعديد من أبراج الحراسة ـ محارس[1].

يقع ميناء برنيق على مرحلتين جنوب ـ غرب برقة[2]، وهو يمثل ملجأ ممتازاً للبواخر لأنه يتمتع بحماية لا تقارن. سكانه بربر[3]. ولبرنيق قلاع أدهش نطق أسمائها العبدري كثيراً. ونذكر أن استقبال عرب برنيق، الذين يقيم رئيسهم في برقة، للحجاج استقبالاً جيداً بشكل ملحوظ[4].

تقع طلميثة[5] على بعد ثلاثين كيلومتراً شمال برقة. وهذا الميناء شهير ولكن السفن لم تكن تستطيع في القرن التاسع الرسو فيه إلا في أوقات معينة من السنة[6]. وبعد هجرة بني هلال وسليم، كانت سفن الاسكندرية تحضر إلى هذا الميناء أقمشة القطن والكتان ومنه كان يتم تصدير العسل والزبدة والقمح والشعير والقطران والكبريت، وهي منتجات منطقة برقة. وينتجع عرب هيب إلى الشرق من الميناء، ورواحة إلى الغرب. وطلميثة قلعة قوية محاطة بأسوار من الحجر ومزدحمة بالسكان. وهناك كان يعيش يهود[7] في قلعة، عددهم لا يتجاوز المائتين وكانوا تحت حماية العرب. وكانت السفن تأتي لترسو أمام قلعة اليهود، ويشتري العرب منها بضائعهم ويدفعون نقداً[8]. وعليه فقد كان هناك

---

(1) اليعقوبي، المرجع أعلاه والمهلبي في أبي الفدا، ص128. وياقوت، انظر برقة. الكلمة محرس وجمعها محارس تعني برج الحراسة، الحصن، القلعة، المعسكر. انظر R. Blanchere، Dictionnaire، وR. Dozy، G. Wiet, Supplement، في ترجمته اليعقوبي يترجم محارس بـ خان الفنادق.

(2) إن هذا التقييم صحيح بشكل كامل: 70 كيلومتراً تفصل بين النقطتين.

(3) اليعقوبي، انظر أعلاه.

(4) Das Nordafrikanische Itinerar, p.160.

(5) موضحه توضيحاً صحيحاً على خريطة الإدريسي.

(6) اليعقوبي، انظر أعلاه. ليس في حوزتنا أي وصف دقيق لهذا الميناء يشرح استحالة الرسو في أوقات معينة. في الشتاء تجعل حالة المتوسط الإبحار خطراً، وتناوب القوافل السفن، انظر أعلاه ص317. قد لا يكون ميناء طلميثة محمياً جيداً.

(7) الإدريسي، ص136/ 163. وابن سعيد، بسط الأرض، ص80.

(8) أبو الفدا، تقويم ص148 ـ 149. وياقوت، انظر برقة وطلمويا (هكذا!). والعبدري، ص159 يذكر هذا الميناء مجرد الذكر.

نوع من التوافق بين السكان وعرب المنطقة كما سيكون الحال في أوجلة.

إن العسل والقطران ـ حتى لا نذكر إلا منتجين من المنتجات المعددة أعلاه ـ بخلاف العبيد هما من السلع التي لا نجدها في كل مكان. ومن المحتمل أن هذا هو السبب الذي جعل مؤلفينا يعتقدون أن لا طائل من ذكر العبيد في قائمة الصادرات. مع ذلك، فإن تصدير هذه السلعة الثمينة نحو الشرق قد لا يكون إلا من سرت وبرقة لأن «أغلب العبيد السود يمرون من زويلة والساحل الشرقي إلى المغرب»[1].

كانت برقة ـ كما سنرى ـ مرتبطة بالفسطاط براً عبر الاسكندرية والصحراء، وبأجدابيا حيث يسافر إلى الغرب نحو سرت وطرابلس أو نحو الجنوب عبر أوجلة والكفرة، أو عبر زلة وزويلة.

أجدابيا[2]:

من المحتمل أنها فتحت حوالى سنة 4 ـ 643ف، مقابل جزية قدرها خمسة آلاف دينار، وهو ما يفسر تبني كثير من البربر للإسلام[3]. كانت أجدابيا، مثل برقة، تمثل مكاناً للتراجع في بداية التوسع العربي، وقد شكلت الحد الغربي الأقصى للإقليم الذي كان يحكمه حسان بن النعمان بعد هزيمته أمام الكاهنة[4]. بعد ذلك شهدت هذه المدينة ما شهدته برقة، ضمت أحياناً إلى مصر، وأحياناً أخرى إلى أفريقية. وكان الحد الغربي لموطن لواتة والحد الشرقي لإقليم مزاتة في القرن التاسع على مسيرة يوم واحد غرب أجدابيا[5].

---

(1) الأصطخري، ص44.

(2) موضحة أكثر من اللازم نحو الجنوب على خريطة ابن حوقل، ص62. وأكثر من اللازم نحو الغرب على خريطة الإدريسي.

(3) انظر أعلاه، ص75. وياقوت، انظر أجدابيا.

(4) ابن عبد الحكم، ص76 ـ 77.

(5) اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص190. نفس المؤلف، بلدان، ص344/ 203. انظر T. Lewicki، Repartitions، ص315، 317.

بالرغم من ذلك، توجد مجموعات من لواتة في وسط المغرب، وهم منحدرون من الذين هاجروا مع ابن رستم في منتصف القرن الثامن[1].

كانت أجدابيا مدينة مهمة، إذ كانت هناك أقاليم تابعة لها وبها حصن وجامع كبير وأسواق دائمة وكان لها ميناء غير بعيد منها[2].

بالرغم من أن أجدابيا كانت تتحكم فيما حولها إلا أنها كانت تابعة لبرقة[3]. ويعطي ابن حوقل مؤشراً حول الموقع يفيد: بأن أجدابيا مشيدة فوق هضبة حجرية في وسط سهل. وكانت المنازل بها مبنية من تربة طفلية ومن الآجر، وبعضها من الحجر[4]. والمسجد البديع الذي ذكره ابن حوقل لا يمكن أن يكون إلا هذا المسجد الرائع ذو المئذنة المثمنة الذي بني بأمر من محمد القائم أبو القاسم (934ف ـ 946ف)، ابن عبيد الله[5]. وهي مكتظة بالسكان وكلهم من البربر. ولا توجد فيها مياه جارية، والزراعات فيها ـ حقول وحدائق ونخيل ـ تكفي السكان. ويتولى الحاكم الفاطمي، الذي هو كذلك الرئيس الديني تحصيل الضرائب ـ الصدقة والخراج والعشر ـ وتسليمها للسلطان. ويحصل ـ بالإضافة إلى الضرائب ـ رسوماً على القوافل التي تذهب إلى بلاد

---

(1) انظر بعاليه، ص198.

(2) اليعقوبي، بلدان، المرجع أعلاه، والذي يعدد أفرع لواته في أجدابيا: زنارة، وواهلة مسوسة، وسيوة، وتحلالة، ويقول إن الأخيرين يشكلون غالبية السكان. ولم ترد تحلالة في قائمة القبائل اللواتية التي عددها T. Lewicki، انظر موسوعة الإسلام، لواتة. البكري، ص5/ 17 يسمى هذا الميناء المحور (المدور بالنسبة لياقوت، انظر أجدابيه وهو ينقل عن البكري) ويوقعه على مسافة 18 ميلاً من أجدابيا. وقد اختفى الاسم المحور. وعلى مسافة 36 كيلومتراً بالتحديد شمال أجدابيا (ميل البكري يساوي 2 كيلومتر عادة) يوجد حالياً ميناء الزويتية الصغير (الذي تسميه خرائطنا خطأ الزويلينه).

(3) ابن حوقل، ص67/ 63.

(4) وهو الحال كذلك اليوم.

(5) البكري، ص5/ 16 ـ 17، نقل عنه ياقوت، انظر أجدابيا. أمر القائم ـ كذلك ـ ببناء الجامع الكبير في صفاقس، ومسجد علي عمار في سوسة. انظر A. Lezine، Deux Villes، ص116 ورقم 4.

السودان أو تأتي منها. وتصدر عن طريق الميناء كل أنواع السلع خاصة الصوف. وقد لاحظ ابن حوقل ـ مثل المقدسي[1] ـ أن السكان كانوا يشربون مياه الأمطار.

يلاحظ البكري، في القرن الحادي عشر، أن مياه الآبار المحفورة في الصخر ممتازة، ولكن البكري خلافاً لسابقيه، يذكر أن بها عين ماء عذب[2]، وليس بها من الأشجار إلا الأراك[*] وهو نوع شوكي تتغذى عليه الجمال. ولا بد أن العائدات المحصلة على القوافل كانت تمثل دخلاً ضخماً للمدينة إذ إن البكري في الوقت الذي يشير فيه إلى صغر البساتين والنخيل يلاحظ أن في المدينة حمامات وفنادق وأسواق حافلة مقصودة[*]، وبها كثير من التمور تأتي من أوجلة، وهي راخية الأسعار[*]. كما أن السكان ميسورون وأكثرهم من الأقباط وما زالت تعيش فيها بعض أسر من لواتة. ونرى أن هجرة لواتة الأباضية نحو الغرب، التي بدأت في القرن الثامن قد تواصلت لدرجة أنه لم يعد في أجدابيا إلا بعض الأسر من لواتة قبل مجيء بني هلال[3].

يشبه الوصف الذي أعطاه الإدريسي للمدينة، إلى حد كبير، الوصف الذي أورده البكري[4] لها. قلنا إن الإدريسي لاحظ ـ هو كذلك ـ أن حصيلة الزراعات محدودة في الحقول المروية بواسطة العجلات المائية (السواني)، وحصيلة النشاط التجاري كذلك. كما لاحظ اختفاء الأسوار التي لم يذكرها الجغرافيون السابقون. وليست القبائل الهلالية والسليمية ـ بدون شك ـ غريبة عن عملية الأسلمة التي كانت جارية. فالإدريسي يقول إن سكان المدينة من

---

(1) تقاسيم، ص224 ـ طبعة Ch. Pellat، ص12 ـ 13.

(2) مسالك، ص5/ 16 ـ 17.

(*) تعبيرات البكري نفسه ـ المترجم.

(3) ياقوت، انظر أجدابيا يكرر وصف البكري الذي نقل عنه، ويضيف أن مصدراً آخر ـ لا يسميه ـ يدعي بوجود كثير من بساتين النخيل في أجدابيا، وأن إقليم أوجله تابع لأجدابيا: وهذا يشرح ذلك لأن وفرة التمور وجودتها الممتازة في أوجلة مشهورة، انظر أدناه، ص441.

(4) نزهة، ص132/ 157. انظر أعلاه، ص309.

المسلمين واليهود. ونستطيع أن نتصور أن هؤلاء اليهود كانوا على صلة بإخوتهم في الدين في طلميثة وأن منهم متعهدو نقل عبر الصحراء[1].

يلاحظ العبدري الذي زار المدينة في نهاية القرن الثالث عشر، وكما فعل اليعقوبي، أن أجدابيا مكان حصين. هل انقاد الإدريسي، عندما تحدث عن اختفاء الأسوار، وهي التي لم تذكر من آخر حتى ذلك الحين، إلى مآخذه ضد العرب البادية؟. ويعرف العبدري أن مؤرخاً ـ قد يتعلق الأمر بالبكري الذي يستشهد به ـ كتب أن للمدينة عين ماء عذب ونخيلاً. وقد تحقق أثناء مروره بها أنه لم يتبق منها شيء، ولم تعد هناك شجرة واحدة، وأن بقايا خربة لقصر في الصحراء[2] هي كل ما بقي قائماً. حتى التجارة العابرة للصحراء لم يذكرها العبدري، وكذلك التجارة المحلية، التي لا يمكن إلا أن يكون قد لاحظها. من المحتمل أن مملكة كانم التي كانت تتحكم في الطرق العابرة للصحراء، بعد أعمال التدمير التي قام بها كل من قراقوش ويحيى بن غانية، كان لها ناقلوها، ومن الصعب تصور أن تترك هذه المملكة، التي تملكت الصحراء حتى مائتي كيلو متر من الموانىء، أرباح تجارة مربحة جداً ـ تجارة الرقيق ـ تذهب إلى آخرين. وتشرح أعمال تخريب الزراعات بواسطة المغامرين، وبشكل خاص هروب رؤوس الأموال والأرباح نحو جنوب الصحراء، البؤس الذي كانت تعيشه المنطقة. لقد كانت لأعمال قراقوش ـ يحيى آثار غير مباشرة أكثر خطورة مما قاما به من تخريب. إن هذه الصورة الحزينة التي رسمها العبدري هي آخر ما قدمه لنا الجغرافيون والرحالة العرب حول أجدابيا[3].

---

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص80 لا يفيدنا بجديد، ويذكر بأن المعز أمر ببناء خزانات لمياه الأمطار في المنطقة لتسهيل زحف جيشه نحو مصر، انظر أعلاه. ص235. مؤلف كتاب الاستبصار، ص144 الذي ـ كما رأينا ـ يحرص على أن يكون على بينة، لا يضيف شيئاً لوصف البكري.

(2) Das Nordafrikanische Itinerar, p.160-108.

(3) الحميري، انظر أجدابيا، يشير أنه في زمنه لم يبق إلا قصران في الصحراء. ثم يصف المدينة والمنطقة كما كانت من قبل مستوحياً البكري والإدريسي وكتاب الاستبصار. ويقول إنه في زمن معين ـ لا يحدده ـ كان يزرع فيها قليل من القمح، والشعير والقطاني.

سرت[1]

نذكر بأن مكان سرت القديمة، قد حدد بموقع مدينة سلطان الحالية، أي على مسافة حوالى خمسين كيلومتراً شرق مدينة سرت الحديثة، وتقع مغمداس/ مغمداش على أربعة أو خمسة كيلومترات غرب سرت الحالية[2].

وقد فتحت سرت، قبل طرابلس بقليل، في سنة 44 ـ 643ف[3]. ونجهل ما إذا كان بسر ابن أبي أرطأة قد انطلق من برقه أو من سرت أو من مغمداس لإخضاع منطقة ودان في نفس السنة[4]. وطوال زمن الفتوح شهدت سرت، الواقعة على طريق قاحلة للغاية، القوات العربية تذهب وتعود، وتتقدم وتتأخر، وقد تحدثنا عن الضرورة التي وُجد فيها المعز الفاطمي لإقامة نقاط مياه وأوردنا الواقعة المأساوية التي حكاها التجاني. ويبدو أن العرب قد أحكموا السيطرة على المنطقة ـ على الأقل منذ 41 ـ 43هـ/ 661 ـ 664ف: كيف لنا أن نفسر بشكل آخر أن عقبة ترك جيشه في مغمداس تحت مسؤولية اثنين من المساعدين وتوغل في الصحراء لحملة استمرت خمسة شهور[5] على الأقل؟ بعد ذلك، حوالى سنة 695ف، انسحب حسان بن النعمان إلى قصور حسان الواقعة على مسافة سبعين كيلومتراً غرب سرت وبقي فيها طوال ثلاث سنوات[6]، وذلك بعد أمرٍّ هزيمة عرفها الفاتحون العرب خلال مقاومة الكاهنة. إن التاريخ لا يتحدث، عادة، عن هذه المدينة. ففي نهاية القرن الثامن، وخلال الربع الأول من القرن التاسع، في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (784 ـ

(1) موضحه على خريطة ابن حوقل، حيث رسم الساحل منمنم. وهي موضوعة إلى الغرب أكثر من اللازم على خريطة الإدريسي.
(2) المرجع بعاليه، ص105، رقم 1.
(3) انظر بعاليه، ص83.
(4) بعاليه، ص79.
(5) بعاليه، ص105.
(6) بعاليه، ص157 ـ 158.

823ف) ابن الإمام الأول، سيطرت تاهرت على إقليم جبلي وصحراوي ممتد من مستغانم في الغرب حتى سرت في الشرق مروراً بورقلة، وبسكرة، وجبال أوراس، والجريد وقفصة وجبل نفوسة[1]. وتحت الأسرة الطولونية، كانت منطقة سرت جزءاً من الولاية المصرية التي عاصمتها برقة، وكانت مقاطعة ودان تابعة لسرت[2]. وفي نهاية القرن التاسع وخلال فترة لم يحددها المؤلفون كانت سرت منفصلة عن إمارة الأغالبة بالمملكة البربرية الصغيرة التي أقامها ابن الصغير المصمودي والتي من المحتمل أن تكون أباضية. إننا نجهل طبيعة العلاقات التي كانت لهذه المملكة مع الجارين[3] القويين. وقد أصبحت سرت عبيدية في القرن العاشر. وعندما غادر المعز أفريقية سنة 973ف أسند إلى بلجين بن زيري حكومة أفريقية لوحدها، واحتفظ بولاية طرابلس لعبد الله بن يخلف الكتامي. ولا نعرف عما إذا كانت سرت في ذلك الوقت تابعة لطرابلس أو للخليفة الفاطمي مباشرة. في جميع الأحوال، بعد ذلك بخمس سنوات أسند الخليفة نزار أبو منصور العزيز شؤون أجدابياً وسرت وطرابلس إلى بلجين، وهكذا أصبحت سرت زيرية[4]، ولكن هذا لم يكن لصالحها لأن معارك بين بني هلال والزيريين دارت في إقليمها وقد عانت منها كثيراً. ونعرف المصير المشؤوم الذي كان لمدن الساحل نتيجة أعمال قراقوش وبني غانية. وأصبحت سرت بعد ذلك تحت سلطة المماليك، فقد كان الحد الشرقي لأراضي الحفصيين عند سويقة ابن مثكود، وهي موضع يقع بين طرابلس على مسافة مائتي كيلومتر نحو الغرب، وسرت على مسافة مائتين وثمانين كيلومتراً شرقاً[5]. وفي القرن الخامس عشر، في زمن أكبر توسع للحفصيين كانت

---

(1) T. Lewicki, un royaume ibadite, p.8, le meme, Repartition Geographique, p.319.

(2) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 204 ـ 205.

(3) انظر عاليه، ص225 ـ 226، 237.

(4) انظر عاليه، ص240 ـ 241.

(5) عن سويقة ابن مثكود = مصراتة، انظر عاليه، ص347 ـ 348 رقم 2.

أفريقية تمتد حتى تاورغاء[1] على مسافة أربعين كيلومتراً جنوب مصراتة، وعَرضاً حتى سرت[2].

يقول اليعقوبي إن الوصول من أجدابيا إلى سرت يتم في خمس مراحل. وكانت المرحلة الأولى في أراضي لواتة، والأربعة اللاحقة في بلاد مزاتة الأباضية على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين[3](*).

يعود الفضل في أول وصف للمدينة ومنطقتها إلى ابن حوقل[4]. كان البربر الذين يسكنونها شبه رحل، ولهم مزارع في نفس البر(**) وكانوا يأتون بعد المطر يتنجعون بالقرب من المدينة حيث يمكنهم الاستفادة من المراعي. وبها نخيل ـ ولكن التمور ليست من نوعية جيدة ـ وأعناب وأشجار فواكه. وميناء سرت على غلوة سهم(**) وهو نشط للغاية. وكان الجابي المكلف بالضرائب من كل نوع ـ ضريبة عقارية، ضرائب على المنتجات الزراعية والحيوانية ـ والرسوم على القوافل، مكلفاً ـ كذلك ـ بتحصيل الضرائب على الواردات والصادرات. تصدر سرت الصوف والشب الذي يحمل اسمها[5]. إننا

---

(1) الزركشي، ص135/ 247. في القرن التاسع، كانت تاورغاء تكون الحد الشرقي لإقليم هوارة، والحد الغربي لموطن مزاتة، انظر اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص190. نفس المؤلف، بلدان، ص346، 344/ 204، 206.

(2) R. Brunschvig, Hafsides, I, p.332.

(3) بلدان، ص344/ 203.

(4) صورة الأرض، ص68/ 64 ـ 65.

(*) العبارة كما وردت عند اليعقوبي، ترجمت بها ما أورده المؤلف. المترجم.

(**) العبارات كما وردت عند ابن حوقل، ترجمت بها ما أورده المؤلف، المترجم...

(5) يستعمل الشب لتثبيت مواد الصباغة والمحافظة على جلود الحيوانات. كان الشب في مصر الأيوبية احتكاراً على الدولة. وكان يزود به صناع النسيج الإيطاليين الذين يقدمون بالمقابل مواد استراتيجية، انظر N. Elisseeff، L'Orient Musulman، ص280. في القرن الثاني عشر كان طلب الإسبانيين كبيراً لدرجة أن التجار المغاربة حرصوا على عدم تلبيته كله من أجل المحافظة على الأسعار، انظر S.D. Goitein، Letters، ص267. وفي الطب، كان الشب مستعملاً لوقف النزف وكمادة للتنظيف. انظر F. Sanagustin، La Chirurgie، 99 ـ 100.

نقدر أن هذا الشب من ملاحات طرابلس الغرب[1] لم يكن يتوافر بكميات كافية لأن شب كوار كان يمثل أكبر ثروات المنطقة وكان يصدر نحو المغرب عبر ورقلة ونحو مصر[2]. وقد كانت عائدات سرت أقل من عائدات أجدابيا[*].

لقد اندهش ابن حوقل ـ كما سيكون الحال بعد ذلك بالنسبة للبكري ـ وأشار إلى أن لحم الماعز في سرت أحسن من لحم الخروف ومطلوب أكثر منه. ولحم الخروف ليس مرغوباً من سكان المدينة ولا من البدو، وهو معتبر عندهم مثل لحم الماعز عند غيرهم. ولا بد أن الأمر يتعلق بماعز تتم تربيته في الأدغال المجاورة[3]. وكان شرب أهل سرت من ماء المطر المختزن في المواجل[**].

ما يقوله ابن حوقل عن السكان يحيرنا: عدد البربر فيها أكثر منهم فيما جاورها، ومنهم مجموعة مستقرة في المدينة نفسها [***]، وتقوم بينهم على مر الأوقات خلافات متكررة، ولكنها لا تستمر، و«عاملهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم»[****]. ويبدو واضحاً مما سبق، أن هناك سكاناً آخرين في سرت من غير البربر (الأصليين)، أو العرب الذين كان من المحتمل ألا يغفل ابن حوقل عن ذكر انتمائهم إلى هذه القبيلة أو تلك. ويبدو أن هويتهم معروفة لا تحتاج لذكر، وهو الأمر الذي لم يكن بهذا الوضوح بعد ذلك بعشر قرون. قد يساعدنا البكري، بالرغم من احتمال عدم زيارته لأفريقيا الشمالية، ولا نعرف ما إذا كان قد استعان، حول هذا الموضوع، بمرجع معاصر له ـ كان البكري يكتب في سنة 68 ـ 1067ف تقريباً ـ أو أسس على أعمال سابقة، خاصة كتاب المسالك

---

(1) حول الملاحات، انظر R. Brunschvig، Hafsides، I، ص230.

(2) الإدريسي، ص39 ـ 39/ 45 ـ 46. وTableau Geographique-R Mauny، ص322 ـ 323.

(*) إن ما يقوله ابن حوقل هو «. . . . ودخلها أوفر من دخل أجدابيا. . .». المترجم.

(3) المقدسي، ص224، طبعة C.h. Pellat، ص12 ـ 13.

(**) العبارات كما وردت عند ابن حوقل، ترجمت بهما ما أورده المؤلف، المترجم. . .

(***) ما أورده ابن حوقل: «وللبربر حاضرة بنفس قصبة سرت وبينهم خلاف على مر الأوقات».

(****) تعبير ابن حوقل.

والممالك لمحمد بن يوسف الوراق الذي استقر في قرطبة بناء على دعوة الخليفة الحاكم الثاني (961 ـ 976ف) وأعماله معاصرة تقريباً لأعمال ابن حوقل. يحدثنا البكري عن اللغة التي يتكلم بها سكان سرت «ولهم كلام يتراطنون به، ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي[1] ولا يعرفه غيرهم». ويتساءل T. Lewicki عما إذا لم تكن هذه هي اللغة البونية[*] مخلوطة بمفردات من الليبية ـ البربرية[2] القديمة. كما يمكن أن تكون لاتينية أو يونانية تطورت بطريقة مستقلة ولم يستطع مرجع البكري تحديد أصلها. ولا يجب أن ننسى وجود أفارقة في برقة وبين طرابلس وقابس وفي الجريد كذلك، حسب اليعقوبي، وأنهم لم يختفوا من بعض المناطق في زمن الإدريسي[3]. إن هؤلاء السكان كانوا يمثلون أغلبية أهل سرت، ولم يكن للبربر الأصليين إلا حي يديره أحدهم، وهو مسؤول أمام رئيس قبائل مزاتة. وبعكس سكان طرابلس الودودين المؤدبين تجاه الأجانب، والذين يتعاملون بطريقة صحيحة في التجارة، يتصرف سكان سرت ـ بربر، وربما أفارقة ـ بطريقة خسيسة في التعاملات التجارية، فهم يحددون بأنفسهم أسعار الشراء والبيع، وقد يذهبون إلى حد التظاهر بوفرة بعض المنتجات، مثل الزيت، لإجبار البائعين الأجانب على خفض أسعارهم[4]. ويقول شاعر عنهم إن ملابسهم على صورة دناءتهم. والمدينة محاطة بسور ـ البكري أول من ذكره ـ وبه ثلاثة أبواب، ولا يبدو أنها تتمتع بثراء غير عادي: ففيها جامع كبير، وحمام وبعض الأسواق، وليس لها ضواحي وإنما حدائق وبساتين وآبار وخزانات. لهذا نفهم تأكيد ابن حوقل على أن عائداتها لم تكن تصل إلى مبلغ عائدات أجدابيا[5].

---

(1) المسالك، ص19/6.

(*) لغة قرطاجنة. المترجم.

(2) Etudes Maghre'bines, II, p.54 .

(3) انظر بعاليه، ص386.

(4) كتاب الاستبصار، ص109 سيلاحظ كذلك هذه التعاملات التجارية السيئة. ولكنه لن يتناول ـ لسوء الحظ ـ اللغة التي كانت مستعملة في سرت.

(5) ياقوت، انظر (سرت) ينقل كلمة بكلمة وصف البكري.

لم تؤثر المعارك التي دارت في منطقة سرت، أثناء الهجرة الهلالية، على سور المدينة، وكانت توجد فيها أشجار التوت بأعداد كبيرة وقليل من النخيل ـ الذي رأينا أن تموره ليست من الدرجة الأولى فيما يتعلق بالنوعية ـ، وأشجار التين. وكانت الخزانات فيها ما تزال موجودة في منتصف القرن الثاني عشر. ولولا الخراب الذي ألحقه العرب بالمنطقة لكان النخيل كافياً لاحتياجات سكانها. بالرغم من هذا لا يظهر أن العرب كانوا خطرين فقد كانوا عاجزين أمام مناوشات بربر رهانة الجبليين الذين يتحركون بسرعة فائقة بفضل جمالهم الممتازة ومعرفة جيدة بالأرض، فعندما كانوا يقومون بغارة ثم ينسحبون إلى الجبل كان من المستحيل إخراجهم منه[1].

تغير الوضع، ولم يعد كما كان بعد الكارثة التي أحدثها قراقوش وبنو غانية. فلم يعد باقياً، قرب المدينة المخربة، إلا قصور يسكنها حلفاؤهم/ أتباع العرب. ويركز هؤلاء العرب على الزراعة[2]. والقصور المذكورة متباعدة الواحد عن الآخر بمرحلة في بعض الأحيان. ويذهب العبدري إلى حد لوم البكري لوصفه سرت بأنها كبيرة بها حدائق ونخيل بسبب الخراب الكامل الذي كانت عليه المدينة، فقد تصور أن البكري سمع حديثاً عن توافر التمور في سرت فاستنتج من هذه المعلومة وجود النخيل فيها. لقد كانت التمور في سرت ـ في زمن العبدري ـ تورد من أوجلة. ولن نستغرب أن يصرخ العبدري في أبيات شعرية وبطريقته المعتادة في المبالغة: «ثم سرنا من سرت سير من خاف يداً عادية أو أسداً ضارية أن تنوشه. . . ومرتكبين لمركب الغرر. .»[*]. وتوغل آنذاك في صحراء سرت، وهي منطقة بدون ماء أو حياة[3].

---

(1) الإدريسي، ص122 ـ 123/ 143 ـ 145. انظر يعاليه، ص307.

(2) ابن سعيد، بسط الأرض، ص61.

(*) لم يقل العبدري هذه الكلمات شعراً، وإنما قالها نثراً، بعد أن أورد ثلاث أبيات من الشعر نسبها للبكري. المترجم.

(3) Das Nordafricanische Itinerar, P. 143-144, introd. W. Hoenerbach, PP. 54,81-83-136.

لم تختف الفوضى التي نجمت عن أحداث النصف الأول من القرن الثاني عشر. كان ابن بطوطة مسافراً من صفاقس إلى طرابلس مع قافلة كبيرة محروسة من فرسان ونبالين، وترك القافلة في طرابلس وواصل طريقه شرقاً مع مجموعة من المصامدة، وفي سرت ـ أو بالأحرى في قصور سرت ـ هوجم من قبل عصابات من عرب جماز[1]. وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا إلا قبيلة تمارس النهب أحياناً. ولو لم يكن الأمر كذلك لأُخبر ابن بطوطة بهذا الخطر، ولم يكن ـ وهو الحذر دائماً ـ ليتوغل في هذه القفار دون حراسة. يبدو أن البلاد كانت تعيش في سلام في القرن الرابع عشر. ونعرف، أنه بينما كانت سلطة الحفصيين في ولاية طرابلس أقل قوة مما كانت عليه من قبل، أحكم عرب دباب سيطرتهم على البربر خاصة قبائل ترهونة وورفلة، وذهبوا إلى حد استخدامهم عساكر في غاراتهم. أما من جانب سرت وبرقة فلم تكن قبيلة مصراتة الهوارية تدفع للعرب إلا ضريبة صغيرة «ويبدو أنها كانت تؤديها تطوعاً»، وتتاجر هذه القبيلة مع مصر والجريد وبلاد السود[2]، وهو ما لا يتوافق مع انعدام الأمن الذي يمكن استنتاجه من نص ابن بطوطة.

إذا كانت الحروب قد خربت البلاد، فلا يجب تصور أن الأضرار كانت غير قابلة للإصلاح. بشكل عام، إن إصرار الحضري، ورغبته الدائمة في إعادة البناء والعمل الزراعي، استعادت مكانتها وأحدثت أثرها، وجنى الحضر المنتجات التي كان يحتاج إليها البدو احتياجاً كبيراً. نعرف المثل من قابس حيث لم تبق، في أحد الأيام نخلة واحدة، ثم أعيدت بساتين النخيل. تمثل سرت ـ لسوء الحظ ـ استثناء، فقد أزيلت بالكامل، وتغير حتى مكانها. ففي القرن السادس عشر لم تعد هناك إلا بقايا صغيرة من الأسوار[3]. ويلاحظ

(1) ابن بطوطة، ج1، ص25 ـ 27. جماز بطن من شمر وهي قبيلة أصلها من نجد. ويوجد اليوم جماز في الموصل. انظر كحاله، المعجم، انظر (جماز، وشمر، وهدية).

(2) ابن خلدون، البربر، ج1، ص280.

(3) ليون الأفريقي، II، ص456. من المؤسف أن المراجع من القرن الخامس عشر لا تمكننا من =

الورثيلاني، في القرن الثامن عشر، أن الأرض فيها ممتازة للزراعة والمراعي، ولا حاجة للري لأن المطر يؤمنه، والحقول وفيرة، والعرب موسرون ويحتفظون بمنتجاتهم في قصور، ولكن الفوضى أدت إلى هجرة كبيرة. وإذا ما صدقنا الورثيلاني، فقد كان هناك رد فعل إيجابي في وقت غير معروف، وكان هناك بعث للزراعة وكانت المراعي جيدة الاستعمال، كما كان هناك تعايش وتكافل بين البدو الرحل والحضر المستقرين، ولكن كانت هناك قلاقل ـ لا بد أنها تتعلق بالفوضى الناتجة عن الحرب ضد الأتراك ـ، وقد أدت هذه القلاقل إلى نشر الخراب في البلاد للمرة الثالثة[1].

شروس وجادو[2] (جبل نفوسة):

لن نتناول في جبل نفوسة إلا مدينتين تكوِّنان نهايات للطرق العابرة الصحراء. وليس في نيتنا أن نستعرض تاريخ الجبل، وهو مكتوب بطريقة تثير الإعجاب في أماكن أخرى[3]، ولن نتعرض لأبرز مكوناته إلا من أجل هدف واحد، وهو وضع وصف هاتين المدينتين في السياق التاريخي.

فتح المسلمون بقيادة عمرو بن العاص طرابلس بين فبراير ـ مارس 643ف، ومايو ـ يونيه 644ف. ومن المحتمل أن فتح جبل نفوسة تبع بعد ذلك بقليل لأن ثلاثة مؤلفين يقولون بأن عمرو استلم من الخليفة عمر رسالة تمنعه من محاولة غزو أفريقية[4] بينما كان في الجبل. ويبدو أن هذا الفتح كان رمزياً لأن الطريق الذي كانت تتبعه بعد ذلك الجيوش العربية في طريقها نحو أفريقية ـ

= تتبع أحسن لتطور هذا الانحطاط: الحميري، انظر (سرت) يخلط من جديد بين المعلومات التي قدمها البكري، والإدريسي وكتاب الاستبصار.

(1) رحلة، ص216 ـ 217، 227 ـ 228، 237 ـ 238.

(2) موضحة بطريقة صحيحة على خريطة ابن حوقل. خريطة الإدريسي لا تذكر إلا شروس موضحة أكثر من اللازم ونحو الغرب على خط طول قابس.

(3) انظر المقالات العديدة لـT. Lewicki.

(4) انظر عاليه، ص46، 85.

الهدف الرئيسي والحلم ـ كانت تمر جنوب طرابلس وشمال الجبل. وعندما غمر الخوارج أفريقيا الشمالية كانت هوارة هي التي لعبت الدورالغالب في البداية. ثم بعد ذلك، في سنة 748ف ـ 749ف، عندما تنازع السلطة القائدان الأباضيان؛ عبد الجبار المرادي والحارث الحضرمي وتقاتلا، انتخبت الجماعة نفوسياً هو إسماعيل بن زياد قائداً. وقد قتل إسماعيل في المعركة ولكن نفوسة كانت قد قدمت البرهان على قوتها[1]. ومع أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري الذي انتخب سنة 140هـ/ 58 ـ 757ف، حاز الأباضيون مساحة شاسعة، من القيروان حتى برقة، كان الجبل حصنها الاستراتيجي وكذلك التجاري حيث كانت تنتهي هناك الطرق من السودان عابرة الإقليم الأباضي: الطريق عبر زويلة والحمادة الحمراء، والطريق عبر غدامس. وقد تمكن ابن الأشعث، الذي أرسل من مصر على رأس جيش قوي، وكان مساعده الأغلب التميمي والد مؤسس أسرة الأغالبة، من هزيمة القائد الأباضي والاستيلاء من جديد على السهول، وبقي جبل نفوسة خارج سلطة ابن الأشعث وتحالف الجبل مع تاهرت التي كان قد كونها منذ وقت قصير، عبد الرحمن بن رستم[2]. لقد فقد الأباضيون أفريقية ولكن بقيت لهم، بموجب اتفاقية موقعة مع الأغالبة سنة 812ف، فزان وجبل نفوسة الذي ارتبط بواسطة ممر جنوبي مع تاهرت وهو ما مكن الأباضيين من موارد تجارية ضخمة. كان هذا الممر آمناً فقد مر عبره الإمام الرستمي الثاني في طريقه نحو مكة[3]، كما مثل خطراً استراتيجياً حقيقياً للأغالبة الذين احتلوا الجريد سنة 224هـ ـ (838 ـ 839)ف عازلين ـ هكذا ـ

---

(1) انظر عاليه، ص191 ـ 192.

(2) انظر بعاليه، ص149 ـ 152. كان الجبل دائماً كثير السكان وحدثت في القرنين الثامن والتاسع هجرة نحو الساحل التونسي والساحل الطرابلسي. لا بد أن تاهرت كانت قوية جداً لأن عبد الرحمن (5/ 784ف ـ 4/ 823ف) ابن مؤسس الأسرة الرستمية أعطى هذه المنطقة لقبائل نفوسة المهاجرة ـ انظر T. Lewicki، Un document، ص175 ـ 176، 184 ـ 185، 191 note Suplementaire، ص194 ـ 196.

(3) بعاليه، ص220.

جبل نفوسة عن عاصمة الإمامة. وعندما حاول الأمير الأغلبي، إبراهيم الثاني الزحف على مصر سنة 896ف حاولت نفوسة وقبائل أخرى التصدي له ولكنها سحقت وخرب الجبل[1].

سقطت تاهرت في أيدي العبيديين سنة 911ف، وتبعها الجبل ـ ولكنه لم يتحمل المحتل الأجنبي لمدة طويلة، فقد تمكن القائد النفوسي أبو بطة، سنة 309هـ ـ (22 ـ 921)ف من إزعاج عبيد الله، وواجه جيشه القوي وقد انتصرت القوات العبيدية وخرب[2] الحصن النفوسي، الذي لا تبين لنا النصوص ـ لسوء الحظ ـ موقعه. وتعافى الجبل ـ على ما يبدو ـ من هذه الهزيمة إذ إن التجارة تمكنت من الاستمرار[3] مع تادمكة عبر غدامس وغات من جانب، ومع قابس من جانب آخر.

استطاعت قبائل نفوسة، في القرن الحادي عشر، مزاولة نشاطها التجاري بكل طمأنينة، والنأي بنفسها عن الصراعات بين المطالبين بالعرش الزيري، كما تمكنت من الابتعاد عن نزوح الهلاليين. بل يبدو أن العرب هم الذين قاسوا من غارات البربر الذين كان يتعذر الإمساك بهم. لم يكن القرن الثاني عشر ملائماً لقبائل نفوسة كما كان القرن الحادي عشر. فبعد أن انضم إبراهيم بن قراتكين إلى قراقوش، سنة 573هـ ـ (78 ـ 1177)ف، واستولى القادم الجديد على غدامس، توجه الأيوبيون مدعومين من دباب الهلاليين ـ الذين سيصبحون بعد ذلك أشرس أعدائهم ـ نحو الشمال وفاجأوا جبل نفوسة واحتلوه واستولوا على مغانم ضخمة قسموها بين العرب وهو ما حرك العملية التي نعرف[4]. من تلك اللحظة، وطوال الفترة التي استغرقتها مغامرة قراقوش ـ بني غانية لم يعرف الجبل السلام، وقد جذب الجبل، مثل كل أفريقيا الشمالية، غارات المغامرين،

(1) بعاليه، ص212.
(2) بعاليه، 237 ـ 238.
(3) انظر بعاليه، ص265.
(4) انظر عاليه، ص334.

بل كان مسرح صدامهما. وفي سنة 10 ـ 1209ف، تمكن جيش أبي محمد مدعوماً بقبائل نفوسة التي أرهقتها ضرائب المرابطين، من إبادة جيش يحيى في جبل نفوسة، وألحقت به أكبر كارثة، وأكبر عار عرفهما[1]. ولقد تطلب الوضع سلطة الحفصيين وقوتهم وتميز تنظيمهم ليعود السلام إلى الجبل ويتمكن مجدداً من ممارسة التجارة، نزعته الطبيعية.

كان لكل من شروس وجادو منبر في القرن العاشر، حسب ابن حوقل وكان بشروس أعناب وأشجار تين وفيرة، كما كان يزرع بها الشعير. وكانت أشجار الزيتون تنمو في المنطقة. ولم يكن قد سبق للسكان الخضوع لأي سلطة[2]. وكان أبو زكريا، حكيم الجبل، يسكن في شروس ثم في جادو حيث توفي، وقد حكم طوال سبعين سنة ـ ابتداء من سنة 358 هـ ـ (69 ـ 968)ف، وفق ما أورده الشماخي. وكان رجلاً عزوماً حازماً، رفض ـ بداية ـ الاعتراف بالزيريين ولكنه اضطر ـ بعد ذلك ـ للخضوع أمام المعز (1015 ـ 1061ف) بعد حصار استمر اثني عشر سنة. ومن المحتمل أن هذا الاعتراف كان مجرد اعتراف شكلي إذ إن أبا زكريا أعلن عدم استطاعته دفع الضريبة المطلوبة[3]. كانت شروس تبدو أم قرى الجبل في الزمن الذي كتب فيه ابن حوقل، ومحمد ابن يوسف الوراق أستاذ البكري، وكانت مدينة جميلة كبيرة كثيرة السكان. ولكن الوراق يناقض ابن حوقل ويؤكد عدم وجود جامع في شروس وفي الضواحي المجاورة، لعدم استطاعة السكان الاتفاق حول من يؤم الصلاة[4]. وجادو واقعة في موطن بني تدرميت[5] وبها أسواق عديدة. ولا شك أن اليهود

---

(1) انظر عاليه، ص343.

(2) صورة الأرض، ص94 ـ 95/ 93.

(3) T. Lewicki, Ibadititica.

(4) البكري، ص9/ 26 الذي يوقع شروس بدقة على خمسة أيام من طرابلس، سنأتي على ذلك لاحقاً، انظر أدناه، ص426، عن موضوع وجود أو غياب المنبر أو الجامع في الجبل.

(5) منطقة بني تدرميت مجاورة لمنطقة بني زمور التي تملك قلعة لا يمكن الاستيلاء عليها، انظر T. Lewicki، Repartition، ص335 ـ 336.

الذين يذكرهم البكري في جادو هم من التجار لأن من هذه المدينة كان يتم الذهاب مباشرة إلى زويلة وبلاد السود عن طريق الحمادة الحمراء. ويلاحظ الوراق أن في إمكان قبائل الجبل أن تجمع ستة عشر ألف محارب، ويبدو أنه كان يقابلهم بقبائل بربر الساحل الذين استسلموا لحكم فرسان لبدة العرب بالرغم من أنهم كانوا أقل عدداً[1] بكثير.

كان سكان الجبل، في النصف الأول من القرن الثاني عشر بعد نزوح بني هلال، يمارسون زراعاتهم في أمن واطمئنان. ويذكر الإدريسي، مثل البكري، الأعناب وأشجار التين والشعير. ويقول بوجود أحسن الخبازين في العالم في شروس. ويتحدث الإدريسي عن مدينة أخرى بمنبر ولكنه لا يذكر صراحة جادو. كما يلاحظ علاقات شروس مع ورقلة وقفصة وطرابلس ولكنه لا يورد ذكراً للطريق المباشر الذي يربط الجبل بفزان عبر الحمادة[2].

حدث في الجبل بعد حملات قراقوش ويحيى الميورقي، تغيير ولكنه ـ للأسف ـ لم يُشرح لنا. بقيت شروس غنية وكثيرة السكان، ولكن جادو ـ حسب كتاب الاستبصار ـ التي كانت غالبية سكانها من اليهود أصبحت هي المدينة الرئيسية[3]. ومن الممكن أن غارات قراقوش ويحيى وُجهت بشكل خاص ضد شروس حيث المغانم يمكن أن تكون أهم بكثير. ومن الممكن أن جادو، بفضل موقعها في نهاية الطريق العابر للصحراء، قد أخذت الدور الذي لعبته جارتها حتى ذلك الوقت.

لم يضف ياقوت[4]، في القرن الثالث عشر، جديداً إلى ما قاله سابقوه، بل بالعكس، أضاف غموضاً. فهو أحياناً ينقل نصوص البكري دون أن يذكره معلناً عدم وجود مسجد كبير لا في شروس ولا في البلدات المجاورة، معطياً

---

(1) البكري، ص9/ 25 ـ 26.

(2) نزهه، ص105 ـ 106/ 123 ـ 124.

(3) ص144 ـ 145 حيث الأوصاف هي تقريباً أوصاف البكري.

(4) معجم انظر جادو، سروس (هكذا)، ونفوسة.

لهذا الغياب نفس السبب الذي أورده البكري ويشير إلى أن الجبل يعد منبرين، أحدهما في شروس والآخر في جادو، ولكن لا وجود[1] لمنابر في الثلاثمائة بلدة الأخرى.

لا نعرف متى بدأ تدهور الأوضاع في الجبل. ففي القرن الخامس عشر نقل الحميري عن الإدريسي[2] بشكل أساسي، ولم يصف لنا ليون الأفريقي إلا نهاية عملية التدهور والانحدار[3]، فالشعير القليل الذي ينتجه الجبل لا يكفي نصف سكانه. إن هؤلاء الرجال البواسل هم الوحيدون في أفريقية الذين لم يتخلوا عن «بدعتهم». لقد كان هناك نزوح كبير لقبائل نفوسة نحو تونس[4]، حيث يمارسون أعمالاً وضيعة مع حرصهم الشديد على عدم إظهار معتقداتهم[5]. وفي الجبال جنوب طرابلس كانت غريان[6] هي التي تظهر بمظهر المدينة الرئيسية: الشعير فيها وفير، والتمور ممتازة وأشجار الزيتون كثيرة، وكان الزيت والزعفران ـ وهو الأحسن في العالم ـ يصدران إلى مصر.

لننهي وصف المناطق الجبلية جنوب طرابلس، نذكر ملاحظة لابن خلدون لها أهمية. فمن أفرع بني دمر، وهم من زناتة، والجيران الشرقيون لقبائل نفوسة ـ وهؤلاء هم الذين رأينا أنهم كانوا يناوشون العرب الهلالية ـ، يعد ابن خلدون ـ من بين آخرين ـ سغمارة[7]. ولا يمكن أن يكونوا إلا سغمارة الذين أشار البكري إلى وجودهم من قبل على المراحل الستة الأولى

---

(1) نفس المرجع، انظر (شروس).

(2) نفس المرجع، انظر (نفوسة). وانظر أدناه، ص331.

(3) الروض المعطار، انظر (نفوسة).

(4) Description de L'Afrique, II, p.409-411.

(5) كانت الحال كذلك سنة 1935ف، انظر Le Djebel Nafousa، ص167. فمنذ حوالى عشر سنوات كانت الهجرة نحو الساحل الطرابلسي، ويبدو أنها توقفت الآن.

(6) مؤكدة من قبل في القرون الوسطى، خاصة من ابن خلدون، البربر، ج1، ص163. تُرى في غريان مساكن بديعة تحت الأرض، وحتى مساجد.

(7) البربر، ج3، ص186.

من الطريق الواصلة من تادمكة إلى غدامس[1]، أي شمال درار الأفوغاس[2]. إن سغمارة، وهم زناتة جبل دمر وسهول أفريقية الغربية[3] هم الأيزغران الحاليون، القاطنون بين قبائل صنهاجة الملثمين الذين تبنوا منهم اللثام، وقد اندمجوا في كل رحل الهقار. ومن بين الكل رحل يتم اختيار سلطان (امنوكال) تجمع قبائل الكل هقار. وكانوا في زمن هنري ديفيريي يتحكمون في الطريق من غات إلى عين صالح عبر تاسيلي، والطريق من غدامس نحو توات[4]. وهم يرفضون ـ بالرغم من ذلك ـ كل فكرة لأصل واحد مع كل هقار ويدعون أنهم عرب من الصحراء الشمالية[5]. هل يرجع هذا إلى الصلات التي ربطت مجموعتي بني دمر اللتين ذكرهما ابن خلدون، إلى بني هلال، طوعاً أو كرهاً.

لا يمكننا ترك جبل نفوسة، هذا الحصن البربري والأباضي، دون أن نتطرق للآراء التي عبر عنها المؤلفون العرب من القرون الوسطى حول البربر بشكل عام، والأباضيين بشكل خاص. رأينا من قبل أن آراء المؤلفين الأوائل متناقضة. يبدو، بشكل عام، أن الثناء كان يكال للبربر الرحل، والانتقادات ـ القاسية أحياناً ـ للحضر منهم. من بين النقاط الإيجابية نذكر شجاعتهم. لم يكونوا يترددون في التقدم ضد القوات العربية عراة وبدون سلاح[6]. لقد كان

---

(1) المسالك، ص181 ـ 182/ 338، 341. حسب الإدريسي، ص5، 6/9، 19 سغمارة مدينة. إن الخلط مدينة ـ قبيلة شائع بين الجغرافيين العرب. حسب الروايات التي جمعها M. Delafosse، Haut Senegal، ج1، ص193 ـ 195 قد تكون تادمكة تأسست قبل الميلاد من قبل البربر. حوالى القرن العاشر أجبر طوارق الألوغمان قبائل سغمارة في نواحي تادمكة على الهجرة. وانتشرت قبائل سغمارة على ضفتي نهرالنيجر حتى البحيرات جنوب تمبتكو. وقد أعطاهم البربر الآخرون اسم كل تادمكت أو كل السوق وهو الاسم الذي كان العرب يطلقونه على تادمكة، السوق الصحراوي الكبير.

(2) كما طردت سغمارة نحو الشمال، كذلك، والهقار وتاسيلي، انظر H.Lhot، M. Gast. Contribution، وس. شاكر، سغمارة.

(3) ابن خلدون، البربر، ج3، ص288.

(4) Les Touareg du Nord, p.376. Journal de Route, p.166.

(5) M. Gast et S. Chaker, Sagmara, p.77.

(6) ابن عبد الحكم، 128 ـ 129.

بربر الصحراء شجعاناً جسورين، عارفين بالأرض معرفة دقيقة وبارعين في اكتشاف نقاط المياه، وبنيتهم الجسمانية حسنة، عند النساء والرجال، إن لم تكن كاملة البهاء. وهم كرماء، يسمحون للأجنبي بسقي حيواناته من آبارهم واستعمال مواطنهم مراعي[1]. ولا تتردد قبائل رهانة من جبل دمر في مهاجمة العرب الهلاليين[2] وبنجاح دائماً. وقد منعت قبائل مزاتة، وزيبانة، وفزارة في إقليم برقة، وهم فرسان شجعان، العرب من غزو أقليمهم[3]. وهم لطفاء ودودون بشكل خاص، وبربر طرابلس ذوو استقامة وأمانة كاملة[4]. وانعدام الأخلاق غير معروف لديهم وكذلك الملذات المحرمة، وبالعكس، فإن الرجال ذوي الفضيلة فيهم لا يمثلون ندرة[5]. إن الكثير من الحكايات تبرهن أن ذكاء البربر وصبرهم يمكنهم من القيام بأعمال انتقامية شنيعة عندما يظلمون أو يخدعون[6]. لم يفت ابن خلدون، قبل كتابته تاريخ البربر، أن يصور طباعهم وسجاياهم. وقد أثنى عليهم ثناء عطراً: إن البربر شعب حقيقي مثلهم مثل الأغريق والرومان والفرس والعرب، وهم أقوياء خطرون يواجهون الاضطهاد بالحقد، ويظهرون دائماً نبل الروح ويحترمون تعهداتهم، ويقودهم رؤساء متألقون ويعرفون كيف يحافظون على أنفسهم من الأعداء، ويدافعون عن ضيوفهم ويحمون البؤساء، ويكدون من أجل الصالح العام، ويفضلون التقاة، ويحترمون تعاليم الإسلام الذي يعملون على نشره بشجاعة منقطعة النظير. ويمتدح ابن خلدون دون تعصب علمهم حتى عندما يكون أباضياً. ويضيف مستعيناً بأفكار المقدمة، أنهم فقدوا لسوء الحظ عصبيتهم نتيجة للترف الذي ولَّدته ممارسة السلطة والتعود على التسلط[7]، وهكذا أصبحوا رعايا ترهقهم

(1) ابن حوقل، ص101 ـ 103/ 99 ـ 101.
(2) الإدريسي، ص123/ 145.
(3) نفس المرجع، ص133/ 159.
(4) ابن حوقل، ص69 ـ 70/ 66.
(5) نفس المرجع، ص98/ 96.
(6) البكري، ص184 ـ 198/ 343 ـ 352.
(7) انظر العبر، 1، المقدمة، ص234 ـ 237، 246 ـ 247/ 1، ص273 ـ 276، 286 ـ 287.

ضرائب الأسر الحاكمة الأخرى، ويحدث أن ينسوا أمجاد أسلافهم، بل يكرهون الاعتراف بأنهم بربر[1].

إن الأحكام السالبة أكثر عدداً. وقد يرجع هذا إلى تحولهم المتأخر إلى الإسلام أو بنفس الدرجة إلى ردّاتهم المتكررة، ومعتقداتهم الخرافية التي بقيت حية، وبدعهم. فلا يمكننا حصر عدد المتوهمين منهم الذين ادعوا النبوة[*] وتمكنوا من تجنيد قوات عسكرية كافية لبعث القلق عند السلطة المركزية[2]. كما كان من بينهم عدد كبير من العرافين وضاربي الرمل محترفين أو غير محترفين، الذين يمارسون الكهانة بالماء أو النار أو الرمل[3]. هكذا بالنسبة للمناطق التي ندرسها، كان الأزقار وهم أسلاف الطوارق الأزدجر ـ الأجر الحاليين ماهرين في المعارف المتعلقة بالسحر: يؤكد أحد الجغرافيين أنه إذا أضاع أحدهم شيئاً ما، أو تاه أحد حيواناته فإنه يقوم برسم علامات على الرمل، وبمساعدتها يمكنه معرفة أين يوجد الشيء، وإذا كان الشيء مردوماً من قبل اللص في مكان ما فإن العلامات تبين له الاتجاه الذي يجب أن يتبع، وأكثر من ذلك، إلى أي قبيلة ينتمي المجرم، وما على رؤساء القبيلة إلا رسم علامات ـ هم كذلك ـ لتحديد المجرم من الأبرياء. وهكذا في أحد الأيام نجح رجل من الأزقار في سفر إلى سجلماسة، ثلاث تجارب متتالية[4]. وأبعد إلى الشرق، عند بني قلدين والفزانة، إذا ارتكب رجل سرقة، فإنهم يرسمون كتابة يتناقلونها فيما بينهم، فيصاب السارق باضطراب قوي يدفعه إلى الاعتراف بخطئه وإعادة الشيء المسروق: ولا يمكن له أن يستريح إلا إذا محيت الكتابة[5]. ويمكن أن يتم

---

(1) البربر، 1، ص198 ـ 206.

(*) لم يكن ادعاء النبوة حكراً على البربر بل كان أوائل مدعي النبوة من العرب، كما ظهر مدعو نبوة عند أغلب الأقوام الذين اعتنقوا الإسلام. المترجم.

(2) T. Lewicki, Prophetes antimusulamans, pp. 461-466. Le meme, Prophetes, devins, p.3-12.

(3) T. Lewicki, Prophetes, devins, pp. 12-27.

(4) الإدريسي، ص36 ـ 37/ 42 ـ 43.

(5) البكري، ص10/ 27. في فاس، في القرن السادس عشر كان يوجد ضاربو رمل وعرافون =

التنبؤ، أيضاً، كما عند غمارة في المغرب بواسطة رؤوس الحيوانات وأسنانها منظومة أو في شكل مسبحة[1]، أو كما عند زناتة القاطنين بين تلمسان وتاهرت، بواسطة عظام أكتاف الخراف[2]. لقد أُكدت موهبة الاستبصار عند بعض البربر الأباضيين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من قبل الشماخي[3].

يروى أن النبي ﷺ[*] قال: «ولأن أتصدق بعلاقة سوطي في سبيل الله أحب إلي من أن أعتق رقبة بربرية»[4]. إن الممارسات من بقايا الوثنية والسحر كانت أكثر إزعاجاً للعرب. وقد بقيت هذه الممارسات حية أكثر في الأرياف والصحراء، حيث لا يوجد غالباً عالم ولا إمام ولا حتى مساجد، منها في المدن التي انتشر الإسلام فيها وترسخ أكثر وكانت مراقبة بفاعلية أكبر إذ كان يجب إخفاء الوثنية[5]. ولم يكن هذا ليمنع وجود بربر وثنيين في ضواحي القيروان في منتصف القرن التاسع[6].

كانت العبادة الوثنية الأكثر انتشاراً ـ بكل تأكيد ـ عبادة الكبش، وهي من بقايا عبادة الشمس. وقد تركت هذه العبادة آثاراً حتى اليوم حيث رأينا في

= بالماء محترفين، ونساء مرتبطات بصداقة مع بعض الجان وكان على طالبي الاستشارة أن يوجهوا لهن طلباتهم باحترام كبير. عندما يتسلم الرد بواسطة صوت المتنبئة المقلد، لا يفوت الزبون أن يقدم هدية للجن. إذا كانت الزبونة امرأة جميلة فإن الجن يصر على أن يدفع له بلهو حميمي مع المتنبئة التي غالباً ما تكون سحاقية. عندها يمتلك الجن الزبونة فترغب في الدخول إلى هذه المجموعة، وكثيراً ما يوافق الزوج «ولكن هناك من يخرجون الأرواح من أجساد نسائهم بصوت ضرب بالعصا». انظر ليون الأفريقي، ج1، ص216 ـ 217.

(1) البكري، ص101/200.

(2) البكري، ص88/ 101 ـ 102.

(3) T. Lewicki, Prophetes, devins p.19-20.

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

(4) القزويني، ص164.

(5) البكري، ص162/305، يعطي مثلاً من السوس، حيث أعضاء قبيلة بربرية من عبدة الكبش يتنكرون من أجل الذهاب إلى السوق.

(6) الشماخي، مستشهداً به من T. Lewicki، Survivances، ص9.

غات، على حدود تاسيلي، منازل محمية بقرون كبش موضوعة فوق الأبواب[1].

لم تكن عبادة الأصنام مجهولة في الصحراء الليبية. فقد كان يوجد في كرزة[2]، وهي نقطة على مسافة حوالى مائة كيلو متر في الشمال الغربي لأبي نجيم[3]، صنم من الحجر[4]، مثبت فوق تل، كان البربر في المناطق المجاورة - تقع كرزة في إقليم هوارة - يأتونه حتى زمن البكري على الأقل، لتقديم قرابين وطلب الشفاء من أمراضهم والبركة لأموالهم[5]. كما ما زال يرى منحوتاً في الحجر، خيام وصيادون وخيول متحركة أو ساكنة وجمل يحمل هودجاً لامرأة، والتماثيل في كرزة مخربة في الوقت الحالي. ويعتقد دي سلين De Slane[6] أنه تمكن من تحديد أن صنم كرزة هو الإله الليبي قورزيل الذي ذكره عدة مرات كوريبس، الشاعر اللاتيني من أصل أفريقي من القرن السادس مؤلف الجهانية وهي عمل يشيد بإنجازات جان تروغليتا[7]. ويقارب T. Lewicki كرزة مع قرز - يل والنهاية «يل» قد تكون من أصل بوني، وتعني «إله»[8].

---

(1) قال هيرودوت، أنه كان عند الأمونيين في سنترية/ سيوة وهي واحة بربرية جزئياً حتى اليوم تمثال لزويس له وجه كبش.

(2) تكتب أحياناً قيرزا، والنطق المحلي قرزة.

(3) البكري، ، ص12/ 31 يوقع كرزة على مسافة ثلاثة أيام مشي من ودان. وهذا التقدير غير صحيح لأن المسافة بين النقطتين 250 كيلومتراً. ولكن توقيعها على مسافة ثلاثة أيام من الساحل - 120 كيلومتراً - صحيح.

(4) ياقوت، انظر ودان، هو أكثر دقة ويتحدث عن تماثيل عديدة. ويلاحظ كذلك أن كرزة كانت نقطة مياه على طريق طرابلس ودان.

(5) الزاوي، معجم، انظر كرزة، يشير إلى أن فرعاً من أولاد أبو سيف الذين يتنقلون في هذه النواحي يلقب كرزة.

(6) Lntroduction d'Al-Bakri, p.32 .

(7) انظر أعلاه، ص50، رقم 197.

(8) Survivances، ص13. كان قورزيل إلهاً للشمس. عندما احتل المصريون واحة آمون/ سيوة حوالى سنة 550 قبل الميلاد، طابقوا بين الرب الليبي والإله أمون. حول قورزيل/ آمون، انظر O. Bates، The Eastern Libyans، ص187. سنرى أن الهمداني يذكر عبادة آمون عند البربر.

يجب ربط هذه العبادة للأصنام بعبادة الكهوف والصخور. وتُعدد قائمة بالأماكن المقدسة في جبل نفوسة، تعود إلى القرن السادس عشر، الكهوف التي كانت موضوع تبجيل أو محجاً من جانب البربر الأباضية، وكان أحدها يرتبط بشيخ عرف شهرة كبيرة في القرن التاسع[1]. إن تقديس الصخور ـ أو الهلع الذي توحي به ـ ما زال حياً في أيامنا هذه ويرتبط بعبادة الجنيات. فعلى مسافة ثلاثين كيلومتراً شمال غات بالقرب من جبل أكاكوس. يقوم معزولاً جبل أدينن ـ الذي يسمى من قبل العرب جبل الجنون[*]ـ وهو منطقة جنيات بالنسبة للطوارق، من المحتمل أن به قبوراً وثنية. ويرفض الطوارق رفضاً باتاً الاقتراب منه لأقل من كيلو متر[2] واحد.

كان بنو ورسيفان ـ الذين يرى Tadeusz Lewicki أنهم بني ورسفانة الحاليين في الجبل[3] ـ يحرصون على ذبح بقرة سوداء قرباناً للجنون الذين يسمونهم شماريخ، قبل الذهاب للحرب، وكانوا يتركون طعامهم وطعام حيواناتهم في تلك الليلة تحت تصرف جنونهم. وعندما كان يحل يوم المعركة تأتي الجنون لمساعدتهم في شكل إعصار من غبار، ويطمئن بنو ورسيفان ـ عندها ـ لإحراز النصر. ولم يكن هؤلاء البربر يخفون معتقداتهم، وعند استقبال الضيوف، كانوا يحتفظون بجزء من الوجبة للشماريخ، كما كانوا يحرصون أثناء ممارسة هذه الطقوس على عدم ذكر اسم الله[4].

---

(1) .T. Lewicki, op. cit. p.16

(*) إن التسمية في المنطقة هي «كاف الجنون». المترجم.

(2) في يوليه 1849ف، خاطر هنريش بارت بتسلقه وحيداً، ولم يقبل أي من الطوارق مرافقته، وقد ظهر التسلق خطراً لدرجة كاد فيها أن يفقد حياته، وقد اضطر لجرح نفسه من أجل إطفاء عطشه. انظر Travels and discoveries، 1، ص186 ـ 192. و H. Duveyrier، Les Touareg du Nord، ص146 لم يجد دليلاً من الطوارق لمصاحبته. وبعد ذلك بقرن لم نكن أكثر حظاً. يجب القول إنه عند غروب الشمس خاصة، يبدو جبل أدينن مدهشاً ومؤثراً للغاية مع حدوده، وأضلاعه التي توحي بكل الأشياء المخيفة التي يمكن تصورها.

(3) المرجع السابق، ص20.

(4) البكري، ص188 ـ 189/ 351 ـ 352.

لقد تعايشت هذه الأرواح الحامية مع الإسلام ولكنها كانت غريبة عليه. وهناك أخرى لا تتردد في العمل بالتوافق مع إله المسلمين، الأباضيون على الأقل. فبعد معركة سنة 896ف التي دُحر فيها الأباضيون تحت ضربات الأغالبة، ظهر بالليل شيخ وشرع في التحرك بين الجثث. وكان يحرض النفوسيين الموتى على نطق اسم الله، وكانوا يفعلون ويحرض الأغالبة على النباح فكانوا ينبحون[1].

منذ عهد هيرودوت وحتى الآن لا تظهر الجنون إلا باتباع طقوس معينة، ويتمثل أحد هذه الطقوس في الصحراء في زيارة قبور الأسلاف. فعند الناسامون في برقة، كان أفضل الرجال المستقيمين يذهبون إلى مقابر أسلافهم وبعد أن يصلّوا ينامون فوقها، وإذا رأوا في نومهم بعض الرؤى فإنهم يستعملونها[2]. وفي القرن الماضي(*) كان طوارق غدامس يذهبون للنوم فوق مقابر الجهلاء(**) المجاورة للمدينة، عندما يرغبون في الحصول على إجابة لسؤال مثل معرفة أين اختفى سارق، وعندما يستيقظون في الصباح يكون الأصدقاء من أصحاب القبور قد أخبروهم عما كانوا يبحثون[3] عنه. وفي بعض الأحيان، تذهب النساء للنوم على القبور للحصول على أخبار عن أزواجهن الغائبين في رحلة، ويجب عليهن التزين بأبهى زينة لأن الروح تظهر في شكل رجل، وإذا ما استطعن إعجابه فإنه يقص عليهن ما يجري في الرحلة وإلا خنقهن، وعادة ما ترجع النساء من زيارتهن للقبور بأخبار تتأكد فيما بعد[4].

---

(1) أبو زكريا، في T. Lewicki، Survivances، ص21.

(2) هيـرودوت، ج6، ص172. نفس التطيـر ينسبـه Pomponius Mela لسكان أوجلة. انظر، H. Duveyrier. Les Touareg du Nord، ص415.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(**) المقصود مقابر قديمة تعود للوثنيين قبل الإسلام. وقد أورد المؤلف كلمة «الجهلاء» بالعربية. المترجم.

(3) H. Duveyrier، Jounal de Route، ص183.

(4) نفس المرجع السابق، ص203. نفس المؤلف Les Touareg du Nord، ص415، Erwin vob Bary، Le Dernier rapport، ص186 ــ 187، يلاحظ أن هذه الممارسة كانت شائعة عند طوارق الآيير.

تذكر المراجع الأباضية ـ التي تناولت جبل نفوسة وجربة وسوف[1] كذلك، الأصوات الغامضة التي تعطي نصائح، أو تخبر عن المستقبل أو تتلفظ بلغات. وكانت هذه الجنون تعبر دائماً باللغة البربرية[2]. وعرف جبل نفوسة ـ كذلك ـ خلال القرون الوسطى تقديس آثار الأقدام، وآثار الدماء[3].

عرفت ليبيا كذلك الغيلان. ففي صحراء شمال برقة غير بعيد من مصر كان يحدث عند قبائل فاضلة وعقيدان البربرية أن تتحول البنت بعد ولادتها إلى غول أو سعالة تهاجم الناس حتى يتم التمكن من تكبيلها والسيطرة عليها مقيدة[4].

نظراً لهذه المعتقدات التي لا تتفق مع روح الإسلام السني، فلا يدهشنا أن تكون الانتقادات الموجهة ضد البربر من قبل المؤلفين العرب أكثر بكثير مما قيل في تقريظهم والإشادة بهم. لقد وصف الأباضيون خاصة بالدناءة التي لا تلمس عادة إلا عند الأقوام الوثنيين والمتوحشين، ولم تَخِفَّ هذه الإدانات واللوم من كل نوع حتى القرن الرابع عشر.

لقد اعتبر ابن عبد الحكم البربر المجندين في الجيش الإسلامي الفاتح

---

(1) السوف منطقة فيها الخرافات حية بشكل خاص. تسمع فيها حكايات عن الأغوال مخيفة ولكن الحيلة الإنسانية يمكن أن تخدعهم، وأساطير تخص الأرواح، والشعوذة، والعين، انظر Millie-J. Scelles، Contes Sahariens du souf، ص194، 198، 199، 213، 233، 234، وContes Mysterieux de L'Afrique du Nord، ص25. موقف النبي ليس واضحاً فيما يتعلق بالغول، فوفق حديث يقال أنه أنكر وجوده، ولكن تعليقات معينة تدعي أنه أنكر فقط قدرتها على التحول، وهو ما قد يفسر أن الاعتقاد في وجود الغول ليس مداناً بشكل إجماعي، انظر Ch Pellat-D.B. Macdonald، موسوعة الإسلام، انظر (غول). A. Miquel، Geographie، III، ص361 ـ 362.

(2) T. Lewickiو Survivances, p. 23- 25.

(3) أمثلة عديدة عند T. Lewicki، المرجع المذكور، ص28 ـ 32.

(4) البكري، ص4/12 ـ 13 إن انتقاد البربر على اعتقادهم في الجنون لوحدهم أمر غير منصف لأن هذا يوجد عند العرب، وهو معترف به في الإسلام، انظر سورة الكهف، وسورة الرحمن، وسورة الجن، انظر كذلك D.B. Macdonald-H. Masse. موسوعة الإسلام، انظر جن وغول. حول العصر الحديث: A. Jaussen، Coutumes des Arabs، ص318 ـ 323.

أجلافاً ونهابين. ويورد أنه عند وصول طارق إلى أربونة بجيش من قوات موسى بن نصير، وجد المحاربون هناك سجاداً منسوجاً بخيوط الذهب وكانت السلاسل مزينة بأحجار كريمة منضودة. وعندما اكتشف البربر هذا السجاد ولم يتمكنوا من حمله قاموا بتقطيعه إلى جزئين بضربات من فاس[1]. ويورد ابن عبد الحكم، عند تقييمهم بشكل عام، حديثاً يقول: «الخبث سبعون جزءاً، للبربر تسعة وستون جزءاً، وللجن والأنس جزء واحد»[*][2].

يعتبر ابن الفقيه البربر قوماً غير مبالين وغير أذكياء، ويورد حديثاً يقول: «نساء البربر خير من رجالهم، بعث إليهم نبي فقتلوه، فتولت النساء دفنه، والحدة عشرة أجزاء تسعة منها في البربر وجزء في الناس»[3][*].

تناول الهمداني البربر وزنوج بجة والنوبة والحبشة في نفس الوقت: إنهم كلهم مندفعون، نزقون سيئون وكذابون لا يهتمون إلا بالعلاقات الجنسية والملذات الماجنة التي تمارسها النساء قبل الزواج ولا تتردد الواحدة منهن في معاشرة رجال عديدين، ويستثني الهمداني سكان الأندلس والسوس وفزان: منفتحون، ومستقلون، ولا مبالين يحبون العمل دون أن يكونوا رقيقاً، وهم يعبدون الإله آمون[4].

إن المقدسي، الذي سبق له أن أفادنا بأن سكان المغرب يستعملون عربية غير واضحة ولساناً يقترب من اللغة الرومية، يشير إلى أن البربر يتحدثون لغة غير مفهومة، وهم قوم ذوو طباع غير مقبولة، وقساة ذوو شح معيب. وهو يذكر حالة بربري سافر إلى الحج ورجع منه دون أن يفتح كيس[5] نقوده.

---

(1) فتوح أفريقية، ص96 ـ 99.

(*) لا شك أن هذا من نوع الأحاديث المدسوسة. المترجم.

(2) فتوح مصر، طبعة توري، ص287.

(3) البلدان، ص84. نشر وترجمة حاج صدق، ص40 ـ 41.

(4) صفات جزيرة العرب، ص40 ـ 41.

(5) تقاسيم، ص243 ـ نشر وترجمة Gh. Pellat، ص58 ـ 61. إن روح الفطنة والتوقي أكثر تطوراً عند البربر منها عند العرب، ولكن تميز البربر كتجار في الجبل والصحراء هو الذي =

والمقدسي ـ كما أورد في نفس المقطع ـ، هو أول مؤلف في حدود علمنا، ذكر أكل لحم الكلاب عند البربر: يمكن لسكان توزر ونفطة، وهم أشرار وغلاظ، أن يحصلوا على لحوم الكلاب من المجازر. ويذكر البكري أكل لحم الكلاب في توزر وقفصة، وأبعد إلى الغرب في سجلماسة. وقد كان سكان توزر يقومون بتسمين الكلاب في الحدائق بتغذيتها بالتمور، وقد حدث مسافرٌ البكريَ بأنه قدم له ـ أي للمسافر ـ في هذه الواحة في أحد الأيام، طبق لذيذ من اللحم، ثم أخبروه أنه كان لحم جرو مسمن[1]. إن التجاني الذي زار، في القرن الرابع عشر هذه المناطق يشير إلى أن سكان توزر وقابس يأكلون الكلاب وهو ما يأخذه عليهم المسلمون الآخرون. ولا يخفي السكان الذين من بينهم عرب من بني أسد وفرعهم بنو فقعس، هذا الأمر ويدعون أنه لحم لذيذ. ويورد التجاني شعراً للفرزدق وهو هجّاء بصري من القرن الثامن:

إذا أسـدي جـاع يـومـاً بـبـلـدة وكـان سـمـيـنـاً كـلـبـه فـهـو آكـلـه[2]

= جعلهم يوصفون بالبخل. من وجهة النظر السياسية كان من غير المقبول لعرب المدن أن يعلموا أن بربر المناطق الوعرة كانوا يرفضون دفع الضرائب. في القرن الماضي كان طوارق تاسيلي يسمون الفزانيين ـ بسخرية واحتقار «الناس الذين يدفعون الضرائب»، انظر E. von Bary، Le Dernier Rapport، ص19. منذ بضع سنين كان الطوارق الليبيون والجزائريون يعبرون بقطعانهم من الجمال الحدود في هذا الاتجاه أو الآخر حسب الجهة التي يقترب منها جابي الضرائب.

(1) المسالك، ص49، 148/ 104، 284. والاستبصار، ص160. أكل لحوم الكلاب في سجلماسة أكده الإدريسي: ويقول إن النساء يعتقدن أن سمنتهن تعود لهذا الطعام، انظر نزهه، ص61/ 70. انظر كذلك الاستبصار، ص210 ـ 202. وابن سعيد في أبي الفدا، تقويم، ص136. كذلك في المدينة ومصر حيث يخلطون لحوم الكلاب خفية في الحريسة، انظر المقدسي، ص40/ 99 ـ 100 حيث يقول إن هذه الممارسة ضد تعاليم الإمام مالك. كذلك في زيلع في الصومال حيث يعيش السود الأكثر تقوى من مسلمين مراعين لأوامر دينهم ونواهيه: يفضلون لحوم الكلاب على لحوم الخراف وفيها تستهلك الفئران، انظر أبو حامد، ص44/ 249. نفس الشيء في مالي، انظر ابن بطوطة، ج4، ص424. حتى اليوم يسخر تونسيو الشمال من أهل قابس حول عادتهم المدعاة في أكل لحوم الكلاب. حول الكلاب في الصحراء في العصر الحديث وحول أكل لحوم الكلاب الذي يأخذ طابعاً سحرياً طبياً انظر، L.C. Briggs، Tribes of the Sahara، ص24 ـ 25.

(2) رحلة، ص160. كان بنو أسد معروفين ببخلهم، انظر الجاحظ، Le livre des Avares، =

هكذا نرى أنه إذا كان أكل لحوم الكلاب منتشراً جداً في بلاد البربر، فهو، بالمقابل، ليس مجهولاً في المشرق.

مما لا يستحق الذكر القول بأن المؤلفين كانوا يوردون هذه الممارسات باشمئزاز دائماً. وإذا كان يحدث أن لا يراعى دائماً التحريم الكلي لأكل الثدييات ذات المخالب، وآكلات اللحم، والطيور ذات المخالب فيما يتعلق بالطيور الجوارح إلا أن كل الفقهاء على اتفاق فيما يخص تحريم الكلاب والقطط[1] من بين أخرى. وقد ظهر نفور المسلمين من الكلاب حتى في القيروان الحفصية عندما كان حراس السوق يستعينون في مهمتهم بالكلاب، فقد قبل الفقهاء حلاً وسطاً: يمكن للحراس أن تكون لهم كلاب بشرط أن يربطوها منذ الفجر[2].

لقد ظهر ابن حوقل، الذي مجد أفضال سكان طرابلس، قاسياً جداً تجاه سكان قابس: إنهم ليسوا مليحي الطلعة ولا ودودين ولا نظيفين، وهو ما أكده لاحقاً البكري الذي اعترف لهم ببعض الاستقامة، ويبدو المنطقة خسيسون[3]. وبربر الغرب ـ قسطنطينة وسجلماسة ـ كرماء بالنسبة للمسافرين ولكن لبعضهم

= ترجمة Ch. Pellat، 191 حيث توجد كذلك، ص223 أمثلة عديدة حول الكلاب. أحاديث عديدة تذكر النجاسة المرتبطة بالكلاب وتستهجن الرجل الذي يتملكها مع استثناء لكلب راعي الغنم وكلاب الصيد انظر البخاري، ص283 ـ 284.

(1) Ch. Pellat, E.I. s.v. Haywan, p.316b.

(2) R. Brunschvig، Hafsides، II، ص226. يبدو أن كلب الصيد كان معتبراً أفضل من الكلب الضال وكلب الحراسة. وقد كون السلطان الحفصي المستنصر (1249ف ـ 1277ف) محمية للصيد بالقرب من بنزرت، وكان يصطاد فيها بالصقر مصحوباً بفهود وكلاب سلوقيه، انظر ابن خلدون، البربر، ج2، ص338. إن كلاب السلوقي لا تؤكل لحومها في ظاهرة أكل لحوم الكلاب الصحراوية. انظر L.C. Briggs، Tribes of the Sahara، ص24. حول تأثير البربر على أكل لحوم الكلاب في السودان، انظر T. Lewicki، Animal Husbandry، ص176 وفيه قيل حسب W. Bascom (Yoruba, 1951, Londres food, Africa, xxl) أن هذا الأثر ظهر عند اليوربا في جنوب نيجيريا.

(3) سورة الأرض، ص70/ 66.

أخلاق مكروهة، إذ يقدمون أنفسهم للزوار سواء في ذلك كبير الشأن فيهم أو أقلهم منزلة. وبالرغم من أقسى عمليات التأديب إلا أنهم لم يتخلوا عن هذه الممارسات غير الأخلاقية[1]. إن لبربر سطيف نفس المزايا والعيوب، ولكن أطفالهم، حتى أطفال الأسر النبيلة فيهم، يتعاطون الدعارة مع الضيوف العابرين، وهي ممارسة أباحها لهم أبو عبد الله. إن كتامة سطيف، وهم شيعيون، لا يسمحون بهذه العادة ويرفضون حتى مجرد الحديث[2] حولها. وخلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وسع القزويني هذه الدنية على كل البربر وقال إنهم يعتبرون هذا السلوك هو الكرم وأن رفضه هو البخل[3].

يحتقر البكري سكان قابس، وقد صدم بعدم وجود مراحيض في المساكن بالمدينة: يأتي الرجل منهم حاجته في الأماكن العامة، ولا تشعر المرأة بأي عيب في أن تتصرف بنفس الطريقة إذا ما كان وجهها مغطى حتى لا تعرف، ويسارع الناس لجمع هذه المواد لاستعمالها سماداً في الحدائق، وإذا ما تنازعوا فإن الرجل أو المرأة تختار لمن تقدمها هدية[4]. إن هذه الممارسات مذكورة كذلك في توزر في القرن الثاني عشر: لا يصب السكان الماء في مراحيضهم حتى لا يفسدون البقايا التي يبيعونها، وهم يقيمون مراحيض على جانبي الطرق يقصدها الناس المستعجلون والمسافرون، أما أهل البلد فإنهم يقضون الحاجة في بيوتهم ولو اضطر الواحد منهم للانتظار يوماً أو يومين لأن هذه المادة ثمينة. إن أرضها ـ توزر ـ جافة للغاية وصلبة[5]. وفي القرن الرابع عشر ذكر التجاني عادة بيع

(1) نفس المرجع، ص93/ 91. يقول ابن حوقل هنا: إن الداعية أبو عبد الله الشيعي كان هو الذي طبق عليهم هذه العقوبات، ويضيف، بالرغم من ذلك، فإن أبا عبد الله هو الذي سمح بهذه الدعارة.

(2) نفس المرجع، ص95/ 93.

(3) آثار البلاد، ص164.

(4) المسالك، ص18/ 42 ـ 43. عند مروره بقابس انتقد العبدري فيها كل شيء، ص129 ـ 131: الطبيعة، الهواء، المساكن، المساجد، الماء، الحدائق، التمور، السكان بخلاء متحذلقون وجهلة.

(5) الاستبصار، ص156 الذي يبدو أنه لم يصدر أي رأي.

الفضلات البشرية، وهو يقول إنها تعاب على السكان ولكنه شخصياً لا يصدر أي حكم[1] بالخصوص.

إذا كانت الانتقادات ضد البربر شائعة بشكل عام، فإن الموجهة منها ضد البربر الأباضية حادة بشكل خاص، باستثناء اليعقوبي الذي يذكر وجود الأباضيين في المناطق التي يعبرها دون أن يعبر عن أي نقد ضدهم وهو ما قد يكون راجعاً لميوله العلوية ومعاداته الأمويين. بالعكس، لا يبدو اليعقوبي بخيلاً بالتقريظ. يقول إن سكان زويلة مسلمون، وكلهم أباضيون يقومون بالحج إلى مكة[2]. ويتحدث عن تاهرت كمدينة مهمة، مشهورة ومؤثرة تسمى بعراق المغرب[3].

تتغير اللهجة مع ابن حوقل. إنه لا يصف زويلة، ولا يقول إن سكانها أباضيون بالرغم من أنه يذكر أسرة بني خطاب[4]، ويشير ابن حوقل إلى أن جبل نفوسة كان ملجأ للخوارج دون ذكر أي تفاصيل[5]. وفي مكان آخر يندفع ابن حوقل ضد دناءات أبي يزيد مخلد ابن كيداد[6] الماضية. ولكن في الزمن الذي عاصره كان اندفاعه[7] بشكل خاص ضد البدو البربر الأباضيين في جنوب تونس وشمال طرابلس. يقول عنهم إنهم عنيفون وسيؤون ومبادئهم الدينية لا تقبل لأنهم لم يتخلوا عن بدعهم[8] ـ شراى، ومن الخطر، قضاء الليل عندهم

(1) رحلة، ص160. من الصعب فهم نقد البكري، لا يمكن إلا أن يكون نتيجة حضري لم يسبق له أبداً زيارة أفريقيا الشمالية. في سنة 1953ف، لاحظ R. Capot-Rey في كتابه Le Sahara Francais، ص305 أن فضلات الجمال تباع غالياً جداً من قبل البدو في شمال الصحراء. بنى سكان مزاب في أزقتهم مراحيض لاستعمال المارة، ويحدث أن يؤجر مالك منزلاً من أجل هذا الغرض فقط. تحقق لدينا وجود هذه الممارسة في أطراف تاسيلي.

(2) البلدان، ص345/ 205.

(3) نفس المرجع، ص353/ 216 ـ 217.

(4) صورة الأرض، ص106/ 104.

(5) نفس المرجع، ص95/ 93.

(6) نفس المرجع، ص71 ـ 72/ 68.

(7) نفس المرجع، ص70/ 66.

(8) كلمة غير معروفة في القواميس الكلاسيكية. انظر BGA، IV، glossaire، ص274 وE. Fagnan، Additions aux Dictionaires Arabes، انظر شري. نعرف مستشهدٍ شارٍ وهو من يحارب من أجل الإيمان ويبحث عن شراء الجنة.

لأنهم يتصرفون بغدر وخداع مع المسافرين ويهاجمون أموالهم[1].

لقد رأينا مؤلفين عديدين انتقدوا انعدام الوفاق في المجموعة الأباضية في الجبل، فقد أورد الوراق عدم وجود مسجد كبير لا في شروس ولا في البلدات المجاورة لأن الأباضيين لم يتمكنوا من الاتفاق على اختيار رجل يؤم الصلاة[2]، وأن لا اتحاد ولا إجماع[3] بينهم. وبما أن ابن حوقل أشار إلى أن لكل من شروس وجادو منبراً[4]، كما ذكر كتاب الوقائع الأباضية وجود حالات كثيرة من التنافس والغيرة بين أعضاء الجماعة[5] يمكننا افتراض أن الجماعات السنية قد نالت من اتفاق الأباضيين. بالرغم من هذا، فالنزاعات المحلية لا يمكن أن تفسر غياب المسجد الكبير. ويبدو من المرجح أن الوراق ـ مثل البكري ـ قد أساء تفسير هذا الغياب وأن ابن حوقل قد أخطأ عندما ذكر وجود منبر في كل من شروس وجادو. وبالفعل، منذ سقوط إمامة تاهرت في سنة 908ف لم يعد للأباضيين إمام مستقل يمكن أن تلقى الخطبة باسمه، فالمنبر وكذلك الخطبة، عمل سياسي اختفى نتيجة لذلك[6]. من الممكن كذلك أن يُفهم المنبر، عند ابن حوقل، بمعنى واحد وهو مسجد الجماعة[7]، دون الإشارة إلى موضوع الخطبة. إذا سلمنا بهذا التفسير لا يمكننا إلا أن نستغرب من موافقة البكري على تفسير الوراق: كيف يمكن للبكري أن يجهل أن الأباضيين توقفوا عن إلقاء الخطبة منذ أكثر من مائة وخمسين سنة؟ يبدو أن هذه الملاحظة تكون جزءاً من مجموع انتقاداته غير المؤسسة أو المبالغ فيها ضد

---

(1) انظر بعاليه، ص409 ـ 420.

(2) البكري، ص9/ 26. ياقوت، انظر (نافوسة).

(3) الاستبصار، ص144.

(4) صورة الأرض، ص94 ـ 95/ 93.

(5) الشماخي في T. Lewicki، Ibaditica، 2، Les Hakims.

(6) J. Schacht، Sur La diffusion، ص15 ـ 21 الذي يشرح الوجود الحالي لبعض المنابر في جربة للإلزام، الذي صدر كشرط لاستخدام أئمة في المساجد، بإقامة صلاة الجمعة بخطبة باسم الرئيس بورقيبة.

(7) J. Pedersen, E.I.S.V. Masjid, p.641b.

الخوارج الشمال أفريقيين والصحراويين: إن البكري لم يستطع كبح جماح شراسته تجاه أهل سرت[1]، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يكون فظاً تجاه النساء عندما تناول بيع الفضلات البشرية[2] في قابس، ولم يستطع الصمت عن استهلاك لحوم الكلاب في قفصة وتوزر وسجلماسة[3]، ولم يفته أن يؤكد على الدعارة التي كانت منتشرة في تادمكة[4]، وهو لا يجهل أنها ظاهرة عادية في كل الواحات الكبيرة كما في كل الموانىء الكبيرة في العالم.

أدهش التنظيم السياسي للأباضيين في جبل نفوسة المؤلف المجهول لكتاب الاستبصار[5]. ليس لهم أمير وإنما شيوخ وفقهاء وهم الذين يديرون مذاهبهم[6]. وهذه المذاهب متسامحة للغاية، ويقدم لنا كتاب الاستبصار مثلاً. في أحد الأيام، شاهد مسافر أباضياً يتوضأ بطريقة لا تتفق مع الشعائر، فقد كان يصب الماء على رأسه وعلى جسمه كما لو كان يستحم، فأخذ الأجنبي الرجل إلى الحكيم وشرح له ما شاهده. استقبل الحكيم المسافر استقبالاً سيئاً: «لو لم تكن غريباً عن مدينتنا، لعاقبتك. ماذا تعرف في هذا الشأن؟ قد يكون لهذا الرجل عذره. أو لم يقل الله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[7]. أو ليس هذا بأفضل من شعائركم؟». كما يوجد عند الأباضيين في جبل نفوسة، رجال يعتقدون أن ليس من الضروري الاغتسال بالماء، هكذا يحدث، إذا أراد أحدهم أن يتوضأ أن يتدحرج على الأرض ويحك جسمه بالرمل/ يتيمم. إن هذا الانتقاد من كتاب الاستبصار ليس منصفاً على وجه

(1) المسالك، ص6/ 18 ؟ انظر عاليه، ص405.
(2) نفس المرجع، ص18/ 42 ـ 43.
(3) نفس المرجع، ص49، 148/ 104، 284.
(4) المرجع السابق، ص182/ 339 ـ 340. انظر أدناه، ص429.
(5) ص 144 ـ 145.
(6) لا يمكن أن يكون إلا من الوهبيين، أو النكاريين، النفاثيين. انظر بعالية ص138 ـ 139.
(7) II سورة البقرة، 181، تعالج هذه الآية التسهيلات الممنوحة للمسلم المريض أو على سفر خلال شهر رمضان.

الإطلاق، لأن القرآن يوصي في بعض الحالات باللجوء إلى هذه الممارسة[1].

كان عند المسلمين السنة توجه طبيعي للتعبير عن انتقاداتهم ضد بقايا العبادات الوثنية وانعدام الاتساق عند الأباضيين وهو ما يأسف له كُتاب الوقائع الأباضيين أنفسهم. من المفهوم أن يثور التجاني، وهو سني، ضد الجربيين، والوهبيين والنكارة الذين هم بالنسبة له خوارج متزمتون غلاة[2]، وأن يجد من المبالغة والمغالاة رفضهم الاقتراب من ملابس شخص لا ينتمي لمذهبهم، ومن الغريب أنهم يقومون بردم بئر إذا شرب منه مسافر، ومن المثير للسخرية أنهم يضحون بصحتهم وأموالهم للصلاة، ويجد التجاني أن مما يستحق الإدانة قيام سكان زواغة[3] بالتعرض للقوافل والمواكب البحرية كما لو كانوا في غيرة من الأنشطة الماضية لسكان زوارة[4] الذين كانوا يبيعون المسلمين عبيداً[5].

إن ما يثير شكوكنا في حياد المؤلفين وموضوعيتهم هو توجيه انتقاداتهم ضد الاعتقاد في الجن، واستعمال الرمل في الوضوء، وضد أكل لحوم الكلاب واستعمال الفضلات البشرية سماداً وهي أمور لم تكن حكراً على البربر. كما لا يقبل كذلك رأي المقدسي حول اللغة غير المفهومة التي يستعملها البربر وكذلك إدانته لبخلهم. أو ليس لكل شعب جار بخيل؟ ويمكننا قول نفس الشيء عندما ينتقد ابن حوقل عنف بدو قابس لأنه يربط هذا النقد بإنكار حاد لبدعتهم. ولا

---

(1) السورة الرابعة، النساء، 46/ 43، والسورة الخامسة، المائدة 9/ 6.

(2) ماذا كان سيقول التجاني عن الأزارقة وعقيدتهم التي تفرض إبادة كل عدو وأسرته، حتى ولو كان مسلماً؟ وبالفعل كان المسلمون من غير الأزارقة معتبرين مشركين. (انظر أعلاه، ص177). وفي القرن العاشر أعاد أبو زيد، وهو من النكارة، الاستعراض، انظر بعاليه ص180.

(3) زواغة، حالياً، بلدة غرب صبراتة بخمسة كيلومترات، وقد سميت هكذا باسم قبيلة بربرية أباضية متحالفة مع قبائل نفوسة. انظر T. Lewicki، Repartition، 326 ـ 327. انظر الزاوي/ معجم.

(4) زوارة، حالياً، بلدة واقعة على مسافة 25 كيلو متراً غرب زواغة، وسميت هكذا وفق اسم قبيلة من نفس الاسم، انظر T. Lewicki، المرجع المذكور، ص327 ـ 328. انظر الزاوي، المرجع المذكور.

(5) رحلة، ص122 ـ 123، 207 ـ 210. نذكر أنه بالنسبة للخوارج كل مسلم لا ينتمي إلى مذهبهم يعتبر كافراً. انظر T. Lewicki، موسوعة الإسلام، أباضية، ص679a.

يمكننا كذلك قبول تأكيدات العبدري فيما يتعلق ببربر زوارة وزواغة ما لم يؤكدها رحالة آخرون: فبعد أن عاب عليهم بخلهم ومعتقداتهم المتغيرة كتغير الهواء (في حرارة مرتفعة)، وأدان قلة كرم الضيافة والاحتفاء بالرحالة، ادعى أنهم يشترون بأسعار منخفضة الخنازير من المسيحيين مضيفاً «ليقصر الله أعمارهم»[1]. إن العبدري هو المثل ذاته للرحالة الساخط دائماً المتعب القادح دوماً للأقوام الذين يقابلهم.

دون أن نجرأ على الرفض دون براهين لادعاءات الهمداني بخصوص الاشتراك في النساء وتأكيدات ابن حوقل بخصوص الدعارة، أو بدقة أكثر إعارة الأطفال البربر من قبل آبائهم للمسافرين، فإننا لا نستطيع أن نمتنع عن التفكير في أن الانتقادات الأسهل والأكثر انتشاراً بالنسبة للعدو، أو ببساطة لغير المعروف، تتعلق دائماً بسلوكه غير المقبول في مجال الجنس. ففي الماضي السحيق كان يقال عن النسامون والبربر الليبيين أنه كان لكل منهم زوجات عديدة ولكنهم كانوا «يشتركون في النساء»، وأنه كان من المعتاد عندهم أن تقدم الزوجة الشابة نفسها في الليلة الأولى لكل المدعوين. ويؤكد أن المرأة عند الجيدان في غرب طرابلس الغرب كانت تحمل حلقات من الجلد في أسفل الساق بعدد الرجال الذين تعاشرت معهم جنسياً، وكان عدد الحلقات يحدد مدى ما تستحقه[2].

لقد شهد القرن الثاني عشر مثل هذه الاتهامات في مجال الجنس ضد الأباضيين، خاصة أباضيي جبل نفوسة. فقد أكد أحد المؤلفين أن الزنا الحرام كان مباحاً في المذاهب الأباضية[3]. فلم يكن في جبل نفوسة رجل غني واحد

(1) Das Nordafricanische Itinerar. إن تحريم لحم الخنزير وهو مؤكد في القرآن كان ولا يزال يُراعى من قبل الأباضية. انظر سورة البقرة 168/ 173، وسورة المائدة 4/ 3.

(2) هيرودوت، ج4، ص172، 176.

(3) الاستبصار، ص145. كما سنرى، يجب أن يؤخذ الزنا بمعنى البغاء.

ليس لديه عدد كبير من الوصائف، يلبسهن ملابس زاهية، ويجملهن بالمجوهرات ويعرضهن على الطريق ليأتين الفواحش، ولدى سكان الجبل منازل مهيأة لهذا الغرض، إن هذا الأمر معروف جيداً لديهم ولا ينكر. إن الملاحظات حول الدعارة ليست متكررة عند الجغرافيين. إن القرآن يحرم ـ الحزب السادس والثلاثون، سورة النور، الآية: 33، استغلال النساء: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]. إن البغاء ليس مداناً بلغة مباشرة، ولكن هناك حديثاً يحرمه عملياً لأنه يحرم كل مقابل[*][2]. في الواقع إذا ما استثنينا بعض حالات انبعاث القيم هنا وهناك فإن هذه التجارة التي وجدت قبل الإسلام في الجزيرة العربية وكل البلدان التي فتحت، لم تختف قط. بل سهلت بتقنين المهر الذي يمنع الفقراء أحياناً من الزواج، وبالطلاق الذي يترك النساء دون أي مورد إذا ما تخلت عنهن أسرهن نتيجة خطأ يرتكب. وفي نهاية القرن العاشر لم تكن الدعارة فقط مباحة بل كانت منظمة كذلك، وكان هناك المحتسب ـ الذي يمكن وصفه بالشرطي ـ المسؤول عن مراقبة السوق، ويحدد هو نفسه تسعيرة هاته النسوة، وقد وصلت الدعارة إلى حد أن أصبحت مصدر دخل للمدينة. ففي إسبانيا كانت الضريبة المفروضة على هذه التجارة تسمى خراجاً، ولدرجة أن المسكن المعد لهذا الغرض كان يسمى دار الخراج، وكانت العاهرات يسمين الخراجيات[3]. وفي مصر الفاطمية كذلك، كانت هناك ضريبة على الدعارة والمساكن المعدة لهذا الغرض ـ بيوت الفواحش، وكذلك على المغنيات ـ القيان وعلى العبيد من الجنسين ـ العبيد والجواري العاملين في هذه

(1) نترك هنا ترجمة R. Blachere لصالح ترجمة D. Masson وهي أكثر وضوحاً.

(*) الزنا من المحرمات بشكل مطلق في الإسلام. المترجم.

(2) موسوعة الإسلام، ملحق 4/3، انظر، بغاء.

(3) موسوعة الإسلام، وانظر بعاليه E. Levi Provencal، H.E.M، III، ص445 ـ 446. و A. Mazaheri، La Vie quotidienne، ص64 ـ 65.

الأماكن ـ خانات لعمل الفواحش[1]. يمكن أن تكون هذه القيان حرائر أو جواري مثقفات ومهذبات، أو مغنيات ملاهي، ويكون البغاء بالنسبة لهن نشاطاً هامشياً[2]. إننا نتحدث هنا عن الأخيرات. كانت الامبراطورية الحفصية، كذلك، تفرض عليهن ضرائب[3]. كانت الجواري رقيقاً، وكان يحدث أن يجعلن يمارسن البغاء بالرغم من تحريم القرآن[4]. منذ بدايات الفتح، كان الخلفاء يصرون أكثر فأكثر على بنات بربريات صغيرات، وكان حكام أفريقية يحولوهن إلى رقيق. كانت شابات البربر مشهورات بجمال لا نظير له. كما وجد كذلك في نهاية القرن التاسع خاصة، تصدير جوار شرقيات نحو أفريقية الأغلبية[5]. كما لم تكن دعارة الرجال غير معروفة[6].

في الصحراء، يذكر البكري وجود عاهرات في تادمكة، وهي مدينة مشهورة بجمال نسائها، وكن يحاولن جذب التجار، الذين يصلون إلى المدينة[7]، عندهن. وفي أفريقية، في القرن السادس عشر دفع البؤس نساء كثيرات لامتهان هذه التجارة، وكان يرى فيها أطفال يضايقون المارة[8]. وفي فاس، في نفس الفترة كانت الفنادق تشهد إقامات كريهة لأنها بدون أسرة وفرش. وكان أرامل المدينة، إذا كانوا بدون أسر، يقيمون فيها كذلك. وأسوأ ما في الأمر الإقامة مع أشخاص يسمون الهيوي: وهم رجال مخنثون يرتدون مجوهرات مثل النساء ويتكلمون مثلهن. كما توجد فيها عاهرات. ويبيع أصحاب هذه الفنادق النبيذ دون أن يزعجهم الموظفون المسؤولون، كما أن

---

(1) المقريزي ـ كتاب، ج1، ص89.
(2) Ch. Pellat, E.I. Kayna.
(3) الزركشي، ص117/190، انظر كذلك R. Brunschvig، Hafside، II، ص412.
(4) R. Brunschvig, E.I. s.v Abd, p.33b.
(5) M. Talbi, Emirat Aghlibide, pp.33-34.
(6) E.I.s.v. Liwat (red).
(7) المسالك، ص182/339 ـ 340.
(8) Leon L'Africain, II p.385.

لهم أميناً ويدفعون أتاوة لحاكم الولاية (النقيب)، وفي بعض الأحيان يتعين عليهم تزويد جيش الأمير بجزء من عمالتهم يتولى الطبخ للقوات. ويؤكد ليون الأفريقي أن واجبه كمؤرخ فقط، هو الذي يجبره على إثارة هذه الحقائق المشينة حول المدينة التي ترعرع فيها: يقول إن سكان فاس من أشرف خلق الله ولا علاقة لهم بأرباب الفنادق[1].

إذا ما استثنينا ما قاله الهمداني عن البربر، وهو يشبه كثيراً التأكيدات التي نقابلها في كل مكان وكل زمان حول الأقوام البعيدة، يبرز لنا أن ما قاله مؤلفونا لم يكن يتعلق أبداً برفض البغاء في حد ذاته. فيبدو أن أحدهم أراد أن يبرهن على ثراء التجار بالتأكيد على وجود العاهرات، وآخرون لا يتحدثون عنه إلا في إطار الحديث عن الضريبة. ليون الأفريقي نفسه ـ يشرح البغاء من وجهة نظر اجتماعية؛ ففي تونس، هذه المرة، يفسره بالبؤس، ولا يقبل مسلكه الأخلاقي انتشار الرذيلة في أماكن معينة في فاس، وذلك فقط لأن المستقيمين من الناس مضطرون لمخالطة الفاجرين ويرى في هذا موقفاً غير مقبول من السلطة «ولكن لما كان الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش كما ذكرت، فإنهم يتركونهم يعيشون تلك العيشة الكريهة»[2]. ويبدو أن ابن حوقل فيما أورده عن إعارة بربر سطيف لأطفالهم للمسافرين، ومؤلف كتاب الاستبصار فيما قاله عن البغاء في مدن جبل نفوسة إنما حاولا بذل كل ما في وسعهما لنقد البربر بدل أن يؤديا عملهما كجغرافيين تحركهما روح التحليل والنقد. إن الاحتقار الذي يضع فيه بعض المؤلفين الخوارج يظهر حتى في مفردات لغتهم، فالسرخسي[3] يستعمل بوضوح كلمة الخوارج بمعنى اللصوص عندما يتحدث عن قاطعي الطرق الذين

---

(1) Leon L'Africain, I, pp.190-191, ecrit cheua. Le hawi, pl-hiwa, etait Le prostitue masculin, cf.E.I. s.v. Liwat. certains parlers africains connaissemt actuellemeut Le mot hawi Impuissant, cf. M. Beaussier, Dictionnaire-nord.

(2) Description de L'Afrique, p.191.

(3) مولود سنة 1176ف، مؤلف كتب في الأدب، ورحلة في المغرب، ليست في حوزتنا منها إلا بعض المقاطع القصيرة. انظر Recueil, J.M. Cuoq، ص178 ـ 179.

يهددون المسافرين من سجلماسة إلى غانا. ويقول بأن ملك سجلماسة شوهد أمام بسط من الجلد مغطاة برؤوس هؤلاء الخوارج. ويمثل سب ديانة الخصم حتى اليوم، كما نعرف، شكلاً من اللعن المنتشر جداً في أفريقيا الشمالية كما في المشرق. فإلى جانب الشتائم ضد ديانة غير محددة مثل: يادين الحلوف، ويلعن دينك، دين أمك ـ بوك ـ جدك، أصلك، نسمع الشتائم الموجهة ضد الكفار: يا كافر، يا كافر ابن الكافر، وبعضها موجه ضد اليهود والمسيحيين[1]. وبعضها، التي تهمنا هنا، تعني الأباضيين سواء بشكل غير مباشر كما في شمال تونس جربي ـ بخيل أو جنوب تونس وطرابلس الغرب جبالي ـ أبلة (إشارة إلى الجبل الأباضي)، ونفوسي ـ فاسق (ويبدو أن الإشارة إلى جبل نفوسة تبدو مجهولة) أو مباشرة مثل خارجي ـ سوقي وابن خارجي[2]، وخارجي ـ قواد وخارجية ـ عاهرة[3]، والتي كانت تخلط خطأ بالخراجية الأندلسية.

في ليبيا يبدو أن خوارج الساحل والجبل هم وحدهم الذين عانوا من هذه الانتقادات، التي ليس لها من أثر في واحات الداخل.

غدامس[4]:

كان الجبل مربوطاً بطرابلس، والقيروان عبر توزر وقفصة، وتاهرت وتادمكة عبر ورقلة، وكانت هناك طريقان تؤديان إلى السودان؛ إحداهما كانت تتجه جنوباً وتعبر الحمادة نحو زويلة، وكانت الأخرى تتوجه نحو الجنوب الغربي. إذا ما اتبعت الطريق الأخيرة، طريق السودان[5]، كان يتم المرور

(1) Cf. A. Boudot-Lamotte, L' Expression de la malediction, pp.61-63.

(2) Ph. Marcais, Textes arabes de Djidjelle, p.129 et glossaire, p.205.

(3) V. aussi M. Beaussier, Dictionnaire, S. vv.

(4) غير موجودة على خريطة ابن حوقل. ومبينة أكثر من اللازم نحو الشرق بالنسبة لقابس على خريطة الإدريسي، حيث الجنوب على الخريطة مضغوط جداً، غدامس موضحة، تقريباً على خط عرض زويلة.

(5) أبو الفدا، تقويم، ص146 ـ 147.

بنالوت[1] وسيناون[2] حتى الوصول إلى درج[3]. وكانت هذه الواحة تسمى أحياناً في الوقائع الأباضية أدرج، وهو اسم يقربه T. Lewicki من اسم القبيلة البربرية الزناتية بني أدراج التي يكتبها ابن حوقل في قائمة القبائل البربرية ت.د.ر.ج[4]. وقد كان تاريخ درج، على طول الزمن، مرتبطاً بتاريخ غدامس، التي لا تبعد عنها إلا بمائة وعشر كيلو مترات، ولكن علاقاتها بالجبل وثيقة جداً، ونعرف في القرن الحادي عشر، قيام شيوخ الجبل بتسوية نزاع بين اثنين من سكان درج. وقد عرفت المدينة نشاطاً ثقافياً ودينياً مؤكداً حتى القرن العاشر، وكانت فيها حلقة من ثلاثمائة طالب[5].

غدامس واحة مهمة واقعة بين العرق العظيم والحمادة. ويعود ثراؤها إلى وقوعها على طريق عابر للصحراء مستعمل بشكل كثيف. في سنة 19 قبل الميلاد كانت غدامس ـ اسمها حينها سيداموس ـ محطة متقدمة على مسافة مائتي كيلومتر جنوب الليمس[*]، وكانت فيها حامية لفيلق أوغسطا[6] الثالث من أجل التحكم في الطريق، ومن المحتمل لصد أي تقدم للجرمنت.

فتحت غدامس من قبل عقبة بن نافع حوالى سنة 42هـ ـ (3 ـ 662)ف[7]. وكان سكان الواحة ـ مثل سكان درج ـ يتكونون في القرن الثامن من أقارب

---

(1) مسماة لالوت في الوقائع الأباضية في القرون الوسطى، وأحياناً حتى الآن.

(2) سيناون، توجد بها آثار تحمل كتابات من البربرية القديمة، انظر الزاوي، معجم.

(3) Derj أو Derdj على خرائطنا.

(4) سورة الأرض، ص106/ 104/106104 .Etudes maghre'bines, II, p.59 ..

(5) T. Lewicki، المرجع أعلاه. الحلقة تعني اجتماع أشخاص جالسين في دائرة، ويديرها شيخ، يقضي، ويعلم العلوم الإنسانية والتقاليد للأعضاء؛ العزابة الذين يجب أن يلتزموا بسلوك صارم ويحافظوا على قاعدة العزوبية انظر الجذر ع.ز.ب. والحلقة تنظيم أباضي ـ وهي خالص؛ لأن ابن خلدون، البربر، ج3، ص203، 278 يسمى سكان مزاب عزابة. انظر E.I. T. Lewicki، انظر (حلقة) وهو يأسف أن تنظيمها في جبل نفوسة غير معروف كثيراً.

(*) تعني الحدود المحصنة للمناطق الرومانية. المترجم.

(6) Ch. A. Julien, Histoire de L'Afrique de Nord, I, pp.135-136. J. Despois E.I., s.v. Ghadamis.

(7) انظر بعاليه، ص105، 139.

لقبائل نفوسة، بني تناوتة، وهي قبيلة سنجدها في الجريد وفي نفزاوة وفي ورقلة وكانت تعد بين أعضائها شخصيات أباضية مهمة[1]. وكانت هذه القبيلة ما زالت في غدامس في القرن الثالث عشر إذ إن ياقوت أشار إلى أن سكانها بربر ت. ناو. ريه[2]، ولا نجدها مكتوبة هكذا في أي مكان آخر في قوائمنا للقبائل البربرية. في القرن الرابع عشر، لا يرد ذكر لبني تناوتة، فغدامس حينها مسكونة من قبل بني ورتاجين وبني وطاس وهم من زناتة[3].

استقبلت غدامس داعية أباضياً في النصف الثاني من القرن الثامن، وكانت في نهاية القرن التاسع أباضية بالكامل من أتباع الخليفية والنكارة، ولكن رد فعل من نفوسة ثبت فيها الوهبية، وهي توجه شمال أفريقي غالب، وأكثر اعتدالاً[4]. وقد كانت غدامس ـ حسب ابن خرداذبه ـ تابعة للأغالبة في القرن التاسع[5]. وبعد أن استولى الأغالبة على توزر سنة 224هـ ـ (838 ـ 839)ف وقطعوا الممر الذي كان يربط جبل نفوسة بتاهرت، كان من الطبيعي أن يعملوا للاستيلاء على غدامس، ليضمنوا مورد طريق مهم عابر للصحراء. لقد ذكرنا الأسباب التي حركت شكوكنا حول تأكيد ابن خرداذبه[6]، ويضاف، أن أبا خليل صال، وهو مؤرخ أباضي من جبل نفوسة، توفى في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (815 ـ 865)ف، أي قبل احتلال الأغالبة لنفزاوة سنة (897ف) اعتبر غدامس في عداد البلدان الأباضية[7]. قد نقبل أن الأغالبة وجهوا حملة أو عدة

---

(1) أو تنايوت، تنايوتة، انظر T. Lewicki، Repartition، ص337 ـ 338، Ibaditica، 2، تسميه، ص100 Les Ibadites en Tunisie، ص11. وEtudes Maghrebines، II، ص86.

(2) معجم، انظر (غدامس).

(3) ابن خلدون، البربر، ج3، ص303. بنو ورتاجين مذكورون من قبل ابن حوقل في قائمته البربرية، انظر صورة الأرض، ص106/ 103.

(4) T. Lewicki، Repartition، ص338 حسب الشماخي، حول هذه المذاهب الفرعية للأباضية، انظر نفس المؤلف موسوعة الإسلام (أباضية)، ص680b. وانظر كذلك أعلاه، ص182 ـ 183.

(5) المسالك ص87/ 62 ـ نشر حاج صدوق، ص6 ـ 7.

(6) انظر بعاليه، ص227.

(7) T. Lewicki, un document, p.187 d'après Ad-Dargini.

حملات ضد المدينة، أو حتى احتلوها لفترة قصيرة، ولكن من الصعب التسليم بأنهم استقروا في المدينة بينما كانت نفزاوة خارج سيطرتهم. كانت غدامس ـ مثل جبل نفوسة ـ محكومة من قبل مشائخ وليس لها رئيس[1]. ويبدو أن المدينة تمكنت من الابتعاد عن السياسة الشمال أفريقية، وهو ما يتطلب قوة حقيقية عندما نفكر في موقعها الاستثنائي على الطريق شرق ـ غرب، من مصر نحو السودان عبر سجلماسة وهو ما كان يسمح لها بالحصول على رسوم عبور مهمة على القوافل، وفي نفس الوقت على الطريق المباشر شمال ـ جنوب للتجارة الأباضية في الذهب والعبيد. ومن الواضح أن النزوح الهلالي لم يؤثر فيها بأي شكل من الأشكال[2]. وقد تم الاستيلاء عليها من قبل إبراهيم بن قراتكين حوالى سنة 78 ـ 1177ف ولكنها لم تعان بشكل إجمالي لأن الحكام الموحدين أعادوا الاستيلاء عليها، ولا شك أن تجارتها قاست من آثار التحكم الذي مارسه يحيى وقراقوش على كل الطرق العابرة للصحراء[3].

يعود الفضل في أول وصف لغدامس للمهلبي[4]. قال عنها إنها مدينة في الصحراء جنوب الجريد على طريق السودان عبر كانم. وهي مدينة مهمة كثيرة السكان، وسكانها بربر مسلمون. ويذكر المهلبي العين[5] التي ستكون، بعد ذلك مصدر دهشة وإعجاب كل الرحالة[6]، ويشير إلى أن فيها آثار مبان رومانية وأن تقسيم المياه يتم وفق قواعد معروفة من الجميع[7].

---

(1) المهلبي في أبي الفدا، تقويم، ص146 ـ 147.

(2) انظر بعاليه، ص314.

(3) انظر بعاليه، ص334، 346، 355.

(4) في أبي الفدا، المرجع أعلاه، والقلقشندي، انظر ص108.

(5) يوقعها خطأ في وسط المدينة بينما تقع في الغرب، ياقوت، انظر (غدامس)، والقزويني، ص57 يؤكد كذلك على التقسيم الصارم لمياه العين. ويذكر ياقوت العمارة الرومانية.

(6) اقرأ الوصف البديع لـJ. Richardson، Travels، ص183 ـ 185. انظر كذلك H. Duveyrier، Les Touareg du Nord، ص249 ـ 250. ونفس المؤلف Journal de route، ص164، وL. Pervinquiere، La Tripolitaine interdite، ص116 ـ 117.

(7) في زمن J. Richradson، المرجع أعلاه. كان زمن الري مثبتاً حسب بعد الحديقة =

هناك طريقان يؤديان من تادمكة إلى غدامس[1]؛ وفق البكري. والمدينة جميلة، ونخيلها كثير والكمأة فيها تبلغ من الحجم ما يمكن معه للأرانب أن تحفر فيها جحوراً[2]. ويذكر البكري دواميس[3] غدامس دون أن يصفها، ويقول إنها استخدمت سجناً للكاهنة. ويطلق المؤلف ـ هنا ـ العنان لخياله. من المحتمل أن المدينة استخدمت معسكراً للمساجين، ولكن الأمر لا يتعلق بأنفاق حقيقية تحت الأرض ولكن بمدينة مغطاة مثل توغرت القديمة التي كل مداخلها ـ غدامس محاطة حالياً بسور، الجزء الأكبر منه الآن مهدم، وأبعاده 1500 متر شمال ـ جنوب على 1600 متر شرق ـ غرب ـ موضوعة بطريقة متعرجة من أجل منع دخول أي قوات. وللمساكن في غالب الأحيان أكثر من دور. والشوارع، وكذلك ميدان السوق، غير المغطاة تمثل استثناء. إننا لا نعرف لماذا، من بين كل الصحراويين الليبيين، شعر سكان غدامس ـ دون غيرهم ـ بالحاجة إلى التنقل في ظلام شبه كامل. صحيح، أن الجو فيها مرهق[4] ورياح الرمال عنيفة، ونحن هنا لسنا بعيدين من بلاد الأترانت الذين يلعنون الشمس الحارقة[5] للغاية، ومع ذلك فالظروف المناخية في غات، وهي مدينة مفتوحة، ليست أكثر ملاءمة من غدامس، وحتى من الظروف المناخية في توغورت، وهي مدينة مغطاة كذلك، وليست بأصعب من الظروف في ورقلة أو غرادية[6].

= ومساحتها. وكانت ساعة مائية توضح الزمن المنقضي. ويتم الحساب حالياً بوسائل أحدث ولكنه مؤسس دائماً على القواعد القديمة. وهناك مراقب، موظف من الواحة لمراقبة السير الصحيح لعملية الري.

(1) المسالك، ص182/ 340.

(2) يكون الترفاس موضوع تجارة فصلية، ترفاس فلسطين كان مشهوراً جداً، انظر A. Miquel، Geographie، III، ص417 ورقم 6.

(3) انظر كذلك الاستبصار، ص145. والحميري، انظر (غدامس).

(4) بين ـ 3° و+ 25° الشتاء، و20° و52° في الصيف في الظل.

(5) هيرودوت، ج4، ص184.

(6) حول الشوارع المغطاة في غدامس، انظر J. Richardson، Travels، ص127 ـ 128. و.L Pervinquiere، La Tripolitaine interdite، ص99.

في القرن الثاني عشر، أعاد كتاب الاستبصار ما قاله البكري فيما يتعلق بالأنفاق، وكبر حجم الكمأة وأفادنا بأن بربر غدامس لا يتلثمون كما هي الحال عادة عند بربر الصحراء؛ لمتونة ومسوفة وآخرين[1]، وهي ملاحظة صحيحة لأن بني تناوتة الذين سنجدهم في المنطقة حتى القرن الثالث عشر، أقارب لسكان جبل نفوسة، كما رأينا. ويذكر كتاب الاستبصار سلعة مهمة من الصناعة المحلية: الجلد المسمى جلد غدامس. إن هذا الجلد، الذي ما زال يصنع حتى الآن في الواحة، سيستمر موضوعاً لتعليقات الجغرافيين. بالنسبة لياقوت[2]، توجد أحسن دباغه[3] في غدامس، وجلود غدامس ناعمة ولماعة مثل ملابس الخز. ويتفق المؤلفون على أن هذا الجلد كان مرغوباً كثيراً[4].

اختلفت الآراء في الغدامسية. إنهم مثل السود في كوكو والتكرور ومالي، شجعان ولكنهم قليلو الذكاء وليس لديهم ثراء ولا دين[5]، وهم بربر مسلمون مستقيمون[6].

لا نعرف السبب وراء تقسيم غدامس إلى جزئين. وقد لاحظ ابن خلدون من قبل، أن أحد الأجزاء كان يعود لبني ورتاجين والآخر لبني وطاس[7]. وقد لوحظ هذا التقسيم من قبل المستكشفين في القرن الأخير: كانت المدينة مقسمة إلى حيين، أحدهما لبني وازيت والآخر لبني وليد،

---

(1) ص145 ـ 146.

(2) المعجم، انظر (غدامس).

(3) خبر، أورد القزويني كذلك، ص57.

(4) ابن سعيد، بسط الأرض، ص61، ومنقول من قبل أبي الفدا، تقويم، ص146 ـ 147. والقلقشندي، ص108. والحميري، انظر (غدامس). حول صناعة الجلد في أفريقية انظر R. Brunschvig، Hafside، II، ص233.

(5) أبو حامد ص42/ 245 ـ 246. نفهم الاتهام ضد انعدام الدين لأن الغدامسية كانوا أباضيين. ويبدو أن أبا حامد بملاحظته فقر مدينة تؤمها القوافل بهذه الأهمية، قد انقاد للانتقاد ضد أناس هراطقة.

(6) القزويني، ص57.

(7) البربر، III، ص303.

أحرار ومحافظو غدامس، كما يسميهم جيمس ريتشاردسون James Richardson، وكانت العين والسوق تمثلان الحد ومنطقة محايدة يمكن للطرفين اللقاء فيها. ويحدث كذلك أن يلتقي بنو وازيت وبنو وليد عند أصدقائهم العرب المشتركين في الحي الخارجي، حي أولاد بالليل[1] وأن يسافروا معاً أو يتصدوا للعدو مع بعضهم البعض. وهناك كانت تنتهي اللقاءات التي يمكن أن تربطهما بعد الصراعات التي قسمتهم طوال قرون. لم يكن من المسموح أن يذهب شخص من إحدى العشيرتين لزيارة عضو في العشيرة الأخرى، كما كان التزاوج بينهما مستبعداً، وحتى مقبرتيهما كانتا منفصلتين[2]. ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التقسيم كان معمولاً به من قبل في القرن الرابع عشر بين قبيلتين لم يعد لهما أي أثر.

جاءنا القرن الخامس عشر بنبأ مثير للاهتمام. فبينما أوضح كتاب الاستبصار أن سكان غدامس لم يكونوا ملثمين خلافاً لبربر الصحراء؛ لمتونة، ومسوفة وآخرين، أكد الحميري ـ بالعكس ـ أن الغدامسية بربر مسلمون ملثمون، كما هي العادة عند بربر الصحراء؛ لمتونة ومسوفة وآخرين[3]. هل أساء الحميري استشارة مصدره أو هل صحح بناء على معلومات معاصرة؟ إذا كان هذا هو الواقع، فإن سغمارة ـ الأزقر الحاليون ـ وهم فرع تارقي من زناتة بني دمر الذين أشار البكري إلى وجودهم من قبل على مسيرة ستة أيام شمال تادمكة وطردوا بعد ذلك نحو الهقار وتاسيلي[4]، كانوا يوجدون من قبل في إقليم غدامس في القرن الخامس عشر. وإذا كان الوضع في القرن الخامس عشر مثل الوضع الذي تحقق منه المستكشفون في القرن التاسع عشر، فلا يمكن أن

(1) أولاد بالليل، كعوب من بني سليم، انظر، الزاوي، معجم، انظر (غدامس).

(2) J. Richardson, Travels, I, pp. 183 - 184; H. Duveyrier, Les Toureg du Nord, p. 256; Journal de route, p. 192; I. Pervinquiere, La Tripolitaine Interdite, p. 106.

(3) الروض المعطار، انظر (غدامس).

(4) انظر عاليه، ص411 ـ 412.

يمر وجود البربر الملثمين دون أن يلاحظ لأنهم كانوا يتصرفون في غدامس كما لو كانت إقليماً محتلاً[1]، وهو ما اتفق عليه كل الزوار.

يعود الفضل في ثراء غدامس إلى تجارتها. فهي واقعة حسبما يقول ابن سعيد، على جادة مطروقة تؤدي إلى بلاد السودان[2]، بلاد الذهب والرقيق. وهي مدينة كبيرة جداً، وكثيرة السكان جداً، وتمثل مكاناً للراحة من مشاق السفر للحجاج والتجار المنطلقين من السودان إلى الاسكندرية والقاهرة «إنها مثل الميناء للتجار والحجاج الذين يريدون الدخول إلى الصحراء والعودة منها من عند السود»[3]. ويحكي ابن بطوطة أنه عندما أراد التوجه شمالاً، غادر كوكو مع قافلة كبيرة مكونة من أهل غدامس، وكانت تعد من بين ما تعد ستمائة بنت من الرقيق[4]. وقد كان الحي الأكثر ازدهاراً في تمبكتو في القرن السادس عشر حي أهل غدامس[5]. وفي نفس الزمن، يعتبر ليون الأفريقي أن مصدر ثراء غدامس يكمن في تجارتها مع بلاد السود، ولم يكن أهلها تابعين لتونس ولا لطرابلس، وإنما كانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ويدفعون أتاوة للعرب[6]. وإذا كان هذا التأكيد صحيحاً، فإن صراع النفوذ الذي كان قائماً بين العرب والطوارق لم يكن قد انتهى بعد لصالح هؤلا الآخرين، ومن المحتمل أن السبب هو قرب بني سليم جنوب الجزائر، نفكر في الشعانبة(*).

خلال القرن التاسع عشر، تدهور ازدهار غدامس بسبب إلغاء الرق الذي لم يكن مطبقاً أكثر في غدامس منه في الواحات الليبية الأخرى.

---

(1) إن اللهجة البربرية في غدامس، الغدامسية مختلفة عن التماحق عند الطوارق، وهي أقرب أكثر إلى النفوسية. كثير من الغدامسية يتحدثون أربع لغات؛ الغدامسي، والعربي، والتماحق، والهاوسا، والأخيرة انتشرت بسبب كثرة الزواج من النساء السود.

(2) بسط الأرض، ص61، منقولاً عن أبي الفدا، تقويم، ص146 ـ 147.

(3) ابن خلدون، البربر، ج3، ص303.

(4) رحلة، ج4، ص436، 445.

(5) السعدي، ص142/ 222.

(6) Description de L'Afrique, II, p.446.

(*) يكتبها المؤلف أحياناً الشعامبة، وهكذا أوردناها بالصيغتين. المترجم

أوجلة[1]:

تحمل واحة أوجلة هذا الاسم ومشهورة بنخيلها منذ القدم[2]. وكانت منطقة النسامون، وتبنت عبادة الإله آمون، وكانت تمثل، من قبل، محطة مهمة على الطريق الذي يؤدي من فزان إلى مصر عبر أمونيوم/ سنترية/ سيوة[3]. وهي، في الواقع، مجموعة من ثلاث واحات: أوجلة، واجخرة في الشمال الشرقي وجالو المكونة من العرق واللبة في الجنوب الشرقي[4].

بالرغم من أهمية أوجلة، إلا أنها لم تذكر بوضوح من قبل مؤرخي الفتح العربي عند تناولهم غزوة عقبة بن نافع الأولى لزويلة[5]. إن الطريق الأكثر مباشرة من برقة نحو زويلة يتحاشى أوجلة، ويمر بأجدابيا وزلة والفقهاء، وهذا يفسر عدم ذكر أوجلة. كما أنها لم تذكر كذلك عند تناول انتشار الإسلام في منطقة زويلة ـ برقة، وزويلة ـ مصر. إننا لا نستطيع إنكار غارة عقبة الطويلة في الصحراء نحو زويلة. إن غياب أي ذكر لواحة أوجلة، وهي حيوية لمن يريد التحكم في طرق الاتصالات، يبرر شكنا في خضوع محتمل سريع لهذا الإقليم الشاسع[6].

يذكر اليعقوبي، في القرن التاسع، أوجلة وجالو[7]، وكذلك تمور

(1) موضحة توضيحاً صحيحاً على خريطة ابن حوقل بالنسبة لأجدابيا، وودان ومرت. وموضحة أكثر من اللازم نحو الشمال على خريطة الإدريسي.

(2) He'rodote, IV, 172, 182.

(3) S. Gsell, Histoire ancienne, VI, p.143, aussi L'article de R. Rebuffat, Routes d'Egypte.

(4) F. Hornemann, Journal, pp.82-48; Rosita Forbes, Across The Libyan Desert, pp.87-92; R. Rebuffat, op. eit. pp.6-7, 20; AZ-Zawi, Mugam, S.v.v; J. Despois, E.I.s.v. Awdjila.

(5) انظر بعاليه، ص75.

(6) انظر بعاليه، ص78.

(7) البلدان، ص345/ 204. يبدو أن اليعقوبي لم يكن يعرف أن جالو ليست بعيدة عن أوجلة إلا بضع ساعات.

المنطقة[1] الممتازة (نوع قصب) التي لا مثيل لها. كانت أوجلة في ذلك الوقت تابعة لبرقة وهو الوضع الذي استمر في القرن العاشر، حسب ابن حوقل الذي عرف أن أوجلة تمثل إقليماً واسعاً، إذ يصفها بالجزيرة وليس بالواحة[2]. كانت أوجلة قبل هجرة القبائل العربية منطقة كثيرة السكان مغطاة بالقرى والنخيل، وكانت المدينة الرئيسية التي تعد مساجد كثيرة وسوقاً، تسمى أرزاقية[3]. قلنا أعلاه إن الواحة لم تعان من هجرة بني هلال وبني سليم[4]. ويقول الإدريسي بوقوع أوجلة في منطقة العرب المخربين ـ لكننا نعرف كم كانت مقاومة البدو البربر شرسة في برقة ـ ولكنه يعترف بأن المدينة صغيرة ومأهولة، وبالرغم من ندرة الماء كان فيها النخيل وتزرع فيها الغلات؛ الحبوب أو الخضروات. وكان التوافق سائداً فيها بين العرب وسكان المنطقة لأن هؤلاء الآخرين كانوا يزاولون التجارة مع السودان لمواجهة احتياجات العرب واحتياجاتهم. وكانت المدينة ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مرتادة بشكل كثيف من قبل القوافل الذاهبة إلى كوار وكوكو والعائدة منهما. وكانت أوجلة هي التي تزود برقة بجلود الأبقار والفهود[5].

احتلت أوجلة من قبل قراقوش حوالى سنة 77 ـ 1176ف. ولسوء الحظ، لا يذكر التجاني، الذي أورد هذا الخبر، شيئاً عن المعاملة التي عومل بها السكان، ونظراً لما حدث في زويلة فإن بإمكاننا افتراض أن الأرمني كان

---

(1) حول النوع المسمى قصب، انظر ترجمة Weit، ص204 رقم 6. وDe Goeje، ترجمة الإدريسي، ص144، رقم 1. والقصب ليس مذكوراً بين أنواع التمور الفزانية التي حصرها J. Lethielleux، Le Fezzan، ص211 ـ 213، ولا عند J. Despois، Geographie humaine، ص167 ـ 168.

(2) صورة الأرض، ص67/ 63 ـ 64.

(3) البكري، ص5 ـ 6، 12/ 17، 31. لم نجد ذكراً آخر لتسمية أرزاقية. ياقوت يأخذ عن البكري ولكنه يقول أوجلة.

(4) انظر بعاليه، ص310 ـ 311.

(5) نزهة، ص130 ـ 132/ 155 ـ 157، مأخوذ جزئياً من قبل الحميري، انظر أوجلة.

قاسياً[1] في أوجلة، كذلك. ولا يقول لنا مؤلف كتاب الاستبصار الذي كان يكتب مباشرة بعد غزوة قراقوش، شيئاً عن حالة المنطقة في ذلك الوقت، مكتفياً بالإشارة إلى أنه لولا نقص المياه لكان الطريق أوجلة ـ زلة هو الطريق الذي تسلكه قوافل مصر نحو الغرب لأنه الأقصر[2]. ومن المؤكد أن السلام اختفي من المنطقة، لأنه عند تحالف قراقوش وبني غانية حوالى سنة 7 ـ 1186ف انضم[3] إليهم بنو سليم من برقة، مثل لمتونة ومسوفة مرابطو الغرب. ولا شك أن قراقوش ويحيى ألحقا ضرراً جسيماً بتجارة أوجلة[4] عندما سيطرا على كل طرق الصحراء. ومن المحتمل أن الواحة مثل المناطق الصحراوية الأخرى تحملت عبء الفوضى والتعطش إلى المغانم الذي كان القائدان الحربيان يحافظان عليه مستعراً عند قواتهما. بالرغم من وجود بني سليم، والسيطرة التي فوضت لهم من قبل المغامرين على الواحات الداخلية، عرفت أوجلة كيف تحافظ على هويتها فقد بقيت حتى اليوم جزيرة بربرية جزئياً، وتنتمي لغتها إلى المجموعة البربرية الشرقية: غدامس، ونفوسة، وسوكنة، والفقها، وأوجلة، وسيوة[5].

عندما أعدم دونما ديبلام سنة 1258ف، ابن قراقوش وضم فزان وبلاد ودان، بقيت أوجلة خارج المجال السوداني، ولا نعرف إذا كانت قد تمتعت ببعض الاستقلال، أو كانت جزءاً من ولاية برقة المصرية. ويلاحظ ابن سعيد، الذي توفى في تونس سنة 1286ف بعد أن قام برحلة إلى الشرق من سنة 1267ف إلى 1276ف، أن أوجلة جزيرة مأهولة في الرمال فيها مياه ونخيل[6].

---

(1) انظر بعاليه، ص333 ـ 334.

(2) ص191.

(3) انظر بعاليه، ص336.

(4) أوجلة مربوطة إلى القاهرة عبر سنترية، وإلى النيل والجزيرة العربية عبر سنترية والواحات، وإلى سرت وبرقة على الشاطيء عبر أجدابيا، وإلى السودان الشرقي وتشاد عبر الكفرة، والسودان الغربي عبر فزان. انظر الفصل المخصص للمسارات.

(5) U. Paradisi, Il Berbero, p.157.

(6) بسط الأرض، ص62. لا نعرف متى ألف هذا الكتاب. ومهما يكن فإن ابن سعيد المولود =

تورد الرواية، حدوث هجرة بربر أوجلة، الكل أوي ـ يوبي، نحو الآير[1] في القرن الرابع عشر، ولكن أسباب هذه الهجرة غير معروفة. ومن المحتمل أن انحدار أوجلة بدأ في تلك الفترة، لأن الحميري، مستلهماً ـ كما هي عادته دائماً ـ سابقيه، ولكن مضيفاً إلى أخبارهم التصحيحات الضرورية، يكرر أن الواحة صغيرة مأهولة وتعد بساتين نخيل كثيرة، وأشجار فواكه، ويفيد أن أعداداً قليلة من المسافرين تأتي إليها وتذهب منها. فقد بدأ انحدار التجارة العابرة للصحراء، التي هي مصدر ثراء أوجلة، في القرن الخامس عشر[2]. وتسارعت عملية الانحدار في القرن السادس عشر لأن الواحة لم تعد تتكون إلا من بعض القرى الصغيرة، وكانت تستورد قمحها من مصر ولم يرد ذكر إلا للطريق شرق ـ غرب[3]. وفي بداية القرن العشرين ستضطر المنطقة لاستيراد تمورها من أبي زيمة (بزيمة)[*] وهي واحة واقعة في الجنوب ـ الشرقي لتازربو على أكثر من أربعمائة وخمسين كيلومتراً من أوجلة[4]. منذ قرن استولت جالو من أوجلة على دور الواحة الرئيسية[5].

تاقرفت[6]:

لم تذكر واحة تاقرفت إلا من قبل البكري[7] وياقوت[8]، وهي واقعة على

= سنة 1213ف من المحتمل أنه يعرف الوضع الذي خلفه هناك قراقوش. ومن الصحيح أن المؤلف ارتكب أخطاء في كتابه الجغرافي وقد اشتغل بالتجميع. انظر Ch Pellat، موسوعة الإسلام، انظر ابن سعيد المغربي. بالنسبة للفترة اللاحقة مباشرة، لم يتمكن أبو الفدا من إفادتنا لأنه ينقل عن الإدريسي، انظر، تقويم، ص128 ـ 129.

(1) J. Nicolaisen, Ecology, p.412.

(2) الروض المعطار، انظر (أوجلة).

(3) Leon L'Africain, II, p.356.

(*) هذه هي التسمية حالياً. المترجم.

(4) R. Forbes, Across the Libyan Desert, p.100.

(5) F. Hornemann, p.82-83; R. Frorbes, ref. Supra; J. Despois, E.I. s.v. Awdjila.

(6) ليست موضحة على أي خريطة عربية من القرون الوسطى.

(7) المسالك، ص11 ـ 12/ 30.

(8) المعجم.

الطريق المباشر من أوجلة إلى ودان[1]، وعلى الطريق من سرت إلى زلة، ولا بد أن تكون معروفة منذ القدم إذ وجدت فيها نقود رومانية من القرن الثاني[2] الميلادي، ويضيف ياقوت أنها مدينة قديمة في طرف أفريقية. ويعطي البكري موقعاً خطأ للواحة، حسب الوراق، فهو يوقعها بين زويلة وودان وكلاهما يبعد عن سرت باثني عشر يوماً. بالنسبة لياقوت تقع تاقرفت على مسافات متساوية من ودان وزويلة؛ أحد عشر يوماً. ويعطي البكري وصفاً مختصراً للواحة؛ إن فيها مسجداً كبيراً، وتوجد بها تمور من نوعية بارني[3] بكميات كبيرة، وسكانها من أهل ودان. وعليه، وكما سنرى عندما نتناول ودان، فإن هؤلاء السكان عرب من الجنوب، ومن المحتمل أنهم أباضيون، وعرب من الشمال.

زلة[4]:

هذه واحة قديمة أخرى، اكتشف فيها فخار روماني من القرن الثاني الميلادي وآثار حصن من النوع الذي يوجد على طول الطرق الرومانية[5]. ولم تذكر زلة[6] للمرة الأولى إلا في القرن الحادي عشر. وزلة ليست فقط تجمعاً عمرانياً ولكنها سلسلة من بساتين النخيل التي تمتد من الشمال إلى الجنوب على طول خمسين كيلومتراً. والماء الجوفي فيها قريب، والعيون كثيرة، ولا يحتاج

---

(1) أوجلة ـ مراده: 200كم، مراده ـ تاقرفت: 200كم، تاقرفت ـ ودان: 120كم. لم تذكر مرادة قط من الجغرافيين العرب. توجد فيها بقايا قرية صغيرة فيها برج من المحتمل أنه كان لغرض الدفاع انظر R, Pacho، Relations، ص385. وR. Rebuffat، Routes d'Egypte، ص17 رقم 64.

(2) R. Rebuffat، المرجع المذكور، ص17.

(3) إنها نوعية ممتازة، انظر Dictionnaire Blachere. وهو غير مذكور في قائمة تمور فزان التي أعدها J. Lethielleux، Le Fezzan، ص221 ـ 213 ولا في قائمة J. Despois، Geographie Humaine، ص167 ـ 168.

(4) ليست موضحة على خريطة ابن حوقل. وموضحة أكثر من اللازم نحو الشمال على خط عرض أجدابيا على خريطة الإدريسي.

(5) R. Rebuffat, ap. cit., p.17.

(6) تتبنى الكتابة الرسمية الحالية. في القرون الوسطى نجدها مكتوبة زلها (البكري) وزالة (الإدريسي والحميري)، وزلا (الاستبصار) وزالة (أبو الفدا).

النخيل للري[1]. ولا يمثل النخيل مصدر ثروتها الوحيد، فلزلة موضع مثالي على الطريق المباشر من إقليم برقة نحو زويلة. في زمن البكري، أو في القرن العاشر لأن كامل المقطع يبدو مستوحى من كتاب الوراق، كانت زلة مدينة ضخمة بجامع كبير وبها مساحة نخيل شاسعة وعين ماء، وكان سكانها من قبيلة مزاتة[2]. نذكر بأن موطن مزاتة كان يمتد من نقطة على مسيرة يوم غرب أجدابيا ـ حد قبائل لواتة إقليم برقة ـ حتى تاورغاء ـ حد قبائل هوارة طرابلس الغرب ـ ويشتمل موطنهم نحو الجنوب على الجفرة. وقد كانت قبائل مزاتة، في القرن العاشر، قوية للغاية لأنها تمكنت من طرد الجرمنت الذين كانوا معها في حالة حرب مستمرة نحو الغرب منذ القرن التاسع على الأقل، وتمكنت ـ كذلك ـ من تأسيس أسرة حاكمة في زويلة[3]. ومن المرجح أن النجاح الذي حققته قبائل مزاتة في فزان، أغرى بعضهم، مزاتة زلة على وجه التحديد، بالهجرة نحو الجنوب تاركين المكان لآخرين، فقد ذكر الإدريسي في القرن الثاني عشر أن سكان الواحة كانوا من هوارة[4]. هكذا بدأت هجرة هوارة نحو الجنوب ووصلت بهم إلى حد الجبل الذي يحمل اسمهم[5]، ثم إلى كوكو. وفي الصحراء أصبحوا جيراناً للمطة وأخذوا عنها اللثام ـ تاغلمست. وكان هوارة زلة، وهي مدينة محصنة، يقدمون الحماية للمسافرين ويكرمونهم، وهم يزاولون التجارة دون أي ضغوط لأن رئيسهم كان «رجلاً ثائراً بنفسه» وسوقهم مقصود، وكانت الطرق تربطها بأوجلة، وودان، وسرت والكفرة نحو بلاد

---

(1) الدناصري، جغرافية فزان، ص427 ـ 429. وLa Giofra e Zella K. E. Scarin، 170 ـ 172، 232 ـ 233، 236 ـ 237، 239 صور جوية، صورة رقم 36، ومنظر إجمالي، صور أرقام 37 ـ 40.

(2) المسالك، ص12/ 30 ـ 31.

(3) انظر بعاليه، ص80 ـ 81، 119، 227 ـ 228، 258.

(4) نزهه، ص132 ـ 133/ 158.

(5) ابن خلدون، العبر، ج6، ص286/ البربر، ج1، ص375 ـ 376 ـ يقول بأن تحول الواو في هوارة إلى ك قريب من القاف أعطى الكلمة هقار.

السود[1]. وتمتد تجارة زلة إلى مصر، إذ كان التوجه إلى الواحات[2] (الداخلة والخارجة)(*) يتم عبر زلة وأوجلة. ونذكر أنه من هذا الطريق جاء قراقوش لاحتلال أوجلة وزلة[3]، وهكذا أصبحت الطرق العابرة للصحراء تحت سيطرته. وعندما خان ابن قراقوش الموحدين في سنة 1258ف، ذهب إلى بلاد ودان التي أحرقها وعرض الطرق التجارية للخطر لدرجة أجبرت ملك كانم على التدخل، ولا بد أن زلة قد عانت من هذه المحاولة الأخيرة لبعث المغامرة الأيوبية ـ المرابطية[4].

لم نعد نعرف شيئاً عن أنشطة زلة في تلك الفترة، فقد انفصلت عن عالم البحر المتوسط، وبالفعل كانت كانم[5] تبدأ من زلة. ومن كل روايات مستكشفي القرن الماضي(**) يمكننا أن نستنتج أن زلة قد انهارت بسبب دور الحاضرة الفزانية الذي اكتسبته مرزق على حساب زويلة، ومن تحول الطريق العابر للصحراء عبر الجفرة ـ بو نجيم ـ بني وليد نحو الغرب.

ودان والجفرة:

الجفرة/ «الدائرة» تسمية حديثة، لا نعرف متى ظهرت. ولم يذكر الجغرافيون والمؤرخون العرب لهذه المنطقة قط اسماً آخر إلا بلاد ودان. تتكون الجفرة من ثلاث تجمعات، ودان وهون وسوكنة. ويعود الفضل في ثراء الوادي إلى الطرق التي تلتقي فيه، وقرب الخزان الجوفي المائي وغزارته، وهو

---

(1) الإدريسي، المرجع أعلاه وص41 ـ 42/ 48 ـ 49.

(2) الاستبصار، ص147.

(*) إضافة من المترجم للتوضيح، المترجم.

(3) انظر بعاليه، ص333.

(4) التجاني، ص111. وانظر بعاليه، ص356 ـ 357.

(5) العمري، ص43. والقلقشندي، ج5، ص273. وأبو الفدا: تقويم، ص128. والحميري، انظر (زله) وهو ينقل حرفياً عن الإدريسي.

(**) القرن التاسع عشر. المترجم.

ما يجعل ري مساحات كبيرة من النخيل[1] غير ضروري. بالرغم من ذلك فإن الآبار كثيرة جداً ويمكن الري من زيادة الإنتاج ب70٪.

كان مؤلفو القرون الوسطى يجهلون سوكنة[2]. ولا نعرف متى أخذت هذه الواحة دور ودان ولماذا اتخذ منها الأتراك مقراً لقائم مقاميتهم، إلا أن يكون ذلك من أجل دفاع أفضل لمدخل المنطقة من الجنوب. ولا تبعد سوكنة عن جبل السودا إلا خمسة وعشرين كيلومتراً. في سنة 1812ف، كانت أسوار المدينة ما تزال سليمة، وكان في السور سبعة أبواب، واحد منها فقط يسمح بدخول جمل محمل[3]. وما زالت سوكنة حتى اليوم واحة تتكلم جزئياً بالبربرية، وسميت لهجتها من قبل G.F. Lyon، أرتانة، وهي ـ حسب Gustav Nachtigal ـ قريبة للغدامسية[4]. وإذا صدقنا الرواية، فإن سوكنة هي البلد الأصلي للطوارق أوراغن في الأطراف الغربية لفزان، ويحدث حتى الآن أن يترحل أوراغن غات حتى الجفرة[5].

هون مدينة أصغر من سوكنة[6]. ويتمتع نخيلها بنفس الظروف الملائمة

---

(1) سنة 1812ف حسب G.F. Lyon، Travels، ص72، كانت سوكنة لوحدها تعد 200000 نخلة منتجة. وتحت حكم الأتراك فقدت الجفرة الجزء الأكبر من نخيلها بسبب الحروب التي تواجه فيها الأتراك ضد العرب والبربر. انظر Egon Vietta، Geheimnisvolles، ص32. في سنة 1932ف كانت الجفرة بكاملها تعد 80000 نخلة: 15000 في سوكنة، و37000 في هون، و27000 في ودان، ومن هذه 80000 نخلة كانت 6000 غير منتجة، انظر E. Scarin، la Giofra e Zella، ص192. وكان في الجفرة 95000 نخلة سنة 1960ف، و103000 سنة 1966ف. انظر الدناصري، جغرافية فزان، ص209. ولم يتوقف الإنتاج عن النمو، حسب السكان، ولكن ليس لدينا معلومات دقيقة حول الموضوع.

(2) يمكننا أن نجد ذكراً غير صريح عند ابن سعيد، ـ في أبي الفدا، تقويم، ص127 والذي يقول: «ولها (فزان) مدن وعمائر أكثر من ودان».

(3) Sahara and Soudan, I, و G.F. Lyon, op. cit. pp. 72-74, 78-80; en 1869, G. Nachtigal. pp. 50-53, note que le gigantesque chateau est en ruine

(4) V. aussi U. Paradisi, E Fogaha, pp.294, 299

(5) H. Duveyrier, Les Touareg du Nord, p.347 et L'article de J. Dubief, Les ouraghen des kel-Ajjer, Vues ae'reinnes de Sukna, in. E. Scarin, op. cit, ph. 24-15.

(6) Plan in E. Scarin, La Giofra, p.205; vue ae'rienne, ph 16

مثل سوكنة. والبكري هو المؤلف الوحيد الذي ذكرها[1]: سكانها كثيرون، ولها مساحات شاسعة من النخيل وعيون عديدة، ويوقع البكري هذه الواحة التي يسميها «هل» على مسافة يوم من ودان ــ وهو تقدير صحيح (25كم) ــ وعلى مسافة خمسة أيام من سبها، وهو ما يتطلب سرعة كبيرة عند التفكير في عبور جبل السودا[2].

ذكرت ودان[3] كثيراً من قبل المؤلفين العرب في القرون الوسطى، وقد كانت حتى ظهور الإسلام محكومة بمملكة وراثية، حسب الإدريسي، والحميري الذي لا يذكر مصادره، وقد تفرق سكانها في الصحراء خوفاً من المسلمين ولم يبق فيها إلا السود[4]. وقد فتحت ودان من قبل بسر بن أبي أرطأة حوالى سنة 4 ــ 643ف مبعوثاً من قبل عمرو بن العاص عندما كان يحاصر طرابلس. وقد أبرم بسر عهداً مع سكانها التزموا بموجبه بأن يزودوه

---

(1) المسالك، ص11/ 29.

(2) سبها على بعد 285كم جنوب، جنوب غرب هون بالطريق القديمة التي كانت تتبع طرق القوافل.

(3) موضحة توضيحاً صحيحاً بالنسبة لأجدابيا وأوجلة وسرت على خريطة ابن حوقل. وعلى خريطة الإدريسي موضحة توضيحاً صحيحاً بالنسبة لخط طول سرت، وخط عرض غدامس ولكن لا يمكن أن يؤخذ في الاعتبار موقعها بالنسبة لزلة وزويلة، وكلاهما موضحان أكثر من اللازم نحو الشمال. T. Lewicki، Etudes Maghre bines، II، ص56 رقم 49، يشير إلى أن ياقوت يذكر مكاناً قريباً من ودان يسمى أوجلة. هذا صحيح، ولكن انظر ودان، يشرح ياقوت أنه بالإضافة إلى ودان الصحراء، هناك مكانان يحملان نفس الاسم: جبل، وتجمع عمراني في الحجاز. حسب المواقع المذكورة في المقال أوجلة، لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بتجمع عمراني واقع بين مكة والمدينة، انظر البكري، المعجم 1، ص111. توجد مدينة باسم ودان في موريتانيا في نهاية الطريق القادم من المغرب على مسافة 100كم شمال غرب شنقيط، وهي غير مذكورة من الجغرافيين العرب، انظر R. Mauny، Tableau Geographique، ص68 ــ 69. انظر ليون الأفريقي، II، ص421. خريطة لودان الحالية في E. Scarin، La Giofra، خرائط المساكن، ص224، منظر جوي للواحة 18 ــ 21.

(4) نزهة، ص37/ 43، ويضيف لم يعد باقياً إلا مدينة داو. د وهو اسم لم نستطع تمييزه، في جبل طنطنة حيث يعيش سود في البؤس. الروض المعطار، انظر (ودان). إن الاختلاط العرقي الذي يتحدث عنه البكري له عدة أسباب: المواطنون الأصليون، ووجود الرقيق، والاستعمار من قبل كانم، والزواج من السودانيات. انظر أدناه، ص492، رقم 2.

سنوياً بثلاثمائة وستين[1] عبداً. ويعد ذلك بأقل من عشرين سنة نقضت مزاتة ودان، وكذلك لواتة شمال إقليم برقة العهد. فأسرع عمرو ـ وكان عندها حاكماً لمصر ـ بإرسال عقبة بن نافع مكلفاً بإخماد التمرد. ومن المحتمل أن عقبة بن نافع أعاد الاستيلاء على ودان، سنة 43هـ ـ (4 ـ 663)ف وعاقب ملكها العقاب المعروف وأصر على الثلاثمائة وستين عبداً الذين تنص عليهم الاتفاقية[2]. ولا نعرف ما إذا كانت ودان قد استمرت في دفع هذه الجزية أو استقلت مرة أخرى، وقد أغفل ذكرها مؤرخو أفريقيا الشمالية حتى منتصف القرن الثامن. في هذا الوقت، كان أول رئيس أباضي طرابلسي، عبد الله بن مسعود التجيبي، يدير جماعة أباضيه هوارية. يمكن لنا أن نفترض أن ودان، وهي منطقة حدودية بين موطن هوارة، وموطن مزاتة، كانت قد تأثرت من قبل بالأباضية. فعندما انتشرت هذه البدعة في غرب طرابلس وحمّس الأباضيين موت رؤسائهم، انضمت قبيلة مزاتة بكاملها إليهم، وكذلك لواتة وجيرانها الشرقيون. وقد تولى قيادة الحركة أبو الخطاب المعافري، أحد خمسة دعاة بعثوا من البصرة لنشر العقيدة الجديدة في أفريقية. وعندما استولى المعافري على القيروان، أعطى الخليفة المنصور الأمر لحاكم مصر، محمد بن الأشعث الخزاعي بقمع التمرد. وقد أرسل ابن الأشعث سنة 3 ـ 762ف جيشاً إلى ودان حيث قتل كل الأباضيين[3].

في القرن التاسع، حسب اليعقوبي، كانت ودان ـ بداية ـ تابعة لبرقة ثم لسرت التي لا تبعد عنها إلا مسافة خمسة[4] أيام. ويعد ابن خرداذبه ودان من بين ممتلكات الأغالبة[5]، وقد رأينا أن هذا المؤلف يميل إلى المبالغة في هذه

---

(1) انظر عاليه، ص79.

(2) انظر بعاليه، ص105 ـ 106، 118.

(3) انظر بعاليه، ص194 ـ 195.

(4) البلدان، ص345/ 204 ـ 205.

(5) المسالك، ص87/ 62 ـ طبعة حاج صدوق، ص 6 ـ 7.

الممتلكات[1]. من الصعب التسليم بأن تكون ودان تابعة للقيروان التي كانت معزولة عنها بجبل نفوسة الأباضي. وفق اليعقوبي، يقع حد ولاية برقة في القرن التاسع في تاورغاء على مسافة مائتين وخمسين كيلومتراً من طرابلس[2] شرقاً. كما سنرى أن سلطة الأغالبة في طرابلس الغرب كانت ضعيفة لأنهم كانوا مرغمين على السماح بوجود مملكة ابن الصغير المصمودي الأباضية على مسافة لا تزيد عن مائة كيلو متر شرق طرابلس[3]. وكانت سرت خارج سلطتهم بالكامل. في الواقع كان موضوع السيادة الاسمية الأغلبية أو الطولونية الممارسة على ودان في هذا الوقت قليل الأهمية، لأن اليعقوبي يؤكد أن الواحة كانت محكومة من سكانها، ولم تكن خاضعة للخراج. كانت أغلبية سكانها من مزاتة ولكن كان فيها من العرب الذين يقولون بأنهم يمنيون. كما كانت مناطق ترحل البربر الملثمين تقترب كثيراً من ودان، فقد كانت قبائل لمطة تتنقل، في القرن التاسع، بين كوار وزويلة وأوجلة وأجدابيا. كان هذا موضعهم الأكثر ابتعاداً نحو الشرق. وقد هاجروا بعد ذلك بقليل بعيداً نحو الغرب[4]. وما يقوله لنا اليعقوبي لاحقاً عن سكان زويلة وتجارتهم يقود إلى التفكير في أن عرب ودان كانوا ـ على الأقل جزئياً ـ أباضية يمارسون التجارة؛ تجارة الرقيق بشكل خاص. ومع هذا، كان للواحة مورد آخر وهو تصدير التمور من كل الأنواع.

بالإضافة إلى الارتباط مع سرت، يذكر اليعقوبي الارتباط مع جالو وأوجلة ولكنه كان يجهل امتداد هذا الطريق القديم جداً نحو سنترية والواحات. صحيح أن كتاب اليعقوبي ـ كما وصلنا ـ لا يورد أي ذكر لسنترية. وقد كان ابن حوقل يعرف هذا الطريق وامتداده نحو النيل إلى الشرق والنوبة إلى الجنوب[5].

---

(1) انظر بعاليه، ص212 ورقم 2.

(2) انظر بعاليه، ص210.

(3) انظر بعاليه، ص227 ـ 228.

(4) انظر بعاليه، ص252 ـ 253.

(5) صورة الأرض، ص67، 154 ـ 155/ 64، 152 ـ 153.

وكان ابن حوقل مدركاً لأهمية ودان، وسماها جزيرة ودان ويصفها بالناحية والمدينة. والتمور فيها بوفرة وجودة التمور في أوجلة وبسعر رخيص، وكذلك، كان النخيل في أوجلة يثمر تموراً جافة، وفي ودان طازجة ولذيذة.

كما رأينا، يوقع البكري ودان في موقعها الصحيح بالنسبة لهون ـ يوم واحد ـ 26كم ـ وتاقرفت ـ ثلاثة أيام ـ 120كم ـ ولكنه يأخذ بإيقاع سريع للغاية على الطريق نحو سبها ـ 6 أيام ـ 310كم ـ منها عبور جبل السودا[1]. وكانت شوارع المدينة مقفولة بأبواب يدافع عنها بواسطة حصن. ويعيش سكانها على التمور، وكانت الحقول المزورعة قليلة عدداً، وتروى من خزان[2] نضح[*]. وفي ودان فقهاء وحفاظ قرآن وشعراء[3]. ولم يشر البكري إلى وجود أي قبيلة بربرية في المدينة[4]. بالعكس، يذكر فيها ممثلين لقبيلتين عربيتين: من سهم، وأفراد أصلهم من حضرموت. وكانت غالباً ما تنشب بين هاتين المجموعتين نزاعات تتطور أحياناً إلى معارك حقيقية، وتسكن المجموعتان في أحياء منفصلة، والمسجد الكبير الواقع بين طرفي المدينة هو المكان الوحيد المشترك بينهما. ويسمى حي قبيلة سهم دلباك وحي الحضارمة بوسي ـ يوسي ـ لوصي. من السهل الوقوف على السبب وراء الصراعات بين

---

(1) المسالك، ص11 ـ 12/ 29 ـ 30. سنرى أن خطأ البكري يكمن في الموقع الذي يحدده لزويلة وسبها بالمقارنة للساحل، انظر أدناه، المسارات.

(2) يتعلق الأمر بحوض يصب فيه الماء الذي يسحب من الآبار القريبة. من هذا الخزان تنطلق القنوات نحو الحدائق وفق قواعد محددة جيداً وفق البعد ومساحة الزراعات كما كانت الحالة وكما هي اليوم في غدامس. والري في ودان لا زال بهذه الطريقة. ويترجم De Slane «مروية بواسطة جمال» وقد خلط بين النضح = الخزان، والناضح = الحيوان؛ حمار، جمل، جاموس الذي يقوم بالسحب أو حمل الماء إلى الحدائق، ولا زال الجاموس مستعملاً في غات، خصوصاً. .

(*) الكلمة المستعملة من البكري. المترجم.

(3) يذكر ياقوت أحد هؤلاء الشعراء، أبو الحسن علي بن إسحاق الوداني، الذي أصبح لاحقاً مديراً للديوان في صقلية.

(4) قبيلة هوارة، كانت ما تزال تحتل، في زمنه، المنطقة بين طرابلس وودان، انظر ص12/ 31.

هذه القبائل: إنه الخلاف الخالد بين عرب الشمال وعرب الجنوب. فسهم عرب من الشمال شاركوا في الفتح مع عمرو بن العاص وإليهم ينتسب، وهو يحمل اللقب السهمي. وقد يكون حضارمة ودان منحدرين من الفاتحين مضافاً إليهم مهاجرين أباضيين، ولا ننسى أن اليعقوبي ينسب إلى ودان سكاناً مسلمين يمنيين. وليس لدينا تفسير لتسمية الحي السهمي[1]. وقد تعود تسمية الحي الحضرمي إلى بوس وهي قرية قريبة من صنعاء في اليمن[2]، وكانت تقرأ حينها بَوْسِ. ومن المحتمل أن هذا الحي قد أسس من قبل اليمنيين الذين تحدث عنهم اليعقوبي، والذين انضمت إليهم قبائل أباضية أخرى من جنوب الجزيرة العربية، كما برهنت عليه حملة ابن الأشعث في سنة 63 ـ 762ف. ويقدم وجود القبائل التي أصلها من جنوب الجزيرة العربية في ودان تفسيراً إضافياً للتوسع الهائل للأباضية في الصحراء.

كان سكان ودان يحصلون على دخولهم من التجارة، كما توضحه طرق مختلفة شمال جنوب، وشرق ـ غرب عددها البكري.

لقد أبرزنا أن حالة ودان لوحدها قد تكفي للبرهنة على أن هجرة بني هلال لم تلحق أي أضرار بالواحات الليبية، على الأقل، خلال القرن الأول لوجودهم، قبل أن يجندهم قراقوش وبنو غانية[3] مرتزقة. فبعد الهجرة الهلالية، وبينما استقر بنو سليم استقراراً ثابتاً في إقليم برقة، أعطانا الإدريسي صورة للواحة أجمل من التي تركها لنا البكري. في القرن الثاني عشر، كانت ودان اسم جزيرة من النخيل ـ وتمور ودان أقل وفرة من تمور أوجلة ولكنها أجود ـ يتتابع دون انقطاع، مثل الحقول المزروعة. وبفضل الآبار العديدة،

---

(1) القزويني، انظر (ودان)، ص280 يأخذ من البكري ويسمى الحي لباك. وهو مالا يساعدنا. ياقوت، انظر ودان ينقل عن البكري بالكامل ويسمى الحيين دلباك، وبوصي.

(2) ياقوت انظر (بوص). وياقوت يعطي كذلك يوص وهو جبل واقع في شمال الجزيرة العربية مباشرة شرق جبل شمر قرب فيد.

(3) انظر بعاليه، ص239.

تزرع فيها الذرة البيضاء، وأشجار التوت والتين، وهذه الأخيرة في طريقها للانقراض. وتحيط هذه الزراعات بغابة في غرب المدينة. ولم يذكر الإدريسي شيئاً عن سكان ودان، بالرغم من أنه تجشم عناء الإشارة إلى وجود هوارة في زلة. يمكننا أن نفترض انتهاء النزاعات بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وذلك لوجود قصرين في الواحة لا يبعد أحدهما عن الآخر بأبعد من رمية سهم، وبعكس القصر الواقع في الجنوب، كان القصر الشمالي مهجوراً. وكانت الواحة محمية بشكل ما من قبل البربر، نتذكر أن رهانة كانوا يذهبون حتى ودان في غاراتهم ضد القبائل العربية التي يسرقون إبلها. وقد مكنت هذه الحماية الواحة التي كانت ملتقى طرق اتصالات من الاستمرار في تجارتها. وبقيت ودان مع جارتها زلة إحدى بوابات السودان[1].

بالرغم مما سبق، كانت أيام السعادة بالجفرة معدودة. لا نعرف إذا ما كان قراقوش قد استولى على ودان القريبة عندما توغل في ليبيا عبر أوجلة وزلة 77 ـ 1176ف، أو أهملها لمتابعة طريقه نحو زويلة والفقهاء. من المستغرب، إذا ما فكرنا فيما عمله في زويلة، أن يترك هذه المنطقة دون أن يلحق بها أذى وهي التي يعود ثراؤها للتجارة. كانت ودان ـ تحت سيطرة قراقوش أولا ـ تشهد ـ بكل تأكيد ـ منذ 77 ـ 1176ف انهيار تجارتها بسبب الفوضى التي سادت في فزان والتعطش للمغانم الذي كان قراقوش يغذيه لدى العرب الرحل. من المؤسف، أننا لا نعرف شيئاً عن تنظيم التجارة العابرة للصحراء خلال تلك الفترة، ولكن، من الطبيعي، أن لا يوجد كثير من التجار الجسورين لاستئجار قوافل عليها أن تعبر مناطق كانت فيها الإغارات والإغارات المضادة شائعة بقدر ما كانت قاسية، وكانت البلدات مسرحاً للنهب من قبل المغامرين وأحياناً من قبل الموحدين. ربما تحسن الوضع بالنسبة لودان عندما لجأ إليها قراقوش، هرباً من يحيى، واستقر فيها عشرين سنة تقريباً، بالرغم من أننا يمكن أن نتساءل

(1) نزهة، ص41 ـ 42، 123، 132 ـ 133/ 49، 144 ـ 145، 158.

ـ لأن سياسة قراقوش كانت دائماً قصيرة النظر ـ عما إذا كان يقدر مصلحته في بعث التجارة أو إذا كان قد اكتفى من أجل إعادة بناء قواته بالضغط على السكان بمساعدة حلفائه العرب. في سنة 3 ـ 1212ف، حوصرت ودان من قبل يحيى الذي طرده الموحدون، وكان يقود عرب بني دباب الذين كانوا مصممين على إنهاء الأرمني. يمكننا تصور معاناة السكان الناجمة عن حصار مدينة صحراوية. لا نعرف في أي فصل حدث هذا الحصار، ولكن يحيى، وهو استراتيجي بارع، لا يمكن أن يختار إلا فترة ملائمة للغاية لمشروعه، وهي الفترة التي تكون فيها مخزونات فترة الشتاء استنفدت، ولم يبدأ بعد جني التمور، والذي كان، في جميع الأحوال، مستحيلاً لمدينة محاصرة، وقد كان الجوع هو الذي قهر المملوك[1].

يبدو أن ودان، تحت سيطرة ملك كانم، نهضت بسرعة من الدمار الذي تسبب فيه ابن قراقوش[2]. ويشير ابن سعيد (1213 ـ 1286ف)، الذي غالباً ما كان ينقل عن الإدريسي ويختصره، ويجهل وقائع مهمة معاصرة[3] له، وكتب المقطع عن ودان وفزان بعد 1258ف تاريخ إعدام ابن قراقوش بأمر من دونما ديبلام، أن هذه المناطق كانت في الواقع جزءاً من مملكة كانم. بدون أن ينقل حرفياً من سابقه، كتب ابن سعيد أن ودان جزيرة نخيل حيث الماء وفير وبها مدن وزراعات أقل من فزان، ويجد فيها المسافر ملجأ بعد طريق طويلة ومتعبة[4]. وهذا لا يفيدنا فقط حول الصحراء الليبية ولكن كذلك عن قوة المملكة السودانية التي وسعت امبراطوريتها حتى ألفي كيلومتر من عاصمتها.

في القرن الرابع عشر، حسب ابن خلدون، كانت بلاد ودان مكونة من

---

(1) انظر بعاليه، ص338، 343 ـ 344.

(2) انظر بعاليه، ص249 ـ 250.

(3) إنه لا يعرف شيئاً عن انطلاق مالي في عهد سن دياتا (1230ف ـ 1255ف). انظر ما تحقق منه T. Lewicki، Etudes Maghrebines، II، ص36.

(4) بسط الأرض، ص61.

مواقع عديدة، يوجد بها نخيل كثير وماء وافر[1]، وسكانها من بني سليم من قبيلة ناصرة. وبالفعل إن من نقابلهم اليوم في ودان هم من سليم.

الفقها:

إن هذه الواحة الواقعة على مسافة حوالى مائتي كيلو متر جنوب الجفرة بالطريق الذي يبدأ من هون[2]، وعلى نفس المسافة شمال تمسة هي واحدة من أكثر الواحات عزلة في الصحراء الليبية ومن أفقرها كذلك، منذ اختفاء النقل بالقوافل نحو مصر[3]. والهجرة منها كبيرة جداً، ولم يعد باقياً في البلدة حالياً إلا مائتين من السكان. إن بقايا القصور في جوارها تشهد بقدم السكن فيها، ولعلمنا، لم تدرس هذه القصور بعد. وكانت الواحة تتكلم البربرية «جزئياً» في سنة 1961ف: كان ما زال فيها ثلاثة أشخاص يتحدثون لهجتهم البربرية القريبة من لجهة سوكنة، وكان هناك عشرة يفهمونها[4].

لم تُذكر المدينة بوضوح من أي جغرافي. مع ذلك فهي معروفة من البكري الذي يحدد موقعها تحديداً صحيحاً على أحد مساراته الفزانية[5]. فهو يقول بوجود عدة طرق للوصول إلى الساحل من زويلة خاصة «من زويلة إلى مدينة تمسى[6] يومان، ومنها إلى مدينة زلهى[*] ثمانية أيام في صحراء، وفي وسط الطريق منزل لأهل ودان. . .» والفقها هي الواحة الوحيدة التي توجد بين تمسة وزلة وهي واقعة على مسافات متساوية بين النقطتين. ولن تذكر الفقها بعد

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص191.

(2) نفس المرجع، ص164. انظر كذلك كحاله، معجم انظر (ناصره).

(3) E. Scarin La Giofra e Zella, pp.172, 211, 214, vue ae'rienne ph.17، الدناصري، ص428، 429.

(4) U. Paradisi, EL. Fogoha, p.293.

(5) المسالك ص12/ 30.

(6) زويلة ـ تمسة: 75كم. النصف الثاني من هذه المسافة يتطلب عبور تلال رملية هشة للغاية ومتعبة جداً.

(*) هكذا وردت في نص البكري، المترجم.

ذلك حتى بطريقة غير مباشرة. ويبدو أن الإدريسي يشير إلى طريقين من زلة إلى زويلة وكلاهما تتطلب مسيرة عشرة أيام: إحداهما نحو الجنوب الغربي[1] ـ هذه لا يمكن أن تكون إلا الطريق المارة بالفقها ـ والأخرى عبر ستيح[2] وهو اسم لموقع لم نتمكن من التعرف عليه[3].

تمسة:

لم يتغير موقع هذه الواحة، المشيدة على تل، منذ ألف سنة. وقد تقلصت المساحة المسكونة فيها بشكل كبير، ولكن البقايا عديدة لدرجة تسمح بتحديد المحيط القديم. فما زالت ترى بقايا السوق القديم والمسجد خارج المدينة الحالية، وبقايا القصر القديم في المدينة[4]. ومن الغريب حقاً، أن هذه البلدة، التي تُكوِّن النقطة الأبعد نحو الشرق في فزان على هذا المستوى من خطوط العرض، لم تذكر إلا من قبل البكري[5]. فقد كانت تؤدي إلى تمسة واحدة على الأقل من الطرق القادمة من زلة والمتجهة نحو زويلة، التي ذكرها كل من البكري والإدريسي، ومن المحتمل أن عقبة قد وصل إلى زويلة في غارته الأولى حوالى سنة 44 ـ 643ف عبر تمسة. ويصف البكري تمسة كمدينة كبيرة بها مسجد وأسواق، ولكنه لم يتناول سكانها[6].

---

(1) نزهة، ص42/ 49.

(2) نفس المرجع، ص132/ 158. تعطي المخطوطات قراءة مسح، ومستنح. يوجد مسار آخر من زلة إلى زويلة متعب للغاية لأنه يعبر ودياناً عديدة، يتوجه نحو الجنوب على مسافة 200كم قبل أن يتجه نحو الغرب في اتجاه تمسة. هل المستيح الذي أورده الإدريسي هي تمسة نفسها؟ للمسارين نفس الطول: 400كم.

(3) انظر أدناه، ص559.

(4) Plan in J. Despois, Geographie humaine, p.95.

(5) المسالك، ص12/ 30.

(6) طريق القوافل زله ـ زويلة لم يعد مستعملاً إلا من بعض البادية الرعاة. منذ إنشاء الطريق ودان ـ تراغن ـ زويلة، لم تعد لتمسة أهمية، وفقدت الجزء الأكبر من سكانها بسبب الهجرة نحو سبها والساحل. وقد زارها F. Hornemann سنة 1797ف، انظر Journal، ص92 ـ 94.

زويلة[1]:

سنميز زويلة عن فزان لأن التسمية الأخيرة كانت تعني بالنسبة للمؤلفين العرب، حتى القرن الثاني عشر، وادي الآجال موطن الجرمنت وعاصمته جرمة. ويجب الانتظار حتى بداية القرن الثالث عشر ليكتب ياقوت أن زويلة هي عاصمة فزان[2]. حتى ذلك الزمن، كان هناك إقليمان مختلفان؛ زويلة أو «أرض زويلة» وفزان أو «بلاد فزان».

تقع زويلة في المنخفض الأبعد نحو الشرق فيما يسمى اليوم فزان، وهي الواحة الوحيدة مع تمسة، التي لم يتغير موقعها منذ ما يزيد عن ألف سنة. وهي مدينة مفتوحة حتى القرن الحادي عشر ـ يشير البكري إلى أنها مدينة غير مسورة ـ وقد بُني لها سور في القرن الخامس عشر، حسب الرواية، ربما بسبب الحروب التي خاضها أولاد محمد. وبعد ذلك توسعت زويلة أكثر خارج أسوارها. وأغلب المنازل الواقعة داخل السور هي الآن عبارة عن أطلال، وكذلك المسجد الأبيض الذي شيد خارج السور، ومن المحتمل أن هذا المسجد سابق للقرن الخامس عشر. وعلى مسافة من المدينة ما زالت تُرى قبور بني خطاب؛ الملوك الأباضيين الذين حكموا المنطقة من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر[3].

حسب البلاذري[4]، وابن عبد الحكم[5] فتحت زويلة حوالى سنة 44 ـ

---

(1) غير موجودة على خريطة ابن حوقل. ومبينه أكثر من اللازم نحو الشمال مقارنة بودان، وغدامس، والواحات المصرية على خريطة الإدريسي.

(2) معجم، انظر (فزان).

(3) زار F. Hornemann، زويلة سنة 1797ف، ص94 ـ 95. وزارها G.F.Lyon، سنة 1818ف، ص212 ـ 219. حول زويلة الحديثة انظر E. Fezzan e oasi di Gat, Scarin، ص 336 ـ 340، 629، 637 ـ 638. و Geographie humaine، ص95، 103. وكما رأينا اضطرت زويلة للتنازل عن دورها كعاصمة لفزان لتراغن ثم لمرزق، ولم تعد مؤخراً حتى الواحة الرئيسية في واديها، الشرقية، فقد سلبتها أم الأرانب هذا الدور، وحالياً هي نقطة انطلاق الطريق نحو القطرون وعرفت انتعاشاً نشطاً.

(4) فتوح البلدان، ص226.

(5) فتوح أفريقية، ص36 ـ 37. نقل هذا الخبر من مؤلفين آخرين. انظر بعاليه، ص75 ـ 76. رقم 2.

643ف من قبل عقبة بن نافع بأمر من عمرو بن العاص. ونقدر أن الغزوة قد جرت انطلاقاً من برقة، إذ يقال أن عقبة أخضع الإقليم الواقع بين زويلة وبرقة/ زويلة ومصر. ودون إنكار للغارة، إلا أن هناك شكوكاً حول هذا الخضوع المزعوم والمصحوب بأسلمة جزئية منذ سنة 44 ـ 643ف[1] لإقليم بهذا الاتساع الشاسع. من الممكن أن الواحة التي افتتحها عقبة لم تكن قد حملت بعد اسم زويلة، كما أن من المحتمل، حسب مقطع لابن عبد الحكم، أن زويلة غيرت موقعها بين 44 ـ 643ف تاريخ الغارة، والقرن التاسع، زمن مؤرخينا[2]. إن هذه الظاهرة شائعة في الصحراء، ولكن الانتقال لا يمكن أن يتعلق إلا ببعض مئات الأمتار على الأكثر. إننا لا نعرف ما إذا كان عمرو قد أرسل عقبة إلى زويلة وبسر بن أبي أرطأة إلى ودان في نفس الوقت[3]، وعما إذا كانت هذه سياسة استطلاع من قبل القائد أو فتح للواحات الداخلية أو على الأقل محاولة سيطرة على نقطة التقاء للطرق العابرة للصحراء. وإذا كان عقبة قد بدأ من برقة للوصول إلى زويلة ـ كما يظهر من نص ابن عبد الحكم ـ فقد مر بأوجلة أو مرادة وزلة و(الفقها؟) وتمسة[4].

هكذا أقام العرب اتصالاً بمزاته زلة، بعد أن أخضعوا لواتة، وكان أخوتهم في ودان قد أُخضعوا من قبل بسر في نفس الوقت عملياً، وكذلك روانه (؟) زويلة ولمطة الذين يقول عنهم اليعقوبي أنهم يترحلون بين كوار وزويلة وأوجلة. بالرغم من ذلك، بقي عقبة على غير علم بالجرمنت الذين كان إقليمهم يمتد نحو الغرب لأنه بعد ذلك بحوالى عشرين سنة، حوالى سنة 4 ـ 643ف، عندما أخضع ودان اضطر للاستفسار من السكان عما يوجد وراءهم، وعندها فقط علم بوجود جرمة.

---

(1) انظر بعاليه، ص75 ـ 79.

(2) انظر بعاليه، ص76، رقم 3 وص79.

(3) انظر بعاليه، ص79 ـ 80.

(4) لا يوجد إلا طريق واحد آخر برقة ـ زلة، يمر عبر ودان التي فتحها بسر.

أقام عقبة في برقة وزويلة منذ فتح المدينتين حتى تعيينه حاكماً لأفريقية سنة 71 ـ 670ف، وشكلت برقة وزويلة مقام الولاية[1]. ولا بد أن المنطقة قد استقرت بشكل نهائي إلى جانب المسلمين: بالفعل، عندما عين عقبة عاملاً على أفريقية مكلفاً بمهمة وحيدة وهي قمع تمرد قبائل لواتة ومزاتة انقاد لحماسه ليقوده إلى قلب الصحراء حتى أبواب السودان، وكان قد ترك في زويلة جزءاً من قواته المسؤول عن الشؤون اللوجستية، من أجل الوصول إلى كوار انطلاقاً من جرمة بقوات خفيفة. وهذا يبرهن كذلك على أن زويلة كانت تمثل من قبل محطة فزانية مهمة بالنسبة للمسافرين القادمين من كوار[2]، وما كان عقبة ليأخذ هذا القرار إلا بناء على نصيحة أدلائه من البربر.

منذ منتصف القرن الثامن، في نفس الوقت الذي هددت فيه مملكة أبي الخطاب المعافري فتح أفريقية، أصبحت زويلة حصناً أباضياً، وسيطرت على الطرق العابرة للصحراء التي كانت هي أحد أهم ملتقياتها. كانت هذه السيطرة تمثل كارثة تجارية حقيقية بالنسبة للعرب الذين خرجت تجارة الذهب والعبيد من بين أيديهم. تعاظم خطر الوضع خاصة بعد أن هزم أبو الخطاب أول جيش من العرب بعث به ابن الأشعث حاكم مصر بأمر من الخليفة المنصور. وقد تطلب الوضع تدخل ابن الأشعث شخصياً مصحوباً بنخبة من القادة العسكريين العرب وقوات ضخمة لوضع نهاية لعصاة الساحل. وتحول طابوران؛ أحدهما إلى ودان، والآخر بقيادة إسماعيل بن عكرمة الخزاعي إلى زويلة. وقد تم الاستيلاء على المدينتين ونفي سكانهما أو قتلوا. وقُتل[3] رئيس الأباضيين عبد الله بن حيان الأباضي.

بقي المذهب الأباضي متجذراً في المنطقة، وعدَّ الكثير من العلماء الذين

---

(1) انظر بعاليه، ص76 رقم 3.

(2) انظر بعاليه، ص108، 121 ـ 122.

(3) انظر بعاليه، ص198.

حفظت لنا المدونات الأباضية أسماءهم[1]، واستمر الأباضيون في التركيز على التجارة مع السودان. حسب اليعقوبي[2] كان سكان زويلة في القرن التاسع، أباضيين ممارسين لأنهم يحجون إلى مكة. وكانت غالبية السكان تنتمي إلى قبيلة روانه. إن معرفة هذه القبيلة ليست بالأمر السهل. فقد أراد Karl Schubarth-Engelschall [3] أن يرى فيها قبيلة رواحة التي يوقعها الإدريسي في شمال إقليم برقة[4]. ولكن هذا لا يستقيم عند الفحص لأن رواحة من بني سليم ولم يظهر بنو سليم في ليبيا إلا في القرن الحادي عشر، بالإضافة إلى أن من الصعب أن نرى قبيلة عربية تكون أغلبية أباضية من سكان واحة منذ القرن التاسع ومتوغلة بعيداً في الداخل. يمكن التفكير في القبيلة البربرية رهانة التي يقول عنها الإدريسي إنها كانت تناوش العرب بين جبل دمر وودان[5] ولكن الشكل الخطي للكلمتين لا يتوافق، هذا من جانب، ومن جانب آخر يجب التسليم بوجود حركة جنوب شمال بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر لقبيلة بربرية لم تذكر بعد ذلك أبداً في طرابلس الغرب، بينما التوجه العام للهجرة في هذه المناطق كان دائماً شمال جنوب، وبدقة أكثر شمال شرقي ـ جنوب غربي. قد تساعدنا رواية سودانية. تورد هذه الرواية وجود اثني عشر قبيلة من أصل كنعاني في بوركو قادمة من كوار، وتسمى إحدى هذه القبائل رواية[6]. إن مجرد ذكر كنعان يجعل من هذه القبيلة قبيلة بربرية: إذ إن الرواية العربية التي تنسب البربر إلى أصل كنعاني أو حميري انتشرت كذلك في السودان[7]. إن المدونة السودانية لا تحدد الزمن لوجود قبيلة رواية في كوار، ولكننا نستطيع أن

---

(1) T. Lewicki, Ibaditica, I, Tasmiya, pp. 94-99.

(2) البلدان، ص345/ 205.

(3) Arbische Berichte, pp. 54-55.

(4) نزهة، ص135 ـ 136، 138/ 162 ـ 163، 156. انظر كذلك، ابن خلدون، البربر، 1، ص9.

(5) نزهة، ص123/ 144 ـ 145. انظر كذلك ابن خلدون، نفس المرجع المذكور أعلاه.

(6) H.R. Palmer, Sudanese Memoirs, II, p.49.

(7) ابن خلدون، البربر، ج1، ص174، 176، ديوان سلاطين بورنو، ص23، Ch Pellat 65، موسوعة الإسلام. انظر (البربر). ص 1208b، وB. Joel، موسوعة الإسلام، انظر (كنعان).

نعتبر أن هذه القبيلة البربرية كأخرى غيرها كانت كثيرة في قلب فزان في القرن التاسع، ودفعت نحو الجنوب نتيجة توسع قبائل مزاتة الطرابلسية أو هجرة جيرانهم من قبائل هوارة. إن أخبار اليعقوبي والرواية السودانية مجتمعة تضيف عنصراً يوضح تطور الأباضية في بلاد السود. كما يشرح، كذلك، السهولة التي كانت تمارس بها زويلة تجارة الرقيق: تجار وصيادون في الشمال، ولعبت قبائل رواية دور المتعهد بذهابها إلى كوار وبوركو والاستقرار فيهما، وهما مصدرا التزود بالرقيق. ويبين وجود أفراد أصلهم من خراسان، والبصرة والكوفة في زويلة الكثير من نشاط الدعاة الشرقيين في الصحراء، ونشاط التجار الذين من الممكن تصور علاقاتهم مع الأسرة الفارسية الرستمية في تاهرت[1].

زويلة منطقة نخيل وتزرع فيها الذرة البيضاء وحبوب أخرى. ويمثل الجلد الذي يحمل اسمها أحد منتجات الصناعات التقليدية المحلية، وكانت له شهرة. ولم تكن هذه مصادر ثرائها في زمن اليعقوبي. كانت قبائل (الرواية) تمارس تجارة الرقيق السودانيين الذين تحصل عليهم بطريقين؛ إما بقيامها بتحويل سود إلى رقيق، وإما بشرائهم من ملوك السودان الذين يبيعونهم «من غير شيء»، ودون أن يكون هؤلاء الرقيق يمثلون غنائم حروب[2]. ويأتي هؤلاء العبيد من قبائل الزغاويين، والميريين والموريين وغيرهم المستقرين في الجوار. وفي كوار على مسافة خمسة عشر يوماً جنوب زويلة، حيث السكان المسلمون مختلطون وغالبيتهم من البربر كان السود يباعون. لقد مهدت غزوة عقبة على كوار ـ أو عملت على تواصلها[3]؟ ـ للتجارة الفزانية في العبيد.

---

(1) كان هناك أفراد أصلهم من خراسان في القيروان، والزاب، وبالطبع، في تاهرت، انظر اليعقوبي، البلدان، ص348، 353/ 210، 214، 216 ـ 217.

(2) في القرن التاسع عشر، تأكد في الكثير من المرات، وفي كل مكان في السودان، أن الآباء يبيعون أطفالهم في زمن المجاعة. انظر A.G.B وSlavery H. J. Fisher، ص62 ـ 63 بأمثلة. إن المثل الذي أورده اليعقوبي لا يثير الدهشة، إذا كان الملك يرغب ملء خزائن الدولة.

(3) طارد الجرمنت على عرباتهم التي تجرها أربعة خيول سكان الكهوف الأثيوبيين، انظر هيرودوت، ج4، ص184.

لا يوجد الزغاوة اليوم إلا في المنطقة التي تحمل اسمهم، دار الزغاوة في شمال وداي شرق ـ شمال ـ شرق دارفور[1]. وكان موطنهم في القرون الوسطى أكثر اتساعاً بكثير ويشمل مناطق كل قبائل التبو الحاليين أي الجنوب الليبي مع القطرون في الغرب والكفرة في الشرق، وشمال تشاد وشمال دارفور. إن توزعهم على إقليم بهذا الاتساع كان السبب وراء عدم دقة الجغرافيين العرب في تحديد موقعهم[2]. لقد ذكر الزغاوة منذ بداية القرن الثامن من قبل وهب بن منبة في قائمته لأقوام السودان[3].

تحدث اليعقوبي عن الزغاوة كذلك[4]، ووضع حدهم الشرقي عند النيل: فهو يقول بأن بلاد الزغاوة هي أول مملكة سودانية تقابل في غرب قبائل الباجة/ البجة[5]، وقد كانوا هم الذين استقروا في كانم، ومساكنهم مصنوعة من القصب وملكهم يسمى كاكره، ويسمى أحد فروعهم هوضن (؟).

يشير المسعودي (القرن العاشر) إلى الزغاوة كذلك، في سرده للقبائل من أبناء نوح[6]. كما يزودنا المهلبي (القرن العاشر) ببعض المعلومات الدقيقة حول الزغاوة[7]. يقول إنها مملكة سودانية على مسافة عشرة أيام غرب النوبة، وتمتد على مسافة خمسة عشر مرحلة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب

---

(1) Sur eux, V. A. Le Rouvreur, Sahariens and Sahe'liens du Tchad, pp.205-217.

(2) حول الزغاوة في القرون الوسطى، انظر J.M. Guoq، Recueil، وLevtsion and Hopkins، Corpus، (index)، وD. Lange notes في ديوان سلاطين بورنو، ص114. وSudanses Memoirs، H.R. Palmer، ج2، ص2، 8 وk. Schubarfh-Engelschall، Arabische Berichte، ص64 ـ 70.

(3) في ابن قتيبة، كتاب المعارف، نشر القاهرة، 1353هـ/ 1934ف، ص12 ـ 13، في J.M. Cuoq، Recueil، ص41، وLevtsion and Hopkins، Corpus، ص15.

(4) تاريخ، ج1، ص193.

(5) الباجة رحل يمتد موطنهم من البحر الأحمر إلى النيل في منطقة الحدود السودانية الأرترية. حولهم في القرون الوسطى والعصر الحديث، P.M. Holt، موسوعة الإسلام، انظر بدجة.

(6) المعجم، 2، ص4.

(7) في ياقوت، كما هو شائع، من الصعوبة تحديد ما يعود إلى المهلبي وما يعود لياقوت نفسه.

وهي مسكونة بالكامل. ولها مدينتان: منان[1]، وترازكي (؟). وبيوت السكان وكذلك قصر الملك مصنوعة من القصب[2]. ويرتدي الملك ملابس ذات جودة عالية من الصوف ولكن مواطنيه يعيشون عراة، تغطيهم فقط جلود حيوانات، ويحيون على الرعي والزراعة، ويزرعون الذرة البيضاء والفاصوليا والقمح. وهم يتصورون أن ملكهم لا يأكل لدرجة أن الطعام يأتيه خفية، وويل للحارس الذي يفاجأ من قبل واحد من الشعب. كان سيقتل حالاً. ويتابع المهلبي وصف بلاد الزغاوة موضحاً أن السكان يقدسون ملكهم ويعبدونه بالإضافة إلى الله ويتصورون أن ملكهم هو الذي يحييهم ويميتهم ويهديهم الصحة ويبتليهم بالمرض. والملك حر في أن يعمل بشعبه ما يشاء يحول إلى رقيق من يريد. وتقع في هذه البلاد البلما ـ وقصبة كوار[3].

سيذكر الإدريسي مدينتين أخريين في بلاد الزغاوة: سغاوة وشامة[4]. ولا يقول لنا شيئاً عن سغاوة التي تبقى مجهولة تماماً بالنسبة لنا. وشامة، حسبما يقول، مدينة صغيرة، وتحول الجزء الأكبر من سكانها الذين هم في بؤس شديد

---

(1) منان، مانان، ملان، يحدد الإدريسي موقع هذه المدينة على 26 يوماً غرب كوكو/ جاو، انظر نزهة ص12/ 15. ويوقعها ابن سعيد شمال غرب نجيمي، انظر بسط الأرض، ص28. حول ذكر هذه المدينة في القرون الوسطى، انظر J.M.Couq، Recueil (index). وLavtzion Hopkins، Corpus (index). وانظر كذلك H.R. Palmer، Sudanese Memoirs، ج2، ص12 ـ 13، وج3، ص39 ورقم 4 والخرائط، I، ص61 ـ II، ص119. وR. Mauny، Tableau Geographique، ص147، يرفض تأكيد تحديدها.

(2) يحمل النص «بيوتهم جصوص كلها وكذلك قصر ملكهم». وكلمة جصوص لا يمكن أن تكون جمع جص (جبس) أو جص (الأرض الصلبة الجافة) ليست مشمولة في القواميس. ونعتقد مع كل من Levtzion-Hopkins، Corpus، رقم 11، ص398 ـ 399، وJ.M.Cuoq، Recueil، ص78. أنه يجب قراءتها خصوص إحدى صيغ الجمع لخص/ كوخ من القصب. نذكر أنه قبل هذا بقرن كتب اليعقوبي انظر أعلاه حول الزغاوة. «منازلهم أخصاص القصب».

(3) يكتب ياقوت «مدائن البلما وقصبة بلاد كوار». يبدو لنا أنه لا يمكن فهم قصبة كاسم عام، قصبة = قلعة. لا بد وأن الأمر يتعلق بالقصبة/ إحدى خمس مدن في كوار ذكرها الإدريسي، ص39 ـ 40/ 45 ـ 46 والتي حددها كل من T. Lewicki وR. Mauny مع جيبسي وهي بلدة واقعة على حوالى مائة كيلومتر جنوب سجدن. انظر بأعلاه، ص136 رقم 1.

(4) نزهة، ص33 ـ 34/ 40.

إلى كوكو/ جاو على مسافة ست عشرة مرحلة فقط، ويتغذى الناس في شامة بالحليب والتمور واللحوم الجافة خاصة لحوم الثعابين. ويحدد الإدريسي موقع شامة على مسافة تسعة أيام من أزقار الذين، من المحتمل، أنهم من سكان تاسيلي[1]. ويعتقد T. Lewicki، بالاعتماد على المسافات المحسوبة من الإدريسي وربما على التشابه في الأسماء، أن شامة هي تن شمان في شمال أغاديس[2].

بينما كان المهلبي، في القرن العاشر، يقدر تحول الزغاوة إلى الإسلام بالسطحي جداً، كان هذا التحول كاملاً[3] في القرن الثالث عشر حسب ابن سعيد. ويبدو أن ابن سعيد يتحدث هنا عن الزغاوة في العاصمة تاجوا[4]، فالزغاوة/ تبو تبستي لم يتحولوا للإسلام إلا في القرن الخامس عشر، وأما تبو الكفرة[5] فقد بقوا أرواحيين حتى القرن الثامن عشر[6]، وبقي تبو بوركو وثنيين حتى سنة 1797ف[7]. إن تحول الزغاوة الجزئي إلى الإسلام منذ القرن التاسع،

(1) المرجع أعلاه، ص36/ 42. انظر أدناه، ص491 ـ 498.

(2) Etudes Maghre'bines, II, p.74. Tin Saman n'est pas mentionne'e sur notre carte 1/ 1000 000. R. Mauny, Tableau Geographique, p.147, Compte S'ma au nombre des villes non identifie'es.

(3) بسط الأرض، ص29 ـ 30. وكذلك ابن خلدون، البربر، ج2، ص109.

(4) مدينة لم يتم التعرف عليها. الإدريسي، ص13، 40 ـ 41، 43/ 15، 47 ـ 48، 50 يحدد موقعها على مسافة ثلاثة عشر يوماً من منان في بلاد تاجووين التي تحد النوبة ومجاورة للواحات، مع الواحة المهجورة شبرو في الجنوب والتي يعتقد إمكانية تحديدها بالكفرة. انظر أدناه ص505 ـ 510.

(5) في القرن السادس عشر سمى ليون الأفريقي، II، ص457 الزغاوة/تبو الكفرة بردوا. J. chapelle الذي يرفض الخلط لدى المؤلفين العرب ـ باستثناء الإدريسي ـ بين الزغاوة والبربر، يعتبر أن بردوا هؤلاء أصلهم من برداي، وهي بلدة رئيسية في تبستي. انظر Les Nomades Noirs، ص9، 46، 54، 368 ـ خريطة توزيع قبائل التبو حسب ليون، ص35.

(6) R. Forbes, Across the Libyan Desert, p.100; J. Chapelle, op. Cit, p.49; R. Mauny, Tableau Geographique, pp.445,523.

(7) F. Hornemann, Journal, p.112. Les Zagha' wa de la Savane Orientale furent islamise's au XIV siecle, Les arabes s'y etant repandus a La Conquete de La Nubie en 1316, cf. R. Mauny, Tableau Geographique, p.525.

وهو الزمن الذي كتب فيه اليعقوبي، كان له أثر محدود على الرقيق فقد كان من الشائع أن يأخذ مسلمون مسلمين آخرين رقيقاً[1]، خاصة في المناطق التي تعنينا كما تدل عليه الشكوى التي بعث بها ملك بورنو أبو عمر عثمان إلى السلطان برقوق سنة 794هـ/[2] 92 ـ 1391ف، وقد كان الرقيق من نساء بورنو الجميلات وكذلك من المخصيين مرغوباً جداً[3].

كانت القبيلة الثانية التي تزود زويلة برقيقها هي الميريين القادمين من مير أو ميرا. ويؤكد T. Lewicki أن الميريين هم الميرا، الذين يشكلون حالياً أحد بطون الزغاوة في وداي والذين دُرسوا من قبل Marie-Jose'e Tubiana، وهم يستوطنون جبل مير في شمال وداي حيث كانوا يحتلون موقع السلطة في القرن السابع عشر[4]. وهذا ما يؤكد رأي Paul Borchardt الذي جاء به سنة 1924ف[5]. أما عن القبيلة الثالثة فهي الموريون وهي تثير في الذهن مملكة مرو التي كانت تابعة لكوكو[6]. ولا يمكن أن يتعلق الأمر هنا ـ بكل وضوح ـ بامبراطورية السنغال في كوكو ـ جاو الواقعة بعيداً إلى الغرب. إن الخلط بين حروف ك،ق،ج،غ يجعلنا نفكر في العديد من الممالك السودانية؛ كَوكَو، كُوكُو، كوغا، وكوكا، وكوكيا، وجوجيا، وجوجو والتي لم يتم التعرف[7]

---

(1) خاصة غانا، انظر الزهري، ص337. انظر كذلك A.G.B وH.J.Fisher. وR. Brunschvig، موسوعة الإسلام، انظر (عبد)، ص32b.

(2) القلقشندي، VIII، ص116. والعمري، ص41 ـ 42.

(3) ابن بطوطة، IV، ص441 ـ 442.

(4) T. Lewicki, F.O 1961, 1/2 pp. 329-331; Compte rendu de M.J. Tubiana, un rite de Vie. La sacrifice d'une bete pleine chez Les Zaghawa Kobe'du Ouaddai, in Journal de psychologie normale et pathologique, 3, 1960, pp.291-310; Le meme Etudes Magrebines, II, p.45.

(5) Die Grossen ost-west-Karawanenstrassen, p.223b.

(6) اليعقوبي، تاريخ، 1، ص194.

(7) V.M. Delafosse, Haut-Senegal, index; J.M. Cuoq, Recueil, index; Levtzion and Hopkins, Corpus, index.

عليها وتحديدها بعد. ولا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بواحدة من اثنتين ذكرهما الإدريسي كغا ـ كوغا، ومملكة كانم الواقعة على مسافة شهر من دنقلة، مدينة النوبة[1]. إن كوغا تتفق في موقعها مع مملكة جوجا التي ذكر ليون الأفريقي أنها تلامس بورنو في الغرب وتمتد شرقاً حتى مملكة النوبة[2]. ويلاحظ Tadeusz Lewicki أن كوكو ـ كوجو هو اسم الوداي عند التبو، وعليه يجب البحث هناك عن قبيلة المرا[3] التي يحدد Gustav Nachtigal موقعها في جنوب هذه المنطقة[4] وهو ما يمكننا من تدقيق أكثر.

يتضح مما تقدم أن زويلة قد حولت أقواماً كثيرين إلى أرقاء سواء بالغارات أو بالشراء. وكان الإقليم الذي تتزود منه يمتد من كوار، على بعد بضعة أيام فقط من فزان، حتى غرب بحيرة تشاد من جانب، وحتى كامل وداي وإلى حدود النوبة من جانب آخر. إن هذه الأقاليم القريبة من بعضها البعض والمسكونة من عرقيات متقاربة أصولاً كانت لقرون مصدر العبيد للساحل وهو ما كان يعود بأرباح كبيرة على الصحراء الليبية. ولم تكن زويلة كما وصفها لنا اليعقوبي في القرن التاسع قد بلغت بعد أوج ثرائها.

من المؤسف أن الأصطخري لم يزر المغرب. إن وصفه لأفريقيا الشمالية والصحراء لم يكن نتيجة معايشة، ولا يظهر فيه الثراء في التفاصيل والتدقيق الذي نلاحظه في الجزء من مؤلفه الذي كرسه للشرق. ويتلخص ما قاله عن جنوب المغرب في بعض كلمات: الرمل الذي يمتد حتى الأطلسي ثم حتى سجلماسة وزويلة وإلى واحات مصر[5]. وزويلة، التي يوقعها الأصطخري إلى

---

(1) نزهة، ص10/ 11 ـ 12. كوجا الأخرى واقعة على نهر النيجر.

(2) Description de L'Afrique, II, pp.481-483.

(3) In F.o. III, 1961, 1/2 pp. 327-328; Compte-rendu de L.E Kubbel et V.V Matveev, Sources Antiques et Medievales a l'ethnographie et a L'histoire de Peuples de L'Afrique-au sud Sahara, Mouscou-Leningrad, 1960,398p.

(4) Sahara and Sudan, IV, P.156.

(5) المسالك، I,B,G,A، ص37 ـ Ms. Moller، ص19.

الجنوب بين برقة والقيروان[1]، تقع على حدود المغرب[2] وهي مدينة متوسطة تتبعها منطقة شاسعة تتصل بأرض السودان. ويتحدث الأصطخري كذلك عن الرق. هناك بين العبيد السود الذين يباعون[3] في بلدان المسلمين من هم ليسوا من النوبة، ولا من الزنج، وليسوا أحباشاً ولا من الباجة وهم يكونون عرقاً مختلفاً أكثر سواداً وأكثر نقاء من الآخرين، ويمتد بلدهم في صحراء بلا ماء حتى الأطلسي. ويمر أغلب العبيد السود بزويلة ليصلوا إلى الساحل الشرقي للمغرب[4]. وهكذا كما يؤكده اليعقوبي كان الناس من أرض زويلة يتزودون بالعبيد من غرب النوبة. بالرغم من ذلك، لم تعد تجارة الرقيق الأسود مصدر الثراء الوحيد لسكان زويلة. عند حديثه عن منجم الذهب السوداني ـ الذي لا يحدده ـ يقول الأصطخري إنه لا يوجد منجم آخر يماثلة في وفرة الذهب ونقائه، ويقول بوقوعه بين زويلة وسجلماسة[5]. هكذا في وصف مختصر، ذُكرت معاً الحاضرتان التجاريتان الكبيرتان في الصحراء وكلاهما خارجيتان. لم يعد نشاط أهل زويلة يقتصر الآن على كانم، ولكنه يمتد أبعد إلى الغرب، ما بعد جاو، وكان يهدف للحصول على احتكار بضاعة صحراوية أخرى للصحراء الشرقية، الذهب. وهو ما سيُؤكد لنا.

لم تتوقف زويلة عن التطور والنمو. ففي نهاية القرن العاشر أصبحت مدينة كبيرة على حدود صحراء السودان. في هذا البلد وجواره كان يعيش العديد من البربر في الصحراء/ بيابان، وكان العرب يعيشون في البادية. كانت هناك الحيوانات والكثير من الذهب، كان العرب أغنياء بالحيوانات والبربر أغنياء بالذهب[6]. وقد

---

(1) Carte in Ms Moller, encart, p.18-19.

(2) زويلة على مسيرة شهر من القيروان، B.G.A، I، ص46 ـ Ms Moller، ص21. المسافة بين زويلة والقيروان بأقصر الطرق 1300كم، وهي التي تعبر الحمادة.

(3) الذين يباعون B.G.A.I.P.40. «الذين ينقلون نحو»، Ms. Moller, p.21.

(4) B.G.A.I.P. 44.

(5) B.G.A.I.P. 39-Ms Moller, p.20.

(6) حدود العالم، ص153. وF. Steingass في قاموسه الفارسي ـ الإنجليزي يقول إن بيابان =

تواصل التغلغل العربي ولكن التجارة بقيت بين أيدي البربر الأباضيين. في هذه المرة ذكر وجود الذهب بوضوح في زويلة، وكان البربر هم الذين يحصلون عليه بعد أسفار طويلة مؤلمة، ويقومون في نفس الوقت بطبع المناطق التي يعبرونها بالطابع الأباضي[1].

كان ابن حوقل، الذي يدين بالكثير للأصطخري، باستثناء ما يتعلق بالمغرب الذي وصفه بكثير من التفاصيل، أكثر وضوحاً فيما يتعلق بزويلة: كانت الأسرة الأباضية، بنو خطاب في ذلك الوقت في السلطة، وكان السيد، في نهاية القرن العاشر، يسمى أبو عبد الله مبارك بن عيسى بن الخطاب معترفاً بسلطته في المناطق القريبة والبعيدة وينتمي إلى رهط مزليكش. وبنو خطاب نبلاء من قبيلة مزاتة وقد أعطوا هذه القبيلة[2] ملوكها. يمكننا أن نرى في الوضع الذي شرحه ابن حوقل نتيجة توغل مزاتة نحو الجنوب الذي ذكره اليعقوبي. وقد وضع T. Lewicki، الذي درس قائمة القبائل البربرية التي أعدها ابن حوقل، بطوناً من هوارة[3] في قبيلة مزاتة. وهذا ما يبدو صحيحاً لأن الإدريسي قال لاحقاً إن زويلة أسست سنة 306هـ ـ (19ـ 918)ف (!)[4] من قبل

= وبادية كلمة مأخوذة من العربية وهي مترادفة وتعني صحراء. يبدو لنا أن ترجمة V. Minorsky صحيحة. وهي أن كلمة بادية عند الجغرافيين العرب تعني أرض تنقل وعبور حيث تتوافر إمكانات الحياة، بعكس البرية والصحراء التي تمثل العدم، وعقبة بالكاد يمكن عبورها، والمفازة تعني عزلة كاملة تتكون من سهول بدون نهاية وأجراف وجبال صعبة. انظر A. Miquel، Geographie, III, p.42,72-87.

(1) بالإضافة إلى تعدد ذكر الجغرافيين العرب للوجود الأباضي في القرون الوسطى، هناك برهان قوي للتأثير الأباضي في العمارة السودانية، خاصة غياب المنارة في مساجد بلاد الهاوسا والفلاني. وبالرغم من أن الفولاني مالكيين والمالكية تحدد بشكل صارم إجراءات الخطبة، إلا أنهم نسوا حتى كلمة المنبر. انظر Sur La diffusion, J. Schacht، ص15 ـ 21 «وكذلك حول تأثير المنارة المزابية على منارة الهاوسا والكندرية، ومنارة جربة ذات السلالم على منارة الفولاني».

(2) سورة الأرض، ص106/ 104.

(3) Repartition, pp. 342-343; Traits de Histoire, p.311.

(4) نزهة، ص37 ـ 38/ 44. انظر أدناه، ص371.

عبد الله بن الخطاب الهواري لتكون مقراً له ولأسرته، كما يمكننا أن نقرأ عند ابن خلدون أن زويلة حكمت من قبل ملوك ينتمون إلى أسرة بني خطاب[1] الهوارية. من المستحيل ـ في حدود معارفنا الحالية ـ أن نبرر من خلال النصوص التي في حوزتنا الوجود الغالب لهوارة في هذه المناطق. مع هذا، فمن المعروف أن الكثير من الثورات ضد السلطة المركزية التي شارك فيها البربر الأباضيون أدت إلى طرد عدد من قبائلهم نحو الجنوب والجنوب الغربي مدفوعة بعضها بالأخرى. هكذا دفعت هوارة الجرمنت أو من المرجح أنها استوعبتهم قبل أن تستقر في الجبال التي تحمل اسمهم، الهقار. ويمكننا أن نتصور أن الهواريين المغلوبين في الساحل توجهوا بعيداً في داخل البلاد مستفيدين من الانتصارات التي أحرزتها مزاتة على السكان المحليين الفزانة، ولا يذكر اليعقوبي الجرمنت. بعد سقوط أسرة بني خطاب بسبب حملة قراقوش، ربما توجهت فروع هوارة المستقرة في قلب فزان إلى الغرب ثم إلى الجنوب وتحولوا إلى طوارق في المناطق التي يقابلون فيها حالياً. لم يعد هناك اليوم وجود للهوارة في الصحراء الليبية، وكذلك مزاتة وحتى أسماء هذه القبائل لم تعد معروفة.

لا يصف ابن حوقل زويلة، كما لا يعطينا أي بيانات عن اقتصادها. ومع هذا فإن مجرد الإشارة إلى الطرق التي تلتقي فيها يكفي للتدليل على دور ملتقى طرق العبور للصحراء الذي كانت تلعبه هذه الحاضرة[2]. فقد كانت تنتهي إلى هناك الطرق القادمة من الشمال الشرقي ـ أجدابيا[3] ـ، والغرب ـ فزان ـ، والجنوب الغربي ـ غانا، بلاد الذهب و. م. ر. نده. ليس هناك اتفاق حول تحديد هذه المدينة الأخيرة التي توجد على طريق مصر إلى غانا[4]. فهي تقع في الآيير

(1) البربر، I، ص281.

(2) صورة الأرض ص92/ 90.

(3) لنذكر أن الأصطخري ذكر الطريق الشمال الغربي، طريق القيروان. وكذلك عند المقدسي، ص246 ـ نشر Ch. Pellat، ص64 ـ 65.

(4) انظر كذلك الهمداني، ص68. انظر أدناه، ص540.

حسب T. Lewicki [1]، وHenri Lhote [2]، و Raymond Mauny [3]. ويتجه اقتراح آخر إلى وضع م.ر. ندا أبعد كثيراً إلى الشرق، وهو من Barchardt Paul [4] وAndre Miquel [5]. وبالفعل، يوقع الإدريسي، بوضوح، م.ر.ندا في جنوب غرب الواحات في بلاد ش.برو/ ص.برو = الكفرة، جنوب زلة، وكانت المدينة قائمة في زمنه وكثيرة السكان جداً، ولكنها لا تمثل إلا محطة مبيت ولا تستقبل إلا أعداداً قليلة من المسافرين بسبب نقص السلع والصناعة والتجارة[6]. ويضيف الإدريسي أن م.ر. ندا مجاورة لبلاد تاجوا، وهذا البلد يلامس النوبة والواحات[7]. وتؤكد خريطة الإدريسي موقع م.ر.ندا بعيداً في شمال شرق كوكو ما بعد كوار على خط عرض زويلة والواحات الداخلة، ما بين هذين المكانين على خط طول برقة. وتتفق هذه النقطة إلى حد كبير مع موقع واحة تازربو على مسافة 260 كيلومتراً من الكفرة. سيلاحظ ـ تأييداً لهذا التحديد ـ أن هناك رواية عند التبو تقول بأن الودَاي هي الوطن الأصل[8] للأريندا

(1) فيما يتعلق باسم واحة الكفرة، ص296، T. Lewicki يقرأ مرندا ويتعرف فيها على اسم قبيلة التبو أرندا أو آرنا التي تعيش حالياً جنوب تبستي، ولكنها كانت توجد قبل القرن الخامس عشر والسادس عشر في الآيير (انظر J. Chapelle، Index et Cart، Nomades Noirs، ص74). ويرى T. Lewicki في مرندا الكتابة العربية للتبو Ama Arinda = بلاد أرندا، انظر L'Etat Nord-africain de Tahert، ص525.

(2) بحوث حول تكدة، ص433 (خرائط)، 448 ـ 455. ويحدد H. Lhote مرندا مع مرندي الحالية، على مسافة 100كم جنوب غرب أغاديس (ص452 ـ 453). ومرندي نقطة مياه مهمة جداً وهي لا تستنفذ عملياً بالنسبة للقوافل خاصة للأزالي/ قوافل الملح القادمة من ملحات بلما، وهي تسمح بسقي 500 إلى 600 رأس يومياً (ص451).

(3) Tableau Geographique, p.139, R. Mauny, considere L'identification M. r.nda Marendet comme possible sans plus.

(4) P. Borchardt يوقع مرندا على الداخلة وهو ما يتناقض مع خريطة الإدريسي. انظر Die Grassen ost-west Karawanenestra ssen، ص221 ـ 222.

(5) Geographie, II, P.153 et n.5.

(6) نزهه، ص40 ـ 41/ 47 ـ 48 وخريطة (الإدريسي). حول منطقة مرندا، انظر، أدناه ص499 ـ 510.

(7) نزهة، ص13، 40 ـ 41 و43/ 15، 47 ـ 48، و50. انظر بعاليه ص465، رقم 4.

(8) J. Chapelle, Nomades Noirs, p.80.

مورموريا وأن الأريندا كانوا في القرن الخامس عشر في بحر الغزال[1]، حسبما يقال.

يبدو لنا أن هناك، في الواقع[2]، مدينتين باسم م.ر.ندا، إحداهما موضحة من قبل الإدريسي في إقليم برقة[3]، والأخرى محطة على طريق كوكو ـ زويلة (ابن حوقل)، وكذلك على طريق كوكو ـ مصر (الهمداني) والتي لا يمكن أن تكون إلا مرندي الحالية.

يذكر البكري، في النصف الأول من القرن الحادي عشر، الطرق من الشمال ومن الجنوب المؤدية إلى زويلة ويعطي بعض البيانات المهمة[4] عن المدينة. ويقول: إن زويلة مدينة تشبه أجدابيا وبها جامع كبير وحمام وعدة أسواق، كما بها بساتين نخل وزراعات في أرض مستوية ترويها الجمال. وفيها تلتقي القوافل القادمة من كل مكان، ومنها تنطلق متوجهة إلى مقاصدها. وزويلة «أول حد» للسودان ومنها يأتي العبيد الذين يباعون في أفريقية والجوار. وتتم المبادلات فيها عن طريق قطع قصيرة من القماش الأحمر.

إن استعمال القماش كوسيلة للدفع ليس أمراً مجهولاً في الصحراء. إذ يشير[5] البكري أن السكان في سيلا بساحل التكرور، إقليم من غانا، يستعملون نقوداً الذرة البيضاء، والملح، وحلقاً من النحاس، وقطعاً من قماش القطن

---

(1) نفس المرجع، ص129 ـ 130.

(2) إن هذا الحدث ليس غير عادي: برقة (إقليم برقة) ـ البركت (فزان) / طبرقة (تونس)، زويلة (فزان)/ زويلة (قرب المهدية)، العوينات (إقليم برقه)/ العوينات (غرب طرابلس خارج الأسوار/ ، العوينات = سرديلس (فزان)، ودان/ (فزان)/ ودان (موريتانيا)، والعديد من ك. وكا في السودان.

(3) توجد بلدة باسم مرادة واقعة على مسافة 225كم في غرب ـ شمال ـ غرب زلة. أطلالها (القديمة) لم تدرس بعد، انظر J.R. Pacho، Relation، ص384 ـ 385. وR. Rebuffat، Routes d'Egypte، ص17 ورقم 64.

(4) المسالك، ص10 ـ 11/ 27 ـ 29.

(5) نفس المرجع، ص173/ 325.

الرفيع/ وزر[1] يسمونها ش. كيات. وفي كانم كان يستعمل كنقد ـ حسب العمري[2] ـ قماش منسوج في المكان يسمى دندي، وكل قطعة قماش طولها عشرة أذرع، ويمكن الشراء ابتداء من ربع ذراع. كما يمكن التعامل على أساس غوري[3] (نوع من الصدف)، وزجاجيات وقطع من النحاس أو نقود فضية، وكان يرتبط كل هذا بأسعار القماش[4]. وعن طريق التجارة في الذهب والعبيد مع السودان ـ بالرغم من صعوبات السفر، كما يبرزه البكري ـ تبنت الصحراء الليبية بعض الممارسات السودانية. وقد ساهم الزواج المختلط ووجود العبيد في زويلة الذين يفترض بقاء كثير منهم فيها، في التأثير السوداني الذي نجده حتى اليوم في اللباس، والفلكلور والعادات المتبعة في احتفالات الزواج.

---

(1) الأزر، الأزار، أزارة وجمعها أزر، أزر، ازارات تعني قطعة من القماش تغطي من الوسط حتى الركب (قاموس Blachere). في الزمن الأول للإسلام كانت الكلمة تعني أي لباس أياً كان شكله. وفي المشرق، ومصر تعني البرقع النسائي الكبير، وفي المغرب كانت تعني قطعة عريضة من القماش تلبس فوق الثوب. الأزار هو كذلك نوع من السروال الذي يغطي العجز، وملابس الإحرام (A. Dozy، Vetements، انظر أزار، ص24 ـ 38). ويترجم De. Slane أزر البكري ب تنورة.

(2) L'Afrique moins L'Egypte, p.44.

(3) وهي عبارة عن قواقع من المحيط الهندي أدخلت في غانا بواسطة سجلماسة وأودغست. تتكون الواردات في كوغا، وهي مدينة واقعة على مسيرة خمسة عشر يوماً غرب، جنوب غرب غانا، من الملح والنحاس والودع والفربيان، انظر البكري، ص179/ 335. ويحصل تجار تكرور من توريد الأصداف على أرباح كبيرة، انظر العمري، ص75 ـ 76 ويبادلها تجار سجلماسة كالملح والنحاس مقابل الذهب، نفس المرجع ص201 ـ 202. وهي مستعملة كذلك في كوكو/ جاو ومالي، انظر ابن بطوطة، VI، ص435. ويلاحظ ليون الأفريقي، II، ص469 عدم استعمال نقود مضروبة في تومبكتو ولكن تستعمل قطع ذهب نقي وللمشتريات الصغيرة تستعمل أصداف «انظر كذلك R. Mauny، Tableau Geographique، ص373، 421. وانظر Monteil، البكري رحالة أفريقيا البيضاء والسوداء، ص113. وTh. Monod، حول كلمة سونغاي «كوروني» (والكلمات اليونانية والهندية المتقاربة». وكان استعمال الأصداف معروفاً في تومبكتو حتى وقت قريب مضى، انظر E. Cat، A travers Le desert، ص145. حول جمع الغوريات في جزر المالديف وزنجبار، وتصديرها وأسعارها من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، انظر Hogendorn and Johnson, The shell money of the Slave Trade.

(4) R. Mauny, Tableau Geographique, p.420: Le paiment au moyen d'etoffe existait encore au Sudan au XIX.

عاشت زويلة في سلام في القرن الحادي عشر، ولم تكن تخاف جيرانها. كانت واقعة في وسط الصحراء ولم تكن لها أسوار. لا يمكن أن تكون الملاحظة حول غياب الأسوار راجعة إلى غفلة من البكري لأنه أورد الطريقة البارعة التي يستعملها السكان لحراسة مدينتهم ولكن من الداخل. يدور الحارس المسؤول عن المراقبة حول المدينة بحيوان تربط إلى ظهره مجموعة من أفرع الأشجار يقوم بجرها على الأرض. وفي الصباح يقوم الحارس ورفاقه راكبين جمالاً ويدورون حول المكان. إذا لاحظوا آثاراً على الرمال يعملون على متابعة الهارب والإمساك به في أي اتجاه ذهب سواء كان لصاً أو عبداً أو جملاً[1].

امتدت شهرة زويلة بعيداً في القرن الحادي عشر إذ يقال أن الطبول في بلاد الآيير كانت تدق «زويلة، زويلة»[2].

لا نعرف ما إذا كانت كل الأخبار التي جمعها البكري حول زويلة ترجع إلى أستاذه الوراق ومن ثم فهي لا تمثل إلا النصف الثاني من القرن العاشر، أو أن الجغرافي أخذها من مصادر معاصرة له. مهما كان الحال، يبدو من قراءة الإدريسي أن زويلة لم تعان من الثورة التي انفجرت في إقليم برقة سنة 5 ــ 1004ف والتي من المحتمل خلالها قيام رئيسها أبي ركوة باحتلال جزء كبير من فزان[3]. ولا ننس أن ابن حماد هو الوحيد الذي أورد هذه الحادثة بينما تناول العديد من المؤرخين الوقائع الأخرى لهذه الثورة. ولم يذكر أي نص قيام قبائل

(1) ضحك صحراوي من أندهاشنا. فالبدو من العرب والطوارق والتبو قادرون تماماً بمجرد رؤية الآثار على الأرض، على تخمين عمر الجمل ونوعه (ذكر أو أنثى) وفي حالة الذكر معرفة ما إذا كان مخصياً، وإذا كانت أنثى معرفة إذا كانت عشرة، ومعرفة لحمه، ووزن وطبيعة حمله، ودرجة تعبه، وما قد يعاني منه الجمل من جراح، ومعرفة القبيلة التي تمكله. يمكننا أن نتساءل عما إذا لم يكن من الأسهل في حالة الجمل الهارب على الأقل، بناء سور حول المدينة. إن البدوي لا يتردد في قطع مسافات طويلة لأهداف تبدو لنا تافهة ولكنها تكون جزءاً من عالمه.

(2) البكري، ص183 ــ 343. في القرن الثالث عشر كرر ياقوت (انظر زويلة) معلومات البكري.

(3) انظر بعاليه، ص260 ــ 261.

الشمال ـ بنو قرة من سليم وكانوا قد تحالفوا مع لواتة ومزاتة وزناتة ـ بحرب ضد واحات الداخل. كما أننا نجهل كلياً الحقيقة الجغرافية لفزان عند ابن حماد.

إذا سلمنا بالوصف الذي أورده الإدريسي، فإن الوضع في زويلة لم يتغير بعد قرن من الهجرة الهلالية ومن استقرار بني سليم في إقليم برقة. صحيح أن الإدريسي عندما يتحدث عن منطقة برقة ـ أجدابيا ـ ودان ـ زلة ـ زويلة، يدعي أن العرب يعبرونها في كل الاتجاهات ويلحقون الأذى والضرر بالسكان بقدر ما يستطيعون. ويبدو هذا الانتقاد ـ كما قلنا ـ مجرد تكرار للملاحظة التي قالها هذا الجغرافي عن منطقة طرابلس ـ سرت، وهي ملاحظة لها ما يبررها جزئياً ولكن ربما اعتقد الإدريسي أن عليه المبالغة من أجل إرضاء راعيه[1]. كيف لنا أن نشرح أن العرب يمكن أن يرهبوا منطقة يقول لنا الإدريسي نفسه عنها: إن البربر فيها كانوا يمنعون العرب من الاعتداء على أرضهم، وكانوا، بفضل قدرتهم على الحركة، يغيرون على العرب؟ كما أن هذا الإضرار من قبل العرب لا يتسق بسهولة مع الثراء الذي تحقق منه الإدريسي في كل واحة مأخوذة على حدة ومع كثافة استعمال الطرق التجارية المؤدية إليها.

من جهة أخرى، لم تكن للإدريسي إلا فكرة غامضة عن موقع زويلة. فقد حدد موقع زلة مرتين، على مسافة تسعة أيام من سرت، وهو صحيح (320كم)[2]. وفي نفس النصوص، ومرتين كذلك، يقدر تقديراً صحيحاً بعشرة أيام (400كم) المسافة الفاصلة بين زويلة وزلة[3]. ولكنه بينما يوقع زويلة جنوب غرب زلة، وهو مصيب، فإنه يقدر المسافة بين زويلة وسويقة ابن مثكود (800كم) بست عشرة مرحلة ـ أي بمتوسط يومي يساوي خمسين كيلو متراً وهو متوسط مرتفع جداً بسبب كثرة البلدات التي تُعبر ـ ويقدر أن المسافة من زويلة

(1) انظر بعاليه، ص296 ـ 297.
(2) نزهه، ص41، 133/ 49، 158.
(3) نفس المرجع، ص42/ 49.

إلى سرت (680كم) تتطلب خمس مراحل[1]. كما سنلاحظ كذلك، أن المسافة من زلة إلى ودان (160كم) قدرت مرتين، تختلف إحداهما عن الأخرى، في مقطعين: ثمانية، وثلاثة أيام وأن المسافة ودان ـ سرت ـ (240كم) تستغرق خمسة أيام مثل زويلة ـ سرت[2]. إن الأخطاء على خريطة الإدريسي[3] صغيرة بالنسبة لزمنه لا تفسر أن الجغرافي قدر مسافة زويلة ـ سرت بخمس مراحل. وبالفعل، إذا فحصنا مواقع زويلة وودان وسرت يتضح لنا أن زويلة موقعة أكثر من اللازم نحو الشمال مثل أوجلة وزلة. فنسبة المسافة سرت ـ ودان إلى ودان ـ زويلة تساوي 1:2 بينما تساوي في الحقيقة 16:11. هذا لا يمنع أن زويلة موقعة توقيعاً صحيحاً جنوب ودان. إن التقدير الوارد في النص لعدد متساو من المراحل للوصول إلى سرت انطلاقاً من ودان أو زويلة لا يمكن أن يكمن إلا في خطأ من الناسخ. لقد ثبت الآن بالبرهان أن العمل الجغرافي للإدريسي بدأ برسم الخريطة ـ استناداً إلى رسوم رسامين أرسلهم إلى عين المكان روجر الثاني، ووضع عليها بداية عدداً قليلاً من الأماكن التي استخدمت كنقاط مرجعية لتحديد خطوط الطول وخطوط العرض ثم النقاط المعروفة بدرجة أقل الواقعة على نفس الخطوط أو بالقرب منها. وبعدها فقط بدأ كتابة التعليق، وقد اعتمد في هذا على مواد في وثائق الدولة، ووثائق المناطق المحكومة من قبل صقلية وربما منها طرابلس، والروايات الشفوية وتقارير الرحالة. وبما أن وفاة روجر كانت قد اقتربت فقد أسرع الإدريسي للانتهاء من مخطوطته لتقديمها لراعيه (روجر الثاني، ملك صقلية)[*] كما أعطاها لعدد من الناسخين لنقلها وهم، بكل تأكيد، لا يحرصون دائماً على العودة إلى الخريطة، وهذا قد يفسر التقديرات المختلفة لزلة ـ ودان (ثمانية وثلاثة أيام)، والتقدير المماثل (خمسة

---

(1) نفس المرجع، ص133/ 158.

(2) نفس المرجع، ص41 ـ 42، 132 ـ 133/ 49، 158.

(3) انظر الخريطة 4.

(*) إضافة من المترجم للتوضيح.

أيام) لسرت ـ ودان وسرت ـ زويلة[1]. بالعكس، سنلاحظ أن الأخطاء في الخريطة يمكن أن توضح النص وتمحو تناقضاته. إن وضع أوجلة وزلة وزويلة أبعد من اللازم نحو الشمال مقارنة ببرقة وأجدابيا وسرت يفسر أن الإدريسي حدد مواقع عرب الشمال الرحل في عمق الداخل مع حرصه على الحديث عن ثراء الواحات، بناء على ما قدمه له التجار من معلومات.

إن الإدريسي الذي لم يتحدث عن أي من غارات عقبة ولم يتناول الحملة التأديبية لابن الأشعث سنة 762ف، قال بأن زويلة بنيت من قبل عبد الله بن الخطاب الهواري سنة 306هـ/ 18 ـ 917ف[2] (بكل وضوح، لا يمكن أن يتعلق الأمر بتكوين الأسرة الهوارية ولا بتأسيس المدينة لأننا حتى لو أنكرنا غزوة عقبة الأولى ثم ملحمته الكوارية، يجب أن نأخذ في الاعتبار التفاصيل حول المدينة التي أوردها اليعقوبي في القرن التاسع). كانت زويلة مدينة صغيرة مزدهرة، ويضيف، ولكن بها عدداً من الأسواق. وبالفعل، فعبر زويلة يمكن الوصول إلى الجزء الأكبر من بلدان السودان، ويحضر التجار إليها البضائع التي يحتاجها السكان، وبساتين النخل فيها عديدة والتمور ممتازة. ويشرب فيها من مياه الآبار[3].

يجب إضافة أن ثراء زويلة لا يعود إلى تجارتها الذاتية فقط. فهي ملتقى مهم للطرق العابرة للصحراء، وتعاظمت مواردها من رسوم المرور المحصلة على القوافل التي تعبر إقليمها، وهكذا فإن شب كوار ذا الجودة والمشهور كان يصدر من جانب نحو مصر، ومن جانب آخر نحو ورقلة والمغرب الأقصى[4]. كانت هناك ثلاث طرق تؤدي من كوار نحو مصر؛ عبر العوينات والخارجة[5]،

---

(1) حول مراحل تأليف جغرافية الإدريسي، انظر T. Lewicki، A. propos de La genese، ص41 ـ 55، مع إحالة للمؤلفين الذين عالجوا هذا الموضوع.

(2) نزهة، ص37 ـ 38/ 44.

(3) نفس المرجع، ص133/ 158.

(4) نفس المرجع، ص39 ـ 40/ 46 ـ 47.

(5) نفس المرجع، ص22/ 27.

وعبر الكفرة ـ منطقة صبرو، ومن المرجح مرندا ـ ثم الداخلة أو سنترية[1] والساحل أو القاهرة، وعبر زلة ـ أوجلة ـ سنترية ـ سيوة. ولا بد أن هذه الطرق استعملت في نفس الوقت أو تنافست فيما بينها طبقاً للظروف وما يفضله الناقلون. ويبدو أن طريق زويلة هو الأكثر استعمالاً بسبب سهولته وكونه أفضل من حيث توافر نقاط المياه، وإلا لما بدا المؤلفون العرب مقلين وحذرين في تناولهم لجنوب إقليم برقة. أما عن الطريق كوار ـ ورقلة فكان يتجه ـ بكل تأكيد ـ نحو الشمال عبر زويلة حتى جبل نفوسة قبل أن يأخذ الطريق غرباً من أجل قصر السفر على الأراض الأباضية. ومن المحتمل كذلك أن تجار نفوسة وزويلة كانوا يواصلون الرحلة بدلاً عن هذه القوافل، مضيفين هكذا إلى المنطقة مصدراً مهماً للدخل.

لم يكن الشب هو المنتج الوحيد الذي كان يعبر زويلة في القرن الثاني عشر. نعرف، فضلاً عن ذلك، أن القمح كان يستورد من ورقلة إلى بلاد الزغاوة الذين لم يكونوا يزرعون إلا الذرة البيضاء[2] فقط. وإذا كان الزغاوة ـ كما يمكن لنا افتراضه ـ يستوطنون بحر الغزال ووداي ودارفور فإن العبور[3] كان يتم كذلك من خلال زويلة وكوار.

يزودنا Benjamin de Tudele بمعلومة مهمة: كانت تصل إلى زويلة قوافل من حلوان وهي بلدة يعيش فيها ثلاثمائة يهودي واقعة على مسافة اثني عشر يوماً من أسوان. وتحضر هذه القوافل إلى زويلة الحديد والنحاس وتشتري منها الذهب والأحجار الكريمة[4]. إن هذا المقطع القصير هو الوحيد الذي

---

(1) إن الطريق المباشر سترية ـ كوار مبين بوضوح من قبل الإدريسي، انظر ص45/ 52.

(2) نفس المرجع، ص35 ـ 36/ 41.

(3) حول الطرق انطلاقاً من ورقلة، انظر T. Lewicki، Etudes Maghrebines، (vers Le kwar et Le zaghoa، ص59 ـ 62).

(4) In Levtzion and Hopkins, corpus, pp.135-136; Benjamin qui rentra de voyage en 1172 avait vlsite' L'Egypte mais non le sud Libyen; nous ignórons sur quelles sources il se fonde ici.

يتحدث عن عبور الأحجار الكريمة من زويلة مضيفاً إلى ثرائها، ويذكر تجارة يهودية في جنوب ليبيا. عليه، لم تكن زويلة محطة أساسية للتجارة الأباضية فقط ولكنها تسهل ـ زيادة على ذلك ـ التعاون بين أقليتين؛ اليهودية والأباضية[1]، وهو تعاون كان قائماً في مزاب الجزائرية حتى بضع سنوات خلت.

عندما استولى قراقوش، في نهاية القرن الثاني عشر، على زويلة وقتل الملك تحت التعذيب، كانت تلك نهاية قوة الأسرة الأباضية في البلاد حيث أصبحت الخطبة منذ ذلك الحين فصاعداً باسم صلاح الدين[2]. ولكن هذا لم يضع حداً ـ كما يبدو ـ للنشاط التجاري لزويلة، حتى وإن لم تستعد أبداً سطوعها الماضي. في القرن الثالث عشر، كان ابن سعيد على بينة بالحوادث التي جرت في الصحراء الليبية إذ يورد أن ودان وفزان كانتا تحت سلطة ملك كانم، ويقول بأن زويلة هي القاعدة ـ العاصمة، المدينة الرئيسية في فزان[3]. ومن المرجح أن تراغن التي تجعل منها الرواية مقراً للحكومة الكانمية في ليبيا لم تلعب إلا دوراً سياسياً، بينما بقي النشاط التجاري من نصيب زويلة. لم يكن احتلال زويلة من قبل قراقوش هو السبب الأساسي وراء تحويلها إلى مجرد قرية صغيرة، وإنما كان انعدام الأمن بسبب حروب قراقوش وبني غانية ضد الموحدين متبوعة بغارات يحيى. لقد جعلت هذه الحروب العرب مدركين لقوتهم، وأصبح الملوك الفزانيون يدفعون لهم أتاوات[4]. وبعد الصراعات التي أدمت القرن السادس عشر، أصبحت مرزق السوق الليبي الكبير لتجارة الرقيق[5].

---

(1) حول هذا التعاون، انظر مقال Reflexion sur La symbiose judeo-Ibaditen en Afrique du Nord, P. shinnar.

(2) انظر بعاليه. ص334.

(3) بسط الأرض، ص61 منقولاً من قبل أبي الفدا، تقويم، ص،12، وص146 ـ 147. ليست لدينا أخبار أخرى حول القرن الثالث عشر: ياقوت، انظر زويلة، والقزويني، ص94 ينقل عن البكري.

(4) انظر بعاليه، ص371.

(5) انظر بعاليه، ص373.

سبها:

تتكون سبها، مدينة فزان[1] الرئيسية حالياً، من ثلاث تجمعات، الجديد والقرضة والحجرة، ويعود ثراؤها إلى قرب الخزان المائي الجوفي. وتحتل سبها موقعاً مركزياً مثالياً على المحاور شمال جنوب القادمة من الساحل مروراً بالجفرة أو بالحمادة، وعلى الطريق غرب ـ شرق من غات نحو مصر. إن السيطرة على سبها تعني السيطرة على فزان[2]. ومن ثم فمن المدهش أن جغرافياً واحداً ذكرها. ويحدد البكري موقعها على مسافة خمسة أيام من زويلة (150كم)، وخمسة أيام من هون (240كم). ويقول بأنها مدينة كبيرة بها مسجد وأسواق[3]. ولم تردنا بعد ذلك أي معلومات عنها خلال القرون الوسطى. ويبدو أن الشريف الذي كان يحكم فزان، في القرن السادس عشر، كان يقيم على السواء في مرزق وسبها[4].

جرمة وفزان[5]:

لأننا نجهل الحقيقة الجغرافية المتفقة مع كلمة «فزان» بالنسبة للمؤرخين والجغرافيين العرب، فإننا لن نعتبر هنا فزان إلا وادي الآجال الغربي ومنطقة جرمة المرتبط بها عادة فزان حتى القرن الثاني عشر. وإذا كان من المؤكد أن

---

(1) فضل الإيطاليون سبها على مرزق، مقر القائمقامية التركية، بسبب الظروف الصحية الأحسن في سبها، انظر Fezzane Oasi di Ghat, E. Scarin ، ص621. وقد عرفت مرزق دائماً بمرض الحمى. عن سبها، انظر G.F. Lyon، Narrative، ص85 ـ 86. وG. Nachtigal، ج1، ص66 ـ 67. وR.S.G.I، Index وE. Vietta، Geheimnis volles Libyen، ص39 ـ 40. وJ. despois، Geographie humaine، ص95، 202، 221 ـ 222، 245. والدناصري، جغرافية فزان، ص261 ـ 263، لوحات، ص264، 341 ـ 350. وB. Tadema-Sporry، Gelukkig Libie، ص224 ـ 240.

(2) انظر، حملة الجنرال لوكلير، الذي أقام فيها حامية في سنة 1943ف.

(3) مسالك، ص11/ 29.

(4) انظر بعاليه، ص374.

(5) على خريطة الإدريسي، فزان وجرمة موقعة إلى الجنوب، ولكن أكثر من اللازم نحو الغرب من غدامس. وموقعتان على خط طول توزر، وفزان موقعة جنوب جرمة.

جرمة تتفق مع جرمة القديمة فإنه لا يمكن القبول بشكل مطلق بالمعادلة فزان = فازانيا Phazania. ففازانيا القديمة كانت تشمل بالإضافة إلى جرمة تخوم تاسيلي شاملة غات، ومدينة غدامس ـ سيداموس. وقد استحق الجنرال كورنيليوس بالبوس Gornelius Balbus احتفالات النصر عند عودته إلى روما بسبب احتلاله فازانيا سنة 19ق.م. من المؤسف أن أسماء المدن التي كانت مرفوعة في الموكب والتي احتلها لم يتم التعرف عليها. وقد استرق الجرمنت الأثيوبيين سكان الكهوف وبسطوا سيطرتهم حتى السودان، كما لم يترددوا ـ كذلك ـ في مهاجمة ساحل المتوسط. كانوا ـ بكل تأكيد ـ وسطاء منذ ذلك الوقت بين الصحراء والتجارة البونية، واستمروا في لعب هذا الدور تحت حكم الرومان. وبالرغم من أنه يمكننا تحديد أن جرمة بلغت أوجها بين 100ف و450ف فإننا لا نستطيع تحديد متى هُجرت، كما بقي مصير الجرمنت غامضاً[1] بالرغم من كل الاقتراحات التي قدمت حتى اليوم حول هذا الموضوع. إن كل ما يمكننا افتراضه في هذا المقام هو أن الحرب التي كانت بين مزاتة ودان والفزانة، الذين لا يمكن أن يكونوا إلا الجرمنت، انتهت لصالح الأولين. وقاد نزوح بربر إقليم برقة وخليج سرت من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي قبائل هوارة نحو وادي الآجال (حيث احتووا أو طردوا الجرمنت؟) قبل استقرارهم في الهقار.

يجب ألا نهمل أن نشمل في فزان المؤلفين العرب، وادي الحكمة

(1) Dessau, Pwk, s.v.v. Garama, Garamantes; S. Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, I.p.59, IV, pp. 139-140, V,pp.7,10; A. Berthelot, L'Afrique Saharienne, pp.98, 275-376; S. Sergi Le Reliquie dei Garamanti, pp. 1-12; M. Rachet, Rome et Les Berberes, index, S.V.V. Garama, Garamantes, Phazanii, Cornelius Balbus; M.S. Ayyub, Garma (en arab, Sur Les Fouilles de Garama et Garma)، ص204 ـ 155، (حول جرمة من القرن الثاني إلى القرن الخامس) وجرمة في عصر ازدهارها، ونفس المؤلف، حملة كورنيليوس بالبوس على فزان، ص155 ـ 244، و7 خريطة. C.M. Daniels, The Garamantes of Fezzan, p.261-287 2 Cartes, 10 Plans, 42pl: R.G Goodchild, the Roads of Libya, pp.155-177.

ومنطقة القطرون ـ تجرهي حيث من المرجح وجود القصور التي احتلها عقبة خلال غارته على كوار. ونستطيع أن نفترض أن هذه الواحات كانت، في زمن حملة عقبة، تحت سلطة الجرمنت[1]. وقد سميت هذه الناحية، التي لم يسمها المؤلفون العرب أبداً باسمها، زيلة أو زيلان في حوليات كانم[2].

لا يذكر المؤرخون والجغرافيون العرب جرمة إلا نادراً. ففي القرن التاسع أورد لنا ابن عبد الحكم تفاصيل الفتح، أو من الأدق القول بأنه روى لنا الغارة العربية الأولى التي فاجأت المنطقة[3]. فالملك الذي أهانه عقبة لا يمكن أن يكون إلا ملك الجرمنت ولكن هؤلاء لم يسموا من قبل المؤرخين. مع ذلك، بينما قال اليعقوبي، في القرن التاسع: إن القوم المسمون «فزان» هم أخلاط من الناس[4]، عرف القرن العاشر الجرمنت دون تحديد لموقعهم على وجه الدقة: فالمسعودي حصر الق. ر. مات. ن ـ ق. و. ماتي وكذلك ز. ويلات ـ د. ويلات والق. ر. مات ـ ع. ر. م. د. من الأقوام الأحباش الذين اتجهوا نحو الغرب[5]. ويشير المقدسي إلى أن أقوام السودان لم يكونوا يستعملون في تعاملاتهم التجارية الذهب ولا الفضة، وكان من بينهم الجرمنيون يستعملون الملح نقداً[6]. من الغالب أن ق. ر. منتي المقدسي هؤلاء هم الفزان الذين ذكرهم اليعقوبي. لا يذكر أي من الجغرافيين العرب ملاحة في فزان، بالرغم من وجود واحدة في وادي الآجال الغربي وملحها من نوعية متوسطة لأنه مخلوط بتربة حمراء[7]، وملاحات عديدة في رملة أوباري، تأكدنا أن إنتاجها كان من نوعية جيدة[8].

---

(1) انظر بعاليه، ص108، 122.

(2) J. Chapelle, Nomades Noirs, p.98; Diwan Salatin Barnu, pp.28, 67 et n.5 chez les tubu Zayla designe parfois le Fezzan tout emtier.

(3) انظر بعاليه، ص108، 119 ـ 120.

(4) البلدان، ص435 ـ 436/ 206.

(5) مروج، ج2، ص20 ورقم 2.

(6) تقاسيم، ص241 ـ 242 ـ نشر Ch. Pellat، ص54 ـ 57.

(7) H. Duveyrier, Les Touarge du Nord, p.68.

(8) V. aussi F.C. Thomas, The Dawwadah of the Fezzan, pp.198-199.

كانت جرمة ما تزال مدينة كبيرة في القرنين[1] الحادي عشر والثاني عشر. ويوقع الإدريسي جرمة في فزان وعلى مسافة أقل من يوم من تساوة[2] التي يسميها السود «جرمة الصغيرة» وهو ما يذكر بابن عبد الحكم: «جرمة، عاصمة فزان العظيمة»، وهذا يبرهن على أن جرمة احتفظت حتى القرن الثاني عشر ببعض الأهمية. وكانت هاتان المدينتان متساويتين في الحجم والسكان. وكان للسكان نخيل كما كانوا يزرعون الذرة البيضاء والشعير. ويقول لنا الإدريسي، إنهم كانوا يروون حقولهم بواسطة آلة يسمونها أنجفه/لحفه/انحقه، وتسمى هذه الآلة ببلاد المغرب الخطارة. وتفيد الخطارة حالياً الآبار البدائية المزودة برقاص طويل بثقل في أحد طرفيه، وما زالت الخطارة مستعملة في فزان في الزراعات الصغيرة، في تساوة من بين مناطق أخرى. وسنلاحظ أن كلمة «خطارة» مستعملة خاصة في فزان وسوف[3].

من الناحية الجغرافية، لن نسمع الحديث عن جرمة، بعد ذلك، إلا مرة واحدة: سيشير ياقوت إلى أن جرمة اسم لقصبة/حصن/مدينة/قصر في ناحية فزان[4]. ومنذ هذا العصر غيرت جرمة موقعها مرات عديدة ولكن دائماً داخل قطر معين، وما زال يمكن، اليوم، رؤية هذه المواقع.

إن المؤشرات التي أوردها الجغرافيون عن فزان غامضة للغاية. ابن حوقل، الذي لا يعرف جرمة، يوقع فزان على مسافة خمسة عشر يوماً من زويلة[5]. إن مائتين وأربعين كيلومتراً فقط تفصل زويلة عن جرمة ولا تبرر

---

(1) أخوان الصفا، في J.M. Cuoq، Recueil، ص67. والإدريسي، ص35/ 41 ـ 42.

(2) تساوة على ثمانين كيلومتراً من جرمة، ليست واقعة في وادي الآجال ولكن في وادي عتبة على الحافة الجنوبية لحمادة مرزق.

(3) إنه الشادوف المصري والغرغاز في جورارة، انظر J. Despois، موسوعة الإسلام، انظر (بئر). الكلمات نجفه، نحقه غير معروفة لنا. نعرف انتجف = استخرج، أفرغ، منجوف = واسع (ثقب، إناء).

(4) معجم، انظر جرمة.

(5) صورة الأرض، ص92/ 90.

طبيعة الأرض التباطؤ إلى ستة عشر كيلومتراً في اليوم. ومع ذلك فإن ابن حوقل يوقع فزان على خط طول طرابلس على خريطته[1]. ويمكن أن يكون هذا الجغرافي قد استفاد من مصدرين: أحدهما، معرفته بجرمة ودورها كعاصمة، استعمله ليضع فزان على الخريطة، والآخر تأسيساً على المسافة التي تفصل زويلة من الطرف الغربي لبلاد الجرمنت، أي نواحي غات، والواقع على مسافة ستمائة وأربعين أو خمسمائة وعشرين كيلومتراً من زويلة حسبما يتم التوجه، بعد اتباع وادي عتبة ووادي برجوج، نحو سردليس ـ العوينات[2] للسير على طول وادي تانيزوفت أو عبور الهضبة مباشرة نحو جبل أكاكوس. يتطلب هذان المساران خمسة عشر يوماً بمتوسط يومي معقول قدره 43 و35 كيلو متراً على التوالي[3].

يشير ابن حوقل في مقطع آخر، أن بربراً يسكنون في صحاري سجلماسة وأودغست، وكذلك قرب نقاط المياه في مناطق لمطة وتادمكة وفزان، كانوا يتركون قطعانهم ترعى بحرية، ولم يسبق لهم قط أن رأوا القمح أو الشعير، ويجهلون الطعام المعد، ويتغذون بالحليب واللحم[4]. وهم يغطون أجسامهم بقماش وأغلبهم بؤساء[5]. لا يمكن لهذا الوصف أن يتسق مع الحضارة الجرمنتية التي لم تكن تجهل الزراعات، ولكنه قد ينطبق على كل البدو في الصحراء، وهم بؤساء في عيون الحضر. إن غياب الأطعمة المعدة لا يدهش. فالتبو، على سبيل المثال، يمكن أن يعيشوا سنة كاملة على الحليب والتمور.

(1) نفس المصدر، ملحق، ص66 ـ 67/ 60 ـ 61.

(2) العوينات هو الاسم العربي، سردليس الاسم باللغة التمحقية، وكلاهما يعني «عيون صغيرة». هذه الواحة واقعة على مسافة 130كم شمال غات. الوصف عند الدناصري، جغرافية فزان، ص410 ـ 411.

(3) قال لنا طوارق غات: إنهم يفضلون هذا الطريق الثاني حتى بجمال بأحمال خفيفة أو غير محملة، ويدخلون أحياناً دهان مرزق لتقصير المسافة.

(4) بما أنهم لا يعرفون الطعام، فلا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بلحم مشوي.

(5) صورة الأرض، ص84 ـ 80.

كما أن ترك الجمال تهيم خارج المنتجعات عادة عند طوارق تاسيلي والتبو، على الأقل عندما لا يكون المرعى بعيداً جداً. وإذا ما كان صاحب الحيوان في حاجة إليه فإنه يذهب لانتظاره عند الآبار ـ لا اعتبار للزمن ـ ولا بد في النهاية أن يأتي الجمل إلى الآبار.

يمكن أن تساعدنا قائمة ابن حوقل للقبائل البربرية على تحديد موقع هؤلاء البربر. فهو يذكر فيها أجر فزان، أو أجار فزان[1]. وبالفعل، يوجد في وادي عتبة مباشرة غرب تساوة واحة صغيرة تسمى أقار ـ أجار في موقع قديم جداً لبلدات تستقبل حتى اليوم منتجعات للطوارق[2]. ويبدو لنا أنه لا يمكن البحث عن بربر فزان كما وصفهم لنا ابن حوقل إلا هناك. إن وجود هؤلاء البربر على مسافة قصيرة من جرمة يمكننا من استنتاج أن الجرمنت كانوا في طريقهم للطرد أو للذوبان، في القرن العاشر.

كان هؤلاء البربر الفزانيون متأثرين بالأباضية منذ نهاية القرن الثامن. وتذكر، بالفعل، كتب الوقائع الأباضية عدة شخصيات، علماء خاصة، كانوا يدرسون هذه الديانة ويحملون التسمية «الفزاني»[3]، ولا تفيدنا النصوص حول بلداتهم الأصلية. ومن تحصيل الحاصل، القول بأن هؤلاء الفزانيين الأباضيين كانوا على علاقة مع جبل نفوسة وكانوا يستفيدون من التجارة الصحراوية سواء كمرافقين ـ حراس أو بتحصيل رسوم مرور عند نهاية الطريق الذي يعبر الحمادة. ولوحظت مهنة الدليل مصدراً لسكان جزء كبير من فزان وبلاد الزغاوة من قبل الإدريسي الذي تمثل بالنسبة له هذه النواحي صحاري متجاورة،

---

(1) نفس المرجع، ص106/ 104.

(2) توجد بلدة أخرى تسمى أجار. وهي واقعة في وادي الشاطىء على مسافة 120كم شمال غرب جرمة، خريطة عند E. Scarin، La Oasi del Fezzan، ص43.

(3) T. Lewicki, Repartition Geographique, p.314-342; Le meme, Ibaditica, I, Tasmitya, pp.94, 99-100، (خاصة ـ ص99، وفق الوسباني ـ كتب طبيب أباضي فزاني مقيم في السودان إلى زميل، أباضي هو كذلك، مقيم في البلاد طالباً منه علاجاً ضد مرض العيون).

وفضاءات موحشة يندر فيها الماء ومن اللازم التزود بالماء في كل محطة حيث يعمل السكان أدلاء[1].

عندما ضُمت الصحراء الليبية من قبل كانم، امتزج تاريخ فزان بتاريخ زويلة وودان. وغالباً في هذا الوقت أصبحت بلاد زيلة، التي كانت تعني فقط الوادي الجنوبي لفزان في البداية، تشمل كل فزان. لا يذكر الجغرافيون إلا زويلة وودان في عهد امبراطورية كانم. ولا شك أن كلاً من وادي الحكمة ووادي الآجال نعما بالسلام الذي فرض في كل أنحاء فزان لأن السلطة السودانية ما كانت لتسمح بأي اضطرابات على طرق المرور نحو الساحل، ولا بأي عقبات ومصاعب تواجه تجارتها مع الامبراطورية الحفصية[2]. في هذا الوقت بالتحديد وصف ياقوت فزان كولاية كبيرة بها الكثير من النخيل وتقع بين الفيوم وطرابلس وتسمى مدينتها زويلة السودان[3]. ونذكر بأن ياقوت يقول عن جرمة أنها قصبة ـ حصن ـ مدينة في منطقة فزان[4]. هكذا أصبحت فزان حينها تعني كل الصحراء الليبية. ويعد ياقوت فزان كولاية سودانية بالرغم من عدم تناوله بصراحة امبراطورية كانم، ويطلق العنان لنفسه للتعميم. ليس هناك في النصوص العربية والحوليات السودانية أي ذكر لامتداد كانم حتى الساحل[5]. ونعرف بفضل العبدري أن سرت وأجدابيا لم تكونا تحت سلطة كانم[6]، وكانت سرت تابعة للحفصيين، وبقي شمال إقليم برقة مضرياً.

لا يعني فزان عند ابن سعيد إلا الوديان الجنوبية فهو يقول إن بلاد فزان لها مدن أكثر من ودان[7]. والمدينة الرئيسية لفزان الكانمية، بالنسبة له أيضاً،

---

(1) نزهة، ص32 ـ 33/39.

(2) حسب مدونة كانم، كان لدى الامبراطورية ثلاثين ألف فارس في النصف الأول من القرن الثالث عشر، انظر H. Barth، Travels، II، ص4.583.

(3) معجم، انظر (فزان).

(4) نفس المرجع، انظر (جرمة). قلنا أعلاه ـ انظر زويلة ـ إن ياقوت ينقل عن البكري.

(5) انظر أجدابيا، أوجلة، وسرت. يكتفي ياقوت بتوقيع هذه المدن ثم ينقل عن البكري.

(6) Das Nordafrikansiche, pp. 143-144.

(7) بسط الأرض، ص61. أبو الفدا، تقويم، ص126 ـ 129 يجمع الإدريسي وابن سعيد.

هي زويلة، ولم نعرف أن تراغن لعبت دور المقر للحكومة الكانمية إلا بفضل الروايات الفزانية المحلية وقد بقي هذا الدور الذي لعبته تراغن مجهولاً من قبل النصوص المكتوبة.

لا شك أن الانطلاقة الهائلة لامبراطورية الماندنجو في مالي في القرن الرابع عشر أثرت سلباً على جنوب ليبيا. فقد جذبت مالي إليها في ذلك الحين التجارة العابرة للصحراء، ويبدو ـ بوضوح ـ أن الطريق المفضل أصبح الطريق المار عبر ورقلة وتادمكة وتكدة[1]. ومع ذلك، يذكر ابن خلدون أن قافلة تجار قادمة من مصر، سنة 1353ف ومتوجهة نحو مالي عبر تكدة مرت بغات، وكانت تشتمل على اثني عشر ألف جمل محملة. وأكد محدث ابن خلدون له أن هذا يحدث في كل السنين[2]. وهكذا لم تحرم واحات فزان الأوسط من كل عوائد رسوم العبور. واستفادت غدامس من موقعها على الطريق مصر ـ بسكرة ـ ورقلة كما كانت تستقبل الحركة نحو النيجر وتكدة كما أفادنا ابن بطوطة[3]. من الواضح أن حركة السودان التي كانت تمر عبر غات في اتجاه مصر، والتي يذكرها أيضاً ابن بطوطة، كانت تتبع بعد ذلك المسارات الفزانية، ولم يكن المرور بغات خلال فترات الهدوء مبرراً.

شهدت فزان التي كانت مغطاة بالضيع والنخيل[4] مرور موجات من هجرات الطوارق في القرنين الثالث عشر والرابع عشر[5]. حسب رواية الطوارق؛ ترك الكيل أواي، والكيل أتيسان وأقاربهم الكيل جير أوجلة واستقروا بعض الوقت في فزان وتاسيلي ثم ذهبوا للاستقرار في الآيير حوالى القرن الرابع

(1) T. Lewicki, Etudes Maghrebines, I, pp. 32-41/69-74.

(2) البربر، ج3، ص287 ـ 288.

(3) رحلة، ج4، ص436، 444 ـ 445.

(4) ابن خلدون، البربر، ج1، ص191.

(5) يقول أوراغن غات وتاسيلي إنهم أقارب الكيل أواي.

عشر[1]. تفيد كلمة «تارقا» في اللغة التمحقية (*) «فزان» وكذلك «وداي»[2]، ويبدو أن من الممكن تقريب هذا التعبير من التعبير «تارقا» الذي استعمله ابن خلدون لتسمية واحدة من قبائل الملثمين الذين كانوا يسكنون بين بلاد البربر وبلاد السود. فعندما عدد قبال الملثمين من المحيط الأطلسي حتى جنوب طرابلس وبرقة[3]، حدد موقع تارقة في مواجهة بني سليم[4] الذين نعرف أنهم كانوا مستقرين في إقليم برقة وجزء من طرابلس الغرب وشمال فزان. وعليه، فقد حدد ابن خلدون في القرن الرابع عشر مواطن التارقة في المنطقة التي تمثل الحدود الشمالية الشرقية لتواجد الطوارق حالياً.

حوّل انعدام الأمن الذي ساد ليبيا بسبب الصراعات القبلية في القرن السادس عشر طرق مرور التجارة السودانية المصرية نحو مناطق أخرى. وهكذا، قد يكون ليون الأفريقي سلك الطريق الجنوبي عبر تشاد ودارفور ليصل إلى مصر، لقد كانت القوافل تخشى الاضطرابات في ليبيا[5]، وهجرت بورنو تجارة خيول مصر عبر كوار ـ زويلة ـ فزان بسبب مخاطر هذا الطريق المتمثلة في الجوع والعطش والتبو[6]. وقد اضطرت فزان أن تنتظر، حتى النصف الثاني من القرن العشرين والموارد التي جلبها النفط لليبيا، لتنهض.

غات:

إن منطقة غات، الواقعة مباشرة غرب تنزوفت، موقع موغل في القدم كما تشهد على ذلك العديد من النقوش الصخرية، والمقابر في هذه النواحي. وغات

---

(1) J. Nicolaisen, Ecology, pp.412-414.

(*) يكتبها د. محمد سعيد القشاط في «التوارق ـ غرب الصحراء الكبرى» ـ التماشاك، التاماشاق والتاماشاك. المترجم.

(2) J. M. Cuoq, Recueil, p.332, n.5.

(3) البربر، ج1، ص64 ـ 65.

(4) نفس المرجع، ج1، ص104 ـ 105.

(5) R. Mauny, Tableau Geographique, p.47. mais v, Supra, p.370.

(6) H.R. Palmer, Sudanese Memoirs, III, p.6.

القديمة مدينة محصنة محاطة بسور ما زال في حالة جيدة مزود بخمس بوابات للدخول إلى المدينة[1]. ولها ضاحيتان على أقل من ثلاث كيلو مترات: تونين وتادرامت. قد لا تكون غات هي البلدة الأقدم في المنطقة، فالمقابر توجد في البركت على مسافة عشرة كيلو مترات جنوباً والنقوش الصخرية في الفويت على مسافة ثمانية كيلو مترات غرباً في تخوم تاسيلي على الطريق المؤدي إلى جانيت[2]. والفويت مقسمة إلى حيين للطوارق أحدهما لأفيلة والآخر لكيل أترم التي نجدها كذلك في البركت[3]. تعني كلمة «أترم» غرب في اللغة التمحقية وتثير في أذهاننا الأترانت الذين تناولهم هيرودوت[4]، والذين سكنوا بلاداً واقعة على مسافة عشرة أيام من الجرمنت، حسبما يقول هيرودوت: «ليس لأي منهم اسم خاص به، وهم يلعنون الشمس عندما تكون حارة جداً، ويوجهون إليها كل الشتائم التي يمكن تصورها لأن نيرانها تهلكهم رجالاً وبلاداً». وتفصل عشرة أيام ـ 420كم جرمة عاصمة الجرمنت عن غات التي أراد البعض أن يحددها موطناً للأترانت. كما أن هناك افتراضات أخرى قدمت لتحديد موقع هذا الشعب، خاصة في النيجر وعلى مسارات الطوارق الأجر والهقار وهو ما يلامس المنطقة[5] موضوع اهتمامنا.

---

(1) Panoramas in E. Scarin, Le Oasi del Fezzan, Pl.XII et in R.G.S.I, Fezzan e Oasi de Gat, encart pp.544-545, 640-644.

(2) البعض يشمل في منطقة غات واحة سردليس/العوينات الواقعة على مسافة 130 كم شمال غات خاصة Descrizioni delle Oasi, E. Scarin، ص642، والزاوي، معجم، انظر غات. هذه الواحة مسكونة بالطوارق وهي محطة لا غنى عنها في الطريق غات ـ غدامس.

(3) في القرن الماضي (القرن التاسع عشر) لاحظ H. Duveyrier في Les Toureg du Nord ص367 وجود المتين في البركت والفويت، وكانوا مستقرين. الجمع في اللغة التمحقية يكون ببادئة ونون لاحقة، هل يجب أن نرى في المتين قبائل لمطة الملثمين؟ قبائل تارقة حسب H. Duveyrie'r، ص326 امتصوا قبائل لمطة، وهو ما يشرح الوضع الأدنى للأمتين مقارنة بكيل أجر الذين لا تربطهم بهم رابطة والذين يدفعون لهم جزية. انظر كذلك J. Dubief، Les Ouraghen de kel Ajjer, annex.

(4) IV, 184

(5) Voir Ph E. Legrand, He'rodote, IV, n.5, p.189-190; E. Von Bary, Le Dernier rapport, p.169; F. Beguinot, I Linguaggi, p499-500; E. Scarin, Descrizione delle Oasi, p.643; Oasi, p643. Ad- danasuri, p.410-411.

تستفيد غات وواحاتها المجاورة من قرب الماء من سطح الأرض ووفرته ـ العيون كثيرة ـ، ومن نباتات جيدة للإبل ومن موقعها المثالي على طريق الآيير نحو غدامس في الشمال ونحو فزان ومصر في الشرق وهي الطريق التي تتحاشى تاسيلي والعرق الشرقي العظيم في نفس الوقت. وبسبب موقع المنطقة على ملتقى طرق مهم كانت تحصل على عائدات كبيرة من رسوم المرور التي كانت تدفعها القوافل التي تعبر المنطقة حتى لو كانت التجارة أحياناً ـ كما هو الحال في القرن[*] الماضي ـ بين أيدي سكان غدامس والتجار الغدامسية المستقرين في السودان، كما أن من المحتمل، كذلك، أن تجار الشمال في العصور الوسطى كانوا يعهدون ـ كما هو الحال منذ قرن ـ بقوافلهم إلى البدو في البلدان المعبورة[1].

أراد البعض أن يرى في غات الربسة La Rupsa المذكورة في احتفال كورنيليوس بالبوس Cornelius balbus على قاعدة الوجود الحالي في المنطقة لكل غافسة الذين هم ألتين الكوم[2]. غير أن الرواية المحلية التي تلقاها H. Duveyrier ترجع بإنشاء المدينة إلى القرن الرابع عشر على أقصى تقدير، وهو ما يفسر بوضوح أن الجغرافيين العرب ومؤلفي المسالك لم يوردوا لها ذكراً. وهذا ما يجعلنا نفترض ـ مثل H. Duveyrier، وP. Borchardt ـ أن الربسة قد اختفت، ثم أعيد بناؤها بعد وقت طويل من الكيل غافسة. وبما أن ربسة دي

(*) القرن التاسع عشر، المترجم.

(1) يذكر H. Duveyrier، Journal de Route، ص174 أن العاج يمر مجرد المرور بغات، وفي ص175 أن التجار الغدامسية يعهدون بنقل بضائعهم إلى أصحاب الجمال الطوارق. في سنة 1876ف، رأى E. von Bary في وادي الآجال مرور إرسالية من العبيد قادمة من غات في اتجاه طرابلس الغرب. وفي أبريل سنة 1877ف، كانوا في غات ينتظرون قدوم قافلة من العبيد قادمة من زندر، انظر La Dernier Rapport، ص148 ـ 149، ورقم 1 ص149.

(2) H. Duveyrier, Les Touareg du Norcl, pp.267-268; E. Von Bary, op, cit, pp.28-29, p.Borchardt, Die Grossen Ost West-Karawanenestreassen, p.2196. الدناصري، جغرافية فزان، ص405 ـ 407. وألتين الكوم فرع من الأوراغن من قبائل الكل أجر وهم يتنقلون حتى أوباري في وادي الآجال، انظر J. Dubief, Les Ouraghen des Kel Ajjer, annexe.

بلين La Rapsa de Pline غير معروفة، يمكننا اعتبار أن تشابه الأسماء لا يكفي لمطابقة غات مع المدينة التي كان اسمها محمولاً في احتفال النصر لكورنيليوس بالبوس في روما.

دخلت مدينة غات في التاريخ الإسلامي في القرن الرابع عشر. فقد التحق ابن بطوطة، عند تركه جاو في اتجاه تكدة، بقافلة كبيرة لأناس من غدامس[1]. وقد أقام في تكدة بضعة أيام[2]. ومن أجل أن يذهب إلى توات التحق بقافلة مهمة كان من بين ما تحمله ستمائة فتاة من الرقيق. وقد عبروا الآيير وقطعوا خلال ثلاثة أيام صحراء بدون ماء، ثم قضوا خمسة عشر يوماً في صحراء أخرى دون نبات ولكن بها مياه ثم وصلوا «إلى النقطة التي تفترق فيها طريق غات التي تؤدي إلى مصر وطريق توات». وذهب ابن بطوطة نحو الغرب، وبعد عشرة أيام من السفر وصلت القافلة إلى بلاد هكار، وهم بربر ملثمون لا يمكن أن يذكروا بخير[3]. هذا هو الذكر الوحيد لغات أو لهكار ـ هقار[4] في القرون الوسطى. مع هذا فله الفضل في إفادتنا بأن طريق النيجر إلى مصر كانت تمر عبر غات، وعليه عبر فزان، وأن جزءاً ـ على الأقل ـ من هوارة كانوا يسكنون وقتها قرب الجبال التي ستحمل اسمهم بعد ذلك.

بالرغم من أن غات لم تذكر قبل القرن الرابع عشر، يبدو لنا أن هناك إشارة إلى منطقتها منذ منتصف القرن الثاني عشر. فقد أفاد الإدريسي أن المسافة من تساوة إلى منجم للفضة في جبل جرجيس ثلاثة أيام وأن المسافة من تساوة إلى قبيلة أزقار[5] البربرية خمسة عشر يوماً نحو الشرق. إن الأزقار

(1) رحلة، ج4، ص436.
(2) نفس المرجع، ص428 ـ 444.
(3) نفس المرجع، ص445 ـ 446. ولا يقول لنا ابن بطوطة ما إذا كانت الستمائة فتاة من الرقيق موجهة إلى توات أو إلى غات ومصر.
(4) مع الشرح اللفظي لابن خلدون، العبر، ج4، ص286/ البربر، ج1، ص275 ـ 276، وانظر بعاليه، ص446، رقم 5.
(5) يتعلق الأمر بالأزقار الذين يقول عنهم الإدريسي هم أعلم الناس بعلم الخط، انظر بعاليه، ص415 ـ 416.

الذين يملكون الكثير من الجمال والألبان قوم شجعان قادرون على الدفاع عن أنفسهم ولكنهم يعيشون في سلام مع الذين يبحثون عن السلام. وهم يقضون الربيع والصيف في جبل طنطنة، حيث تصب ينابيع وعيون وتوجد عند قدم الجبل مناقع تتجمع فيها المياه. وحول هذه المستنقعات يوجد عشب ممتاز تتغذى منه الإبل حتى تعود القبيلة إلى مقرها المعتاد. وللذهاب من هذا الجبل الذي تنتقل حوله قبيلة الأزقار إلى بلاد البغامة يجب عبور أرض لا يحيا فيها أحد طوال عشرين مرحلة، والماء فيها نادر وهي دارسة المسالك دائرة المعالم. وتبعد الأزقار عن غدامس بثماني عشرة مرحلة، ومن قبيلة أزقار إلى شامة حوالى تسع مراحل من مجابة فيها قليل من الماء يختفي بفعل الرياح والحرارة[1]. . . . كانت بلاد ودان قبل الإسلام كثيرة السكان، وقد استولى الخوف على السكان بسبب وصول المسلمين فتفرقوا في الصحراء ولم تبق إلا مدينة داو. د. وهي الآن أطلال، مسكونة من بقايا قبيلة من السود يحيون حياة قاسية عند أقدام جبل طنطنة[2] وهم يتغذون بجذر نبات من الأراضي الرملية؛ «أغرسطس» ويسمى بالعربية «نجيل» ويحولونه إلى دقيق يصنعون منه خبزاً،

---

(1) نزهة، ص35 ـ 36/ 42.

(2) إن هذه المدينة داو. د تثير التفكير في الدواده وهم قوم سود (برونزي أحمر حسب M.e.Leblanc)، أصلهم غير معروف ويقولون إنهم مقارحة. والمقارحة من سليم، ويقول العرب إنهم منحدرون من أصول يهودية، مدعين أن جدهم ليس إلا داود. والدواده مجموعة تحيا حياة بؤس يسكنون أكواخاً من القصب وسعف النخيل حول ثلاث بحيرات وسط دهان أوباري: قبرعون، الطرون، ومندرا، وهم يتغذون بالدود وهي قشريات صغيرة لونها يميل إلى الحمرة وهي نوع من الجمبري الذي تصطاده نساؤهم من المياه الشديدة الملوحة لهذه البحيرات ثم تتركه يجف وتحوله إلى قطع. الاشتقاق دواده = آكلي الدود وهو معروف بين الناس ومدعاة للاحتقار بالنسبة لهؤلاء السكان الأصليين الذين لا يعدون كلهم أكثر من 500 شخص والذين هم ضحية تمييز عرقي قاس من كل الفزانيين. هل هؤلاء الدواده هم سكان فزان القدماء لجأوا إلى الرمال نتيجة لنزوح البربر؟ انظر بعاليه، ص451 ـ 452. و,The Dawwadah of the Fezzan F.C. Thomas، Dr. M.E. Leblanc، Anthropologie et ethnologie، ص36 ـ 37. في سنة 1990ف، ولأسباب صحية قررت الحكومة الليبية نقل الدواده إلى وادي الآجال حيث بنيت لهم قرية.

ويعيش جلاتهم وخيارهم على لحم الجمال المجفف واللبن. ويستعملون بعر الإبل مخلوطاً بنباتات معينة للوقود، فالخشب نادر جداً في هذه المناطق[1]. . . ويقوم في الطرف الجنوبي لهذه البلاد جزء من جبل لونيه[2].

ينقل ابن سعيد أساساً عن الإدريسي ولكنه يضيف بعض العناصر. الأزكان (هكذا) بربر مسلمون، ويوجد موطنهم جنوب فزان وودان في شمال جبل طنطنة الذي يمتد من الشرق إلى الغرب نحو ست مراحل، وفي شماله عيون تنحدر منه تحتها مروج ينبت فيها عشب كثير يتنازعه العربان والبربر وتقع بسببه الحرب. ويذكر ابن سعيد كذلك منجم الحديد في أسفل الجبل[3].

إن التعرف إلى الأماكن التي اختفت أسماؤها صعب، وأحياناً يخلط الجغرافيون والناسخون في النصوص أو في الخرائط، كما سنرى، الشمال (أسفل خرائطهم والجنوب في الجزء الأعلى)، والشرق والغرب.

يضع Heinrich Barth الأزقار في منطقة غات، ويجعل منهم أسلاف الطوارق كل أجر - أزقر[4] - وهذا هو رأي Karl Schubarth-Engelschall [5] كذلك، ويقول بأن جبل طنطنة هو تاسيلي[6]، ويعتبر أن الإدريسي ارتكب خطأ بوضعه الأزقار في شرق تساوة بينما يوجد الأجر في الغرب والجنوب الغربي[7].

بالعكس، يبحث J.M.Cuoq على جبل طنطنة في تبستي مؤسساً على R. Capot Rey الذي يلاحظ، عند وصفه هذه السلسلة، بأن «عند حافتها

---

(1) نزهة، ص37/ 43 - 44.

(2) نفس المرجع، الحميري، انظر أزقار، ينقل عن الإدريسي دون المواقع الجغرافية.

(3) بسط الأرض، ص61، نقل عنه أبو الفدا، تقويم، ص127.

(4) Travels، I، ص198 - H. Barth199 .، رقم 3، ص198 يجد علاقة بين قبيلة الأزقار وقبيلة ذكرت في القرن الرابع بالقرب من إقليم برقة، وهذه القبيلة قد تكون الاستوريون الذين ذكرهم أمانيوس مارسيليونس وهو مؤرخ لاتيني من القرن الرابع.

(5) Arbische Berichte, pp58-59, 71-74, Carte 10.

(6) Travels, I, p.215.

(7) Recueil, p.155, n.3.

الجنوبية . . . مراع دائمة ـ وبفضلها خاصة تمكنت من البقاء حوالى ثمانية آلاف جمل في الناحية»[1].

إن معلومات عديدة يوردها الإدريسي وابن سعيد يمكن أن تؤيد هذا الافتراض أو الافتراض الآخر. إن الماء، الذي مكن J.M Cuoq من تحديد جبل طنطنة في تبستي موجود في تاسيلي والهقار. وحسب الحجة التي يثيرها J.M. Cuoq، تنتشر في الهقار أحواض طمية صغيرة كما أن شمال تاسيلي مغطى بطبقة صوانية تشكل خزاناً مثالياً للمياه الجوفية، وهناك آبار في أسفل الجبل «وعدد لا يصدق من العيون والمناقع» التي توجد فيها حتى التماسيح: تعد واحة الأهرير لوحدها خمسة وأربعين مستنقعاً، كما توجد العديد[2] من الينابيع على الطريق الترابية المؤدية من تاسيلي نحو الهقار. وفي تاسيلي، كما في تبستي، مراع جيدة وهو ما يجعل تبو تبستي وطوارق الهقار وتاسيلي يتنقلون غالباً على مسافات طويلة بهدف تجاري، ولكن مديات تنقلهم لغرض الرعي قصيرة إلى حد ما. إن ممتلكات الأزقار من الجمال والألبان، يمكن أن تكون موارد سكان تبستي مثلما يمكن أن تكون موارد سكان تاسيلي ـ الهقار. أما عن نبات النجيل فيوجد في كل مكان في الصحراء، من الجزائر إلى مصر[3]، غير أنه مر، وخلافاً لما يؤكده الإدريسي لا يستعمل إلا لاستهلاك الجمال. يضاف إلى ذلك، أن بعر الجمال مخلوطاً بالنباتات يستعمل وقوداً في كل المناطق الصحراوية. كما أن تقدير المسافة بست مراحل لقطع هذا الجبل من الشرق إلى الغرب ينطبق على كل من تاسيلي وتبستي. وأخيراً، بما أن شامة لم تحدد[4]

---

(1) Le Sahara Faancais, p.392.

(2) نفس المرجع، ص394 ـ 395 («إذا ما أنشىء متنزه وطني في الصحراء يوماً من الأيام، فيجب أن يكون في منطقة الآجر في تاسيلي»، ص394. . . وهو ما يُعمل عليه حالياً). . .

(3) K. Schubarth-Engelschall, Arbische Berichte, p.59.

(4) إن كلاً من منجم الفضة في جرجيس والحديد في طنطنه لم يعثر عليهما R. Mauny, Tableau Geagraphique, p.59.

بعد، فإن مسافة تسع المراحل التي لا يوجد على طولها إلا قليل من الماء يمكن أن تقطع في اتجاهات عديدة انطلاقاً من أي من السلسلتين الجبليتين.

بالرغم مما سبق، هناك العديد من الحجج لصالح تحديد جبل طنطنة بتاسيلي، أو بشكل أوسع أن جبل طنطنة هو ما نسميه حالياً تاسيلي/ هقار[1]. إننا نقدم هذه الملاحظات بأقصى درجات الحذر لأن بعض أسماء الأماكن التي نحيل إليها مشكوك في مواقعها أو أن هذه المواقع غير معروفة. كما نشير، كذلك إلى أن نصوص الإدريسي وابن سعيد لا تتوافق فيما يتعلق بموطن قبيلة الأزقار. فبالنسبة للإدريسي هي جنوب جبل طنطنة، وهي في جنوب فزان وشمال جبل طنطنة عند ابن سعيد، وصحيح كذلك أن الإدريسي يضيف أن الأزقار يتنقلون حول هذا الجبل.

إن اثنتي عشرة مرحلة تفصل تساوة عن بلاد الأزقار حسب الإدريسي. وهذا يتطابق بشكل جيد مع المتوسط اليومي المثالي (33كم) الذي يتطلبه قطع الأربعمائة كيلومتر من الطريق الترابية التي تمتد على طول الحافة الجنوبية لحمادة مرزق التي تفصل تساوة عن غات. بالعكس، يتطلب قطع مسافة الستمائة وثمانين كيلومتراً بين تساوة وبرداي في اثني عشر يوماً متوسطاً يومياً قدره ستة وخمسين كيلومتراً وهو متوسط من الصعب المحافظة عليه.

يقدر الإدريسي المسافة بين غدامس وموطن الأزقار بثماني عشرة مرحلة، ويبلغ طول الطريق الترابية غات ـ غدامس ستمائة كيلومتر يمكن قطعها في ثمانية عشر يوماً، وبمتوسط مثالي قدره (33كم). ولو كان جبل طنطنة هو تبستي لتطلب الوصول إلى غدامس بأقصر الطرق ـ طريق الحمادة ـ قطع 1350كم بمتوسط يومي قدره (75كم)، وهو ممكن فقط في حالة قوات محاربة، أو لصوص هاربين، أو حالات التتبع في حالة المتدربين تدريباً خاصاً.

لا يساعدنا في شيء تحديد موقع الأزقار على تسع مراحل من شامة عبر

(1) بالنسبة لطوارق معينين، تاسيلي مقطع من الهقار. انظر H. Barth، I، ص199.

صحراء، كما قلنا، وكذلك مسافة العشرين مرحلة التي تفصل أزقار عن غامة[1] التي لا يمكن تحديدها بدقة. وهي واقعة ـ حسب الإدريسي ـ شمال غرب انعطاف نهر النيجر، على طول الصحراء[2]. وهذا، في الواقع، المكان الوحيد المقبول منطقياً في الوصف الذي يقدمه الإدريسي للسودان النيجري. وإذا قبلنا بهذا المقترح بتحديد موقع البغامة فإنها تكون على بعد (1000كم) من تاسيلي (متوسط يومي: 50كم) ولكن من الهقار على أقل من (700كم) (متوسط: 35كم). ويمكن أن يكون الإدريسي قد اعتبر تاسيلي والهقار نفس السلسلة، إذا ما كان هناك موقع جبل طنطنة. إن المسافة المباشرة من خط طول جاو إلى حافة تبستي تبلغ ألفاً وسبعمائة كيلو متر، لا يمكن تصور قطعها خلال عشرين يوم.

حسب ابن سعيد، الأزكان ـ الأزقار بربر مسلمون. وسنلاحظ في هذا الخصوص أن انتشار الإسلام في تاسيلي كان سابقاً وبمدة طويلة لوصول الإسلام إلى تبستي.

تثير في أذهاننا الأطعمة المختلفة، حسب الطبقات الاجتماعية للسكان في جبل طنطنة، كما قدمها الإدريسي، التنظيم الاجتماعي الذي يميز النبلاء ـ الأمشاغ (جلتهم وخيارهم حسب الإدريسي؟)، والتابعين ـ ألامغاد من جانب، والعبيد ـ الأكلان من جانب آخر[3]، إن مثل هذا التصنيف الاجتماعي غير

---

(1) المسافة أزقار ـ بغامة في عشرين يوماً مذكورة كذلك من الإدريسي الذي يشير في نفس المقطع إلى أن سكان جبل جرجيس الذين يضعهم في فزان، يترحلون حول جبل طنطنة، عند يوسف كمال، Monumenta، IV. وفي نفس المقطع يذكر مدينة فزانية كبيرة وجميلة تسمى داركارة. وهي غير معروفة بالنسبة لنا.

(2) نزهة، ص8 ـ 10/11 ـ H.R. Palmer13 .، Sudanese Memoirs، II، ص10 يوقعها عند انعطاف نهرالنيجر. وبالنسبة H. Lhote، توجد في شمال غرب كوكو، Contribution a L'Etude des Touaregs Soudainais، I، ص335. بالنسبة لـJ.M. Cuoq، Recueil، ص136، رقم 3 يجب توقيعها في شمال غرب تومبكتو. هل هم البردامة الذين عبر ابن بطوطة بلادهم بين كوكو وتكدة، ج4. ص436 ـ 437؟ هذا هو رأي W.D.Cooley، The Negroland، ص85 رقم 40.

(3) H. Lhote, Les Touaregs du Hoggar, p.193. et L'article de J. Clauzel, Les hierarchies sociales en pays Touareg.

معروف في تبستي والمناطق المجاورة. وقد دأب الجغرافيون العرب، عند الحديث عن الطعام، على عدم التمييز إلا بين الملك وحاشيته، والأغنياء والفقراء.

يوجد في جنوب جبل طنطنة وموطن الأزقار ـ حسب الإدريسي ـ جبل لونيه، وهو ما نقرأه على خريطته[1]. ولكن هذا الجبل يمد السلسلتين بين خطي طول سرت وطرابلس، وهو ما لا يفيدنا. وبما أن جرمة وتساوة موقعتان توقيعاً صحيحاً كل واحدة بالنسبة للأخرى، ويحتلان مواقع أبعد نحو الغرب أكثر من اللازم ـ غرب غدامس على خط طول توزر ـ فلنا أن نتساءل عما إذا لم تُعكس مواقع جرمة ـ تساوة، وجبل طنطنة، وهو ما يفسر وضع الإدريسي لموقع أزقار شرق تساوة عند التعليق على الخريطة. وإذا سلمنا بوجود خلط، فإن جرمة وتساوة يقعان على خط طول وسط بين خطي طول زويلة وغدامس، وهو الصحيح، وفي هذه الحالة يحتل جبل طنطنة موقع تاسيلي ـ هقار، جنوب غدامس ـ توزر. ويجب أن يكون موقع جبل لونيه، الذي يوجد جنوب طنطنة وتأثر بالتحديد الخاطىء لهذا الأخير، أبعد إلى الغرب أي في مكان الآيير. ويؤكد وضع لونيه ـ الآيير أبعد نحو الغرب مقطع آخر للإدريسي نفسه الذي يشمل في نفس المنطقة جزءاً من بلاد الكوكو ـ جاو، ومن بلاد الدمدم وجزءاً من جبل لونيه[2]، وقد وقع الإدريسي الدمدم ـ اللملم، وهم عبيد يأكلون لحوم البشر في السودان الغربي[3]. وعليه، فلا يمكن أن يتوافق جبل طنطنة الواقع

---

(1) انظر الخريطة رقم 4.

(2) نزهة، ص38/ 44.

(3) المرجع بعاليه، وص44، 6، 8 ـ 9/ 4، 6، 9، 11. حول آكلي لحوم البشر دمدم، لملم، رمرم.. الخ.. وأصبحوا نيام نيام، يامیام بالنسبة للمستكشفين الأوروبيين ـ انظر. J.M. Cuoq، Recueil، index. Levtzion and Hopkins، Corpus, index. Sahara and sudan G. Nachtigal، ج4، انظر نيايام. وW.D. Cooley، The Negroland، ص111 ـ 116 الذي يشير إلى أن يام يام الحاليين يعيشون في التلال جنوب كانو. وR. Mauny، Tableau Geographique, index، انظر لملام. ونفس المؤلف، موسوعة الإسلام، انظر لملام. و Ch. Monteil، Les Empires du Mali، ص41 ـ 43 والذي يعطي كاشتقاق ممكن لملم =

شمال جبل لونيه مع سلسلة جبال تبستي. ويؤكد J.M.Couq انعدام إمكانية فهم توصيفات الإدريسي وابن سعيد إذا ما رفضنا القبول بأن جبل لونيه هو سلسلة الآيير[1].

يبدو لنا مما سبق، أن هناك عدداً لا بأس من العناصر لتبرير المعادلة طنطنة = تاسيلي، أو طنطنة = تاسيلي ـ هقار. إذا ما قبلنا بهذا يتضح لنا أن سكان منطقة غات كانوا من البربر، الذين يسكنونها اليوم، منذ القرن الثاني عشر، وتحمل غات نفس الاسم الحالي وبها نفس نمط الحياة بنفس مميزاته، أي مجتمع طبقي بشكل صارم، وبداوة تعتمد على الجمال في بلد ملائم إجمالاً بفضل كثرة العيون. وبما أن هذه القبيلة لم تذكر قبل الإدريسي، فإننا نجهل ما إذا كانت قبيلة الأزقار أصيلة المنطقة أو جاءت من الشمال الشرقي كما هو الحال بالنسبة لقبائل عديدة من الطوارق ـ حسبما توضح الروايات التي جمعها J. Nicolaisen ـ أو من نفس فزان، ووادي الآجال، مدفوعين من قبل قبائل هوارة التي أصبح أحد فروعها جارهم في الجنوب. وقد كان الأزقار، الذين تحولوا إلى الإسلام في القرن الثالث عشر كما يؤكده ابن سعيد، على علاقة بوادي الآجال في الغرب وغدامس في الشمال والنيجر في الجنوب، ولا شك أنهم كانوا يشاركون في التجارة العابرة للصحراء. وقد مثل لهم تغلغل البدو العرب مشاكل، والمقبول منطقياً أن يكون هذا التغلغل في تاسيلي أكثر منه في تبستي، وهو تغلغل تم في القرن الثالث عشر بعد النزوح العربي وحروب بني غانية. رأى الأزقار ـ وهم بدو أقحاح حسب أسلوب معيشتهم ولكنهم لا يترحلون على مسافات طويلة لأنه كان يكفيهم أن يتنقلوا حول جبل طنطنة، تماماً مثل الكل أجر والكل هقار اليوم ـ وصول قبائل غير مرغوبة للبحث عن

= الكلمة العربية لحم مزودوجة. لحم تفيد كذلك دافعي الجزية من المغاربة، انظر Monteil، البكري الرحالة، ص115 ـ 116. وGeographie، A.Miquel، ج2، ص149 ـ 150.

(1) Recueil، ص151، رقم 3، ص216 رقم 3، بالنسبة J. M. Cuoq طنطنة = تبستي ولونيه = الآيير، تفترض أنه يعتبر خريطة الإدريسي تبين خطأ لونيه في جنوب طنطنة ويوقع هذه السلسلة إلى الغرب ـ الجنوب الغربي من طنطنة وإلا فإن تقديراته متناقضة.

مراع جيدة. وقد أثار هذا الوضع نزاعات في القرن الثالث عشر، كما يثير في وقتنا الحالي، ولكن المجموعتين تحالفتا أحياناً. وكثيراً، ما اصطدم الشامبة ـ الشعانبة[1] من العروق الرملية الجزائرية ـ التونسية وموطنهم أقل ملاءمة، الكل أجر والكل هقار[2]. وعندما أصبحت الصحراء فرنسية تمكنت الشامبة من الترحل في إقليم أمنكال[3] الكل هقار بمقابل[4] تدفعه بعد أن أبرمت معهم اتفاقاً بهذا الشأن.

بوصف صحراء سرت، وبلاد ودان وزويلة ووادي الآجال وغدامس، وحالياً غات، يكون الجغرافيون العرب قد غطوا كل الصحراء الليبية الغربية، ونستطيع أن نرسم المسارات التي كانت تربط المناطق المختلفة بعضها ببعض، ونحدد تقريباً الأقوام الذين كانوا يسكنونها. ليس الوضع مشابهاً بالنسبة للصحراء الليبية الشرقية، التي إذا ما استثنينا أوجلة، لم يصلنا حولها إلا بعض الأخبار الناقصة.

الكفرة ـ ص. برو[5]:

تفسر العزلة التامة للكفرة صمت مؤلفي القرون الوسطى عنها، وكذلك المعرفة المتأخرة بها من قبل الاستكشاف الحديث. وتتكون الكفرة من مجموعة

---

(1) الشعانبة من عوف من بني سليم، انظر كحاله، معجم.

(2) J. Dubief, Les Ouraghen, p.98; Jager Gerlings en D.G. Jongmans, De Sedentarisatie, p.31.

(3) الأمنكال رئيس حربي، وفي حالة السلام رئيس سياسي ويفصل في النزاعات وهو مسؤول عن العلاقات مع القبائل الأخرى، انظر H. Lhote، Les Touregs du Hoggar، ص189 ـ 192.

(4) I. Cabot Briggs, Tribes of the Sahara, pp.200-204 et L'artide de J. Nemo, Le Regime Juridique des terres au Hoggar.

(5) نتبنى عشوائياً الكلمة كما كتبت لأول مرة وهي من البكري الذي يكتب صبرو ونقلها الحميري صبروا. وفي مخطوطات الإدريسي ش. رو (وهو ما تبناه Dozy) ش. رو، ش.ور، وت. نزو وت. نزو التي هي كذلك على الخريطة. ويعطي كتاب الاستبصار، نشر كرمو فينا، 1852ف، د.بر (انظر T. Lewicki)، A. propos du Nom de l' oasis de koufra، ص295، ونشر سعد زغلول، ص148. ص. برو.

واحات واقعة في قلب صحراء برقة أكثرها أهمية هي الكفرة ذاتها، والهواري، وربيانة، والجوف، يضاف إليها أبو زيمة(*) الواقعة على مائة وستين كيلومتراً شمال شرق الكفرة[1]، وتازربو الواقعة على مائة وعشرين كيلومتراً أبعد في نفس الاتجاه، والزيغن على مائة وخمسين كيلومتراً شمال أبي زيمة[2]. وهذه البلدان مفصولة بالسرير، وتقع أبو زيمة وتازربو على الحافة الشمالية لرملة ربيانة. وتعطي بعض الأرقام ـ التي هي بالضرورة تقديرية ـ فكرة عن تباعد هذه المجموعة من الواحات كل واحدة عن الأخرى:

	المسافة بالكيلو متر
الزيغن ـ جالو	400
الكفرة ـ جالو	600
الكفرة ـ ستترية ـ سيوة	650
الكفرة ـ جغبوب[3]	700
تازربو ـ زلة	600
تازربو ـ زويلة	700
(عبر واو الناموس وواو الكبير)	
ربيانة ـ زويلة	800
(عبر واو الكبير وبالدوران حول الرملة)	
الكفرة ـ الواحات الداخلة	650

(*) بزيمة هو الاسم الحالي لهذه الواحة. المترجم.

(1) تُعطى كأسماء ممكنة للكفرة، وكُفرة، وكفراه وهي جمع كافر. سنعود إلى الموضوع.

(2) يجب أن يضاف إليها التاج التي أنشأها سنة 1859ف محمد المهدي ابن مؤسس الطريقة السنوسية. انظر الزاوي، معجم انظر الكفرة.

(3) تقع الجغبوب على الطريق القديم الذي كان يصل من النيل إلى أوجلة ثم طرابلس الغرب أو فزان. ولم يذكر الجغبوب ـ على ما يبدو ـ حتى بمجرد الإشارة من قبل الجغرافيين العرب. وقد أنشيء سنة 1856ف من قبل محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية الذي استقر فيه قادماً من القاهرة. انظر الزاوي، معجم، انظر الجغبوب J. Despois، موسوعة الإسلام، انظر الجغبوب.

الكفرة ـ الفرافرة	650
ريانة ـ تبستي	500
الكفرة ـ العوينات	350
الكفرة ـ الأندى	900
الكفرة ـ دارفور (عبر العوينات)	1000

طبيعة المنطقة ليست قاسية. وليس بالكفرة عيون ولكن الماء الجوفي قريب من السطح لدرجة يؤدي معها إلى تكوين بحيرات. والنبات فيها غني وأكثر تنوعاً، والمراعي أكثر وفرة من فزان[1]، وكان يمكن لموقعها الجغرافي على الطريق من دارفور إلى البحر المتوسط أن يعطيها أهمية مؤكدة، ولكن المسافات الطويلة جداً بين نقاط المياه على هذا المسار في كل الاتجاهات حدت من استعماله بانتظام في العصور الوسطى. مع هذا، عرفت المنطقة حضارة في الماضي السحيق إذ وجدت موميات في تازربو[2]. ومن الممكن أن الجرمنت سلكوا طرق فزان المؤدية إلى مصر عبر الكفرة[3]. وفي القرن الماضي[*]، كان يتم الوصول عبر الكفرة إلى بوركو وبحر الغزال وتشاد انطلاقاً من زلة أو ودان ـ طريق المتوسط ـ أو أوجلة ـ طريق مصر. كان الوصول إلى الكفرة من فزان يتم عبر واو الكبير وواو الناموس، والوصول من مصر عبر الفرافرة أو الواحات، والوصول من النوبة عبر العوينات. مع ذلك، كان طريق السودان إلى مصر يتحاشى الكفرة مفضلاً المرور بالعوينات[4]. وقبل الحرب

(1) يوجد فيها نخل، وتين، وشجر برتقال وليمون، وزيتون وحبوب مختلفة. انظر، G. Yver، موسوعة الإسلام، انظر الكفرة.

(2) R. Mauny, Tableau Geographique, p.334.

(3) R. Rebuffat, Routes d'Egypte, pp. 19-20.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(4) CF. Les articles: R. Forbes, Across The Libyan Desert; G.B Cao, Le ultime oasi; J. Ball, Remarks on Lost oases; D. Newbold, More lost Oases; M. Emerit, Les Liaisons terrestres. V. auss W.J. Harding, Mysteries of The Libyan Desert,=

العالمية الأولى كان يصل إلى الكفرة من الجنوب كل أسبوع قافلة مكونة من مائة إلى ثلاثمائة جمل تحضر معها الجلود والعاج وريش النعام وخشب الصندل[1]. وكانت المسالك في غاية الصعوبة بسبب نقص المعالم وعمق الآبار عندما توجد[2]، لدرجة أن المسافر كان يشعر بقلق أكبر عندما لا يصادف على طريقه هياكل جمال أو هياكل بشرية[3]. وتفسر عزلة الكفرة أن التبو فيها لم يتحولوا إلى الإسلام حتى نهاية القرن الثامن عشر[4].

اتبعت طرق الكفرة من قبل المسلمين، ثم أهملت في عهد لا يمكننا تحديده بثقة، ولكن يمكن أن نوقعه خلال القرن التاسع.

إن أول جغرافي ذكر ص. برو هو البكري، في مقطع طويل جاء تابعاً لوصفه الواحات[5]. يقول البكري بأن هناك ادعاء بوجود واحة ص. برو في الطرف الأبعد للواحات، وأنه لا يمكن الوصول إلى هذه الواحة إلا بالصدفة، عندما تضل الطريق في الصحراء. وقد تحقق رجل وصل إليها من أن المنطقة كانت غنية، وهي في «أخصب عيش». ولما كان الرجل لا يعرف طريق الرجوع

= pp.296, 298, 304-306; R Rebuffat, ref supra; AL-Hachaiche, Voyage au pays de La Senoussia, pp. 45-72 -(de Benghazi a Kufra), 73-131 (descrption de La confrerie des Senoussia), 132-148 (de kufra a wadan - 18 Jours puis Gath); G. Yver, E.I.S.V kufra; E. Cat, A travers le desert, pp.72-73.

(1) R. Forbes, op. cit. II, p.165.

(2) من جانب العوينات، تتجاوز أعماق الآبار أحياناً 70 متراً. انظر G.B.Cao، انظر المرجع المذكور، ص755.

(3) R. Forbes، المرجع المذكور، I، ص93. نفس المستكشفة. II، ص167 تشير إلى أنه على طريق الكفرة ـ الجغبوب يجب أحياناً حفر آبار.

(4) J. Chapelle, Nomades noirs, p.79; R. Mauny, Tableau Geographiuqe, pp.446,523 ويتكون السكان الحاليون من زوية. ويربر من الشمال مستعربون، جاؤوا إلى هناك في القرن الثالث عشر، ومن التبو، وهم قليلون، انظر G. Yver، المرجع المذكور. والزاوي، معجم، انظر الكفرة. وT. Lewicki، Etudes Maghrebines، II، ص50 ـ 51.

(5) مسالك، ص15 ـ 17/ 38 ـ 40.

نحو بلاده، فقد أراه السكان الطريق. كما وصل إليها عربي من قبيلة بني قرة يسمى رجمة بن قائد ورجع منها كذلك ولكن لما أراد الذهاب إليها من جديد لم يهتد إلى الطريق. وبعد سنة 420هـ/ 1029ف أعد أمير بني قرة، مقرب بن ماضي[1] زاداً وماء وتوغل في الصحراء يطلب ص.برو. وجال في المنطقة دون أن يتمكن من اكتشاف الواحة. ولما خاف من نفاد الزاد كر راجعاً[2]. وفي طريق عودته، مر بالواحات الخارجة[3]. ويقال أن في هذه المنطقة مساحات واسعة من الرمال تعرف بالجزائر، توجد فيها عيون ماء، وكثير من النخل ولكن التمور تبقى مكدسة في أسفل النخل لأن لا أثر لأي إنسان فيها، يأتي الناس لجمع التمور في سنوات الجدب فقط. ويحدث أن يفاجيء فيها غزاة ولصوص من السودان المسافرين المسلمين.

ينقل مؤلف كتاب الاستبصار عن البكري، ولكنه يورد بعض الأخبار الإضافية[4]. وحسبما جاء في هذا الكتاب، تقع بلاد الواحات في الصحراء بين مصر وأفريقية. ولولا ندرة المياه لكانت الطريق عبر الواحات لوصل مصر بأفريقية أسهل الطرق. ففي هذه المنطقة مدن كبيرة مسورة وغير مسورة وكل منها لها اسم يعود إلى الواح. فهناك أريس الواح[5]، وتانيس الواح والواح الخارج والواح صبروا[*]. وسكانها مسلمون. وهي آخر بلاد الإسلام. وفي بعض هذه

---

(1) De Slane ـ ترجمة البكري، ص38، رقم 2 ـ يعتبر أن الأمر يتعلق برئيس بني قرة، مقرب بن ماضي الذي يذكره ابن خلدون، البربر، ج1، ص37 ـ 38. حسب ابن خلدون، ربما كان هذا الشخص رئيس بني قرة عند وصول بني هلال إلى أفريقيا الشمالية. لا يقول البكري شيئاً عن الهجرة الهلالية وقد انتهى من كتابه سنة 1068ف.

(2) يتبع وصف أساسات جدار شيد بآجر من النحاس الأحمر الذي يمتد حول تل. وقد أخذ مقرب ورفاقه من هذا الآجر بقدر ما استطاعوا.

(3) تتبع قصة عملاقة سوداء، كانت تسرق التمور وهي أسرع في الجري من الجمال والخيول.

(4) ص147 ـ 150. هل أضاف المؤلف تفاصيل استقاها بنفسه أو أن لديه مخطوطة من جغرافية البكري مكتملة أكثر من المخطوطات التي مكنت من طبع ما في حوزتنا؟.

(5) في مخطوطة أخرى: أرسيس. البكري، ص14 ـ 15، يكتب أريش، وحسب ما يقوله تقع هذه الواحة على ثمانية عشر يوماً من سنترية/ سيوة.

(*) هكذا كتبها مؤلف كتاب الاستبصار. المترجم.

المدن الواحات قبائل من لواتة ولكن غالبية السكان من الأقباط. ويزعم أن في أقصى بلاد الواحات يوجد واح صبروا، وبه نخيل وحبوب وفواكه من كل نوع ومناجم ذهب، وهو أخصب بلاد الدنيا. وإذا أراد سكان صبروا ترحيل شخص وصل عندهم[1] أروه طرف بلاده، فيستولي عليه الشوق ويرحل كيفما يستطيع. وقد وصل رجل من بني قرة إلى صبروا بالصدفة، وبقي فيها بعض الوقت ثم رجع إلى بلاده. وقص ما رأى في المنطقة من الخيرات وما في أيدي رؤسائها من الأموال وذكر أن سكانه ليست لهم أي وسيلة دفاع، ولا سلاح عندهم لأنهم لم يعهدوا الحرب. ولما علم أمير بني قرة، مقرب بن ماضي بهذا قرر الذهاب إليها مصحوباً بالرجل الذي سبق له الذهاب إلى هناك. ووصل إلى الواحات الخارجة وسأل عن صبروا ولكن دون جدوى لأن السكان كانوا يجهلون الطريق التي توصل إليها وأكدوا له أنه لا يصلها أحياناً إلا من ضل في الصحراء، وغادر بنو قرة الواحات الخارجة مرتين للبحث عن صبروا وتجولوا في الصحراء ولم يجدوها. وتوجد بين الواحات المصرية والجريد الأفريقي أماكن تسمى «الجزائر» تجري فيها عيون وينمو بها النخل وليس بها ساكن، وتتكدس فيها التمور. ويقال أن بني سليم، معزولين في صحراء طرابلس، يذهبون لأخذ هذه التمور وهو ما يمكنهم من الاستمرار في الحياة. وإلى هناك أيضاً يلجأون في حالات الخطر للدفاع عن أنفسهم.

أضاف وصف الإدريسي بعض التدقيق[2]. حسب الإدريسي، بلاد التاجو. تتصل بالواحات الخارجة وهي الآن تعرف بأرض سنترية لأن فيها مدينة سنترية التي تأسست حديثاً[3]. وفي جنوب هذا المكان أطلال مدينة كانت من قبل مزدهرة كثيرة السكان تسمى شبرو. وقد تهدم بناؤها وغارت مياهها وتوحشت

---

(1) الحميري، انظر الواحات وهو يأخذ نص الاستبصار فيما يتعلق بصبروا، وأضاف أن الأجنبي الذي يصل إلى صبروا يصبح غنياً.

(2) نزهة، ص40 ـ 41/ 47 ـ 49.

(3) حول احتواء سنترية / سيوة في الواحات من عدمه، انظر Maspero et Weit، Materiaux، ص219 ـ 220.

حيواناتها الأليفة وغابت معالمها. ولم يبق منها إلا أطلال تختفي شيئاً فشيئاً ونخيل... [1]. ويحدث أن يبلغها العرب أثناء غزواتهم. وفي شمال شرق المدينة جبل قليل الارتفاع، تمتد في أسفله بحيرة كبيرة من الماء العذب قطرها حوالى 20 ميلاً[2]، قليلة العمق. وينزل على هذه البحيرة بدو كوار. ويهاجم العرب[*] في بعض الأحيان منتجعات أهل كوار. وبهذه الأرض اليوم مدينة م.رنده، وهي مدينة كثيرة السكان، ولكنها لا تمثل إلا محطة ثانوية ولا تستقبل إلا القليل من المسافرين لقلة بضاعتها، وصناعتها وتجارتها. وفي شمال هذه المنطقة توجد زلة/ زالة.

حدد T. Lewicki، في نهاية أبحاث دقيقة صبروا/ شبرو بمنطقة الكفرة[3]. ولا يسمح فحص الأحداثيات التي أوردها البكري وكتاب الاستبصار والإدريسي، وكذلك دراسة خريطة الإدريسي بالتشكيك فيما ذهب إليه T. Lewicki.

صبروا، التي هي الواحة الأقصى، ملتقى طرق عديدة. يوصل إليها من برقة. وبالفعل، أفادنا البكري أن عربياً من بني قرة وصل إليها، ونعرف أن بنى

(1) يحمل النص «تخل ماحل». ويلاحظ A. Dozy، ص48 رقم 3 أن كلمة ماحل تستعمل عادة للأرض. ويقترح أن يقرأ «لامحة» وتعني التي تظهر هنا وهناك أي التي تحمل فاكهة. والاقتراح الثاني يتوافق أكثر مع نصوص البكري وكتاب الاستبصار.

(2) ميل الإدريسي = 2كم.

(*) يقول الإدريسي: «.... وتسمى هذه المدينة شبرو، وقد تهدم بناؤها، وغارت مياهها، وتشرد حيوانها، وتنكرت معالمها، فلم يبق منها إلا طلل دارس، وأثر طامس، وبها بقايا نخل واحلة، وربما بلغتها العرب عند تصرفها في أكتاف هذه الأرض. وبشرق هذه المدينة مع الشمال جبل وعر ليس بكثير العلو... وفي أسفله بحيرة دورها نحو عشرين ميلاً، ماءها عذب ولكنه قليل العمق... وعلى هذه البحيرة ينزل رحالة أهل كوار، وربما زاحمهم العرب عليها فأوقعوا الضرر بهم. وبهذه الأرض في وقتنا مدينة مرنده وهي مدينة عامرة بأهلها والداخل إليها قليل لقلة بضاعاتهم واختصار صنائعهم وعدم الخيرات لديهم. لكنها ملجأ للوارد والصادر من رحالتهم وظواعنهم». المترجم.

(3) فيما يتعلق باسم واحة الكفرة/ ص295 ـ 306.

قرة كانوا مستقرين في أرض برقة في عهد الحاكم، الخليفة الفاطمي السادس، الذي حكم من سنة 996ف إلى 1021ف[1]، وهو ما يتوافق مع تأليف كتاب المسالك.

تقع زلة على الطريق المؤدي إلى صبروا، كذلك، إذ يبين الإدريسي أن زلة تقع شمال شبرو، ويقول في مقطع آخر أنه يتم الدخول إلى السودان[2] عبر زلة.

يتم الوصول إلى صبروا كذلك من سنترية ـ سيوة، كما يشير الإدريسي، ومن الواحات الخارجة حسب البكري وكتاب الاستبصار، ويعطي هذا الأخير صبروا نفس التسمية واح صبروا كالواحات المصرية. ولا يمكننا تصور أين يمكن البحث في مكان آخر عن الكفرة بدون البحث بعيدا في الجنوب. وهو مستبعد لأن الإدريسي وصفها في مقاطع أخرى نقطة التقاء هذه الطرق. هناك عناصر أخرى تدعم هذه القناعة. فقد أكد البكري ــ وكتاب الاستبصار من بعده ـ أنه بعد أن سمع أمير بني قرة الحديث عن هذه الواحة الغنية الغامضة قرر الذهاب إليها وأعد لهذا الغرض زاداً وماء. إن الحرص على أخذ العدة جيداً قبل التوغل في الصحراء أمر واضح لدرجة أن الجغرافيين العرب يرون من التزيد ذكره، إلا عندما يتعلق الأمر بمسار أو جزء من مسار في غاية الخطورة[3]. ولا تفسر مثل هذه الاحتياطات، انطلاقاً من برقة، إلا بالتوجه في عمق الجنوب بعد أوجلة.

لا نرى أين يمكننا أن نحدد في موقع آخر، أرضاً بها جزر نخل[4] كثيرة،

---

(1) ابن خلدون، البربر، ج1، ص7، 39.

(2) نزهة، ص132/ 158، نقله أبو الفدا، تقويم، ص128.

(3) ابن بطوطة، ج4، ص378 ــ 383، يعطي مثلاً يتعلق بالطريق الذي يصل المغرب الأقصى بالسودان الغربي، على الجزء بين تفازة وولاتة الذي يتضمن عشر مراحل بدون ماء، انظر عاليه، ص126 ورقم1.

(4) هذا أحد معاني جزيرة والمعاني الأخرى «جزيرة في البحر»، «وشبه جزيرة»، «وسهل ساحلي»، ومنطقة محصورة بين نهرين (قاموس Blachere)..

معروفة من سكان الواحات الخارجة، الذين لا يعرفون، مع ذلك، الطريق إليها، أرضاً تقع على الطريق الأقصر الذي يصل مصر بأفريقية (البكري، وكتاب الاستبصار) ولكنها لسوء الحظ فقيرة في الماء، أرضاً مزدهرة توجد فيها كل أنواع الفواكة والحبوب، وبوجه خاص، بها بلدات كثيرة (كتاب الاستبصار)، وبحيرة ماء عذب (الإدريسي). ولا نعتقد بأن تأكيد كتاب الاستبصار بوجود مناجم للذهب يعيب هذا الافتراض. لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بذكر الطريق المباشر الذي كان يقود من الواحات المصرية عبر مرندة إلى غانا، أرض الذهب[1]، وهو الطريق الذي هجر بأمر من أحمد بن طولون (868ف ـ 884ف) بسبب العواصف الرملية وعصابات قطاع الطرق، وهو طريق توجد عليه واحات فيها آثار استقرار، وكثير من أشجار الفاكهة ولحوم جمال أصبحت متوحشة[2]. ويفسر منع ابن طولون نسيان سكان الواحات المصرية للطريق الموصل إلى الكفرة في زمن البكري. كان هناك طريق، أو جزء من طريق، نحو أرض الكفرة ما زال مستعملاً في القرن الثاني عشر لأن الإدريسي يصف م.ر. نده كمحطة مرحلة[3] واقعة في هذه الناحية.

سنلاحظ كذلك، أن واحات الكفرة، في جنوب سنترية (الإدريسي) هي الأرض الوحيدة التي يمكن أن يصطدم فيها بنو سليم المستقرون في شمال إقليم برقة ويأتون لجمع التمور المهجورة (كتاب الاستبصار)، مع عصابات السود التي تأتي لمفاجأة المسلمين (البكري)، وحيث يهاجم العرب الكواريين الذين

---

(1) ابن الفقيه، ص68. هذا الكتاب عبارة عن تجميع من الكتب السابقة خاصة فيما يتعلق بالمغرب لابن خرداذبه، وهو صالح لمنتصف القرن التاسع، انظر W. Hoenerbach، Das Nordafrikanische، ص24، 28. وT. Lewicki، Arabic external Sources، ص28 ـ 29، مقدمة من حاج صدوق، Description du Maghreb، XII-X.

(2) ابن حوقل، ص61، 153/ 58، 151.

(3) في نفس الزمن، من المحتمل أن يهود حلوان كانوا يصلون إلى زويلة عبر الكفرة (حلوان على مسافة اثني عشر يوماً من أسوان)، في طريقهم إلى غانا. انظر Benjamin de Tudele، في Levtzion and Hopkins، Corpus، ص135 ـ 136، 393.

كانوا حول البحيرة (الإدريسي). ويجب ـ هنا ـ استبعاد العوينات التي يوجد بالقرب منها جبل ولا توجد فيها بحيرة، وكذلك واو الكبير، وليس في هذين المكانين بقايا مدن عديدة (كتاب الاستبصار).

لا يمكن أن تقع منطقة صبروا إلا في تخوم ممتلكات الأقباط ولواتة. يلاحظ كتاب الاستبصار أن الواحات تمثل نهاية بلاد الإسلام وأن سكانها مسلمون ولكن توجد أغلبية قبطية في بعض المدن مع وجود لواتي. وسبق لابن حوقل أن تحدث عن هذا الواقع إذ كتب أن الواحات الداخلة والواحات الخارجة تنتمي للعبدون وهم فرع من لواتة. وكان أمراء العبدون يسكنون الواحات الداخلة ويعاملون التجار باحترام شديد، وكان سكان الفرفرون ـ الفرافرة من القبط ولكن بها قصرين للعبدون، كما تسكن في هذه الواحات مجموعة مهمة من بني هلال[1]. وفي زمن البكري كانت غالبية سكان الواحات من القبط، ولكن كانت توجد لواتة[2] في بعضها. وكان شمال إقليم برقة ـ كما هو معروف ـ مسكوناً من لواتة أيضاً. ويجب ملاحظة أن منطقة الكفرة التي فيها بحيرات وجبل ـ جبل الهوايش ـ تقع عملياً على تقاطع خط طول برقة ـ بلاد لواتة ـ وخط عرض الواحات المصرية وهي إقليم للأقباط ولواتة.

إن وجود الأقباط في هذه المنطقة أو قربهم منها يطرح موضوع اشتقاق اسم الواحة، صبرو ـ شبرو. مأخوذاً في الاعتبار المعلومات المجموعة من عند الجغرافيين العرب، لا يمكننا إلا أن ندعم الاقتراح الذكي والمؤسس تأسيساً جيداً لـ T. Lewicki [3]. فقد استبعد الأصل العربي والبربري، وفكر في الأصل القبطي: Sapro, Sopro, Cepro, Cebro, Cephro, Gebro وتعني قرية، ضيعة وكانت تظهر في تسمية المواقع المصرية انطلاقاً من Cebro/Cepro تحت

(1) سورة الأرض، ص154 ـ 155/ 152 ـ 153. توضح خريطة ابن حوقل منتجعات بني هلال في منطقة الواحات المصرية.

(2) مسالك، ص14 ـ 15/ 35 ـ 38.

(3) فيما يتعلق باسم واحة الكفرة، ص305 ـ 306.

الشكل العربي شبرا أو شبري، أو شبرة أو عند المقدسي شبرو وهو الشكل الذي نجده عند الإدريسي. ولا يذكر ياقوت في المشترك أقل من ثلاثة وخمسين اسماً مصرياً لمواقع فيها شبرا[1]. ويبرر الشكل صبرو عند البكري انطلاقاً من Sapro لأننا نعرف أن حرف S يعرَّب غالباً بـ ص وأن حرف p يعرب إما ف وإما ب. ونضيف إلى حجج T. Lewicki أن لهذه الكلمة القبطية أصلاً سامياً حسب J. Gerny: أرمني Kapr، وعبرى Kfar = قرية، ونعرف أن بعض اللهجات العربية تخلط بين K وts[2]. ولا يمكننا إلا أن نربط بين القبطية Cepro\Cephro والأرمنيةKapr، والعبرية Kfar من جانب، والكلمة العربية كفر وجمعها كفور وهي تعني كذلك قرية. هكذا يمكننا أن نحدد أن المنطقة التي تعنينا سميت صبرو ـ شبرو من قبل الأقباط الذين كانوا يسكنون غير بعيد والذين تُكون هذه القرى بالنسبة لهم محطة قوافل مهمة، وأعيد تكييف اسمها من قبل العرب بالمعادل الصوتي كفرة. وهذا قد يمكننا من استبعاد الاشتقاق من كفرة «الكفار»، الذي أملته الأسلمة المتأخرة للكفرة، وهو اشتقاق متسرع وغير مؤسس والذي كان يمكن أن يؤدي إلى تسميات كثيرة متشابهة[3].

يكمن عنصر أخير في طوبوغرافية خريطة الإدريسي التي نعرف وجوب أن تفحص بحذر. نجد فيها ت.نرو ـ وهي إحدى ضيع صبرو المذكورة في المخطوطات ـ على خط عرض الواحات المصرية وخط طول أوجلة وفي شمال بلاد تاجوة التي رأينا أنها تتوافق في الغالب مع وداي. من الصحيح، أن ت. نرو تحتل موقعاً أكثر من اللازم نحو الجنوب بالنسبة لكوار لأنها تقع على خط عرض الواحات الأولى من الشمال، لكننا نعرف أن هناك ميلاً عند الجغرافيين العرب لضغط المناطق الجنوبية ضغطاً شديداً، وأن كوار في خريطة

(1) قائمة في W. Vycichl، Dictionnaire etymologique de la langue copte، ص 345 ـ 346.
انظر كذلك J. Cerny، Coptic Etymological Dictionary، انظر 335.

(2) Cf. Bruce Ingham, North East Arbian Dialects, London and Boston, Kegan Paul International, 1982, 208 et 17/p

(3) لنفس السبب تستبعد كفر، وكفران بمعنى ظلمات، عقوق، نكران.

الإدريسي موضوعة أكثر من اللازم نحو الشمال بالنسبة لجبل طنطنة ـ تاسيلي.

إن التحديد الدقيق لموقع م.ر.نده ـ وهي مأوى للمسافرين ـ يمثل مشكلة. إذا كان من الصحيح أن مرنده واقعة شمال ت.نرو، كما توضح خريطة الإدريسي[1] ـ وإذا كانت بلاد ت.نرو ـ شبرو تتوافق جيداً ـ كما نعتقد ـ مع منطقة الكفرة، نرى في الشمال واحات أبى زيمة وتازربو التي يمكن أن تمثل محطات تبادل للقوافل[2].

يجب انتظار القرن السادس عشر لنرى هذه المنطقة تذكر من جديد. سيسميها ليون الأفريقي بردوا على اسم قبيلة بردوا[3] التي تسكنها. وهي بلاد لا يمكن أن يعبرها في أمان إلا الغدامسية لأنهم أصدقاء قبيلة بردوا، وهي واقعة على مسافة خمسمائة ميل من النيل[4]. كان فيها في زمن ليون الكثير من النخيل الذي يعطي تموراً ممتازة، وثلاثة قصور اكتشفت فيها صدفة قبل ثماني عشرة سنة من ذلك الأوان من قبل دليل أعمى يتوجه عن طريق حاسة الشم[5]. في سنة 1809ف تخلى سلطان وداي عن الطريق عبر فزان بسبب الصعوبات التي يمثلها عبور تبستي وبسبب بعد طرابلس عن الأسواق الشرقية، وتوقف عن محاولة الوصول مباشرة إلى الواحات الداخلة لأن القوافل كانت تضل طريقها على هذا المسار، وقرر الوصول إلى بنغازي مروراً بالكفرة[6].

---

(1) انظر بعاليه، ص469 ـ 470.

(2) يجب أن نشير إلى أن كلا من A. Epaulard، H. Lhote، وليون الأفريقي يحددون صبرو بتازربو دون شرح. ولا نرى في تازربو صبرو إلا تشابهاً صوتياً بشرط أن تكون تا بادئة.

(3) يسمي ليون التبو باسم قبيلة واحدة من قبائلهم، بردوا (وهو الاسم الذي نجده في برداي، بلدة في تبستي) وهذه القبيلة تعيش الآن في تبستي. انظر J. Chapelle، Nomades Noirs (Index)، وديوان سلاطين بورنو، ص103 ـ 104.

(4) الميل عند ليون = 1.6كم. المسافة بين الكفرة والنيل 1000كم.

(5) Deseription de L'Afrique, II, pp453-454 et n.170, p.457.

(6) E. Emerit, Les Liaisons, terrestres, p.44-47.

المســـارات

ليس لدينا عن المسارات الإسلامية العابرة للصحراء، وحتى الشمال أفريقية، أعمال ذات طبيعة شاملة مثل:

- Die Post-und Reiserouten des Orients

لمؤلفه. أ. سبرنقر A. Sprenger.

- Das Wegenetz des Zentralen Maghreb in Islamischer Ziet, ein Vegleich mit dem antiken Wegntz.

لمؤلفه فورستنر M. Forstener

اللذان يعالجان ـ حسب الترتيب ـ الطرق الشرقية والشمال جزائرية. بالرغم من أن الصحراء تمثل عقبة طبيعية إلا أنها أبعد ما تكون عن عدم القابلية للعبور، ومثلت طوال الزمن وعاء للتفاعلات العرقية والفنية ـ دلت على ذلك أعمال التنقيب عن الآثار ـ والاقتصادية والدينية والوبائية سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الغرب إلى الشرق. ستظهر أي دراسة للمسارات الصحراوية غير كاملة بالضرورة، في المكان كما في الزمان بسبب الطبيعة الجزئية للمعلومات التي في حوزتنا والاستحالة التي نحن فيها فيما يتعلق بتحديد أسماء كثير من المواقع. بالرغم مما سبق، فإن من الضروري إجراء فحص سريع للطرق الرئيسية من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب للوقوف على الطبيعة المتميزة للمسارات العابرة لليبيا.

سنقبل كمتوسط يومي «عادي» مسافة من ثلاثين إلى أربعين كيلومتراً في أرض «عادية»، وهي، المسافة التي يقطعها الصحراويون الذين أخبرونا. وقبل أن ننتقد تقديرات الجغرافيين العرب، نأخذ في الاعتبار أن تباين تقديراتهم قد يكون بسبب اختلاف مصادرهم والقوافل التي كانوا فيها: صغيرة، كبيرة، قافلة حجاج أو قافلة عسكريين. كما يجب أن يؤخذ في الاعتبار كذلك السرعة الكبيرة على الطرق العابرة للصحراء بسبب تباعد نقاط المياه وضرورة الإسراع بتوصيل السلع حتى تصل في أحسن حالة ممكنة، خاصة في حالة الرقيق. وتقطع المسافات في المناطق المأهولة ببطء أكثر لأن أصحاب القوافل قد يجدون من المفيد ـ حسب الظروف ـ بيع منتجاتهم في البلدات المعبورة ويشترون منها، كما يحرصون على التمتع بما تقدمه لهم مناطق الاستقرار. وكانت المسارات السودانية أبطأ للأسباب المذكورة مضافاً إليها الطبيعة المتقلبة للطرق حسب الفصول، وهذا أكثر ما يكون وضوحاً في ناحية منعطف نهر النيجر وفي حوض تشاد حيث شواطىء البحيرة متحركة، وحيث تنتقل الأذرع المائية من سنة إلى أخرى حيث قد تضطر الرطوبة الكبيرة للتربة المسافر إلى دورات طويلة.

لم نقطع كل الطرق ولم نسلك كل المسارات، بالطبع، ومن ثم فليس في إمكاننا دائماً أن نُقيِّم التقديرات فيما يتعلق بالمتوسط اليومي الذي يمكن قطعه. يجب أن يؤخذ توضيح معدل مُبالغٌ في سرعته بحذر، فمن المستحيل على قافلة تجارية أن تصل إلى سبعين كيلومتراً في اليوم، وهو معدل استثنائي حتى لرتل عسكري. وبالعكس قد يعود معدل بطيء جداً إلى صعوبات في الأرض أو خطأ من الجغرافي. فعلى سبيل المثال، يتطلب قطع مسافة الثمانين كيلومتراً مقاسة في خط مستقيم بين غات وجانيت أربعة إلى خمسة أيام لأن الأودية العميقة والأراضي الوعرة تعرقل حركة الرجال، وحركة الجمال خاصة. كذلك، يتطلب قطع مسافة الخمسين كيلومتراً من تكركيبة إلى قبرعون، وهي الواحة الأقرب من ثلاث واحات معزولة في دهان أوباري ومسكونة من الدوادة[1]، ثلاث ليال. إذ لا بد من عبور

(1) انظر بعاليه، ص492 رقم 2.

بحر حقيقي من الرمال يصل فيه ارتفاع التلال الرملية غالباً مائة متر، ويبلغ أحياناً مائة وخمسين متراً، وهو ما يمثل مغامرة، إذا ما قبل سكان وادي الآجال تأجير جمالهم لهذا الغرض. ولن يكون ممكناً تقييم المسارات إذا ما كانت البيانات التي يُحصل عليها لنفس المكان أو مما كتبه الرحالة غير كافية في حالة عدم دقة البيانات على الخرائط الحديثة.

يعود تاريخ أول المعطيات حول المحاور الشمال أفريقية، والطرق العابرة للصحراء إلى القرن التاسع، ولم تصلنا[1] الكتابات المتعلقة بالأنشطة التجارية العابرة للصحراء خلال القرنين السابع والثامن. من الطبيعي، أن التجارة التي كانت من قبل في العهد الروماني لم تتوقف لقرون عديدة، وتكفي قراءة تقارير المؤرخين حول الفتح لإدراك أن المطالب ـ المبالغ فيها أحياناً ـ للأمراء المشرقيين والمصريين لا يمكن إلا أن تقوي الأنشطة التجارية. وقد كشفت غارة عقبة بن نافع على فزان وكوار عن المصادر السودانية لتجارة الرقيق. بالرغم من أن المؤرخين ركزوا على الفتوح نحو الغرب خاصة. يمكن افتراض أن الحملات على بلاد السود لم تتوقف، ففي النصف الأول من القرن الثامن، أمر عبيد الله بن الحبحاب والي مصر الذي كلف بشؤون أفريقية، في مايو ـ يونيه 734ف، القائد العسكري حبيب بن عبيدة الفهري القيام بحملة على السوس والسودان. وقد حققت هذه الحملة نجاحاً كبيراً وأحضر حبيب كمية هائلة[2] من الذهب. ولا يمكن أن يكون لهذه الغارة من مبرر إلا طمع الخليفة هشام بن عبد الملك[3].

(1) زودنا وهب بن منبة (قبل 728ف) والفزاري (النصف الثاني من القرن الثامن) ببعض الأخبار حول السودان، انظر الترجمات الفرنسية، J.M. Couq، Recueil، ص41 ـ 43، والانجليزية في Corpus, Levtzion and Hopkins، ص15، 32. وكانت غانا تسمى عند الفزاري ببلاد الذهب.

(2) كما أحضر حبيب أسرى من بينهم فتاتان لكل منهما ثدي واحد. انظر ابن عبد الحكم. ص122 ـ 123. والبلاذري. ص233. وانظر بعاليه، ص185.

(3) المسعودي، تنبيه، ص322/ 417.

فرضت متطلبات البريد والتجارة على الجغرافيين، في القرن التاسع، وصف هذه البلدان التي كانت حينها هادئة، ووصف الطرق إلى مصادر التزود بالذهب والرقيق. سنتبع هذه المسالك من الشرق إلى الغرب انطلاقاً من النيل ثم ندرس، بعد ذلك، الطرق العابرة للصحراء.

كانت هناك، بالإضافة إلى الطريق البري القادم من الجزيرة العربية الذي يصل القاهرة عبر قلزم وأيلة في طرف خليج العقبة[1]، موانىء كثيرة على الساحل الأفريقي لنقل الحجاج واستقبال المنتجات الشرقية وتصدير السلع الأفريقية.

كانت زيلع[2]، الواقعة على بضع كيلو مترات جنوب جيبوتي الحالية، هي مرسى السفن القادمة من المشرق ومن عدن. كان سكان زيلع من الصيادين. لم تكن المدينة كبيرة ولكنها كثيرة السكان ويوجد فيها الكثير من الأجانب الذين اجتذبتهم التجارة. وكانت زيلع تتاجر مع الحبشة، وتصدر العبيد والفضة، والذهب فيها نادر[3]. كما كان سكان المنطقة يصطادون الفيل من أجل العاج، ووحيد القرن لقرنه، والنمر لجلده. وكانوا يصدرون كذلك جلود الماعز[4].

كان التجار عندها يستطيعون مواصلة السفر بحراً نحو الحجاز[5] أو مصر أو يتوغلون براً للوصول إلى النيل، حيث يجدون البواخر القادمة من دنقلة التي كانت مرتبطة ببلاد الزغاوة[6]، وكوكو ـ جاو الواقعة على مسيرة أربعين يوماً.

(1) اليعقوبي، بلدان، ص313 ـ 314، 340 ـ 341/ 148 ـ 150، 198 ـ 200. وأبو الفدا تقويم، ص116 ـ 117.

(2) زيلع هي التهجية الحالية وهي تهجية ابن حوقل وياقوت. ويكتبها الإدريسي زالغ، والحميري زالع ولكنه يشير إلى أنها تكتب كذلك زيلع.

(3) الإدريسي، ص24 ـ 25/ 28 ـ 30 منقولاً من قبل الحميري.

(4) نفس المرجع، وياقوت. انظر حول زيلع، index, III, II, Geogra phie, A. Miquel.

(5) ابن حوقل، ص56/ 54.

(6) ابن المهلبي، في أبي الفدا، تقويم، ص158 ـ 159.

وعند الوصول إلى الشلال الأول في بلاق ـ فيلة وهي أول مدينة مسلمة يوصل إليها عند القدوم من الجنوب، كان يجب تفريغ البواخر وحمل البضائع على الجمال حتى أسوان[1]. ولم تكن البواخر الصاعدة في النيل تجاوز هذه المدينة، ومن ثم كان على التجار المسافرين نحو الجنوب القيام بنفس العملية[2]. كانت أسوان حاضرة تجارية وآخر مركز إسلامي كبير ومدينة مهمة تلتقي فيها الطرق القادمة من دنقلة[3] والقاهرة[4] وعيذب ومن المغرب. كانت الطريق القادمة من ميناء عيذب على البحر الأحمر تعبر منطقة العلاقي القريبة للغاية من أسوان[5]، وكان سكان هذه المنطقة من الباجة الوثنيين والمسيحيين[6] الذين كانوا يتولون مسؤولية قوافل الحجاج[7]، وكان هناك منجم للذهب مستغل من قبل العبيد[8] وكان ما يستخرج منه يقسم بين السلطان والعاملين[9]. . كانت عيذب، التي كانت تحصل ضرائب على الحجاج المغاربة[10]، ميناء ركوب إلى الحجاز واليمن[11]، وتتاجر في الذهب والعاج[12].

---

(1) الإدريسي، ص10/ 12.

(2) اليعقوبي، بلدان، ص334، 336/ 189، 191 ـ 192. والإدريسي، ص20 ـ 21/ 24. والمقريزي، كتاب، ج1، ص199.

(3) الإدريسي، ص19 ـ 21/ 24 ـ 25 (33 يوماً). والمقريزي، كتاب، ج1، ص191 (50 يوماً). والمسافة بين هاتين النقطتين حوالى 750كم.

(4) ابن حوقل، ص144 ـ 145/ 143 (حوالى عشرين مرحلة). والإدريسي، ص52/ 59 (25 يوماً).

(5) اليعقوبي، بلدان، ص344 ـ 335/ 189 ـ 190. والمهلبي، في أبي الفدا، تقويم، ص120 ـ 121. وابن سعيد، بسط الأرض، ص50. المقريزي، المرجع أعلاه. والحميري، انظر أسوان.

(6) المسعودي، مروج، ج2، ص26.

(7) ابن سعيد، المرجع أعلاه.

(8) اليعقوبي، بلدان، ص334/ 190. الإدريسي، ص27/ 32.

(9) ياقوت، انظر العلاقي.

(10) الحميري، انظر، عيذب.

(11) ابن حوقل، 56/ 43. واليعقوبي. بلدان، ص335/ 190.

(12) اليعقوبي، المرجع أعلاه.

كان يتجه من أسوان طريق نحو الغرب يُمكِّن من الوصول إلى الواحات[1]. كما يمكن سلوك طريق الشمال بالقوارب أو براً نحو أدفو وأسنا، وأرمنت والأقصر ودمامين، وهي مدينة جميلة غالبية سكانها من المغاربة[2]، ومنها يمكن الوصول إلى الواحات الخارجة[3]. كانت بهذه البلدات حقول ونخيل ويمارس سكانها، كذلك، التجارة[4]. ومن دمامين يتم الوصول إلى قوص وهي أهم مدن الصعيد، وكانت قد حلت محل الأقصر، في القرن التاسع، كحاضرة تجارية للمنطقة[5]. وكانت بها زراعات مزدهرة وتصدر فواكة إلى كل المناطق في مصر، كما كانت بها مساكن بديعة، وحمامات ومدارس ومستودعات وأسواق فقد كانت قوص محطة القادمين من الحجاز وعدن، كما كان يصلها بالقصير على البحر الأحمر[6] طريق جبلي يستغرق قطعه خمسة أيام[7]. وكان الذهاب من القصير إلى عيذب[8] يتطلب ثمانية أيام. كما كان هناك طريق من قوص نحو الغرب يؤدي إلي الواحات[9].

على سبعة أميال شمال قوص، كانت قفط تعيش كذلك على التجارة

(1) ابن حوقل، ص155/ 152 ـ 153. والإدريسي، ص22/ 27.

(2) الحميري، انظر دماميل، وياقوت، دمامين.

(3) ابن حوقل، ص154/ 152.

(4) المهلبي في أبي الفدا، تقويم، ص110 ـ 113. وابن حوقل، ص144 ـ 145/ 143. والإدريسي، ص50/ 57 ـ 58. وياقوت، انظر أدفو، أسنا، أرمنت.

(5) اليعقوبي، بلدان، ص333 ـ 334/ 188.

(6) المسعودي، مروج، ج2، ص26. والإدريسي، ص49/ 56 ـ 57. وابن سعيد، بسط الأرض، ص50، 63. وياقوت، انظر قوص وقصير. وأبو الفدا، تقويم، ص110 ـ 111. القلقشندي، ج3، ص400.

(7) ياقوت، انظر قصير. 3 أيام فقط حسب أبي الفدا، المرجع أعلاه.

(8) ياقوت، نفس المرجع.

(9) Benjamin de Tudele, cité par P. Borchardt, Die Grossen Ost-West-karawanenstrassen, p.219a.

البعيدة خاصة[1] مع الهند. ومن القرن العاشر بدأ انحدار[2] هذه المدينة، وفي القرن الخامس عشر كانت قد تخربت تماماً[3].

إذا واصلنا نحو الشمال، دخلنا في ناحية بليانة والمسماة قديماً أبشاية[4]. ومن هناك يمكن الوصول إلى الواحات الخارجة في ستة أيام ومنها يمكن الوصول إلى الواحات الداخلة في أربعة أيام ثم أربعة أيام أخرى إلى الفرفرون ـ الفرافرة وأخيراً إلى سنترية ـ سيوة[5].

إذا واصل المسافر نزول النيل من قوص، يصل إلى أخميم وهي مدينة مسورة ذات سوق، تحيط بها أشجار النخيل والتين[6]، وكان يصنع فيها سجاد مشهور[7] من الجلد. ومن هذه المدينة كان يمكن الوصول إلى الواحات، وهي منطقة يمكن بلوغها كذلك انطلاقاً من أسيوط الواقعة على النيل[8] نحو مصبه. وأسيوط مدينة مهمة تحيط بها زراعات سكانها من المسيحيين وكانت تصدر الأفيون المستعمل في الطب والملابس، والذي لا مثيل له في أي مكان آخر، والسجاد[9]. وكانت تتجه من أسيوط طريق نحو الجنوب معروفة منذ القدم،

(1) الإدريسي، ص48 ـ 49/ 56. وياقوت، انظر قفط، والقزويني، ص241، وأبو الفدا، تقويم، ص110 ـ 111. والحميري، انظر عيذب.
(2) المسعودي، المروج، ج2، ص26.
(3) المقريزي، كتاب، ج1، ص232.
(4) ابن خرداذبه، ص81/ 59. واليعقوبي، ص332/ 187. وابن حوقل، ص145/ 143. والمقدسي، ص55. والقزويني، ص158. وياقوت والحميري. انظر بليانة.
(5) اليعقوبي، المرجع أعلاه. وابن حوقل، ص154 ـ 155/ 152 ـ 153. والبكري، ص14 ـ 15/ 35 ـ 38.
(6) الإدريسي، ص46 ـ 47. وابن سعيد، بسط الأرض، ص63. والقزويني، ص139. وياقوت انظر أخميم. وأبو الفدا. تقويم ص110 ـ 111، والقلقشندي، ج3. ص400. والحميري، انظر أخميم.
(7) اليعقوبي، بلدان، ص332/ 187. هدمت هذه المدينة في القرن السادس عشر. وحسب ليون الأفريقي، ج2، ص532 ـ 533 أخذوا منها الأحجار لبناء مدينة المنشة على الضفة المقابلة.
(8) ابن حوقل، ص154/ 152.
(9) اليعقوبي، بلدان، ص331/ 186. والإدريسي، ص48/ 56. وابن سعيد، بسط الأرض، ص63 منقولاً من أبي الفدا، تقويم، ص112 ـ 113. والقزويني، ص147. وياقوت، انظر أسيوط. =

وهي المشهورة بدرب الأربعين ـ طريق الأربعين يوماً[1]. وكانت تعبر الواحات الخارجة وتمر بالشب وسليمة والأطرون لتؤدي إلى دارفور وكبية غير بعيد من الفاشر ـ وكانت القوافل التي تسلك هذا الطريق تَحضر إلى دارفور بمعدن مصنع ومنسوجات، وتشتري الرقيق والعاج والجمال وريش النعام[2]. وقد هجر هذا الطريق الذي يمتد إلى بلاد الذهب، غانا، بسبب العواصف الرملية وقطاع الطرق[3]، ولم يعد للاستعمال إلا بعد فتح المسلمين لمملكة النوبة[4]. في القرن السادس عشر، كان درب الأربعين يمثل المقطع الأصعب في الطريق الذي يصل ولاتة بالقاهرة مروراً بتمبكتو[*]، وكوكو ـ جاو، وأغاديس، وشمال بحيرة تشاد ـ حيث يعيش التبو ـ، والقاوجا للوصول إلى كبية[5]. وقد اختير هذا المسار «الطويل، ولكن المأمون جداً» في ذلك العهد مفضلاً على الطريق الذي يعبر الصحراء[6] وكان يتردد عليه العرب «الذين هم أسوأ وأفظع قتلة في الدنيا»[7].

بعد أسيوط في اتجاه مصب النيل كانت أشمون هي المحطة قبل الأخيرة قبل الوصول إلى القاهرة، وهي مدينة مهمة تركز على الزراعة ومحاطة بالنخيل[8]

= والقلقشندي، ج3، ص399. والحميري، انظر أسيوط. ليون الأفريقي، ج2، ص532 يلاحظ كرم الضيافة الذي يوفره للمسافرين رهبان الدير المسيحي القريب جداً.

(1) أعتقد أنه جاك بيرك الذي لاحظ أنه لا يجب أخذ أربعين بالمعنى الصارم ولكن بمعنى «عدد كبير»، وهناك كثير من العبارات المصرية التي تستعمل أربعين بهذا المعنى. من الواحات الخارجة طول الدرب حتى نهايته 1400 كيلومتر.

(2) P.M. Holt, E.I. S.V.Darb al-Arbain, M. Asher, In Search of the the Forty days Road, pp.55-57, 157.

(3) ابن حوقل، ص61، 153/ 58، 151.

(4) R. Mauny, Tableau Geographique, pp.436/437.

(*) يلاحظ القارئ أنها كتبت بتهجيات مختلفة، وقد احترمنا ما أورده المؤلف الذي راعى مصادره. المترجم.

(5) حول جاوجا، انظر بعاليه، ص466.

(6) Leon L'Africain, I, pp. 9-10, 53.

(7) المرجع السابق، ص43.

(8) ياقوت، انظر أشمون. القلقشندي، ج3، ص398.

وكانت مشهورة بحيوانات الركوب[1]. كما كان هناك طريق يبدأ من أشمون ويؤدي إلى الواحات الخارجة[2]. تأتي، أخيراً، بالقرب من الفيوم، بهنسة وهي مدينة كثيرة السكان بها أسواق يرتادها التجار مجذوبين إليها بصناعاتها التقليدية من النسيج المشهور، فقد كان ينسج فيها البروكار وتصنع فيها قطع بديعة من القماش، والستائر، وأغطية الخيام، والملابس الجميلة[3]. من بهنسة كان يُسافر إلى الواحات[4]. ولا يجب الخلط بين بهنسة ـ بهنسة الصعيد وتلك التي تحمل اسمها، بهنسة الواحات ـ والمسماة حالياً البحرية[5] ـ الواقعة على 180 كيلومتراً غرب، جنوب ـ غرب وهي سوق صحراوية صغيرة منها يمكن الوصول إلى سنترية[6] في عشرة أيام. وقد سمى الإدريسي بهنسة الواحات ـ البحرية بالجفار وحدد موقعها بيومين من البحرين (200 كم) وهي على مسافة يومين من سنترية(160كم)[7]، وعلى بعد ثلاثة أيام دون ماء من الواح[8]. ويبدأ من البحرية طريق نحو الجنوب نحو الفرافرة، وآخر نحو الشمال نحو غرق في الفيوم التي يمكن الوصول منها إلى القاهرة[9] في أربعة أيام.

كانت هناك ثلاث طرق على الأقل تؤدي من شمال مصر إلى ليبيا. تأتي إحداها من المراكز التجارية على النيل والواحات وتغادر سنترية مارة بشمال

(1) اليعقوبي، بلدان، ص331/ 186.

(2) ابن حوقل، ص154/ 152.

(3) اليعقوبي، بلدان، ص331/ 186. الإدريسي، ص50 ـ 61/ 58. ياقوت انظر بهنسة، سنترية. وأبو الفدا، تقويم، ص110 ـ 111 الذي يذكر جزئياً ياقوت والقلقشندي، ج3، ص397. والمقريزي، كتاب، ج1، ص237. والحميري، انظر بهنسة الذي ينقل عن الإدريسي.

(4) أبو الفدا، المرجع بعاليه.

(5) T. Lewicki, A. props du nom de L'oasis de Koufra.

(6) البكري، ص9/ 36. وياقوت. انظر سنترية. وأبو الفدا، المرجع بعاليه.

(7) الإدريسي، ص44/ 52.

(8) نفس المرجع، ص44/ 51. لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بواحة الفرافرة البعيدة عن البحرين بمسافة 180كيلومتراً.

(9) Benjamin de Tudele, cité par p. Borchardt, karawanenstreassen, p.219a.

الرملة عبر الجغبوب لتصل إلى أوجله في عشرة أيام[1]، وطريق آخر، يبدو مباشراً، يعبر الرملة ويسمح بقطع المسافة، أكثر من 450 كيلومتراً، في ثمانية أيام[2].

تلتقي الطرق المتجهة إلى برقة القادمة من القاهرة والاسكندرية[3] ـ حيث تصل طريق قادمة من سنترية ـ في ذات الحمام (بضم الحاء) ـ الحمام[4] (بفتح الحاء)، على بعد ستين كيلومتراً غرب الاسكندرية[5]، ومن ذات الحمام يتم الوصول إلى برقة بسلوك طريق على طول الساحل[6] ـ وتلتقي بالطرق القادمة من سنترية في رأس الكنائس في لوك (مرسي لك)[7](*) ـ حيث كان يترك الساحل عند الخليج ـ العقبة لسلوك طريق في الداخل[8]. ومن برقة إلى ميناء برنيق مسيرة يومين[9].

كانت الطريق نحو أفريقية تتفادى أو تمر عبر أجدابيا. وكانت الطريق نحو أجدابيا تتجه بداية نحو سلوق ومن هناك على طول الساحل، أو تسلك مساراً داخلياً، وتقطع المسافة في أربعة أيام (200كم) وتقابل ست محطات[10]. وكانت

(1) البكري، ص14/ 35. وياقوت، انظر أوجلة. وأبو الفدا، تقويم، ص129.

(2) أبو الفدا، المرجع بعاليه.

(3) 80كم. في عشرة أيام، حسب أبي الفدا، تقويم، ص129 الذي قال إنه ينقل عن الإدريسي. هذا الخبر لم يرد في نزهة المشتاق. في 11 يوماً، حسب المقريزي، كتاب، ج1، ص235.

(4) انظر بعاليه، ص261. رقم 1.

(5) قدامة، ص221 ـ 223/ 167 ـ 168.

(6) 330كم، في ثمانية أيام حسب أبي الفدا، تقويم، ص128 ـ 129.

(7) 380كم، في ثمانية أيام حسب الإدريسي، ص44/ 52 ورقم 2.

(*) التسمية الحالية، المترجم.

(8) يتضمن المساران 19 مرحلة ابتداء من ذات الحمام. قوائم المحطات مختلفة أحياناً وتمثل نواقص، في ابن خرداذبه، ص84 ـ 85/ 61 ـ نشر، حاج صدوق، ص2 ـ 3. واليعقوبي، ص342 ـ 343/ 200 ـ 201. وقدامة، ص220 ـ 221/ 167 ـ 168. والمقدسي، ص144 ـ 245 ـ نشر Ch. Pellat، ص62 ـ 63 وابن حوقل، خريطة، ص66 ـ 67/ 60 ـ 61. والبكري، ص2 ـ 7/4 ـ 13. والإدريسي، ص132، 136/ 157، 163 ـ 164.

(9) اليعقوبي، ص344/ 203.

(10) ابن خرداذبه، ص85 ـ 86/ 61 ـ 62 نشر حاج صدوق، ص4 ـ 5. واليعقوبي، =

تنتهي إلى أجدابيا طريق تغادر طريق الاسكندرية ـ برقة في المخيل(*) وتتجه نحو الجنوب الغربي[1] وآخر يأتي من ميناء برنيق[2]. ومن أجدابيا يتم الوصول إلى سرت(380كم) في خمس أو ست مراحل[3]. وكانت المسافة سرت ـ طرابلس تقطع في حوالى عشرة أيام[4]، وتمر الطريق بمغمداش التي انطلق منها عقبة لحملته على كوار، وبقصور حسان، وتاورغاء ـ التي تشكل عادة الحد الشرقي لولاية طرابلس وأفريقية ـ ولبدة ـ لبتس ماجنا[5].

كانت الطريق نحو القيروان ـ قلب أفريقية ـ تمر بصبرا وتعبر سهل الجفارة ثم تمتد على طول الساحل حتى قابس قبل أن تأخذ طريقاً داخلية نحو القيروان. وكانت المسافة طرابلس ـ القيروان تقطع في عشرة أو اثني عشر يوماً: طرابلس ـ قابس، ستة أيام، وقابس ـ القيروان أربعة أو خمسة أيام[6].

= ص344/ 203. وقدامة، ص222 ـ 223/ 169. والمقدسي، ص245 ـ نشر Ch. Pellat، ص63 ـ 64. وابن حوقل، خرائط، المرجع أعلاه. والبكري، ص6/ 19. والإدريسي، ص135/ 161 ـ 162.

(*) هكذا يكتبها المؤلف. وهي اليوم المخيلي. المترجم.

(1) قدامة، المرجع أعلاه.

(2) اليعقوبي، ص344/ 203.

(3) ابن خرداذبه، ص85 ـ 86/ 62. واليعقوبي، المرجع أعلاه. وقدامة، ص223 ـ 224/ 169. والمقدسي، ص245 ـ نشر Ch. pellat ـ، ص62 ـ 65. والإدريسي، ص134 ـ 135/ 160 ـ 162 (يذكر هؤلاء المؤلفون المحطات الوسيطة). والبكري، ص6/ 19. وياقوت، انظر سرت. وإسحاق بن حسين، في كمال، Momumenta، ج3، ملزمة 2، ص623 وهو يقدر مدة السفر بثلاثة أيام. حسب قدامة، المرجع أعلاه، كانت توجد طريق تؤدي نحو أفريقية دون المرور بطرابلس، والتفاصيل حول هذا المسار لا توجد في المخطوطة.

(4) ابن خرداذبه، ص86/ 62 ـ نشر حاج صدوق، ص4 ـ 5 (8 محطات وسيطة). اليعقوبي، ص344، 346/ 203 ـ 204، 206 (8 مراحل). وقدامة، ص224/ 169 (8 محطات). المقدسي، ص245 ـ نشر Ch. Pellat، ص62 ـ 63 (6 محطات). والبكري، ص6 ـ 8/ 19 ـ 24 ـ 10 (10 أيام). والإدريسي، ص122/ 143 (11 يوماً). وياقوت انظر سرت (10 مراحل).

(5) انظر بعاليه، ص157.

(6) ابن خرداذبه، ص86 ـ 87/ 62 ـ نشر حاج صدوق، ص4 ـ 7. واليعقوبي، ص346 ـ 347/ 208. وقدامة، 224 ـ 225/ 170. والمقدسي، ص246 ـ نشر Ch. Pellat ص64 ـ 65 (5 مراحل فقط من طرابلس إلى قابس). والبكري، ص17 ـ 20/ 41 ـ 47 (طرابلس ـ قابس، قابس ـ صفاقس، صفاقس، القيروان). والإدريسي، ص121/ 141 ـ 142.

كانت هناك طريق تؤدي من قابس إلى صفاقس التي يمكن الذهاب منها إلى المهدية ومدينة تونس. كما كان يمكن الوصول من صفاقس إلى قفصة والجريد الذي تصله الطرق القادمة من القيروان وقابس. كما كان هناك طريق مباشر يربط مدينة تونس بالجريد عبر القيروان[1].

كان الوصول إلى جبل نفوسة[2] من طرابلس يستغرق ثلاثة أيام، وخمسة أيام لبلوغ شروس[3]. ومن جبل نفوسة يمكن التوجه نحو نفزاوة والجريد[4]، ونحو قفصة[5] ثم القيروان[6]. وربما كان الطريق من نفوسه نحو ورقلة ـ الذي يذكره الإدريسي[7] ـ يمر بالجريد[8]. كما كانت إحدى الطرق تتوجه من الجبل نحو الجنوب مارة بالمراكز الأباضية الكبيرة ـ نالوت، سيناون، درج ـ للوصول إلى غدامس، وكانت المسافة تستغرق سبعة أيام[9]. ويمكن بلوغ قابس من غدامس في أربعة عشر يوماً[10]، وورقلة في عشرين يوماً من عبور صحراء لا ماء[11] فيها.

مثلت ورقلة واحدة من أهم عقد الاتصال الشمال أفريقية وكانت مربوطة

---

(1) انظر، خاصة الإدريسي، ص106 ـ 118/ 124 ـ 138.

(2) اليعقوبي، ص346/ 207 ـ 208. والبكري، ص9/ 25. والاستبصار، ص110. والإدريسي، ص122/ 144 الذي يورد 6 أيام دون أن يحدد بالدقة الهدف، يمكن أن تكون جادو أو غريان. ياقوت، انظر نفوسة وطرابلس. والحميري، انظر طرابلس.

(3) البكري، المرجع أعلاه. وياقوت، انظر شروس.

(4) الإدريسي، ص122/ 114 (6 أيام).

(5) الإدريسي، ص105/ 123. والحميري، انظر نفوسة.

(6) البكري، ص9/ 25. والاستبصار، ص144. وياقوت، انظر نفوسة. والحميري، انظر طرابلس.

(7) نزهة ص106/ 124 (12 يوم). والبكري، ص182/ 340 (الجريد ـ ورقلة).

(8) T. Lewicki, Etudes Maghrebines, I, p.129.

(9) الشماخي، مستشهداً به من قبل T. Lewicki، المرجع المذكور، ج1، ص30، وج2، ص59. والبكري، ص182/ 340. والاستبصار. ص145.

(10) المهلبي في أبي الفدا، تقويم ص142 ـ 143.

(11) الاستبصار، ص224.

بوادي ريغ (توجورت)، وبالزاب (بسكرة) وبقسطنطينة[1] (غرداية)[2] وبقلعة بني حماد[3] وبتاهرت عبر الأغوات ـ لجوات[4]، وبتلمسان[5] وبسجلماسة عبر القليعة[6]. وكانت هناك طرق كثيرة تصل هذه المدن ببعضها البعض وبالساحل[7].

كانت تتوجه من تلمسان طريق إلى المغرب الأقصى، نحو فاس حيث تلتقي الطرق القادمة من سبتة، وطنجة وسلا. كما كانت طريق تربط فاس ـ عبر تدالة ـ بأغمات، وهي مركز كبير في جنوب المغرب بدأ في الانحدار عندما تأسست مراكش، ومن أغمات يمكن الوصول إلى الساحل إما بالتوجه غرباً أو بالمرور عبر تارودانت. كان طريق الشرق يؤدي إلى سجلماسة[8] حيث تنتهي كذلك الطرق القادمة من القليعة، وتاهرت[9]، وتلمسان، وكان طريق فاس منفصلاً على المسار المباشر تلمسان ـ سجلماسة[10].

كان يوجد طريق ساحلي للذهاب إلى السودان يوصل إلى ملاحات أوليل

---

(1) كان الزاب يصدر تموره إلى السودان، انظر الإدريسي، ص4/ 5. وابن خلدون، البربر، ج3، ص286. وليون الأفريقي. ج2، ص438. انظر كذلك Etudes Maghrebines, T. Lewicki، ج1 (المكرس بكامله لورقلة)، ص22 ـ 23، 27 ـ 28، وج2، ص89.

(2) T. Lewicki, op, cit, I, p.14, II, p.88.

(3) البكري، ص182/ 340 سمى المدينة قلعة أبي طويل. انظر L. Golvin، موسوعة الإسلام انظر، قلعة بني حماد.

(4) أبو زكريا، كتاب السيرة وأخبار الأمة، مستشهداً به من قبل T. Lewicki، المرجع المذكور، ج1، ص13.

(5) البكري، ص77/ 156 حيث قال إن طريقاً كانت تربط تلمسان بالقليعة.

(6) T. Lewicki, op, cit, I, p.17.

(7) البكري، ص49 ـ 63/ 105 ـ 131. والإدريسي، ص82 ـ 120/ 94 ـ 140. وDas Wegenetz cartes, M. Forstner، ص70، 79 ـ 80، 107.

(8) أبي حوقل، ص91. 102/ 89، 101. البكري، ص77، 109 ـ 116، 146 ـ 147، 152 ـ 156/ 156، 215 ـ 225، 280، 290 ـ 296، والإدريسي، ص61، 63، 70، 73 ـ 82/ 70، 80، 83 ـ 94.

(9) اليعقوبي، ص359/ 224 ـ 225. والمقدسي ص147 نشر Ch. Pellat، ص66 ـ 67.

(10) الإدريسي، ص81 ـ 82/ 93 ـ 94.

القريبة من نهر السنغال. ولا بد أن هذا الطريق قليل الأهمية لأنه لم يذكر إلا من مؤلف واحد، ولم تذكر في أوليل إلا تجارة الملح[1] فقط. ولا يمكن تصور قطع مسافة 1700كم فقط من أجل نقل ملح أوليل إلى النواحي المجاورة، خاصة وأنه لم يكن في الإمكان الحصول على الماء العذب على هذا الطريق إلا بحفر التربة وهي صلبة لدرجة أنها تقوض المعاول. ومن ثم لم يكن هذا الطريق يُسلك إلا بشكل استثنائي.

بالإضافة إلى الطريق الساحلي، كان الطريق الأقصى نحو الغرب العابر للصحراء هو الطريق الذي ينطلق من سجلماسة. وقد تأسست سجلماسة سنة 8 ـ 757ف، وكانت حاضرة صحراوية كبيرة تحكمها أسرة صفرية حافظت على علاقات ممتازة مع تاهرت الأباضية[2]. ولم تكن ظروفها الطبيعية ملائمة، وأصبحت مدينة كبيرة يعود الفضل في ثرائها إلى التجارة مع السودان، خاصة[3] تجارة الذهب. إن اليعقوبي هو أول من وصف هذا الطريق وقال إنه يمر بتجمع القبائل البربرية المسماة أنبيه ويصل إلى غ. ست ـ أودغست، وهي واحة مزدهرة لا تعرف فيها الممارسات الدينية ويقوم سكانها بغارات على بلاد السود[4]. ويورد البكري بعض الإيضاحات حول خط السير هذا: كان يمر بتامدلت[5]

---

(1) البكري، ص86، 175 ـ 176/ 175، 322 ـ 323.

(2) انظر بعاليه، ص194 ـ 195.

(3) حول سجلماسه، انظر اليعقوبي، ص359 ـ 360/ 225 ـ 226. والأصطخري، ص39. وابن حوقل، ص61 ـ 102/ 58، 97 ـ 100. المقدسي، ص219، 231 ـ نشر Ch. Pellat، ص6 ـ 7، 18 ـ 29. وحدود العالم، ص254. والبكري، ص148 ـ 155، 171/ 282 ـ 289، 322. والإدريسي، ص61/ 9د ـ 70. والزهري، ص184. والاستبصار، ص201 ـ 202. وابن سعيد، بسط الأرض، ص58. وياقوت. والقزويني، ص19. وابن بطوطة، ج4، ص376 ـ 379. وأبو الفدا، تقويم، ص136 ـ 137. والحميري. وليون الأفريقي/ ج2، ص424 ـ 426، 428 ـ 431. وانظر كذلك AL-Bakri routier, V. Monteil، ص40 ـ 47، 81 ـ 90. و Sijilmassa, J.M. Lessard. ص5 ـ 36.

(4) بلدان، ص359 ـ 360/ 226 ـ 227.

(5) حددت من قبل V. Monteil، المرجع المذكور، ص90 ـ 91.

وت.ن.د.ف.س ـ تندوف[1]، وفي أحيان كثيرة تقطع مسافة ثلاثة أو أربعة أيام دون العثور على أي نقطة مياه، كما يجب التخوف من هجمات بربر لمطة وجزولة والسود الذين يبحثون عن قوافل[2] لنهبها. وكان مقطع من هذا الطريق ـ حسب الإدريسي ـ يتطلب السير لمدة أربعة عشر يوماً دون مياه[3]، وهو ما يفترض وجود طريق مباشر انطلاقاً من تندوف يعبر العرق. وهو طريق يربط أوليل بأودغست[4].

كانت قبائل صنهاجة هي التي أسست قوة أودغست، وكانت على صلة بسيد غانا، وسيطرت على طريق الملح في الاتجاه غرب ـ شرق وفي الاتجاه شمال ـ جنوب، وطريق الذهب على المحور جنوب ـ شمال[5]. وقد تحول سكان أودغست إلى الإسلام[6] في القرن العاشر بعد أن كانوا من عبدة الشمس، وكانت بالمدينة أسواق وبسطت سلطتها على مناطق شاسعة ـ أعمال[7]، وأعترف عشرون ملكاً أسود بسيد أودغست ملكاً عليهم مابين 961ف و971ف[8].

كان السكان في زمن البكري ما زالوا فيها كثيرين، ومن بينهم قراء للقرآن. وكان الناس يتزاحمون على السوق، وتتم عمليات الشراء فيه بالتبر.

---

(1) تحديد Tableau Geographique, R. Mauny.

(2) مسالك، ص156 ــ 158/ 296 ــ 299. انظر تعليقاً حول هذا المسار عند V. Monteil، المرجع المذكور، ص90 ــ 92.

(3) نزهه، ص29، 31/ 35، 37. يضيف أبو الفدا، تقويم، ص136 ــ 137 أن الماء نادر في هذه الصحراء ويأخذ المسافرون في الاعتبار الماء الذي في بطون الجمال، في حالة عاصفة صحراوية تذبح الجمال ويشرب الماء الذي في بطونها. واللمط هو الحيوان الوحيد الذي يقاوم هذا المناخ.

(4) ابن حوقل، ص92/ 91. والإدريسي، ص32/ 38. وياقوت انظر أوليل.

(5) ابن حوقل، ص100 ــ 101/ 98 ــ 99.

(6) المهلبي في ياقوت، انظر أودغست.

(7) المهلبي في القلقشندي، ص172.

(8) البكري، ص159/ 301 ــ 302.

وكان السكان منقسمين إلى مجموعتين متعاديتين؛ أباضية وسنية: ويلاحظ البكري وجوداً لنفوسة ونفزاوة[1] وكذلك لعرب كلهم أثرياء للغاية. ولم يكن من المستغرب أن يمتلك شخص ألف عبد أو أكثر. واستولى المرابطون على المدينة سنة 5 ـ 1054ف واغتصبوا النساء وأخذوا كل ما فيها غنيمة عقاباً للمدينة لاعترافها بسلطة ملك غانا[2]. ولم تعد أودغست في القرن الثاني عشر إلا مدينة صغيرة قليلة السكان متواضعة التجارة[3].

لم تكن أودغست، التي تُبلغ انطلاقاً من سجلماسة بعد ستة وأربعين[4] أو ستين يوماً[5] من السير، تمثل نهاية السفر، فعندها كان يتم التوجه إلى غانا ـ كومبي صالح[6] البعيدة عنها بمسافة عشرة[7] إلى خمسة عشر يوماً[8].

تأسست دولة غانا البربرية، التي تلتقي فيها طرق مصر وليبيا، وكذلك الصحراء الوسطى والغربية، حسب الرواية الشفوية قبل الهجرة، إذ إن اثنين وعشرين أميراً تتابعوا على حكمها قبل ذلك العهد[9]. وكانت هذه المملكة تشمل ـ حسب جغرافيينا ـ جنوب موريتانيا والمنطقة الواقعة بين السنغال الأعلى وانعطاف نهر النيجر. وظهرت لأول مرة في الكتابات العربية في النصف الثاني من القرن الثامن عند الفزاري الذي سماها «بلاد الذهب»: كانت

---

(1) البكري، ص158 ـ 159/ 299 ـ 302 منقولاً من قبل الاستبصار، ص215 ـ 216 والحميري انظر، أودغست.

(2) البكري، ص162/ 317.

(3) الإدريسي، ص32/ 38.

(4) المهلبي في ياقوت، انظر أودغست وفي القلقشندي، ص172.

(5) ابن حوقل، ص92/ 90 منقولاً من قبل ياقوت، انظر أودغست، والبكري، المرجع أعلاه. أخذ الطريق المباشر تندوف ـ أودغست يقصر المسافة سجلماسه ـ أدوغست بـ300كم إلى أقل من (± 2000كم).

(6) حول هذا التحديد، انظر Tableau Geographique, R. Mauny، ص72 ـ 74.

(7) ابن حوقل، نفس المرجع السابق.

(8) البكري، المرجع أعلاه. والإدريسي، ص32/ 38، يعطي 12 يوماً.

(9) السعدي، تاريخ السودان، ص9/ 18.

مساحتها شاسعة ولم يكن خارج سلطتها[1] إلا دولتان سودانيتان. وكان عليها في القرن التاسع أن تقيم اعتباراً لكل من مملكة كانم ومملكة كوكو، ولكنها استمرت في السيطرة على مناطق الذهب[2] التي أصبحت أراضي أسطورية بالنسبة للمشرقيين والشمال أفريقيين: «ينمو فيها الذهب في الرمل مثل الجزر»[3]. كان الأباضيون من شمال أفريقيا على علاقة بأمير غانا: وبلغنا خبر بعثة أرسلها إلى غانا إمام تاهرت، أفلح بن عبد الوهاب (4 ـ 823. 2 ـ 871ف)[4]. كان ملك غانا «أغنى من على وجه الأرض» مهاباً من قبل كل الرؤساء القريبين والبعيدين، ولكن كان عليه ربط علاقات ودية مع أمير أودغست لأنه كان يستورد منها الملح[5] وهو سلعة حيوية لدرجة يُزعم معها أنه يبادل بوزنه ذهباً[6]. وكان ملك غانا الذي توفى سنة 455 هـ ـ 1063ف مشهوراً بعدالته وبالود الذي يظهره للمسلمين[7].

كانت غانا تتكون في زمن البكري من مدينتين، إحداهما، حيث يسكن الملك، وثنية، والأخرى مسلمة فيها ما لا يقل عن اثني عشر مسجداً[8]. واستولى المرابطون على غانا سنة 496 هـ ـ (7 ـ 1076)ف وأصبح سكانها مسلمون صادقو الإسلام: وكان فيهم علماء وفقهاء وقراء قرآن وذهب بعض منهم إلى مكة[9] للحج. وقد احتلها المرابطون بعد أسلمة المنطقتين الأخريين في السودان الغربي بسنوات قليلة: فقد تحولت التكرور إلى الإسلام قبل 432

(1) CF. J.M Cuoq, Recuel, pp. 42-43; Levtzion and Hopkins, Corpus, p.32.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص193 ـ 194.
(3) ابن الفقيه، ص87 ـ نشر حاج صدوق، ص50 ـ 51.
(4) ابن الصغير، نقل عنه T. Lewicki، في L'Etat Nord africain de Tahert، ص526.
(5) ابن حوقل، ص101/ 99.
(6) حدود العالم، ص165.
(7) البكري، ص174/ 327.
(8) نفس المصدر، ص172 ـ 176/ 328 ـ 331.
(9) الزهري، ص182. وأبو حامد، ص42/ 245 يؤكد أن السود في غانا يحجون.

هـ ـ (1 ـ 1040)ف[1]، وقام ملك مالي بنفس الشيء بعد أن اقتنع بوعظ من مسلم ورع[2]. كان التحول إلى الإسلام نتيجة جهود مبشرين أباضيين كانوا يصاحبون التجار من جبل نفوسة وتاهرت: إن أول أشكال الإسلام التي عرفها السودان كان الأباضية[3]. لم تكن غانا، وهي المدينة التي بلغ ثراؤها إلى درجة أن ملكها كان يملك قطعة من الذهب وزنها ثلاثين رطلاً يربط فيها حصانه، تمثل إلا بوابة دخول إلى مناطق الذهب في جلام وبامبوك وبوري[4]. وكانت مناجم الذهب الأكثر شهرة في غيارو وفيها كان يتم العثور على أحسن ذهب في

---

(1) البكري، ص172/324. حسب V. Monteil، في AL Bakri routier، ص107 ـ 108 تمثل تكرور «تسمية متحركة». ففي القرن الحادي عشر، كانت تكرور مدينة في السنغال الأسفل. وهي بالنسبة للإدريسي، ص3/ 3، مدينة تقع جنوب النيل (النيجر أو السنغال) على بعد 40 يوماً من سجلماسة. وفي جميع الأحوال هي مدينة مهمة زارها علي الجنحاني مخبر القزويني، انظر آثار البلاد، ص26 ـ 27. انظر ابن سعيد، بسط الأرض، ص24 ـ 25 الذي يجعل منها قطراً ويميز فيها حضراً وبادية. وأبو الفداء، تقويم، ص129، 153، 160 ـ 161. وياقوت، انظر تكرور. ويوقع المؤلفون العرب في القرن الرابع عشر تكرور شرق جاو، انظر ابن خلدون، العبر، ج5، ص931/ والبربر، /2، ص412 ـ 413. القلقشندي، ج5، ص286. وHaut Senegal, M. Delfosse، ج2، ص50 يوقع تكرور البكري والإدريسي على نهر السنغال غرب باكل. انظر كذلك (W.D.Cooley)، The Negroland، ص97 ـ 103. وRecueil, J.M. Cuoq، رقم 6، ص90 ـ 91. يستورد سكان تكرور من المغرب الصوف والنحاس ويصدرون إليه الذهب والعبيد الذين يأخذونهم من لملم، وكان نهر السنغال والنيجر يمثلان حدود مناطق آكلة لحوم البشر. وتقع تكرور على مسافة أربعين يوماً من سجلماسة عبر أزقي ـ أطلال على مسافة عشرة كم من آتار، انظر (V. Monteil)، المرجع المذكور، ص103 ـ انظر الإدريسي، ص3 ـ 4/ 3 ـ 4. ومن الغالب أن من التكرور كان يتم تصدير العاج، والأبنوس وجلود الماعز والدروع اللمطية نحو سجلماسة، انظر الزهري، ص189 ـ 190. ومن مدينة سيلا القريبة من باكل، انظر M. Delfose، المصدر المذكور ـ كان يتم التوجه إلى غانا في عشرين يوماً، انظر الإدريسي، نفس المصدر. والاستبصار، ص217.

(2) T. Lewicki, Extraits inedits, pp.21, 26; J. Schacht, Sur la diffusion, pp.21-22.

(3) الإدريسي، ص 7/ 8. وابن سعيد، بسط الأرض، ص25. والحميري، انظر (غانا). ربما إلى هذه القطعة من الذهب يشير ابن خلدون عندما يحكي أن سلطان جاتا الذي مات من مرض النوم سنة 775هـ/ 4 ـ 1373ف بذر كثيراً في الفسق والفجور حتى إنه باعها بسعر بخس لتجار مصريين. انظر البربر، ج2، ص115.

(4) حول هذه المناجم، انظر Tableau Geographique, R. Mauny، ص293 ـ 299.

غانا. كانت قطع الذهب من نصيب الملك والتبر لعامة الناس، وهناك طريق يصل غيارو بالعاصمة[1] طوله مسيرة ثمانية عشر يوماً. وكان سكان غيارو يقومون بغارات في بلاد لملم التي تبعد مسافة ثلاثة عشر يوماً من أجل أخذ أسرى وبيعهم لسكان غانا[2]. وهكذا تستطيع غانا تزويد تجار الشمال الأفريقي والمصريين من نفس المصدر بالذهب والرقيق. كانت تنطلق من غانا طرق نحو الشرق، خاصة إلى كوكو عبر رأس الماء وتيرقا[3]، وهي بلدة غير بعيدة عن تومبكتو[4]. وبالإضافة إلى دورها كمحطة على طريق الذهب والعبيد كان بترقيا سوق مهم يؤمه كثير من تجار غانا وتادمكة[5]. كان السفر من غانا إلى تادمكة يستغرق خمسين يوماً، وكانت تادمكة تستقبل كذلك التجار الليبيين الأباضيين من غدامس[6]. يبدو أنه تم اتباع طريق مباشر من ورقلة إلى غانا: يقول الإدريسي إنه يستغرق ثلاثين يوماً[7]، وهو تقدير يقل عن الحقيقة لأن 2100كم مقاسة على خط مستقيم تفصل بين النقطتين. وإذا كان هذا الطريق قد وجد فعلاً كان يجب أن يمر بالقولية المحطة المهمة الشمال أفريقية الأخيرة وبواحات توات، ولكن ربما يتحدث الإدريسي هنا عن طريق القيروان ـ ورقلة ـ وتادمكة ـ غانا التي ذكرها البكري[8].

---

(1) البكري، ص176 ـ 177/ 331 ـ 332. حسب الإدريسي، ص9/ 11 كانت المسافة تقطع في 11 يوماً، وحسب الاستبصار، ص221 في عشرين يوماً.

(2) الإدريسي، نفس المصدر.

(3) ابن حوقل، ص92/ 90. والبكري، . ص180/ 337. حسب الإدريسي، ص12/ 14 تقطع المسافة غانا ـ كوار في شهر ونصف. ويقول الزهري بأنها تقطع في 30 يوماً.

(4) T. Lewicki, Etudes Maghrebines, I, p.48.

(5) البكري، المرجع أعلاه.

(6) المرجع السابق، ص181 ـ 182/ 338 ـ 340. والحميري انظر (تادمكة). وانظر كذلك J.O. Hunwick و La Geographie du Soudans، ص405.

(7) نزهة، ص121/ 144.

(8) المسالك، ص182/ 340.

من المحتمل، أن المرابطين الذي فرضوا الدين الإسلامي في سونكية، كانوا إداريين متواضعين جنوب الصحراء كما كانوا في إسبانيا. في نهاية القرن الثاني عشر لم تكن سلطة غانا تمتد إلى أبعد من جوارها المباشر، وقد تفتت المملكة في بداية القرن الثالث عشر إلى دول عديدة مستقلة[1]. وفي النصف الأول من القرن أخضع سن دياتا ـ ماري دياتا[2](1230 ـ 1255ف) ملك مالي، مملكة الماندنجو في أعلى النيجر ـ أو ابنه وخليفته[3] والي (1255ف ـ 1270ف ـ غانا. وامتدت سيادة الماندنجو في نهاية القرن الثالث عشر حتى تومبكتو وكوكو ـ جاو، ووصلت في بداية القرن الرابع عشر في تشيت، وولاتة، وأروان وتادمكة وحتى (؟) تاكدا[4] وأغاديس[5]. وبالرغم من أن غانا كانت ما تزال مدينة مهمة في القرن الثالث عشر ـ لأن ياقوت يلاحظ، أنه بدونها لم يكن في الإمكان، التوغل في بلاد الذهب[6] ـ أصبحت نقاط وصول القوافل التي تعبر الصحراء إلى السودان، بسبب توسع امبراطورية الماندنجو ـ هي ولاتة، وتومبكتو، وجاو[7].

انتقل طريق سجلماسة المباشر الذي يلمح[8] إليه البكري عَرضاً من خلال منجم ملح تات. نتال ـ تغازة ـ على مسافة عشرين يوماً من نقطة الانطلاق ـ نحو غانا عبر ولاتة نحو الشرق ومالي وتومبكتو. وكان هذا هو المسار الذي

(1) Ch. Monteil, Les Empires du Mali, p.63 seq.

(2) حول شرح هذه الأسماء، انظر Ch. Monteil ، المرجع السابق، ص67 ـ 68.

(3) Ch. Monteil, op. cit. pp. 74-75.

(4) يرفض H. Lhote هذا التمديد نحو الشرق، ومرجع الفكرة خلط من المؤلفين بين تكدة، وتادمكة، انظر أدناه ص539، رقم3.

(5) Haut Sengal, M. Delafosse، ج2، ص173 ـ 191. وضحنا على الخريطة 5 مواقع. عاصمة مالي (مللي، ملليي، مادني، ماندنق بلاد ماندنجا، ماندنجوغ مالينكي)، وقبلت من M. Delafosse، ويقال أن هذه العاصمة سميت نياني، أو ناني، انظر ص181 ـ 182. انظر كذلك W.D.Cooley، The Negroland، ص61 ـ 90.

(6) المعجم، انظر (غانا).

(7) سنلاحظ في القرن الرابع عشر أن ابن بطوطة مر بولاتة ولكنه لم يقل كلمة عن غانا.

(8) المسالك، ص171/ 322.

سلكه ابن بطوطة عندما زار مالي[1]. فبعد أن اشترى جمالاً في سجلماسة وقضى أربعة أشهر في الاستعداد للسفر، بدأ ابن بطوطة السفر في فبراير 1352ف مع قافلة تجار كثيرين من سجلماسة وبلدان أخرى. واستغرقت القافلة خمسة وعشرين يوماً للوصول إلى تغازة، وهي بلدة بيوتها ومساجدها مبنية من أحجار الملح، وأسقف المباني من جلود الجمال وكان عبيد مسوفة يقومون باستخراج الملح، ويأتي السود إلى تغازة للبحث عن الملح وإعادة بيعه في ولاتة ومالي، ويمكن أن يتجاوز الربح 400٪ من ولاتة إلى مالي فقط. وقد قضى ابن بطوطة في تغازة عشر أيام مضنية بسبب الذباب والماء الأجاج. وكان هذا هو الماء الذي يجب حمله لأن المسافة على مدى عشرة أيام كانت خالية من الآبار وكان المسافر الذي يبتعد عن القافلة يضل طريقه ويهلك لا محالة. وكانت القافلة تستريح لمدة ثلاثة أيام في تاسرهله ـ الكسيب[2] وهي نقطة الماء الوحيدة بين تغازة وولاتة، وتتزود بالماء وترسل بمبعوث ـ تكشيف[3] إلى ولاتة. وكانوا يسمون «تكشيف» المسوفي الذي تدفع له القافلة ليسبقها إلى ولاتة ويرجو فيها مراسلوها أن يأتوا لملاقاة القافلة على مسيرة أربعة أيام من المدينة حاملين المياه اللازمة لإنقاذ القافلة. وإذا ما هلك المبعوث فالقافلة هالكة لا محالة. وقد قُطع الطريق بين تغازة وولاته في ستة وعشرين يوماً. بسبب مثل هذه المخاطر، نفهم أن المسارات الأخرى، الليبية بوجه خاص، كانت مفضلة على هذه المشاق والصعاب، ومن المثير للدهشة أنه بالرغم من نقص الماء كانت في القافلة بعض الخيول[4]. ويجب ملاحظة أن القرب من غانا هو الذي فرض هذا المسار، ولكن بسبب بعدها عن النيجر، الذي كان يقدم إمكانات جيدة للنقل، دخلت ولاتة في الانحدار وبدأت تومبكتو، التي

---

(1) رحلة، ج4، ص377 ـ 399.

(2) Identification de R. Mauny, Tableau Geographique, p.432.

(3) ترجمة لمعنى «كشف» بالفرنسي.

(4) انظر بعاليه، ص125 ـ 126.

كانت في أوج انطلاقها، في استقبال القوافل القادمة من سجلماسة وتغازة عبر تودني وأروان، وهو طريق أسهل بكثير لأن به الكثير من نقاط المياه. وهذا هو الطريق الذي سلكه ليون الأفريقي في القرن السادس عشر.

كان طريق سجلماسة ـ تغازة مهدداً في الشمال من قبل عرب سليمان الذين كانوا أحلاف قبيلة معقل[1]. وكان هؤلاء يجوبون منطقة تفلالت ويعترضون ـ أحياناً ـ القوافل القادمة من السودان المتجهة إلى سجلماسة[2]. كما تحول المقطع الشمالي أيضاً نحو الشرق من تغازة نحو توات. فقد كانت بودا، الواحة التواتية الأبعد نحو الغرب، هي قاعدة الانطلاق نحو مالي في البداية، وبسبب هجومات العرب تحولت نقطة تجمع القوافل نحو الشرق، نحو تمنطيط، وكان البربر الملثمون، الذين يجب الدفع لهم غالياً، يقدمون خدمات أدلاء مجربين في هذه المناطق[3]. كانت هناك طرق تؤدي من توات إلى سجلماسة[4] والقلية وورقلة[5] وغدامس[6]. فمن توات يتم التوجه جنوباً نحو ولاتة وتادمكة وكوكو ـ جاو[7]، ويمكن كذلك الوصول إلى السودان انطلاقاً من

---

(1) انظر كحالة، المعجم، انظر (مادة أحلاف).

(2) ابن خلدون، البربر، ج1، ص129. في مقطع آخر (ج1، ص117)، يلاحظ ابن خلدون أن المعاقل مسالمون بشكل عام.

(3) المرجع السابق، ج3، ص298. كانت تمنطيط مدينة مأهولة جداً في زمن ابن خلدون وكانت توات تعد الكثير من المجموعات اليهودية الثرية جداً وكانت هذه المجموعات محمية من قبل العرب. إن أعمال الاضطهاد سنة 1490ف ضد اليهود المثارة من قبل الفقيه المغيلي لعبت دوراً كبيراً في التدهور التجاري للمنطقة والذي نقله إلى العالم الغربي ليون الأفريقي، ص436 ـ 437. انظر Les Juifs au Sahara، ص108 ـ 118. وJ.o. Hunwick، موسوعة الإسلام، انظر (المغليلي).

(4) ابن بطوطة، ج4، ص447. وابن خلدون، البربر، ج3، ص298.

(5) ابن خلدون، البربر، ج1، ص240 ـ 241.

(6) هذا هو المسار الذي سلكه ملك مالي، المنسا موسي (1307ف ـ 1332ف) عندما قام بالحج إلى مكة، انظر م. كعتي، تاريخ الفتاش، ص34/ 13. انظر كذلك Contribution, H. Lhote، ج2، ص393.

(7) ابن خلدون، البربر، ج1د ص241، ج3، ص298.

ورقلة ـ القلية عبر عين صالح مروراً بجبال أمدير وأبلسة في اتجاه تسليت ثم تادمكة[1]، أو الوصول في سبعين يوماً إلى تكدة التي كان سلطانها ـ أحد الملثمين ـ يرتبط بعلاقات ممتازة مع أمراء الزاب وورقلة[2]، وفي هذه الحالة كان يجب سلوك طريق خطرة لعبور ناحية قبائل الهكار/الهقار ـ «حيث يوجد القليل من النباتات والكثير من الأحجار» ـ والتي يجب أن تدفع لها أتاوة. وبعد أربعين يوماً يتم الوصول إلى الطريق الذي كان يصل غات بتكدة[3].

لا شك في أن الكثير من الطرق الساحلية والسودانية كانت تقطع أفريقيا من الغرب إلى الشرق، ولكن الجغرافيين العرب ـ لسوء الحظ ـ لم يجودوا إلا بالقليل من البيانات حولها. فمن ملاحات أوليل يتم الوصول إلى تكرور ثم غانا المزودة بذهب غيارو وبالعبيد المأخوذين من عند اللملم. كان يتم التوجه من غانا جنوباً نحو مالي وهي عاصمة أخرى للذهب، أو شرقاً نحو النيجر وكوكو ثم تادمكة أو تكدة. وكان تجار جبل نفوسة والصحراء الليبية يزورون هذه المدن بشكل منتظم.

قلنا: إن غانا كانت تمثل وهماً في نظر الشمال الأفريقيين والمصريين والشرقيين... ومؤلفينا. كان دخول مالي في عمل المؤرخين العرب بهدوء ولكن الحقيقة المالية تجاوزت في النهاية ما يمكن تصوره. فالبكري[4] يكتفي بذكر مملكة اسمها ملال وملكها يسمى المسلماني، وقد تحول إلى الإسلام

---

(1) الزهري، ص182. انظر T. Lewicki, Etudes Maghre bines، 1، ص35 ـ 36. و R. Mauny, II, Tableau Geographique، ص116.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص116.

(3) ابن بطوطة، ج4، ص444 ـ 447 الذي سلك هذا المسار من الجنوب إلى الشمال نحو توات ثم فاس، لا يحدد المكان الذي تنفصل فيه طريق غات التي تقود إلى مصر، وطريق توات. حسب R. Mauny، المرجع المذكور، ص433 و J.M.Cuoq, Recueil، ص321 رقم 3 أن المكان هو ابن الزاو. حسب R. Mauny، المرجع السابق لا بد من وجود طريق تادمكة ـ فزان ـ مصر عبر الهقار، وهذا الطريق هو الذي يتحدث عنه بكل تأكيد ابن خلدون، البربر، ج3، ص287 ـ 288 بمناسبة قافلة من 12000 جمل ذاهبة من مصر إلى مالي، وقد خلط المؤرخ بين تكدة، وتادمكة.

(4) المسالك، ص178/ 333 ـ 334.

تحت تأثير ضيف مسلم، أباضي[1] بكل تأكيد. ويتحدث الإدريسي، في القرن الثاني عشر، عن ملال باعتبارها مدينة صغيرة تتبع بلاد اللملم[2]. ولن نعرف بعد ذلك شيئاً أكثر عن مالي قبل القرن الرابع عشر، عندما بلغت أوجها. وفي هذه الفترة كانت مالي تشمل تكرور وغانا ومنطقة انعطاف نهر النيجر وكوكو والبامبوك، «بلاد الذهب المعدني» التي كان سكانها الوثنيون المتوحشون يأتون بالذهب إلى الملك كل سنة. وفي الشمال، كان ملك مالي مطاعاً من قبائل البربر البيض[3]. وقد امتدت هيمنة منساموسى حتى ورقلة، وقد اكتسبت المملكة أهمية جعلت التجار المغاربة والأفريقيين يذهبون إلى هذا البلد السوداني لمزاولة التجارة[4]. وقد بلغ ثراء منساموسى إلى حد أنه عندما ذهب إلى الحج سنة 724 هـ ـ 1324ف أخذ معه ثمانين[5] أو مائة[6] حمل من التبر يزن كل حمل ثلاث قناطير[7]. ولم يترك أحداً في القاهرة لم يستلم منه مبلغاً ذهباً. وقد نشر سكان القاهرة المعدن الثمين في المدينة إلى حد هبطت أسعاره لدرجة أن سعره بعد اثنى عشر سنة من هذه الحادثة كان أقل بـ 12٪ عن سعره قبل مرور موسى[8]. بالرغم من إدراك ملوك مالي لقوتهم[9] وثرواتهم، حرصوا على ربط

---

(1) حسب M. Delafosse (Haut senegal, II p.174)، هذا الملك هو الذي يسميه ابن خلدون (البربر، ج2د ص110 ـ 111) برامندانا. هذا الاسم قد يعني «رئيس ماندي» إذا ما حدث خلط بين حرفي الباء والياء الموصولة لأن «يرا» لقب سيادة عند بعض سكان السنغال.

(2) نزهه، ص4، 4/6، 6 ـ 7.

(3) العمري، ص52 ـ 60.

(4) ابن خلدون، البربر، ج2، ص110 ـ 112.

(5) المرجع السابق، ص113.

(6) العمري، ص75.

(7) 1 قنطار = 100 رطل، 1 رطل = 200 إلى 600 جرام، وحتى 2 كجم أحياناً. انظر J. Burton Page موسوعة الإسلام، مكاييل.

(8) العمري، ص76 ـ 79. سنلاحظ عرضاً مع Contribution, H. Lhote، 2 ص393، أن موسى قد مر، عندما ذهب للحج، بتوات وغدامس، كما قلنا، وتحاشى الهقار ومن ثم لم تكن الهقار من بين قبائل البربر البيض الخاضعين لمالي. ومن ثم بدل الحديث عن هيمنة حتى ورقلة، يجب التفكير في مجرد نفوذ بسبب العلاقات التجارية.

(9) مثل البروتوكول في قصر مالي ـ انظر العمري، ص64 ـ 68. وابن بطوطة، ج4، ص403 ـ =

علاقات ممتازة مع مصر وجيرانهم القريبين والبعيدين خاصة مع حكام الزاب وورقلة وسلطان المرينيين في فاس الذي استقبل بعثة وهدايا[1] من مالي. وقد جذبت ثروتهم الهائلة من الذهب[2] والعبيد التجار، ولكن كان لابد من المحافظة على هذه التجارة لأن مالي كانت في حاجة ماسة للملح من جيرانها السودانيين[3]، ومنتجات مصنعة أو غير مصنعة مثل النحاس والرصاص والصدف والأقمشة والبسط والبهارات والخيول والسلاح[4] من الشمال والغرب. ويلاحظ ابن بطوطة وجود مجموعتين من البيض في مملكة مالي في بلدة تسمى زغاري بين ولاتة والنيجر، وكانت إحدى هاتين المجموعتين سنية[5] والأخرى أباضية. وهكذا فإن التجارة العابرة للصحراء التي بدأها الأباضيون كانت ما تزال جزئياً تحت أيديهم في القرن الرابع عشر، ويبدو أن أكثرهم نشاطاً في هذه الفترة هم سكان مزاب والجريد وغدامس وجبل نفوسة[6].

= 413 ـ والرفض بداية لمنساموسى لتقبيل الأرض أمام سلطان القاهرة: وهو يعتقد أن هذا لا يتم إلا أمام الله، ولم يقبل إلا بعد الادعاء انه يتصور نفسه أمام الله، انظر العمري، ص76.

(1) العمري، ص79 ـ 80. وابن خلدون، البربر، ج2، ص114. وابن بطوطة، ج4، ص409 الذي يشتكي، ص400 ـ 402، من عدم استلام إلا هدية بسيطة، من بخل منسا سليمان، شقيق منساموسى وخليفته الثاني.

(2) انظر خريطة مناطق الذهب في مالي Tableau Geographique, R. Mauny، ص121.

(3) الاستبصار، ص217 ـ 218، 222.

(4) القزويني، ص18 ـ 19. وابن بطوطة، ج4، ص404 وملاحظة V. Monteil، ص486 (يرتدي الملك قماشاً مقصباً برسوم حيوانات، مصنوعاً في الاسكندرية)، ص383، 425 (تكلف الخيل غالياً في مالي). وCa da Mosto مستشهداً به من قبل Tableau Geograhpique, R. Mauny، ص285. وليون الأفريقي، ج2، ص486 (الخيول الجيلة في منطقة تومبكتو مصدرها بلاد البربر)، ص471 (يساوي الحصان في جاجو/ جاو خمس مرات ثمنه في أوروبا، سيف سيىء يساوي أثني عشرة مرة ثمنه)، ص480 ـ 481 (في بورنو ـ نبتعد عن مالي ولكننا نعتقد أن المعاملات كانت متشابهة ـ كان الحصان يساوي 15 إلى عشرين عبداً، وبالرغم من غزاوته الكثيرة يحدث أن لا يستطيع الملك تجميع عدد كاف من العبيد ليدفع للتجار). ظهرت الأسلحة النارية لأول مرة في المغرب في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكانت معدات حصار، انظر G.S. Colin، موسوعة الإسلام، انظر بارود ص1029 a.

(5) رحلة، ج4، ص394 ـ 395.

(6) لم تغب هذه الملاحظة لابن بطوطة عن J. Schacht في Sur La diffusion، ص25.

بدأت امبراطورية مالي في الانحدار في القرن الخامس عشر ولكن ليون الأفريقي يقدم عنها وصفاً رائعاً في القرن السادس عشر: كان لدى ملكها خزينة من النقود والسبائك الذهبية، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم، وهم متحضرون؛ نجد من بينهم أساتذة وقضاة وعلماء وكلهم يتلقون مرتبات من الملك. كان تجار بلاد البربر (بربريا) يترددون على «تومبتو» Tombutto، وكانت أكبر الأرباح[1] تجنى من بيع الكتب. ولا يقدم لنا ليون الأفريقي ـ لسوء الحظ ـ أي مؤشرات عن الكتب المباعة في تومبكتو في عصره. لا بد أن الأمر يتعلق بكتب تاريخية وقانونية من بين أخرى. وكانت التقاليد بخصوصها قد تجذرت في السودان. فقد كتب محمود الكعتي، المولود سنة 1468ف، كتاب «تاريخ الفتاش» وهو مصنف من الوثائق حول أصل المدن السودانية[2] وتاريخها. وفي القرن السادس عشر، كتب أحمد بابا مؤلفات في القانون وقاموساً عن الفقهاء المالكيين[3]. واستمر هذا التقليد حتى القرن السابع عشر مع المؤلف العظيم للسعدي «تاريخ السودان» الذي اعتمد على أحمد بابا وعلى تاريخ مراكش وعلى كتاب لم يصلنا بعنوان الخبر، وعلى نصوص أخرى لا نعرفها كلها[4].

كانت إحدى نقاط وصول طرق القوافل القادمة من مناطق الخوارج في الشمال ـ فزان، وجبل نفوسة، وجنوب تونس والمغرب الأوسط وسجلماسة ـ إلى السودان، تقع في أدرار الأفوغاز، في تادمكة ـ السوق[5]. يعود أول ذكر

---

(1) وصف أفريقيا، ج2، ص466 ـ 469 حيث قيل فيه كذلك أن الملك عدو معلن لليهود وهو يصادر أموال تجار بلاد البربر الذين يترددون عليهم.

(2) م. كعتي، ص17.

(3) E. Levi-Proovencal, E.I., S.V. Ahmad Baba.

(4) السعدي، ص XII, III, II. هذا المؤلف ومؤرخون آخرون مجهولون منا استعملوا في القرن الثامن عشر من قبل المؤلف غير المعروف لكتاب «تاريخ النسيان» وهو يؤرخ لملوك تومبكتو، انظر تذكيرات، ص IX - V.

(5) إذا ما استثنينا تحفظات Henri Lhote (مرجع في Tableau Geographiuqe, R. Mauny، ص117) فإن هذا التحديد مسلم به من الجميع، انظر، V. Al Bakri Routier, Monteil، ص115, R. Mauny. المرجع بعاليه. و Les Origines et L'Islamisation, T. Lewicki، ص439، الخ.

لتادمكة ـ دون تفاصيل ـ إلى القرن العاشر، وكانت تعتبر بلاداً مستقلة استقلالاً ذاتياً أمراؤها من بني تانماك[1]. ربما يجب أن ينسب إلى المهلبي ـ حسب T. Lewicki [2] ـ نصٌ موجزٌ لياقوت جاء فيه أن زكرام مدينة واقعة في جنوب أفريقية، سكانها من قبائل زناتة وهي عاصمة مملكة تادمكة[3]. ومنذ القرن التاسع، وربما قبله، كان التجار من الخوارج يترددون على تادمكة. ونعرف ـ بفضل ابن حماد ـ أن أبا يزيد مخلد بن كيداد[4]، صاحب الحمار، الذي قام بثورة النكارة ضد العبيديين في الفترة ما بين 943ف، و947ف، ولد حوالى سنة 883ف من أب هو أحد سكان تقيوس (إحدى واحات الجريد المسماة حالياً أوديان) «كان يتردد على السودان مع التجار» وأم عبدة اشتراها في تادمكة[5]. وبعد ذلك أخذ كيداد ابنه إلى كوكو ماراً، كذلك، بتادمكة[6]. وفي القرن العاشر كانت تادمكة مطروقة من قبل تجار أباضيين أتقياء قادمين من ورقلة والجريد وجبل نفوسة[7]، وقد أثرى أحدهم، وأصله من توزر، ثراء عريضاً، وكانت له خزنة مليئة بقطع الذهب وكان يبعث بمبلغ كبير كل سنة إلى المدينة مسقط رأسه لتواجه به احتياجاتها. وكان الأباضيون يأتون إلى تادمكة بملابس يبيعونها بالذهب[8].

---

(1) ابن حوقل، ص84، 105/ 80، 103.

(2) Etudes Maghre bines, I, p.39; Las origines et L' Islamisation, pp. 441 - 442.

(3) المعجم، انظر (زكرام)... سنلاحظ أنه في العصر الذي كتب فيه ياقوت، حوالى سنة 1220ف ـ تفتت مملكة غانا إلى إمارات كثيرة مستقلة، وامبراطورية مالي لم تكن قد انطلقت بعد، وانطلاقها لاحق لـ1230ف.

(4) اختيار ملوك بني عبيد، ص18/ 33 ـ 34.

(5) انظر بعاليه، ص234 ـ 235.

(6) يلاحظ R. Mauny (Tableau Geographiqie، ص117) حسب E.F. Gautier و Le Monument de Tin hinan, Paris, Ann Acad Se Colon, 1934) وجود علاقات بين أبلسا المركز القديم للهقار والسوق سابقة للإسلام. وقد وجدت فيه عربات قتال مرسومه على الصخر، وهي علامة الاتصالات مع تاسيلي، انظر Contribution, H. Lhote، 2، ص395.

(7) T. Lewicki, Quelques extraits, pp. 19,21, 23 - 24; Le meme Traits d'histoire, I, pp. 34 - 35.

(8) T. Lewicki, Traits d'histoire, p.5.

يصف البكري تادمكة[1] بأنها في نهاية طريق يستغرق قطعه خمسين يوماً ابتداء من غانا وهو طريق يتوغل في الصحراء، عند تيرقا ـ في ضواحي تومبكتو. ويقول: «وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانا ومدينة كوكو، وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال، وتجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان... ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها من ذهب محض غير مختومة. ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسناً، والزنا عندهم مباح وهن يبادرن التجار أيتهن تحمله إلى منزلها». ومن الممكن أن سهولة إقامة العلاقات الجنسية[2] مع نساء البلاد كانت تغري بعض التجار بعد الحرمان الذي يقاسونه خلال سفر شاق[3]، ولكننا نرى في هذه الملاحظة من جانب السنيين انتقاداً إضافياً ضد الخوارج في موضوع الجنس[4].

لا يمكن نكران أن التردد على المدينة يعود إلى دورها كنقطة التقاء[5] طرق. فمن تادمكة كانت هناك طرق تؤدي إلى كوكو في تسعة أيام ـ كان هذا هو الطريق الذي يمون كوكو بملح مناجم ت.و.ت.ك[6] ـ وإلى غانا ثم مالي،

---

(1) المسالك، ص181 ـ 182/ 338 ـ 340. ونص كتاب الاستبصار، ص223، ونص الحميري متشابهة تقريباً.

(2) يترجم De Slane كلمة «زنا» بـ«بغاء».

(3) يجعل V. Monteil من هذه السهولة أحد الأسباب التي تجذب المسافرين الأجانب، انظر Al-Bakri, Routier، ص115.

(4) يبدو أن البكري يفضل مهاجمة الأباضيين. لنتذكر سطوره التي كتبها عن التبرز أمام الناس في قابس واحتقاره للقابسيين (المسالك، ص18/ 42 ـ 43، والمرجع بعاليه، ص329)، والتفسير الذي يقدمه لعدم وجود منبر بجبل نفوسة (ص9/ 26، بعاليه، 331).

(5) لا نعرف تاريخ أسلمة تادمكة. وبما أن تحول تكرور ومالي إلى الإسلام يرجع إلى وسط القرن الحادي عشر فإن أسلمة تادمكة الواقعة على الطرق المؤدية إليهما لا بد وأن تكون سابقة ومع ذلك فإن أسماء أمرائها الذين ذكرهم لنا ابن حوقل في القرن العاشر (ص105/ 103) لم يكونوا مسلمين.

(6) يتساءل Al-Bakri, Routier, V. Monteil، ص116 عما إذا لا يجب قراءة. ت.وت.د تحريفاً لتودني.

وإلى توات ثم إلى ورقلة والقيروان، وعبر الهقار إلى غات وفزان نحو مصر. وكانت هناك طريقان تؤديان من تادمكة إلى غدامس، إحداهما تعبر خلال أربعين يوماً صحراء حيث يوجد الماء كل يومين أو ثلاثة عند الحفر في الرمال، ولا بد أنه طريق توات، وتتطلب الأخرى السير طوال ستة أيام في منطقة يسكنها السغمارة، ثم أربعة أيام دون ماء بعدها أربعة أخرى في الصحراء وهو مسار عليه منجم تاسي ـ ن ـ سامت وهو حجر ثمين مرغوب للغاية في غانا. ويوقع T.Lewicki هذا المنجم جنوب ـ غرب الهقار[1]. وبما أن البكري لم يشر إلى عبور مراكز أخرى فإننا نعتقد بأن هذا الطريق هو الطريق المباشر الهقار ـ تاسيلي ـ غدامس، ثم جبل نفوسة وطرابلس[2]، كما يوضحه الجغرافي.

تادمكة مدينة معروفة جداً من المسافرين في القرن الثالث عشر، حسب ابن سعيد. وسكانها بربر مسلمون، وتجار كبار يسافرون نحو السودان. وهم تحت سلطة كانم[3] ومن ثم كانوا يرتبطون معها بعلاقات تجارية. وكانت تادمكة، في القرن الرابع عشر، مع أودغست والأهير/الآيير إحدى ثلاث ممالك سودانية بيضاء مستقلة، وكانت هذه الممالك خلال هذا العصر خارج سلطة سلطان المرينيين في فاس، وسيطرة سلطان مالي[4].

---

(1) أحجار كريمة، ص53.

(2) البكري، ص181 ـ 183/ 338. 343. والزهري، ص182. والاستبصار، ص223، 225. وابن خلدون، البربر، ج2، ص115. وج3، ص287 (12000 جمل محملة من مصر نحو تادمكة). والعمري، ص87، والحميري، انظر (تادمكة وغدامس).

(3) بسط الأرض، ص49، قد يكون هذا الإعطاء توسع مبالغ فيه للملكة الكانمية. هل يتعلق الأمر أيضاً بخلط بين تادمكة وتكدة؟. لقد برهن H. Lhote في (Contribution، 1، ص359 ـ 369. 2، ص391 ـ 393) أن هناك خطأ من جانب العمري (ص80) وابن خلدون (البربر، ج2، ص115، وج3، ص287) بكتابتهم تكدة لتادمكة وإعطائهم توسعاً أكبر مما ينبغي لمملكة مالي. هل ارتكب ابن سعيد الخطأ المعاكس موسعاً ـ هكذا ـ مملكة كانم أكثر مما ينبغي نحو الغرب؟ يجب القبول، لتأكيد هذا الفرض أن تادمكة التي تقع في أدرار الأفوغاز وقعها ابن سعيد في جبل لونيه الذي نحدده على أنه الآيير. هناك حيث توجد تكدة، . انظر بعاليه، ص453 ـ 454، وReceuil, J.M Cuoq، ص218، رقم 1.

(4) العمري، ص94 ـ 95، نقل عنه القلقشندي، . ص210.

في جنوب تادمكة، على نهر النيجر، كانت توجد إحدى أهم مدن السودان التي كان للتجار النفوسيين والفزانيين علاقات معها: كوكو[1] ـ جاو. ومنذ بداية أعمال المؤرخين العرب حول السودان ظهرت جاو مع بلاد الزغاوة وغانا كإحدى ثلاث مجموعات سودانية كبيرة[2]. وقد كانت جاو، التي من المحتمل أنها تأسست في القرن السابع[3]، معروفة جيداً خلال الربع الأول من القرن التاسع لأن أفلح بن عبد الوهاب الإمام الرستمي الثالث لتاهرت كان ينوي الذهاب إليها مدفوعاً بالعلاقات التجارية التي كانت لتاهرت مع هذه المدينة منذ بعض الوقت، ولم يعدل عن الذهاب إليها إلا بسبب منع[4] والده (توفي سنة 4 ـ 823ف) له. إن هذا يوضح أن الطرق انطلاقاً من الشمال الأفريقي نحو منطقة انعطاف نهر النيجر كانت بين أيدي الأباضيين من فزان حتى تاهرت مروراً بجبل نفوسة والجريد.

جاء أول ذكر لجاو قبل منتصف القرن التاسع، فقد استشهد الخوارزمي المتوفى حوالى سنة 847[5] في ذكره لأماكن بالسودان بزغاوة، وكوكو (ك. نك. و) وغانا[6]. وفي نهاية القرن أورد اليعقوبي قائمة بالممالك السودانية: حبشة، زغاوة، كانم، ملال، غانا وكوكو وأن هذه الأخيرة هي أهم هذه

---

(1) إن النطق غير مؤكد ولكن التردد في ضبط إملاء الكلمة يقود إلى افتراض أن الأمر يتعلق بجيم مكرر. نجد عادة. ك. و. ك. و. يتهجاها ياقوت كوكو. يكتبها الخوارزمي ك. نك. و. بعض الحوليات الأباضية تحمل ج. يج. ي، ومرة واحدة ابن بطوطة (ج4، ص112، وفي مواقع أخرى، ص435 نجد ك. يك. ي) ويكتب أبو حامد ق. يق. ي. وتحمل مخطوطة محمود كعتي، تاريخ السودان أحياناً ك. يك. و. وأحياناً أخرى كوكو وغالباً كاع أو كاغ، انظر ص9 ـ 10، رقم 1. وتحمل ترجمة ليون الأفريقي جاجو. حسب (Al-Bakri, Routier, p. 114) V. Monteil ينطقها المغاربة الآن جوجو.

(2) A. Miquel, Geographie, II, pp. 149 - 153.

(3) T. Lewicki, L'Etat nord-africain de Tehert, p. 524.

(4) نفس المرجع، حسب الوسياني والدرجيني.

(5) J. Vernet, E.I.S.V.Al-Khwa'rismi.

(6) Recueil, J.M. Cuoq، ص44. وCorpus, Levtzion and Hopkins، ص6 ـ 7. فزان مذكور كذلك.

المـمالك وأقواها، وكان على الملوك الآخرين طاعة ملكها والاعتراف بتفوقه وسيادته، بالرغم من أنهم ملوك في بلدانهم[1]. ويصف ابن الفقيه، في بداية القرن العاشر، الطريق من غانا إلى مصر التي تمر عبر كوكو، وم. ر. ندا، ومراوة وملسانة والواحات[2]. والأمر يتعلق هنا بطريق جاو ـ الآيير (م. ر. ندا ـ مرندت) ـ إقليم برقة ـ الواحات المصرية، وملسانة غالباً هي جبل ـ كلمة جبل قد تعني هضبة ـ علساني ـ علسانة الإدريسي[3] الموقع على خريطته شرق ت، نرو ـ ص. برو = الكفرة وم م. ر. ندا في برقة[4] وعلى خط عرض بينهما.

يعود تاريخ أول وصف لكوكو للربع الأخير من القرن العاشر، وهو من المهلبي[5]. كانت المدينة تتكون من جزءين، يقع أصغرهما على الشاطىء الشرقي للنيجر وبه أسواق وإلى هذا الجزء يأتي المسافرون من كل البلدان المجاورة. ويسكن الجزء الغربي من المدينة الملك وجنوده والرجال موضع ثقته. ولا يسكن القصر إلا الملك وأحد الخصيان. وكل سكان المدينة مسلمون: ويوجد بين جزءي المدينة مسجد ومصلى لجماعة المؤمنين. وبلاد جاو أصغر من بلاد الزغاوة ولكنها أغنى منها خاصة بالنسبة للحيوانات والملح، ويحفظ هذا المعدن في خزائن الملك. نرى أن تحول جاو إلى الإسلام سابق بأكثر من نصف قرن لأسلمة مالي وبأكثر من قرن لتحول غانا إلى الإسلام: ولا يمكن إلا أن يستنتج منه أن العلاقات التجارية مع المناطق الأباضية من فزان إلى

---

(1) تاريخ، ج1، ص193. ويذهب اليعقوبي إلى جعل مملكة م.ر.و/ مرو تابعة لكانم.

(2) البلدان، ص68. يوقع ابن حوقل كوكو على الطريق المؤدية من غانا إلى زويلة مروراً بـ م.ر.ندا. وهو يقدر المسافة بين كوكو ومرندا بشهر (تفصل بين جاو ومرنديت جنوب أغاديس 800 كم). انظر صورة الأرض، ص92/ 90.

(3) نزهة، ص43/ 50.

(4) حول م. ر. ندا = مرنديت في الآيير وم.ر.ندا في إقليم برقة، انظر بعاليه، ص 470 ـ 471. T. Lewicki A propos du nom de l'Oassis de Koufra، ص303، وEtudes II, Maghrebines، ص52 ـ علسانا/ علساني كان يعني هضبة الجلف الكبير حيث طرق السودان القديمة نحو مصر عبر العوينات.

(5) في ياقوت، انظر كوكو.

تاهرت كانت أقوى من العلاقات التجارية مع المناطق التي تبدأ من سجلماسة نحو جنوب موريتانيا وأن القوافل كانت تثري من وجود الدعاة.

يصف البكري كذلك المدينة بأنها من جزءين، ولكن صورة دخول الإسلام عنده مختلفة: إن جزءاً من المدينة هو مقر الملك، والآخر يسكنه المسلمون[1]. ويسمى السكان ب. زركانيين. ويلاحظ De Slane أن كلمة «بزرج» في الفارسية تعني «عظيم» وتعني كلمة «بازرجان» «تاجر»[2]. وإذا قبلنا المعنى الثاني، فإن هذا يعني الكثير حول الاتصالات التجارية لمنطقة منعطف نهر النيجر مع الإمامة الرستمية ذات الأصل الفارسي وحول قوة العلاقات مع المناطق الأباضية.

بالنسبة لأبي حامد في القرن الثاني عشر، كان سكان جاو ـ ق. وق. و. أسوأ السود وأقبحهم، ولا يصلحون لشيء إلا للحرب وهم يستعملون أسهماً مسممة بسم الأفاعي[3].

يبدو أن ملك كوكو اعتنق الإسلام في القرن الثاني عشر لأن خطبة الجمعة كانت تتم في مملكته باسمه. وكان لهذا الملك ثروات ضخمة. وكان رعاياه الكثيرون الذين يركبون الخيل والجمال مهابين من الجيران. وبينما كان السكان المهمون يلبسون الأقمشة كان أغلب السكان يغطون عوراتهم بالجلد. وكان الوجهاء يترددون على التجار، ويقدمون لهم أموالاً ويعهدون لهم بالسلع ومنها يحصلون على جزء من الربح[4].

تحد بلاد كوكو بلاد كوار ـ المشهورة بالشب ـ وبلاد دمدم[5]. ويُذهب

(1) المسالك، ص183/ 342 ـ 434.

(2) نفس المرجع، رقم 1، ص342 من الترجمة.

(3) تحفة، ص42/ 246 ـ 243.

(4) الإدريسي. ص11/ 13. إن مصادر ابن سعيد (بسط الأرض، ص26) سابقة على التحول حيث يلاحظ أن الملك كافر. أبو الفدا (تقويم، ص156 ـ 157) ينقل عن المهلبي (السكان مسلمون)، وابن سعيد (الملك كافر).

(5) الإدريسي، ص83/ 44 ـ 45، الدمدم/ اللملم... تفيد الأقوام آكلي لحوم البشر. =

من أوجلة إلى كوكو مروراً بكوار[1]. وتمثل كوكو محطة مهمة على طريق غانا ـ كوار ـ الواحات ـ أسوان[2]. وكانت هناك طرق تصل كوكو بالسنغال الأعلى وتشاد[3]. وهو واقع أكده الزهري الذي يفيد بأن القوافل تأتي إلى كوكو قادمة من مصر وورقلة، وقليل منها يأتي من سجلماسة. هكذا نرى أنه في الوقت الذي ينتقل فيه الثقل السوداني شيئاً فشيئاً نحو الشرق يزداد تفضيل استعمال محاور الوسط والمحاور الشرقية على حساب سجلماسة. كانت كوكو تستورد التمور، والزبيب، والحرير، والملابس والزئبق والزعفران وأشياء ثمينة، وكانت تصدر أنياب الفيلة إلى مصر وسوريا[4]. ويذكر الزهري، كذلك طريقاً من كوكو نحو النوبة[5].

في القرن الرابع عشر. كانت جاو واحدة من أجمل المدن السودانية، حسب ابن بطوطة الذي زارها، وكانت مدينة كبيرة والمؤن بها وفيرة، وتتم فيها المعاملات التجارية باستعمال الودع مثل مالي[6]. وقد بقيت المدينة قوية حتى

= وتحديد مواقعهم عند المؤلفين غير دقيق: في جنوب الصحراء، من الأطلسي إلى البحر الأحمر دون تدقيق.

(1) نفس المرجع، ص132/ 158.

(2) نفس المرجع، ص22/ 27.

(3) الإدريسي، ص2، 10، 121/2، 11 ـ 12، 141 يتحدث عن مدينتين متباعدتين جداً إحداهما عن الأخرى وكليهما تسمى كوغا. حسب معطيات المؤلف، إحدى المدينتين واقعة في السنغال الأعلى، والأخرى في حوض تشاد على مسافة عشرين يوماً جنوب كوكو. المدينة الثانية هذه تتفق إما مع كوكو غرب بحيرة تشاد (انظر عاليه، ص366، رقم 3) وإما جاوجا التي ذكرها ليون الأفريقي (وصف أفريقيا، ج2، ص481 ـ 483) في شرق البحيرة، انظر Etudes Maghre'bines, T. Lewicki، ج1، ص53 ـ 54.
Gaudefroy - Demombynes، العمري، ترجمة، رقم 1، ص56 ـ 57. تبدأ طريق من كوكو وتتجه على كل حال نحو الجنوب ـ الشرقي، نحو بحيرة تشاد، بحيرة كوارى عند ابن سعيد (بسط الأرض، ص26) حيث تبدأ طرق نحو كوار وفزان وهو إقليم كانيمي بعد مقتل ابن قراقوش.

(4) جغرافية، ص183 ـ 184.

(5) نفس المرجع، ص170.

(6) رحلة، ج4، ص435 ـ 436. وجد ابن بطوطة هناك استقبالاً حاراً من جانب أحد المولودين =

أحتلها المغاربية سنة 1591ف. وأستناداً إلى المعطيات التي أوردها محمود كعتي[1]، حسب Raymond Mauny، بلغ عدد سكان المدينة حوالى خمسة وسبعين ألفاً في نهاية القرن السادس عشر وهو رقم ضخم بالنسبة لسودان ذلك العصر[2]. وقد أذهل عدد التجار الذين يأتون إلى جاو من كل جانب ليون الأفريقي، كما اندهش أمام العدد الكبير من العبيد المعروضين للبيع وأمام كمية الذهب المتداولة التي لا يتمكن السكان المحليون من صرف إلا ثلثها أو نصفها[3] على مشترياتهم. إن منحنى نهر النيجر الذي يمتد نحو الصحراء ويسمح بالنقل النهري حتى الصحراء ليس بغريب عن ثراء المنطقة.

كان يجب عبور موطن البردامة للوصول إلى غات وغرب ليبيا من جاو، وهي رحلة غير ممكنة إلا تحت حماية البردامة والمرور بتكدة[4]. والبردامة ـ حسب ابن بطوطة ـ بربر رحل[5]، ونساؤهم أجمل نساء في الدنيا ولا توجد نساء أسمن منهن في أي مكان. ويتغذى البردامة بحليب البقر وبذرة بيضاء مهروسة يشربونها مخلوطة بالماء دون طهي. إن هذا الوصف يتفق إلى حد بعيد مع وصف الإدريسي وابن سعيد للبغامة الذين كانوا في نفس المنطقة وهم بربر رحل غيرت حرارة الشمس لون جلدهم إلى الأسود، وتكون المواد اللبنية غذاءهم الأساسي، ويشمون الأرض للعثور على الماء ويحفرون الآبار بأيديهم[6]. وربما يكون البغامة ـ البردامة ـ ينطقهم Henri Lhote بغامة (بضم

= في مكناس وقد توفى في كوكو بعد مغادرة ابن بطوطه، ومن رحالة كبير كان قد زار اليمن ومن فقيه أصيل تافلالت إمام مسجد البيض. ومن المعروف أن أحكام ابن بطوطة حول المناطق التي يعبرها تعتمد كثيراً على الاستقبال الذي يحظى به.

(1) تاريخ الفتاش، ص145 ـ 146/ 262.

(2) Tableau Geographique, p.499.

(3) وصف أفريقيا، ج2، ص470 ـ 472.

(4) ابن بطوطه، ج4، ص436 ـ 438.

(5) منجد ص562 وصفاً لخيامهم الغريبة.

(6) الإدريسي، ص9 ـ 11/ 10 ـ 13. وابن سعيد، بسط الأرض (مختصراً)، ص 26، يقول =

الباء)، ـ بردامة (بضم الباء) ـ طوارق يسميهم الفلاني حتى اليوم[1] بالبردام.

لقد قدم هنري لهوت Henri Lhote البرهان على الخلط الذي وقع فيه ابن خلدون عندما كتب تكدة لـ تادمكة[2]. وقد ارتكب مؤلفون آخرون الخطأ العكسي ـ تادمكة لتكدة ـ وهو ما يضيف لحيرتنا.

إن ابن بطوطة[3] هو الرحالة الوحيد الذي ذهب إلى تكدة ووصفها. يقول عنها إنها مدينة بيوتها من الحجر الأحمر، وتغير فيها الماء وطعمه بسبب مروره عبر مناجم النحاس. وفيها الكثير من العقارب القاتلة للأطفال غير البالغين. وليس لدى السكان من الحبوب إلا القليل من القمح. وحرفتهم الوحيدة هي التجارة، ويذهبون كل سنة إلى مصر ويحضرون منها أقمشة جميلة. وهم أثرياء لديهم الكثير من العبيد من الجنسين خاصة النساء المتعلمات اللاتي تصل أسعارهن إلى مبالغ مرتفعة جداً[4]. ويقع منجم النحاس ـ حسب ما يورده ابن بطوطة ـ خارج تكدة. ويتمثل عمل العبيد من الجنسين في استخراج النحاس من المنجم وإحضاره إلى المدينة. وتستعمل قضبان النحاس الأحمر التي يصنعونها نقوداً للتبادل، فبالرقيق من هذه القضبان يشترون اللحوم والخشب[5] وبالسميك يشترون العبيد، والذرة، والزبد، والقمح. وينقل هذا النحاس إلى بورنو على مسافة أربعين يوماً.

= الهراني أن البغامة بربر رحل، ويرعون جمالهم على طول نهر يصب في النيل (= النيجر) ويتغذون باللحم والسمك واللبن. انظر الترجمة في Recueil, J.M.Cuoq ص249.

(1) H. Lhote, Recherches Sur Takedda, p. 429; Le meme, Contribution, 1, pp. 335 -336. V. aussi W.D. Cooley, The Negroland, p. 85, N. 40; H.R. Palmer, Sudanese Memoirs, II, pp. 9 - 10 (La region de la boucle du Niger est encore appele'e Buram); J.M. Cuoq, Recueil, index, S.V.V. Baghama, Bardama et notes; Levtzion and Hopkins, Corpus, Ibid.

(2) .Contribution, 1, pp. 359 - 363.

(3) رحلة، ج4، ص438 ـ 444.

(4) لن نندهش من قراءة أن «رحالة الإسلام» أراد أن يشتري إحدى هذه النساء، انظر، رحلة، ص439 ـ 440.

(5) حسب Recueil, J.M. Cuoq، ص319 ـ 319، رقم 3، يتعلق الأمر هناك بصنع نقود صغيرة.

بفضل التوضيحات التي أوردها ابن بطوطة، يتفق المؤلفون على وقوع تكدة مباشرة جنوب غرب مرتفعات الآيير حيث تكثر أسماء الأماكن بـ«تجدة» التي تعني «عيون» بلغة الطوارق «التمحق». ويتفق R. Mauny [1] مع G. Brouin والباحثين الآخرين الذين عملوا من نفس المنظور لمطابقة تكدة مع أزليك. فمن كل المواقع في المنطقة، أزليك هي الوحيدة التي تتفق معالمها مع ما أورده ابن بطوطة: قربٌ من العيون «تجدة» الدائمة، ومنجم النحاس ووجود كتل صغيرة من النحاس المعدني[2]، وقطع من النحاس المصهور والكثير من الأطلال القديمة لبلدة. وأن هنري لهوت Henri Lhote هو الوحيد الذي يريد تحديد موقع تكدة ابن بطوطة في «تجدة ـ إن ـ تصمت» على مسافة عشرين كيلو متراً في جنوب غرب أزليك[3]. إن إحدى النقاط الأساسية التي ترتكز إليها حجج لهوت هنري ـ المدققة كالعادة، والمنطقية تمامًا ـ تكمن في الخلط الذي وقع فيه مقدم ابن بطوطة بين «النحاس» و«الملح»[4]، كما يلاحظ R. Bucaille. أن من المستبعد أن يكون الرحالة قد خلط بين «الملح» و«النحاس» عندما كان ينهي إملاء مؤلفه على ابن جزي بعد سنتين فقط من عودته من السودان[5]. وبما أن كلمة نحاس ترددت خمس مرات في الجزء الخاص بتكدة من النص فإن الخلط مع الملح يبدو لنا مستحيلاً سواء للسمع أو للكتابة. وهكذا فإننا مع الرأي المقبول عامة وهو أن تكدة هي أزليك الحالية، بالرغم من أن بعض حجج Henri Lhote تحيرنا. وليس أقل هذه الحجج هي أنه لو أن الماء كان ملوثاً بالنحاس، كما يؤكد ذلك ابن بطوطة، لتسبب في اضطرابات خطيرة عند السكان بينما يتحمل الصحراويون[6] الماء المالح بالتعود.

---

(1) Tableau Géographique, p. 140.

(2) من جديد حول موضوع تكدة، Notes africaines، دكار، 47، VII، 1950 ص90 ـ 91.

(3) Recherches sur Takedda, p. 45 Seq.

(4) Takedda, pays du Cuivre, pp. 724, 727. Seq.

(5) ترك ابن بطوطة سجلماسة إلى فاس في ديسمبر 1353م (VI، ص447) وانتهى من كتابة الكتاب في فبراير 1356م (IV، ص451).

(6) Recherches Sur Takedda, Pp. 460 - 461.

كان الدور الذي لعبته تكدة كملتقى للطرق، مهماً، فقد كانت المدينة تمكن من الدخول، نحو الغرب إلى كوكو وغانا، ونحو الشرق إلى بورنو، وشمالا إلى توات في اتجاه فاس أو ورقلة وإلى جانيت[1] ـ غات في اتجاه إما غدامس وجنوب تونس أو ساحل طرابلس الغرب وإما في اتجاه فزان، والطريق عبر غات وغدامس كلاهما يمكن أن يوصل إلى مصر. وكما رأينا، هناك طريق آخر يؤدي إلى مصر عبر العوينات أو الكفرة مروراً بكوار حيث يمكن الوصول كذلك إلى زويلة في الطريق نحو الساحل الليبي أو مصر.

كانت واحة كوار تحتل موقعاً مثالياً في منتصف الطريق بين تبستي والآيير من جانب، وبين فزان وحوض تشاد من جانب أخر. وتوجد العيون بوفرة في هذا الممر شمال ـ جنوب البالغ طوله ثمانين كيلو متراً وعرضه يتراوح بين واحد وخمسة كيلو مترات، ويتكون السكان الحاليون من الكنوري والتبو ـ الذين يسمون المنطقة وادي التبو[2] ـ والطوارق. ويعيش السكان على المائة ألف نخلة[3] في المنطقة ويحققون أرباحاً كبيرة من ملاحات بلما[4].

إن تاريخ كوار غير معروف جيداً، وهو أمر يبعث على الدهشة لأن هذا البلد شكل معبراً لا غنى عنه للوصول إلى بعض أسواق الرقيق، ووصلت إليه حملة عقبة بن نافع منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع.

بالإضافة إلى ذكر قصور كوار من قبل ابن عبد الحكم[5]، يعود الفضل في أول وصف ـ مختصر جداً ـ لهذه المنطقة لليعقوبي[6] الذي أفاد بأن مدينة

---

(1) استضيف ابن بطوطة في تكدة من قبل أحد مواليد جانت الذي كان قاضي المدينة، انظر ج4، ص438.

(2) G. Nachtigal, Sahara and Sudan, II, p. 73 - et n. 1.

(3) تقدير لـ R. Mauny، موسوعة الإسلام، انظر كوار.

(4) Description du kwar in G. Nachtigal, Sahara and Sudan, II, pp. 52 - 77; Denhan, Clapeerton and Oudney, Narrative of Travels, pp. 206 - 217; H. Barth. Travels, III pp. 612 - 622; H. Visscher, Across the Sahara, pp. 249 - 269.

(5) فتوح أفريقية، ص62 ـ 63.

(6) البلدان، ص345/ 205 ـ 206.

يقال لها كوار ـ واقعة على مسيرة خمسة عشر يوماً من زويلة[1] ـ يسكنها مسلمون من قبائل مختلفة أغلبها من البربر، وهم يعملون في تجارة العبيد[2]، وبين زويلة وكوار، وكذلك بين زويلة وأوجلة ـ أجدابيا تعيش قبيلة لمطة التي تشبه البربر.

هكذا، كان سكان كوار البيض من البربر المختلطين بقوم آخرين (التبو؟). وبما أن الكواريين كانوا مسلمين في هذه الفترة، وقد أخبرنا اليعقوبي، في المقطع السابق أن سكان زويلة أباضيون فإن بإمكاننا أن نتوقع ـ بثقة ـ أن الكواريين ـ كذلك ـ كانوا أباضيين. إننا، لسوء الحظ، لا نعرف عن اختفاء الأباضية من كوار لصالح السنية أكثر مما نعرفه عن أختفائها من مناطق فزان.

لم يصف البكري كوار في القرن الحادي عشر وقد لاحظ أن في كانم على بعد مسيرة أربعين يومًا من زويلة، قوم منحدرون من بني أمية لاجئون هناك وهم يلبسون كالعرب ولهم نفس عادات[3] العرب. من المرجح أن هذه الجماعة من المسلمين كانت تعيش في كوار، وبالفعل لم يذكر أي مؤلف وجود بيض جنوب كوار، كما أن مسيرة الأربعين يوماً التي ذكرها البكري تمثل الوقت الضروري لقطع المسافة زويلة ـ بلما(1000كم) إذا أخذنا في الاعتبار أيام الراحة في الواحات الأخيرة لوادي الحكمة والتوقف المتكرر في الواحات الأولى من كوار. وهكذا فإن التجار الأباضيين كانوا على علاقة بنظرائهم من البيض المستقرين في السودان.

يبدو أن الوضع لم يتغير كثيراً في منتصف القرن الثاني عشر. صحيح أنه

---

(1) إن هذا التقدير غير صحيح: تفصل 820 كم زويلة عن سجدين على أبواب كوار. يجب أن يكون المتوسط اليومي 55 كم. و580 كم بين تجرهي آخر واحات فزان وسجدين: في15 يوماً، المتوسط اليومي يقارب 40 كم وهو متوسط يومي عادي في هذه المنطقة.

(2) حرفياً «يأتون بالسودان».

(3) المسالك، ص11/ 29.

ورد على خريطة الإدريسي عبارة «بلاد كوار من السودان» ولكن النص بيّن[1] أن سكان القصبة يلبسون فوطاً[2] وأزراً[3] وقداوير[4] من الصوف. لم تذكر الفوطة في أي مكان آخر في السودان كما لم يرد ذكر جامع لهذه الأنواع الثلاثة من الملابس. ونعتقد أن ديرك لانق Dierk Lange كان مصيباً عندما قال بأن السودان يمثل بالنسبة للإدريسي حقيقة جغرافية لا أتنية، ملاحظاً أن فزان سمي على خريطة الإدريسي «أرض فزان من السودان» وأنه لم يذكر في أي مكان تسمية الكواريين سودانيين ـ أهل السودان كما هو الحال بالنسبة للأقوام الأخرى في هذه المنطقة سواء في الشرق أو الغرب[5]. وقد سماهم الإدريسي في المقطع الذي تعرض للمعارك التي جرت أحياناً بين العرب والكواريين قرب بحيرة ش. برو ـ الكفرة[6] بـ «أهل كوار»[7]. أكثر من ذلك، عندما تناول الإدريسي وصف الواحة الكوارية «أنكلاس»، وهي بلاد مستقلة، أعطى لغطاء الرأس فيها صورة تتفق مع لثام البربر الملثمين، فقد أفاد بأنهم يلبسون مقندرات

(1) نزهة، ص38 ـ 40/ 45 ـ 47.

(2) الفوطة (جمعها فوط) نوع من سروال قصير يغطي كذلك الأفخاذ، يلبس خاصة في الجزيرة العربية، انظر Vetements, A. Dozy، انظر ابن بطوطة ج2، ص186) يلاحظ أن هذا اللباس يلبس في مقديشو.

(3) عن الإزار بشكل عام، وعن الإزار الذي يلبس في الساحل السنغالي في القرن الحادي عشر خاصة انظر بعاليه، ص473 رقم 1.

(4) عبارة عن قميص واسع وطويل، دون أكمام. هذا هو التقندورة البربرية، الجندورة، انظر مصطلح الإدريسي. ص364. وDictionnaire, Deaussier، انظر قندورة. ويبدو أن القندورة في هذا العصر ـ حسب الإدريسي ـ لباس صحراوي كيفه بعض الأقوام أو الطبقات الاجتماعية السودانية. يذكره الإدريسي في الزوقي/ موريتانيا (ص60/ 69)، وفي نقارة، بلاد الذهب وفي شرق غانا (ص8/ 10) وعند تجار كوكو بينما تلبس عامة الناس الجلود (ص11/ 13) وفي تكرور (ص3/ 3) وفيها لاحظ البكري لبس الإزار الذي من المحتمل أنه يعني تنورة. انظر المسالك، ص173/ 325.

(5) ديوان سلاطين بورنو، ص109. انظر كذلك The early history of kwar Oasis, K.S. Vikor.

(6) انظر بعاليه، ص506، 507.

(7) نزهة، ص41/ 48.

من الصوف «ويربطون على رؤوسهم كرازي الصوف ويتلثمون بفواضلها ويسترون أفواههم وهي عادة من عوائدهم توارثها الأبناء عن الآباء لم ينتقلوا عنها. . . .»[1] ويتحدث الإدريسي كذلك عن كرازي ولكنه يقول إنها مجرد أغطية للرأس[2]. والكرزية (جمعها كرازي) توصف عادة بأنها قطعة طويلة من القماش الصوفي تلف حول الرأس كعمامة[3] ولكن من الوصف الذي يعطيه لها الإدريسي هنا يتضح أنها لثام. من المستبعد أن يكون هؤلاء الملثمون من قبيلة لمطة التي قال اليعقوبي بوجودها في المنطقة كوار ـ زويلة ـ أوجلة لأن لمطة وجدت بعد القرن التاسع أبعد نحو الغرب، في جنوب مزاب وفي الصحراء الموريتانية. وأما الملثمون الأبعد نحو الشرق فهم التارقة الذين قال عنهم ابن خلدون إنهم يوجدون بالقرب من عرب سليم[4] أي في منطقة الطوارق الحاليين.

يكتسي هذا الخبر من الإدريسي أهمية، فهو يوضح أن بربر فزان كانوا ـ لا محالة ـ في عهد بني خطاب على صلة بأخوتهم في الدين البربر المقيمين بعد منطقة الفراغ تجرهي ـ سجدين بالقرب من أسواق الرقيق السودانية والمناطق التي كان يغار عليها[5]. وقد سهل هذه العلاقات بين فزان وكوار أن سلطان كانم لم

(1) مقندرة مرادفة قداوير، انظر الإدريسي، المعجم، ص364.

(2) الكرزية تلبس في ساحل السنغال مع القندورة، ص3/ 3. وفي أماكن أخرى، تلبس مع الكيسا وهي معطف من الصوف الخشن (كلمة كيسا بهذا المعنى لم تستعمل إلا في المغرب وإسبانيا، انظر، Vetements, A. Dozy، ص386) من قبل تجار كوكو (ص11/ 13) في الصحراء الغربية حيث يقال لها عمايم، مفردها عمامة (ص58/ 68) وفي المغرب الأوسط (ص78/ 89).

(3) كانت تلبس كذلك في الشرق ولكن يبدو أن الكلمة من أصل مغربي. انظر Vetements, A. Dozy ص382. في تطوان تعني الكرزية حزاماً من الصوف يلبسه الرجال، انظر Dictionnaire, M. Beaussier.

(4) البربر، ج2، ص105. تثير كوار في الذهن التبو ولكن يجب استبعادهم، في هذا الإطار: العمامة عند التبو دخلت حديثاً نسبياً ـ وفي الماضي كانو يلبسون طاقية من الجلد ـ ولم تشكل في شيء التزاماً كما هو الحال عند الملثمين الذين ذكرهم الإدريسي، وعند الطوارق اليوم. انظر Nomades noirs, J. Chappelle، ص241 ـ 242.

(5) تسمى بحيرة تشاد عند ابن سعيد البحيرة الكوارية، وهي برهان على الأهمية التي يعطيها =

يكن قد وصل بعد إلى أوج قوته ولم يكن يمارس على كوار - التي كانت عملياً مستقلة - إلا سلطة محدودة إن لم تكن اسمية، مفوضاً اختصاصاته إلى الرؤساء المحليين، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يحدث أن تمتد هذه السلطة حتى وادي الحكمة، وادي فزان الجنوبي. وقد وضح لنا هذا الوضع في ديوان سلاطين بورنو ومن قبل الإدريسي. حسب الديوان، كان عند السلطان أركو (± 1023ف - 1067ف)، الذي كانت أمه كوارية، أعداد كبيرة من العبيد لدرجة أنه وطن ثلاثمائة منهم في دركو، وثلاثمائة في س.ك.د.م. - سجدين وثلاثمائة في زيلة، وهي تسمية التبو للمنطقة القطرون - تجرهي[1]. أما الإدريسي فأفاد أن الرئيس المسلم للبربر الملثمين في أنكلاس، واحة في كوار، كان مستقلاً وهو «رجل ثائر من أهل البلد وله عصبة وقرابة يقوم بهم وهم يعضدونه وله كرم مشهور وسيرة حسنة وأحكامه شرعية وهو مسلم»[2]. وفي القرن الثالث عشر، بينما كانت سلطة كانم تمتد حتى ودان، أفاد ابن سعيد أن كوار مملكة تعيش تحت سيادة كانم[3]. إن هذا يفسر لنا الكثير حول استقلال بني نسور، الأسرة السودانية الحاكمة لفزان، وحول تميز العلاقات التي كانت قائمة بين الصحراء الليبية وكوار، وقد كان حكام المنطقتين حينها من المسلمين السود ولم يعودوا من البربر. لقد طبع هؤلاء كوار بطابعهم، فتبنى السود عادات البيض في ارتداء الصوف والقطن والسفر لغرض التجارة. وكانت تقع مصادمات بين سكان كوار وبربر الصحراء والعرب القادمين من فزان حول ملكية البحيرتين[4]، ولكن البربر

= التجار لكوار. وقد كانت هذه البحيرة محاطة من كل جانب بأقوام من أكلة لحوم البشر، وكانت المنطقة مصدراً للرقيق، ولم يكن البيض يستطيعون الوصول إلى الشاطئ الجنوبي للبحيرة، انظر، بسط الأرض، ث26 - 27.

(1) ديوان سلاطين، بورنو، ص28/ 27، وملاحظات 1 - 5.

(2) نزهة، ص39/ 46.

(3) بسط الأرض، ص28 - 29.

(4) نفس المرجع، ص48. حسب وصف ابن سعيد، لا يمكن أن تكون بحيرة تشاد، انظر Recueil J.M. Cuoq، ص216 رقم 1 الذي يتساءل عما إذا لم تكن توجد بحيرات في كوار واختفت. نلاحظ أنه توجد حتى اليوم ثلاث بحيرات صغيرة جداً أو مستنقعات بين أشنومة ودركو، انظر خريطة بلما 1 : 1000000.

كانوا، في الحقيقة، رعايا سلطان كانم وكان يستعملهم في غاراته[1].

كان اقتصاد كانم يعتمد أساساً على التجارة، كما يتبين لنا من قراءة الإدريسي. كان لسكان القصبة وقصر أم عيسى[2]، وهي مدن صغيرة ولكنها ثرية، جمال كثيرة يستعملونها في أسفارهم التجارية المتكررة إلى الشرق والغرب. وأنكلاس هي أهم مدينة في كوار، وأكثرها أهمية ـ كذلك ـ من الناحية التجارية. وتوجد في النواحي الجنوبية مناجم وفيرة للشب النقي الذي كان السكان يذهبون لبيعه بكميات ضخمة إلى الشرق حتى مصر وإلى الغرب حتى ورقلة وبلدان المغرب الأخرى. وفي الحالتين كانت هذه الحركة تمثل مصدر عوائد ضخمة للصحراء الليبية في شكل رسوم عبور. وبالرغم من أن الإدريسي لا يذكر إلا المنتج الأكثر ندرة، الشب، يرى R.Mauny أن الملح كان بكل تأكيد يجمع في هذا العصر، ويصدر إلى المناطق السودانية كما هو الحال لكل ملح الصحراء، كما أبرز، بالإضافة إلى ذلك، أن الرواية تنسب إلى فزان ـ وتحديداً لمرزق ـ أصل صناعة الملح الكواري[3]، ويمكننا تخمين ضخامة نقد التبادل المتوافر لدى الصحراويين الليبيين لغرض شراء العبيد المختطفين من قبل سلطان كانم، بمساعدة رعاياه من البربر أثناء الغارات التي تحدث عنها ابن سعيد[4].

---

(1) نفس المرجع، ص29.

(2) يعدد الإدريسي مدن كوار في الشمال والجنوب. وبالرغم من بياناته فإن من الصعب تحديدها. ويقترح Tableau Geographique - R. Mauny، ص141 ـ القصبة = جسبي (بسبب آبار المياه العذبة المذكورة من الإدريسي)، وقصر أم عيسى = بلما (يشير الإدريسي إلى عيون، والعيون الوحيدة في كوار تقع في بلما)، وأنكلاس = كلالة على مسافة 2 كم شمال غرب بلما (يشير الإدريسي إلى مناجم شب، توجد كلالة بجانب الملاحات)، وأبرز بحيرتها = ؟ تملم/ تلمل = ؟ Sahara and Sudan, مؤسساً على Etudes, Maghrebines T. Lewicki، ج2، ص67 ـ 68، G. Nachtigal، ج2، ص58 ـ 67 يعتقد من جانبه: القصبة = جسبي، وقصر أم عيسى = 1 شنمة، وأنكلاس = دركو، وأبزار = جبدتو أو أجر، والقرى المهجورة تملمه ـ اتلملة = بلما. وتبدو مقترحات R. Mauny مؤسسة بطريقة أفضل.

(3) Tableau Geographique, p.333.

(4) في سنة 1949ف وصل إنتاج الملح في كوار إلى 22000 حمولة جمل (المرجع السابق ص334) أي حوالى 3000 طن.

بالإضافة إلى الطرق التي كانت تؤدي، جنوباً، نحو عواصم كانم ـ بورنو[1]، كانت تنطلق طرق كثيرة من كوار في كل الاتجاهات. غرباً، كان يتم الوصول إلى تكرور عبر جاو[2]، وشرقاً يتم الوصول إلى النوبة[3] بعبور بلاد الزغاوة، ومن دنقلة كان يمكن الوصول إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر، ومنها إلى جدة[4]، حسب ما يوحي به نص ليون الأفريقي. وكانت كوار على صلة نحو الشمال الغربي بواحة ورقلة التي كانت تصدر إليها جزءاً من شبها. كان هذا الطريق يمر بزويلة وجبل نفوسة حيث يتبع مساراً مباشراً أبرزه Gustav Nachtigal، عبر غات من خلال أين الزان[5]، ثم من المحتمل غدامس إذ لا يذكر أي نص طريقاً مباشرة غات ـ ورقلة في خط مستقيم. وكان ينقل من الطريق الشمالي الغربي نحو ورقلة الشب والرقيق من كوار كما أن من المرجح أنه كان يمثل جزءاً من المسار المتبع لتصدير قمح ورقلة إلى بلاد الزغاوة[6]. وفي اتجاه الشمال الشرقي كان يتم الوصول إلى أسوان عبر العوينات والواحات الخارجة وهي طريق كانت مهجورة في زمن الإدريسي[7]، والساحل المصري عبر ص برو ـ الكفرة وسنترية ـ سيوة[8]، والقاهرة من خلال نفس الطريق أو عبر ص. برو والواحات ثم النيل[9].

(1) الإدريسي، ص12/ 15.

(2) الإدريسي، ص12 ـ 13/ 15. وأبو الفدا، تقويم، ص129.

(3) الإدريسي، نفس المصدر.

(4) وصف أفريقيا، ج2، ص483 ـ 484. يتحدث ليون عن سواكن وفي نفس الوقت عن دنقلة. بما أن ليون يشير إلى أن سكان دنقلة يصطادون الفيلة ولأن من المعروف أن موانئ البحر الأحمر تصدر العاج فإننا يمكن أن نفترض أنه كان يتم الذهاب من دنقلة إلى سواكن.

(5) Sahara and Sudan, II, p. 77.

(6) الإدريسي، ص34 ـ 35/ 41.

(7) نفس المصدر، ص22/ 27.

(8) نفس المصدر، ص45/ 52.

(9) البكري، ص15 ـ 17/ 38 ـ 40.

ويتم التوجة نحو الشمال عبر زويلة إلى جبل نفوسة، وشاطىء طرابلس الغرب وقلب أفريقية ونحو خليج سرت أو شمال إقليم برقة. وقد كانت هذه الطرق نحو الشمال هي التي تسلكها القوافل التي تحمل إلى أفريقية ومصر والمشرق ليس فقط عبيد السودان وإنما، كذلك، ذهب غانا.

المسالك الليبية

قد يكون من المفيد أن ندرس الطرق التي كانت تعبر ليبيا، وفي أي عصر عرفها العرب وبأي درجة من الدقة أورد الجغرافيون رسم هذه المسالك ومدد قطعها. لن نعود لا على الطرق المؤدية من الواحات إلى جنوب إقليم برقة ولا على هذه الموصلة من الكفرة إلى زويلة وإلى كوار ومن المرجح إلى ودّاي، بلاد الزغاوة، إن البيانات التي وردتنا غامضة لدرجة لا تسمح بدراستها ومناقشتها[1]. بعض المقاطع في خطوط السير هذه لا يمكن إلا أن تذكر ـ من بينها أوجلة ـ الكفرة، وزلة ـ الكفرة ـ إذ لا معلومات دقيقة في حوزتنا، وأخرى لا يمكن أخذها في الاعتبار لإنها لم تذكر من قبل الجغرافيين العرب ـ مثل المسلك المباشر غدامس ـ توزر (الذي لا بد أنه استعمل، خاصة في زمن حروب بني غانية)، وطريق الكفرة ـ بحر الغزال ـ تشاد (الذي سلك في القدم وفي القرن التاسع عشر)[2].

---

(1) انظر بعاليه، ص505.

(2) Routes d'Egypte, R. Rebuffat. حول الطرق من الكفرة أو العوينات نحو الخارجة والداخلة وبئر نطرون والأندي ووداي وبوركو، انظر Le Ultime oasi de deserto libico, G.B. Coa، ص753 ـ 759. ومن الكفرة نحو سيوة عبر الجغبوب ونحو أجدابيا عبر أبي زيمة، انظر=

لنبدأ بالاعتراف بالعجز: إننا لم نتمكن من تحديد رسم مسار الطريق مصر ـ بهنسة ـ سجلماسة التي أوردها الإدريسي[1]. فقد تعذر تحديد الاثنين والعشرين مكاناً المذكورة[2] بأسمائها والتي تمثل عيوناً مائية وجبالاً وأودية وصحار لم توضح على خريطة الإدريسي. يقال أن المسافة بهنسة ـ سجلماسة ـ وهي 3000 كم مقاسة في خط مستقيم مباشر ـ قد قطعت في 34 يوماً أو أكثر بقليل، وهذا خطأ لا يستحق التوقف والتعليق[3]. ربما استعمل هذا المسار ـ النادر استعماله ـ من قبل المرابطين بقيادة أدلاء سنة 530هـ ـ (6 ـ 1135)ف[4].

إذا لم يكن هناك خطأ من جانب الإدريسي، فإن هذا الطريق كان يمر بداهة بليبيا، وبصحرائها جزئياً على الأقل. قد يكون تم سلوك هذا الطريق تجنباً للملاحظة لأننا لا نجد من بين الأماكن المعبورة التي ذكرت أي بلدة ذات أهمية. قد يمكننا في يوم من الأيام إعداد خرائط مفصلة تماماً من معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

= Across the Libyan desert, R. Forbes، 2، ص168. ومـشـلـه The Secret of the Sahara (خـرائـط). انـظـر كـذلـك P. Borchardt، Die Grossen ost-west-karawnaenetrassen، ص221 ـ 222.

(1) نزهة، ص162 ـ 163/ 193 ـ 194.

(2) مصر ـ بهنسة (7 أيام) ـ جب مناد (1 يوم) ـ فيدلا/ فندلة/ قندلة (1 يوم) ـ يومان بدون مياه ـ عين قيس (1 يوم) ـ غيات/ غياث (1 يوم) ـ جبل متلاس/ بتلاس (1 يوم) ـ نسنات/ نسناس/ قنسات/ كنسات (1 يوم) وادي قسطرات (1 يوم) ـ جبل مطلاس/ بطلاس (1 يوم) ـ صحراء تبديت (3 أيام دون ماء) ـ غدير شناوت/ شنارة/ شادة (1 يوم) ـ جبل تاتي/ تاني/ تلى (1 يوم) ـ ساملا/ ساسلا (1 يوم) ـ سيرو/ سيروالف [ر. و يمكن أن يقرأ ر. وا أو رو] في الجبل (1 يوم) ـ صحراء متلاوت/ منالاوت (6 أيام بدون ماء) ـ ن. قاو/ ب/ ت/ ث/ ي. عار (1 يوم) ـ سلو. بان، في جبل (1 يوم) ـ جبل و. جا (1 يوم) ـ ن. و. ر. مات/ ن. د. ر. ب/ ت/ ث/ ن/ ي/ م. هـ/ ب. د. رفات (؟) ـ جبل ق. زول/ ن. زول (1 يوم) ـ جبل يد. مور (3 أيام في صحراء بدون ماء) ـ سلكاية/ س. ك. لاك/ س. ك لايا (2 يوم) ـ تامم. م. ت/ تاس. ت/ تاق. م. ت ـ (1 يوم) ـ سجلماسة (1 يوم).

(3) نضيف 34 يوماً. ليس هناك أي إشارة بين جبل و. جاد ون. د. رمات.

(4) لا نعرف إلى أي واقعة من تاريخ المرابطين يشير الإدريسي هنا.

كان المسافر عند وصوله إلى أجدابيا من المخيل(*)، أو من برقة أو ميناء برنيق[1] يجد نفسه في ملتقى طرق. كان هناك طريق في اتجاه سرت[2]، وآخر نحو الجنوب الغربي، نحو زلة، وبالفعل، ذكر أبو الفدا نقلاً عن الإدريسي طريق برقة ـ زلة من عشر مراحل في اتجاه الغرب[3]، وهو معدل يستحيل تحقيقه لأن طول المسافة 600كم (برقة ـ أجدابيا: 230كم، أجدابيا ـ زلة: 370كم). مع ذلك فقد قدر البكري[4] والإدريسي[5] المسافة «برقة ـ أجدابيا» بستة أيام وهو تقدير صحيح إلى حد كبير، ويكمن الخطأ في تقدير المسافة أجدابيا ـ زلة بأربعة أيام بدل عشرة أيام على الأقل. لا شك أن العربي الأول الذي قطع هذا الطريق كان عقبة بن نافع عندما توجه من برقة لفتح زويلة سنة 4 ـ 643ف[6]. وكان طريق ثالث يتوجه إلى الجنوب الشرقي نحو أوجلة[7]. المسافة بين أجدابيا وأوجلة (250كم) تقطع في سبعة أيام حسب البكري، وفي خمسة أيام حسب الإدريسي الذي تبنى معدلاً أسرع[8] بكثير. وفي نفس المقطع، يقدر الإدريسي المسافة برقة ـ أوجلة[9] بعشرة أيام، ويعطي للمسافة برقة ـ أجدابيا ستة أيام كذلك. ومنها نستنتج أنه يعتبر أن في الإمكان الوصول إلى أوجلة انطلاقاً من أجدابيا في أربعة أيام: ولا شك أن متوسطاً يومياً قدره 82كم مستحيل[10] التحقيق.

(*) هكذا يكتبها المؤلف، وهي حالياً المخيلي. المترجم.

(1) انظر بعاليه، ص521.

(2) للمسار الساحلي، انظر بعاليه، ص521 ورقم 4.

(3) تقويم، ص128. هذا المقطع غير موجود في كتاب نزهة المشتاق.

(4) المسالك، ص6/ 19.

(5) نزهة، ص132/ 157.

(6) انظر بعاليه، ص75.

(7) البكري، ص12/ 31 ـ منقولاً من قبل اليعقوبي، انظر أوجله ـ يشير إلى أن هذه الطريق كانت تمر بقصر ابن زيدان. هذا المكان غير معروف لنا. الزاوي في معجم، قد يكون مجرد نقل عن البكري، يلاحظ أن هذا المكان جنوب أجدابيا.

(8) نزهة، ص132/ 157.

(9) منقولاً من الحميري، انظر أوجله.

(10) تتضمن خريطة الإدريسي نفس الخطأ، أجدابيا وأوجلة قريبتان أكثر من اللازم من بعضهما، انظر خريطة 4.

مثلت أوجلة ملتقى آخر، فمنها كان ينطلق طريقان شرقاً نحو سنترية ـ سيوة، يمر أحدهما شمال الرملة (550كم) ويقطع في عشرة أيام[1]. وكان الآخر يخترق الرملة (450كم) ويستغرق ثمانية أيام[2]. ومن سنترية كان يذهب إلى الاسكندرية، ثم القاهرة، والواحات والنيل[3].

من أوجلة، كان يتم التوجه جنوباً نحو الكفرة[4]، مروراً بالواحة القريبة جالو. وهذا هو الطريق الذي اتبعه رئيس بني قرة حيث ضل الطريق وتاه[5].

كان هناك طريقان إلى الجنوب الغربي، يصل أحدهما تاقرفت، على مسافة 400كم[6]، ويستمر نحو ودان على بعد 120كم وهي مسافة تقطع في ثلاثة[7] أيام. إن هذا الطريق هو «الطريق المباشر عبر الرمال» الموصل من أوجله إلى ودان الذي ذكره ابن حوقل[8] من قبل، والذي لم يكن مجهولاً لليعقوبي[9]. وينتهي الطريق الآخر إلى زلة على بعد 400كم في عشرة أيام[10].

---

(1) البكري، ص14/ 35. والإدريسي، ص45/ 52، انظر أوجلة. وأبو الفدا، تقويم، ص129. والحميري، انظر سنترية.

(2) أبو الفدا، نفس المرجع.

(3) انظر بعاليه، ص516 ـ 519.

(4) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 204 سبق أن ذكر الطريق نحو جالو.

(5) البكري، ص15 ـ 17/ 38 ـ 40. انظر بعاليه، ص405 ـ 406. حول الطريق أجدابيا ـ الكفرة، انظر Across the Libyan desert, R. Forbes، 1، ص82 ـ 84.

(6) خطأ جسيم من البكري، ص12/ 31، ونقله ياقوت، انظر أوجلة، والذي يقول بأن هذه المسافة تقطع في 4 أيام بدل عشرة إلى اثني عشر يوماً.

(7) تقدير البكري، ص11/ 30 صحيح ولكنه يوقع ودان شرق تاقرفت. يستعمل ياقوت هنا مراجعه دون تمييز: انظر ودان، ناقلاً عن البكري تبنى 3 أيام. انظر تاقرفت، يقدر المسافة ودان ـ تاقرفت بأحد عشر يوماً. يقدر البكري المسافة تاقرفت ـ الفسطاط بـ29 يوماً (1500كم)، وهو ما يتطلب متوسطاً يومياً أكثر من 50كم. ياقوت، انظر تاقرفت، يعطي لهذه المسافة شهراً.

(8) سورة الأرض، ص67/ 64.

(9) البلدان، ص345/ 204.

(10) تقدير صحيح من الإدريسي، ص132/ 158، منقولاً من أبي الفدا ـ تقويم، ص128 ـ والذي يعطي مسافة ثمانية أيام (ص219). الحميري، انظر زالة، ويستشهد بالإدريسي.

كان يؤدي إلى تاقرفت طريق قادم من المدينة الساحلية[1] سرت. ومن بلدة تاقرفت كان يتم التوجه إلى زلة[2] أو بطريق مباشر إلى زويلة[3] (440كم) يستغرق قطعه أربعة عشر يوماً. وإن هذا المسلك المباشر يمر بواحة الفقها التي يقول البكري ـ دون أن يسميها ـ إنها محطة مملوكة لأهل ودان ـ والواقعة على طريق آخر تاقرفت ـ زويلة عبر زلة وتمسة[4]. لم يقدم البكري تقديراً للمسافة تاقرفت ـ زلة، وقدر المسافة زلة ـ الفقها (140كم) بأربعة أيام، والفقها ـ تمسة (180كم) بأربعة أيام، وتمسة ـ زويلة ـ (75 كم) بيومين[5].

كما سبق وقلنا أعلاه، يحيرنا ما أورده الإدريسي بخصوص المسار زلة[6] ـ زويلة. فهو، من جانب، يقول: «من زالة(*) إلى زويلة عشرة أيام منحرفة إلى الجنوب مع الغرب»[7]، ومن جانب آخر يشرح قائلاً: «من مدينة زالة(*) إلى مدينة زويلة 10 أيام، وبين زالة(*) وزويلة مدينة صغيرة تسمى مستيح». إن اسم هذا المكان غير موجود على الخرائط وغير معروف في المنطقة[8]. هل يتعلق الأمر بطريقين مختلفين؛ أحدهما نحو الجنوب ـ الغربي ماراً بالفقها ـ وهي موضع لم يعرف الإدريسي بوجوده ـ، يصل الآخر تمسة بعبور الهروج الأسود حيث هناك بلدة لا يستطيع اليوم أحد تحديد موقعها؟ إن

---

(1) البكري، ص11/ 30 دون ذكر مسافة.

(2) البكري، ص12/ 30 دون ذكر مسافة. الإدريسي، ص41، 133/ 49، 158 يقدر بتسعة أيام المسافة سرت ـ زلة (320كم).

(3) البكري، المرجع السابق، انظر تاقرفت يقطع المسافة تاقرفت ـ زويلة في 11 يوماً.

(4) البكري، نفس المرجع.

(5) سنلاحظ أن السير سريع على المسافة الفسطاط ـ تمسة. باعتبار هذه الحسابات فإننا لا نستطيع أن نفهم كيف أن البكري ص11/ 30 يستطيع أن يوقع زويلة على مسافة 12 يوماً من سرت فقط.

(6) انظر بعاليه، ص456.

(*) هكذا يكتبها الإدريسي. المترجم.

(7) نزهه، ص42/ 49.

(8) نفس المرجع، ص132/ 158. إن المتغيرات التي وردت في المخطوطات مسح، ومستنح لا تسعفنا لسوء الحظ.

ـذا ممكن، فما زالت توجد طريق ترابية تبدأ من زلة جنوباً على طول مائتي ـيلو متر ثم تنحرف نحو الجنوب ـ الغربي، ولكن يبدو أنه لا توجد على ـلولها أي أطلال وتتطلب هذه الطريق عبور وديان كثيرة ولكنها ليست أطول 400كم) من الطريق التي تمر عبر الفقها. يبدو لنا أن الإدريسي يتناول عدة ـرات نفس المسلك، ويأتي دائماً بنفس المعلومات، وعليه فإننا نميل لقبول حقيقة هاتين الطريقين وهو السبب الذي دفعنا لوضعهما على خرائطنا. مع ـلك، علينا ألا نهمل فرضية أن الأمر يتعلق بطريق واحدة: وأن المنزل الذي ـكره البكري هو مستيح عند الإدريسي، وهو اسم بربري لبلدة (؟) أعاد العرب ـسميتها لاحقاً بالفقها[1].

بالإضافة إلى الطريق من الشرق ـ سنترية ـ أوجلة ـ تاقرفت ـ ودان ـ لتي ذكرناها، كانت تصل ودان ثلاث طرق من الشمال. إحداها بطول 210كم تبدأ من الخليج عند سرت وتصل ودان في خمسة أيام[2]، وهو معدل سريع تمكن منه سهولة الأرض، وتغادر الثانية الساحل عند سويقة بني مثكود[3] ـ وهي موضع سمي مصراتة ابتداء من القرن الخامس عشر على اسم قبيلة بربرية[4] ـ لتؤدي إلى زويلة. وعليه فإن هذا الطريق كان يمر بأبي نجيم والجفرة. ويفترض الإدريسي معدل سير سريع جداً على المسافة

(1) حول تقدير المسافات الخاصة بالطرق المؤدية إلى زويلة من الشمال الشرقي، نذكر البكري، ص10/ 28 ـ مستشهداً به ياقوت، انظر زويلة، والذي يورد أن أجدابيا ـ زويلة (770كم) في أربعة عشر يوماً (55كم/يوم). وابن حوقل ص90/ 92 نقل عنه ياقوت، انظر أجدابيا يقدر المسافة بشهر (26كم/يوم).

(2) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 204 ـ 205. والإدريسي، ص133/ 158 منقولاً من قبل أبو الفدا، تقويم، ص128. البكري، ص11/ 30 يقترح رحلة من 12 يوماً. لم تكن لدى البكري فكرة واضحة عن مواقع هذه الواحات، فهو يوقع ودان وزويلة على مسافات متساوية من سرت، (12 يوماً).

(3) الإدريسي، المرجع أعلاه.

(4) R. Brunschvig، Hafsides، I، ص332. وRepartition, T. Lewicki، ص321. أورد ابن حوقل ذكر سويقة، ص65/ 96 وفيها كانت تحصل ضرائب على السلع الموردة.

سويقة ـ زويلة لأنه يقدر قطع الثمانمائة كيلومتر في 16 يوماً[1].

كانت الطريق الثالثة تنطلق من طرابلس وتعبر بلاد هوارة حيث تمر بنجوع البدو، وعلى طول هذه الطريق توجد محطات وأبراج حراسة وتقود إلى قصر ميمون. من هناك، يتم الوصول بعد ثلاثة أيام إلى صنم من الحجر مقام على مرتفع كرزة[2]، ثم إلى ودان[3] بعد ثلاثة أيام أخرى. إن قصر ابن ميمون غير معروف لنا، ولا يمكن أن يكون إلا إحدى البلدات القريبة من بني وليد: وبالفعل فالطريق طرابلس ـ بني وليد ـ كرزة ـ أبو نجيم ـ ودان ـ زلة هي طريق التوغل قديماً نحو الجنوب الشرقي وفيها اكتشفت أطلال، وقطع نقدية وخزف روماني[4]. إن هذه الطريق، وهي الأطول للوصول إلى فزان، هي الآمن نظراً لأن بها الكثير من نقاط المياه[5].

مثلت ودان إحدى بوابات الصحراء الداخلية. فمنها طريق يقود نحو الجنوب ـ الشرقي إلى زلة ـ 160كم وهي مسافة لا يمكن قطعها في أقل من أربعة أيام بسبب عبور كثير من الوديان[6] ـ ومن هناك إلى الكفرة[7].

كان هناك طريق آخر يتوجه جنوباً نحو زويلة[8]، ويصل في يوم واحد

---

(1) في القرن التاسع عشر، كانت القوافل تستغرق شهراً للوصول إلى مرزق من طرابلس عبر بني وليد والجفرة. انظر Sahara and Sudan, G. Nachtigal، 1، ص38.

(2) حول كرزة، انظر بعاليه، ص417.

(3) المسالك، ص12/ 31. تقدير المسافة كرزة ـ ودان (260كم) في 3 أيام (المتوسط ـ 87كم) خطأ بكل تأكيد. وقد نقل ياقوت هذا الخطأ، انظر ودان وهو يضيف أن الطريق طرابلس ـ ودان سهل. ويورد الحميري، انظر ودان، ستة أيام للمسافة قصر ابن ميمون ـ ودان.

(4) R. Rebuffat, Routes d'Egypte, pp. 16-17.

(5) إن هذا هو المسار التي سلكه G.F. Lyon وعلق عليه، Narrative، ص58 ـ 72. و G. Nachtigal، المرجع المذكور، ص38 ـ 50.

(6) يقترح الإدريسي أحياناً 8 أيام وأحياناً أخرى 3 أيام، انظر ص41، 132 ـ 133/ 49 ـ 158.

(7) يسمح (يتطلب ؟) الطريق زلة ـ تازربو متوسطاً مرتفعاً جداً: في سنة 1896ف قطعت قافلة محمد ابن عثمان الحشائشي الخمسمائة كيلومتر تقريباً بين هاتين النقطتين في عشرة أيام، انظر رحلة إلى بلاد السنوسية، ص71 ـ 72.

(8) ذكره من قبل اليعقوبي، بلدان، ص345/ 205.

إلى هون[1] (20كم) ثم يصل إلى سبها ماراً بواحة سوكنة التي كان مؤلفو العصور الوسطى يجهلونها. وكانت المسافة هون ـ سبها (320كم)، تقطع ـ حسب البكري ـ في خمسة أيام وهي المدة اللازمة أيضاً للذهاب من سبها إلى زويلة (125كم). إن الفرق بين المعدلين هون ـ سبها: 64كم ـ يوم، وسبها ـ زويلة: 25كم ـ يوم واضح لا يمكن القبول به خاصة إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة المرحلة الأولى جنوب سوكنة عبر جبل السودا، وكان لا بد أن يلاحظها البكري لو كان على بينة بمواقع الواحات الداخلية[2]. لا بد أن يكون المعدل على المسافة ودان ـ سبها بأقصى سرعة ممكنة لانعدام نقاط المياه بين الوشكة[3] وأول واحة وهي البوانيس. هكذا في سنة 1819ف قطعت قافلة G.F.Lyon مسافة 305كم الفاصلة بين سوكنة وسبها في ثمانية أيام ونصف محققة متوسطاً يومياً قدره 36كم[4]، بالرغم من أنها عبرت الجبل. سنلاحظ، أننا إذا لم نأخذ في الاعتبار توزيع المراحل، ولكن إضافتها فقط، فإن تقدير البكري يتطلب سيراً سريعاً ولكنه ممكن: ودان ـ زويلة (465كم) في 11 يوماً، أي بمتوسط يومي قدرة 42كم[5].

نذكر فيما يتعلق بالطرق القادمة من الشرق معلومة من بنجامين دي توديل Benjamin de Tudele تفيد بأن المسافة بين حلوان ـ وهي موضع يوقعه على مسيرة 12يوماً من أسوان دون أي تحديد ـ ومدينة زويلة تقطع في خمسين يوماً عبر صحراء تسمى الصحراء، وهي مكونة من جبال رملية، تغطي القوافل

---

(1) البكري، ص11/ 29، يكتب هـ.ل.

(2) في نفس المقطع، البكري يوقع زويلة جنوب ـ غرب طرابلس.

(3) واحة صغيرة على بعد 38كم جنوب سوكنة، وبها مصدر ماء عذب غزير يتردد عليه حالياً الرياح الهلاليون. يلاحظ الزاوي أن وشكة تعني في اللهجة الليبية فسيلة النخل (فسيلة، جمعها فسائل)، انظر معجم.

(4) Narrative، ص80 ـ 86. سنلاحظ أن الطريق تنحرف شرقاً على بعد 170كم شمال سبها لتحاشي صخور كثير.

(5) ياقوت، انظر تاقرفت، يقدر لقطع المسافة ودان ـ زويلة 11 يوماً.

وتهلكها[1] عند هبوب الرياح. ويمكن أن تتوافق مسافة الخمسين يوماً من موضع على بعد 12 يوماً من أسوان مع المسلك النيل ـ زويلة (± 2000كم). إن هذه الملاحظة تدعو للتفكير في الأسباب التي دفعت أحمد بن طولون لاختيار الطريق عبر سجلماسة مفضلاً لها على الطريق عبر زويلة[2].

لم تكن زويلة، على طريق السودان، فقط نقطة التقاء طرق الشرق، (من مصر ـ أوجلة، أو من مصر أو النيل ـ الواحات ـ الكفرة ومن برقة ـ أجدابيا) والشمال (من سرت ومن مصراتة عبر ودان)، فقد كان يصل إليها كذلك الطريق الذي كان خلال زمن طويل الطريق الأباضي المفضل. نعرف أن الطريق من تاهرت وورقلة كانت تصل جبل نفوسة مارة بالجريد، كما تصل الجبل الطرق القادمة من الساحل الطرابلسي. والبكري هو الوحيد الذي أفاد بطريق كان يصل جادو بزويلة[3]. إن أسماء الأماكن التي بينها لم تحدد لسوء الحظ. ولا يمكننا إلا تقديم اقتراحات عن رسم هذا المسار. حسب البكري، بعد مغادرة جادو، يتم الوصول بعد السير ثلاثة أيام في وسط الرمال إلى تيري، وهي موضع في سفح جبل، بعد صعود هذا الجبل تمتد صحراء مستوية لا ماء فيها يستغرق قطعها أربعة أيام، بعدها يتم الوصول إلى بئر يسمى ود.ر.ف ثم تبدأ منطقة جبال عالية تسمى تارغين تستغرق ثلاثة أيام قبل الوصول إلى «تامر.ما» وهي مدينة سكانها من بني قلدين وفزانة[*] وبها الكثير من النخيل وأهلها مهرة في ضرب الرمال[4]. بعد مسيرة يومين من هذه المدينة يصل المسافر إلى س.باب ـ س. ناب وهي تزرع نباتاً تستخرج منه الصبغة الزرقاء وبها الكثير من بساتين النخيل. بعد هذه المدينة صحراء مستوية من رمال دقيقة جداً تفصلها عن زويلة مسيرة يوم واحد.

---

(1) Ln Levtzion and Hopkins, Corpus, pp 135-136. Supra, p.478.

(2) سورة الأرض، ص61، 153/58، 151.

(3) المسالك، ص10/26 ـ 27.

(*) هكذا كان يسمى أهل فزان في ذلك الوقت. المترجم.

(4) انظر بعاليه، ص415.

هكذا قدر البكري المسافة جادو ـ زويلة بمسيرة ثلاثة عشر يوماً[1]. إن طول أقصر الطرق بين هاتين النقطتين 820 كيلومتراً، وعليه لا بد من زيادة تقدير البكري بحوالى النصف. إن الأمر هنا يتعلق بجزء طويل من L'iter praeter Caput saxi عند الرومان، ومن الطريق على رأس الحمادة عند العرب[2]، ولكننا نجهل مساره بدقة، على الأقل في جزئه الجنوبي. يتطلب السفر من جادو في اتجاه الجنوب الشرقي المرور بمزدة لا محالة، وهي غير بعيدة من خاصرة الجبل، وتلتقي طريق جادو مع الطريق القادمة من طرابلس. إن التسمية تيري لا تسعفنا، وقد يكون الناسخ أسقط نقطة وأنه يجب قراء الكلمة «تيزي»، وهي كلمة بربرية تعني جبل، ومن ثم لا بد أن هذا المكان غير بعيد من مزدة، على مسافة110 كيلومتر من جادو ـ مسيرة ثلاثة أيام ـ كما يؤكد البكري. وأمام المسافرين طريقان من مزدة.

تتجه إحدى الطريقين، التي تنتصب على طولها أطلال رومانية، جنوباً نحو الطرف الغربي لوادي الشاطىء في نواحي أدري حيث هناك تلال وأطلال بلدات غير معروفة الأسماء، وعندها يتجه هذا الطريق إلى جرمة عابراً رملة الزلاف منحرفاً نحو الشرق ليتحاشى التلال الرملية العالية في منطقة الدوادة وهو المسار الذي سلكته قافلة Heinrich Bart سنة 1850ف[3]. من جرمة يتم التوجه جنوباً على طريق تساوة[4] ثم شرقاً على طول الحافة الشمالية لدهان مرزق حتى

---

(1) في نهاية الطريق، لا نرى إذا كانت مرحلة من يوم واحد تتضمن أولا عبور الصحراء.

(2) قد يكون اكتشف في سنة 69 عندما تابع القاصد الرسولي فالريوس فستوس الجرمنت الذين حاصروا لبدة، بعد ذلك في نهاية القرن وبفضل التقارب بين الرومان والجرمنت سلك هذا الطريق من قبل الحملات الرومانية لسبتموس فلاكوس وجوليوس ماترنوس. وقد تكون الحملة الأخيرة وصلت تبستي The E.W.Bovil, golden trade، ص39 ـ 40) أو النيجر Fresques du Tassili, H. Lhote)، ص148 ـ 155، نفس المؤلف Les Touareg du Hoggar ص113 ـ 117).

(3) Travels and discoveries, I, encart pp.90-91; texte, pp.90-149.

(4) الإدريسي، ص35/ 41، الذي يقدر خطأ المسافة (100كم) بأقل من يوم واحد. والجغرافي هنا ـ مرة أخرى ـ ضحية مخبريه الذين كثيراً ما يكونون غير دقيقين فيما يتعلق بالمسافات =

تراغن للوصول إلى زويلة[1]. ومن المرجح أن عقبة اختار طريق تساوة ونواحي تراغن عندما ذهب لاحتلال قصور القطرون وتجرهي[2].

يبدو لنا، مع ذلك، أن طريق جادو ـ زويلة التي ذكرها البكري كانت مباشرة أكثر وتمر أبعد إلى الغرب سالكة مساراً قديماً أيضاً. إننا نقترح هذا بالحذر الذي يجب عند التأسيس على التحويرات المدخلة على الكتابة العربية وعندما لا تتوافر إلا خرائط بمقياس رسم1: 1000000[3].

بعد عبور جبل نفوسة، والسير في وسط الرمال، وبعد توغل في الحمادة الحمراء، التي تثير حوافها المرتفعة والمنحدرة فجأة التفكير في جبل ـ وقد يكون وراء التسمية تيري لتيزي ـ ثم الدخول إلى صحراء مستوية يتم الوصول إلى بئر يسمى ودرف. ويوجد على طريق مزدة ـ وادي الشاطىء موضع يسمى

= في الصحراء. كان لا بد وأن تثير خريطته الشبهات لديه، فعند وصفه شمال تونس، نزهة، ص116/ 135 يلاحظ أنه يجب أكثر من يوم بقليل للوصول إلى طبرقة من باجة وهما مدينتان أقرب إلى بعضهما من اقتراب جرمة إلى تساوة.

يوجد طريق مباشر جرمة ـ تساوة. كما يمكن للسفر من جرمة غرباً اتباع وادي الآجال على مسافة عشرين كيلومتراً حتى تكرتبية ومن هناك تتجه طريق إلى تساوة. إن هذا هو المسار الذي سلكه H. Barth. فقد سافر من طرابلس 2 أبريل 1850ف ووصل إلى مرزق 6 مايو. وقد قضى ثلاثة أيام في مزدة ويوماً على بئر الحاسي (حاسي ـ بئر في اللغة البربرية) لزيارة الآثار الرومانية، واستراح ليوم واحد بعد ذلك، وقضى يومين في جرمة. تتطلب طرابلس ـ مرزق 28 يوماً من السير. هكذا نرى أن تقديرات البكري خاطئة أو أن نصه انتقص.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يحدث أن تمر القوافل المتجة من طرابلس إلى غات بمزدة والشاطىء، وكانت المسافة تستغرق 45 يوماً، انظر J. Richardson, Travels, II، ص41.

(1) اعتقدنا من الأفضل أن نوضح على الخريطة المسار طرابلس ـ غريان ـ مزدة ـ الحاسي ـ أدري ـ جرمة وهو مسار معروف منذ القدم، ويبدو أنه لم يتوقف استعماله أبداً.

(2) انظر بعاليه، ص121.

(3) يشرح de Slane في مقدمته للنص العربي أن أقدم مخطوطة لكتاب البكري مكتوبة بالخط المشرقي وحروف أسماء العلم ليست منقوطة، ومخطوطة مغربية مكتوبة بطريقة سيئة، ومخطوطة مغربية أخرى تنقص منها بعض المقاطع، كما أن مخطوطة رابعة ليست صحيحة هي كذلك. في طباعتهم للأعمال الكاملة للبكري استعان Van leeuwen و A. Feer بمخطوطات أخرى: فيما يتعلق بهذا المقطع ص658 ـ 657 فإنهما يقدمان نفس الكتابة التي يقدمها de Slane.

شويرف. عند إسقاط نقاط حرف ش و ى في الكتابة وإذا أخذنا في الاعتبار أن حرف الألف كثيراً ما يكتب مائلاً فإن من السهل الخلط بين شويرف ودرف من الناسخ الذي يجهل أسماء الأماكن في المنطقة، خاصة إذا ما كان ينقل من نسخة بعيدة عن الأصلية، سنلاحظ وجود طريق جادو ـ مزدة ـ شويرف ـ براك لا تنقصها نقاط المياه.

بعد بئر ودرف، تبدأ ـ حسب البكري ـ جبال عالية تسمى تارغين ـ (بفتح الغين) ـ تارغين (بكسر الغين). وبعكس الطريق الغربي مزدة ـ أدري، يمر طريق شويرف ـ الشاطىء بجبال؛ جبل الحساونة وجبل فزان الواقعة مباشرة شمال براك. بعد تجاوز هذه الجبال يتم الوصول إلى نخيل تمر. ما. ونقترح أن تقرأ التسمية الأخيرة تامزوا ـ تامزاوة، هو اسم لواحة صغيرة من أقدم الواحات في فزان، ما زالت مسكونة حتى اليوم وتقع على أقل من عشر كيلومترات شمال غرب براك. وقد كانت هذه البلدة معروفة في الوقائع الأباضية القروسطية تحت اسم تامزاوات[1].

بعد سفر لمدة يومين من «تمر. ما» نصل إلى س. باب ـ س. ناب وهي منطقة نخيل كبيرة وآخر مرحلة قبل زويلة. وتعبر الطريق الوحيدة إلى زويلة من تامزاوة أو براك الطرف الشرقي لرملة زلاف وهي أرض سهلة وتمر بسبها، ويفضل المرور بالواحات الصغيرة البوانيس لأن الأرض أسهل. قد يكون مغرياً أن نرى في س. باب ـ س. ناب إمكانية قراءة سبها ولعل النسخ المتعاقبة تسمح بهذا، مع أنه بعد صفحة واحدة لاحقة، قدم النص سبها في كتابة صحيحة

---

(1) T. Lewicki, Etudes Maghre'bines, II، ص61 يقترح كذلك تامر. ما = تامزوا (النطق الحالي لـ تمزاوة). نعرف أن النهاية في اللغة البربرية «ات» تنقل بعدة طرق مثل ألف ممدودة أو ألف مكسورة، أو «ات» أو «اة»، انظر البركات، برقة، أفريقية/أفريقيا، جرمه/جرما، سبهه/سبها، سبهى. والبداية «تا» تنقل ت أو تا، انظر بعاليه، ص251 رقم 4.

عندما سافر Alexander Gordon، سنة 1825ف إلى تومبكتو وهو السفر الذي كلفه حياته، غادر طرابلس بأقصر الطرق وتوجه نحو تمزاوة (يكتبها تمسو سوواريا) (Mamsow Soowareea) قبل أن يسلك طريق غدامس إلى عين صالح، انظر Letters، خريطة، ملحق 272 ـ 273.

وقعها على مسيرة خمسة أيام من زويلة وليست على مسيرة يومين، كما هو الحال هنا. عليه يجب علينا البحث عن هذه البلدة في البوانيس. إن واحة سمنو الواقعة على مسافة ثمانين كيلو متراً شمال شرق سبها هي الوحيدة التي تقدم بعض التشابه مع س. باب ـ س. ناب.

لا شك أن هذا الطريق التجاري من جادو نحو زويلة كان من أكثر الطرق استعمالاً طوال الفترة التي كان يربط فيها بين المناطق الأباضية، ومن المستغرب أن البكري هو الوحيد الذي ذكره. بالرغم من أهمية هذا الطريق فإنه لم يكن الطريق الأباضي الوحيد من الشمال الغربي. كان من الممكن الوصول إلى زويلة من غدامس، وهذا هو الطريق الذي سلكه إبراهيم بن قراتكين في الاتجاه المعاكس عند ذهابه إلى قراقوش في فزان سنة 8 ـ 1177ف، فقد ذهب واستولى على غدامس قبل أن يتم احتلال جبل نفوسة[1]. ليست لدينا لسوء الحظ أي تفاصيل حول هذا الطريق، الذي ينعدم عليه وجود أي بلدات، وهو وعر ولكنه قديم لأنه كان يصل بين مركزين تحت النفوذ الروماني؛ غدامس وجرمة. سنلاحظ أن هذه الطرق من الشمال الغربي؛ من غدامس ومن طرابلس مروراً بالجبل، ومن مصراتة كانت تمكن عاصمة أفريقية، من ربط علاقات تجارية مع السودان الأوسط والشرقي. يذكر مؤلفان؛ الاصطخري والمقدسي في القرن العاشر طريق القيروان ـ زويلة[2] ولكنهما لم يقدما لنا أي بيانات عن هذا المسار. كان السفر ـ حسبما أوردا ـ يستغرق شهراً، تقدير متفائل ـ كان يجب زيادته بالنصف ـ لأنه يتطلب متوسطاً يومياً يقرب من 50 كيلومتراً، ومن الصعب الاحتفاظ به على مثل هذه المسافة (1400كم بأقصر طريق: جبل نفوسة والحمادة).

ليس هناك نص يفصل تنظيم التجارة في هذه المناطق. من الواضح أن

---

(1) انظر بعاليه، ص333.

(2) الاصطخري، ص41 الذي يمدد الطريق حتى السودان بقوله إن زويلة على الطريق نحو بلاد السود. المقدسي. ص246 ـ طبعة Ch.Pellat، ص64 ـ 85.

زويلة لم تكن تمثل هدفاً في حد ذاتها، وكان كبار التجار يوجدون حيث الحاجات؛ في الشرق ومصر وأفريقية. كانت زويلة سوقاً كبيرة للعبيد، وللذهب بعض الوقت، ولكنها لم تكن إلا محطة نحو الهدف النهائي؛ السودان. وقد أثرى سكانها ـ كما أثرى سكان مرزق لاحقاً ـ بفضل دورهم كوسيط بين أماكن الجنوب وتجار الشمال. كانت الطرق من هذه الواحة تذهب في كل الاتجاهات الجنوبية.

كان هناك طريق يمكِّن من الوصول إلى النيل عبر الكفرة، وكان متبعاً خلال القرن السادس عشر من أهل غدامس، وهم الوحيدون الذين تجرأوا على سلوكه بسبب علاقاتهم الطيبة مع التبو[1].

كان الاتجاه جنوباً يؤدي إلى كوار، ويقدر اليعقوبي المسافة بخمسة عشر يوماً[2]. كان الطريق زويلة ـ كوار طويلاً جداً (زويلة ـ سجدين: 825كم، بمتوسط 55كم/يوم) لدرجة لا تمكن من قطعه في خمسة عشر يوماً. قد يكون ما أورده اليعقوبي يتعلق بالمسافة بين تجرهي آخر واحة فزانية، وسجدين أول بلدة يمكن أن نصفها بالكوارية (580كم، متوسط 39كم ـ يوم). يتطلب هذا الطريق حذراً شديداً فيما يتعلق بالتزود بالمياه. نذكر بأن الوصول من تجرهي إلى بئر مشرو يتم بعد يومين من السفر جنوباً وقد لاحظ كل مستكشفي القرن الماضي[*] وجود الكثير من الجماجم عند هذا البئر، وأغلبها جماجم عبيد[3]. وغير بعيد، من نواحي جادو[**] يوجد بئر ماء الفرس الشهير الذي أنقذ حملة عقبة[4] سنة 4 ـ 663ف، وعن هذا الطريق ـ وهو الوحيد ـ وصل عقبة إلى

(1) انظر بعاليه، ص510..

(2) البلدان، ص345/ 205.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(**) ليست جادو الليبية، بل هي موقع في شمال النيجر حالياً. المترجم.

(3) انظر بعاليه، ص132.

(4) انظر بعاليه، ص136 ـ 137.

كوار. وعليه يكون أول طريق مركزي عابر للصحراء عرفه العرب. بخلاف الحملة التي قادها عبد الله بن سعد على النوبة سنة31هـ (2 ـ 651)ف التي أعقبتها هدنة، فتحت غزوة عقبة طريق السودان وكانت بداية تجارة الرقيق من السودان الأوسط، لأنه إلى كانم ـ من بين أخرى ـ كانت تمتد الطريق زويلة ـ كوار. قدر البكري بشكل صحيح المسافة زويلة ـ كانم بأربعين يوماً[1] (زويلة ـ شواطىء بحيرة تشاد: 1450 كم متوسط 36كم ـ يوم).

على مسافة 70 كيلومتراً تقريباً جنوب تجرهي كانت تتفرع من طريق زويلة ـ كوار طريق تؤدي إلى وَدّاى عبر تبستي. ولا بد من أن للمسار تجرهي ـ وداي بديل على الجزء الأول منه تجرهي ـ لارجو يتمثل في المرور بزوار أو برداي، كما هو الحال اليوم. ويعود هذان الطريقان، اللذان توجد على طولهما رسوم على الصخور، إلى ما قبل التاريخ ولا نرى أي طريق آخر كان يمكن أن تسلكه عربات الجرمنت عندما يطاردون سكان الكهوف الذين تحدث عنهم هيرودوت. كان المقصد النهائي ـ بعد لارجو ـ هو وداي في قلب بلاد الزغاوة. وقد عد ابن حوقل شهرين لقطع المسافة فزان ـ بلاد الزغاوة[2]. تبلغ المسافة بين جرمة ووداي 1700 كيلومتر، ويبدوتقدير ابن حوقل ـ 30كم ـ يوم صحيحاً. بالرغم من أن اليعقوبي لا يقدم أي إيضاح حول هذا الموضوع إلا أن من الممكن تخمين أن سكان زويلة كانوا يسلكون أحد هذه الطرق ـ بشكل خاص ـ عند ذهابهم لأخذ أسرى من الزغاوة والميريين والمرويين[3] وجعلهم رقيقاً.

---

(1) مسالك، ص11/ 29، أخذ عنه ياقوت، انظر (كانم وزويلة). سُلك الطريق مرزق بحيرة تشاد من قبل بعثة Narrative of Travels, Denham، ص194 ـ 247، خرائط، وملاحق ص202 ـ 203، 218 ـ 219، وقد سلك Heinrich Barth، هذا الطريق عند عودته من السودان، III, Travels and Discoveries، ص602 ـ 625. خريطة وملحق ص346 ـ 347. بعض المعلومات عن المسافات بين الآبار في Narrative, G.F. Lyon، ص264 ـ 267.

(2) صورة الأرض، ص92 ـ 90.

(3) البلدان، ص345/ 205. انظر بعاليه، ص360 ـ 364.

من المثير للاهتمام ما ذكره ابن حوقل عن طريق من فزان إلى بلاد الزغاوة. كان هذا الجغرافي يميز بوضوح بين زويلة وفزان. كانت جرمة ما تزال في غاية الأهمية، ويواصل سكانها ــ من يكونون إذا لم يكونوا الجرمنت؟ ــ صيدهم الرقيق منافسين في هذا أنشطة زويلة كما وصفها اليعقوبي. تظهر في نفس المقطع لابن حوقل المسافة زويلة ـ فزان وأهمية موطن الجرمنت في القرن العاشر، فهو يقول إن المسافة بين فزان وزويلة تبلغ خمسة عشر يوماً. وباستبعاد خطأ من جانب المؤلف، فإن الأمر هنا لا يتعلق بزويلة ــ جرمة التي لا تتجاوزالمسافة بينهما 240 كيلومتراً، ولا تبرر طبيعة الأرض سرعة بطيئة بمعدل 16 كم ـ يوم. وقد لاحظنا سابقاً أن مدة الخمسة عشر يوماً تتسق مع المسافة التي تفصل زويلة عن الطرف الغربي للإقليم الجرمنتي، أي منطقة غات[1]. للوصول إلى غات من زويلة تتبع الشرقية، والحفرة ومنخفض مرزق حتى تساوة وعند تساوة لا بد من الاختيار. يمكن، في حالة الرغبة في المرور على جرمة، التوجه نحو وادي الآجال[2]، أو سلوك الطريق سبها ــ جرمة، وهو نفس الطريق الذي اتبعه ــ غالباً ـ عقبة خلال حملته[3]، ثم اتباع الطريق الغربي نحو سردليس ـ العوينات ثم السير على طول جبل أكاكوس حتى غات[4]. وهناك طريق أقصر يتبع وادي برجوج من تساوة محصوراً بين مساك الذي فيه الكثير من الرسوم القديمة على الصخور، ودهان مرزق، وفي نواحي غات تعبر هضبة ويمكّن ممر في جبل أكاكوس من الوصول إلى الواحة[5]. ولا بد أن

---

(1) انظر بعاليه، ص482..

(2) الإدريسي، ص35/ 41 يذكر طريقاً تساوة ــ جرمة (أكثر من مائة كم) في أقل من يوم.

(3) انظر بعاليه، ص118 ــ 119.

(4) طول هذا الطريق زويلة ــ غات عبر جرمه 640كم ـ 43كم/ يوم خلال الخمسة عشر يوماً التي أوضحها ابن حوقل. نتساءل إذا لم يكن ابن حوقل يسمي «فزان» البلاد التي يسميها الطوارق تفسانة ــ «ساقية» وهي المنطقة الواقعة بين سردليس والطرف الشرقي لوادي الآجال.

(5) هذا الطريق زويلة ــ غات الأقصر عبر وادي برجوج، طوله 520كم. ويقترح ابن حوقل هنا 15 يوماً وهو متوسط مثالي 34كم.

الإدريسي كان يشير إلى هذا الطريق عندما اقترح مسافة اثني عشر يوماً بين تساوة وأزقار في جبل طنطنة الذي نعتقد أنه يتطابق مع تاسيلي ـ هقار[1].

الطريقان نحو غات قديمتان، ويتفق المتوسط اليومي لهذه وتلك مع المدة التي وضحها ابن حوقل. ومن المنطقي أن طريق وادي الأجال، جرمة، سردليس كانت تسلكها قوافل خليج سرت عبر ودان، وأن الأخرى عبر تساوة كانت مستعملة من قوافل شمال إقليم برقة عبر زلة ـ الفقها ـ تمسة ـ زويلة[2].

سنتذكر أن طريق زويلة ـ فزان لا تمثل الإشارة الوحيدة لابن حوقل إلى طريق جرمة. لنتذكر ما أمر به ابن طولون من منع طريق الواحات فزان[3]. إن هجر هذا الطريق لصالح الطريق عبر سجلماسة أملته العواصف الرملية التي كان يتعرض لها المسافرون على الجزء الأول من هذا الطريق. إن مثل هذا المنع ليس له من مبرر إلا على الجزء الذي يعبر صحراء جنوب برقة، ولم تكن العواصف الرملية الفزانية أكثر حدوثاً ولا أخطر من العواصف التي تتعرض لها القوافل المغادرة لسجلماسة نحو السودان. كما يجب ملاحظة أن ابن حوقل لم يورد ذكراً لعدم استقرار الأمن على طريق الواحات ـ فزان بعكس ما كان على الطريق المباشر مصر ـ غانا وبافتراض مروره بالكفرة أو العوينات حيث هجمات الأقوام المعادين، مضافة إلى الرياح، بررت المنع الطولوني[4] المزدوج.

---

(1) نزهة، ص35/ 42.

(2) بعض الطوارق من غات يصلون إلى تجرهي عابرين في خط مستقيم دهان مرزق. بعكس ما يمكن تصوره، الحياة ليست منعدمة في دهان مرزق، ففيه ظباء خاصة. بعض مقاطعه سهلة ويمكن عبورها بيسر، وأخرى خطيرة وعبورها بطيء، انظر Dans Le Fezzan inconnu, Ph, Diolé، ص137. هذا المسار ليس مذكوراً من قبل المؤلفين من القرون الوسطى ولا من المستكشفين من القرن التاسع عشر.

(3) سورة الأرض، ص61، 153/58، 151.

(4) نفس المرجع، ص61/ 58. يترجم Kramers و Weit كلمة «عدو» ب «لصوص» جذر الكلمة ع د و = أن تكون معادياً.
=

لا يذكر الإدريسي، الذي كتب بعد وصول بني هلال، أي قلاقل واضطرابات في المنطقة عند تناوله طريق تساوة ـ موطن أزقار جبل طنطنة. وقد أورد طريقاً من جرمة إلى أودغست في 25 يوماً[1]. لا يقلل هذا الخطأ في التقدير[2] في شيء الأهمية التي يعطيها لهذا الطريق لأنه ذكرها في نفس الوقت الذي أورد فيه الطرق الأساسية نحو أودغست انطلاقاً من غانا وورقلة ومنجم ملح أوليل. من المؤسف أنه لا يقول لنا شيئاً حول العلاقات القائمة بين جرمة وأودغست ولا يعطينا تفاصيل حول المسار.

كما حدث على كل الطرق العابرة لليبيا، واجه التنقل على الطريق المار بجرمة ـ دون شك ـ قلاقل وعقبات خلال وقائع بني غانية ـ قراقوش، ويمكننا أن نخمن أن الأمن قد استقر على هذا الطريق مثل طرق الشمال، عندما احتلت امبراطورية كانم الصحراء الليبية وفرضت سلامها.

كانت طريق وادي الآجال ـ غات مسلوكة من قبل قوافل مصر. ويشير ابن بطوطة إلى أن القوافل المغادرة تكدة تنفصل عن بعضها البعض قبل التوغل في بلاد الهكار: فطريق يتجه إلى توات، وآخر نحو غات ومصر[3]. وترتبط غات بغدامس بطريق يوصل إلى هذه الأخيرة في ثمانية عشر يوماً[4].

ليس لدينا إلا القليل من البيانات حول طرق غدامس، ونجهل تقريباً كل شيء عن الطرق من غات نحو الجنوب عبر تاسيلي ـ الهقار. كانت غدامس مربوطة شمالاً بطرابلس من خلال جبل نفوسة، وبالقيروان من خلال قابس،

= إن الطريق المباشر مصر ـ غانا انطلاقاً من الصعيد أعيد فتحة في تاريخ لا نستطيع تحديده، انظر العمري، ص80. انظر بعاليه، ص368. هل هذه الطريق هي التي يتحدث عنها Benjamin de Tudele؟.

(1) نزهة، ص32/ 38.

(2) جرمة، أودغست: أكثر من 2500كم. يتطلب قطع هذه المسافة أكثر من شهرين ونصف. نذكر بأن الإدريسي يضع جرمة على خريطته أكثر من اللازم نحو الغرب.

(3) رحلة، ص444 ـ 445.

(4) تقدير صحيح من الإدريسي، ص36/ 42 (600كم، متوسط 33كم/ يوم).

وبورقلة عبر الصحراء[1]. من الممكن أنه كانت هناك طريق تصل غدامس بتوزر أكثر مباشرة من الطريق عبر قابس ـ الطريق الترابية الحالية على طول الحد الشرقي للعرق العظيم ـ وتتصل بطريق نفوسة ـ الجريد، ولم تذكر من قبل أي من المؤلفين. من غدامس، نحو الجنوب الشرقي كان يمكن الوصول إلى جرمة وزويلة مروراً بوادي الشاطىء، كما رأينا، ومن غدامس نحو الجنوب الغربي كان يتم التوجه إلى توات وتغازا وغانا[2] أو نحو تادمكة عبر الهقار[3]. عند الوصول إلى غات من غدامس أو من فزان يمكن الذهاب إلى تكدة في الآيير، كما يشير ابن بطوطة، أو إذا كان تحديد الإدريسي لشاما والبغامة صحيحاً، نحو منعطف نهر النيجر[4].

يبدو من غير المفيد، في نهاية إعادة تكوين الشبكة الليبية للاتصالات تقريظ الجغرافيين العرب لتميزهم، أو توجيه النقد إليهم لتواضع مستوى آدائهم. فقد ارتكب البكري والإدريسي الكثير من الأخطاء في التقدير ولكن الفضل يعود إليهم في تزويدنا بالقدر الأكبر من البيانات عن المسارات الصحراوية. إن القليل من الأخطاء يعود إلى تقدير ناتج عن سرعة بطيئة[5] جداً. في أغلب الحالات، يعود عدم الدقة إلى أنه يتطلب متوسطاً يومياً مرتفعاً جداً، والذي نادراً ما يتجاوز 50 كيلومتراً، وهو متوسط يمكن تحقيقه والمحافظة عليه على مسافات[6] قصيرة. وأولى من توجيه النقد لبعض الأخطاء

---

(1) انظر بعاليه، ص521.

(2) انظر بعاليه، ص530.

(3) انظر بعاليه، ص538.

(4) انظر بعاليه، ص491 ـ 492، 495، 539 ـ 545. نذكر بأن T. Lewicki يحدد شاما بتن شامان شمال أغاديس، انظر II, Etudes Maghrebines، ص74.

(5) البكري: سرت ـ ودان. 210كم ÷ 12 يوماً = 17كم/ يوم. وياقوت: تقرفت ـ ودان: 120كم ÷ 11 يوماً = 11كم/ يوم.

(6) البكري: أوجله ـ تقرفت: 400كم ÷ 4 أيام = 100كم/ يوم. كرزة ـ ودان: 260كم ÷ 3 أيام = 87كم/يوم. هون ـ سبها: 320كم ÷ 5 أيام = 64كم/ يوم. جادو ـ زويلة: 830كم ÷ 12 يوماً = 70كم/ يوم. سرت ـ زويلة = 370 كم ÷ 12 يوماً = 60كم/يوم. تعود أخطاء البكري بكل =

في حساب المسافات، يجب الإعجاب بهؤلاء الجغرافيين من القرون الوسطى الذين حاولوا منذ القرن التاسع توضيح تشابك طرق الصحراء، وباستثناء المسالك عبر الهقار والكفرة نجحوا في ذلك لدرجة أن العرب في القرن الحادي عشر بفضل البكري ـ أو منذ الربع الثالث للقرن العاشر إذا أخذنا في الاعتبار أن البكري كان يستلهم أستاذه الوراق ـ كانوا يعرفون الطرق الأساسية المؤدية من شاطىء المتوسط نحو بلاد السودان. وقد أضاف الإدريسي إلى هذه المعرفة بعض البيانات، وأضاف إليها ابن بطوطة تجربة رحالة. فيما يتعلق بالاتصالات، مثلما هو الحال في المسائل الصحراوية الأخرى يجب الانتظار حتى منتصف القرن التاسع عشر وزمن المستشكفين الأوروبيين الكبار لنعرف أكثر.

يكفي مجرد إلقاء نظرة على خريطة أفريقيا لفهم الميزة التي كانت للطرق العابرة لليبيا، على الأقل بالنسبة لتجارة العبيد. يمكّن اللسان البحري الذي يمثله خليج سرت من كسب الكثير من الوقت في الوصول من البحر المتوسط إلى بلاد السود، إذ تقل المسافة سرت ـ بحيرة تشاد (2100كم) بألف كيلومتر عن طريقي تاهرت ـ جاو، وفاس ـ غانا، وحتى لو سافرنا من طرابلس فإن الفرق في المسافات أكثر من خمسمائة كيلومتر لصالح الطرق العابرة لفزان. ولا تقتصر ميزة الطريق الليبية على المسافة فقط. وقد سرد ابن بطوطة المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل من سجلماسة وأوضح إلى أي مدى كانت سلامة الدواب والناس تعتمد على شجاعة ومعارف رجل واحد؛ التكشيف. ولم تكن طرق توات وتدكلت أكثر سهولة ويسراً. بالعكس، كانت المسالك عبر غرب ليبيا من الساحل حتى تجرهي تقدم تتابعاً بديعاً من الواحات والآبار، وكان

= وضوح للصورة المضغوطة لديه عن الجنوب الليبي ووضعه زويلة وسبها إلى الشمال من موقعيهما الحقيقيين. الإدريسي: برقة ـ زلة: 600 كم ÷ 10 أيام = 60كم/ يوم. وتساوة ـ جرمة: 100كم في أقل من يوم. وجرمه ـ أدوغست = 2500كم ÷ 25 يوماً = 100كم/ يوم. ياقوت، وأبو الفدا والحميري ينقلون تقديرات سابقيهم دون نقد.

المقطع تجرهي ـ سجدين هو الوحيد الذي يتطلب الحذر. انطلاقاً من كوار كان السفر ميسراً بشكل كبير بسبب المناخ الرطب الذي ساد فيها «دون شك، حتى أواسط القرون الوسطى»[1]. يذكر الإدريسي وادياً ممتداً على طول كوار من الجنوب إلى الشمال، حيثما تحفر فيه تجد ماء رائقاً عذباً غزيراً[2]. ويشير ابن سعيد إلى وجود بحيرتين يتنازع ملكيتها[3] الكواريون وعرب فزان والبربر. وهكذا كان الحال في جنوب بوركو حيث يوجد منخفض مساحته 100000كم^2 كانت تغطيه في بعض الأحيان مياه من بحيرة تشاد يوصلها إلى هناك بحر الغزال[4]: هكذا كان الطريق من فزان نحو الجنوب الشرقي أكثر سهولة والطريق من الكفرة نحو تشاد أقل خطراً مما هو عليه الآن. كان عدم وجود أي بلدة وندرة الآبار على طريق الكفرة ـ شاطىء المتوسط تمثل عقبة كأداء. وبدون أن نهمل الطريق عبر غات لنقل بعض المنتجات ـ خاصة الذهب ـ كانت الطرق عبر فزان هي الطرق الرئيسية لتوصيل البضائع السودانية، وأبرزها العبيد، نحو الشمال الأفريقي ومصر.

---

(1) R. Mauny, Tableau Geographique, p.207.

(2) نزهة، ص38/ 45.

(3) بسط الأرض، ص48. انظر، كذلك Recueil, J.M. Cuoq، ص216، رقم 1. وانظر بعاليه، ص553. للرواية من التبو، انظر H.R. Palmer، Sudanese Memoirs، 1، ص3.

(4) A. Berthelot, L'Afrique saharienne et soudandise, pp.88-89; G. Nachtigal, Sahara and Sudan, II, pp.350-355, 371, 401-402; R. Mauny, ref, Supra.



التجارة والتجار

كانت التجارة العابرة للصحراء، على الأقل في حدود الحجم الذي نعرفه لها، مبادرة إسلامية ونجاحاً إسلامياً، على ما يبدو. ولا شيء يسمح بتأكيد أن أفريقية القرطاجنية أو الرومانية قد مارست تجارة الذهب، أو تجارة الرقيق السوداني، أو أي تجارة صحراوية ذات أهمية تذكر. قد يدفع الصيد الذي كان يقوم به جرمنت الصحراء الليبية للأثيوبيين سكان الكهوف في تبستي لافتراض وجود هؤلاء الأسرى في الواحات الفزانية[1] ولكن لا يقوم أي دليل على أنهم وُجدوا على شاطىء المتوسط. كان لدى القرطاجنيين عبيد يعملون خدماً في البيوت وعمالاً في المزارع وبحارة على السفن التجارية وموظفين في الدولة. وكانت أعداد هؤلاء العبيد كبيرة لدرجة أن آلافاً منهم تمكنوا من المشاركة في حركات تمرد، هذا من جانب ومن جانب آخر، كان يصدر منهم كثيرون، ونعرف أن غالبية هؤلاء العبيد كانوا مغانم حروب في جزر الباليار وسردينية وأفريقيا الشمالية نفسها[2]. هذا لا يعني أن عمق الصحراء لم يكن معروفاً أو لم يكن

(1) S. Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, I, pp.299-300.

(2) Id. II, pp.226-300, IV, pp.135-136.

مطروقاً، فقد ترك القدماء كتابات في وصفها، ولكن التجارة البحرية هي التي ركز عليها القرطاجنيون[1].

يتفق المؤرخون المهتمون بأفريقيا في تأكيد أن روما أقامت في أفريقيا الشمالية مستعمرات إنتاجية لا استيطانية. ويجب التأكيد أن هذه المستعمرات كانت مقصورة على المناطق القابلة للزراعة، وكانت في حالة طرابلس الغرب مقصورة على «شريط ضيق من الموانىء»[2]. وكانت صادرات أفريقية الرومانية تقتصر على: الصوف، والخشب والقمح، والزيت والفخاريات[3]. وكانت أبراج الحراسة الطرابلسية موزعة على طول الخط الحدودي الذي شيد لغرض أمني وهو مراقبة بربر الدواخل واحتواؤهم وليس لأغراض تجارية[4]. وقد استنتج John T. Swanson، بعد مراجعة دقيقة لكتابات المؤرخين القدماء عدم إمكانية العثور على دليل لتجارة منظمة عبر الصحراء في العهد الروماني[5]: فقد كانت المنتجات التي تستوردها روما، والتي كان يبحث عنها في «القرون الوسطى في السودان»(*) موجودة بوفرة في الأراضي الشمال أفريقية في ذلك الوقت. فقد كان النعام بأعداد كبيرة في أفريقيا الشمالية، كافية لتزيين جميلات روما، وكان العاج المستورد إلى روما مصدره آسيا وكذلك المغرب، ولم يكن هناك من حاجة للذهاب لصيد الفيلة من وراء الصحراء. وكانت أفريقيا الشمالية تكفي لتزويد ألعاب السيرك الرومانية بالوحوش التي كانت تتكاثر فيها وتمثل تهديداً للناس، وتكاد تمنع تربية الأغنام والأبقار في بعض مناطقها. وكانت

---

(1) Id. IV, pp.100-133.

(2) Ch. A. Julien ,Histoire de L'Afrique du Nord; I,p.134.

(3) Id. p.152, Gsell,op. cit. VII, pp. 105 - 107.

(4) Ch. A. Julien, op. cit., p.133.

(5) The not-Yet-Golden trade، ص112 ـ 117، الذي يفند هنا الرأي المستقر بشكل عام والذي يمثله The Golden trade E.W. Bovil Moors، ص33 ـ 49، وS. Gsell، المرجع المذكور، ج4، ض138 ـ 141 حذر جداً.

(*) إضافة لغرض التوضيح؟ المترجم.

روما تستورد كذلك من المغرب[1] الفيلة والدببة لألعاب السيرك، والقرود لتزيين مساكن الطبقة الأرستقراطية. ويفسر ثراء الموانىء المتوسطية مثل لبتس ماجناً وأوئياً، وصبراتة ـ نكتفي بذكر الموانىء في المنطقة التي تهمنا ـ ببساطة بحجم التجارة الشمال أفريقية حتى لا يكون ضرورياً إثارة المبادلات عبر الصحراء والتي لم يذكرها أي من المؤلفين. إن المنتج الصحراوي الوحيد الذي كان يصل إلى الساحل هو العقيق الأحمر، وهو حجر أحمر قان كان مقدراً من قبل القدماء وكان الجرمنت يحصلون عليه من بلاد الناسمون في شرق طرابلس الغرب وجنوبها الشرقي ويبيعونه للرومان[2].

من الثابت، أن الرومان قاموا بحملات صحراوية عديدة انطلاقاً من أفريقيا الشمالية الشرقية. وقد وصل القنصل كورنيليوس بالبوس Cornelius Balbus إلى غدامس وجرمة[3]، قبل الاستقبال الاحتفالي بالنصر الذي أقيم له في روما سنة 19ق.م. وفي سنة 70 ـ 69ف طارد فاليريوس فستوس Valerius Festus الجرمنت الذين نهبوا لبتس ماجنا، وخلال تلك المطاردة تم اكتشاف الطريق عبر الحمادة. وقام سبتموس فلاكوس Septimus Flaccus، سنة 85ف أو 86ف، بغارة عقابية ضد الجرمنت. إن البعثة الوحيدة التي ربما اكتست طابعاً تجارياً هي تلك التي أشرف عليها سنة 80ف جوليوس ماترنوس Julius Maternus بالتعاون مع ملك الجرمنت، وبالرغم من ذلك فلا شيء يدل على أن جوليوس ماترنوس لم يكن عسكرياً رومانياً يعمل على مساعدة الجرمنت

(1) حول الواردات، وحول طرق الصيد والأسر المستعملة من قبل البربر، وحول الوحوش المضحى بها للألعاب، انظر S. Gsell، المرجع المذكور، ج4، ص169 ـ 173.

(2) J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص116 ـ 117.

(3) حسب A La decouverte des fresques du Tassili, H.Lhote، ص148 ـ 155، الذي يؤسس خاصة على أسماء الأماكن الصحراوية مقارناً بالأسماء المذكورة في الاحتفال بالنصر لبالبوس التي أوردها Pline، وصل الطابور الروماني إلى النيجر. حول الدحض من قبل Jehan Desange 1957 R.A.C.I, Le Triomplhe de Cornelius Balbus، ص5 ـ 43 ـ انظر J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص140 ـ 141.

ضد بدو مشاغبين. في كل الأحوال لم يرد ذكر، بعد ذلك، لأي تغلغل روماني، في الصحراء: لقد كانت الحملات الرومانية تأتي لضرورات أمنية وليس لهدف تجاري[1]. ولا يوجد دليل على أن الرومان تواجدوا مادياً في الصحراء، إذا ما استثنينا الحامية المعسكرة في غدامس ـ سيداموس وهي إحدى قلاع خط الدفاع في النصف الثاني من القرن الثاني[2]. لا يؤسس م.س. أيوب إلا على مكتشفات أثناء أعمال التنقيب في جرمة ـ قطع نقدية، وقلال، وأواني زجاجية مصنوعة في شمال أفريقيا ومصر ـ ليؤكد وجود علاقات وثيقة، تجارية وفي مجالات أخرى بين الرومان والعالم الجرمنتي[3]، ونظراً لصمت النصوص حول هذا الموضوع فإن أقل ما توصف به هذه الاستنتاجات أنها غير حذرة. لقد وجدت في الهقار كذلك أشياء من صنع روماني. وقد مكنت الحفريات في قلعة صغيرة في أبلسا من اكتشاف جمجمة امرأة ـ يعتبرها الطوارق جدتهم ويسمونها تي ـ نْ ـ هنان ـ وأشياء أخرى من بينها قطعة نقدية عليها صورة للامبراطور قسطنطين (274ف ـ 337ف)، ومصباحين رومانيين ومزهريات من صنع روماني[4]، وقد أوضح التحليل بواسطة الكربون 14 أن هذه الأشياء تعود تاريخياً إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين. إن وجود بعض الأشياء المصنوعة بالطريقة الرومانية في الصحراء الشاسعة أو حتى مبان غير صحراوية ـ ذات طابع روماني في جرمة أو ذات طابع غريب على طابع البلاد في أبلسا ـ

---

(1) حول حملات بالبوس (Pline, Histoire Naturelle)، انظر فستوس (Tacite, Histoire; Pline) وس. فلاكوس، وج. ماترنوس (Ptolem'e و Geographie)، انظر S.Gsell، المرجع المذكور، ج8، ص164 ـ 165. وL'Afrique Sahareinne, A. Berthelot، ص275 ـ 278. وLes Touaregs du Hoggar, H. Lhote، ص112 ـ 115. و ص.Histoire de L'Afrique, R Cornevin، ص198 ـ 199. وRoutes d'Egypte, R. Rebuffat، ص11 ـ E.W.Bovil.12، المرجع المذكور، ص35 ـ 44. وJ.T.Swanson، المرجع المذكور، ص139 ـ 150.

(2) J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص142.

(3) جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، ص209، 211 ـ 213. لنفس المؤلف، جرمة في عهد ازدهارها، ص160 ـ 164.

(4) H. Lhote, Les Touaregs du Hoggar, pp.88-89; J.T.swanson, op. cit, pp.129-131.

يبرهن فقط، إذا كانت هناك حاجة لبرهان، على أن الصحراء لم تكن مقفلة وأن أشياء يمكن أن تمر من واحة إلى أخرى لتنتهي في الأخير بعيداً عن الساحل منقولة هناك من أقوام الدواخل، كذلك الحال بالنسبة لبعض التقنيات(1) التي من الممكن أن بربر الساحل تعلموها وعلموها لأخوتهم الصحراويين.

تبرهن الحصيلة الأركيولوجية الهزيلة ـ بالرغم من جهود العلماء الإيطاليين ـ، وصمت النصوص على انعدام ـ أو على الأقل «ضآلة»(2) ـ تجارة المنتجات السودانية نحو العالم الروماني. ويمكن التساؤل لماذا لم يكن الرومان هم المبادرين بالتجارة العابرة للصحراء. كان الرومان، فيما يتعلق بالرقيق، يلجأون إلى الاحتياطي في شمال أفريقيا عندما تكون عوائد الحروب من الرقيق غير كافية، وذلك كما فعل العرب في بداية الفتوحات. وبما أن الكتابات لا تذكر أي غارات من أجل جلب الرقيق السوداني، فيمكن أن نقدر ـ كما فعل J. T. Swanson ـ أن السود ـ الأثيوبيين، أحراراً وعبيداً، الذين كانوا يتنقلون في العالم المتوسطي هم من البربر ذوي البشرة الداكنة وأن الرقيق السود الذين عرفتهم روما كانوا فقط من أعالي النيل، من النوبة(3).

يمثل السبب وراء عدم اهتمام الرومان بالحصول على الذهب السوداني مشكلة. لا يمكن أنهم كانوا يجهلون وجود مصادر للذهب في جنوب البلدان التي كانوا يحتلونها، لأنه منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وصف هيرودوت التجارة الصامتة المتعلقة بهذا المعدن الثمين التي كان يزاولها القرطاجنيون على السواحل الواقعة ما بعد أعمدة هرقل، على الشاطىء المراكشي والموريتاني(4). لم يكن القدماء ـ حسب Raymond Mauny ـ على معرفة بوفرة هذه المادة:

---

(1) إننا نفكر في بنايات جرمة. انظر C.M. Daniels، The Garamantes of Fezzan، ص261 ـ 267.

(2) R. Mauny, Tableau Goegraphique.

(3) The Not-yet-Golden Trade، ص114 ـ 115، يشرح J.T.Swanson، كثرة تمثيل السود في الفن الروماني بحب الاستطلاع الذي تثيره ندرتهم.

(4) هيرودوت، Histoires، 4، 196. انظر كذلك R. Mauny، المرجع المذكور، ص398. عن أشكال التجارة الصامتة في العصر الإسلامي، انظر، أدناه، ص649 ـ 650.

لقد تمكن بربر الصحراء الغربية، سادة الملاحات من مبادلة الملح بالذهب في الجنوب، وقايضوا الذهب بعد ذلك في الشمال بمنتجات أخرى، وربما لا يتعلق الأمر إلا بتجارة ضئيلة وغير منظمة تحدث عشوائياً مع مصادفات اللقاءات بين القبائل[1]. ولا يكفي ضعف حجم هذه التجارة لوحده لتفسير عدم اهتمام أكبر من الرومان. لا يمكن أن يعود عدم اهتمامهم إلا لجهلهم بالطرق التي تؤدي إلى مصادر الذهب، فقد كانت اتصالاتهم الوحيدة بالصحراويين تتم بواسطة البربر الذين كانوا يتعاطون المقايضة. من المرجح، أن التفسير يعود إلى السببين معاً؛ ضآلة المبادلات والاستحالة التي كان فيها سكان المتوسط في ذلك الوقت لتنظيم قوافل عابرة للصحراء.

لم يظهر الجمل في الصحراء إلا في القرون الأخيرة قبل الميلاد. قبل هذا، لم يكن النقل يتم إلا بالرجال الذين كانت حمولة الواحد منهم لا شيء عملياً في مثل هذه المناخات، وبالخيول وهي ليست حيوانات ترحل ولا يمكن استعمالها على مسافات[2] طويلة، وبالثيران. كانت هذه الأخيرة توجد بأعداد كبيرة في الصحراء، وبالرغم من أنه كان من الممكن تعويدها بسهولة على المناخ الصحراوي[3]، إلا أنها حيوانات قطر، ومن المستحيل عبور الصحراء بعربات في غياب الطرق، كما أن بطأها يعرض أمن الناس للخطر. لم تكن تجارة الساحل تعاني من نقص هذه الوسائل لأن النقل البحري كان مفضلاً بالنسبة للمسافات الطويلة، وقد حوفظ عليه بعد ظهور الجمل، وكانت الطرق والأمن النسبي يسمحان باستعمال العربات التي تجرها الثيران على المسافات القصيرة مهما كانت حالة الطرق سيئة.

---

(1) المرجع المذكور، ص399.

(2) J.T. Swanson، المرجع المذكور، ص165، يشير إلى أنه لم يُستطع استعمال الحصان كحيوان جر لأن الحزام الذي يمنع الحيوان من الاختناق عند جره عربة لم يطور إلا في نهاية الألفية الأولى.

(3) E.W.Bovil، المرجع المذكور، ص17 يلاحظ أن الثور يمكن أن يُعوّد على ألا يشرب إلا كل ثلاثة أيام. يُرى حتى اليوم في فزان جواميس تسحب المياه من الآبار.

ظهر الجمل في الصحراء حسبما تبينه الرسوم على الصخور قبل وصول الرومان[1] إليها، ومن ثم قبل ظهوره في أفريقيا الشمالية. لهذا أسس الجرمنت قوتهم العسكرية على الحصان وليس على الجمل، وزودوا قرطاجنة بالفرسان وليس بالمهاريين، ويقال أن خيولهم كانت تنتج مائة ألف مهر في السنة[2]. ولا بد أن الجمال كانت نادرة في شمال أفريقيا فقد كانت الإمدادات المائية الرومانية في الصحراء السرتية تُحمل سنة 48 قبل الميلاد على ظهور البغال[3] ـ وليس الجمال، وقد وجد قيصر أن من المفيد أن يذكر أنه أخذ عنوة سنة 46 ق.م اثنين وعشرين جملاً من جوبا، أول ملوك نوميديا[4]. لا شك أن الرومان رأوا الجمال الناقلة، والجمال المعدة كحيوانات معارك في آسيا الصغرى. مع ذلك، لم يصبح الجمل شائعاً في شمال أفريقيا[5] إلا في القرن الرابع. لقد طال النقاش حول الدافع وراء هذا التوسع: من أخذ المبادرة به، وهل كان لأغراض عسكرية أو زراعية أو تجارية[6]؟ حسب -R. Capot

(1) لا نعرف إذا كان قد أتى من مصر أو من أفريقيا الشرقية عبر بحر الغزال وتبستي، انظر Le chameau et L'Afrique de Nord Romaine. E. Demougeot، ص214.

(2) نفس المرجع، ص215.

(3) نفس المرجع، ص218 حسب (Plutarque, Vie de Caton d'utique).

(4) نفس المرجع حسب (Cesar, Bellum Africanum).

(5) نفس المرجع، ص237 238. انظر، خاصة، التعليق حول نصب كرزة والذي يمثل من بين أشياء أخرى قافلة جمال..

(6) Rome et Les berberes, Comp. M. Rachet ص207 ـ 209، رقم I. و E. Demougeot المرجع المذكور، ص243. وB.D.Shaw و The Camel in Roman North Africa and the Sahara، ص676، 696، 707 ـ 715 الذي يؤكد على أن الحصان يعلو في المعركة على الجمل الذي هو مشاكس وصعب القيادة، ويرفض ـ ويحق ـ تأكيدات القدماء من أن الحصان يخاف الجمل (بالعكس، الجمل يرتبك من الحركات المفاجئة للحصان ويمكن أن يوقع راكبه)، ويلاحظ أنه لا يوجد دليل على وجود وحدات مهارية في جيش شمال أفريقيا الروماني، ويجب دراسة هامشية دور الجمل في آسيا الصغرى، والتحقق من أنه في الصحراء فقط استعمل الجمل في المعارك. بقي ملاحظة أنه في نهاية القرن الماضي، طلب إلى طوابير المهاريين الفرنسية أن يأخذوا معهم حوالى ثلاثين من الخيول كإجراء فعال لضمان نجاح البعثات الصحراوية، انظر E.Von Bary، Les Touargs de L'Air، ص72 ورقم 2، وأن الشامبة كانوا يفضلون الخيول في هجماتهم ضد المهاريين الطوارق، انظر B.D.Shaw، ص712، رقم1.

Rey [1] وهو يعارض E.F. Gautier ـ لم يمثل الجمل ـ في جميع الأحوال ـ قوة جديدة ربما منحت للبربر الصحراويين تفوقاً تكتيكياً[2]، ويعتقد أن الأمر تطلب انتظار اكتشاف طريقة جديدة للركوب ليكتسب البدو القدرة على الحركة التي نعرفها لهم. وتعود أول إشارة لاستعمال البربر للجمال في معاركهم ضد البيزنطيين[3] إلى القرن السادس. نعتقد، كذلك، أن الأمر تطلب الانتظار حتى يكتسب السكان المعارف اللازمة، والتعود على هذا الحيوان الصعب[4]، وتصنيع حوايا لا تجرح الحيوان للإقدام على أعمال تجارية على مسافات طويلة[5].

عندما غزا العرب أفريقيا الشمالية لم يكن استعمال الجمل قد شاع وعم في عبور الصحراء بعد، فقد كانت قوات عقبة عندما غادر خليج سرت متوجهاً نحو ودان وفزان لينتهي إلى كوار مكونة من أربعمائة جمل وأربعمائة حصان[6].

يمكِّن الفحص الدقيق للنصوص العربية من تأكيد أن التجارة الإسلامية العابرة للصحراء لم تبدأ قبل القرن الثامن[7]. ولا تكفي صعوبة تهدئة الشمال الأفريقي وطولها لتفسير هذه الظاهرة. لقد أخذ عقبة، في سنة 4 ـ 662ف

---

(1) Le Sahara Francais, p.186.

(2) Le Passè de L'Afrique du Nord، ص194 ـ 200، الذي يقول ص196 إن إدخال الجمل من قبل روما كان آخر عمل جيد أبطل جدوى كل ما عداها.

(3) J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص173 ـ 174 (حسب Procope).

(4) نذكر بأن الجمال غالباً ما ترفض أن تتغذى بالنباتات التي لم تتعود عليها، وأن الطعام الغريب عنها قد يصيبها بالمرض أحياناً، انظر أعلاه ص126 ـ 127. انظر كذلك أمثلة عديدة في Book Club associates, reed. 1971, 1959, Logman, Londre, Arabian sands, Thesiger Wilfred 326 صفحة.

(5) حول أسراج الطوارق، انظر Les Touarges du Hoggar, H. Lhote، ص366 ـ 368. وحول عدة التبو للجمل، Nomades. noirs J. Chappelle، ص250 ـ 258، حول عدة وأسراج العرب، Coutumes, H. Janssen، ص272 ـ 273 وWerner, Die Beduinen, Vienne, Dostal, F. Berger، 1967، 199 صفحة. و40 رسم توضيحي، هنا ص11 ـ 20، 152 ـ 155.

(6) ابن عبد الحكم، ص60 ـ 61، انظر بعاليه ص106.

(7) انظر بعاليه، نفس المرجع.

ثلاثمائة وستين عبداً من ملك الجرمنت، وأصر على نفس العدد من الأسرى في كوار وأرسل عبيد اللّه بن الحبحاب سنة 734ف، والي أفريقية حملة إلى السوس والسودان، وقد أحضر حبيب بن عبيدة الذي كان يقود هذه الحملة أسرى وكمية كبيرة من الذهب[1].

لا يبدو أن غارة عقبة أحدثت أثراً مباشراً، وقد يكون السبب عدم معرفة السكان في كوار بوجود أقاليم الذهب البعيدة عنهم بألفين وخمسمائة كيلومتر. وليس في هذا ما يدهش عندما نتذكر أن السكان المحليين لم يكونوا يقيمون وزناً لهذا المعدن. يضاف إلى ذلك، أن السكان في كوار أخبروا عقبة بأنهم لا يعرفون ما يوجد وراءهم[2]. قد تكون هذه هي الحقيقة[3]، ولكنها تبعث على الاستغراب، كما قد تكون كذبة من سكان أرادوا تجنيب جيرانهم مذابح، أو حيلة من قبل الدليل ـ المترجم غير المتحمس لفكرة مواصلة الحملة والتعرض من جديد للمعارك[4]. لا بد أن حاكم مصر في ذلك الوقت ـ عمرو بن العاص أو ابنه عبد اللّه[5] ـ عرف بالنجاحات التي حققها عامله في فزان والسودان، وعلم أن عقبة أحضر ثلاثمائة وستين أسيراً من كوار دون أي خسائر ثقيلة في قواته. وإذا كان المؤلفون لم يغفلوا إيراد أي عملية في هذه المناطق، فإن توغل جيش عربي ثان في السودان لم يحدث إلا بعد سبعين سنة من ذلك التاريخ، ولم يكن انطلاقاً من خليج سرت ولكن من المغرب الأقصى. إننا لا نعرف ما هي الحقيقة الجغرافية التي يمثلها السودان على وجه التحديد عند ابن عبد الحكم والبلاذري ولكن من المؤكد أن السكان الذين تمت مقابلتهم لم يكونوا من البربر لقول ابن عبد الحكم إن الأسيرة أو الأسيرتين بثدي واحد اللتين أحضرهما حبيب بن عبيدة كانتا من جنس يسميه البربر «الجن». لا يبدو أن هذا

---

(1) انظر بعاليه، ص186.

(2) انظر بعاليه، ص108.

(3) Tableau Geograhique, R. Mauny، ص398 ـ 399، يؤيد هذا الرأي.

(4) انظر بعاليه، ص142.

(5) انظر بعاليه، ص102 ـ 103.

النجاح الذي لا يضاهى - هذه عبارات المؤرخين العربيين - حرك هذه المرة المحتل العربي. هكذا، بعد قرن من اقتحام العرب برقة، وجدت أفريقيا الشمالية نفسها منزوفة. فقد أفرغت تجاوزات الولاة - برغبتهم أو استجابة لطلبات الخلفاء المبالغ فيها - المنطقة من ثرواتها، وقد أحدثت ضخامة الجزية المفروضة موجة من التحول إلى الإسلام، وهي سياسة أرادها عمر بن عبد العزيز (3 - 682 - 720ف) ونفذها إسماعيل بن عبيد الله الذي عين حاكماً سنة 718ف، لأنه «تحت حكمه لم يبق بربري واحد لم يتحول إلى الإسلام»[1]. لم يعد ممكناً استرقاق البربر الذين خضعوا، وعندما تحولوا إلى الإسلام لم يعودوا ملزمين ببيع أطفالهم ونسائهم لدفع الجزية. لقد وصل البؤس بشمال أفريقيا (بربريا) إلى حد أن عبد الرحمن بن حبيب، الذي أبقي في منصبه حاكماً من قبل السفاح (749 - 754ف) ثم من قبل المنصور (754 - 775ف) لم يستطع أن يرسل إلى الخليفة - بالرغم من غضب هذا الأخير وتهديداته - إلا صقوراً وكلاباً هدية من أفريقية موضحاً له أنه لم يعد في ولايته أسرى ولا نقوداً[2]. ومع أنه استمر في الضغط على البربر وإرهاقهم بضرائب لا تحتمل وفرض عليهم إجراءات جائرة وغير مشروعة[3] كان لا بد من البحث عن مواطن أخرى للتزود بالرقيق. توافق هذا الوضع في بربريا - البعيدة عن السلطة المركزية الإسلامية، والمستسلمة والمفقرة - مع فترة الاضطهاد للخوارج في المشرق. كان المشرق المسلم يصر دائماً على المزيد من المواد والنقود والرقيق. وكانت أفريقية أرضاً مفتوحة قريبة من السودان الذي أظهرت حملتان الثروات المحتملة فيه. كان هناك فراغ - مكان للاحتلال - وقد ملأ الخوارج الفراغ.

إذا كانت حملة عقبة قد بقيت دون أثر، ولكنها كانت محل اعتزاز في

---

(1) ابن عبد الحكم، ص110 - 111. وانظر بعاليه، ص69 - 70.

(2) انظر بعاليه، ص192. في نهاية القرن الثامن، بعد ثورات البربر كان الوضع أكثر مأساوية لأن مصر اضطرت لدفع مساعدات لأفريقية، انظر بعاليه، ص207.

(3) يجب تذكر مسلك الوالي يزيد بن أبي مسلم خليفة إسماعيل في سنة 720ف، وتجاوزات عامل ابن الحبحاب في طنجة، انظر بعاليه، ص186 - 187.

الذاكرة الجماعية التي تصنع أسطورة البطل، فإن حملة حبيب جاءت في الوقت المناسب، كانت حاسمة. هل كانت هذه الحملة قد مثلت بداية لتجارة الذهب والعبيد معاً أو للعبيد فقط؟ سؤال لا يزال مطروحاً. هل كان التبادل المحدود للذهب الذي يصل حتى المغرب وراء حملة حبيب بن عبيدة؟ وهل وصل هذا إلى المناطق القريبة من مواطن الذهب السودانية[1] أم أن حملته استهدفت فقط أخذ أسرى؟. حسب J.T. Swanson [2] كان الغرض الوحيد للغارة الحصول على غنيمة ـ الاستيلاء على عبيد لأن هؤلاء كانوا قد قلوا في أفريقيا الشمالية ـ وقد يكون القيام بأعمال استطلاع في أراض غير معروفة هدف آخر لهذه الحملة. وعليه، فربما لم يكن الذهب من بين ما غنم إلا أن تكون كمية ضئيلة أخذت على الساحل الموريتاني في منطقة وادي الذهب، وهناك كانت تجري بعض المبادلات خلال العصور القديمة[3]. وسنلاحظ أن مؤلفين من القرن التاسع؛ ابن عبد الحكم[4] والبلاذري[5] تحدثا عن هذه الحملة وأن ابن عبد الحكم هو الوحيد الذي ذكر غنيمة من الذهب. ويضاف، كذلك أن المؤلفين[6] اختلفا حول اسم قائد الجيش الإسلامي. هل يمكن أن يسكت مؤرخ ثقة عن حملة كشفت للعرب وجود احتياطيات ضخمة من الذهب السوداني في وقت لم تعد فيه موارد أفريقيا الشمالية تكفي حتى لمواجهة متطلبات القوات المعسكرة في الإقليم؟ لقد جاءت هذه الحملة في الوقت المناسب، أو لا يمكن أن تكون قد تكررت مباشرة لمعالجة وضع اقتصادي حرج، وأن تكون أبرز وقائعها قد نقلت من قبل كتاب الحوليات كما سيحدث

---

(1) هذا رأي R. Mauny ،Tableau Geographique، ص300، وما يمكن أن نستخلصه من نص T. Lewicki ،Etudes Maghre bines, II، ص34.

(2) The Not-yet-Golden Trade, pp.235-238.

(3) R. Mauny, Tableau Geographique p.398.

(4) فتوح أفريقية، ص122 ـ 123.

(5) فتوح البلدان، ص333.

(6) انظر بعاليه، ص186، ورقم 4.

لاحقاً للملاحظات حول مواطن الذهب، والتجارة الصامتة، والسلع المتبادلة، ويذخ الملوك ملاك هذا المعدن الثمين. إذا كانت هناك غنيمة من الذهب، لا بد وأنها ضئيلة للغاية[1].

كانت حملة سنة734ف جنوب السوس حاسمة خاصة فيما يتعلق بتجارة الرقيق. وبالفعل، عاد قائد الحملة إلى أفريقيا الشمالية في الوقت الذي كان يصل فيه اللاجئون الخوارج من المشرق، وكان هناك طلب كبير على الرقيق في الإقليم. وقد لقي الخوارج عند البربر الساخطين النجاح المعروف. وقد تحالف الخوارج، وهم نشطون مغرمون بالمبادرة مع البربر الذين كانوا يعرفون جيداً كل ما يتعلق بالصحراء وربما كانوا يتعاطون من قبل تجارة جملة مع السودان، وهي تجارة حتى وإن كانت غير مهمة، فقد علمتهم ـ على الأقل ـ الطرق المؤدية نحو هذه الأراضي موطن الرقيق المطلوب في الشرق. هكذا، من كل مكان؛ من خليج سرت إلى سجلماسة، فتحت طرق تقود إلى السودان، ونشأت في كل مكان إمارات بربرية تركز على التجارة العابرة للصحراء. لا يمكن أن يعود الفضل في قوة المملكة الصفرية في سجلماسة في نهاية القرن الثامن إلا لهذه التجارة، وقد أثرت تجارة الجملة مع بلاد السود تاهرت، وكانت للإمامة الرستمية في عهد أفلح بن عبد الوهاب (4. 823 ـ 2 . 871) حفيد مؤسس الأسرة علاقات دبلوماسية مع مملكة سودانية بواسطة وجيه أباضي[2]. لا نعرف ـ لسوء الحظ ـ مع أي ملك سوداني كانت هذه العلاقات، كما لا نعرف السلع

(1) J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص237، يعتقد أن من الممكن أن ابن عبد الحكم الذي كان يكتب في القرن التاسع في وقت كانت فيه تجارة الذهب عبر أفريقيا في أوج ازدهارها أضاف هذا الخبر الذي يعتقد أنه تحصيل حاصل. وApproximatives, J. Devisse، ص186 يعتبر ـ حججه بالغة الإقناع ـ أن التنظيم الدقيق لتجارة الذهب يستجيب لطلب منظم لسك العملة على أساس اقتصادي وسياسي ومن ثم ما كان لينشأ إلا في القرن العاشر، وعلى أكبر تقدير في النصف الثاني من القرن التاسع.

(2) T. Lewicki, (d'apre's La chronique d'Ibn as-Saghir, Composè vers 902-903), L'Etat nord-africain de Tahert, pp.514-525-526; Traits d'histoire, p.311.

موضوع التجارة الخوارجية في القرنين الثامن والتاسع. ويدفعنا صمت المؤرخين العرب والأباضيين حول ما إذا كانت حملة سنة 734ف قد تكررت لغرض الحصول على الذهب إلى الاعتقاد بأن تجارة الرقيق لوحدها كانت موضوع اهتمام الخوارج الشمال أفريقيين والشرقيين[1] لبعض الوقت. وربما كانت الصدفة لوحدها أثناء الأسفار التي تتطلبها تجارة الرقيق، وراء اكتشاف التجار القادمين من الشمال وجود مواطن الذهب في السنغال الأعلى. ليس من المعروف ما إذا كان المعدن المكون للقطع النقدية الذهبية التي كان الأغالبة يصدرونها في القرن التاسع مصدره السودان، وربما كان هذا الذهب جزءاً من الغنيمة الهائلة التي تم الاستيلاء عليها أثناء الحملات الصقلية[2]. في جميع الأحوال، كان الذهب السوداني يتدفق على أفريقية في القرن العاشر، وقد أثبتت تحاليل القطع النقدية الفاطمية لتلك الحقبة احتواءها على نسبة كبيرة من الذهب من غرب أفريقيا[3]. بقيت تجارة الذهب لمدة طويلة حكراً على الطريق سجلماسة ـ غانا. وبينما ذكرت هذه التجارة في سجلماسة في القرن التاسع[4]، لم تذكر عند بربر الصحراء الليبية[5] إلا في القرن العاشر.

---

(1) J.T.Swanson، المرجع المذكور، ص210 ـ 211 يشكك في صحة الوصف النوعي المطبق على غانا، «بلاد الذهب»، وفي مقطع الفزاري (آخر القرن الثامن) المستشهد به من قبل المسعودي، مروج، ج2، ص234 بينما النص يذكر تسع مناطق سودانية وصحراوية، غانا هي الوحيدة التي وصفت. يتساءل J.T.Swanson عما إذا لم تكن عبارة «بلاد الذهب» إضافة من المسعودي نفسه الذي عاش في الزمن الذي كانت فيه كنوز الذهب معروفة. حول تحديد الفزاري، انظر، Introduction a Az- Zuhri, M. Hadj-Sadok، ص25 ـ 31. وArbic Extermal T. Lewicki، ص13 ـ 14.

(2) النويري، ص425، حول الاستيلاء على سيراكوزا، سنة 878ف: «أخذت غنائم لم يوجد مثلها في أي مدينة من مدن المشركين». انظر الملاحظات المهمة لـ J. Devisse, Approximatives، ص174 ـ 176، 185 ـ 187.

(3) J.T.Swanson ، المرجع المذكور، ص214.

(4) اليعقوبي، بلدان، ص359/ 225.

(5) الاستبصار، ص39. وحدود العالم، ص153.

تنظيم التجارة:

لم يورد المؤلفون العرب، الذين وصفوا البلدات والمناطق الواحدة تلو الأخرى، أي نظرة شاملة حول تنظيم التجارة الأفريقية أو غيرها. وعليه سيكون الاعتماد على التفاصيل المجمعة من هنا وهنا الأساس لمحاولة وضع تصور لهذا التنظيم.

كانت تجارة المتوسط مع أوروبا في أيدي المسلمين والمسيحيين بينما كانت تجارة المشرق الإسلامي والهند في أيدي العرب واليهود. وكان البربر ـ غالبيتهم من الخوارج حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر ـ واليهود ـ كما سنرى ـ يديرون التجارة العابرة للصحراء[1]. وكانت المعاملات التجارية تتم على أساس الثقة من مجموعة إلى أخرى دون صعوبة من أي نوع، فقد كانت القيم التي تحكم التعامل التجاري متشابهة[2] في الأديان الثلاثة. كان مراسلو التجارة الشمال أفريقيين ـ شركاء أو أقارب أو عبيد ـ مستقرين على طريق المشرق في القاهرة وقوص وعيذاب وعدن. كما كانوا يوجدون في السودان في كل المراكز الكبيرة يتعاطون التجارة أو يستقبلون القوافل: في أودغست حيث استقر النفوسيون واللواتيون والزناتيون والنفزاويون[3]، وفي ولاتة حيث كان التكشيف يسبق قافلة سجلماسة ليبلغ مراسلي التجار ليأتوا لتزويدها بالماء[4]، وفي غانا المكونة من مدينتين مختلفتين إحداهما للمسلمين[5]، وفي مالي التي كان بها حي يسكنه

---

(1) Letters, S.D. Goitien، ص8، منذ بعض السنوات كان ما يزال يمكن التحقق من هذا التوافق في شمال أفريقيا، في مزاب بشكل خاص، انظر P Shinar. Reflexions.

(2) S.D. Goitein، انظر، الفهرست. (ومن المستغرب، ليس في الاسكندرية)، إن الانهيار الاقتصادي لأفريقية في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر، والمجاعة في 5 ـ 1004ف أدت إلى هجرة إلى مصر من قبل التجار الأفريقيين، انظر محمد طالبي، Droit et Economie، ص205 ـ 206. وأقام كثير من التجار المغاربة في دمامين مباشرة جنوب قوص، الحميري، انظر (مادة دماميل).

(3) البكري، ص158/ 300. رأى ابن حوقل صكاً موقعاً من ساكن من أودغست بمبلغ 42000 دينار، انظر صورة الأرض، ص61/ 58.

(4) ابن بطوطة، ج4، ص381 ـ 385. انظر بعاليه، ص126 ورقم 1.

(5) البكري، ص175/ 328.

البيض، وترتبط بعلاقات دبلوماسية مع سلطان المرينيين في فاس[1]، وفي تومبكتو التي تأوي أثرياء أجانب وكانت تمنع التعامل مع التجار اليهود[2]، فيها كان أكثر الأحياء ازدهاراً يعود للغدامسية[3]، وفي كوكو حيث أراد أفلح بن عبد الوهاب، ملك تاهرت، الذهاب قبل سنة 4 ـ 823ف لينظم فيها علاقات تجارية[4] وحيث استقرت جماعة أباضية[5] وكان جزء من المدينة مخصص للتجار[6] وفيها أقام ابن بطوطة عند أحد سكانها الذي كان من مواليد مكناس[7]، وفي تادمكة حيث ربما ولد أبو يزيد من أب من مواليد الجريد التونسي[8] كانت توجد كذلك مجموعة أباضية[9]، وفي تكدة حيث كان للمجموعة المغربية شيخها[10] الخاص بها.

كان اليهود، الذين لم يذكروا إلا نادراً في النصوص، مستقرين خاصة في التخوم الشمالية للصحراء[11]، كما كانوا يقابلون في السودان[12]: في ولاتة[13]

(1) ابن بطوطة، ج4، ص397، 409، 486.

(2) ليون الأفريقي، ج2، ص467 ـ 468.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص142/ 222.

(4) الوسياني، في L'Ett nord-africain de Tahert, T. Lewicki ص523 ـ 525.

(5) ابن حماد، ص8/ 33 ـ 34. انظر Sur La diffusion, J. Schacht، ص23.

(6) المهلبي، في ياقوت، انظر (كوكو).

(7) رحلة، ج4، ص435 ـ 436.

(8) ابن حماد، المرجع أعلاه.

(9) Traits d'histoire, T. Lewicki. حسب الحوليات الأباضية، نفس المؤلف، Quelque Extraits Inedits، ص4 ـ 5، 18، 22 ـ 23.

(10) ابن بطوطة، ج4، ص438.

(11) M. Abitbol, juifs maghrebins, pp. 562- 572; n. Levtzion, Th jews of Sijilmasa; M. Ben Sasson, The Jewish Community; P. Shinar, Reflexions Sur la symboise; H.Z. Hirschherg, A history of the Jews, I, pp. 140 - 145: distibution of the Jewish population; N. Elisseeff, L'Orient musulman, p. 179.

(12) بالنسبة لـ Tableau Geographique, R. Mauny، ص459 ـ 460، لا يتعلق الأمر إلا بمجموعات صغيرة أو بعض الحالات المعزولة.

(13) M. Abitbol، المرجع المذكور، ص565.

وقمنورية، أي في الطرف الغربي الأقصى[1] للسودان، وفي ملال (مالي فيما بعد) حيث كانوا يسكنون مع الكفرة ولكن في مصادر الذهب[2] ذاتها، وفي منطقة تومبكتو[3]، وقد استمروا نشطين في التجارة العابرة للصحراء حتى سلبهم دورهم كوسطاء الوجود الأوروبي في خليج غينيا في القرن السادس عشر، وقد تأثر دورهم كثيراً من قبل، منذ نهاية القرن الخامس عشر بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له في وادي درعة وفي توات ويمنعهم في السودان من الدخول إلى مدن السنغاي[4].

في ليبيا، كان اليهود في القصور العربية في درنة حيث كانوا محميين بالجزية[5]، وكان مائتان منهم يعيشون بقلعة في طلميثة حيث كان العرب، الذين يوفرون لهم الحماية، يأتون لشراء السلع التي تحضرها البواخر[6]، وفي أجدابيا كانوا غالباً ناقلين للتجارة العابرة للصحراء أو مراسلين ليهود ميناء طلميثة[7]، كما كانوا في سرت ومصراتة ولبدة وطرابلس وصبره وغدامس[8]، وفي الحصن الأباضي جبل نفوسة حيث كانوا يشكلون غالبية سكان جادو المدينة الواقعة في مكان متميز في نهاية الطريق العابرة لليبيا من خلال الحمادة[9]. كما لا بد أنه كان ليهود حلوان المصريين مراسلين في زويلة، أكبر

(1) الإدريسي، ص29/ 35. حول قمنورية، انظر Recueil, J.M. Couq، ص146 ـ 148، رقم 1.
(2) الإدريسي، ص4/ 4.
(3) الزهري، ص180 ـ 181، سيوجدون هناك، بعد أن أصبحوا مزارعين في نهاية القرن الخامس عشر، انظر م. كعتي، تاريخ الفتاش، ص63/ 120. في نهاية القرن السادس عشر، منع عليهم دخول تومبكتو، انظر ليون الأفريقي، ج2، ص468.
(4) M. Abitbol، المرجع المذكور، ص575 ـ 576.
(5) ابن سعيد، بسط الأرض، ص81، وياقوت، انظر درنة. انظر بعاليه، ص380 ـ 381.
(6) أبو الفدا، تقويم، ص148 ـ 149. انظر بعاليه، ص395.
(7) الإدريسي، ص132/ 157. انظر بعاليه، ص399.
(8) H.Z. Hirschberg, a history of the jews, pp.140-141 d'après J. Mann, Texts and Studies, I, Cincinnati, 1931 et Les documents de La Geniza.
(9) البكري، ص9/ 25. انظر بعاليه، ص410.

أسواق الصحراء الليبية حيث كانوا يحصلون على الذهب والأحجار الثمينة[1].

كان التجار الكبار ـ أياً كانت ديانتهم ـ يتمتعون بكامل الاحترام. كان هؤلاء في قمة السلم الاجتماعي، أثرياء، ومثقفين غالباً وراعين للأدباء والعلماء، ومحسنين إلى الفقراء، يتمتعون بهيبة كبيرة وقريبين من السلطة التي كانوا يستطيعون التأثير عليها لأنهم كانوا المزودين[2] بالسلع، وكان الملك يحتفظ بحق أن يكون أول المشترين للبضائع المستوردة[3].

ترك لنا ابن الخطيب، وهو كاتب أندلسي من القرن الرابع عشر، معلومات ذات أهمية بالغة حول التنظيم التجاري لأسرة المقري. لقد هيأ الأشقاء الخمسة طريق الصحراء بحفر آبار فيها وضمان أمن التجارة ووضعوا أصولهم القائمة والمستقبلية شراكة بينهم مع توزيع الأرباح بالتساوي. استقر اثنان منهم في تلمسان وواحد في سجلماسة، والاثنان الآخران في ولاتة حيث كسبوا أموالاً وتزوجوا نساء. كان الابنان اللذان بقيا في تلمسان يرسلان إلى الصحراء بالبضائع التي يطلبها أشقاؤهم، ويرسل إليهم هؤلاء بالجلود والعاج ولوز الكولا والتبر. وكان الشقيق الذي في سجلماسة يعلم أشقاءه في تلمسان وولاتة عن هبوط وصعود أسعار المنتجات ويصف لهم ظروف التجار وحوادث البلاد. وقد ازدادت أموالهم وارتفع وضعهم الاجتماعي ولكن ثروتهم تأثرت كثيراً عندما احتلت التكرور ولاتة. ولحسن الحظ، قابل أحد الأشقاء حينها الملك الذي دعاه بـ «رفيقي العزيز» و«صديقي العزيز جداً» وزوده بالرسائل التي تمكنه من مزاولة تجارة الجملة في كل البلاد. وباكتسابهم ثقة الملوك كسبوا ثروة دون حدود[4].

---

(1) Benjamin de Tulede, in Levtzion and Hopkins, Corpus, pp.135-136. cf, supra, pp.478, 561.

(2) انظر ألف ليلة وليلة ورحلات ابن بطوطة وابن جبير.

(3) S.D. Goitein, Letters, p.10.

(4) الإحاطة في تاريخ غرناطة، ترجمة في J.M. Cuoq, Recueil، ص324 ـ 326 وفي Corpus, Levtzion and Hopkins، ص307 ـ 308.

كان الأمر يتعلق بمشروع تجاري كبير: تهيئة طرق وحراسة قوافل وخدمات معلومات واتصالات مع المسؤولين الكبار. سنلاحظ خاصة دور المعلومات الذي كان يسمح بعد عبوره الصحراء على مسافة آلاف الكيلومترات بتقرير المشتريات وحتى بالتأثير على الأسعار في حالات القوة كما هو الحال عند الأخوة المقري.

كان النقل البحري والنهري، وهو أسرع بكثير، هو المفضل[1] بالنسبة للسفر أو مصاحبة السلع المشرقية إلى أفريقية. كانت السلع المشرقية تصل إلى ميناء عيذاب حيث تستلمها القوافل هناك وتنقلها إلى قوص، وهناك يتم تحميلها على بواخر تنزل مع النيل حتى الإسكندرية حيث يتم شحنها على سفن نحو المغرب أو إسبانيا. كان لهذا الأسلوب من النقل مخاطره الواضحة، التي منها العواصف، وهجمات القراصنة. وكانت الحكومات توفر الحماية لقوافل السفن التجارية بواسطة البوارج والقوادس[2]، وتقتصر هذه الحراسة أحياناً على مركب على متنه بعض الجند، لا يتعدى دوره العمل كزورق إنقاذ، وفي هذه الحالة لم تكن الحراسة فعالة خاصة عندما كان يسارع الجنود بالهرب عند أقل هجوم[3]. في الشتاء والبحر مضطرب، كانت ثلاث قوافل كبيرة محملة بالسلع السودانية تغادر سجلماسة نحو مصر مارة بطرابلس وسرت وبرقة، وكانت القوافل المصرية (مواسم) تتجه في شهر مايو إلى أفريقية، وكان وصولها إلى القيروان مناسبة لتنظيم معرض[4]. وكانت هذ القوافل البرية المحروسة ــ هي

(1) أشرنا إلى أن اليهود لا يسافرون أيام السبت وأيام الأعياد الدينية. تبعد عنهم غالبية القافلة فكانوا يضطرون لحراسة خاصة، وهو ما يزيد من التكلفة. بعض اليهود الأغنياء كانوا يوقفون القافلة بكاملها ليوم كامل ويعوضون التجار الآخرين عن التأخير. انظر The unity of the Mediterranean World، S.D. Goitein، ص35 ــ 36. انظر بعاليه، ص317.

(2) Letter 69, Letters, S.D. Goitein، ص306 ــ 611: كانت القافلة البحرية التجارية مستعدة للإبحار تنتظر انتهاء الإصلاحات الجارية على البارجة، Letters 70، ص311 ــ 315.

(3) نفس المرجع، الرسائل 9، 73، ص62 ــ 65، 322 ــ 323.

(4) انظر أعلاه، ص317.

كذلك[1] ـ تمكن من بيع سلع وشراء أخرى في البلدات المعبورة حسب أسعار اللحظة والمؤشرات المقدمة إلى التجار من مراسليهم الذين كانوا يستعملون البريد السريع[2] جداً (الفيوج).

كان تنظيم القوافل في القرون الوسطى معروفاً من الجميع، وهكذا لم ير المؤلفون العرب فائدة في إعطاء تفصيل شامل عنه. كانت القوافل العابرة للصحراء تعد أعداداً كبيرة من الرجال والحيوانات مخافة قطاع الطرق[3] والأقوام المعادين[4]. ويذكر ابن خلدون قافلة مكونة من اثني عشر ألف جمل محملة قادمة من مصر عابرة الصحراء إلى مالي، ويشير إلى أن هذا يتكرر في كل السنين[5]، ويفيد الإدريسي بأن لكل تاجر من تجار أغمات في الجنوب المراكشي الأغنياء سبعين إلى مائة جمل محمل في القافلة المتوجهة إلى السودان، يعهدون بها إلى خدمهم أو عبيدهم[6]. وسنلاحظ أنه كان يجب توفير ثلاثة جمال لكل شخص مشارك في الرحلة: أحدها للركوب يستبدل أحياناً بحصان[7]، وواحد لنقل الماء والثالث لحمل التموين[8]. ويختلف ـ بالطبع ـ عدد الجمال حسب مدى كفاية نقاط المياه على المسار، فلم تكن لكل الآبار قدرة بئر مرندن في الآيير الذي كان يكفي لسقي 500 إلى 600 حيوان يومياً من

---

(1) مثل من قابس نحو الشرق في ابن بطوطة، ج، ص25.

(2) انظر بعاليه، ص319.

(3) ابن حوقل، ص61/ 58.

(4) ابـن بـطـوطـة، ج1، ص25 ـ 26 (Les arabes sur Le littoral Ifricain Me'dieval)، ج4، ص445 ـ 446 (الهقار الملثمون الذين لا يمنعون القوافل من المرور خلال شهر رمضان).

(5) البربر، ج3، ص287 ـ 288.

(6) نزهه، ص66/ 76. كانت قوافل الحجاج المغادرة القاهرة إلى مكة تتكون من ثلاثين ألف إلى أربعين ألف جمل. انظر Orhonlu، موسوعة الإسلام، انظر كاروان. في سنة 1908ف، كانت قافلة ملح بلما نحو النيجر تتكون من 2000 جمل. انظر The Golden trade, E.W.Bovil، ص238.

(7) ابن بطوطة، ج4، ص376 ـ 387 قام بالرحلة سجلماسة ـ ولاتة على حصان.

(8) C. Orhonlu, Ibid.

قوافل ملح بلما[1]. في جميع الأحوال، كانت القوافل تمتد على أيام كثيرة، تبلغ الشهر أحياناً.

كانت القوافل الناقلة للملح من ملاحات الصحراء الجنوبية إلى السودان تسافر في الربيع والخريف[2]. وبالعكس كانت القوافل العابرة للصحراء تبدأ رحلاتها في الخريف[3] والشتاء[4]، عندما تكون شدة الحرارة أقل ويكون في الإمكان العثور على بعض المراعي. ترك لنا الإدريسي البرنامج اليومي لقافلة متوجهة نحو السودان[5]، يقول ما معناه[*]: «تحمل الجمال مبكراً وتسير القافلة حتى ترتفع الشمس فوق الأفق، وتصبح حرارة الهواء والأرض لا تطاق، عندها تتوقف القافلة وتنزل أحمال الجمال ويتم تقييدها، وتحل الحمولة وتنصب الخيام من أجل الظل لتحاشي حرارة الشمس المضرة. عند الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما تبدأ الشمس في الانحدار تبدأ الرحلة من جديد وتسير القافلة حتى هبوط الليل وهو وقت توقف القافلة من جديد حيثما توجد ويستراح بقية الليل حتى الفجر، وعندها تبدأ الرحلة من جديد». في الشتاء، وكما نقرأ في روايات مستكشفي القرن الأخير[*]، كان يمكن تقصير توقف منتصف النهار ولكن هذا التوقف يبقى ضرورياً لراحة الحيوانات والناس. كانت القافلة تسير يومياً تسع

---

(1) H. Lhote, Recherches Sur Takedda, p.351.

(2) R. Capot-Rey, le Sahara Francais, pp.412-417.

(3) الإدريسي، ص31/ 38. وابن بطوطة، ج4، ص445 ـ 448 غادر تكدا 12 سبتمبر 1353ف وتوغل في إقليم الهقار في أكتوبر وسار طوال شهر وعبر توات ووصل سجلماسة في منتصف نوفمبر، وغادر هذه المدينة بداية ديسمبر ورجع إلى فاس.

(4) لا يمكن عبور الصحراء الجرداء الموحشة التي تفصل المغرب عن بلاد السود إلا خلال هذه الفترة من السنة لأن الماء نادر والمراعي منعدمة، بالإضافة إلى أنه من الضروري السير بشكل مستمر. انظر ابن حوقل، ص103 ـ 101. وابن بطوطة ج4، ص377 ـ 395 غادر سجلماسة في منتصف فبراير 1352ف ووصل إلى تغازة منتصف أبريل وأقام سبعة أسابيع، ووصل إلى النيجر منتصف يونية.

(5) نزهة، انظر المرجع أعلاه (ترجمة (De Goeje).

(*) الاقتباس عبارة عن ترجمة لما أورده المؤلف عن ترجمة لكتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». المترجم.

ساعات في المتوسط ولا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة إلا بشكل استثنائي، عندما تكون المسافة بين نقطتي مياه طويلة للغاية أو عندما يخشى الدليل أن يكون البئر القادم جافاً على سبيل المثال. كان استخراج الرمال من البئر يتطلب أحياناً عملاً شاقاً وخطيراً لساعات طويلة. ويحدث أن يتم التوقف لأيام على بئر إذا كان البئر ذا قدرة كافية وثابتة وتوجد حوله مراعٍ للجمال.

كان للقافلة شيخ يساعده مساعدون إذا كانت القافلة مهمة كما يكون لها خبير عارف جيداً بالمسار إلا في الحالة التي يكون فيها الشيخ نفسه خبيراً. كان الشيخ هو الذي يقرر الطريق الذي يجب سلوكه ويعطي توجيهاته للتكشيف، ويختار الحماية المسلحة ويعالج المشاكل القانونية التي تحدث ويجري الاتصالات مع القبائل التي تعبر أراضيها لتسوية مسألة حقوق المرور والحماية[1]. كانت القافلة الكبيرة عبارة عن مدينة متحركة لها مؤذنها وإمامها وأحياناً قاضيها الخاص بها بالإضافة إلى الشيخ. كما كان لكل مجموعة في القافلة رئيس ويشكل هؤلاء الرؤساء جماعة يرأسها الشيخ تتولى البت في النزاعات التي قد تحدث. كانت الحراسة المسلحة توفر عناصر الخفارة بالليل، كما كان يتولى الترفيه عن مئات المسافرين موسيقيون ومغنون وحتى عاهرات.

إن رسوم العبور في الصحراء خلال القرون الوسطى ليست معروفة بشكل جيد. ومن المعتقد أن هذه الرسوم كانت، كما كانت في القرن الأخير[*]، تقرر وتعدل وفق التحالفات والمصالح السياسية والاقتصادية. لقد ترك لنا Henri Duveyrier عدة أمثلة لضرائب الحماية[2] التي كان على الأشخاص والقوافل التجارية دفعها للطوارق، وكان التبع يرون في هذا وسيلة لاسترداد كل أو جزء من الأتاوة (غرمة) التي يدفعونها للنبلاء[3].

---

(1) C. Orhonlu, E.I. s.v. Karwan.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(2) في الصحراء، يقال أدى = دفع، انظر Le dernier rapport, E. Von Bary، ص32.

(3) يسيطر أفوغاز غدامس على الطريق عين صالح ـ غدامس (Les Touareg du Nord, P.360). والطريق عين صالح ـ غات كانت للأزقار وكل أجر. وهم أفرع من تبع كل رحل =

من القرون الوسطى يمكننا أن نسوق هذا المثل المشهور من قبيلة المسوفة: عندما غادر ابن بطوطة سجلماسة في اتجاه مالي، كان على رأس القافلة مسوفي، وكانت تغازة مدينة ملح، حيث تمر القافلة بعد عشرة أيام، تعود لقبيلة مسوفة، وكان الأدلاء الذين استؤجروا للبحث عن مسافر غير حذر مسوفيين كذلك، كما كان التكشيف الذي بعثه رئيس القافلة إلى ولاتة لإخطار المراسلين بإحضار الماء للمسافرين منعاً للموت عطشاً مسوفياً بدوره، أما الأشخاص الذين كانوا يبيعون الماء للقافلة على الجزء الأخير من مسارها فقد كانوا من قبيلة بردامة وقبيلة مسوفة، وكان أغلبية سكان ولاتة مسوفيين(1). هكذا كانت نفس القبيلة تتحكم في هذا الطريق الطويل من نقطة البداية حتى الوصول وكانت تمتلك المحطة الوحيدة وتزود القافلة بالرئيس والأدلاء والتكشفيين. يمكن تصور الثراء الذي كانت عليه البلدات الليبية التي مثلت نقاط مرور لا غنى عنها لكل القوافل الشرقية وبعض القوافل الأفريقية، إذ كانت القوافل تدفع رسوماً وضرائب في مدن الانطلاق والمرور في الشمال كما في المدن ـ المحطات ـ المستودعات وعند الوصول(2). وقد بقيت لنا بعض البيانات حول هذه الضرائب على القوافل في ليبيا.

= (ص376)، وغدامس ـ توات كانت للأزقار (ص166)، ولكن رئيس الطوارق أجر يطالب لكل أجر أو الأفوغاز بكل الطرق القادمة من توات (ص172). عين صالح ـ هقار لكل هقار (ص297، 371). هقار ـ تومبكتو للكل أهنت وهم تبع للتيتوك (ص378) Evon Bary (1876ف ـ 1877ف)، المرجع المذكور، ص18 ـ 19 ورقم 3. يلاحظ أن تجار غدامس لا يدفعون ضرائب للمرور بغات في الذهاب ولكنهم يدفعونها عند العودة، يدفعون للأجر، وإذا كانوا أغنياء يجب عليهم تقديم هدايا تتجاوز بكثير الضرائب النظامية. إن الكل أوي في الآيير الذين بإمكانهم إذا أرادوا منع المرور في إقليمهم كانوا معفيين من أي ضرائب في غات.

(1) رحلة، ج4، ص377 ـ 387، عن أخلاقهم، انظر، ص387 ـ 391. تغيرت الطريق ولكن السادة بقيوا هم أنفسهم: في القرن العاشر كانت قبيلة مسوفة تتحكم في الطريق سجلماسة ـ أودغست. هؤلاء الفرسان الشجعان، العارفون جيداً بالصحراء كانوا مقدرين من قبل صنهاجة في الشمال، انظر ابن حوقل، ص101/ 99 ـ 100. انظر الإدريسي، ص63/ 73.

(2) كان ملك غانا يحصل رسماً قدره دينار واحد من الذهب (4.55 جرام) على كل حمار محمل بالملح يدخل بلاده ودينارين على كل حمولة تصدر، انظر البكري، ص176/ 330 ـ 331.

كانت أجدابياً تحصل رسوماً على قوافل بلاد السودان عند الذهاب وعند الوصول، ويبدو أن الموظف المكلف بالمالية كان في نفس الوقت إدارياً مدنياً (أميراً) ذا طابع ديني (صاحب صلاتها) وقد أرسل إلى السلطان الفاطمي عوائد صدقة البربر والخراج على الزراعات والزكاة (تعشير) على الخضر والحدائق، واحتفظ في حوزته بالرسوم المحصلة على القوافل الذاهبة إلى بلاد السود أو العائدة منها[1]. ولما كان نشاط ميناء أجدابيا كثيفاً[2]، وكانت أغلبية كبيرة من القوافل المصرية تمر بها فلا بد أن الإيرادات من الرسوم المحصلة على الواردات والصادرات والمرور كانت مهمة.

في سرت، حيث نهاية الطريق العابر لوسط فزان، كان الحاكم، وهو الرئيس الديني كذلك، مكلفاً بمختلف أنواع الضرائب ـ صدقة، وجباية[3]، وخراج ـ والرسوم التي تدفع على القوافل التي كانت تعبر المنطقة، وكان يحرص بدقة على احترام التعليمات الحكومية لتحاشي الغش الضريبي الذي يُمكِّن من تجنب دفع الرسوم[4].

كان لسويقة بني مثكود ـ مصراته، وهي نهاية الطريق العابر لغرب فزان، ميناء. ومن المرجح الغالب أن رسوم المرور كانت من بين عدد من الضرائب التي تحصل فيها، كما هو الحال في سرت. كان نفس الموظف يعمل في سويقة ولبدة، حيث تحصل الضرائب على الجمال والبغال والحمير والرقيق وكل السلع الموردة[5].

في طرابلس، كان حاكم الولاية يحصل رسوماً على حمولة كل جمل. وفي زمن ابن حوقل بدأت صبرا في تحصيل ضريبة على القوافل الذاهبة من

(1) ابن حوقل، ص67/ 63.
(2) انظر بعاليه، ص370.
(3) انظر بعاليه، ص64 رقم2.
(4) ابن حوقل، ص68/ 64.
(5) نفس المرجع، ص69/ 65.

طرابلس إلى القيروان ومن القيروان إلى طرابلس، ومن المحتمل أن الأمر يتعلق بابتداع فاطمي لأن ابن حوقل لم يسمع بمثل هذا الرسم من قبل[1].

في الداخل، لم تكن زلة، وهي موضع عبور لقوافل مصر، وودان وهي محطة مطروقة على الطرق من الشمال والشمال الغربي لتتركا مورداً لأرباح مهمة دون أن تستفيدا منه. وكانت غدامس، والبلدات الرئيسية في جبل نفوسة، وغات وجرمة تستفيد كثيراً من مواقعها المثالية على طرق القوافل ووظائفها كنقاط التقاء. كانت زويلة هي المدينة الأكثر ثراء وكانت تجمع بين أدوار عديدة: الملتقى الصحراوي الليبي الأكثر أهمية، ومستودع كبير، ومتعامل كبير في تجارة الرقيق، وباب السودان وآخر واحة كبيرة ومحطة ضرورية على الطريق الوحيد المؤدي إلى تشاد.

كانت كل الطرق العابرة للصحراء تعبر إقليم البربر. بعد وقت قصير من هزيمتهم خلال الفتح العربي انضم البربر إلى الأباضية وأصبحوا مجهزي القوافل التجارية وأصحاب الأمر في الواحات ـ المحطات وملاك المناطق المعبورة: لواته في إقليم برقة، ومزاتة في زلة وودان، وهوارة الصحراويون والطرابلسيون ونفوسة في ساحل طرابلس الغرب، وبنو تناوتة في غدامس، والأزقار في غات، وفزانة جرمة ورواية (؟) في زويلة. كان في إمكان القبائل التحرك، والاختلاط وحتى[2] الهجرة وبقيت التجارة بين أيدي البربر. كانت الأوضاع في المناطق الصحراوية الأخرى مشابهة للوضع في الصحراء الليبية؛ في الجريد، والزاب، وورقلة، ومزاب، وسجلماسة التي كانت لها علاقات ممتازة مع العالم الأباضي[3] بالرغم من أنها صفرية. شكل البربر المزودون الوحيدون لأفريقية

---

(1) نفس المرجع، ص68 ـ 69/ 65.

(2) مثل اللمطيين الذين كانوا يوجدون في القرن التاسع بين كوار وزويلة وبين زويلة ـ أوجلة ـ أجدابيا، ثم كانوا يقابلون بعد ذلك أبعد كثيراً في الغرب. انظر اليعقوبي، بلدان، ص345/ 205 ـ 206. انظر بعاليه، ص252 ـ 255.

(3) انظر بعاليه، ص194 ـ 195.

والشرق بسلع مرغوبة للغاية، حتى القرن العشرين، قوة مالية وتجارية، وأحياناً عسكرية، كان على الحكام العرب أن يحسبوا حسابها.

ليس من المستغرب أن بقي الرفض الذي عبرت عنه المدرسة المالكية للتجارة مع السودان دون أثر، لأن التجارة العابرة للصحراء كانت منذ البداية لفائدة البربر الأباضيين لوحدهم، في مختلف الأدوار التي لعبوها. في سنة 938ف، كتب أبو زيد القيرواني (922 ـ 996ف) رئيس المدرسة المالكية في القيروان، وكان عمره سبع عشرة سنة: «يكره الذهاب للمتاجرة في بلاد العدو وفي السودان»[1]. من المؤكد أن المالكية لم يكونوا يرتاحون لإثراء الأباضيين من التجارة، خاصة التجارة السودانية. مع ذلك، لا يبدو من الضروري تصنيف هذه الأفكار في إطار الصراعات المذهبية، إذ يظهر هذا الإنكار في مقطع مخصص للسفر بشكل عام، وسنلاحظ أن أبا زيد أضاف الحديث «السفر قطعة من العذاب». إن الأمر هنا يتعلق أكثر بمجرد نصيحة أملتها مخاطر السفر في أرض معادية أو عبر الصحراء وقربت إلى فتوى أعطيت من قبل الحسن علي القابسي[2] (935 ـ 1012ف) الذي أشرف على المدرسة المالكية القيروانية بعد وفاة أبي زيد. يعتقد القابسي أنه لا يجب الاقتراض لغرض المتاجرة مع السودان[3] نظراً للمخاطر التي تمثلها مثل هذه الأسفار. وقد ترجم Leon Bercher كلمة «القرض» هنا بـ«إسهام»[4]: «وهو يتمثل بالنسبة لصاحب رأس المال، في تسليم مبلغ نقدي لشخص آخر عليه استعماله في مشروع تجاري وتقاسم الأرباح على أساس معدل مثبت مقدماً، مع صاحب المال»[5]. إن القرض المشروع في كل البلدان المسلمة هو طريقة للالتفاف على منع الربا

(1) رسالة، ص318 ـ 319.
(2) حول هذه الشخصية، انظر هـ.ر. إدريس، موسوعة الإسلام، انظر القابسي.
(3) هـ.ر. إدريس، Zirides، ج2، ص675 ـ 676.
(4) ابن أبي زيد، ص216 ـ 217.
(5) هـ.ر. إدريس، المرجع المذكور، ص660 ـ 661. وHafsides, R. Brunsghvig، ج2، ص246 ـ 247.

المعبر عنه مرات عديدة في القرآن[1]. كانت هذه وسيلة ممتازة تمكن من المتاجرة بالقوافل على مسافات طويلة وهي عبارة عن عقد مشاركة بين مستثمر (صاحب مال) لا تتوافر لديه الوسائل للمتاجرة بنفسه مع مثل هذه المناطق (العمر، المعرفة باللغات، المسارات معروفة فقط من المدربين) ووكيل/عامل تتوفر لديه المتطلبات ولا تتوافر له رأس المال الضروري لمزاولة مشروع تجاري. ويبدو أن إنكار القيرواني والقابسي أملته قبل كل شيء القواعد المنظمة للقرض، وهي بالفعل تقرر عدم مسؤولية الوكيل في حالة الخسارة أمام المستثمر وليس مطالباً برد المبلغ، الذي عهد[2] به إليه. كانت التجارة مع السودان ـ ومع الأقاليم المعادية كما يؤكد أبو زيد ـ تمثل مخاطر حقيقية، بالإضافة إلى أن السلع السودانية كانت مرغوبة في المغرب الأقصى كما في أفريقية ومصر والمشرق. وعلى مثل هذه المسافات كانت مخاطر الغش من قبل الوكيل مؤكدة، ويمكن أن تصل لحد اختفائه. وكان الشك والاشتباه يؤديان إلى نزاعات طويلة لا تؤدي أبداً إلى تحديد الوقائع الحقيقية. ومن ثم فإن رسالة القيرواني وفتوى القابسي تمثلان نصيحة مالية ـ قانونية أكثر من كونهما معارضة مذهبية. لا تخلو هذه النصيحة من فائدة، حتى لو لم نأخذ عمليات الغش في الاعتبار، فقد كان يحدث أن يتأخر الوكلاء في بلاد السود لعدة شهور أو حتى سنة بسبب عدم قدرة التجار السودانيين[3]. بالرغم من ذلك استمرت ممارسة القرض في مساندة التجارة العابرة للصحراء وامتدت زمنياً: ففي القرن الثاني عشر في جاو كان الوجهاء يقدمون الأموال للتجار ويعهدون إليهم بسلع ويحصلون في المقابل على جزء من الأرباح[4].

(1) سورة البقرة 275 ـ 276، وسورة آل عمران 125 (ترجمة D. Masson)، وسورة النساء 160 ـ 161، وسورة الروم 39.

(2) A.L.Udovitch، موسوعة الإسلام انظر قرض.

(3) كان ملك البردوا لا يحضر أحياناً عدداً كافياً من العبيد من غاراته ليدفع ثمن الخيول التي طلبها من التجار البربر، ويبقى هؤلاء سنة يحيون على حساب الملك ينتظرون أن يكون عدد العبيد الذين يحضرون من الغارات كافياً. انظر ليون الأفريقي، ج2، ص480 ـ 481.

(4) الإدريسي، ص11/ 13.

تم الالتفاف كذلك على الكره الذي وصم التجارة مع البلدان الوثنية. ويشير الزهري ـ هنا ـ إلى أن قبيلة الأميمة من السودان الأطلسي كانت كافرة ومن ثم لم يكن أحد يذهب إليها بسبب وثنيتها، ويضيف أن الناس في غانا كانوا يغيرون عليها كل سنة[1] بالرغم من ذلك، وهو ما يفسر أن التجار المسلمين لم يكونوا يجدون مشقة في التزود بالسلع من عند هذه القبيلة. يناقض الزهري نفسه ـ في موضع آخر ـ عندما يقول: إن قوافل كثيرة كانت تسافر من السوس الأقصى نحو بلاد السودان خاصة إقليم قبيلة الأميمة ومن هناك كان يحضر الرقيق والتبر والأبنوس وجلود الماعز والدروع اللمطية وأنياب الفيلة والعاج[2].

يجب ملاحظة أن الإنكار للتجارة في العاج لم يأت بأي أثر في الواقع. أما عن الاستفادة من عدمها من الحيوانات التي لم تذبح وفقاً للطريقة الشرعية فيلاحظ ابن أبي زيد القيرواني أن من المكروه الاستفادة من أنياب الفيلة[3]. إن هذا لم يعرقل تصدير العاج سواء من أرض الأميمة أو من منعطف نهر النيجر إلى تلمسان[4] ومصر وسوريا[5] أو من أفريقية الشرقية أكبر منتج للعاج، نحو المشرق الإسلامي[6].

لم يكن تحريم الربا ـ المعبر عنه بوضوح في القرآن ـ أكثر فاعلية من الفتوى القائلة بكراهية المتاجرة مع بلاد السود واستيراد السلع السودانية الثمينة

(1) ك. الجغرافية، ص182.

(2) نفس المرجع، ص188 ـ 189.

(3) رسالة، ص296 ـ 297.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة في تاريخ غرناطة، ترجمة J.M.Cuoq، Recueil، ص325 وفي Corpus, Levtzion and Hopkins، ص307.

(5) الزهري، ص183 ـ 184. انظر بعاليه، ص423.

(6) انظر بعاليه، Role de Dunqula et de Sawakin، ص430. انظر كذلك Wilson-R.Rinder، موسوعة الإسلام انظر «عاج»، كان المسيحيون يأتون لشراء العاج من مصر الفاطمية، انظر Histoire de L'Afrique, R. Cornevin، ج1، ص238.

في منع أو حتى عرقلة التجارة العابرة للصحراء لأن الجميع كان يستفيد منها. كان السودانيون يحصلون على الملح والسلع المصنعة، ويثرى التجار المغاربة والأفريقيون بشكل هائل، وتحصل أفريقيا الشمالية ومصر على سلعتين يفتقدانهما بشكل كبير: الذهب والعبيد. كان لا بد من الالتفاف حول التحريم القرآني في أفريقيا الشمالية الصحراوية وكل العالم الإسلامي لتحاشي ركود الاقتصاد بحرمانه من ناشطيه الأكثر حماساً والذين لم يكونوا دائماً الأكثر ثراء. ولو لم يتم الالتفاف حول هذا التحريم لما تردد المسيحيون في المتوسط واليهود، الذين كانوا يحتلون مواقع استراتيجية من الناحية الاقتصادية على الطرف الشمالي للصحراء، في تقديم يد العون للمسلمين مغتنمين الفرصة لتحقيق مكاسب ضخمة. لم تكن تنعدم الوسائل لممارسة الاقتراض بفائدة مع مراعاة أحكام الشريعة. لم يكن القرض - بالمعنى الذي أشرنا إليه أعلاه(*) - إلا واحداً من حيل كثيرة، وهي «خدع، طرق مشروعة مستعملة لأغراض التحليل»(1) أصبحت ضرورية نظراً لأهمية المبالغ المستعملة في التجارة على مسافات طويلة، وكثير من هذه الحيل لا يتأتى تصوره أو استنتاجه إلا من قبل متخصصين في الشريعة.

هناك أمثلة عديدة للخروج على الشريعة في أفريقية. إن الاقتراض بفائدة والمشتريات بأجل ليست أقل هذه الأمثلة وهي تتبع تقليداً استمر من زمن الأغالبة إلى زمن الحفصيين(2). كان الصيارفة يحتلون مكاناً متميزاً في

(*) إضافة من المترجم للتوضيح. المترجم.

(1) E. Schacht، موسوعة الإسلام، انظر (حيل)، ص528 - 529. انظر كذلك Islam et Capitalisme, M. Rodinson، ص52 - 61. لم يكن عدد الربويين قليلاً في البصرة في القرن التاسع. يذكر الجاحظ حالات عديدة: هذا الربوي البخيل الذي يسير في المدينة حافياً أو منتعلاً حذاء بالياً، أو هذا الربوي الثري الذي عقد لقاءات لزملائه في بيته ليحدثهم عن مبادىء الاقتصاد، أو هذا الدائن الذي لا يتردد في قطع مسافات طويلة حافياً لاسترجاع مبلغ تافه. انظر Le Livre des Avares، ترجمة Ch. Pellat، ص149 - 150، 197 - 198، 201 - 203.

(2) هـ. ر. إدريس، Zirides، ج2، ص652 - 656.

الاقتصاد، فالقرض بفائدة الذي يثري المصرفي، أصبح الأساس في المعاملات التجارية وكانت القروض تلبس ثوب بيوع وهمية وتتمثل الحيلة في اللعب على معدلات التحويل. وبما أن الذهب والفضة كانت معتبرة نقوداً ـ سلعية، كان يكفي المودع ـ كما يوضح محمد طالبي[1] ـ أن يبيع دراهمه إلى المصرفي بأقل من السعر العادي ـ وبمعدل لا نعرفه لسوء الحظ ـ وهو ما يعني عملياً تمكين المصرفي من الحصول على فائدة على المبلغ المودع، وهكذا يتمكن المودع من الدفع لمزوده بحوالة مسحوبة على المصرفي الذي بدوره يمكن المودع من السحب على المكشوف مؤقتاً مقابل الفائدة التي حصلها على المبلغ المودع. صحيح أن الفتوى التي درسها محمد طالبي تخص تجار السوق ولكن من المحتمل أن نفس الأسلوب المفيد جداً للمصرفي كان معمولاً به للتجارة العابرة للصحراء[2] وكان يُمكِّن الأقل ثراء من الانطلاق في المشاريع التجارية التي من الطبيعي أن لا تكون بدون مخاطر.

مخاطر الأسفار:

من المرجح أن المخاطر التي كان يواجهها التجار على الطرق المؤدية إلى السودان وطرق السودان ذاته كانت موضوع مبالغة من قبل الصحراويين رغبة منهم في احتكار بعض الوظائف المربحة كمؤجري جمال وأدلاء وحراس وحماة في المناطق المعبورة، من المحتمل كذلك كوكلاء ووسطاء، ولكن كانت هناك مخاطر حقيقية لأن الطبيعة كانت قاسية والسكان معادين غالباً.

كان العطش بالمرصاد لغير الحذرين وللقوافل التي كان تنظيمها متسرعاً. وكإجراء احترازي لم تكن القوافل تعبر الصحراء إلا في الخريف أو الشتاء، كما

---

(1) Operations bancaires en Ifriqya, pp. 427-429.

(2) حوالة ـ شفتجة كانت مستعملة في التجارة على مسافات طويلة. انظر Letters, S.D. Goiotein، حسابات مصرفية 69 ـ 70، Letter 70، ص314 رقم 18.

سبق لنا قوله. بالرغم من هذا، كانت الرياح تجفف القرب لدرجة لا تحتفظ معها بالماء إلا لعدة أيام. هكذا، لعبور الصحراء جنوب سجلماسة، وهي خطيرة للغاية حسب أقوال الإدريسي[1] والشريشي[2]، كان التجار ـ من بينهم الأباضيون الليبيون لأن هؤلاء كانوا يجوبون كل الطرق الصحراوية ـ يأخذون معهم جمالاً دون حمل بعد أن يسقوها على شبع ويربطوا أفواهها ليحفظوا للماء عذوبته في بطونها[3]. في بعض الأحيان، يكون ماء الآبار آسناً ولا يشبه الماء في شيء إلا في سيولته[4]، ويصيب بالمرض الذين يشربون منه للمرة الأولى[5]. سنتذكر دور التكشيف، هذا الكشاف الذي يسبق القافلة نحو ولاتة للبحث عن نجدة بالماء[6]، ونقارن هذا الخبر لابن بطوطة مع الخبر الذي تركته لنا بعثة Denham - Clapperton -Oudney حول الجنوب الليبي: في جنوب تجرهي كانت الجمال في القوافل القادمة من بورنو عبر سجدين تنهار الواحد تلو الآخر وكان المسافرون يأملون أن يكون التبو أو العرب في مرزق قد علموا باقترابهم لينجدوهم، وإذا لم تصل النجدة في الوقت المناسب لمساعدة هذه القافلة التي كانت تعد عبيداً كثيرين، «كان يضحى بالكثير من هؤلاء المساكين لإنقاذ الآخرين»[7]. وكان ينتهي كل سيء حظ غير حذر يترك القافلة تبتعد عنه، أو يسبقها أو ينفصل[8] عنها، إذا ما هبت الريح ومسحت الآثار. من مصر نحو السودان ـ نجهل ما إذا كانت عن طريق الكفرة أو وداي ـ كانت الرحلة تستغرق

---

(1) نزهة، ص31/ 37 وفيها يقول إن جزءاً من الطريق كان يمثل مسيرة 14 يوماً دون ماء.

(2) شرح مقامات الحريري، ترجمة، في Recueil, J.M.Cuoq، ص188، في Corpus, Levtzion and Hopkins، ص152: طوال 16 يوماً لا نرى ماء إلا الماء المحمول على ظهور الجمال.

(3) ياقوت، انظر (مادة التبر) والقزويني، انظر (بلاد التبر)، ص19. وابن سعيد، بسط الأرض، ص47.

(4) القزويني، المرجع أعلاه.

(5) ياقوت، المرجع أعلاه.

(6) ابن بطوطة، ج4، ص381 ـ 382.

(7) Narratives of Travels, pp.496-497.

(8) مثلان عند ابن بطوطة، ج4، ص379 ـ 380.

ثمانين يوماً وكانت هناك نقطة مياه[1] واحدة. وهي ملاحظة مبالغ فيها ـ بكل وضوح ـ ولكنها تعطي فكرة عن القصص المرعبة التي يشيعها الصحراويون.. أو أكاذيب يوردها هؤلاء الذين يأتون من بعيد.

يمكن أن تكون الأراضي الليبية وتخومها مريعة للغاية. ونعرف ما كان يحدث جنوب تجرهي، وكم كانت شاقة وعسيرة الطرق عبر الحمادة الحمراء نحو زويلة، وعبر الرملة الكبيرة نحو الكفرة. وكان الحال كذلك بالنسبة لطريق الجنوب انطلاقاً من جبل طنطنة ـ تاسيلي[2].

كانت الرمال والريح تمثل تحدياً لردع أجرأ الجسورين ولكن دون جدوى. لقد رأينا أن أحمد بن طولون اضطر في القرن التاسع لمنع طريق الواحات نحو فزان ـ نعتقد أن المنع لم يكن ينطبق إلا على الجزء[3] الأول من الطريق ـ بسبب العواصف الرملية التي أهلكت قوافل[4] كثيرة. وقد أعيد استعمال هذا الطريق بعد ذلك، ولكنه لم يصبح أقل خطراً لأن جبالاً من الرمال كانت تغطي الحيوانات والناس عندما تهب الريح. لقد كان الحس التجاري قوياً لدرجة أن تجاراً كانوا يخاطرون على أمل أن يكونوا من بين الناجين الذين قد يتمكنون من توصيل سلعهم إلى زويلة، ويأخذون منها الأحجار الثمينة والذهب[5].

يضاف إلى خطر العواصف، مخاطر الرمال المتحركة، وكان منها على الطريق من سجلماسة إلى غانا حيث كانت الطرق متقلبة، وخادعة[6]. وفي

(1) حدود العالم، ص165.
(2) الإدريسي، ص36/ 42.
(3) انظر بعاليه، ص571.
(4) ابن حوقل، ص153/ 151.
(5) Benjamin de Tudele, in Levtzion and Hopkins, Corpus, pp 135-136, supra, pp 479 561.
(6) ابن سعيد، بسط الأرض، ص47.

الجريد ونفزاوة حيث الأرض رخوة لدرجة يمكن معها لمجموعة من المسافرين أو حتى لجيش بكامله أن يغوص ويختفي إلى الأبد دون أن يترك أثراً، وقد ثُبتت في المنطقة عوارض لتوضيح المسلك القابل للاستعمال[1]، وفي كوار وفي جنوب ليبيا وفي وداي[2]، بين بلاد التاجوين والواحات، حيث لا يمكن لأحد أن يستقر وحيث تخرب هذه الرمال آخر بقايا الزراعات[3]. لا شيء من كل ما سبق يردع التجار. وهكذا في النصف الثاني من القرن العاشر، لم يتراجع أباضي من مواليد الحامة في الجريد بالرغم من كل التحذيرات والمخاطر التي وصفت له والأمثلة المأساوية التي سردت عليه، وسافر إلى السودان وذهب إلى غيارو، بلاد الذهب حيث استقر وعاش حتى وفاته[4].

كان يُسافر حتى على حصان من جبل نفوسة إلى تادمكة، كما توضحه حكاية هذا الشيخ النفوسي الذي كان يحتفظ، بالرغم من ثرائه، بحصان هرم كان قد سافر به إلى مكة للحج كما سافر به إلى تادمكة[5]. كان الداخلون الجدد عبر الصحراء يعانون كثيراً للأسف. وقد أورد لنا الوسياني (من القرن الثاني عشر) واقعة من منتصف القرن الحادي عشر حدثت على الطريق من السودان إلى ورقلة[6] غالباً، وهي تتعلق بتاجر ملم بالحقائق الصحراوية سافر في أحد الأيام نحو الجنوب مع حضري أصر على مرافقته، وفي السودان اشترى التاجر ذهباً وشرع الحضري في تجارة العبيد. وقد وصفت طريق العودة بأسلوب بارع التصوير: ضعف العبيد وكان كثيرون منهم يشتكون من الجوع، ومرض بعضهم، كما حاول آخرون الهرب، وغيرهم كانوا يبتعدون عن القافلة لقضاء

(1) البكري، ص48/ 102. والاستبصار، ص158 _ 159.

(2) ابن سعيد، المرجع المذكور، ص48.

(3) الإدريسي، ص42 _ 43 _ 50.

(4) سير المشايخ، Extrait، في Quelques extraits inedits, T. Lewicki، ص19 _ 20، وملاحظات، ص24 _ 25.

(5) نفس المرجع، Extrait 2، ص19.

(6) في T. Lewicki، المرجع المذكور Extrait 3، ص11، ملاحظات، ص16 _ 17.

الحاجة البشرية، بينما كان التاجر المجرب رابط الجأش ينظر إلى الحضري الجاهل بالمسائل الصحراوية يكد منهكاً.

لم يكن ليتأتى وصف كل عمليات عبور الصحراء بمثل هذا الأسلوب الممتع لأن السكان المعادين وقطاع الطرق كانوا يمثلون العدو الأكثر شراسة للمسافر الذي كان يتخذ كل الاحتياطات لحماية نفسه من المخاطر الطبيعية. كانت هجمات العصابات أحد أسباب هجر الطريق غانا ـ مصر في القرن التاسع[1]. كما منع الطريق شبه المباشر عبر فزان لأسباب أخرى، وكان المسلك عبر سجلماسة ـ وربما عبر ورقلة ـ هو الذي يسلكه التجار المصريون. وهناك أيضاً كانت المخاطر كبيرة. وعلى الطريق من سجلماسة إلى أوذغست كان اللمطيون والجزوليون ينصبون الكمائن ويهاجمون القوافل في نقاط المرور التي لا يمكن تحاشيها. وكان السود، بدورهم، في نواحي أودغست يهاجمون القوافل[2] ويسلبونها. مع ذلك، كان ملك سجلماسة يرد بحزم. نقل فقيه إلى السرخسي أنه رأى يوماً سيد سجلماسة، أبو الربيع سليمان بن عبد الله وأمامه بسط من جلد مغطاة برؤوس قطاع الطرق[3].

من المحتمل أن التجار الليبيين كانون يمرون بإقليم الأزقار أو عبر ورقلة أو كذلك عبر سجلماسة للوصول إلى مصادر الذهب في غانا، ولم يكن الذين يعبرون منهم شمال فزان بمنأى عن هذه المخاطر. في القرن التاسع، كان عليهم عبور مناطق تتقاتل فيها قبيلة مزاتة والفزان بشكل مستمر[4]. بعد ذلك، بعدما أطلق بنو غانية وقراقوش روح النهب والسلب عند الهلاليين والسليميين،

(1) ابن حوقل، ص61/ 58.

(2) البكري ص 157/ 298 ـ 299.

(3) ترجمة في Recueil J.M. cuoq، ص179، وملاحظات. كتب السرخسي حوالى 1203ف. ورحلته مفقودة وتوجد منها بعض المقاطع في أعمال المقري (القرن السابع عشر). سيد كان هو اللقب الذي يطلق على الأسرة الحاكمة عند الموحدين.

(4) اليعقوبي، بلدان، ص346/ 206.

حتى كوار لم تعد آمنة لأنها أصبحت مسرحاً لصراعات بين الكواريين وبربر الصحراء والعرب القادمين من فزان[1] من أجل ملكية بحيرتين. وبالإضافة إلى المخاطر الطبيعية شهدت طريق الكفرة معارك تواجه فيها العرب والكواريون البدو[2]. وفي القرن الرابع عشر، كان لا بد من توافر حراسة للقوافل التي تتبع الساحل الأفريقي لردع الاعتداءات من العرب الرحل[3]، وعلى هذا المسار كانت قوافل الحجاج تنهب أو يقضى[4] عليها تماماً. وعندما أُبعد العرب إلى الغرب، كان غالباً ما يحدث على هذا الطريق أن تعترض بعض القبائل القوافل وتهاجم القصبات الصحراوية[5].

كان الهقار في الصحراء الجنوبية يمنعون القوافل من المرور ويصرون على دفع أتاوة[6]، ومن تكدة ـ حيث تتكاثر العقارب ـ إلى كوكو كان لا بد من الحصول على حماية البردامة[7]، وكانت حماية النساء من هذه القبيلة أكثر فعالية من حماية رجالها[8]. وعلى الطريق من مالي إلى توات، بينما كان مانسا موسى في طريقه إلى الحج، وصل إلى بئر. كان مرافقوه يعانون من عطش شديد وأنزلوا الدلو في البئر، وبمجرد وصولها إلى القاع قطع الحبل وتكرر هذا ثلاث مرات. تسلح عضو من المجموعة يسمى سليمان ونزل في البئر، ووجد في البئر لصاً أراد منع المسافرين من الماء ليموتوا عطشاً ويستولي على ما معهم، وهو ما كان يمكن من الحصول على ثروة ضخمة، عند التفكير في كمية الذهب

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص48.
(2) الإدريسي، ص41/ 48.
(3) ابن بطوطة، ج1، ص25 ـ 26.
(4) العبدري، ص141، 145.
(5) يتعلق الأمر باولاد سليمان، انظر ابن خلدون البربر ج1، ص129. بقيت فروع أخرى من قبيلة معقل هادئة وكوفئوا لمسلكهم المسالم، نفس المرجع ص117.
(6) ابن بطوطة، ج4، ص446.
(7) نفس المرجع، ص439 في صحراء أودغست يقوم جبل لا يستطيع المسافرون التوقف عند جوانبه بسبب كثرة الأفاعي فيها انظر ابن سعيد المرجع المذكور، ص48.
(8) ابن بطوطة، ج4، ص437.

التي كانت مع مانسا موسى. وقتل سليمان اللص في البئر وسحبت جثته[1] خارج البئر.

كان الملوك السودانيون يمارسون سلطة قوية على أقاليمهم خاصة ملك مالي الذي كان يقبض على الأمور بيد من حديد[2] ولا يتردد في قطع رؤوس اللصوص، لا يقبل شفاعة ولا يمنح قط عفواً[3]، ولم يكن الجلاد يفارق المانسا[4] أبداً.

لم يكن وصول التجار إلى السودان يعني نهاية متاعبهم. لقد كانت بعض الأقاليم التي كان على التجار الليبيين زيارتها أو عبورها خارج سيطرة هؤلاء الحكام الأقوياء أو كانوا يغفلون عنها. كما لم تكن تمر تغييرات الأسر الحاكمة والثورات دون مخاطر على التجار. في سنة 9 ـ 1198ف بعث أبو الربيع سليمان سيد سجلماسة ـ وهو نفسه الذي كان يقطع رؤوس قطاع الطرق ـ برسالة[5] إلى «ملك السودان في غانا» يشتكي من السجن في غانا لتجار بسطاء والمنع الذي أخطروا به لممارسة أعمالهم، جاء في الرسالة خاصة: «إن حرية الحركة للوكلاء التجاريين في بلدكم لا يمكن أن تعود إلا بالفائدة على سكانه». تثير اهتمامنا ـ بشكل خاص ـ بداية الرسالة فهو قبل أن يؤكد أن العدالة واجبة على الملوك، وأن الطغيان لا يمارسه إلا الأشرار، كتب أبو الربيع سليمان ما معناه: «في إمكاننا أن نقيم علاقات حسن جوار حتى وإن اختلفت معتقداتنا». ويبدو لنا، نظراً لإثارة معتقدات مختلفة، أن التجار المعنيين كانوا ضحايا

(1) محمود كعتي، تاريخ الفتاش، ص36/ 62 ـ 63. إن أقل ما يقال في نهاية القصة أنها محيرة. «سحبوا جسمه على الأرض وألقوه ميتاً في البئر وهو ما يعني من جانب المجموعة المحيطة بالملك منع مسافرين آخرين من الشرب عند هذه النقطة.

(2) محمود كعتي المرجع المذكور ص38/ 65.

(3) العمري، ص61.

(4) نفس المرجع، ص65.

(5) السرخسي، ترجمة فرنسية، في Recueil, J.M. Cuoq، ص178 ـ 179 وترجمة إنجليزية، في Ancient Ghana, Levtzion، ص436.

تغيرات سياسية حدثت في السودان. لقد احتلت غانا، التي كانت مسلمة في القرن الحادي عشر، من قبل جيرانها الكفرة في الجنوب، السوسو الذين من المرجح أنهم كانوا يريدون أن يكون لهم مدخل مباشر على طريق الملح دون أن يلزموا بدفع ضرائب باهظة من الذهب لملك غانا، ولهذا السبب أسسوا ولاتة سنة 1224ف[1]. ويلاحظ Nehemia Levtzion، بخصوص هذه الرسالة، وجوب تأخير تاريخ احتلال غانا من قبل السوس بخمس سنوات، وقد حدثت هذه الواقعة سنة 9 ـ 1198ف أو قبلها[2] بقليل، وليس سنة 1203ف كما هو مسلم به عادة[3].

كان على التجار عبور مناطق مضطربة. ونعرف من أحاديث أجراها المانسا موسى سنة 1324ف مع حاكم القاهرة أبو الحسن علي في عهد السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون، وهو حديث رواه أبو الحسن للعمري، أن ملك مالي كان في هدنة دائمة مع الوثنيين سكان المناطق التي «يزرع» فيها الذهب وبالمقابل يدفع له هؤلاء أتاوة[4]. وقد حدَّث المانسا موسى أحد الفقهاء بأنه كان يجاهد باستمرار ضد الوثنيين المجاورين لبلاده، وهم أقوام «لا يسمح الوقت بحصرهم»[5]. هذا بالنسبة للطريق المؤدي إلى الذهب. لم تكن الطريق التي تقود إلى «مستودعات» الرقيق خالية من المخاطر كذلك. ففي سنة 2 ـ 1391ف، سارع ملك بورنو، أبو عمر عثمان، بإرسال رسالة إلى السلطان المملوكي برقوق كان يشتكي فيها من سلوك عرب جذام[6]. وقد جاء في

---

(1) Haut Senegal, Delafosse، ج2، ص170، 162. وTableau Geographique, R. Mauny، ص72، 93، 439، 506، 511. حسب ابن خلدون، البربر، ج2، ص110، ضعفت سيطرة المرابطين في غانا لدرجة نالت من سلطة ملكها ورأى فيها السوسو الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة. وفي سنة 1235ف، سقط السوسو بدورهم ضحايا توسع مالي.

(2) Ancient Ghana, pp. 436-437.

(3) M. Delaffosse, op, cit II p.165; R. Mauny, op. cit, p.72.

(4) L'Afrique moins L'Egyrte, pp. 70-71.

(5) نفس المرجع، ص80 ـ 81.

(6) هذا لا يتعلق في شيء بالحضور الهلالي والسليمي في الشمال. الجذاميون من كهلان =

الرسالة أن الجذاميين يخالفون صحيح الإيمان ويقومون بخطف مواطنين بورنيين مسلمين من النساء والأطفال وحتى أقارب الملك، وأنهم لم يكونوا يترددون في محاربة المسلمين وقتل أعداد كبيرة منهم. كان الجذاميون يأسرون مسلمين ويبيعونهم لتجار الرقيق في مصر وليبيا ويحتفظون ببعضهم في خدمتهم، بالإضافة إلى قيامهم بتخريب الأرض البورنية ويأتون أعمال كفرة شريرة. وفي هذه الرسالة الطويلة كان ملك بورنو يتوسل إلى السلطان المملوكي لمعاقبة العرب المخربين، وأن يتخذ الإجراءات بحيث لا يعامل رعايا ملك بورنو كسلع في الأراضي المصرية[1]. هكذا، نفهم لماذا لم تكن القوافل تعبر الصحراء دون حراسة عسكرية.

سُجل أكل لحم البشر من قبل الرحالة والمؤلفين المسلمين الذين لم يدركوا طابعه الشعائري غالباً. كان الدهدم/ الدمدم/ اللملم/ النمنم يروعون المسافرين بممارساتهم ولكن لا يبدو أنها كانت تثبط هممهم كما يمكن أن نتصور، وقد نفهم من قراءة النصوص أن أكل لحوم البشر عمل لا يقوم به إلا السود. ونجد ملاحظة لابن بطوطة بهذا الخصوص، فقد أراد مانساموسى في أحد الأيام معاقبة قاض ونفاه إلى بلاد الكفار أكلة لحوم البشر، ثم استدعاه بعد أربع سنوات ولم يأكله السود نظراً لأنه أبيض لأن «لحم البيض ضار لأنه لا ينضج بالطبخ» بعكس لحم السود[2].

في القرن العاشر، اعتبر المسعودي الدمدم في عداد الأجناس المعروفة.

= وينتسبون لأصل يمني ويقولون إنهم من قحطان جد قبائل جنوب الجزيرة العربية. شاركوا في فتح أفريقيا الشمالية، انظر كحالة/ معجم وC.E.Bosworth، موسوعة الإسلام، انظر (جذام). في القرن التاسع كانوا من بين قبائل برقة، انظر اليعقوبي، بلدان، ص343/ 202. بعض من جذام انتقل إلى مصر العليا في زمن المعتصم (833ف ـ 842ف) ثم توجهوا نحو دارفور وكردفان ووداي. نجد بعض أسماء بطونهم عند الكبابيش وبقارة وداي وتشاد، انظر ي.ف. حسن. The Arabs and the Sudan، ص37، 163 ـ 164، 170. انظر كذلك Cuoq J.M., Recueil، ص337، رقم 1.

(1) القلقشندي، ج8، ص115 ـ 119.

(2) رحلة، ج4، ص428.

كان هؤلاء، والذين كان ملكهم مطاعاً من ملوك آخرين، إلى الغرب من كركر (كوكو/جاو؟) على طول النهر[1]. بعد ذلك بقرن، يبدو أن البكري ناقض الملاحظة التي أوردناها أعلاه إذ يؤكد أن الدمدم ـ الموجودين غرب كوكو ـ يأكلون كل من يقع في أيديهم[2]، ويبدو أن «من» تعني كل شخص غريب دون تمييز للعمر أو النوع أو الجنس. ويورد كتاب الاستبصار، الذي يأخذ عن البكري، أن الدمدم يأكلون كل البيض الذي يصلون عندهم[3]. هل تتغير أذواق آكلي لحوم البشر خلال قرون؟ مهما يكن من أمر، لم يكن التجار العالمون بكتاب البكري وخليفته ليسلكوا الطريق إلى السودان دون تخوف.

لا بد وأن آكلي لحوم البشر كانوا، بدورهم، يخشون جيرانهم. فقد كان سكان التكرور وغانا يقومون غالباً بغارات في منطقة اللملم ويسترقونهم ويبيعونهم للتجار الذين ينقلونهم إلى نواحي[4] أخرى. وكان سكان غيارو، بلاد الذهب يقطعون ليلاً على ظهور الجمال الثلاث عشرة مرحلة التي تفصلهم عن اللملم ويهاجمونهم ويأخذونهم أسرى إلى تجار غانا[5]. وكان سكان التكرور[6]، في القرن الثالث عشر، لا يزالون يهاجمون اللملم أكلة لحوم البشر.

كما كان في كانم، كذلك، حول بحيرة تشاد قبائل من الكفار من التي تأكل الإنسان. وكان الجابيون يسنون أسنانهم عندما يموت لهم ميت ويعطونه لجيرانهم الذين يأكلونه، ويقوم الجيران بنفس العمل[7].

(1) أخبار الزمان، في يوسف كمال، Monumenta، ج3، ترجمة فرنسية في Recueil, J.M.Couq، ص61 ـ ترجمة إنجليزية في Corpus, Levtzicn and Hopkinst، ص36.

(2) المسالك، ص183/ 342.

(3) ص225.

(4) الإدريسي، ص4/ 4.

(5) نفس المرجع ص9/ 11 منقولاً باختصار من الحراني (القرن الرابع عشر)، ترجمة في Recueil, J.M. Cuoq، ص249.

(6) ابن سعيد، بسط الأرض، ص24.

(7) نفس المرجع، ص27.

يشار عند ابن بطوطة إلى ممارسة احتفالية. استقبل عاهل مالي في أحد الأيام مجموعة من أكلة لحوم البشر يقودهم رئيسهم. ولتكريمهم قدم لهم الملك جارية تعبيراً عن كرم الضيافة، فذبحوها والتهموها. وقاموا بتلطيخ وجوههم وأيديهم من دمها وحضروا أمام الملك لشكره. ويتكرر نفس الشيء عند كل زيارة من زياراتهم. ويبدو أن ألذ القطع في النساء هي الأيدي والثداء. .[1].

ما يقارب المرعب المضحك في بعض الأحيان. أن تاجراً كبيراً أهدى كمية من الملح لملك أسود. ومن أجل مكافأة التاجر أرسل له الملك فتاتين في غاية الحسن. بعد ذلك لفت الملك نظر التاجر إلى أنه أهداه الفتاتين من أجل ذبحهما وأكلهما «ولأن لحمهما من ألذ ما يمكن أن يؤكل عندنا» ورد التاجر مندهشاً أن مثل هذه الممارسة غير مسموح بها في بلاده، فتساءل الملك: «ما الذي تأكلونه إذن؟»[2].

كان تجار شمال أفريقيا يواجهون في السودان ظروفاً صحية لم يتعودوا عليها.

كان سكان أودغست ذوي بشرة مائلة إلى الصفرة، وكانوا جميعهم تقريباً يعانون من الحمى ومن التهاب الطحال[3]. كان إقليم غانا غير صحي. كان المرض يظهر فيه عندما تظهر سنابل الحبوب، وقليل هم الأجانب الذين ينجون من الموت الذي ينتشر في موسم الحصاد[4]، أي عند اقتراب الشتاء. عليه فإن حرارة الصحراء القاسية ليست السبب الوحيد الذي يدفع التجار لعدم عبور الصحراء في الصيف، فالسفر في الشتاء يمكنهم من بلوغ الهدف بعد مضي فترة الحضانة. وفي كانم وبلاد التاجوين يتكاثر البعوض ويلحق الأذى بالناس

---

(1) رحلة، ج4، ص429.
(2) العمري، ص83.
(3) البكري، ص158/ 300.
(4) نفس المرجع، ص177/ 331.

والخيول إلى حد الاضطرار لترك[1] المدن الواقعة على ضفاف المياه[2].

كان الزغاوة يعانون من الجرب الذي لا يفارق أعناقهم، وبهذا أصبحوا يعرفون، كما أن الجذام منتشر بينهم إذا لم يتقوه بأكل الأفاعي[3].

كان على المسافر كذلك أن يتقي علة النوم «وهو مرض شائع في هذه البلدان، وهو يبدأ بنوبات دورية، ويؤدي بالمريض إلى حالة يصعب معها الحفاظ عليه يقظاً لحظة، عندها يأخذ شكلاً متصلاً ويؤدي بضحيته إلى الوفاة». بعد حياة من الفسق والطيش عانى ملك مالي، جاتا حفيد مانسا موسى طوال عامين من مرض النوم ثم توفى منه سنة 775هـ (4 ـ 1373)ف[4]. لم تكن أمراض العيون نادرة خاصة الرمد الذي كان الزغاوة يعالجونه بتربة حلوة يأخذونها من الجبال القريبة من موطنهم[5]. وكانت أدويتهم لمعالجة العيون موضوع إرساليات خاصة عبر الصحراء[6].

كان المراسلون في الصحراء للتجار المغاربة يعيشون أحياناً في ظروف صحية شاقة. في تغازة كانت رياح السيروكو تضر صيفاً بالعيون وقد أدت بالكثير[7] إلى العمى. إننا لم نطلب معلومات حول الحميات الصحراوية ولكننا نقدر أنها كانت في القرون الوسطى كما كانت في القرن الماضي. وكانت ناحية درج غير صحية للغاية وأمراض الحمى فيها عنيفة[8]. وكانت غدامس حيث

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص80 الذي يستشهد بابن فاطمة (كتاب مفقود من القرن الحادي عشر).

(2) الإدريسي، ص12، 34/ 15، 40.

(3) نفس المرجع، ص34/ 40. في أماكن أخرى الحية مقدرة ولكن لفوائدها العلاجية: هذا هو الحال عند جدالة (جنوب غرب الصحراء) الذين يفضلونها على الدجاجة، انظر ابن سعيد، المرجع المذكور، ص46.

(4) ابن خلدون، العبر، ج6، ص418/ البربر، ج2، ص115.

(5) الإدريسي، ص40/ 47.

(6) الوسياني، في Quelques Extraits inedits, T. Lewicki، ص10.

(7) ليون الأفريقي، ج2، ص456.

(8) H. Duveyrier, Journal de Route, p.169.

المناخ صحي تعد أشخاصاً عديدين أصيبوا بالحمى في درج أو ورقلة أو فزان[1]. وفي مرزق، تحت حكم أولاد محمد كان الجو غير صحي لدرجة أنه لم يكن يسمح للتجار البيض بالبقاء فيها إلا خلال شهور الشتاء الثلاثة، وبمجرد بداية الحر كان البيض، وهم مرضى بشكل مستمر وينقلون عدوى أمراضهم إلى السكان، يُخطرون بواسطة نذير أن عليهم المغادرة، وإذا ما رفضوا كانوا يُطردون[2].

إن المبالغات المتعلقة بالأماكن، والناس والحيوانات التي تقابل في الصحراء والسودان كثيرة. بعضها ليس بهدف ترويع المسافرين. هكذا يؤكد أبو حامد وجود قوم لا رؤوس لهم في السودان، عيونهم في أكتافهم وأفواههم في صدورهم، وحتى في صحاري المغرب كان يقال بوجود قوم كلهم من النساء، عندما تستحم هذه النساء في مياه ناحيتهن يحملن ولا يلدن أبداً ذكوراً[3]. ادعاءات أخرى، قد يقصد منها ردع الزوار: ما كان يمكن قط رؤية زنجي غرب النيل دون فقدان البصر على الفور[4].

كان ذهاب الخيال أبعد ما يمكن حول ما يتعلق بالحيوانات السودانية ـ الصحراوية بشكل خاص ـ سواء تعلق الأمر بحيوانات خرافية أو حقيقية جزئياً. لم يكن في مقدور أحد أن يقترب من قمة جبل لونيه لأن هناك كهفاً يعيش فيه ثعبان ضخم يلتهم غير الحذرين أو الجاهلين[5]. وغير بعيد من الواحات، في جبل علساني[6] يعيش ثعبان له شكل حية[7] بلغ من الضخامة حداً لا يمكن معه

---

(1) نفس المرجع، ص192.

(2) H. Duveyrier, Les Touareg du Nord, pp.280-282.

(3) تحفة، ص46 ـ 48/ 251 ـ 252.

(4) الزهري، ص185. صحيح أن الزنج يفقدون البصر كذلك عند لقائهم بأجنبي.

(5) الإدريسي، ص34/ 40 ـ 41.

(6) موضحة على خريطة الإدريسي شرق ش. برو ـ تترو/ الكفرة وفي غرب الواحات، ولا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بهضبة الجلف الكبير.

(7) حول الأسماء التي تطلق على الحية، انظر J. Ruska، موسوعة الإسلام، انظر (حية). و III, Geographie, A. Miquel، ص343.

تمييزه من تل، وهو يعيش في الرمال والكهوف ويتحرك زاحفاً ببطء ويلتهم كل من يجرؤ على الاقتراب منه، وإذا غادر هذا الثعبان موطنه مات[1].

حتى بغض النظر عن الكائنة المتوحشة الموجودة في كانم التي تشبه الأغوال والخطيرة على الرجال[2]، تبقى محاولة الوصول إلى الذهب السوداني مشروعاً لا يقدم عليه إلا الأكثر شجاعة. يقوم وسط بحيرة كوار جبل من الذهب، ولا أحد يستطيع الاقتراب منه ـ لسوء الحظ ـ بسبب الثعابين والحيوانات المتوحشة التي تعيش فيه بالإضافة إلى وجود التماسيح[3] على ضفاف البحيرة. وأي مصير ينتظر غير الحذر الذي يسقط في النيل! سيكون ضحية الأسماك السامة أو التماسيح التي تسحبه في النهر، وسيلاحظ أن التماسيح خطرة خاصة على الشاطئ الأيسر للنيل، إذ إن الشاطئ الأيمن محمي بطلسم[4]. «هذه أمثلة مما كان يتم تداوله من حكايات»[*].

كان لا بد من الحذر من الفهود في غانا[5]، وحتى من السلاحف على طريق غانا غيارو. كما أن الأَرَضَة في السودان كانت تتكاثر لدرجة يضطر معها السكان لإقامة مقارهم في الأشجار التي يحفظون فيها ملابسهم وأغذيتهم[6]، وقد تمت إقامة بيوت حقيقية على هذه الأشجار الضخمة، وكان منزل الملك يقع في القمة[7]. والأرضة خطيرة للغاية لأنها تخرب كل ما يصادفها، ومن ثم

(1) الإدريسي، ص43/ 50 ـ 51.

(2) العمري، ص44.

(3) ابن سعيد، المرجع المذكور، ص28 ـ 29.

(4) الإدريسي، ص17 ـ 18، 46/ 21 ـ 22، 53.

(*) إضافة من المترجم للتوضيح، المترجم.

(5) القزويني، انظر (غانا)، ص57.

(6) نفس المرجع، انظر (بلاد السودان) ص24. حسب الفقيه الرحالة علي الجنحاني. انظر Zwei wenig bekannte Muslimische Reisende, M. Vowalska، ص239 ـ 240.

(7) شرف الزمان طاهر المروزي، طبائع الحيوان (حوالى 1120ف)، ترجمة فرنسية في Recueil, J.M. Cuoq، ص111، وترجمة إنجليزية في corpus, Levtzion and Hopkins، ص92.

كان المسافرون يحتاطون في الليل بوضع أمتعتهم فوق أحجار ضخمة. هذا ما فعله أحدهم، وعندما ظهر الصباح لم يعد هناك حجر ولا متاع. لقد وضع متاعه فوق سلحفاة، وقد عثر عليها على بعد عدة أميال، والحمل ما يزال على ظهرها[1].

كان يجب الحذر من النمل في بلاد الزغاوة، كانت النملة في حجم عصفور الدوري[2]. وقد قارن الإدريسي حجم العقارب السوداء في أعالي النيل بحجم هذه العصافير أيضاً: ولون هذه العقارب أسود ولدغتها قاضية في لحظتها[3].

كان اهتمام المؤلفين منصباً ـ بشكل خاص ـ على الثعابين، ولقد أطلقوا العنان، في هذا الخصوص، لتخيلاتهم. ينقص الحس النقدي ـ أحياناً ـ عند الجغرافيين، ولكن يجب ألا ننسى أنهم كانوا يكتبون حسب تقارير الرحالة، وهؤلاء كثيراً ما يقعون تحت تأثير السكان المحليين الذين كانوا يرغبون في المحافظة على احتكار بعض المنتجات وسيطرتهم على مناطق إنتاجها.

لاحظ ابن سعيد، كما سبق لنا رؤيته، أن الثعابين كانت تحمي مجاورات جبل الذهب. وكان السكان في منطقة أعالي النيل يدعون بوجود حيات كبيرة تقتل[4] بمجرد النظر. وأبعد إلى الشمال، في منطقة الواحات المصرية كانت الحيات تختفي في الرمال وعند مرور قافلة جمال، تقفز الحيات في المحامل وتعض من فيها: وتموت الضحية في لحظتها[5].

كان في الإمكان اتقاء هذه الحيوانات. فقد كان ينمو في بلاد الكوكو نوع من الخشب عندما يوضع فوق الجحر الذي اختفت فيه الحية، يجعلها تخرج،

---

(1) البكري، ص180 ـ 181/ 337 ـ 338.

(2) الإدريسي، ص35/ 41.

(3) نفس المرجع، ص16/ 19.

(4) نفس المرجع.

(5) نفس المرجع، ص44/ 51.

ويستطيع الشخص الماسك بالخشب أخذ أي عدد من الحيات باليد دون أن يتعرض لخطر لدغها. ويروى في المغرب الأقصى وورقلة أن الحيات لا تقترب من شخص يمسك بيده هذا الخشب أو يعلق قطعة منه في رقبته، أكثر من ذلك، يزيد القبض على الخشب والحية في نفس الوقت من قوة الكائن البشري[1] بعشرة أمثالها.

توجد في صحراء نيسر، وهي الخلاء الذي يعبر في أربعة عشر يوماً على الطريق المؤدية من سجلماسة إلى أودغست، حيات طويلة وغليظة يقوم السود باصطيادها، وقتلها ثم يقطعون الرأس ويأكلون الجسم محضراً بالماء والملح والشيح، وهي أكلة لذيذة[2] بالنسبة لهم.

في منطقة النيجر، كان يعيش الزافون[3] . وهم من السود الذين كانوا يعبدون حية تشبه ثعباناً ضخماً لها شعر غزير ورأس وذيل جمل (بختي)[4]، وهي تعيش في الصحراء في كهف استقر بالقرب منه قوم كرسوا أنفسهم لعبادتها ويقدمون لها القرابين. وإذا توفى أمير الزافقو ـ الزافون، فإنهم يأخذون المرشحين لخلافته بالقرب من الكهف، ويصفرون لإخراج الحيوان وينطقون بعبارات سحرية. تخرج الحية، وتشم المرشحين وتختار أحدهم بضربه بأنفها. وأثناء دخول الحية إلى الكهف، ينزع الخليفة المختار شعرات من رقبتها وذيلها: ويحدد عدد هذه الشعرات عدد سنوات حكمه[5].

كان سكان كوكو يتغذون بالأفاعي، وكل أنواع الحيات كما لو كانوا يأكلون سمكاً. وهم لا يخشون السم، ولا الأفاعي السامة والثعابين. كانت

---

(1) نفس المرجع، ص11 ـ 12/ 13 ـ 14 والقلقشندي، ص285.
(2) الإدريسي، ص31/ 37 ـ 38.
(3) البكري، ص173: زافقو. والاستبصار، ص218: زافون. يخصص ياقوت مقالاً عن قبيلة تسمى زافون، قاطنة منطقة مجاورة لبلدان المغرب ولنواحي يسكن فيها الملثمون، وملكهم قوي ويسكن عاصمة تسمى كذلك زافون.
(4) البخت يفيد البكتريان، البختي جمل البكتريان ولكنه في أفريقيا يعني الجمل بشكل عام.
(5) البكري، ص173 ـ 174/ 326 منقولاً من قبل الاستبصار، ص218 ـ 219.

الحية الوحيدة التي يخافونها هي الحية الصفراء، وبسم هذه الحية كانوا يسممون سهامهم المصنوعة من الأبنوس، وهي بصلابة الحديد[1].

بالرغم مما سبق، لم تكن المخاطر الحقيقية أو الخيالية التي جعلت المناطق الصحراوية والسودانية شديدة الخطر لتمنع التجار الليبيين وغيرهم من جوب هذه البلدان في كل الاتجاهات وتزويد عالم المتوسط والشرق بالمنتجات الحيوية لاقتصاده.

المنتجات المصدرة:

منتجات التربة والرعي:

كانت برقة هي المتخصصة في بيع هذه المنتجات[2] كما رأينا من قبل، كانت تصدر ـ عن طريق موانئها ـ تمور أوجلة والفلفل والعسل والشمع والزيت[3] والفواكه من الجبل الأخضر (لوز وليمون وسفرجل وثمرة العرعر)[4] وحتى النبيذ[5].

---

(1) تحفة، ص43/ 247 ـ 248. في نفس المقطع يجعلنا أبو حامد نتذكر الأعمال المضحكة التي تتم في هذه المناطق اليوم من أجل السواح. ينفخ الزافون في الثقوب المحفورة في ألواح صغيرة، ويُخرج صوت عجيب الحيات والأفاعي والثعابين. بعضهم يحزم وسطه بالحيات ويستعملها كحزام. ويستعمل آخرون الثعابين الكبيرة كعمائم. وتقدم هدايا لهؤلاء الناس من أجل أن يغادروا، وإذا لم تقدم لهم هدايا يقومون بإلقاء الحيات في الحوانيت. ولا يكتفي المؤلفون فقط بما يرويه المسافرون ولكنهم يعبرون عن دهشتهم من هذه التصرفات الغريبة. وفي مقطع ممتع يذكر البكري، ص178/ 334 دون تعليق عري سكان شامة، إحدى ولايات غانا. وكان العري الكامل للنساء في مالي ـ حتى خلال شهر رمضان ـ هو ما ينتقده ابن بطوطة، ج4، ص 423 ـ 424، وقد استنكر نفس المؤلف، ج4، ص388 ـ 390 عدم حياء نساء مسوفة، وتساهل الأزواج والاختلاط، وهو قاعدة في هذه البلاد، ويستنكر المغيلي ـ القرن الخامس عشر، وهو أصيل تلمسان، ترجمة Ms في Recueil, J.M. Cuoq، ص427 ـ عري النساء السودانيات، وعدم تنقب النساء أمام أصدقاء أزواجهن، والاختلاط في الشوارع والأسواق.

(2) انظر بعاليه، ص383 ـ 384، 389 ـ 390، 393 ـ 396.

(3) ابن حوقل، ص66 ـ 67/ 62 ـ 63.

(4) البكري، ص5/ 14 ـ 15.

(5) المهلبي في أبي الفدا، تقويم، ص127.

كانت برقة تصدر كذلك القطران وهو منتج ثمين يستعمل لأغراض علاجية[1]، ومثلت الصنوبريات التي كان يستخرج منها، جذباً لأحمد بن طولون الذي كان في أمس الحاجة للخشب لبناء أسطوله[2] ومن بين المنتجات المرغوبة يجب أن نذكر كذلك هذه التربة الطبية التي تحضر بالزيت وتعالج بفاعلية الجرب والحكة ومرض الحية[3].

أقامت برقة المصدرة لمنتجات خام، صناعات. كانت تصدر أصوافها[4] وقطناً ذا جودة عالية يحمل اسمها[5]، كما كانت لها صناعة ملابس، فقد كانت تصدر الملابس[6]، وكانت، كذلك، ترسل الجلود إلى مصر لتدبغ فيها[7] ولها مدابغها حيث كانت تجهز جلود الأبقار والفهود من أوجلة[8]. ليس من المستغرب أن التجار كانوا يتوافدون على برقة، قادمين من الشرق والغرب، وأن إيرادات برقة كانت تفوق إيرادات طرابلس[9]، إذا ما تذكرنا أن برقة كانت تبعث إلى مصر بحيوانات اللحم المرباة في مراعي المنطقة[10] ـ خاصة الضأن التي كانت كبيرة الحجم وسمينة[11] ـ، وأن أغلب العبيد السود كانوا يمرون عبر زويلة والساحل الشرقي للمغرب[12]، وأن المنطقة كانت تجمع بين التجارة البرية والبحرية[13]، ولا يستغرب أن

(1) انظر بعاليه، ص385، رقم 2.
(2) انظر بعاليه، ص386، رقم7.
(3) الإدريسي، ص131/ 156. انظر بعاليه، ص388.
(4) ابن حوقل، ص67/ 63.
(5) الإدريسي، المرجع أعلاه.
(6) المقدسي. ص239 ـ نشر Ch. Pellat، ص48 ـ 49.
(7) ابن حوقل، المرجع أعلاه.
(8) الإدريسي، المرجع أعلاه، انظر أعلاه، ص302.
(9) ابن حوقل، ص66 ـ 67، 69/ 63، 65.
(10) البكري، ص5/ 14 ـ 15.
(11) الاستبصار، ص143.
(12) الأصطخري، ص44.
(13) الإدريسي، 131/ 156.

التجار كانوا يأتونها بأعداد كبيرة من الشرق والغرب، وأن إيرادات برقة أعلى من إيرادات طرابلس[1].

لا نعرف طبيعة المبادلات بين اليهود المقيمين في قلعة طلميثة، أحد موانئ برقة، والعرب، وهو ما أشار إليه أبو الفدا[2].

يذكر المؤلفون النخيل الوفير في زويلة وبلاد ودان مرات كثيرة، ولكن من المستغرب أنهم لم يذكروا قط تصدير التمور إلى الجنوب، مع ذلك عرفنا عن طريق تقارير مستكشفي القرن التاسع عشر أن التمور الفزانية كانت تصدر إلى بلاد التبو في زمن كان فيه النخيل مخرباً جزئياً بسبب الحروب ضد الأتراك. إن السبب يعود إلى أن المناطق الفزانية ـ كما لاحظنا ـ تم تناولها من الجغرافيين بتفاصيل أقل بكثير من المناطق الصحراوية الأخرى، أي أن الأمر يتعلق بنقص معلومات من جانبهم. كانت فزان، بنظام رسوم العبور، تحقق أرباحاً من تجارة التمور نحو السودان، وكانت هذه التجارة بين أيدي سكان ورقلة الذين كانوا يزودون الجنوب بتمور الزاب[3]. لا يمكن أن يكون مرور القوافل التي تحضر التمور والزبيب من مصر إلى كوكو إلا من خلال الصحراء الليبية، وكانت هذه المنتجات تبادل بالعاج الذي يصدر نحو مصر وسوريا[4].

كانت ليبيا تحصِّل، كذلك، رسوماً على الزعفران الأفريقي المبعوث إلى كوكو[5] الذي يأتي جزئياً من ليبيا، وعلى زعفران غريان من جبل نفوسة وهو

(1) ابن حوقل، ص66 ـ 67، 69/ 63، 65.

(2) تقويم، ص148 ـ 149.

(3) الإدريسي، ص4/ 5 وفيها قيل إن أهل ورقلة كانوا يصدرون كذلك تمور سجلماسة.

(4) الزهري، ص183 ـ 184. كان المغرب كذلك يصدر هاتين السلعتين نحو كوكو. كانت هذه المدينة تستقبل من مصر وأفريقية والمغرب وإسبانيا الحرير وملابس من الخز والكتان وملابس من قماش مصري رفيع «قباطي»، والزئبق وأشياء أخرى من كل نوع.

(5) الزهري، نفس المرجع.

الأحسن في العالم، ومتميز بلونه وكان يباع في مصر[1]، وعلى القمح الذي كانت تصدره ورقلة إلى بلاد الزغاوة[2].

كانت سرت تصدر الشب الذي يحمل اسمها ويأتي غالباً من أسباخ طرابلس الغرب[3]. وكانت هذه المادة النادرة تستعمل في الطب عاملاً موقفاً للنزيف ودواء موضعياً في عمليات الكحت[4]. وكان الشب يستعمل في الدباغة لجعل الجلود غير قابلة للعطب، ويستعمل مثبتاً للألوان في الصباغة. وقد أصبح في مصر احتكاراً للدولة لأن صناع النسيج الإيطاليين كانوا يستبدلونه مقابل مواد استراتيجية[5]. وكان المؤلفون القروسطيون شحيحين نسبياً بالمعلومات حول هذه المادة، بالرغم من أنها كانت مطلوبة جداً حتى القرن الثاني عشر، وكان التجار المغاربة يحرصون على عدم تلبية كل الطلبات الإسبانية من هذه المادة للمحافظة على أسعارها مرتفعة[6].

يشير المسعودي إلى الشب، وفي نفس الوقت إلى نوعيات عديدة من الزاج في الواحات المصرية حيث كانت تصدر منها. وكانت الواحات في هذا الوقت ـ يحدد المسعودي: في سنة 332هـ (4 ـ 943ف) ـ تكتفي ذاتياً لأنها بالإضافة إلى الشب كان تصدر التمور والعنب والزيت، وكانت المنطقة تدار من رئيس بربري لواتي، كان تحت تصرفه[7] آلاف الفرسان. ومن المرجح، نظراً لحاجة مصر ذاتها من الشب أن لا تكون صادرات الواحات موجهة إلى المغرب، وعليه لا تمر عبر ليبيا. ولا يذكر البكري الشب إلا في مكانين: مصر في ف.رف. رون ـ فرافرة غير بعيد من الواحات في نفس الوقت الذي يذكر

(1) ليون الأفريقي، نفس المرجع، ج2، ص410 ـ 411.
(2) الإدريسي، ص37/ 41.
(3) ابن حوقل، ص68/ 64. انظر بعاليه، ص312 ـ 313.
(4) F. Sanagustin, La Chirurgie, pp. 99-100.
(5) N. Elisseeff, L'Orient musulman, p.280.
(6) S.D. Goitien, Letters, p.267, supra, p.403, n.125.
(7) مروج، ج2، ص26 ـ 27.

فيه الزاج[1] وفي مكان ما على الطريق من تادمكة إلى غدامس: والشب من هذا المنجم الثاني كان يصدر نحو كل البلدان[2]. إن مسار البكري ليس محدداً بدقة لنتمكن من تحديد دقيق لموقع المنجم الثاني. ربما كان في الهقار لأن R. Mauny سجل وجود شب في طبقات الشست في هذا المرتفع[3]. ويمكن أن نوقعه، كذلك، شمال غات، فبعد أن لاحظ Henri Deveyrier أن الشب يشكل الإنتاج المعدني الأكثر أهمية في بلاد الطوارق، يشير إلى ترسبات من الشب النقي من نوعية جيدة في وادي سردليس ـ العوينات[4]. وبما أن مصر كانت مستهلكاً لهذه المادة، بالإضافة إلى أن برقة كانت في حاجة إليها لمدابغها، يمكننا تقدير أن كل هذا الشب أو جزءاً منه كان يرسل نحو الشرق عبر غات أو غدامس التي لم تكن لتتأخر في تحصيل ضرائب استيراد مرتفعة لا سيما وأن هذا المعدن كان مكلفاً ومطلوباً.

هكذا كانت غدامس نقطة مرور لا بد منها للشب الذي كان يوجد في الصحراء الفاصلة بين هذه الواحة وورقلة. وكان هذا الشب أبيض اللون من نوعية فريدة ومُصدر في كل الاتجاهات[5].

يذكر القزويني سبخة تغازة ومناجمها للملح والشب ولكنه لا يذكر أين كان يصدر[6] هذا المنتج الأخير.

لم تكن غات و/أو غدامس الواحات الوحيدة في الصحراء الليبية التي تحصل ضرائب استيراد على الشب، فلا بد أن زويلة كانت تستفيد من رسوم العبور هذه. فعند وصفه كوار ذكر الإدريسي أن الشب فيها وفير ومن نوعية

(1) مسالك، ص15/ 37.
(2) نفس المرجع، ص182 ـ 183/ 341.
(3) Tableau Geogrphique, p.335.
(4) Les Touareg du Nord, p.144.
(5) الاستبصار، ص224 ـ 225.
(6) آثار، ص25 ـ 26، انظر تغارة (هكذا).

ممتازة. وبالرغم من الكميات الضخمة المصدرة فإن المناجم لا تفرغ، ويكمن السبب حسب السكان في أن هذه المادة تنمو دون توقف بقدر ما تستخرج لدرجة أنها لو لم تستخرج فإن المنطقة تختفي تحت الشب[1]. ويؤكد الإدريسي أن الشب الأكثر نقاء يجمع من أنكلاس ـ كلالة[2]، ويصدره سكانها نحو الشرق حتى مصر، ونحو الغرب حتى ورقلة وحتى إلى المغرب الأقصى. والشب في أبزر[3]؟ من نوعية جيدة ولكنه رخو. وفي تملمة ـ تلملة؟[4]، الشب معرق بالتراب، وعليه فنوعيته متوسطة، وكان يخلط بمنتج من نوعية أحسن قبل بيعه للتجار[5]. وبواسطة نظام الضرائب على الاستيراد ورسوم المرور كانت الصحراء الليبية تستفيد بطريقة غير مباشرة من الطلب المغربي والمصري على الشب، فقد كان لا بد من عبور هذا المنتج بغات ـ غدامس نحو الغرب، وعبر زويلة نحو الشرق. لا نعرف كيف كان ينقل شب كوار بعد وصوله إلى زويلة، هل يمر عبر ودان ليصل إلى الشاطئ ثم يحمل بالبحر من سرت أو يوجه نحو زلة ليسلك طريق القوافل نحو أوجلة وسترية.

الزجاج والرصاص والنحاس:

كان تصدير الزجاج إلى بلاد السود يتم أساساً من المغرب الأقصى، وقد ذُكر هذا في الكثير من المرات ولكن لم نخبر ـ لسوء الحظ ـ عن مكان صناعة هذه الأقداح والأسورة[6] والدرر. ولم تكن هذه الأشياء والحلي تهرب كلياً من

(1) نزهة، ص39 ـ 40/ 46 ـ 47. أبو الفدا، تقويم، ص128 يلخص الإدريسي.

(2) حول تحديد واحات كوار. انظر بعاليه، 552، رقم 2. تقع كلالة بالقرب من بلما. سنلاحظ أن ابن سعيد، بسط الأرض، ص48 يذكر شب قصر عيسى = قصر أم عيسى/بلما، ويشير أن هذه المادة تصدر إلى مناطق مختلفة.

(3) بعاليه، نفس المرجع، حسب الإدريسي تقع أبزر على مسيرة يومين جنوب أنكلاس.

(4) بعاليه، نفس المرجع، حسب الإدريسي تقع تملمة على مسيرة يوم واحد جنوب أبزر.

(5) حول سلفات الصوديوم من كوار التي ربما كانت تباع تحت اسم الشب، انظر Tableau Geographique، ص336.

(6) الإدريسي، ص66/ 76، عقود ومسابح من أغمات. وياقوت، انظر التبر: خرز أزرق =

ضرائب المرور الليبية. نعرف، بالفعل، أن التجار المصريين كانوا يحضرون للسودان الزجاج ويبيعونه مقابل الذهب[1].

ليست لدينا إلا معلومات ضئيلة للغاية عن تصدير الزجاج إلى السودان. وقد ذكر حدود العالم، وفي نفس المقطع، الرصاص من بين السلع المصدرة من مصر إلى السودان: وكان فيها يستبدل بوزنه ذهباً، وكانت هذه الصادرات تخضع لضرائب المرور في الأراضي الليبية[2].

كان النحاس المستعمل في الزخرفة والزينة في بلاد السود، موجوداً في مواقع سودانية كثيرة[3]، نذكر منجم تكدة الذي كان إنتاجه يحول إلى قضبان رقيقة تستعمل لشراء اللحم والخشب للاستعمال وقوداً، ويحول إلى قضبان غليظة لشراء الذرة البيضاء والزبدة والقمح والعبيد من الجنسين[4]. لم تكن هذه المناجم مستغلة بشكل كاف ولم تكن تلبي الطلب السوداني، ولهذا السبب كان النحاس المعدن الرئيسي المصدر إلى جنوب الصحراء. وكان النحاس، في السودان خلال القرن العاشر يستبدل مقابل التبر في تجارة صامتة[5]. كان للسوس، بعد ذلك بقرن. مصاهر للنحاس يتم تصديره إلى بلاد السود[6]،

= من سجلماسة نحو غانا، منقولاً من قبل القزويني، ص18 ـ 19، انظر بلاد التبر. ابن بطوطة، ج4، ص393 ـ 394: حول الطريق من ولاته إلى مالي، يستخدم المسافر حلى زجاجية تسمى نظم كنقود. القلقشندي. ج5، ص286: حلى زجاجية من الغرب الأقصى إلى التكرور. انظر كذلك، Tableau Geographique, R. Mauny، ص371 ـ 372، الذي سجل أن اللآلىء المكتشفة في السودان قد تكون من مصدر مغربي، أو مصري، أو شرقي أو بيزنطي أو بندقي.

(1) حدود العالم، ص165.

(2) نعرف بفضل القزويني، المرجع أعلاه، أن سجلماسة كانت تصدر الرصاص إلى بلاد الذهب.

(3) انظر نتائج الحفريات في السودان الغربي، وفي أدرار الأفوغار في الآيير عند Tableau Geographique, R. Mauny، ص307 ـ 313، شكل، 61 ـ 73.

(4) ابن بطوطة، ج4، ص441، وانظر بعاليه، ص545.

(5) إسحاق بن الحسين (حوالى 950ف) عند Corpus, Levtzion and Hopkins، ص39 حول التجارة الصامتة للذهب. انظر أدناه، ص649 ـ 650.

(6) البكري، ص162/ 306 ـ 307.

خاصة أودغست التي كانت تستورد نحاساً مشغولاً، وغانا حيث كان الملك يُحصِّل رسماً على كل حمولة من النحاس كما يفعل مع الملح، وكوغا ـ كوكو[1] (؟). في القرن الثاني عشر، كان المغرب الأقصى ـ خاصة أغمات ـ ما يزال يصدر النحاس الأحمر والملون نحو السودان، وبالذات نحو التكرور، ويشتري بمقابله الذهب والعبيد[2]. وقد احتلت سجلماسة دور أغمات في القرن الثالث عشر بتصديرها أساور من النحاس الأحمر تبادل بالذهب في معاملات صامتة[3]. كان لدى الدمدم ذهب وفير ولكنهم لا يعرفون كيف يستعملونه، ولهذا يفضلون عليه النحاس الذي كان يجلب إليهم على أطراف إقليمهم[4].

كانت الصحراء الليبية تستفيد من تصدير هذا المعدن نحو السودان. ويشير بنجمان دي توديل Benjamin de Tudele ـ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـ أن النحاس المصدر من حلوان، وهي بلدة واقعة على مسيرة اثني عشر يوماً من أسوان، نحو السودان كان يمر عبر زويلة[5]. في ذلك الزمن كانت بواخر البندقية تأتي بالنحاس إلى طرابلس، وكذلك إلى سبتة[6]، وتقول الأسطورة بأنه كان يبادل بوزنه ذهباً في السودان، ومن ثم نستطيع أن نقدر أنه كان يمثل مورداً مهماً للتجار الليبيين، سواء جاء عبر زويلة في طريقه إلى كوار أو عبر غدامس ليسلك طريق الآيير. من شبه المؤكد أن ليبيا كانت تحصل ضرائب عبور على النحاس البيزنطي الذي يصل الإسكندرية ويصدر إلى توات حيث لاحظ الجنوي ملفانت Malfante، في سنة 1447ف، في رسالة موجهة

---

(1) نفس المصدر، ص159، 176، 179/ 301، 331، 335.

(2) الإدريسي، ص3، 66/ 3، 76.

(3) العمري، ص202. وياقوت. انظر (التبر). والقزويني، ص18 ـ 19، انظر (بلاد التبر)، والحميري، انظر (تكرور).

(4) الدمشقي (توفي سنة 1327ف)، ترجم، عند Recueil, J.M. Cuoq، ص247. ترجمة إنجليزية في Corpus, Levtzion and Hopkins، ص212.

(5) In Levtzion and Hopkins, Corpus, pp 135-136.

(6) Cf, R. Mauny, Tableau Geographique, p.370.

إلى مواطنيه أن النحاس يمثل مع الملح مادة التبادل الرئيسية في بلاد السود[1]. وأخيراً، فإن من الممكن أن يكون النحاس الذي كان يأتي به تجار بربريا إلى جانيت في القرن السادس عشر[2] يعبر، هو كذلك، ولو جزئياً من خلال فزان، أو غدامس وغات.

الصوف والحرير والملابس والبسط:

قلنا: إن برقة كانت تصدر صوفها وقطناً ممتازاً يقال له «قطن برقة»[3] وملابس تصنع فيها، وكانت سرت، كذلك، تصدر الصوف[4]. وتنقصنا بيانات دقيقة حول الأماكن التي كانت تصدر إليها هذه المنتجات، وذلك باستثناء كمية من الصوف قال الإدريسي إنها كانت ترسل إلى الاسكندرية ومصر[5]. ومن المؤكد أن كمية غير صغيرة كانت تجد طريقها إلى السودان. يؤكد ابن حوقل أن التجار الأجانب كانوا يتوافدون على برقة آتين من الشرق والغرب للقيام بمشتريات[6]. ونعرف أن شحنات من الملابس في النصف الثاني من القرن العاشر، وهو الزمن الذي كتب فيه ابن حوقل، كانت تغادر ورقلة إلى تادمكة حيث كانت تبادل بالذهب[7]. في القرن الحادي عشر، كانت ترسل إلى أودغست معاطف طويلة مصبوغة باللونين الأحمر والأزرق، ويورد منها العنبر والذهب[8]. في نفس الزمن، كانت ملابس ملك غانا وحاشيته من الحرير والبروكار والقطن الرفيع[9]، وهي ملابس لا يمكن أن تكون إلا مستوردة.

---

(1) نفس المرجع، ص370 ـ 371.

(2) ليون الأفريقي، ج2، ص302.

(3) انظر بعاليه، ص388.

(4) انظر بعاليه، ص403.

(5) نزهه، ص131/ 156.

(6) صور الأرض، ص66 ـ 67/ 63.

(7) سيرة حياة شيخ أباضي تقي، أبو صالح اليجراني كتبها زكريا الورجلاني، Quelques extraits Inedits, T. Lewicki.

(8) البكري، ص129/ 301: ثياب مجنحة.

(9) نفس المرجع، ص175/ 329. الإدريسي، ص7/ 8 يقول إن ملك غانا كان يلبس الحرير.

ويمكن أن تكون من المغرب الأقصى كما يمكن أن تكون من إسبانيا إذا ما أخذنا في الاعتبار الحرير والبروكار أو من أفريقية أو مصر أو المشرق[1]. كان التجار المغاربة[2] يأتون بالصوف إلى بلاد التكرور، وكان الصوف يلبس من قبل هؤلاء الذين يتعاملون مع البيض، أو ينتمون للطبقة الراقية، وكان السكان الآخرون يلبسون ملابس من الجلد[3]. وكان نفس التجار يزودون أزُقى[4] كذلك. وكان هواريو أغمات الذين يتاجرون في النحاس هم الذين يتولون إحضار الملابس الصوفية والعمائم[5].

ورد صراحة، في بعض الحالات، أن هذه الأقمشة تأتي من أفريقية أو مصر، ومن ثم كان لابد من العبور بالصحراء الليبية. حسب ابن سعيد، كان يؤتى لسلطان كانم بملابس من العاصمة التونسية[6]. وكانت طرابلس تصدر صوفاً من الدرجة الأولى وقطعاً من قماش أزرق وبني ومن النوع الأبيض والأسود[7] المنتج في جبل نفوسة. وقد لاحظ ابن بطوطة أن ملابس سكان ولاتة الجميلة كانت تورد من مصر[8]، وكذلك المناديل المطرزة التي تعلق على قبة الملك لتنبه الناس أن الملك في اجتماع[9]. ويشير الرحالة، في مقطع آخر، إلى أن سكان تكدة كانوا يقومون كل سنة بالسفر إلى مصر حيث يأتون لبلادهم بأقمشة[10] جميلة، وفي هذه الحالة بالذات، كانت غات تستفيد، بكل

---

(1) انظر H.J. Schmidt، موسوعة الإسلام، انظر (حرير)، ص226، خريطة المناطق المنتجة عند L'islam et sa Civilisation, A. Miquel، ص145.

(2) الإدريسي، ص3/ 3.

(3) ابن سعيد، بسط الأرض، ص24.

(4) الإدريسي، ص60/ 69.

(5) نفس المرجع ص66/ 76.

(6) بسط الأرض، ص128. وابن سعيد، يلاحظ أن جرية مشهورة ـ هي كذلك ـ بجمال ملابسها.

(7) ابن حوقل، ص69/ 65.

(8) رحلة/ج4، ص387.

(9) نفس المرجع، ص403.

(10) نفس المرجع، ص439.

تأكيد، من ضريبة العبور لأن الطريق تكدة ـ مصر[1] كان يمر من هذه الواحة. ويمكن أن نستنتج أن هذا هو الطريق الذي كانت تسلكه القوافل التي تحضر معاطف الحرير التي كان يلبسها السود آكلي لحوم البشر عندما يقابلون[2] سلطان مالي، وكذلك جلباب السلطان الأحمر الذي يقول ابن بطوطة إنه صناعة رومية[3].

كان في عداد المنسوجات المصرية العابرة للصحراء الليبية إلى كوكو، الحرير وملابس من الحرير الخام والكتان والأثواب من أقمشة[4] رفيعة.

لا يمكن أن تصل الملابس الصوفية التي كان يرتديها سكان أنكلاس وأبزر إلى كوار إلا بعبور الواحات الليبية، إذ يشير الإدريسي إلى أن التجار يذهبون لبيع شب المنطقة إلى ورقلة والمغرب في الغرب، وإلى مصر في الشرق[5].

في مصر، كانت البلدات الواقعة على طول الساحل وعلى امتداد النيل هي التي اكتسبت شهرة كبيرة في ميدان النسيج. كانت بلدتا شطة وداميت تنتجان أقمشة كتان رفيعة. وكانت داميت تنتج أيضاً أقمشة سميكة من نوع أقمشة دبيق[6]. وكانت دبيق ذاتها تصنع ملابس تحمل اسمها[7]. وكانت مصانع تنيس، وهو ميناء كان يستقبل السفن القادمة من سوريا والمغرب ـ تصنع أقشمة ذات قيمة عالية من القصب وأقمشة من حرير موشاة وملابس بوبر وأثواب من قطيفة مزينة بالمخمل[8] وملابس ملونة وبسط[9]. وكانت أقمشة

(1) نفس المرجع، ص445، انظر بعاليه، ص530 ـ 531.

(2) نفس المرجع، ص428.

(3) نفس المرجع، ص406.

(4) الزهري، ص183 ـ 184. من إسبانيا، تستقبل كوكو ملابس من مورسي.

(5) نزهة، ص39/ 46.

(6) اليعقوبي، بلدان، ص338/ 195 دبيق بلدة واقعة بين تنيس وفرما على الشاطىء المصري الشرقي.

(7) ياقوت، انظر، دبيق.

(8) اليعقوبي، المرجع المذكور، ص337 ـ 338/ 194. وابن حوقل، ص152/ 150.

(9) المسعودي، تنبيه، ص21/ 35. وياقوت، انظر تنيس.

الكتان من صنع تنيس وداميت[1] رفيعة للغاية وتفوق أقمشة شطة ودبيق[2]. وكانت بورة، وهي مدينة محصنة في ناحية داميت على شاطئ المتوسط، تصنع منسوجات[3]. وكانت أقمشة التنجيد المنتجة في بهنسة، وهي بلدة ذات موقع ممتاز في بداية الطريق المؤدي إلى الواحات، مشهورة في العالم كله[4]. وكان لهذه الأقمشة في هذه الواحة معامل لخواص أو عامة، تصنع فيها الستائر التي أخذت اسم الواحة، وقطع رائعة من النسيج وخيم كبيرة وملابس بديعة، وكانت الأقمشة المنتجة لصناعة الملابس أو التنجيد تحمل ختم المعمل الذي أنتجها وهي مشهورة في كل مكان[5]. وعرفت أهناس الواقعة جنوب الفيوم مباشرة بصناعة المعاطف. وقد كانت أقمشة أشمون مشهورة[6] كذلك. وكانت في أسيوط[7] ورش للنسيج والملابس ينتج فيها نسيج على طريقة دبيق[8]، وتخاط فيها ملابس ذات جمال لا يضاهى ولا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر[9]. وستذكر مستقبلاً صادرات الكتان في بليانة وأشمون[10]. وعليه ليس من المستغرب أن الأقمشة المصرية كانت مشهورة[11] إلى حد كبير، وأن التجار المغاربة اختاروا بعد المجاعة التي عانت منها أفريقية سنة 5 ـ 1004ف،

(1) اليعقوبي، بلدان، ص338/ 195. ابن حوقل، المرجع أعلاه.

(2) الإدريسي، ص156/ 186.

(3) نفس المرجع.

(4) المسعودي، تنبيه، ص22/ 38. والحميري، انظر بهنسا.

(5) ابن حوقل، ص159/ 157. الإدريسي، ص50 ـ 51/ 58، منقولاً من قبل الحميري، انظر (بهنسا). في القرن التاسع، كانت بهنسة مشهورة بستائرها، انظر اليعقوبي، بلدان، ص331/ 186.

(6) اليعقوبي، المرجع أعلاه. الإدريسي، نزهه/ ص51/ 58 يلاحظ أن هذه المدينة الصغيرة مأهولة جداً والتجارة فيها ضخمة. وفي زمن ياقوت كانت مهدمة إلى حد كبير، انظر. معجم.

(7) ابن حوقل، ص158/ 156. والإدريسي، ص45/ 53.

(8) ياقوت، انظر (أسيوط).

(9) القزويني، انظر (أسيوط).

(10) ابن حوقل، ص159/ 156 ـ 157.

(11) حدود العالم، ص151.

الاستقرار في مصر[1] خاصة على طول النيل حيث تتوالى الأسواق دون انقطاع[2]، خاصة في دمامين التي شهدت إثراء مغاربة كثيرين[3]. وقد ساهمت صادرات مصر من النسيج والملابس في إثراء ليبيا عن طريق ضرائب الجمرك والعبور في الوقت الذي كان فيه إنتاج ليبيا محدوداً جداً.

في بداية القرن الخامس عشر، تدهورت[4] جودة الأقمشة بسبب الأزمة الاقتصادية في مصر والركود التقني في المشرق. لوحدها كانت سوريا ما تزال تصدر الجوخ، ولكن نحو أوروبا هذه المرة[5]. وقد شهد القاهريون، الذين عرفوا دائماً بأناقتهم، انقلاباً على عاداتهم المتعلقة باللباس، وأصبحوا يلبسون ملابس من أقمشة خشنة[6] مستوردة من أوروبا، ليس فقط من فرنسا وإيطاليا، وإنما كذلك من ألمانيا، وفلاندر وإنجلترا وحتى من بولندا[7]. وقد وجد هذا الوضع بالطبع انعكاساً في السودان وبدأت مالي تصنع أقمشة قطنية[8] رفيعة جداً وذات جودة عالية، واشتهرت[9] قطنيات جاو. وكان القماش المسمى دندي الذي استخدم نقوداً في كانم مصنوعاً في البلد[10] نفسه. وكانت بورنو في ذلك الوقت تصدر إلى جانب الجواري الجميلات أقمشة مصبوغة بالزعفران (ثياب مجسدة)[11].

---

(1) محمد طالبي، Droit et economie، ص204 ـ 206.

(2) ابن بطوطة، ج1، ص67.

(3) الحميري، الهجرة المغاربية إلى مصر بدأت منذ عهد العزيز، الخليفة الفاطمي الخامس (976ف ـ 996ف). انظر ابن حوقل. ص153/150.

(4) E. Ashtor, L'Exportation des Textiles occidentaux p.305.

(5) نفس المرجع، ص371.

(6) نفس المرجع، ص305.

(7) نفس المرجع، ص308. حول الجوخ، انظر Vetements, A. Dozy

(8) العمري، ص66.

(9) الدمشقي، ترجمة عند Recueil, J.M. Cuoq، ص245.

(10) العمري، ص44.

(11) ابن بطوطة، ج4، ص441 ـ 442.

عندما لم تعد مصر هي المزود الرئيسي بالأقمشة، أصبحت الأقمشة التي تلبس في السودان تأتي خاصة من أوروبا. كان التجار من بربريا يأتون إلى جني[1] بكميات كبيرة من الأقمشة الأوروبية مع النحاس والأسلحة، وحتى إلى تومبكتو[2]. وفي جاو، كانت أسعار سلع الرفاهية المستوردة من أوروبا وبربريا مرتفعة جداً؛ وفيما يتعلق بالأقمشة كان النسيج البندقي القرمزي أو البنفسجي أو الأزرق الفيروزي هو أغلاها سعراً، وكان القماش الأوروبي ذو النوعية المتردية يباع غالياً جداً. ليس في هذا ما يدهش، فقد كان يأتي إلى هذه المدينة عدد كبير من السود بكميات كبيرة من الذهب ولا يستطيعون أن يستلهكوا منها إلا النصف أو الثلث لعدم وجود بضائع[3] كافية. كان عبور الصحراء من خلال ليبيا يمثل كسباً كبيراً من الزمن، ومن المرجح أن مرور الجزء الأكبر من الأقمشة الأوروبية كان يتم عبر غدامس ـ غات أو وسط فزان. ولا بد أن التجار الطرابلسيين والفزانيين كانوا يحققوان أرباحاً كبيرة من تنظيم هذه القوافل التي كان من الضروري مرافقتها من قبل البدو الليبيين. وكانت الضرائب، وعوائد التنظيم والنقل وتوفير الحماية تعوض نقص الإنتاج المحلي.

الأسلحة:

لا يذكر مؤلفو القرون الوسطى إلا الأسلحة السودانية المصنوعة محلياً مثل الرمح، والقوس، والسهام مسمومة أو غير مسمومة، والهراوة[4]. كانت الحماية تتم بواسطة الدروع[5]. وكان استيراد الأسلحة العربية ضئيلاً بكل تأكيد، إذا كان هناك استيراد أصلاً. وقد ظهرت الأسلحة الأوروبية في جنوب

---

(1) ليون الأفريقي، ج2، ص467.

(2) نفس المرجع، ص467.

(3) نفس المرجع، ص471.

(4) انظر خاصة البكري، ص177، 179/ 332، 334. والزهري، ص182. والإدريسي، ص5/ 5. وابن سعيد، بسط الأرض، ص25. وأبو حامد، ص42 ـ 43/ 347. والدمشقي، ترجمة. Recueil, J.M. Cuoq، ص242، 245.

(5) الدروع الأكثر شهرة هي الدروع اللمطية، انظر بعاليه، ص254 ـ 255.

الصحراء في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الأقمشة: كانت جنى تستورد من إيطاليا الرماح القصيرة ـ المسماة جيا نتونى ـ وأسلحة أخرى[1]: ، وكان أسوأ السيوف الأوروبية يساوي في جاو أثنتي عشرة مرة سعر شرائه في إيطاليا[2].

الخيول:

رأينا أن الخيول كانت تربى في السودان، ولكنها من نوعية غير مرغوبة لأنها صغيرة الحجم وغير سريعة، ورأينا كذلك أنه كان من الممكن عبور الصحراء على الحصان إذا كانت المجموعة مصحوبة بجمال[3]. وكانت أفريقيا الشمالية تزود السودان بالخيول وهي حيوانات رفاهية ووسائل محاربين. كان حصان أفريقيا الشمالية مشهوراً جداً. ولا بد أن ليبيا كانت تلعب دوراً كبيراً في هذه الصادرات. نعرف أن منطقة برقة كانت تربي الخيول وهي خيول من النوع العربي، ومن خيول النقل في نفس الوقت[4]، وهي خيول معروفة إذ إن العمري يقارن الحصان العربي من أفريقية، بحصان برقة[5]. وفي القرن الثالث عشر، كان هوارة منطقة مصراتة يصدرون الخيول إلى الإسكندرية[6].

لا بد أن التجار كانوا يحققون مكاسب ضخمة من تجارة الخيول مع السودان. إن ابن بطوطة الذي قام وبعض رفاقه بالرحلة من سجلماسة إلى ولاتة على ظهر حصان، وكذلك بعض رفاقه، اضطر في مالي لاستعمال الجمل لأن

---

(1) ليون الأفريقي، ج2، ص465، يترجم A. Epaulard، كلمة جيانتوني بكلمة خنجر. جيانتوني هي صيغة مبالغة جيانتا ـ سلاح رمي من الإسبانية جنتا وهي مولدة من زناتة وهي اسم واحدة من المجموعتين البربريتين الكبيرتين، وهي تعنى رمح قصير. انظر Grande Dizionario della linga italiana, S. Battaglia Enciclopedia universal ilustrada, 1961, Turin، مدريد، 1926 ـ 1975.

(2) ليون الأفريقي، ج2، ص471.

(3) انظر بعاليه، ص125 ـ 128.

(4) القلقشندي، ج3، ص395 ـ 396. انظر بعاليه ص393.

(5) L'Afrique moins L'Egypte, p104.

(6) ابن سعيد، بسط الأرض، ص80، وأبو الفدا، تقويم، ص146 ـ 147.

الخيول كانت غالية جداً في هذا البلد[1]. وكمثل، يمكننا أن نستشهد بمقطع آخر من ابن بطوطة، يقول المقطع إن سكان تكدة نادراً ما يبيعون العبيد المتعلمين وإذا اضطروا فبأسعار غالية جداً، وقد اشترى ابن بطوطة أحدهم بعد أن كاد ييأس وكان يساوي أربع مرات أقل من حصان في مالي[2]. ويلاحظ كادا موستو Ca de Mosto، وهو كاتب وقائع بندقي قام برحلة إلى السنغال في منتصف القرن الخامس عشر، أن العبيد كانوا يبادلون بواقع خمسة عشر عبداً لكل حصان[3]. يقدم ليون الأفريقي توضيحات أخرى: كان الحصان القادر على الإمساك بلمط أو نعامة يساوي مائة جمل[4]. وفي جاو، كان الحصان يساوي أربع أو خمس مرات أكثر من سعره في أوروبا أو مراكش[5].

في تومبكتو، كانت المعارك تجري على ظهور الخيول. وكانت الخيول المحلية الصغيرة لا تستخدم إلا من قبل التجار للسفر ورجال الحاشية للتنقل داخل المدينة، وكانت الخيول الجيدة تأتي من بربريا وللملك الأولوية[6] في الاختيار. وفي بورنو، كان أصل السيد القوي الحاكم من بردوا، وهم قوم من ليبيا (= تبو)، وكان بإمرته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم من المشاة[7]. وأبعد إلى الشرق كان ملك جوجة يشتري الخيول من التجار البيض، كما يستلم منها في شكل هدايا من سلطان القاهرة[8].

كانت ليبيا، ولزمن طويل، تجني أرباحاً من هذه التجارة إما باعتبارها مركزاً للتربية أو محصلة لرسوم المرور. منذ نهاية القرن السادس عشر توقف

(1) رحلة، ج4، ص384، 425.
(2) نفس المرجع، ص439 ـ 440.
(3) Cf, R. Mauny, Tableau Geographique, p.370.
(4) Description de L'Afrique, II, pp.558-559.
(5) نفس المرجع، ص471.
(6) نفس المرجع، ص468.
(7) نفس المرجع، ص480.
(8) نفس المرجع، ص482.

البورنيون ـ لسوء الحظ ـ عن الذهاب إلى مصر لشراء الخيول، ليس بسبب الجوع والعطش فقط، وإنما كذلك بسبب عدم الأمان الذي نشره التبو في كوار وفزان[1]. هكذا بدأ انحدار الصحراء الليبية.

الجلد المدبوغ والجلود الخام:

من البيِّن أن هذه المواد لم تكن تصدر إلى السودان لأن السكان في جنوب الصحراء كانوا يلبسون الجلود قبل بدء استيراد الأقمشة الشمال أفريقية والمصرية وظهور زراعة القطن عندهم، وقد استمر استعمال هذه المواد ملابس من قبل الأكثر فقراً[2] بعد ذلك. كانت بلاد السود هي التي تصدر هذه المنتجات: يفيدنا أبو حامد أنه كانت تأتي من السودان جلود ماعز رائعة اللباغة، وسميكة ومرنة ذات لون بنفسجي مائل للسواد. وكانت تصنع منها أحذية لا تتأثر بالماء ولا تعطب، وتصبح مثل الجديدة[3] إذا ما غسلت بالماء الساخن.

كانت صناعة الجلود في الغرب الإسلامي مشهورة. ومن طرفيه، يجب ذكر جلد قرطبة الذي كان يصدر حتى فرنسا[4]، والجلد الذي كانت تصنع منه

---

(1) Supra, p. 380 ; H. r. Palmer, Sudanese Memoirs, III, p6.

(2) انظر خاصة البكري، ص178/ 334: تغطي نساء البكم مواطن الحشمة بقطع من الجلد المضفور. ص183/ 342: بعض سكان جو يلبسون وزرة وستِرة من الجلد، الإدريسي، ص34/ 40: يسير الزغاوة عراة ويغطون مع ذلك أعضاؤهم التناسلية بجلود الجمال والماعز المدبوغة، وهذه القطع مزينة. الحميري، انظر الزغاوة، يلبس الزغاوة جلوداً مدبوغة. المقريزي، Memoire Sur les Races du Sudan ترجمة عند Recueil, J.M. Cuoq، ص385: إن الأبكلا وهي قبيلة من شرق النيجر لهم ملابس من الجلود. ليون الأفريقي، ج2، ص471 ـ 472، يلبس سكان جاو في الشتاء جلود النعاج، ويصنعون في بعض الأحيان سنادل من جلد الحمل. في جبر، على مسافة 1000كم جنوب شرق جاو يصنع الإسكافيون سنادل تصدر إلى جاو وتومبكتو. ص482: في جاوجة في شرق بورنو ليس للسكان في الصيف من ملابس إلا سروال صغير من الجلد. تحدثنا عن النوعية الممتازة للدروع اللمطية، انظر بعاليه، ص254 ـ 256.

(3) أبو حامد، ص43/ 248.

(4) M. Talbi, L'Emirat aghlabide, pp.400-401.

خاصة البسط في أخميم على ضفاف النيل[1]. ويبدو أن شمال أفريقيا قد تخصص في إنتاج هذه السلعة: فمن المغرب عامة كانت تصدر بسط جلد[2] إلى المشرق وكانت أفريقية تصدر بسطاً ومزاود وقرباً[3]. وقد ازدهرت أعمال الجلد في القيروان وكانت صناعة السروج فيها تستعمل جلوداً موشاة بالذهب، كما اشتهر الرق (الجلد) من أفريقية ومثل سلعة تصدير[4].

كانت المناطق الليبية تشترك بنشاط في هذه التجارة، فقد كانت برقة تصدر الجلود الخام إلى مصر، في القرن العاشر[5]، لتدبغ ثم تزودت المدينة بعد ذلك بمدابغ تدبغ فيها جلود الأبقار وجلود الفهود من واحة أوجلة[6].

كانت جلود زويلة مرغوبة، وكانت الواحة تصدر الجلود التي تحمل اسمها[7]. ومن المعتقد أن الشب الذي كانت تصدره كوار إلى مدابغ الشرق كان يُشترى جزئياً من قبل الحرفيين الفزانيين.

كانت الجلود الليبية الأكثر شهرة هي جلود غدامس. وبسبب دباغتها الممتازة، كانت الجلود المعالجة في هذه الواحة رطبة ولماعة كالحرير وهو ما يفسر الإقبال الكبير عليها[8]. وقد عرفت إسبانيا المسيحية الجلد الغدامسي منذ القرن[9] الحادي عشر.

---

(1) اليعقوبي، بلدان، ص332/ 187.

(2) ابن حوقل، ص97/ 95.

(3) الدمشقي، ص239 ـ نشر Pellat، ص48 ـ 49.

(4) H.R. Idris, Zirides, II, p.367.

(5) ابن حوقل، ص67/ 63.

(6) الإدريسي، ص131/ 156. انظر بعاليه، ص388، 447. كان صيد الفهود اختصاصاً لبربر السوس الأقصى ويأتون بالجلود للمدن الإسلامية، انظر حدود العالم، ص154. والجاحظ في كتابه، التبصر بالتجارة، نشر هـ. هـ. عبد الوهاب التونسي، دمشق، 1351هـ/ 1932ف، ص21 يعد جلود الفهود من بين صادرات المغرب، انظر ملاحظة V. Minorski، في حدود العالم، ص417، رقم 18.

(7) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 205.

(8) ابن سعيد، بسط الأرض، ص61، منقولاً من قبل أبي الفدا ص146 ـ 147. ياقوت. انظر (غدامس). والقزويني، ص57. والحميري، انظر (غدامس). والقلقشندي، ص108. وبعاليه، ص341.

(9) R. Brunschvig, Hafsides, II, p.262 et n.2.

سنلاحظ أن الصناعة التقليدية الوحيدة الفزانية الصميمة، في أيامنا هذه، هي الأشغال الجلدية مع الحلي الفضية. وتأتي الجلود ـ عادة ـ من السودان وتستعمل في مرزق وسبها وبراك وغات وغدامس، وتتكون المنتجات عادة من الأحذية الخفيفة ومخدات مزينة بظرافة.

الملح:

الملح حاجة حياتية، ومثل طوال القرون الوسطى أهم الصادرات إلى بلاد السود. ولم يجد الملح البحري المأخوذ من الشاطئين الموريتاني والسنغالي إلا استعمالاً محلياً. كان الوضع مختلفاً بالنسبة للملح الصخري الشمال أفريقي والصحراوي[1]. ويذكر الجغرافيون العرب بعضاً من هذه الملاحات. يبدو أن ملاحة أوليل كانت في غاية الأهمية، وكانت بحوزة قبيلة جدولة ويصدر ملحها إلى البلدان المجاورة[2] بقوافل، كما كان يشحن على بواخر لتزويد بلدات نهر السنغال[3]. لا يُعرف متى بدأ استغلال ملاحة تغازة. هل كان ابن حوقل يشير إليها عندما قال: إنه كان على ملك غانا ربط علاقات ودية مع أمير أودغست بسبب الملح الذي كان يصل إلى هناك من بلاد الإسلام[4]، بالرغم من أن ملك غانا كان أغنى من على وجه الأرض بسبب ذهبه؟ وتغازة هي التي يعنيها البكري بكل وضوح عندما يتحدث عن منجم تات. ن. تال، ويصف استغلاله الذي لا يتوقف أبداً، ونقل الإنتاج ويلاحظ أن عوائد المنجم ضخمة، وكانت القلعة المطلة عليه مبنية بالملح[5]. ويوضح القزويني أن المنجم كان مستغلاً في القرن

---

(1) توجد دراسة عن الملاحات الصحراوية عند Tobleau Geographique, R. Mauny، ص323 ـ 336. وخريطة توزيع الملح، ص322.

(2) البكري، 171/ 322 ـ 323. وابن سعيد بسط الأرض، ص24. ياقوت، انظر (أوليل) وهي أقل تفصيلاً.

(3) الإدريسي، ص2/ 2.

(4) صورة الأرض، ص101/ 99.

(5) البكري، ص171/ 322. حول بناءات تغازة انظر R. Mauny، المرجع المذكور، ص330، رقم1.

الثالث عشر بواسطة عبيد لمسوفة، وكان هؤلاء العمال تحت إمرة امرأة من رقيق مسوفة. وتأتي القوافل إلى تغارا (هكذا) مرة في السنة، ويبيع السكان الملح ويحتفظون من نتاج البيع بمرتب مجز ويدفعون الباقي للسادة (أمراء مسوفة)[1]. وقد زار ابن بطوطة المكان بعد عشرين يوماً من السير انطلاقاً من سجلماسة، في مارس 1352ف وسجل هو كذلك وجود عبيد مسوفة ولاحظ أن الجمل لا يستطيع حمل إلا مخلين من الملح. وكان السود يأتون لطلب الملح في تغازة وينقلونه إلى ولاتة حيث كانوا يبيعونه أغلى حتى خمس مرات من سعر شرائه. وهذا يفسر أن تغازة كانت مركزاً مهماً لتجارة الذهب[2]. ويعود آخر وصف لهذا المنجم لليون الأفريقي[3]. في النصف الثاني من القرن السادس عشر أدت الادعاءات المراكشية حول تغازة الواقعة على بعد 880كم من تومبكتو بمملكة السنغال للبحث عن ملاحات أخرى اكتشفها الطوارق في تاودني على مسافة 770كم فقط من تومبكتو[4].

أبعد إلى الشرق، يشير البكري إلى ملاحة يقتصر قوله لنا عنها إنها واقعة على مسيرة ستة أيام من تادمكة وينقل إنتاجها إلى جاو[5].

يقال، حسب الرواية، أن أصل صناعة الملح في كوار يقع في الصحراء

---

(1) آثار البلاد، ص25 ـ 26. مخبر القزويني هنا هو الفقيه على الجنحاني. تحمل طبعة بيروت عبارة «إلى سادتهم» Recueil, J.M. Cuoq، ص199، حسب طبعة F. Wustenfeld، 1848ف يترجم «يعطى الباقي لسيدات مسوفة» Corpus, Levtzion and Hopkins، ص178، حسب F. Wustenfeld 1848، et Beyrouth, s.d., يختارون أن يترجموا and pay over the reminder to their masters.

(2) رحلة، ج4، ص377 ـ 379. تتراوح حمولة الجمل الغرب أفريقي بين 125 و150 كجم، وبعض الجمال القوية يمكن أن تحمل على مسافات قصيرة، مخلين من الملح يزن كل منها 90 كجم، انظر R. Mauny، المرجع المذكور، ص395.

(3) Description de L'Afrique, II, pp.455-456.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص106 ـ 107، 120 ـ 121/ 174، 193 ـ 194، انظر كذلك R. Mauny، المرجع المذكور، ص330 ـ 332. وE.I. J. Despois، انظر Azaly.

(5) مسالك، ص183/ 343.

الليبية، في مرزق، ومن هناك انتشرت في بلاد جادو ثم كوار[1]. لم يحدثنا الإدريسي إلا عن استغلال الشب في كوار، وهو المعدن الأكثر تكلفة. ويسبب احتياج السودان للملح فإن المرجح أنه كان يستخرج من ملاحات بلما الشهيرة. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أن البدو في جنوب الصحراء الليبية تملكوا جزءاً من هذا المصدر للدخل. ويجب التذكير بأن الملح كان ثميناً لدرجة أن رئيساً وثنياً من مالي أهدى إلى تاجر جاريتين جميلتين ليأكلهما[2] عندما أهداه التاجر كمية من الملح. ويلاحظ المهلبي أن ملك جاو كان يملك كنزاً يتكون الجزء الأكبر منه من الملح[3]. وكان الملح مستعملاً نقداً عند القرماطيين[4] في جاو[5]، وفي التكرور[6]، وفي مالي[7]، خاصة في منطقة تومبكتو[8]، ويقال أنه كان يباع أحياناً بوزنه ذهباً كما في غانا[9].

في مصر، كان الملح يستخرج من القصبة في الواحات الداخلة وينقل إلى مصر وبرقة[10]، وكان هذا الملح ينقل جزئياً إلى السودان حيث كان يبادل

---

(1) R. Mauny, op. cit, p.333.

(2) العمري، ص83. منذ القرن التاسع عشر يستغل الكنوري ملاحات بلما وسجدين، ويوصل طوارق الآيير، كل آوي وكل أجر ملح كوار نحو بورنو والنيجر ونيجيريا، انظر II, Travels, J. Richardson، ص143 ـ 145. وI, Travels, H. Barth، ص515. و G. Nachtigal، وSahara and sudan، ج2، ص68 ـ 71. وThe Golden Trade, E.W. Bovill، ص238 ـ 239. انظر كذلك Le Sahra Francais, R. Capot-Rey ص414 ـ 415.

(3) عند ياقوت، انظر (كوكو).

(4) المقدسي، ص242 ـ منشور Pellat، ص54 ـ 55. حول القرماطيين، انظر بعاليه، ص119 ـ 120.

(5) البكري، ص183/ 343.

(6) نفس المرجع، ص173/ 325. والاستبصار. ص218، ص217.

(7) ابن بطوطة، ج4، ص393 ـ 394.

(8) نفس المرجع، ص432.

(9) البكري، ص174/ 327. والاستبصار، ص218. كان يحدث أن يكون الملح موضوع تجارة صامتة ضد الذهب، سنتحدث عنها. عن أسعار الملح في السودان حتى منتصف القرن العشرين، انظر R. Mauny، المرجع المذكور، ص424.

(10) البكري، ص15/ 38.

بالذهب[1]. ومن مصر كان يهود حلوان يأتون بالملح إلى الصحراء الليبية، وإلى زويلة وإلى «بلاد غانا»، ويبادلونه بالذهب والأحجار الثمينة[2]. هل خلط بنجمان دي توديل Benjamin de Tudele بين زويلة المسماة عادة «زويلة السودان» «باب السودان» وبين بلاد السود؟ يبدو لنا أن الأكثر احتمالاً أن البدو الليبيين كانوا منظمين لدرجة أنهم كانوا يستطيعون شراء ملح الواحات بالذهب الذي كان لديهم ويعيدون بيع الملح في السودان. لقد كان البربر، ليبيون وغير ليبيين، هم سادة طريق الملح بكل وضوح، لذا نفهم أن جغرافياً كتب عند تناوله زويلة، والعرب والبربر أصحاب الحيوانات والذهب ما معناه: «كان العرب أكثر ثراء بالحيوانات، والبربر أكثر ذهباً»[3].

مثل الملح بلا ريب، أهم مصدر معدني أفريقي[4] فقد كان في بسكرة تل تستخرج منه قطع من الملح «كبيرة مثل أحجار البناء». وكان ملح بسكرة هو المستعمل في الأطعمة على موائد العبيديين[5]. كما كانت هناك سبخة في قرطاج حيث كان الميناء[6]. وكانت سبخة القيروان تنتج ملحاً في غاية النقاء[7]. ومن المرجح أن ضريبة الملح التي شرعها العبيديون بقيت سارية في عهد الزيريين[8] ولكن استخراج الملح[9] حُرر بالنسبة للمسلمين في عهد الحفصيين. وكان تصدير ملح ملاحة المنستير الشاسعة يتم عن طريق البحر[10]، وغير بعيد في الجنوب، كانت ملاحة لمطة تنتج ملحاً ممتازاً يتم.

(1) حدود العالم، ص165.

(2) Benjamin de Tudele. in Levtzion and Hopkins, Corpus, pp.135 - 136.

(3) حدود العالم، ص153.

(4) R. Brunschvig, Hafsides, II, p229.

(5) البكري، ص52/ 112.

(6) نفس المرجع، ص44/ 94.

(7) H.R. Idris, Zirides, II, p.423.

(8) نفس المرجع، ص615 ورقم 65.

(9) R. Brunschvig, op, cit, p230.

(10) البكري، ص36/ 79 ـ 80.

تصديره[1]، أيضاً. كان ملح جربة مرغوباً وكذلك ملح رأس المخبز[2]، وهي شبه جزيرة طرابلسية تقع على حوالى أربعين كيلومتراً غرب زوارة. وكان الملح من هاتين الملاحتين يصدر إلى السودان وأوروبا، وقد تحصلت البندقية، في القرن الرابع عشر، على احتكار تصديره إلى أوروبا[3]. وفي شرق طرابلس تمتد سبخة شاسعة تستخرج منها كميات كبيرة[4] من الملح. كان هناك ـ دون شك ـ استخراج للملح في فزان خاصة من السبخة المشار إليها من قبل H. Duveyrier الذي يوقعها غرب أوباري بين المساك والرملة[5]، ولم يذكرها الجغرافيون العرب.

كان لا بد أن يعبر ملح الواحات الداخلة المصري والملح الطرابلسي، وربما جزء من ملح جربة والشاطىء التونسي والقيروان الصحراء الليبية مروراً بزويلة أو غدامس وغات. وبالرغم من عدم توافر أي بيانات لدينا حول تنظيم هذه الحركة، يبدو من المؤكد أن الأرباح المحققة لاتقتصر على ضرائب المرور، وأن البربر الصحراويين لعبوا دوراً كبيراً تجاراً وحماة: وهذا هو التفسير الوحيد لثرائهم بالذهب كما بينه كتاب حدود العالم.

السلع المستوردة:

العاج:

بالرغم من المآخذ على من يستفيدون من أنياب الفيل[6]، بقيت تجارة العاج، بالرغم من محدوديتها، مستمرة من القرن التاسع حتى أيامنا الحالية.

للحصول على أنياب الفيل، كان الصيادون يُعدون بين الأشجار في غابة

---

(1) نفس المرجع، ص84/ 171.

(2) أحياناً تسمى فروة حالياً، انظر الزاوي، معجم.

(3) R. Brunschvig, op, cit, p230, 263.

(4) البكري، ص8/ 24.

(5) Les Touareg du Nord, p.68.

(6) ابن أبي زيد، ص296 ـ 297. وانظر بعاليه، ص603.

كثيفة حيث تستريح الفيلة ليلاً أقفاصاً من أفرع أشجار قوية ويغطون حفرة بباب يرفع بسرعة عن طريق حبل عندما يدخل الفيل إلى المكان المسور ثم يرمى الحيوان بالسهام[1].

كان العاج يصدر، في القرن الثاني عشر، من موطن قبيلة أميمة في الصحراء الأطلسية نحو السوس الأقصى[2]، وكانت صادرات جاو توجه إلى مصر وسوريا[3]. وفي القرن الرابع عشر، كان عاج السنغال ـ النيجر يبعث إلى تلمسان[4]. ومن المستغرب أن الجغرافيين لم يتعرضوا إلا عَرضاً لهذه التجارة، عندما نعرف كم كان العاج مطلوباً في العالم الإسلامي[5]، بالرغم من أن من المحتمل ألا تكون الكميات التي كانت تعبر الصحراء ضئيلة. ويذكر ليون الأفريقي مثلاً، ملك جاوجة في شرق بحيرة تشاد الذي رد في يوم من الأيام على هدية قدمها له تاجر من داميت بأن قدم له، من بين هدايا أخرى، أنياب فيلة[6] ضخمة. كان الجزء الأكبر من العاج يأتي إلى المشرق الإسلامي من أفريقيا الشرقية، وقد برع سكان دنقلة في اصطياد الفيلة، وهكذا كانت تتوافر عندهم كميات كبيرة من العاج[7] الذي كان يعبر عن طريق موانىء البحر الأحمر، خاصة سواكن، وبالذات عيذاب المتخصصة في هذه التجارة[8]. وأبعد إلى الجنوب، كان سكان زيلع يصطادون الوحوش، ومن بينها الفيلة، بواسطة أسهم مسممة[9].

---

(1) ليون الأفريقي، ج2، ص554.

(2) الزهري، ص188 ـ 189.

(3) نفس المرجع، ص183 ـ 184.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة في تاريخ غرناطة، ترجمة عند Recueil, J.M.Cuoq، ص325.

(5) CF. R. Pinder-Wilson, E.I. S.V. ADJ.

(6) Description de L'Afrique, II, pp.483.

(7) نفس المرجع، ص484.

(8) اليعقوبي، بلدان، ص335/ 190.

(9) ياقوت، انظر (زيلع)، انظر بعاليه، ص335/ 190.

من المفترض أن صادرات الطرف الغربي للسودان كانت توجه نحو المغرب الأقصى ثم إلى إسبانيا التي كان فيها حرفيون ممتازون في هذا المجال. ومن المحتمل أن جزءاً فقط من العاج من جاو ومن أنياب الأفيال المصادة في منطقة بحيرة تشاد كان يعبر من ليبيا.

الأحجار الثمينة:

كانت الأراضي الأفريقية تحتوي على مناجم للأحجار الثمينة: كانت الأجات (الخماهان ـ الخماهن) توجد في مصر العليا، والزمرد والزبرجد في مصر وبلاد الباجة، والبجادي في أفريقية الشرقية. كانت هذه الأحجار تصدر إلى مصر[1]. وكانت توجد في جبال كتامة (منطقة القبائل) مناجم لازورد[2]. إننا نجهل من أين كان يستخرج البجادي (الجرنات) المغربي الذي كان يجهز به العبيديون أطقم الحلي والمجوهرات، والذي صدر فيما بعد إلى مصر الفاطمية[3]. لم يكن البجادي الحجر الثمين الوحيد الذي كان يعبر الإقليم الليبي: لقد رأينا السكان اليهود من حلوان يأتون عبر زويلة بالذهب والأحجار الكريمة التي كانوا يبادلونها بالحديد والنحاس[4].

سنلاحظ كذلك على الطريق من غدامس إلى تادمكة، في الجنوب الغربي للهقار وجود منجم للتاسي ـ ن ـ سمت، وهو حجر يشبه العقيق (كورنالاين)، والأمر هناك يتعلق بتصدير نحو السودان، ربما كان يلعب فيه بربر الصحراء الليبية الغربية دوراً. كان يمكن صقل هذه الأحجار وثقبها باستعمال حجر آخر يسمى تنتواس، وتكون عندها مرغوبة من قبل سكان غانا الذين كانوا يشترونها بأسعار مرتفعة جداً[5]. نعرف كذلك أن نساء

---

(1) الأصطخري، ص51. وابن حوقل، ص150/ 147 ـ 148. وB.G.A, IV, gloss، ص229، انظر خوماهن. وT. Lewicki, Pierres Precieuses، ص49 ـ 68.

(2) البكري، ص33، 83/ 74، 167.

(3) T. Lewicki, op. cit, pp. 56 - 57, d'apre's Al. Biruni.

(4) Benjamin de Tudele, trad. en Levtzion and Hopkins, Corpus, pp. 135 - 136.

(5) البكري، ص182/ 344.

الوثنيين في السودان كن يخفين عاناتهن خلف عقيق أحمر منظوم[1].

الذهب

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

ربما انتبه المسلمون بمجرد الصدفة إلى وفرة الذهب في السودان. فقد استهدفت غزوة حبيب بن أبي عبيدة جنوب السوس، بشكل أساسي، الحصول على مغانم من العبيد الذين أصبح يتعذر الحصول عليهم في الشمال بسبب تحول أفريقية والمغرب إلى الإسلام واستقرار السلام في حوض المتوسط. ونعتقد أن البربر الخوارج، سادة طرق الصحراء كان هدفهم الأول الحصول على يد عاملة من الرقيق من هذا المستودع للرجال غير القابل للنفاد الذي كان يمثله السودان، وكانت الأيدي العاملة في حينها تنقص بحدة في أفريقيا الشمالية والمشرق. كان هذا النشاط لوحده يكفي لإثراء البربر الخوارج. ونظراً لصمت المؤرخين والجغرافيين عن ما إذا كانت غارة حبيب قد تكررت، فإن بإمكاننا أن نفترض أن البربر علموا بوجود المعدن النفيس بكميات كبيرة مصادفة أثناء تجارة الرقيق، وقد اتضح لاحقاً مدى ما يعود به عليهم من أرباح لا سيما وأنه لا يقدر حق قدره عند مالكيه. كان ذهب غانا يصل إلى سجلماسة[3] في القرن التاسع، ومَثَّل، في القرن العاشر، مصدر ثراء الصحراء الليبية[4]، ولم تعرف تجارة الذهب وعبوره بليبيا انقطاعاً حتى أواخر القرن التاسع عشر: في سنة 1860ف، كانت كل قافلة قادمة من عين صالح إلى غدامس تتضمن حملين إلى خمسة أحمال من الذهب في شكل تبر وسبائك[5]، وفي سنة 1881ف التقى المقدم

---

(1) القزويني، ص26، انظر (تكرور). انظر كذلك T. Lewicki، المرجع المذكور، ص135 ـ 136. وTahleau Geographique, R. Mauny، ص319 ـ 320.

(2) القرآن، سورة التوبة، الآية 34.

(3) اليعقوبي، بلدان، ص359/ 225، بعاليه، ص549.

(4) الأصطخري، ص39. وحدود العالم، ص153.

(5) H. Duveryrie, Les Touareg du Nord, p.360.

فلاترز Flatters على الطريق أغاديس ـ غدامس قافلة كان معها تبر وريش نعام وعبيد[1].

كانت التكوينات الحاملة للذهب واقعة في منطقة السنغال الأعلى ـ النيجر (بامبوك، وقلام، وبوري)، وعلى مسافة 550 ـ 750كم جنوب تومبكتو في منطقة بورا وبلاد اللوبي[2]. وقد ذكر تكوين غيارو الذي كان ينتج أنقى الذهب مرات عديدة من قبل الجغرافيين[3] ولكن المسلمين لم يتمكنوا من زيارته باستثناء أباضي من الجريد استقر فيه وتوفي[4] هناك. ويذكر الإدريسي كذلك من بين المناطق المصدرة للذهب، التكرور وونقارة[5] اللتين يحددهما R. Mauny على التوالي بقلام وبوري[6].

لما كان المسلمون لم يقتربوا من مناجم الذهب، فقد انتشرت أكثر الحكايات غرابة طوال قرون حول طريقة الحصول عليه. فالذهب ينمو في الرمال مثل الجزر ويتم جمعه عند شروق الشمس، حسب ابن الفقيه وآخرين

---

(1) H. Lhote, Recherches Sur Takedda, p.445. n.1.

(2) R. Mauny, Tableau Geographique, pp. 293 - 298, Carte des gisements auriferes, p.295.

(3) ابن حوقل، ص61، 427/ 58، 502 الذي لم يتحدث عن الذهب. البكري، ص176 ـ 177/ 331. والاستبصار، ص221. والإدريسي، ص9/ 11 الذي لا يتحدث عن التكوينات الحاملة للذهب. وابن سعيد، بسط الأرض، ص26 الذي يعتبر غيارو أشهر مدينة بعد غانا. والحميري. انظر (غانا). ويوقع Ch. Monteil، غيارو على مسافة 5كم جنوب كيس، انظر Recueil, J.M.Cuoq ص101، رقم2.

(4) T. Lewicki, Quelques extraits inedits, p19 - 29, 24 - 25.

(5) نزهة، ص3، 6، 3/7، 7.

(6) Tableau Geographique، ص302. كانت توجد تكوينات حاملة للذهب في أفريقيا الشرقية، خاصة في مصر العليا في وادي علاقي ـ اليعقوبي، بلدان، ص334/ 290. الإدريسي، ص27/ 32. الحميري، انظر (أسوان) ـ وفي الزيلع حيث كان الذهب نادراً. انظر الإدريسي، ص25/ 30. والحميري انظر (زالع). إن الذهب في هذه الأماكن لم يكن يعبر من ليبيا بل عبر عيذات وزيلع نفسها، وعنها انظر Geographie, A. Miquel، ج2، ص174. عن الذهب في شبة الجزيرة العربية، انظر Soures of Gold and Silver, D.M. Dunlop، ص33 ـ 40، وحول استخراجه، 44 ـ 45.

أتوا بعده. وسنلاحظ فيما يتعلق بتُدْمِير (مُرسيْ) ـ التي كان المسلمون يزرونها ـ أن ابن الفقيه يتحدث عن معدني الذهب والفضة[1]. ويقول اليعقوبي بوجود «ترسبات» من الذهب والفضة في نواحي سجلماسة، وهي هناك كالنباتات وعندما تهب الريح تذروها[2]. ويزرع في مالي نوعان من نباتات الذهب، حسب العمري، أحدهما ينمو في الصحراء بعد الأمطار ويظهر في الربيع، والآخر يظهر طوال السنة عند بعض النقاط على ضفاف النيجر حيث تحفر ثقوب ويعثر على جذور الذهب[3]. عند الإدريسي وابن سعيد، يوجد الذهب على سطح الأرض عندما ينخفض مستوى فيضان النيجر[4]. وقد كان الزهري أكثر تحديداً، فهو يقول بعدم إمكانية تسلق الجبال العالية المفصولة عن بلاد النوبة، في شهر يولية تسيل أنهار غزيرة من هذه الجبال وتتراكم الرمال في مصباتها ويقوم النوبيون بغربلة هذه الرمال ويحصلون على قطع من الذهب في حجم حبات القمح أو الشعير، ويفعل الزنج نفس الشيء في بلدانهم[5]. ويتحدث مؤلف مجهول عن مناجم حقيقية للذهب السوداني: في بلاد الفريون يستخرج الذهب من مناجم «كما يستخرج عندنا الحديد والرصاص والنحاس والفضة.»[6]، ويورد العمري نفس الشيء

---

(1) ابن الفقيه، ص87 ـ طبعة حاج صدوق، ص50 ـ 51. أبو حامد، ص41/ 243. القزويني، ص18، انظر بلاد التبر. لم تكن تدمير قد سميت بعد مُرسيْ، إن هذا الاسم من ثيودمير، وهي اسم رئيس قوطي عقد معه عبد العزيز بن موسى بن نصير، ابن فاتح إسبانيا حلفاً بعد سنة 715هـ/ 914ف، انظر حاج صدوق، رقم 86، ص112E. Levi provencal ، موسوعة الإسلام (عبد العزيز بن موسى بن نصير). M.J.de Goeje ـ الإدريسي ملاحظة ص343 ـ يشرح معنى معدن وكذلك يعني معدن «مكان يتوافر فيه شيء ما بوفرة». ومن هذا جاء منجم يمكننا أن نتكلم عن معدن حيوانات ركوب، وسلع وغيرها.

(2) بلدان، ص539/ 225. ترجم G. Weit كلمة معادن بكلمة Depots.

(3) L'Afrique moins L'Egypte, pp. 70-72.

(4) نزهه ص8/ 9. وبسط الأرض، ص26. يشرح الإدريسي فيما يتعلق بوادي علاقي أنه يجمع في الصبح الذهب الذي يرى يلمع أثناء الليل ثم يغسل يصنف في أوان ثم يصهر، ص26/ 30.

(5) جغرافية، ص186.

(6) الاستبصار، ص219.

قائلاً: إن مناجم الذهب عبارة عن حفر تحفر إلى عمق بطول رجل[1].

كان الذهب في السودان يبادل بالملح. ويقال بأن الملح كان يباع بوزنه ذهباً عند الفريون[2]، وهو أمر شائع في السودان[3]. كان التجار يذهبون من سجلماسة إلى غانا عبر رمال كأنها بحار ويأخذون معهم مؤناً لستة أشهر، وكانوا يبادلون الملح الذي يحضرونه «مقابل وزن مساو من الذهب»[4]. إن سعر التبادل، كما قدره الجغرافيون، مبالغ فيه بشكل مضحك ـ يقدر R. Mauny الإنتاج من الذهب الغرب أفريقي بتسعة أطنان في السنة بدءاً من القرن السادس عشر[5] ـ ومن ثم كانت القوافل أقل حمولة في إيابها منها في ذهابها، وهكذا كان التجار يستطيعون زيادة أرباحهم بنقل منتجات أخرى نحو الشمال: فنحن نعرف أن التجار المصريين كانوا يقايضون الملح بالذهب، وكانوا في الأجزاء الأبعد نحو الجنوب في بلاد السود يقومون بسرقة الأطفال أو شرائهم من السكان المحليين الذين يأسرون أطفال بعضهم البعض، وكانوا يقومون بخصيهم لبيعهم في مصر[6].

كان الذهب في السودان يبادل، كذلك، بالزجاج والرصاص «بنفس الوزن»[7]، وبالحديد والنحاس[8] والملابس[9] والصوف والخرز[10].

---

(1) L'Afrique moins L'Egypte, pp. 81.

(2) البكري، ص174/ 327.

(3) حدود العالم، ص42/ 244 ـ 245، يقول: إنه حتى في غانا يحدث أن يبادل الملح بضعف وزنه ذهباً.

(4) أبو حامد، ص41 ـ 42/ 243 ـ 245.

(5) Tableau Geographie، ص300 ـ 301 الذي يقترح عدة آلاف من الأطنان منذ القدم حتى 1500ف، و3500 طن للفترة الممتدة من 1500ف حتى 1900ف.

(6) حدود العالم، المرجع أعلاه.

(7) نفس المرجع.

(8) إسحاق بن حسين في Recueil, J.M.Cuoq ص63. وبنجامان دي توديل، في Corpus, Levtzion and Hopkins، ص136.

(9) أبو زكريا الورجلاني في Quelques Extraits inedits, T. Lewicki، ص4، حيث يتعلق الأمر بمقايضة لم تتم: واضطر التاجر الأباضي من ورقلة للعودة بحمله.

(10) الحميري، انظر (تكرور) والذي يشير كذلك لشراء عبيد.

كانت المعاملات مع منتجي الذهب تتم في بعض الأحيان بطريقة خاصة. كان ملاك الذهب، ولأسباب لم تفسر بعد، لا يرغبون في الاتصال المباشر مع المشترين المسلمين. عندها تكون التجارة صامتة بين الطرفين، وهي تجارة تناول العديد من المؤلفين أسلوب عملها[1]. عندما يصل التجار إلى حد منطقة ملاك الذهب الذين كانوا يعيشون في أكواخ أو أزراب وفي مكامن رافضين أو يُروا، يضع التجار المنتجات لغرض التبادل منفصلة على الأرض، ويقومون بضرب الطبول التي تسمع أصواتها حتى مسافات بعيدة وينسحبون مسافة قد تبلغ مسيرة يوم (مرحلة). يأتي بعدها السودانيون ويضعون كمية من الذهب قرب كل سلعة ثم ينسحبون. إذا رضي التجار عند العودة بما اقترحه ملاك الذهب فإنهم يأخذون الذهب وإذا لم يرضوا فإنهم ينسحبون مرة أخرى أو ينقلون سلعهم إلى مكان آخر ويعيدون الكرة مرة أخرى وهكذا إلى أن يتفق الطرفان. وكان رحيل التجار يُعلن عن طريق الطبول. هكذا لا يرى أي طرف شريكه[2].

حسب أغلب المؤلفين، كان تجار الشمال هم الذين يتعاطون المقايضة

---

(1) قدمت عدة شروح حول وجود مقايضة صامتة ولكن أياً منها لا يرضي بشكل كامل علماء الأنثروبولوجيا: حاجز اللغات، استحالة الاتصال لأعضاء ومجتمعات مختلفة تماماً، إحداهما «متطورة» والأخرى «بدائية» حتى بالإشارات خشية المخاطر والخوف من الآخر: لون البشرة، أسنان مبرودة، ملابس وأصباغ، والرغبة في حماية مصادر التزويد بمنتج مرغوب من التجار الزائرين، والرغبة في تحاشي المساومات التي لا تنتهي وتقديم هدايا مكلفة. البعض يرى أن العديد من أوصاف التجارة الصامتة مجرد خيال وليد جاذبية الغرابة المتعلقة دائماً بتخوم العالم المعروف، انظر ابن بطوطة، ج2، ص400 ـ 401 الذي يشك في أنه وصل عند البلغار، ويصف المقايضة الصامتة لجلود الفرو (الزبلين، والقاقم) في أرض الظلمات (سيبيريا)، انظر On Silent Trade, John, A. Price، ص75 ـ 85.

(2) المسعودي، مروج/ج2، ص261. ونفس المؤلف، أخبار الزمان، ترجمة فرنسية، في Recueil, J.M.Cuoq ـ وترجمة إنجليزية Corpus, Levtzion and Hopkins، ص35 ـ 36. وإسحاق بن الحسين، ترجمة فرنسية J.M.Cuoq، المرجع المذكور ص63 ـ والترجمة الإنجليزية Levtzion and Hopkins، المرجع المذكور، ص39. والزهري، ص186. وياقوت، انظر (التبر). والعمري. ص83.

الصامتة. وإذا ما سلمنا بما قاله الزهري، كان أهل النوبة والأحباش ـ وهو يحدد هنا السود في المناطق التي يرتادها التجار المسلمون[1] ـ يتعاملون بنفس الطريقة مع الزنج، وهم سود أفريقيا العذراء، هذا الفضاء الهائل الذي لا يعرف عنه شيء وحيث لا يوجد ـ بكل تأكيد ـ أي حيوان بسبب أشعة الشمس الحارقة[2]. حسب ياقوت. لقد كان وجود التجارة الصامتة في الذهب عابراً. فقد تملك ملوك الدول السودانية هذه الثروة بسرعة. هكذا، كان ملك مالي في هدنة دائمة مع الأقوام الذين كانوا يزرعون الذهب[3]، وبالمقابل كان هؤلاء يدفعون له أتاوة[4]، وكان الملك شديد الحرص على عدم إخضاع هؤلاء الوثنيين لأنه لاحظ تناقص محصول الذهب عند استقرار الإسلام في هذه النواحي، لذلك اكتفى بتحصيل أتاوة[5]. كان على تجار الشمال التعامل مع مؤسسة تجارية حقيقية وكانوا يشترون الذهب في تغازة وغانا ومالي وجاو وتادمكة. وكانت التعاملات التجارية في السودان تتم بواسطة الذهب، وبالتبر تحديداً[6].

كانت حركة التبر حرة، وكانت قطع الذهب من المناجم للملك الذي يترك للناس التبر الدقيق، وكان هذا ترتيب لتحاشي أن لا يكون الذهب معروضاً بكميات كبيرة ويفقد قيمته[7]. بالرغم من ذلك تمكن التجار بعد قليل من الحصول على الذهب المصنع (الذهب). كانت أودغست تصدر الذهب النقي (الإبريز) في شكل أسلاك مبرومة[8]. وبينما كان التعامل في النصف الثاني من

(1) يتحدث خاصة عن أحباش كوكو/ جاو، انظر ص184.

(2) معجم، انظر (التبر).

(3) العمري، ص70.

(4) نفس المرجع، ص58 ـ 59.

(5) حدود العالم، ص153.

(6) كانت هذه هي الحالة في أودغست، انظر البكري، ص158/ 300.

(7) البكري، ص176 ـ 177/ 331.

(8) نفس المرجع، ص159/ 301.

القرن العاشر يتم في تادمكة بالتبر نقداً[1]، وكان يجب وزنه، استعملت فيها بعد بعض الوقت دنانير من الذهب الخالص، ملساء من الوجهين، كانت تسمى «الدنانير الصلع»[2]. وفي القرن الرابع عشر كان معدن الذهب في غانا ـ وهي بلد يُرى فيه الذهب على سطح الأرض ـ يصنع مثل الأجر (كاللبن)[3]. وفي القرن السادس عشر كانت قطع الذهب النقي لا تزال تستعمل نقداً في تومبكتو، وكان لدى الملك ثروة من النقد والسبائك الذهبية[4].

تقوى إغراء ذهب بلاد السود للتجار الشمال أفريقيين بانتشار الأوصاف والحكايات حول ثراء الحكام السودانيين، وهي أوصاف وحكايات سجلها، لحسن الحظ، الجغرافيون والمؤرخون. سنلاحظ بعض المبالغة من جانب الرحالة والمؤرخين أحياناً ولكن لا يمكن أن نصمهم بالكذب لأن الاكتشافات الأثرية أثبتت أن الزينات البديعة للرؤساء في جنوب الصحراء لم تكن خيالاً مجرداً[5].

كان لدى ملك غانا قطعة من الذهب في حجم حجر[6] ضخم، كانت كتلة من قطعة واحدة تزن ثلاثين رطلاً منتجة طبيعياً لم تصهر ولم تصنع من قبل إنسان، باستثناء ثقب عمل فيها وكان يربط فيها[7] حصان الملك وكان الملك يتفاخر بهذه الملكية عند الملوك السودانيين[8] الآخرين. ولما كانت السيادة

(1) T. Lewicki, Quelques extraits inedits, p.4 et p.7, n.8.

(2) البكري، ص181/ 339.

(3) الحراني، في ي. كمال Monumenta، ج4، وRecueil, J.M.Cuoq، ص249 يقرأ كاللبن ويترجمها Le traitent comme le lait ويبدو أن الأمر هنا يتعلق بصناعة السبائك، انظر Tableau Geographique, R. Mauny، ص303.

(4) ليون الأفريقي، ج2، ص468 ـ 469.

(5) R. Mauny، المرجع المذكور، ص306.

(6) البكري، ص177/ 331.

(7) الإدريسي، ص7/ 8. والحميري، انظر (غانا).

(8) ابن سعيد، بسط الأرض، ص26.

لمالي، فقد عثر فيها بعد ذلك على هذه الكتلة. وقد نقل أحد سكان سجلماسة كان قاضياً في جاو إلى ابن خلدون أن حفيد منساموسى، ماري جاتا (1360ف ـ 1374ف) عاش حياة فسق وفجور وبذر الثروة الملكية لدرجة اضطراره لبيع هذه الكتلة، التي كانت ما تزال كما استخرجت من المنجم، بسعر بخس لتجار مصريين[1].

تجاوز البذخ في مالي البذخ في غانا. تناولنا روعة قافلة ـ موكب منساموسى عندما ذهب للحج وما أظهره من سخاء في القاهرة والحجاز[2]. ونضيف لتوضيح مدى سخائه ولا مبالاته بذهبه، أنه صرف سواء في مصر أو في الجزيرة العربية إلى حد أنه كان معدماً عندما رجع إلى القاهرة واضطر للاقتراض من تجار ربحوا سبعمائة[3] دينار عن كل قرض بثلاثمائة. ونلاحظ أن البساطة والثقة التي ظهرت بها حاشية منسا موسى وصلت إلى درجة عرضتهم للغش والخداع من تجار القاهرة، فقد كان هؤلاء يحددون أسعاراً للسلع مبالغاً فيها، وقد بقيت ذكرى هذه المعاملات غير الصحيحة[4] من قبل سكان القاهرة، حتى كبار العلماء والفقهاء منهم، مشهورة في مالي. كنا نتمنى أن نعرف مدى استفادة الصحراء الليبية من مرور هذا العاهل[5]، وكيف تصرف سكانها، ومن المؤسف أن النصوص لا تتناول شيئاً عن المسار بين توات والقاهرة.

تناول البكري بالوصف البذخ الذي ساد في البلاط الملكي في غانا: أقمشة مطرزة، وخيوط من الذهب لخيول الملك، وسيوف مزينة بالذهب للغلمان، وعقود وجلاجل من الذهب والفضة للكلاب[6]. وقد تجاوزت ثروة

(1) البربر، ج2، ص114 ـ 115. انظر بعاليه، ص527، رقم 9.
(2) انظر بعاليه، ص532 ـ 533. والعمري، ص75 ـ 80، 92. وابن خلدون، البربر، ج2، ص113. ومحمود كعتي، تاريخ الفتاش، ص36/ 63. والسعدي، تاريخ السودان، ص7/ 13 ـ 14.
(3) العمري، ص75.
(4) نفس المرجع، ص79.
(5) مرموسى بتوات ومن المحتمل بغدامس، انظر بعاليه، ص530، 609.
(6) المسالك، ص176/ 329.

مالي خيال الرحالة. وعندما كان يجلس السلطان، كانت كل الأسلحة بالقرب منه من الذهب، وكان فرسانه يلبسون أساور من ذهب، وللشجعان من بينهم عقود من الذهب، بينما كان للذين قاموا بأعمال متميزة حلقات من الذهب في أرجلهم، وكان الملك يقدم لضباطه وجنوده عطايا من ذهب[1]. وقد كانت النوافذ الثلاث في قاعة الاستقبال مزينة بصفائح من الذهب، وكان غمد سيف مترجم الملك من ذهب كما أن أحد رمحيه من ذهب والآخر من فضة. وكان يعلو المظلة التي تغطي الفناء طائر من ذهب، كما كانت أدوات الموسيقيين والمغنيين من الذهب أو الفضة، وسيوف مروضي الجياد مزينة بالذهب. وكانت زوجات المترجم الأربعة وعشيقاته المائة يغطين رؤوسهن بعصابات من ذهب وفضة[2].

يؤكد ليون الأفريقي، في القرن السادس عشر أن لدى ملك تومبكتو كنزاً من سبائك الذهب، تزن إحداها ألفاً وثلاثمائة رطل[3]! ولم تكن توجد في جاو سلع بكميات كافية لصرف الذهب المتداول فيها بالرغم من أن كل ما فيها كان مرتفع السعر للغاية: الخيول، والسروج، والأقمشة، والسلاح، والملح[4] بكل تأكيد. وكان ملك بورنو ـ وهو من التبو ـ يتباهى بثرائه، فقد كانت مهاميز خيوله وأركبتها وألجمتها مصنوعة من أنقى[5] أنواع الذهب، وكذلك سلاسل كلابه.

استخدمت كل الطرق الرئيسية العابرة للصحراء لنقل المعدن الثمين إلى

(1) العمري، ص65 ـ 67.

(2) ابن بطوطة، ج4، ص403 ـ 404، 406، 411.

لغاية ص 435

(3) Description de L'Afrique, II, pp.468.

(4) نفس المرجع، ص471، ورقم 72. لا يساوي طفل عبد إلا ثلاث مرات أغلى من 3.4 كجم ملح، وبنت صغيرة عمرها 15 سنة ست مرات أكثر.

(5) نفس المرجع، ص481. يضيف ليون أن هذا الملك بخيل جداً ويفضل الدفع بالعبيد عن الدفع بالذهب.

أفريقيا الشمالية ومصر. ومن المرجح أن أهمية هذه الطرق كانت تتزحزح نحو الشرق كلما تقصلت قوة غانا لصالح مالي[1].

كان الذهب المشترى من غانا يُصنَّع في أودغست في شكل أسلاك ويأخذ طريقه إلى سجلماسة[2]، ومن هناك ينقل نحو المراكز الكبيرة في الشمال، ونحو المشرق. وعندما فقدت أودغست من أهميتها[3] في القرن الثاني عشر بسبب سوء التنظيم في غانا الذي أدى إلى تشرذم المملكة[4]، تحول طريق الذهب «بلاد الذهب ـ سجلماسة» عبر ولاتة[5] وتغازة التي كانت منتجاً للملح ومركزاً كبيراً لتجارة الذهب[6]. كان الجزء الأكبر من ذهب غانا يشترى من قبل سكان ورقلة في النصف الأول من القرن الثاني عشر. وكان يُضرب نقوداً في سكة المدينة[7]. ويصل الذهب إلى ورقلة عبر تغازة أو تادمكة[8]، وهي مدينة كانت تسك فيها النقود كذلك، وتنتج دنانير غير مضروبة.

كانت القوافل الكبيرة تمر كذلك بتكدة وتنفصل في جنوب الهقار لتأخذ طريق توات نحو سجلماسة أو طريق غات[9] لتتوجه بعد ذلك إما إلى غدامس[10] وأفريقية وإما نحو الواحات الصحراوية في ليبيا ومصر.

---

(1) انظر بعاليه، ص529 ـ 530.

(2) البكري، ص155 ـ 159/ 295 ـ 301.

(3) لم تعد أودغست في القرن الثاني عشر إلا مدينة صغيرة قليلة السكان والتجارة، انظر الإدريسي، ص32/ 38.

(4) انظر بعاليه، ص528 ـ 529.

(5) كانت ولاتة مسكونة من قبل مسوفة، وهم بربر ملثمون. كان ما يزال أباضيون في المنطقة في القرن الرابع عشر. انظر ابن بطوطة، ج4، ص394 ـ 395.

(6) نفس المرجع، ص377 ـ 378. إن أدوارها كمحطة، ومركز تجاري مهم هي عناصر الجذب الوحيدة في هذا المكان غير الصحي، ص379.

(7) الإدريسي، ص8، 120 ـ 121/9، 141.

(8) من قبل في النصف الثاني من القرن العاشر، انظر T. Lewicki, Quelques extraits inedits.

(9) ابن بطوطة، ج4، ص445. انظر بعاليه ص543، 546.

(10) حسب ابن سعيد، تقع غدامس على الطريق المستعمل الذي يؤدي إلى بلاد الذهب والعبيد، انظر بسط الأرض، ص61 منقولاً من قبل أبي الفدا، تقويم ص146 ـ 147. انظر بعاليه، ص439.

لم تكن غدامس وغات الواحتات الليبيتان الوحيدتان اللتاب تستفيدان من هذه التجارة. كانت جرمة لا تزال مدينة مهمة في القرن الثاني عشر[1]: يذكر الإدريسي ـ دون تفاصيل لسوء الحظ ـ طريقاً من أودغست إلى جرمة[2].

كانت زويلة هي المركز الصحراوي الأكثر أهمية في ليبيا. وهي متخصصة في تجارة العبيد على وجه الخصوص، ولكنها كانت في زمن الازدهار الأباضي مركز توزيع أساسي للذهب. يقول الاصطخري بأنها قريبة من مناجم الذهب[3]، وكان ثراء البربر في الذهب يوازي ثراء العرب[4] في الحيوانات وعرفت الواحة تعاوناً يهودياً ـ أباضياً: كان يأتيها يهود مصريون أو يمرون بها للتزود بالذهب والأحجار الثمينة[5]. وكما رأينا، لم تعان الواحة وتجارتها، في القرن الحادي عشر من وجود بني هلال، فقد بقيت الطرق مفتوحة. وبعد مغامرة بني غانية وقراقوش سمحت سيطرة كانم على الصحراء الليبية لملك سوداني بالسيطرة على طريق الذهب والعبيد نحو المتوسط.

من المحتمل أن بعد الصحراء الليبية عن مصادر الذهب، وقربها من بلاد الزغاوة ومن كانم ـ بورنو، مصادر الرقيق جعلت ثراء الأباضيين ـ بعد تفوقهم في هذه الأقاليم ـ يأتي أساساً من تجارة الرقيق.

لم تكن صبرو/ الكفرة بعيدة عن هذه التجارة. فقد ذكر وجود الذهب[6] فيها. وفي القرن السادس عشر، كانت الواحة تدفع أتاوة لجيرانها العرب ولكنها كانت ما زالت ثرية ـ بسبب موقعها بين مصر وجاو[7].

---

(1) الإدريسي، ص35/ 41.

(2) نفس المرجع، ص32/ 38. انظر بعاليه، ص571.

(3) مسالك، ص39.

(4) حدود العالم، ص153، انظر بعاليه، ص467 ـ 468.

(5) Benjamin de Tudele, in Levtzion and Hopkins, Corpus, pp.135-136.

(6) الاستبصار، ص148، والحميري، انظر (الواحات).

(7) Leon L'Africain, II, pp.457-458.

الرقيق:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1].

ستتناول الرقيق، هنا، كسلعة، بالرغم من أن هذا يبدو صادماً لأن هذا ما كان منذ الفتح حتى القرن العشرين[2].

كان شرق أفريقيا المصدر الأساس للرقيق، بالنسبة للجزيرة العربية قبل الإسلام، واستمرت منطقة شرق أفريقية في تزويد المشرق الإسلامي بأعداد كبيرة لدرجة تمكنوا معها من خلال ثورتهم ـ ثورة الزنج (869ف ـ 883ف) ـ من احتلال كل العراق الأسفل. وكما توضحه النصوص، كان أحد الاهتمامات الرئيسية للعرب عند توغلهم في شمال أفريقيا أخذ مغانم وعبيد. وقد قضى السلام مع النوبيين بهدنة وأن يدفع النوبيون أتاوة من العبيد وحيوانات الركوب، فقد أصر عبد اللّه بن سعد على ثلاثمائة عبد في السنة وتعهد بمقابلهم من الغذاء. وقد استطاع العرب أن يشتروا من النوبيين أطفالهم[3]. وفي ليبيا، نصت اتفاقيات برقة على أن يبيع اللواتيون نساءهم وأطفالهم إذا لم يستطيعوا جمع المبلغ اللازم لدفع الجزية. وسمحت مقاومة البربر، طوال الفتح الشمال أفريقي، للمسلمين بأن يبرروا شرعية أخذ الرقيق، وهو ما كان مُشجعاً من قبل الخلفاء وولاة مصر. وقد حرمت التحولات إلى الإسلام خاصة في عهد عمر بن عبد العزيز من هذه الشرعية[4]. وبالرغم من الانقلاب حينها ضد البربر

---

(1) سورة النساء، الآية: 36، ترجمة (Masson).

(2) حول الوضع القانوني للعبيد في المذهب المالكي وهو المتبع في المنطقة التي تهمنا، انظر، ابن أبي زياد، فهرست. وخليل ابن إسحاق، فهرست. ودراسة ر. برنشفيق، موسوعة الإسلام، انظر عبد.

(3) انظر بعاليه، ص56 ـ 57.

(4) انظر بعاليه، ص187 ـ 188.

المتحولين للإسلام، فإن عدد الأسرى لم يكن كافياً لمواجهة المتطلبات المصرية والمشرقية. كان السودان قد استطلع من قبل عقبة سنة 64 ــ 662ف ومن قبل حبيب بن عبيدة سنة 734ف، وأحضر كلاهما أسرى نحو الشمال، ومن ثم كان المحتل العربي على علم بالإمكانات الضخمة لبلاد السود، بخلاف إمكانات بربريا من ذلك الوقت فصاعداً. كانت «الماشية البشر»[*] هناك، بعيداً إلى الجنوب. يبقى أن يُذهب إلى هناك للبحث عنها. وقد أتاح الانفجار الخوارجي والقوة الاقتصادية لإمامة تاهرت الفرصة للبربر، وهم العارفون الوحيدون بالطرق العابرة للصحراء، لأن يصبحوا ضروريين لهذه المهمة، ويثرون، ولم يتأخر التجار المشرقيون في القدوم والاستقرار في نقاط انتهاء الطرق الأساسية لتجارة الرقيق. وقد بدأت هذه الأخيرة في النصف الثاني من القرن الثامن، واستمرت بالرغم من إدانة المدرسة المالكية للتجارة مع السودان، وكبح جماحها بعض الشيء من قبل مؤتمر فيينا، ثم تواصلت بصعوبة أحياناً حتى القرن العشرين.

لقد استُرقت كل العروق السوداء دون تمييز[1]. لا يقدم الجغرافيون العرب معلومات حول أعداد العبيد الذين اشتروا أو أُسروا في السودان. والوحيد الذي يعطينا مؤشراً ثميناً هو ابن بطوطة: فقد غادر تكدة نحو توات في 12 سبتمبر 1353ف مع قافلة تعد ستمائة عبد[2]. تفيد الروايات التي جمعها Henri Duveyrier أنه كان يدخل مرزق 2500 إلى 3000 عبد في السنة[3]. ودون أن نأخذ في الاعتبار احتمال أن يكون الرقم أعلى في العصور الوسطى يمكننا أن نحسب أن حوالى 2800000 عبد مروا عبر طريق وسط فزان في الفترة ما بين

(*) تعبير استعمله المؤلف. المترجم.

(1) الأصطخري، ص40، وكل التوصيفات القروسطية لأفريقيا جنوب الصحراء من الأطلسي حتى البحر الأحمر وإلى المحيط الهندي.

(2) رحلة، ج4، ص444 ــ 445. حول الأسماء التي تعني العبد، انظر Brunschvig، موسوعة الإسلام، انظر (عبد).

(3) Les Touareg du Nord, p.284.

750ف و1800ف. وقد كانت مدينة كانو تصدر 5000 عبد[1] في السنة، وهو ما يعطينا لنفس الفترة ولهذا المكان وحده 5200000 عبد. إن من الواضح استحالة تقدير عدد العبيد الموردين من أفريقيا جنوب الصحراء الذين وصلوا سالمين منذ بداية تجارة الرقيق، وكذلك الصادرات ـ بسبب الوفيات في الطريق ـ وعدد المأسورين مأخوذاً في الاعتبار أعداد القتلى أثناء الإغارات والخسائر بسبب عمليات الخصي التي كانت تُحدث ـ كما سنرى ـ وفاة تسعة من كل عشرة يخضعون لهذه العمليات[2]. ويجب أن تُضرب الأرقام السابقة بعدد الطرق العابرة للصحراء أو عدد مراكز التصدير مضافاً إليها تقديرات الخسائر. كما يجب أن يضاف إليها نتاج التجارة عبر الأطلسي والشرق أفريقية[3]، وأعداد العبيد في السودان ذاته إذ لم نقتصر فقط على هؤلاء الذين أخذوا خارج أوطانهم، وإنما نأخذ في الاعتبار كل الذين فقدوا الحرية.

إن السبب الرئيس وراء هذا الاستيراد الضخم للعبيد كان عدم تجددهم. فقد كان من المرغوب للمسلم أن يعتق عبده ـ رجلاً أو امرأة ـ وكان من يعتق جارية أو يتزوجها موعوداً بأجر من الله سبحانه وتعالى؛ وكان العتق إجبارياً

---

(1) R. Capot-Rey, Le Sahara Francais, p.216.

(2) Transfomations, P.E. Lovejoy، ص25، يقترح بعض الأرقام التي إذا ما قورنت بالرواية التي أوردها H. Duveyrier، تبدو لنا غير مرتفعة بشكل ملحوظ.

(3) بعض الأرقام عند P.E. Lovejoy، المرجع المذكور، ص19 (تجارة الأطلسي من 1450ف إلى 1900ف)، ص25 (البحر الأحمر) (إجمالي الصادرات من 1500ف إلى 1800ف: 11476000)، ص47 (التجارة الأطلسية مع نسبة الفاقد خلال النقل ص48 (التجارة الأطلسية أرقام لكل بلد أوروبي وأمريكي مورد). يقدر R. Mauny بـ30 مليون عدد العبيد المصدرين بواسطة تجارة الرقيق العربية وعبر الأطلسي. إن التجارة العربية التي استمرت لأكثر من أحد عشر قرناً كانت مسؤولة عن أقل من النصف فقط وبالرغم من أن تجارة الرقيق بواسطة البيض استمرت ثلاثة أرباع قرن فقط فإنها مسؤولة على الجزء الأكبر، انظر Les Siecles obscurs، ص240 ـ 245. من أجل تصور النزيف الذي عانت منه أفريقيا السوداء، يجب معرفة أنه قدر لكل عبد يبلغ مكان الوصول من خمسة إلى عشرة يهلكون أو يقتلون أثناء الإغارة، أو يتركون موتى من المرض أو الجوع أو العطش أو الإنهاك أو ضحايا وحشية الناقلين. انظر H.G.B وSlavery, H.J. Fisher، ص77 ـ 78.

عندما يأتي المسلم ذنباً كبيراً[1]. وكان يحدث أن يعتق الملك حرسه من السود[2]. وكان العبيد الجنود يقتلون في المعارك والعبيد العمال في العمل. هذا بالإضافة، إلى أن العبيد، مثل كل من هم في الأسر، يتوالدون قليلاً، وعندما تلد الجارية من سيدها فالطفل يولد حراً، وتكتسب الأم حريتها عند موت السيد[3]، وحتى في هذه الحالة كان معدل الولادة منخفضاً[4].

كان الرقيق الأسود يستغل في استعمالات متعددة، لم يطرأ عليها تغيير يذكر بمرور الوقت لدرجة يمكننا معها أن نعود في هذا الخصوص إلى مستكشفي القرن الماضي[*] أو إلى المؤرخين والجغرافيين العرب من القرون الوسطى دون تمييز.

منذ فتح إسبانيا، رأينا السود بين قوات موسى بن نصير الإسلامية، ولا نعرف ما إذا كان هؤلاء السود من النوبيين الذين كانوا يمثلون جزءاً من الأتاوة السنوية المفروضة من قبل والي مصر، أو من المنحدرين من الكواريين الذين أتى بهم عقبة أثناء غارته، أو عبيداً من الأتاوة المدفوعة من قبل ودان وجرمة[5]. كانت جيوش الأغالبة تجند العبيد بعشرات[6] الآلاف، ومن المحتمل أنهم في الجريد اشتغلوا في سلاح الهندسة[7]. وقد احتفظ العبيديون بقوات من الجنود السود أخذوهم معهم إلى مصر[8]، التي كانت معتادة على

---

(1) R. Brunschvig, EI, S.V. Abd, p.26b.

(2) هكذا عتق إبراهيم بن الأغلب (800 ـ 812ف) الخمسة آلاف عبد أسود من حرسه، انظر L'Emirat Aghlibide, M. Talbi، ص136.

(3) خليل بن إسحاق، ج4، ص71 ـ 72. وR. Brunschvig، موسوعة الإسلام، انظر عبد، ص29a.

(4) P.E. Lovejoy, op. cit, p.272.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(5) ابن عبد الحكم، ص92 ـ 93. وإسحاق بن الحسين في Recueil, J.M. Cuoq، ص64. نذكر بالتظاهر بأكل لحم البشر الذي أصاب بالهلع القوط، انظر بعاليه، ص129 ـ 130.

(6) M. Talbi, Droit et Economie, p.212.

(7) M. Talbi, L'Emirat Aghlibide, p.193.

(8) J. Comhaire, Aficains in muslim History, p.340.

وجود الميليشيات السودانية، فقد كان للطولونيين حرس أسود قوامه 24000 رجل[1]. لم تعد النوبة في العهد الفاطمي، تحترم الاتفاقية بدقة، وبدل عبيد، كانت تبعث غالباً بحيوانات، وهو ما اضطر الفاطميين للجوء إلى تجارة الرقيق لمواجهة احتياجات جيشهم[2]. وقد كان لدى الحاكم بأمر الله فيلق من ثلاثين ألف سوداني[3]. وعندما أعلن نفسه إلهاً، وفي نفس الوقت اعتبرت القوات التركية والبربرية من كتامة أنها محرومة من الحظوة، بقي السودانيون لوحدهم مخلصين[4] له. وقد كان الولاء هو الهدف المبتغى من قبل الحكام عند تجنيدهم السود، فقد كان هؤلاء معزولين عن أسرهم ومن ثم كان من المأمول ألا يعملوا للاستيلاء على السلطة وتكوين أسرة حاكمة[5]. وقد جمع الزيريون، في أفريقية، بين القرصنة وتجارة الرقيق من أجل الحصول على عبيد. كان العبيد السود يأتون من كانم[6] على وجه الخصوص وعليه كانوا يمرون بالصحراء الليبية، وعندما سئم الصنهاجيون ـ عماد السلطة الزيرية ـ من صراعاتهم ضد زناتة وفقدوا من روحهم القتالية لجأ الزيريون إلى تجنيد العبيد السود بعشرات الآلاف[7]. وقد استمرت هذه السياسة تحت الموحدين ثم في عهد الحفصيين. فقد أحاط هؤلاء الأخيرون أنفسهم في البداية بقوات من بربر قسطنطينة ـ صنهاجة وسدويكش ـ ومن العرب البدو الذين كانوا مضعفين غالباً

---

(1) S. Lane-Poole, A history of Egypt, p.71..

(2) B.I. Beshir, Nubian Fatimid Relations, p.21.

(3) J. Comhaire, ref. supra.

(4) S. Lane-Poole, op. cit. pp.132-134.

(5) يمثل كافور الإخشيدي استثناء لأنه حكم مصر بمفرده طوال 22 سنة (946ف ـ 968ف)، ويجب ملاحظة أنه حكم دون أن يتكر السلطة الأخشيدية بالرغم من أن الخطب كانت باسمه، انظر S. Lane-Poole، المرجع المذكور، ص86 ـ 89، وA.S. Ehrenkreufz، موسوعة الإسلام، انظر كافور.

(6) H.R.Idris, Zirides, II, p.684.

(7) H.R.Idris, L'Invasion hilaleinne, p.361.

كان بين هذه القوات من السود حالات أكل لحوم بشر حقيقية، انظر ابن عذاري ج1، ص243، انظر بعاليه، ص214 ـ 215، رقم 2.

بالانقسامات الداخلية وسريعين في تغيير مواقفهم، ثم فضلوا بعد ذلك تجنيد قوات أجنبية خاصة لحراستهم الشخصية، من الأندلسيين والغز والمسيحيين والسود[1]. وكان السود يظهرون في موكب السلطان[2]. ولما كانت كانم التي «تمتد سلطتها على نواحي الصحراء حتى فزان» تحتفظ بعلاقات[3] ودية مع الحفصيين منذ تكوين دولتهم فإن من المعتقد أن السياسة الزيرية بتوريد العبيد من حوض تشاد تواصلت، وأن الليبيين الصحراويين لعبوا دوراً كبيراً في هذه التجارة.

كان الرقيق في السودان كذلك جنوداً لصالح الملك أو التجار. ففي أغاديس حيث كان كل السكان من التجار الأجانب، كان العبيد هناك جنوداً للملك. وكان لدى تجار المنطقة عدد كبير من العبيد مسلحين بالحراب والسيوف والأقواس يقومون على حراستهم على الطريق من كانو إلى بورنو التي كانت تعيش فيها قبائل تهاجم القوافل وتقتل المسافرين[4].

إننا نعتقد أن العبيد كانوا يرافقون القوافل في القرون الوسطى، كما في القرن الماضي[*]، للقيام بالترجمة[5]. وفي السودان، كانوا يعملون حمّالين في

---

(1) Hafsides, R. Brunschvig، ج2، ص76 ـ 81. كان الغز الأكراد نشطين جداً خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر، انظر ابن خلدون، ج2، ص463. حول قوات المسلمين الأندلسيين والميليشيا المسيحية، نفس المرجع، ص336. في القرن السادس عشر كان لدى ملك تونس 100 قذاف و1500 من الفرسان أغلبهم من المسيحيين، انظر ليون الأفريقي، II، ص387. كان السلطان المريني في المغرب محاطاً كذلك بالعبيد، انظر العمري، ص210.

(2) العمري، ص114، الذي يسميهم جناو. حسب G. Ferrand، و W.Marcais، جناو/ قناو/ جناو يعني مجموعة السود السودانيين. وفي الغرب الجزائري الجناوية تعني أي لغة غير العربية والبربرية، يتحدثون بها في السودان انظر أبو حامد، ترجمة، ملاحظة ص285. بالنسبة لـ W.D. Cooley، بلاد الجناوة بلاد السودان، انظر The Negroland، ص18 ـ 21، ورقم 35.

(3) ابن خلدون، البربر، ج2، ص109.

(4) ليون الأفريقي، ج2، ص473 ـ 474 الذي يلاحظ أنه في عصره بدأ استعمال الأسهم القذافة. حول استعمال الأسهم القذافة في شمال أفريقيا الشمالية، انظررقم 82 (Henri Lhote).

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(5) A.G.B and H.J. Fisher, Slavery, p.120.

المناطق الجبلية حيث لا تستطيع حيوانات الركوب العبور[1]. وقد كان منساموسى، عند ذهابه للحج مصحوباً باثني عشر ألفاً[2] أو أربعة عشر ألفاً[3] من العبيد صغار السن، مرتدين ملابس من الديباج وحرير اليمن تحمل شعاراته، وكان يسبقه خمسمائة منهم ممسكاً كل واحد منهم بعصية من الذهب وزنها 500 مثقال[4].

لم تكن كل الأعمال التي توكل إلى العبيد كريمة. ففي الشرق، كان العرب الذين تعود أصولهم إلى اليمامة، المستقرون في وادي علاقي، يشغلون العبيد السود في استغلال مناجم الذهب[5]، وفي الغرب كانت مناجم قلم وبامبوك وبوري مستغلة بواسطة عبيد يزودهم الملك بالنساء والأكل والشراب، وكان الأطفال يربون في هذه المناجم[6].

كان بربر تكدة أثرياء لأن عملهم الرئيسي التجارة ولديهم الكثير من العبيد السود. كانوا عبيداً من الجنسين يستخرجون النحاس من المناجم ويصنعونه في شكل قضبان، وقد كانت القضبان السميكة تستخدم في الحصول على عبيد آخرين[7].

كانت تغازة، وهي بلدة معزولة، يكثر فيها القمل وليس بها زراعة، مياهها مالحة، مسكونة من عبيد مسوفة وحدهم الذين كانوا يقومون باستخراج

---

(1) Leon L'Africain, II, p.479.

(2) ابن خلدون، البربر، ج2، ص113.

(3) العمري، ص90.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص7/ 13. المثقال = 4.73 جرام. كانت هذه العصيات تزن الواحدة 2.360 كجم. حول الأوزان المستعملة في السودان، انظر: Tableau Geographique, R. Mauny، ص413 ـ 419.

(5) اليعقوبي، بلدان ص334/ 190.

(6) Transformations, P.E. Lovejoy، ص32، حسب كاتب الوقائع البرتغالي، Valantim Fernandes، (1506ف ـ 1507ف؟).

(7) ابن بطوطة، ج4، ص439 ـ 441.

الملح من المنجم ويتم تموينهم بالتمور من سجلماسة وبلحوم الجمال والذرة البيضاء من بلاد السود[1]. ويحدث كثيراً أن لا يصل التموين في الوقت المناسب ويتم العثور على عمال المناجم موتى في أكواخهم[2].

بالرغم من أن المراجع لا تذكر أوجه استخدام العبيد في الواحات، إلا أن من المؤكد أن هؤلاء كانوا يستعملون في استغلال الواحات ويقومون بحراسة قطعان الحيوانات. ويذكر البكري أن هناك أشخاصاً من زناتة والعرب في أودغست لدى كل واحد منهم ألفاً من العبيد أو أكثر[3]. ومن المنطقي أن هؤلاء العبيد من السودانيين أو الصحراويين الذين أصبحوا عبيداً للطوارق (أكلان)[4] هم الذين كانوا ما يزالون في الصحراء الليبية الغربية قبل ثورة 1969ف والشواشنة[5] ـ سود فزان: وكان الشوشان الفزاني مسؤولاً عن البساتين ومستخدماً لسحب المياه، وكان الطفل منهم يعمل سقاء[6].

كانت الملكيات الزراعية الكبيرة في الشمال تتطلب الكثير من اليد العاملة. وكانت هذه الملكيات مستغلة بواسطة العبيد الذين يدارون في غياب السيد من قبل أكثرهم تأهيلاً. ولدينا مثال لقاض حُجز أسيراً في بيزانس وعندما أطلق سراحه عاد إلى مزرعته، كما كانت تعود ملكية أحد الحقول الواسعة في

---

(1) نفس المرجع، ص377 ـ 379.

(2) ليون الأفريقي، ج2، ص455 ـ 456. في سنة 1910ف، مات أكثر من خمسين شخصاً من الجوع في منجم ملح تودني بسبب تأخر القافلة الناقلة للتموين، انظر: The Golden Trade, E.W. Bovil، ص152 رقم 1.

(3) مسالك، ص168/ 317.

(4) أكلي؛ بالتمحق، الجذر ك ل = أسود. حول الأكلان، انظر: Les touareg du Hoggar, H. Lhote، ص204 ـ 208.

(5) شوشان (باللغة العربية في المغرب).

(6) حول «الجلاب» و«السقاء» انظر Le Fezzan, J. Lethielleux، ص48، 73 ـ 76، 245 ـ 249. وGeographie Humaine, J. Despois ص140 ـ 142.

منطقة مدينة تونس لحاكم طرابلس[1]. في أوقات جني المحاصيل كان الملاك الصغار الذين لم يكونوا يستطيعون شراء العبيد ـ لم يكن العبد العامل يكلف أكثر من بغل جيد ـ يؤجرون العبيد ويشغلونهم أثناء النهار في الحقول وفي طحن الحبوب طوال جزء من الليل[2].

كان بعض العبيد يتمتعون بثقة سادتهم في المجال الزراعي، وكان الأمر كذلك أحياناً بالنسبة للتجارة على مسافات طويلة؛ فقد كان سكان أغمات يعهدون لكل واحد من خدمهم (رجالهم) أو عبيدهم بسبعين إلى مائة جمل محملة نحاساً، وملابس، ومجوهرات وأدوية وعطوراً ومواعين يرافقونها حتى السودان[3] ليجلبوا منه الذهب. . . . وعبيداً آخرين.

كان أغلب العبيد يشتغلون في الأعمال المنزلية. وفي أودغست كان اللواتيون والنفوسيون والنفزاويون ـ كلهم بربر أباضيون ـ يحبون السوداوات، وهن طباخات ماهرات في تحضير حلويات لذيذة باللوز والعسل[4]. وكانت الجواري الخادمات في مالي يخرجن عاريات تماماً، حتى عندما يذهبن عشرين أو أكثر حاملات الطعام لسادتهن في مقر السلطان للإفطار من الصيام، أو عندما تخرج مائة منهن حاملات المؤن[5] من هذه القلعة.

إن الميل لجميلات الجواري كان أحد العوامل الرئيسية الممهدة لتجارة الرقيق خلال الفترة من القرن الثامن حتى القرن العشرين. إن الرغبة في تملك عشيقات كثيرات يفسر لماذا بقي سعر المرأة الصغيرة الجميلة أعلى من سعر الرجل في ريعان الشباب، وذلك بالرغم من توريد مهم للعنصر النسائي. كانت

---

(1) M. Talbi, Droit et Economie, pp.195-201.

(2) نفس المرجع السابق، ص226 ـ 227. انظر مع ذلك Quelques Problemes, C. Cahen، ص343.

(3) الإدريسي، ص66/ 76.

(4) البكري، ص158/ 300 ـ 301.

(5) وهو ما يستنكره ابن بطوطة، ج4، ص423 ـ 424.

البربريات في البداية، طوال الفتح، هن ضحايا الملذات المشرقية. لقد كان مالك بربري، قبل تحوله إلى الإسلام، يفض بكارة عذراء كل يوم، وكان آخر يقدم لأصدقائه جوار[1] في غاية الجمال وباهظات الثمن. لم يستمر المصدر البربري للرقيق طويلاً، وأصبح السودان مورداً مرغوباً للغاية[2].

لا بد أن اللملم، وهم عبيد مشهورون في المغرب، قد ساهموا بحصة في التزويد بالعشيقات[3]. لقد سافر ابن بطوطة الذي أراد أن يشتري في تكدة خادمة شابة متعلمة إلى توات مع قافلة تعد ستمائة من النساء الرقيق[4]، كما سبق لنا رؤيته. إن هذا هو الرقم الوحيد في حوزتنا عن أعداد النساء المصدرة. ولا تذكر نصوصنا كذلك عدد العشيقات السود اللاتي يمكن أن يكن لدى السادة في شمال أفريقيا. وتعطي الأمثلة السودانية، مع ذلك، فكرة عن وفرة الرقيق من النساء المتاح في السوق: عندما كان يذهب مترجم سلطان مالي إلى القصر الملكي في أيام العيد، يكون مصحوباً بزوجاته الأربعة الشرعيات، وجواريه اللاتي يصل عددهن إلى المائة[5]. وفي نهاية القرن السادس عشر، اشترى ابن عاهل مراكش في تومبكتو ثلاثمائة شابة لاتخاذهن عشيقات، بينما هن ملك للخزانة العامة[6].

لم يخف المؤرخون والجغرافيون العرب عن قرائهم إعجابهم بالخلاسيات. وكانت المولدات الجميلات تعدّ من بين الصادرات المغربية المتميزة نحو المشرق[7]. وقد أصبح بعضهن محظيات مفضلات عند

---

(1) M. Talbi, op. cit, pp.202 - 203.

(2) ابن سعيد، بسط الأرض، ص25.

(3) رحلة، ج4، ص439 ـ 440.

(4) نفس المرجع، ص445.

(5) نفس المرجع، ص411.

(6) تذكرة النسيان، ص174/ 280.

(7) ابن حوقل، ص97/ 95.

شخصيات كبيرة، وحتى بعض الخلفاء. وكانت أمهات خلفاء عباسيين عديدين من المولدات مثل المنصور[1]، والواثق[2]، والمعتمد[3].

كان الخصيان يستعملون في حراسة الحريم. ولما لم يكن في استطاعتهم محاولة تأسيس أسرة حاكمة، كان الملوك يعهدون إليهم أحياناً بمراكز مهمة[4]. وكان الخصيان البيض عبيداً صقالبة يؤخذون إلى إسبانيا ليخصون من قبل اليهود[5]، ثم يحضرون إلى مصر. وكان الخصيان السود من ثلاثة أنواع: «النوع الأول، وهو الأفضل، كان يصدر إلى مصر، والثاني يتكون من الصوماليين - برابر[6] وهو أسوأ أنواع الخصيان ويبعث إلى عدن، والنوع الثالث يشبه الأحباش.»[7]. وقد كانت عمليات الخصي التي تجري في السودان تؤدي إلى وفاة[8] 90٪ على الأقل.

تتحاشى النصوص كلمة خصي وتستعمل لتعني الخصي توريات مختلفة

(1) سلامة، أم المنصور، كانت حسب البعض، جارية بربرية، وحسب آخرين مولدة من البصرة، انظر ابن حوقل، المرجع أعلاه. والمسعودي، تنبيه، ص340/ 438.

(2) ابن حوقل، المرجع أعلاه، والمسعودي، تنبيه، ص361/ 462.

(3) ابن حوقل،المرجع أعلاه، والمسعودي تنبيه، ص387/ 493.

(4) رأينا المثل في الخصي النوبي كافور الإخشيدي الذي حكم مصر من سنة 946ف إلى 968ف.

(5) يبدو أن اليهود اكتسبوا شهرة في عمليات الخصي، يقال أنه كان في قردان مصانع للخصيان يديرها يهود، انظر Ch. Pellat، طبعة المقدسي، ص87 ورقم 163، وحاج صدوق، طبعة ابن خرداذبه، ص106 رقم 198. نفس الملاحظة حول هذا النشاط لليهود عند ابن حوقل، ص110/ 109.

(6) انظر Ch. Pellat، المرجع المذكور، ص86، رقم 157. يسمي الجغرافيون العرب المنطقة باسم بربرة والسكان بربر أو برابرة. اسم الصومالي لم يظهر إلا في بداية القرن الخامس عشر، انظر I.M. Lewis، موسوعة الإسلام انظر (بربرا).

(7) المقدسي، ص242 ـ 243 ـ نشر Ch. Pellat، ص56 ـ 59. يصف المقدسي التقنيات المختلفة لعمليات الخصي ويلاحظ أن من الممكن أن يكون لطفل أب خصي احتفظ بخصية، وفي هذه الحالة يجب ذكر الحديث الشريف: «الولد للفراش».

(8) The Golden trade, E.W.. Bovill، ص244، رقم 1 حسب المعلومات التي زود بها أحد سكان كانو المؤلف.

تتسق أحياناً مع مهامهم: غلام، وفتى، وخادم، وشيخ، ومعلم، وأستاذ[1].
ليس كل المؤلفين مباشرين مثل محمود كعتي: عندما كان يجلس عاهل (أسكيا) امبراطورية جاو كان يقف خلفه[2] سبعمائة من الخصيان[3]. كما يلاحظ ليون الأفريقي العدد الضخم من النساء عشيقات الأسكيا والخصيان المكلفين بحراستهن، وقد أخصى الأسكيا أحفاد ملك جوبر، وهو إقليم كان قد احتله[4].

من المحتمل أن ابن بطوطة كان يعني خصياً عندما أفاد بأن سلطان مالي قدم له هدية ضيافة غلام خماسي[5]، قائلاً بعض كلمات بالبورنية، وأشار ابن بطوطة إلى تصدير جوار جميلات وفتيان[6] من مالي إلى مختلف النواحي، ونعتقد ـ هنا أيضاً ـ أن أعداداً منهم تمر عبر فزان. كان يحدث كذلك أن يشتري الوجهاء السودانيون خصياناً من بلدان المتوسط، كان هذا ما جرى من شخصيات في حاشية منساموسى عندما مر بالقاهرة في طريقه إلى مكة: كان الأمر يتعلق بعبيد أحباش[7].

كان العبيد يستخدمون كذلك نقوداً للمبادلات. ففي سنة 1872ف، طلب قنصل النمسا في طرابلس إلى مراسل في مرزق أن يسلم مبلغاً من المال إلى غوستاف ناشتقال، الذي كان يوجد حينها في بورنو بكوكو، ولما كان هذا المراسل يرغب في عدم فقدان سيولته النقدية، فقد كلف أحداً ممن له معه

---

(1) Ch. Pellat, E.I. sv. Khasi.

(2) تاريخ الفتاش، ص114/ 208 ـ 209.

(3) Descrpition de L'Afrique, II, p.471.

(4) نفس المرجع، تقع جوبر على مسافة 1000كم جنوب شرق جاو، انظر ص472 رقم 75.

(5) رحلة، ج4، ص434، الشبر = 23 أو 21.5، أو 19 سم حسبما المقاس هو المسافة بين طرف الإبهام والخنصر ممدوداً أو طرف الإبهام والوسطى، أو الإبهام والسبابة. انظر Tableau Geographique, R. Mauny، ص411 ـ 412.

(6) نفس المرجع، ص441 ـ 442.

(7) العمري، ص90. يشتري الوجهاء جواري لا يذكر المؤلف من أين يأتين.

علاقة عمل بكوكو بدفع المبلغ، ولما لم يتوافر لدى هذا الأخير المبلغ فلم يستطع أن يقترح على غوستاف ناشتقال إلا عبيداً[1]. من المحتمل أن جزءاً من الاثنتى عشر أو أربعة عشر ألفاً من الجواري الشابات اللاتي صحبن منساموسى إلى الحج[2] وكن في البداية لغرض استعراض مدى الترف الملكي، قد تحولن إلى صكوك سياحية في طريق العودة، فبعد صرفه بدون حدود وصدقاته الضخمة وجد العاهل نفسه في القاهرة مفلساً واضطر للاقتراض من التجار[3]. وفي القرن العشرين، صادفت السلطات الاستعمارية بعض الصعوبات في التمييز بين الخدم والعبيد المصاحبين سادتهم إلى مكة. ويقال أن مغاربة أو طوارق قد باعوا سنة 1960ف عبيداً في الجزيرة العربية لمواجهة نفقات الحج[4].

كانت الأتاوات تدفع غالباً بالعبيد. فقد نصت الاتفاقية مع النوبة ـ التي لم يلغ العمل بها إلا في بداية القرن الرابع عشر، مع الفتح الإسلامي ـ أن يستلم حاكم مصر ثلاثمائة أو ثلاثمائة وستين عبداً، صحيح أن هذه الاتفاقية قد نصت على أن يزود المسلمون النوبة بالأغذية والخيول. وعندما استولى بسر ابن أبي أرطأة على ودان سنة 23هـ (4 ـ 643)ف أصر على أتاوة من ثلاثمائة وستين عبداً[5]، وقد أدى نقض هذا العهد من قبل سكان ودان إلى حملة عقبة التأديبية سنة 662ف ـ 664ف، وفي ودان وجرمة وكوار طلب عقبة ثلاثمائة وستين عبداً[6]، لا نعرف ما إذا كانت أتاوة سنوية.

كان الملوك السودانيون كذلك يفرضون أتاوات من العبيد. فمنذ سنة 1450ف كان عاهل كستينا ـ في نيجيريا الحالية ـ يبعث، عندما يتولى السلطة،

---

(1) Sahara et Sudan, IV, pp. 6-7.

(2) انظر بعاليه، ص660 ـ 661.

(3) العمري، ص19.

(4) A.G.B. and H.J.Fisher, Slavery, p.122.

(5) انظر بعاليه، ص79.

(6) انظر بعاليه، ص108 ـ 109.

بماثة عبد سنوياً إلى سلطان بورنو[1]. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ثارت قبيلة البرجد، وهي قبيلة من العبيد في وادي دارفور، ضد ملك دارفور، محمد تراب (1752ف ـ 1785ف) عندما علموا أن النساء اللاتي يبعثون بهن إليه أتاوة ـ وهو ما كان عليهم تأديته سنوياً ـ ليكن عشيقاته أو نساء لوجهائه أو مجرد خادمات، كن يبعن للجلابة العرب[2].

سنرى أن ليبيا كانت ما تزال تعرف الأتاوة من العبيد، في القرن التاسع عشر.

كان تقديم العبيد عادة شائعة. ففي القرن الثامن كان موسر قيرواني يدفع لأصدقائه جواري بالغات الجمال[3]. وفي بداية القرن الحادي عشر، استلم السلطان الفاطمي في القاهرة من سيد محدثة ـ غير بعيدة من أسوان ـ هدية تتكون من عبيد من الجنسين، وعشرين حصاناً، وثمانين جملاً، وفهداً، وأنياب فيلة. . . والخ[4]. وفي السودان قدم رئيس السود الوثنيين القريبين من مالي هدية لأحد موردي الملح تتكون من فتاتين من أجل أن يذبحهما ويأكلهما[5]. ونذكر بأن ابن بطوطة علم أن ملك مالي قدم لمجموعة من السود آكلي لحوم البشر، بعد استقباله لهم، هدية ضيافة خادمة قاموا بذبحها وأكلها[6]. كما كان

---

(1) H.R. Palmer, Sudanses Memoirs, III, p.83.

(2) G. Nachtigal, Sahara and Sudan, IV. pp.152, 287-288, Sur Les esclaves-tribut au XIX Siecie, v. A.G.B. and H.J. Fisher, op. cit, pp.150.

(3) M. Talbi Droit et economie, p.202.

(4) Nubian Fatimid Relations, B.I. Beshir، ص16 ـ 18. لقد ذكرت الكثير من المرات هدية نوبية تشمل عبيداً، من المحتمل، أن هذا نتيجة المعاهدة. سنلاحظ أن الهدية تشمل حيوانات غريبة كذلك. لم تعد النوبة تستطيع ـ أو لم تعد ترغب ـ في مواجهة الطلب المصري من العبيد السود، من هناك كان الطلب المتزايد على العبيد من وسط السودان، والربح المؤكد للصحراء الليبية.

(5) العمري، ص83. في مقطع آخر (ص72 ـ 73)، نرى أنه عندما تكون لأحد سكان مالي بنت جميلة، فإنه يأخذها إلى الملك الذي ينال منها دون زواج، كما يفعل المسلمون مع الجواري. إننا لا نعرف من هم من رعاياه الذين يعتبرهم الملك ملكه الخاص.

(6) رحلة، ج4، ص428 ـ 429.

ابن بطوطة شاهداً على عطية أكبر على الساحل الشرقي لأفريقيا ولكن عواقبها كانت سليمة: طلب فقير يمني في كِلوَا في أحد الأيام من السلطان ملابسه، فأجابه السلطان لما طلب. قام ابن السلطان وخليفته بأخذ الملابس من اليمني وأعطاه عوضاً عنها عشرة من الرقيق، ثم أصدر الأوامر بإعطائه عشرة عبيد آخرين وحمولتين من العاج، بعد أن عرف كيف أن رعاياه يحمدون له مثل هذه الأعمال «لأن الجزء الأكبر من الهدايا في هذا البلد، تتكون من العاج، ونادراً ما يعطى الذهب»[1]. ومن ثم لم يكن الرقيق يمثلون هدية ذات أهمية. وفي فاس، في نهاية القرن الرابع عشر، كان الشاعر الذي يلقي أطول قصيدة بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف يستلم هدية تتكون من مائة من الدكات[*]، وحصان، وجارية والملابس التي كان يرتديها الأمير[2]. وقد استلم ليون الأفريقي من أحد رؤساء الجنوب المراكشي مبلغاً من المال، وحصاناً، وعبدين امتناناً لبعض الهدايا التي قدمها ليون والتي تتكون من ركاب، ومهماز، وحبلين من الحرير وكتاب جميل، وللتحيات التي نقلها إلى هذه الشخصية من طرف عمه[3]. وفي الفترة ذاتها، كان أمير منطقة درعة يبعث في كثير من الأحيان بهدايا مهمة إلى ملك فاس، فقد بعث إليه في أحد الأيام من بين أشياء أخرى بخمسين عبداً أسود، وخمسين عبدة، وعشرة من الخصيان، وكان عاهل فاس يرد دائماً على مثل هذه المجاملات[4]. وفي السودان، وبحضور ليون الأفريقي، رد ملك بوللة في جاوجا على هدية تاجر من داميت بهدية رائعة تشتمل خاصة على خمسة من العبيد[5]. وفي القرن الثامن عشر رد ملك جوبر على الهدية التي بعث بها إليه ملك نوبي والمتكونة من خمسمائة بنت

(1) رحلة، ج2، ص194 ــ 195.. تقع كلوا على جزيرة صغيرة قريبة من الساحل التنزاني على بعد 240كم تقريباً جنوب دار السلام.

(*) وحدة نقدية. المترجم.

(2) Leon L'Africain, I, pp.214 - 215.

(3) نفس المرجع، ج1، ص137 ــ 138.

(4) نفس المرجع، ج1، ص139.

(5) نفس المرجع، ج2، ص438.

وخمسمائة ولد من الرقيق بهدية من مائة حصان وجوارٍ في غاية الجمال[1].
وفي القرن التاسع عشر، كان رؤساء غات يبعثون كل سنة إلى باي تونس بهدية من عشرة عبيد من الرجال وعشرة من النساء، وخصي[2].

قد تمثل العطية من العبيد عملاً من أعمال التقرب إلى الله. فقد قدم سلطان بورنو، حمى (1075 ـ 1086ف)[3] لشيخه، مائة قطعة من الذهب، ومائة قطعة من الفضة ومائة من الرقيق[4]. وفي بداية القرن السادس عشر كان عاهل جاو، أسكيا محمد (1493 ـ 1529ف) يوزع على العلماء عبيداً وأموالاً ليضمن مصالح المسلمين، ويساعدهم على مراعاة الله في عبادتهم[5]. فقد قدم في أحد الأيام 2700 عبد لشريف مراكشي لأنه كان سليل النبي[6] «ﷺ»[*]. وكان أحد خلفائه، أسكيا داود (1549 ـ 1583ف) يقدم عبيده بمجموعات من سبعة وعشرين إلى الشخصيات الدينية في المملكة، وأرسل بمائة إلى القاضي ليشتري من الله مكانه في الجنة[7]. كانت هذه الممارسة ما تزال سارية في بداية القرن العشرين: ففي منطقة تومبكتو، عندما يحفظ طفل القرآن، كان يقدم للفقيه خمس بقرات أو جمل، أو أسير أو ما يعادله[8] قيمة.

في نفس السياق، يمكن أن يمثل العبد جزءاً من المهر. في القرن السادس عشر، كان الفقراء في فاس، يقدمون مهراً ثلاثين دكاً، وخادمة سوداء ثمنها خمسة عشر من الدكات، وقطعة من الحرير والكتان ومحارم صغيرة من الحرير[9]. ويقرر المذهب المالكي مصير العبد ـ المهر في حالة الطلاق قبل

---

(1) A.G.B. and H.J. Fisher, Slavery, p.193.

(2) Al-Hasaisi, Voyage au pays des Senoussia, p.162- 163.

(3) ديوان سلاطين بورنو، ص31/ 68.

(4) H.R. Palmer, Sudansese Memoirs, III, p.3.

(5) م. كعتي، تاريخ الفتاش، ص59/ 115.

(6) نفس المرجع السابق، ص57/ 110.

(*) إضافة من المترجم. المترجم.

(7) نفس المرجع السابق، ص105 ـ 107/ 194 ـ 198.

(8) P. Marty, Etudes sur L'Islam et les tribus du Soudan, II, p.83.

(9) Leon L'Africain, I,p.209.

إتمام الزواج أو بطلانه وكذلك في حالة ما إذا أتى العبد خطيئة وهو ما يزال مملوكاً للزوج[1]، فلوالد الزوجة خيار بيع العبد إذا رغب في إضافة قيمته لجهاز العروس[2]. ومن المؤكد أن العبيد كانوا يستعملون كضمانات لأن هذا كان يحدث مع أشخاص من الأحرار. في القرن السادس عشر كان العرب في شمال إقليم برقة فقراء لدرجة أنه كان عليهم شراء القمح بالاقتراض من الصقليين، ويتركون لهم أطفالهم ضماناً، وإذا لم يدفعوا المبلغ المطلوب في الموعد المحدد يحتفظ الصقليون بالأطفال العرب أرقاء، وكانت إعادة الشراء تكلف ثلاث مرات مبلغ الدين[3]. وفي السودان كان أي شخص حر يمكن أن يمثل ضماناً لديون أجراها هو شخصياً أو أحد أعضاء أسرته[4].

حاول القرآن تحسين مصير الرقيق، والأحاديث التي تحض على الإحسان إليهم كثيرة[5]. ويشير المستكشفون في المشرق وأفريقيا إلى انعدام إساءة معاملة الرقيق في التجمعات السكانية. وهذا الوضع يتناقض مع أحداث أسرهم أو شرائهم ونقلهم إلى المراكز الصحراوية والمتوسطية[6]، وهو ما يفسر الاحتقار الذي كان يظهره الحضر المسلمون لتاجر الرقيق الذي يسمونه جلاب وكذلك نخاس[7].

---

(1) خليل بن إسحاق، ج2، ص57 ـ 58.

(2) نفس المرجع، ج2، ص55.

(3) I, Leon L'Africain، ص43. إن هذا البؤس الذي جعل من عرب شمال برقة أخطر لصوص وقتلة، يفسر أن القوافل من الجنوب الغربي ـ الشمال الشرقي كانت تمر في هذه الفترة بسيوة أو حتى دارفور لتتحاشى هذه المنطقة.

(4) M. Delafosse, Haut Senegal, III, P.111.

(5) R. Brunschvig, E.I., S. V., eAbd, P.26.

(6) I, Travels and Discoveries, H. Barth ص527 ـ 528، يلاحظ أن الأوروبي لم يصدم بالرقيق المنزلي في السودان، فالعبد يعتبر غالباً أحد أفراد الأسرة، ويشير، مع ذلك، إلى أنه باستثناء الطوارق، لا يشجع السادة على زواج العبيد إلاّ قليلاً، من هناك كانت ضرورة الحصول على عبيد جدد دائماً.

(7) R. Brunschvig، المرجع المذكور، ص39. نخس = وخز حيواناً أو عبداً بمتخس، وتقال كذلك للرجل الذي يستغل جواريه للدعارة ويبيع أطفالهن، (Dozy, Suppl).

بالإضافة إلى الهدايا والأتاوات والضمانات التي تعذرت استعادتها كانت الطرق للحصول على العبيد متنوعة. في زمن المجاعة، كان من المتصور أن يبيع الأشخاص أنفسهم أو يبيعون أطفالهم كما حدث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين(1).

كان الملوك «يصادرون» رعاياهم. فقد كان ملك الزغاوة يتصرف في شعبه كما يشاء، ويجعل من يريد عبداً(2). وتتقاطع هذه المعلومة مع ما أورده اليعقوبي بخصوص الرواية(*) الليبيين الذين كانوا من زويلة يتاجرون في عبيد ميرا والزغاوة والمرويون الذين كان يبيعهم أمراؤهم دون سبب(3). لا يمكن أن تستمر مثل هذه الممارسة إلى ما لا نهاية وإلا خاطر الأمير بحرمان بلاده من القوى الحية. كانت الحروب ضد الجيران مصدراً مهماً للأسرى. لقد كانت المناطق الواقعة مباشرة جنوب الصحراء أكثر قوة من الناحية العسكرية وأكثر تنظيماً من جيرانهم في الجنوب، وكانت لديهم مراع جيدة لخيولهم، وكان تجار شمال أفريقيا يزودونهم بالأسلحة، وكان يكفيهم اللجوء إلى المستودعات الواقعة قريباً منهم، وهو ما قاموا به باسم الجهاد ضد الكفار(4). وفي هذا المجال لا تسعفنا النصوص في التمييز بين الحرب، والإغارة، وصيد العبيد.

كان الناس في غانا والتكرور يقومون بغارات في بلاد اللملم، وهم الشعب الأكثر ولادة، ويسترقون السكان وينقلونهم إلى بلدانهم حيث يبيعونهم للتجار القادمين من أماكن أخرى حيث يقومون بتصديرهم(5). يؤكد المؤلفون على أن اللملم شعب من الكفار الرحل آكلي لحوم البشر، وكان لدى سكان

---

(1) A.G.B. and H.J. Fisher, Slavery, pp. 62-63.

(2) المهلبي، في ياقوت، انظر زغاوة.

(*) اسم قبيلة ـ المترجم.

(3) بلدان، ص345/ 205، انظر بعاليه، ص463 ـ 466.

(4) A.G.B. and H.J. Fisher, Slavery, pp. 17-23; P.E. Lovejoy, Tranformations, pp. 27-28.

(5) الإدريسي، ص4، 4/6، 7.

التكرور خيولاً كما كانوا مسلحين بالهروات والأقواس والنبال[1].

كان سكان غانا المسلحين جيداً بالسيوف، وبالرماح خاصة، يقومون كل سنة بالإغارة على أميمة، وهي قبيلة من الكفار في صحراء الأطلسي؛ كانوا ينتصرون أحياناً ويقهرون[2] أخرى. وكان سكان سيلا وتادمكة يسترقون البربرة وهم قوم قساة شجعان، ولكنهم يأسرونهم بالحيلة والخداع[3]. وفي القرن السادس عشر، كان ملك تومبكتو يحارب أعداءه، ومن يرفض أن يدفع له أتاوة، ويبيع من يؤسرون منهم في المعارك[4] حتى الأطفال. وكان الابن الأكبر لأسكيا داود يقول بأنه على ثقة لو أن أخاه الأصغر قام بحملة في بلاد الكفار لجمع منهم غنيمة من عشرة آلاف عبد أو أكثر قبل انقشاع الليل[5]. وكان ملك بورنو يشتري من تجار شمال أفريقيا خيولاً يقوم بواسطتها كل سنة بحملة في بلد العدو، ويعود منه بعبيد يستعملهم في الدفع للتجار[6].

ظهرت الأسلحة النارية المحمولة في أفريقيا الشمالية في بداية القرن السادس عشر، وقد كان لدى ملك فاس ستة آلاف بنادق راكبين[7]، وكان ملك تونس يُسبق في موكبه بحرس مَن الأتراك المسلحين ببنادق الأسكوريت[8]،

---

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص24 ـ 25.

(2) الزهري، ص182.

(3) نفس المرجع، ص183. يضيف الزهري أن البربرة مسيحيون. يعتبر J.m. Cuoq معلقاً على هذا المقطع، هذه المعلومة مشكوكاً فيها ولكنه يسلم بإمكانية أن الأمر قد يتعلق ببربر ليبيين متمسحين ـ من هنا جاء الاسم بربرة ـ الذين قد يكونوا اختلطوا بالسكان المحليين. ووفقه كذلك، قد تكون قراءتها مابرة، انظر Recueil، ص120 رقم 3، وص121 رقم 1. بالنسبة للسودانيين المسلمين، المابرة، خاصة من منطقة منعطف نهر النيجر هم سودانيون مخلصون للديانة المحلية، انظر Haut Senegal, M. Delafosse، ج1، ص125 ـ 126.

(4) Leon L'Africain, II P. 468.

(5) محمود كعتي، تاريخ الفتاش، انظر ص105/ 195.

(6) Leon L'Africain، ج2، ص480 ـ 481، يلاحظ أنه كان يحدث أن لا تحضر الحملة عدداً كافياً من العبيد، وفي هذه الحالة على التجار الانتظار للسنة القادمة ليدفع لهم.

(7) نفس المرجع، ج1، ص239.

(8) نفس المرجع، ج2، ص387.

وقبل نهاية القرن كانت المدافع والبنادق مستعملة في السودان[1]. إن تملك هذه الأسلحة زاد من القوة العسكرية للملوك المزودين بالعبيد.

لم يترك لنا المؤلفون من القرون الوسطى وصفاً لهذه الغارات. نستطيع، بالرغم من ذلك، أن نُكون فكرة عن تكتيك المهاجمين من قراءة مستكشفي القرن الماضي[*]. حسبما روى لـ G.F. Lyon، بينما كان مقيماً في منطقة القطرون في يناير 1825ف، كان العرب، في حملة على بوركو، يقومون بمهاجمة قرية عند الفجر بعد أن يحيطوا بها مسبقاً. كانوا يتمكنون في العادة من الاستيلاء على كل السكان. وكان من يحاول من السكان الهرب يقع بين أيدي حراس وضعوا حول القرية. كان المهاجمون يأخذون الأسرى في مجموعات إلى مكان ثبتت فيه راية حيث يقيدونهم، ثم يرجعون لأخذ آخرين. وهكذا يستطيع مائتان أو ثلاثمائة رجل أخذ ألف إلى ألف وخمسمائة عبد[2] في صبيحة يوم واحد. كان عرب مرزق يعطون ربع العبيد للسلطان بعد كل حملة: وتتقاسم القوات الباقي، كان الفارس يحصل على ضعف ما يحصل عليه الراجل[3]. إن أبشع وصف لغارة والأكثر تأثيراً كتبه G. Nachtigal، الذي تمكن من المشاركة فيها في البقرمي، وهي دولة مسلمة جنوب شرق تشاد. كان المهاجمون ـ الذين كان من بينهم عبيد لم يكونوا أقل دموية ـ يعملون باسم الإسلام، كانوا يقطعون رؤوس المقاومين، وينزعون أحشاءهم ويسحقون أطرافهم، كانت الأمهات يفضلن موت أطفالهن على رؤيتهم رقيقاً، وعند الاقتسام كان الأطفال الصغار غير القادرين على المشي يمنحون بكل بساطة لمن يشاء أخذهم[4]. وفي مناسبات أخرى، كانوا يرمون[5].

---

(1) G.S Colin, E.I., s.v Barud, PP. 1089-1090.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(2) Narrative, p.255..

(3) نفس المرجع، ص262 ـ 263 حيث يؤكد المؤلف: ولدان عمر كل منهما تسع سنوات وبنت من نفس العمر = جزء واحد، طفلان = ولداً صغيراً.

(4) Sahara and Sudan, III, PP. 340-368.

(5) A.G.B. and H.J. Fisher Slavery, P.165, d'après. F.S Arnot, Garengaze, seven years

كانت السرقة طريقة أقل قسوة للحصول على العبيد. على الجزء الجنوبي من طريق السودان نحو مصر، هناك حيث لا ماء ولكن السكان كثيرون ـ ويعتقد أن الأمر يتعلق بجنوب الكفرة ـ كان التجار الذين قايضوا الملح والرصاص والزجاج بالذهب، يزيدون من أرباحهم على طريق العودة: فقد كانوا يقومون بسرقة أطفال السكان الذين كانوا يصادفونهم ويقومون بخصيهم ونقلهم إلى مصر حيث يبيعونهم[1]. كذلك الأمر في بلاد الزغاوة، كان الحضر يسرقون أطفال البدو الرحل ليلاً ويخفونهم لديهم حتى تحين الفرصة لبيعهم بأسعار متدنية إلى التجار الذين كانوا ينقلونهم إلى المغرب الأقصى. وقد كانت هذه العادة متأصلة في السودان[2].

كان العبيد الذين يُحصل عليهم بهذه الطريقة يباعون من شخص إلى آخر، كان هذا ما يحدث في زمن المجاعات أو عندما كان المشتري يرغب في الحصول على عبد أو جارية بخواص محددة. نادراً ما كان سكان تكدة يبيعون جواريهم المتعلمات، وإذا ما باعوا إحداهن كانوا يصرون على سعر مرتفع، وقد بحث ابن بطوطة طويلاً قبل أن يتمكن من العثور على إحداهن، وبعد الكثير من الوقائع المفاجئة اضطر لإلغاء العقد مخافة موت المالك السابق من الحزن[3]. بالرغم مما سبق، كان أغلب العبيد يباعون في الأسواق.

لم ير الجغرافيون والرحالة من القرون الوسطى فائدة في وصف هذه الظاهرة المعروفة جيداً في الإسلام، سوق الرقيق أو المعرض. إننا نعتقد أن لهذه الأسواق نفس العلامات الفارقة الأساسية. ففي المشرق كان سوق سامراء ـ حسب اليعقوبي ـ يقع على تقاطع تؤدي إليه الكثير من الشوارع، كان مبنى

pioneer mission work in Central Africa, Londres, 1889 (Ici pp.183-184, 213-215, 243).

(1) حدود العالم، ص165.

(2) الإدريسي، ص33/ 39.

(3) رحلة، ج4، ص339 ـ 440.

من طابق واحد به غرف ومحلات[1]. وفي تشاد، في مدينة كوكا، كان تجار الرقيق، في القرن التاسع عشر، يقيمون أمكنة واسعة محمية من الشمس والمطر حيث تعرض بضائعهم من العبيد مقيدين أو دون قيود في صفوف طويلة من الأطفال والنساء والرجال من كل الأعمار دون تمييز[2]. وكان في سوق العبيد في مرزق الذي زاره G.F. Lyon في يناير سنة 1820ف الكثير من المثمنين: كان الواحد منهم يجري من جانب إلى آخر في الشارع قائماً على أطراف أصابع قدميه صارخاً بآخر سعر مقترح، والعبد المعروض للبيع يجري خلفه من مجموعة من المشترين الجالسين على الرمل[3] إلى أخرى. ومن المحتمل أن عمليات بيع العبيد في القرون الوسطى كانت تتم في المساكن والإقامات الخاصة كما كان الحال في القرن الماضي[*]: فقد شهد جيمس ريتشاردسون J.ames Richardson في يناير 1846ف في غات بمنزل تاجر من غات شراء حوالى اثني عشر عبداً عرضهم تجار هاوسا مقابل ورق، ولآلىء أرضية، ومدى قديمة، وصوف وحرير من نوعية متدنية[4]. وقد كان الطلب على الخصيان في العالم الإسلامي كله كبيراً لدرجة أن هؤلاء كانوا يباعون بسرعة بشكل خصوصي[5].

لن نحاول تقدير أسعار الرقيق: فقد كانت أسعارهم تختلف باختلاف العصور والمناطق وحسب المصدر والجنس والجمال والسحنة والعمر والقوة ودرجة التعليم. ففي بورنو، في القرن التاسع عشر، بما أن الأسعار كانت تتغير، اتخذ معيار سعري للأسرى الذكور غير المخصيين يتمثل بالسداسي وهو يعني الصبي الذي يبلغ من الطول ستة أشبار من العرقوب إلى الطرف الأعلى

(1) بلدان، ص260/ 52.

(2) G. Nachtigal, Sahara and Sudan, II, pp. 215-216.

(3) Narrative, p. 263.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(4) Travels, II. pp. 147-149.

(5) G. Nachtigal, op. cit., p. 27.

من الأذن، أي يبلغ من العمر ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة سنة[1]. من النادر ذكر أسعار العبيد في القرون الوسطى، فقد كان هؤلاء يباعون بمجموعات. مع ذلك فإن من المثير فحص نتائج التبادل في القرون الوسطى وتوضيح بعض التقويمات التي جاءت عن القرنين السادس عشر والتاسع عشر.

كان الرقيق يباع نقداً في أسواق المراكز الكبيرة. وكان الأمراء المصريون يدفعون ثلاثمائة دينار للجارية النوبية، فقد كانت النوبيات ذات جمال كامل؛ شفاه رقيقة، وأسنان بيضاء، وجمم ملساء فريدة، ولم تكن أي نساء يفضلن عليهن للمعاشرة الجنسية[2]. وفي منتصف القرن الخامس عشر كان العبد يباع في توات بدوبلين[3]. كان هذا سعراً متدنياً بشكل كبير وهو ما يدفع للاعتقاد بفترة وفرة في العرض حينها.

كانت الطباخات السوداوات الماهرات من أودغست تساوي الواحدة منهن 100 مثقال أو أكثر، وكان الشراء في أودغست يتم بالتبر[4]. وقد اشترى ابن بطوطة في تكدة جارية متعلمة بخمسة وعشرين مثقالاً أي 106,25 جرام من الذهب[5]، ونذكر بأن ابن بطوطة اضطر لركوب جمل في مالي بسبب ارتفاع أسعار الخيول فيها: 100 مثقال أي 425 جرام من الذهب وهو ما يساوي أربع مرات سعر جارية متعلمة[6]. وفي القرن السادس عشر كانت الأنثى من الرقيق تساوي 15 دكاً في الجنوب المراكشي غير بعيد من مدينة زاقورة الحالية، وكان

---

(1) نفس المرجع، ص216. سنجد ص225 ـ 226 قائمة بأسعار سوق كوكا: عبد مسن كان يساوي 25 مرة أقل من امرأة صغيرة السن، 20 مرة أقل من خصي، 10 أقل من حصان تبو أو جمل طوارق.

(2) الإدريسي، ص13/ 16. 1 دينار = 1 مثقال منذ إصلاح عبد الملك (685ف ـ 705ف) وكان يساوي 4. 25 جرام ذهب، انظر E.I, G.I. Miles، انظر (Dinar).

(3) Tableau Geographique, R. Mauny، ص422، حسب الرحالة الجنوي مالفانت 1 دوبل = 1 دكات = 1 دينار = 1 مثقال، انظر نفس المرجع رقم 10.

(4) البكري، ص158/ 300 ـ 301.

(5) رحلة ج4، ص439 ـ 440.

(6) نفس المرجع، ص425. انظر بعاليه، ص633.

العبد يساوي 20 من الدكات والخصي أربعين[1] منها، وفي فاس كان العبد الذي يقدم في المهر يساوي كذلك 15 دكاً[2]. كانت السلعة المصدرة بعيداً تساوي بالطبع أكثر: ففي إسبانيا المسلمة كان العبد الأسود يساوي 28 مثقالاً في القرن الحادي عشر، وكان يجب دفع 160 مثقالاً للجارية السوداء[3]. وبالعكس، في جاو بالقرب من المصدر كانت بنت الخمس عشرة سنة تباع بستة دكات والشاب بنفس السعر[4] تقريباً، وقد حدث أن تاجراً مستقراً هناك ـ يسمى المصراتي، وعليه فمن المحتمل أن يكون من الساحل الطرابلسي ـ اقترح شراء مجموعة من خمسمائة عبد بخمسة آلاف مثقال من التبر، بينما كان بعضهم ذوي جمال وأناقة يساوي الواحد منهم ما بين خمسين وثمانين مثقالاً[5].

كان الملح مادة التبادل الأساسية في بلاد السود، وكان يستعمل فيها نقداً، وقد رأينا أن رئيس الوثنيين في القرن السادس عشر، رد علي هدية من الملح بعطية من بنتين ـ جاريتين للأكل[6]. لنتذكر أن صناعة ملح كوار وجادو تقع في فزان، وبالتحديد في مرزق[7] حسب الرواية: هكذا نفهم كيف أن سكان زويلة كانوا يستطيعون شراء العبيد من ملوك الزغاوة، والميريين والموراويين.

كان النحاس، كذلك، يستعمل لشراء العبيد. ويدعى أنه كان مفضلاً

---

(1) Leon L'Africain, I, p. 139 et n. 369 et R. Mauny, op. cit, p.422, n.10.

(2) Leon L'African, I, p.209.

(3) R. Mauny، المرجع أعلاه.

(4) Leon L'Africain, II, P.471.

(5) م. كعتى، تاريخ الفتاش، ص103 ـ 104/ 192 ـ 193.

(6) انظر بعاليه، ص613.

(7) R. Mauny، المرجع المذكور، ص33، حسب de Burthe d'Annelet. انظر بعاليه، ص641. إن السباخ كثيرة حول مرزق، وكان في مياهها الراكدة فيروس الملاريا. وحتى قبل وقت قصير من مرور G. Nachtigal سنة 1869ف لم يكن مسموحاً للبيض ـ بما فيهم العرب والبربر ـ بالإقامة إلا خلال شهور الشتاء الثلاثة، فقد كانت الحكومة التركية مقتنعة أنهم ينقلون الحمى إلى السكان، انظر I, Sahara and Sudan ص84، 97 ـ 98، 131.

على الذهب[1] في بعض المناطق السودانية. وكان سكان أغمات، وهي مدينة من السوس الأقصى، يبادلون في التكرور النحاس الأحمر والملون والصوف والملابس والخرز بالذهب والعبيد[2]. وكانت القضبان النحاسية المصنوعة في المنازل من قبل العبيد من الجنسين تستخدم لشراء عبيد آخرين ذكوراً وإناثاً[3].

رأينا كم كان السودانيون يقدرون الخيول من شمال أفريقيا، وكانت خيول برقة من بينها مشهورة[4] بشكل خاص. كان التفوق العسكري يعتمد بشكل كبير على الخيول، والتفوق الاقتصادي كذلك لأنها تمكن من الإغارات للحصول على العبيد. وفي الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر كانت مملكة كانياجا، وهي تابعة لمالي، تفرض على تابعها أتاوة تتكون من الخيول[5]. يعود هذا الحب للخيول وما تحاط به من ترف إلى عهد مملكة غانا: فقد كان أحد ملوكها المسمى كانيسعاي يمتلك ألف حصان، بمجرد موت أحدها كان لا بد من الإسراع بتوفير البديل، وكان كل حصان مربوطاً بواسطة حبل من الحرير يمرر حول عنقه ورجله، ومخصص له ثلاث من الخدم؛ يعتني الأول بغذائه والثاني بشرابه ويهتم الثالث ببوله ـ كان الحصان يتبول في إناء من النحاس، ويجب أن لا تسقط قطرة على الأرض ـ وينظف الروث[6].

بالرغم من أن التوضيحات التي قدمها المؤلفون متأخرة، فإن بيع الخيول يعطينا فكرة عن قيمة المبادلات فيما يتعلق بالعبيد. نكرر أن الحصان في مالي

(1) انظر بعاليه، ص627.
(2) الإدريسي، ص3، 66/ 3، 76. والحميري، انظر (تكرور).
(3) ابن بطوطة/ ج4، ص441. انظر بعاليه، ص545
(4) انظر بعاليه، ص394.
(5) م. كعتى، تاريخ الفتاش، ص39/ 71. الكانياجا تتطابق مع منطقة نيورو بين السنغال والنيجر.
(6) نفس المرجع، ص41/ 76 ـ 77.

كان يساوي أربع مرات أكثر مما تساويه جارية متعلمة في تكدة[1]. وفي القرن الخامس عشر كان الحصان يساوي خمسة عشر[2] عبداً في السنغال. وفي القرن السادس عشر كان الحصان الذي يساوي عشر دكات في أوروبا يباع بأربعين إلى خمسين من الدكات في جاو، بينما كانت بنت صغيرة تساوي ست دكات ويساوي طفل أو رجل نصف هذا المبلغ، ويجب ملاحظة أنه في أيام السوق كانت تُباع أعداد لا تحصى من العبيد[3]. وفي نفس الفترة كان الملك التبوي في بورنو يشتري الخيول من تجار الشمال الأفريقي بمعدل خمسة عشر إلى عشرين عبداً للحصان[4]. ، ومن المحتمل أن هذه الخيول كانت تأتي من ليبيا أو تمر عبرها.

استمرت تجارة الخيول المدفوعة بالعبيد لأن الخيول كانت تمثل عامل قوة أكثر أهمية من الجمال، وكانت تمكن للرقيين من غارات متصاعدة العائد. وقد شرح ليون الأفريقي هذه الآلية فيما يتعلق بإنشاء مملكة بوللة في جوجة. في القرن الخامس عشر قتل عبد أسود سيده التاجر الثري واستولى على ممتلكاته واشترى بعض الخيول من تجار بيض. وبواسطة هذه الخيول شرع في حملات ضد جيرانه الذين كانوا سيئي التسليح بالأقواس. وهكذا تمكن من أسر كثيرين بادلهم بخيول قادمة من مصر. وبهذا استطاع زيادة عدد جنوده ونمت قوته. وكان خليفته الثالث في زمن مرور ليون الأفريقي يرتبط بعلاقات صداقة مع ملك القاهرة الذي كان يبعث له بالأسلحة والخيول، ونظراً لثرائه الكبير فقد كان يدفع ضعف قيمة[5] هذه السلع. وكان الرئيس السوداني، توري ساموراي الذي اصطدم بالفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر في منطقة النيجر

(1) ابن بطوطة، ج4، ص425، 439 ـ 440.

(2) R. Mauny, op. cit, p.285, d'après Ca da Mosta.

(3) Leon L'Africain, II, p.471.

(4) نفس المرجع، ص480. بالنظر للسعر المرتفع، فليس من المستغرب أحياناً أن لا يحضر الملك كفاية من العبيد من حملته السنوية وأن ينتظر التجار السنة القادمة ليدفع لهم.

(5) نفس المرجع، ص482.

يشتري الخيول بمعدل ثمانية إلى أربع وعشرين عبداً[1] للحصان.

زادت تجارة السلاح في القرن التاسع عشر من فاعلية الغارات، خاصة أن الأسلحة والذخائر كان يمكن أن تشترى بالقروض، وكان التجار الذين يحضرونها ينتظرون العبيد الذين يشكلون وسيلة الدفع لما أسروا به[2]. وقد تخصصت بورنو في صناعة الخصيان[3]. في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت البقرمي في خصي العبيد فيها بعد أن كانت تعتمد حتى حينها على توريد خصيانها من بورنو، وفي إحدى المرات قام حلاق الأمير بعمليات خصي لمائة عبد صغير السن قضوا كلهم إلا ثلاثين. بالرغم من ذلك، بقي سعر الخصيان مرتفعاً جداً في كل مكان لأنه بقي ميزة للأمير مع بعض الاستثناءات لبورنو[4]. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للعبيد الآخرين. كانت وفرة العبيد والمجاعات تؤدي إلى تدهور الأسعار: يورد Gustav Nachtigal مثلاً لأطفال تتراوح أعمارهم بين الستة والثمانية سنوات بيعوا بسعر قميص عادي في أسواق كوكا[5]. وقد حكى تارقي لجيمس ريتشاردسون James Richardson أن أميراً سودانياً أعطاه جارية صغيرة مقابل عظاية جميلة عثر عليها في الصحراء[6]. وكان تجار الشمال في القرن التاسع عشر يحققون أرباحاً تتراوح بين 300٪ و400٪[7]، وهو ما يعوض عن الخسائر الناجمة عن المعاملة السيئة ومتاعب السفر.

---

(1) R. Mauny, op. cit, PP. 423-424, d'après le capitaine.
L.G. Binger, Du Niger au golfe de Guinèe par le pays de Kong et le Mossi, Paris Hachette, 18.92, 2 vol. V. aussi A.G.B. and H.J. Fisher Slavery, P. 70 et n.3.

(2) A.G.B. and H.J. Fisher, rèf. Supra.

(3) ابن بطوطة، ج4، ص441 ـ 442.

(4) Sahara and Sudan, Gustav Nachtigal، ج3، ص411. لم تختف عمليات الخصي في البقرمي إلا مع الاستعمار الفرنسي، انظر رقم 1.

(5) Sahara and Sudan، ج3، ص363. أمثلة أخرى في A.G.B. and H.J. Fisher، المرجع المذكور، ص165، خاصة بعد غارة ناجحة: عبد = 6 دجاجات.

(6) Travels, I. pp. 204-205.

(7) G. Nachtigal, op. cit. II, p. 233.

حتى لو تمكنا من تقدير عدد العبيد الذين وصلوا إلى الحواضر الصحراوية والشاطئ المتوسطي فإن من المستحيل، كما رأينا، التقييم الصحيح للنزيف الذي عانته أفريقيا السوداء من تجارة الرقيق، إذ يجب أن يضاف إلى عدد من وصلوا إلى «ميناء السلامة» ـ والحساب مستحيل ـ من ماتوا أثناء الغارات، ومن قتلوا من الأسرى لمحاولتهم الهرب، وأعداد الأطفال الصغار الذين يلقى بهم لأنهم لا يستطيعون السير، والوفيات من عمليات الخصي التي يقوم بها حلاقون عديمو الخبرة، والخسائر التي لا تحصى خلال عبور الصحراء، خاصة خلال الغارات المضادة. إن المؤلفين مجمعون على حسن معاملة الرقيق في بلاد المسلمين عندما يعيشون عند سادتهم[1]، وينتهون في بعض الأحيان باحتلال مراكز مرموقة أو يتمتعون بتعليم معتنى[2] به. لم تكن ليبيا تمثل استثناء. ليس في حوزتنا أي رواية من القرون الوسطى حول هذا الموضوع، ولكن ليس هناك من سبب يجعل وضع العبيد في القرون الوسطى مختلفاً عما كان عليه في القرن الماضي[*]. ففي مرزق كان من الصعب تمييز الرجال الأحرار من العبيد الذين غالباً ما تسند إليهم أعمال سادتهم، كانوا نادراً ما يباعون، وعند وفاة أحد أفراد الأسرة كان يُعتق واحد أو عدد من العبيد، وأحياناً كانت تعاد إليهم حريتهم مكافأة لهم على خدماتهم المخلصة، وعادة ما يتزوج العتقاء ويستقرون في المنطقة. كانت فزان تراعي الشريعة الإسلامية: كل جارية تلد من سيدها لا تباع والطفل يولد حراً[3]. وكان أولاد سليمان وهم محاربون خطرون قساة يعتبرون عبيدهم جزءاً من الدائرة العائلية[4]. وكان العبيد يعاملون بإنسانية في طرابلس، ولهم الحق إذا ما تزوجوا في ترك المنزل

---

(1) R. Brunschvig, E.I., s.v., Abd, p. 34.

(2) مثل الجغرافي ياقوت، المولود سنة 1179ف في إقليم بيزنطة، لقد أسر وهو طفل وعتق من قبل سيده الذي مكنه من تعليم جيد، انظر R. Blachere، موسوعة الإسلام، انظر (ياقوت الرومي).

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(3) G.F. Lyon, Narrative, pp. 288-289; G. Nachtigal, Sahara and Sudan, I. p. 133.

(4) G. Nachtigal; op. cit., II, pp. 351-352.

والاستقرار في مكان آخر[1]. وعند الطوارق كان الألكان جزءاً من الأسرة، كان عليهم تأدية العمل لسيدهم ولكنهم يتمتعون ببعض أيام الأسبوع لأنفسهم، وكانوا يتقاسمون الوجبة مع سيدهم، ويربي أطفالهم مع أولاده، وكان العبد الصغير جداً أو الكهل يُرعى من قبل سيده، وبالرغم من ظروف المعيشة القاسية بشكل خاص في هذه الأقاليم، كان الألكان شديدي التعلق بسيدهم[2]. وكان بعض العبيد يتمتعون باستقلال شبه مطلق: في القرن الحادي عشر عندما رأي أركو (± 1023ف ـ 1067ف)، سلطان بورنو كثرة عبيده، أبعد منهم ثلاثمائة إلى دركو ـ في كوار بلد أمه ـ وثلاثمائة إلى سجدين وثلاثمائة إلى زيلان أي منطقة القطرون ـ تجرهي[3]. وحسب وقائع كانو، قام العاهل في هذه المنطقة بنفس الشيء: فقد كان عبيده كثيرون لدرجة أنه أنشأ واحدة وعشرين مدينة وطن في كل واحدة منها ألفاً من الرقيق، خمسمائة رجل وخمسمائة امرأة[4].

قبل أن يتمتع العبيد بمثل هذا الضم إلى أسر سادتهم، أو بمثل هذا الاستقلال كان عليهم، عندما تكون لهم القدرة، أن يعيشوا الفترة الأكثر إيلاماً في حياتهم كأسرى: إرهاق السفر، والمرض، والحرمان، والمعاملة السيئة، وقسوة الناقلين، وغارات الأعداء. وإذا ما فكرنا أن هدف التجار كان الاستعادة بأسرع ما يمكن لرأس المال المستثمر مضافاً إليه أرباحاً ضخمة، من أجل أن يسلكوا مرة أخرى بأسرع ما يمكن طريق الجنوب، فيمكننا تصور مدى لامبالاتهم بقطيعهم الإنساني. ما كان يهم هو السرعة. كان الناقلون يحرصون خاصة على بلوغ الآبار التي تمكنهم من سقي مجموعتهم وحيواناتهم. لم يكونوا يشعرون بالشفقة أمام الستمائة جارية في القافلة من تكدة إلى توات[5] أو الـ800 أو

(1) نفس المرجع، 1، ص17.

(2) J. Nicolaisen, Ecology, p. 442 Seq.; H. Lhote, Les Touareg du Hoggar, pp. 204-205.

(3) ديوان سلاطين بورنو، ص28/ 67.

(4) H.R. Palmer, Sudanese Memoirs, III, pp. 109-110.

(5) ابن بطوطة، ج4، ص445.

1400 بائس الذين كانوا يجرون أقدامهم من بورنو إلى مرزق[1] أو 1400 أسير من كوكا الذين كان على ثلثهم أن يذهب إلى غات وثلث إلى طرابلس الغرب والثلث الآخر إلى مصر[2]. كان الماء يوزع بتقتير[3]. يكفي أن يكون الناقلون قد أساءوا التقدير أو أن تكون نقطة مياه جافة لهلاك غالبية طابور من العبيد. وفي القرن التاسع عشر، كانت نواحي بئر مشورو بين جبال التومو وفزان، مغطاة بجثث عبيد ـ حسب ملابسهم ـ وقد تحول بعضهم إلى موميات، وعلى طول الطريق بين التومو ومشورو كانت توجد هياكل عظمية أغلبها لأطفال كانوا قد احتموا من الشمس في تجاويف الصخور[4]. في يناير 1820ف، وصلت إلى البخي من بحر الغزال قافلة من ألفين إلى ثلاثة آلاف جمل، و500 حمار، ومائة حصان وعبيد وقد فقدت في الطريق ألف جمل وكثيرين من الأسرى الذين لم يبذل جهد لحصرهم بالإضافة إلى أطفال كثيرين لم يؤخذوا في الاعتبار[5].

يضاف إلى السير الحثيث الأمراض والحميات عند العبيد الذين ينقلون فجأة إلى مناخ آخر ويأكلون ما يقع تحت أيديهم للبقاء على قيد الحياة. أما عن السادة فإنهم لم يكونوا يهتمون إلا بنقص السلاسل[6]، وكانوا يضطرون أحياناً عندما يكون عدد العبيد كبيراً لربطهم في صفوف كاملة بواسطة سير من الجلد.

---

(1) G.F. Lyon, op. cit., p. 249 et p. 120.

(2) G. Nachtigal; op. cit., II, pp. 233.

(3) كان لابن بطوطة عبد صغير: حدث في أحد الأيام على الطريق من جاو إلى تكدة أن نقص الماء، ترجى ابن بطوطة مسافراً أن يعطي عبده قليلاً من الماء، ولكن المسافر رفض. انظر، رحلة، ج4، ص436 ـ 437، 440.

(4) Denham Clapperton and OUdney. Narrative of travels, pp. 201-202: La mission denombra plus de cent squelettes, Les Caravaeniers se moquerent de L'horreur qu'eprouvait le major Denham et lui apprirent qu' au depart du Borno les esclaves ne disposaient ehacun qu'un litre d'eau; H. Barth, Travels and discoveries, III, pp. 623-624 qui rapporte que L'eau de ce puits est generalement bonne malgrè les os humains que le vent y fait tomber; H. Visscher, Across the Sahara, p. 226. V. Supra, pp. 132-100.

(5) G.F. Lyon, Narrative, pp. 249-250.

(6) كانت السلاسل تصنع في السودان، انظر A.G.B. and H.J. Fisher، المرجع المذكور، ص86.

وعندما تنتشر الدوستاريا، ويريد عبد أن يبتعد تصاحبه المجموعة كلها. وعندما كان يصاب أحد العبيد بهزال شديد كان يبقى طريحاً بين فضلاته، وتختلط رائحته برائحة تحلل أجسام هؤلاء الذين يجرون خارج المعسكر ليموتوا[1] لأن حالاتهم لم تعد تسمح بأي أمل.

كانت المعاملات السيئة والقسوة وراء أعداد كبيرة من الخسائر. لم يكن المرافقون يهتمون إلا بسرعة السير تاركين الضعفاء والمرضى[2] لمصيرهم. لا شيء يجب أن يعرقل سير القافلة؛ لقد حدث لـ Gustav Nachtigal أن ولّد بنتاً صغيرة، وأخذوا لحظات قصيرة من الراحة ثم التحقوا بالمعسكر[3]. إننا نجهل مصير العبيد الذين كانوا في القرن الحادي عشر ينجحون في الهروب من زويلة والذين كان مطاردوهم يستطيعون متابعتهم بسهولة بالأثر[4]. نستطيع أن نأمل أن دماثة أهل فزان كانت تمنعهم من اللجوء إلى أساليب عقاب قاضية، مثل قيام مرافق من بقرمي بذبح جارية صغيرة السن متهمة بالتظاهر بالإرهاق[5].

نعرف أن الأطفال الصغار جداً غير القادرين على السير كانوا يعطون أو يقذف بهم على جانب الطريق بعد الغارة. وكان على الآخرين السير بالسرعة المطلوبة. وقد رأى G.F. Lyon أطفالاً أعمارهم خمس سنوات مضطرين للسير خمس عشرة ساعة في اليوم[6]. وكان يحدث، عندما يجد مرافق رضيعاً أن يحاول تغذيته لمدة يوم أو يومين بواسطة التمر المهروس في الماء، وعندما

---

(1) G. Nachtigal, op. cit, III, pp. 363-364.

(2) نفس المرجع، III، ص450.

(3) نفس المرجع، ج2، ص494 ـ 495. يجب القول إنه أثناء السفر كان على المرأة الحرة للبدوي أن تلحق هي كذلك بالقافلة عند توقف منتصف النهار أو ليلاً بعد وضع وليدها (متربعة ممسكة بعصا موتدة في الأرض) وبعد أخذها راحة قصيرة، وفي أحسن الحالات تساعد من قبل قريبة أو صديقة.

(4) البكري، صII/ 28 ـ 29.

(5) G. Nachtigal; op. cit., III, pp. 430.

(6) Narrative, p. 297.

يمرض الرضيع يترك على الطريق حيث يموت أو يلتهمه أبناء أوى. لم يفهم تاجر عربي أتى مثل هذا العمل تقريع G.F. Lyon [1]. ولم يساو رضيع عمره ثلاثة أسابيع ــ ماتت أمه في الطريق ــ في القطرون سنة 1820ف أكثر من قدح من الخشب أو غالون من التمر (4,545 لتر)، وهو السعر الذي دفعته امرأة من التبو لتاجر من القافلة[2]. وكان الرجال والنساء والأطفال يضربون بالسياط لأتفه الأسباب[3]. وشاع العنف الجنسي حتى بالنسبة للصغيرات جداً من البنات. ويبدو أن التبو كانوا يعاملون عبيدهم بقسوة أكثر من معاملة العرب والطوارق، يزيدون من آلام العبيد بإجبارهم على حمل السلع، مخفضين هكذا عدد الجمال[4]. كان من النادر أن تصل بنت ست أو سبع سنوات إلى نهاية الرحلة دون أن تفض بكارتها من قبل التبو: كان مثل هذا السلوك مداناً باشمئزاز من قبل الطوارق[5]. كان العبيد الذين يؤتى بهم إلى تبستي هم أكثر من يعاني الآلام، فقد كان سادتهم أنفسهم يعيشون في فقر أقرب إلى البؤس، كما كان من المستبعد أي أمل في الفرار أو الانتقال إلى سيد أكرم، وقد سجلت حالات انتحار بين البورنيين المأسورين من قبل التبو[6].

كان الوصول إلى مرزق يمثل منظراً متبايناً. فقد كان يصل أولاً حملة الأعلام والموسيقيون، ثم أهل القافلة في أحلى زينتهم ــ كما كانت العادة قبل الدخول إلى واحة ــ وفي الأخير يأتي العبيد هزالى ومرهقين وقد تورمت سيقانهم وأرجلهم[7]. وبمناسبة الوصول إلى المراكز الكبيرة كان يبرز رياء

(1) هذا على الطريق من بحر الغزال نحو فزان، انظر Narrative، ص250.

(2) نفس المرجع المذكور، ص252 ــ 253. أرجعت المرأة الطفل لأنها لا تريد أن ترضع، وقد أعيد إليها القدح ولكن التمر كان قد أكل.

(3) نفس المرجع المذكور، ص323 ــ 325، 329 ــ 332، 343.

(4) J. Richardson, Travels, II, pp. 372 - 373.

(5) H. Barth, Travels and discoveries, III, p.606.

(6) J. Richardson, op. cit, II, p.312.

(7) G. Nachtigal; op. cit, p.260.

التجار ونفاقهم: فعندما تقترب القافلة من المدينة، يبحث التجار عن إعطاء العبيد مظهراً مقبولاً من أجل خداع المشترين المأمولين، كانت النساء تحلق وتدهن أجسامهن بالزيت، ويحلق الرجال بعناية وتدهن أجسامهم كذلك بالزيت. من لا يُشترى من العبيد من قبل أهل فزان كان يسمن قبل الاتجاه عن طريق الصحراء إلى طرابلس وبنغازي ومصر[1]. وهكذا كانت القوافل التي تقابل شمال مرزق أقل مدعاة للشفقة[2]. وفي هذا يجب النظر إلى أسباب احتقار العرب لتجار الرقيق: فقد كان العرب ـ حضراً وريفيين وصحراويين ـ يحترمون أحكام القرآن ويعاملون عبيدهم برفق، ولا يجهلون المعاملة البربرية التي عاناها هؤلاء الرجال والنساء والأطفال على طول آلاف الكيلو مترات قبل وصولهم إلى المراكز الكبيرة، وبما أن التجارة العربية مؤسسة بشكل أساسي على الثقة، فلم يكن أمامهم إلا إدانة روح النفاق عند تجار الرقيق.

مؤلفو القرون الوسطى مغرمون، عادة، بالظواهر الغريبة أو الشنيعة. بالرغم من هذا لم يتركوا لنا أي وصف لقوافل العبيد، ربما كانت هذه تشكل بالنسبة لهم ظاهرة عادية وأمراً طبيعياً. لا شيء يسمح بالشك في أن المناظر التي وقف عليها المستكشفون الأوروبيون في القرن الماضي[*] لم تكن تلك التي عاشتها الصحراء طوال ما يزيد عن ألف سنة.

من هذه التجارة أساساً، كان ثراء الصحراء الليبية. ففي القرن التاسع كان الروايون[**] الأباضيون من زويلة يشترون من الملوك السودانيين رعاياهم، خاصة من الملك القوي لقبيلة الزغاوة، كما كانت كوار تبيع العبيد. وكان البربر الفزانيون يغطون منطقة شاسعة للتزود بالرقيق تمتد من غرب بحيرة تشاد بعيداً نحو الشرق شاملة الوَدَاى حتى حدود النوبة[3]. وكان أغلب العبيد السود

---

(1) نفس المرجع السابق، ص120 ـ 121، 202.

(2) G. Nachtigal; op. cit, I. p56.

(*) القرن التاسع عشر. المترجم.

(**) من قبيلة الرواية. المترجم.

(3) اليعقوبي، بلدان، ص345/ 205. انظر بعاليه ص463 ـ 466.

الموجهين إلى الساحل الشرقي من المغرب يمرون عبر زويلة[1]. ولم يتوقف سكان المنطقة عرباً وبربراً عن الإثراء[2]. ويبدو أن زويلة شهدت أوج انطلاقها في عهد الأسرة الهوارية، بني خطاب، وشاركت بكل تأكيد بنصيب كبير في إرسال العبيد نحو المشرق[3]. وفي القرن الحادي عشر، كانت زويلة، وهي ملتقى للقوافل القادمة من كل مكان، بدون أسوار ولكن إذا حاول عبد الهرب كان يقبض عليه بسرعة[4]. من غير المعروف الحد الجنوبي للإقليم الذي كانت تسيطر عليه زويلة في ذلك الوقت، ومع ذلك يمكننا افتراض أن المنطقة القطرون ـ تجرهي كانت خارج سلطتها: فمن جانب، قال البكري بأن زويلة تمثل حد السودان، ومن جانب آخر، توضح الرواية السودانية أنه تم إبعاد ثلاثمائة عبد من بورنو إلى زيلان ـ أي إلى وادي الحكمة ـ من قبل السلطان أركو (± 1023ف ـ 1067ف)[5]. وعلى هذا كانت سلطة زويلة تقتصر جنوباً على جوارها المباشر. وبما أن الجغرافيين والمؤرخين العرب والبربر الأباضيين وكذلك كتاب الوقائع السوادنيين لم يأتوا على ذكر أي صراع بين زويلة والمناطق الجنوبية، فإن بإمكاننا تصور أن الوفاق كان سائداً في العلاقات بين الصحراء الليبية وجارها المباشر كانم، ونستطيع أن نفهم كيف أن زويلة وهي مصدرة للملح (الطرابلسي)، تمكنت من احتكار تجارة العبيد في هذه المناطق[6]، وتسهلت تجارتها أكثر بسبب تملك سلطان بورنو لأعداد وفيرة من العبيد وكان عليه إبعاد بعضهم إلى كوار، غير بعيد في سجدين.

انحدرت تجارة العبيد من خلال الطرق العابرة لفزان عندما استولى قراقوش على زويلة سنة 77 ـ 1176ف. ووضع حداً بطريقة وحشية لأسرة بني

---

(1) الأصطخري، ص44. وانظر بعاليه، ص467.

(2) حددو العالم، ص153، رقم5.

(3) ابن حوقل، ص97، 106/ 95، 104.

(4) البكري، ص10 ـ 11/ 27 ـ 29، منقولاً من قبل ياقوت، انظر (زويلة)، انظر بعاليه، ص474.

(5) ديوان سلاطين بورنو، ص38/ 67.

(6) T. Lewicki, Traits d'histoire, p.309; H.R. Idirs, Zirides, II, p.684.

خطاب، واستولى إبراهيم بن قراتكين على غدامس[1] سنة 78 ـ 1177ف. وقد كانت البلاد فريسة لأعمال التخريب من قبل بني غانية وقراقوش ثم ابنه حتى منتصف القرن الثالث عشر. وقد أضر انهيار التجارة بكل من كانم والأقاليم الشمالية لدرجة أن الملك الكانمي وضع سنة 1285ف حداً لهذه المغامرة وألحق الصحراء الليبية حتى ودان[2] بسلطته. وقد مكنت العلاقات الودية بين كانم والحفصيين[3] لتجارة الذهب والعبيد من العودة لسلوك طريق الشمال.

كما تحققنا من ذلك سابقاً، إننا نجهل كل شيء تقريباً عن الوضع في الصحراء الليبية خلال القرون التي تلت[4]. بالرغم من هذا، فمن المؤكد أن المنطقة بقيت معبراً مختاراً. كان في إمكان الخصيان، الذين جعلت منهم بورنو تخصصاً[5]، المرور عبر وسط فزان الذي كان منطقة بورنية. كما بقي طريق غات[6] وغدامس[7] مفتوحاً وهو ما مكن أهل تكدة من مزاولة التجارة مع مصر[8]. وقد ظلت فزان مهمة إلى زمن، نعتقد أنه حوالى القرن السادس عشر، حرص فيه البربر الخرمان، والأشراف القادمون من المغرب على الاستيلاء[9] عليه، وفي بداية ذلك القرن كان فزان لا يزال ثرياً بالرغم من أنه كان ملزماً بدفع أتاوة لجيرانه العرب، وكان الملك يتصرف في دخل البلاد لصالح الجماعة[10]. إننا نرى أسباب انحدار الصحراء الليبية في الصراعات التي دارت بين الخرمان وأولاد محمد المراكشيين الذين كان أحد

---

(1) انظر بعاليه، ص332.
(2) انظر بعاليه، ص350.
(3) ابن خلدون، البربر، II، ص109.
(4) انظر بعاليه، ص365.
(5) ابن بطوطة، ج4، ص441 ـ 442.
(6) نفس المرجع، ص445.
(7) نفس المرجع، ص436.
(8) نفس المرجع، ص439.
(9) انظر بعاليه، ص365، 373 ـ 374.
(10) Leon L'Africain, II, pp.446 - 447.

المنحدرين منهم يحكم فزان سنة 1798ف[1]. وفي زمن ليون الأفريقي كانت مصراته تستقبل قوادس بندقية ثم تنقل السلع الأوروبية إلى نوميديا، أي إلى المغرب، حيث كانت تبادل بالمنتجات السودانية؛ العبيد على وجه الخصوص[2]. وفي الزمن ذاته، كان عرب صحراء برقة مضطرين لتسليم أطفالهم للصقليين ضماناً من أجل الحصول على القمح، ولنهب وابتزاز الحجاج والمسافرين حتى بعيداً إلى الغرب[3]. ومن نهاية القرن السادس عشر فصاعداً أحجم التجار البورنيون على الذهاب لشراء الخيول من مصر[4] خشية خطر التبو في كوار وفزان.

كان تدهور فزان بطيئاً نسبياً. كان الأتراك المستقرون في طرابلس منذ 1551ف، قد استولوا على المركزين الفزانيين المهمين، سبها ومرزق[5] سنة 1577ف. في سنة 1626ف، هُزم الفزانيون، الذين تجرأوا على تحدي السلطة التركية، من قبل جيش جاء في حملة من طرابلس وحُكم عليهم بدفع أتاوة سنوية قدرها أربعة آلاف مثقال ذهباً، يدفع نصفها تبراً والنصف الآخر عبيداً. وقد وقعت الكثير من الثورات التي قمعت بقسوة ـ وأدت إحداها حوالى سنة 1681ف لاستيلاء الأتراك على حمولات خمسة عشر جملاً من الذهب والكثير من العبيد ـ ولكن فزان احتفظ بموارد كافية لمواجهة التزاماته حتى القرن التاسع عشر[6]. ويجب ملاحظة أن الأتاوة التي كانت ما تزال تتكون من الذهب والعبيد، خُفضت بمقدار الثلث قبل سنة 1798ف[7] بقليل. هكذا تواصلت تجارة الذهب بتشجيع من الأتراك ومطالبهم الجشعة من العبيد «العاديين»

(1) F. Hornemann, Journal, p.100.

(2) Description de L'Afrique, II, p.414.

(3) نفس المرجع المذكور، ص415.

(4) H.R. Palmer, Sudanese memoirs, III, p.6; Supra, p.380.

(5) انظر بعاليه، ص290.

(6) G. Nachtigal, op. cit, I, pp.154 - 159; Ch. Feraud, Annales Tripolitaines, p.149.

(7) F. Hornemann, op, cit,1, p.100.

والخصيان، وكانت الحملات توجه إلى بوركو[1] كما إلى بورنو[2]. وقد حاول الأتراك سنة 1821ف التحكم في كل الطريق إلى بورنو[3]. كانت الضرائب التركية ثقيلة: كانت تتكون من رسوم عبور على حمل كل جمل وعلى كل عبد (مثقالين للرأس) ومن ضرائب على المنتجات المحلية؛ الملح والقطرون، وكانت هناك ضريبة خاصة على النخيل[4]. كان التجار يحاولون إخفاء جزء من سلعهم عن طمع رجال الضرائب ولكن «الفرق الطائرة» التركية كانت تعمل قبل الوصول إلى مرزق للتحقق من أن الحمولات الخاضعة للضريبة لا تختلط مع أموال الحجاج الذين لم يكونوا خاضعين لأي ضريبة[5]. وكان الوالي التركي لفزان، وصهره رئيس الشرطة يزيدون هذه الضرائب لحسابهم الشخصي[6]، ويتذرع الوالي في تجاوزاته بتحريم تجارة الرقيق من قبل إنجلترا وفرنسا ثم من قبل السلطات التونسية[7]. وكانت ضرائب ثقيلة تحصل على العبيد في غدامس[8]. لهذا فليس من المستغرب أن يستولي على أهل فزان هذا الشعور باللامبالاة والفتور الذي لمسه لديهم المستكشفون، وبعدهم الجغرافيون الأوروبيون حتى منتصف القرن العشرين. ومن قبل عند مرور Friedrich Hornemann، سنة 1798ف، كانت التجارة قد خرجت من أيدي أهل مرزق: أصبحت التجارة مع القاهرة في أيدي سكان أوجلة، والتجارة مع طرابلس لتجار سوكنة، وسيطر الطوارق كل أوي من أغاديس على التجارة مع السودان الغربي، وتبو بلما على التجارة مع بورنو[9]. ولم يستعد فزان أبداً تجارته.

---

(1) Idem, p.102; G.F.Lyon, Narrative, p.239 Seq; H. Duveyrier, Les Troureg du Nord, pp.277-278.

(2) G.F. Lyon, op. cit, p.152 seq. et les nombreuse notes des explorateurs posterieur.

(3) E.W. Bovell, The Golden Trade, p.149.

(4) F. Hornemann, op, cit, p.102; G. Nachtigal, op, cit, I, p.165.

(5) F. Hornemann, op. cit, p.96.

(6) G. Nachtigal, op. cit,I, p.165 et n.1 de A.G.B and H.J. Fisher.

(7) Idem, Ii, p.16; V.aussi R. Brunschvig, E.I, s.v. Abd, pp.37b - 38a.

(8) J. Richardsonn, Travels, I, pp.253 - 254.

(9) Journal، ص999، 111 ــ 115. حول تجارة المجابرة من جالو مع الوداي، انظر G. Nachtigal، المرجع المذكور، ج1، ص119 ورقم 1.

إذا كانت تجارة الرقيق قد تباطأت بفضل جهود القوى الأوروبية ـ زادت هذه الظاهرة من صعوبات المناطق الصحراوية المرهقة بالضرائب ـ فإنها لم تختف كلياً. فقد استمر الوصول المنظم لقوافل العبيد إلى فزان[1]. قدر G.F. Lyon أن عُشر سكان مرزق يتكون من الرقيق[2]، وهو ما يفسر النسبة المهمة للمولدين في هذه المناطق[3]. وفي الصحراء استمر العبيد السود في تأدية أعمالهم المنزلية وعمال حدائق. وتحت الضغط الأوروبي، توقفت القسطنطينية عن طلب العبيد وكانت مصر تستطيع أن تتزود من الأقاليم القريبة من حدودها، ولم يعد في طرابلس إلا رقيق منزلي، ومنع فيها بيع العبيد، ولكن تطورت فيها أسواق صغيرة سرية في البساتين في جوار المدينة أو في القرى القريبة[4]. وفي سنة 1869ف، كانت تقابل على الطريق الواصلة من مرزق إلى سوكنة كل يوم قوافل صغيرة من العبيد المرتدين الملابس والمطعمين على هذا المقطع، في الطريق إلى أسواق الشمال[5].

في داخل البلاد، اتضح عجز الأتراك عن المحافظة على الأمن بين القبائل الثائرة ضد تجاوزات المحتل. في سنة 1872ف، تحت ضغط الطوارق قاومت القبائل العربية، ومن بينها القبيلة السليمية القوية المقارحة، الأتراك من أجل استعادة استقلالها، وفي نفس الوقت كان أولاد سليمان بالتحالف مع الطوارق يقومون بنهب القوافل القادمة من بورنو والمتجهة إلى فزان. وامتدت

---

(1) Nachtigal, op. cit, I, pp.16 - 17, 23 - 24, 56 -58, 93, etc... H. Duveyrier, Les Toureg du Nord, p.284.

(2) Narrative, p.288.

(3) في يناير 1860ف أعد Journal, Duveyrier، ص3، قائمة من 26 عشيرة من السود ممثلين في بسكرة، ويتعلق الأمر بقبائل من السودان كله؛ من وداي إلى الأطلسي. وقد لاحظ ليون الأفريقي التهجين العرقي في القرن السادس عشر في درعة وورقلة، انظر:
Description de L'Afrique, II، ص424، 439.

(4) G. Nachtigal, op. cit, I, p.120.

(5) نفس المرجع، ص58.

الاضطرابات إلى غدامس وغات، وكانت نتيجة الخَرق السياسي التركي أن تنازع الطوارق فيما بينهم، الهقار ضد الأجر، وانضمت قبائل فزان إلى الأجر. في سنة 1874ف نهبت نواحي غات من قبل الهقار، فطلب سكان غات مساعدة الأتراك الذين أقاموا فيها حامية اسمية[1]. وفي الوسط استغل التبو، الذين كانوا دائماً ضد الأتراك، الاضطرابات التي انفجرت في كل مكان في البلاد ليواصلوا حركة المقاومة وسلب القوافل[2]. في سنة 1884ف، وبعد عمليات منع كثيرة مؤقتة، قام متصرف فزان بمنع الرقيق[3]، ولم يتعاف فزان أبداً من هذه الكارثة.

من قبل، حوالى سنة 11 ـ 1809ف كان سلطان وداي قد تخلى لتجارته مع مصر عن الطريق العابر لفزان: كانت المسافة طويلة جداً، ويتطلب هذا المسار عبور تبستي، وهي مؤلمة للجمال، ومواجهة عدوانية التبو. وكانت الطريق عبر دارفور ممنوعة عليه بسبب التنافس الذي كان قائماً بينه وبين عاهل المنطقة، وكانت الطريق الموصلة مباشرة إلى الواحات المصرية تمثل مخاطر طبيعية كثيرة جداً، لهذا قرر السلطان أن يذهب إلى بنغازي عبر الكفرة[4]. عند إلغاء الرق في فزان اختارت القبائل القادمة من بر العبد الطريق عبر الكفرة إلى الشرق، والطريق عبر غات وغدامس إلى المغرب[5] بالرغم من الخطر الذي كان يمثله الطوارق. لم تتوقف هاتان الواحتان أبداً عن لعب دور كبير في تجارة العبيد، بالرغم من القلاقل التي كانت تعصف بالمنطقة: وأصبحتا المركزين

---

(1) Annales Triplitaines, Ch. Fèraud، ص425 ـ 428، 434 ـ 435. انظر كذلك مقال Les Ouraghen des Kel Ajjer, J.Dubief. في سنة 1860ف، قال مدير غدامس التركي لـ H Duveyrier إن الطوارق يسيطرون أكثر منه على المدينة، انظر Journal de route، ص170.

(2) G. Nachtigal، المرجع المذكور، ج1، ص121. أثناء واحدة من عمليات المنع العديدة هذه، علم أن قافلة من العبيد من بورنو تقترب من مرزق، وقد علق أمر المنع حتى وصول القافلة ودفع الضرائب.

(3) الحشائشي Voyage au pays des Senoussia، ص164.

(4) G. Nachtigal, I p.366. Cf, L'article de M. Emerit, Les Liaisons Terrestres entre Le Soudan et La Mediterrane'e.

(5) G. Nachtigal، المرجع المذكور، ج1، ص119 ـ 120. والحشائشي المرجع أعلاه. انظر كذلك الدناصري، جغرافية فزان، ص270.

الكبيرين للأعمال. في سنة 1877ف، كان أهل زندر يأتون بالعبيد إلى غات، وهناك يتوجهون إلى المشرق عبر وادي الآجال[1]. حتى قوافل بورنو كانت تتوجه إلى غات. في سبتمبر 1896ف، كانت قافلة الصيف التي وصلت غات تعد سبعمائة جمل محملة بجلود الماعز المدبوغ وأنياب الفيلة وريش النعام والعبيد. وفي أكتوبر وصلت قافلة الشتاء. كان العبيد يباعون في نفس المكان بالمزاد مثل الحمير وبعض البضائع الأخرى[2]. وكان أهل طرابلس وغدامس يشجعون الطوارق على نهب القوافل التونسية والجزائرية من أجل أن يستمروا السادة الوحيدين لطرق الاتصالات[3]. كان التجار الغدامسيون في كل مكان في السودان؛ حتى أثرياء التجار في غات كانوا غدامسية. كانوا يتاجرون مع مناطق بعيدة مثل وداي، وعلى علاقة تجارية وودية مع السنوسية في الجنوب والكفرة[4]. وبالرغم من أن أهل غات كانوا مسلمين إلا أنهم لم يتأخروا في عدم التفريق بين الوثنيين والمسلمين السودانيين: وعاملوهم بنفس الطريقة وكانوا ـ مسلمين ووثنيين ـ موضوعاً لتجارة الرقيق[5].

مع ذلك، سلب الاستيلاء على تومبكتو من قبل الفرنسيين سنة 1893ف، وتوسع الاحتلال الإنجليزي في نيجيريا مضافين إلى تغلغل السكة الحديدية نحو الداخل، الطرق العابرة للصحراء دورها الذي لعبته منذ ذلك الوقت الطرق البحرية انطلاقاً من خليج غينيا. وقد فرضت القوى الأوروبية احترام إلغاء تجارة الرقيق: فانهارت[6] غات وغدامس. بين سنة1892ف و1900ف احتل رابح ـ وهو عبد سابق، ومساعد لتاجر عبيد من الزبير، ولكنه مستقل منذ خضوع

---

(1) E. Von Bary, Le Dernier Rapport, p147 et n.1.

(2) الحشائشي، المرجع المذكور، ص175 ـ 176.

(3) نفس المرجع، ص184.

(4) نفس المرجع، ص218 ـ 222. عليه فمن المرجح أن الشيخ السنوسي في الجغبوب كان يحتفظ بعبيده المائتين من تجار من غدامس، ص129.

(5) نفس المرجع، ص163 ـ 164.

(6) انظر فقر التجارة الذي تحقق منه L. Pervinquiere، في غدامس سنة 1911ف. انظر La Trpolitaine interdite، ص181.

رئيسه لمصر ـ البقرمي وبحر الغزال وبورنو وطرد العبيد ونشر الاضطراب، وقد هزم سنة 1900ف من قبل القوات الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية والألمانية[1]. وهناك أيضاً وضعت فرنسا حداً للرق: وفقدت مناطق الكفرة ومرزق أهميتها[2].

يقول مثل ليبي: «دواء الجرب القطران ودواء الفقر السودان»[3]. هكذا بالفعل، كان ثراء الصحراويين يكمن بعيداً، وهو ثراء لا يمكن بلوغة إلا من خلال نشاط يحمل في طياته سبب تدهوره وانحطاطه. وبالفعل، في حين أن إمكانية الزراعة في الصحراء الليبية حقيقة مؤكدة ـ وهو ما نراه اليوم ـ استغل الصحراويون موقع بلدهم الذي يمثل ملتقى مثالياً يمكن من وصول سهل إلى مناطق تتيح أرباحاً مباشرة ليركزوا فقط على تجارة الذهب والعبيد ويعيدون بشكل مستمر استثمار أرباحهم في نفس المشاريع. وبينما كانت التجارة العابرة للصحراء تترنح من التجارة الصاعدة لخليج غينيا لم يحاول الصحراويون، تنويع مصادر ثروتهم. فقد استمر ترك الأعمال الزراعية، التي ينفر منها الصحراويون، لعناية يد عاملة رخيصة لا شيء يمكن أن يهدد تدفقها الثابت، على ما يبدو. كانت التقنية متقدمة في ذلك الوقت، ولم تستثمر أرباح التجارة، حتى جزئياً، بطريقة يمكن أن تؤدي لزيادة إنتاج الزراعة. كان كل شيء يعتمد على العمل المضني للعبد، وهو آلة تستهلك بعد بضع سنين ويجب دائماً إيجاد البديل. لقد

(1) N. Levtzion, E.I, Suppl و s.v. Cad, p.164b

(2) لقد تواصل تهريب العبيد حتى القرن العشرين، وكان خفية محدوداً. في سنة 1913ف بيعت نساء وأطفال تبو اختطفوا من قبل عرب إلى السنوسية في برقة، انظر ملاحظة A.G.B and H.J. Fisher، وG. Naehtigal المرجع المذكور، ج1، ص364. وفي فزان استؤنفت تجارة الرقيق في أسواق مرزق وزلة بعد الاحتلال الإيطالي الأول سنة 1914ف، الذي لم يستمر إلا لستة أشهر، واستمرت حتى سنة 1929ف، وهو التاريخ الذي شهدت فيه مرزق وصول آخر قوافلها من العبيد في نفس الوقت الذي أخضع فيه الإيطاليون البلاد، انظر E. Migliorini في Fezzan et Oasi di Gat, R.S.G.I، ص587؛ وJ. Despois، Geographie Humaine، ص54. وملاحظة A.G.B and H.J. Fisher. وفي G. Nachtigal، المرجع المذكور، ج1، ص121.

(3) «دواء الجرب القطران ودواء الفقر السودان». وهذا المثل معروف في فزان اليوم.

أحدث إلغاء الرق الذي قررته بلدان من خارج العالم الإسلامي، التغيرات الاجتماعية التي نعرفها وفي نفس الوقت انهيار الهياكل الاقتصادية. يمثل العمل الزراعي في الصحراء عناء دائماً: إذ يجب باستمرار تخليص النخيل والحقول التي تغزوها الرمال، وإعادة حفر الآبار المردومة وتنظيف الأنفاق من العوائق التي تسدها، وهي أعمال شاقة وفي بعض الأحيان خطرة. ومن ثم فإنها لا تؤدى بطريقة صحيحة في غياب يد عاملة. في منتصف القرن التاسع عشر كانت زراعة أهل[1] فزان تكفي لغذائهم بصعوبة، وعندما منع الأتراك الرق فيه لم تعد الزراعة تكفي عملياً إلا لاستمرار السكان على قيد الحياة. أما عن البدو، من جانبهم، فقد حرموا من الدخول التي كانت تتيحها لهم أدوارهم كمرافقين، وحراس، ومؤجرين للجمال، وحوصروا في بؤس لم يروا معه من حل إلا ابتزاز ونهب الواحات. كانت الدفاعات عن الواحات سيئة ـ ففي هذا المجال أيضاً كان للعبيد دور غير هامشي ـ ولما تحققت الواحات من عدم جدوى جهودها اكتفت باقتصاد استمرار الحياة وسط فوضى عامة. وقد هجرت بلدات وتجمعات سكانية كما خربت أخرى أو أحرقت وولَّد البؤس بسرعة مجاعات متتالية وأوبئة التيفوس[2]. ولم يتحسن وضع الصحراء الليبية الغربية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، عندما قدمت فرنسا ـ بالرغم من أن بنود اتفاقها مع المملكة المتحدة أعاقتها ـ إلى هذه المناطق التي كانت على شفا الهلاك مساعدة اقتصادية، ومعرفة وإخلاص مهندسيها وفنييها وأطبائها. وتولى الباقي اكتشاف النفط.

---

(1) G. Nachtigal، المرجع المذكور، ج1، ص118 الذي يلاحظ أن كل فزاني موسر بعض الشيء يزاول التجارة.

(2) J. Despois, Geoghraphie humaine, p.64.

خـاتمـة

شاركت الصحراء الليبية، خلال ما مر بها، في التاريخ الأفريقياني(*) أحياناً، وانعزلت عنه أحياناً أخرى، وقد بلغ هذا الانعزال درجة الانفصال الكلي في ظروف معينة.

إن قسوة شروط الاتفاق الذي فرضه العرب على لواتة في برقة كانت ـ إلى حد كبير ـ وراء الصعوبات التي واجهها الفتح الإسلامي لأفريقيا الشمالية بعد ذلك. لقد كانت هذه القسوة مستوحاة، بكل تأكيد، من متطلبات الخلفاء، ولكن كذلك بسبب طمع القوات التي لم يكن محركها الوحيد الإيمان الحقيقي دائماً، والتي حرص القائد الفاتح عمرو بن العاص على المحافظة على إخلاصها واحترامها بسبب الاتساع الهائل للأراضي المجهولة التي كانت تمتد أمامه. وقد أدى البند القاضي ببيع النساء والأطفال من أجل دفع الجزية ـ وهو عمل استثنائي اشترط في هذه الاتفاقية المبرمة مع أول مدينة فتحت فيما وراء مصر، وتسبب في حيرة علماء الشريعة بعد ذلك ـ بالبربر إلى اعتبار أن بلدهم

(*) قصدنا بها النسبة إلى أفريقية بالمعنى التاريخي للكلمة. وهي كلمة استعملت من قبل المؤلف. المترجم.

أصبح مستهدفاً بأن يصبح أرض مغانم. وهكذا ردوا بضراوة وعناد في كل مكان. وبعد ذلك بعدة عقود حاول عمر بن عبد العزيز ـ حسب أقوال البعض ـ محو آثار هذه الاتفاقية. وقد حد من الآلية الموضوعة بقدر محدود لاسيما وأن عمليات التحول الكثيرة جداً إلى الإسلام التي أثارها الوالي إسماعيل بن عبيد الله لم تترك أمام خليفته على رأس أفريقية، يزيد بن أبي مسلم، الذي لم يكن مدعوماً بما يكفي من المشرق، من مخرج إلا فرض ضرائب ثقيلة على معتنقي الإسلام أنفسهم. وهكذا وحّد يزيد البربر المسلمين والذميين في نفس المأزق ونفس الشعور بالثورة، وهو ما جعل تقدم المسلمين سريع الانتكاس. كان أبو المهاجر أول حاكم استقر في شمال أفريقيا، محاولاً أول استيطان حقيقي، وكان من الممكن أن يسهم اتفاق السلام الذي توصل إليه مع الزعيم البربري كسيلة، الذي يبدو أن تحوله إلى الإسلام كان حقيقياً، في الانتشار السلمي للدين الجديد لولا التنافس الذي تواجه فيه الوالي وعقبة. من المرجح كذلك، أن كسيلة ـ من جانبه ـ كان بإمكانه تأسيس وحدة بربرية إسلامية متحالفة مع العرب، لو لم يعتبر الخليفة أن ممارسة الحكم لا يمكن أن تتم إلا من المشرق. لقد أزعج رفض السلطة المركزية اعتبار انتشار الإسلام كافياً للبربر وجعلتهم الوقاحة، التي عامل الخليفة بها أفريقيا، يدركون قوتهم. في بداية الفتح انتظر زهير بن قيس في صراعه ضد كسيلة المدد من المشرق طوال خمس سنوات، وصبر حسان بن النعمان ثلاث سنوات قبل أن تصله القوات والأموال التي مكنته من مواجهة الكاهنة التي أدت مقاومتها العنيدة لأول أعمال تخريب في أفريقية. وقد حاول حسان، الذي كانت حملاته فاصلة، إشراك المساعدين البربر المسلمين في اقتسام الغنائم، ولكنه، من جانب لم يتخل عن احتقاره للسكان المحليين، ومن جانب آخر لم يواصل مسلكه في هذا الخصوص. وقد اشتكى، بعد ذلك بزمن، المتمرد الصفري ميسرة من أن البربر يوضعون دائماً في الصفوف الأولى ثم يستبعدون عند تقسيم غنائم الحرب، وقد استمر موسى

بن نصير الذي لم يستطع العبور إلى إسبانيا إلا بعد حوالى سبعين من فتح برقة، في إرسال الثروات التي كان يجمعها من شمال أفريقية إلى الخليفة. وقد ركزت حرب الخلافة، وثورة عبد الله بن الزبير المطالب بالسلطة العليا، الاهتمام المشرقي بعيداً عن الشؤون الأفريقية، ومهد هذا الإهمال وطمع الخلفاء وسلوك الولاة الأرض لتجذر حركة الخوارج في شمال أفريقية.

عُرفت الأقاليم الصحراوية الليبية في وقت مبكر جداً، في نفس الظروف التي عرف فيها الساحل. فبمجرد فتح برقة أرسل عمرو بن العاص عقبة إلى زويلة، وأثناء حصار طرابلس بادر بإرسال بسر بن أبي أرطاة إلى ودان. ومن المحتمل أن عقبة توغل بعيداً إلى الجنوب، واحتل الإقليم بين برقة وزويلة وأخضع للضريبة السكان القليلي العدد على هذا المسار، الذين ربما قبل بعضهم التحول إلى الإسلام. ومن جانبه ألزم بسر ودان بأتاوة من ثلاثمائة وستين عبداً. ليس هناك من سبب للشك في غارة عقبة، كما سبق لنا رؤيته. وحسب بعض المؤلفين، أقام ـ عقبة بصفته قائداً حربياً ـ في زويلة وبرقة حتى تعيينه والياً لأفريقية. إن هذا الحضور الإسلامي في زويلة يفسر الهدوء الذي سيطر عليها منذ ذلك الوقت، فبعد ذلك بعشرين سنة أهمل عقبة الذهاب إليها عندما عاقب مزاتة ودان الذين كانوا يرفضون دفع الأتاوة المفروضة من قبل بسر. وبالعكس أرسل إليها ـ زويلة ـ قواته البطيئة الحركة عندما ذهب إلى كوار بعد احتلال جرمة. إن إقامة حامية عربية في زويلة يبرر حتمال تحول المنطقة إلى الإسلام تدريجياً، ومن المرجح سلمياً، ويساعد على فهم أوضح للسهولة التي انتشرت بها حركة الخوارج في الصحراء الليبية.

إن الحملة التي قام بها عقبة في فزان وكوار، حسب أقوال ابن عبد الحكم، بعد الاستيلاء على برقة بحوالى عشرين سنة، ممكنة من الناحية اللوجستية، إذا ما أخذنا في الاعتبار المعطيات التي أوردها هذا المؤلف،

واتبعنا المسار الذي أعدنا تكوينه. بالرغم من عدم إمكانية اعتبار هذه الغارة فتحاً، إلا أنها كانت مؤثرة بنتائجها، لأنها أثبتت للعرب قوتهم ووضعتهم على اتصال مع القبائل البربرية في عمق الصحراء، خاصة الجرمنتيين ومع الأقوام السودانيين في كوار. إن هذه الحملة، مع امتدادها المتمثل في الغارة على غدامس، عرّفت المسلمين منذ 4 ـ 662ف بوجود طريقين أساسيين عابرين للصحراء. لم يستطع عقبة معرفة المناطق الممتدة ما بعد كوار ولكن العبيد الذين أحضرهم أقاموا الدليل على الثراء السوداني في الماشية(*) البشرية، وفيما بعد تذكر اللاجئون المشارقة والبربر الخوارج هذه الواقعة.

تقدم حملة عقبة الكوارية مثلاً صارخاً للطابع غير المنظم للفتح الإسلامي ومدى عدم الاكتراث الذي يقود به القادة الحرب غزواتهم. فقد توغل عقبة في الصحراء تاركاً الجزء الأكبر من قواته في مغمداس على ساحل خليج سرت. حتى لو كان سكان صحراء سرت قابلين بالحضور الإسلامي فإن المنطقة لم تكن بعد مخلصة بشكل كامل للعرب في ذلك الوقت. في سنة 5 ـ 684ف، أي بعد عشرين سنة من جولة عقبة الصحراوية الطويلة اضطر زهير بن قيس لمغادرة أفريقية مع قواته العربية والبربرية، التي كانت ترفض مقاتلة كسيلة، ولجأ إلى برقة ولا يمكن أن يفسر انسحاب بهذا المدى، من أفريقية إلى إقليم برقة، إلا بانعدام الأمن على طول الشواطىء الطرابلسية والسرتية، وهو ما لم يستطع الحكام والقادة العسكريون العرب المتتابعون وضع حد له بعد أربعين سنة من فتح طرابلس. لم تخضع الصحراء السرتية، التي لم تكن في نظر العرب دائماً إلا معبراً لا بد منه نحو جنة عدن التي كان يمثلها بالنسبة لهم شمال تونس، بشكل كامل إلا حوالى سنة 4 ـ 693ف عندما أرسل الخليفة في النهاية

(*) ترجمة حرفية للتعبير الذي استعمله المؤلف للرقيق، أراد به توضيح أوضاع العبيد وكيف كانوا يعاملون. المترجم.

الامدادات الضرورية لقوات أفريقية. ومن الملاحظ أن حسان بن النعمان قد لجأ إلى مسافة أربعة مراحل فقط شرق طرابلس عندما هزمته الكاهنة، وهو ما يعني أن خلفياته كانت مؤمنة: فقد كان الساحل مجوباً بقوات المساندة اللوجستية ومحمياً بالأسطول العربي من الإسكندرية، وكانت قبائل الداخل هادئة، استناداً إلى صمت المؤلفين.

دامت السيطرة العربية في أفريقيا الشمالية أقل من أربعين سنة عندما انفجرت في طنجة أول ثورة للخوارج بقيادة الصفري ميسرة. وامتدت الاضطرابات إلى طرابلس الغرب سنة 4 ـ 743ف، حيث كان البربر قد انضموا بسرعة إلى عقيدة المساواة التي نشرها الدعاة من جنوب الجزيرة العربية. وقد امتدت هذه البدعة إلى برقة، ثم ودان وزويلة. وتوحدت أغلب القبائل البربرية في شمال ليبيا تحت سلطة الرئيس اليمني، أبي الخطاب المعافري الذي جعل من طرابلس مقر الحكومة الأباضية الأفريقية. وسيطر الأباضيون على إقليم شاسع كان يشمل الممر السرتي، قاطعين ـ بهذا ـ المرور نحو المغرب، وتمكنوا وحيدين من إدارة التجارة العابرة للصحراء. وكان للسلطة المركزية رد فعلها، وامتد هذه المرة قمعها في أثره حتى الصحراء. فقد تولى والي مصر، ابن الأشعث بنفسه قيادة العمليات في سنة 61 ـ 760ف. وخدمته الانقسامات التي انفجرت في صفوف الأباضيين فوضع حداً لسيادة الخوارج في شمال طرابلس الغرب، ثم توجه بعد ذلك إلى ودان وزويلة حيث قتل من قاوم من أصحاب البدع وطاردهم. وبالرغم من حملات ابن الأشعث القمعية في ليبيا، اختلف مصير الأقاليم الصحراوية، وكذلك جبل نفوسة، عن مصير أفريقية. فقد فقد الخوارج السلطة في أفريقية، ولكنهم لم يتخلوا عن شيء من تفوقهم سواء السياسي أو التجاري في بلاد ودان، وفي الحاضرة التي كانت تمثلها زويلة، وفي جبل نفوسة. لم تمت الأباضية في الصحراء ولا في الجبل، وواصل الأباضيون

المشاركة من نفس عالم الخوارج، الذي كان يسحب الثروات السودانية الضخمة من الممالك الأفريقية من الأطلسي إلى تشاد، نحو سجلماسة الصفرية وتاهرت وورقلة وغدامس وفزان الأباضية. وفي القرن التاسع، وببقائها على هامش السياسة الشمال أفريقية، وبخاصة خارج المنافسات بين الأغالبة والعباسيين ثم الطولونيين، لم تتوقف الصحراء الليبية عن التمتع بالاستقلال الذي كان وراء ثرائها. وحدها القبائل من شمال طرابلس الغرب قاومت بانتظام الولاة الأغالبة لطرابلس. وقد حافظت التسوية التي تبناها الطرفان، على ممر ساحلي نحو المشرق للأغالبة، وتركت للبربر الأباضيين كل دواخل البلاد، أي الصحراء والجبل. وبالرغم من الصراعات الداخلية التي أزعجت الإمامة ـ خاصة النجاح الذي حققه في فزان أحد المتمردين الذي قام ضد تاهرت ـ واحتلال الجريد من قبل الأغالبة، استمر البربر الأباضيون في السيطرة على الطرق العابرة للصحراء من ليبيا نحو مصر وأفريقية. وكانت ودان محكومة من قبل أحد السكان الأصليين ولم تكن خاضعة لأي خراج، وتعيش من تصدير تمورها، ومن المحتمل أنها شاركت في تجارة العبيد السودانيين وهي النشاط الأساس لزويلة التي كانت تتزود من كانم ووداي ودارفور. وكانت مزاتة الأباضية في حرب مستمرة ضد الفزان/ الجرمنت، وبالرغم من أن المزاتيين لم يكونوا ممارسين لشعائر الدين إلا في حدود قليلة، ساهم هؤلاء البربر بمطاردتهم للجرمنت في نشر الإسلام في فزان الجنوبي ـ الغربي. وبقيت غدامس، المحكومة من قبل جمعية حكماء/ شيوخ، مستقلة هي كذلك بالرغم من هذه الحملة أو تلك ـ أو حتى احتلال مؤقت من قبل الأغالبة ـ واستطاعت التركيز على التجارة التي مثلت في كل الأزمان موردها الرئيس.

حافظ البربر الخوارج على علاقات جيدة مع الأغالبة. ولكن الأمور تغيرت في عهد العبيديين الذين كان عليهم مواجهة الكثير من حركات التمرد

الأباضية، خاصة مواجهة ثورة أبي يزيد الدموية. قام العبيديون، الذين كانوا يريدون احتلال مصر وإسبانيا، بحملات إلى الشرق وإلى الغرب، وسيطروا على كل المنافذ الشمالية للطرق العابرة للصحراء من سجلماسة إلى برقة. وتمكنت الصحراء الليبية، من جديد، تجنب المعارك وواصلت بكل هدوء أنشطتها التجارية. في نهاية القرن العاشر، وخلال النصف الأول من القرن الحادي عشر، عندما أظهر الزيريون ميلاً للاستقلال، كانت الواحات مغطاة بمساحات واسعة من النخيل ومأهولة وبها أسواق مطروقة وكانت مربوطة ببعضها البعض بشبكة كثيفة من طرق الاتصالات كانت زويلة نقطة التقائها. وكانت هذه الطرق تنقل نحو الساحل المتوسطي الذهب والعبيد وساعدت على المحافظة ـ إن لم يكن نشر ـ الأباضية في بلاد السود، وكان تأثير التجار النفوسيين والفزانيين في هذا المجال بالغ الأهمية. في نفس الزمن، تواصل تقدم قبائل مزاتة وهوارة، وطردوا أو دمجوا الجرمنت الذين ليس من المؤكد أنهم اختفوا كلياً قبل القرن الثاني عشر. وبينما كانت طرق الاتصالات في الغرب تتعرض باستمرار للخطر بسبب التنافس بين الزيريين والحماديين الذين رجعوا إلى السنية، قوى الاستقلال النسبي لبني خزرون في طرابلس خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر المقدرة التجارية لمناطق ليبيا الصحراوية، التي كانت طرقها مراقبة والقوافل فيها محمية من قبل قوات سادة طرابلس بأمر من الخليفة الفاطمي.

سيكون من العشوائية تحديد سبب واحد من الأسباب العديدة الممكنة لخروج بني هلال وسليم البدو من مصر نحو الغرب على أنه السبب الحاسم: الرغبة في الاستقلال من قبل تابع طغت عليه النزاعات الأسرية وأضعفته، وعودة هذا التابع إلى المذهب السني، وضعف بني خزرون الطرابلسيين المؤيدين للفاطميين في مواجهة الزيريين، وميلاد حركة سنية مؤيدة للزيريين في برقة، والعداوة للفاطميين، والإهانة التي ألحقت باليزوري الوزير القوي للخليفة

المستنصر. وليس من المفيد ـ تنازع العلماء يؤكده بما يكفي ـ محاولة تقدير الجزء الحقيقي الذي يمكن أن ينسب لبني هلال في تدمير أفريقية. لقد عملوا أدوات لسادة الساحل الذين لم يقلقوا إطلاقاً بسبب حضور هؤلاء البدو، ومرتزقةً لأمراء غير حذرين وغير مبالين بقبول نصائح رؤساء البدو أنفسهم في مناطق كانت عملية التدهور الاقتصادي والزراعي قد بدأت بفاعلية فيها قبل أن يكتمل تغلغلهم. إننا نرفض الحديث عن غزو. وقد أدى هذا الانحدار إلى هجرة من المغاربة نحو مصر. إن النصوص تسمح باستنتاج أنه في جميع الأحوال ليس من المقبول اتهام الطبيعة البدوية لهذه القبائل ـ التي تبدو ضحايا أكثر من كونها مسؤولة ـ عن الخراب الذي كان قد بدأ قبل نصف قرن من وصولها. ولم تنته أعمال التخريب تلك إلا بعد قرنين بالصراعات المدمرة بين المرابطين والموحدين. وقد استغلت هاتان الحركتان البربريتان، اللتان ولدتا خارج الحضور العربي، الإطلاقة التي تركت لعدم انضباط الهلاليين في الصراعات السابقة، والجشع للمغانم الذي بُذر بين صفوفهم لإلحاقهم قوات مساعدة، تعامل في غالب الأحيان بالخداع والغدر.

حيثما لم يكن بنو هلال دمى في أيدي الأمراء الأفريقيين عاشوا في وفاق مع السكان المستقرين. كان هذا هو الحال في تونس حيث كان الحضر والبدو يتبادلون منتجاتهم، وفي قسطنطينة حيث كانت المجموعتان تتبادلان المنافع. كان الوضع هكذا في الصحراء الليبية كذلك. فقد تمكنت البلاد من تحاشي صراعات النفوذ التي كانت تعصف بأفريقية وشمال إقليم برقة، وكانت طرق الاتصالات محمية. وبعد قرن من الحضور العربي، لم تظهر أي أعمال تخريب يمكن أن تنسب لبني هلال وسليم: ولم يأت هؤلاء أياً من أعمال الشر التي يُحمَّلون بها تقليدياً. وفي القرن الثاني عشر، كان بنو سليم في الجبل الأخضر يعيشون بسلام وهدوء مثل الحضر، وكانت التجارة في برقة نشطة للغاية. وكانت أوجلة تتاجر مع السودان ويتساكن فيها الحضر والعرب في وفاق،

وكانت في ودان وزلة الواقعتين على طريق بلاد السود زراعات رائعة، واحتفظت زويلة بدورها كملتقى طرق، وحتى اليهود كانوا يمارسون فيها المبادلات التجارية. لم يكن العرب قد احتلوا بعد جرمة، كانت ما تزال مدينة مهمة، ولا منطقة غدامس التي كانت طرقها نحو الذهب والعبيد مفتوحة. وكانت موارد ومراعي شمال تاسيلي موضوع خلافات بين العرب والبربر الرحل ولكن دون تأثير على التجارة الصحراوية. منطقة سرت لوحدها برز فيها بعض الانحدار. ويبدو، كمحصلة، أن وضع العرب في هذه الفترة لا يحسدون عليه. فالتجارة والثروات التي ينقلونها كانت ما تزال بين أيدي الصحراويين وكبار التجار الأفريقيين والمصريين. ولم يكن البربر الشجعان بقدر صعوبة الإمساك بهم، يهاجمون من قبل العرب بل كانوا يقومون بمناوشتهم في شمال طرابلس الغرب وإقليم برقة.

يجب أن نوسع الدراسة المقارنة للفترة التي سبقت وصول بني هلال وسليم والفترة التي لحقت إلى كل الواحات الصحراوية من أجل الوقوف على الدور الذي يمكن أن يكون قد لعبه العرب فيها خلال القرن الأول من حضورهم في شمال أفريقيا. يكفي مثل ليبيا، الذي عالجناه هنا، ليبين أن الأمر لم يكن يتعلق بتدفق متوحش لبدو يخربون أعمال حضر مسالمين، وأن هذه النظرة للتاريخ، بالرغم من المصادر التاريخية، لم تكن إلا استجابة للضرورات التي كانت تتطلبها مواجهة الرحل بالحضر والعرب بالبربر.

من الواضح أنها الصراعات التي دارت بين الحركتين البربريتين؛ المرابطين والموحدين، ومغامرة المملوك الأيوبي قراقوش هي التي ألحقت الضرر بالصحراء الليبية أكثر من غيرها. فعندما احتل الموحدون أفريقية بكاملها، ولم يعد يوجد فيها معارض يمكن أن يجند البدو العرب مرتزقة، التفتوا نحو إسبانيا ليطردوا منها المرابطين. في سنة 1185ف عبر المرابطون الذين لجأوا إلى الباليار، إلى شمال أفريقيا لمحاربة الذين انتصروا عليهم، وفي

البداية ساعدهم السخط الذي أثارته الضرائب الموحدية الثقيلة بين الأفريقيين. وكما فعله قبلهم صغار الملوك الشمال أفريقيين بقرن من الزمان، استعان المرابطون والموحدون بالاحتياطيات الهلالية لاستكمال قواتهم. استولى المرابطون، في زحفهم نحو الشرق، على توزر قاطعين الطريق العابر للصحراء نحو قلب أفريقية. في هذه الأثناء تغلغل قراقوش في ليبيا سنة 8 ـ 1177ف، وبعد أن احتل أوجلة وزلة، استولى على زويلة وكنوزها ووضع حداً بطريقة شنيعة للأسرة الهوارية الفزانية مساهماً في دفع هوارة نحو الغرب. سقطت غدامس، ثم جاء الدور على جبل نفوسة الذي أحتل، بعد أن انضم بنو دباب السليميون الرحل إلى قراقوش. والتحمت قوات قراقوش وبني غانية في طرابلس: أصبحت بين أيديهم كل الطرق العابرة لليبيا بالإضافة إلى الطرق المارة بالجريد. من المؤكد أن أبطال هذه الأعمال سعوا لمساندة العرب، وقد نشرت المعارك التي واجه فيها قراقوش وبنو غانية الموحدين ثم المعارك بين بني غانية وقراقوش الخراب في تونس. وعمل يحيى بن غانية وقراقوش على أن يتخذا من الصحراء الليبية قاعدة لهما، وقد عانت ودان ودان أكثر من غيرها: ففي سنة 13 ـ 1212ف حوصرت المدينة وجوِّعت من قبل يحيى الذي أراد أن يُخرج منها قراقوش، وفي سنة 1258ف أحرقت البلاد من قبل ابن المملوك وهو ما عرض للخطر التجارة العابرة للصحراء وأدى لتدخل كانم التي حولت فزان إلى مرتبة المستعمرة السودانية.

لم يستطع المرابطون تكوين الامبراطورية التي حلموا بها ولكنهم حققوا هدفهم الآخر: إنهاء القوة الموحدية. لقد دفعت أفريقية الشمالية، التي خربت من سجلماسة إلى برقة، من ثروتها ودمها طموحات المرابطين. وأصبح قراقوش المغامر المخادع ويحيى المدعي الطامح إلى السلطة مسؤولين عن نفس الجرائم: بينما كان البلد هادئاً، حوَّل أسلوب تجنيدهما، والحرية التي تركاها لقواتهما في السرقة والتخريب، وإرادتهما في زرع الهلع لدى السكان من أجل

هز السلطة الموحدية، الهلاليين والسليميين إلى لصوص وقطاع طرق. وبالرغم من أن يحيى تشبث دائماً بالهدف الذي سعى إليه، نلاحظ أن المؤوخين، ومن بينهم ابن خلدون، كانوا قساة بشكل خاص تجاهه وكانت تقارير الجغرافيين والرحالة مفحمة. فبعد الحروب التي أثارها تنافس البربر كانت طرابلس، التي تبادل عليها الاحتلال، خراباً، وكان الساحل الليبي مدمراً لدرجة أنه كان ما يزال من المستحيل التمون منه في بداية القرن الرابع عشر، واضطرت مدينة برقة المدمرة لترك مكانها لبلدة جديدة، المرج التي فقدت أي أهمية تجارية، ولم تكن أجدابيا إلا أطلالاً، وعاشت أوجلة البائسة هجرة سكانها نحو الجنوب الغربي، ولم تتمكن ودان التي كثيراً ما هوجمت ثم أحرقت من استعادة ثرائها أبداً، واختفت الأسرة الهوارية ومعها روعة زويلة، وعرقلت المخاطر التي كانت تهدد باستمرار الطرق العابرة للصحراء التجارة، وعانى العرب ـ ظهر بنو سليم في فزان ـ مثل البربر نفس ما عاناه الحضر.

لكن إرادة إعادة البناء عند الصحراويين خارقة. فقد أعطى ضم كانم للصحراء الليبية الذي يندرج في الحركة العامة للتوسع السوداني نحو الشمال ليضمن لتجارة بلاد السود أمن الطرق وتزويد المحطات، الفرصة للصحراء الليبية لتخرج من الدمار الذي لحق بها. فقد تابعت غدامس التي يبدو أن معاناتها كانت أقل من الواحات الأخرى لحمايتها من قبل الموحدين، أنشطتها عند نهاية الطريق القادم من الآيير عبر غات. وحتى وقت قريب، كانت موارد هذه الواحة الأخيرة تأتي بشكل أساسي من التجارة، وفي فزان نقطة التقاطع التي لا يمكن الاستغناء عنها للطرق شمال ـ جنوب، وشرق ـ غرب، فقدت زويلة وظيفتها كعاصمة سياسية لصالح تراغن ولكنها حافظت إلى حد ما، لبعض الوقت، على الأقل حتى بداية القرن الرابع عشر، على دور اقتصادي. واحتلت الكفرة مكانها على شبكة الطرق العابرة لليبيا لأن مصر عاودت سلوك المسالك انطلاقاً من الواحات نحو السودان.

أصبحت الممالك السودانية المسلمة في غاية الثراء والقوة. ومن الواضح، أن توسعها نحو الشمال - الذي أخذ شكل نفوذ اقتصادي هنا، واستعمار حقيقي هناك - ترافق مع هروب للثروات نحو الجنوب. شكلت الصحراء الليبية جزءاً من العالم السوداني، الذي بالرغم من احتفاظه بعلاقات ممتازة مع الحفصيين، سلب في ذلك الوقت العالم المتوسطي جزءاً كبيراً من الأرباح التي كانت تعود له تقليدياً. مع ذلك، ومهما كان رأي رواة الحكايات المفزعة المروجة من قبل التجار الحساسين غالباً للأسطوري والخيال الصحراوي، وبالرغم من المخاطر الحقيقية التي ترك الرحالة والجغرافيون أوصافاً دقيقة لها، كانت الواحات الواقعة على طول الطرق العابرة للصحراء تستفيد من التجارة، التي كانت من خلال تنظيم مالي ومادي في غاية الفاعلية، توصل نحو الشمال المواد الأولية والعبيد، ونحو الجنوب المواد المصنعة المغربية والمشرقية والأوروبية.

في نهاية القرن الخامس عشر وطوال السنوات الأولى من القرن السادس عشر كانت غدامس مستقلة وكانت الكفرة وبرقة(*) تحت سيادة بورنو. ويبدو أن السلطة التي كانت تمارسها كانم في فزان كانت اسمية بحتة، فقد كان البلد غنياً نسبياً ويدفع أتاوة لجيرانه العرب. وبعد ذلك ببعض الوقت كان البربر من جديد - من وادي الآجال هذه المرة - هم الذين زعزعوا السلام، فقد هاجم الخرمان - وهم قوم نجهل عنهم كل شيء - بني نسور التابعين لكانم والحلفاء لقبيلة بربرية أخرى، الجهمة. وقد طرد شريف من مراكش الخرمان وأسس في مرزق أسرة أولاد محمد، ولكن الهدوء الذي عاد كان لمدة قصيرة لأنه ابتداءً من الربع الأخير للقرن السادس عشر كانت المنطقة مسرحاً لنزاعات واجه فيها العرب الطوارق، وطوارق الأجر طوارق الهقار، وواجه الطوارق التبو كما

(*) بالمعنى الحديث للكلمة، المترجم.

كانت كل القبائل الصحراوية ضد الأتراك للسيطرة على المحاور الأساسية العابرة لليبيا. ثم بدأ انحدار استمر طويلاً ساعد عليه الولاة الأتراك. سُرع التدهور بطريقة غير مباشرة من قبل القوى الأوروبية: فمن بين كل المنتجات التي تتاجر فيها ليبيا، شكل العبيد ـ بكل تأكيد ـ المكون الرئيس، وقد أزال تحريم تجارة العبيد هذا المصدر للدخل. مع ذلك، سمح الرفض لهذا التحريم، ثم مراعاته دون فاعلية من قبل الامبراطورية العثمانية للتجارة عبر الصحراء من خلال فزان وبرقة، بانتعاشة أخيرة لهذا النشاط: ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت الأرض الليبية هي المنطقة الوحيدة التي تسمح بمرور قوافل العبيد في اتجاه الساحل المتوسطي. في سنة 1884ف، حرم الوالي التركي لفزان تجارة العبيد، فتحولت تجارة العبيد عبر الكفرة إلى أن منع التغلغل الأوروبي رحيلهم. وفي منتصف هذا القرن(*)، وضع الحضور الفرنسي في فزان حداً للفوضى القديمة، ولكن البؤس لم يختف من الصحراء الليبية إلا بفضل اكتشاف الذهب الأسود.

(*) القرن العشرين. المترجم.



المـراجـع

Sources médiévales

Al-'ABDARĪ, *Das Nordafrikanische Itinerar des 'Abdarī vom Jahre 688/1289, trad. Whilhelm Hoenerbach. Leipzig, 1940; rééd. Nendeln, Liechtenstein, 1966. 193p.*

ABŪ L-FIDĀ', *Taqwīm al-buldān. Géographie d'Aboulféda, éd. M. Reinaud et Mac Guckin de Slane. Paris, Imprimerie royale, 1840. XLVII et 540p.*

———, *Géographie d'Aboulféda, 2 vol.*

I: M. Reinaud. Introduction générale à la géographie des Orientaux. Paris, Imprimerie national, 1848. CDLXIV p., 3 planches.

II: **1ère partie:** traduction par M. Reinaud. Paris, Imprimerie nationale, 1848. 327p.

2ème partie: traduction par S. Guyard. Paris, Imprimerie nationale, 1883. 320p.

———, Ta'rīkh. Damas, Al-'Arabiyya, s.d. 2 vol., 251 et 160p.

ABŪ HĀMID AL-GHARNĀṬĪ, *Tuḥfat al-albāb wa-nukhbat al-a'ǧāb, éd. + résumé analytique et trad. partielle par Gabriel Ferrand, J.A., CCVII, 1, juill.-sept. 1925, pp. 1-148 et CCVII, 2, oct.-déc., pp. 193-306; repris in G. Ferrand, Etudes sur la géographie arabo-islamique (q.v.), II, pp. 1-148/193-306 = 1-260.*

———, *Tuḥfat al-albāb/ El regalo de los espiritus, trad. esp. Ana Ramos. Consejo superior des investigaciones científicas, Instituto de cooperación con el mundo árabe. Madrid, 1990. 145p.*

———, *Al-Mu'rib 'an ba'd 'aǧa 'ib al-Magrib/ Elogio de algunas maravillas del Magrib, éd. trad. esp. Ingrid Bejarano. Consejo superior de investigaciones científicas, Instituto de cooperación con el mundo árabe, Madrid, 1991. Texte arabe, 178p.; introd., trad., glossaire, 306p.*

ABŪ 'UBAYD Al-BAKRĪ, v. Al-BAKRĪ.

ABŪ 'UBAYD AL-QĀSIM IBN SALLĀM, v. Ibn Sallām.

AB YŪSUF YA'qŪB, *Kitāb al-kharāǧ. Le Caire, Al-Maktaba as-salafiyya, 1346 H/1927-28.304p.*

———, *Le Livre de l'impôt foncier, trad. E. Fagnan. Paris, Paul Geuthner, 1921. 352p.*

ABŪ ZAKARIYYĀ', *Kitāb as-sīra wa-akhbār al-a'imma, extrait in Tadeusz Lewicki (q.v.), Quelques extraits inédits...*

AL-BAKRĪ, Kitāb al-mughrib fī dhikr bilād Ifrīqiya wa-l-Maghrib wa-huwa ǧuz'min aǧzā' Kitāb al-masālik wa-l-mamālik; Description de l'Afrique septentrionale par Abou-Obeïd-el-Bekri, éd. trad. Mac Guckin de Slane. Alger, 1911-13; réimp. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1965. 1 vol., texte arabe, 212p. + 20. préface française; trad. française, 405p.

———, *Kitāb al-masālik wa-l-mamālik, éd. A.P. Van Leeuwen et A. Ferré. Tunis, Bayt al-ḥikma - Ad-Dār al-'arabiyya li-l-kitāb, 1992. 2 vol., 1002p. (1 - 48, introd.; 49-915, texte; 917-1002, indices) + 33p. (introd. franç.).*

———, *Mu'ǧam mā sta'ǧama min, asmaā' al-bilād wal-l-mawā'di', éd. Muṣstafā as-Saqā. Beyrouth, 'Ālam al-kutub, 1403 H/ 1983. 4 parties, 2 vol., 1625 p.*

AL-BĀKUWĪ, Talkhiṣs al-āthār wa-'aǧā'ib al-mālik al-qahhār, extrait in Yūusuf Kamāl (q.v.), T. IV, fasc. III, fol, 1365 - 1367.

AL-BALĀDHURĪ, *Futūḥ al-buldān, éd. Radwān Muḥammad Radwān. Le Caire, Al-Matba'a al-miṣriyya bi-l-Azhar, 1350 H/ 1932. 460p.*

———— , *Liber expugnationis regnorum, éd. M.J. De Goeje. Leyde, Brill, 1866; nelle éd. 1968. 128 et 539p.*

BLACHERE, Régis, *Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Age. Paris, Paul Geuthner, 1932. 391 p; rééd. Paris, C. Klincksieck, 1957, 391 p.*

AL-BUKHĀRĪ, *L'Authentique tradition musulmane. Choix de h,adîths traduits par G.H. Bousquet. Paris, Fasquelle, 1964. 347p.*

Le Coran/ Al-Qur'ān al-karīm, mise en page par le Conseil des recherches islamiques d'Al-Azhar. Le Caire, Dār al-Mashaf, 1971. 552p.

Le Coran, trad. et comm. par Régis Blachère. Paris, G.P. Maisonneuve M. Besson, 1957. 748 p.

Le Coran, introd., trad. et notes par D. Masson. Paris, NRF-Gallimard, 1967. 1087p.

CUOQ, Joseph M., Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe siècle. Paris, C.N.R.S.; 1975. 490p.

AL-ǦAHIZ, *Kitāb al-ḥayawān, éd. Abd as-Salām Muḥ. Hārūn. Beyrouth Dār iḥyā' at-turāth al-'arabī, 1388 H/ 1969. 7 vol.*

———— , *Kitāb al-bukhalā', éd. Fawzī 'Atwī. Beyrouth, Dār s a'b, 1969. 222p.*

———— , *Le Livre des avares, trad. Ch. Pellat. Paris, G.P. Maisonneuve, 1951. 366p.*

———— , *Rasā'il al-Ǧāhiz, éd. 'Abd as-Salām Muḥ. Hārūn. Beyrouth, Dār al-ǧīl, 1411 H/ 1991. 4 vol. en 2.*

e.a. *K fakhr as-Sūdān 'alā-l-bīḍān. I, pp. 173 - 226.*

K. mufākharāt al-ǧawārī wa-l-ghilmān. II, pp. 90 - 137.

Dīwān salāṭīn Barnū, v. Lange D.

Al-GAYHĀNĪ, *kitāb al-masālik wa-l-mamālik, extrait in Yusuf kamāl (q.v.). T. III, fasc. I, fol, 569.*

AL-HAMADHĀNĪ, v. Ibn al-Faqīh.

AL-HAMDĀNĪ, *SIFAT Gazīrat al-'Arab/ Géographie der arabischen Halbinsel, éd. David Heinrich Müller. Leyde, E.j. Brill, 1884-1891; réimpr. Francfort, Institut für Geschichte der arabisch-islamischen Wissenschaften an der J.W. Goethe-Universität. 2 vol.: I, texte,*

279 p.; II, notes et index, XI, 243 et 171 p.

AL-HASAN IBN MUAMMAD AL-WAZZĀN AZ-ZAYYĀTĪ, v. Léon l'Africain.

AL-HIMYARĪ, *Kitāb ar-rawd al-mit'ār fī khabar al-aqtār, éd. Iḥsān 'Abbās. Beyrouth, Mu'assasat Nāsir li-th-thaqāfa, 1980. 754p.*

Hudūd al-'ālam, a Persian Geography translated and explained by V. Minorsky. Oxford University Press, 1937. XX et 524 p.

IBN 'ABD AL-HAKAM, Futūḥ Miṣr, *The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain, éd. Charles C. Torrey. New Haven, Yale Univsersity Press, 1922. Texte arabe et index, 369 p., introduction et glossaire, 65p.*

————, *Extraits in Futūḥ Ifrīqiya wa-l-Andalus, Conquête de l'Afrique du Nord et le l'Espagne, éd. trad. Albert Gateau. Alger, J. Carbonel, 1947. 184 p. (index).*

IBN ABĪ ZAYD AL-QAYRAWĀNĪ, *Risāla, éd. trad. Léon Bercher. Alger, J. Carbonel, 1952. 371 p.*

IBN ĀDAM, Kitāb al-kharāǧ, éd. A. Ben Shemesh, «Taxation in Islam», vol. I of Yaḥyā ben Ādam's Kitāb al-Kharāj. Leyde, Brill, 1958. 172p.

IBN AL-ATHĪR, *Al-Kāmil fī t-ta'rīkh, éd. corrigée 'Abd al-Wahhāb an-Naǧǧār. Le Caire, A-Ṭibā'a al-munīriyya, 1348 - 1353 H/ 1929-1935. 9 vol.*

IBN BATTŪTA, *Voyages, éd. trad. C. Defrémery et B.R. Sanguinetti. Paris, 1854; rééd. Unesco, Anthropos, 1979. 4 vol. (index).*

IBN FADL ALLĀH, v. al-'Umarī.

IBN AL-FAQĪH AL-HAMADHĀNĪ, *Kitāb al-buldān, éd. M.J. De GoeJe, B.G.A., V., Leyde, Brill, 1885; rééd. 1967. LXVII + 365 p. (index: pp. 331 - 365).*

————, *Abrégé du Livre des Pays, trad. H. Massé. Institut Français de Damas, 1973. 437 p. (index).*

————, *Extraits in Description du Maghreb et de l'Europe au IIIe = IXe siècle, pp. 30-60; éd. trad. M. Hadj-Sadok. Alger, J. Carbonel, 1949. XV + 136 p.*

IBN GHALBŪN, *At-Tidhkār fī man malaka Ṭarābulus wa-mā kāna bi-hā min al-akhbār (Ta'rīkh Ṭarābulus al-Gharb), éd. At-Ṭāhir Aḥmad az-Zāwī. Le Caire, Al-Matba'a as-salafiyya, 1349 H/ 1930-31. 232 p.*

IBN ǦUBAYR, *Riḥla. Le Caire, 'Abd al-hamīd Aḥmad hanafī, s.d. 272 p.*

IBN HAMĀDU, v. Ibn-hammād.

IBN HAMMĀD, *Akhbār mulūk Banī 'Ubayd wa-sīratuhum-Histoire des Rois 'Obaïdides, éd. trad. M. Vonderheyden. Alger, J. Carbonel - Paris, Paul Geuthner, 1927. XII, 100 et 64 p.*

IBN HAWQAL, *Kitāb sūrat al-ard, éd. M.J. De Goeje, B.G.A., II. Leyde, Brill, 1873; rééd. 1967.5 + 528 + VIII p., cartes.*

————, *Index geographicus, glossarium addenda et emendanda à B.G.A., I, II, III: B.G.A., IV. Leyde, Brill, 1879, rééd. 1967. VIII et 444 p.*

————, *Le livre de la configuration de la terre, trad. J.H. Kramers et G. Wiet. Beyrouth, Commission internationale pour la traduction des chefs- d'œuvre - Paris, G.P. Maissonneuve et Larose, 1964. 2vol., 550p. (index pp. 503 - 550).*

IBN HAZM, Ṭawq al-ḥamāma-Le Collier du Pigeon, éd. trad. L. Bercher. Alger, J. Carbonel, 1949. 425p.

IBN AL-HUSAYN, v. Isḥāq ibn al-husayn.

IBN 'IDHĀRĪ, *Al-Bayān al-mughrib fī akhbār al-Andalus wa-l-maghrib, éd. G.S. Colin et E. Lévi-Provençal. Rééd. Beyrouth. Dāar ath-tha-fa, 1967. 4 vol.*

IBN KHALDŪN, *Kitāb al-'ibar. Beyrouth, Dār al-kitāb al-lubnānī, 3e éd., 1966 - 68. 7 vol.*

————, *The Muqaddimah, an Introduction to History, transl. Franz Rosenthal. Londres, Routledge and Kegan Paul, 1958, nelle éd. corrigée, 1967. 3 vol.*

————, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, trad. de Slane. Paris, Paul Geuthner, 1925, nelle éd. 1968 - 69. 4 vol.*

———, *Histoire de l'Afrique sous les Aghlabites (184H/ 800 - 297H/ 909), texte arabe et trad. Adolphe Noël des Vergers. Paris, 1841; nelle éd. Amsterdam, APA-Oriental Press, 1981. 201 et 80p.*

IBN KHALLIKĀN, *Wafayāt al-a'yān wa-anbā' abnā' az-zamān, éd. Iḥsān 'Abbās, Beyrouth, Dār ath-thaqāfa, s.d. 8 vol. (vol. VIII: indices).*

———, *Biographical Dictionary, trad. du Kitāb wafayāt al-a'yan par Mac Guckin de Slane. Paris, 1843, rééd. Beyrouth, Librairie du Liban, 1970. 4 vol.*

IBN AL-KHATĪB, Kitāb a'mal al-a'lām, éd. Lévi-Provençal. Beyrouth, Dār al-makchouf, 1956. IX et 370p.

———, *Historia medieval islámica del Norte de África y Sicilia, trad. ann. Rafaela Castrillo. Madrid, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1983. 198p.*

IBN KHURRADÀDHBIH, *Kitāb al-masālik wa-l-mamālik, éd. trad. M.J. De Goeje, B.G.A., VI. Leyde, Brill, 1967. Texte arabe, pp. 1-183; texte français, pp. 1-144; index, pp. 267-308.*

———, *Extraits in «Description du Maghreb et de l'Europe au IIIe = IXe siècle». pp. 2-29; éd. trad. M. Hadj-Sadok. Alger, J. Carbonel, 1949. XV 136p.*

IBN MĀGID, *Arab Navigation in the Indian Ocean before the Coming of the Portugeuse = trad. du Kitāb al-Fawā'id par G.R. Tibbetts. London, The Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, 1981, 614 p. (introd., trad., notes et commentaires, topograhie, glossaire, index, 7 cartes).*

IBN SA'ĪD (al-Maghribī al-Andalusī al-Gharnāṭī), *Kitāb bast al-ard fi -t-tūl wa-l-'ard, éd. Juan Vernet Gines. Tetuan, Ma'had Mawlāy Al-Hasan, 1958. 141 p.*

———, *Kitāb al-ğughrāfiyā, éd. Ismā'īl al-'Arabī. Beyrouth, Al-Maktaba at-tiğāriyya litibā'a, 1970. 263 p., 1 carte.*

———, *Al-Mughrib fi ḥ ulā l-Maghrib, 1ère partie, éd. Zakī Muḥammad Hasan. Le Caire, Al-Maktab at-tiğāri litibā'a wa-n-naṣr wa-t-tawzī', 1953. 419 p.*

IBN SALLĀM, *Kitāb al-amwāl, éd. Muḥammad Khalīl Harrās. Le*

Caire, Maktabat al-kulliyya al-azhariyya - Dār al-fikr, 1401 H/ 1981. 559 p.

AL-IDRĪSĪ, *Al-Maghrib wa-ard as-Sūdān wa-Miṣr wa-l-Andalus, Ma'khūdha min Kitāb nuzhat al-muštāq fi khtirāq al-āfāq - Description de l'Afrique et de l'Espagne, éd. trad. A. Dozy - M.J. De Goeje. Leyde, 1866; réimp. Amsterdam, Oriental Press, 1969. Texte arabe, 242 p., texte français XXII + 393 p.*

————, *Charta Rogerinana - Weltkarte des Idrīsī vom Jahre 1154n. Ch., wiederhergestellt und herausgegeben von Konrad Miller, mit Erlauterungen. Stuttgart, K. Miller, 1928. 34 p.*

ISHĀQ IBN AL-HUSAYN, *Ākām al-murğān fi dhikr al-madā'in al-mašhūra bi-kull makān, extrait in Yūsuf Kamāl (q.v.). T. III, fasc. II, fol. 623 - 624.*

————, *Extrait in J.M. Cuoq, Recueil... (q.v.), pp. 62 - 64.*

AL-ISTAKHRĪ, Kitāb al-masālik wa-l-mamālik:

————, *éd. De Goeje, B.G.A., I. Leyde, 1870; rééd., Brill, 1967. XI + 348p.*

————, *Index geographicus, glossarium, addenda et emendanda à B.G.A., I, II, III: B.G.A. IV, Leyde, Brill, 1879, rééd., 1967. VIII et 444p.*

————, *éd. J.H. Moeller, Kitāb al-aqālīm, Gotha, Libraria Beckeriana, 1839. 23 + 132 p.*

KAMĀL Yūsuf, *Monumenta cartografica Africae et Aegypti. Le Caire, 1936 - 1951. 5 T en 6 vol.*

KA'TI Maḥmūd (XVIe siècle), *Ta"rīkh al-fattāš fi akhbār al-buldān wa-l-ğuyūš wa-akābir an-nas, éd. trad. O. Houdas-M. Delafosse, Paris, E. Leroux, 1913 - 14; rééd., Adrien-Maisonneuve, 1964. Texte arabe, 186 p., trad. française, 362 p., 1 carte.*

KHALĪL IBN ISHĀQ, Al-Mukhtasar. *Abrégé de la loi musulmane selon le rite de l'imām Mālek, trad. G. - H. Bousquet. Alger/Paris. 4 vol. (1: Alger, An-Nahdha, 1956. 227 p; II: Alger, La Maison du livre - Paris, A. Maison-neuve, 1958. 146 p.; III: ibid., 1961. 164p.; IV: ibid., 1962. 112p.*

Kitāb al-istibṣār fī'aǧā'ib al-amṣār, éd. Sa'd Zaghlūl 'Abd al-Hamīd. Alexandrie, Imprimerie de l'Université, 1958. 252p.

Kitāb al-'uyūn wa-l-ḥadā'iq fī akhbār al-ḥaqā'iq. T. IV: Extraits relatifs à l'Occident musulman et en particulier à l'Ifriqiyya (256 - 350 A.H.); éd. Omar Saidi, C.T., XX, 1972, pp. 45 - 100 et XXI, 1973. pp. 73 - 122.

LANGE, Dierk, *Chronologie et histoire d'un royaume africain (Dīwān salātīn Barnū)*. Wiesbaden, Franz Steiner, 1977. 173 o.

LEON L'AFRICAIN, *Description de l'Afrique. Nouvelle édition traduite de l'italien par A. Epaulard, annotée par A. Epaulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny*. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1956. 2 vol., 630 p., 11 cartes, 1 portulan, 4 planches.

LEVITZION, N. and HOPKINS, J.F.P.m *Corpus of Early Arabic Sources for West African History*. Cambridge University Press, 1981. 492.

AL-MĀLIKĪ, *Le Récit d'Al-Mālikī sur la conquête de l'Ifrīqiya. (Extrait du Riyād an-nufūs)*, traduction annotée et examen critique par H.R. Idris, R.E.I., XXXVII, 1, 1969. p. 117 - 149.

Mappae Arabicae, v. Miller, Konrad.

AL-MAQRĪZĪ, *Al-Mawā'iz wa-l-i'tibār bi-dhikr al-khitat wa-l-āthār*. Beyrouth, Dār Sādir, 1980. 2 vol. (I: 498 p. + 7p.; II: 521 + 16p).

————, *A History of the Ayyūbid Sultans of Egypt* (partie de As-Sulūk li-ma'rifat al-mulūk traitant des Ayyūbides, transl. R.J.C. Broadhurst. Boston, Twayne, G.K. Hall, 1980. XXXIV + 376 p.

AL-MAS'ŪDĪ, *Kitāb at-tanbīh wa-l-išrāf*, éd. De Goeje, B.G.A., VIII. Leyde, 1894; rééd. Brill, 1967. XLIII + 508p.

————, *Le Livre de l'Avertissement et de la Révision*, trad. B. Carra de Vaux, Paris, E. Leroux, 1896. 570p.

————, *Murūǧ adh-dhahab wa-ma'ādin al-ǧawhar*, éd. Muḥammad Muḥyi d-Dīn 'Abd al-Hamīd. Le Caire, Al-Maktaba at-tiǧāriyya al-kubrā, 4 vol. (1 & II: 4e éd., 1384 H/ 1964. 379 & 454 p.; III & IV: 5e éd., 1387 H/ 1967. 445 & 423p.).

MILLER, Konrad, *Mappae Arabicae, Arabische Welt-und Länderkarten des 9. - 13. Jahrhunderts, mit einleitenden Texten, herausgegeben von Konrad Miller. Stuttgart, 1926 - 27. 6 vol. v. Al-Idrīsī.*

AL-MUQADDASĪ, *Kitāb aḥsan at-taqāsīm fī ma'rifat al-aqālīm, éd. M.J. De Goeje, B.G.A., III. Leyde, Brill, 1877, rééd. 1967. VII + 498 p.*

Index geographicus, glossarium, addenda et emendanda à B.G.A., I, II, III: B.G.A., IV, Leyde, Brill, 1879, rééd. 1967. VIII + 444 p.

————, *Extrait in Description de l'Occident musulman au IVe = Xe siècle, éd. trad. Charles Pellat. Alger, J/ Carbonel, 1950. X + 122p. (index pp. 91 - 122).*

————, *Aḥsan at-taqasīm fī ma'rifat al-aqālīm/ La Meilleure répartition our la connaissance des provinces, trad. partielle, annontée par André Miquel, Institut Français de Damas, 1963, 430p.*

PALMER, H.R., *Sudanese Memoirs. Londres, F. Cass, 1928, rééd. 1967. 3 vol. en 1; 81, 119 et 163 p., 2 cartes.*

AL-QALQAŠANDĪ, *subḥ al-a'šā fī šinā'at al-inšā'. Le Caire, 1331 - 1338 H (1913 - 1919). 14 vol. (I. VI: Dār al-kutub al-khadīwiyya; VII-XIV: Dār al-kutub as-sulṭāniyya).*

AL-QAYRAWĀNĪ, v. Ibn Abī Zayd al-Qayrawānī et Ar-Raqīq al-Qayrawānī.

AL-QAZWĪNĪ, *Āthār al-bilād wa-akhbār al-'ibād. Beyrout, Dār sādir, s.d. 667 p.*

QUDĀMĀ IBN ǦA'FAR, *Kitāb al-kharāǧ, éd. M.J. De Goeje, B.G.A., VI, Leyde, Brill, 1889. Texte arabe, pp. 184 - 266; texte français pp. 144 - 208; index, pp. 267 - 308.*

AR-RAQĪQ AL-QAYRAWĀNĪ, *Ta'rīkh Ifrīqiya wa-l-Maghrib, éd. Al-Monji al-Kaâbi. Tunis, Rafīq as-Saqtī, 1968. 237 p. + index.*

Rawd al-qirtās-Histoire des souverains du Maghreb et Annales de la ville de Fès, trad. A Beaumier. Paris, Imprimerie impériale, 1860. 576p.

AS-SA'DĪ, (XVIIe siècle), *Ta'rīkh as-Sūdān, éd. O. Houdas - E. Benoist, trad. O. Houdas. Paris, E. Leroux, 1913-14; rééd. Paris, Adrien-*

Maisonneuve, 1964. 1 vol., texte arabe, 333 p., trad. française, 537p.

Siyar al-mašāyikh, extraits in Tadeusz Lewicki (q.v.): Quelques extraits inédits...

A-ŠARIŠI, *Šarḥ al-maqāmāt al-ḥarīriyya, extrait in N. Levtzion and J.F.P. Hopkins, Corpus... (q.v.), pp. 151 - 153.*

AT-TABARĪ, *Ta'rīkh ar-rusul wa-l-mulūk, éd. Muḥammad Abū l-Faḍl Ibrāhīm.*

Le Caire, Dār al-ma'ārif. 8 vol. 1960 - 1964 (vol. VII et VIII s.d.).

Tedzkiret en-nisiān fī akhbār molouk es-Soudān (XVIIIe s.), éd. O. Houdas.

E. Benoist; trad. O. Houdas. Paris, E. Leroux, 1913 - 14; rééd. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1966. 1 vol. Texte arabe, 233 p.; trad. française, 415 p.

AT-TIĞĀNĪ, *Riḥla, éd. Hasan Husnī 'Abd al-Wahhāb. Tunis, Al-Matba'a ar-rasmiyya, 1377 H/1958. 503p.*

'UBAYD ALLĀH IBN SĀLIH IBN 'ABD AL-HALĪM: e. Levi-Provençal, *Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes. Ar., I, 1, 1954, pp. 17 - 43.*

AL-'UMARĪ/IBN FADL ALLĀH AL-'OMARĪ, *Masālik el absār fī mamalik el amsār, I, L'Afrique moins l'Egypte, trad. annotée de Maurice Gaudefroy - Demombynes. Paris, Paul Geuthner, 1927. LXVIII et 282 p.*

AL-WARTHĪLĀNĪ (XVIIIe s.) *Nuzhat al-anzār fī fadl 'ilm at-ta'rīkh wa-l-akhbār = Ar-Riḥla l-Warthīlāniyya, éd. Muḥammad ibn Abī Sanab. Beyrouth, Dār al-kitāb al-'arabī, 2e éd., 1394 H/ 1974. 814p.*

IBN WĀSIL, *Mufarrig al-kurūb fī akhbār Banī Ayyūb, éd. Ğamāl ad-Dīn aš-Šayyāl. Vol. I. Le Caire, Matba'a ğāmi'at fu'ād al-awwal, 1953. 294 p.*

AL-WISYĀNĪ, *Kitāb as-siyar, extraits in Tadeusz Lewicki (q.v.):*

- Un Document ibādite inédit...;
- Quelques extraits inédits...

AL-YA'QŪBĪ, *Kitāb al-buldān, B.G.A., VII, pp. 231 - 372, éd. M.J. De*

Goeje. Leyde, 1892; rééd. Brill, 1967. VIII + 372p.

————, *Les Pays, trad. G. Wiet. Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1937. 291 p.*

————, *Ta'rīkh, Beyrouth, Dār ṣādir-Dār Bayrūt, 1379 H/ 1960. 2 vol: 363 et 516p.*

YĀQŪT, Mu'ǧam al-buldān. Beyrouth, Dār Sādir-Dār Bayrūt, 1374 H/ 1955. 5 vol.

————, *Al-Muštarik, éd. F. Wüstenfeld, Göttingen, 1846. XVI, 45 et 475 p.*

AZ-ZARKAŠĪ, *Ta'rīkh ad-dawlatayn, al-muwaḥḥidiyya wa-l-ḥafṣiyya, éd. Muḥammad Māḍūr. Tunis, Al-Maktaba al-'atīqa, 1966. 189p.*

AZ-ZUHRĪ, *Kitāb al-ǧa'rāfiyya, éd. M. Hadj-Sadok, Bulletin d'Etudes Orientales, Institut français de Damas, XXI, 1968. 310p.*

Bibliographie générale

ABD-EL-JALIL, J.-M., *Brève histoire de la littérature arabe, Paris, G.P. Maisonneuve, 1946. 308p.*

'ABD AL-WAHHĀB, Hasan Husnī, *Waraqāt 'ani l-ḥaḍāra al-'arabiyya bi-Ifrīqiya t-tūnisiyya. Tunis, Al-Manār. 2 vol. (I: 1972, 534 p.; II: 1981, 532p.).*

ABEL, Armand, *Spain: Internal Division, in G.E. von Grünebaum (ed.), Unity and Variety in Muslim Civilzation (q.v.), pp. 207 - 230.*

————, *La Djizya: tribut ou rançon?,. St. Isl., XXXII, 1970, pp. 5 - 19.*

ABITBOL, Michel, *Juifs maghrébins et commerce transsaharien du VIIIe au XIVe siècle, in Mélanges R. Mauny, 1981 (q.v.), II, pp. 561 - 577, 1 carte (articel identique: Juifs maghrébins et commerce transsaharien au Moyen Age, in M. Abitbol (éd.), Communautés juives... (q.v.), pp. 229 - 251.*

————, *(éd.) communautés juives des marges sahariennes du Maghreb. Jérusalem, Yad Izhak Ben-Zvi, 1982. 501p. (fr.-angl.) + 42 p. (résumés en hébreu).*

ABUN-NASR, Jamil M., *A History of the Maghrib in the Islamic Period. Cambridge University Press, 1987; repr. 1990. 455p.*

ALAWAR, Mohamed A., *A Concise Bibliography of Northern Tchad and Fezzan in Southern Libya. Whitstable, Kent, Arab Crescent Press, 1983. 229 p.*

ASHTOR, Eliyahu, East - West Trade in the Medieral Mediterranean, articles rééd par Bengamin Z. Kedar, Londres, Variorum Reprints 1986, 344p.

AYYŪB Muḥammad Sulaymān, Ǧarma fī'asri zdihārihā, in Lībiyā fī t-ta'rīkh (q.v.), pp. 155 - 204, 7 pl., 1 carte.

———, *Ǧarma min ta'rīkh al-ḥadāra al-lībiyya, Tripoli, Dār al-Misrā tī, 1969. 261 p., 1 carte.*

———, *Hmlat Kūrnīliyūs Bālūbs 'alā Fazzān, in Libiyā fī t-ta'rīkh (q.v.), pp. 205 - 224, 2 cartes.*

BALL, John, *Remarks on «Lost» Oases of the Libyan Desert, G.J., vol. LXXII, 3, 1928, pp. 250 - 258.*

Barbier, Maurice, *Voyages et explorations au Sahara occidental au XIXe siècle (introduction, chois de textes et notes). Paris, L'Harmattan, 1985. 371 p.*

AL-BARGHŪTHĪ, 'Abd al-Latīf Maḥmūd, *Ta'rīkh Lībiyā l-islāmī mina l-fatḥ al-islāmī ḥattā bidāyat al-'aṣr al-'uthmānī. Beyrouth. Dār sā dir (Manšūrāt al-ǧāmi'a al-lībiyya), 1393H/1973. 699 p.*

BARTH, Heinrich, *Travels and Discoveries in North and Central Africa in the Years 1849 - 1855. Londres, 1857: New York, 1857-59, rééd. 1895; nelle éd. Londres, F. Cass, 1965. 3 vol. (I: XLI et 657 p., 6 cartes; II: XII et 709 p., 4 cartes; III: XVI et 800 p., 4 cartes).*

VON BARY, Erwin, *Le Dernier rapport d'un Européen sur Ghât et Les Touareg de l'Aïr (journal de voyage d'Erwin de Bary, 1876. 1877; trad. de l'allemand par H. Schimmer). Paris, Fischbacher, 1898. 221p.*

BAT YE'OR, *Le Dhimmi; Profil de l'opprimé en Orient et en Afrique du Nord depuis la conquête arabe. Paris, Anthropos, 1980. 335p.*

BATES, Oric, *The Eastern Libyans. Londres, F. Cass, 1914; nelle éd. 1970. 298p., 1 carte.*

BAUMANN, H. et WESTERMANN, D., *Les Peuples et les civilisations*

de l'Afrique (trad. de l'allemand). Paris, Payot, 1957. 605p.

BEAUSSIER, Marcelin, *Dictionnaire pratique arabe-français. Alger, 1887; nelle éd. Alger, J. Carbonel, 1958. (V. Lentin A.).*

BEGUINOT, Fransecso, *I Linguaggi, In R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp. 493 - 513.*

BEL, Alfred, *les Benou Ghânya. Paris, E. Leroux, 1903. 251 p.*

————, *La Religion musulmane en Berbérie. Paris, P. Geuthner, 1938. 407p.*

BEN-SASSON, Menahem, *The Jewish Community of Gabes in the 11th Century, Economic and Residential Patterns, in M. Abitbol, Communautés juives... (q.v.), pp. 265 - 284.*

BERAUD-VILLARS, J., *L'Empire de Gao. Paris, Plon, 1942. 211p.*

BERQUE, Jacques, *Du nouveau sur les Banī Hilāl?, St. Isl., XXXVI, 1972, pp. 99 - 111.*

BERTHELOT, André, *L'afrique saharienne et soudanaise, ce qu'en ont connu les Anciens. Paris, Les Arts et le Livre, 1927. 431 p., 3 cartes.*

BESHIR, Beshir Ibrahim, *New Light on Nubian Fātimid Relations, Ar., XXII, 1, 1975, pp. 15 - 24.*

VON BEURMANN, Karl Moritz, *Voyages et explorations 1860 - 1863 (notes publiées par Marc Franconie). St-Illide, Le Gibanel, 1973. 190p.*

BIBERSTEIN KAZIMIRSKI (de), A., *Dictionnaire arabe français. Paris, Maisonneuve et Cie, 1860; réimp. Beyrouth, Librairie du Liban, s.d. 2 vol.*

BLACHERE R., CHOUEMI M., DENIZEAU C., *Dictionnaire arabe-français-anglais. Paris, G.-P. Maisonneuve et Larose. 46 fasc., 2928 p., de 'a (1963) à ḫasā't (1988).*

BORCHARDT, Paul, Die grossen Ost-West-Karawanenstrassen durch die Libysche Wüste, Pet. Mitt., 70, 1924, pp. 219 - 223.

BOUBOU HAMA, *Recherches sur l'histoire des Touareg sahariens et soudanais. Paris, Présence africaine, 1967. 556p.*

BOUDOT-LAMOTTE, A., *L'Expression de la malédiction et de l'in-*

sulte dans les dialectes arabes maghrébins. Recherches lexicographiques et phraséologiques, Ar., XXI, 1, 1974, pp. 53 - 71.

BOULNOIS, J., *La Migration des Saô au Tchad, I.F.A.N., V, 1 - 4, 1943, pp. 80 - 121, 2pl.*

BOUSQUET, G. - H., *Observations sur la nature et les causes de la conquête arabe, St. Isl., VI, 1956, pp. 37 - 52.*

———, *Ibn Battūta et les institutions musulmanes, St. Isl., XXIV, 1966, pp. 81 - 106.*

BOVILL, E.W., *The Golden Trade of the Moors. Oxford University Press, 1958. 281 p., 1 carte.*

BREMOND, général, *Berbères et Arabes, la Berbérie est un pays européen. Paris, Payot, 1950. 391p.*

BRETT, Michael, *Ifrīqiya as a Market for Saḥaran Trade from the Tenth to the Twelfth Century A.D., J.A.H., X, 3, 1969, pp. 347 - 364.*

———, *The Zughba at Tripoli, 429 H (1037 - 8 AD.), S.L.S., VI, 1974 - 1975, pp. 41 - 47.*

———, *The Military Interest of the Battle of Haydarān, in V.J. Parry and M.E. Yapp (ed.), War, Technology and Society in the Middle East, Oxford University Press, 1975.*

———, *The Journey of Al-Tijānī to Tripoli at the Beginning of the Fourteenth Century A.D./ Eighth Century A.H., S.L.S., VII, 1975 - 1976, pp. 41 - 51.*

———, *Tripoli at the Beginning of the Fourteenth Century A.D./ Eighth Centruy A.H., S.L.S., IX, 1977 - 1978, pp. 55 - 59.*

———, *Ibn Khaldun and the Arabisation of North Africa, M.R., IV, I, 1979, pp. 9 - 16.*

———, *Islam and Trade in the Bilād al-Sūdān, Tenth-Eleventh Century A.D., J.A.H., 24, 1983, pp. 431 - 440.*

———, *The City-State in Medieval Ifrīqiya: the Case of Tripoli, C.T., XXXIV, 137 - 138, 1986, pp. 69 - 94*

———, *The Way of the Nomad, S.O.A.S., LVIII, 1995, pp. 251 - 269.*

BRIGGS, Lloyd Cabot, *Tribes of the Sahara. Cambridge, Harvard Uni-*

versity Press - Oxford University Press, 1960. XX et 295 p.

BROADHURST, R.J.C., v. Al-Maqrīzī.

BROCKELMANN, Carl, *History of the Islamic Peoples. Londres, Routledge and Kegan Paul, 1949, 4e éd. 1956. 566 p.(éd. allemande, 1939).*

———, *Geschichte der Arabischen Litteratur. Leyde, Brill. I: 1943 - 44, 676 et IX p., II: 1949, XIV et 686 p.; Index in Suppl. III: 1942, pp. 503 - 1166.*

BROWN, T.S., *Gentlemen and Officers, Imperial Administration and Aristocratic Power in Byzantine Italy, A.D. 554 - 800. Londres, British School at Rome, 1984. 288 p.*

BRUNSCHVIG, Robert, *La Berbérie oriental sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle. Alger, 1940-47, nelle éd., Paris, Adrien-Maisonneuve, 1982. 2 vol., 476 et 503p.*

———, *Un texte arabe du IXe siècle intéressant le Fezzān, R.A., 402 - 403, 1945, pp. 21 - 2 - 5.*

———, *Ibn 'Abdalh'akam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, A.I.E.O., VI, 1942-47, pp. 108 - 155.*

BUCAILLE, R., *Takaddā, pays du cuivre, I.F.A.N., 37, B, n° 4, 1975, pp. 719 - 778.*

BUTLER, Alfred J., *The Arab Conquest of Egypt. Oxford University Press, 1902. XXXIV et 563 p.*

CAHEN, Claude, *Y a-t-il eu des Rahdanites? R.E.F., 4e série, III (CXXIII), 1964, pp. 499 - 505.*

———, *Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale. Institut français de Damas, 1977, 496 p.:*

———, *Le problème préjudiciel de l'adaptation entre les autochtones et l'Islam, pp. 169 - 188 (déjà publié dans Correspondance d'Orient, Actes du Colloque sur la sociologie musulmane, Bruxelles, 11 - 14 sept. 1961).*

———, *L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval, pp. 209 - 229 (déjà publié dans St. Isl., 3, 1955).*

———, *Quelques problèmes concernant l'expansion économique mu-*

sulmane au Haut Moyen Age, pp. 323 - 357 (déjà publié dans Settimani di Spolete, 1964 - 1965).

———, *Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Age, pp. 359 - 366 (déjà publié dans Studies in the Economic History of the Middle East, ed. M.A. Cook, 1970 = Colloque de Londres, 1967).*

———, *Nomades et sédentaires dans le monde musulman du milieu du Moyen Age, pp. 423 - 437 (déjà publié dans Richards, Islamic Civilisation, 950 - 1150, Oxford, 1973).*

———, *L'Or du Soudan avant les Almoravides: mythe ou réalité? in Mélanges R. Mauny, 1981 (q.v.), vol. II, pp. 539 - 545.*

CAMPS, Gabriel, *Origines de la domestication en Afrique du Nord et au Sahara, in Mélanges R. Mauny (q.v.), II,pp. 547 - 560.*

———, *Réflexions sur l'origine des Juifs des régions nord-sahariennes, in M. Abitbol, Communautés juives... (q.v.), pp. 57 - 67.*

CAO, G.B., *Le Ultime oasi del deserto libico, B.R.S.G.I., serie VII, vol. VI, n°11, 1929, pp. 743 - 767, 1 carte.*

CAPOT-REY, R., *Le Sahara français. Paris, P.U.F., 1953. 564 p., 8 cartes, 12 pl.*

CAPUTO, Giacomo, *Archeologia, in R.S.G.I., Il Sahara Italiano (q.v.), pp. 301 - 330.*

CAT, E., *A travers le désert. Paris, Gedalge, S.D. 277p.*

CAUNEILLE, A., *Le Nomadisme des Megarha, I.R.S., XII, 1954, pp. 41 - 67. 2 cartes.*

———, *Le Nomadisme des Zentân (Tripolitaine et Fezzân), I.R.S., XVI, pp. 73 - 99.*

CHAPPELLE, Jean, *Nomades noirs du Sahara, Paris, Plon, 1957. 449 p., 1 carte.*

CHEIKH MOUSSA, A., Ǧāḥiz et les eunuques ou la confusion du même et de l'autre, Ar., XXIX, 1982, 2. pp. 184 - 214.

CHELHOD, Joseph, *Le Droit dans la société bédouine. Paris, M. Rivière, 1971. 461 p.*

CIPRIANI, Lidio, *Abitanti, Caratteri antropologici, in R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp. 353 - 383.*

GLAUZEL, J., *Transports automobiles et caravanes dans le Sahara soudanias, I.R.S., XIX, 1960, pp. 161 - 168.*

———, *Les Hiérarchies sociales en pays touareg, I.R.S., XXI, 1962, pp. 120 - 175.*

COMHAIRE, J., *Some Notes on Africans in Muslim History, M.W., XLVI, 1956, pp. 335 - 344.*

COOLEY, William Desborough, *The Negroland of the Arabs. Londres, Arrowsmith, 1941; nelle éd. F. Cass, 1966. 143p.*

CORDELL, Dennis D., *Dar al-Kuti and the Last Years of the Trans-Saharan Slave Trade. Madison-London, The Univeristy of Wisconsin Press, 1985. 283 p.*

CORNEVIN, Robert, *Histoire des peuples de l'Afrique Noire. Paris, Berger-Levrault, 1960. 715P.*

———, *Histoire de l'Afrique. Paris, Payot, 1966 - 67. 2 vol., 491 et 638p.*

CORNU, Georgette, *Atlas du monde arabo-islamique à l'époque classique, IXe-Xe siècles. Leyde, Brill, 1985. 213 p. (répertoire des toponymes), 20 cartes.*

CORRAL, José, *Ciuadades de las caravanas. Madrid, Hermann Blume, 1985. 255p. (planches, photos, croquis).*

CUOQ, Joseph, *Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest des origines à la fin du XVIe siècle, Paris, P. Geuthner, 1984. 347 p.*

———, *Islamisation de la Nubie chrétienne, Paris, P. Geuthner 1986. 127p., 1 carte.*

CUPERLY, Pierre, *Introduction à l'étude de l'ibādisme et de sa théologie. Alger, Office des publications universitaires, 1984. 372p.*

DABBŪZ, Muḥammad *'Alī, Ta'rīkh al-Maghrib al-kabīr. Le Caire, 'Īsā al-Bābī al-Halabī, 1384 H/1964.3 vol., 477, 478 et 606p.*

DACHRAOUI, Farhat. *Les Commencements de la prédication ismā'īlienne en Ifrūqiya, St. Isl., XX, 1964, pp. 89 - 102.*

———, *Le Califat fatimide au Maghreb, 296 362 H/909-973. Tunis,*

Société Tunisienne de Diffusion, 1981. 579 p., 19pl., 2 cartes.

DAGHFOUS, Radhi, *De l'orginie des Banū Hilāl et des Banū Sulaym, C.T., XXIII, 91 - 92, 1975, pp. 41 - 68.*

————, *Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du Ve siècle/ milieu du XIe siècle, C.T., XXV, 97 - 98, 1977, pp. 23 - 50.*

AD-DANĀsurī, Ǧamāl ad-Dīn, Ǧughrāfiyat Fazzān. Benghazi, Dāar Lī biyā li-n-našr wa-t-tawzī', s.d. (avant 1970). 438p.

DANIELS, C.M., *The Garmantes of Fezzan, in Libya in History (q. v.), pp. 261 - 287, 2 cartes, 10 plans, 42 pl.*

DELAFOSSE, Maurcie, *Haut-Sénégal- Niger. Paris, Institut Français d'Anthropologie, 1912; nelle éd. Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1972. 3 vol., 428, 428 et 316 p.*

DEMOUGEOT, Emilienne, *Le Chameau et l'Afrique du Nord romaine, Ann., XV, 1960, pp. 209 - 247.*

DENHAM, CLAPPERTON and OUDNEY, *Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the Years 1822, 1823 and 1824. Londres, John Murray, 1826; nelle éd.: Missions to the Niger, Cambridge University Press, 1966. 3 vol., 798 p. 3 cartes.*

DESPOIS, Jean, *La Colonisation italienne en Libye. Paris, Larose, 1935. 146 p.*

————, *Le Djebel Nefousa. Paris, Larose, 1935. 349 p., 3 cartes, 17 planches.*

————, *Géographie humaine. Mission scientifique du Fezzan (1944 - 1945). Alger, I.R.S., 1946. 268 p., 34 pl.*

DEVIC, L.-Marcel,, *Le Pays des Zendjs ou la côte orientale d'Afrique au moyen âge. Paris, 1883; réimp. Amsterdam, Oriental Press, 1990. 280p.*

DEVISSE, Jean, *Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée, R.H.E.S., 50, 1972, n° 1, pp. 42 - 73; n° 3, pp. 357 - 397.*

————, *Approximatives,.quantitatives, qualitatives: valeurs variables*

de l'étude des traversées sahariennes, in M. García-Arenal y M.J. Viguera, Relaciones de la península ibérica con el Magreb (q.v.), pp. 165 - 203.

DIOLE, Philippe, *Dans le Fezzân inconnu. Paris, Albin Michel, 1956. 236p.*

DJAIT, Hicham, *La Wilāya d'Ifrīqiya au IIe/VIIIe siècle: étude institutionnelle, St. Isl., XXVII, 1967, pp. 77 - 121; XXVIII, 1968, pp. 79 - 107.*

DONINI, Pier Giovanni, *Arab Travellers and Geographers. Londres, Immel, 1991. 107p.*

DOZY, A., *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes. Amsterdam, Jean Müller, 1845. 445p.*

———, *Supplément aux dictionnaires arabes. Leyde, Brill, 1881; re-imp. Beyrouth, Librairie du Liban, 1981. 2 vol.*

DUBIEF, J., *Chronologie et migration des Imanghasaten, I.B.L.A., n° 49, 1950, pp. 23 - 35.*

———, *Les Oûraghen des Kel-Ajjer, chronologie et nomadisme, I.R.S., XIV, 1956, pp. 85 - 135.*

DUNLOP, D.M. Sources of Gold and Silver in Islam according to al-Hamdānī, St. Isl., VIII, 1957, pp. 29 - 49.

DUNN, Ross E., *The Adventures of Ibn Battuta, Londres-Sydney, Croom Helm, 1986. 357p.*

DUVEYRIER, Henri, *Les Touareg du Nord. Paris, Challamel Aîné, 1864; nelle éd. Nendeln/Liechtenstein, Kraus reprint, 1973.500 p. + suppl. 37 p.*

———, *Journal de route. Paris, Augustin Challamel, 1905. 215p.*

EICKHOFF, Ekkehard, *Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland. Berlin, Walter De Gruyter, 1966. 438p.*

ELISSEEFF, Nikita, *L'orient musulman au Moyen Age. Paris, Armand Colin, 1977. 324p.*

EMERIT, Marcel, *Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVIIIe et au début du XIXe siècle, I.R.S., XI, 1954, pp. 29 - 47.*

Encyclopédie de l'Islam:

- 1ère éd., Leyde, Brill, 1913 - 1936. 4 vol.
- Nelle éd., Leyde, Brill, 1960...

EVLIYĀ ÇELEBI, v. Prokosch E.

FADL HASAN, Yūsuf, *The Arabs and the Sudan. Edinburgh University Press, 1967. 298 p.*

FAGNAN, Ernest, *Additions au dictionnaires arabes. Alger, 1923; reimp. Beyrouth, Librairie du Liban, s.d.*

FATTAL, Antoine, *Le Statut légal des non-musulmans en pays d'Islàm. Beyrouth, Imprimerie catholique, 1958. 394p.*

FEILBERG, C.G., *La Tente noire. Copenhague, I Komission Hos Gyldendalske Boghandel, Nordisk Forlag, 1944. XIV et 254p., 6 cartes.*

FERRAUD, L. Charles, *Annales tripolitaines. Tunis, Tournier - Paris, Vuibert, 1927. 478p.*

FERRAND, Gabriel, *Etudes sur la géographie arabo-islamique. Nachdruck von Schriften aus den Jahren 1910 bis 1945, herausgegeben von Fuat Sezgin, Frankfurt am Main, Institut für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissen-schaften an der J. W. Goethe Universität, 1986. 2 vol. 607 et 597 p. (cet ouvrage présente une double pagination: pag. originale des articles et pag. propre).*

FERRE, André, *Les Sources du Kitāb al-masālik wa-l-mamālik d'Abū 'Ubayd al-Bakrī, I.B.L.A., 158, 1986, 2, pp. 185 - 214.*

FISHER, Allan G.B. and FISHER, Humphrey J., *Slavery and Muslim Society in Africa. Londres, C. Hurst, 1970. 182 p.*

FISHER, Sidney Nettleton, *The Middle East, a History. New York, Alfred A. Knopf, 1959. XXXI et 650p.*

FORSTNER, Martin, *Das Wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer Zeit. Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1979. XIII et 359 p., 1 carte.*

FORBES, Rosita, *Across the Libyan desert to kufara, G.J., LVIII, 2, 1921, pp. 81 - 101; LVIII, 3, 1921, pp. 161 - 178.*

FOUREAU, F., *D'Alger au Congo par le Tchad (Mission saharienne*

Foureau-Lamy). Paris, Masson, 1902. 829 p., 1 carte.

FREEMAN-GRENVILLE, G.S.P., *The Muslim and Christian Calendars, tables for the conversion of Muslim and Christian dates, Oxford University Press, 1963. 87 p.*

————, *The Swahili Coast, 2nd to 19th Centuries. Londres, Variorum Reprints, 1988. XVI et 268 p.*

ǦADALLAH, Fawzi F., v. *Libya in History.*

GARCÍA-ARENAL Mercedes y VIGUERA, María j. (ed.). *Relaciones de la Península Ibérica con el Magreb (siglos XIII - XVI), Actas del Coloquio (Madrid 17 - 18 diciembre 1987), Madrid, Consejo superior de investigaciones científicas, Instituto hispano-árabe de cultura, 1988. 678p.*

GAST, M. et CHAKER, S., Sagmara, Saghmara et Isseqqamarènes à travers l'histoire du Sahara central, R.S., C.N.R.S., I, 1979, pp. 73 - 79.

GAUDEFROY - DEMOMBYNES, Maurice, *Les Institutions musulmanes. Paris, Flammarion, 1946. 221p.*

————, *Mahomet. Paris, Albin Michel, 1957. 708p.*

GAUDIO, Attilio. *Les Civilisations du Sahara. Verviers, Marabout Université, 1967. 320 p.*

GAUTIER, E.-F., *Le Sahara. Paris, Payot, 1928. 232p.*

————, *L'Afrique blanche. Paris, A. Fayard, 1939. 366p.*

————, *Le Passé de l'Afrique du Nord. Paris, Payot, 1952; nelle éd. 1964. 432p.*

GHIRELLI, Angelo, *Pueblos arabes y pueblos arabizados. Madrid, Consejo superior de Investigaciones cientificas, 1957. 2 vol. I: Pueblos arabes, 211p.; II: Peublos arabizados, 236 p.*

GIBB, Hamilton A.R., *Tārīkh (Arabic and Persian Historiography), In Studies on the Civilization of Islam (q.v.), pp. 108 - 137.*

————, *The Armies of Saladin, in Studies on the Civilization of Islam (q.v.), pp. 74 - 90 (initialement publié in Cahiers d'Histoire Égyptienne, série 3, fasc. 4, Le Caire, 1951. pp. 304 - 320).*

————, *Studies on The Civilization of Islam; edited by S.J. Shaw and*

W.R. Polk. Londres, Routledge and Kegan Paul, 1962. VII et 369 p.

GLUBB, John Bagot, *The Great Arab Conquests. Londres, Hodder and Stoughton, 1963; nelle éd., Quartet Books, 1980. 384p.*

GOITEIN, Solomon Dob Fritz, *The Unity of the Mediterranean World in the «Middle» Middle Ages, St. Isl., XII, 1960, pp. 29 - 42.*

————, *Studies in Islamic History and Institutions. Leyde, Brill, 1966. 391p.*

————, *Letters of Medieval Jewish Traders. Princeton University Press, 1973. 359p.*

GOODCHILD. Richard, *The Roman Roads of Libya and their Milestones, in Libya in History (q.v.), pp. 155 - 171.*

GORDON, Murray, *L'Escalavage dans le monde arabe, VIIe - XXe siecle (trad. de «Slavery in the Muslim World» par Collette Vlérick). Paris, Robert Laffont, 1987. 265 p., 3 cartes.*

GOSTYNSKI, T., *La Libye antique et ses relations avec l'Egypte, I.F.A.N., 37, B, 3, 1975, pp. 473 - 587.*

GOZALBES BUSTO, Guillermo, *Estudios sobre Marruecos en la Edad Media. Maracena (Granada), T.G. Arte, 1989. 369p.*

GRAZIOSI, Paolo, *Preistoria, in R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp, 241 - 274.*

GROOM, Nigel, *A Dictionary of Arabic Topography and Placenames. Londres, Longman- Beyrouth, Librairie du Liban, 1983. 369p.*

Von GRUNEBAUM, Gustave E. (ed.), Unity and Variety in Muslim Civilization. Chicago, The University of Chicago Press, 1955. 385 p.

GSELL, Stéphane, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. Paris, Hachette, 1920 - 1928. 8 vol.*

GUENERON, Hervé, *La Libye. Paris, P.U.F., 1976. 125p.*

EL-HACHAICHI, Mohamed ben Otsmane, *Voyage au pays des Senoussia; trad. V. Serres et Lasram. Paris, Augustin Challamel, 1912. 316p.*

HANOTEAU, A., *Essai de grammaire de la langue tamachek'. Alger, Adolphe Jourdan, 1860. 299 p.*

HASSAN, Zaky Mohamed, *Les Tulunides. Paris, Busson, 1933. 399p.*

HERODOTE, *Histoires, IV. Paris, Les Belles Lettres, 1945. 201p.*

HILL. D.R., *the Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests, A.D. 634-656. Londres, Luzac, 1971. 188p.*

HIRSCHBERG, H.Z. (F.W.), *A History of the Jews in North Africa, Trad. de l'hébrue, 2e éd. revue par e. Bashan et R. Attal. Leyde, Brill, 2 vol.: I, From Antiquity to the Sixteenth Century, 1974, 518p.; II, From the Ottoman Conquests to the Present Time, 1981. 351 p.*

HITTI, Philip K., *History of the Arabs. Londres, Macmillan, 1961. 822p.*

HOGENDORN, Jan and JOHNSON, Marion. *The Shell Money of the Slave Trade. Combridge University Press, 1986. 230p.*

HOMBURGER, L., *Les Langues négro-africaines et les peuples qui les parlent. Paris, Payot, 1957. 343p.*

HORNEMANN, Friedrich Conrad, *The Journal of Friedrich Hornemann's Travels from Cairo to Murzuk in the Years 1797 - 98. Missions to the Niger, Cambridge University Press, The Hakluyt Society, 1964, vol. I. pp. 1 - 122, 1 carte.*

HUART, CL., *Littérature arabe. Paris, Armand Colin, 1902. 470p.*

HUNWICK, J.O., MEILLASSOUX, Claude et TRIAUD, J. - L., *La Geographie du Soudans d'après Al-Bakrī. Trois lectures, in Mélanges R. Mauny (q.v.), vol. I, pp. 401 - 428, 3 cartes.*

IDRIS, Hady Roger, v. Al-Mālikī.

———, *Une des phases de la lutte du mālikisme contre le šī'isme sous les Zīrīdes (XIe siècle), C.T., IV, 16, 1956, pp. 508-517.*

———, *La Berbérie orientale sous les Zīrīdes. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1962. 2 vol., 896p.*

———, *Examen critique des récits d'al-Mālikī et d'Ibn 'Idārī sur la conquête de l'Ifrīqiya, Ar., XI, 1, 1964, pp. 5 - 18.*

———, *De la réalité de la catastrophe hilālienne, Ann., 2, 1968, pp. 390 - 396.*

———, *L'Invasion hilālienne et ses conséquences, C.C.M., XI, 3, 1968, pp. 353 - 369.*

JAGER GERLINGS, J.H. en JONGMANS, D.G., *De Sedentarisatie in de Fezzan. Amsterdam, Koninklijk Instituut van de Tropen, 1957. 62 p., 3 cartes.*

JAUSEN, Antonin, *Coutumes des arabes au pays de Moab. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1948. 448 p.*

JONGMANS, D.G., *Libië, land van de dorst. Meppel, J.A. Boom, 1964. 296p.*

JULIEN, Ch.-André, *Histoire de l'Afrique du Nord des origines à la conquête arabe, 2e éd. revue par Chr. Courtois. Paris, Payot, 1951; réimpr. 1966. 333p.*

———, *Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830; 2e éd. revue par R. Le Tourneau. Paris, Payot, 1952; réimpr. 1966. 367p.*

KAHHĀLA, 'Umar Ridā, *Mu'ǧam qabā'il al-'Arab. Beyrouth, Dār al-'ilm li-l-malāyīn, 1368H/1949; nelle éd. 1388 H/ 1968. 3 T, 1287p.*

KING, W.J. Harding, *Mysteries of the Libyan Desert, a Record of Three Years of Exploration. Londres, Seeley, 1925. 348p.*

KOWALSKA, Maria, *Zwei wenig bekannte Muslimische Reisende in Westsudan im 13. Jh., F.O., III, 1 - 2, 1961, pp. 231 - 241.*

———, *The Sources of Al-Qazwīnī's «Athar al-Bilad», F.O., VIII, 1966, pp. 41 - 88.*

KRATCHKOVSKY, I., *La littérature géographique arabe (traduction du chapitre X consacré à l'Orient musulman et l'Afrique du Nord, Moscou-Léningrad, 1957), A.I.E.O., XVIII-XIX, 1960-61, pp. 1-72.*

KRAUS, Willy (ed.), *Nomadismus al Entwicklungsproblem (Bochumer Symposion 14/15. Juli 1967). Bielefeld, Bertelsmann Univsersitäts-verlag, 1968. 187p.*

LABOURET, Henri, *Histoire des Noirs d'Afrique. Paris, P.U.F., 1946. 128p.*

LACOSTE, Yves, *Ibn Khaldūn, naissance de l'histoire passé du tiers-monde. Paris, F. Maspero, 1966. 267p.*

LAFORGUE, Pierre, *Notes sur Aoudaghost, ancienne capitale des Berbères Lemtouna, I.F.A.N., II, 1 - 2, 1940, pp. 217 - 236.*

LAING, Alexander Gordon, *The Letters of Major Alexander Gordon Laing, 1924 - 26. Missions to the Niger, vol. I. Cambridge University Press, The Hakluyt Society, 1964, pp. 123 - 406.*

LANE, Edward William, *Arabian Society in the Middle Ages, ed. by Stanley Lane-Poole. Londres, Curzon Press, 1987. 1ère éd. 1883. 283.*

LANE POOLE, Stanley, *A History of Egypt. Londres, 1901; 4e éd., F. Cass, 1968. 382p.*

LEBEUF, Jean-Paul et MASSON-DETOURBET, A., *La CIvilisation du Tchad. Paris, Payot, 1950. 198p.*

LEBLANC, M.E. *Anthropologie et ethnologie; Mission scientifique du Fezzan (1944 - 1945). Alger, I.R.S., 1946. 45p.*

LENTIN, Albert, *Supplément au dictionnaire pratique de Marcelin Beaussier. Alger, J. Carbonel, 1959.*

Le ROUVREUR, Albert, *Sahariens et Sahéliens du Tchad. Paris, Berger-Levrault, 1962. 467p.*

LESSARD, Jean-Michel, *Sijilmassa: la ville et ses relations commerciales au XIe siècle d'après El-Bekri, H.T., X, 1 - 2, 1969, pp. 5 - 36.*

LETHIELLEUX, Jean, *Le Fezzan, ses jardins, ses plamiers. Tunis, I.B.L.A., 1948. 253p.*

———, *Ouargla, cité saharienne, des origines au début du XXe siècle. Paris, Paul Geuthner, 1983. 298p.*

LE TOURNEAU, Roger, *La Révolte d'Abū Yazīd au Xe siècle, C.T., 2, 1953. pp. 103 - 125.*

———, *North Africa: Rigorism and Bewilderment, in von Grunebaum (ed.), Unity and Variety in Muslim Civilization (q.v.), pp. 231-260.*

LEVI-PROVENÇAl, E., v. 'Ubayd Allāh ibn Sāliḥ ibn 'Abd al-Halīm.

———, *Histoire de l'Espagne musulmane, Paris, G.-P. Maisonneuve et Larose, 1950 - 1967. 3 vol. 403, 435 et 576p.*

LEVTZION, Nehemia, *Ancient Ghana: a Reassessment of Some Arabic Sources, In Mélanges R. Mauny (q.v.), vol. I, PP. 429 - 437.*

———, *The Jews of Sijilmasa and the Saharan Trade, in M. Abitbol, Communautés juives... (q.v.), pp. 253 - 263.*

LEWICKI, Tadeusz, *Sur l'oasis de Sbru des géographes arabes, R.A., n° 378, 1939, pp. 45 - 64.*

———, *La Répartition géographique des groupements ibādites dans l'Afrique du Nord au moyen age, R.O., XXI, 1957, pp. 301 - 343.*

———, *Les Subdivisions de l'Ibādiyya, St. Isl., IX, 1958, pp. 71 - 82.*

———, *Les Ibādites en Tunisie au moyen-age, A.P.S.L., Conferenze, fasc. 6, 1958, pp. 1 - 16, 2 cartes.*

———, *A propos d'une liste de tribus berbères d'Ibn Hawqal, F.O., I, 1, 1959, pp. 128 - 135.*

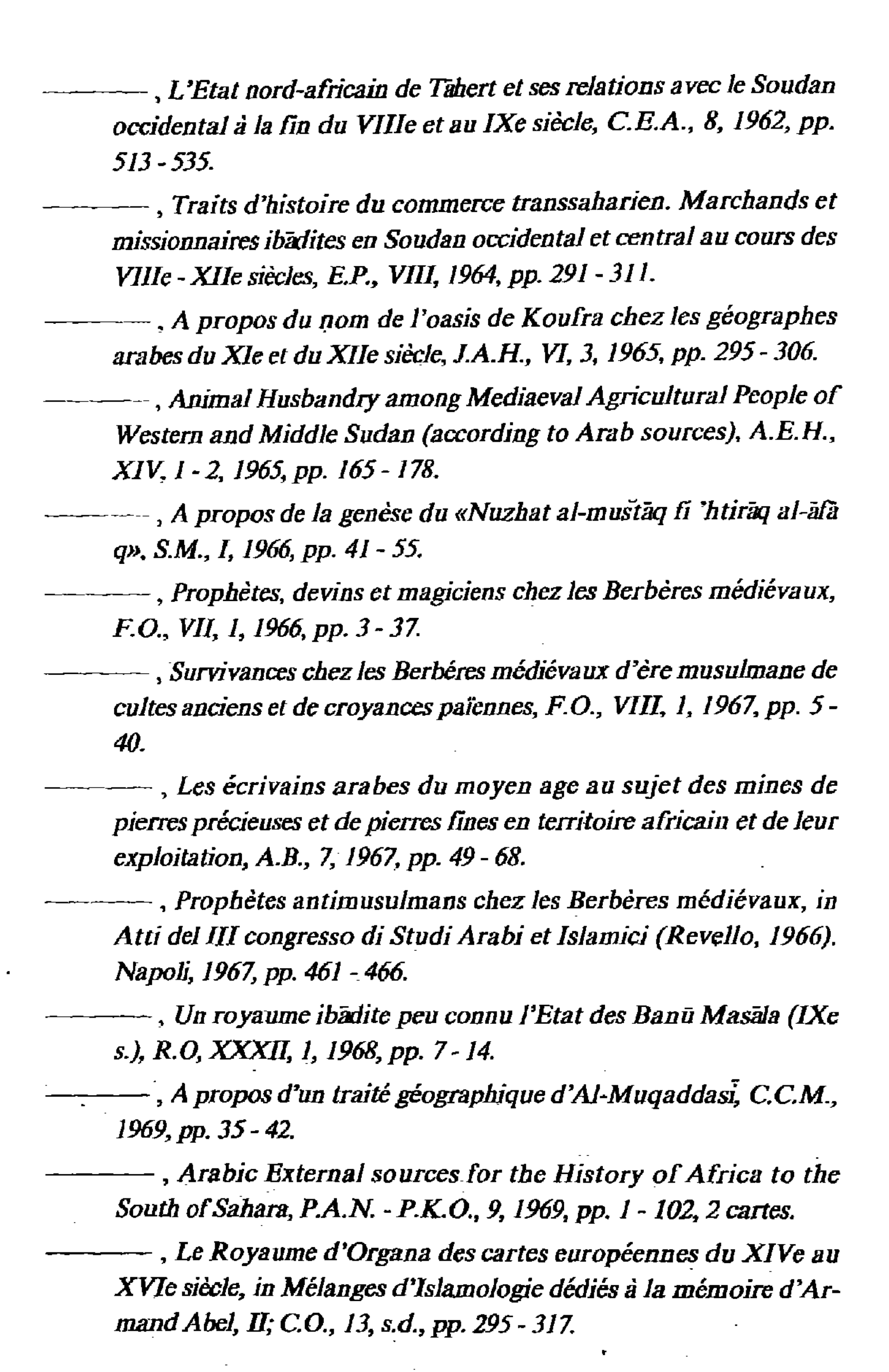
———, *Les Ibādites dans l'Arabie du Sud au moyen âge, F.O., I, 1, 1959. pp. 3 - 17.*

———, *Un document ibādite inédit sur l'émigration des Nafūsa du ǧabal dans le sāḥil tunisien au VIIIe/IXe siècle, F.O., I, 2, 1959, pp. 175 - 191. Note supplémentaire: II, 1 - 2, 1960, pp. 214 - 216.*

———, *Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibādites nord-africains au pays du Soudan occidental et central au moyen âge, F.O., II, 1 - 12, 1960, pp. 1 - 27.*

———, *Les Historiens, biographes et traditionnistes ibādites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIIIe au XVIe siècle, F.O., III, 1 - 2, 1961, pp. 1 - 134.*

———, *Ibāditica, I. Tasmiya šuyūkh Nafūsa, R.O. XXV, 2, 1961, pp. 87 - 120; 2, Les Hākims du ǧabal Nafūsa, R.O., XXVI, 1, 1962, pp. 97 - 123.*



————, *L'Etat nord-africain de Tāhert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle, C.E.A., 8, 1962, pp. 513 - 535.*

————, *Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires ibādites en Soudan occidental et central au cours des VIIIe - XIIe siècles, E.P., VIII, 1964, pp. 291 - 311.*

————, *A propos du nom de l'oasis de Koufra chez les géographes arabes du XIe et du XIIe siècle, J.A.H., VI, 3, 1965, pp. 295 - 306.*

————, *Animal Husbandry among Mediaeval Agricultural People of Western and Middle Sudan (according to Arab sources), A.E.H., XIV, 1 - 2, 1965, pp. 165 - 178.*

————, *A propos de la genèse du «Nuzhat al-muštāq fī 'htirāq al-āfā q», S.M., I, 1966, pp. 41 - 55.*

————, *Prophètes, devins et magiciens chez les Berbères médiévaux, F.O., VII, 1, 1966, pp. 3 - 37.*

————, *Survivances chez les Berbères médiévaux d'ère musulmane de cultes anciens et de croyances païennes, F.O., VIII, 1, 1967, pp. 5 - 40.*

————, *Les écrivains arabes du moyen age au sujet des mines de pierres précieuses et de pierres fines en territoire africain et de leur exploitation, A.B., 7, 1967, pp. 49 - 68.*

————, *Prophètes antimusulmans chez les Berbères médiévaux, in Atti del III congresso di Studi Arabi et Islamici (Revello, 1966). Napoli, 1967, pp. 461 - 466.*

————, *Un royaume ibādite peu connu l'Etat des Banū Masāla (IXe s.), R.O, XXXII, 1, 1968, pp. 7 - 14.*

————, *A propos d'un traité géographique d'Al-Muqaddasī, C.C.M., 1969, pp. 35 - 42.*

————, *Arabic External sources for the History of Africa to the South of Sahara, P.A.N. - P.K.O., 9, 1969, pp. 1 - 102, 2 cartes.*

————, *Le Royaume d'Organa des cartes européennes du XIVe au XVIe siècle, in Mélanges d'Islamologie dédiés à la mémoire d'Armand Abel, II; C.O., 13, s.d., pp. 295 - 317.*

———, *Les Origines et l'islamisation de la ville de Tādmakka d'après les sources arabes, in Mélanges R. Mauny (q.v.), vol. I, pp. 439 - 444.*

———, *Etudes maghrébines et soudanaises. Varsovie, Editions Scientifiques de Pologne. I, 1976, 94 p.; II, 1983, 99p.*

LEWIS, Bernard, *Race et couleur en pays d'Islam (trad. de «Race and Color in Islam», N.Y., Haprer and Row, 1971, par André Iteanu et Françoise Briand). Paris, Payot, 1982. 163 p. (la trad. fr. offre des ajouts et documents annexes).*

———, *Juifs en terre d'Islam (trad. de «The Jews of Islam», Princeton U.P., 1984, par Jacqueline Carnaud). Paris, Flammarion, 1986. 258p.*

LEZINE, Alexandre, Deux villes d'Ifrīqiya - Sousse, Tunis. Paris, P. Geuthner, 1971. 192 p., XV planches.

LHOTE, Henri, *Les Touaregs du Hoggar, Paris, Payot, 1955. 461p.*

———, *Contribution à l'étude des Touaregs soudanais (Les Saghmā ra, les Maghcharen, les expéditions de l'Askia Mohamed en Aïr et la confusion Takedda - Tademekka), I.F.A.N., XVII, B, 3 - 4, 1955, pp. 334 - 370.*

———, *Contribution à l'histoire des Touaregs soudanais (Les limites de l'empire du Mālī; La route de Gao à l'Aïr et au Caire; Les Tademekket dans la régions de Tombouctou; Les Songaï dans l'Adrar des Iforas), I.F.A.N., XVIII, B, 3 - 4, 1956, pp. 391 - 407.*

———, *A la découverte des fresques du Tassili. Paris, 1958. 268 p., 79pl.*

———, *Recherches su Takedda, ville décrite par le voyageur arabe Ibn Battūta et située en Aïr, I.F.A.N., XXXIV, B, 3, 1972, pp. 429 - 470, 1 carte.*

Libya in History/ Lībiyā fī t-ta'rīkh. Historical Conference, 16 - 23 March 1968, Fawzi F. Ğadallah ed. Benghazi, s.d., Al-Ğāmi'a al-Lībiyya, Kulliyat al-Ādāb. 396 p. (articles en anglais, français, italien) et 352 p. (articles en arabe).

LOMBARD, Maurice, *Les Textiles dans le monde musulman, VIIe-XIIe*

siècle. Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Centre de Recherches Historiques, Paris - La Haye - New York, Mouton, 1978, 316 p., 2 cartes.

LOUIS, André, *Tunisie du Sud, Ksars et villages de crêtes. Paris, C.N.R.S., 1975. 370p.*

LOVEJOY, Paul E., *Transformations in Slavery. A History of Slavery in Africa. Combridge University Press, 1983. 349p.*

————, *Salt of the Desert Sun, a History of Salt Production Trade in the Central Sudan, Combridge University Press, 1986, 351 p.*

LYON, G.F., *A Narrative of Travels in Northern Africa in the Years 1818 - 1819 and 1820. Londres, John Murray, 1821; nelle éd., F. Cass, 1966. 383 p., 1 carte.*

MANNING, Patrick, *Slavery and the African Life, Cambridge Univesrity Press, 1990. 236p.*

MARÇAIS, Georges, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle. Constantine, D. Braham - Paris, Ernest Leroux, 1913. 770p.*

——, *Note sur les ribâts en Berbérie, in Mélanges René Basset. Publications de l'Institut des Hautes Etudes marocaines, 1925, pp. 1 - 36.*

————, *La Berbérie du VIIe au XVIe siècle, in Extraits du 2e Congrès national des sciences historiques, Alger, 14 - 16 avril 1930, pp. 1 - 11.*

————, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, Aubier, 1946, 310p.*

MARTIN, B.C., *Kanem, Bornu, and the Fezzān: Notes on the Political History of a Trade Route, J.A.H., X, 1, 1969, pp. 15 - 27.*

MARTY, Paul, *Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan. Paris, E. Leroux, 1920. (T.I: Les Koutama de l'Est, Les Berabich, les Iguellad. 358 p. T. II: La Région de Tombouctou (Islam songaï), Dienné, le Macina et dépendances (Islam peul). 334 p., ill., 1 carte. T. III: La Régions de Kayes, les pays Bambara, le Sahel de Nioro. 295 p.).*

MASPERO, Jean et WIET, Gaston, *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte. Le Caire, I.F.A.O., 1919, réimpr. Frankfurt am*

Main, Institut für Geschichte der Arabisch - Islamischen Wissenschaften an der J. W. Goethe Universität, 1992, 283 p.

MAUNY, Raymond, *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire. Paris, A. Fayard, 1970. 314p.*

———, *Tableau géographique de l'Ouest africain an moyen age. Amsterdam, Swets & Zeitlinger, 1975. 587 p.*

———, *Le Sol, la parole et l'écrit (Mélanges en hommage à R. Mauny). Paris, Société française d'histoire d'outre-mer, 1981. 2 vol. 1016 p.*

MEILLASSOUX, Claude, v. Hunwick, J.O.

———, *Female Slavery, in Robertson C.C. and Klein M.A. (ed.), Women and Slavery in Africa (q.v.), pp. 49 - 66.*

MIGLIORINI, Elio, *Vie di comunicazione, in R.S.G.I., Il Sahara Italiano (q.v.), pp. 591 - 601.*

MIQUEL, André, *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siècle. Paris - La Haye, Mouton, 4 vol.: 1967, 1975, 1980, 1988, 420, 705, 543 et 387 p.*

———, *L'islam et sa civilisation, Paris, Armand Colin, 1977. 600p.*

MONOD, Théodore, *Autour du mot songay KORONI, in Mélanges R. Mauny (q.v.), pp. 283 - 288.*

MONTAGNE, R., *Villages et kasbas berbères (documents photographiques commentés). Paris, Félix Alcan, 1930. IX et 20 p., 80 fig.*

MONTEIL, Charles, *Les Empires du Mali (extrait du Bulletin du Comité d'Edutes historiques et scientifiques de l'Afrique Occidentale Française, XII, 3 - 4, juillet-décembre 1929); nelle éd., G.P. Maisonneuve et Larose, 1968. 157 p.*

———, *Al-Bakrī (Cordoue 1068), routier de l'Afrique blanche et noire du nord-ouest, I.F.A.N., XXX, B, n°1, 1968, pp. 39 - 116, 1 carte.*

———, *Introduction aux voyages d'Ibn Battūta, I.F.A.N., XXX, B, n°2, 1968, pp. 444 - 462.*

MU'NIS, Husayn, Atlas ta'rīkh al-Islām. Le Caire, Az-Zahrā' li-l-i'lām al-'arabī, 1987. 527 p.

NACHTIGAL, Gustav, *Sahara and Sudan; trad. de l'allemand, introd. et ann. par A.G.B. et H.J. Fisher. Londres, C. Hurst.*

Vol. I: Tripoli and Fezzan, Tibesti or Tu. 1974. 460 p., 2 cartes. Vol. II: Kawar, Bornu, kanem, Borku, Ennedi. 1980. 540 p. Vol. III: The Chad Basin and Bagirimi. 1987. XXII et 519 p. Vol. IV: Wadai and Darfur. 1971. 439 p., 1 carte (Ed. allem.: Berlin, Weidmannsche Buchhandlung, Verlags-handlung Paul Parey, 1879, 1881, 1889).

NAǦM, Muḥammad Yūsuf wa-IHSĀN 'Abbās, Lībiyā fī kutub al-ǧughrāfiya wa-r-riḥlāt; Ikhtiyār wa-tasnīf. Benghazi, Dar Lībiyā li-n-našr wa-t-tawzī', 1388 H/ 1968. 325p.

An-NĀ'IB AL-AnSĀRĪ, Al-Manhal al-'adhb fī ta'rīkh Ṭarābulus al-Gharb, Tripoli, Maktabat al-Farǧanī, s.d. 2 vol., 407 et 127 p.

NEMO, Jean, *Le Régime juridique des terres au Hoggar, I.R.S., XXII, 1963, pp. 123 - 144.*

NEWBOLD, Douglas, *More Lost Oases of the Libyan Desert, G.F., LXII, 6, décembre 1928, pp. 547 - 554.*

NICOLAISEN, J., *Ecology and Culture of the Pastoral Tuareg. Copenhague, Nationalmuseets Skrifter, Etnografisk Rockke, IX, 1963. 516p.*

NORRIS, Harry Thirlwall, *The Tuaregs, their Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel. Warminster, Aris & Phillips, 1975. XV et 234 p.*

———, *The Berbers in Arabic Literature, Harlow, Longman, 1982. XXIV et 280 p.*

———, *The Arab Conquest of the Western Sahara, Harlow, Longman - Beyrouth, Librairie du Liban 1986. XXVI et 309 p.*

OLIEL, Jacob, *Les Juifs au Sahara, le Touat au moyen âge. Paris, CNRS, 1994. 188p.*

OSWALD, Rainer, *Die Handelsstädte der Westsahara (Šingīt, Wādān, Tīšīt, Walāta). Berlin, Dietrich Reiner, 1986. 594p.*

PACE, Biagio, *Storia Antica, in R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp. 275 - 299.*

PACHO, Jean-Raimond, *Relation d'un voyage dans la Marmarique, La Cyrénaïque et les oasis d'Audjelah et de Maradeh. Paris, Firmin Didot, 1827; réimpr. Université de Paris-Sorbonne, Centre de Recherches sur la Libye antique, éd. Jeanne Laffitte, Marseille, 1979. 2 vol.: I, Texte, vocabulaire d'Audjelah, explication des planches, 404 et VIII p.; II, 100 planches.*

PARADISI, Umberto, *Il Berbero di Augila, R.S.O., XXXV, 1960, pp. 157 - 177.*

———, *EL-Fŏgáha, oasi berberofona del Fezzān, R.S.O., XXXVI, 1961 pp. 293 - 302.*

PAREJA, F.M, et al. Islamologie. Beyrouth, Imprimerie catholique, 1964. 1149p

PELLAT, Charles, *Langue et littérature arabes. Paris, Armand Colin, 1952. 224 p.*

PERINBAM, B. Marie, *Soninke-Ibāḍiyya interactions in the Western Sudan C. 9 th to C. 11 th, M.R., XIV, 1 - 2, 1989, pp. 70 - 90.*

PERVINQUIERE, Léon, *La Tripolitaire interdite, Ghadamès. Paris, Hachette, 1912. 251 p.*

PIRENNE, Henri, *Mahomet et Charlemagne. Paris, Alcan - Bruxelles, N.S.E., 7e éd., 1937. 264 p.*

DE PLANHOL, Xavier, *Les Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam. Paris, Flammarion, 1968. 430 p., 12 fig., XVI planches.*

PONCET, Jean, *Le Mythe de la «catastrophe» hilālienne, Ann., XXII, 5, sept. - oct. 1967, pp. 1099 - 1120.*

PONS BOIGUES, Francisco, *Los Historiadores y géografos arábigo-espanoles, 800 - 1450 A.D. Madrid 1898. 514 p.; réimpr. Amsterdam, Philo Press, 1972.*

POPOVIC, Alexandre, *La Révolte des esclaves en Iraq au IIIe/IVe siècle. Paris, Paul Geuthner, 1976. 218p.*

PRASSE, K.G., *L'Origine du mot «amāziğ», A.O., XXIII, 3 - 4, 1959, pp. 197 - 200.*

PRICE, John A,., *On Silent Trade, R.E.A., vol. 3, 1980, pp. 75 - 96.*

PEOKOSCH, Erich, *Ins Land der geheimnisvollen Func, ein Reiseber-*

icht aus dem Sudan des 17. Jahrhunderts (trad. des Evliyā Çelebi, Seyāḥatnāme, vol. X: voyage en Haute- Egypte et au Soudan). Graz-Vienne-Cologne, Styria, 1994. 336p.

PRYOR, John H., *Geography, Technology and War, Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649 - 1571. Cambridge University Press, 1988, pB ed. 1992. 238 p.*

RACHET, Marguerite, *Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien. Bruxelles, Latomus, 1970. 314p., 15 cartes.*

R.S.G.I. (Reale Societá Geografica Italiana), *Il Sahara italiano. Parte prima: Fezzán e Oasi di Gat. Rome, 1937. 715 p., 1 carte.*

REBSTOCK, Ulrich, *Dei Ibāditen im Mağrib (2./8 - 4./10. Jh.). Berlin, Klaus Schwarz, 1983. 366 p.*

REBUFFAT, René, *Routes d'Egypte de la Libye intérieure, S.M., III, 1970, pp. 1 - 20, 2 cartes.*

REINAUD, M., v. Abū l-Fidā'.

RENAULT, François, *La Traite des Noirs au Proche-Orient médiéval, VIIe - XIVe siècle. Paris, Paul Geuthner, 1989. 110p.*

RICHARSDON, James, *Travels in the Great Desert of Sahara in the Years 1845 & 1846. Londres, R. Bentley, 1848, 2 vol.; nelle éd. F. Cass, 1970. XXI et 440 p., 1 carte; XII et 482 p.*

RICHTER, Lore, *Islands of the Sahara; trad. de l'allemand par H. Ehlert. Leipzig, Druckerei Sächsische Zeitung, 1960. 129p., 1 carte.*

ROBERTSON, Claire C. and KLEIN, Martin A. (ed.), *Women and Slavery in Africa. Madison - London, The University of Wisconsin Press, 1983. 380p.*

———, *Women's Importance in African Slave Systems, in Robertson and Klein, Women and Slavery in Africa (q.v.), pp. 3 - 25.*

RODINSON, Maxime, *Islam et capitalisme. Paris, Le Seuil, 1966. 304.*

ROSENTHAL, Franz, *A History of Muslim Historiography. Leyde, Brill, 1968. 653p.*

ROSSI, Ettore, *Storia del Medio Evo et dell'Etá Moderna, in R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp. 331 - 351.*

———, *Storia di Tripoli e della Triplitania. Rome, 1968. 398 p.*

SAIDI, Omar, V. *Kitāb al-'uyūn.*

SALMON, Pierre, *Les Touareg de l'Ahaggar et du Tassili-n-Ajjer. Essai de synthèse historique, C.O., 19 - 20, 1971 - 1972, pp. 47 - 65.*

SANAGUSTIN, F., *La Chirurgie dans le Canon de la médecine/ Al-Qā nūn fit -tibb d'Avicenne, Ar., 1986, XXXIII, 1, pp. 84 - 122.*

SCARIN, Emilio, *Le Oasi del Fezzán. Bologne, N. Zanichelli, 1934. 2 vol., 204 et 51 p.*

———, *La Giofra e Zella, R,.GI., VLIV, 5 - 6, 1937, pp. 163 - 244, 1 carte, 23 planches.*

———, *Descrizione delle oasi e gruppi di oasi, in R.S.G.I., Il Sahara italiano (q.v.), pp. 603 - 644.*

SCHACHT, Joseph, *Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara, I.R.S., XI, 1954, pp. 11 - 27, 20 pl.*

SCHIFFER, Heinrich, *Libyen und die Sahara, Bonn, Kurt Schroeder, 1962. 197 p., 1 carte.*

SCHLÜTER, Hans, *Bibliography of Libya 1957 - 1969 with supplementary material 1915 - 1956 (Index Libycus). Boston, K.G. Hall, 1972. 305 p.*

———, *Index Libycus, Bibliography of Libya 1970 - 75 with supplementary material. Boston, G.K. Hall, 1979. 9380 titres.*

SCHUBARTH-ENGELSCHALL, Karl, *Arabische Berichte muslimischer Reisender und Geographen des Mittelalters über die Völker der Sahara. Berlin, Akademie-Verlag, 1967. 124 p., 13 cartes.*

SCHULTZE, A., *The Sultanate of Bornu; trad. de l'allemand. Londres, 1913; nelle éd. F. Cass, 1968. 401 p.*

SCHWARTZ, Werner, *Die Anfänge der Ibaditen. Wiesbaden, Harrassowitz, 1983. 349 p., 1 carte.*

SERGI, Sergio, *Le Reliquie dei Garamanti, B.R.S.G.I., VII, vol, I, n°1, 1936, pp. 1-12, 8 planches.*

SEZGIN, Fuat, *The Contribution of the Arabic-Islamic Geographers to the Formation of the World Map. Frankfurt am Main, Institut für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften, 1987. 50 p. texte anglais, 53 p. texte allemand, 48 p. texte arabe, 48 cartes.*

———, *General Outlines of Islamic Geography (réimpr. d'art. choisis). Frankfurt am Main, Institut für Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften an der J.W. Goethe Universität, 1992. 436 p.*

SHATZMILLER, Maya, *Le Rôle des courtisans juifs sous les Mérinides, in M. Abitbol, Communautés juives... (q.v.), pp. 295 - 302.*

SHAW, Brent D., *The Camel in Roman North Africa and the Sahara; History, Biology and Human Economy, I.F.A.N., 41, B, n° 4, oct.1979, pp. 663 - 721.*

SHINAR, Pessah, *Réflexions sur la symbiose judéo-ibādite en Afrique du Nord, in M. Abitbol, Communautés juives... (q.v.), pp. 81 - 114.*

VON SIVERS, p., *Back to Nature: The Agrarian Foundations of Society According to Ibn Khaldūn, Ar., XXVII, 1, 1980, pp. 68 - 91.*

SPRENGER, A., *Die Post - und Reiserouten des Orients. Leipzig, Abhandlungen des Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, 1864; Kraus Reprint, Nendeln/Liechtenstein, 1966. 159 p., 16 cartes.*

STÜWE, Friedrich, *Die Handelszüge der Araber. Berlin, 1936. 368 p., 1 carte; réimp. Amsterdam, Meridian Publishing Co., 1966.*

SURET-CANALE, Jean, *Afrique Noire (géographie, civilisations, histoire). Paris, Editions Sociales, 1961. 321p.*

SWANSON, John T., *The Not-Yet-Golden Trade: Contact and Commerce between North Africa and the Sudan to the Eleventh Century A.D., th. doct. Indiana University, 1978. Ann Arbor, U.M.I., 79 00428. 289p.*

TADEMA-SPORRY, Bob, *Gelukking Libië. Amsterdam-Bruxelles, Elsevier, 1956. 308 p.*

TĀHA, 'Abdulwāḥid Dhanūn, *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain. Londres-New York, Routledge, 1989. 280p.*

TALBI, Mohamed, *L'Emirat aghlabide. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1966. 767 p.*

————, *Ibn Haldūn et le sens de l'histoire, St. Isl., XXVI, 1967, pp. 73 - 148.*

————, *Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman: l'épopée d'Al-Kāhina, in Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne (q.v.), pp. 125 - 167. (1ère public. in C.T., 73 - 74, 1971, pp. 19 - 52).*

————, *A propos d'Ibn ar-Raqīq, in Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne (q.v.), pp. 169 - 184. (1ère public. in Ar., XIX, 1, 1972, pp. 86 - 96).*

————, *A propo d'Ibn ar-Raqīq, in Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne (q.v.), pp. 169 - 184. (1ère public. in Ar., XIX, 1, 1972, pp. 86 - 96).*

————, *Ibn Haldūn et l'histoire. Tunis, Maison tunisienne de l'édition, 1973. 131 p.*

————, *Effondrement démographique au Maghreb du XIe au XVe siècle, C.T., XXV, 97 - 98, 1977, pp. 51 - 60.*

————, *Opérations bancaires en Ifrīqiya à l'époque d'Al-Māzarī (453 - 536/1061 - 1141), crédit et paiement par chèque, in Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne (q.v.), pp. 420 - 435. (1ère public. in Recherches d'Islamologie, recueil d'articles offert à G.C. Anawati et L. Gardet, Louvain, 1978, pp. 307 - 319)*

————, *Droit et économie en Ifrīqiya au IIIe/IXe siècle. Le paysage agricole etle rôle des esclaves dans l'économie du pays, in Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne (q.v.), pp. 185 - 229. (1ère public. in The Islamic Middle East, 700 - 900, Studies in Economic and Social History, ed. A.L. Udovitch, Princeton, 1981, pp. 209 - 249).*

————, *Etudes d'Histoire Ifrīqiyenne et de Civilisation Médiévale. Université de Tunis, 1982. 435p. (articles en français) et 213 p. (articles en arabe).*

TERRASSE, Henri. *Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'islam, St. Isl., XXIX, 1969, pp. 5 - 15.*

THOMAS, Frederic C. Jr., *The Dawwādah of the Fezzan, M.E.J., vol. 22 n°2, 1963, pp. 193 - 202.*

TRIAUD, Jean-Louis, V. HUNWICK, J.O.

TRIMINGHAM, J. Spencer, *A History of Islam in West Africa. Oxford University Press, 1962. 262 p.*

TRITTOM, A.S., *The Caliphs and Their Non-Muslim Subjects. Londres, F. Cass, 1930, nelle éd. 1970. 240p.*

TULAYMĀT, 'Abd al-Qādir, *Sukkān Lībiyā 'inda l-Ya'quūbī, in Lībiyā fi t-ta'rīkh (q.v.), pp. 225 - 233.*

UNESCO, *Les Problèmes de la zone aride. Paris, 1961. 174p.*

————, *Nomades et nomadisme au Sahara. Paris, 1963. 195p.*

VALORI, *Francessco. Storia della Cirenaica, Florence, Sansoni, 1961. 174p.*

VERLET, *Bruno. Le Sahara. Paris, P. U. F., 1958, mise à jour 1984. 124p.*

VERNIER, Bernard, *Histoire d'un pays saharien: le Fezzān, Or., 14, 1960, pp. 57 - 72.*

VIETTA, Egon, *Geheimnisvolles Libyen. Frankfurt, Societäts-Verlag, 1939. 258 p.*

VIKOR, Knut S., *The EarlyHistory of the Kawar Oasis: a Southern Border of the Maghrib or a Northern Border of the Sudan?, M.R., XII, 3 - 4, 1987, pp. 78 - 83.*

VILAR RAMIREZ, Juan Bta, *El Sahara y el Hamitismo Norteafricano. Madrid, Consejo superior de Investigaciones científicas, 1969. 143p.*

VISCHER, Hanns, *Across the Sahara from Tripoli to Bornu. Londres, E. Arnold, 1910. 308p.*

VONDERHEYDEN, M., *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benoû 'l-Arlab, 800 - 909. Paris, P. Geuthner, 1927. 344p.*

WARD, Philip, *A Survey of Libyan Bibliographical Resources. Tripoli, Dār an-našr al-lībiyya, 1965. 44 p. (texte anglais) et 43 p. (texte arabe).*

————, *Touring Libya, the Southern Provinces. Londres, Faber & Faber, 1968. 103 p.*

WERNHART, Karl R., *Das Hoggar - Tuareg - Gebiet im Spiegel arabischer Berichte vom 10. bis 16. Jahrhundert, M.A.G.W., XCIX,*

1969, pp. 141 - 158.

WRIGHT, John, *Libya, Chad and the Central Sahara. Totowa, New Jersey, Barnes and Noble Books, 1989. 168p.*

AZ-ZĀWĪ, A-Tāhir Aḥmad, *Ta'rīkh al-fatḥ al-'arabī fī Lībiyā. Libye, Dā r al-fatḥ - Dār at-turāth al-'arabī, 2e éd., 1963; 4e éd., s.d. 416 p.*

———, *Mu'ğam al-buldān al-lībiyya. Tripoli, Maktabat an-nūr, 1388 H/1968. 292p.*

———, *Wulāt Tarābulus mina l-fatḥ al-'arabī ilā nihāyat al-'asr at-turkī. Beyrouth, Dār al-fatḥ lit--tibā'a wa-n-našr - Libye, Muḥammad ar-Rammāḥ Bašīna, 1390/1970. 295p.*

ZEROUKI, Brahim, *L'Imamat de Tahart, T.1. Paris, L'Harmattan, 1987. 224 p.*

Cartes

- 1/2.000.000

Lībiyā: Tripoli

Algérie, Fezzan, Niger, Sahara, Tchad, Tunisie: Paris, I.G.N.

- 1/1.000.000

Agadez (N.E.32): Paris, I.G.N.

Alexandria = Alexandrie, Sīwa, Baḥariyya: Survey of Egypt, Londres.

Blima (N.E. 33), Djado (N.F. 33), Djanet (N.G. 32), Hassi Messaoud (N.H/32), I-N-Azaoua (N.F. 32), In Salah (N.G.31): Paris, I.G.N.

Jebel es Souda: Paris, Carte aéronautiqie du monde (2.450).

Kidal (N.E. 31), Mourzouk (N.G.33), Niamey (N.D. 31), Ouargla (N.H.31): Paris, I.G.N.

Sebha: Londres, War Office.

Tamanrasset (N.F. 31), Tibesti est (N.F.34), Taoudenni (N.F. 30), Tombouctou (N.E. 30): Paris, I.G.N.

Tripoli - Socna (H.I. 33): Londres.

- 1/750.000

Egypte: Bern, Kümmerly et Frey.

- 1/500.000

Cirenaica: Rome, Ministero delle Colonie, Ufficio cartografico, 1920.

- 1/400.000

Cirenaica, carta dimostrativa della disclocazione delle tribú nel territorio della Cirenaica; compilata dall' Ufficio Politico Militare del Governo della Cirenaica. Benghazi, 1916.



الفهارس

فهرس الأعلام العربية
فهرس الأعلام الأجنبية
فهرس الأمم والفرق والقبائل والجماعات
فهرس الأماكن
فهرس الكتب العربية
فهرس الكتب الأجنبية
فهرس المحتويات



فهرس الأعلام العربية

ـ أ ـ

آمنة محمد الفزاني: 15.
آمون: 417، 421، 441.
إبراهيم بن الأغلب: 203، 204، 209، 216، 217، 218، 219، 660.
إبراهيم الأول: 218، 220.
إبراهيم بن سفيان التميمي: 218.
إبراهيم بن عبد الواحد: 346.
إبراهيم بن قراتكين: 333، 334، 340، 337، 338، 355، 409، 567، 691.
إبراهيم الثاني الملك الأغلبي: 213، 214، 215، 217، 226، 229، 409.
ابن الأثير: 40، 42، 50، 56، 58، 76، 77، 84، 85، 89، 90، 92، 94، 96، 102، 104، 107، 109، 137، 147، 149، 151، 153، 156، 157، 162، 163، 167، 171، 186، 187، 193، 192، 194، 196، 198، 200، 202، 204، 209، 218، 220، 223، 224، 230، 233، 236، 239، 241، 244، 277، 246، 247، 249، 260، 261، 268، 269، 277، 280، 282، 284، 286، 327، 329، 347، 449، 452، 453.
أحمد بابا: 536.
أحمد بن بويه: 234.
أحمد بن طولون: 216، 223، 225، 259، 306، 367، 383، 563، 571، 607، 622.
أحمد بن فورتو: 370.
أحمد بن محمد (أبو إبراهيم) (الأمير الأغلبي): 224، 225.
أحمد بن محمد الهمداني: 51، 55، 470.
أحمد بن محمد الواسطي: 383.
أحمد بن مكي: 358.
أحمد بن أبي يعقوب: 382.
أبو الأحوص: 195.
إدريس (أبو العلاء): 345، 346، 348.

إدريس هـ.ر: 283، 284، 319، 601.
إدريس بن عبد الله: 210.
إدريس بن علي (البورني): 364.
إدريس بن عيسى: 367، 369.
الإدريسي: 12، 21، 22، 76، 81، 120، 126، 131، 135، 136، 141، 142، 211، 239، 253، 255، 257، 276، 278، 279، 292، 295، 298، 303، 306، 315، 317، 330، 347، 358، 359، 379، 380، 386، 390، 395، 396، 398، 400، 403، 405، 407، 411، 415، 422، 441، 442، 444، 447، 449، 453، 455، 457، 458، 461، 464، 465، 467، 469، 471، 478، 484، 483، 485، 486، 491، 497، 499، 504، 510، 514، 516، 517، 523، 526، 528، 529، 534، 541، 544، 549، 553، 556، 561، 564، 570، 575، 592، 595، 596، 598، 602، 606، 608، 610، 614، 616، 620، 622، 626، 628، 632، 634، 637، 639، 641، 647، 648، 652، 655، 656، 665، 674، 677، 679، 681.
أرشكول: 357.
أركو (سلطان): 363، 551.
أبو إسحاق: 382.
إسحاق بن الحسين: 170، 171، 521، 627، 649، 650، 660.
إسحاق بن محمد المسوفي: 328.
أسد الدين شيركوه: 330، 332، 333.
أسكيا داود: 672، 675.
أسماء بنت أبي بكر: 91.
أسماء بنت عميس: 101.
إسماعيل بن زياد: 408.
إسماعيل بن زياد النفوسي: 192، 194.
إسماعيل بن عبيد الله: 171، 186، 586، 704.
إسماعيل بن عكرمة الخزاعي: 198، 460.
إسماعيل المنصور (أبو العباس): 233.
إسماعيل بن عبيد الله: 70، 73.
الأصطخري: 250، 251، 259، 264، 265، 308، 380، 384، 385، 396، 467، 468، 469، 470، 524، 527، 567، 617، 622، 632، 638، 645، 646، 651، 656، 658، 677، 690.
أبو الأعور بن يزيد: 91.
الأغلب التميمي: 408.
الأغلب بن سالم بن عقال التميمي: 196، 198، 200.
أفلح بن العباس: 214.
أفلح بن عبد الوهاب الإمام الرستمي: 527، 540، 588، 591.
أفلح بن ناسب: 234، 260.
إلياس بن عبد الرحمن: 193.
إلياس بن منصور: 209، 225.
أمال إبراهيم البنا: 15.
أودغشت: 255.
الأوزاعي: 61.
إياد بن وهب: 219.
أيوب شيركوه: 330، 333.

ـ ب ـ

بـاديـس: 242، 244، 245، 246، 247، 297.

البخاري: 423.

البربري الملثم: 285.

البرغوثي: 205.

برقوق (السلطان): 466، 612، 613.

بسـر بـن أرطـاة: 20، 79، 81، 91، 95، 99، 105، 106، 111، 118، 143، 400، 449، 459، 669، 705.

بطرك سيروس: 33، 37.

البطريق جريجوار: 91، 93.

بطليموس: 77.

أبو بطة: 238، 239، 409.

ابن بطوطة: 23، 26، 125، 126، 214، 292، 314، 315، 355، 372، 392، 406، 422، 440، 466، 473، 487، 491، 496، 506، 524، 530، 535، 540، 543، 547، 549، 572، 574، 590، 591، 593، 595، 596، 598، 606، 610، 613، 615، 625، 627، 630، 631، 635، 635، 636، 640، 641، 650، 654، 655، 658، 663، 665، 666، 668، 670، 671، 677، 679، 681، 686، 683، 686، 691

البقرمي: 366، 367، 375.

أبو بكر الصديق: 91، 173، 270، 274.

أبو بكر بن عمر: 325.

أبو بكر الفزاني: 251.

البـكـري: 21، 27، 41، 42، 50، 51، 54، 56، 76، 78، 79، 81، 84، 85، 104، 105، 107، 108، 118، 119، 123، 126، 131، 136، 141، 145، 149، 150، 156، 157، 161، 168، 178، 186، 195، 198، 208، 211، 214، 221، 227، 239، 245، 252، 254، 255، 259، 261، 263، 265، 296، 305، 313، 315، 323، 324، 330، 340، 365، 372، 381، 386، 387، 389، 391، 397، 399، 403، 405، 407، 410، 412، 414، 418، 420، 422، 426، 431، 437، 439، 442، 444، 446، 449، 452، 453، 456، 458، 472، 474، 483، 484، 486، 498، 499، 502، 503، 505، 509، 517، 519، 537، 538، 540، 542، 548، 553، 557، 560، 562، 564، 566، 567، 569، 573، 574، 590، 592، 598، 608، 609، 614، 615، 619، 622، 625، 627، 629، 634، 637، 639، 643، 645، 647، 649، 651، 653، 655، 664، 665، 679، 687، 690.

البـلاذري: 19، 32، 33، 35، 37، 40، 42، 46، 48، 50، 52، 56، 58، 61، 62، 65، 67، 69، 70، 75، 76، 79، 83، 84، 88، 92، 94، 100، 102، 117، 148، 156، 167، 168، 187، 381، 385، 458، 587.

أبو بلال بن مرداس: 178.

بلجين بن زيري (يوسف): 236، 241، 244، 245، 401.

بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي المالكي: 331، 332.
بورقيبة: 426.
بوزياه: 338.
بوغا: 271.
البوللا الأصيلي: 366، 367، 369، 370.
ابن البيطار: 389.

ـ ت ـ

تارقي: 683.
تاشفين بن الغازي المسوفي: 328، 339، 342.
ابن تافراجين: 339.
تامون: 169.
التجاني: 342.
تقي الدين عمر المظفر: 331، 332، 333، 338.
تكين (الوالي العباسي): 230.
تمام بن تميم التميمي: 203.
تمصولة بن بكار: 245.
تميم بن المعز: 283.
توري: 421.
توري ساموراي: 686.
تومرت: 327.
ابن تومرت: 347، 351.
الرحالة (التيجاني): 23، 27، 40، 64، 81، 84، 85، 248، 267، 269، 273، 274، 276، 279، 281، 282، 286، 290، 295، 301، 306، 322، 328، 330، 332، 339، 342، 344، 349، 350، 358، 359، 363، 387، 392، 400، 422، 424، 428، 442، 447.

ـ ث ـ

أبو ثابت المريني: 276.

ـ ج ـ

ج شاخ: 57.
ج شلهود: 62.
جابر بن زيد الأردي: 179.
الجاحظ: 422، 638.
جان أسقف نيقيو: 37، 59، 66.
جان تروقليتا (قائد بيزنطي): 74، 417.
الجبار بن مختار العربي: 268.
جبارة بن إسحاق المسوفي: 328، 340.
ابن جبير (صاحب الرحلة): 317.
الجرجراني: 269.
الجزولي: 351.
ابن جزي: 546.
جعفر باشا: 375.
جعفر بن حبيب: 246.
أبو جعفر بن عمر بن حفص: 200.
أبو جعفر المنصور العباسي: 110، 193، 195، 197، 205، 210، 261، 450، 460، 586، 667.
جنكيزخان: 351.
جودر باشا: 127.
جوهر (القائد): 233، 235، 236.

ـ ح ـ

أبو حاتم (يعقوب بن لبيب الملزوزي): 201، 202.

حاج صدوق: 49، 56، 212، 221، 228، 252، 320، 384، 421، 450، 507، 520، 521، 527، 589، 648، 667.
الحارث بن تليد الحضرمي: 174، 192.
الحارث الحضرمي: 408.
الحارث بن الحكم: 92.
الحاكم الفاطمي: 242، 243، 244، 245، 246، 247، 261، 269، 277، 295، 384، 397، 661.
الحاكم الثاني: 404.
أبو حامد الأندلسي: 143، 254، 255، 315، 422، 438، 527، 542، 617، 625، 634، 637، 648، 649، 662.
حامد الحضيري: 15.
حبيب بن عبيدة: 187، 193، 513، 585، 587، 646، 658.
أبو الحجاج: 289.
الحجاج بن يوسف الثقفي: 152، 173، 174، 177، 204، 216.
الحراني: 135، 652.
ابن حزم: 326.
حسان بن النعمان: 67، 73، 156، 160، 164، 167، 185، 396، 400، 403، 707.
حسن بن سرحان بن ويره: 275.
الحسن بن علي بن أبي طالب: 99.
الحسن علي القابسي: 601.
الحسن بن محمد الوزان الزياتي: 253.
أبو الحسن يانس: 245، 246.
الحسين بن علي بن أبي طالب: 99.
الحشائشي: 26، 561، 699، 700.
ابن أبي حفص عمر (عبد الواحد): 292.
أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي: 292، 348.
ابن حماد: 120، 231، 232، 233، 236، 262، 305، 332، 386، 474، 475، 537، 591.
حماد بن بلجين: 242، 247.
حمدان قرمط: 229.
حمو بن ملليل البرغواطي: 284.
الحميري: 27، 40، 42، 76، 81، 84، 85، 100، 104، 106، 107، 109، 127، 131، 136، 211، 239، 255، 275، 278، 315، 335، 361، 390، 393، 399، 407، 412، 437، 438، 439، 442، 444، 445، 447، 449، 497، 499، 504، 514، 515، 516، 519، 522، 524، 526، 528، 529، 538، 539، 557، 558، 561، 574، 590، 628، 632، 635، 637، 638، 647، 649، 652، 656، 681.
ابن حنتمة. عمر بن الخطاب: .
حنظلة بن صفوان: 190.
أبو حنيفة النعمان (صاحب المذهب الحنفي): 61.
ابن حوقل: 21، 81، 142، 208، 239، 251، 252، 254، 256، 258، 260، 264، 294، 297، 303، 306، 380، 384، 385، 396، 398، 400، 402، 404، 407، 410، 414، 423، 426، 433، 330، 432، 433، 435، 441، 442، 445، 449، 451، 452، 458،

469، 471، 472، 483، 485، 507، 508، 515، 521، 523، 527، 529، 537، 538، 541، 558، 560، 569، 571، 590، 595، 596، 598، 600، 607، 609، 625، 624، 629، 635، 638، 639، 645، 647، 666، 667، 690.

- خ -

خالد بن يزيد القيسي: 159.
خديجة أم المؤمنين: 91، 151.
ابن خرداذبه: 49، 212، 221، 226، 228، 319، 320، 450، 507، 517، 520، 521، 667.
خزر: 245.
خزرون: 245، 247.
أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري: 408، 450، 460.
ابن خلدون: 21، 22، 23، 26، 27، 35، 40، 43، 49، 60، 66، 73، 74، 77، 81، 84، 85، 89، 90، 92، 93، 94، 96، 102، 104، 105، 109، 112، 127، 147، 149، 153، 156، 157، 159، 163، 165، 168، 170، 171، 187، 190، 192، 194، 195، 198، 200، 204، 209، 212، 214، 236، 239، 241، 243، 246، 249، 252، 253، 254، 256، 267، 269، 273، 283، 286، 291، 293، 296، 298، 303، 301، 306، 316، 323، 324، 326، 345، 347، 350، 352، 358، 360، 362، 367، 372، 373، 391، 393، 394، 406، 412، 414، 423، 434، 435، 438، 440، 446، 455، 456، 461، 465، 470، 487، 488، 503، 506، 523، 528، 532، 534، 539، 545، 595، 610، 612، 616، 653، 662، 663، 691، 713.
خلف بن السمح: 182، 222.
ابن خلكان: 53، 54، 55، 69، 109، 208، 325، 326، 327، 329، 331، 332، 337، 339.
خليفة بن ورو: 249.
خليل بن إسحاق: 40، 47، 63، 71، 657، 660، 673.
أبو خليل صال: 435.
م. خليل هراس: 53.
الخوارزمي: 540.
خوماهن: 645.

- د -

داود (النبي): 492.
داود بن إبراهيم: 367.
أبو دبوس (الموحدي): 347، 351.
الدرجيني: 199، 540.
الدمشقي: 628، 635، 634، 638.
الدناصري: 143، 251، 446، 448، 456، 484، 484.
دندل غلديما: 132.
دونما ديبلام: 350، 352، 362، 365، 443، 455.

ابن دياس: 48.

ـ ذ ـ

أبو ذؤيب الهذلي: 91.
أبو ذر الغفاري: 91، 92، 96.

ـ ر ـ

الرئيس الرياحي: 22.
رجمة بن قائد: 503.
ابن رستم: 237، 397.
الإمام الرستمي الثاني: 408.
ابن رشو: 294.
الرشيد (الموحدي): 347.
ابن الرشيق القيرواني: 295.
الرضي (خليفة): 234.
ابن الرقيق: 102، 103، 104، 147، 150، 153، 156، 157، 167، 168، 187، 192، 194، 201، 202، 204.
أبو ركوة وليد بن هشام: 260، 261، 262، 269، 384، 474.
ابن رند: 334.
روجر إدريس: 293.
روجر الثاني: 12، 285، 286، 292، 296، 359، 388، 476.
روح بن حاتم المهلبي: 202.
أم رومان (زوجة أبي بكر الصديق): 91.

ـ ز ـ

أبو زاكين تمام: 237.
الزاهر بن الحاكم: 244، 248، 249، 262، 269.
الزاوي: 81، 105، 158، 205، 239، 347، 379، 380، 417، 428، 434، 439، 500، 502، 557، 562، 643.
ابن أبي زرع: 324، 326.
الزركشي: 326، 329، 340، 340، 345، 346، 349، 402، 431.
أبو زكريا (مؤلف): 263.
أبو زكريا بن عبد الواحد: 346.
أبو زكريا الورجلاني: 629، 649.
أبو زكريا يحيى: 292، 348، 349، 351، 352، 353، 354، 410، 419، 523.
زكي م. حسن: 209.
أبو زلا الفارسي: 338.
الزمخشري: 32.
الزهري: 21، 297، 315، 327، 330، 388، 466، 524، 527، 529، 537، 539، 543، 592، 603، 616، 623، 631، 634، 644، 648، 650، 651، 675.
زهير بن قيس البلوي: 92، 106، 150، 152، 154، 155، 157، 186، 704، 706.
ابن زولاق: 386.
زويس: 417.
ابن أبي زياد: 657.
زيادة الله الثالث (أبو مضر): 229.
زيادة الله الثاني: 217، 225.
زيان السقلي (أبو الفتح): 85.
أبو زيد بن أبي حفص: 289، 329، 340، 338، 340، 345، 346، 348، 428.
أبو زيد القيرواني: 601.

ابن أبي زيد القيرواني: 46، 601، 603، 643.
زيري بن مناد: 233، 234، 236، 244.
الزيري المنصور (الأمير) 214.

— س —

سبيكة (عبدة): 305.
سحنون: 109، 111، 112، 216، 231.
السرخسي: 432، 609، 611.
سعد زغول: 499.
السعدي: 127.
ابن سعيد: 21، 23، 32، 35، 41، 42، 46، 51، 65، 76، 81، 84، 90، 94، 100، 101، 126، 140، 209، 234، 235، 255، 261، 262، 278، 303، 316، 330، 359، 360، 365، 367، 369، 372، 380، 383، 391، 395، 399، 405، 422، 438، 440، 443، 444، 448، 455، 464، 465، 483، 486، 497، 495، 496، 498، 515، 517، 524، 528، 539، 542، 544، 550، 552، 575، 592، 606، 608، 610، 614، 616، 618، 619، 626، 630، 634، 635، 638، 639، 647، 648، 652، 655، 666، 675.
السعيد (الموحدي): 347.
سعيد حامد: 12، 15.
سعيد بن خزرون بن فلفل: 242، 245، 247، 248، 249.
سعيد بن زيد: 90.
سعيد بن شداد: 202.
سفيان الثوري: 57، 61.
سفيان بن المضاء التميمي: 218، 219.
ابن سلام: 33، 36، 37، 46، 48، 50، 53، 55، 57، 60، 62، 67، 69، 72، 87، 117.
سلامة أم المنصور: 67.
سلمامة بن عبد الله: 366.
سليمان (أحد رجال قافلة من القوافل): 610، 611.
سليمان بن عبد الملك: 170، 185.
سليمان بن عبد الله (أبو الربيع): 609، 611.
سن دياتا/ماري دياتا (ملك مالي): 530.
ابن سنان: 198.
السولي: 47.
سيداموس: 434، 580.
سير بن إسحاق المسوفي: 328، 342.
أبو سيف: 417.
سيف بن ذي يزن: 361.
ابن سينا: 389.

— ش —

الشافعي: 47.
شامابتن شامان: 573.
شاه مالك الغزي: 284.
شرف الدين قراقوش التقوي المظفري الملقب أيضاً «بالغزي والناصري والأرمني»: 331، 333.
شرف الزمان طاهر المروزي: 618.
الشريشي: 606.
(الشريف) حاكم فزان: 484.

الشماطي: 141، 194، 195، 199، 214، 228، 238، 239، 250، 251، 410، 416، 426، 435، 522.
ابن شهاب الزهري: 60.

ـ ص ـ

صابر (جابر) الأوروبي: 353.
صالح (النبي): 324.
صالح تينبكتو: 127.
أبو صالح اليجراني: 263، 629.
ابن الصغير (صاحب الحوليات الرستمية): 211، 527.
ابن الصغير المصمودي: 226، 237، 401، 451.
صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب): 309، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 337، 354، 360، 483.

ـ ط ـ

طارق بن زياد: 169، 170، 171، 421.
ابن طالوت: 239.
الطبري: 40، 42، 51، 55، 76، 87، 90، 93، 97، 101، 112، 117، 165، 188، 224.
طريف: 170.
طلحة بن إسحاق المسوفي: 328، 329.

ـ ع ـ

عائشة أم المؤمنين: 91، 96، 97، 151.
العابد بن غيث المرداسي: 282.
العادل (الموحدي): 347.
العاضد: 331.
العباس (صاحب الحملة): 209، 216، 223، 224، 225، 237، 382، 383.
أبو العباس السفاح (الخليفة العباسي الأول): 192، 586.
أبو العباس الشيعي: 230، 232.
عبد الأعلى المعافري (أبو الخطاب): 74، 174، 183، 194، 195، 197، 200، 201، 210، 707.
عبد الجبار المرادي: 174، 191، 192، 408.
عبد الجليل سيف النصر: 376.
ابن عبد الحكم: 19، 20، 36، 38، 40، 42، 46، 48، 50، 56، 60، 62، 67، 69، 70، 73، 75، 77، 79، 81، 84، 85، 88، 90، 92، 94، 95، 104، 111، 113، 116، 118، 120، 122، 123، 125، 128، 130، 136، 138، 141، 144، 145، 148، 150، 156، 160، 162، 164، 165، 167، 168، 170، 186، 187، 190، 192، 193، 236، 314، 386، 396، 413، 420، 421، 458، 460، 482، 483، 513، 547، 584، 588، 705.
عبد الحميد «ناشر مروج الذهب»: 119.
عبد الرحمن بن أبي بكر: 9، 101.
عبد الرحمن الثالث: 230.
عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري: 85، 174، 187، 192، 193، 205، 586.
عبد الرحمن بن رستم: 181، 195، 197، 198، 199، 211.

عبد الرحمن الداخل: 323، 325.
عبد الرحمن بن أبي محمد: 345.
عبد اللّه بن عمرو بن العاص: 91، 102، 104، 146.
عبد الرحمن بن ملجم: 99.
عبد العزيز سالم: 12.
عبد العزيز بن عبد الملك: 67، 92، 160، 167، 173، 186.
عبد العزيز بن موسى بن نصير: 648.
د. عبد القادر بالقاسم: 15.
عبد اللّه بن أباض: 179.
عبد اللّه بن إبراهيم الأول: 218، 219، 220.
عبد اللّه بن إسحاق المسوفي: 328.
عبد اللّه بن إسحاق الميورقي: 328.
عبد اللّه بن الحسن: 247.
عبد اللّه بن حيان الأباضي: 110، 198، 460.
عبد اللّه بن الخطاب الهواري: 76، 469، 481.
عبد اللّه بن الزبير: 91، 95، 151، 152، 156، 173، 705.
عبد الله بن سعد بن أبي سرح: 58، 65، 89، 90، 92، 95، 100، 102، 145، 156، 569، 657.
أبو عبد الله (الشيعي): 198، 217، 229، 230، 424.
عبد الله بن صالح: 52، 55، 67، 69.
عبد اللّه الصفار: 178.
عبد اللّه بن عباس: 91.
عبد اللّه بن عبد الملك: 167، 170.
عبد اللّه بن عبد الواحد (أبو محمد): 348.
عبد اللّه بن عمر بن الخطاب: 91.
عبد اللّه بن عمرو بن العاص: 91، 102، 104، 146، 381، 585.
عبد اللّه بن لهيعة: 48، 53، 54، 67، 69، 70.
أبو عبد اللّه مبارك بن عيسى بن الخطاب: 469.
عبد اللّه بن محمد: 65.
عبد اللّه بن محمد بن الأغلب: 224، 295.
عبد اللّه بن محمد بن تومرت: 292.
عبد اللّه بن محمد بن علي بن يوسف المسوفي: 327، 328، 339.
عبد اللّه بن مسعود التجيبي: 174، 191، 450.
عبد اللّه بن موسى بن نصير: 169، 186.
عبد اللّه بن وهب الراسبي: 98، 99.
عبد اللّه بن يخلف الكتامي: 236، 241، 401.
عبد اللّه بن يسين: 324.
عبد اللّه الثاني (أبو العباس): 229.
عبد اللّه الثاني (أبو محمد) 346.
عبد الملك بن مروان: 67، 145، 151، 152، 157، 160، 167، 169، 173، 179، 185.
عبد المؤمن: 287، 292، 289، 290، 326، 327، 329، 345، 347.
عبد الواحد (أبو محمد): 347.
عبد الواحد (شقيق المنصور): 346.
عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي (أبو محمد): 340، 343، 344، 346،

348، 351.
عبد الوارث بن عبد الرحمن: 193، 194.
عبد الوهاب (الإمام): 237.
عبد الوهاب التونسي: 638.
عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: 56، 210، 220، 400، 408.
العبدري: 12، 23، 51، 109، 296، 305، 306، 309، 310، 322، 347، 358، 360، 390، 391، 395، 399، 405، 424، 433، 486، 610.
أم عبدة: 537.
عبيد الله: 409.
عبيد الله بن الحبحاب: 186، 188، 193، 190، 271، 513، 585، 586.
عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم: 19، 38، 94، 104، 105، 146، 150، 151، 156، 157، 167، 170.
أبو عبيدة بن الجراح: 61.
عبيدة بن عبد الرحمن القيسي: 187.
عبيدة الكتامي (أبو الفهم): 214.
عثمان (أبو عمر): 612.
عثمان بن دبوس: 358.
عثمان بن عفان: 19، 35، 37، 60، 65، 88، 92، 95، 102، 145، 148.
ابن عذاري: 19، 22، 40، 42، 49، 59، 76، 89، 90، 92، 94، 96، 101، 105، 109، 110، 145، 152، 154، 156، 157، 162، 167، 169، 185، 193، 193، 194، 196، 203، 209، 212، 215، 229، 231، 233، 236، 238، 244، 246، 249، 261، 267، 268، 279، 281، 282، 284، 291، 295، 301، 303، 661.
أبو العرب: 92، 93، 145 (صاحب طبقات أفريقية).
عزوز بالقاسم الطلحي: 7.
العزيز الخليفة الفاطمي الخامس: 635.
أبو العساكر جيش خمارويه: 213.
ابن عصفور: 340، 343.
عقبة بن نافع: 20، 33، 49، 58، 60، 74، 83، 85، 89، 90، 93، 95، 100، 122، 123، 125، 128، 130، 134، 135، 144، 152، 154، 156، 164، 168، 169، 171، 193، 196، 262، 280، 313، 400، 434، 441، 450، 457، 459، 460، 481، 482، 513، 521، 547، 557، 565، 568، 570، 584، 585، 587، 658، 660، 669، 704، 706.
العلاقي: 515.
علي (الخليفة): 369.
علي (أبو الحسن) 612.
علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الميورقي: 328، 329، 341.
علي بن إسحاق الوداني (أبو الحسن): 452.
علي الجنحاني: 528، 618، 640.
علي بن سليمان: 238.
د. علي الشيباني: 15.
علي بن أبي طالب: 61، 79، 89، 91، 97، 98، 99، 101، 151، 175، 176.

د. علي عبد اللطيف: 10.
علي بن الغازي المسوفي: 328، 343.
علي بن غانية (الميورقي): 310، 327، 328، 335، 346، 359، 390.
علي بن يوسف بن تاشفين: 326، 327.
علي بن يوسف المسوفي (ر. علي بن غانية): .
أبو عمر (عثمان): 466.
عمر بن إدريس: 367.
عمر بن الخطاب: 32، 37، 39، 41، 42، 61، 65، 66، 68، 70، 71، 73، 75، 83، 85، 87، 88، 90، 98، 100، 112، 117، 407.
عمر بن عبد العزيز: 60، 69، 71، 74، 87، 171، 179، 186، 193، 200، 204، 205، 381، 586، 657، 704.
عمر بن عبد الله المرادي: 187، 193.
عمر بن عثمان: 194.
عمرو بن العاص: 32، 37، 41، 43، 48، 52، 56، 58، 66، 74، 76، 79، 80، 83، 85، 87، 91، 98، 99، 101، 102، 104، 105، 112، 118، 156، 381، 386، 407، 450، 453، 599، 705.
عمر المرتضى (الموحدي): 347، 351.
العمري: 23، 126، 127، 143، 306، 315، 330، 340، 362، 365، 366، 372، 392، 393، 447، 466، 473، 534، 535، 539، 540، 543، 572، 612، 615، 618، 628، 635، 635، 641، 648، 650، 651، 653، 654، 662، 663، 668، 670، 681.
عمير بن شييم القطامي: 62.
العوزي: 57.
عياض بن غنم: 61.
عيس بن ريعان الأزدي: 212.
عيسى بن لهيعة: 53.

ـ غ ـ

الغازي بن إسحاق المسوفي: 328، 340.
غانية (أميرة): 327، 328.
ابن غلبون: 40، 46، 51، 54، 84، 238، 333، 335، 338، 339، 341، 345، 356، 373، 375.

ـ ف ـ

ابن فاطمة (كتاب مفقود): 616.
الفتال: 47، 69، 71، 72.
أبو الفداء: 21، 23، 42، 49، 77، 84، 89، 92، 94، 96، 109، 131، 140، 141، 142، 234، 262، 263، 305، 312، 315، 330، 359، 360، 365، 384، 385، 394، 395، 422، 433، 436، 438، 440، 444، 445، 447، 448، 483، 486، 497، 506، 514، 517، 520، 522، 524، 525، 528، 542، 553، 557، 558، 560، 574، 592، 625، 623، 626، 635، 638، 655.
فرحات دشراوي: 235.
ابن فروخ العبيدي: 383.

الفرزدق: 422.
الفزاري (تب): 211، 513، 526، 589.
الفضل بن روح المهلبي: 203.
ابن الفقيه: 46، 49، 54، 56، 63، 64، 226، 252، 253، 255، 384، 421، 507، 527، 541، 647، 648.
الفقيه المغيلي: 532، 625.
فلفل بن سعيد بن خزرون: 242، 245، 246.
فوطي: 558.

ـ ق ـ

ابن القاسم: 109.
القاسم بن عبيد اللّه (القائم بأمر الله): 230، 232، 236، 238، 239، 267، 268.
أبو القاسم بن عبيد اللّه: 386.
القبطي كوخيوس: 33.
ابن قتيبة: 463.
قدامة بن جعفر: 221، 219، 319، 320، 520، 521.
قرقارش: 345.
قراقوش: 23، 167، 276، 278، 279، 290، 296، 303، 305، 306، 308، 310، 322، 323، 329، 339، 341، 344، 345، 349، 351، 353، 356، 358، 360، 390، 394، 399، 401، 405، 409، 411، 436، 442، 444، 447، 453، 455، 470، 483، 567، 572، 609، 656، 690، 691، 711، 712.
ابن قراقوش: 27، 350، 352، 353، 356، 361، 443، 447، 455، 543.
أبو قرّة: 200.
القزويني: 255، 256، 372، 416، 424، 436، 438، 453، 483، 517، 518، 524، 528، 534، 606، 618، 625، 627، 628، 632، 639، 640، 646، 648.
القلقشندي: 262، 305، 324، 326، 359، 393، 436، 438، 453، 466، 516، 518، 519، 525، 528، 540، 613، 620، 627، 635، 638.
قورزيل: 417.
قوران شاه بن أيوب: 333.
قيصر: 583.

ـ ك ـ

كازيمرسكي: 52.
كافور الإخشيدي: 234، 661.
كامل جرناز: 15.
كانيسعاي: 681.
الكاهنة (ملكة البربر): 73، 95، 158، 159، 161، 165، 168، 291، 292، 396، 400، 437، 704، 707.
كحالة: 84، 92، 174، 200، 203، 261، 275، 276، 278، 279، 358، 382، 406، 456، 499، 532، 613.
كدي أفنو إبراهيم: 367.
كسيلة (متمرد): 92، 106، 149، 152، 154، 155، 157، 161، 168، 169، 186، 704، 706.

كلثوم بن عياض: 190.
كورييس: 417.
كوري الصغير: 366.
كوري الكبير: 366.
كيداد بن مخلد: 537.

ـ ل ـ

لسان الدين بن الخطيب: 209، 326، 327، 593، 603، 644.
لؤلؤة (غلام): 223، 383.
أبو لؤلؤة (قاتل عمر بن الخطاب): 88.
الليث بن سعد: 50، 51، 52، 54، 55، 56، 57، 61، 62، 67، 69، 169.
ليون الأفريقي: 532.
ليون برداوا: 370.

ـ م ـ

م. بلسنر: 57.
ماري جاتا: 616، 653، 666، 668.
مالك بن أنس: 55، 61، 69، 109، 110، 111، 112، 442.
المالكي: 90، 92، 93، 102، 109، 145، 154، 156، 157، 159، 160، 162، 291.
المأمون (الموحدي): 347، 348، 349، 351.
المأمون بن هارون الرشيد: 55، 208، 222، 223، 381.
الماي دونمامي (غجدني): 369.
الماي علي: 364.
مؤنس بن يحيى الصنبري: 277، 280، 281، 301.
المتوكل على الله العباسي: 45، 384.
ابن مشكود: 346، 401، 475.
محمد ﷺ: 31، 32، 39، 42، 44، 45، 61، 62، 65، 66، 68، 71، 72، 87، 91، 97، 113، 270، 274، 416، 420، 672.
أبو محمد: 410.
محمد بن إسحاق: 238.
محمد بن إسحاق المسوفي: 328.
محمد بن الأشعث الخزاعي: 98، 110، 195، 196، 200، 203، 210، 211، 240، 303، 403، 408، 450، 460، 481.
محمد بن أبي بكر الصديق: 101.
محمد تراب: 670.
محمد بن تغج الإخشيد: 234.
محمد بن تومرت: 286، 287، 292.
محمد بن أبي حذيفة: 101.
محمد بن الحسن: 246، 247.
محمد بن خزرون: 284.
محمد بن خطاب بن أظليتان: 333.
محمد بن زيادة الله الثاني: 213، 214.
د. محمد الزيادي: 15.
محمد سعيد القشاط: 487.
محمد الشويهدي: 15.
محمد طالبي: 199، 321، 590، 605.
محمد بن عبد الله: 366.
محمد بن عبد المؤمن (أبو عبد الله): 326.
محمد بن علي السنوسي: 500.
محمد بن علي بن يوسف المسوفي: 327، 328.

محمد بن الغازي المسوفي: 328، 343.
محمد الفاسي: 365، 374، 375.
محمد بن الفرج الفرغاني: 223.
محمد القائم (أبو القاسم): 397.
محمد بن قرهب: 209، 226.
محمد بن مسعود: 341.
محمد بن مسلمة: 65.
محمد بن مقاتل المعكي: 203، 204.
محمد المهدي: 500.
أبو محمد (الموحدي): 341، 342، 343.
محمد ناصر (أبو عبد الله): 340.
محمد بن هرثمة بن أعين: 382.
محمود كعتي: 127، 532، 536، 540، 544، 592، 611، 653، 675، 680.
محمد بن يوسف الوراق: 264، 410، 411، 426، 445، 474.
مخلد بن كيداد (أبو يزيد): 182، 183، 232، 233، 236، 305، 425، 537، 591.
مدلج بن مرة (المدلجي): 84.
أبو مدين بن فروخ: 240.
مروان بن الحكم: 91، 92، 95، 96، 152، 173.
مروان بن موسى بن نصير: 169.
المستنصر: 244، 248، 268، 269، 270، 273، 279، 345، 346، 347، 352.
المستنصر بالله الحفصي (أبو عبد الله): 348، 423.
المستنصر (خليفة): 710.
المستنصر (معد بن الزاهر): 269.
مسعود بن رمان: 334.
المسعودي: 69، 101، 119، 152، 187، 463، 482، 513، 514، 515، 516، 517، 593، 612، 624، 631، 632، 650، 667.
مسلم بن أبي كريمة (أبو عبيدة): 179، 180، 194.
مسلم بن نصر بن الأعور: 382.
المسلماني (ملك): 537.
مسلمة بن مخلد: 146، 147، 148، 149.
المعتصم (خليفة): 613.
المعتمد (خليفة): 667.
المطيع (خليفة): 294.
معاوية بن خديج الكندي: 33، 34، 91، 92، 100، 104، 108، 145، 148.
معاوية بن أبي سفيان: 61، 88، 89، 90، 91، 97، 99، 101، 103، 145، 146، 149، 151، 175.
معاوية بن يزيد: 152.
المعتضد: 213، 216، 226.
المعتمد العباسي (خليفة): 225، 382.
المعز بن باديس: 244، 247، 267، 268، 269، 280، 281، 282، 295، 301.
المعز بن بلكين الصنهاجي: 274.
المعز الفاطمي: 120، 233، 236، 241، 244، 249، 260، 273، 399، 400، 401، 410.
ابن مقاتل: 204.
المقتدر العباسي (خليفة): 230.
المقدسي: 106، 119، 120، 211، 227، 259، 264، 385، 387، 398، 403، 421، 422، 428، 470، 482، 517،

520، 523، 524، 567، 622، 641، 667.
المقري: 593، 594، 609.
المقريزي: 23، 64، 66، 100، 117، 127، 161، 303، 315، 332، 334، 337، 362، 368، 431، 515، 517، 519، 520، 637.
مقنون بن دبارة: 238.
المقوس: 33، 212.
المكنى: 375.
الملك ألفونس السادس: 325.
الملك جوبر: 668.
المملوك بيبرس: 319، 352.
المنتصر بن خزرون: 281، 284.
المنتصر: 245، 247، 248، 249، 284، 362.
المنتصر الفاطمي: 22.
المنجي الكعبي: 94، 103.
منسا سليمان: 535.
منسا موسى: 143، 371، 372، 373، 532، 534، 535، 610، 611، 612، 613، 617، 653، 663، 668، 669.
المنصور: 346.
المنصور بن بلجين: 241، 242، 243، 244، 276.
المنصور بن الناصر الفاسي: 375.
أبو المنيب (إسماعيل بن درار الغدامسي): 196، 228.
أبو المهاجر: 104، 148، 150، 153، 154، 165، 171، 704.
المهدي: 351.
الخليفة المهدي العباسي: 117.
المهدي عبيد الله: 229، 230، 231، 232، 237، 238، 239، 240، 244، 383، 386.
المهدي المنتظر: 287.
المهلبي: 27، 135، 262، 263، 394، 395، 463، 464، 465، 515، 516، 522، 525، 526، 537، 541، 542، 625، 674.
ابن المهلبي: 514.
موسى (رجل): 534.
أبو موسى الأشعري: 98، 99.
موسى بن نصير: 160، 165، 167، 168، 169، 170، 171، 185، 193، 214، 421، 594، 660، 705.
ميسرة (البربري): 178، 188، 193، 190، 704، 707.
ميشيل السوري: 37.

— ن —

النائب الأنصاري (مؤلف كتاب المنهل العذب): 85، 127، 205، 284.
الناصر (الخليفة): 341، 347.
الناصر قلاوون: 612.
نافع بن الأزرق: 177.
ابن نخيل: 345.
نجدة بن عامر: 177، 195.
نزار أبو المنصور العزيز: 241، 243، 244، 245، 401.
نفيلة موسى معزب: 7.

نور الدين محمود بن زنكي: 330، 331، 333.
النويري: 74، 77، 85، 90، 91، 92، 93، 94، 102، 104، 107، 137، 148، 149، 151، 153، 154، 156، 158، 159، 160، 162، 163، 168، 169، 170، 191، 190، 192، 194، 197، 199، 201، 202، 203، 204، 213، 215، 224، 226، 229، 230، 291، 300، 589.

— هـ —

الهادي مبروك الدالي: 371.
هارون الرشيد: 85، 197، 203، 204، 216.
هرثمة بن أعين: 85، 203، 204.
هرقل: 581.
أبو هريرة: 31، 32.
هشام بن عبد الملك: 187، 188، 190، 271، 513.
الهمداني: 252، 417، 421، 433، 432.
هيرودوت: 144، 161، 417، 419، 433، 437، 462، 489، 569، 581.
الواثق (خليفة): 223، 234، 382، 667.
ابن واصل: 332.
الواقدي: 50، 51، 54، 55، 58.
الورثلاني: 51، 407.
ورو بن سعيد: 245، 246، 247، 297.
السوسياني: 540، 591، 608، 616.
الوليد بن عبد الملك: 167.
وهب بن منبة: 463، 513.

— ي —

اليازوري: 22، 268، 270، 273، 274، 277، 279، 280، 710.
ياقوت الافتخار: 339.
ياقوت الحموي: 40، 42، 51، 54، 56، 63، 75، 77، 81، 85، 91، 92، 100، 104، 106، 107، 109، 112، 126، 135، 136، 211، 227، 239، 255، 307، 309، 330، 339، 379، 380، 391، 395، 398، 411، 417، 426، 435، 436، 438، 442، 444، 445، 458، 463، 464، 474، 483، 483، 486، 509، 514، 516، 525، 528، 530، 537، 541، 558، 560، 561، 569، 573، 574، 591، 592، 606، 620، 626، 628، 631، 632، 638، 639، 641، 644، 650، 651، 674، 684، 690.
يحيى: 410.
أبو يحيى (زكريا الرجاني): 238، 239.
يحيى بن إبراهيم الجدالي: 324.
يحيى بن إسحاق المسوفي: 329، 341، 342، 343، 345.
يحيى بن بكير: 69.
يحيى بن طلحة المسوفي: 328، 339، 340، 341، 342.
يحيى بن علي بن يوسف المسوفي: 327، 328، 329، 337، 338، 341، 342، 344، 345، 346، 411، 531.
يحيى بن غانية: 349، 353، 355، 357،

359، 394، 399، 436، 443، 454،
455، 712.
أبو يحيى بن فانوس الهواري.
أبو يحيى بو مطروح: 284، 289.
يحيى بن مطروح التميمي: 286.
يزيد بن حاتم الأزدي المهلبي: 201، 202.
يزيد بن حبيب: 69.
أبو يزيد الخارجي: 74، 120.
يزيد بن خالد: 159.
يزيد بن روح المهلبي: 203.
يزيد بن عبد الملك: 179، 186.
يزيد بن مسلم: 74.
يزيد بن أبي مسلم: 186، 187، 586، 704.
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: 149، 151، 152.
أبو يعقوب (يوسف): 289، 326، 347.
اليعقوبي: 21، 33، 35، 37، 40، 42، 46، 49، 51، 53، 55، 79، 81، 83، 89، 92، 94، 96، 102، 104، 117، 119، 140، 148، 196، 198، 199، 204، 209، 211، 212، 218، 221، 222، 224، 227، 228، 250، 252، 254، 256، 258، 260، 262، 264، 296، 298، 303، 308، 310، 320، 323، 330، 361، 380، 382، 384، 387، 394، 397، 399، 401، 402، 404، 425، 441، 450، 451، 453، 464، 466، 467، 470، 481، 482، 514، 517، 519، 524، 527، 540، 541، 547، 548، 550، 557، 558، 560، 561، 568، 569، 570، 589، 600، 609، 613، 631، 632، 638، 644، 646، 648، 663، 674، 677، 689.
يغمراسن بن زيان: 351.
يمينة بنت البطريق: 94.
يوسف بن تاشفين: 256، 325، 327.
يوسف كمال: 135، 496.
أبو يوسف يعقوب: 46، 61، 69، 71، 72، 76.
أبو يوسف (يعقوب المنصور): 329، 334، 335، 340، 337، 340، 347.

فهرس الأعلام الأجنبية

- A -

Abel Armand: 44, 52, 58, 59, 62, 65, 66, 68, 324, 328, 328, 330, 331, 340, 342, 345, 353.
Abithol M.: 591, 592.
Addonasuri: 376, 489.
Arnot F.S.: 676.
Asher M.: 518.
Ashtor E.: 633.
Azalay: 372, 640.
A.G.B.: 663, 669, 670, 672, 674, 676, 683, 686, 693, 697.
Baba Ahmad: 536.
Al-Bakri: 524, 528, 536, 538, 540.

- B -

Balbus Cornelieus: 481, 490, 491, 579, 580.
Ball J.: 501.
Barth H.: 130, 132, 137, 138, 138, 314, 366, 369, 370, 486, 493, 495, 547, 564, 565, 596, 641, 673, 686, 688.
Barthold W.: 112.
Von Bary E.: 278, 419, 422, 489, 490, 583, 598, 696.
Bascom W.: 423.
Bates O. 417.
Battaglia S.: 635.
Baumann H.: 133.
Beaussier M.: 257, 281, 432, 433.
Becker C.H.: 90, 100.
Beguinot F.: 499.
Bel A.: 99.
Bercher L.: 601.
Berthelot A.: 129, 324, 481, 575, 580.
Berque J.: 294, 299, 302, 304, 518.
Beshir B.I. 661, 670.
Binger L.G.: 683.
Al-Biruni: 645.
Blachere R.: 45, 395, 430, 473, 506, 684.
Boudot-Lamotte: 86, 433.
Boulnois J.: 133.
Bousquet G.H.: 31, 32.
Bouyahia CH.: 295.
Borchart Paul; 466, 471, 490, 516, 519, 556.

Bosworth C.E.: 90, 613.
Bovil E.W.: 127, 372, 578, 580, 582, 595, 597, 641, 667, 693.
Bucaille R.: 546.
Buchanan A.: 133.
Burton J.: 534.
Butler A.J.: 33.
Brell M. 281.
Brett M.: 232, 294, 304, 420, 437, 469, 471, 498, 514, 540, 616, 630, 557.
Bremond: 295.
Briggs L.C.: 422, 425, 499.
Broadhurst: 332, 334, 337.
Brockelmaann C.: 32, 97, 99, 152, 269.
Brown: 93, 546.
Bruce Ingham: 509.
Brunschvig: 20, 38, 53, 54, 60, 61, 70, 71, 109, 112, 198, 205, 292, 320, 352, 402, 422, 431, 438, 464, 560, 601, 638, 642, 643, 658, 664, 666, 677, 688, 693.

- C -

Cahen CL.: 45, 46, 68, 69, 73, 331, 665.
Canard M.: 244.
Camps G.: 49.
Cao G.B.: 501, 502.
Capot-Rey R.: 253, 257, 372, 493, 583, 5848, 596 641, 659.
Cerny J. 509.
Cesar: 583.
Charle: 110.
Clapperton and oudney: 123, 127, 130, 132, 547, 606 686.
Chaker S.: 413.
Chapelle J.: 25, 362, 363, 376, 465, 471, 482, 502, 510, 550, 584.
Chelhod J.: 45, 62.
Clauzel J.: 372, 486.
Colin G.S.: 153, 535, 676.
Comhaire J,: 660, 661.
Cornevin R.: 64, 133, 326, 327, 367, 372, 580, 603.
Codey W.D.: 486, 487, 528, 530, 545, 662.
Crone P.: 84.
Corral J.: 126.
Cuoq J.M.: 119, 211, 254, 314, 324, 326, 368, 372, 386, 432, 464, 464, 466, 483, 488, 493, 494, 496, 497, 498, 514, 527, 528, 533 539, 540, 545, 551, 575, 592, 595, 603, 604, 609, 611, 613, 614, 658, 621, 628, 633, 634, 637, 640, 644, 647, 649, 650, 652, 660, 675.
Cuperly D.: 181, 183.

- D -

Dachraoui F.: 205, 229, 230, 231, 234.
Daghfous R.: 270, 271, 272.
Daniels C.M. 481, 581.
Ad-Dargini: 435.
Delfosse M.: 25, 366, 369, 372, 413, 466, 528, 530, 534, 612, 673, 675.
Demougeot E.: 583.
Denham: 123, 128, 130, 132, 138, 547, 569, 606, 686.
Desange J. 579.
De slane: 41, 69, 91, 94, 105, 273, 281, 343, 389, 417, 452, 473, 538, 542, 565.
Despois J.: 18, 77, 123, 124, 137, 251, 257, 276, 274, 305, 306, 330, 336, 360, 364, 372, 374, 376, 434, 441, 442, 444, 445, 457, 480, 583, 500, 640, 664, 697, 698.

Devisse J.: 588, 589.
Deverdan G.: 334.
Dietrich A.: 73, 152, 385.
Diolé Ph.: 571.
Djait H.: 149, 168, 320.
Djaridhzdur, Fd.: 305.
Douillet G.: 86.
Dozy A.: 391, 395, 473, 504, 549, 550, 633.
Dris H.R.: 92, 205, 217, 236, 198, 199, 242, 243, 273, 288, 292, 300, 301, 638, 642, 661, 690.
Dubief J.: 448, 489, 490, 499, 695.
Dunlop D.M.: 647.
Durt A.: 76.
Duveyrier H.: 115, 119, 125, 122, 134, 161, 278, 323, 363, 364, 365, 374, 376, 413, 418, 419, 436, 439, 448, 482, 489, 490, 597, 616, 617, 625, 643, 646, 658, 659, 693, 694, 695.

- E -

Ehrenkreufz A.S.: 661.
Eickhof E.: 90, 101, 166.
Emerit M.: 376, 501, 510, 695
Elisseff N.: 68, 90, 91, 97, 99, 147, 174, 244, 330, 331, 402, 591, 624.
Engelschall K.: 461, 463, 493, 494.
Epulard A.: 510, 635.

- F -

Fagnan E.: 425.
Feer A.: 565.
Feraud Ch. 17, 26, 375, 376, 692, 695.
Festus V.: 564, 579.
Fernandes V.: 127, 663.
Ferrand G.: 662.
Fisher J.: 300, 316, 462, 466, 659, 663, 669, 670, 672, 674, 676, 683, 686, 693, 697.
Flaccus S.: 77, 564, 579, 580.
Flatters: 647.
Forbes R.: 115, 128, 441, 444, 465, 501, 502, 556, 558.
Forstener M.: 24, 511, 523.
Frye R.N.: 56, 112.

- G -

Gabreili F.: 72.
Gardet L.: 62.
Gast M.: 413.
Gateau A.: 48, 53, 84, 108, 113, 121, 164.
Gaudlefroy - Demombynes: 68, 87, 99, 338, 366, 543.
Gautier E.F.: 158, 162, 164, 165, 292, 537, 584.
Gerlings J.: 278, 499.
Gibb: 91, 99.
Gini C.: 143.
Glubb John Bagot: 34, 99.
De Goeje M.J.: 55, 56, 65, 307, 310, 389, 442, 596, 648.
Goitein S.D.: 166, 300, 302, 317, 318, 319, 320, 321, 389, 402, 590, 593, 594, 605, 624.
Golvin L.: 523.
Gomes D.: 126.
Goodchild R.: 481.
Gordon A.: 566.
Grohmann A.: 63, 224.
Groom N.: 381.
Gsell: 441, 481, 577, 578, 580.
Guidi M.: 175.

- H -

Al-Hachaiche: 502.
Hachette: 683.
Harding W.J.: 501.
A-Hassaisi: 376, 672.
Herodote: 129, 441, 581.
Hill D.R.: 37, 38, 46, 47, 53, 58, 59, 64, 67, 68.
Hirschberg H.Z.: 591, 592.
Hitti Ph.: 32, 34, 35, 37, 64, 99, 152, 173, 269, 644.
W. Hoenerbach: 405.
Hogendorn and Johnson: 473.
Hott P.M.: 463, 518.
Hopkins: 312, 324, 326, 327, 366, 367, 368, 372, 464, 466, 478, 497 , 509, 513, 527, 545, 563, 593, 603, 606, 607, 614, 618, 627, 628, 640, 642, 645, 649, 650, 656.
Hornemann F.: 376, 441, 444, 457, 458, 465, 691, 693.
Hunwick J.O.: 529, 532.

- J -

Janssen H.: 584.
Jausen A.: 420.
Jean: 37.
Joel B.: 461.
John A.: 650.
Jongmans D.G.: 278, 699.
Julien Ch. A.: 86, 158, 236, 283, 292, 326, 327, 380, 434, 578.
Justannienne: 73.

- K -

Khasi E.I.: 668.
Kvamers: 571.
Kuran E.: 375.

- L -

Lacost Y.: 301.
Lange: 23, 361, 362, 369, 463, 549.
Lane-poole: 33, 213, 230, 232, 244, 269, 331, 661.
Lambton: 257.
Lammens H.: 79.
Laoust H.: 99.
Lebeuf J.R.: 134, 228, 366.
Leblanc M.: 134, 492.
Leeuwen V.: 565.
Legrand E.: 489.
Lethielleu J.: 18, 123, 124, 442, 445, 664.
Le Tourneau R.: 294, 324.
Levi Provençal: 85, 288, 326, 327, 430, 536, 648.
Levtzion: 312, 324, 326, 366, 367, 368, 372, 463, 464, 466, 478, 497, 507, 513, 527, 545, 563, 591, 593, 603, 606, 607, 611, 612, 614, 618, 627, 628, 640, 642, 645, 649, 650, 656, 657.
Lewicki T.: 18, 20, 24, 74, 76, 100, 105, 109, 125, 136, 137, 141, 142, 174, 179, 181, 182, 183, 194, 195, 196, 199, 201, 211, 212, 215, 220, 222, 224, 228, 233, 238, 239, 240, 250, 251, 253, 258, 262, 263, 264, 324, 365, 369, 370, 373, 382, 393, 396, 397, 401, 404, 407, 408, 410, 415, 416, 417, 418, 419, 420, 423, 426, 428, 434, 435, 449, 455, 461, 464, 465, 466, 467, 469, 471, 477, 478, 485, 487, 699, 502, 505, 507, 508, 509, 519, 522, 523, 527, 528, 529, 533, 536, 537, 539, 540, 541, 543,

552, 560, 566, 573, 587, 588, 589, 591, 608, 616, 629, 645, 646, 647, 649, 652, 654, 690.
Lewis I.M.: 667.
Lezine A.: 216, 397.
Lhôte H.: 25, 177, 178, 181, 326, 327, 372, 413, 471, 396, 499, 510, 530, 532, 534, 536, 537, 539, 544, 545, 546, 564, 579, 580, 584, 586, 647, 662, 664, 685.
Louis A.: 124.
Lyon L'Africain: 23, 26, 126, 128, 130, 131, 136, 137, 253, 256, 294, 295, 306, 330, 366, 368, 369, 372, 373, 386, 389, 394, 406, 412, 416, 431, 432, 440, 444, 448, 449, 458, 465, 467 ,473, 480, 488, 510, 517, 518, 523, 524, 532, 535, 536, 540, 543, 544, 553, 561, 562, 569, 591, 592, 602, 616, 624, 629, 634, 637, 640, 664, 668, 671, 673, 675, 576, 678, 680, 682, 684, 686, 688, 691, 694.
Lokkegaard F.: 87.
Lolacik H.: 44.
Lovejoy P.E.: 659, 660, 663, 674.

- M -

Macdonald D.B.: 420.
Malfante: 628, 679.
Mandelung W.: 272.
Mann J.: 592.
Mantran R.: 375.
Mrçais G.: 58, 88, 236, 267, 270, 272, 292, 387, 433, 662.
Marcilius A.: 493.
Martin B.G.: 374.
Marquart J.: 253.
Maspero: 504.
Masse H.: 55, 56, 420.
Masson D.: 133, 366, 430, 602, 657.
Maternus J.: 564, 579, 580.
Many R.: 25, 76, 102, 111, 112, 122, 134, 135, 136, 137, 255, 292, 321, 350, 372, 403, 449, 464, 465, 471, 473, 488, 494, 497, 501, 502, 518, 525, 526, 528, 531, 533, 535, 537, 544, 536, 537, 552, 575, 581, 585, 587, 591, 612, 625, 627, 628, 636, 639, 641, 646, 647, 649, 652, 659, 663, 668, 679, 680, 682, 683.
Mazaheri A.: 430.
Merad A.: 54.
Migliorini E.: 697.
Miles G.I.: 679.
Minorsky V.: 112, 469, 638.
Miquel A.: 143, 469, 471, 498.
Montagne R.: 124.
Monteil: 372, 473, 497, 498, 524, 525, 528, 530, 535, 536, 538, 540, 647.
Montgomery: 91, 101.
Ms. Moller: 467, 468.
Mosto: 126, 535, 636.
De Motylinski: 194.
Mugam: 441.

- N -

Nachtigal G.: 23, 130, 132, 138, 211, 363, 364, 365, 366, 374, 376, 448, 467, 480, 497, 507, 552, 553, 561, 575, 641, 668, 669, 670, 676, 678, 680, 682, 683, 684, 689, 692, 695, 697, 698
Nemo J.: 499.
Newbold D.: 501.
Nicolaisen J.: 25, 444, 488, 498 685.
Norris H.T.: 158, 171, 326, 327.

- O -

Oudney: 139, 606, 686.

Orhonlu C.: 595, 597.

- P -

Pacho R.: 445, 472.

Palmer H.R.:23, 38, 254, 350, 363, 364, 366, 370, 463, 464, 488, 496, 545, 575, 637, 670, 672, 685, 692.

Paradisi U.: 443, 448, 456.

Pareja F.M.: 44, 87, 97, 175, 176, 326, 327, 372.

Pedersen J.: 426.

Pel A.: 174.

Pellat Ch.: 85, 109, 119, 175, 227, 264, 332, 337, 338, 385, 387, 598, 403, 420, 421, 423, 444, 461, 470, 482, 520, 523, 524, 567, 604, 622, 638, 640, 641, 667, 668.

Pervinquiere L.: 436, 437, 439, 696.

Petermann A.: 136.

Pirenne H.: 166.

De Planhol: 301, 304.

Pomponius: 419.

Poncet J.: 292, 293, 301.

Popovic A.: 120.

- R -

Rachet M.: 298, 481, 583.

Rebstock U.: 215.

Rebuffat R.: 77, 81, 105, 333, 441, 445, 472, 501, 502, 555, 561, 580.

Renault R.: 58, 100, 120.

Richardson J.: 436, 437, 439, 565, 641, 678, 683, 688, 693.

Robonson J.: 32, 92.

Rodinson M.: 604.

Rosenthal F.: 53, 163.

Rossi E.: 17, 24, 85, 122, 201, 205, 215, 249, 289, 345, 358, 360, 375, 376, 379.

Rubinacci R.: 175, 177.

Ruska J.: 617.

- S -

Saint Louis: 352.

Sanagustin F.: 402, 624.

Sassom M.: 591.

Scarin E.: 18, 448, 449, 456, 458, 485, 489.

Scelles J.: 420.

Schacht J.: 36, 109, 426, 469, 528, 535, 591, 604.

Schubarth K.: 461, 463.

Schultze A.: 350.

Schmidth H.J.: 630.

Schwartz W.: 181, 183, 194.

Seekrieg: 90, 101.

Sergi S.: 135, 481.

Shaw B.D.: 583.

Von Sivers: 86, 298.

Sobernheim: 332.

Sourdel D.: 199, 223, 319, 320, 343.

Sprenger A.: 511.

Steingass F.: 472.

Swanson J.T.: 578, 579, 580, 581, 582, 584, 587, 588, 589.

- T -

Tadema - Sporry: 484.

Talbi M.: 154, 157, 160, 165, 176, 186, 188, 189, 204, 205, 209, 213, 215, 295, 299, 300, 637, 660, 665, 666, 670.

Tayan E.: 44.

Terrasse H.: 304.
Thomas F.C.: 482, 492.
Trimingham J.S.: 350, 361, 365.
Tritton A.S.: 46, 47, 66.
Torrey Ch.: 84.
Tubiane Marie-Josée: 466.
De Tudele Benjamin: 312, 367, 478, 507, 516, 519, 562, 572, 593, 607, 628, 642, 645, 649, 656.

- V -

Vagliere L.: 91, 99.
Verlet B.: 114.
Vernier B.: 365, 376.
Vietta E.: 448.
Vikor K.S.: 549.
Visscher H.: 547.
Vonderheyden M.: 205, 300.
Vycichl W.: 509.

- W -

Watt W.M.: 84.
Weir T.H.: 224.
Weit: 222, 395, 442, 548, 571.
Wensinck A.J.: 61, 64, 99.
Westermann D.: 133.
Wustenfeld F.: 640.

- Y -

Yver G.: 502.

- Z -

Zerouki B.: 215.
Zetterslé en: 70.
Zewei M.: 618.



فهرس الأمم والفرق والقبائل والجماعات

ـ أ ـ

قبيلة آجر فزان: 258.

آل مليم بن هيب: 278.

الأباضيون «الأباضية»: 20، 21، 78، 85، 113، 174، 178 ـ 183، 188، 191 ـ 199، 202، 203، 221، 232، 250، 289، 303، 304، 361، 408، 425، 426، 431 ـ 433، 433، 438، 450، 453، 461، 462، 483، 527، 528، 537، 538، 540، 589، 600، 654، 708، 709.

أباضية البصرة: 179.

الأباضيون التونسيون: 182، 183.

الأباضيون الجزائريون: 181.

أباضيو جبل نفوسة: 142، 198، 228، 451.

أباضيو زويلة: 240.

الأباضيون الشرقيون: 179، 216.

الأباضية الصحراويون: 215.

أباضية طرابلس الغرب: 194، 200، 237.

الأباضيون الليبيون: 181، 606.

الأباضيون المسلمون: 419.

الأباضيون الأباضية الوهبية: 222، 227، 251.

الأتراك، والترك: 109، 199، 230، 243، 351، 375، 376، 407، 448، 623، 675، 692، 697، 698، 699، 702، 715.

الأترانت: 437، 489.

الأثيوبيون: 129، 144، 462، 481، 577، 581.

الأحباش: 119، 361، 368، 482، 651، 667، 668.

الاحتلال الأنكليزي: 700.

الاحتلال الإيطالي: 701.

إخوان الصفا: 483.

الأدارسة: 210، 351.

الإدارة الفرنسية: 376.

الأرمن: 47.
الأريندا: 472.
الأريوسيون: 86، 91.
الأزارقة: 175، 177 ـ 180، 428.
الأزد: 382.
قبيلة الأزقار: 314، 315، 415، 491، 492، 497، 495، 496، 497، 498، 572، 597، 598.
الإسبانيون: 402.
الاستعمار الفرنسي: 683.
الأستوريون: 497.
الأسرة الأباضية: 361، 469، 483.
أسرة أولاد محمد: 374.
الأسرة الأيوبية الأيوبيون: 330، 331، 334، 354، 390، 409.
الأسرة الحفصية: 292، 346، 349، 351، 358.
الأسرة الرستمية: 220، 264، 408.
الأسرة السلجوقية: 330.
الأسرة السودانية: 551.
الأسرة السيفوية: 361.
الأسرة الطولونية (الطولونيون): 213، 230، 234، 237، 401.
الأسرة الفارسية الرستمية: 462.
الأسرة الفزانية: 371.
الأسرة الميرينية: 351، 352.
الأسرة الهوارية: 358، 481، 690، 713.
الأسطول الصقلي: 328.
الأسطول العربي: 90.
الإسلام، المسلمون: 20، 21، 31، 33، 35، 37، 38، 42 ـ 45، 51، 54، 55، 61، 63، 64، 69 ـ 73، 75، 76، 78، 81، 84 ـ 87، 89، 91، 93، 94، 97، 99، 100، 102، 104، 105، 108، 113، 117، 121، 124، 130، 134، 141، 143، 147، 149، 151، 164، 165 ـ 171، 178، 180، 181، 186، 187، 193، 194، 197، 199، 207، 209، 210، 218، 257، 270، 284، 289، 323، 326، 354، 388، 396، 399، 407، 414، 415، 416، 419، 420، 422، 423، 428، 436، 441، 449، 462، 465، 468، 473، 492، 498، 503، 508، 541، 586، 651، 657، 677، 690، 700.
الإسماعيليون: 229، 235، 271، 277.
الأغالبة، الأسرة الأغلبية، بنو الأغلب: 197، 199، 212 ـ 218، 220، 222، 223، 224، 226، 228، 229، 231، 236، 237، 408، 419، 435، 450، 451، 604، 660، 708.
الإفريقيون، الأفارقة: 143، 216، 317، 352، 387، 404، 534، 604، 712.
قبيلة أفيلة: 489.
الألمتن: 323.
إمارة الأغالبة: 401.
الإمارة الزيرية: 246، 293.
أمازيغ: 362.
الامبراطورية الحفصية: 431، 486.
الامبراطورية الرومانية الشرقية: 14.
الامبراطورية الرومانية الغربية: 14.

الامبراطورية الزيرية: 293.
الامبراطورية العباسية: 234.
الامبراطورية العثمانية: 715.
الامبراطورية الفارسية والفرس: 31، 61، 414.
امبراطوري كانم: 486.
امبراطورية مالي: 536.
امبراطورية الماندنجو (مملكة): 371، 372، 487، 530.
الأمراء الإسبان: 290.
الأمراء الأفريقيون: 710.
الأمراء المصريون: 679.
الأمراء الزيريون: 300.
الأمونيون: 417.
الأمويون (بنو أمية): 85، 97، 99، 145، 152، 173، 178، 179، 180، 194، 207، 236، 241، 242، 260، 361، 425، 548.
الأميمة: 603، 644، 675.
أنبيه: 524.
الأندلسيون: 662.
الأنصار: 97، 173.
أهل أفريقيا: 95، 157.
أهل أنطابلس: 36، 52.
أهل بابليون: 33.
أهل برقة: 47، 52.
أهل خاوار: 106.
أهل دار الحرب: 138.
أهل الذمة: 33، 35، 36، 45، 46، 47، 67، 70، 71، 72، 76، 704.
أهل زندر: 700.
أهل مبرت: 387، 431.
أهل السنة: 181.
أهل شمال أفريقيا: 59.
أهل الصلح: 52، 57، 76.
أهل طرابلس: 700.
أهل غدامس: 568.
أهل فزان: 79، 109، 112، 171، 227، 563، 687، 689، 702.
أهل قابس: 422.
أهل القلاع: 106.
أهل الكتاب: 12، 71، 73، 121.
أهل كوار (الكواريون): 143، 505، 548، 549، 575، 610، 660.
أهل لواتة: 52.
أهل مرزق: 697.
أهل مصر: 87، 88.
أهل مكة: 44.
أهل ودان: 79، 106، 445، 559.
قبيلة الأوراغن: 228، 448، 490.
الأوربة: 161، 210.
الأوروبيون: 302.
أولاد بالليل: 439.
أولاد جابر: 275.
أولاد سرور: 275.
أولاد سليمان: 278، 376، 684، 698.
أولاد عطية: 275.
أولاد كسوم: 364.
أولاد محمد: 458، 617، 169، 714.
أولاد محمود: 374.
أولاد نوح: 463.
أولاد وساج بن عامر: 278.

الأيزغران: 413.
الإيطاليون: 199، 376، 402.

ـ ب ـ

الباجة، البجة: 463، 468.
الباجة الوثنيون: 515.
البتر: 153، 158، 159، 161، 163.
البدو: 22، 87، 561، 584.
البدو السوريون: 391.
البدو العرب: 498.
بدو شواطىء الأطلسي: 127.
البدو الليبيين: 634، 642.
براداوا (برداو): 369، 370.
البربر: 13، 19 ـ 21، 27، 43، 47، 51، 52، 54، 60، 63، 64، 66، 69، 70، 72 ـ 74، 85، 88، 95، 104، 108، 116 ـ 119، 126، 127، 146، 147، 149، 151، 153، 155 ـ 158، 160، 162، 164، 165، 167، 171، 179، 185، 187 ـ 190، 192، 196، 201، 202، 204، 213، 216، 221، 223، 225، 229، 232، 235، 237، 239، 253، 261 ـ 263، 268، 259، 273، 274، 276، 278، 279، 281، 290، 292، 294، 296، 303، 300، 302، 305 ـ 307، 309، 311، 314، 316، 324 ـ 326، 329، 331 ـ 340، 338 ـ 341، 343، 346، 352، 357، 362، 365، 368، 373، 382، 387، 389، 393، 396، 397، 403، 404، 409، 413، 416، 418، 420، 424، 425، 428، 431، 432، 435، 436، 438، 439، 442، 448، 454، 455، 460، 469، 470، 481، 485، 488، 492، 498، 502، 532، 534، 536، 538، 539، 548، 549، 551، 552، 575، 579، 581، 584، 586، 588، 590، 600، 601، 610، 242، 643، 655، 656، 657، 661، 663، 665، 667، 680، 689 ـ 691، 703، 704، 706، 707، 711، 713.
البربر الأباضيون: 76، 120، 144، 195، 220 ـ 222، 416، 418، 425، 469، 470، 665، 690، 708.
البربر الأورية: 210.
البربر البيض: 534.
بربر جزولة: 525.
بربر الخرمان: 691
البربر الخوارج: 646، 706.
بربر رحالة: 311، 405.
بربر زغوان: 168.
بربر زوارة: 433.
بربر الساحل: 120، 581.
بربر سطيف: 424، 432.
بربر السوس الأقصى: 638.
بربر الصحراء: 127، 438، 439، 538، 584، 610، 643.
بربر الصفرية: 193.
بربر غدامس: 438.
بربر الغرب: 423.
البربر الفزانيون: 689.
بربر فزان: 550.

بربر كتامة: 198، 229، 237.
بربر لمطة: 525.
بربر لواتة: 46، 207.
البربر الليبيون: 433.
البربر المرابطون: 23.
البربر المسلمون: 147، 538.
البربر الملثمون: 27، 293، 324، 325، 440، 451، 532، 537، 549، 551، 620، 655.
البرجد: 670.
البردامة: 544، 598، 610.
بردوا: 510، 636.
برغواتة: 324.
ب. زركانيون: 542.
البغامة: 492، 496، 544، 573.
البلغار: 650.
البندقيون: 166.
مجموعة من البربر (البرانيس): 153، 163.
بنو الأثبج: 275، 283، 290، 329.
بنو أحمد: 278.
بنو أدراج: 434.
بنو أسد: 422.
بنو تميم: 200.
بنو تنايوت (تناوتة): 228، 435، 600.
بنو ثابت: 358.
بنو ثامر: 364.
بنو ثور: 276.
بنو جبلة: 253.
بنو جذام: 272، 382.
بنو جخم: 329، 340.
بنو جماز: 406.
بنو جينة: 272.
بنو حصين: 276.
بنو حماد: 242، 243، 247، 249، 280، 281، 301، 523، 709.
بنو خزرون: 242، 244 ـ 250، 264، 280، 284، 318، 709.
بنو خضر بن عامر: 276.
بنو خطاب: 76، 333، 425، 458، 469، 470، 550، 690، 691
بنو الخلط: 275.
بنو دريد: 275.
بنو دمر: 439.
بنو ربيعة: 276.
بنو رواحة: 279.
بنو سعيد: .
بنو سفيان: 275.
بنو سلول: 276.
بنو سليم: 13، 21، 22، 92، 253، 260، 267، 270، 273، 276، 278، 279، 283، 284، 292، 294، 296، 334، 335، 338، 342، 358، 360، 388، 395، 398، 439، 442، 443، 456، 461، 475، 488، 492، 499، 504، 507، 550، 609، 612، 698، 709، 713.
بنو سهم: 452.
بنو شداد: 275.
بنو شماخ: 278.
بنو صدف: 382.
بنو عامر: 79، 276.
بنو عبد الواد: 351، 352.

بنو عدوان: 276.
بنو عدي: 276، 281، 283.
بنو عروة: 276.
بنو عزّة: 278، 279، 283.
بنو علاق: 278.
بنو عمرة: 276.
بنو عميرة: 279.
بنو عوف: 278، 342.
بنو غانية: 23، 167، 286، 296، 305، 306، 307، 316، 322، 323، 327 ـ 330، 335، 340، 338، 341 ـ 344، 346، 349 ـ 351، 354 ـ 359، 401، 405، 409، 443، 453، 483، 498، 555، 572، 609، 656، 691، 712.
بنو غسان: 382.
بنو غطفان: 276، 278، 279.
بنو فزارة: 276.
بنو فقعس: 422.
بنو قرة: 260، 261، 269، 275، 277، 294، 384، 475، 502، 503، 504، 506، 558.
بنو قلدين: 415، 563.
بنو كرفة: 275.
بنو مالك: 276.
بنو مثكود: 599.
بنو مدرار، المدراريون: 178، 195، 233، 241.
بنو مدلج: 84.
بنو مرداس: 278، 342.
بنو مرين: 351.
بنو مسالة: 215.
بنو مطروح: 284، 289.
بنو ناصرة: 278، 279، 284، 456.
بنو نسور: 363، 364، 365، 370، 371، 373، 374، 410، 714.
بنو نصور: 551.
بنو هلال (قبائل هلالية): 13، 21، 22، 163، 167، 205، 207، 237، 244، 248 ـ 250، 253، 254، 260، 261، 267، 269 ـ 279، 281، 282، 287، 290 ـ 295، 296، 297 ـ 311، 313، 315، 316، 318، 322، 323، 341، 356، 357، 360، 388، 395، 398، 401، 405، 409 ـ 414، 436، 442، 443، 476، 503، 508، 562، 572، 609، 612، 656، 709، 713.
بنو وازيت: 438، 439.
بنو ورتا جين: 435، 438.
بنو ورسيفان: 418.
بنو وطاس: 435، 438.
بنو وليد: 438، 439، 441، 561.
بنو يزيد: 276.
البورنيون: 637، 688، 692 ـ 701.
بوهابي: 367.
البوجيهون: 234، 243، 272، 319، 320.
البيزنطيون (امبراطورية الروم): 31، 34، 35، 36، 40، 41، 58، 77، 81، 83، 84، 88، 90، 93، 95، 145، 158، 159، 160، 221، 414، 584.

- ت -

تارقة (التارقيون): 373، 439.
قبيلة التبو: 19، 25، 128، 131 ـ 134، 371، 374، 376، 463، 465، 467، 471، 474، 485، 488، 502، 510، 518، 547، 550، 551، 568، 575، 584، 606، 637، 654، 688، 692، 699.
تبو أرندا: 471.
تبو برداي: 370.
تبو بلما: 697.
تبو بوركو: 465.
تبو بورنو: 370.
تبو تبستي: 465، 498.
تبو الكفرة: 465.
التجمعات الأباضية: 18 .
تجيب: 174، 382.
تدرميت: 410.
ترهونة: 406.
تناوتة (تنايوت): 141.
التبو: 548.
التونسيون: 181.
تونسيو الشمال: 422.
التيتوك: 598.

- ج -

جادو: 426.
جاليات سليمية: 271.
جاليات هلالية: 271.
جدالة (جدولة): 323، 341، 349.
الجراوة: 158، 161، 163، 165.
الجربيون: 428.
الجرماتيون (الجرمنتيون): 120، 143، 144.
الجرمنت: 77، 119 ـ 122، 129، 141، 227، 434، 446، 458، 459، 470، 481، 482، 484، 485، 489، 501، 564، 569، 570، 579، 583، 585، 706، 708، 709.
جرمنت الصحراء الليبية: 577.
الجزائريون: 153، 422.
الجزوليون: 609.
الجغرافيون الأوروبيون: 697.
الجغرافيون العرب: 14، 21، 23، 25، 126، 130، 135، 139، 183، 191، 202، 208، 211، 250، 252، 254، 259، 260، 315، 321، 359، 365، 413، 415، 438، 445، 447، 449، 463، 469، 484، 481، 486، 490، 497، 499، 500، 506، 508، 509، 512، 514، 537، 555، 573، 619، 623، 639، 643، 644، 646، 647، 649، 658، 660، 666، 667، 677، 690، 713، 714.
الجغرافيون القروسطيون: 302.
الجماعات السنية: 426.
جمعية الدعوة الإسلامية: 15.
الجهمة: 374، 714.
الجواري: 278، 358.
الجيدان: 433.
جيش العبادلة: 91.
الجيش العربي: 33، 185، 217.

الجيش المصري: 89، 383.
الجيوش العباسية: 183.

- ح -

الحروريون: 98، 175، 176.
حزب الساخطين: 99.
الحفصيون: 353، 355، 358، 401، 406، 410، 486، 604، 642، 661، 662، 714.
الحكام السودانيون: 652.
الحكومة الأباضية الافريقية: 707.
الحكومة التركية: 680.
الحكومة الكانمية: 483، 487.
الحملات البيزنطية: 303.
الحملة الافريقية الثانية: 91، 94.
حملة الجنرال لوكلير: 484.
حملة دنقلة: 100.
الحملة الصليبية: 352.
الحمير: 647.

- خ -

الخارجة: 367.
الخرمان: 365، 368، 373، 374، 714.
الخلفاء الأمويون: 112.
الخلفاء الراشدون: 351.
الخلفاء الفاطميون: 331.
الخلفيون: 182.
الخوارج: 20، 66، 74، 81، 97، 98، 99، 110، 147، 155، 167، 168، 173 ـ 179، 182، 185، 187 ـ 191، 194، 197، 207، 210، 225، 226، 232، 233، 303، 305، 408، 425، 431، 428، 432، 433، 536 ـ 538، 586، 588 ـ 590، 646، 705، 707، 708.
خوارج الساحل: 433.

ـ د ـ

الداخلة: 367.
دار الإسلام: 43.
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان: 15.
دباب: 276، 278، 279، 284، 291، 334، 338، 344، 345، 355، 358، 388، 393، 406، 409، 455، 712.
الدهدم (الدمدم): 613، 614، 628.
الدوائر العليا الرومانية: 298.
قبيلة الدواودة: 341، 343، 492، 513.
الدول السودانية: 651.
الدول المغربية: 293.
الدونانيون: 86.

ـ ذ ـ

ذات الصواري: 101.

ـ ر ـ

الرحالة الأوروبيون: 124.
الرحالة التونسي: 26، 64.
الرحالة العرب: 12 ـ 14، 21، 25، 183، 619، 630، 652، 677، 713، 714.
قبيلة رفجومة: 179، 193، 194.
رهانة: 307، 414، 454.
رواحة: 296، 395، 461.

قبيلة بربرية (روانة): 222، 250.
رواية: 461، 483، 600، 674.
الروايون الأباضيون (من قبيلة رواية): 689.
الروم: 291، 380، 386، 387، 481، 564، 579، 582، 583.
الرياح: 253، 272، 273، 274، 276، 278، 280، 281، 282، 283، 287، 327، 329، 334، 340، 341، 360.

- ز -

الزافون: 620.
زبانة: 313.
الزغاوة، الزغاويون: 361، 462، 463، 464، 465، 466، 478، 485، 514، 540، 541، 553، 555، 569، 570، 616، 619، 637، 656، 674، 680، 689.
الزغبة: 248، 272، 273، 274، 275، 276، 279، 281، 282، 283، 284، 290، 291، 294، 329، 342.
زكودة: 382.
زناتة: 140، 158، 169، 192، 194، 197، 198، 236، 237، 241 ـ 243، 245 ـ 247، 249، 261، 277، 280 ـ 283، 297، 316، 351، 384، 412، 413، 416، 434، 435، 475، 590، 635، 661، 664.
زنارة: 382.
زنانة: 537.
الزنج: 120، 617، 648، 651، 657، 225، 468.
زنوج بجة: 421.
زنوج الحبشة: 421.
زنوج النوبة: 421.
زوية: 502.
زيانة: 414.
الزيريون، الأسرة الزيرية، القوات الزيرية: 241، 243، 244، 248، 264، 268، 273، 281، 284، 301، 307، 318، 320، 410، 439، 642، 661، 709.

- س -

سغمارة: 412، 413، 439، 539.
السكاكية: 183.
سكان تراغن السود: 264.
سكان درج: 434.
سكان الصحراء العربية: 295.
سكان غيارو: 528، 614.
سكان الكهوف: 129.
سكان الواحة: 434.
السلاجقة: 86، 319.
السلطة الأباضية: 333.
السلطة الأخشيدية: 661.
السلطة التركية: 692.
السلطة التونسية: 697.
السلطة السودانية: 486.
السلطة العباسية: 271.
السلطة الفاطمية: 180.
السلطة المرينية: 358.
السلطة الموحدية: 346، 351.
السلفية: 233.
السنوسيون: 114، 376، 600، 700، 701.

السو: 133، 366، 367.
السود: 525، 527، 581، 620.
سود أفريقيا: 651.
السودانيون: 251، 362، 535، 604، 611، 650، 661، 662، 664، 668، 669، 675، 681، 706.
السوسو: 612.
السيفيون: 362.

– ش –

الشامبة: 499، 583.
الشعبانية: 499.
شروس: 426.
الشعابنة: 253، 440.
الشعوب السودانية: 21.
شمر: 406.
الشواشنة: 664.
الشيعة: 97، 99، 207، 217، 232، 241، 242، 267، 271، 331.
شيوخ الوهبية: 141.

– ص –

الصحابة: 93.
الصحراويون الليبيون: 437، 552، 662، 701، 713.
الصفرية: 70، 178، 187، 188، 193، 190، 192، 229، 524، 600، 708.
الصقالبة: 109، 667.
الصقليون: 673، 692.
صنهاجة، الصنهاجيون: 150، 169، 214، 233، 236، 241، 247، 273، 280، 282، 283، 413، 602، 661، 662.
صنهاجة الزبيريون: 249.

– ض –

قبيلة ضريسة: 140، 195.

– ط –

الطرابلسيون: 64، 183، 237، 238، 285، 289، 600، 634، 709.
الطرود: 276.
الطوارق: 19، 25، 134، 143، 144، 161، 253، 315، 372، 376، 418، 440، 474، 485، 487، 489، 497، 498، 498، 545، 546، 547، 550، 570، 571، 580، 583، 584، 597، 598، 625، 640، 664، 669، 673، 685، 688، 697، 698، 699، 700، 714.
طوارق الآيير: 419، 641.
طوارق أجر: 324، 714.
طوارق الألوغمان: 413.
طوارق أوراغن: 125، 143، 448.
طوارق تاسيلي: 422.
طوارق التبو: 714.
الطوارق الجزائريون: 432.
طوارق غات: 484.
طوارق غدامس: 419.
الطوارق الليبيون: 422.
طوارق الهقار: 376، 714.
الطولونيون: 382، 661، 708.

ـ ع ـ

العباسيون: 46، 99، 145، 180، 182، 183، 193، 204، 207، 222، 235، 242، 243، 271، 331، 340، 361، 708.

عبدة الشمس: 525.

العبدون: 508.

العبيديون: 660.

العبيديون، الأسرة العبيدية: 182، 231 ـ 234، 236، 237، 244، 409، 709.

العرب: 13، 18 ـ 20، 22، 31، 32، 34 ـ 40، 46، 56 ـ 58، 60، 63، 64، 66 ـ 74، 76، 80، 81، 85 ـ 88، 94، 95، 104، 106، 107، 110، 112، 113، 116، 121، 123، 125، 129، 130، 135، 137، 147 ـ 151، 153 ـ 158، 162، 164، 166، 170، 188 ـ 190، 192، 194، 199، 201، 207، 218، 223، 248، 250، 260، 261، 273، 277، 279، 280، 281، 282، 283، 290 ـ 293، 296، 297، 303، 301، 303، 307، 309، 311 ـ 313، 315، 316، 320، 332، 334 ـ 340، 341، 345، 346، 347، 355، 356، 358 ـ 360، 365، 370، 371، 380، 382، 387، 393، 394، 399، 403، 405 ـ 407، 409 ـ 412، 414 ـ 416، 418، 420، 421، 437، 439، 440، 448، 453، 454، 460، 492، 498، 505، 507، 518، 522، 532، 548، 549، 551، 555، 564، 569، 574، 584، 586، 587، 590، 601، 606، 610، 613، 623، 642، 656، 657، 662، 663، 664، 670، 673، 680، 688 ـ 690، 673، 676، 680، 688، 689، 690، 701، 703، 704، 706، 711، 713، 714.

العرب البدو: 662.

عرب برنيق: 395.

عرب جذام: 612، 613.

عرب الجنوب: 200، 203، 453، 454.

عرب الحجاز: 391.

العرب الرحل: 23.

عرب سليمان: 532.

عرب السواد: 97.

عرب الشمال: 200، 203، 453، 454، 481.

عرب شمال برقة: 673.

عرب الصحراء: 45، 95.

عرب فزان: 575.

العرب الكواريون: 507.

عرف (قبيلة): 291.

عقيدان: 420.

العك (قبيلة يمانية): 203.

العلماء الأوروبيون: 18.

ـ غ ـ

الغدامسية: 510، 591.

الغز الأكراد: 662.

الغزو المسيحي: 292.

الغزو النورماندي: 283.

الغزو الهلالي: 292.

الغزيون (المرتزقة الأتراك): 332، 662.
غطفان: 92، 388.

- ف -

الفاتحون العرب: 400.
فارس: 391.
الفاطميون: 74، 120، 215، 229، 243، 244، 246، 249، 267، 269، 272، 273، 318، 384، 710.
الفتح العربي: 298، 387، 388.
الفرثية: 183.
الفرنجة: 153، 337.
الفرنسيون: 18، 25، 88، 164، 583، 686، 700.
الفريون: 648، 649.
فزارة: 92، 313، 323، 414.
فزانة جرمة: 600.
الفزانيون: 109، 138، 143، 222، 264، 367، 374، 375، 422، 470، 483، 481، 492، 451، 590، 689، 692، 708، 709.
الفزانيون الأباضيون: 485.
الفقهاء المسلمون: 57.
الفيلق الليبي: 10.

- ق -

قبائل فاضلة: .
القابسيون: 339.
القادة المسلمون: 20.
القاهريون: 635.
القاوجا: 518.
قبائل أنبيه: 252.
القبائل البدوية: 302.
القبائل البربرية: 73، 81، 86، 159، 285، 524.
القبائل الخارجية: 74.
القبائل الزناتية: 357.
القبائل الليبية: 225.
القبائل العربية: 269، 285، 289، 290، 296، 298، 307، 354، 376، 454.
قبائل نفوسة، قبيلة نفوسة: 74، 81، 84، 88، 140، 153، 163، 192، 194، 195، 202، 215، 218، 221، 226، 237، 238، 247، 249، 297، 408، 410، 412، 435، 443، 526.
القباطنة المرابطون: 339.
القبط (الأقباط): 36، 64، 66، 158، 207، 504، 508، 509.
قحطان: 613.
قراء القرآن: 96.
أسرة القرامانلي: 375.
القرامطة: 235، 271.
القرطاجنيون: 578، 581.
القرماطيون: 119، 641.
القرمان: 365، 368، 373.
قريش: 61، 79، 272.
قضاعة: 272.
القوى الأوروبية: 714.
القوات الاستعمارية الفرنسية: 701.
القوات الحفصية: 360.
القوات الشيعية: 211.
القوات القرمطية: 271.

القوات الكتامية: 235.
القوات والجنود البيزنطيون: 39، 86، 93، 154.
قبيلة القوط: 170.

_ ك _

الكانميون: 364.
الكبابيش: 613.
قبيلة كتامة: 169، 217، 230، 238، 242، 269، 661.
كتامة سطيف: 424.
الكعوب: 338، 344.
الكلكن: 367.
قبيلة كندة: 174.
الكندن: 367.
الكنمبو: 133.
الكنوري: 547.
كهلان: 272، 612.
الكوتوكو: 133.
الكيل أواي: 487.
كيل أترم: 489.
الكيل أجر: 499.

_ ل _

قبيلة لخم: 272، 296، 382.
قبيلة لماية: 197، 237.
لمتونة: 253، 324، 335، 341، 349، 373.
قبيلة لمطة: 21، 140، 222، 252، 253، 254، 256، 373، 446، 451، 484، 489، 525، 548، 550، 642.
اللمطيون: 600، 609.
لهانة (قبائل): 224.
لواتة «قبائل لواتة»: 20، 21، 49، 51، 52، 57، 58، 60، 62، 64، 73، 74، 81، 95، 103، 104، 105، 113، 146، 147، 153، 163، 186، 194، 195، 198، 212، 222، 226، 237، 240، 252، 261، 287، 308، 334، 381، 382، 384، 396، 398، 402، 446، 450، 459، 460، 475، 504، 508، 600.
لواتة الأباضية: 398.
لواتة برقة: 185.
اللواتيون: 43، 47، 60، 64، 215، 226، 386، 590، 665.
الليبيون: 14، 133، 146، 156، 168، 181، 422، 609، 611، 625، 628.

_ م _

مالكية الفقهاء: 286.
المايورقيون: 167.
المؤرخون الأباضيون: 199.
مؤرخو أفريقيا الشمالية: 450.
المؤرخون الأوروبيون: 22، 291.
المؤرخون العرب: 12 _ 14، 19، 22، 23، 65، 78، 93، 100، 128، 139، 183، 191، 198، 199، 202، 203، 250، 447، 481، 537، 540، 586، 589، 646، 652، 660، 666، 690.
المؤرخون الغربيون: 157.

مؤرخو الفتح العربي: 164، 441.
المؤرخون الفرنسيون: 291.
المؤسسة الوطنية للنفط: 15.
مؤلفو رسائل الجنيزا: 317، 321.
المؤلفون العرب: 15، 18، 47، 77، 83، 120، 205، 221، 330، 361، 363، 401، 413، 420، 423، 449، 458، 465، 478، 481، 590، 595.
مؤلفو العصور الوسطى: 254.
المؤلفون القروسطيون: 274، 302.
المؤلفون الكلاسيكيون: 163.
المؤلفون المعاصرون: 131.
متونة: 323.
مجلس تونس: 345.
المجموعة المالكية العربية البربرية: 303.
المجوس: 44، 45، 46، 71، 72.
مجوس هجر: 72.
المحاميد: 278.
المدرسة السورية: 57.
المدرسة العراقية: 57.
المدرسة المالكية: 362، 601، 658.
المذهب الحنفي: 72، 217.
المذهب السني: 21، 99، 242، 268، 271، 341، 548، 709.
المذهب المالكي: 217، 231، 657، 672.
المرابطون: 23، 286، 287، 290، 322، 324، 326، 327، 335، 341، 342، 345، 349، 350، 355، 356، 373، 374، 410، 526، 527، 556، 771، 712.
المرابطون الأفريقيون: 340.
مرابطو الغرب: 443.
مراد: 174.
قبيلة مرمزيان: 224.
المروييون: 569، 674.
المرينيون: 540، 591.
مزاتة: 78، 103، 104، 114، 118، 119، 134، 139، 146، 191، 194، 195، 196، 199، 227، 250، 256، 260، 261، 313، 316، 381، 384، 404، 414، 446، 450، 460، 469، 470، 475، 481، 609، 709.
مزاتة الأباضية: 227، 402، 708.
مزاتة الطرابلسية: 462.
المستكشفون الأوروبيون: 23، 26، 130، 132، 133، 316، 497، 574، 673، 689.
مسوفة: 126، 188، 253، 323، 349، 372، 373، 598.
المسيحيون: 44، 45، 121، 158، 166، 287، 292، 289، 296، 300، 325، 327، 328، 340، 343، 344، 433، 433، 515، 517، 590، 603، 604، 662.
قبائل مصراتة: 224، 278.
المصريون: 66، 96، 214، 235، 372، 417، 537.
مضر: 200.
المعافي: 174.
معركة تلمسان: 149.
معركة الجمل: 97، 99.
معركة حيدران: 295.

معركة درابجرد: 178.
معركة صفين: 98، 99، 176.
معركة لاس نافاس دي تولوسا: 344.
معركة النهروان: 99، 173.
معركة اليرموك: 31.
معقل: 532.
المغاربة: 164، 391، 402، 498، 515، 516، 534، 540، 544، 590، 604، 616، 630، 632، 710.
مغراوة: 241، 242، 244، 245، 248، 324.
المكتب الشعبي في بروكسل: 15.
المكتب الوطني الاستشاري: 15.
مكناسة: 195.
ملحمة عقبة الأطلسية: 59.
مملكة الأدارسة: 227.
الممالك الأفريقية: 708.
المملكة الأباضية الرستمية: 197.
المملكة السودانية (الممالك السودانية): 27، 455، 463، 466.
المملكة الصفرية: 588.
المملكة الكانمية: 539.
مملكة جوجو: .
مملكة جوجيا: 466.
مملكة كوغا: 466.
مملكة كوكا: 466.
مملكة كوكو: 466.
مملكة كوكيا: 466.
مملكة مرو: 466.
مملكة النوبة: 467.
الملوك الأباضيون: 458.
الملوك الحفصيون: 348.
الملوك السودانيون: 689.
الملوك المغاربة: 353.
المملكة البربرية: 401.
مملكة النوبة: 518.
المناطق السودانية: 25، 104، 552.
المهاريون: 583.
الموحدون: 23، 275، 283، 286، 287، 292، 290، 302، 306، 316، 326 ـ 329، 331، 334، 335، 340 ـ 339، 342 ـ 345، 347، 349، 351، 353، 358، 360، 447، 454، 455، 483، 609، 661، 711، 712.
الموراويين: 680.
الموريون: 462، 466.
ميرا: 674.
الميريون: 462، 569، 680.
الميليشيا العربية: 220.
الميورقيون: 350.

ـ ن ـ

النجدات: 177.
النسامون: 161، 419، 433، 441.
الفكارة (طائفة): 233.
النفاثية: 182.
النفزاويون: 590، 665.
نفوسة، النفوسيون: 214، 226، 540، 665، 709.
النوبيون: 57، 58، 100، 117، 119، 171، 207، 501، 648، 651، 657، 660، 661، 669.

النورمانديون: 284، 285، 286، 292، 289، 290.
النيليون: 133.

— هـ —

الهاوسا: 469، 678.
قبيلة هدية: 406.
هلديل: 92.
الهقار: 314، 324، 372، 413.
قبيلة هوارة، والهواريون: 21، 81، 120، 140، 169، 191، 192، 194، 195، 197، 212، 215، 218، 220، 222، 224، 226، 232، 237، 238، 240، 252، 278، 282، 334، 346، 348، 408، 446، 450، 452، 454، 462، 469، 481، 491، 498، 600، 635، 709، 712.
هوارة البربرية: 282.
هوارة الصحراويون: 600.
هواريو أغمات: 630.
هوضن: 463.
هيب (قبيلة): 279، 283، 296، 388.

— و —

الوثنية، الوثنيون: 86، 416، 420، 428، 612، 651، 670، 680، 700.
ورفلة: 406.
الوسر: 367.
الولاة الأتراك: 715.
قبيلة الوهبية، الوهبيون: 182، 183، 233، 250، 428، 435.

— ي —

اليهود: 44، 45، 86، 158، 166، 318، 395، 399، 410، 411، 433، 535، 590، 591، 592، 594، 604، 623، 645، 667، 711.
اليهود الأفريقيون: 317.
يهود حلوان: 507.

فهرس الأماكن

- أ -

آبار طربانية: 129.
الآجر: 498.
آسيا: 578.
آسيا الصغرى: 583.
آسيا الغربية: 243.
آقار: 255، 258.
الآيير: 77، 129، 142، 211، 278، 314، 315، 370، 372، 444، 470، 471، 474، 487، 491، 497، 498، 539، 541، 546، 547، 573، 595، 598، 627، 628، 713.
أبرز: 626، 631.
أبزار: 552.
أبشاية: 517.
أبلسا: 537، 580.
أثيوبيا: 134.
أجدابيا: 75، 76، 81، 115، 140، 195، 221، 230، 234، 236، 240، 241، 259، 279، 305، 309، 310، 316، 382، 383، 391، 396، 397، 398، 399، 401، 404، 441، 443، 445، 446، 449، 451، 470، 472، 475، 481، 486، 520، 521، 548، 555، 557، 560، 563، 592، 599، 600، 713.
أجخرة: 441.
أجر (جبدتو): 552.
أجرفزان (أجارفزان): 485.
أجيا: 394.
أخميم: 517، 638.
أدرار أفوغاز: 211، 314، 372، 413، 536، 539، 627.
أدرار موريتانيا: 255، 324.
أدري: 564، 565، 566.
أدفو: 516.
أذربيجان: 112.
الأراضي الأفريقية: 645.

الأراضي التونسية: 201.
الأراضي المصرية: 613.
الأراضي المصرية السنية: 221.
أران: 112.
أربطة سوسة: 216، 292.
أربونة: 421.
الأردن: 60.
الأرض البورنية: 613.
أرمنت: 516.
أرمينيا: 47.
أروان: 372، 530، 532.
أريس الواح: 503.
أزقى: 255، 528.
أزليك: 546.
إسبانيا: 159، 165، 170، 171، 210، 214، 236، 241، 256، 260، 286، 287، 290، 302، 317، 320، 321، 323، 325، 328، 340، 344، 348، 349، 430، 550، 594، 623، 630، 631، 640، 645، 648، 667، 680، 705، 711، 709.
إسبانيا الأموية: 193، 231.
إسبانيا السنية: 243.
إسبانيا الغربية: 325.
إسبانيا المسيحية: 638.
إسبانيا الوسطى: 325.
الاسكندرية: 32 ـ 36، 40 ـ 42، 49، 50، 89، 90، 145، 166، 230، 261، 290، 296، 305، 309، 317، 320، 321، 379، 380، 384، 389، 391، 395، 396، 520، 521، 535،
558، 590، 594، 627، 628، 629، 635، 707.
إسنا: 516.
أسوان: 141، 208، 331، 478، 507، 515، 516، 543، 553، 562، 563، 628، 647، 670.
أسيوط: 260، 517، 518، 632.
إشبيلية: 318.
أشمون: 518، 519، 632.
أشنومة: 551.
أشير: 236.
أطراف تاسيلي18، 228، 425.
الأطرون: 518.
أطلال: 528.
أعالي النيل: 581، 619.
أغاديس: 370، 465، 471، 518، 530، 573، 647، 662، 697.
أغمات: 523، 595، 628، 665، 681.
الأغوات: 523.
أفريقيا: 9، 15، 22، 31، 32، 42، 49، 50، 54، 58، 59، 67، 70، 73، 74، 77، 80، 81، 85، 88 ـ 90، 92، 93 ـ 97، 101 ـ 104، 117، 120، 126، 127، 145 ـ 157، 159، 160، 162، 167، 169، 170، 171، 174، 186 ـ 188، 190، 192، 193، 195 ـ 199، 202 ـ 205، 210، 216، 229 ـ 234، 236، 241 ـ 243، 245، 248، 250، 267، 269، 270، 273، 275، 279، 280، 282، 283، 286، 292، 291، 294، 295،

297، 303، 302، 306، 308، 330 ـ 332، 334، 339، 341، 343 ـ 346، 347، 350، 351، 354 ـ 357، 360، 365، 383، 392، 396، 401، 407، 412، 431، 445، 450، 460، 472، 503، 507، 520، 521، 537، 536، 543، 544، 553، 554، 566 ـ 568، 574، 578، 585، 594، 602، 604، 620، 623، 630، 632، 635، 646، 655، 659، 661، 673، 703، 704، 706 ـ 708، 710، 711.
أفريقيا الأغلبية: 213، 229.
أفريقيا البيضاء: 473.
أفريقيا الرومانية: 577، 578.
أفريقيا السوداء: 473، 684.
أفريقيا الشرقية: 290، 341، 583، 603، 644، 645، 647.
أفريقيا الشمالية: 17، 22، 38، 66، 67، 100، 149، 154، 155، 160، 165، 171، 174، 177، 178، 181، 182، 185، 186، 187، 193، 194، 197، 207، 210، 234، 242، 243، 248، 258، 259، 275، 291، 294، 295، 304، 325، 335، 356، 387، 403، 408، 409، 425، 433، 450، 467، 503، 577، 583، 584، 586 ـ 588، 604، 613، 635، 646، 655، 703، 707.
أفريقيا الشمالية الشرقية: 579.
أفريقيا الغربية: 329، 413.
أفريقيا القرطاجنية: 577.
أفريقيا المؤمنية: 388.
أفوغاز غدامس: 597، 598.
الأقاليم الصحراوية الليبية: 18، 705.
الأقصر: 516.
إقليم الأزقار: 314، 465، 571، 609.
إقليم أفريقيا: 347.
إقليم السونغاي: 369.
إقليم أمنكال: 499.
إقليم أوجلة: 398.
إقليم برقة: 104، 194، 209، 237، 277 ـ 279، 284، 313، 316، 335، 338، 347، 360، 379، 380، 388، 389، 394، 414، 446، 450، 453، 461، 472، 474، 475، 478، 481، 486، 488، 497، 507، 508، 541، 554، 555، 571، 600، 673، 710، 711.
إقليم جرمة: 257.
الإقليم الطرابلسي: 297.
إقليم غدامس: 439.
إقليم كانيمي: 543.
إقليم الكفرة: 23.
الإقليم الليبي: 645.
إقليم هوارة: 402، 417.
أكوار السودان: 102.
ألمانيا: 635.
أم الأرانب: 77.
أنبيه: 252.
إنجلترا: 635، 697.
الأندى: 129، 142، 259، 501، 555.
الأنــدلــس: 19، 170، 256، 260، 326، 421.

أنطابلس: 48، 49، 50، 51، 77.
أهناس: 632.
الأهير: 539.
أوئيا: 579.
أوباري: 482، 490.
أوجلة: 18، 19، 77، 131، 140، 142، 221، 222، 252، 259، 260، 305، 308، 313، 316، 349، 333، 370، 376، 385، 389، 394، 396، 398، 405، 419، 441 ـ 445، 447، 449، 451، 452، 453، 454، 459، 476 ـ 478، 486، 487، 500، 501، 506، 509، 520، 542، 548، 550، 555، 557، 558، 560، 563، 573، 600، 625، 622، 626، 638، 697، 711، 713.
أوغست: 252، 324، 372، 473، 484، 524، 525، 526، 527، 539، 572، 574، 590، 598، 609، 610، 615، 620، 628، 629، 639، 641، 651، 655، 656، 664، 665، 679.
أوديان: 537.
الأوراس: 149، 153، 158، 232، 275، 329.
أورباري: 143، 228، 257.
أوروبا: 9، 11، 22، 149، 150، 153، 166، 256، 535، 590، 635، 634، 636، 643، 659، 686.
أوليل: 525، 537، 572، 639.
إيران: 321.
إيطاليا: 7، 93، 635، 635.
إيليا: 62.
أيلة: 514.
أين الزان: 553.

ـ ب ـ

باب السودان «وبوابة السودان»: 144، 600، 642.
بابليون: 32، 33.
باجة: 329، 337، 348، 356، 565.
البادية العربية: 303.
بئر بورتيمة: 105.
بئر الحاسي: 565.
بئر شبع: 89.
بئر ماء الفرس: 568.
بئر مرندن: 595.
بئر مشرو (مشور): 132، 568، 686.
بئر نطرون: 595.
بئر ودرف: 563، 565.
باريس: 295.
باشو: 335، 356.
باكل: 528.
بامبوك: 528، 534، 647، 663.
بتوليمي: 394.
بجاية: 283.
البحر الأحمر: 11، 17، 24، 33، 141، 207، 271، 463، 515، 516، 543، 553، 658، 659.
بحر إيجه: 166.
بحر البلطيق: 166.
البحر التيريني: 166.
بحر الرمال: 19.

بحر الغزال: 375، 472، 478، 501، 555، 574، 575، 686، 701.

بحر القلزم: 87.

البحر المتوسط: 18، 23، 24، 40، 90، 122، 140، 142، 144، 165، 166، 233، 258، 285، 303، 312، 313، 322، 350، 361، 368، 376، 447، 501، 574، 577، 632، 646، 656.

البحرين: 271، 272.

بحيرة تشاد: 17، 133، 350، 361، 366، 368، 369، 370، 467، 518، 543، 550، 551، 569، 574، 575، 614، 644، 645، 689.

بحيرة ش. برو: 549.

بحيرة فتري: 366.

بحيرة كوار: 618.

بحيرة كواري: 543.

البحيرة الكوارية (أنكلاس): 549، 550، 551، 552، 626، 631.

البخي: 129، 143، 686.

بدقة: 253، 461.

برادي: 495.

براك: 566، 639.

بربريا: 341، 634، 658.

البردام: 545.

بردامة: 545.

بردوا (برداي): 510، 368.

البردوا: 602، 368.

بر العبد: 699.

برقت: 239.

برقة: 15، 20، 22، 35، 40 ـ 44، 46 ـ 51، 55، 57 ـ 64، 67، 68، 70، 73 ـ 75، 77، 78، 80، 83، 87، 88، 93، 103، 104، 117، 122، 128، 139، 146، 147، 151 ـ 153، 155، 158، 166، 194، 195، 198، 202، 207، 208، 209، 221 ـ 223، 225، 230، 231، 234، 237، 240، 245، 248، 252، 259 ـ 261، 264، 268، 275، 278، 280، 294، 296، 305، 308 ـ 311، 318، 320، 322، 331، 342، 347، 356، 359، 360، 366، 368، 379 ـ 397، 400، 401، 404، 408، 419، 441 ـ 443، 451، 459، 460، 468، 471، 472، 481، 488، 506، 508، 520، 521، 541، 557، 563، 574، 594، 586، 625 ـ 623، 625، 629، 635، 638، 641، 657، 681، 701، 703، 705 ـ 707، 709، 710، 713، 715.

برقة المصرية: 443.

البركت: 137، 324، 472، 489.

بروكسل: 15.

بزيمة (أبي زيمة): 444، 500، 510، 555.

بسكرة: 107، 150، 337، 340، 345، 346، 356، 401، 487، 523، 642، 698.

البصرة: 68، 88، 98، 147، 173، 177، 178، 180، 193، 190، 194، 196، 212، 222، 264، 270، 450، 462، 604، 667.

البطنان: 74.

بغامة: 314.
بـغـداد: 197، 204، 234، 235، 243، 264، 267، 268، 273، 325، 352.
بقارة: 613.
بقرمي: 676، 683، 687، 701.
البل: 469، 545.
بلاد الأزقار: 495، 496، 497.
بلاد الباجة: 645.
بـلاد الـبـربـر: 42، 54، 69، 85، 110، 126، 127، 253، 325، 423، 536.
بلاد البربر المسلمة: 58.
بلاد التاجوين: 608.
بلاد الزغاوة: 619، 624.
بلاد التبر: 606، 627، 628.
بلاد التبو: 23، 25، 362، 371، 623.
بـلاد الـذهـب: 141، 263، 315، 526، 530، 614، 627.
بلاد الزغاوة: 677.
بلاد السنوسية: 561.
بلاد السود: 17، 119، 131، 140، 253، 259، 311، 312، 313، 325، 406، 411، 447، 462، 488، 513، 524، 564، 567، 588، 596، 599، 602، 626، 627، 629، 637، 639، 642، 649، 652، 658، 664، 680، 709، 711.
بلاد غانا: 642.
بلاد انعزيون: 648.
بلاد كوار: 549.
بلاد الكوكو: 619.
بلاد المسلمين: 684.
بلدان المغرب: 552.
بلاد الناسمون: 579.
بلاد النوبة: 648.
بلاد الهكار: 572.
بلاد هوارة: 561.
بلاد الواحات: 503.
البلاط الملكي في غانا: 653.
بلاق: 515.
بلبيس: 271.
البلدات الليبية: 598.
بلدان السودان: 481.
بـلـمـا: 125، 133، 137، 373، 464، 471، 547، 548، 595، 596، 626، 641.
بليانة: 517، 632.
البندقية: 628، 643.
بنزرت: 146، 340.
بنغازي: 394، 510، 689، 699.
بنطابول: 59.
بهنسة: 519، 556، 632.
بهنسة الصعيد: 520.
الـبـوانـس: 118، 124، 139، 140، 562، 566، 567.
بودا: 532.
بـوركـو: 142، 375، 461، 462، 555، 676، 697.
بورة: 632، 647.
بـورنـو: 23، 123، 133، 315، 352، 362، 364، 366، 368، 369، 370، 371، 375، 466، 467، 488، 535، 547، 553، 606، 612، 613، 635،

636، 641، 654، 656، 662، 364،
668 ـ 670، 672، 675، 678، 686،
683، 685، 686، 690، 691 714.
بوري: 528، 547، 663.
بوصي: 453.
بوقرين: 139.
بولندا: 635.
بولله: 671، 686.
بو نجيم (أبو نجيم): 417، 447، 560،
561.
بويرات الحسون: 139.
بيت الله الحرام: 394.
بيردو/ بردو: 369.
بيروت: 640.
بيزناس: 684.
بيزنطة: 62، 86، 93، 166، 684.
بيلما (قصر أم عيسى): 552.

ـ ت ـ

تات. نتال: 372.
تاجوا: 465، 471.
تاجوراء: 342.
تاجووين: 465.
تادمكة: 125، 211، 215، 232، 263،
305، 306، 315، 372، 409، 413،
431، 431، 433، 437، 439، 484،
487، 529، 530، 532، 537، 536،
537، 538، 539، 540، 545، 573،
591، 608، 625، 629، 640، 645،
651، 652، 675.
تاكدا: 530.
تادرامت: 489.
التاج: 500.
تانيس الواح: 503.
التاجوه: 504، 509.
تارغين: 563، 566.
تازربو: 444، 471، 500، 501، 510،
561.
تاسرهله: 531.
تاسيلي: 122، 256، 262، 314، 372،
376، 413، 417، 422، 439، 465،
481، 485، 487، 489، 490، 497 ـ
498، 510، 537، 539، 571، 572،
607.
تافيلالت: 234.
تاقرفت: 143، 196، 259.
تاكدة: 372.
تامر. ما: 563.
تامزوا (تامزاوه): 566.
تامزاوة (تامساوة): 251.
تامم. م. ت: 556.
تانيزوفت: 134.
تاهرت: 180، 181، 182، 195، 197 ـ 200،
202، 203، 209، 210، 212، 215،
216، 221 ـ 225، 227، 228، 230،
231، 233، 234، 237، 264، 304،
342، 357، 386، 401، 588، 708.
تاورغاء: 209، 214، 402، 446، 451،
521، 658.
تارودانت: 523.
تامدلت: 524.
تاقرفت: 27، 444، 445، 452، 558،

559، 560، 562.
تـاهـرت: 211، 401، 408، 416، 425، 426، 433، 435، 462، 523، 524، 527، 528، 540، 542، 563، 574، 591.
تبسة: 356.
تـبـسـتـي: 77، 142، 259، 370، 371، 465، 497 ـ 495 ـ 498، 501، 510، 547، 569، 577، 583، 688، 699.
تـجـرهـي: 124، 129، 134، 136، 137، 140، 143، 363، 364، 374، 482، 548، 550، 551، 565، 568، 569، 571، 574، 606، 607، 685، 690.
تدالة: 523.
تدمير: 648.
ترازكي: 464.
تـراغـن: 18، 129، 363، 364، 370، 373، 457، 458، 487، 564.
ترفاس فلسطين: 437.
تـسـاوة: 120، 129، 257، 314، 483، 485، 491، 495، 497، 564، 565، 570، 571، 572، 574.
تستر: 61.
تسليت: 537.
تشاد: 77، 234، 350، 369، 443، 463، 488، 501، 512، 543، 555، 575، 600، 613، 662، 678، 708.
تشيت: 530.
تغارا: 640.
تغلالت (تفلالت): 257، 532.
تقارفت: 259.
تقيوس (واحة): 305، 297، 537.
تـكـدة: 487، 491، 496، 537، 539، 544، 545، 546، 547، 573، 596، 627، 630، 631، 636، 658، 663، 666، 679، 684، 685، 686.
تكرتيبه: 134.
تكركية: 512.
تكرنبيه: 565.
الـتـكـرور: 126، 142، 368، 438، 472، 473، 527، 528، 537، 534، 538، 553، 593، 614، 627، 628، 630، 641، 647، 649، 674، 681.
تـلـمـسـان: 149، 200، 210، 287، 325، 342، 351، 523، 593، 603، 625، 644.
تمسة: 77، 140، 259، 456، 457، 458، 459، 559، 571.
تمر. ما: 566.
تملم (تلمل): 552.
تملمة (تلملة): 626.
تمنطيط: 532.
تندوف: 525، 526.
ت. نرو: 509، 510.
ت. ن. د. ف. س: 525.
تنيس: 631، 632.
تـوات: 257، 372، 413، 491، 532، 537، 534، 539، 547، 572، 592، 596، 598، 610، 628، 653، 658، 666، 679، 685.
تودني: 532.

تـوزر: 105، 168، 212، 228، 263، 264، 282، 305، 306، 329، 330، 337، 346، 355، 356، 388، 422، 424، 431، 433، 435، 484، 497، 537، 555، 573، 712.
توغرت القديمة: 437.
تولت: 573.
تومبكتو: 127، 369، 473، 496، 518، 529، 530، 531، 535، 536، 538، 566، 591، 592، 598، 634، 636، 637، 640، 641، 647، 648، 654، 666، 672، 675.
التومو: 137، 686.
تـونـس: 14، 93، 94، 103، 108، 110، 113، 149، 156، 157، 165، 166، 182، 216، 232، 282، 283، 292، 298، 303، 335، 340، 338، 340، 343، 346، 348، 349، 352، 354، 356، 360، 388، 412، 432، 440، 443، 472، 522، 662، 665، 675، 710، 712.
تونين: 489.
تيديكلت/ تدكلت: 114، 257، 372.
تيرقا: 529، 538.
التينري: 77.
تيري: 563، 564، 565.

- ج -

جاجو: 535، 540.
جـادو: 136 ـ 138، 239، 259، 268، 407، 410، 411، 412، 563، 564، 565، 566، 567، 573، 592، 641، 690.
جادو الليبية: 568.
جادو أوغريان: 522.
جـالـو: 221، 441، 444، 451، 500، 558، 697.
جامع الزيتونة: 216.
جامع القيروان: 216.
الجامع الكبير: 159، 193.
جانا: 528.
جانيت: 114، 489، 512، 547، 629.
جـاو: 141، 232، 263، 310، 315، 458، 473، 491، 496، 497، 514، 518، 528، 532، 535، 540، 541، 542، 544، 553، 574، 602، 614، 635، 634، 635، 636، 637، 640، 641، 644، 645، 651، 653، 654، 656، 668، 672، 680، 686، 686.
جاو كوكو: 211.
جاوان، واجان، خاور: 106.
جاوجا: 543، 637، 644، 671.
جب مناد: 556.
جبال الأوراس: 284، 401.
جبال تطرى: 236.
جبال كتامة: 465.
الجبال الليبية: 97.
جبر: 637.
جبل أبلسة: 537.
الجبل الأخضر: 296، 380، 710.
جبل أدينن: 418.
جبل أكاكوس: 418، 484، 570.

جبل أمدير: 537.

جبل تاتي (تاني) (تلى): 556.

جبل جرجيس: 491، 496.

جبل الجنون: 418.

جبل الحساونة: 566.

جبل دمر: 296، 307، 311، 316، 413، 414، 461.

جبل الذهب: 619.

جبل سرواي (سراوي): 556.

جبل السودا: 18، 80، 118، 448، 449، 452.

جبل شمر: 453.

جبل طنطنة: 26، 303، 449، 492، 498، 510، 571، 572، 607.

جبل عامر: 282.

جبل علساني: 541، 617.

جبل فزان: 566.

جبل القرن: 108، 290.

جبل ق. زول/ ن. زول: 556.

جبل ككومن: 134.

جبل لونيه: 497، 497، 498، 539، 617.

جبل متلاس (بتلاس): 556.

جبل مير: 466.

جبل نفوسة: 24، 42، 43، 76، 79، 81، 83، 85، 97، 138، 139، 142، 163، 180، 183، 198، 199، 201، 209، 210، 212، 214، 215، 220 _ 223، 225، 227، 228، 233، 234، 236 _ 239، 246، 250، 251، 259، 263، 264، 278، 289، 315، 334، 339، 340، 341، 343، 355، 360، 362، 401، 407، 408، 410، 411، 418، 420، 425، 431، 432، 433، 435، 436، 438، 451، 478، 485، 522، 528، 537، 535، 536، 540، 553، 554، 563، 565، 567، 572، 573، 592، 600، 608، 623، 630، 707، 708، 712.

جبل هوارة: 446.

جبل الهوايش: 508.

تجبل الهروج الأسود: 18.

جبل و. جادون: 556.

جبل و. جا: 556.

جبل ودان: 18.

جبل يد. مور: 556.

جدالة: 323.

جدت: 553.

جرارة: 257.

جربة: 180، 469، 630، 643.

الجرو: 306.

جرمة: 18، 58، 77، 104، 106، 111، 114 _ 116، 118 _ 122، 124، 125، 128 _ 130، 134، 135، 140، 143، 144، 227، 257، 262، 314، 458، 460، 484 _ 486، 497، 564، 565، 567، 569 _ 573، 574، 579 _ 581، 600، 656، 660، 669، 711.

جرمة الصغيرة: 314، 483.

الجريد: 153، 159، 182، 183، 210، 212، 215، 216، 237، 292، 297، 329، 330، 345 _ 338، 340، 344،

355، 387، 388، 401، 404، 408، 435، 522، 535، 537، 540، 563، 573، 600، 608، 647، 660، 708، 712.
الجريد التونسي: 128، 139، 153، 223، 232، 250، 305، 591.
الجزائر (المدينة): 325.
الجزائر: 17، 88، 107، 155، 181، 236، 283، 287، 325، 329، 356، 498، 503، 504.
الجزائر الشرقية: 14.
جزر الباليار «البليار»: 286، 290، 327، 329، 339، 340، 577، 712.
جزيرة أبيزا: 326.
الجزيرة الأيبرية: 326.
جزيرة جربة: 97، 182، 285، 420.
جزيرة الزنجبار: 473.
الجزيرة العربية: 34، 37، 44، 46، 68، 87، 97، 152، 174، 181، 270 ـ 272، 290، 328، 339، 391، 430، 443، 514، 549، 647، 653، 657، 669، 707.
جزيرة المالديف: 473.
جزيرة مايورقا (ميورقا): 326، 328، 329، 339.
جزيرة مينوركا: 326.
جزيرة ودان: 452.
جسبي (القصبة): 552.
جغبوب: 500، 502، 520، 555، 700.
الجفار: 519.
الجفارة: 195، 521.
الجفرة: 17، 80، 102، 118، 123، 143، 199، 221، 228، 237، 276، 344، 365، 373، 446، 447، 454، 484، 560، 561، 570.
جلام: 528، 663.
جلولا: 103، 145، 152.
جنة عدن: 706.
جنوب أغاديس: 541.
جنوب أفريقيا: 537.
جنوب برقة: 18.
جنوب بوركو: 575.
جنوب تبستي: 471.
جنوب تونس: 124، 138، 153، 169، 193، 195، 197، 203، 210، 232، 264، 341، 342، 425، 433، 536، 547.
جنوب تيمبتكو (ينبكتو): 413.
جنوب جرمة: 484.
جنوب الجريد: 436.
جنوب الجزائر: 440.
جنوب الجزيرة العربية: 180، 453، 613، 707.
جنوب الجفرة: 456، 677.
جنوب جيبوتي: 514.
جنوب زويلة: 462.
جنوب السوس: 252، 588.
جنوب سوكنة: 562.
جنوب شرق تراغن: 123.
جنوب شرق تشاد: 676.
جنوب شرق الصحراء: 303.
جنوب شرق مرزق: 129.

جنوب طرابلس: 322، 488.
جنوب غات: 324.
جنوب غرب برقة: 368.
جنوب غرب تلمسان: 137.
جنوب غرب مأرب: 174.
جنوب غريان: 278.
جنوب فزان: 104، 122، 129، 137، 363، 497، 495.
جنوب قابس: 214.
جنوب قوص: 590.
جنوب القيروان: 290.
جنوب كانو: 497.
جنوب كوكو: 543.
الجنوب الليبي: 463، 483، 574.
جنوب الليمس: 434.
الجنوب المراكشي: 595، 671، 679.
جنوب المغرب: 125.
جنوب موريتانيا: 221، 526.
جنوب النيل: 528.
جنوى: 358.
جني: 634، 635، 665.
جو: 637.
جوبا: 583.
جوجا: 467، 686.
جوجيا: 369.
الجوف: 500.
جيجل: 275.
الجيزة: 35.
جيسبي Gisebi: 135.

- ح -

الحاضرة الأباضية: 212.
الحامة: 297، 340، 608.
الحبشة: 109، 361، 514، 540.
الحجاز: 24، 32، 91، 92، 152، 173، 381، 449، 514، 515، 516، 653.
الحدود التونسية: 239.
الحدود الجنوبية للجرمنت: 129.
الحدود السودانية الأرتيرية: 463.
الحدود المصرية: 156.
حدود النوبة: 689.
حرام: 61.
حروراء: 98، 99، 175.
الحصن الأباضي: 592.
حصن العقاب: 344.
حصون فزان: 104.
حصون كوار: 143، 144.
حصن الملح: 372.
حضرموت: 174، 200، 382، 452.
حلة: 162.
حلوان: 478، 507، 562، 592، 628، 642، 645.
الحمادة الحمرا: 18، 221، 251، 259، 408، 411، 434، 468، 484، 483، 485، 565، 567، 579، 592، 607.
حمادة مرزق: 256، 257، 483، 495.
حوض تشاد: 350، 547، 662.
حوض القيروان: 216.
حوض المتوسط: 646.
حي الحضارمة بوسي: 452، 453.

حي دلباك: 452، 453.

حيدران: .

- خ -

خاوار: 107، 136.

خراسان: 180، 271، 462.

الخرايق: 134.

خزان السفرة في سوسة: 216.

الخطارة: 483.

خليج سرت: 14، 17، 77، 105، 113، 209، 224، 341، 353، 392، 481، 554، 560، 571، 574، 584، 588، 706.

خليج العقبة: 392، 514، 520.

خليج غينيا: 375، 592، 700، 701.

خليج قابس: 14.

خوزستان: 98، 177، 178.

خيبر: 68، 270.

- د -

دار الحرب: 193.

دار الخراج: 430.

دار الزغاوة: 361.

دار السلام: 671.

دار فور: 289، 478، 488، 501، 518، 613، 673، 699، 708.

داركاره: 496.

داغستان: 112.

داميت: 631، 632، 644، 671.

داو: 449، 492.

دبيق: 631.

درب الأربعين: 518.

درج: 262، 316، 345، 522، 617.

درعة: 698.

درف: 566.

دركو: 551، 685.

درنة: 380، 592.

دفنة: 74.

دكار: 546.

دكوا: 363.

دلباك: 453.

الدلتا: 32، 34، 35، 36.

دمامين: 516، 590، 635.

الدمدم: 497.

دمشق: 145، 146، 160، 170، 235، 638.

دنقلة: 127، 142، 207، 369، 467، 514، 515، 644.

دهان أوباري: 18، 118، 492، 512.

دهان مرزق: 18، 77، 129، 256، 484، 564، 570، 571.

الديار المصرية: 392.

- ذ -

ذات الحمام (بئر الحمام): 261.

- ر -

رام الله: 101.

رأس الحماد: 564.

رأس عنابة: 286.

رأس الكتائس: 520.

رأس الماء: 529.

رأس المخبز (فروة): 643.
الرباط: 324.
الربذة: 92.
الربسة: 490.
رجمة: 483.
الرزاقية: 442.
رساني: 125.
رفجومة: 74.
الرقبة/ الرقيبة: 253.
الرمال: 260.
رمال ريانة: 18، 500.
رمث برقة: 128.
الرملة: 119، 520، 607، 643.
رملة الزلاف: 564.
الرها: 61.
روما: 298، 387، 481، 491، 578، 579.
ريانة: 500، 501.

ـ ز ـ

الزاب: 120، 150، 198، 200، 203، 204، 213، 242، 253، 282، 338، 345، 346، 349، 351، 462، 523، 537، 535، 600.
الزاب الجزائرية: 97.
زغاري: 535.
زاقورة: 679.
الزغاوة: 126، 259، 361، 363، 367، 368.
زكرام: 537.
زلة: 77، 81، 118، 122، 139، 140، 143، 196، 259، 311، 312، 333، 335، 365، 441، 443، 445، 446، 447، 454، 457، 459، 471، 472، 475، 476، 481، 478، 500، 501، 505، 506، 555، 557، 558، 559، 560، 571، 600، 626، 701، 711، 712.
زلمه: 449.
زلهى: 456.
زناره: 397.
زنجيبار: 180.
زندر: 490.
زوارة: 428، 643.
زواغة: 195، 212، 428، 433.
الزوقي: 549.
زويلة: 17، 20، 41، 59، 75، 78، 80، 95، 103، 106 ـ 108، 110، 114، 117، 119، 122، 123، 131، 135، 138 ـ 140، 142، 144 ـ 146، 196، 198، 199، 208، 211، 212، 218، 222، 227، 234، 240، 250 ـ 252، 256، 258 ـ 260، 262، 264، 265، 303، 306، 308، 311، 312، 333، 347، 355، 356، 361 ـ 363، 365، 396، 408، 411، 425، 433، 441، 445، 446، 447، 449، 451، 454، 456 ـ 462، 466، 467 ـ 484، 483، 484، 486، 488، 497، 499، 500، 507، 541، 547، 548، 550، 553 ـ 555، 557، 559 ـ 574، 592، 600، 607، 609، 622، 623، 626، 628، 638، 642، 643، 645،

656، 674، 680، 687، 689، 690،
705، 707، 708، 711، 713.
زويلة الأباضية: 227، 548.
زويلة السودان: 486، 642.
الزيغن: 500.
زيلان: 685، 690.
زيلع: 514، 644، 647.
زيلة (زيلان): 363، 364، 482، 486،
551.
زيولة: 18.

- س -

س. باب: 566، 567.
الساحل التنزاني: 671.
ساحل تونس: 286، 406.
الساحل الجزائري: 315.
الساحل الجنوبي للمتوسط: 166.
الساحل السنغالي: 549.
الساحل الشرقي لأفريقيا: 671.
الساحل الشرقي لبحيرة تشاد: 133.
الساحل الشرقي للمغرب: 622.
الساحل الطرابلسي: 80، 216، 225،
286، 296، 307، 408، 412، 563،
680.
الساحل الليبي: 10، 103، 149، 156،
276، 333، 342، 547، 713.
ساحل المتوسط: 144، 481، 715.
الساحل الموريتاني: 587.
سامراء: 677.
ساملا: 556.
سبته: 170، 292، 317، 523، 628.
السبخة: 306.
سبها: 251، 258، 259، 276، 375،
449، 452، 457، 484، 562، 566،
567، 570، 574، 639، 692.
سبيطلة: 94، 103، 145.
ستيح: 457.
سجدن: 464.
سجندين: 130، 131، 135، 138، 363،
548، 550، 551، 568، 574، 606،
641، 685، 680.
سجلماسة: 97، 125، 168، 178، 195،
210، 211، 215، 227، 229 ـ 231،
233، 241، 242، 252، 253، 256،
258، 264، 265، 305، 306، 318،
322، 324، 342، 348، 353، 415،
422، 423، 431، 433، 436، 467،
468، 473، 484، 523، 524، 528،
530، 531، 532، 536، 542، 543،
546، 556، 563، 571، 574، 588،
589، 590، 593، 594، 596، 598،
600، 606، 607، 609، 611، 620،
623، 627، 628، 646، 648، 649،
653، 655، 664، 708، 709، 712.
سراقوسة: 326.
سدويكش: 662.
سرت: 105، 117، 122، 139، 156،
174، 192، 195، 197، 198، 201،
202، 212، 214، 221، 230، 234 ـ
236، 240، 241، 245، 259، 260،
279، 305، 307، 308، 310 ـ 313،
316، 318، 342، 347، 355، 358،

359، 368، 383، 393، 400 ـ 406، 441، 443، 445، 446، 449، 450، 475، 476، 481، 497، 521، 557، 559، 563، 573، 585، 592، 594، 599، 624، 626، 629، 607.
سردليس: 472، 484، 489، 570، 571، 625.
سردينيا: 317، 577.
سرير تبيستي: 18، 19.
سغاوة: 464.
سقبانارية: 153، 340.
سلا: 523.
سلكاية: 556.
سلو. بان: 556.
سلوق: 520.
سليمة: 518.
ستارم: 326.
سنترية: 131، 142، 208، 259، 295، 305، 311، 332، 335، 379، 394، 443، 451، 478، 500، 503، 504، 506، 507، 517، 519، 520، 553، 558، 560، 626.
السنغال: 466، 528، 534، 543، 550، 636، 639، 644، 647، 681، 686.
السنغال الأسفل: 528.
السنغال الأعلى: 526، 589.
السنغاي: 592، 640.
سهل الجفارة: 139، 192.
سواحل أفريقيا، الساحل الأفريقي: 292، 331، 514، 610.
سواحل المتوسط الجنوبية: 285.
سواكن: 644.
السودان (بلاد السودان): 20، 24، 33، 77، 81، 105، 111، 119، 120، 125، 126، 131، 133، 134، 140، 143، 171، 180، 187، 193، 195، 196، 198، 210، 211، 221، 227، 232، 233، 251، 263، 305، 306، 310، 312، 315، 316، 318، 321، 323، 325، 347، 367، 369، 372، 393، 398، 408، 423، 433، 436، 440، 442، 454، 460، 461، 463، 468، 472، 473، 481، 482، 485، 487، 501، 503، 506، 508، 513، 523، 524، 528، 530، 532، 536، 541، 544، 546، 548، 549، 567 ـ 569، 571، 574، 578، 585، 588، 590 ـ 592، 595، 596، 599، 601، 602، 605، 606، 608، 612، 614، 615، 617، 618، 623، 627، 628، 629، 635 ـ 635، 637، 639، 641، 643، 645، 646، 649، 651، 658، 659، 662، 663، 665 ـ 667، 670، 671، 673، 676، 677، 686، 688، 700، 711، 714.
السودان الأطلسي: 603.
السودان الأوسط: 234.
السودان الشرقي: 443.
السودان الغربي: 233، 443، 497، 506، 527، 697.
السودان النيجري: 496.

سوريا: 31، 32، 34، 60، 61، 79، 97، 98، 146، 149، 152، 173، 208، 225، 229، 235، 243، 270، 271، 330 _ 332، 389، 543، 603، 623، 631، 635، 644.

السوس: 150، 187، 188، 253، 254، 351، 421، 513، 585، 627، 646.

السوس الأقصى: 169، 256، 603، 644، 681.

سوسة: 317، 397.

سوف: 420، 483.

السوق: 372.

السوق الليبي: 483.

سوكنة: 18، 117، 118، 143، 228، 276، 365، 443، 447، 449، 456، 553، 562، 697، 698.

سونكية: 529.

السويقة: 346.

سويقة ابن مشكود: 346، 347، 475، 560، 599.

سيبيريا: 650.

سيدي عقبة: 150.

سيراكوزا: 589.

سيرو: 556.

سيكافنيريا: 340.

سيلا: 472، 528، 675.

سيناون: 434، 522.

سيوة: 77، 131، 142، 208، 259، 295، 305، 311، 332، 333، 379، 380، 394، 397، 417، 441، 443، 478، 503، 506، 517، 553، 555، 558، 673.

ـ ش ـ

شاروس شروس: 239، 407، 410، 411، 412، 426، 522.

الشاطىء التونسي: 643.

الشاطىء الشرقي للنيل: 260.

الشاطىء الطرابلسي: 219، 224، 706.

الشاطىء الليبي: 322.

شاطىء المتوسط: 577، 632.

الشاطىء المراكشي: 581.

الشاطىء المصري الشرقي: 631.

الشاطىء الموريتاني: 581، 639.

شالبيز: 330.

شامة: 314، 464، 465، 492، 498، 495، 573، 625.

الشاهبمان: 117.

شبرو: 465، 505، 506، 508، 509، 510.

شبه الجزيرة الأيبيرية: 351.

شرق أفريقيا: 100، 180، 244، 657، 659.

الشرق الأوسط: 86.

شرق بورنو: 637.

شرق ت. نرو: 541.

شرق الجزائر: 14.

شرق الجزيرة العربية: 72.

شرق دارفور: 361، 463.

شرق طبرق: 379.

شرق طرابلس: 224.

شرق طلميثة: 278.
شرق غانا: 549.
شرق فزان: 199.
شرق الكفرة: 500.
شرق النيل: 273، 298.
شطة: 631.
الشمال الأفريقي: 13، 14، 19، 20، 21، 24، 51، 68، 97، 116، 153، 157، 163، 168، 169، 171، 174، 177 _ 179، 183، 187، 190، 191، 194، 195، 210، 214، 217، 218، 227، 242، 290، 292، 298، 303، 302، 316، 320، 321، 323، 326، 329، 344، 349، 371، 372، 431، 435، 436، 511، 513، 522، 527، 529، 540، 575، 580، 581، 584، 590، 615، 637، 638، 652، 666، 674، 675، 681، 686، 705، 708، 711، 712.
شمال أفريقيا الشمالية: 662.
شمال بحر الغزال: 142.
شمال براك: 566.
شمال برقة: 78، 313، 395.
شمال بلما: 136.
شمال بورنو: 211.
شمال تاسيلي: 711.
شمال تونس: 146، 212، 213، 216، 433، 565، 705.
شمال الجزائر: 24، 511.
شمال الجزيرة العربية: 453.
شمال دارفور: 463.
شمال رملة: 520، 558.
شمال سجدين: 137.
شمال شرق كومبي: 126.
شمال طرابلس: 425.
شمال غات: 484، 625.
شمال غرب جرمة: 485.
شمال غرب ليبيا: 17.
الشمال الغربي لورقلة: 553.
شمال فارس: 117.
شمال فزان: 488، 536، 609.
شمال كانم: 368.
شمال مرزق: 689.
شمال المغرب: 325.
شمال وداي: 361.
شنقيط: 114، 449.
شنمة (قصر أم عيسى): 552.
الشواطىء المسيحية: 303.
الشوشان الفزاني: 664.
شويرف: 566.

– ص –

صبراتة: 428، 579.
صبرا: 43، 79، 81، 83، 84، 85، 88، 156، 190، 192، 195، 599.
صبره: 592.
صبرو: 478، 499، 502، 503، 505، 506، 508، 509، 553، 656.
صحراء الأطلسي: 644، 675، 698.
صحراء برقة: 46، 363، 368، 370، 371، 500، 692.
صحراء برنيق: 40.

صحراء تبديت: 556.
الصحراء التونسية: 316.
الصحراء الجزائرية: 316.
الصحراء الجنوبية أو جنوب الصحراء: 530، 610، 641، 658.
صحراء الزاب: 349.
صحراء سرت: 83، 139، 147، 153، 166، 215، 221، 228، 280، 318، 321، 322، 368، 370، 388، 499، 706.
الصحراء السرتية: 583.
صحراء شمال برقة: 420.
صحراء طرابلس: 504.
الصحراء الغربية: 18، 33، 219، 253، 254، 297، 317، 324، 526، 548، 550، 582.
الصحراء الكبرى: 487.
الصحراء الفرنسية: 499.
الصحراء الليبية: 10، 11، 12، 17، 18، 19، 21، 23، 24، 26، 33، 38، 44، 76، 89، 95، 103، 110، 114، 115، 118، 122، 140، 142، 149، 183، 205، 218، 220، 240، 250، 252، 254، 276، 280، 294، 303، 304، 306، 311، 316، 317، 320، 322، 330، 335، 339، 344، 345، 346، 361، 363، 365، 366، 369، 370، 371، 374، 417، 456، 467، 470، 473، 483، 486، 499، 537، 551، 552، 577، 589، 593، 600، 623، 625، 626، 628، 630، 631، 637، 641، 643، 645، 646، 653، 656، 661، 664، 670، 689، 690، 691، 701 ـ 703، 708، 709 ـ 715.
الصحراء الليبية الشرقية: 104، 370، 499.
صحراء متلات: 556.
صحراء من مريكا أو مرماريكا: 49، 74، 81، 151، 320، 380.
الصحراء الموريتانية: 254، 550.
صحراء نيسر: 620.
الصحراء الوسطى: 18، 253، 265، 317، 526.
الصعيد: 65، 90، 208، 261، 270، 272، 273، 277، 279، 280، 294، 366، 516، 572.
الصعيد الشرقي: 275.
صفاقس: 216، 292، 397، 521، 522.
صفين: 98.
صقلية: 12، 157، 159، 217، 231، 233، 236، 243، 283، 287 ـ 289، 296، 317، 359، 388، 452، 476.
صنعاء: 453.
الصنيمات: 105.
الصومال: 422.
الصين: 86.

ـ ض ـ

الضفة الشمالية الشرقية لبحيرة تشاد: 350.

ـ ط ـ

طبرق: 320، 380.

طبرقة: 472، 565.
طرة: 342.
طرابلس الغرب: 9، 14، 24، 40 ـ 43، 49، 60، 67، 73 ـ 81، 83 ـ 85، 87، 88، 93، 94، 103، 110، 117، 139، 142، 147، 156، 161، 162، 163، 166، 168، 171، 174، 182، 183، 188، 190، 192، 185، 195، 197 ـ 203، 205، 209، 212 ـ 214، 216 ـ 218، 222 ـ 228، 230، 233، 236 ـ 250، 258، 259، 263، 268، 275، 276، 278 ـ 289، 291، 294، 296، 297، 305، 308، 313، 315، 317، 318، 320، 328 ـ 331، 333، 335، 338، 340، 342، 343، 344، 347، 355، 356، 358 ـ 361، 371، 375، 376، 379، 380، 385، 387، 388، 390، 392، 396، 400، 402، 404، 406 ـ 408، 410 ـ 412، 414، 417، 423، 433، 433، 440، 446، 449، 452، 461، 475، 476، 484، 486، 488، 490، 497، 500، 506، 510، 521، 522، 539، 547، 554، 561، 564، 565، 566، 572، 574، 578، 579، 592، 594، 599، 600، 622 ـ 624، 628، 630، 643، 665، 668، 684، 686، 689، 692 ـ 698، 700، 705 ـ 707، 709، 711، 713.
الطرف الأقصى لقزان الغربي: 218، 256.
الطرف الشرقي لرملة زلاف: 566.
الطرف الغربي للسودان: 645.
الطرق الليبية: 24، 25، 383.
الطرون: 492.
الطريق الأباضي: 221.
الطريق الأعظم: 108.
طلطيلة: 326.
طلميثة: 592.
طنجة: 150، 163، 169، 170، 187 ـ 193، 291، 523، 586، 707.

ـ ع ـ

العاصمة التونسية: 630.
العامرية: 321.
عدن: 667.
العراق: 60، 61، 74، 97، 152، 173، 174، 177، 186، 225، 228، 229، 260، 271، 321، 372، 657.
عراق المغرب: 425.
العرق: 434، 441.
عرق بلما: 143.
العرق الشرقي: 18، 490.
عسقلان: 101.
عسير: 92.
العقبة الغربية: 392.
العقبة الكبيرة: 392.
عكا: 317.
العلاقي: 515.
عمان: 61، 174، 177، 180، 271.
عنابة: 275، 340، 356.
العوينات: 259، 271، 472، 481، 484، 489، 501، 502، 508، 541، 547،

553، 555، 570، 571، 625.
عيذاب: 590، 594، 644، 647.
عيذب: 515، 516، 517.
عين صالح: 114، 413، 566، 598، 646.
عين بو منصر: 380.
عين الفرس: 27، 104.
عين قيس: 556.

- غ -

غ. ست: 524.
غات: 18، 26، 134، 137، 228، 256، 258، 314، 315، 316، 372، 375، 376، 409، 413، 417، 437، 448، 484، 481، 484، 487 _ 491، 497، 495، 498، 499، 512، 537، 539، 544، 547، 553، 565، 570 _ 573، 597، 598، 600، 626، 629، 630، 634، 639، 643، 647، 656، 672، 678، 686، 699، 700، 713.
غات الأقصر: 570.
غات الربسة: 490.
غامة: 496.
غانا: 126، 127، 141، 142، 211، 215، 252، 253، 259، 263، 264، 306، 338، 366، 433، 466، 470، 472، 473، 507، 513، 518، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 537، 534، 537، 538، 539، 540، 541، 543، 547، 554، 571، 572، 573، 574، 589، 590، 603، 607، 609، 611، 612، 614، 615، 618، 625، 627، 628، 629، 639، 645، 646، 647، 649، 651، 652، 653، 655، 674، 675، 681.
غدامس: 18، 20، 27، 102 _ 105، 108، 134، 139 _ 142، 195، 212، 223، 228، 239، 250، 252، 253، 262 _ 264، 306، 314، 315، 316، 334، 345، 355، 356، 365، 371، 372، 375، 376، 408، 409، 413، 419، 433 _ 440، 443، 448، 449، 461، 458، 481، 487، 489 _ 492، 495، 497، 499، 522، 529، 532، 534، 535، 539، 547، 553، 555، 566 _ 569، 572، 573، 579، 580، 592، 597، 598، 600، 616، 625، 626، 628، 629، 634، 638، 639، 643، 645، 647، 653، 655، 656، 669، 697، 699، 700، 706، 708، 711، 712، 714.
غدير شناوت: 556.
الغرب الإسلامي: 637.
الغرب الأفريقي: 25، 393، 589، 649.
غرب أوباري: 119، 257، 643.
غرب برقة: 75، 395.
غرب تنزوفت: 488.
غرب تينبكتو: 323.
غرب جاو: 214.
الغرب الجزائري: 662.
غرب سرت: 158، 219، 400.
غرب طرابلس: 237، 472.
غرب فزان: 77، 599.

غـرب الـنـيـل: 153، 248، 275، 294،
298، 617.
غرب هون: 449.
غرداية: 523.
الغرفة/ الغريفة: 253.
غرق: 519.
غرناطة: 317، 326، 593، 603.
غريان: 138، 565.
غيات: 556.
غيارو: 528، 529، 537، 608، 618، 647.

ـ ف ـ

الفار: 177.
فـاس: 198، 210، 231، 233، 241،
242، 253، 276، 278، 283، 325،
415.
الفجيج: 143.
فارس ـ إيران: 32، 60، 61، 86، 174.
فـاس: 421، 431، 432، 523، 537،
535، 540، 546، 547، 574، 591،
596، 671، 672، 675، 680.
الفاشر: 548.
الفرات: 98.
الفرافرة: 501، 508، 517، 519، 624.
فردان: 667.
فرما: 631.
فرنسا: 635، 637، 697، 701، 702.
فـزان: 17، 18، 20، 23، 26، 76، 80،
97، 100، 102 ـ 107، 109، 113،
115، 119، 120، 122، 123 ـ 125،
128 ـ 131، 134، 136، 137، 140
ـ 142، 146، 150، 155، 161،
168، 198، 208، 220، 222، 240،
251، 256 ـ 259، 262، 276، 280،
284، 314، 333، 346، 365، 366،
368، 370، 371، 376، 408، 421،
441، 443، 446، 448، 454، 455،
457، 458، 462، 467، 470، 472،
474، 475، 483، 484، 492، 495،
496، 498، 501، 510، 513، 537،
539، 541، 543، 547 ـ 549 ـ
552، 563، 567، 570، 571، 573،
574، 575، 582، 584، 599، 607،
609، 610، 617، 623، 629، 634،
637، 643، 658، 668، 680، 684،
686، 687، 688، 689، 691، 697 ـ
699، 701، 702، 705، 712، 713.
فزان الشمالي: 276.
فزان الصحراوية: 250.
فزان الهوارية: 333.
الـفـسـطـاط: 32، 68، 87، 106، 149،
230، 235، 259، 271، 320، 383،
396، 558، 559.
فسطو (فساطو): 239.
الـفـقـهـا: 77، 118، 140، 441، 443،
454، 456، 457، 459، 560، 571.
فلاندر: 635.
فلسطين: 32، 34، 61، 85، 101، 243،
331.
الفويت: 489.
فيد: 453.
فيدلا: 556.

فيله: 515.
الفيوم: 32، 234، 278، 486، 519، 632.
فيينا: 658.

- ق -

قابس: 158، 166، 190 ـ 192، 194، 200، 238، 239، 246، 249، 276، 281، 284، 315، 317، 318، 330، 335، 340، 338، 339، 340، 345، 346، 348، 355، 356، 358، 387، 404، 406، 407، 409، 422، 423، 424، 431، 521، 522، 538، 572، 573، 595.
القاهرة: 142، 235، 247 ـ 249، 267، 320، 322، 332، 362، 370، 372، 440، 443، 472، 478، 500، 514، 515، 518، 519، 534، 535، 553، 558، 590، 595، 612، 636، 653، 668 ـ 670، 686، 697.
قباب : 124.
قبرعون: 492، 512.
قبر المالي علي: 363.
قبور بني خطاب: 458.
القبور الجرمنتية: 134.
قرى برقة: 163.
قرزة: 561.
قسطنطينة: 710.
القصبات: 610.
القصبة: 135، 136، 138، 549، 552.
القصر الأفريقي: 250.
القصر الأقصى: 134.
قصر أقم كرو: 130.
قصر أولاد عمي: 130.
قصر خاوار: 136.
قصر ابن زيدان: 557.
قصر أم عيسى: 552، 626.
قصر البنات: 354.
قصر تجي فروما: 130.
قصر الجبار: 123.
قصر سرندب: 130.
قصر عيسى: 626.
القصر الفاطمي (قصر الخليفة الفاطمي): 247، 248، 284.
قصر كمبا: 130.
قصر لروكو: 123.
قصر مالي: 534.
القصر الملكي (بغانا): 126.
قصر المنستير: 85.
قصر ميمون: 561.
القصور التونسية: 124.
قصور حسان: 158، 166، 400، 521.
القصور العربية: 592.
قصور فزان: 123، 124، 125، 129، 130، 131، 135.
قصور كوار: 107، 134، 135، 142، 547.
القصير: 516.
قرطاج: 67، 642.
قرطاجنة: 73، 74، 88، 91، 108، 154، 157، 159، 160، 166، 404، 583.
قرطبة: 246، 249، 323، 327، 404، 637.

قسطنطينة: 14، 275، 286، 303، 329، 337، 389، 423، 523، 662، 698.
قسطيلية: 108، 140، 212، 263، 282، 305، 330، 387.
القطرون: 30، 35، 77، 122، 123، 129، 132، 140، 143، 313، 363، 364، 374، 458، 463، 482، 551، 565، 676، 685، 688، 690.
قفصة: 93، 105، 108، 109، 139، 159، 210، 212، 330، 334، 340، 387، 401، 422، 431، 433، 522.
قلاع فزان: 106.
قلام: 647.
قلزم: 514.
القلعة (في المغرب الأوسط): 243، 264.
طلميثة: 623.
قلعة أبي الطويل: 523.
قلعة بني حماد: 249، 283، 329.
قلعة بني زمور: 239.
قلعة خاوار: 107، 136.
قلعة كوار: 143.
القلية: 532.
القليعة: 523.
قمنورية: 592.
قمونية: 108.
قوص: 321، 389، 516، 517، 590، 594.
القولية: 529.
القيروان: 68، 74، 77، 103، 105، 108، 145، 150، 151، 153، 154، 155، 156، 158، 162، 179، 186، 188، 190، 192، 193، 195، 197، 198، 200، 201، 202، 203، 210، 214، 215، 216، 218، 231، 232، 246، 259، 260، 263، 280 ـ 282، 295، 313، 318، 319، 324، 340، 356، 385، 386، 388، 408، 416، 450، 451، 462، 468، 470، 521، 522، 539، 567، 572، 594، 600، 601، 638، 642، 647.
القيروان الحفصية: 423.

ـ ك ـ

كاروان: 595.
الكاف: 153، 340.
كاكدم (كوكدم، قوكدم): 255.
كاكره: 463.
الكوفة: 212، 264.
كانم: 23، 27، 123، 126، 127، 133، 145، 240، 259، 305، 315، 316، 350، 352، 360، 361، 362، 363، 365، 366، 369، 376، 394، 399، 436، 447، 449، 455، 463، 467، 468، 483، 482، 486، 527، 539، 541، 548، 551 ـ 553، 569، 572، 618، 618، 630، 656، 659، 661، 690، 691، 708، 712، 713، 714.
كانو: 253، 667، 685.
كانياجا: 681.
كاهل ليونة: 36.
كاواو: 104.
كبية: 518.

كثبان عرق شيش: 114.

كردفان: 613.

كرزة: 417، 561، 573، 574.

كركر: 614.

كريت: 317.

كستينا: 669.

الكسيب: 531.

الكفرة: 19، 26، 115، 141، 208، 248، 259، 275، 363، 367، 370، 371، 373، 375، 376، 379، 396، 443، 446، 463، 465، 471، 478، 499، 500، 501، 502، 505، 510، 541، 547، 549، 553، 555، 558، 561، 563، 568، 571، 574، 575، 592، 606، 607، 610، 612، 617، 656، 699، 700، 701، 714، 715.

كلابري: 231.

كلالة: 552، 626.

كلوا: 671.

كمبي صالح: 263.

كـوار: 76، 77، 78، 102 ـ 104، 107، 111، 112، 114، 117، 122، 125، 128، 130، 132، 133، 134، 135ـ 137، 140، 141، 142، 146، 155، 212، 252، 259، 280، 310، 361، 363، 403، 442، 451، 459، 460، 461، 462، 464، 467، 471، 481، 478، 482، 488، 505، 509، 513، 521، 529، 543، 547، 548، 550، 551، 552، 555، 568، 569، 575، 584، 585، 600، 608، 610، 626، 628، 631، 637، 639، 640، 641، 669، 680، 685، 689، 690، 705، 706.

كوار الشمالية: 363.

الكوتوكو: 134، 366.

كوغا: 467، 473، 543، 628.

الـكـوفـة: 57، 68، 97، 98، 99، 147، 173، 176، 180، 196، 222، 462.

كوكا: 367، 368، 683، 686.

كـوكـو: 131، 141، 142، 215، 232، 263، 310، 314، 315، 338، 363، 365، 366، 438، 440، 442، 446، 464، 465، 466، 467، 471، 472، 473، 496، 497، 514، 518، 527، 529، 530، 532، 537، 534، 537، 538، 540، 541، 542، 543، 544، 547، 549، 550، 591، 610، 614، 620، 623، 628، 631، 651، 669.

كوكيا: 366، 369.

كومبي صالح: 526.

كيس: 647.

ـ ل ـ

لارجو: 569.

لالوت (نالوت): 239.

لبتس ماجنات لبدة: .

لـبـدة: 81، 209، 219، 225، 278، 411، 521، 564، 592، 599.

اللبة: 441.

لجوات: 523.

لك أو مرسى لك: 379، 380، 384، 520.
لبنان: 385.
لمتونة: 438، 439، 443.
لـمـلـم: 528، 529، 537، 534، 614، 666، 674.
لواتة: 69، 73، 103.
اللوبي: 647.
لوبية: 49، 58، 59.
لوك: 520.
لـيـبـيـا: 9، 10، 11، 12، 13، 22، 23، 35، 40، 81، 97، 133، 165، 166، 168، 177، 178، 181، 185، 191، 199، 205، 216، 218، 221، 222، 231، 236، 248، 252، 254، 261، 264، 278، 303، 332، 333، 345، 348، 358، 360، 363، 368، 376، 379، 389، 390، 420، 433، 454، 461، 481، 488، 492، 511، 519، 526، 544، 555، 556، 572، 574، 592، 598، 606 ـ 608، 613، 623، 624، 627، 628، 632، 634، 635، 636، 645 ـ 647، 655 ـ 657، 670، 686، 707، 708، 711، 712، 714، 715.
ليبيا الشرقية: 146.
ليونة: 498.

ـ م ـ

ماء الفرس: 104، 107، 135، 137، 138.
المارة: 140.
مالطا: 284.
مالي: 26، 125، 127، 366، 372، 373، 422، 438، 473، 487، 527، 528، 530، 532، 537، 534، 535، 537، 538، 539، 540، 543، 590، 595، 598، 610، 611، 612، 615، 616، 625، 627، 631، 635، 635، 636، 641، 648، 651، 653، 654، 655، 665، 666، 670، 679، 681، 686.
ماندي: 534.
مانو (مارك): 214.
مجابة: 492.
المحيط الأطلسي: 11، 17، 24، 107، 137، 150، 169، 190، 210، 276، 287، 386، 488، 543، 603، 658، 659، 708.
المحيط الهندي: 473، 658.
المخيل: 557.
المداخل الأفريقية: 140.
مداما: 137.
مدروسة: 143.
مدريد: 635.
مدن أفريقيا: 340، 349.
المدن التونسية: 356.
مدن الجزائر: 236.
المدن المقدسة: 271.
المدينة الحمراء: 125.
المدينة المنورة: 34، 54، 55، 83، 97، 88، 92، 99، 101، 152، 270، 279، 449.
مدية: 236.
مرادة: 459، 472.

مراكش: 257، 276، 292، 325 ـ 327، 338، 339، 351، 356، 374، 523، 636، 666، 714.
مراقيا: 153.
مراوة: 541.
المرج: 15، 40، 77، 208، 360، 391، 713.
مرزق: 127، 129، 251، 362، 365، 374، 375، 376، 458، 484، 565، 568 ـ 570، 606، 617، 639، 641، 658، 668، 678، 680، 684، 686، 688، 692، 697، 698، 699، 701، 714.
مرسيه: 648.
م. ر. نـدة، م. ر. نـدا: 470، 471، 472، 478، 505، 547، 510، 541.
مرنديت: 541.
مرو: 541.
مزاب: 180، 282، 425، 535، 600.
مزاب الجزائرية: 181، 483.
مزاتة: 81، 108، 140، 221، 222، 600.
مزدة: 564، 565، 566.
المسالك: 643.
مسالك ستفات: 18، 119.
مساكن تغازة: 372.
المسجد الأبيض: 458.
المسجد البديع: 397.
مسجد البيض: 544.
مسجد علي عمار: 397.
المسجد الكبير: 452.
مسكونة: 512.
مسوفة: 438، 439، 443، 625، 640، 655، 664.
المشرق: 121، 122، 166، 173، 185، 188، 190، 210، 219، 230، 286، 292، 302، 322.
المشرق الإسلامي: 644.
مصر: 24، 26، 32 ـ 41، 43، 47، 49 ـ 53، 59، 61، 64 ـ 67، 75 ـ 80، 87 ـ 91، 92، 94، 96، 98، 100 ـ 104، 110، 126، 127، 141، 145 ـ 149، 151، 158، 160، 167، 171، 173، 186 ـ 188، 190، 201، 202، 204، 207، 208، 213، 216، 222، 223، 226، 230 ـ 234، 236، 240، 241، 243، 245، 248، 250، 258 ـ 260، 264، 267، 269 ـ 272، 287، 294، 295، 296، 298، 300، 306، 308، 312، 316 ـ 319، 330 ـ 334، 352، 359، 365، 366، 368، 370، 380 ـ 383، 385، 386، 388 ـ 391، 393، 396، 399، 403، 406، 408، 409، 412، 420، 422، 436، 441، 443، 444، 447 ـ 450، 456، 459، 460، 470، 472، 473، 481، 484، 487 ـ 491، 498، 501، 503، 507، 513، 514، 516، 519، 526، 537، 535، 539، 541، 543، 545، 547، 552، 554، 556، 563، 568، 571، 572، 575، 580، 583، 585، 586، 590، 594، 595، 598، 602، 603، 604، 606، 609، 613،

622 ـ 626، 629 ـ 631، 635، 634، 637، 638، 641، 642، 644، 645، 649، 655 ـ 657، 660، 661، 667، 669، 677، 686، 686، 689، 691، 692، 698، 699، 701، 703، 707، 710، 714.
مصر الأيوبية: 344، 402.
مصر السفلى: 65، 90، 272.
مصر الطولونية: 213، 226.
مصر العليا: 272، 613، 645، 647.
مصر الغربية: 14.
مصر الفاطمية: 233، 229، 430، 603، 645.
مصر الهمداني: 472.
مصراتة: 81، 139، 209، 224، 278، 347، 393، 401، 402، 560، 563، 567، 592، 599، 635، 692.
مقتل المقرون: 7.
المغرب: 12، 13، 47، 50، 75، 149، 150، 151، 153، 155، 164، 165، 167، 169، 178، 180، 185، 188، 199، 210، 229، 236، 241، 242، 253، 256، 257، 274، 276، 286، 287، 303، 301، 317، 326، 331، 332، 333، 340، 337، 342، 350، 351، 357، 360، 365، 366، 385، 386، 387، 391، 394، 396، 397، 403، 416، 421، 432، 467، 468، 469، 473، 483، 507، 515، 523، 528، 535، 550، 578، 579، 587، 594، 596، 602، 617، 618، 620، 622، 623، 624، 626، 628، 631، 638، 645، 646، 662، 666، 169، 692، 699، 707.
المغرب الأقصى: 185، 242 ـ 244، 276، 290، 296، 323، 334، 340، 360، 481، 506، 523، 585، 602، 620، 626، 627، 628، 630، 645، 677.
المغرب الأوسط: 243، 275، 342، 366.
مغمداس أو مغمداش: 105، 108، 113، 116، 117، 139، 195، 201، 400، 521، 706.
المغرب الأوسط: 536، 550.
مفروس ومفرس وما فرس: 137، 138.
مقاطعات الصعيد: 298.
مقديشو: 529.
مقر القائمقامية التركية: 484.
مكناس: 544، 591.
مكناسة: 212.
مكة: 54، 84، 92، 99، 143، 151، 165، 173، 220، 229، 235، 260، 270، 279، 290، 319، 352، 408، 425، 449، 461، 527، 532، 595، 608، 668، 669.
ملاحظات أوليل: 523، 525.
ملاحات تغازة: 372، 506، 530، 531، 532، 573، 596، 616، 639، 640، 651، 655، 664.
ملال: 537، 534، 541، 592.
ملسانة: 541.
ملوية: 210.

مليانة: 236، 329، 349.
مملكة باجة الحمادية: 287.
مملكة جوا: 369، 370، 371.
المملكة الزيرية القديمة: 352.
مملكة السنغاي: 127.
مملكة غانا: 126.
مملكة مالي: 214.
مناجم الذهب: 265.
المناطق الأباضية: 541، 542، 567.
المناطق الرومانية: 434.
المناطق الليبية: 638، 709.
منان: 464، 465.
مندرا: 492.
المنستير: 85، 216، 642.
المنشة: 517.
منطقة درعة: 671، 698.
منطقة الدواودة: 564.
المنطقة الطولونية: 209.
منطقة القصور: 130.
منغوليا: 351.
المهدية: 231، 232، 234، 249، 282، 284، 292، 289، 295، 316، 318، 321، 335، 340، 355، 472، 522.
الموانئ الإسلامية: 166.
موانئ برقة: 623.
الموانئ المصرية: 142.
مورسي: 631، 648.
موريتانيا: 324، 449، 472، 542، 549.
الموصل: 406.
مير: 466.
ميناء برنيق: 394، 395، 520، 521، 557.
ميناء الزويتية الصغير: 397.
ميناء السلامة: 684.
ميناء طلميثة: 360، 395، 399.
ميناء عدن: 321، 514، 516، 590.
ميناء عيذاب: 141، 321.

- ن -

نالوت: 434، 522.
نتال: 530.
نجازار قمو: 369.
نجامينا: 362.
نجد: 92، 270، 406.
نجران: 62.
نجيمي: 350، 366، 367، 370، 464.
النخلة: 211.
النرويج: 352.
نستات: 556.
نفزاوة: 159، 193، 194، 197، 212، 214، 228، 246، 330، 340، 341، 342، 435، 436، 522، 526، 608.
نفزاوة التونسية: 215.
نفطة: 297، 422.
نفوسة: 428، 522.
نقارة: 549.
النمسا: 668.
نهر السنغال: 211، 524، 528، 639.
نهر النيجر: 214، 252، 263، 363، 366، 369، 413، 467، 496، 512، 526، 540، 542، 544، 573، 603، 675.
النوبة: 33، 35، 57، 58، 100، 112،

117، 142، 171، 193، 261، 331، 368، 543، 553، 569، 581، 689.
نوميديا: 583، 692.
النيجر: 77، 114، 487، 489، 491، 498، 528، 530، 531، 537، 534، 535، 541، 545، 564، 568، 579، 595، 596، 620، 637، 644، 647، 648، 681، 686.
النيجر الأوسط: 211.
نيجيريا: 423، 669.
النيل: 33، 34، 207، 260، 269، 274، 275، 277، 279، 321، 389، 443، 451، 463، 500، 510، 514، 515، 517، 519، 545، 558، 563، 568، 594، 618، 631، 635، 638.
نيل الصحراء: 252.
نيورو: 681.

ـ هـ ـ

هضاب مساك ملت: 18.
الهضاب الموريتانية: 17.
هضبة الجلف الكبير: 541، 617.
الهقار: 470، 481، 489، 498، 495، 496، 497، 498، 499، 537، 534، 537، 539، 571، 572، 573، 574، 580، 595، 596، 598، 610، 625، 645، 655، 699.
هكار: 491، 537.
همذان: 55، 56.
الهند: 321، 517، 521، 590.
هوارة: 219، 450.
هون: 18، 27، 143، 259، 276، 310، 365، 447 ـ 450، 452، 456، 562، 573.

ـ و ـ

واحات الجريد: 330، 537.
الواح الخارج: 503.
الواحات: 443، 451، 465، 471، 501، 502، 504، 508، 516، 541، 543، 553، 558، 563، 632.
واحات توات: 529، 532.
واحات الجريد التونسي: 225.
واحات الجفرة: 118، 194، 221، 505، 508.
واحات جنوب إقليم برقة: 208.
الواحات الخارجة: 208، 272، 275، 295، 503، 504، 506، 507، 508، 516، 517، 518، 519، 553.
الواحات الداخلة: 208، 272، 275، 508، 510، 517، 555، 562، 641، 643، 433، 475، 481، 500.
واحات الصحراء: 218.
واحات فزان: 77 ـ 140، 548، 577.
واحات فزان الأوسط: 487.
الواحات الليبية: 22، 80، 114، 115، 116، 199، 247، 264، 316، 317، 321، 341، 440، 447، 453، 459، 471، 555، 562، 570، 571، 574، 600، 607، 608، 617، 624، 625، 631، 655، 656، 664، 704، 709، 711، 713، 714.

الـواحـات الـمـصـريـة: 163، 257، 458، 504، 497، 507، 508، 509، 541، 619، 624، 699.
واحات نفزاوة: 355.
الواحة: 106، 454، 625.
واحة آمون: 417.
واحة الأهرير: 498.
واحة بيردوا: 370، 371.
واحة زويلة: 76، 77، 104، 122.
واحة سمنو: .
واحة صبرو: 26، 503، 504.
واحة غات: 256.
واحة الفقها: 559.
واحة الهواري: 500.
وادي الآجـال: 118، 122، 123، 124، 125، 128، 129، 130، 134، 140، 143، 227، 253، 256، 257، 258، 276، 278، 310، 313، 314، 374، 458، 484 ـ 483، 486، 490، 492، 498، 499، 513، 565، 570 ـ 572، 700، 714.
وادي برجوج: 484، 570.
وادي تانيزوفت: 484.
وادي التبو: 547.
وادي الجفرة: 129، 131.
وادي الـحـكـمـة: 19، 123، 125، 129، 130، 134، 140، 143، 481، 486، 548، 551، 690.
وادي دارفور: 142، 670.
وادي دراع: 150، 257.
وادي درعة: 592.
وادي الذهب: 587.
وادي الرمل: 226.
وادي زيز: 125.
وادي الشـاطـىء: 118، 125، 140، 251، 258، 259، 310، 360، 374، 485، 564، 565، 573.
وادي عتبة: 120، 483، 484، 485.
وادي علاقي: 647، 663.
وادي فزان الجنوبي: 18، 125، 486، 551.
وادي الكبير: 500، 501.
وادي الناموس: 208، 401، 501.
وادي قسطرات: 556.
وادي النيل: 22.
ودان: 18، 20، 27، 43، 58، 75، 78 ـ 81، 95، 104، 105، 110، 111، 114، 116 ـ 119، 122، 135، 139، 140، 143، 144، 191، 196، 198، 199، 212، 218، 219، 221، 227، 228، 250 ـ 252، 258 ـ 260، 262، 276، 278، 284، 310 ـ 312، 316، 322، 339، 344، 345، 350، 354، 355، 361، 363، 365، 368، 381، 400، 401، 417، 441، 443، 445، 446 ـ 449، 450، 461، 472 ـ 481، 486، 492، 499، 501، 551، 558 ـ 563، 571، 573، 584، 600، 623، 626، 660، 669، 691، 692، 705، 707، 708، 711، 713.
وداي: 363، 466، 467، 471، 509،

510، 555، 606، 608، 613، 697،
698، 699، 708.
وديان فزان: 123.
ورام: 211.
ورجلان: 142، 373.
ورفلة بو نجيم: 224.
ورقلة: 24، 97، 142، 183، 211، 215،
223، 228، 234، 253، 254، 263،
264، 306، 308، 315، 349، 356،
373، 401، 403، 411، 433، 435،
437، 481، 478، 487، 522، 523،
529، 532 ـ 535، 537، 539، 543،
547، 552، 553، 563، 572، 573،
600، 608، 609، 617، 620، 623 ـ
626، 629، 631، 649، 655، 698،
708.
وسط أفريقيا: 9.
وسط فزان: 634.
وسط مصر: 272.
الوشكة: 562.
ولاتـة: 506، 530، 531، 532، 535،
591، 593، 595، 598، 606، 627،
630، 635، 640، 655.
ولايات مصر: 33.
ولاية طرابلس الغرب: 247.
الولاية المصرية: 401.
ونقارة: 647.
وهران: 210، 287، 345، 342.
وهله مسوسة: 397.

ـ ي ـ

اليمامة: 177.
الـيـمـن: 34، 588، 174، 177، 260،
295، 331، 361، 453، 515، 544،
663.

فهرس الكتب العربية

ـ أ ـ

آثار البلاد للقزويني: 256، 372، 416، 424، 436، 438، 453، 483، 516، 518، 524، 535، 625، 627، 628، 632، 638، 640، 646، 648.

الإحاطة في تاريخ غرناطة لابن الخطيب: 209، 326، 327، 593، 603، 644.

اختيار ملوك بني عبيد: 537.

أدب الكتابة للسولي: 47.

الاستبصار (لمؤلف مجهول): 21، 42، 79، 85، 104، 106، 107، 136، 141، 239، 255، 297، 306، 308، 315، 323، 330، 333، 345، 337، 359، 390، 399، 404، 407، 411، 422، 436، 438، 439، 443، 445، 447، 499، 503، 504، 505، 514، 522، 524، 526، 528، 529، 535، 538، 539، 589، 608، 620، 622، 625، 641، 647، 648، 656.

ألف ليلة وليلة: 593.

الأموال لابن سلام: 33، 36، 37، 46، 48، 50، 51، 52، 53، 57، 60، 69، 87، 117.

ـ ب ـ

بسط الأرض (ابن سعيد): 126، 140، 255، 278، 303، 316، 330، 359، 360، 365، 372، 380، 381، 391، 395، 399، 405، 438، 440، 443، 455، 464، 465، 474، 486، 493، 496، 515، 516، 517، 524، 528، 538، 542، 543، 544، 551، 575، 592، 606، 608، 614، 616، 618، 626، 630، 634، 635، 638، 639، 647، 648، 652، 655، 666، 675.

بلاد البربر المسلمة: 58.

البلدان (للهمذاني): 51، 55، 470.

البلدان لليعقوبي: 49، 81، 83، 119، 131، 140، 196، 199، 209، 211،

221، 222، 224، 227، 250، 251،
252، 255، 259، 260، 264، 296،
297، 298، 303، 308، 310، 320،
330، 361، 381، 382، 384، 386،
394، 396، 397، 401، 403، 421،
424، 441، 450، 461، 462،
482، 518، 516، 519، 516، 517،
541، 547، 557، 560، 568، 569،
589، 600، 609، 613، 631، 632،
638، 644، 646، 647، 648، 663،
674، 678، 689.

البيان لابن عذاري: 19، 84، 89، 91،
94، 96، 101، 104، 110، 145،
146، 154، 156، 168، 185، 186 ـ
190، 193، 194، 196 ـ 203، 209،
210، 212 ـ 215، 229 ـ 233، 236 ـ
244، 246 ـ 249، 261، 267، 268،
279، 280 ـ 282، 291، 300، 301.

ـ ت ـ

تاريخ أفريقيا (ابن خلدون): 151، 156،
168، 187، 190، 192، 194، 198،
200، 201، 204، 209، 210، 215،
218 ـ 220، 230، 291.

تاريخ البربر لابن خلدون: 41، 73، 74،
81، 84، 127، 147 ـ 149، 151،
153، 156، 163، 165، 166، 168،
170، 171، 188 ـ 190، 192، 194 ـ
197، 200، 202، 231 ـ 233، 236،
239، 241 ـ 244، 247 ـ 249، 252،
253، 267، 268، 273، 276 ـ 284،
286، 292 ـ 290، 301 ـ 304،
306، 316، 323، 324، 326 ـ 348،
352، 353، 355، 357، 358، 360،
367، 372، 373، 394، 406، 412،
413، 414، 415، 423، 434، 435،
438، 440، 446، 456، 461، 465،
470، 487، 488، 503، 506، 523،
528، 532، 534، 535، 538، 550،
595، 596، 610، 616، 653، 662،
663، 681.

تاريخ السنغال الأعلى والنيجر: 25.

تاريخ السودان (للسعدي): 440، 526،
536، 591، 640، 653، 663.

تاريخ السودان (لابن سعيد): 369.

تاريخ السودان (لمحمود كعتي): 540.

تاريخ الطبري: 40، 42، 51، 55، 76،
87 ـ 90، 93، 94، 97، 101، 103،
104، 112، 117، 165، 188، 224.

تاريخ الفتاش: 532، 536، 544، 592،
611، 653، 668، 675، 680، 681.

تاريخ أبي الفداء لأبي الفداء إسماعيل بن علي: 49، 84، 88، 89، 92، 96،
109.

تاريخ ليبيا الإسلامية (للبرغوتي): 205.

تاريخ مراكش (المؤلف أحمد باب): 536.

تاريخ النسيان (لمؤلف مجهول): 536،
666.

تاريخ اليعقوبي: 33، 35، 37، 40، 49،
51، 81، 83، 84، 89، 92، 96،
102، 104، 117، 148، 204، 222،

223، 254، 296، 361، 382، 402،
463، 466، 517، 527، 541.
التبصر بالتجارة (للجاحظ): 638.
تحفة (لأبي حامد): 143، 254، 255،
422، 438، 527، 542، 617، 625،
634، 637، 648، 649.
تذكيراتي: 536.
التقاسيم للمقدسي: 106، 119، 120،
211، 227، 259، 264، 385، 387،
398، 403، 421، 422، 470، 482،
517، 520، 523، 524، 567، 641،
667.
تقويم البلدان لأبي الفداء: 96، 131،
140، 142، 234، 262، 263، 312،
330، 384، 385، 394، 395، 422،
433، 436، 438، 440، 444، 445،
447، 448، 483، 486، 493، 506،
514، 515، 516، 517، 518، 520،
522، 524، 525، 542، 553، 557،
558، 560، 574، 592، 625، 623،
626، 635، 638، 655.
التنبيه (للمسعودي): 69، 119، 152،
187، 513، 631، 632، 650، 667.

- ج -

جرمة في عهد ازدهارها: 580.
جرمة في تاريخ الحضارة الليبية: 580.
الجزية (لأبيل): 59.
الجغرافية الفارسية (للأصطخري): 250،
264.
جغرافية فزان للدناصري: 143، 251،
446، 448، 456، 484، 489، 490،
543، 648، 699.

- ح -

حدود العالم (للأصطخري): 250، 251،
258، 259، 264، 265، 308، 380،
385، 396، 467، 468، 524، 527،
567، 589، 607، 622، 627، 642،
643، 645، 646، 649، 651، 656،
658، 677، 690.
الحوليات الطرابلسية: 26.
حوليات للإمارة الرستمية (ابن الصغير):
211.

- خ -

الخراج (لقدامة بن جعفر): 5، 25، 319،
320، 520، 521.
خريطة الإدريسي: 380، 407، 433،
441، 458، 471، 476، 510، 557،
617.
خريطة الأصطخري: 380.
خريطة بيلما: 551، 566، 569.
خريطة توزيع الملح R. Mauny: 639.
خريطة ابن حوقل: 380، 400، 433،
436، 458، 508، 520، 521.

- د -

دراسة عن الملاحات الصحراوية R.
Mauny: 639.
دراسات مغربية: 76.
الحوليات السودانية: ديوان سلاطين بورنو
(كتاب): 23، 366، 369، 370،

461، 463، 510، 549، 551، 672، 685، 690.

ـ ر ـ

رحلة ابن بطوطة: 23، 26، 125، 126، 214، 292، 314، 315، 355، 372، 392، 406، 422، 440، 466، 473، 487، 491، 496، 506، 524، 530 ـ 535، 540، 543 ـ 547، 549، 576، 574، 590، 591، 593، 595، 596، 598، 606، 610، 613، 615، 625، 627، 630، 631، 635، 635، 636، 640، 641، 650، 655، 658، 663، 665، 666، 668، 670، 671، 677، 679، 681، 686، 683، 686، 691

رحلة إلى بلاد السنوسية للحشائشي: 561، 699، 700.

رحلة ابن جبير: 317، 593.

رحلة (الورثلاني).

روض القرطاس: 287، 288، 326.

الروض المعطار: 27، 40 ـ 42، 76، 81، 84، 85، 100، 104، 106، 107، 109، 127، 131، 136، 211، 239، 255، 275، 278، 315، 335، 361، 390، 393، 399، 407، 412، 437، 438، 439، 442، 444، 445، 447، 449، 493، 499، 504، 514، 515، 516 ـ 519، 522، 524، 526، 528، 529، 538، 539، 557، 558، 561، 574، 590، 628، 632، 635، 637، 638، 647، 649، 652، 656، 681.

ـ س ـ

السلوك (للمقريزي): 332، 334، 337، 431، 515، 517، 519.

ســورة الأرض: 434، 439، 469، 508، 569، 558، 563، 571، 643.

ـ ش ـ

شرح مقامات الحريري: 606.

الشرق المسلم لأليسيف: 68.

ـ ص ـ

صــورة الأرض لابــن حــوقــل: 21، 81، 141، 142، 208، 211، 251، 252، 256 ـ 260، 263، 294، 297، 303، 306، 330، 384، 385، 397، 402، 410، 413، 414، 423 ـ 426، 431، 437، 451، 470، 483، 484، 507، 513، 515 ـ 521، 526، 529، 537، 538، 541، 560، 569 ـ 571، 590، 595، 597، 599، 607، 609، 625 ـ 624، 629 ـ 635، 638، 639، 645، 647، 667، 690.

صبح الأعشى (للقلقشندي): 262، 305، 324، 326، 337، 359، 366، 392، 394، 436، 447، 466، 516، 518، 519، 525، 528، 540، 613، 620، 635، 638.

ـ ط ـ

طبائع الحيوان (للمروزي): 618.

طبقات أفريقيا (لأبي المعرب): 92، 93، 145.

طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا: 9.

ـ ع ـ

العبر لابن خلدون: 40، 42، 43، 49، 66، 77، 89، 90، 93، 94، 96، 102، 109، 112، 147 ـ 149، 209، 233، 236، 241، 248، 261، 273، 277، 278، 280، 281، 353، 357، 362، 392، 414، 491، 616.

ـ ف ـ

الفتح العربي في ليبيا (للزاوي) 205.

فتوح أفريقيا (لابن عبد الحكم): 48، 51، 53، 67، 70، 79، 88، 92، 95، 113، 144، 160، 165، 167، 168، 170، 186، 187، 190، 192، 314، 421، 458، 507، 513، 547، 584، 586، 587، 660.

فتوح البلدان للبلاذري: 36، 37، 48، 50، 52، 55، 58، 63، 75، 88، 89، 92، 94، 100، 101، 102، 148، 149، 156، 167، 168، 381، 458، 467، 587.

فتوح مصر لابن عبد الحكم: 48، 50، 51، 421.

الفهرست لابن النديم: 590، 657.

ـ ق ـ

قاموس الفقهاء المالكيين (المؤلف أحمد بابا): 536.

القرآن الكريم: 44، 45، 96، 594، 602، 603، 646، 672، 673، 689.

ـ ك ـ

الكامل في التاريخ لابن الأثير: 40، 50، 84، 89، 92، 95، 96، 104، 107، 112، 134، 137، 147، 151، 157، 160، 162، 163، 168، 169، 171، 186، 187، 193، 192، 196، 197، 199، 218، 219، 220، 223، 224، 233، 236، 238، 239، 241، 242، 243، 244، 246، 247، 249، 268، 277، 280، 281، 282، 284، 285، 286، 327، 329.

كتاب (ابن حزم): 326.

كتاب للزهري في الجغرافية والتاريخ: 21، 297، 315، 327، 330، 388، 466، 524، 527، 529، 537، 539، 543، 592، 603، 616، 623، 631، 634، 644، 648، 650، 651، 675.

كتاب السيرة وأخبار الأمة (لأبي زكريا): 348، 349، 351، 352، 353، 354، 410، 419، 523.

كتاب العيون (لابن عذاري): 215.

كتاب (المالكي): 90، 92، 93، 102، 109، 146، 148، 150، 152، 156، 157، 159، 160، 162.

كتاب الوقائع السودانيين: 690.

ـ ل ـ

لسان العرب: 121، 399.

ـ م ـ

المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا: 10.
مدونات ميشيل السوري: .
المدونة (لمالك بن أنس): 109.
مروج الذهب (للمسعودي): 101، 119، 482، 514، 516، 517، 589، 624، 650.
المسالك للبكري: 41، 50، 51، 79، 84، 85، 106، 107، 108، 126، 142، 208، 212، 221، 227، 228، 239، 252، 255، 259، 260، 262، 265، 296، 305 ـ 312، 315، 324، 330، 340، 361، 365، 372، 380، 384، 386، 387، 397، 398، 404، 410، 411، 413 ـ 418، 420، 422، 424، 426، 431، 431، 435، 437، 442، 444، 446، 449، 450، 452، 454، 456، 457، 467، 472، 474، 484، 502، 508، 521، 522، 523، 524، 525، 526 ـ 530، 537، 536، 538، 542، 548، 549، 553، 557 ـ 563، 569، 573، 590، 592، 598، 608، 609، 614، 615، 619، 620، 625، 622، 625، 627، 629، 634، 637، 639 ـ 642، 645، 647، 649، 651 ـ 653، 655، 656، 664، 679، 687.
المعارف (لابن قتيبة): 463.
معجم الإدريسي: 550.
المعجم للبكري: 381.
معجم البلدان لياقوت الحموي: 40، 42، 49، 51، 55، 63، 79، 81، 84، 85، 91، 100، 106، 107، 112، 120، 131، 135، 227، 239، 255، 307، 380، 381، 387، 395، 417، 426، 435، 438، 444، 453، 458، 463، 464، 483، 486، 506، 514 ـ 519، 521، 522، 524، 526، 528، 537، 558، 560، 562، 573، 595، 626، 627، 631، 638، 439، 641، 644، 650، 651، 674، 690.
معجم البلدان الليبية (للزاوي): 81، 105، 158، 239، 347، 379، 380، 417، 428، 434، 439، 500، 502، 557، 562، 643.
معجم المؤلفين لكحاله: 84، 92، 174، 200، 203، 261، 276، 278، 279، 358، 382، 406، 456، 532، 613.
كتاب المغرب العربي: 12.
المغرب (ابن سعيد): 32، 42، 51، 56، 76، 81، 84، 89، 90، 94، 100، 101، 104، 140، 209، 255، 382، 383.
مقدمة ابن خلدون: 35، 40، 66، 304، 414.
المنهل العذب (للنائب الأنصاري): 85، 127، 205.
موجز في تاريخ الفتح الإسلامي (عبد الله ابن صالح): 19، 38، 94، 104،

105، 146، 150، 151، 156، 157،
167، 170.
موسوعة الإسلام: 32، 44، 45، 54،
57، 59، 61، 63، 64، 68، 69،
72، 73، 79، 84 - 87، 90 - 92،
96، 97، 99 - 101، 103، 109،
112، 152 - 154، 158 - 160، 163،
174، 175، 177 - 179، 181، 193،
194، 199، 253، 257، 272، 288،
295، 305، 306، 319، 323، 324،
326، 327، 330 - 332، 340، 338،
343، 372، 375، 382، 385، 393،
397، 420، 428، 430، 235، 444،
461، 463، 466، 487، 497، 500،
501، 523، 572، 53، 544، 545،
595، 601، 603، 604، 613، 617،
630، 648، 657، 658، 660، 661،
667، 684.

— ن —

نزهة المشتاق للإدريسي: 120، 126،
131، 135، 141، 142، 253، 255،
257، 276، 278، 279، 296، 299،
303، 308، 309، 311، 315، 317،
330، 358، 379، 389، 395، 398،
403، 405، 411، 412، 415، 422،
442، 446، 447، 449، 457، 461،
464، 465، 467، 469، 471، 475،
476 - 478، 486، 491، 493، 496،
504، 506، 514، 517، 519، 523،
525، 526، 528، 529، 534، 541 -
544، 549، 553، 556 - 560، 564،
565، 570 - 572، 575، 592، 595،
596، 598، 602، 606، 608، 610،
614، 616، 617 - 618، 620، 622 -
624، 626، 628، 647، 648، 652،
655، 656، 674، 677، 679، 681.

— و —

وصف أفريقيا (ليون الإفريقي): 23، 26،
126 - 128، 131، 141، 137، 253،
256، 294، 295، 306، 330، 366،
368، 369، 372، 373، 386، 389،
394، 406، 412، 416، 431، 432،
440، 448، 449، 458، 465، 467،
473، 480، 488، 510، 517، 518،
523، 524، 532، 535، 536، 537،
540، 543، 544، 553، 561، 562،
569، 591، 592، 640، 644، 652،
654، 657، 662، 663، 664، 668،
671 - 673، 675، 676، 678، 680،
682، 686، 688، 695 - 698.
وفيات الأعيان: 53، 54، 55، 69، 109،
208، 325، 326، 327، 329، 331،
332، 337، 339.
ولاية طرابلس (للزاوي): 205.

فهرس الكتب الأجنبية

- A -

Across the Libyan Desert: 128, 441, 444, 465, 501, 556, 558.
Across the Sahara: 547.
Additions aux Dictionnaires Arabes: 425.
Aereinnes de Sukna: 448, 456.
A history of Egypt: 269, 331, 661.
A history of Islam in west Africa: 341, 361, 365.
A History of the Jews: 591, 592.
Africains in muslim History: 660.
L'Afrique au Sud Sahara: 467.
L'Afrique moins l'Egypte: 366, 372, 392, 393, 473, 612, 635, 648, 649.
L'Afrique Saharienne: 129, 324, 481, 575, 580.
A la decouverte de fresque du Tassili: 579.
Ancient Ghana: 611, 612.
Animal Husbandry: 423.
Annales Tripolitaines: 17, 345, 375, 376, 692, 695.
Anthropologie et ethnologie: 492.
Apporoximatives: 588, 589.
A propos de la genèse: 477.
A propos du Nom de: oasis de Koufra: 499, 519 541.
Les Arabes en Berberie: 270.
Les arabes sur le Littoral Africain Medieval: 595.
Arabic External: 589.
Arabic External Sources: 100, 365, 369, 370, 393, 507.
Arbishe Berichte: 461, 463, 493, 494.
L'article: 441, 695.
Les Articles: 501.
Aspects de la Situation Economique: 270.
A travers le desert: 473, 502.

- B -

Back To nature: 86, 298.
Barthe d'Annelet: 680.
Bellum Africanum: 583.
Les Benou Ghanya: 316, 328, 329, 330, 331, 340, 342, 353.
Berbers: 281.

La Berbere est un pays European: 295.
Berberes et Arabes: 295.
La Berberie Musulmane: 88, 292, 387.
La Berberie orientale: 300.
Berbero: 443.

- C -

Le Califat Fatimide: 235, 236.
Carte des gisements auriferes: 647.
Carte in Ms. Moller: 467, 468.
Le chameau de l'Afrique: 583.
La chirurgie: 402, 624.
Citadins et grands nomades: 304.
Ciudades: 122.
La civilation du Tchad: 366.
Commentaires au Diwan Salatin Barnu: 361.
Contes Mysterieux de l'Afrique du Nord: 420.
Contes Sahariens du Souf: 420.
Contribution: 372, 413, 496, 532, 534, 537, 539, 545.
Coptic Etymalogical Dictionary: 509.
Corpus: 312, 324, 326, 366, 367, 368, 372, 463, 464, 466, 478, 497, 507, 513, 527, 545, 563, 593, 603, 606, 607, 614, 618, 627, 628, 640, 642, 645, 649, 650, 656.
Coutumes des Arabs: 420, 584.

- D -

Dans le Fiezzein inconnu: 571.
Das Nordafrikanische: 296, 305, 359, 390, 392, 395, 299, 405, 429, 486, 507.
Das Wegenetz Zentralen: 24, 511, 523.
De L'Origine: 270.
Description de l'Afrique: 294, 368, 369, 370 ,412, 432, 440, 467, 510, 636, 640, 644, 668, 654, 692, 694.
Description du Maghreb: 507.
De sedentarisatie: 278, 499.
Le Dernier Rapprt: 278, 419, 422, 489, 490, 597, 696.
Deux Villes: 397.
Dictionnaire détaillé de noms de vêtements: 395.
Dictionnaire etymologique de la langue copte: 509.
Dictionnaire - nord: 432, 433.
Dictionary of Arabic Topography: 381, 395.
Die grossen Ost-West-Karawanenstrassen: 466, 471, 490, 516, 556.
Dis post-und Reiserouten des orients: 515.
Diwan Salatin Barnu: 364, 482.
Le Djebel Nafousa: 412.
Un document: 408, 435.
Le droit: 45.
Droit et Economie en Afriqua: 299, 300, 590, 633, 660, 665, 670.
Da Niger au golfe: 683.
Du Nouveau sur Les Bani Hilal: 294, 299, 302, 304.

- E -

Ecology: 444, 488, 685.
La cite Musulmane: 62.
E.I.S.V. Liwat: 431.
E.I.S.V. Masjid: 426.
Emirat Aghlibide: 300, 431, 637, 660.
Les Empires du Mali: 372, 497, 530.
Enciclopedia universal: 635.
L'Etat Nord-Africain de Tahert: 471,

527, 540, 588, 591.
Etudes Magrebines et Soudanaises: 24, 105, 109, 121, 373, 404, 434, 435, 449, 455, 465, 466, 478, 487, 502, 522, 523, 529; 533, 527, 541, 543, 552, 566, 573, 587.
L'Exportation des Textiles occidentaux: 634.
Etudes Sur L'Islam et les Tribus du Soudan: 672.
Expression de la malediction: 433.
Extraites inedits: 528, 537, 591, 608, 616, 629, 647, 649, 652, 655, 665, 697.

- F -

Le Fezzan: 123, 442, 445, 664.
Fogoha: 456.
Les fondements Geographique: 302.
Fresques du Tassili: 564.

- G -

Garegaze, Zeven years: 676.
Geheimnisvolles Libyen: 448.
Gentlmen and officers: 93.
Gelukkig Libie: 480.
Geographie: 420, 437, 469, 471, 498, 514, 540, 617, 647.
Geographie Humaine: 123 276, 278, 360, 364, 373, 374, 442, 445, 457, 458, 480, 664, 697, 698.
La Geographie du Soudans: 529
La Giofra: 449, 446, 448, 456.
Grande Dizionario della Tarin: 635.
Gughrafiya: 376.

- H -

Hafsides: 292, 320, 352, 402, 423, 431, 438, 560, 601, 638, 642, 662.
Les Hakims: 181, 233, 238, 426.
Haut Senegal-Niger: 366, 369, 372, 413, 466, 528, 530, 534, 612, 673, 675.
Haywan: 423.
Les hierarchies sociales en pays Touareg: 496.
Histoire ancienne: 441, 481, 577.
Histoire de l'Afrique: 292, 326, 327, 434, 578, 580, 603.
Histoire des peuples D'Afrique Noire: 367, 372.
Histoire d'un pays Saharien: 365.
Histoires: 581.
History: 97.
Les Ibadites en Tunisie: 435.

- I -

Ibaditica: 181, 183, 233, 238, 250, 410, 426, 435, 461, 485.
Internal Spain: 326.
Introduction: 405, 417, 589.
Les Institutions Musulmanes: 99.
L'invasion Hilalienne: 301, 305, 661.
Islam et Capitalisme: 604.
L'Islam et la civilisation: 630.
Islamologie: 44, 87, 97, 326, 327, 372.

- J -

Journal de route: 128, 413, 419, 436, 439, 441, 457, 465, 490, 616, 692, 693, 694, 695.
Les Juifs au Sahara: 532.
Juifs Maghrebins: 593.

- K-

Kanem, Bornu and the Fezzan: 374.

Karmatihgdur: 272.

- L -

Lettres: 300, 302, 317, 319, 321, 389, 402, 566, 593, 594, 605, 624.
Les Liaisons terrestres: 501, 510, 695.
Linga italiana: 635.
Le livre des Avares: 422, 604.
Les Localités de Cyremaique: 307.

- M -

Maghreb in Islamicher Zeit: 24.
masters and pay over: 640.
Memoire sur les Races du Sudan: 637.
Mohamet: 87.
Monumenta: 614, 652.
Le Monument de Tinhinan: 537.
More Lost oasis: 501.
Mysteries of the Libyan Desert: 501.
Le Mythe de la Catastrophe: 293, 301.

- N -

Navrative of Travels: 123, 122, 132, 480, 547, 561, 562, 569, 604, 657, 676, 678, 684, 686, 687, 688, 693, 694.
Les Nomades Noirs: 362, 363, 495, 471, 482, 502, 510, 550, 584.
Notes Africaines: 546.
North Africa: 294.
North East Arbian Diabian Dialects: 509.
Nubian Fatimid Relations: 661, 670.

- O -

Le Oasi del Fazzan: 458, 485, 489.
Operations bancaires en Ifriqya: 321, 605.
L'Orient: 591.
L'orient Musulman: 97, 330, 402, 624.
L'origine du mot Amazig: 362.
Les Origines et l'Islamisation: 536, 537.
El Oudiane de nos Cartes: 305.
Les ouraghen: 478, 490, 699, 695.
Les Ouraghen de Kie Ajjer: 489.

- P -

Le passé de l'Afrique: 292, 584.
Pierres Precieuses: 645.
Price on silent Trade: 650.
Prophètes antimusulmans: 415.
Prophètes, devins et magiciens: 415, 416.
Le ultime oasi: 501, 555.
Unity: 317, 318, 319, 320, 321, 389.

- R -

La Realité de la Catastrophe: 293.
Recherches sur Takedda: 545, 546, 596, 647.
Recueil: 314, 324, 326, 368, 372, 386, 432, 463, 464, 466, 483, 488, 493, 496, 497, 498, 513, 527, 528, 533, 539, 540, 545, 551, 575, 592, 593, 603, 606, 609, 611, 614, 618, 621, 628, 633, 634, 637, 640, 644, 647, 649, 651, 652, 660, 675.
Reflexions sur la Symboise: 591.
Le Regime Juridique des Terres au Hoggar: 499.
Relations: 445, 472.
La Religion Musulmane: 99, 324, 326, 327.
Le Reliquie dei Garamanti: 481.
Remarks on lost oasis: 501.
Repartitions Geographique: 396, 401, 410, 428, 435, 469, 485, 560.

La Revolt des esclaces: 120.
Role de Dunqula et de Sawkin: 603.
Rome et les Berberes: 298, 481, 583.
Routes d'Egypte: 101, 333, 441, 445, 472, 501, 555, 561, 580.
Routier de l'Arfique: 524, 528, 536, 538, 540.
Un royaume Ibadite: 401.

- S -

Sagmara: 413.
Le Sahara: 110.
Sahara and Sudan: 363, 365, 368, 374, 448, 467, 487, 547, 552, 553, 561, 575, 641, 669, 670, 676, 678, 680, 683, 684.
Le Sahara Français: 372, 425, 494, 584, 641, 596, 659.
Sahariens et Sahiliens du Tchad: 361, 463.
Les Schismes: 99, 326, 327.
Les Siècles abscurs: 659.
Slavery: 300, 316, 442, 659, 663, 669, 672, 674, 676, 683.
Sources of Gold and Sivler: 647.
Storia di Tripoli e della Tripolitania: 17, 122, 289, 345, 358, 360, 375, 376, 379.
Sudanes Memoirs: 350, 363, 364, 366, 367, 369, 461, 463, 464, 488, 496, 545, 575, 637, 670, 672, 685, 692.
Supplément aux dictinnaires arabes: 395, 408.
Supra: 502, 563, 575, 593, 637, 661, 683, 692.
Sur la diffusion: 426, 469, 529, 535, 591.
Sur les esclaves-Tribut: 670.
Survivances: 416, 417, 419, 420.

- T -

Tableau Geographique: 106, 109, 115, 116, 126, 292, 321, 350, 372, 403, 441, 464, 465, 471, 473, 488, 494, 497, 501, 502, 518, 525, 526, 528, 531, 533, 535, 536, 537, 544, 546, 552, 575, 581, 585, 587, 591, 612, 625, 626, 627, 628, 636, 639, 646, 647, 649, 652, 663, 668, 679.
Takedda, Pays du Cuivre: 546.
Textes and studies: 592.
Textes arabes de Djidjelle: 433.
The Arabs and the Sudan: 613.
The Berbers in Arabis Literature: 330, 327.
The Camel in Romen North Africa and the Sahara: 583.
The Dawwadah of the Fezzan: 482, 492.
The early history of Kwar oasis: 549.
The Eastern Libyans: 417.
The E.W. Bovil golden trade: 564.
The Garamantes of Fezzan: 481, 581.
The Golden Trade: 122, 372, 578, 595, 641, 662, 667, 693.
The Great Arab Conquests: 99.
The Jewish Community: 591.
The Jews Sijiklmassa: 591.
The Military Interset of The Battle of Hydran: 281.
The Negroland: 496, 497, 528, 532, 545, 662.
The not-yet-Golden trade: 578, 581, 587.
The Roads of Libya: 481.
The secret of the Sahara: 556.
The Shell money of the slave: 473.
The Sultanate of Borno: 350.
The Temination: 47.

The unity of the Mediterranean: 594.
The Zughab at Tripoli: 294.
Les Touareg de l'Air: 583.
Les Touareg du Hoggar: 496, 499, 564, 580, 584, 664, 685.
Les Touareg du Nord: 115, 119, 125, 122, 278, 323, 363, 365, 374, 376, 413, 418, 419, 436, 439, 448, 482, 489, 490, 597, 617, 625, 643, 646, 658, 693, 694.
La Traite des Noirs: 100, 117, 120.
Traits d'histoire: 469, 537, 588, 591, 691.
Transformation: 659, 663, 674.
Transports automibiles: 372.
Travels and Discoveries: 314, 366, 369, 418, 436, 437, 439, 486, 493, 547, 564, 564, 569, 641, 673, 678, 683, 688, 693.
Tribes of the Sahara: 424, 423, 499.
Le Triomphe de Cornelius Balbus: 579.
La Tripolitaine interdite: 436, 437, 439, 696.
Tunisire du Sud: 124.

- V -

Vetements: 391, 549, 551, 633.
Vie de Caton d'utique: 583.
La vie quotidienne: 430.
Villages et Kasbas Berbers: 124.
Voyage au pays de la Senoussia: 502, 672, 695.

- W -

Wening bekannte Muslimische: 618.
La Wilaya: 320.

- Z -

Zirides: 273, 283, 284, 300, 319, 601, 604, 638, 642, 661, 690.

المحتويات

مقدمة المترجم 9
أعود إلى الموضوع 11
مقدمة 17

الجزء الأول

الأحداث

وصول العرب إلى أفريقيا 31
برقة 39
اتفاقية برقة 47
الصحراء بين برقة، وزويلة ـ ودان 75
الصحراء وزويلة 75
ودان 79
الولاة 83
عمرو بن العاص 83

عبد الله بن سعد بن أبي سرح 89
أزمة الخلافة 96
عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو واليا مصر. حملة عقبة
على فزان وكوار 104
معاوية بن خديج 145
ولاية عقبة بن نافع الفهري الأولى 146
أبو المهاجر 148
ولاية عقبة الثانية 149
أول رد فعل بربري، وولاية زهير بن قيس 150
رد فعل البربر الثاني، وولاية حسان بن النعمان 156
ولاية موسى بن نصير. نهاية الفتح 168
رد فعل الخوارج 173
في المشرق، في نهاية القرن السابع 173
طوائف الخوارج 175
الأزارقة والنجدات 177
الصفرية 178
الأباضية 179
بدايات الخوارج في أفريقيا الشمالية 185
ثورة ميسرة الصفرية 187
الخوارج في ليبيا 191
الثورة الأولى في طرابلس الغرب 191
مملكة أبي الخطاب المعافري (758 ـ 761ف) 194

آخر الثورات الأباضية في القرن الثامن 199

أفريقيا الشمالية من سنة 800ف إلى وصول بني هلال 207

القرن التاسع : مصر 207

الأدارسة في فاس 210

إمامة تاهرت 210

إمارة الأغالبة 216

طرابلس وليبيا الداخلية 217

العبيديون 229

ليبيا من 909ف إلى 1050ف حركات التمرد البربرية 236

بنو خزرون في طرابلس 244

الفاطميون والزيريون حتى وصول بني هلال 244

بنو خزرون، زناتة مغراوة 245

المناطق الصحراوية 250

بنو هلال وسليم 267

إبعادهم من مصر 267

وصول البدو العرب إلى أفريقية الشمالية 275

سقوط الزيريين، وظهور الموحدين 283

نتائج الحضور الهلالي في أفريقية 291

بنو هلال في الصحراء الليبية 303

ثلاثة أرباع قرن مع بني غانية، وقراقوش 323

بنو غانية وقراقوش في شمال أفريقيا 329

الموحدون 347

الولاة وأوائل الملوك الحفصيين 348
نتائج حركة بني غانية وقراقوش: في أفريقية والمغرب 350
ليبيا بعد قراقوش وبني غانية 358
الصحراء الكانمية 361

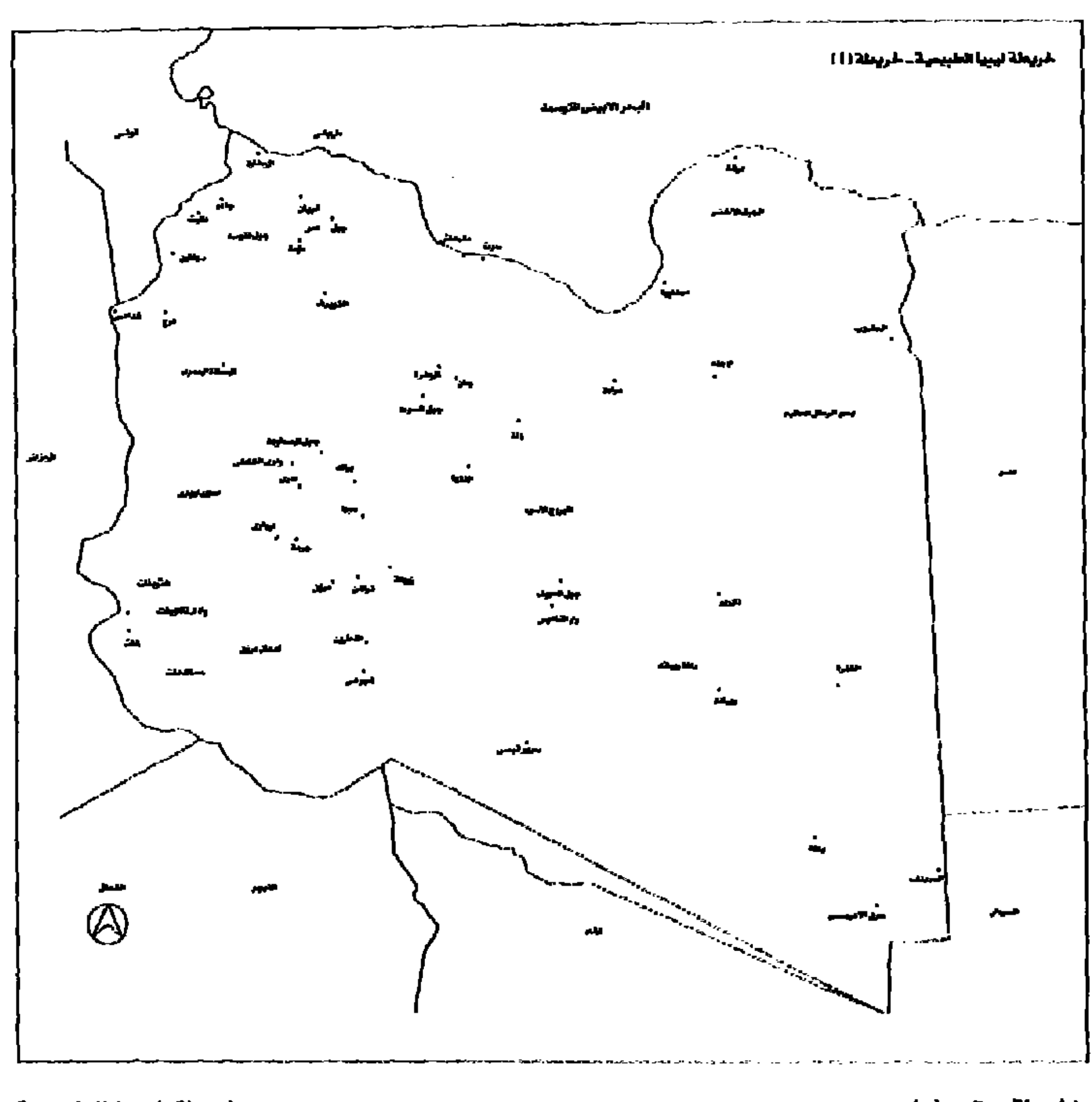
الجزء الثاني

الواحات
المسارات الصحراوية
التجارة والتجار

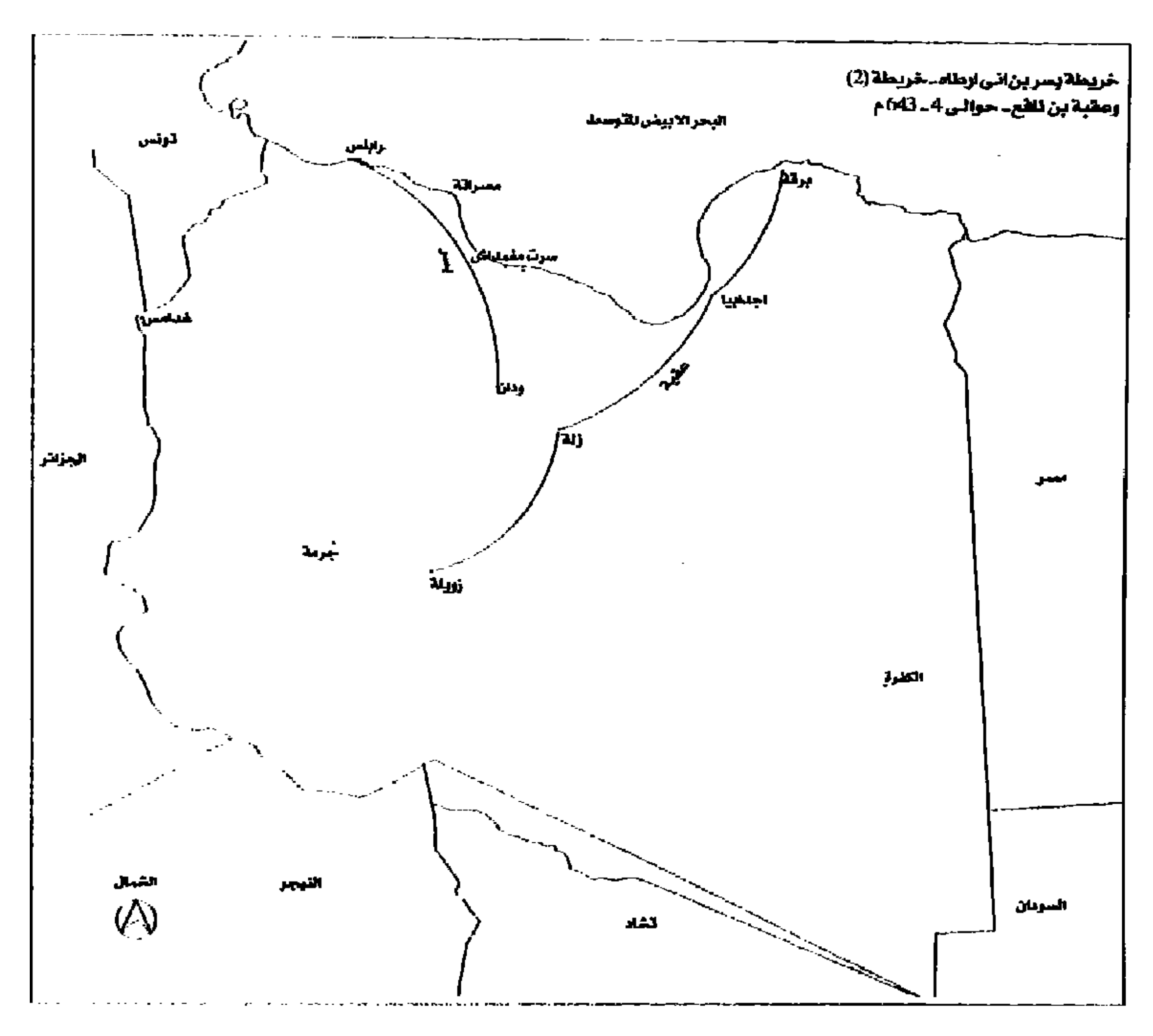
الواحـات 379
لك 379
طبرق ودرنة 380
برقة 380
أجدابيا 396
سرت 400
شروس وجادو (جبل نفوسة) 407
غدامس 433
أوجلة 441
تاقرفت 444
زلة 445
ودان والجفرة 447
الفقها 456
تمسة 457
زويلة 458

سبها ... 480
جرمة وفزان ... 480
غات ... 488
الكفرة/ ص. برو ... 499
المسـارات ... 511
المسالك الليبية ... 555
التجارة والتجار ... 577
تنظيم التجارة ... 590
مخاطر الأسفار ... 605
المنتجات المصدرة ... 621
منتجات التربة والرعي ... 621
الزجاج والرصاص والنحاس ... 626
الصوف والحرير والملابس ... 629
الأسلحة ... 634
الخيول ... 635
الجلد المدبوغ والجلود الخام ... 637
الملح ... 639
السلع المستوردة ... 643
العاج ... 643
الأحجار الثمينة ... 645
الذهب ... 645
الرقيق ... 657
خاتمة ... 699
المراجع ... 713

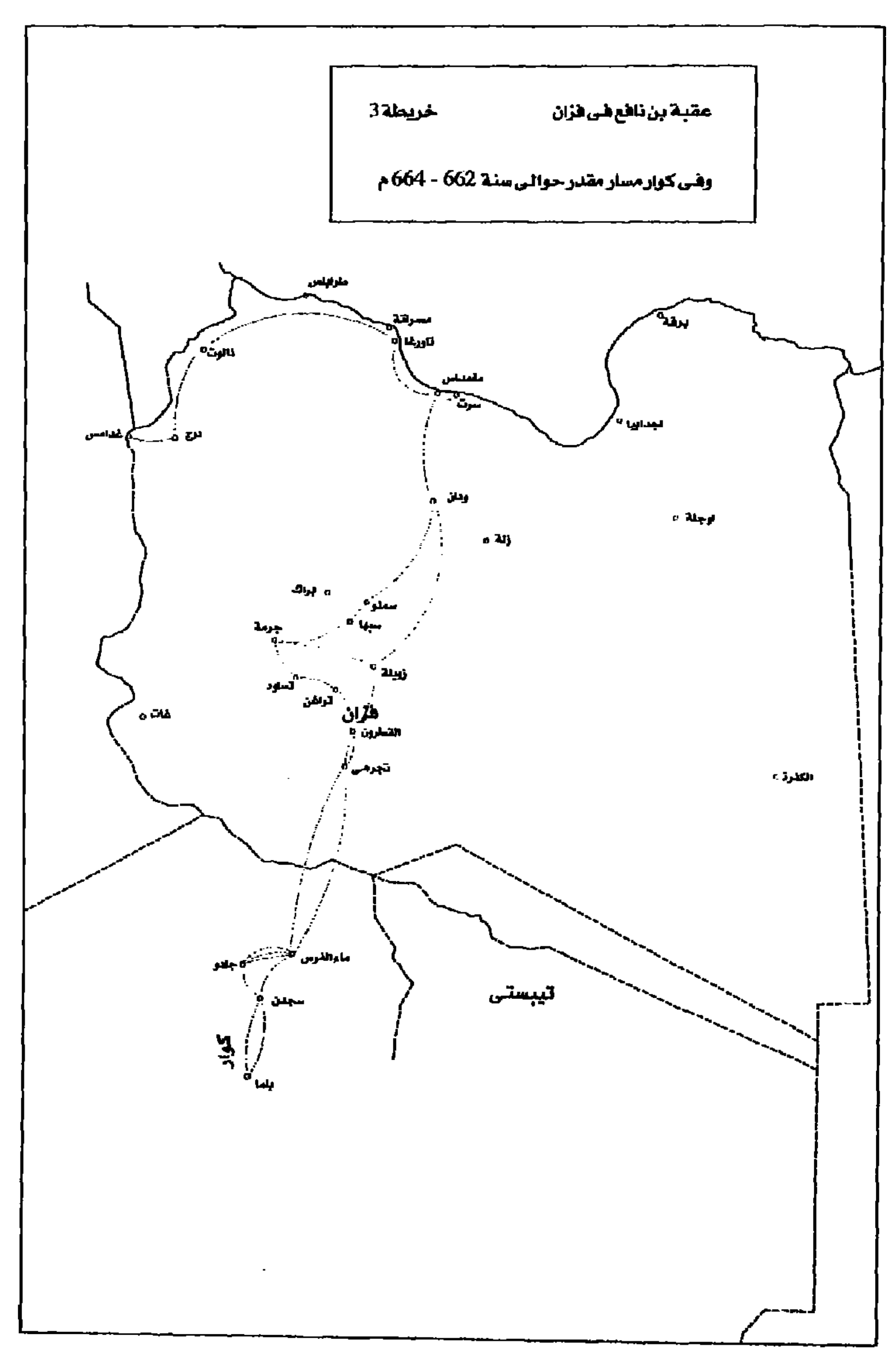
الفهارس 753
فهرس الأعلام العربية 755
فهرس الأعلام الأجنبية 773
فهرس الأمم والفرق والقبائل والجماعات 781
فهرس الأماكن 797
فهرس الكتب العربية 829
فهرس الكتب الأجنبية 837
فهرس المحتويات 843



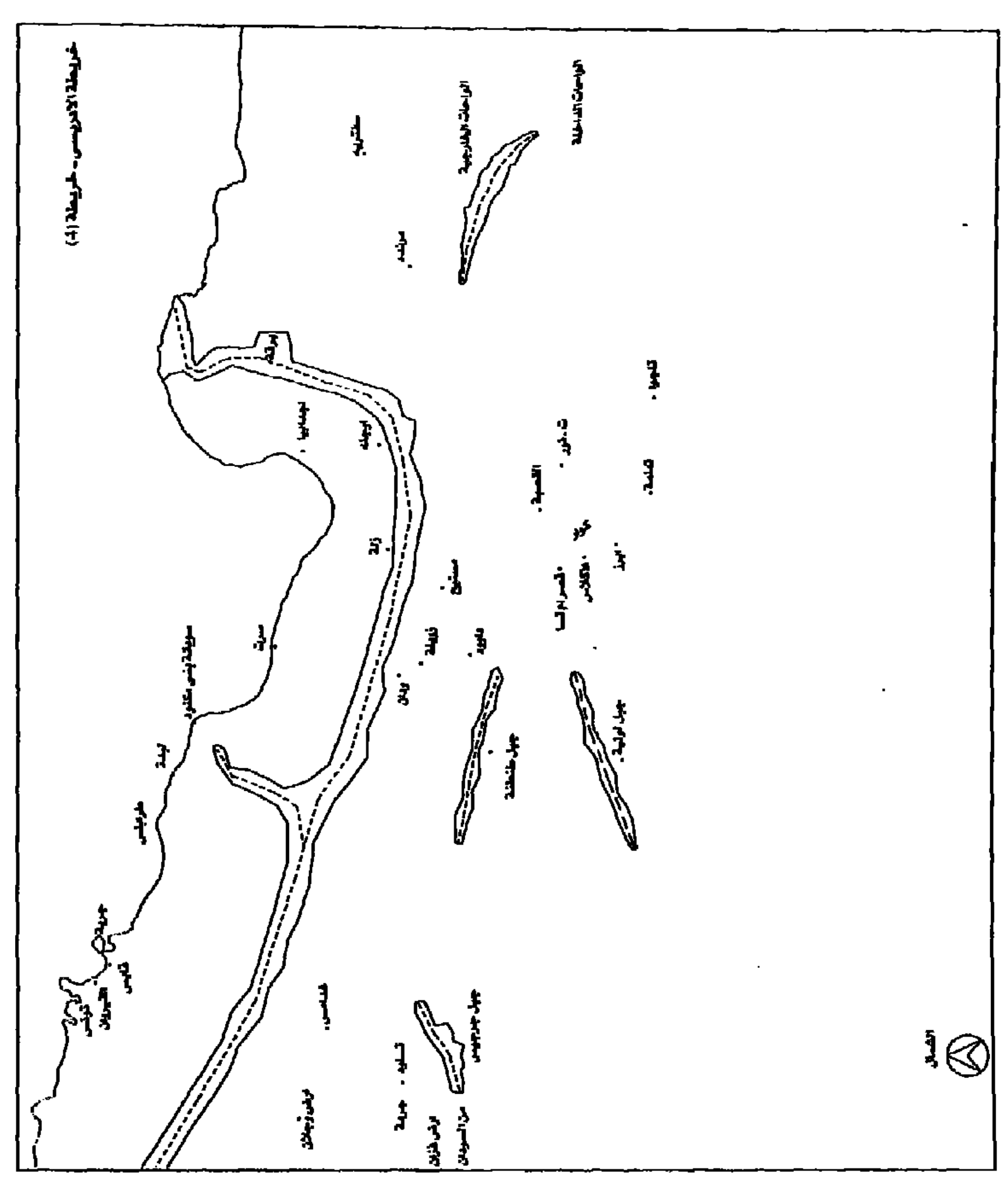
خارطة رقم (١) خريطة ليبيا الطبيعية



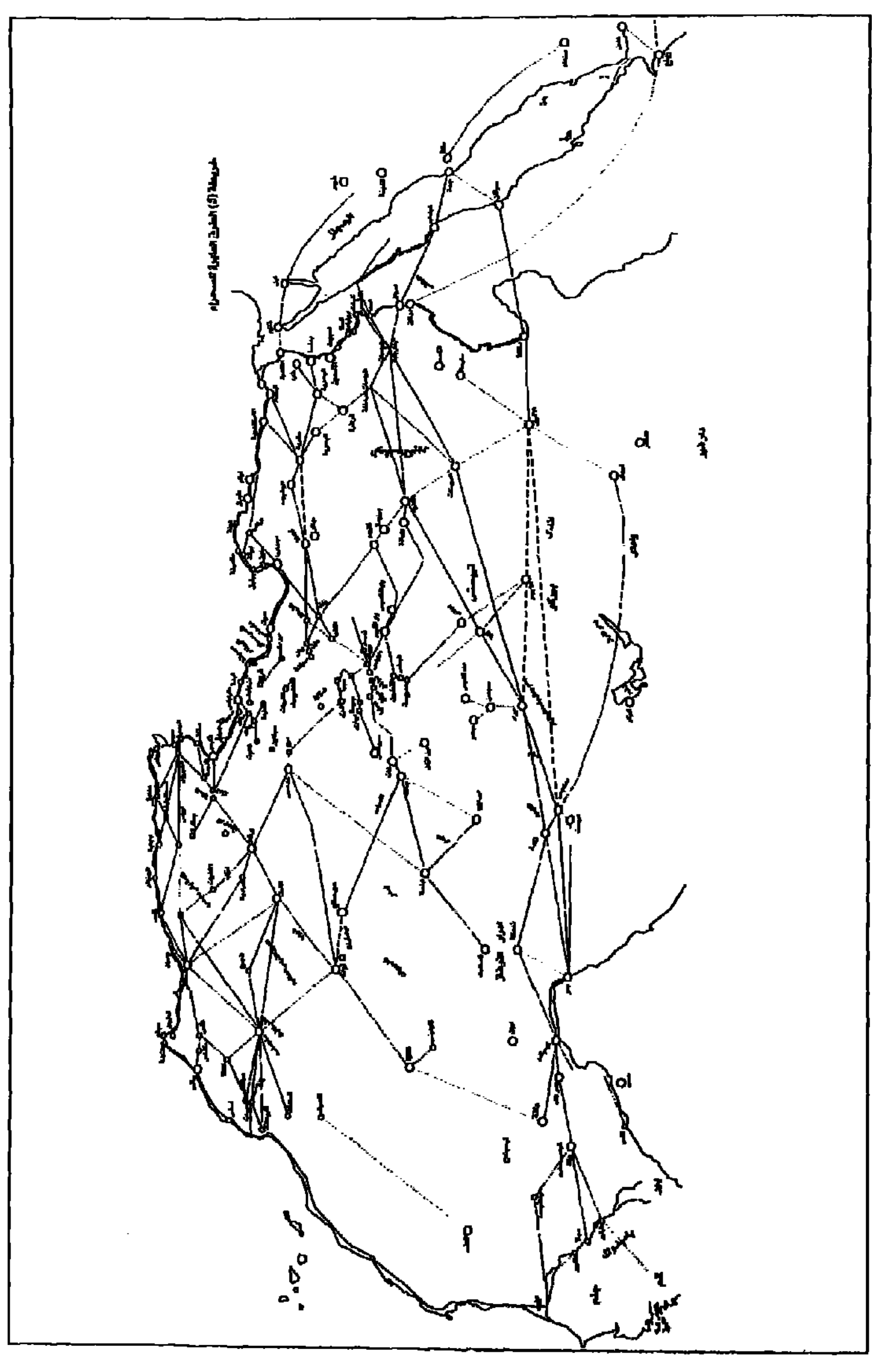
خارطة رقم (2) خريطة بسر بن ابي أرطاه وعقبة بن نافع - حوالى 4 - 643ف



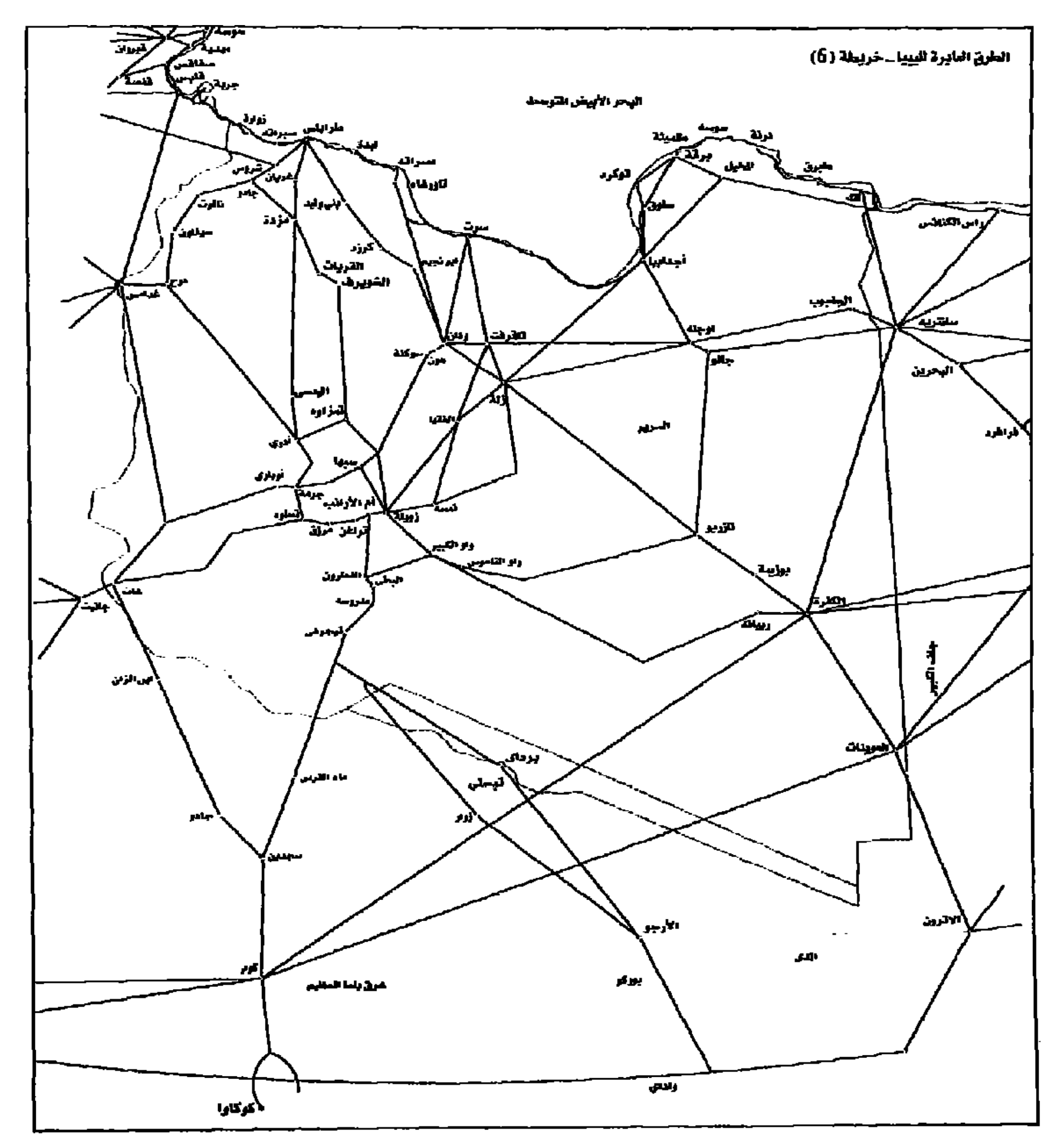
خارطة رقم (3) عقبة بن نافع في فزان وفي كوار مسار مقدر حوالى سنة 662 ـ 664ف



خارطة رقم (4) خريطة الإدريسي



خارطة رقم (٤) الطرق العابرة للصحراء



خارطة رقم (6) الطرق العابرة لليبيا



جاك تيري

تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى

ORIENTALIA LOVANIENSIA ANALECTA

Le Sahara Libyen dans l'Afrique du Nord Médievale

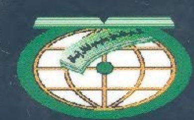
JACQUES THIRY

PEETERS

ترجمة : جاد الله عزوز الطلحي



ISBN 9959-0-0172-5
9 789959 001726



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL - JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING
E-Mail: daraljamahiriya@maktoob.com
مصراتة: ص.ب. 1459 هاتف: 614658 - 051
بريد مصور : 619410 - 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى